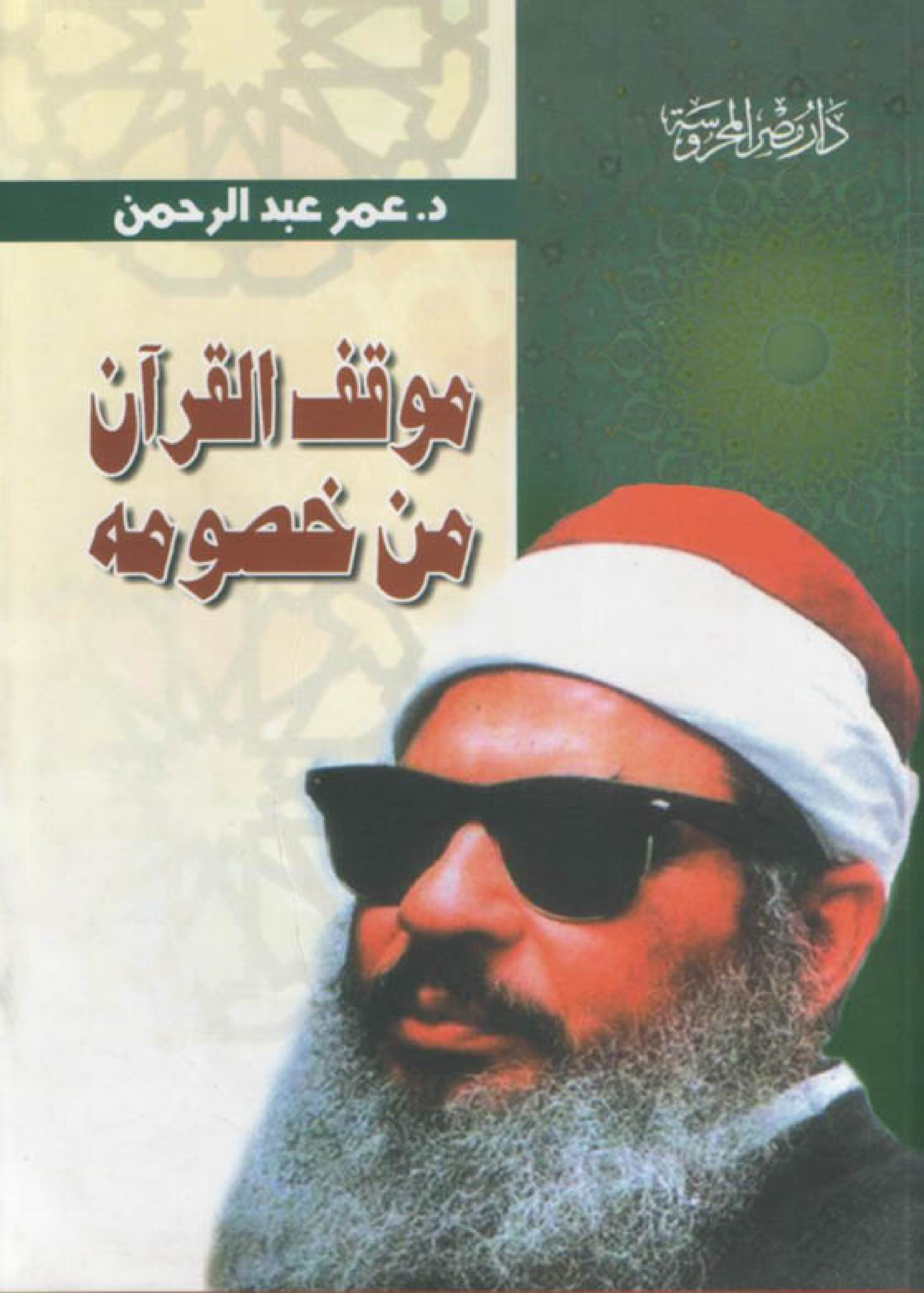

دار مصر المحروسة
د. عمر عبد الرحمن
موقف القرآن
من خصومه

موقف القرآن من خصومه

الكتاب :	موقف القرآن من خصومه
المؤلف :	د. عمر عبدالرحمن
الطبعة الأولى :	القاهرة ٢٠٠٦
الناشر :	دار مصر المحروسة
المدير العام :	خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع :	يحيى إسماعيل
المراجعة اللغوية :	أحمد سعيد
الغلاف :	علاء قابيل
الإخراج الفني :	أحمد صلاح
رقم الإيداع بدار الكتب :	٢١٧٥٤/ ٢٠٠٥

١٢ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة

تليفون - فاكس: ٣٩٦٠٥٠٠

d_misr_elmahrosa@hotmail.com

موقف القرآن من خصومه

د. عمر عبد الرحمن



مقدمة

مراحل الدعوة والجهاد السابقة



لمعرفة الوضع التاريخى الذى نزلت فى جوه سورة التوبة، والذى يعين على فهم المقصود منها، نرى أن نعوض سراعا للمراحل العملية للدعوة والجهاد من وقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الذى نزلت فيه، لنعرف منه كيف تدرجت حالة المسلمين إلى ما يستدعى هذا العلاج الذى قامت به تلك السورة، ووضعت أحكامه ومبادئه فيما يختص بالأساس النهائى الذى يستقر عليه الأمر فى معاملة المشركين وأهل الكتاب فى جزيرة العرب، وفيما يختص بالتنبه واليقظة بالنسبة لما يتخلل الدولة من عناصر التخذيل والنفاق فى كل وقت وفى كل مكان.

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته فى مكة بأنه رسول الله، يدعو الناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعدل والإحسان وسائر العمل الصالح، وقد تدرج فى دعوته من السرية إلى الجهرية فقابله قومه بالإنكار، وساوموه على ترك العبادة بما يطيب له، ثم انطلقوا معه إلى العنف والاضطهاد. وقد دون التاريخ من حوادث التعذيب والإيذاء له ولمن يلبى دعوته ما تقشعر من ذكره الجلود، وظل بمكة ثلاث عشرة سنة يعانى منها هو وصحبه ما يعانى من ألوان العذاب وصور التنكيل، وأخيرا اعتزموا قتله بطريقة تفرق دمه فى القبائل ، فهيأ الله له سبيل الهجرة إلى المدينة التى انتقلت دعوته إليها بواسطة الوفود، وأخذت تسرى فى القلوب بما تحمل من جلال وجمال، حتى كونت لها من شباب المدينة أنصارا أرباب قوة وفتوة، عاهدوا الرسول على الموت فى سبيل نصرته ونشر دعوته، وبهذه الهجرة سقط فى أيدى المشركين وتضاعف حقدهم على محمد وأصحابه الذين نجوا من الفتك بهم بعد أن هيأوا فرصته واتخذوا عدته.. سقط فى أيديهم وطاشت عقولهم، وأخذوا يبعثون عيونهم للتجسس على محمد وأصحابه، ومعرفة ما عساه أن يكون منهم بعد أن أخرجوا من مكة والتقوا مع أنصارهم بالمدينة، وبذلك صار شأن محمد شغلهم الشاغل الذى لا ينامون عنه ولا يطمئنون إليه، وبخاصة حينما علموا أنه استقر بالمدينة التى تأخذ عليهم طريقهم فى تجارتهم إلى الشام. هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن فى مكة طالب سلطان وملك حتى يكتفى بسلطان المدينة وملكها، وإنما كان صاحب الدعوة الإلهية العامة التى تهدف - من أول رسول بعثه الله إلى خلقه - إلى إقرار توحيد الله فى القلوب والقضاء على الشرك، وتركيز عناصر الخير والعدل بين الناس جميعا. هاجر إلى المدينة وهذه دعوته، فتلقاه أنصار بايعوه على النصرة

وعلى السمع والطاعة، وترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله بنشر دعوته على عباد الله، وخلفوا فى مكة - بين المشركين أرباب القلوب القاسية - إخوانا لهم ملأ الإيمان قلوبهم، ولكن قعد بهم ضعفهم المادى عن الهجرة مع إخوانهم فى الله حتى صارت دعوتهم الوحيدة (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) (١)

وبحكم هذا الوضع لا يمكن أن تكون الحالة بينه وبين مشركى العرب إلا حالة حرب وتربص، لا يألو فيها أحد الطرفين جهده عن الفتك بصاحبه والقضاء عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومن هنا نشأت تحرشات واستطلاعات وتكتلات جزئية، هى أشبه فى وقتنا الحاضر بالكتائب التى تبعث لأغراض خاصة، ليس من مهمتها أن تشتبك فى حرب حقيقية مع العدو.

وظل الأمر كذلك حتى هيأ الله بهذه المناوشات للمسلمين فى السنة الثانية من الهجرة غزوة بدر التى زلزلت عناصر الشرك ووضعت حجر الأساس فى بناء الدولة الإسلامية، وقد نزلت فى هذه الغزوة أولى سور الغزوات، وهى سورة الأنفال التى تلتها مباشرة فى الترتيب المصحفى سورة التوبة، وبغزوة بدر استمرت رحا الحرب دائرة بين المسلمين والمشركين وكان من أهم الوقائع بعدها غزوة أحد التى أوقد المشركون نارها فى السنة الثالثة أخذا بثأر بدر، وقد ابتلى الله فيها المؤمنين وألقى عليهم بها درسا فى حروبهم التالية، وبهذا الاعتبار كانت نصرا فى معناها، وإن كانت هزيمة فى صورتها، وقد تحدثت عن هذه الغزوة سورة آل عمران.

ومرت السنة الرابعة، وجاءت بعدها السنة الخامسة وفيها تحالف مع قريش عدة قبائل من المشركين وبعض طوائف اليهود على حرب رسول الله وكانت غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق وقد جاء الحديث عنها فى سورة الأحزاب، ومما يروى فى هذا المقام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى نهاية تلك الغزوة (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا) وقد كان ذلك من نور النبوة الذى كان يخبر به عليه الصلاة والسلام عن أحداث المستقبل، وقد جاءت السنة السادسة تحمل فى جوفها صلح الحديبية وذلك حينما قصد النبى ومعه المسلمون مكة لأداء العمرة، فمنعهم المشركون من دخولها، ودارت بين الفريقين مفاوضات انتهت بالصلح على وضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنوات - وبشروط: أن يرد المسلمون إلى قريش من يجيء منهم مسلما دون أن يلزم المشركون برد من يجيؤهم من المسلمين، وأن يرجع المسلمون عن دخول مكة فى هذا العام إلى العام المقبل وأن من أراد أن يدخل فى عهد أحد الطرفين من العرب دخل فيه. فدخلت بهذا الشرط خزاعه فى عهد الرسول، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وعلى هذه الشروط رجع المسلمون وفى قلوبهم ما فيها من قسوة هذه الشروط عليهم ولكن الله قد شرح صدورهم وطمأنهم على مستقبلهم وأنزل عليهم فى هذا الصلح سورة الفتح.

ومضت السنة السابعة وقضى المسلمون فيها العمرة، وطافوا بالبيت آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وبذلك تحققت رؤياه عليه السلام وعرف المؤمنون نعمة الله عليهم.

وما كانت تنتهى السنة الثامنة حتى عدا البكريون حلفاء قريش على الخزاعيين حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، واستعانوا فى حربهم بأوليائهم من قريش فأمدتهم قريش سرا بالعدة والرجال (وهنا استنجد الخزاعيون حلف رسول الله، ورأى الرسول أن ذلك من قريش نقض للعهد، وبذلك عادت حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، فجهز النبى جيشه، وأخذ عدته لفتح مكة، وفى زلة حاطب بن أبى بلتعة قبل خروج الجيش من المدينة، وقد بعث بخطاب إلى قريش مع ظعينه مسافرة إليهم يخبرهم بما أجمع عليه النبى أمره من نجدة الخزاعيين وفتح مكة فأنزلت أول سورة الممتحنة.

وبفتح مكة تقلمت أظفار الشرك وخضعت قريش لمحمد وأصحابه ولكن لا يزال للشرك فى جزيرة العرب دعاة وأنصار، تتزعمهم ثقيف وهوازن من قبائل العرب، هالهم أن يفتح محمد مكة ويخشوا عاقبة ذلك على أنفسهم، وعقدوا أمرهم بينهم على غزو المسلمين قبل أن يغزوهم وجمعوا لهم من كل صوب، فخرج النبى إليهم بجيش جرار فيه ألفان من أهل مكة، حتى وصل حنينا (واديا قريبا من الطائف) وقد داخل بعض جيش المسلمين شىء من الغرور لكثرة عددهم، فأصيب بهزيمة، ثبت فيها الرسول، شأنه فى كل المواقع الحربية، وحملوا على الأعداء حملة واحدة تفرق بها المشركون شذر مذر، وتم النصر لأولياء الله وبالقضاء على ثقيف ومن معهم من هوازن فى غزوة الطائف التى أعقبت غزوة حنين هذه، تمت الكلمة فى جزيرة العرب لدين الله.

هذا هو وضع المشركين بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من وقت البعثة إلى وقت الفتح الأكبر، بل إلى ما بعده كما أرشدت إليه حوادث ما بعد الفتح وهو وضع المحاربين الناكثين الشامتين العاملين على هزيمتهم فى كل وقت وبكل مناسبة.

وإذا كان هذا هو وضع المشركين بالنسبة للنبى وصحبه، فقد كان وضع أهل الكتاب ـ بالنسبة للمؤمنين من يوم أن استقرت أقدامهم فى المدينة ـ لا يقل عن وضع المشركين إن لم يكن أشد منه ظلما وأعظم طغيانا وأبعد خيانة، فقد عاهدهم النبى صلى الله عليه وسلم من يوم أن دخل المدينة على حرية التدين، وعلى الأمن والاستقرار وألا يعينوا عليه عدوا، ولكن ما لبثوا أن نقضوا العهد وظاهروا المشركين فى حروبهم للنبى، وكان بنو قينقاع أول طائفة منهم نقضت العهد، وأظهرت البغى والعدوان بانتهاك حرمة سيدة من نساء الأنصار، وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة عقب غزوة بدر، ودعا النبى رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى إن استمروا، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم قوم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا، لعلمت أننا نحن الناس، وقد تشبث بحلفهم ابن أبى، وقال: إنى رجل أخشى الدوائر، وقد انتهى أمر حصارهم بجلائهم إلى أذرعات (قرية بالشام) كما انتهى أمرهم بالهلاك العام.

ثم تلا بنى قينقاع فى نقض العهد بنو النضير، حينما دبروا اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى ديارهم فطلب منهم الرسول الجلاء عن المدينة كما جلا عنها بنو قينقاع، وقد أرسل إليهم ابن أبى يشجعهم على البقاء، فنزلوا على وعده وأبوا أن يخرجوا حتى دهمهم النبى وشتت شملهم، وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الرابعة وفيهم نزلت سورة الحشر

وصنع مثل صنيع هؤلاء وهؤلاء بنو قريظة، وقد قبلوا حكم سيدهم سعد بن معاذ فيهم فحكم بقتلهم، وهكذا تتبع المسلمون بقية اليهود فى الجزيرة حتى أبادوا منهم من أبادوا، وشتتوا من شتتوا، وبذلك نكست فى جزيرة العرب راية اليهود، كما نكسّت فيها راية المشركين.

وبعد ذلك توجه المسلمون للقصاص من الروم، إذ قتلوا الرسول الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى ملك الروم، يدعوه فيه إلى الإسلام ويحمله ـ إن تولى ـ إثم الرعية فجهز النبى جيشه وأنفذه إليهم، وكانت موقعة حامية هى موقعة مؤتة بالشام استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين، ولولا مكيدة حربية ألهم بها خالد بن الوليد ما نجا من الجيش أحد، وكان ذلك فى السنة الثامنة قبل فتح مكة، كما كانت هذه الغزوة أولى الغزوات بين المسلمين والروم، وفى السنة التاسعة تتابعت الأخبار بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم، فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه فى بلده، ولما وصل إلى تبوك وجدهم قد عدلوا عن فكرتهم فأقام هناك عدة أيام عاهد فيها بعض الأمراء بقصد تأمين الحدود بينه وبين الروم، ثم عاد إلى المدينة وهو يفكر فى أمر الروم اعتقادا منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين فجهز الجيش الذى أنفذه من بعده صلى الله عليه وسلم خليفته الأول أبو بكر رضى الله عنه.

وقد منيت الدعوة بجانب هؤلاء وهؤلاء بطائفة ثالثة، فاحت رائحتها الكريهة عقب أن استقرت قدم النبى صلى الله ليه وسلم وأصحابه بالمدينة، وهم المنافقون، فقد استجاب لدعوته صلى الله عليه وسلم من أهلها من لم تكن لهم مصلحة دنيوية تحجب عن بصائرهم نور الإسلام أما الذين لهم هذه المصالح فقد تظاهروا بالدخول فى الإسلام وكانوا نواة لجماعة المنافقين، وظل الخوف على هذه المصالح يشعل نار الحقد فى قلوبهم، حتى بدا ذلك فى ميولهم إلى المشركين لأول موقعة حربية وهى غزوة بدر «إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم» (٢) تهكموا من أن يخرج المؤمنون مع قلتهم وضعف عدتهم إلى المشركين مع كثرتهم فى العدد والعدد، ثم توالت الوقائع بين المسلمين والكفار: مشركين وأهل كتاب، ولم يترك المنافقون فيها فرصة يلحقون فيها الأذى بالمسلمين إلا انتهزوها، كما لم يفتهم أن يكون لهم مع الكفار ضد المسلمين ضلع فى كل موقعة منها، فكان لهم مع المسلمين شأن عام يثيرون به الفتن عليهم، وكان لهم شأن خاص فى غزوة أحد، تحدثت عنهم فيه سورة آل عمران، وفى غزوة بنى النضير تحدثت عنهم فيه سورة الحشر، وهكذا استمر شأنهم مع المؤمنين وتحدثت عنهم كثير من سور القرآن، وقد يكون ما جاء عنهم فى السورة التى سميت باسم (المنافقون) أقل مما جاء عنهم فى غيرها، واستمر شأنهم هكذا إلى أن استنفر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى غزو الروم فتجلت نياتهم الفاسدة وظهرت فى أقبح صور العداء.

ويمكن إجمال الواقع التاريخى لحالة الجزيرة العربية سنة تسع من الهجرة وما قبلها فى نقاط رئيسية نذكرها فيما يلى:

أولا: لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركين عهود، ولم يكن المشركون يحافظون على

عهودهم إلا ريثما تلوح لهم الفرصة يحسبونها مواتية للكرة على المسلمين. وكان المشركون - حتى بعد فتح مكة - يطوفون بالبيت عرايا على عادتهم فى الجاهلية ويصفقون ويصفرون مخلين بكرامة البيت العتيق، محتمين بتلك العهود (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)[٣].

وكان وجود المشركين فى الجزيرة العربية بعد غلبة المسلمين عليها واعتبارها مهد الإسلام ومحصنة وقاعدة الدعوة ومثابة العقيدة، كان وجود المشركين فى الجزيرة تهديدا دائما للعقيدة الجديدة ولأهلها الذين اتجهت إليهم الأنظار وأخذ الروم يجهزون جيوشهم على أترافها قبيل غزوة تبوك بعد الفتح، فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام، وأن تتخلص من الشرك، وأن تنتهى العلاقات والعهود بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين فى الجزيرة كافة.

ثانيا: كذلك كانت فى الجزيرة من أهل الكتاب جماعة انحرفت عن كتابها - سواء فى ذلك اليهود والنصارى وأشركت بالله بعض خلقه، ومنهم من كان شوكة فى ظهر المسلمين، ومنهم من حرض على المسلمين، ومنهم من حالف على المسلمين، فلم يكن بد كذلك من تطهير الجزيرة من هذا اللون من الشرك ومن تأمين ظهور المسلمين وحماية المعسكر الإسلامى من الجاسوسية والدسيسة.

ثالثا: وكان هناك منافقون يظهرون الإسلام، وهم حرب عليهم، كانوا دسيسة فى صفوف المسلمين تخزلهم وتنشر القلق والاضطراب بينهم، فلم يكن بد أن يكشفهم الله للمسلمين، وأن يحذرهم كيدهم، وأن يأمر الرسول أن يعزلهم ويأخذهم بما تتكشف من تدبيراتهم، إذن فلا مفر من تحديد حاسم لموقف المسلمين من المنافقين.

رابعا: والجهاد هو الوسيلة الوحيدة لتطهير الجزيرة من هذا الرجس كله، ومن ثم فليدع - الناس قاطبة إلى الجهاد الشامل بالنفس والمال، وليبين شرفه وأجره، ولينح باللائمة على المتخلفين القاعدين، وليكن من قبل ذلك ومن بعده استجاشة لوجدان المسلمين إلى قتال الكفار والمنافقين بما اقترفوه من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم وتمنى الشر لهم، وما تحمله له نفوسهم من الخصومة والبغضاء وما وقع منهم للرسول ومن معه من المؤمنين.

فى هذا الجو، ولمعالجة هذا الوضع الذى سار إليه المسلمون وتخليصهم من آثار الشرك والمشركين ومفاسد أهل الكتاب وذبذبة المنافقين، نزلت سورة التوبة ترسم للمؤمنين ما يتخذونه أساسا لدولتهم، ومنهاجا لحياتهم، حتى يستقر حكمهم ويتركز سلطانهم وتتوطن سيطرتهم على الجزيرة وتستمر عزتهم وكرامتهم بقوى الخير الخالصة والإيمان القوى.

والواقع أن من يتدبر هذه السورة يجدها ترسم للمؤمنين الصادقين خطط حياتهم بالنسبة للمشركين وبالنسبة لأهل الكتاب، وبالنسبة للمنافقين، وترسم لهم المثل الأعلى ليكون هدفهم فيما يختص بأنفسهم وقيامهم بالإصلاح الإلهى للعالم كما هو مقتضى الإيمان، وقد تناولت السور هذه الأغراض موجزة فى بعضها، مسهبة مفيضة فى بعضها الآخر، إفاضة لم تعهد فى غيرها لاسيما موقف المنافقين، وبذلك يكون موضوع السورة الرئيسى هو: القول الفصل فى علاقة الأمة المسلمة بغيرهم، وتحديد موقفهم الحاسم الأخير من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين.

عرض وتقسيم السورة

وإذا استعرضنا سورة التوبة وجدناها تنقسم إلى مقاطع ستة، متضمنة مواضيعها الرئيسية وقد تضمنت السورة فى المقطع الأول منها - من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين - تحديد العلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامى والمشركين عامة فى الجزيرة العربية، مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التى يقوم عليها هذا التحديد، بالأسلوب القرآنى الموحى المؤثر وفى تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة عميقة التأثير. وظاهر من الأسلوب القرآنى فى هذه الآيات ومن القوة فى التحضيض والتأليب على قتال المشركين ومقاطعتهم فى الجزيرة قاطبة مدى ما كان يعتلج فى نفوس الجماعة المسلمة - أو فريق منها على الأقل له وزنه - من التحرج والتخوف والتردد فى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة فى ذلك الحين، بسبب عوامل شتى نرجو أن نكشف عنها.

أما المقطع الثانى فى السورة: فقد تضمن تحديد العلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة، مع بيان الأسباب العقيدية والتاريخية والواقعية التى تحتم هذا التحديد، وتكشف كذلك عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا بما يجعلهم فى اعتبار الإسلام ليسوا على دين الله الذى نزله لهم، والذى به صاروا أهل كتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر.. فذوقوا بما كنتم تكنزون) من آية ٢٩ - ٣٥ وظاهر كذلك من الأسلوب القرآنى فى هذا المقطع أنه مواجهة لما كان فى النفوس يوم ذاك من تهيب وتردد فى مواجهة أهل الكتاب عامة - أو الغالبية العظمى منهم - بهذا اللون من العلاقات التى تنص عليها الآية الأولى فى المقطع. وحقيقة أن المقصود - كان - بالمواجهة ابتداء هم الروم وحلفاؤهم من نصارى العرب بالشام وما وراءها، وهكذا وحده كان يكفى للتردد والتهيب لما كان للروم من بأس وسمعة تاريخية بين أهل الجزيرة، ولكن النص عام فى أهل الكتاب عامة ممن تنطبق عليهم الأوصاف الواردة فى الآية.

وفى المقطع الثالث: يبدأ النهى على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزوة فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن النفير وهولاء ليسوا كلهم من المنافقين، كما سيتبين، مما يشى بمشقة هذه الخطوة وهذه الغزوة على النفوز فى ذلك الحين للأسباب التى نرجو أن نفصلها بإذن الله (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض.. ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون) ٣٨ - ٤١ وظاهر من صيغ التأنيب والتهديد والتوكيد المكررة فى هذا المقطع ومن تذكير الذين آمنوا بنصر الله للرسول صلى الله عليه وسلم إذ أخرجه الذين كفروا، دون أن يكون لأحد من البشر مشاركة فى هذا النصر، ومن الأمر الجازم لهم بأن ينفروا خفافا وثقالا.. ظاهر من هذا كله ما كان فى الموقف من مشقة ومن تخلف ومن قعود ومن تهيب ومن تردد، اقتضى هذا الحشد من التأنيب والتهديد والتوكيد والتذكير والأمر الشديد.

ثم يجىء المقطع الرابع فى سياق السورة - وهو أطول مقاطعها، وهو يستغرق أكثر من - نصفها - فى فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم فى غزوة تبروك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم

ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف، وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المؤمنين، يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء، والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله وهذا القطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة، ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك - ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة - ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ويحلفون بالله أنهم لمنكم - ومنهم من يلمزك فى الصدقات - ومنهم الذين يؤذون النبى - يحلفون بالله لكم ليرضوكم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة - المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض - ومنهم من عاهد الله - الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات - فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله.. فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) من آية ٤٢ - ٩٦. هذه الحملة الطويلة الكاشفة تشى بما كان للمنافقين فى هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته، كما أنها فى الوقت ذاته تكشف عن حالة من الذبذبة وعدم التناسق فى التكوين العضوى للمجتمع الإسلامى فى هذه الفترة يشير إليها قول الله سبحانه (وفيكم سماعون لهم) كما يشير إليها النهى المشدد عن الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم.. هذه الحالة التى نشأت عن دخول جماعات كثيرة فى الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم، ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامى الصحيح.

والمقطع الخامس فى سياق السورة هو الذى يتولى تصنيف المجتمع المسلم إلى جماعات متنوعة وهى التى كان المجتمع يتكون منها فى هذه الفترة، ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار (وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية) جماعات أخرى.. الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان، والمنافقون من أهل المدينة، وآخرون خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ولم يصهروا فى بوتقة الإسلام تماما، وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها، متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها، ومتآمرون يتسترون باسم الدين، والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد، وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم، وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم (الأعراب أشد كفرا ونفاقا - والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار - وممن حولكم من الأعراب منافقون وآخرون اعترفوا بذنوبهم - وآخرون مرجون لأمر الله - والذين اتخذوا مسجدا سرارا) من آية ٩٧ - ١١٠ وظاهر من تعدد الطوائف والطبقات والمستويات الإيمانية فى المجتمع المسلم – كما تصفه هذه النصوص - مدى الخلخلة التى وجدت فيه بعد الفتح، مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبل فتح مكة.

والمقطع السادس فى سياق السورة يتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد فى سبيله وطبيعة هذا الجهاد وحدوده، وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب

فيه وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه وضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين، وفى ثنايا هذا المقطع يرد بيان لما قضى الله به فى شأن بعض الذين تخلفوا عن الغزوة مخلصين غير منافقين ووصف لبعض أحوال المنافقين وموقفهم تجاه ما يتنزل من القرآن الكريم (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار ـ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ـ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذى يلونكم من الكفار) من آية ١١١ ـ ١٢٧.

وفى النهاية تختم السورة بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبتوجيه من ربه إلى التوكل عليه وحده والاكتفاء بكفالته سبحانه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم).

طريقة التبويب: وسأقسم الرسالة إلى أربعة أبواب: سيكون المقطع الأول من السورة هو الباب الأول، والمقطع الثانى هو الباب الثانى، كما يكون المقطع الرابع هو الباب الثالث وسأضم المقطع الثالث إلى المقطع السادس لاشتراكهما فى الحديث عن الجهاد فيكون منهما الباب الرابع، أما المقطع الخامس فسأجعله بابا متمما بين الأبواب لتناوله أمورا قد تكون بعيدة ولو قليلا عن موضوع السورة الرئيسى.

أسباب الخلخلة وقلة التناسق فى المجتمع
قبل الفتح وبعده إجمالا وتفصيلا

لقد أطلنا الاقتباس من نصوص السورة فى هذا الاستعراض الإجمالى ـ قبل مواجهة هذه النصوص فيما بعد بالتفصيل ـ عن قصد ـ ذلك أن سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة ما بعد الفتح، ويصف تكوينه العضوى.. وفى هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة، وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية، كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال، ومن النفاق والضعف، والتردد فى الواجبات والتكاليف والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة، وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير، تشى بحاجة المجتمع إليها.

ولقد سبق أن أشرنا إجمالا إلى أن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى الإسلام بعد الفتح، لم تتم تربيتها، ولم تتطبع بعد بالطابع الإسلامى الأصيل إلا أن هذه الإشارات المجملة لا يمكن فهمها بوضوح إلا بمراجعة الواقع التاريخى الحركى قبل الفتح وبعده، وسنحاول أن نلم به هنا بأشد اختصار ممكن قبل التعليق بشىء على دلالة هذا الواقع التاريخى ومغزاه، ودلالة النصوص القرآنية التى وردت فى سياق هذه السورة كذلك.

القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار:

لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة، فلم تكد الجاهلية ـ ممثلة فى

قريش – تحس بالخطر الحقيقى التى يتهددها من دعوة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستمد من سلطان الله، ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض والفرار منه إلى الله، ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا التجمع الذين يدين منذ اليوم الأول ـ بالطاعة لله ولرسول الله، ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية، لم تكد الجاهلية ـ ممثلة فى قريش أول الأمر ـ تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمع الجديد وعلى القيادة الجديدة، وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة.

لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه.. وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين، فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد، وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد يتبع فى تحركه قيادة جديدة، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض.

وعندئذ تعرض كل فرض فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان، ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان، بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة، من أصلب العناصر عودا فى المجتمع العربى، فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها، وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى.. وكان هذا النوع قليلا، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختار الممتازة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة مع السابقين مع الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة، مكافئة لطبيعة هذا الدين.

قال ابن كثير فى التفسير [٤] (وقال محمد بن كعب القرظى وغيره... قال عبد الله ابن رواحة ـ رضى الله عنه لرسول الله عليه وسلم ـ يعنى ليلة العقبة ـ .. (اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا .. فمالنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال (الجنة) قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل).

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه البيعة، ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة، ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه، ولا أن يرجع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، بل كانوا مستبقين أن قريشا من وراءهم، وأن العرب كلها سترميهم، وأنهم لن يعيشوا بعدها فى سلام مع الجاهلية الضارية الأطناب من حولهم فى الجزيرة وبين ظهرانيهم فى المدينة.

ومن رواية ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية).. قال (الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر بن خيثم، عن أبى الزبير عن جابر قال: مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم: عكاظ والجنة.. وفى المواسم، يقول (من يؤينى؟ من ينصرنى؟ حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة) فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مصر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه وذوو رحمة فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، وبمضى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فأويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم تتبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا.. حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه فى الموسم [٥] فوعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: (تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقوموا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكنم الجنة) فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد ابن زرارة، وهو من أصغرهم - وفى رواية البيهقى - وهو أصغر السبعين - إلا أنا، فقال رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وتعضكم السيوف، فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وأما أنتم قوم تخافون خيفة فزروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله وقالوا: ابط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا! قال فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة [٦].

فقد كان الأنصار إذن يعلمون عن يقين واضح، تكاليف هذه البيعة، وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر والغلبة - وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة .. ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة.

توافد عناصر أخرى متباينة مع استمرار عمليات الصهر والتنسيق

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء، لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة .. واضطر أفراد كثيرون - ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم - أن يجاروا قومهم احتفاظا

بمكانتهم فيهم.. حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله بن أبى بن سلول هذا آمر قد توجه! وأظهر الإسلام نفاقا، ولابد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليدا - ولو لم يكونوا منافقين - ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه.. مما أنشأ تخلخلا فى بناء المجتمع المدنى ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية.

وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة، ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد.

وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبى - فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم، وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة، وتأليبها لكل قبائل الجزيرة، ومن وقفة اليهود البشعة وتأييدهم وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد - وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة.

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة فى فترات الشدة أعراض من الضعف والنفاق والتردد، والشح بالنفس والمال، والتهيب من مواجهة المخاطر.. وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى، الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية.

والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة، نذكر منها على سبيل المثال.. (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) (٧) (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله).(٨)

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون) (٩) (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبى، يقولون إن بيوتنا عورة.. وما هى بعورة.. إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها، وما تلبثوا بها إلا يسيرا) (١٠) (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا، وان من منكم لمن ليبطئن، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم

وبينهم مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما)[١١] (ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا أخرجتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلا، أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديث[١٢] (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم، ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغنى وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)[١٣] (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون، أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)[١٤] إلى آخر السورة (يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون: نخش أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين، ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين)[١٥] (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعل منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون[١٦] » وحسبنا هذه النماذج العشرة من شتى السور للدلالة على ماكان يظهر فى المجتمع المسلم من أعراض: نتيجة طبيعية وحتمية لدخول عناصر جديدة فيه بصفة مستمرة لا يتم صهرها وتنسيقها مع القاعدة الصلبة الخالصة إلا بعد فترة وجهد وتربية مستمرة.

«أقدار إيمانية متفاوتة مع تقارب فى المستويات الإيمانية»

إلا أن قوام المجتمع المسلم بالمدينة كان يظل سليما فى جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار، وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها.

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين، ومن المترددين كذلك والمتهيبين وممن لم يتم فى نفوسهم

الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين.. حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد.

نعم أنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة، أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها.. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتميز أهل بدر وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية، ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها..

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)[١٧] (لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعلموا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة) [١٨] .

وكان هذا رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر رضى الله عنه وقد استأذن رسول الله فى أن يضرب عنق حاطب بن أبى بلتعة حينما أدركته لحظة ضعف فأرسل إلى قريش سرا ينبئهم بتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) [١٩] (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، والله بما تعملون خبير) [٢٠] (مهلا يا خالد دع عنك أصحابى، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحه) [٢١] وهو رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد بن الوليد إذ تلاحى مع عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما.. وخالد هو سيف الله ولكن عبد الرحمن من السابقين الأولين، فقال رسول الله لخالد - دع عنك أصحابى - فهو يعنى هذه الطبقة ذات القدر الخاص المتميز فى المجتمع المسلم فى المدينة.

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق فى مجتمع المدينة قبل الفتح، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف، والكثير من ظواهر الضعف والتردد، والشح بالنفس والمال، وعدم الوضوح العقيدى والنفاق.. من ذلك المجتمع بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدنى بجملته هو القاعدة الإسلامية.

«خطر التوسع الأفقى السريع»

وحراسة القاعدة الأمينة لهذا الدين قبل الفتح وبعده، وبعد وفاة النبى

إلا أن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف، وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش بالجزيرة، قد عاد فصب فى المجتمع المسلم

أفواجا جديدة كثيرة دخلت فى الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية .. وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر، وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية .. فقد كانت قريش هى صاحبة الكلمة العليا فى الشئون الدينية فى الجزيرة فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسى وأدبى كذلك ـ فكانت وقفتها فى وجه الدين الجديد، بهذه الصورة العتيدة، مدعاة لصرف العرب فى انحاء الجزيرة عن الدخول فيه، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش وهذا النبى من أبنائها! فلما دانت قريش بالفتح، ودانت بعدها هوازن وثقيف فى الطائف، وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا .. فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام، وأبيدت بنو قريظة واستسلمت خيبر .. الاستسلام الأخير .. كان ذلك إيذانا بدخول الناس فى دين الله أفواجا وانسياح الإسلام فى أرجاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد غير أن هذا الاتساع الأفقى فى رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد انتصار بدر، ولكن على نطاق أوسع ـ بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى، المستمرة التأثير فى خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى!

ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة، والأساس الركين لهذا المجتمع لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة.

ولكن الله الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبى الذى جاء به انتصار بدر، كما أنه سبحانه كان قد أعد المجتمع المدنى بجملته، ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذى جاء به فتح مكة والله أعلم حيث يجعل رسالته..

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذى جاء عنه فى هذه السورة (التوبة).. (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها، وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين). وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة فى أول الأمر أن ألفين من ـ الطلقاء ـ الذين أسلموا يوم الفتح قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة، فكان وجود هذين الألفين مع عشرة آلاف ـ سببا فى اختلال التوازن فى الصف ـ بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن ـ ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها وتناسقها فى الزمن الطويل ما بين بدر والفتح.

كذلك كان ما ظهر فى أثناء غزوة تبوك عن الأعراض والظواهر المؤذية، ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقى السريع ودخول تلك الأفواج الجديدة، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية

المخلخلة.. هذه الظواهر والأعراض التى تحدثت عنها سورة التوبة، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب التى أشرنا إليها فى المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة.

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخى للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح، عندما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت الجزيرة العربية كلها، ولم يثبت إلا مجتمع المدينة - القاعدة الصلبة الخالصة - فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها.. إن عامين اثنين من الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام فى نفوس هذه الأفواج الكثيرة التى دخلت فى دين الله بعد الفتح بمستوياتها الإيمانية المخلخلة .. فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت الجزيرة المخلخلة وثبتت القاعدة الصلبة، واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف فى وجه التيار، وأن ترده عن مجراه الجارف، وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى..

إن رؤية هذه الحقيقة - على هذا النحو - كفيلة بأن ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة - فى أول الأمر - وحكمته فى تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها ويفتنونها عن دينها، ويهدرون دماءها ويفعلون بها الأفاعيل!

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى، وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة، وأنه بدون المحنة الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط، وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضى فى سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع، وقلة العدد وانعدام النصير الأرضى.. إن هذه الدرجة هى وحدها التى تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى.. إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هى التى انضم إليها السابقون من الأنصار ليكونوا القاعدة فى المدينة - قبل بدر - وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء فى فترة التخلخل التى أعقبت النصر فى بدر، بالتوسع الأفقى الذى جاء بأعداد جديدة لم تنضج بعد ولم تتناسق مع القاعدة فى مستواها الإيمانى والتنظيمى.

وأخيرا فإن القاعدة الصلبة التى اتسعت أبعادها قبيل الفتح، حتى صارت تتمثل فى المجتمع المدنى بجملته، هى التى حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح، ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد الجزيرة عن الإسلام.

إن هذه الحقيقة - كما أنها ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة، وفى الأهوال والمشاق والأخطار التى تعرض لها المجتمع المسلم فى المدينة حتى الحديبية - هى كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركى للدعوة الإسلامية المتجددة فى أى زمان وفى أى مكان.

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص، الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة

ووعيا، ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقى قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة.. فالتوسع الأفقى قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعى طبيعة المنهج الحركى الربانى النبوى الذى سارت عليه الجماعة الأولى.

على أن الله سبحانه هو الذى يتكفل بهذا لدعوته، فحيثما أراد لها حركة صحيحة عرض طلائعها للمحنة الطويلة وأبطأ عليهم النصر، وقللهم، وبطأ الناس عنهم حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا، وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأمينة، ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده سبحانه (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وقبل أن أعرض الموضوعات الرئيسية التى تضمنتها السورة فى علاقة المعسكر الإسلامى بسائر المعسكرات حوله، أرى أن أقدم تمهيدا مختصرا عن ثلاث نقاط، كون السورة مدنية، أسمائها، سقوط البسملة من أولها.. هدانا الله الصراط المستقيم وجنبنا الزلل.. إنه المستعان المأمول.

الهوامش

(١) سورة النساء آية ٧٥.

(٢) آية ٤٩ سورة الأنفال.

(٣) سورة الأنفال آية ٣٥ .

(٤) ابن كثير جزء ٢ ص ٣٩١ .

(٥) المحقق أنهم اثنان وسبعون ولكن العرب كثيرا ما تحذف الكسر .

(٦) وقد رواه الأمام أحمد أيضا والبيهقى من طريق داود بن عبدالرحمن العطار . زاد . البيهقى عن الحاكم . بسنده إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبدالله بن عثمان ابن خيثم عن أبى أدريس به نحو . وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه، وقال البزار : وروى غير واحد غير خيثم، ولا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه.

(٧) سورة الأنفال ٥ – ٨ .

(٨) آل عمران ٧ .

(٩) الحشر ١١ .

(١٠) الأحزاب ٩-١٤ .

(١١) النساء ٧١ – ٧٢ .

(١٢) النساء ٧٧ – ٧٨ .

(١٣) محمد ٣٦ - ٣٨.

(١٤) المجادلة ١٤ – ٢٢.

(١٥) المائدة ٥١ – ٥٣.

(١٦) الممتحنة (١ – ٢).

(١٧) التوبة ١٠٠ .

(١٨) من حديث أخرجه البخارى.

(١٩) الفتح ١٨ – ١٩.

(٢٠) الحديد ١٠.

(٢١) أورده ابن القيم فى زاد المعاد.

تمهيـــد

أولا: متى نزلت السورة؟ وأين؟

من المعلوم أن السور المكية تتحدث عن أصول الإيمان الاعتقادية: من الإلهيات والوحى والرسالة والبعث والجزاء وغيرها من عالم الغيب، وقصص الرسل مع أقوامهم ويلى ذلك فيها أصول التشريع الإجمالية العامة، والآداب والفضائل الثابتة ويتخلل هذا وذاك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان ودحض شبههم وتشويه خرافاتهم.

وأما السور المدنية فتكثر فيها قواعد التشريع التفصيلية وأحكام الفروع العملية كما تكثر فى بعضها محاجة أهل الكتاب، وبيان ما ضلوا فيه عن هداية كتبهم ورسلهم ودعوتهم إلى الإيمان بخاتم الرسل، وفى بعضها بيان ضلالات المنافقين ومفاسدهم، ومن ثم يتبين أن سورة يقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية ـ كسورتنا هذه ـ لابد أن تكون مدنية.

وإذن فسورة التوبة ـ وعدد آياتها تسع وعشرون ومائة عند الكوفيين، وثلاثون ومائة عند الباقين ـ هى كلها مدنية، إذ السمات المدنية بادية فيها، كطول الآيات، والحديث عن الزكاة والحج والعهود والجهاد والمنافقين.. بل هى من أواخر ما نزل من القرآن إن لم تكن هى آخر ما نزل، وإن كانت الرواية الراجحة أن سورة النصر هى آخر سورة نزلت فالأدق أن يقال.. إن سورة التوبة هى آخر سورة أحكامية نزلت، وعليه تحمل رواية البخارى عن البراء قال "آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة".

ومن ثم فقد تضمنت أحكاما نهائية فى العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم فى الأرض، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفا دقيقا مصورا مبينا.

ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ومراجعة ما جاء فى الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك، يتبين أن السورة بجملتها نزلت فى العام التاسع من الهجرة، وهو العام الذى تمت فيه مراحل الجهاد المحمدى فى سبيل تأمين الدعوة، والعمل على بعث التوحيد فى القلوب والذى كمل فيه ـ بفتح مكة قبله ـ إحساس

المشركين بقوة المسلمين ونجاح دعوتهم وغلبة سلطانهم، فقد فتحوا قبله مكة وعادوا إليها بعد أن أخرجوا منها، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه وحيل بينهم وبينه، وانتصروا فى حنين، وحاصروا الطائف، وفيه انسحب الروم داخل بلادهم ليتحصنوا من جيش المسلمين الذى جاء لغزوهم بتبوك.. والروم هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب، وجاءوا به إلى بيت المقدس، وكان لهذا الانسحاب هزة عنيفة فى شبه الجزيرة دفعت بكثير من القبائل العربية إلى المسارعة بالدخول فى حوزة الإسلام، وفى ذلك العام أيضا وفى شهر ذى القعدة منه أمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر على المسلمين فى أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة، بعد أن سلم لهم السلطان على مكة وعلى مشاعر الحج كلها.

نزلت السورة بجملتها فى العام التاسع من الهجرة ولكنها لم تنزل دفعة واحدة، ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التى نزلت فيها مقاطع السورة فى خلال العام التاسع إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت فى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك فى شهر رجب من هذا العام.

والمرحلة الثانية كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم فى ثناياها.

والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها.

أما مقدمة السورة .. من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها.. فقد نزلت متأخرة فى نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج فى ذى القعدة أو فى ذى الحجة، وهذا على الإجمال هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه.

آراء مردودة:

١) يرى جماعة أن السورة مدنية إلا آية (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) فإنها مكية بناء على ما ورد أنها نزلت فى قوله صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب :(لأستغفرن لك ما لم أنه عنك).

٢) بينما يرى آخرون أنها مدنية إلا آيتين منها (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها، واختاره المنار ومناهل العرفان.

قال فى المنار: (إن معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلا فى دعوته صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فى أول زمن البعثة، وقد ذكر بن ابى الفرس أنهما مكيتان، وقول ابن أبى الفرس هو الوجيه من جانب المعنى، فهو يؤيد الرواية، ثم قال: بقى البحث فى حكمة وضعهما فى هذه السورة المدنية، وموضوعهما مكى، يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه صلى الله عليه وسلم ما جزم به جماهير المفسرين وما هما بأول ما وضع من الآيات المكية فى السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك، ولعل الحكمة فى ذلك أن يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تبلغه الدعوة من أمة الإجابة وهو ما ذهب إليه الخطابى، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة - كما قال ابن أبى الفرس - على كون الخطاب فيهما لقومه صلى الله عليه وسلم، وهو ما جزم به الجماهير [١].

وقال فى مناهل العرفان: (قيل إن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة «لقد جاءكم رسول من

أنفسكم» إلى آخر السورة) رواه الحاكم وابن مردويه عن أبى بن كعب، ويمكن نقده بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق، ويؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة، ولعل قوله سبحانه «فإن تولوا فقل حسبى الله» إلخ، يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه للجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم (٢).

والجواب بعامة.. إذا تصورنا وجود آيات مدنية فى سور مكية ـ وهو واقع كثيرا ـ فكيف نتصور وجود آيات مكية فى سور مدنية؟ إذ أين كانت هذه الآيات قبل نزول تلك السور؟ وهل بقيت قائمة وحدها منفردة غير منضمة إلى شيء؟ أظن أن هذا لن يكون (٣)..

ويمكن أن يجاب عن الأول.. بأنه على الرغم من أن دليلهم الذى استندوا إليه ثابت نقلا فقد روى مسلم فى صحيحه (٤). عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ياعم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله عز وجل: (ما كان للنبى) إلى قوله : (الجحيم).

أقول: وعلى الرغم من أن دليلهم الذى استندوا إليه ثابت نقلا إلا أنه يجاب عنه:

(أ) بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك.

(ب) وبما يقوله العلماء فى مثل هذا المقام من جواز نزول الآية مرتين: مرة منفردة ومرة فى أثناء السورة.

ويمكن الرد على ابن أبى الفرس:

(أ) بأنه ذكر الاستثناء غير مقرون بالدليل، فاستحق الرفض.

(ب) وفى حسبانى الذى دفعهم إلى القول بمكية الآيتين هو عبارة (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت) فإنهم ـ بزعمهم ـ اعتقدوا أنها تدل على المسالمة والموادعة والصفح والتجاوز والصبر على الإيذاء وعدم القتال، وكل ذلك لا يتلاءم مع الأسلوب المدنى، وهذا باطل لا ينهض دليلا على مدعاهم، فإن عبارة (حسبى الله عليه توكلت) وأمثالها لا تدل بل ولا تومئ من قرب أو من بعد إلى المسالمة وعدم القتال، بل المقصد منها أن ترسم المنهج، وتحدد الهدف وتعين الطريق، وتبين الوجهة التى ينبغى للمسلم أن يتجه إليها ولا يحيد عنها.

ج ـ ولقول الكثيرين أنها نزلت تامة.

د ـ وما رواه الحاكم فى مستدركه، وأبو الشيخ فى تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، وبما أخرج فى بعض المسانيد والتفاسير المأثورة عن أبى بن كعب، بألفاظ متقاربة، منها عن ابن عباس عنه: أن آخر آية أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم وفى لفظ: أن آخر ما أنزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر الآية، ومنها: عن الحسن عنه: أنه كان يقول: إن أحدث القرآن عهدا بالله ـ وفى لفظ : بالسماء ـ

هاتان الآيتان (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة، ومنها عن طريق أبى العالية عنه أنهم جمعوا القرآن فى مصحف فى خلافة أبى بكر، فكان رجال يكتبون، ويمل عليهم أبى بن كعب حتى انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم، بأنهم قوم لا يفقهون) فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبى بن كعب إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أقرأنى بعد هذا آيتين (لقد جاءكم): إلى (رب العرش العظيم): قال: فختم الأمر بما فتح به: بلا إله إلا الله. «أ.هـ [٥].

هـ - وما يعارض هذا مما ورد فى أسباب النزول لبعض الآيات يجاب عنه: بأن أكثر ما روى فى أسباب النزول كان يراد به أن الآية نزلت فى حكم كذا، أعنى أن الرواة كانوا يذكرونها كثيرا فى مقام الاستدلال، وهذا لايدل على نزولها وحدها، ولا على كون النزول كان عند حدوث ما استدل بها عليه كما قلنا آنفا فى احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين فى المدينة، وإن كان كل ما ذكروه من سببها حدث بمكة قبل الهجرة.

بقى بعد هذا أمران يتعلقان بهاتين الآيتين: أولهما ما ذكروه من أحاديث يفهم منها أن وضع هاتين الآيتين (لقد جاءكم رسول) إلخ فى سورة التوبة كان بفعل بعض الصحابة وأنهما لو كانتا ثلاث آيات لجعلوهما سورة مستقلة، من ذلك ما أخرجه ابن إسحق وأحمد وابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول) إلى قوله (وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا أدرى والله، إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوهما بها، فألحقت فى آخر براءة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر، فقال عمر: لا أسألك عليهما بينة أبدا، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها.

وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف أن خزيمة بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر، فقال: إنى رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما، فقالوا ما هما: قال تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) إلى آخر السورة، فقال عثمان: وأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: أختم بهما آخر ما نزلت من القرآن فختمت بهما براءة.

قال المنار بعد ذكر هذه الروايات: فيؤخذ من مجموع الروايات أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما: ففى بعضهما أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعضهما أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد، والمعتمد الأول قطعا، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ.[٦] والظاهر أن سبب الاختلاف فى موضعهما أن موضعهما يدل على أنهما مكيتان ولم تصح لجماعة جامعى المصحف رواية بكتابتهما فى إحدى السور المكية، ولكن وجدتا عند أبى خزيمة مكتوبتين فى آخر براءة.

والحق الذى لا محيد عنه أنه ليس فى مقدور أى صحابى، ولا من سلطته أن يضع هاتين الآيتين ولا غيرهما فى آية سورة يراها برأيه واجتهاده، كذلك ليس من سلطة أحد أن يجعل جملة آيات سورة مستقلة أو جزء سورة، فما نسب إلى عمر من قوله: لو كانتا ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوهما بها كلام مكذوب مفترى على ابن الخطاب رضى الله عنه، فلم يكن من الأعمال المخولة للصحابة تسوير السور، ولا ترتيب الآيات فى مواضعها، حتى ولا كان ذلك من سلطة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من عمله باجتهاده ورأيه، إنما كان ذلك من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم توقيفا: أى منقولا عن الوحى، عن الله عز وجل.

قال السيوطى فى الإتقان: الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك.. أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشى فى البرهان، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين «أ هـ» وأما النصوص فمنها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن عثمان قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) (٧)

ومن ذلك يتبين أن وضع هاتين الآيتين فى موضعهما من آخر سورة التوبة كان يعلمه حق العلم عمر وعثمان وخزيمة رضى الله عنهم وغيرهم، ولم يكن ذلك موضع استغراب من أحد وأن عمر رضى الله عنه لم يقل ولم يهم ولم يفكر - ولن يقدر إن أراد - أن يجعلهما سورة على حدة لو كانتا ثلاث آيات، أو أن يبحث لهما عن سورة يجعلهما جزءا منها وأن مثل هذه الأحاديث لا تصح، ولا يصح نقلها إلا لدفعها، وينبغى ألا يلتفت إليها ولا يعتمد عليها، لاسيما إذا كانت تشكك فى أصل الدين ومنبع الإسلام، ولاسيما إذا كان الإجماع يدفعها، والنصوص المترادفة تمنعها.

والأمر الثانى - شبهة أوردوها: قالوا : كيف يكون القرآن متواترا مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال فى الجمع على عهد أبى بكر ما نصه: (فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدهما مع غيره، وهما (لقد جاءكم رسول) إلى آخر السورة.(٨)

والجواب على هذه الشبهة:

أولاً: إن كلام زيد بن ثابت هذا لا يبطل التواتر.. وبيان ذلك أن الآيتين لم تثبت قرآنيتهما بقول أبى خزيمة وحده بل ثبت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم فى صدورهم وإن لم يكونوا كتبوه فى أوراقهم، ومعنى قول زيد: (حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره) أنه لم يجد الآيتين مكتوبتين عند أحد إلا عند أبى خزيمة، فالذى انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما، وهذا لا ينافى أنهما كانتا محفوظتين لكثير من الصحابة، وليست الكتابة شرطا فى المتواتر، بل المشروط فيه أن يرويه جمع كثير يؤمن تواطؤهم على الكذب، ولو لم

يكتبه واحد منهم، فكتابة أبى خزيمة الأنصارى كانت توثقا واحتياطا فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه، فكيف نقدح فى التواتر بانفراده بها؟!

ويدل على أن هذا هو المعنى الذى أراده زيد بعبارته تلك، قول زيد نفسه: (فقدت آيتين من سورة التوبة) إلخ، فإن تعبيره بلفظ (فقدت) يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية، وأنها كانت معروفة له، غير أنه فقد مكتوبها فلم يجده إلا مع أبى خزيمة وإلا فمن الذى أنبأ زيدا أنه فقد شيئا؟ قال الحافظ فى شرحه: هذا يدل على أن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه، ولا يقتصر على حفظه.

ثانيا: ويحتمل أن يكون مراده أنه لم يجدهما مكتوبتين ولا محفوظتين إلا عند أبى خزيمة، فإنه انفرد بوجودهما عنده مكتوبتين أو محفوظتين.. وعلى هذا الاحتمال يتعين أن يكون الواقع أنه لما وجدهما زيد عند أبى خزيمة وحده، ولم يجدهما عند أحد غيره، تحدث بذلك إلى أبى خزيمة، لأن هذا أمر يثير الحديث ولاشك، إذ كيف يوجد شىء من القرآن العظيم لا يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا واحد فقط، فلما علم بذلك أبو خزيمة صار يتلوهما على الناس إعلاما بهما، لعلمه أن ذلك صار فرضا عليه لعدم وجودهما عند غيره، وليتذكرهما من يكون ناسيا لهما، ثم صار زيد يتلوهما لنفس هذا الغرض، وعندئذ تذكرهما كثير من الصحابة، فلما ثبت عند زيد أن الواقع أن أبا خزيمة لم ينفرد بتلقى الآيتين عن النبى صلى الله عليه وسلم بل تلقاهما عنه كثير غيره، إلا أنهم كانوا قد نسوهما فتذكروهما، فعندئذ لم يجدوا بدا من إثباتهما فى المصحف لتوفر شرط القرآنية، وهو التواتر [٩] وإذن فكلام زيد على أى احتمال لا يدل على عدم تواترهما، وبذلك تندفع الشبهة.

ثانيا: أسماء السورة

إن هذه السورة عرفت منذ العهد الأول بجملة أسماء تدل بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادئ والمعانى التى تجب مراعاتها فى معاملة الطوائف كلها، ومن تلك الأسماء:

١- التوبة - وهو أشهرها - وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين السابقين الذين أخلصوا فى مناصرة الدعوة، وصدقوا فى الجهاد مع النبى صلى الله عليه وسلم، حتى وصل بهم إلى الغاية، وذلك فى قوله تعالى (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار.. ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين بعد أن كابدوا ما كابدوا فى سبيل نصرة الحق والدين مما يقوى روح الإيمان فى قلوبهم، ويبعد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير وهذا نوع من التربية القوية التى تحفز النفوس إلى الاستمرار فى عمل الخير، وتشجعها على اقتحام ما يكون من عقبات فى طريق الفوز برحمة الله ورضوانه، ثم هذه هى الرغبة الأكيدة والدعوة الملحة للمشركين أن يوحدوا الله، وللمنافقين أن ينظفوا قلوبهم من هذا الداء، وللعالم على اختلاف ملله ونحله أن ينيب إلى ربه ويرجع إلى بارئه يطمع فى العفو والمغفرة عنده، ويلتمس الراحة والطمأنينة لديه (ويتوب الله على من يشاء)(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم).

٢. ومنها براءة، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من أولها من قطع العلائق ونبذ العهود بين المسلمين ومشركى جزيرة العرب على الإطلاق - وغيرهم أيضا - حتى يخضعوا لسلطان الإسلام، والعودة بالجميع إلى حالة الحرب التى كانت قبل معاهدات السلم والأمان (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) (أن الله برىء من المشركين ورسوله) أخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى الشعب وغيرهما عن أبى عطية الهمزانى قال: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تعلموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور.

٣. الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين وأظهرت أسرارهم التى كانوا يخشون ظهورها. (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم). (قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون) وقد ورد عن ابن عباس - وقد ذكرت له التوبة - أنه قال: (هى الفاضحة مازالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدا إلا ذكرته، ومنهم ومنهم ومنهم) ويشير بذلك إلى أصناف المنافقين (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى - ومنهم من يلمزك فى الصدقات - ومنهم الذين يؤذون النبى - ومنهم من عاهد الله - ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما).

٤. سورة العذاب، لما فيها من بيان لعذاب المشركين والمنافقين فى الدارين (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) (إن يصيبكم الله بعذاب من عنده) (أخرج الحاكم فى مستدركه عن حفيفة قال: التى يسمون سورة التوبة هى سورة العذاب، وكان عمر إذا ذكر له سورة براءة قال: هى إلى العذاب أقرب، ما أقلعت عن الناس حتى ما كادت تدع منهم أحدا).

٥. المقشقشة، أى المبرئة من النفاق - أخرج ابن مردويه عن زيد ابن أسلم أن رجلا قال لعبد الله بن عمرو: سورة التوبة فقال ابن عمرو: أيتهن سورة التوبة؟ فقال: براءة، وقال - رضى الله عنه – وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هى، ما كنا ندعوها إلا المقشقشة - أى المبرئة، ولعله أراد من النفاق.

٦. المنقرة، لأنها كانت تستخرج ما فى القلوب وتنقر عنهم. أخرج أبو الشيخ عن عبيد ابن عمير قال: كانت براءة تسمى المنقرة، نقرت عما فى قلوب المشركين.

٧. المبعثرة، لأنها تفرقهم وتشتت شملهم وتبعثر أسرارهم، أخرج ابن ا لمنذر عن محمد بن إسحق قال: كانت براءة تسمى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر النفاق.

٨. البحوث، صيغة مبالغة من البحث بمعنى اسم الفاعل، كما روى ذلك الحاكم عن المقداد لأنها تبحث عن حالة المنافقين وتستخرجها، وروى عنه أيضا البعوث - بالعين - لأن فيها بعثا على الجهاد بالنفس والمال فى كل حال، روى ابن جرير بإسناده - عن أبى راشد الحرانى قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أبت علينا سورة البعوث [١٠] (انفروا خفافا وثقالا).

٩. الحافرة [١١]، والمثيرة[١٢] والمعبرة والمنفرة والمخزية والمنكلة والمشردة والمدمدمة لأنها تحفر عن قلوب المنافقين وتثير المخازى والقبائح الصادرة عنهم وتعبر عما فى قلوبهم وتنفر

الناس من صنيعهم وتتحدث عما يخزيهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم أى يهلكهم، وأشهر الأسماء التوبة وبراءة، وسائر الأسماء ألقاب لبيان معانيها.

ثالثا: سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة

اتفقت الأمة سلفا وخلفا على أن التسمية فى أول سورة براءة ساقطة وواجب تركها، وتحرم قراءها، وهذا أمر لا خلاف فيه ولا نزاع، ومنه نعلم أن نقل الألوسى قولا بإثباتها والدعاء أنه القياس، وأن تركها مستحب، وأن قراءتها جائزة وليست بحرام.. كل ذلك من الصواب بمعزل.

قال رحمه الله: (وروى عن عاصم التسمية أولها، وهو القياس لأن إسقاطها إما لأنها نزلت بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة، بل من الأنفال، ولا يتم الأول، لأن بخصوص بمن نزلت فيه ونحن إنما نسى للتبرك، ألا ترى أنه يجوز بالاتفاق باسم الله الرحمن الرحيم وقاتلوا المشركين، الآية، ونحوه، وإن كان الترك لأنها ليست مستقلة فالتسمية فى أول الأجزاء جائزة، وروى ثبوتها فى مصحف ابن مسعود، وذهب ابن منادر إلى قراءتها وفى الإقناع جوازها، والحق استحباب تركها حيث إنها لم تكتب فى الإمام، ولا يقتدى بغيره وأما القول بحرمتها ووجوب تركها - كما قاله بعض المشايخ الشافعية - فالظاهر خلافه[١٣]) وهذا الرأى فيه ضعف من وجوه:

الأول: يرى الألوسى أن إثبات البسملة هو القياس، ونحن نتساءل: هل للقياس مدخل فى نظم القراءة وأدائها؟ والجواب بالمنع فليس للقياس دخل فى القراءة، ولا سبيل له إلى أن توضع البسملة فى هذا المكان لعلة كذا أو لشبهة بكذا، ولا أن تسليمه من ذلك الموضع لعلة كذا أو لشبهة بكذا، بل ما يجب أن يعلم أن القراءة سنة متبعة ولذلك قال الشاطبى رحمه الله:

وما لقياس فى القراءة مدخل.. فدونك ما فيه الرضا متكفلا [١٤].

ثالثا: يقول: (وروى عن عاصم التسمية أولها) ونسأل هاك من عاصم هذا؟ إذا أطلق عاصم فى تجويد القرآن وأحكام قراءته انصرف إلى عاصم بن بهدلة بن أبى النجود [١٥]، ولم ينقل عن عاصم هذا أنه قرأ التسمية أول براءة، وأوضح دليل على هذا أن قراءتنا للقرآن فى مصر هى رواية حفص الذى روى عن عاصم، وقراؤنا مجمعون على عدم التسمية فيها، كيف وعاصم أحد القراء السبعة الذين اتفقت قراءتهم جميعا على منع التسمية، ومن المعلوم أن جمهرة العلماء يرون أن قراءة السبعة متواترة.

قال الشاطبى مبينا اتفاقهم على عدم التسمية أولها:

ومهما تصلها أو بدأت براءة.. لتنزيلها بالسيف لست مبسملا

ثالثا: وابن منادر الذاهب إلى قراءتها غير مسئول فى هذا الفن، وتجويز الإقناع مدفوع بما ذكر، ومصحف ابن مسعود سقطت منه المعوذتان، فلم لم نسقطهما؟

رابعا: أن مقتضى الدليل الذى ساقه وهو: (حيث إنها لم تكتب فى الأمام ولا يقتدى بغيره) إيجاب تركها لا استحبابه كما يقول، فالحق وجوب تركها وحرمة قراءتها.

وبعد اتفاق العلماء على هذا القدر - وجوب تركها وحرمة قراءتها - اختلفوا فى سبب

سقوطها من هذا الموضوع - أعنى أول براءة - وسأعرض لآراء العلماء فى ذلك ثم أبين الصحيح منها والفاسد:

الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: سألت عليا - لم لم تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان، ويروى أن سفيان بن عيينة ذكر هذا المعنى وأكده بقوله تعالى: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) فقيل له : أليس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل الحرب بسم الله الرحمن الرحيم؟ فأجاب عنه: بأن ذلك ابتداء منه بدعوتهم إلى الله ولم ينبذ إليهم عهدهم، ألا تراه قال فى آخر الكتاب: (والسلام على من اتبع الهدى)، وأما هذه السورة فقد اشتملت على المقاتلة ونبذ العهود، فظهر الفرق.

الثانى: عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين، وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموهما فى السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: (ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها فى السبع الطوال، رواه الترمذى وأحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان.

الثالث: أن الصحابة اختلفوا: فى أن سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة أم سورتان؟ فقال بعضهم: هما سورة واحدة، لأن كلتيهما نزلت فى القتال، ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال - وهى سبع، وما بعدها المئون - وهذا قول ظاهر لأنهما معا مائتان وست آيات، فهما بمنزلة سورة واحدة ومنهم من قال: هما سورتان، فلما ظهر الاختلاف بين الصحابة فى هذا الباب تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول: هما سورتان، وما كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم بينهما تنبيها على قول من يقول: هما سورة واحدة.

الرابع: ما يروى عن أبى بن كعب أنه قال: إنما توهموا ذلك لأن فى الأنفال ذكر العهود وفى براءة نبذ العهود، فوضعت إحداهما بجانب الأخرى.

الخامس: أنه تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضا وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى فى قوله: (براءة من الله ورسوله) فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيدا له وتقريرا له لزم وقوع الفاصل بينهما، فكان إيقاع الفصل بينهما تنبيها على كونهما سورتين متغايرتين، وترك كتب بسم الله الرحمن الرحيم بينهما تنبيه على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى.

السادس: قال بعض الشافعية لعل الله تعالى لما علم من بعض الناس أنهم يتنازعون فى كون بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن أمر بأن لا تكتب ها هنا، تنبيها على كونها آية من أول كل

سورة وأنها لما لم تكن آية من أول هذه السورة لا جرم لم تكتب، وذلك يدل على أنها لما كتبت فى أول سائر الصور وجب كونها آية من كل سورة أى لأن الاستثناء بالفعل كالاستثناء بالقول معيار العموم.

السابع: أنه قيل: كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد، بعث بها صلى الله عليه وسلم ولم يبسمل فى ذلك على ماجرت به عادتهم فى نقض العهد.

الثامن: ما روى عن ابن عجلان من أنه بلغه أن سورة براءة كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها أولها، فلذلك لم يكتب أولها باسم الله.

«تفنيد هذه الآراء والرد عليها واختيار الصحيح منها»

أولا: إنما بلغ ابن عجلان وأمثاله يجب أن يعجل بمحوه وإزالته من كتب التفسير التى تحوى الكثير من هذه الخرافات مما يكمن فيها أبلغ الخطر على الإسلام.. إن هذا الهراء مستقى من تجويز الإمامية الزيادة فى القرآن والنقص منه، وذلك يهدم الإسلام من أساسه ويجتثه من أصوله، ويخرج القرآن عن كونه حجة، ويطعن فى كفالة الله له وحفظه على امتداد الزمن من أن يأتيه باطل أو تتناوله يد مفسدة عابثة بالزيادة أو النقص (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١٦) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) (١٧).

ان هؤلاء المتحدثين بما يمس عظمة القرآن أو المبلغين لذلك قد ألغوا عقولهم إذ جهلوا أو تجاهلوا أبسط القواعد المقررة والمسلمة فى تواتر القرآن، وأولى بنا ألا نسمى هؤلاء مسلمين وبالتالى لا نعد كلامهم حجة على دين الله.

إن ثورة من الإزالة والإبادة ينبغى أن تشن على مثل هذه الآراء المهينة، فتجمع وتحرق ولا يهمل أمرها وتترك للبسطاء يؤمنون بها ويعتقدونها، ولذوى النوايا الخبيثة يروجون لها ويشككون الناس فى دينهم بسببها، وللمستشرقين والمبشرين يكيدون للإسلام من خلالها وثورة الإبادة هذه أمر حتمى يلزم المسلمين بعامة وعلماءهم بخاصة.. أن المسيحيين - ولا مانع أن نتعلم من عدونا بل يجب - ينافحون عن باطلهم بما هو أشد وأقسى من هذا، فيجمعون - بثرواتهم الخاصة - كل كتاب يرون فيه أى مساس بعقائدهم فيحرقونه حتى يمنعوا الناس من قراءته، وإلا فأين إنجيل برنابا وغيره من الكتب الصادقة الكاشفة عن حقيقة ما هم عليه من خلط وخرافة؟ أوليس المسلمون أحق وأجدر بعمل هذا من غيرهم؟

ثانيا: إن الآراء المبنية على أن عدم البسملة هنا إنما هو تصرف صادر عن الصحابة لما اختلفوا فيه أو توهموه وأن النبى صلى الله عليه وسلم توفى ولم يبين أن التوبة من الأنفال أو ليست منها.. إن الآراء هذه جانبها التوفيق، وإن رضى بعضها الرازى، وروى بعضها فى كتب السنن المعتد بصحتها - وذلك:

(أ) بأن فيها اتهاما بالتقصير - ولو من بعد - لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، إذ هو لم يبين أمرا نحن محتاجون إلى بيانه حاشا حضرة الرسالة ذلك، كيف وقد بين القرآن وظاهرته السنة أن البلاغ تم وأن الدين كمل، وأن الله شاهد على هذا، ولا يتم هذا إلا إذا كان

النبى صلى الله عليه وسلم قد بين قبل وفاته هذا الأمر، لاسيما وهو أمر وثيق الصلة بالقرآن إن لم يكن من القرآن ذاته (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) (آلا هل بلغت؟ اللهم فاشهد).

(ب) قال القاضى: يبعد أن يقال: إنه عليه السلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الأنفال لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى، ومن قبل رسوله على الوجه الذى نزل، ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى سائر السور وفى آيات السورة الواحدة، وتجويزه يطرق ما يقوله الإمامية من تجويز الزيادة والنقصان فى القران، وذلك يخرجه من كونه حجة.(١٨)

(جـ) حتى ولو سلمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين ذلك قبل وفاته لكان الواجب علينا أن نفهم من هذا أن عدم البيان هو مقصود الشارع، ومعنى هذا أن حكم الشرع فيه هو عدم البسملة وتحريمها، لأن النبى صلى الله عليه وسلم تركها ولم يبينها، وهو إذ لم يبين أمرا ما كان معنى هذا بيانا منه لأن يترك ذلك الأمر ويعدم، وفى هذا يقول أبو السعود: ولا مرية فى عدم نزولها ها هنا، وإلا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف، فهو أما لاتحاد السورتين، أو لما ذكرنا: لا سبيل إلى الأول، وإلا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة إلى البيان، لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما، فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم.(١٩)

(د) وكيف نقول أو نسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين ذلك قبل وفاته، أو أن سورة التوبة وسورة الأنفال هما سورة واحدة مكملة للسبع الطوال، أو أن الصحابة اختلفوا فى ذلك أو توهموا، كيف يكون لهم أن يقولوا ذلك وهذه الأسماء الكثيرة التى ذكرناها آنفا مما ثبت إطلاقه على سورة التوبة من الصدر الأول لم يعرف إطلاق واحد منها على السورة التى قبلها - وهى سورة الأنفال - كما لم يعرف أن أطلق اسم الأنفال على هذه السورة، وبذلك احتفظت كل من السورتين منذ العهد الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها، وكما احتفظت كل من السورتين بما لها من اسم احتفظت كل منهما بوقت نزولها.. فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر، أى فى السنة الثانية من الهجرة وسورة التوبة نزلت عند الاستعداد لغزوة تبوك وأثناءها وبعدها، وبعد خروج أبى بكر على رأس المسلمين إلى الحج.. أى فى السنة التاسعة إلى أواخرها.. وكما احتفظت كل منهما بهذا وذاك احتفظت كل منهما بهدفها الخاص.. فسورة التوبة عالجت شئونا حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة الأنفال، ومعرفتها باسم سورة الأنفال، وسورة الأنفال عالجت شئونا حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها، ولاشك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة البينة والمحققة فى السورتين من الصدر الأول، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان وأن عدهما سورة واحدة رأى لا قيمة له، كما لا قيمة لاشتباه فى استقلال كل منهما حتى يقال: تركت البسملة بينهما نظرا لاحتمال وحدتهما، وتركت بينهما فرجة نظرا لاحتمال انفصالهما.

(هـ) كذلك لا قيمة للرأى الذى مضاده أن هذا مما تصرف النبى تصرفا وافق فيه عادة العرب ضد نقض العهود، وذلك لأن هذا العمل ليس من جملة السلطات المخولة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه - بالنسبة للقرآن - ليس له إلا الدعوة والبلاغة، والتطبيق والتنفيذ (فإنما عليك البلاغ) (ان عليك إلا البلاغ) (ان اتبع إلا ما يوحى إلى) (واتبع ما يوحى إليك من ربك) (اتل ما أوحى إليك من ربك لا مبدل لكلماته).

القول الحق:

وإذ قد نفينا أن يكون ترك البسملة أول التوبة تصرفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعملا للصحابة، كان لنا أن نثبت القول الحق الذى لا مرية فيه، والرأى الصحيح الذى لا يقبل الجدال وهو: إنه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع سورة التوبة بعد سورة الأنفال، وأنه صلى الله عليه وسلم أمر بحذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحيا، وذلك لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بالتسمية بين هاتين السورتين كما نزل بها بين كل سورة وسابقتها، ولم تكن كتابتها بين السورتين أو تركها إلا بتوقيف ووحى، وقد عرف مع ترك التسمية بينهما أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وقد جاءتا كذلك فى المصاحف الأولى: مصحف عثمان وعلى وابن عباس، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة آراء قد تمس من قرب أو من بعد قداسة تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة.

ثم إنه بعد تسليمنا وإيماننا أنه لا مدخل لرأى أحد فى الإثبات أو الترك وأن المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف، وأن التوبة وضعت بعد الأنفال وحيا، وأن التسمية تركت فى أول التوبة وحيا كذلك، لا مانع بعد ذلك الإيمان من أن نبحث عن علة، ولا حرج بعد هذا الاعتقاد من أن نفتش عن حكمة، اقتضت ترك التسمية فى هذه السورة دون سواها: ولعل أقرب حكمة لترك التسمية فى أولها وأولاها بالقبول هى ما قاله على لابن عباس رضى الله عنهم حينما سأله عن عدم كتابتها: إن التسمية أمان ورحمة، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان، ولا يرد على هذه الحكمة أن سورة المطففين والهمزة والمسد نزلت التسمية فى أولها، ولا تناسب بين الويل والهلاك وبين الرحمة والأمان.. لأن المقصود من سورة التوبة رفع الأمان الدنيوى عن جماعة المشركين وتسليط المؤمنين عليهم بالقتال، ولا كذلك تلك السور وقد يجاب عنه: بأن هذه السورة لا تشبهها سورة، فإنها ما تركت أحدا - كما قال حذيفة - إلا نالت منه وهضمته وبالغت فى شأنه، أما المنافقون والكافرون فظاهر، واما المؤمنون ففى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان.. إلى الفاسقين) وهو من أشد ما يخاطب به المخالف فكيف بالموافق؟ وليس فى سورة الهمزة ولا فى سورة المطففين ولا فى سورة المسد ما يشبه سورة التوبة أو يقاربها فى هذا المضمار، ولو سلم اشتمال سورة على نوع ما اشتملت عليه، لكن الامتياز بالكمية والكيفية مما لاسبيل إلى إنكاره، ولذلك تركت فيها البسملة.

ونحن نؤمن بعد دراسة كتاب الله أنه فى تفصيل سوره وآياته وترتيب سوره وآياته، لم يكن

أثرا لاجتهاد مجتهد، وإنما كان توفيقا ووحيا أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ونفذه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، وأن ذلك كان يتم بأمر النبى صلى الله عليه وسلم كتاب الوحى بالتزامه وأن سورا متعددة كانت تظل مفتوحة فى الوقت الواحد، فإذا نزلت آية أو آيات فى مناسبة واقعة تواجه واقعا قائما، أو تكمل حكما، أو تعدله، وفق المنهج المرسوم لهذا الدين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توضع فى موضعها من سورتها، وبذلك كانت هناك حكمة معينة فى أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات، وحكمة معينة كذلك فى ترتيبها فى مواضعها من السورة، ولقد لاحظنا أن هناك شخصية خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية كما أن هناك جوا معينا وظلالا معينة ثم تعبيرات بعينها فى السورة الواحدة تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية، والله أعلم بكلامه.

الهوامش

(١) المنار جزء ١١ ص ٩١ - ٩٤.
(٢) مناهل العرفان جـ١ ص ٩٢.
(٣) ذكره الدكتور أحمد الكومى فى بعض محاضراته.
(٤) صحيح مسلم جـ١ ص ٢١٤.
(٥) وهو صريح فى أنهما آخر ما نزل من هذه السورة لا من القرآن مطلقا إلا إذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت، وقد روى البخارى عن أبى الوليد عن شعبة عن أبى إسحق قال: سمعت البراء بن عازب يقول: آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة. وهنالك رواية: أن آخر آية نزلت هى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) والصحيح فى الرواية كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن آخر ما نزل من السور سورة النصر، ومن الآيات (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وكان بين نزولها وموت النبى ثمانون يوما وقيل تسع ليال .
(٦) تفسير المنار جـ ١١ ص ٩٣.
(٧) جزء ١ ص ٦٠.
(٨) عند ابن سعد وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم، أنه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الأنصارى، وفى رواية فى البخارى وغيره : عند ابى خزيمة، وهى أرجح، إلا أن تكونا وجدتا ضد كل منهما، وفى الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر براءة مع خزيمة من ثابت أو أبى خزيمة، بالشك، وهو من الراوى لامن زيد، والتحقيق الذى قرره الحافظ بن حجر أن آخر التوبة وجدت عند أبى خزيمة، وأن الذى وجد مع خزيمة هو آخر الأحزاب، وذلك ما رواه البخارى فى تفسير سورتها، منار جـ ١١ ص ٩٢ - ٩٣.
(٩) البيان فى مباحث علوم القرآن للدكتور غزلان ص ١٧٣- ١٧٤.
(١٠) سيجيء مزيد بيان وتحقيق لهذه الكلمة عندما تذكر هذه الرواية فى الفصل الأول من الباب الرابع إن شاء الله.
(١١) مروى عن الحسن.
(١٢) مروى عن قتادة.
(١٣) تفسير الالوسى جـ٣ ص٢٦٦.
(١٤) متن الشاطبية للإمام الشاطبى فى القراءات السبع وهى ١١٧٣ بيتا.
(١٥) مذكرة فى القراءات للدكتور على خليل.
(١٦) سورة الحجر آية ٩.
(١٧) سورة فصلت آية ٤٢.
(١٨) تفسير الرازى جـ٤ ص ٥٨٢-٥٨١.
(١٩) تفسير ابى السعود جـ٢ ص. ٢٥١

الباب الأول

علاقة المسلمين بخصومهم من المشركين

أستعراض عام ـ منهجان مختلفان لا لقاء بينهما ـ ضرورة الخطوة النهائية: أسبابها المباشرة وغير المباشرة ـ أعراض متشابكة اقتضت التفصيل والبيان ـ أجواء وأضواء أمير الحج وسفير الرسول ـ تعقيب ـ سبب بعث علي.

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله، وأن الله مخزين الكافرين (إلى قوله تعالى) يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم).

(استعراض عام)

هذا الجزء من سياق السورة نزل متأخرا عن بقيتها، وإن كان قد جاء ترتيبه فى مقدمتها وترتيب الآيات فى السورة كان يتم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أمر توفيقى منه وهو يتضمن إنهاء العهود التى كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة أو الناكثين لعهودهم، أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ولم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا.

فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هى إنهاء العهود مع المشركين فى الجزيرة العربية وإنهاء مبدأ التعاقد أصلا مع المشركين بعد ذلك، وذلك بالبراءة المطلقة من المشركين، باستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، وبأنظارهم بعد هذا الإعلان مهلة يتخذون فيها أهبتهم، ويدبرون فيها أمرهم، ويتنقلون فى الأرض آمنين، ثم تعلن بعدها الحرب العامة بين المسلمين والمشركين في أنحاء الجزيرة كلها، كما يتضمن بيانا لأسباب هذا القرار الحاسم، واستحقاق المشركين للقتل والقتال، بما قدموا للمسلمين من إيذاء، وبما يحملون لهم فى نفوسهم من غل، وبما يدبرون لهم من شر، وبما نكثوا من عهودهم وإيمانهم مع الرسول والمسلمين.

كذلك يكشف عن حكمة الجهاد وعلته فى خاصة الجماعة الإسلامية.. إنه ابتلاء وامتحان لكشف الخبىء فى الصدور، وتمييز الفئة المؤمنة المجاهدة، وفضح المنافقين الذين يسرون غير ما يعلنون، ويتخذون لهم دخيلة دون الله ورسوله ودون المؤمنين.

ثم يقرر عدم استحقاق المشركين لعمارة البيت ولعمارة بيوت الله جميعا، فذلك حق المسلمين الذين يقومون فى بيوت الله عن إيمان وطهارة واعتقاد، وما كانت عمارة المشركين للبيت وسقاية الحاج فى الجاهلية لتعطيهم هذا الحق فى الإسلام، ولا لتعفيهم من نبذ عهودهم ومعالنتهم بالقتال.

ولما كانت هناك وشائج من القرابة والصلات والمصالح بين المسلمين والمشركين ما تزال فقد جاء الأمر الصريح الحاسم بحسم هذه العلاقات ونبذها وتهديد من يبقى على شيء منها ويتأثر بها أى تأثر، فإما أن يتجرد المسلمون من كل مصالح الأرض فى سبيل العقيدة، وإما أن ينتظروا جزاء الفاسقين عن دين الله، وهو وعيد رهيب مخيف.

ثم تذكير المسلمين بموقفهم فى حنين - إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا - ليتذكروا أن النصر إنما هو بيد الله وحده، فإن أرادوا النصر فليتجردوا لله من كل قرابة وكل مصلحة وكل لذة.

وينتهى الدرس بإعلان حاسم جازم «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا).. فلا سماح للمشركين بالطواف بالمسجد الحرام أو عمارته فى صورة من الصور بعد ذلك - خلافا لما كان عليه العهد العام المطلق بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين أن يأمن بعضهم بعضا فى البيت الحرام والأشهر الحرم مع بقائهم على شركهم - وبه ينتهى تحديد العلاقة بين المعسكرين تحديدا فاصلا واضحا لا رجعة فيه.

«منهجان مختلفان لالقاء بينهما»

إن الذى يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها، ليرى من خلالها الواقع التاريخى للمنهج الحركى الإسلامى، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج فى ذاته ومراحله وأهدافه: يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة فى العلاقات بين المعسكر الإسلامى فى الجزيرة وسائر معسكرات المشركين وكذلك بينه وبين معسكرات أهل الكتاب التى تقررت فى هذه السورة - كان قد جاء موعدها وتمهدت لها الأرض، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هى الخطوة الطبيعية فى أوانها المحتوم كان قد تبين من الواقع العملى مرحلة بعد مرحلة، وتجربة بعد تجربة، أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذرى العميق البعيد المدى، الشامل لكل جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور والخلق والسلوك والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى - والإنسانى وهو الاختلاف الذى لابد أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور: منهجين للحياة، أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك، والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر وللآلهة المدعاة وللأرباب المتفرقة، ثم يقع بينهما التصادم فى كل خطوة من خطوات الحياة، لأن كل خطوة من خطوات الحياة فى أحد المنهجين لابد أن تكون مختلفة مع الأخرى ومتصادمة معها تماما وفى مثل هذين المنهجين، وفى مثل هذين النظامين.

لا لقاء بين منهجين مختلفين: منهج يدعو إلى تطهير الأرض من الشرك وإلى الإصلاح البشرى العام، وإلى الخير والبر والمعروف والفضيلة، وإلى عبادة الله الواحد.. وما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل من مبدأ الخليقة، وما كانت الرسالة المحمدية التى ختم الله بها رسالاته وما

كان هذا الجهاد الذى قام به محمد وصحبه إلا لدعوة الناس إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له: ومنهج آخر يدعو إلى أن تؤدى المناسك على النظام الجاهلى: شرك فى السجود، شرك فى التلبية، عرى فى الطواف.. هذه العبادة الشركية الضالة زل بها العقل البشرى وأودت بكرامة الإنسان، وكانت فى حقيقتها ومعناها تمثل بما لها من تقاليد وعادات أسوأ نظام عرفه البشر إلى يوم الناس هذا.. كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء وعضلهن عن الزواج طمعا فى مالهن وإرث النساء كرها، كان فيه استغلال حاجة المحتاجين فى أقبح صور الاستغلال، كانت فيه الإباحة الخلقية والاجتماعية إلى حد تخجل منه الإنسانية .. فالشرك بما يحمل فى طياته من هذه الشرور والمآثم صورة جامحة على الإيمان وما يحمل فى طياته من خير وصلاح، واجتماع منهجين هذا شأنهما اجتماع لا يقره عقل ولا يقبله شرع وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر العام إزاء منبع الخير العام وإلا اضطرب الخير واستهدف لتيارات الشر والتوت طرق الهدى والصلاح.. (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) (١)

وهذه الحقيقة كان يعرفها تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أستاذهم، بل كانوا يدركونها واقعا محسوسا فى حياتهم، يدركون هذه النقلة البعيدة التى نقلهم إليه المنهج القرآنى وأنقذهم من هذا الحضيض، يدركون هذا المجد السامق الذى أوصلهم إليه الإسلام بعد ترديهم فى هذه الهوة الساحقة، يدركون هذه اليد الطاهرة التى أمسكت بأيديهم فجذبتهم من الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى حتى رفعتهم إلي التحليق فى السماء والاتصال بالملأ الأعلى.. يدركون كل هذا ويعرفون البون الشاسع بين المنهجين، فلا عجب من أن يقف هؤلاء التلاميذ من الصحابة رضوان الله عليهم. يشرحون لملوك الأرض وقوادها ذلك البعد البعيد والفرق المديد بين منهج الإسلام ومنهج الأصنام والأزلام..

سأل النجاشى: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟ وكان جعفر بن أبى طالب ضمن المهاجرين إلى الحبشة الحاضرين هذا السؤال فتولى الإجابة عنه قال: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، ثم أخذ يعدد عليه أمور الإسلام (٢) وقال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد: الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (٣).

ليست فلتة عارضة:

إنها لم تكن فلتة عارضة أن يقف المشركون من المؤمنين هذه المواقف الشديدة التى قصها التاريخ علينا والتى كان منها صدهم عن المسجد الحرام (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ

محله) (ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن اولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية».

إنها لم تكن فلتة عارضة أن تقف قريش تلك الوقفة العنيدة لدعوة (أن لا إله الله وأن محمدا رسول الله) فى مكة، ولا أن تحاربها هذه الحرب الجائرة فى المدينة، ولم تكن فلتة عارضة أن يقف اليهود فى المدينة كذلك لهذه الحركة، وأن يجمعهم مع المشركين معسكر واحد - وهم من أهل الكتاب (وأن يؤلب اليهود وتؤلب قريش قبائل العرب فى الجزيرة فى غزوة الأحزاب لاستئصال شأفة ذلك الخطر الذى يتهدد الجميع بمجرد قيام الدولة فى المدينة على أساس هذه العقيدة، وإقامة نظامها وفق ذلك المنهج الربانى المتفرد).

وكذلك سنعلم بعد قليل أنها لم تكن فلتة عابرة أن يقف النصارى وهم من أهل الكتاب كذلك لهذه الدعوة ولهذه الحركة، سواء فى اليمن أم فى الشام أم فيما وراء اليمن ووراء الشام إلى آخر الزمان!

إنها طبائع الأشياء.. إنها أولا طبيعة المنهج الإسلامى التى يعرفها جيدا - ويستشعرها بالفطرة - أصحاب المناهج الأخرى، طبيعة الإصرار على إقامة الدولة الإسلامية، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الحواجز المادية التى تحول بين الناس كافة، وبين حرية الاختيار الحقيقية، ثم إنها ثانيا طبيعة التعارض بين منهجين للحياة لا التلقاء بينهما فى كبيرة ولا صغيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربانى الذى يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم فهى حتمية لا اختيار فيها فى الحقيقة لهؤلاء ولا هؤلاء!

ضرورة الخطوة النهائية

أسبابها المباشرة وغير المباشرة

وكانت هذه الحتمية تفعل فعلها على مدى الزمن وعلى مدى التجارب، وتتجلى فى صور شتى، تؤكد وتعمق ضرورة الخطوة النهائية الأخيرة التى أعلنت فى هذه السورة.

ولم تكن الأسباب القريبة المباشرة التى تذكرها بعض الروايات إلا حلقات فى سلسلة طويلة ممتدة على مدى السيرة النبوية الشريفة وعلى مدى الحركة الإسلامية منذ أيامها الأولى.. وبهذه السعة فى النظرة إلى الجذور الأصيلة للموقف، وإلى تحركاته المستمرة يمكن فهم هذه الخطوة الأخيرة، وذلك مع عدم إغفال الأسباب القريبة المباشرة، لأنها بدورها لا تعدو أن تكون حلقات فى تلك السلسلة الطويلة.

ولقد ذكر الإمام البغوى فى تفسيره أن المفسرين قالوا: إنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أرجف المنافقون وأخذ المشركون ينقضون عهودهم فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء مع إمهالهم أربعة أشهر إن كانت مدة عهدهم أقل، أو قصرها على أربعة أشهر إن كانت أكثر وذكر الإمام الطبرى - بعد استعراضه الأقوال فى تفسير مطلع السورة -: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن

لهم بالسياحة فيه بقوله: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه فإن الله جل ثناؤه أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين)(٤).

ومما رواه الطبرى كذلك (٥) بإسناده عن مجاهد قوله : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) قال: أهل العهد: مدلج والعرب الذين عاهدهم ومن كان له عهد قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرغ منها وأراد الحج ثم قال: (إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك) فأرسل أبا بكر وعليا رحمة الله عليهما . فطافا بالناس بذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالموسم كله وآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر يخلون من شهر ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا، فآمن الناس أجمعون حينئذ ولم يسح أحد) (٦)، وهذه الأسباب القريبة المباشرة لاشك كان لها وزنها فى اتخاذ الخطوة الأخيرة الحاسمة، ولكنها بدورها ليست إلا حلقات فى السلسلة الطويلة الناشئة ابتداء من الحتمية الجذرية الكبيرة .. وهى تعارض المنهجين أصلا، وعدم إمكان التعايش بينهما إلا فترات اضطرارية تنتهى حتما .

رأى المنار: وقد أراد المرحوم الشيخ رشيد رضا أن يلم بحلقات السلسلة منذ بدء الدعوة . وأن يكن لم يحاول أن يلم بأصل الاختلاف الجذرى الدائم الذى ينشىء هذه السلسلة بحلقاتها والذى ينتهى بما انتهت إليه حتما . فقال فى تفسير المنار: من المشهور القطعى الذى لا خلاف فيه أن الله تعالى بعث محمدا رسولا وخاتم النبيين بالإسلام الذى أكمل به الدين وجعل آيته الكبرى هذا القرآن المعجز للبشر من وجوه كثيرة ذكرنا كلياتها فى تفسير (٢: ٢٣) (ص١٩٠ . ص٢٢٨جـ١) وأقام بناء الدعوة إليه على أساس البراهين العقلية والعلمية المقنعة والملزمة ومنع الإكراه والحمل عليه بالقوة كما بيناه فى تفسير (٢: ٢٥٦ ص٣٦ . ص٤٠جـ٣) فقاومه المشركون وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدهم عنه وصدوه صلى الله عليه وسلم عن تبليغه للناس بالقوة، ولم يكن أحد ممن أتبعه يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب الا بتأمين حليف أو قريب، فهاجر من هاجر منهم المرة بعد المرة، ثم اشتد إيذاؤهم للرسول صلى الله عليه وسلم حتى ائتمروا بحبسه الدائم أو نفيه أو قتله علنا فى دار الندوة، ورجحوا فى آخر الأمر قتله، فأمره الله تعالى بالهجرة كما تقدم فى تفسير (٨ . ٣٠) وإذ يمكر بك الذين كفروا (ص٦٥٠ جـ٩) فهاجر صلى الله عليه وسلم وصار يتبعه من قدر على الهجرة من أصحابه إلى حيث وجدوا من مهاجرهم بالمدينة المنورة أنصارا لله ولرسوله، يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرونهم على أنفسهم، وكانت الحال بينهم وبين مشركى مكة وغيرهم من العرب حرب بالطبع وبمقتضى العرف العام فى ذلك العصر وعاهد صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون، فخانوا وغدروا ونقضوا عهودهم له بما كانوا يوالون المشركين

ويظاهرونهم كلما حاربوه، كما تقدم بيان ذلك كله فى تفسير سورة الأنفال من هذا الجزء (ص٥٣ - ص٦٨) وقد عاهد صلى الله عليه وسلم المشركين فى الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيما منتهى التساهل عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة، ولكن حبا بالإسلام ونشر دينه بالإقناع والحجة، ودخلت خزاعة فى عهده صلى الله عليه وسلم، كما دخلت بنو بكر فى عهد قريش ثم عدا هؤلاء على أولئك وأعانتهم قريش بالسلاح، فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة الحرب العامة معه، وفتحه صلى الله عليه وسلم لمكة، الذى خضد شوكة الشرك وأذل أهله، ولكنهم مازالوا يحاربونه حينما قدروا، وثبت بالتجربة لهم فى حالى قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم كما يأتى قريبا فى قوله تعالى من هذه السورة (٧) كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلى قوله فى آخر آية ١٢ - فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون) أى لا عهود لهم يرعونها ويوفون بها، والمراد أنه لا يمكن أن يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية فيأمن كل منهم شر الآخر وعدوانه مع بقائهم على شركهم الذى ليس له شرع يدان به [٧] فيجب الوفاء بالعهد بإيجابه، كيف وقد سبقهم إلى الغدر ونقض الميثاق من كانوا أجدر بالوفاء وهم أهل الكتاب[٨].

هذا هو الأصل الشرعى الذى بنى عليه ما جاءت به هذه السورة من نبذ عهودهم المطلقة وإتمام مدة عهدهم المؤقتة لمن استقام عليها، وأما حكمة ذلك فهى محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة وجعلها خالصة للمسلمين مع مراعاة الأصول السابقة فى قوله تعالى (٢: ١٩٠ «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» وقوله (٨:٦١) «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» (بقدر الإمكان، وإن قال الجمهور بنسخ هذه الأية بآية السيف من هذه السورة ونبذ عهود الشرك) أ.هـ [٩].

وظاهر من هذا الاستعراض ومن التعقيب عليه ومما جاء عليه ومما جاء بعده فى تفسير السورة فى تفسير المنار.. أنه مع لمس السبب الأصيل العميق الكامن وراء هذه السلسلة من نقض العهود واغتنام أول فرصة لحرب الإسلام وأهله من المشركين وأهل الكتاب.. فإن المؤلف لا يتابع هذا السبب إلى جذوره، ولا يرى امتداده وشموله، ولا يستشرف الحقيقة الكبيرة فى طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى، وطبيعة الاختلاف الجذرى بين منهج الله ومناهج العبيد التى لا يمكن الالتقاء على شىء منها، وبالتالى لا يمكن التعايش الطويل بين المعسكرات القائمة على منهج الله وهذه المناهج أصلا.

أعراض متشابكة اقتضت التفصيل والبيان

إن وضوح الأمر كله للقيادة المسلمة - حينذاك - لم يكن معناه وضوحه - بنفس الدرجة - لكل الجماعات والطوائف فى المجتمع المسلم وبخاصة لحديثى العهد بالإيمان والمؤلفة قلوبهم فضلا عن ضعاف القلوب والمنافقين.

كان فى المجتمع المسلم - ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم من يتحرج من إنهاء العهود مع المشركين جميعا - بعد أربعة أشهر للناكثين ومن لهم عهود غير مؤقتة، ومن لم

يحاربوا المسلمين ولو من غير عهد، ومن لهم عهود أقل من أربعة، وبعد انقضاء الأجل لمن لهم عهود موقوتة ولم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا - ولئن كانوا يستسيغون نبذ عهود الناكثين والذين تخاف منهم الخيانة، كما سبق فى الحكم المرحلى الذى تضمنته سورة الأنفال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)(١٠) تفسير المنار جـ ١٠ ص١٤٩: ص١٥٠.

فإن إنهاء عهود غيرهم بعد أربعة أشهر أو بعد الأجل المقدر ربما بدا لهم مخالفا لما عهدوه وألفوه من معاهدة المعاهدين وموادعة الموادعين وترك المهادنين، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يريد أمرا أكبر من المألوف وخطوة وراء ما انتهت إليه الأمور!

وكان فى المجتمع المسلم كذلك - ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم كذلك - من يرى أنه لم تعد هناك ضرورة لقتال المشركين عامة ومتابعتهم حتى يفيئوا إلى الإسلام، بعدما ظهر الإسلام فى الجزيرة وغلب، ولم تبق إلا جيوب متناثرة هنا وهناك لاخوف منها على الإسلام اليوم، ومن المتوقع أن تفىء رويدا رويدا - فى ظل السلم - إلى الإسلام.

ولا يخلو هذا الفريق من التحرج من قتال الأقرباء والأصدقاء ومن تربطهم بهم علاقات اجتماعية واقتصادية متنوعة، متى كان هناك أمل فى دخولهم فى الإسلام، بغير هذا الإجراء العنيف ولكن الله سبحانه كان يريد أن تقوم آصرة التجمع على العقيدة وحدها وأن تخلص الجزيرة للإسلام وأن تصبح كلها قاعدة أمينة له، وهو يعلم أن الروم يبيتون للإسلام على مشارف الشام كما سيجىء!

وكان فى المجتمع المسلم - ولعل بعض هؤلاء كان من كرام المسلمين وخيارهم أيضا: من يخشى الكساد الذى يتوقعه من تعطيل الصلات التجارية والاقتصادية فى أنحاء الجزيرة بسبب إعلان القتال العام على المشركين كافة فيها، وتأثير ذلك فى موسم الحج، وبخاصة بعد إعلان (ألا يحج بعد العام مشرك، وألا يعمر المشركون مساجد الله) وبخاصة حين يضاف إلى هذا الاعتبار عدم ضرورة هذه الخطوة وإمكان الوصول إليها بالطرق السلمية البطيئة! ولكن الله سبحانه كان يريد أن تقوم آصرة التجمع على العقيدة وحدها - كما تقدم - وأن تكون العقيدة أرجح فى ميزان القلوب المؤمنة من كل ما عداها، سواء من القرابات والصداقات أم من المنافع والمصالح كما أنه سبحانه كان يريد أن يعلمهم أنه هو الرزاق وحده، وأن هذه الأسباب الظاهرة للرزق ليست هى الأسباب الوحيدة التى يملك أن يسخرها لهم بقدرته.

وكان فى المجتمع المسلم من ضعاف القلوب والمترددين والمؤلفة قلوبهم والمنافقين وغيرهم كذلك ممن دخلوا فى دين الله أفواجا ولم ينطبعوا بعد بالطابع الإسلامى من يفرق من قتال المشتركين كافة ومن الكساد الذى ينشأ من تعطيل المواسم وقلة الأمن فى التجارة والتنقل وانقطاع الأواصر والصلات، وتكاليف الجهاد العام فى النفوس والأموال ولا يجد فى نفسه دافعا لاحتمال هذا كله وهو إنما دخل فى الإسلام الغالب الظاهر المستقر فهى صفقة رابحة بلا عناء كبير.. أما هذا الذى يرادون عليه فما لهم وما له وهم حديثو عهد بالإسلام وتكاليفه!

وكان الله سبحانه وتعالى يريد أن يمحص الصفوف والقلوب وهو يقول للمسلمين (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون)(١١) هذه الأعراض المتشابكة فى المجتمع المسلم المختلط - بعد الفتح - اقتضت ذلك البيان الطويل المفصل المتعدد الأساليب والايحاءات فى هذا الدرس لمعالجة هذه الرواسب فى النفوس وهذه الخلخلة فى الصفوف وتلك الشبهات حتى فى قلوب بعض المسلمين المخلصين.

(أ) اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوة ونفس النغمة العالية حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويبرأ رسوله (١٢).

ب) واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأن الله مخزى الكافرين وأن الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه (١٣).

جـ) واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلا الذين عاهدوا ثم استقاموا فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه - مع تذكير المؤمنين بأن المشركين لا يراقبون فيهم عهدا ولا يتذممون من فعله لو أنهم قدروا عليهم، وتصوير كفرهم وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحيانا من مودة بسبب قوتهم (١٤).

د) واقتضت استثارة الذكريات المريرة فى نفوس المسلمين واستجاشة مشاعر الغيظ والانتقام وشفاء الصدور من أعدائهم وأعداء الله ودين الله (١٥).

هـ) واقتضت الأمر بالمفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ومقاومة مشاعر القرابة والمصلحة معا والتخيير بينهما وبين الله ورسوله والجهاد فى سبيله، ووقف المسلمين على مفرق الطرق(١٦).

و) واقتضت تذكيرهم بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة وأقربها يوم حنين الذى هزموا فيه فلم ينصرهم إلا الله بجنده وبتثبيته لرسوله(١٧).

ز) واقتضت أخيرا تطمينهم من ناحية الرزق الذى يخشون عليه من كساد الموسم وتعطل التجارة وتذكيرهم أن الرزق منوط بمشيئة الله لابهذه الأسباب الظاهرة التى يظنونها (١٨) وهذه التوكيدات والتقريرات، وهذه الإيحاءات والاستثارات، وهذه الحملة الطويلة المنوعة الأساليب تشى - كما تقدم - بحالة المجتمع المسلم بعد الفتح ودخول العناصر الجديدة الكثيرة فيه وبعد التوسع الأفقى السريع الذى جاء إلى المجتمع المسلم بهذه الأفواج التى لم تتطبع بعد بالطابع الإسلامى.

ولولا أن مجتمع المدينة كان قد وصل مع الزمن الطويل والتربية الطويلة إلى درجة من الاستقرار والصلابة والخلوص والاستنارة لكانت هذه الظواهر مثار خطر كبير على وجود الإسلام ذاته كما ذكرنا ذلك من قبل.

أجواء وأضواء

(الجو الذى نزلت فيه السورة)

كان المشركون يطوفون بالبيت الذى جعلوه مركزا لآلهتهم بل إن بعضهم كان يطوف عريانا وهو يصفق ويصفر، على أن كثيرا من المشركين كانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، وينكثون أيمانهم من بعد عهدهم ويطعنون فى دين المسلمين، ولا يتمسكون بالعهود إلا ريثما تلوح لهم الفرصة يحسبونها مواتية فينقضون على الإسلام والمسلمين.

كل هذه الأمور تحتاج إلى هزة عنيفة وتغيير شامل وثورة عارمة تودى بكل هذه النظم المخالفة لسنن الكون، والمرجحة كفة الشرك على كفة التوحيد، ثم ترد الأمور إلى نصابها وتعيد القوس إلى بارئها.

غير أن هذه الثورة الجامعة الشاملة لا يمكن أن تقوم حتى تتهيأ لها أمور:

أولا: قوة المسلمين العسكرية التى تستطيع أن تحمى مبادئ هذه الثورة.

ثانيا: سيطرة المسلمين سيطرة فعلية على البيت الحرام، بل على مكة، بل على الجزيرة كلها حتى تتمكن من تنفيذ بياناتها.

ثالثا: أن تكون وسائل الإعلام فى يد هذه الثورة، وحيث لم توجد وسائل الإعلام وقتئذ فلا أقل من أن يكون موقفا عاما جامعا شاملا يضم أكبر عدد من الناس حتى يعلم القاصى قبل الدانى أنباء هذا التغيير.

بيد أن هذه الأمور لم تتوافر للأمة المسلمة إلا بعد فتح مكة بسنة وأشهر، وبعد رجوع المسلمين من غزوة تبوك ظافرين منتصرين، وبعد هيمنتهم على الجزيرة العربية كلها حتى أطرافها الشمالية التى كانت موالية للروم .. وذلك فى أواخر سنة تسع من الهجرة، وفى موسم الحج فيها بالذات.. وإذ قد وجدت الظروف الملائمة للثورة فلتنزل الآيات ولتتخذ الخطوات، وليبتدئ التنفيذ، ولتصدر الأوامر المانعة من كل هذه الموبقات.

راكب العضباء:

إن الأيام الفزعة التى عاناها السابقون الأولون، والحوادث الهائلة التى طالما روعت أصحاب هذه العقيدة العظيمة، وجموع القبائل المتألبة، وأشياع الأحزاب الضالة المتحفزة، ودنيا المجرمين الذين شعروا بأن ليلهم سينجاب، ودولتهم ستذهب، وهذه الصحراء التى شخصت ذرات رمالها إلى أدوار الصراع العجيب بين أتباع الزعيم الأكبر محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أتباع التحلل والإلحاد واختلال النظم وافتراء المبادئ والابتعاد عن الله، ومكة وما انفجرت من ثورة أهليها، والمدينة وما وجه إليها من حملات حاشدة حاقدة.. تتراكم هذه المعانى فى ذهن راكب العضباء، ما ان تهدأ حتى تثور، وما إن تنتهى حتى تبدأ من جديد.

وكيف لا تجيش شتى العواطف فى صدر راكب العضباء، وتنطلق من محابسها لا يلوى

عنانها شىء وراكب العضباء يذرع بطحاء الجزيرة صوب البيت العتيق، وهو يحمل القرار الأخير فى تاريخ دعوته أنه يحمل سورة براءة.. السورة التى أعلنت الحرب على كل الأحزاب المريبة، والتى حددت موقف الإسلام الحاسم من أعدائه، والتى ثارت وسوف تظل ثائرة على كل عدوان يصيب المؤمنين، وكل غدر يتنزل بالمجاهدين.. والآن قد تغير الأمر كله، وسوف يعلم الناس قريبا.. وحث الراكب العظيم مطيته إلى البيت العتيق.

«أميرالحج وسفيرالرسول صلى الله عليه وسلم»

والذى حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك فى رمضان سنة تسع واستتب له الأمر هم بعد ذلك بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه - أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم، ثم نزلت براءة، فقيل: يا رسول الله: لو بعثت إلى أبى بكر؟ فقال: (لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى) ثم دعا عليا فقال: (اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان فمن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهو إلى مدته) فخر على - رضى الله عنه - على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء(١٩).

صف أبو بكر الناس خلفه، ثم استوى نحو القبلة وتهيأ للتكبير وإذا انتباهه يتجمع وسمعه يصيخ: هذا صوت العضباء ناقة رسول الله، ترى! هل بدا للرسول أن يحج هذا العام؟ إذن فليرجئ أبو بكر الشروع فى صلاته فلعل النبى الكريم أن يكون إمام القوم فى هذا الصبح الميمون.

واستدار أبو بكر ليستقبل القادم، وإذا صاحب الناقة على بن أبى طالب وليس رسول الله، فدهش أبو بكر وصاح: أمير أم سفير؟ بل سفير، جئت أتلو على الجموع الوافدة إلى البيت سورة براءة، ليبصر كل مشرك طريقه بعد اليوم.

هيهات أن تقر للطاغين عين، لقد صرع الشر واستبان السر، لئن كانت شراذم الأعراب وبضعة الرؤساء الحمقى قد وجدوا بالأمس هوادة من المسلمين ولينا فاستعلمت الغواية وطغى الباطل، أن اليوم تؤدب سيوف الإسلام النواصى الغبية والأهواء الشرسة وصيحة الحق لكارهيه هى (واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين).. وتلك صيحة لن تفتأ تتردد آخر الدهر.

وفى هذه الحجة الممهدة لحجة الوداع فيما بعد، كان أبو بكر يقف بمختلف المنازل فيعلم الناس مناسكهم ويعرفهم شعائرهم، ولما كان يوم التروية خطب أبو بكر بصفته أمام الحج، وفى يوم النحر قام على بن أبى طالب - بإرشاد أبى بكر بمنى - وفى رواية: عند جسرة العقبة - وقال: يا أيها الناس، إنى رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية أوائل سورة التوبة (٢٠) وأذن بالناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو إلى

مدته، فقالوا عند ذلك: يا على، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينهم عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف [٢١] إن علينا أسمع الحجيج قاطبة آى السورة التى نزعت من مطلعها رحمة الله بالجاحدين وبين أنه بعد أربعة أشهر ستطارد الوثنية من أرض الجزيرة .. كان فى كل موقف جامع يتلو على الناس هذه السورة وكان أبو هريرة يمشى كذلك بين صفوف الحاج يخترق خيامهم ويجوس خلال مضاربهم، ويصرخ بأعلى صوته: (لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان) وكانت الكثبان الجاثمة والآفاق البعيدة تردد مع الصائح هتافه، وتؤكد فى مقاطعة طلائع الفوز للمؤمنين، وتسوق إلى أفئدة المشركين سحائب من القنوط والهزيمة.. وظل أبو هريرة يهتف ويهتف حتى بح صوته وخفتت نبرته فسكت.

روى الطبرى ـ بإسناده ـ عن أبى هريرة قال: كنت مع على.. رحمة الله عليه ـ حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم ينادى، فكان إذا صحل صوتهناديت، قلت: بأى شىء كنتم تنادون؟ قال: بأربع، لا يطف بالكعبة عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[٢٢] ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك.

«تعقيب»

لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد، لقد كان صاحب هذه السيادة المطلقة ينهى عن الصلاة فى البيت، وها هو ذا يمنع طغاة الأمس عن التطواف به، وكانت هذه الكتيبة المؤمنة لا يأمن بنوها على أنفسهم، حتى ليوشك أن يتخطفهم الناس ثم أصبحوا ـ على ما رأيت ـ أصحاب الكلمة الجريئة الحازمة.

إنه العمل لله، ختامه أبدا النصر الجميل، (أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) [٢٣].

فلا غرابة أن كان بتلاوة على لهذه الآيات وما نادى به الناس بعد، أعلنت الكلمة النهائية للإسلام فى شبه الجزيرة، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان.. وقد أثمر هذا الإعلان ثمرته الطيبة المباركة، فلم يكد يرجع الناس وينتشر أمر هذا التبليغ، ويصل إلى أطراف البلاد حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية على شركها معلنة إسلامها، وبذلك تمت كلمة ربك للموحدين، وهكذا يفعل الحزم وتفعل أوامر من عرفوا بالحزم، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم وأن فيه لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التى يكفى إعلانهم إياها فى تطهير الجو من أسبابها هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى.. فليعلم من يشاء أن تشريع قانون يمحو الوثنية كتشريع قانون يمحو الأمية، عمل إنسانى نبيل، وأن اعتراضا عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها السمو والكرامة!

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاما يحارب الخرافة بالتعليم، والتربية كلما أتيحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب، وبالقصاص والقتال كلما وقف فى طريقه الجهال والضلال، يبطلون سعيه أو يصدون عنه.

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء ولم يفعل ذلك إعزازا لها - إنما هو حسن ظن يعقل الإنسان وضمير مفقل من يسفهون أنفسهم ويتركون الله العظيم إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .. فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم فى الفتنة والعدوان والقتل، لم يبق لتركهم من حكمة.

إن الكلب العقور لا يترك طليقا، فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل.. والذين يظنون أو يحلو لهم الظن بأن الإسلام عندما طارد الوثنية خنق حرية الرأى، هم أشخاص واهمون أو مغرضون.

وعلى هدى التجارب أو المصائب التى عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاما تعرف سر الغضب الذى اشتعل آخر الأمر، ولم نزل الوحى يعالن المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار؟ ثم يسرد ما أسفلوا من سيئات على أنه خليقة فيهم، لن ينفكوا عنها يوما، ولا يرجى أن ينفكوا عنها أبدا، ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهلة المضروبة لهم.

سبب بعث علي:

والسؤال هنا.. ما السبب الذى لأجله بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة هذه السورة عليهم وتبليغ هذه الرسالة إليهم؟ ولماذا لم يعهد الرسول إلى أبى بكر وهو أمير الحج أن يؤدى هذه المهمة؟ وفى الجواب قيل:

١) لما خص أبا بكر رضى الله عنه بتوليته أميرا لموسم خص عليا كرم الله وجهه بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية للجوانب.

٢) أو قرر أبا بكر على الموسم وبعث عليا خلفه لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلى على خلف أبى بكر ويكون ذلك جاريا مجرى التنبيه على إمارة أبى بكر.

٣) والأحسن أن يقال: إن ما كان بين المسلمين والمشركين من عهود إنما كانت معقودة باسم الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره ممثلا للمسلمين وهو بهذا الاعتبار لم يكن عند المشركين أكثر من رئيس قبيلة وليس لصفة النبوة حساب عندهم فى هذا الأمر، إذ لم يكونوا معترفين بنبوته وإلا لآمنوا به، ومن هنا لم يكن من وجهة نظر المشركين من المقبول أن يتولى نقض هذه العهود ونبذها إلى أصحابها إلا المتعاقد معهم، أو من يمثله من عصبته وذوى قرابته الأدنين وذلك أن أهل البيت أو القبيلة يحملون معهم تبعات الالتزامات التى بينهم وبين غيرهم، وأنه إذا جنى أحدهم جناية كانت تبعتها على الجماعة كلها، ولأنه لو تولاه أبو بكر لجاز أن يقولوا: هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود، فربما لم يقبلوا، ومن أجل هذا فإن النبى صلى الله عليه وسلم حين تلقى من ربه الأمر بنبذ العهود إلى المشركين قال (لا يبلغ عنى إلا أنا أو رجل من بيتى) فجعل ذلك إلى ابن عمه على، وان كان المسلمون جميعا على اختلاف بيوتهم وقبائلهم أهلا لأن يؤدى هذه المهمة، ولكن عند من يعترف بنبوة النبى ويعترف بالمسلمين كوحدة لا تتدين بدين وتجتمع على شريعة، ولكن المشركين كانوا يتعاملون مع النبى كواحد من بنى هاشم، ولا ينظرون كثيرا إلى من استجاب له وتبعه من المسلمين، ولهذا فإنه

حين يئست قريش من أن تمسك النبى عن القيام برسالته عمدت إلى مقاطعة بنى هاشم وفرض الحصار الاقتصادى والاجتماعى عليهم، وقد وقع بنو هاشم جميعا مؤمنهم ومشركهم تحت هذا الحكم ووقفوا له جميعا جبهة واحدة فى وجه قريش.

وأكبر تقريب لهذا الأمر هو أن أبا بكر كان فى مهمته يمثل - بأسلوب العصر - نائب الرئيس، أما على فكان فى مهمته الممثل الشخصى للرئيس ولاشك أن هناك فرقا ملموسا بين المهنتين، كما أن هناك فرقا واضحا بين موقفى الرجلين، ذلك يبحث القضايا العامة المنوطة بشأن الدولة وهذا يبحث القضايا الخاصة المتعلقة بشخص الرئيس.

والتبليغ المنفى ليس عاما، وكيف يمكن إرادة العموم وقد بلغ عنه صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأحكام الشرعية فى حياته وبعد وفاته كثير ممن لم يكن من أقاربه صلى الله عليه وسلم.

الهوامش

(١) سورة الحج آية ٣١.

(٢) تاريخ الأمة العربية القسم الثانى ص٦٦ - للدكتور شحاته.

(٣) الخلافة الإسلامية للدكتور بخيت ص ، ١١٤

(٤) تفسير الطبرى ص ١٠٢ جـ١٤.

(٥) تفسير الطبرى ص ١٠١ جـ ١٤.

(٦) واضح من النص القرآنى أنه أمهل ذوى العهود غير الناقضين إلى مدتهم، ولعل مجاهدا رحمه الله إنما عنى ذلك اجمالا.

(٧) ، (٨) من العجيب أنه مع لمس المؤلف - رحمه الله - لهذه الحقيقة الأصيلة التى هى القاعدة الأساسية لعدم إمكان التعايش على أساس المعاهدات بين المعسكر الإسلامى بمعسكر الشرك ومعسكر أهل الكتاب - إلا فى فترات موقوتة لا تمثل قاعدة دائمة - فإنه اتجه إلى أن قاعدة العلاقات بين المعسكر الإسلامى وهذه المعسكرات هى المعاهدات السلمية ما لم يقع الاعتداء على المسلمين فى دارهم، وأن هذا ممكن دائما وغيره هو الاستثناء، وأن الأمر خاص بمشركى الجزيرة، وهذا صحيح نسبيا ولكن حقيقة الأمر فى المشركين عامة هى ذاتها حقيقة مشركى الجزيرة كما سنبين فى أثناء مواجهة النصوص.

(٩) تفسير المنار جـ ١٠ ص١٤٩: ص١٥٠.

(١٠) الأنفال ٥٨.

(١١) التوبة ١٦.

(١٢) (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) . (وأذان من الله ورسوله).

(١٣) (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) (فإن تبتم فهو خير لكم).

(١٤) (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.. وأولئك هم المعتدون) ٧ - ١٠.

(١٥) (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم.. والله عليم حكيم) ١٢ - ١٥.

(١٦) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء.. الفاسقين) ٢٣ - ٢٤.

(١٧) (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة.. وذلك جزاء الكافرين) ٢٥ - ٢٦.

(١٨) «يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس» ٢٨.

(١٩) من رواية محمد بن إسحق بإسناد - عن محمد بن على بن الحسين بن على، وفيها: حتى أدرك أبابكر فى الطريق، فلما رآه أبوبكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور.

(٢٠) وماذكر من التردد بين ثلاثين وأربعين فتعبير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زيادة ونقصان والا فقد كانت - والله أعلم - سبعا وثلاثين آية، وفى الرازى: وعن مجاهد ثلاث عشرة آية وفيه ما فيه.

(٢١) وفى رواية إبن إسحق فلم يحج بعد العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فكان هذا براءة فيمن هو من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

(٢٢) هذه الجملة كالتوطئة لما بعدها إذ هى أمر مقرر معلوم من قبل لا ينص عليها إلا لغرض هو هذا.

(٢٣) سورة هود ١٧

الفصل الأول

الموقف النهائى من المشركين: الإسلام.. القتل

إعلان البراءة من عهود المشركين ـ مدة المهلة ـ مبدأها ـ حكمتها ـ من تشملهم المهلة – موعد إعلان البراءة ـ يوم الحج الأكبر ـ الإجراءات الواجبة بعد الأجل المضروب ـ آية الأمان.

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم، وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون».

إعلان البراءة من عهود المشركين

هذه الآيات وما بعدها إلى الآية الثامنة والعشرين نزلت تحدد العلاقات النهائية بين المجتمع الإسلامى الذى استقر وجوده فى المدينة، وفى الجزيرة العربية ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين فى الجزيرة الذين لم يدخلوا فى هذا الدين، سواء منهم من كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقضه حينما لاح له أن مواجهة المسلمين للروم ـ حين توجهوا لمقابلتهم فى تبوك ـ ستكون فيها القاضية وعلى الإسلام وأهله ـ أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهد من قوتهم، ومن لم يكن له عهد ولكنه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء، ومن كان له عهد ـ موقوت أو غير موقوت ـ وحافظ على عهده ولم ينقص المسلمين شيئا ولم يظاهر عليهم أحدا، فهؤلاء جميعا نزلت هذه الآيات، لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم فى ظل الاعتبارات التى مضى الحديث عنها بشىء من التوسع سواء فى المقدمة العامة أو فى مقدمة هذا الباب خاصة.

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين[1]) إعلان بقطع العلائق التى كانت تصل المؤمنين من عهود ومواثيق، فلا عهد ولا تعاهد، ولا سلم ولا أمان، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقوموهم أو يبيدوهم، وذلك لما أحدث المشركون من عبث بهذه العهود

واستخفاف بها، إذ إنهم كانوا لا يمسكون بها إلا إذا وجدوا فى ذلك مصلحة محققة لهم، فإذا أمكنتهم الفرصة فى المسلمين أنكروا هذه العهود وألقوا بها كما تلقى نفايات الطعام بعد الشبع، وهذا ما حدث عندما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فقد جعل المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

وإذا كان أحد الطرفين المتعاقدين لا يوقر ما تعاقد عليه ولا ينزله من نفسه منزلة الاحترام والرعاية ولا يستقيم عليه إلا إذا كانت له من ذلك مصلحة خاصة كان ذلك العقد غبنا فاحشا على الطرف الآخر الملتزم له الحريص على الوفاء به، حيث تمكنه الفرصة فى عدوه فلا يهتبلها، على حين لو أمكنت الفرصة خصمه لم يلتزم العقد الذى بينهما، فكان نقض هذه العهود القائمة بين المسلمين والمشركين وضعا للأمر فى موضعه الصحيح، إذ هو إقرار لحقيقة واقعة، ونقض لعهود منقوضة من قبل أن يجف المداد الذى كتبت به ولا ينتظر المشركون لنقضها إلا الوقت المناسب والفرصة السانحة.

والتبرؤ يكون من الاثم والخطيئة، ومن الأمر الشائن الذى يحسن البعد عنه ويسوء التلبس به.. وهذا هو الظل الذى يلقيه النص على عهود المشركين، وعلى كل صلة بينهم ـ منذ اللحظة وبين المسلمين: إن الله ورسوله يبرآن من كل صلة، ومن كل علاقة، ومن كل عهد يربط بين المسلمين والمشركين، فهى القطيعة الحاسمة الفاصلة التى لا رجعة فيها ولا هوادة.

وبراءة الله منهم معناها: طردهم من رحمته وتركهم للأهواء والضلالات المتسلطة عليهم، أما براءة رسول الله منهم: فهى قطع العلاقة التى كانت قائمة بينه وبينهم بحكم العهود التى كانت معقودة بين النبى وبين المشركين، فإذ قد برئ الله منهم وطردهم من مواقع رحمته، فقد وجب على النبى أن يقطع كل صلة بهم، إذ كانوا حربا على الله وعلى دين الله وعلى رسول الله وعلى المؤمنين.

ولا يدخل فى هذا التبرى قطع رحمته تعالى العامة عنهم التى كتبها على نفسه من جهة أنه الخالق الرب، وأنهم المخلوقون المربوبون، فهو مع هذا التبرى لا يزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق والتمكين من العمل حسب تقديره العام وسننه الشاملة فى خلقه، ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفة عين، ولما استطاع كافر أن يقف فى وجه مسلم: وفى القرآن ما يشير إلى أن كثرة الرزق وعرض الحياة الدنيا والتقلب فى البلاد قد يكون عند الله من وسائل الإملاء وتهيئة الطغيان للكافرين المفسدين.. (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد)[٣] (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين)[٤] (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كان ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)[٥] فالآية تكرر حكما تكليفيا للمسلمين فى شأن معاملة المشركين، ومعناه أن يحظر على المسلمين أن يعاهدوهم أو يبقوا على ما بينهم وبينهم من عهد ويرشد إلى هذا ضم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله سبحانه فى هذه البراءة والرسول لا شأن له مع الله فى سننه الكونية التى هى من مقتضيات

الربوبية العامة .. فباعتبار أن الآية تقرر حكما شرعيا والمشرع هو الله، أضيف صدور البراءة إليه سبحانه، ولمكانة الرسول فى القرب منه والتبليغ عنه وتنفيذ ما يبلغ عطف عليه فى هذا المقام وقيل: (براءة من الله ورسوله) وأيضا: فقد تولى الله عن المسلمين نقض هذه العهود، وجعل سبحانه ذلك إليه وإلى رسوله الكريم وذلك ليدفع عن المسلمين الحرج الذى ربما وجدوه فى صدورهم لو أمروا بنقض هذه العهود، وفى هذا ما فيه من لطف الله وإحسانه إلى المسلمين ورعايته لهم وبره بهم.

ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذا لأمر الله به، وأصله حق لجماعتهم، وإنما يقوم الإمام به نائبا عن الجماعة أضيف إلى جماعة المسلمين وقيل: (عاهدتم) ومعناه: إلى الذين عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يكن يتولى عقدها إلا هو أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه وأن عقود النبى صلى الله عليه وسلم على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم فلذا قال: (عاهدتم).

وكثيرا ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين : (كتب عليكم القصاص فى القتلى) (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وحتى قد يبدأ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ثم تخاطب الجماعة بالحكم (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) وهذا ونحوه - وهو كثير فى القرآن - تقرير لمبدأ :

١- أن الجماعة مصدر السلطات

٢- وأن الإمام يقوم بالنيابة عنها فى التشريع والتنفيذ بما يراه محققا لمصلحتها، التى فوضت إليه النظر فيها.

٣- ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين فى هذه الآية: جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى ذلك كأن خاف منهم خيانة، أو نقضوا شيئا من شروط المعاهدة أو وضعت المعاهدة على غير شرط من الشروط التى يحترمها الشرع وذلك كله أخذا من هذا المقام ومن قوله تعالى فى سورة الأنفال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء).

٤- كما يؤخذ من الآية أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص فى موضوع المعاهدات، وما هو لمصلحة الجماعة، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة. وأسلوب هذه الأية وإيقاع التعبير فيها يأخذ شكل الإعلان العام ورنينه العالى، فيتناسق أسلوب التعبير وإيقاعه مع موضوعه والجو الذى يحيط بهذا الموضوع على طريقة القرآن فى التعبير: هذا الإعلان العام بهذا الإيقاع العالى يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين فى ذلك الحين فى جزيرة العرب قاطبة، إذ إن العهود المشار إليها هى التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين فى الجزيرة، والإعلان ببراءة الله

وبراءة رسوله من المشركين يحدد موقف كل مسلم، ويوقع إيقاعا عميقا على قلب كل مسلم بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولا تردد، ثم يأتى بعد الإعلان العام البيانات والمخصصات والشروح لهذا الإعلان (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) [٦]

المهلة: المقصود بها ـ الحكمة منها ـ مقدارها ـ ابتداؤها ـ من يشملهم الأمر بالسياحة هذا بيان للمهلة التى أجل الله المشركين إليها.. أربعة أشهر يسيرون فيها ويتنقلون، ويتاجرون ويصفون حساباتهم، ويعدلون أوضاعهم آمنين، لا يؤخذون على غرة وهم آمنون إلى عهودهم، حتى أولئك الذين نقضوا عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم، وعند أول توقع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لن ينقلبوا إلى أهليهم من تبوك، وأن الروم سيأخذونهم أسرى كما توقع المرجفون فى المدينة والمنافقون. إن الإسلام لم يأتهم غدرا ولم يأخذهم بغته، ولم يجازهم على نقض عهودهم معه بأخذهم خلسة وهم غافلون إنما أنذرهم علانية، ثم أعطاهم مهلة كافية يسيحون فيها فى الأرض.. ينظمون أمورهم ويدبرون أحوالهم، من كانت له تجارة صفاها، ومن كان له دين تقاضاه، ومن كانت له صلات دبرها ومن كان مسافرا عاد، ومن كان يهم بسفر حسب حساب الحالة الجديدة فى العلاقات.

إنه العدل مع الخصوم، والشرف مع الأعداء، والنظافة والنصاعة، والأفق الكريم الوضىء الذى لم يبلغه إلا الإسلام.. ومتى كان ذلك؟ كان بعد فترة طويلة من العهود التى ما تكاد تبرم حتى تنقضى، وبعد سلسلة طويلة من التجارب التى تقطع بأن المشركين لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، وفى أى عصر تاريخى؟ فى العصر الذى لم تكن البشرية كلها تعرف لها قانونا إلاقانون الغابة، ولم يكن بين المجتمعات المختلفة إلا القدرة على الغزو أو العجز عنه بلا إنذار ولا إخطار، ولا رعاية لعهد متى سنحت الفرصة! ولكن الإسلام هو الإسلام منذ ذلك الزمان ذلك أنه منهج الله الذى لا علاقة له بالزمان فى أصوله ومبادئه، فليس الزمان هو الذى يرقيه ويطوره ولكنه هو الذى يرقى البشرية ويطورها حول محوره وداخل إطاره، بينما يواجه واقعها المتطور المتغير بتأثيره ـ بوسائل متجددة ومكافئة لما يطرأ عليها فى أثناء تحركه بها قدما من تطور وتغير.

وإذن فمن الميسور أن نوجز الحكمة من هذا الإعلام ومن إعطائهم تلك المهلة فى الأمور الآتية:

١ـ هذه المهلة فسحة يتمكن فيها المشركون من التفكير فى عاقبتهم، والنظر والتدبر لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم، ويعدون فيها أنفسهم للوضع الذى يتخيرونه بعد انقضاء هذه المدة: فإما أن يدخلوا فى الإسلام، وإما أن يستعدوا للمقاومة والصدام، والدخول مع المسلمين فى حرب وقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم، وهى مدة كافية كل الكفاية كى يقلب فيها المشركون وجوه النظر وهم يتخيرون لأنفسهم أعدل المواقف التى ينتهى إليها تفكيرهم وتقديرهم.

٢ـ تحقق رحمة الله بهم حيث لم يضيق عليهم أمر المهلة، على رغم أنهم مشركون وأنهم ناكثون، وأنهم لا وفاء لهم، وهذا من غرائب رحمة هذا الدين، وأعذاره إلى أعدى أعدائه المحاربين، وهذا وجه من وجوه الإسلام السمح، وآية من آياته المشرقة فى العدل والإحسان،

حتى فى مواقف المواجهة للعدو وفى ميدان الخصومة معه، وما كان لشريعة الله أن تكون على غير هذا الوجه الذى يقيم موازين العدل بين عباد الله جميعا مؤمنهم وكافرهم على السواء.

٣. ولئلا ينسب المسلمون إلى الغدر ونكث العهود أو على الأقل لئلا يقال: إن الإسلام أخذهم على غرة، ودانهم بما كانوا يدينون عند القدرة، فإن كان هذا من العدل فأين ما امتاز به من الفضل؟

٤. فيه إشارة إلى تعاظم قوة المسلمين وعدم اكتراثهم باستعدادات المشركين ومبالغة فى ذلك وإمعانا فى عدم المبالاة بهم، فقد منح القوى العزيز للضعيف الذليل فرصة يستعد فيها للقتال للتأكد من أن استعداده لن يغنى عنه شيئا ولن يجديه فتيلا.

٥ ـ أراد الله أن يعم جميع المشركين بالجهاد فعم الكل بالبراءة وأجلهم أربعة أشهر وذلك لقوة الإسلام وتخويف الكفار، ولا يصح ذلك إلا بمعالنتهم بنبذ العهود.

٦. أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يحج فى السنة الآتية، فأمر بإظهار هذه البراءة لئلا يشاهد العراة.

٧. ولعل الحكمة فى تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر أنها هى المدة التى كانت تفى ـ إذ ذاك ـ بحسب ما يألفون ـ لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة في الأرض والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهن من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير.. وفيه فوق ذلك مسايرة للوضع الإلهى فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة (منها أربعة حرم) على أنا نجد فى القرآن جعل الأربعة الأشهر أمدا فى غير هذا، فمدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، ولعل ذلك ـ وراء ما يعلمه الله – هى المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر وتبدل الأحوال على وجه تستقر بعده إلى ما يقصد إليه.

٨. ويؤخذ من منح المشركين هذه المهلة تقرير مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام، طلبها العدو أم تقدم المسلمون بها، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)[٧] وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة فى قوله تعالى: (وشاورهم فى الأمر)[٨] وذلك داخل الإطار الذى رسمه الإسلام ووقع فى حياة النبى، وهو أنه إذا كان بالمسلمين ضعف جاز عقد الهدنة إلى عشر سنين ـ كما حدث فى صلح الحديبية ـ فأقل، وإذا لم يكن بهم ضعف لم تجز الزيادة على أربعة أشهر[١٠]

ابتداء المهلة:

١) قال الزهرى: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم، وفى تفسير ابن كثير[١١]: وهذا القول غريب يقتضى أن تكون مدة الأربعة أشهر بعدد التبليغ شهرين لما سيأتى من كون تبليغهم البراءة كان يوم النحر فى منى، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك؟

٢) وقيل: ابتداء تلك المدة كان من عشر ذى القعدة إلى عشر من ربيع الأول، لأن الحج فى

تلك السنة كان فى ذلك الوقت بسبب النسىء، ثم صار فى السنة التالية من ذى الحجة، وهى حجة الوداع، واستدلوا على مدعاهم بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع: إلا أن الزمان قد استدار كهيئته.. إلخ) فهو يدل على أن الزمان قد استدار واستقام هذا العام فقط، وأنه فيما قبله من الأعوام لم يكن مستقيما، وبناء على ذلك وعلى إحدى قواعد النسىء عندهم فقد وقع الحج فى تلك السنة فى ذى القعدة.

ويرد هذا الرأى: أ) بأن كلام النبى صلى الله عليه وسلم لا يلزم أن يفهم منه هذا أو يدل عليه لجواز أن يكون هذا القول إخبارا عن واقع ابتداء وقوعه قبل هذا العام وليس ذلك بممتنع.

ب) ولأن الله تعالى سماه (يوم الحج الأكبر) فكيف يعقل بعد هذا أن يقع فى غير موعده.

جـ) ولأن كون السنة التى كانت بين الحجتين ثلاثة عشر شهرا لا يثبت إلا بنقل تاريخى موثوق به حتى يمكن ترتيب أفهام وأحداث عليه، وهو غير موجود قطعا.

٣. وإذ قد بطل الرأيان السابقان تعين المصير إلى القول الحق الذى لا محل للخلاف فيه وهو أن المهلة تبدأ من حين إعلامهم بهذا الوضع الجديد يوم النحر، أى من عشر ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر كما سيأتى فى قول ابن عباس ومجاهد.

من إذن لهم فى السياحة؟

اختلف أهل التأويل فيمن برئ الله ورسوله إليه من العهد الذى كان بينه وبينهم من المشركين فأذن له فى السياحة أربعة أشهر على أقوال متعددة، أصحها وأقربها إلى طبائع الأشياء وأكثرها تناسقا مع واقع الجماعة المسلمة يوم ذلك ما قرره ابن جرير الطبرى وهو يستعرض هذه الروايات، ونكتفى منها بقولين، ونقتطف هنا من تعليقاته ما يمثل رؤيتنا لحقيقة الواقعة، مغفلين ما لا نوافق عليه من كلامه وما تناقض فيه بعض قوله مع بعض، إذ كنا لا نناقش الروايات المتعددة ولا نناقش تعليقات الطبرى، ولكن نثبت ما نرجح أنه حقيقة ما حدث من مراجعة ما ورد وتحقيقه:

١. (فقال بعضهم: هم صنفان من المشركين: أحدهما كانت مدة العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل من أربعة أشهر وأمهل بالسياحة أربعة أشهر [١٢] والآخر منها كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيثما أدرك ويؤسر إلى أن يتوب) [١٣]

ويؤيد هذا ما قاله الطبرى فى رواية له عن مجاهد: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) قال: أهل العهد مدلج والعرب الذين عاهدهم، ومن كان له عهد قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرع منها وأراد الحج، ثم قال (إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبا بكر وعليا - رحمة الله عليهما - فطافا بالناس بذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالموسم كله وآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات،

عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر يخلون من شهر ربيع الآخر ثم لا عهد لهم، وآذن الناس كلهم بالقتال الا أن يؤمنوا فآمن الناس أجمعون حينئذ ولم يسح أحد) [١٤].

٢. (وقال آخرون: بل كان إمهال الله بسياحة أربعة أشهر من كان من المشركين بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، أما من لم يكن له من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فإنما كان أجله خمسين ليلة وذلك عشرون من ذى الحجة والمحرم كله) [١٥].

ويؤيده قول ابن عباس ضد ابن كثير: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا، وأجل من ليس عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضا حتى يدخلوا فى الإسلام [١٦]

ثم قال الطبرى: (وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم باتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) فإن ظن ظان أن قول الله تعالى ذكره (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يدل على خلاف ما قلنا فى ذلك إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم قتل كل مشرك، فإن الأمر فى ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التى تتلو ذلك تبين عن صحة ما قلنا، وفساد ما ظنه من ظن أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك كان له عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) فهؤلاء مشركون وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستقامة لهم فى عهدهم ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم).

(وبعد: ففى الأخبار المتظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حين بعث عليا ـ رحمة الله عليه ـ ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمرهم فيما أمره أن ينادى به فيهم (ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده فعهده إلى مدته) أوضح الدليل على صحة ما قلنا، وذلك أن الله لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض قبل التأجيل أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود، فأما من كان أجل عهده محدودا ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا، وبذلك بعث منادية ينادى به فى أهل الموسم من العرب) [١٧].

وقال فى تعقيب آخر على الروايات المتعددة فى شأن العهود: (فأنبأت هذه الأخبار ونظائرها عن صحة ما قلنا، وأن أجل الأشهر الأربعة إنما كان لمن وصفنا، فأما من كان عهده إلى مدة معلومة فلم يجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لنقضه ومظاهرة أعدائهم سبيلا، فإن رسول الله قد وفى له بعهده إلى مدته عن أمر الله إياه بذلك وعلى ذلك ظاهر التنزيل، وتظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) [١٨].

ثم أيلت الأية بالحقيقة الواقعة، التى تزلزل قلوب المشركين وتوقظهم إلى هذه الحقيقة ليفتحوا عيونهم عليها ولتستقر وتتمكن فى نفوسهم أيما تمكن، وهى أن تلك المهلة ليست عن تردد أو خوف، فهى مهلة يقتضها الشرف والعدالة، ولكنها لن تعطى المشركين فرصة السبق والغلب، لأن قوتهم البشرية الفانية إنما تقف أمام القوة الجبارة الباقية، وأنهم وإن تمكنوا بها من جمع العدد والعدد لمحاربة المؤمنين ـ إذا استقر رأيهم على المحاربة ـ فإنه لا يفوتهم ما يريد الله بهم، وأنهم منحوا مهلة أم أخذوا غرة ـ غير قادرين على تعجيز الله عنهم أو تخليص أنفسهم منهم، فلا مفر لهم أينما كانوا، وكيفما كانوا، ولابد أن تلحقهم سنة الله فى الكافرين من الإخزاء والإذلال (واعلموا أنكم غير معجزى الله، وأن الله مخزى الكافرين)..

إنهم بسياحتهم فى الأرض لن يعجزوا الله فى الطلب، ولن يفلتوا منه بالهرب، ولن يفلتوا من مصير محتوم قدره وقرره، أن يخزيهم ويفضحهم، وأن الله سبحانه هو الذى يطلبهم، وأن يد الله لا تقصر عنهم فى أى متجه اتجهوا إليه، فإلى أين يفلتون ويهربون فيعجزون الله عن طلبهم والإتيان بهم، وهم فى قبضته سبحانه.. والأرض كلها فى قبضته كذلك؟ وقد قرر وقدر عليهم الخزى والهزيمة، فهى من نصيبهم لا تفوتهم إذ لا راد لقضائه.

وقد عاد فى الجملة الثانية إلى الغيبة بعد الحضور، ليذكر سبب ذلك الوعيد، وهو الكفر بالله ودينه، وليرشد إلى أن الخزى لا يختص بهؤلاء المشركين الحاضرين المخاطبين، وإنما هو شأن الله وسنته مع كل من تحقق فيه الكفر إلى يوم الدين: يخزيهم فى الدنيا بذل الخيبة والفضيحة، ثم يخزيهم فى الآخرة أيضا بعذاب النار، فتلك سنته تعالى فيهم، كما قال تعالى فى مشركى مكة ومن اقتدى بهم : (فأذاهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) [١٩] وقال فى عاد: (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون)[٢٠].

والظهر أن المراد بالخزى هنا ما يكون لهم فى الدنيا للتصريح بعذاب الآخرة فى الآية التالية.

(موعد إعلان البراءة)

بعد ذلك يبين الموعد الذى تعلن فيه هذه البراءة وتبلغ إلى المشركين لينذروا بها وبالموعد المضروب فيها.. (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) [٢١]

وقد أعلن هذا الأذان على الحجيج فى موسم الحج سنة تسع من الهجرة فى يوم عرفة أو

يوم النحر، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - هو الذى ندبه الرسول صلى الله عليه وسلم أميرا على الناس يومئذ ليقيم لهم حجهم، وكان موسم الحج هذا العام مجتمعا للمسلمين والمشركين، حيث يقيم المؤمنون حجهم على الوجه الذى يبينه الإسلام لهم، على حين يقيم المشركون حجمهم على ما كانوا عليه فى الجاهلية، وكان من عادتهم أن يطوفوا بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف فى ثوب عصينا الله فيه، وقد آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يشهد هذا المشهد الكريه من المشركين، فأقام أبا بكر مقامه فى هذا الموسم سنة تسع - فلما كانت السنة العاشرة وطهر الله المسجد الحرام من الشرك والمشركين حج النبى حجة الوداع - وما كاد أبو بكر ينفصل عن المدينة فى طريقه إلى البلد الحرام حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه هذه الآيات الأولى من سورة براءة، فأمر على بن أبى طالب أن يؤدى عنه هذا الأمر وأن يؤذن به فى الناس يوم الحج الأكبر وكان على فى تلك الحجة تابعا لأبى بكر فى إمارته العامة حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذى يبلغ ذلك فيه فيقول: يا على، قم فبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أمر بعض الصحابة بمساعدة على فى هذا التبليغ، كما ورد فى حديث أبى هريرة، فكان على ينادى بها، فإذا بح قام أبو هريرة فنادى بها).

لقد اختير يوم جامع حافل، يوم النحر بمنى، حيث يجتمع الحجيج من كل فج، ويتلاقى الناس من كل واد، اختير هذا اليوم الجامع الحافل ليعلن الإسلام على رؤوس الأشهاد نبذ عهود المشركين إليهم، وإعلان الحرب العامة عليهم.

وإنما جعل إعلان البراءة وما يتبعها إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، لأنها مما يجب أن يعلمها الناس جميعا لتعلق أحكامها بالجميع، ومن هنا جعل وقتها يوم الحج الأكبر الذى يضم أكبر عدد يمكن إذاعة الخبر عن طريقهم فى جميع أنحاء البلاد، وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة للتبليغ العام.

وقد وقع للناس فى الموسم، وأعلنت براءة الله ورسوله من المشركين كافة - من ناحية المبدأ - وجاء الاستثناء فى الإبقاء على العهد إلى مدته فى الآية التالية، والحكمة واضحة فى تقرير المبدأ العام ابتداء فى صورة الشمول، لأنه هو الذى يمثل طبيعة العلاقات النهائية، أما الاستثناء فهو خاص بحالات تنتهى بانتهاء الأجل المضروب، وهذا الفهم هو الذى توحى به النظرة الواسعة لطبيعة العلاقات الحتمية بين المعسكر الذى يجعل الناس عبيدا لله وحده والمعسكرات التى تجعل الناس عبيدا للشركاء كما تقدم.

ثم إنه تعالى بين أن ذلك الأذان بأى شىء كان؟ فقال: (إن الله برىء من المشركين ورسوله).. وإنما جاء السياق على هذا النظم، لتكون براءة الله من المشركين هى الأصل، ثم تجىء براءة رسول الله منهم تبعا لتلك البراءة، ثم تجىء براءة المؤمنين تبعا لبراءة الله ورسوله.

ولقائل أن يقول: لا فرق بين قوله تعالى (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وبين قوله سبحانه (إن الله برىء من المشركين ورسوله) فما الفائدة فى هذا التكرار؟ والجواب من وجوه:

١) المقصود من الكلام الأول الإخبار بثبوت البراءة، والمقصود من هذا الكلام الإعلام بهذه البراءة على رؤوس الأشهاد، أى إعلام جميع الناس بما حصل وثبت.

٢) إن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، ومن الكلام الثانى البراءة التى هى هى نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذى يدل على حصول هذا الفرق أن فى البراءة الأولى (برىء اليهم) وفى الثانية (برىء منهم) والمقصود أنه تعالى أمر فى آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالى بعضهم بعضا ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا الكفار وأن يتبرأوا منهم، فها هنا بين أنه تعالى كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويذمهم ويلعنهم، وكذلك الرسول، ولذلك أتبعه بذكر التوبة المذيلة للبراءة.

٣. أنه تعالى فى الكلام الأول أظهر البراءة عن المشركين الذين عاهدوا ونقضوا العهد، وفى هذه الآية أظهر البراءة عن المشركين من غير أن يصفهم بوصف معين، تنبيها على أن الموجب لهذه البراءة كفرهم وشركهم.

ومع إعلان البراءة المطلقة تجىء دعوة مجددة من الله إلى المشركين أن يستجيبوا لله وللرسول فذلك هو الذى يحقق لهم الفوز والفلاح.. ويجىء تهديد لهم بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة إذا هم لم يتوبوا إلى الله ويخلصوا أنفسهم من الشر الذى استولى عليهم.. مع إعلانها يجىء الترغيب فى الهداية والترهيب من الضلال.. (فإن تبتم[٢٢] فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم).. وهذا الترهيب وذلك الترغيب فى آية البراءة يشيران إلى طبيعة المنهج الإسلامى.. إنه منهج هداية قبل كل شىء، فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر - كما كان الشأن فى العلاقات الدولية ولا يزال! ولكنه كذلك يمهلهم هذه المهلة للتروى والتدبر، واختيار الطريق الأقوم، ويرغبهم فى التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله ويرهبهم من التولى ويئيسهم من جدواه، وينذرهم بالعذاب الأليم فى الآخرة فوق الخزى فى الدنيا ويحذرهم بأنهم غير فائتيه ولن يفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر ويوقع فى قلوبهم الزلزلة التى ترجها رجا، لعل الركام الذى ران على الفطرة أن ينفض عنها، فتسمع وتستجيب!

إنها دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله، وبشارة بالخير - دون تفصيل - أن اختاروا التوبة والإيمان، فما يحمل لهم الإسلام ولا المسلمون حقدا شخصيا ولا عداء ذاتيا، إنما هو الإيمان مفرق الطريق بين حزب الله وحزب الشيطان، فمن دخل فى الصف فهو أخ يرحب به الإسلام والمسلمون، ومن خالف عنه فهو وما أراد، ولن يعجز الله ولن ينجو من العذاب.

ثم هو طمأنة للصف المسلم، ولكل ما فى قلوب بعضهم من مخاوف، ومن تردد وتهيب، ومن تحرج وتوقع، فالأمر قد صار فيه من الله قضاء، والمصير قد تقرر من قبل الابتداء!

ما يستفاد من الآية:

١. فيها إشارة إلى أن البراءة وإن كانت أثرا من آثار الغضب الإلهى، فإن إعلانها بهذه المدة وعلى هذا الوجه رحمة منه فى الغضب، وقد زاد مقتضى رحمته هنا على مقتضى غضبه،

ففتح لهم باب القبول والسلامة من عاقبة هذا الإنذار وإعلانه وأطمعهم فى التوبة عن الشركة ومخازيه، ثم عطف عليه الوعيد بالخزى فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة إذا لم يلبوا دعوة المسلم ويطهروا أنفسهم بالتوبة والإيمان.. وفى هذا إيحاء بسلوك طرق السلم، والإصلاح عن طريق الوعظ والإرشاد قبل التهديد بالعقوبة والأخذ بالشدة، وكثيرا ما تغنى الموعظة الحسنة عن العقاب الذى لا يقصد لذاته، (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما)[٢٣].

٢- دل قوله (وبشر الذين كفروا) بالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم، على أن المراد بالعذاب الأليم هو عذاب يوم الدين، الذى لا يعرف إلا عن طريق الوحى وتبليغ الرسول، وهو غير الخزى الناجز الذى يصيبهم فى الدنيا، والذى توعدوا به فى خطابهم باعتبار وصف الكفر فى قوله: (واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين).

٣- ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر فى حالة نبذ العهود لزوم إعلان العدو بذلك النبذ على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته، وفى ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى وهو بصدد قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة، فانبذ إليهم على سواء)[٢٤] (إنه لا يكفى مجرد إعلانهم بل لابد من مضى مدة يتمكن فيها ملكهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته، ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شىء من أطرافهم قبل مضى تلك المدة)، وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد، والبعد عن النكث بكل ما يستطاع.

يوم الحج الأكبر

اختلفت أقوال المفسرين والمحدثين ـ تبعا لاختلاف الصحابة والتابعين ـ فى تحديد يوم الحج الأكبر، وهذه هى الأقوال مع أدلتها:

القول الأول ـ أنه يوم عرفة: لقول على: فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة، وعن عطاء: يوم الحج الأكبر يوم عرفة، وعن عمر: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فيه حديث موسى ابن جريج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال: (هذا هو الحج الأكبر) وروى من وجه آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال (أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر)[٢٥].

وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعى، وحجتهم فى ذلك:

أ ـ أن يوم عرفة أفضل من يوم النحر.

ب ـ ولأن صيامه يكفر سنتين ماضية ومستقبلة.

جـ ـ وما من يوم يعتق الله فيه الرقاب أكثر منه فى يوم عرفة.

د ـ ولأنه سبحانه يدنو فيه ثم يباهى ملائكته بأهل الموقف[٢٦].

هـ ولقوله صلى الله عليه وسلم : «الحج عرفة»

و- ولأن أعظم أعمال الحج هو الوقوف بعرفة، لأن من أدركه فقد أدرك الحج، ومن فاته فقد فاته الحج، وذلك إنما يحصل فى هذا اليوم.

القول الثانى: إنه يوم النحر: لقول على: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وكذا قاله عبد الله بن أبى أوفى، وخطب المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر، وعن ابن عباس: الحج الأكبر يوم النحر.

وهكذا روى عن أبى جحيفه وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بين جبير بن مطعم والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة وأبى جعفر الباقر والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر.[٢٧]

وحجة القائلين بذلك:

أ) ان أعمال الحج إنما تتم فى هذا اليوم، وهى الطواف والنحر والحلق والرمى.

ب) وعن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة خبراء مخضرمة فقال: (أتدرون أى يوم يومكم هذا؟) قالوا: يوم النحر قال: (صدقتم، يوم الحج الأكبر) وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له، وأخذ الناس بخطامه - أو زمامه فقال: (أى يوم هذا؟) قال: فمكثنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: (أليس هذا يوم الحج الأكبر؟) وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج فى الصحيح، وعن عمرو بن الأحوص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال: (أى يوم هذا؟) فقالوا: يوم الحج الأكبر.[٢٨]

ج) وعن على كرم الله وجهه أن رجلا أخذ بلجام دابته فقال: ما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا خل عن دابته.[٢٩]

هذان هما القولان المعتبران فى هذا الموضوع لكثرة أدلتهما، وهناك قول ثالث: عن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر [٣٠] وهو مردود لعدم اقترانه بالدليل وقول رابع: وهو قول لمجاهد: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين، أى أيامه كلها، قال الرازى: يراد به الحين والزمان، لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياما كثيرة، وهو مردود أيضا، لأنه يقتضى تفسير اليوم بالأيام الكثيرة، وهو خلاف الظاهر، ولأنه وإن كان جائزا فى كلام العرب فليس بالأشهر الأعرف، وإنما محمل تأويل كتاب الله على الأشهر الأعرف من كلام من نزل الكتاب بلسانه [٣١].

القول المختار:

والذى يترجح عندى بل يكاد يكون هو القول الفصل - واختاره ابنا جرير والقيم - أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر للأسباب الآتية:

١- لأن الإعلام كان فى يوم النحر، لما ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعليا رضى الله

عنهما أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة، وقد ورد الحديث عن أبى هريرة فى صحيح البخارى: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى.

٢- ولحديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال: (هذا يوم الحج الأكبر) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه، وفى رواية: بين الجمرات فى الحجة التى حجها فقال: (أى يوم هذا؟) قالوا يوم النحر: قال: (هذا يوم الحج الأكبر) رواه البخارى تعليقا ورواه أبو داود وابن ماجة موصولا عنه وسنده صحيح، وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر) وهو أقوى رواية ودراية.

٣- ولأن خير الأيام عند الله يوم النحر، ففى السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم النفر) وفى زاد المعاد: لأن الحديث الدال على ذلك. أى هذا الحديث لا يعارضه شىء يقاومه.[٣٢].

٤- ولأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله.

٥- ولأن اليوم إنما يضاف إلى المعنى الذى يكون فيه وكذلك يوم الحج، يوم أضيف إلى المعنى الذى يكون فيه وهو الحج، وإنما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر، لأن فى ليلة نهار يوم النحر الوقوف بعرفة غير فائت إلى طلوع الفجر، وفى صبيحتها يعمل أعمال الحج.

٦- ولأن يوم عرفة بمثابة مقدمة ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمى طوافه طواف الزيارة لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم يوم النحر فى زيارته والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين والحلق والرمى.[٣٣] فإن قيل: لم سمى ذلك بالحج الأكبر؟ قلنا: فيه وجوه:

١- أن هذا هو الحج الأكبر، لأن العمرة تسمى بالحج الأصغر.

٢- أنه جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته، لأنه إذا فات الحج وكذلك إن أريد به يوم النحر، لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج.

٣- قال الحسن: سمي ذلك اليوم بيوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه، وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فمعظم ذلك اليوم فى قلب كل مؤمن وكافر، وقد طعن الأصم فى هذا الوجه وقال: عيد الكفار فيه سخط قال الرازى: وهذا الطعن ضعيف لأن المراد أن ذلك اليوم يوم استعظمه جميع الطوائف وكان من وصفه بالأكبر أولئك، وقال ابن عطية: وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل فى كتابه بالأكبر لهذا.

٤- الحج الأكبر القران، والأصغر الأفراد.

٥- الأصغر يوم عرفة ويوم الحج الأكبر يوم النحر، لأن فيه تنتهى بقية فرائض الحج وأركانه ويجتمع الحاج فيه لإتمام واجبات المناسك وسننها فى منى.

٦- وقيل لأن أهل الجاهلية كانوا يقفون بعرفة، وكانت قريش تقف بالمزدلفة فإذا كان صبيحة يوم النحر وقف الجميع بالمزدلفة، فقيل له الأكبر لاجتماع الكل فيه.

٧- لأن المراد بالحج ما وقع فى ذلك اليوم من أعماله، فإنه أكبر من باقى الأعمال، فالتفضيل نسبى وغير مخصوص بحج تلك السنة، وقيل لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين فالتفضيل مخصوص بتلك السنة.

٨- أو وصف بالأكبر تعظيما له وإلفاتا إلى تلك الظاهرة الإنسانية التى تتجلى فيه باجتماع هذه الحشود الحاشدة التى تجمع الناس من كل أمة وقبيل يأتون من كل فج عميق فإذا احتوتهم دائرة الحرم كانوا على هيئة واحدة فى ملابس الإحرام، الأمر الذى لا تشهد العين مثله إلا فى هذا الموطن.

استثناء المشركين غير الناقضين

وبعد تقرير المبدأ العام فى العلاقات بالبراءة المطلقة من المشركين ومن عهودهم يجىء الاستثناء المخصص للحالات المؤقتة التى يصار بعدها إلى ذلك المبدأ العام إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين).. فهو استثناء من الحكم العام الذى أنذر به المشركون.. وهو أن العهود التى كانت بينهم وبين المسلمين لن يكون لها مفعول بعد الأربعة أشهر التالية ليوم النحر الذى أعلنوا فيه بنبذ العهود التى عقدوها مع المسلمين.

والمستثنون من هذا الحكم العام من المشركين هم أولئك الذين عرف منهم المسلمون نواياهم فى الوفاء بالعهود التى عقدوها معهم، حيث لم يظهر منهم بادرة تدل على خيانة أو ممالأه عدو أو تحريض على المؤمنين.. فهؤلاء قد وفوا بالعهود، فينبغى أن يفى معهم المسلمون بعهودهم، إذ المسلمون أولى بهذا منهم، وما نقض المسلمون العهود التى أذنهم الله بنقضها مع المشركين إلا لما هو ظاهر من حالهم الذى يكشف عن نيات سيئة تدبر الشر وتبيت العدوان، وتتربص بالمسلمين الدوائر.. فهؤلاء مستثنون يجب على المسلمين الوفاء لهم بالعهود التى عقدوها معهم إلى الآجال المضروبة لها.. فهؤلاء لهم حساب ولعامة المشركين حساب آخر.

وسيأتى مزيد بيان وتفصيل لهذه الآية عند الحديث عن المعاهدات ـ الفصل الثانى من هذا الباب ـ وإنما أرجأت التفصيل فى هذه الآية إلى هناك حتى تجاوز الآية المبايعة مثيلتها فى استثناء المعاهدين غير الناقضين.

الإجراءات الواجبة بعد الأجل المضروب

وبعد تقرير الحكم ببراءة الله ورسوله من المشركين المعاهدين وغير المعاهدين منهم سواء مع استثناء الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحداً بالوفاء لهم بعدهم إلى مدتهم.. يجئ ذكر الإجراءات التى يتخذها المسلمون بعد انقضاء الأجل المضروب (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم [٢٤]).. وفى الآية نقاط:

أولا: المعنى: فإذا انقضت الأشهر الأربعة وانطوت صفحتها وانتهت المهلة التى حددها

الإسلام وحرم فيها القتال وظل المشركون على شركهم وعنادهم، فهى الحرب العامة الشاملة على المشركين، وهو الحصار والتربص لهم فى كل طريق، وهو فعل كل ما يرى موافقا للمصلحة من تدابير القتال وشئون الحرب المعهودة، وأهمها وأشهرها هذه الأربعة:

١ـ قتل المشركين فى أى مكان وجدهم المسلمون فيه من حل وحرم، لأن الحالة بينهم وبين المسلمين عادت حالة حرب كما كانت، وإنما كان تأمين مدة أربعة أشهر منحة من الإسلام لهم.

٢ـ أخذهم أسارى، والعرب يعبرون عن الأسر بالأخذ ويسمون الأسير أخيذا، والأخذ أهم من الأسر، فإن معنى الأسر الشد بالإسار، والأسير فى أصل اللغة هو الأخيذ الذى يشد.

٣ـ حصرهم، وهو الإحاطة بهم ومنعهم من الخروج والانفلات إذا تحصنوا فى معاقلهم، ومحله إذا كان فى مهاجمة الحصون ضرر كبير على جيش المسلمين، وإلا وجبت المهاجمة وعلى كل فالأمر ذلك يرجع إلى رأى القيادة الحكيمة.

٤ـ القعود لهم كل مرصد، والمرصد موضع الرصد، والرصد مراقبة العدو وبالقعود لهم فى كل مكان يمكن الإشراف عليهم ورؤية تجوالهم وتقلبهم فى البلاد منهم، وهو كناية عن أخذ الطرق عليهم وسد السبل فى وجوههم حتى تنقطع عليهم وسائل العيش، ويحال بينهم وبين التقدم فى البلاد فتضعف شوكتهم وينزل بهم الدمار. والقعود لهم فى كل مرصد يشمل ما كان ظاهرا جليا على مرأى منهم ومسمع، وما كان خفيا عن أنظارهم من الكمون لهم فى أماكنهم أو مسالكهم أو أينما كانوا.. لا يدعونهم يفلتون أو يذهبون إلى تجارتهم وأسفارهم. باستثناء من أمروا بالوفاء لهم إلى مدتهم. بدون أى إجراء آخر معهم رخصه بعضهم بطرق مكة والفجاج التى تنتهى إليها، لئلا يعودوا إليها لإخراج المسلمين منها، أو للشرك فى البيت والطواف فيه عراة، ولعل القائل بهذا التخصيص لم يذكر المدينة (وهى العاصمة) لأنه لا خوف عليها يومئذ من المشركين بعد أن عجزوا عنها فى إبان قوتهم وكثرتهم والصواب أنه عام وهذا أهم أفراده.

ولاريب أن هذه الوسائل الأربع هى الوسائل الطبيعية الفطرية فى مهاجمة الأعداء، ولا يخلو منها قتال فى عصر، والآية بهذا العموم فى إباحة هذه الأنواع ترشد إلى إباحة استسهال ما يجد من وسائل الكيد للأعداء والعمل على هزيمتهم[٣٥]، ذلك أن المشركين أنذروا وأمهلوا وقتا كافيا، فهم إذن لا يقتلون غدرا ولا يؤخذون بغتة، وقد نبذت لهم عهودهم وعلموا سلفا ما ينتظرهم.

غير أنها لم تكن حملة إبادة ولا انتقام، إنما كانت حملة إنذار ودفع إلى الإسلام.. لقد كانت هناك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان، ومن ايذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم، ثم من سماحة لهذا الدين، ورسوله وأهله معهم، وأنه لتاريخ طويل.

كذلك لم يكن الإسلام يريد بهذا الاجراء أن يكره الناس على الإسلام، إنما يريد أن يؤمن المعسكر الإسلامى وأن يأمن هو شر الكائدين له المعتدين عليه، الذين يتربصون به الدوائر

ويخونون معه العهود، ويرتقبون معه كل غرة ليأخذوه وأهله وهم غافلون.. يريد أن يؤمن ظهره، وأن يواجه أعداءه خارج الجزيرة، وقد أخذوا فى التجمع له - وهو مطمئن إلى مؤخرته.

ثانيا: قد اختلفت الأقوال من المقصود هنا بقوله تعالى (الأشهر الحرم):

أ - هل هى الأشهر الحرم المصطلح عليها؟ وهى ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ثم رجب [٢٦]، وعلى ذلك يكون الوقت الباقى بعد الأذان فى يوم الحج الأكبر بهذه البراءة هو بقية الحجة ثم الحرم.. خمسين يوما؟

ب - أم أنها أربعة أشهر يحرم فيها القتال ابتداء من يوم النحر، فتكون نهايتها آخر العشر من ربيع الآخر؟

ج) أم أن الأجل الأول للناقضين عهودهم، وهذا الأجل الثانى لمن ليس لهم عهد أصلا أو لمن كان له عهد غير مؤقت[٢٧]؟

والذى يصح عندنا:

أ) أن الأربعة الأشهر المذكورة هنا غير الأشهر الحرم المصطلح عليها.

ب) وأن الأشهر الحرم المصطلح عليها حرمتها دائمة فى كل عام إلى ما شاء الله، أما التى ذكرت هنا فإن حرمة ما حرم منها هو خاص بهذا العام: أى السنة التاسعة وأول العاشرة من الهجرة.

ج) وان ابتداء الأشهر هنا من يوم النحر إلى اليوم العاشر من ربيع الآخر، إذ المراد بها أشهر التسيير الأربعة المذكورة فى قوله تعالى (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد.

د - وأنه أطلق عليها وصف الأشهر الحرم لتحريم القتال فيها بإمهال المشركين طوالها ليسيحوا فى الأرض أربعة أشهر وأنها عامة - إلا فيمن لهم عهد مؤقت من أمهلوا إلى مدتهم - فإنه مادام أن الله قد قال لهم: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) فلابد أن تكون هذه الأشهر الأربعة ابتداء من يوم إعلانهم بها.. وهذا هو الذى يتفق مع طبيعة الإعلان، وهو ما رواه ابن جرير عن السدى ومجاهد وعمرو بن شعيب وابن زيد وابن إسحق.

ثالثا: آية السيف: هذه الآية التى يسمونها آية السيف، وفى تفسير ابن كثير: قال ابن أبى حاتم - بإسناده - عن على بن أبى طالب قال: بعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف: سيف فى المشركين من الحرب، قال الله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وهكذا رواه مختصرا، وأظن السيف الثانى هو قتال أهل الكتاب، لقوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) والسيف الثالث قتال المنافقين فى قوله: (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين) والرابع قتال الباغين فى قوله: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله)..

واعتمد بعضهم أن أية السيف هى قوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال بعضهم: إنها تطلق على كل منهما أو على كلتيهما.

ويكثر فى كلام الذين أكثروا من الآيات المنسوخة: إن آية كذا، وآية كذا من آيات المسالمة وحسن المعاملة والعفو والصفح والإعراض عن المشركين والجاهلين، منسوخة بآية السيف.. والصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولى فى شىء.(٢٨).

قال الزركشى فى البرهان: وأما بالقرآن على ما ظنه كثير من المفسرين فليس بنسخ وإنما هو نساء وتأخير، أو مجمل آخر بيانه لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم لخاص، أو لمداخلة معنى فى معنى، وأنواع الخطاب كثيرة، فظنوا ذلك نسخا وليس به. أ.هـ(٢٨)

وقلل السيوطى فى أقسام النسخ من الإتقان ما نصه: الثالث ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والكلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا فى الحقيقة ليس نسخا، بل هو من قسم المنسأ، كما قال تعالى: (أو ننسأها) فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفى حالة الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية فى ذلك منسوخة بآية السيف وليس كذلك، بل هى من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما لعلة تقتضى ذلك الحكم حتى ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله: وقال مكى: ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرا بالتوقيت والغاية مثل قوله فى الفقرة: (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه أ.هـ (٢٩)

وهذا هو الحق الواضح، فإن من سمات المنهج الإسلامى أنه حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها فهو لا يقابل مراحل الواقع بوسائل متجمدة.

وفى ظل هذا، وعلى ضوء ما تقدم من كلام السيوطى نستطيع أن نفهم لم كانت هذه الأحكام الأخيرة الواردة فى هذه السورة: (من براءة الله ورسوله من عهود المشركين، وامهال ذوى العهود الموقوتة منهم - ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا ولم يظاهروا عليهم أحدا - إلى مدتهم وامهال ذوى العهود غير الموقوتة - ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا كذلك ولم يظاهروا عليهم أحد - إلى أربعة أشهر، ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهد أصلا من المشركين ونبذ عهود الناقضين لعهودهم، مع امهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض آمنين، فإذا انسلخت هذه الأشهر أخذوا وقتلوا حيث وجدوا وحوصروا ومنعوا من التنقل وهم آمنون) كلها أحكام تعدل الأحكام المرحلية السابقة فى السور التى نزلت قبل التوبة، بيد أن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها فى أى ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة فى سورة التوبة، ذلك أن الحركة والواقع الذى تواجهه فى شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هى التى تحدد عن طريق الاجتهاد المطلق - أى الأحكام هو

أنسب للأخذ به فى ظرف من الظروف، فى زمان من الأزمنة فى مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التى يجب أن يصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة فى الحالة التى تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التى قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية.

رابعا: متفرقات:

أ - لفظ (المشركين) فى قوله تعالى: (فاقتلوا المشركين) عام فى كل مشرك، لكن السنة خصت منه المرأة والراهب والصبى وغيرهم.

ب) ويقضى جواز قتلهم بأى وجه كان، إلا أن الأخبار وردت بالنهى عن المثلة[٤٠]، ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق رضى الله عنه حين قتل بعض أهل الردة بالإحراق بالنار وبالحجارة وبالرمى من رؤوس الجبال وبالتنكيس فى الآبار، تعلق بعموم الآية، وكذلك إحراق على كرم الله وجهه قسما من أهل الردة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب واعتمادا على عموم اللفظ[٤١].

ج) (حيث وجدتموهم) عام فى كل موضع من حل وحرم، وخص أبو حنيفة المسجد الحرام[٤٢] وفى ابن كثير: وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله تعالى: «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم)[٤٣] وقال: المنار: ومن قال إن الآية مخصوصة بما عدا أرض الحرم فهو غالط.[٤٤]

د - وقد أبيح هذا الأسر فى قوله تعالى: (وخذوهم) الذى حظر فى سورة الأنفال بقوله تعالى:(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) لحصول شرطه وهو الإثخان الذى هو عبارة عن الغلب والقوة والسيادة، فمن يسمى مثل هذا نسخا فله أن يقول به هنا، والصواب أنه من المقيد بالشرط أو الوقت أو الإذن.

هـ : قال بعضهم - وعزاه الألوسى إلى الجمهور - إن الآية تدل بعمومها على جواز قتال الترك والحبشة، كأنه قيل: فاقتلوا الكفار مطلقا يعنون أنها ناسخة أو مخصصة لحديث: (اتركوا الترك ما تركوكم فإن أول من يسلب أمتى ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء)[٤٥] ولحديث (اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة)[٤٦].

وقال العلماء : إن هذا يكون قبيل قيام الساعة إذ يبطل أمن الحرم، وفى حديث (دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم)[٤٧] قال الخطابى: إن الجمع بين قوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وبين هذا الحديث أن الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيد، ويجعل الحديث مخصصا لعموم الآية كما خص ذلك فى حق المجوس فإنهم كفرة، ومع ذلك أخذ منهم الجزية لقوله صلى الله عليه وسلم: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) قال الطيبى : ويحتمل أن تكون الآية ناسخة للحديث لضعف الإسناد، قال المنار: قد غفل هؤلاء الذين حاولوا الجمع بين الحديث والآية عن كون الآية فى مشركى العرب الذين

لا عهد لهم والذين نبذت عهودهم وضرب لهم موعد الأربعة الأشهر.. والحبشة نصارى من أهل الكتاب، وفيهم نزل قوله تعالى :(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى)[48] الآيات ومن المجمع عليه التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب والترك كانوا وثنين عند نزول هذه الآيات كمشركى العرب ولكنهم لا يدخلون فى عموم الآية ثم إن الأمر بترك قتال الترك والحبشة جاء تحذيرا من بدئهم بالقتال لما علم النبى صلى الله عليه وسلم أن خطرا على العرب وبلادهم سيقع منهم، والأمر بقتال مشركى العرب فى هذه الآيات على كونهم هم الذين بدأوا المسلمين ونكثوا عهودهم كما سيأتى قريبا فى قوله تعالى: (ألا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة) وعلى كون قتالهم كافة جزاء بالمثل كما قال: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فكيف يدخل وثنيوا الترك ونصارى الحبشة فى عموم هؤلاء المشركين الموصوفين بما ذكر حتى يحتاج إلى الجمع بين الآية والأحاديث المذكورة ولا تأتى هنا قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) كما هو ظاهر، لأن المراد بها أن اللفظ العام يتناول كل ما وضع له سواء وجد ما كان سببا لوروده أو لم يوجد، ولفظ المشركين فى هذه الآيات لم يوضع لأهل الكتاب المعروفين بالقطع، ولا لأمثالهم كالمجوس مثلا .. ولولا أن هؤلاء المفسرين وشراح الأحاديث ينظرون فى كتاب الله وسنة رسوله من وراء حجب المذاهب الفقهية لما وقعوا فى أمثال هذه الأغلاط الواضحة.[49].

خامسا: رفع حالة الحرب بالإسلام : إنها ـ كما تقدم ـ لم تكن حملة إبادة ولا انتقام إنما كانت حملة إنذار ودفع إلى الإسلام، لقد كان هنالك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان، ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم ثم من سماحة لهذا الدين ورسوله وأهله معهم.. وإنه لتاريخ طويل.. ومع هذا كله فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا، كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله، والتزموا شعائر الإسلام التى تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه، وذلك أن الله لا يرد تائبا مهما تكن خطاياه (فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم).. فإن تحقق دخولهم فى جماعة المسلمين، فتركوا الشرك الذى كان يحملهم على عدواتهم وقتالهم لهم، ولبوا دعوة الإيمان ـ وعنوانه العام النطق بالشهادتين ـ وكان يكتفى منهم بإحداهما ـ والتزموا أحكامه: سواء ما يرجع إلى حق العبودية ـ وأساسه الصلاة ـ عماد العلاقة بينهم وبين الله ـ وما يرجع إلى حق المجتمع، وأساسه الزكاة ـ عماد العلاقة بينهم وبين الجماعة الإسلامية (فخلوا سبيلهم).. واتركوا لهم سبيل الحرية وكفوا عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين وسرحوهم وفكوا حصارهم ان كانوا محصورين، وافتحوا لهم المسالك والطرق عند البيت الحرام وغيره حيث يكونون مراقبين، ولا تعاملوهم بما كان منهم، فقد جب إسلامهم شركهم وعصيانهم، وأمرهم فيما فرط بينهم إلى الله..(إن الله غفور رحيم).. يغفر لهم ما سبق من الشرك وأعماله، ويرحمهم فى من يرحم من عباده المؤمنين.

وفى تحريض المشركين على المبادرة بالتوبة وخلع لباس الشرك من رقابهم، وفيه دعوة

للمسلمين إلى التسامح والرفق، وأن يقبلوا هؤلاء الذين جاءوهم مسلمين، وأن يفسحوا لهم فى قلوبهم مكانا مع اخوانهم السابقين، وان يغفروا لهم ما كان منهم من إساءات فيما أصابوهم به فى أموالهم وأنفسهم، فإن الله ينال المؤمنين بمغفرته ورحمته فليأخذوا هؤلاء المسيئين اليهم بمغفرتهم ورحمتهم.. ثم هو اغراء للمشركين أن يدخلوا فى دين الله، فهذه رحمة الله ومغفرته مبسوطة لهم، وهؤلاء هم المؤمنون يلقونهم بالرحمة والمغفرة لما كان منهم فى عدوانهم عليهم وكيدهم لهم انها فرصة مسعدة والسعيد من أخذ بحظه منها.

ذلك فيما يتعلق بمشركى الجزيرة وحدها بوصفها قاعدة العقيدة، فأما المشركون خارجها فالأمر بينهم وبين الأمة المسلمة: الا يقفوا بالقوة فى سبيل الدعوة الإسلامية والا يفتنوا المسلمين عن دينهم وألا يقاتلوا المسلمين أو يظاهروا عليهم أو يخرجوهم من ديارهم.

ولا نحب أن ندخل هنا فى الجدل الفقهى الطويل الذى تعرضت له كتب التفسير وكتب الفقه حول هذا النص (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم).. وعما إذا كانت هذه شرائط الإسلام التى يكفر تاركها؟ ومتى يكفر؟ وعما إذا كان يكتفى بها من التائب دون بقية أركان الإسلام المعروفة .. إلخ فما نحسب أن هذه الآية بصدد شيء من هذا كله.. إنما هو نص كان يواجه واقعا فى مشركى الجزيرة يوم ذاك، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا وهو يعنى الإسلام كله، ويعنى استسلامه له ودخوله فيه، فنصت الآية على التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنه ما كان ليفعل هذا منهم فى ذلك الحين إلا من نوى الإسلام وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه، وفى أولها الدينونة لله وحده بشهادة أن لا إله إلا الله واعتراف برسالة محمد بشهادة أن محمدا رسول الله.. فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهى، إنما هى بصدد اجراء واقعى له ملابساته.(٥٠).

(آية الأمان)

وأخيرا فإنه مع هذه الحرب المعلنة على المشركين كافة بعد انسلاخ الأشهر الأربعة يظل الإسلام على سماحته وجديته وواقيته كذلك، فهو لا يعلنها حرب إبادة على كل مشرك - كما قلنا - إنما يعلنها حملة هداية كلما أمكن ذلك، فحين لا يكون هناك خطر من المشركين كما لو كانوا أفرادا غير متجمعين ولا متسلحين، ولا يملكون للإسلام شرا ولا يضمهم تجميع جاهلى يتعرض للإسلام ويتصدى.. فيبلغ الإسلام من السماحة آفاقا ما تزال البشرية إلى هذه اللحظة تتطلع إليها وهى منها بعيد، إذ يكفل لهم الإسلام فى دار الإسلام - الأمن ويأمر الله ورسوله أن يجيرهم حتى سمعوا كلام الله ويتم تبليغهم فحوى هذه الدعوى ثم أن يحرسهم حتى يبلغوا مأمنهم، هذا كله وهم مشركون.

(وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)..(٥١)

لقد بينت الآية السابقة حكم المصرين على شركهم - وهو أنهم يقتلون أو يؤسرون .. إلخ وبينت حكم التائبين من الشرك الذين لبوا الدعوة ودخلوا فى جماعة المؤمنين، وجاءت هذه

الآية تبين لنا حكم الفريق الثالث، وهو الفريق الذى يصر على الشرك، ولم يتب عنه، وإنما هو مشرك يطرق باب الفهم والمعرفة حتى يطمئن قلبه، وهو لذلك يطلب الجوار والأمان فى دار الإسلام، ولما كان الإسلام حريصاً على كل قلب بشرى أن يهتدى، وأن يتوب، فقد أمر أن يعطوا الجوار والأمان، وأن يسمح لهم بالدخول فى دار المسلمين، ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتأليهم عليه، فهم لا يملكون قوة ولا يستطيعون أذى..

وأجارهم وصان أموالهم وحياتهم وحريتهم - لا ليكرهوا على الإسلام وهم عزل ضعفاء ولكن - ليعطوا فرصة لسماع القرآن ومعرفة هذا الدين، لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب.. فإن اطمأنوا ودخل الإيمان قلوبهم التحقوا بالمؤمنين، وصاروا فى الحكم كالتائبين، وإن لم تنشرح صدورهم للإسلام فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يخفروهم ويحرسوهم بعد اخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم، ويطمئنون فيه على حياتهم وأموالهم.(٥٢).

ولقد كانت قمة عالية تلك الاجارة والأمان لهم فى دار الإسلام وأن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تترامى قمة وراء قمة .. وهذه منها.. هذه الحراسة للمشرك عدو الإسلام والمسلمين من أذى المسلمين وفتنتهم وعاداهم هذه السنين، هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام.. انه منهج الهداية لا منهج الابادة، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام.

ألا فلتخرس ألسنة الذين يقولون: إن الإسلام دين قام على السيف وإراقة الدماء ويتحدثون عن الجهاد فى الإسلام فيصفونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد.. إن هؤلاء فى حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة التى يمثلها هذا التوجيه الكريم.. فهذا صنيع الإسلام مع أعداءه حتى لا يكون منهم حرب معه أو عدوان عليه، انها سلم خالصة، وإنسانية فى أرفع منازلها، فلا إكراه فى الدين، ولا عدوان مع من يختلفون مع المسلمين اختلافا قائما على البحث والنظر وليس فى الدعوات دعوة تحترم العقل وتمنحه حقه المطلق فى النظر والاختيار كدعوة الإسلام التى لا تفرض عقيدتها على ذى عقل ولو كان غفلا جهولا محنقا ذلك أن الإسلام ليس من همه التسلط على أعداد كثيرة من الناس شأن الغزاة الفاتحين فمثل هذا لا يقيم فى القلوب دينا ولا يثبت فى الأرض عقيدة، وإنما الذى يهمه أن يجد العقول التى تتقبل دعوته، والنفوس التى تستجيب لها، والقلوب التى تعمر بها.

ان هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون، واجارة لمن يستجيرون، حتى من أعداءه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه، ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التى تحول بين الأفراد وسماع كلام الله، وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله، فتحول بينهم وبين الهدى، كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد، وتلجأهم إلى عبادة غير الله ومتى حطم هذه القوى وأزال تلك العقبات، فالأفراد - مع عقيدتهم آمنون فى كنفه، يعلمهم ولا يرهبهم، ويجبرهم ولا يقتلهم، ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم.. هذا كله وهم يرفضون منهج الله... فأية سماحة.. وأية عدالة؟ وأية رعاية لكرامة العقل والضمير؟

ان الشيوعية - وهى فكرة رجل - يخطىء ويصيب - لا يسمح اتباعها لفرد يعيش بين ظهرانيهم وهم لا يؤمون بفكرة أرضية صاحبها يخطىء ويصيب! هذا فى القرن العشرين بعد أن شاعت فيه حرية التفكير.

وفى الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا حرمة واحدة من حرمات الإنسان.. ثم يقف ناس يرون هذا فى واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج الله بتشويه هذا المنهج واحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام فى وجه السيف والمدفع فى هذا الزمان وفى كل زمان.

وقد زيلت الآية بهذه الجملة (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون).. ذلك الأمر باجارة المستجير من المشركين بسبب أنهم قوم جاهلون لا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان، فأعرضوا عن دعوة الإسلام بجهل وعصبية، وكانوا مغترين بقوتهم، مصرين على جفوتهم، وإنما ؟؟ لكم أو أوجبنا عليكم اجابتهم إلى الجوار رأفة بهم وشفقة عليهم، ورعاية لحالتهم التى نشأوا فيها وهى حالة الجهل التى يصح أن يعذر به صاحبه، ولا يؤخذ بما اكتسب فى حصانته.. أنهم على جهل وجفاء وفى ظلام جاهلية طال عليهم الأمد فيها، وإذ كان هذا شأنهم فإن من شأن من يتولى الاستشفاء لهم من دائهم أن يترفق بهم حين يراهم يعيثون عن النور ويعمون عن الهدى.. وفيه إرشاد إلى معاملة أرباب الجهالة المتأصلة بالحلم والعفو والتيسير، وذلك كله من مبادئ الإسلام.. (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) (٥٣).

بقايا تتصل بمعنى الأية:

أ) الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم، ثم لكل حاكم مسل، ولا يبعد أن يمتد لأفراد الرعية، وهى مخصصة لقوله تعالى «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم.. إلخ» لما فيه من معنى العموم، فهى تستثنى منهم من طلب منهم الأمان ليعلم ما أنزله الله وأمر به من دعوة الإسلام.. وبهذا يكون المشركون الذين نبذت عهودهم أو انتهت مدتها ثلاثة أقسام:

١) مصر على الشرك وعداوة الإسلام.

٢) مسترشد طالب للعلم وسماع القرآن.

٣) تائب يدخل فى الإسلام.

ب) المذكور فى هذه الأية كونه طالبا لسماع القرآن، ويلتحق به كونه طالبا لسماع الدلائل وكونه طالبا للجواب عن الشبهات، والدليل عليه أنه تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه غير عالم، لأنه قال (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) وكان المعنى : فاجره لكونه طالبا للعلم مسترشدا للحق، وكل من حصلت فيه هذه العلة وجبت اجارته.

ج) (حتى يسمع كلام الله) قيل: إن المراد سماع جميع القرآن، لأن تمام الدليل والبينات فيه (وقيل سماع آيات التوحيد منه، وقيل: سماع صورة براءة خاصة لأنها مشتملة على كيفية المعاملة مع المشركين، أو ما بلغوه منها فى الموسم إذ لم يكن كل مشرك سمعه وقيل: المراد

سماع كل الدلائل، وإنما خص القرآن بالذكر لأنه الكتاب الحاوى لمعظم الدلائل، والحق أن سماع كلام الله يحصل بالكثير والقليل منه، ولكن المراد الذى يقتضيه المقام أن يسمع منه ما يراه هو ونراه نحو كافيا للعلم بدعوة الإسلام أو القدر الذى تقوم به الحجة منه، وهو ما يتبين به بطلان الشرك وحقيقة التوحيد والبعث وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبليغه عن الله عز وجل.. وكان العربى منهم يفهم القرآن ويشعر من نفسه بأنه معجز للبشر، ويفهم حجمه العقلية والعلمية على التوحيد والرسالة والبعث، إذا إلقى إليه السمع وهو شهيد، لا يلبث أن يظهر له الحق فى هذه الأصول، فإن لم تصده العصبية والتزام العداوة للداعى لا يلبث أن يؤمن.

د) قد ذكر الرازى وأبو السعود وغيرهما عن ابن عباس انه قال: إن رجلا من المشركين قال لعلى: إذا أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة قتل؟ قال: لا، لأن الله تعالى يقول: (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) الأية.

فإن صحت هذه الرواية كانت دليلا على أن طلب المشرك للأمان والجوار يقبل، وإن لم يكن لأجل سماع كلام الله تعالى، وان قال بعض المفسرين [٥٤] ان الحاجة فى الرواية لا تعدو غرض الدين، لأن لقاء الرسول إلا لذلك أى فلا يجاب طلبه ان علم أنه لحاجة دنيوية، وهذا القول غير مسلم، فقد كانوا يطلبون لقاءه صلى الله عليه وسلم لأجل الكلام فى الصلاح وغيره من مصالح دنياهم.

والمتبادر من قوله تعالى: (حتى يسمع كلام الله) انه غاية أو تعليل للاجارة لاتصاله بها وحدها، وان الاستجارة على اطلاقها [٥٥].. ويترتب على جعل (حتى) للتعليل أنه لا يجب على النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤمن مشركا إلا لأجل سماع كلام الله وتبليغه الدعوة به وغيره من أذمة المسلمين وقواد جيوشهم أولى وأجدر أن لا يجب عليهم ذلك... أما إذا جعلنا (حتى) للغاية فلا يترتب عليه ذلك، ويكون معناها: ان المستجير بنجار ويؤمن مهما يكن غرضه من الاستجارة، ويمتد جواره إلى أن يسمع كلام الله وتقوم عليه الحجة به، فيكون وجوده فى دار الإسلام فرصة لتبليغه دعوته على أكمل وجه [٥٦] ولا يأبى هذا المعنى الأمر بابلاغه مأمنه بعد ذلك كما ادعى بعضهم [٥٧] ولا يظهر جعل الأمر لا بالاجارة والأمان للوجوب إلا إذا كان القصد سماع كلام الله، وفيما عاداه يكون جاذرا يعمل فيه الإمام بالمصلحة.

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يؤمن الرسل التى ترد من قبل الأعداء، وهذا مجمع عليه.. وكان يجبر من اجاره أى مسلم أو مسلمة، وذكر من مزايا المؤمنين أنهم (تتكافأ دماؤهم، ويجبروا عليهم أدناهم) كما ثبت فى الصحيح.

ولا يبعد أن يقال ان حكم المشركين فى تقييد ايجارة مستجيرهم خاص بهم، والأمر فى معاملة غيرهم من الكفار بعد ذلك أوسع، وهو كما يذكر فى كتاب الأمان من الفقه.[٥٨]

الهوامش

(١) معنى البراءة: انقطاع العصمة والتخلص من الشيء والتباعد عنه، يقال: برئت من فلان أبرأ براءة أى انقطعت بيننا العصمة فلم يبق بيننا علقة، ومنه يقال: برأت من الدين، والمعاهدة، عقد العهد بين الفريقين على شروط يلتزمونها، وكان اللذان يتوليانهما منهما يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر، وكانوا يؤكدونها ويوثقونها بالإيمان، ولذلك سميت أيمانا كما قال تعالى فى المشركين (إنهم لا ايمان لهم)

(٢) ذكره البغوى

(٣) آل عمران ١٩٦- ١٩٧

(٤) الأعراف ١٨٢-١٨٣

(٥) الزخرف ٣٥-٣٣

(٦) أصل السياحة: جريان الماء وانبساطه، ثم استعمل فى الضرب فى الأرض والاتساع في السير - على مقتضى المشيئة - والبعد عن المدن وموضع العمارة مع الإقلال من الطعام والشراب. يقال للصائم سائح لأنه يشبه السائح لتركه المطعم والمشرب، وفى هذا الأمر من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ماليس فى (سيروا) وزيادة (فى الأرض) زيادة فى التعميم وإلغاء لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقبه على ما يؤذن به البراءة المذكورة من الحرب. وهو خطاب للمؤمنين مرتب على البراءة مبين لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برأ الله ورسوله من عهودهم. ويجوز أن يكون خطابا للمشركين أنفسهم على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور، لقصد تهيئة خطابه بالوعيد المذكور بعد، والمراد من السياحة حرية السير مع الأمان.

(٧) الأنفال ٦١ .

(٨) آل عمران ١٥٩.

(٩) الفتوحات الإلهية جـ٢ ص ٢٦٣ .

(١٠) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٢٢.

(١١) وكذلك من كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر حطت إلى الأربعة (رازى).

(١٢) طبرى جـ١٤ ص٩٦

(١٣) طبرى جـ ١٤ ص١٠١.

(١٤) طبرى جـ ١٤ ص ٩٧ .

(١٥) ابن كثير جـ٢ ص ٣٣١-٣٣٢ .

(١٦) طبرى جـ ١٤ ص١٠٢-١٠٣

(١٧) الطبرى جـ ١٤ ص١٠٩.

(١٨) الزمر آية ٢٦

(١٩) فصلت ١٥

(٢٠) الأذان الإعلام والبلاغ، ومنه أذان الصلاة: أى أذان صادر من الله ورسوله واصل الى الناس (أن الله برىء) فيه حزف والتقدير: وأذان بأن الله برىء فحذف الباء لدلالة الكلام عليه (ورسوله) بالرفع أى ورسوله برىء كذلك ويحكى أن اعرابيا سمع رجلا يقرؤها بالجر فقال: ان كان الله تعالى بريئا من رسوله فأنا منه برىء، فلبيه الرجل الى عمر رضى الله عنه فحكى الأعرابى قراءته، فأمر عمر بتعليم العربية- وروى أن أبا الاسود الدؤلى سمع ذلك فرفع الأمر الى على كرم الله وجهه فكان ذلك سبب وضع النحو (فهو خير) الضمير عائد على المصدر المفهوم من الفعل، اى المتاب أو التوب أو التوبة (وبشر الذين كفروا) البشارة ما يؤثر فى البشرة من الأنباء إما بالتهلل وإشراق الوجه وهو السرور الذى تنبسط به أسارير الجبهة وتتمدد واما بالعبوس والبسور وتقطيب الوجه من الكدر والحزن أو الخوف وغلب فى الأول حتى ذهب الأكثرون إلى كونه حقيقة فيه، وأن استعماله فيما يسوء إنما يقال من باب التهكم.

(٢١) فى الالتفات من الغيبة أولا إلى الحضور ثانيا تهيئة الجو لامتثال النصح والحذر من عقاب مع زيادة التهديد.

(٢٢) النساء ١٤٧.

(٢٣) الانفال ٥٨.

(٢٤) هذه الآثار ذكرها ابن كثير فى تفسيره جـ٢ ص٣٣٤.

(٢٥) زاد المعاد جـ١ ص١٠.

(٢٦) هذه الآثار منقولة من تفسير بن كثير أيضا جـ٢ ص٣٣٥.

(٢٧) ابن كثير جـ٢ ص ٣٣٥ .

(٢٨) الرازى جـ٤ ص٥٨٦.

(٢٩) رواه ابن ابى حاتم.

(٣٠) الفخر الرازى جـ٤ ص ٥٨٦و والطبرى جـ١٤ ص ١٢٨.

(٣١) زاد المعاد لابن القيم جـ١ ص١٠.
(٣٢) زاد المعاد جـ١ ص١٠
(٣٣) انسلاخ الأشهر: انقضاؤها والخروج منها، وهو مجاز مستعار من انسلاخ الحية وهو خروجها من جلدها، ويسمى بعد خروجها منه المسلاخ، وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن الأشهر كانت حرزا لهم عن غوائل أيدى المسلمين. و(أل) فى (الأشهر) للعهد فالمراد . بها الأشهر الأربعة المتقدمة فى آية (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) والحرم جمع حرام.
(٣٤) بشرط عدم تجاوز الحد الإنسانى، مادام العدد لم يتجاوزه، والا فغارات بغارات وذرية بذرية (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فإذا أسرفوا وتجاوزا إلى مالا تستطيع البشرية الفاضلة احتماله مما لا يتفق وحرمات الله . ضاعفنا عقابهم بما لا ينتهك الحرمات المقدسة.
(٣٥) اعتمد ابن جرير هذا الرأى ذاهبا إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى (منها أربعة حرم) ولكن قال: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم، قال ابن كثير فى التفسير فيه نظر، لأن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المذكورة فى قوله (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم جـ٢ ص ٣٣٦-٣٣٥ .
(٣٦) وهناك رأى رابع مروى عن الزهري ذكر عند قوله تعالى: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) وهو أن الأشهر الأربعة تبتدئ من شوال إلى المحرم، ورده ابن كثير.
(٣٧) وإن كنت أرى أنه لانسخ في القرآن مطلقا، ولا ضرورة لأن توجد آيات فى كتاب الله محنطة لا روح فيها ولا حراك.
(٣٨) البرهان للزركشى ص ٤٤ جـ٢
(٣٩) الإتقان للسيوطى ج٢ ص٢١.
(٤٠) قال صلى الله عليه وسلم: (لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا)
(٤١) قرطبى ص ٢٩١١
(٤٢) قرطبى ٢٩١٢
(٤٣) ابن كثير جـ٢ ص٣٣٦
(٤٤) تفسير المنار جـ١٠ ص١٦٦.
(٤٥) رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود كما فى الجامع الصغير، وفى فتح البارى: أنه رواه عن حديث معاوية، قال الحافظ وكان هذا الحديث مشهوراً بين الصحابة، وقتال المسلمين للترك ثابت فى الصحيحين.
(٤٦) رواه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعا.
(٤٧) رواه أبو داود والنسائي عن رجل كان من أصحاب النبي عن النبى صلى الله عليه وسلم
(٤٨) سورة المائدة آية ٨٢.
(٤٩) تفسير المنار جـ١٠ ص١٦٨-١٦٧.
(٥٠) وإن كنت فى آخر هذا الباب عند الحديث عن الفقهيات المستنبطة من الآيات سأنساق وراء كتب التفسير وأتحدث عن هذه المسألة إن شاء الله.
(٥١) الاستجارة: طلب الجوار، وهو الحماية والأمان، فقد كان من اخلاق العرب حماية الجار والدفاع عنه، حتى صاروا يسمون النصير جارا، وعنه (وإذ زين لهم الشيطان أعماله وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) الانفال.
(٥٢) وبذلك يصيرون فى الحكم كالمصرين على الشرك، يعاملون بما به يعاملون من حل دمهم ومالهم.
(٥٣) الاعراف ١٩٩.
(٥٤) قال الالوسى: فالمراد بما فيه عن الحاجة: هى الحاجة المتعلقة بالدين، لا مايعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية، كما ينبؤ عنه قوله: (أن يأتى محمدا صلى الله عليه وسلم فإن من يأتيه صلى الله عليه وسلم انما يأتيه للأمور المتعلقة بالدين، لكن الظاهرة كلام ذلك القائل العموم، فيكون جواب على مؤيدا لذلك. تفسير الالوسى جـ٣ ص٢٧٥.
(٥٥) وقول ابى السعود: (ان تعلق الاجارة بسماع كلام الله بأحد المعنيين يستلزم تعلق الاستجارة أيضا بذلك او بما فى معناه من أمور الدين) غير مسلم، ولكنه يحتمل إذا جاز ان تتعلق (حتى) بفعلى الاستجارة والاجارة معا، والذى عليه النحاه فى باب تنازع العاملين أن العمل يكون لاحدهما والمختار ضد البصريين الثانى وعند الكوفيين الأول.
(٥٦) ويجوز الجمع بين الغاية ومعنى التعليل على القول بجواز الجمع بين معنيى المشترك.
(٥٧) هذا البعض هو الالوسى حيث قال: وجوز غيرواحد أن (حتى) للغاية والخبر المذكور وجزالة المعنى يشهدان بكونها للتعليل، ولأن جعلها للغاية يأباه (ثم ابلغه مأمنه) بعد سماعه كلام الله تعالى أن لم يؤمن (تفسير الالوسى جـ٣ ص٢٧٥) وقال الشيخ شلتوت بعد ان ساق خبر السائل لعلى المتقدم: وهذا يدل على أن المشرك إذا طلب الجوار يعطاه ولن ولن لم يكن لأجل سماع كلام الله، وعلى ذلك تكون (حتى) فى قوله تعالى: (فأجرما حتى يسمع كلام الله للغاية لا للتعليل (تفسير الشيخ شلتوت ص ٦٢٢×
(٥٨) سيأتى مزيد لفقهيات هذه الآية إن شاء الله . فى آخر الباب عند استنباط الاحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات.

الفصل الثانى

المعاهدات

صور من الوفاء الكريم - بعض الآيات والأحاديث الواردة فى شأن العهود - لا وفاء إلا مع أهل الوفاء - استثناءان ممن برئ الله من عهودهم - الاستثناء الأول وإلى أى شيء عاد - الاستثناء الثانى وفائدته - من المعنيون فى الاستثناءين - بين المتشددين والمتساهلين - مدرسة المتساهلين : غرضها وهدفها - مدرسة المتشددين: منهجها واتجاهها.

قال الله عز وجل:

(الا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ان الله يحب المتقين).

وقال تبارك اسمه:

(الا الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم أن الله يحب المتقين).

صور من الوفاء الكريم

ان وفاء الإسلام بالعهود بلغ حدا من الدقة والسمو لم تعرفه إلى اليوم أرقى المؤسسات الدولية وأحدث الدساتير العالمية، ولسنا الآن بصدد سوق الدلائل الشاهدة لذلك، ولكن مسلك الإسلام فى معاملة أعدائه يتضمن صورا من الوفاء الكريم يجب أن نفوه بها وأن نواجه وجوه المكابرين بما يترقرق فيها من سماحة ونبل.[1].

والمعاهدون: هم الذين يقوم بينهم وبين المسلمين عهد صلح بدأ أو بعد حرب وهؤلاء يوفى لهم بعهدهم، ويستقام معهم على شروطه ما وفوا وما استقاموا، فإذا بدا منهم نقض أو غدر أو خيانة أو مظاهرة عدو أو طعن فى الدين أو صد عن سبيل الله أو عدوان على الإسلام والمسلمين بأ

بآية صورة، انقلب موقفهم إلى موقف العدو الواجب قتاله.

وفى النصوص القرآنية والنبوية دلائل على أنه كان بين طوائف من المشركين وأهل الكتاب وبين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين مواثيق صلح وفى بعضها ما يفيد أن هذه المواثيق كانت موقوتة بمدة ومنها ما لا يفيد ذلك حيث يجوز أن تكون بدون مدة.

ومن المعاهدات ما كان مغلقا وهى التى لا يرد فيها شرط بانضمام اللاحق لأحد الطرفين بعد إبرام المعاهدة ومنها ما كان مفتوحا وهو الذى يرد فيه مثل هذا الشرط[٢].

وفى كتب السيرة والحديث روايات فيها أسماء بعض هذه الطوائف وصفة ما كان بينها وبين النبى صل يالله عليه وسلم من عهد موقوت من ذلك ما رواه المفسرون فى سياق تفسير آية (الا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) [٣]أنه العهد الذى انعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم وهلال ابن عويمر الذى واثق هذا فيه رسول الله عن قوله على «ان لا يحيف على من أتاه منه، ولا يحيفون على من أتاهم منه، أو أنه الميثاق المنعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم وسراقة ابن مالك المدلجى الذى أخذ من النبى عهدا بأن لا يغزوا قومه فإن أسلمت قريش أسلموا لأنهم فى عقد مع قريش».

ومن ذلك العهد الذى كان بين المسلمين وبنى غرة [٤] والعهد الذى كان بين المسلمين وبنى خزينة وبنى مدلج وبنى الدئل [٥].

ومن ذلك صلح الحديبية الذى عقد بين النبى صلى الله عليه وسلم وقريش بعد عداء وحرب شديدة استمرت إلى السنة السادسة من الهجرة، وقد تضمن هذا الصلح ما يأتى:

أولا: أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت هذا العام، فإذا كان العام التالى أخلت قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت، وليس معهم إلا السيوف فى غمدها والأقواس - وهما سلاح المسافر.

ثانيا: أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنين.

ثالثا: من أتى الرسول من قريش مسلما بغير اذن وليه رده إليهم ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه.

رابعا: من أحب أن يدخل فى عقد مع الرسول فله ما أراد، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش فله ذلك.

وكان وفاء المسلمين لقريش - بشروط الحديبية - أمرا مقررا فيما أحبوا وفيما كرهوا، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات، ولكن قريشا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها غير واعية بالأحداث الخطيرة التى غيرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره فى العالم كله.

وقد جرها فقدان هذا الوعى إلى حماقة كبيرة، أصبح بعدها عهد الحديبية لغوا[٦] وذلك أنها مع حلفائها من بنى بكر هاجموا خزاعة، وهى من المسلمين فى حلف واحد وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا، وانحازت خزاعة إلى الحرم، إذ لم تكن متأهبة لحرب فتبعهم بنو بكر يقتلونهم، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغى.

وأحس نفر من بنى بكر أنهم دخلوا الحرم - حيث لا يجوز قتال - فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية: إنا دخلنا الحرم، الهك الهك، فقال نوفل: لا إله اليوم يا بنى بكر.. أصيبوا ناركم.

وفزعت خزاعة لما حل بها فبعثت إلى رسول الله عمرو بن سالم يقص عليه نبأها، فلما

قدم المدينة، وقف على النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس يقول:

يارب انى ناشد محمدا..

حلف أبينا وأبيه الأتلدا..

قد كنتمو ولدا وكنا والدا..

ثم أسلمنا قد لم تفزع يدا..

فانصر هداالك الله نصر آعتدا..

وانه عباد الله يأتوا مددا..

فيهم رسول الله قد تجردا..

أبيض مثل البدر يسمو صعدا..

ان . سيم خسفا وجهه تريدا..

فى فيلق كالبحر يجرى مزيدا...

ان قريشا أخلفوك الموعدا...

ونقضوا ميثاقك المؤكدا...

وجعلوا لى فى كداء رصدا..

وزعموا أن لست أدعو أحدا...

وهم أذل وأقل عددا...

هم بيوتنا بالوتير هجدا..

وقتلونا ركعا وسجدا..

فقال له رسول الله صلى الله: (نصرت يا عمرو بن سالم) (٧) وشعرت قريش بخطورة ما وقع فخرج أبو سفيان زعيمهم إلى المدينة ليشد العقد بينه وبينهم، وكان النبى تنبأ بذلك، فقال لأصحابه (كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة).. ويروى ابن هشام ما جرى مع أبى سفيان فى سياق طريف رائع، ودخل أولا على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، فقال لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر، ثم خرج حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه، فذهب إلى أبى بكر، فكلمه وطلب منه أن يكلم رسول الله، فقال له: ما أنا بفاعل، فأتى عمر فكلمه، وطلب منه أن يكلم رسول الله، فقال له: أأنا أشفع لكم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، فدخل على على بن أبى طالب وعنده فاطمة، فطلب منه الشفاعة إلى رسول الله، فقال له. ويحك والله قد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا

ابنة محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا - وهو الحسن فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى اخر الدهر؟ فقالت: والله ما بلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله، فقال: يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى، قال: والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم التحق بأرضك، قال أو ترى ذلك مغنيا؟ قال: لا والله ما أظنه ولكنى لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان فقال: يا أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس، ثم ركب بميره فانطلق، فلم يغن ذلك عنه، حيث إن أمورا كانت قد تقررت وبدأ تنفيذها.

ولا نعرف على مدى التاريخ الطويل معاهدة خسر فيها المنتصر كل شىء، وكسب فيها المنهزم كل شىء مثل معاهدة الحديبية.

وكان اليهود لا يرون للعقود والمعاهدات حرمة إذا أبرمت بينهم وبين مخالفيهم فى الدين، ويستبيحون أكل الحقوق المقررة لغيرهم، لا لشىء إلا لأنهم ليسوا بيهود فأنكر الإسلام هذه المعاملة الخسيسة، وشرع الوفاء العام للناس جميعا، لا فرق بين ملة وملة (ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين)[٨].

وسار الإسلام على هذه القاعدة وهو يتعقب الرذائل ويطهر الأرض من الظلم والفسوق والعصيان، فلما أعلن على النفاق حربا شعواء، واستثار همم المسلمين ليقاتلوا المنافقين وهم جبهة واحدة. وعندما أوصى بأن لا تأخذهم هوادة فى منابذتهم بالخصومة ومصارحتهم بالبغضاء وكشف عن خبيئة نفوسهم وحقيقة موقفهم من الدعوة إلى الله، ورغبتهم الكامنة فى أن تحوى الأرض ظلمات الكفر والضلال.. ومع ذلك كله فقد منع الإسلام قتالهم إذا انضموا إلى قوم بيننا وبينهم عهد، احتراما لأولئك المعاهدين (فما لكم فى المنافقين فئتين.. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) وهى تنص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وعلينا أن نحمى الواصل إليها [٩] بل إن الإسلام يؤخر التناصر الثابت بحق الأخوة المشترك فى الدين، ويقدم عليه المعاهدات المعقودة، ولو مع قوم كافرين، وفى هذا يقول الله تعالى: (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[١٠] أفرأيت أن الآية تجعل رعاية العهد وحق الميثاق فوق جميع الحقوق وتمنعنا من نصر المستغيثين بنا من إخواننا فى الدين متى كان الظالمون لهم من بيننا وبينهم عهد أو ميثاق.[١١].

شروط صحة المعاهدة:

لصحة انعقاد المعاهدة شروط ثلاثة:

١- أهلية المتعاقد: وهى أن من يملك عقد الهدنة المؤقتة هو قائد الميدان، وأما الهدنة بين الجماعات الدولية فلرئيس كل منهما، وكذلك عقد الأمان الفردى أو الخاص يملك إصداره أى

مسلم، أما الأمان العام لولاية أو دويلة أو دولة أو أمة أو شعب فلا يملكه إلا رئيس الدولة (أمير المؤمنين) أو الإمام.

٢. الرضا وهو شرط لصحة المعاهدات فإن شابه غش أو خطأ أثر ذلك فى صحة المعاهدة وقد جاء من جوامع الكلم وسحر البيان فى كتاب على للأشتر النخعى من أنه لا يحل للمسلمين أن يستغلوا ضعف المعاهدين ولا يتمحلوا فى تفسير الألفاظ حيث يقول (لا أدغال ولا مدالسة ولا خداع ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن القول بعد التأكد ولا تختلن عدوك وراقب ربك).

٣. ويجب أن يكون موضوع الاتفاق مشروعا والقاعدة فى الشريعة الإسلامية (المؤمنون عند شروطهم إلا ما حلل حراما أو حرم حلالا) [١٢].

بعض الآيات والأحاديث الواردة فى شأن العهد

هناك آيات عديدة مكية ومدنية تندد بناكثى العهود وتحث على الوفاء بها، وتبين مدى ما أولاه الإسلام من عناية شديدة بالعهود والمواثيق: (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم)[١٣].

(وبعهد الله أوفوا) [١٤] (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل.. أولئك لهم عقبى الدار)[١٥] (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.. أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)[١٦](وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به).[١٧].

وكانت العادة أن توثق العهود بالإيمان والحلف وتختم بعبارة (والله على ذلك شهيد) أو أن يقال لكم على ذلك عبد الله ولهذا تشير الآية الكريمة (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى ضامنا لنفاذ عهودكم، وسميت الآية فى أولها العهود بأنها عهود الله تقديسا لها وتخويفا لعباده من أن يمسوها بسوء.

(وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) [١٨] (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)[١٩]وأما السنة ففيها الكثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعية إلى الوفاء بالعهد والمحذرة من نقضه، مبينة أن الغدر بالعهد من علامات النفاق، وأن مقترفه لا دين له ولا يشم رائحة الجنة، وتكون له شارة مهانة مميزة يوم القيامة، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث تؤدين إلى البر والفاجر.. الرحم توصل برة كانت أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفى به للبر والفاجر) (لا ايمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[٢٠] (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[٢١] (لكل غادر لواء يوم القيامة، يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان)[٢٢] (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء)[٢٣] (من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)

[٢٤] (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)[٢٥] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله تعالى عليهم العدو[٢٦].

ولست أجد أبلغ فى هذا المقام بعد كتاب الله وسنة رسوله ما صدر به الإمام على كتابه إلى الأشتر النخعى حيث قال: (إن عقدت بينك وبين عدو عقدا أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وأرع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد اجتماعا عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، فلا تغدوون بذمتك ولا تخيبن بعهدك)[٢٧].

لا وفاء إلا مع أهل الوفاء

ويبدو أن هذه المعاملة الفاضلة القائمة على رعاية العهود والمبالغة فى احترامها بدأت من جانب واحد فقط، أما الجانب الآخر فقد أظهر الموافقة والقبول، وأضمر التربص والكيد ريثما تواتيه الفرصة المناسبة، ليعلن غدره ويوقع مكره فهو يستمسك بالوفاء مادام ضعيفا، ويحرص عليه ما ظل يستفيد منه.. فإذا أحس بالدفء والقوة تحرك ليلدغ ويبسط يده وفمه بالأذى.. وقد ظل المسلمون الأولون حينا من الدهر يتعلقون بمثالياتهم ويحاولون الابقاء على عهودهم، مع مخالفيهم فى الدين من اليهود والنصارى والمشركين.

بيد أن هذه المحاولات ضاعت سدى.. فقد نقض يهود المدينة معاهداتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ظنوا الفرصة سنحت للقضاء على المسلمين فى معركة الأحزاب كما نقض المشركون عهد الحديبية مع أن بنوده لمصلحتهم، وعدا بعض أمراء الشام على رسول للنبى الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه.

إن كفار قريش آذوا النبى والمسلمين أشد أذى فى مكة وفتنوا بعضهم عن دينهم وأزهقوا أرواح بعضهم بالتعذيب، وحبسوا وقيدوا بعضهم والجأوهم إلى الهجرة من وطنهم والتخلى عن أموالهم.. إلى بلاد الحبشة أولا، ثم إلى المدينة، وتآمروا فى النهاية على النبى ليغتالوه، ودبروا تدبيرهم لذلك، فأحبطه الله ثم قاتلوا بعد الهجرة أشد قتال، وألبوا عليهم العرب وعزموا على استئصالهم بالزحف الضخم الذى عرف بزحف الأحزاب مما أشارت إليه آيات كثيرة[٢٨] وأخيرا ذلك النقض المتكرر منهم ومن اليهود..

واستبان من اطراد الحوادث أن المسلمين يعاملون رجالا من نوع لا شرف لديه ولا وفاء، فأصبح لزاما عليهم أن يعدلوا مسلكهم وأن يحسموا عهودا لم يحترمها منذ أبرمت إلا طرف واحد.. وفى ضوء هذه الملابسات نزلت سورة براءة، وفيها تسمع دمدمة الآيات، ومن ورائها قعقعة السلاح وفى هذه السورة أعلن - فى جلاء - أن المعاهدات السابقة قد ألغيت وأن آلاعيب المشركين الكثيرة قد وضع لها حد أخير.

والإنسان يستمع إلى الآيات التى تضمنت حيثيات هذا الإلغاء فيجد فيها دلائل الغضب من مسالك المشركين النابية وتقريعا شديدا على مخالفاتهم الماضية ونصا حاسما على أن الوفاء لا موضع له إلا مع أهل الوفاء فحسب.

ثم تفيض الآيات فى سرد أسباب النقض وضرورات الإلغاء التى أنهت هذه المعاهدات، ثم تكشف الغطاء عن مشاعر الحقد المضطرمة فى هذه النفوس الغادرة (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) ويرسم القرآن بعد ذلك الطريق لمعاملة أمثال أولئك القوم فيضرب السيئة بالسيئة ويعالج الغدر بالقصاص ويحرض المسلمين على قتال هؤلاء الناكثين لتطهر الأرض من رجسهم وتخلص الحياة من عبثهم.

إن الإسلام على قدر تنويهه بالمواثيق وتشديده فى المحافظة عليها يصب نقمته على المتلاعبين بها والمستغلين لها، ويعتبرهم دواب تضرب بالسياط لا بشرا يقادون من ضمائرهم ويأمر أن تكال الضربات لهم على نحو يثير الرعب فى غيرهم، حتى يكون التنكيل بهم عبرة لمن يلهو لهوهم، ويحنث حنثهم (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[٢٩]

استثناءان ممن برئ الله من عهودهم:

ومع ذلك كله فإن السورة قيدت هذا النقض العام لتوفر الأمن والسلام مع من حسنت سيرتهم وصدقت كلمتهم.. فاستثنى من هؤلاء الذين تبرأ الله من عهودهم وأمر بوعيدهم وتهديدهم وضرب لهم موعد الأربعة أشهر.. استثنى مرتين من حافظوا على عهدهم بالدقة التامة والإخلاص الكامل فقال: (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين)[٣٠].

وقال: (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين).. الأولى هى الآية الرابعة والثانية عجز الآية السابعة، وإليك بيانهما.

الاستثناء الأول وإلى أى شىء عاد؟

أما الآية الرابعة فهى استثناء من مدة التأجيل بأربعة أشهر المضروبة للمشركين المعاهدين وغيرهم، فهذا المعاهد عهدا مؤقتا يكون أجله إلى مدته المضروبة إلى عوهد عليها (ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته).

لكن إلى أى شىء عاد هذا الاستثناء؟ فيه وجهان:

الأول: قال الزجاج: انه عائد إلى قوله (براءة) والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المشركين المعاهدين إلا الذين لم ينقضوا العهد والثانى. قال صاحب الكشاف: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: (فسيحوا فى الأرض) لأن الكلام خطاب للمسلمين، والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم لم ينقصوكم فأتموا إليهم عهدهم.

وقد شرطت فيهم الآية أمرين: الأول انهم لم يقدموا على المحاربة بأنفسهم ولم يخلوا بشرط من الشروط ولم ينقصوا المعاهدة شيئا مما احتوته، الثانى أنهم لم يظاهروا ويعاونوا

على المسلمين أحدا ما، بشىء ما من عدة أو عدد أو رأى، ولم يمالئوا أو يهيجوا عليهم أقواما آخرين وينصروهم ويرغبوهم فى الحرب.. فهؤلاء يجب الوفاء لهم بذمتهم واتمام عهدهم إلى مدتهم وفاء بوفاء وعهدا بعهد، وكرامة بكرامة، إذا لا يجعل الوافدون كالقادرين.

ومن الضرورى أن من شروط العهد التى ينتقض بالإخلال بها عدم مظاهرة أحد من أعدائنا وخصومنا علينا، وقد صرح بهذا للاهتمام به، والا فهو يدخل فى عموم ما قبله، وذلك أن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعاون بينهما، فمظاهرة أحدهما لعدو الآخر ومعاونته ومساعدته على قتاله وما يتعلق به، كمباشرته للقتال بنفسه.

لقد وفى الإسلام لهؤلاء الذين وفوا بعهدهم فلم يمهلهم أربعة أشهر. كما أمهل كل من عداهم. ولكنه أمهلهم إلى مدتهم، ذلك أنهم لم ينقصوا المسلمين شيئا مما عاهدوهم عليه. ولم يعينوا عليهم عدوا، فاقتضى هذا الوفاء لهم والابقاء على عهودهم إلى نهايته ذلك مع حاجة الموقف الحركى للمجتمع المسلم فى ذلك الحين إلى تخليص الجزيرة بجملتها من الشرك، وتحويلها إلى قاعدة أمينة للإسلام لأن أعداءه على حدود الجزيرة قد تنبهوا لخطره وأخذوا يجمعون له. كما سيجئ فى الحديث عن غزوة تبوك. ومن قبل كانت وقفة مؤتة إنذارا بهذا التحفز الذى أخذ فيه الروم، فضلا على تحالفهم مع الفرس فى الجنوب فى اليمن، للتألب على الدين الجديد.

ولقد حدث ما ذكره ابن القيم من أن هؤلاء الذين استثناهم الله وأمر بالوفاء لهم بعهودهم قد دخلوا فى الإسلام قبل أن تنقضى مدتهم، بل حدث أن الآخرين الذين كانوا ينقضون عهودهم وغيرهم من أمهلوا أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض، لم يسيحوا فى الأرض وإنما اختاروا الإسلام أيضا!

لقد علم الله سبحانه. وهو ينقل بيده خطى هذه الدعوة - أنه كان الأوان قد آن لهذه الضربة الأخيرة، وأن الظروف كانت قد تهيأت، والأرض كانت قد مهدت، وانها تجىء فى أوانها المناسب، وفق واقع الأمر الظاهر، ووفق قدر الله المضمر المغيب، فكان هذا الذى كان.

ونقف أمام التعقيب الإلهى على الأمر بالوفاء بالعهد للموفين بعهدهم.. (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) [٣١]إنه يعلق الوفاء بالعهد بتقوى الله، وحبه سبحانه للمتقين، فيجعل هذا الوفاء عبادة له، وتقوى يحبها من أهلها، وهذه هى قاعدة الأخلاق فى الإسلام.. انها ليست قاعدة المنفعة والمصلحة، وليست قاعدة الاصطلاح والعرف المتغيرين أبدا.. انها قاعدة العبادة لله وتقواه.. فالمسلم يتخلق بما يحبه الله منه ويرضاه له، وهو يخشى الله فى هذا ويتطلب رضاه، ومن هنا سلطان الأخلاق فى الإسلام كما أنه من هنا مبعثها الوجدانى الأصيل، ثم هى فى الطريق تحقق منافع العباد وتؤمن مصالحهم وتنشىء مجتمعا تقل فيه الاحتكاكات والتناقضات إلى أقصى حد ممكن، وترتفع بالنفس البشرية صعدا فى الطريق الصاعد إلى الله.

والآية تدل:

١. على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام مادام العهد معقودا.

٢. وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته.

٣. وأن وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو والمعاهد لنا عليه بحذافيره من نص القول وفحواه ولحنه، المعبر عنهما فى هذا العصر بروحه.

٤. وعلى أنه يجوز اباحة إلغاء المعاهدة متى أخل فيها أحد الطرفين بشىء من التزاماته (وفى تنكير كلمة شيئا وكلمة أحدا) فى الآية، دلالة على أن انتقاص المعاهدة أى شىء - عظم أو حقر، وأن المظاهرة ولو لفرد واحد، وبأى وسيلة كانت - مبيحة لنبذ العهد، وهذا مبدأ فطرى تقرره العقول السليمة والطبائع المستقيمة، ولا يأباه ويثور عليه إلا من فسدت نيته واتخذ العهد بينه وبين الناس دخلا بينهم.

وهكذا الإسلام يحذر من اتخاذ المعاهدات للاحتيال على استلاب الضعفاء (ولا تتخذوا إيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله»[٣٢] (تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) [٣٣].

هذا هو الأساس الذى يجب أن تكون عليه المعاهدات فى نظر الإسلام فلينظر الناس ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدرا لنكبة العالم، وليعتبر بذلك أولو الأبصار.

الاستثناء الثانى وفائدته

أما الآية السابعة: فقد أعيد الاستثناء فيها لتأكيد هذا الاستثناء بشرطه المتضمن لبيان السبب الموجوب للوفاء بالعهد، وهو أن تكون الاستقامة عليه مرعية من كل واحد من الطرفين المتعاقدين إلى نهاية مدته، وهذا زائد على ما هنالك من وصفهم بأنهم لم ينقصوا من شروط العهد شيئا ولم يظاهروا على المسلمين أحدا وتمهيد لبيان استباحة نبذ عهود الذين لا يستقيمون للمعاهد لهم إلا عند العجز عن الغدر، حتى إذا ما قدروا عليه نقضوا عهدهم أو نقصوا منه كما فعلت قريش فى نقض عهد الحديبية بمظاهرتهم لحلفائهم من بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والأحسن من هذا أن يقال: إنما أعيد الاستثناء لأن صدر الآية السابعة صرح باستنكار أن يكون للمشرحين عهد عند الله وعند رسوله، وذلك قد يفهم منه نسخ ما كان قد تقرر فى الاستثناء الأول من إمهال ذوى العهود الموفين بعهودهم الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدته، فقد عاد يقرر هذا الحكم مرة أخرى فى بيان كامل دقيق.. فيعيد نص الاستثناء الأول كاملا على وجه التقريب، ويضيف إليه شرط الاستقامة من جانب المعاهدين على العهود، كى تكون المواد التى تقرر العلاقات الدولية بين المعسكرين واضحة جلية دقيقة فى مناسبتيها الأولى والثانية (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين).

وجاءت فى هذا التوكيد الجديد زيادة بيان، إذ كان الأمر الأول مطلقا بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم، فجاء هذا التوكيد يقيد هذا الإطلاق بأن هذا الوفاء مرهون باستقامتهم فى المستقبل إلى نهاية المدة كذلك، كما استقاموا فى الماضى، فإذا كان القرآن قد أذن بإتمام عهود ذوى العهود الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا هناك فقد اشترط هنا أن تكون الاستقامة على العهد - فى هذه المدة من المسلمين مقيدة باستقامة ذوى العهود عليها، فيكون النص الثانى مكملا للشروط المذكورة فى النص الأول، ففى الأول اشتراط استقامتهم فى الماضى وفى الثانى اشتراط استقامتهم فى المستقبل وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص فى هذه العلاقات والمعاملات، وعدم الاكتراث بالمفهومات الضمنية واتباعها بالمنطوقات القطعية - دقة لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين فى الموضوع الواحد كما هو ظاهر متعين.

وزاد هنا (عند المسجد الحرام) أى بجواره فى الحديبية وهو مما يتقضى تأكيد الوفاء بذلك العهد بشروطه المبينة - ومعنى - (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم): فمهما يستقم لكم هؤلاء فاستقيموا لهم، أو فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم، إذ لا يجوز أن يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم.

والتعبير عن الوفاء بالاستقامة مقصود، لأن نقض العهود التواء وانحراف عن الطريق القويم والوفاء استقامة فى الشعور، وحساسية فى الضمير، وأدب بما بين العبد والرب من تقدير.. ومن هنا جاء التذييل .. (إن الله يحب المتقين) الذين يجتنبون قطع ما أمر الله به أن يوصل، وغير ذلك من محارمه ومن أعظمها الغدر ونقض العهد.

والتعقيب بالتقوى هنا كالتعقيب بالتقوى هناك، لإبراز المعنى الأخلاقى الربانى فى الوفاء بالعهود .. فهى التقوى.. هى حساسية الضمير، هى مراقبة الله، تدعو إلى احترام العهود.

من المعنيون فى الاستثناءين؟

والسؤال المطروح بعد هذا، من المعنيون بالاستثناءين الأول والثانى؟ وهل المعنيون بالاستثناء الأول هم المعنيون بالاستثناء الثانى أو غيرهم؟ فى هذا اختلفت أقوال المفسرين قديما وحديثا، وإليك مجمل ما قالوا:

المعنيون بالاستثناء الأول (فى الآية الرابعة)

١- قال البغوى: المراد بنوضمرة [٣٤] وحى من كنانة.

٢- وقال السدى: هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج، حيان من بنى كنانة، كانوا حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة العسرة من بنى تبيع.

٣- وقال مجاهد: كان لبنى مدلج وخزاعة عهد، فهو الذى قال الله: (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم).

٤- وقال محمد بن عباد بن جعفر: هم بنو خزيمة بن عامر بن بنى بكر بن كنانة.

٥- وقال ابن عباس: هم مشركو قريش الذين عاهدهم النبى صلى الله عليه وسلم زمن

الحديبية، وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم هذا إلى مدتهم[٢٥].

٦ـ وقال المنار: والصواب أن هذا اللفظ عام، وتعيين المراد منه بأسماء القبائل لا يتعلق به عمل بعد ذلك الزمان [٢٦].

٧ـ والذى أختاره وأراه أصح ما قيل عن هؤلاء الذين ورد فيهم هذا الاستثناء: أنهم جماعة من بنى بكر ـ هم بنو خزيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة ـ لم ينقضوا عهدهم الذى كان فى الحديبية مع قريش وحلفائهم، ولم يشتركوا مع بنى بكر فى العدوان على خزاعة، ذلك العدوان الذى أعانتهم عليه قريش، فانتقض بذلك عهد الحديبية، وكان فتح مكة بعد سنتين اثنتين من الحديبية، وكانت هذه الجماعة من بنى بكر بقيت على عهدها وبقيت على شركها، فأمر رسول الله صلى الله عليه هنا أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.

والذى يؤيد ذلك أنه نص رواية محمد بن عباس وقريب من روايتى البغوى والسدى إن لم يكن موافقا لهما وليس بعيدا من رواية مجاهد، غير أنه يلاحظ ـ على رواية مجاهد أن خزاعة كانت قد دخلت فى الإسلام بعد الفتح، وهذا خاص بالمشركين الذين بقوا على شركهم.

المعنيون بالاستثناء الثانى (فى الآية السابعة)

هؤلاء الذين تشير هذه الآية إلي معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخري غير التي ورد ذكرها من قبل في قوله تعالي: (إلا الذين عاهدتم من المشركين) ـ كما فهم بعض المفسرين المحدثين ـ فهي طائفة واحدة، ذكرت أول مرة بمناسبة عموم البراءة وإطلاقها، لاستثنائها من هذا العموم، وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاته مع المشركين، مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلق فيه نسخ للحكم الأول.. ويؤيد هذا الرأي:

١ـ ذكر التقوي، وحب الله المتقين هنا وهناك بنصها، يدل علي أن الموضوع واحد.

٢ـ ولأن هذين الحيين من كنانة ممن عاهدوا عند المسجد الحرام في الحديبية، ثم لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا، فهم المعنيون في الاستثناء أولا وأخيرا، كما ذهب إلي ذلك المفسرون الأوائل.

٣ـ ولقول صاحب المنار: فالظاهر الذي جري عليه المفسرون أن هؤلاء المعاهدين المذكورين هم المذكورون هناك [٢٧].

٤ـ ويقول ابن جرير الطبري ـ بعد ذكر أقوال مختلفة في هذا الصدد ـ وأولي هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هم بعض بني بكر من كنانة ممن كان أقام علي عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله صلي الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية من العهد مع قريش حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بني الدئل علي حلفاء رسول الله صلي الله عليه وسلم من خزاعة.. وإنما قلت هذا القول أولي الأقوال في ذلك بالصواب لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا علي عهدهم وقد بينا أن هذه الآيات إنما نادي بها علي سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن

بمكة من قريش ولا خزاعة كافر يؤمئذ بينه وبين رسول الله صلي الله عليه وسلم عهد فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام علي عهده، لأن من كان منهم من ساكني مكة كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات [٣٨].

وذهب الأستاذ محمد عزة دروده إلي أن المعنيين بالمعاهدين عند المسجد الحرام هم طائفة أخري غير المذكورة في الاستثناء الأول، ذلك أنه يحب أن يذهب إلي جواز قيام معاهدات دائمة بين المسلمين والمشركين، فارتكن إلي قوله تعالي: (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) ليستدل منه علي جواز تأبيد المعاهدات! واستدل علي المغايرة بروايات الطبري أن الآية عنت بني خزيمة أو بني الدئل أو مدلج.[٣٩]

بين المتشددين والمتساهلين

وهنا أسئلة تفرض نفسها: هل يقاتل المشركون المحاربون فقط أو كل مشرك؟ وهل يصح أن نقيم معاهدات مع المشركين المحاربين إذا طلبوا ذلك؟ وهل يجوز تجديد العهد أو تمديده مع المشركين المعاهدين عهدا موقوتا غير الناقضين؟

هذه الأسئلة وغيرها يبدو فيها اتجاهان، ويظهر في إجابتها مدرستان: مدرسة متشددة وتساعدها النصوص القرآنية، تري قتال المشركين جميعا، وعدم تجديد أو تحديد إقامة معاهدات معهم، وأن الجهاد ليس دفاعيا فحسب.. ومدرسة متساهلة - ويؤيدها الواقع التاريخي - تري العكس من ذلك وسأحاول شرح وجهة نظر كل من المدرستين، وعرض ما يمكنني عرضه من أدلة الفريقين، وإن كنت إلي المتشددين أميل.

مدرسة المتساهلين، غرضها، وهدفها

١. قالوا: هناك شواهد من السيرة النبوية في أواخر العهد المدني تدل علي أنه كان بين المسلمين والمشركين عهود بعد الفتح المكي، ربما كانت ممتدة إلي ما قبله، وأن من المشركين من ظلوا أوفياء لعهودهم، ومنهم من نقض أو ظهرت منه علائم النقض والغدر.

هذا، وإن كثيرا من الفقهاء والمفسرين ليسمون آية (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) آية السيف، واعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله تعالي (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال بعضهم: إنها تطلق علي كل منهما، أو علي كلتيهما.. ويعدون ذلك أمرا يوجب علي المسلمين قتال المشركين قتالادائما متصلا علي أية حال يكون عليها المشركون، إزاء المسلمين، سواء أكانوا محاربين أو مسالمين.. ويعتبرون هذه الآية ناسخة لكل ما جاء في القرآن من آيات تدعو إلي مهادنة غير المسلمين ومسالمتهم إذا هم هادنوا المسلمين وسالموهم ناسخة لقوله تعالي: (فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم)[٤٠] (فان انتهوا فلا عدوان إلا علي الظالمين)[٤١] (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٤٢] إلي غير ذلك من الآيات التي تدعو المسلمين إلي القتال حين تقوم دواعيه: وهي رد عدوان المعتدين أو الذين يقفون في وجه الدعوة الإسلامية ويصدون الناس عنها أو يفتنونهم فيها، أما في غير هذا فلا قتال ولا عدوان..

ناسخة لكل آية فيها أمر بالتسامح والتساهل مع المشركين وإمهالهم والإغضاء والصفح والإعراض عنهم، وتوجب قتالهم إطلاقا، وبعضهم يستثني المعاهدين منهم إلي مدتهم، وبعضهم لا يستثني ولا يجوز قبول غير الإسلام منهم بعد نزولها.

قالوا: ولقد كرر المفسرون أقوالهم ورواياتهم عن قدماء أهل التأويل في مناسبة هذه الآية. فروي ابن كثير [٤٢] عن ابن عباس: ان الآية أمرت النبي صلي الله عليه وسلم بأن يضع السيف فيمن عاهدهم حتي يدخلوا في الإسلام وأن ينقض ما قد سمي لهم من عهد وميثاق، وقد روي المفسر نفسه قولا عجيبا عن سفيان ابن عيينة جمع فيه بين هذه الآية وآيات أخري من هذه السورة وغيرها سماها الأسياف، وقال: إن النبي صلي الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب بها حيث بعثه يؤذن في الناس يوم الحج الأكبر، منها هذه الآية وسماها سيفا في المشركين من العرب، وسيفا في قتال أهل الكتاب وهي آية (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إلي آخر الآية)، وسيفا في المنافقين وهي آية (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وسيفا في قتال الباغين وهي آية (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما علي الأخري فاقتلوا التي تبغي حتي تفيء إلي أمر الله)[٤٤].

ومن العجيب أن الطبري ذهب إلي أن هذه الآية تشمل المعاهدين ومن لاْ عهد لهم اطلاقا دون تفريق، مع أنه قرر في سياق آية الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[٤٥] أنها محكمة وأن الله لا ينهي المسلمين عن البر والإقساط لمن يقف منهم موقف المسالمة والمحاسنة والحياد من أية ملة كانوا، وهؤلاء قد لا يكونون معاهدين.

قالوا: ولا يخفي ما في ذلك من غلو ومناقضة للتقريرات القرآنية المتضمنة لأحكام محكمة بعدم قتال غير الأعداء وترك المسالمين والموادعين وبرهم والأقساط إليهم.. قالوا ويبين ذلك أمور:

أ ـ آية: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ـ كما هو واضح من فحواها وسياقها ـ هي في صدد قتال المشركين المعاهدين الناقضين لعهودهم وحسب، بحيث يسوغ القول إن اعتبارها آية سيف وجعلها شاملة لكل مشرك إطلاقا تحميل لها بما لا يتحمل هذا السياق والفحوي.

ب ـ وكذلك الأمر في اعتبارها ناسخة للتقريرات القرآنية المنطوية في آيات عديدة، والتي عليها طابع المبدأ المحكم العام، مثل عدم الإكراه في الدين، والدعوة إلي سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن والحث علي البر والاقساط لمن لا يقاتلون المسلمين ولا يخرجونهم من ديارهم.

جـ ـ وغير بعيد من هذه الآية، آية مجاورة ـ وإن لم تكن ملاصقة ـ فيها أمر صريح للمسلمين بالاستقامة علي عهدهم مع المشركين الذين عاهدوهم عند المسجد الحرام ما استقاموا لهم وفي هذه الآية دليل قوي علي وجاهة ما نقرره إن شاء الله.

د ـ وآية (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ـ آية السيف هذه كما يقول عنها

القائلون - إنما هي دعوة للمؤمنين إلي جمع جماعتهم علي أمر واحد في المشركين، وهو أن يعدوهم جميعا جبهة معادية لا فرق بين مشرك ومشرك، فكما أن كل مشرك هو حرب علي الإسلام والمؤمنين به سواء كان ذلك بقلبه أو لسانه أو يده، وسواء أكان في جماعة أم منفردا فكذلك ينبغي أن يكون المؤمنون علي تلك المشاعر وهذه المواقف إزاء المشركين.. إن الذي ينبغي أن يكون من المؤمنين هو أن يكونوا قلبا واحدا ولسانا واحدا ويدا واحدة، لأنهم مهما كثر عددهم فهم قلة في هذه الدنيا بالنسبة لأهل الشرك والضلال والكفر، كما يقول سبحانه :(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[٤٦] فهذا من شأنه أن يدعو المسلمين إلي جمع كلمتهم ووحدة صفهم، فوق أن ذلك هو واجب المسلمين في السلم، فكيف وهم في مواجهة العدو المتربص بهم؟

أما موقف المسلمين مع غير المسلمين فهو سلم مع من سالمهم وحرب مع من حاربهم واعتدي عليهم.

هـ - وتاريخ الدعوة الإسلامية وأسلوبها الذي قامت عليه منذ اليوم الأول علي يد صاحب الرسالة العظمي صلي الله عليه وسلم لم يخرج عن هذا الخط الذي حدد مسيرتها قوله تعالي لنبيه الكريم: (ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[٤٧] وقوله سبحانه: (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)[٤٨] وقوله عز شأنه: (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[٤٩] وهذه الآيات وأمثالها من الآيات المحكمات قد قامت علي أساسها صلات المسلمين فيما بينهم وبين المجتمعات الإنسانية التي لم تدخل في الإسلام، سواء ما كان منها في ذمة المسلمين أو كان في دار الحرب أو خارج هذه الدار.

و - وكيف يكون من مفاهيم الإسلام أن يكون حربا علي الناس من غير أن يبدأوا أتباعه بحرب؟ ألا يكون هذا عدوانا مما نهي الله عنه في أكثر من آية من آيات الكتاب الكريم؟

ز - وبأي تأويل يتأول القائلون بالحرب العامة علي المجتمع الإنساني قوله تعالي: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٥٠] إنه لا تأويل، ولكن القول بالنسخ وإبطال حكم هذه الآية وغيرها هو الحجة القاطعة ضد القائلين بالحرب العامة الشاملة علي كل من لا يدخل في الإسلام، ومع هذا فإن القول بنسخ هذه الآيات التي تعارض آية السيف أو آيات السيف - كما يسميها أصحاب هذا الرأي - ينقضه قوله تعالي: (حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[٥١] فإن قبول الجزية ممن تقبل منهم الجزية بعد أن ينزلوا علي حكم السيف لا يجعل منهم مسلمين بل هم مشركون، ولا تزال آيات السيف مسلطة عليهم.. فهل من أجل هذه الجزية بعد أن ينزلوا علي حكم السيف لا يجعل منهم مسلمين بل هم مشركون، ولا تزال آيات السيف مسلطة عليهم.. فهل من أجل هذه الجزية التي يحتفظ معها غير المسلم بدينه تنسخ عشرات الآيات الداعية إلي السلام والموادعة لتفسح المجال للسيف وآية السيف أو آيات السيف؟[٥٢] ذلك لا معقول له.

ح - ثم أي دين هذا الدين الذي يدخل فيه الناس قهرا وقصرا تحت حكم السيف؟ وهل مثل هذا الدين يعمر قلبا أو يمس وجدانا؟ وإذا ساغ أن يقبل مثل هذا في دعوة سياسية أو

اجتماعية فهل يقبل في دين تدعو إليه السماء؟ وإذا قبل في دين سماوي لمجتمع من المجتمعات لفترة محدودة ولمكان محدود، فلن يقبل في الإسلام دين الحياة الإنسانية كلها في امتداد أزمانها، وفي اختلاف أممها وشعوبها، وذلك ما يكشف عنه قوله تعالي: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[٥٣].

ط ـ ثم أين هي التقوي التي يدعو إليها الله سبحانه في آخر الآية (واعلموا أن الله مع المتقين).. إذا كان المسلمون حربا علي الناس من غير أن يؤذنهم أحد بحرب.

٢ـ قال المتساهلون: وقد ترد مسألتان في صدد ما ينطوي عليه البيان السابق من أحكام: أولاهما: أن الاستثناء الوارد في قوله تعالي: (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحد فأتموا إليهم عهدهم إلي مدتهم) محدد بانقضاء مدة العهد فهل يكون المعاهدون من المشركين حين انقضاء هذه المدة موضع براءة الله ورسوله ويجب قتالهم؟ كلام المفسرين ينطوي علي الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب، قالوا: ولم نطلع علي أثر نبوي وثيق في هذا الصدد، ونري أن كلام المفسرين يصح أن يكون محل توقف إذا أريد به الاطلاق، وأن الأمر يتحمل شيئا من التوضيح.

وثانيتهما: ما تفيده الفقرة الأخيرة من آية (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) من كون تخلية سبيل المشركين والكف عن قتالهم بسبب نقضهم منوطين بتوبتهم عن الشرك وإقامتهم الصلاة وإيتائهم الزكاة .. والذي يتبادر أن المشركين بنقضهم العهد فقدوا حق العهد ثانية وصار من حق المسلمين أن يفرضوا الشرط الذي يضمن لهم السلامة، وهو توبتهم، ولا يعد هذا من قبيل الإكراه في الدين، ومع هذا فلسنا نري نحن المتساهلين مانعا من تجديد العهد.. وتوضيحا لذلك نقول:

٣ـ إن القرآن أولي عناية شديدة للعهود والمواثيق التي يعقدها المسلمون مع غيرهم بدئا أو بعد حرب، وأمر بالوقوف عندها بقطع النظر عن أي اعتبار، ماداموا لم ينقضوها بعمل عدائي علي ما ورد في هذه الآيات (إلا الذين يصلون إلي قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم.. ولو شاء الله (سلطهم عليكم فقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)[٥٤]«إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحد فأتموا إليهم عهدهم إلي مدتهم)[٥٥] (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)[٥٦] (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)[٥٧].

وهذه الآية نزلت ـ علي الأرجح ـ بصدد الأمر بالوفاء بعهد الصلح مع قريش قبل نقضه علي ما تلهم الآية التي تليها: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا علي البر والتقوي ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[٥٨].

والروايات التي تذكر أن فريقا من المسلمين بعد عقد النبي صلي الله عليه وسلم مع قريش صلح الحديبية وعودته مع المسلمين إلي المدينة دون زيارة الكعبة، ظلوا يحقدون علي قريش

لمنعهم إياهم من زيارة الكعبة، وتآمروا علي منع من يستطيع الذهاب إلي مكة للزيارة أو الحج، فاعتبرت حكمة الله ذلك منهم مخالفا للعهد الذي قام بينهم وبين قريش، وتعاونا علي الإثم والعدوان . وأكدت عليهم وجوب الوفاء بالعقود مادامـوا يعقدونها مع غيرهم ونهتهم عن جعل الحقد والغضب بسبب منع قريش اياهم عن الزيارة يغلبانهم، ونبهت عليهم أن الأولي بهم أن يتعاونوا علي البر والتقوي لا علي الإثم والعدوان، وفي هذا ما فيه من روعة وجلال.

وفي سورة الأنفال :(إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتي يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا علي قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير)[٥٩] مثل ذلك حيث تحذر خرق الميثاق المعقود مع غير المسلمين ولو في سبيل نصرة مسلمين خاضعين لهم يستصرخون إخوانهم مع نعيها علي الخاضعين الاستمرار في الخضوع، وإيجابها عليهم الهجرة من دار الظلم، ومع إيجابها النصر لمن يستصرخهم علي من لا يكون بينهم وبينهم ميثاق، علي أن ما احتوته الآية لا يعني تخلية المسلمين الذين بينهم وبين غير المسلمين الجائرين علي ما هم تحت سيطرتهم من المسلمين من واجب بذل الجهد في سبيل إزالة ما يشكو منه المسلمون من أذي وإهانات واضطهاد.

وفي سورة الأنفال كذلك (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم علي سواء إن الله لا يحب الخائنين)[٦٠].

تنبيه رائع للمسلمين، حيث تضمنت أمرا للنبي صلي الله عليه وسلم بأنه إذا ما رأي أمارات غدر وخيانة من قوم معاهدين، أن يعلنهم بما رآه منهم وبعزمه علي الوقوف منهم موقف النقض، وأن لا يباغتهم بالنقض والحرب قبل هذا الإعلان، ليكون الطرفان إزاء بعضهما في ظروف متساوية، وقد يكون في الآية بالإضافة إلي هذا معني آخر، وهو الإعداد والإنذار الذي يحتمل أن يؤثر في موقف المعاهد المبيت للنقض والغدر والخيانة فيحملاه علي التراجع والتحسب وتفادي نقض العهد والعودة إلي حالة الحرب.

وواضح أن هذا في صدد الذين لم يباغتوا المسلمين بالنقض والعداء والحرب فعلا، فمثل هؤلاء لم يعد يرد في حقهم أن يعلنوا بأن المسلمين سيقفون منهم مثل موقف النقض الذي يعتزمون وقفه.

ولقد روي المفسرون عن ابن عباس وغيره من أصحاب رسول الله وتابعيهم: ان الآيات التي تذكر ما قام من عهد بين النبي والمشركين وتوجب رعايته.. قد نسخ بالآية الخامسة من سورة التوبة (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) وأن المسلمين مأمورون بقتالهم إن لم يتوبوا ويسلموا ويقتحموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، كما جاء في الآيتين الرابعة والسابعة من هذه السورة.

وهذا ما لا يمكن التسليم به بالنسبة للذين يستقيمون علي عهد غير موقوت بينهم وبين المسلمين بنص آية سورة النساء: (الا الذين يصلون إلي قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآية ثم بنص آيتي سورة التوبة اللتين تستثنيان من القتل والقتال المعاهدين غير الناقضين من المشركين

وتأمر أولاهما بإتمام مدة من كان عهده موقوتا، وتأمر ثانيتهما بالاستقامة علي العهد مع المعاهدين من المشركين ما استقاموا عليه.

ولقد بينا مسألة إطلاق قتال المشركين في الفقرة الأولي، وانتهينا ـ نحن المتساهلين ـ إلي إثبات كون ذلك لا يصح أن يرد إلا بالنسبة للأعداء، وعدم وروده بالنسبة للمعاهدين المستقيمن علي عهدهم من باب أولي.

ومن العجيب أن يقال: إن آية سورة التوبة الخامسة نسخت كل عهد وشرعت قتال المشركين اطلاقا إلي أن يسلموا ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والآيتان اللتان تستثنيان المعاهدين غير الناقضين واردتان في نفس السياق، وهذا يدفعنا إلي أن نظن أن هذا القول منحول لابن عباس مدسوس عليه وعلي أمثاله الذين نجلهم عن التناقض.

إن آيات سورة التوبة الخامسة والثامنة والتاسعة والعاشرة التي تأمر بقتال المشركين إلي أن يسلموا هي في حق المعاهدين الناقضين بنص آيات التوبة هذه هي التي من السياق (وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون الا تقاتون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين)[٦١].

ونعتقد أن في هذا دليلا حاسما بالنسبة للنقطة الأولي: أي أن الآيات انما توجب قتال الناكثين فقط، وقد تكون الحكمة المنطوية في ذلك أن المشركين بعد أن نقضوا عهدهم وقاتلهم المسلمون فقدوا حق العهد ثانية، وصار من حق المسلمين أن يفرضوا عليهم الشرط الذي يضمن لهم الأمن والسلامة.. وهو توبتهم عن الشرك ودخولهم في الإسلام، وقيامهم بواجباته التعبدية والمالية.

ولا نري أي ـ مدرسة المتساهلين ـ ان هذا يعد من قبيل الاكراه في الدين الذي نفاه القرآن (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

وهذا يقطع النظر عن أن الشرك يمثل مظاهر انحطاط الإنسانية ويسخرها لقوي وأفكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق كما يمثل نظاما جاهليا فيه التقاليد الجائرة والعادات المنكرة، والعصبيات الممقوتة، وان الإسلام الذي يشترط علي الناكثين لعهودهم الدخول فيه للكف عنهم، يضمن لهم الخلاص من كل ذلك والارتفاع إلي الكمال الإنساني عقلا وخلقا وعبادة وعقيدة وعملا.

ومع ذلك فإننا لسنا نري في الآيات ما يمنع المسلمين من تجديد العهد مع الناكثين بعد استئناف قتالهم إذا كانت مصلحتهم تقتضي ذلك، وقد لا يكونون في كل ظرف قادرين علي متابعة الحرب أو علي اخضاع عدوهم بالقوة، وقد يكون في آية سورة البقرة (أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم[٦٢]وآية سورة الأنفال: (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون)[٦٣]دليل علي ذلك، بل إن في الآيات التي تأتي بعد هذه الآية من سورة الأنفاق والتي هي في حق الذين هم موضوع الكلام ما يجعل هذا الدليل قويا، وهي: (وان

جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله انه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيديك بنصره وبالمؤمنين)(٦٤).

والخطة الكاملة في الآيات: ان الله اذن بقتالهم، لأنهم ينكثون عهدهم، والخيانة متوقعة منهم، ومع ذلك فإذا وقع القتال معهم ثانية وجنحوا إلي السلم وطالبوا تجديد العهد فانهم يجابون إلي طلبهم حتي ولو كان من المحتمل أن يكون جنوحهم إلي السلم من قبيل الخداع، وفي الخطة من الروعة ما هو ظاهر.. وليس هناك في كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض هذه الخطة، وامتناع رسول الله صلي الله عليه وسلم عن تجديد العهد مع قريش أو تمديده حينما اعتبر العدوان علي حلفائه بني خزاعة بتحريض من بعضهم نقضا له وزحف علي مكة وفتحها، ليس فيه حكم تشريعي محكم فيما يتبادر لنا (أي مدرسة المتساهلين) فضلا عن أن خبر طلب أبي سفيان لذلك لم يرد في حديث وثيق فيما اطلعنا عليه.. ومع ذلك يمكن أن يقال علي ضوء ذلك ان أمر تجديد العهد للناكثين بعد استئناف القتال معهم دون أن يسلموا موكول لما يراه المسلمون انه في مصلحتهم.

ثم ننتقل إلي موضوع المعاهدين عهدا موقوتا حين تنتهي مدتهم ولم يظهر منهم اثناءه نقض، والذين ذكرتهم الآية الرابعة من سورة التوبة: (الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلي مدتهم) والآية التي بعدها إنما تأمر بقتال المشركين حينما ينسلخ الأشهر الحرم، وقد لا تكون مدة عهدهم قد انقضت، فلا تنطبق الآية عليهم في حين نزولها.

وكلام المفسرين أن الاستثناء محدد بانقضاء مدة العهد، وان المعاهدين من المشركين بعد انقضاء هذه المدة موضع براءة الله ورسوله ويجب قتالهم، ونري أن كلام المفسرين يصح أن يكون محل توقف إذا أريد به الاطلاق.

قالوا: والذي يتبادر لنا أن هؤلاء المعاهدين عهدا موقوتا: اما أن يكونوا أعداء للمسلمين قبل العهد، وقد وقع حرب وقتال بينهم، ثم عاهدهم المسلمون، كما كان شأن قريش وصلحهم مع النبي صلي الله عليه وسلم في الحديبية، واما أن يكون قد رغبوا في موادعة المسلمين ومسالمتهم دون أن يكون قد وقع بينهم عداء وقتال.. فبالنسبة للأولين تكون حالة العداء والحرب قد عادت بعد انتهاء المدة، فيصبح من حق المسلمين قتالهم وفرض شروطهم عليهم بالإسلام، مع جواز تجديد العهد لهم إذا طلبوا ذلك، أو كانت مصلحة المسلمين وظروفهم تقتضيه علي ما بينا آنفا، وبالنسبة للآخرين فالمفروض انهم كانوا مسالمين، وقام بينهم وبين المسلمين عهد بتوكيد ذلك، وآية النساء: (الا الذين يصلون إلي قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) الآية ينطوي فيها - علي ما نعتقد - حالة واقعية مثل ذلك، وهو ما تفيده الروايات التي تذكر قيام العهود بين النبي صلي الله عليه وسلم وبين هلال بن عويمر وسراقة بن مالك المدلجي وبني ضمرة التي أوردت قبل، وروي ابن سعد أن النبي صلي الله عليه وسلم وادع بني صخر من كنانة ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه عدوا، وكتب بينه وبينهم كتاب، فإذا ظل أمثال هؤلاء بعد انتهاء مدتهم

سالمين كما كانوا ولم يبد منهم أي عدوان فليس للمسلمين عليهم سبيل بنص آية النساء ثم بمبدأ عدم قتال كل كافر، وعدم قتال غير الأعداء، ثم بمبدأ عدم نهي الله المسلمين عن البر والاقساط وحسن التعايش والتعامل بالنسبة لمن لم يقاتلوهم، وتجديد العهد لهم إذا طلبوه جائز من باب أولي، وآية التوبة السابعة قرينة علي ذلك.

مدرسة المتشددين منهجها واتجاهها

قالوا: إن مدرسة المتساهلين مشغولون كغيرهم من الكتاب المحدثين الواقعين تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين وللقوة الظاهرة لمعسكر المشركين والملحدين وأهل الكتاب في هذا الزمان.. بتلمس شهادة لهذا الدين بأنه دين المسلم والسلام الذي لا يعنيه إلا أن يعيش داخل حدوده في سلام! فمعني أمكنت المهادنة والمعاهدة فهو حريص عليها لا يعدل بها هدفا آخر.. وهم من ثم لا يرون سببا لهذه النصوص الجديدة الأخيرة في سورة التوبة إلا نقض بعض المشركين لعهودهم مع رسول الله صلي الله عليه وسلم وأن الذين لم ينقضوا عهودهم - سواء كانت مؤقتة أو مؤيدة - فقد جاءت السورة بالمحافظة عليها وأنه حتي إذا انقضت عهودهم فإنه يجوز أن تعقد معهم معاهدات جديدة وكذلك الناكثون أنفسهم وأن الآيات المرحلية هي الأصل الذي يقيد عموم الآيات الأخيرة في هذه السورة!!

هكذا تري مدرسة المتساهلين وللرد عليهم نقول نحن المتشددين في نقاط موجزة.

١- أن كثيرا ممن يكتبون عن الجهاد في الإسلام يخلطون بين منهج هذا الدين في النص علي استنكار الاكراه علي العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوي المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعيد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله.. وهما أمران لا علاقة بينهما، ولا مجال للالتباس فيهما ومن أجل هذا التخليط يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: (الحرب الدفاعية) والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها ولا تكييفها كذلك.. أو بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة (الإسلام) ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله وذكر أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد لا يتم بمجرد التبليغ والبيان لأن المتسلطين علي رقاب العباد لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان والا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وتاريخ هذا الدين علي ممر الأجيال.

٢- والذي يدرك طبيعة هذا الدين، يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في سورة الجهاد بالسيف - إلي جانب الجهاد بالبيان - ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية - بالمعني الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح (الحرب الدفاعية) كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر، أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام - إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير (الإنسان) في (الأرض).. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة.

٣- وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية، فلابد أن نغير مفهوم كلمة (دفاع) ونعتبره (دفاعا عن الإنسان) ذاته، ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره.. هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات، كما تتمثل في الأنظمة القائمة علي الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية، التي كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، والتي ما تزال أشكال منها سائدة في هذا الزمان!

٤- وبهذا التوسع في مفهوم كلمة (الدفاع) نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في (الأرض) بالجهاد، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها، وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان.. أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعني الضيق للمفهوم المصري للحرب الدفاعية ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوة المجاورة علي (الوطن الإسلامي)! - وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب - فهي محاولة تنم عن إدراك لطبيعة هذا الدين ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض.. كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر علي الجهاد الإسلامي.

٥ - تري لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس علي الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الإسلامي إلي أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد وأمام الدعوة تلك العقبات المادية - من أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية والاقتصادية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟!

٦- انها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير (الإنسان) نوع الإنسان.. في (الأرض) كل الأرض.. ثم نقف أمام هذه العقبات نجاهدها باللسان والبيان!.. انها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلي بينها وبين الأفراد تخاطبهم بحرية وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤشرات.. فهنا (لا إكراه في الدين).. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلابد من إزالتها أولا بالقوة للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله، وهو طليق من هذه الأغلال!

٧- إن الجهاد ضرورة للدعوة إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي، سواء كان الوطن الإسلامي - وبالتعبير الإسلامي الصحيح: دار الإسلام - آمنا أم مهددا من جيرانه.. فالإسلام حين يسعي إلي السلم، لا يقصد تلك السلم الرخيصة، وهي مجرد أن يأمن علي الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله، أي تكون عبودية الناس كلهم فيما لله والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

٨- العبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام - بأمر من الله - لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأواسطها، ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم (فاستقر أمر الكفار معهم - بعد نزول براءة - علي ثلاثة أقسام: محاربين له،

وأهل عهد وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلي الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة .. والمحاربون له خائفون منه.. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن [٦٥]وخائف محارب [٦٦].

هذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر!

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة، وفي أول العهد بالهجرة إلي المدينة .. وقيل للمسلمين: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).. ثم اذن لهم فيه، فقيل لهم: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»[٦٧] ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)[٦٨] ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم:(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[٦٩]وقيل لهم (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)..

ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[٧٠].

فكان القتال - كما يقول الإمام ابن القيم - (محرما ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين)[٧١].

٩- ان جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد، وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه، وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام، وعلي مدي طويل من تاريخه.. ان هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر علي الجهاد الإسلامي! ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله صلي الله عليه وسلم ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي، ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجيء، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟!

اذن فهو الشأن الدائم، لا الحالة العارضة، الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض وانه متي قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد رده المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يأمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن (الإنسان) في (الأرض) ذلك السلطان الغاصب حال دائمة لا يكف معها الانطلاق للجهاد حتي يكون الدين كله لله.

١٠- انها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض، بإخراج الناس من العبودية للعباد إلي العبودية لله وحده بلا شريك وهذه وحدها تكفي.. ولقد كانت هذه المبرررات ماثلة في نفوس

الغزاة من المسلمين، فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول: خرجنا ندافع عن وطننا المهدد!! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة!

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة، جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة: ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلي سعتها، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلي خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبي قاتلناه حتي نفضي إلي الجنة أو الظفر).

١١. ان المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمهد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام!.. ولكن الإسلام لا يهادنها إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها وفوق بين تصور الإسلام علي هذه الطبيعة وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية، لا يحركه إلا خوف الاعتداء! إنه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق.

١٢. ان مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية، وليس منهج إنسان ولا مذهب شيعة من الناس! ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفترض حسنا هذه الحقيقة الهائلة .. وحسب الإسلام أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم علي اعتناق عقيدته، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأشيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان ولتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان.. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ.. مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة.. وعلي هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.

١٣. في ضوء هذا البيان نستطيع أن ندرك أن هناك نصوصا مرحلية ونصوصا نهائية وأن النصوص المرحلية نزلت تواجه مراحل مختلفة في كفاح الإسلام الطويل، وأن كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وأن كل مرحلة تسلم إلي المرحلة التي تليها.. فهو لا يقابل مراحل الواقع بوسائل متجمدة.

وفي ضوء هذا البيان أيضا نستطيع أن نفهم لم كانت هذه الأحكام الأخيرة الواردة في هذه

السورة: من براءة الله ورسوله من عهود المشركين، وإمهال ذوي العهود الموقوتة منهم ـ ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا ولم يظاهروا عليهم أحدا ـ إلي مدتهم وإمهال ذوي العهود غير الموقوتة ـ ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا كذلك ولم يظاهروا عليهم أحدا ـ إلي أربعة أشهر. ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهد أصلا من المشركين، ونبذ عهود الناقضين لعهودهم. مع امهالهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض آمنين، فإذا انسلخت هذه الأشهر أخذوا وقتلوا حيث وجدوا وحوصروا ومنعوا من التنقل وهم آمنون..كما تفهم الأحكام الواردة فيها عن قتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله الصحيح حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. ثم الأحكام الواردة بجهاد المنافقين مع الكفار بالغلظة عليهم وعدم الصلاة علي موتاهم أو القيام علي قبورهم.. وكلها أحكام تعدل الأحكام المرحلية السابقة في السور التي نزلت قبل التوبة بيد أن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة، بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتي الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها، متي أصبحت الأمة الإسلامية في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت علي أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية، سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب.

١٤. إلا أن مدرسة المتساهلين يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض ومن ثم نراهم يقولون مثلا: إن الله سبحانه يقول :(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله)[٧٢] ويقول (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم)[٧٣] ويقول: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [٧٤] ويقول: عن أهل الكتاب (قل يأهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولا اشهدوا بأنا مسلمون [٧٥] فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج، وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين، وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها!

ومعني ذلك ـ في تصور مدرسة المتساهلين المهزوم ـ أن لا علاقة للإسلام اذن بسائر البشر في أنحاء الأرض ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله، ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله في الأرض كلها مادام هو آمنا داخل حدوده الإقليمية!

قالوا: وهو سوء ظن بالإسلام، وسوء ظن بالله سبحانه تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم، وأمام القوي العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة!

وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوي لا يحيلون هزيمتهم إلي الإسلام ذاته

ولا يحملونه علي ضعف واقعهم الذي جاءهم من بعدهم عن الإسلام أصلا! ولكنهم يأبون الا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم علي دين الله القوي المتين!

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معنيا وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية، لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام.

ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المني، وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين.. وإنما معناه أن علي الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها حتي تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين (براءة من الله ورسوله إلي الذين عاهدتم من المشركين) (وأذان من الله ورسوله إلي الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريئ من المشركين ورسوله) (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد)(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ويقول أيضا : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة).

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام، فهم ـ اللحظة ومؤقتا غير مكلفين بتحقيقها ـ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتي ينتهوا إلي تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها.. ولكن عليهم الا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية، وعليهم الا يحملوا ضعفهم الحاضر علي دين الله القوي المتين وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام!

إنه دين السلم والسلام فعلا.. ولكن علي أساس انقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله وادخال البشرية كافة في السلم كافة .. انه منهج الله، هذا الذي يراد البشر علي الارتفاع إليه والاستمتاع بخيره، وليس منهج عبد من العبيد، ولا مذهب مفكر من البشر حتي يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوي التي تقف في سبيله لاطلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره.

١٥ـ في مطلع هذه السورة نسمع هذا الإعلان العام بهذا الإيقاع العالي يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين.. وهو براءة الله ورسوله من عهود المشركين مطلقا بحيث لا يبقي بعد ذلك مراجعة ولا تردد، ثم يأتي بعد الإعلان العام البيانات والمخصصات والشروح لهذا الإعلان والاستثناءات المخصصة للحالات المؤقتة التي يصار بعدها إلي ذلك المبدأ العام .. وهذا يعني انهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعا : بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر،

وبعضهم بعد انتهاء مدتهم حتي يئول الأمر بعد هذه الأحكام إلي حالتين اثنتين: دخول في الإسلام وأداء فرائضه، أو قتال وحصار وأسر وارصاد.. أنهم عالنوا بالجحود خالقهم ورازقهم، وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود ابتداء، فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ هذه هي القضية التي يثيرها هذا السؤال الاستنكاري في الآية (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟ وهي قضية تنصب علي مبدأ التعاهد ذاته، لا علي حالة معينة من حالاته.

١٦ـ وقد يستشكل علي هذا: بأنه كانت للمشركين عهود فعلا.. وبعض هذه العهود أمر الله بالوفاء بها، وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة في المدينة .. عهود مع اليهود، وعهود مع المشركين، وأنه وقع عهد الحديبية في السنة السادسة للهجرة، وأن النصوص القرآنية في سور سابقة كانت تجيز هذه العهود، وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة.. فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذي يرد عليه الانكار هنا، فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتي نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد؟!

وهذا الاستشكال لا معني له في ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي.. لقد كانت تلك المعاهدات مواجهة للواقع في حينه بوسائل مكافئة له أمام الحكم النهائي فهو أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.. كانت أحكاما مرحلية في طريق الحركة الإسلامية التي تستهدف ابتداء ألا يكون في الأرض شرك بالله وأن تكون الدنيوتة لله وحده.. ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم ولم يخدع عنه أحدا.. فإذا كانت الظروف الواقعية تقضي بأن يدع من يسالمونه ابتداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه وأن يوادع من يريدون موادعته في فترة من الفترات، وأن يعاهد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل، فإنه لا يغفل لحظة عن هدفه النهائي الأخير، كما أنه لا يغفل عن أن هذه الموادعات والمعاهدات من جانب بعض المشركين موقوتة من جانبهم هم أنفسهم، وأنهم لابد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم، وأنهم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه، ولن يأمنوه علي أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ويستديرون لمواجهته.. ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر (ولا يزالون يقاتلونكم حتي يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»[٧٦] وهي قوله الأبد التي لا تختص بزمن ولا بيئة: وقوله الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة!

١٧ـ ومن أظهر الأدلة علي ذلك امتناع رسول الله صلي الله عليه وسلم عن تجديد العهد أو تمديده مع قريش حينما اعتبر العدوان علي حلفائه بني خزاعة بتحريض من قريش نقضا له فزحف علي مكة وفتحها، رغم المحاولات التي بذلها أبو سفيان عندما وصل إلي المدينة من قبل قريش ليجدد العهد، فلم يجد إلا الإصرار التام والعزم الأكيد من رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه علي رفض تجديد العهد.

وبعد.. فليراجع المسلمون موقفهم لعل الله أن يرزقهم الهوة من عنده وأن يجعل لهم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين.

الهوامش

(١) تأملات فى الدين والحياة للغزالى ص٤٣.

(٢) ومن المعاهدات المفتوحة فى الإسلام صلح الحديبية إذ اباح لباقى قبائل العرب أن تنضم كل منها إلى من تريده من طرفى التعاقد فانضمت بكر ودخلت فى عهد قريش كما دخلت خزاعة فى عهد المسلمين. الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام للمستشار على على منصور ص ٣٧٢.

(٣) النساء ٩٠.

(٤) رواه البغوى

(٥) رواه الطبرى وسيأتى توضيح ذلك عند تفسير (الا الذين عاهدتم من المشركين).

(٦) رسالة الدكتور الكومى. سورة الفتح والفتح المتصلة بها ص٢٢.

(٧) ضعيف رواه ابن هشام (٢-٢٦٥) وابن جرير (٢-٢٢٤ إلى ٢٢٥) عن ابن إسحق بدون اسناد، ووصله الطبرانى فى المعجم الصغير ص ٢٠٢، وكذا الكبير من حديث ميمونة بإسناد ضعيف.

(٨ آل عمران آية ٧٥، ٧٦

(٩) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام ص ٣٧٢.

(١٠) سورة الانفال ٧٢.

(١١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام ص ٣٧٣.

(١٢) المرجع السابق ص ٢٧١-, ٢٧٠

(١٣) البقرة ٢٧.

(١٤) الانعام ١٥٢.

(١٥) الرعد ٢٠.

(١٦) الرعد ٢٥.

(١٧) النحل ٩١ - ٩٢.

(١٨) الاسراء ٣٤.

(١٩) المؤمنون ٨ والمعارج ٣٢

(٢٠) عن انس قال: ماخطبنا رسول الله الا قال الحديث.

(٢١) رواه الشيخان وابوداود والترمذى عن عبدالله بن عمر.

(٢٢) رواه الشيخان والترمذى عن عبدالله

(٢٣) رواه الترمذى وأبوداود عن عمرو بن عبسه

(٢٤) أخرجه ابو داود عن صفوان بن سليم عن عدة عن ابناء الصحابة عن آبائهم

(٢٥) رواه البخارى فى صحيحه عن عبدالله بن عمر ورواه الشيخان والترمذى عن عبدالله وفى رواية النسائى: (من قتل قتيلا من أهل الذمة..) ولذلك ذهب ابوحنيفة على ماهو مشهور مذهبه إلى الأخذ بمبدأ القصاص بالنسبة للمعاهد والذى افتى بقتل المسلم إذا قتل واحدا منهما.

(٢٦) أخرجه مالك.

(٢٧) كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام للمستشار على على منصور ص ٣٧٢.

(٢٨) منها آيات سورة البقرة ١٩٥، ٢١٧، آل عمران ١٢٢-١٧٨، النساء ٧٤-٧٦ والانفال ٤-١٩، ٢٦-٣٠، ٣٦-٤٠٠، التوبة ١-١٥، النحل ٤١-٤٢، ١٠٦، ١١٠، والحج ٣٩-٤١ والاحزاب ٩-٢٥ والممتحنة ٢-١ والبروج ٨.

(٢٩) سورة الانفال ٥٨-٥٥

(٣٠) (من) بيانية أو تبعيضية و(ثم) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة (لم ينقصوكم شيئا) من النقصان لا قليلا ولا كثيرا أو شيئا من شروط العهد وأدوها لكم بتمامها وقرئ (ينقضوكم) والكلام حينئذ على حذف مضاف أى لم ينقضوا عهدكم شيئا من النقض وهى قراءة مناسبة للعهدة الا أن قراءة الجمهور أوقع لمقابلة التمام مع استغنائها عن تقدير الحذف.

(٣١) تذييل تعليلى لوجوب الامتثال، وتنبيه على أن مراعاة العهد من باب التقوى التى يحبها الله لعباده، وأن التسوية بين الغادر والوفى منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا.

(٣٢) سورة النحل ٩٤

(٣٣) سورة النحل ٩٢

(٣٤) هم الذين كان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر، والذين ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم وادع زعيمهم مخشيان على أن لا يغزوه ولا يغزوهم، ولا يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عدوا، وكتب بيته وبينهم كتابا (طبقات ابن سعد جـ٣ ص٤٦).

(٣٥) ذكر هذه الأقوال السيوطى فى الدر المنثور وكلام ابن جرير الآتى فيه رد لرواية ابن عباس هذه التى قال فيها إنهم مشركو قريش.

(٣٦) المنار جـ ١٠ ص ١٥٤ .

(٣٧) المنار جـ ١٠ ص١٨٣.

(٣٨) تفسير ابن جرير الطبرى جـ١٤ ص١٤٤ وفيه رد على رواية ابن عباس السابقة.

(٣٩) التفسير الحديث لدروده جـ١٢ ص٨٥.

(٤٠) سورة البقرة . ١٩٤

(٤١) سورة البقرة ١٩٣.

(٤٢) سورة البقرة . ١٩٠

(٤٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٣٦.

(٤٤) سورة الحجرات آية ٩ .

(٤٥) سورة الممتحنة آية ٨.

(٤٦) سورة يوسف ١٠٣.

(٤٧) سورة النحل ١٢٥ .

(٤٨) سورة العنكبوت ٤٦.

(٤٩) سورة الاعراف ١٩٩ .

(٥٠) سورة البقرة ١٩٠.

(٥١) سورة التوبة ٢٩.

(٥٢) هذا الدليل مبنى على أن الجزية تؤخذ من المشركين كما تؤخذ من أهل الكتاب.

(٥٣) سورة البقرة ٢٥٦.

(٥٤) سورة النساء ٩٠

(٥٥) سورة التوبة ٤

(٥٦) سورة التوبة ٧

(٥٧) سورة المائدة ١

(٥٨) سورة المائدة ٢

(٥٩) سورة الانفال ٧٢

(٦٠) سورة الأنفال ٥٨

(٦١) سورة التوبة ١٣و ١٤

(٦٢) سورة البقرة ١٠٠

(٦٣) سورة الانفال ٥٦.

(٦٤) سورة الانفال ٦١و ٦٢.

(٦٥) وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة.

(٦٦) زاد المعاد لابن القيم جـ٢ ص٨٢.

(٦٧) سورة الحج آيه ٣٩، ٤٠، ٤١.

(٦٨) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٦٩) التوبه آية ٣٦.

(٧٠) سورة التوبة ٢٩ .

(٧١) زاد المعاد جـ٢ ص٥٨.

(٧٢) سورة الانفال ٩١ .

(٧٣) سورة الممتحنة ٨.

(٧٤) سورة البقرة ١٩٠.

(٧٥) سورة آل عمران ٦٤.

(٧٦) سورة البقرة ٢١٧ .

الفصل الثالث

الأسباب التى أوجبت البراءة من عهود المشركين ونبذ التعاهد معهم وصدور الأمر بقتالهم

تضمنت الآيات الست التى افتتحت بها سورة التوبة أمرين أساسيين:

أولهما - البراءة من المشركين، ومعناها - كما تقدم - نبذ عهودهم القائمة وعدم استئناف تعاهد جديد معهم، وذلك بما بينته السورة من أن الله ورسوله برىء من المشركين الذين عاهدهم المسلمون على ترك القتال، وأمهلهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض أحرارا آمنين، وأمر تعالى بالأذان العام على الناس فى يوم عيد النحر من الموسم العام ببراءة الله ورسوله من المشركين، ودعوتهم إلى التوبة من الشرك وعداوة الإسلام، وإنذارهم بسوء عاقبة الإعراض)[١]

ثانيهما - وهو مرتب على الأول - عودة حالة الحرب معهم والتضييق عليهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى وقعت بها العهود - وذلك بمناجزتهم بكل نوع من أنواع القتال المعروفة من قتل وأسر وحصار وقطع طرق المواصلات والتموين [٢]حتى تطهر البلاد من شركهم.

وقد يبدو لبعض الناس أن نبذ عهود المشركين أو عدم التعاهد معهم مما لا يتفق ومبدأ الوفاء بالعهد، ومبدأ الجنوح إلى السلم، متى جنحوا إليها وظهرت رغبتهم فيها.. وهما مبدآن قررهما القرآن وجاءت أوامره فيهما صريحة واضحة.. كما قد يبدو لهؤلاء أيضا أن الأمر بقتالهم - بعد أن غلبوا على أمرهم وفتح المسلمون مكة، وظهرت شركة الإسلام فى شبه الجزيرة من باب التحدى لمن ظهر ضعفه، وبدا عجزه، وقلمت أظفاره، وصار المسلمون فى مأمن من ثورته وطغيانه.. وقتاله.

وقتال أمثال هؤلاء قتال لمن ألقى السلاح، وهو لا يتفق مع تحذيرات القرآن المتكررة من الاعتداء وعدم قتال من لم يقاتل.

هذه اعتبارات أو خواطر قد تحضر بعض الأذهان وتعلق فيها، وهى اعتبارات لو استقرت فى النفوس تجعل من آثارها عدم اطمئنان القلوب نحو صحة هذا الوضع الجديد.. وفى هذا غفلة عظيمة عن التقدير الحق فى هذا الموقف.. موقف المؤمنين مع هؤلاء المشركين.

وكثيرا ما يصحب تلك الغفلة التهاون فى تنفيذ هذه الأوامر، كما قد يصحبها سريان هذه الاعتبارات الفاسدة إلى الجمهور، وقد تشتد الغفلة عن التقدير الحق فى الموقف فيزداد البعد عن إدراك الحق وبذلك يقع المؤمنون فى براثن المنافقين وتحت تأثيرهم، بهذه الخواطر الفاسدة، وفى هذا هدم لبناء شيد، وزلزلة لعرش استقر.

لهذا كله ـ وتطمينا للمؤمنين على حكمة هذا الوضع الجديد، وبيانا لحقيته وسداده ـ أردف الله سبحانه وتعالى الأمر بنبذ العهود والأمر بالقتال، بما يجلى الحكمة فى هذين الأمرين، ويغسل قلوب المؤمنين من هذه الوساوس وتلك الخواطر الفاسدة، التى تنفذ المهم من جانب قصر النظر وضعف الإدراك والتقدير الحق فى مثل هذا المقام.

استعراض سريع لآيات هذا الفصل

لما انتهى فى مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين فى الجزيرة، وهى تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعا.. بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر وبعضهم بعد انتهاء مدتهم، حتى يئول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين توبة، وإقامة للصلاة وإيتاء الزكاة ـ أى دخول فى الإسلام وأداء فرائضه ـ أو قتال وحصار وأسر وارصاد.. لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه، أخذ فى هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر ـ عن طريق الاستفهام الاستنكارى ـ أنه لا ينبغى ولا يجوز وليس من المستساغ أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله وهو استنكار للمبدأ فى ذاته، واستبعاد له من أساسه.. (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله).

ولما كان هذا الاستنكار فى هذه المجموعة التالية فى السياق للمجموعة الأولى، قد يفهم منه نسخ ما كان قد تقرر فى هذه المجموعة الأولى من إمهال ذوى العهود الموفين بعهودهم الذين لم يتقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتهم، فقد عاد يقرر هذا الحكم مرة أخرى بقوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين)[٢].

أما تعليل ذلك الإعلان العام وتلك البراءة الكاملة وهذه القطيعة الشاملة، فهى العداوة المتأصلة فى نفوس المشركين للمسلمين، وهى النية السوداء يبيتونها لهم، وهى الفجور فى الفتك بالمسلمين لو ظفروا بهم، وهى اختيار الكفر على الإيمان والصد عن سبيل الله.. فإما أن يتوبوا فيقبلوا فى صفوف المسلمين، وإما أن يتولوا فيحل عليهم العذاب الأليم.

لكن الظواهر والاعتبارات وأعراض التهيب والتردد والتخوف التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يومئذ تجاه هذه الخطوة الحاسمة الخطيرة ـ والتى مضى الحديث عنها فى المقدمة ـ كانت قد سيطرت على بعض المشاعر.. لذا فقد أخذ السياق يثير فى نفوس المسلمين ما يدفع عنهم التردد والتحرج والتهيب بإطلاعهم على حقيقة حال المشركين ومشاعرهم ونواياهم تجاه المسلمين وانهم لا يرعون فيهم عهدا، ولا يتحرجون فيهم من شىء ولا يتذممون، وأنهم لا يفون بعهد ولا يرتبطون بوعد، وانهم لا يكفون عن الاعتداء متى قدروا عليه، وأن لا سبيل لمهادنتهم أو ائتمانهم ما لم يدخلوا فيما دخل فيه المسلمون (كيف وان يظهروا عليكم ولا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون).

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون).

ثم تجيء الآيات التالية لمواجهة ما حاك فى نفوس الجماعة المسلمة - بمستوياتها المختلفة - من تردد وتهيب للاقدام على هذه الخطوة الحاسمة، ومن رغبة وتعلل فى أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على النفوس أن تركن إلى أيسر الوسائل.. والنصوص القرآنية تواجه هذه المشاعر والمخاوف والتعلات.

باستجاشة قلوب المسلمين بالذكريات والأحداث القريبة والبعيدة.. تذكرهم بنقض المشركين لما أبرموا معهم من عقود وما عقدوه معهم من إيمان، وتذكرهم بما هم به المشركون من إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة قبل الهجرة، وتذكرهم بأن المشركين هم الذين بدأوا الاعتداء فى المدينة، ثم تثير فيهم الحمية والنخوة أن يكونوا إنما يخشون لقاء المشركين، والله أولى أن يخشوه إن كانوا مؤمنين (الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين).

ثم تشجعهم على قتال المشركين لعل الله أن يعذبهم بأيديهم، فيكونوا هم ستارا لقدرة الله فى تعذيب أعدائه وأعدائهم، وخزيهم وقهرهم وشفاء صدور المؤمنين الذين أوذوا فى الله منهم، ثم تواجه التعلات التى تحيك فى صدور البعض من الأمل فى دخول المشركين الباقين فى الإسلام دون حرب ولا قتال.. تواجه هذه التعلات بأن الرجاء الحقيقى فى أن يفيء هؤلاء إلى الإسلام أولى أن يتعلق بانتصار المسلمين وهزيمة المشركين، فيومئذ قد يفيء بعضهم - ممن يقسم الله له التوبة - إلى الإسلام المنتصر الظافر الظاهر..

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم).

وفى النهاية تلفتهم الآيات إلى سنة من سنن الله، هى ابتلاء الجماعات بمثل هذه التكاليف ليظهر حقيقة ما هم عليه، وأن السنة لا تتبدل ولا تحيد.. (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون)[٤].

تعليل الأمر بنبذ عهود المشركين

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) [٥] ان المشركين بما عندهم من الشرك ليسوا أهلا لأن يكون لهم عهد يحافظ عليه عند الله يقوه لهم فى كتابه وعند رسوله يفى لهم به وتفون به اتباعا له.. انهم يشركون بالله فلا يجوز أن يكون بينهم عهد وبين الله، انهم يدينون بغير الرسالة التى بعث بها رسوله فكيف يجوز أن يكون لهم عهد بينهم وبين رسول الله.. وذلك أن الشرك بما يحمل من إباحية مطلقة لا يدع طريقا يسلكه الخلق الفاضل إلى القلوب، أو يتسبب منه إليها خوف الله وتقواه، فصاحبه يستبيح فى سبيل شهوته وهواه الغدر والخيانة كلما سنحت له الفرصة أو ظن بنفسه قوة، وقد نقض بالشرك واتخاذ الهوى

إلها عهد الفطرة، عهد الخلق والتكوين، وما نصب الله للإنسان فى الأنفس والآفاق من أدلة التوحيد، ولا ريب أن هذا الوضع الذى خلق الله الإنسان عليه ومكنه به من النظر من أقوى العهود والمواثيق التى تنطق بها فطرته، ومع هذا فقد أشرك وانسلخ من هذا العهد الفطرى الذى يحسه بوجدانه، واتخذ الصنم إلها يعبده من دون الله، متحللا من طبيعة خلقه وتكوينه ..(وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون)[٦]

وإذا كان الشرك نقضا لهذا العهد الفطرى، ويحمل التحلل من مقتضيات الإيمان الحق والخلق الفاضل، فمن طبيعته ألا يحترم عهدا، ولا يخاف صاحبه عاقبة، وإنما عهده الشهوة والهوى، وكما خان المشركون عهد خالقهم بعبادة الهوى فإنهم ينقضون عهد من يعاهدون بالغدر والخيانة، ولا ريب أن مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون بحرمات، ولا يذعنون لمثل عليا لا يمكن فى نظر العقل الصحيح أن يكون لهم عهد محترم يحافظ عليه، وجدير أن يكون التفكير فى التعاهد معهم أو المحافظة على عهودهم محل إنكار شديد، ومدعاة للتعجب.. وهذه المعانى هى التى تنبعث من وصف (المشركين) وهى التى يشير إليها الإنكار المذكور فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله).

والمعنى: بأية صفة وبأية كيفية، وبأى حال وعلى أى وضع يكون للمشركين عهد؟ ليس له حال يوجد عليه وإذا لم يكن له حال يوجد عليه فإنه لا سبيل إلى وجوده، فالاستفهام إنكارى للأحوال التى يكونون عليها، ومتى انتفعت الأحوال التى يكون عليها الشىء ولا يوجد إلا بها انتفى وجود ذلك الشىء، فالآية تقرر وجود العهد على الطريق البرهانى - كما يقولون - وهو أبلغ أنواع الإنكار.

إن الإسلام هنا يقرر مبدأ ويضع قاعدة .. فهو يستنكر ما يخالفها وينفى مبرراته.. إن المشركين لا يدينون إله العبودية الخاصة، وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله، فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله؟ انهم لا يواجهون بالانكار والجحود عبدا مثلهم ولا منهجا من مناهج العبيد من أمثالهم إنما يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم، وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود ابتداء، فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله.

هذه هى القضية التى يثيرها هذا السؤال الاستنكارى، وهى قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته لا على حالة معينة من حالاته.

ان الشأن فى تقرير نبذ عهودهم لم يكن قاصرا على النظر إلى عقيدتهم الشركية وعدم إيمانهم بتشريع إلهى أو خلق فاضل يحتم عليهم الوفاء بالعهد، وإنما ترتبط أيضا بما عرف عنهم وصار سجية لهم وشأنا من شئونهم، وهو أنهم عند قوتهم وغلبة سلطانهم لا يرعون شيئا من حقوق الإنسانية الخاصة أو العامة، كالقرابة والعهد، وان فى مواقفهم منكم حينما كانوا يشعرون بالقوة أكبر شاهد على أن قلوبهم لا تحمل أى قيمة لقرابتكم بهم أو لعهدكم معهم، وأن ما يسمع منهم من عبارات المسلم والقرابة وعبارات العهد والولاء لا يخرج عن أنه نوع من

خداعهم الذى مرنوا عليه فى حال ضعفهم، والذى لا يتجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم، فاحذروا أن تأمنوا جانبهم أيا كانوا حتى هؤلاء الذين لم يظهر لكم منهم غدر أو خيانة فذلك أن يكون وجها مقبولا من وجوههم فإن وراء هذا الوجه وجوها كثيرة منكرة وأنه من المحتوم أن يغدروا وأن يخونوا فى أية فرصة تصنح لهم، وأنه لو أمكنتهم الفرصة فيكم لم يألوا جهدا، ولم يدخروا وسعا فى إيذائكم والنيل منكم.

ولا تغفلوا عن أن هذه الموادعات والمعاهدات موقوتة من جانبهم هم أنفسهم، وأنهم لابد مهاجموكم ومحاربوكم ذات يوم، وانهم لن يتركوكم وهم يستيقنون من هدفهم ولن يأمنوكم على أنفسكم إلا ريثما يستعدون لكم ويستديرون لمواجهتكم.. ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)[٧] وهى قولة الأبد التى لا تتخصص بزمن ولا بيئة وقولة الحق التى لا تتعلق بظرف ولا حالة!

ومن ثم يعود السياق لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية بعد استنكاره بأسبابه العقيدية والإيمانية، ويجمع بين هذه وتلك فى الآيات التالية:

(كيف وأن يظهروا عليكم لا يقربوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون)[٨].

كيف يكون للمشركين عهد مشروع عند الله، مرعى بالوفاء عند رسوله، والحال المعهود منهم المعروف من أخلاقهم أنهم لا يعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم، ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم، وفى غير ذمة يرعونها لكم، أو فى غير تحرج ولا تذمم من فعل منكر يأتونه معكم؟ فهم لا يضمرون لكم إلا الشر، وهم لا يتقون الله فيكم لو ظفروا بكم وانتصروا عليكم، وهم لا يرعون عهدا ولا يقفون كذلك عند حد فى التنكيل بكم، ولا حتى الحدود المتعارف عليها فى البيئة والتى يذمون لو تجاوزوها.. فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد فى التنكيل بكم، لو أنهم قدروا عليكم، مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة، فليس الذى يمنعهم من أى فعل شائن معكم أن تكون بينكم وبينهم عهود، إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم!

كيف يحفظون لكم عهدا والعداوة تمتلئ بها صدورهم بغضا وشنآنا لكم حيث لا يجدون شفاء لما فى صدورهم من هذا الداء الا أن يأخذوكم بالبأساء والضراء؟ فهم - والحال كذلك - لم يمسكوا عنكم بعهد الا ريثما تمكنهم الفرصة فيكم، واذن فاحذروهم، وكونوا منهم دائما على توقع الغدر بالعهد والتحفز للوثوب عليكم.

وإذا كانوا اليوم - وأنتم أقوياء - يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد، فإن قلوبهم تنغل عليكم بالكره والبغض وتنضح بالحقد والكيد، وتأبى أن تقيم على العهد، فما بهم من وفاء لكم ولا ود!

(يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم).. يخادعونكم فى حال الضعف بما ينبذون به من عذب

الكلام وما يسمعونكم من طيب الأسلوب ومعسول القول الذى يرون أنه يرضيكم، سواء كان عهدا أو وعدا أو يمينا مؤكدة لهما، ولكن قلوبهم المملوءة بالحقد والضغن لا تريد ولا ترتضى أن يدخلها شىء من معانى الوفاء، وتأبى أن تصدق أفواههم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فهم ان ظهروا عليكم نكثوا العهود وحنثوا بالإيمان وفتكوا بكم جهد طاقتكم.. ذلك بسبب ما طبع عليهم أكثرهم من الخروج عن حدود الفضيلة الإنسانية.

«وأكثرهم فاسقون» [٩] منحرفون عن الطبيعة السليمة للإنسان السليم، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء، خارجون من قيود العهود والمواثيق، لا يستقيمون على منهج ولا طريق، ومع هذا فإن قليلا منهم فيهم بقية من خير يمكن أن تكون طريقا هاديا لهم إلى الحق والإيمان اذا هم عرفوا كيف ينتفعون بها ولم يذهبوا بها مذهب الضياع والفساد، وأراهم الموفين بعهودهم الذين استثناهم الله تعالى، وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم.

أما أكثرهم فهم الناكثون الناقضون لعهودهم، المتمردون فى الكفر لا مروءة تمنعهم من الكذب، ولا شمائل تردعهم عن النكث [١٠].

بيعهم لآيات الله وصدهم عن سبيل الله

ثم ترشد الآيات بعد هذا إلى أن خروجهم عن حدود الفضيلة الإنسانية ليس شأنا فطريا فى الإنسان، وإنما هو شأن يلحقه بسبب إيثاره زخرف الحياة الدنيا ومظاهرها الكاذبة على تلبية الحق، حينما يظن أن تلبية الحق ستمنعه التمتع بهذا الزخرف الذائل فينبذ آيات الله ويعرض عن النظر فيها والإيمان بها والنزول على مقتضاها، وبذلك يكون كمن باع سلعة ثمينة قيمة تنفعه فى جميع شأنه، بثمن بخس زهيد لا غناء له فى الدنيا ولا فى الآخرة.

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون)[١١]

انهم استبدلوا بآيات الله الدالة على وجوب توحيده، وعلى بعثه للناس وجزائهم على أعمالهم وعلى الوحى والرسالة وما فيها من الهداية، ثمنا قليلا من متاع الدنيا، وهو ما هم فيه من أسباب المعيشة.. والكثير عند كبرائهم قليل بالنسبة إلى ما عند غيرهم من أمم الحضارة، وما عند أغنى هؤلاء قليل.

بالإضافة إلى ما وعد الله تعالى المؤمنين فى الدنيا، وأن ما وعدهم به فى الآخرة لهو خير وأبقى.

وقيل: إن المراد بآيات الله تعالى تلك العهود والإيمان أو ما دل على وجوب الوفاء بها من كتابه وروى أن أبا سفيان لما أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعاما استمالهم به فأجابوه إليه، فهو المراد بالثمن القليل، وعن ابن عباس: إن أهل الطائف أمدوهم بالمال لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذلك الثمن القليل.

والأول هو الظاهر بل المتعين، فإن السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين على المؤمنين، واضمار عدم الوفاء بعهودهم، والانطلاق فى التنكيل بهم - لو قدروا - من كل تحرج ومن كل تذمم، إنما هو الفسوق عن دين الله والخروج عن هداه.. فلقد آثروا على آيات الله التى

جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا، يستمسكون به ويخافون قوته، وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم، أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم!

لقد كانت هذه الآيات بين أيديهم، يملكون الاهتداء بها لو أرادوا له ولكنهم رغبوا عنها وأعرضوا عن الهدى الذى تحمله إلى من يتصل بها، ورضوا بما هم فيه من حياة لاهية هازلة يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.. وتركوا آيات الله فى مقابل نفع قليل ينالهم فى هذه الدنيا، أو اتقاء خسارة مادية قليلة يتوقعونها، فكأنما باعوا آيات الله بهذا الثمن القليل فخسروها.

«فصدوا عن سبيله».. صدوا أنفسهم بسبب شرائهم الخسيس هذا الثمن القليل بآيات الله، واعرضوا عن سبيل الله وهو الإسلام وما يقتضيه من الوفاء بالعهود، وصدوا غيرهم وصرفوهم عنه أيضا (وسيجىء بأنهم أئمة الكفر)، أما فعلهم هذا فهو الفعل السيىء الذى يقرر الله سوءه الأصيل.. «انهم ساء ما كانوا يعملون».. انهم ساء عملهم الذى كانوا يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى، والصدود والصد عن دين الله وما جاء به رسوله من البينات والحق.

كراهتهم موجهة إلى الإيمان ذاته.

وإذا كان الذى دفعهم إلى هذه الحالة معكم هو شركهم الذى أوقعهم فيه فسقهم وخروجهم عن حدود الفضيلة ومحبتهم الزخارف الفانية على المعانى الباقية ـ فهى حالتهم مع غيركم من كل مؤمن بما لم يؤمنوا به، فهم قوم دلت عقيدتهم، ودل تاريخهم معكم ـ ودلت وجهتهم فى الحياة على فساد طبيعتهم وتنكرهم للحق وأهله، وعلى أنه لا يجرى منهم مع بقائهم على الشرك ومقتضياته ـ لالكم ولا لغيركم ـ وفاء ولا صدق (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون).. من أجل هذا الكفر والصد عن الإيمان لا يرعون فى مؤمن يظهرون عليه ويقدرون على الفتك به ربا يحرم الغدر، ولا قرابة تقتضى الود، ولا ذمة توجب الوفاء اتقاء للذم لأن ذنب المؤمن فى هذا عندهم كونه مؤمنا ـ وقد علموا أنه لا ينقض عهدا ولا يستحل غدرا، ولا يقطع رحما، وهذا أعم من قوله.(كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون)..

لما حده الله فى دينه مما أوجبه العقد والعهد والبادئون لكم بالقتال كما فعلوا فيما مضى وكذلك يفعلون فيما يأتى، والعلة فى اعتدائهم وتجاوزهم هو رسوخهم فى الشرك، وكراهيتهم للإسلام وأهله.

لقد بينت هذه الآيات طبيعتهم بالنسبة للمخاطبين، وبالنسبة لغير المخاطبين، ورجعت بتلك الطبيعة الفاسدة إلى عقيدتهم الشركية الضالة وإلى محبتهم للدنيا محبة آثروا بها الفانى على الباقى، وخرجوا بها عن حدود الفضيلة.. ولاريب أن مثل هؤلاء لا ينبغى الركون إليهم، ومعاهدتهم، كما لا ينبغى الاطمئنان على عهودهم القائمة، وقد عرف أن من طبيعتهم الغدر والخيانة، فلا يصح لعاقل يريد خيرا لنفسه وخيرا لأمته، بل يريد الحق أن يستقر فى قلوب

الناس، وأن تسطع أنواره فى أرض الله، أن يفكر بأى وجه من الوجوه فى التعاهد مع أمثال هؤلاء، فنبذ عهودهم هو الحكمة التى ليست بعدها حكمة، وهو الواجب الذى ليس بعده واجب.

إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم، ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم انهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم، انهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التى أنتم عليها.. للإيمان ذاته كما هو المعهود فى كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين، على مدار التاريخ والقرون، فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل:(وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا)[١٢] وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب بتوعية من ربه (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله؟) [١٣]وقال سبحانه عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين: (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) [١٤]فالإيمان هو سبب النقمة ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن، ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر.

«لا يقربون فى مؤمن إلا ولا ذمة أولئك هم المعتدون» فصفة الاعتداء أصيلة فيهم، تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه، وتنتهى بالوقوف فى وجهه وتربصهم بالمؤمنين، وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة إذا هم ظهروا عليهم، وأمنوا بأسهم وقوتهم، وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم.. وهم آمنون..!

حملة مسعورة لإبادة المؤمنين على امتداد التاريخ..

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم، ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك، لا يقعدهم عهد معقود، ولا ذمة مرعية، ولا تحرج من مذمة، ولا إبقاء على صلة.. ووراء هذا التقرير تاريخ طويل، يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذى لا ينحرف إلا لطارئ زائل. ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم!

هذا التاريخ الطويل من الواقع العملى بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذى يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده، وبين مناهج الشرك التى تعيد الناس للعبيد. وللأرباب المتفرقة وللآلهة المدعاة.

وعلى امتداد التاريخ الطويل الموغل فى القدم نرى ذلك الانحراف فى مناهج المشركين وعقائدهم .. فمثلا قوم نوح (اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرون ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)، وقوم هود «يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين أن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وقوم إبراهيم (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) والنمرود (قال أنا أحيى وأميت) وفرعون (فقال أنا ربكم الأعلى) (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) ومشركو مكة قالوا (اجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب) (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا

نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) (ويجعلون لله البنات سبحانه - ولهم ما يشتهون) (ويجعلون لله ما يكرهون).

وعلى امتداد التاريخ الطويل الموغل فى القدم أيضا منذ هبط الإنسان إلى الأرض وعداوة المشركين وحقدهم المتمكنة فى قلوبهم لهذه الصفة بالذات.. صفة الإيمان.. ولأصحابها المؤمنين.. انهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم، إن أسلوب الاستئصال ومنطق الإبادة هو الطريق الوحيد الذى كانوا يتبعونه مع المؤمنين كافة، نوح ..(وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) لوط.. (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين)هود .. (انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين) صالح.. (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) ابراهيم.. (اقتلوه أو حرقوه) (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) موسى.. (لئن اتخذت إلها غيرى لاجعلنك من المسجونين) السحرة المؤمنون (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وقصة أصحاب الأخدود من أكبر الشواهد على ذلك.

فإذا ما جاوزنا التاريخ البعيد والقرون المتطاولة وآتينا إلى عهد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا عداوة المشركين قد اشتدت، وحقدهم و اضغانهم قد تضاعف.. ها هو التاريخ الطويل على امتداد السيرة النبوية ملىء بالأمثلة والوقائع على ذلك، سواء كان فى مكة وما حدث فيها من محاولة خنق الدعوة فى مهدها وكتم أنفاسها بعدما شبت عن الطوق، ومن تعذيب لأصحابها وتشريد وتجويع وايذاء وحبس ومقاطعة، ثم محاولة اغتيال النبى وتفريق دمه فى جميع القبائل المقرر فى دار الندوة، أم فى المدينة وهو يتمثل فى هذه الحملات المسعورة التى وجهها المشركون إلى عاصمة الدولة الإسلامية كبدر وأحد والأحزاب وغيرها، تقصد الإجهاز على الإسلام والإبادة لأهله وصدق الله العظيم :(لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيمليون عليكم ميلة واحدة).

ثم يمضى التاريخ والمشركون لا يتوانون لحظة واحدة فى مواصلة الكيد للإسلام وعداوة أهله والنيل منهم وانتهاز الفرص للانقضاض عليهم إلى أن تأتى أحداث الزحف المغولى على الشرق الأوسط فتصور لنا مدى ما فى قلوب المشركين من غل وحقد ولندع ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية يقص علينا بعض هذه الأحداث وهو يؤرخ الأحداث عام ٦٥٦هـ نقتطف منها:

(ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون) وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة «فإنا لله وإنا إليه راجعون» كذلك فى المساجد والجوامع والربط ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[١٥] وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافض وطائفة من التجار أخذوا

أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم وعادت بغداد بعدما ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة، وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة، فقيل ثمان مئة ألف، وقيل ألف ألف وثمان مئة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفى ألف نفس فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم، ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يوما، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم.. وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبو الفرج الجوزى، وكان عدو الوزير وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدا بعد واحد، ضم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك وشهاب الدين سليمان شاه وجماعة من امراء السنة وأكابر البلد.. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاه ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والمجمعات مدة شهور ببغداد.

«ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بهما أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى فى الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وانتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تصدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذى يعلم السر وأخفى الله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان السلط هولاكوخان عن بغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، وفرض أمر بغداد إلى الأمير على بهادرة فوض إليه السمنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمى فلم يمهله الله ولا أهله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر.

وذكر أبو شامة.. انه أصاب الناس فى هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم.[١٦].

ثم تتوالى أحداث التاريخ حتى تأتى إلى العصر الحديث فنجد ما هو أفظع وأشنع مما صنعه المغول ببغداد ولنأخذ لذلك مثلين:

المسلمون فى الدول الشيوعية

ثم ماذا فعل خلفاء التتار فى الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية ويوغوسلافيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟

ان البلاشفة قد كتموا بمهارة خططهم السرية، وحقيقة موقفهم من الدين، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب - إلى حين تركيز القوة فى يدهم - بمظهر محبب إلى النفوس، وعلى أثر اطمئنانهم للموقف الخارجي، بدأ الحزب الشيوعى ينشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم فى أرجاء الاتحاد السوفيتى، فعمدت هذه الخلايا الالحادية إلى استئصال شأفة الدين أولا بالقضاء على القضاة والمفتين والمدرسين والوعاظ والخطباء والأئمة والمؤذنين واحتلوا المدارس والجوامع والمساجد، وألغوا فى القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء.. وقد أصبح كل ذلك أثرا بعد عين.. ثم حولوا المساجد والجوامع إلى مسارح واصطبلات للخيول، أو مخازن للمؤن والذخائر أو إلى أندية أو إلى دور للسينما وما إلى ذلك من أشياء لا يقرهم عليها شرع ولا قانون.

وقد جمع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقا.. لم يشهد الإنسان هذا الانحطاط الخلقى حتى فى القرون الهمجية الأولى.. ونجت من أيدى الملحدين بعض الجوامع النادرة التى اعتبرت آثارا عمرانية أو أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند اللزوم دليلا ضد ما قد يتسرب إلى البلاد الخارجية من «أخبار مزورة وكاذبة» فى نظرها.

وبذلك انقطع الأذان المحمدى فى أنحاء القرم والبلاد الإسلامية السوفيتية ولا أحد يجرؤ على أداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه.

وصل الاضطهاد الدينى فى القرم إلى ذروته عام ١٩٣٨ حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئا باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية وقلبت المدارس والمساجد إلى مؤسسات شيوعية وقتل العلماء والعظماء أو نفيهم إلى سيبيريا.. وقد حدث فى «كوزلو» أن اعتقل فى ليلة من ليالى عام ١٩٣٨ آخر من بقى من العلماء، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكى القوى إلى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطئ البحر الأسود، واسمه «فوداقهال» ثم زجوا بهم فى سكون الليل وعلى الانفراد فى عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصة من قبل الإدارة الشيوعية لتكون مذبحة للإنسان فى «الفردوس الشيوعى» على أرض القرم .. وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين إلى أوروبا وتركيا وإلى غيرهما.

وصدق الله العظيم إذ يقول «لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون»

هذه الصورة البشعة المروعة فى القرم لا تبلغ بشاعة الصورة الوحشية التى تمثلت فى التركسان الغربية والشرقية حيث يقطن - أو كان يقطن - أربعة وأربعون مليونا من الساميين، تناقص عددهم الآن على يد حرب الابادة السوفيتية الشنيعة إلى ستة وعشرين مليونا فقط فى خلال ربع قرن وما تزال عمليات الابادة ماضية فى الطريق.

فلندع كاتبنا يحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية التى سلفت على العنصر الإسلامى فى التركستان الغربية الخاضعة لروسيا والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية اسما ولروسيا الشيوعية فعلا.. إنه الأستاذ عيسى يوسف آل «بتكين» الذى قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة ليكتب كتابه: «المسلمون وراء الستار الحديدى» يحدثنا فيه عن صور من التعذيب والقتل، وسنضطر إلى أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل أدب إنسانى، مكتفين بما تطيق الآداب الإنسانية أن نذكره، وهذه هى:

١. دق مسامير طويلة فى الرأس حتى تصل إلى المخ.

٢. إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه.

٣. جعل المسجون هدفا لرصاص الجنود يتمرنون عليه.

٤. حبس المسجونين فى سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور وتجويعهم إلى أن يموتوا.

٥. وضع خوذات معدنية على الرأى وإمرار التيار الكهربائى فيها.

٦. ربط الرأس فى طرف آلة ميكانيكية، وباقى الجسم فى ماكينة أخرى، ثم تدار كل من الماكينتين فى اتجاهات مضادة، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حينا ومبتعدة من أختها حينا آخر حتى يتمدد الجزء من الجسم الذى يبين الآلتين، فإما أن يقر المعذب وإما أن يموت.

٧. كى كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الاحمرار.

٨. صب زيت مغلى على جسم المعذب.

٩. دق مسمار حديدى أو إبر الجراموفون فى الجسم.

١٠. تسمير الأظافر بمسمار حديدى حتى يخرج من الجانب الآخر.

١١. ربط المسجون على سرير ربطا محكما ثم تركه لأيام عديدة.

١٢. إجبار المسجون على أن ينام عاريا فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء.

١٣. نتف كتل من شعر الرأس بعنف مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس.

١٤. تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة.

١٥. صب المواد الحارقة والكاوية فى فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطا محكما.

١٦. وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره.

١٧. ربط يدى المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر.

١٨. ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة.

١٩. ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه، ثم يقطع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين «أى يشرح».

٢٠. إحداث ثقب فى الجسم وإدخال حبل ذى عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل.

٢١ـ ولكى يضمنوا أن يظل المسجون واقفا على قدميه طويلا يلجأون إلى تسمير أذنيه فى الجدار.

٢٢ـ وضع المسجون فى برميل مملوء بالماء فى فصل الشتاء.

٢٣ـ خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض.

٢٤ـ والنساء حظهن من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضربا مبرحا على أثدائهن وصدورهن.. أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه، لأن المواقع التى اختاروها من أجسادهن والطرق الدنيئة التى استعملوها تجعلنا نستحى من ذكرها وكتابتها.

وصدق الله إذ يقول «ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون».

فأما تعليم الإلحاد للتلاميذ الصغار فتتولاه الدولة بكل أجهزتها، واما تعليم الدين فتنص الفقرة ١٢٢ من القانون المستعمل فى موسكو على ما يلى: «ان تعليم الدين للأحداث فى الدولة أو المدارس الخاصة أو فى المعاهد الشبيهة بهما يعاقب عليه القائمون بأمره بالحبس لمدة أقصاها سنة مع الشغل» وفى أثناد الحبس تتم وسائل التعذيب الوحشية التى سبقت الإشارة إليها [١٧].

صورنا بعض ما لقيه المسلمون فى القرم مقتبسا عن كتاب «كارثة القرم الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى» لمؤلفه الأستاذ يوسف ولى شاه أور الكيرى» وفى التركستان الغربية فى روسيا والتركستان الشرقية الخاضعة للصين الشيوعية مقتبسا عن كتاب «المسلمون وراء الستار الحديدى» لمؤلفه الأستاذ «عيسى يوسف آل بتكين» وكلاهما من منكوبى الوحشية الشيوعية ضد العنصر المسلم وضد الإسلام.

إن هناك عملية إفناء منظمة تزاولها الدولة الروسية للقضاء على العنصر الإسلامى فيها وقد بلغت نسبة الإفناء فى بعض المناطق ٤٥٪ باعتراف جريدة برافدا السوفيتية، وإن كانت قد نسبت هذا إلى المجاعة التى حلت بالقرم، ولكن هذه المجاعة لم تصنع فى المدن المجاورة غير الإسلامية ـ شيئا، فكأنما كانت تختار المسلمين وحدهم لتحصدهم ـ وهو أمر فى روسيا السوفيتية معقول ـ ثم نمضى مع الزمن فنجد أهل القرم المسلمين يكنون للروس البغضاء ويتربصون بهم الدوائرحتى إذا كانت الحرب العالمية الثانية وزحفت الجحافل الألمانية فى الأرض الروسية تخيل المسلمون أن العداء المستحكم بين الروس والألمان سيمنحهم فرصة ينتعشون فيها ـ ناسين أن الروح الصليبية هى التى تسيطر على الروس وعلى الألمان سواء تجاه المسلمين وأن الأوروبيين قد يعادى بعضهم بعضا، وقد يقتل بعضهم بعضا، وقد ينقسمون إلى معسكرات شتى، ولكنهم سواء عندما يواجهون المسلمين.

ونذكر هنا موقف الحلفاء من العصابات الألبانية المسلحة فى يوغوسلافيا، وقد كانت تطلب السلاح لتقوم لهم بحرب الألمان وطردهم، ولكنهم وقفوا منها موقفا عدائيا، فلم يأمنوا المسلمين ولم يعطوهم السلاح، بينما أعطوه للمسيحيين ليقوموا بنفس المهمة وراء الخطوط الألمانية، وهكذا يتحد موقف الألمان فى روسيا مع موقف الحلفاء فى يوغسلافيا، كلاهما

يخص العنصر المسلم بألوان ممتازة من الاضطهاد والعنف، وكلاهما يأبى أن يمين هذا العنصر أو يستعين به حتى فى أحرج الظروف.. لماذا؟ لأن الدماء الصليبية لا تزال تجرى فى عروق الجميع يستوى فى ذلك الحلفاء الذين يلبسون رداء المسيحية، والمسيحية منهم براء والشيوعيون الذين ينبذون الأديان جميعا، والنازيون الذين يعلنون موت الإله القديم، ويهتفون بحياة الزعيم.. إنهم يختلفون فيما بينهم ويتخاصمون، فأما حين يواجهون المسلمين ويواجهون الإسلام فإنهم يواجهونه عصبة واحدة وملة واحدة فى مشارق الأرض ومغاربها.

كذلك فعلت يوغوسلافيا الشيوعية فى المسلمين فيها حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التى صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.. وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشى - التى من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء فى «مفارم» للحوم التى تصنع لحوم «البلوبيف» ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء - ماضية إلى الآن وما يجرى فى يوغوسلافيا يجرى فى جميع الدول الشيوعية والوثنية.. الآن.. فى هذا الزمان ويصدق قول الله تعالى : كيف وان يظهروا عليكم لا يراقبوا فيكم إلا ولا ذمة»، «لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون».

المسلمون فى الهند

اننا نطلع على صورة بشعة من صورة الاضطهاد والإفناء، ولا ندرى الام تؤدى بالأربعين مليونا من المسلمين الذين لا يزالون يعيشون فى الهندستان، عندما تم تقسيم شبه جزيرة الهند إلى هندستان وباكستان، أصدر الزعيم غاندى والقائد الأعظم محمد على جناح بيانا مشتركا جاء فيه «تعلن كل من الحكومتين أنها تزمع صيانة المصالح المشتركة لجميع مواطنيها بغض النظر عن أديانهم وطبقاتهم وأجناسهم، وسيعتبر جميع المواطنين متساوين فى الحقوق، فتضمن كل من الحكومتين لجميع الشعب حريته بما فيها حرية الكلام وحرية تأليف الجمعيات، وحرية العبادة - كل وفق طريقته - وحماية لغاتهم وثقافتهم وتتعهد كل من الحكومتين بأن لا تسىء معاملة من كانوا معارضين سياسيين قبل الخامس عشر من شهر أغسطس - يوم التقسيم - كذلك أعلن رئيس المجلس التأسيسى الهندى فى أثناء انعقاد الجلسة التاريخية فى منتصف ليلة ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ بيانا جاء فيه: اننا نؤكد لجميع الأقليات فى الهند بأنهم سيعاملون بالحسنى ولن يساء إليهم بأى صورة من الصور، ولن يتعرض بسوء لدينهم وثقافتهم ولغتهم، والمنتظر منهم فى مقابل ذلك أن يبدو اخلاصهم للبلاد التى يقيمون فيها ولدستورها.

وبالفعل تضمن الدستور الهندى الذى وضعه المجلس التأسيسى تحت عنوان «الحقوق الأساسية نصوصا على حقوق الأقليات فى الفقرات التاسعة والعاشرة والتاسعة عشرة والعشرين جاء فيها: مادة ٩: على الدولة ألا تسىء لأى مواطن لأسباب تتعلق بالدين أو العنصر أو الطبقة أو الجنس، مادة ١٠: لجميع المواطنين فرص متساوية فيما يختص بأمور الخدمة فى الدولة، ولن يحال دون أى مواطن وتولى أى منصب فى الحكومة لمجرد أسباب ترجع إلى الدين أو الطبقة أو الجنس أو النسب أو المولد.

مادة ١٩: تكفل لجميع الأشخاص حرية الاعتقاد وحق اتباع الأديان وممارستها ونشرها، مادة ٢٠: تخول كل ملة أو طائفة دينية أو فرقة منها أن تؤسس المعاهد وتديرها لأغراض دينية خيرية، وأن تدير شئونها الدينية بنفسها.

كل هذه النصوص الجميلة.. ماذا كان مصيرها عند التطبيق العملى؟ لقد بدأت الهند حياتها المستقلة باغتيال زعيمها «غاندى» اغتاله أحد الهندوس المتعصبين لأنه كان يحاول تطبيق روح هذه النصوص فى معاملة المسلمين بالهند، وعددهم نحو أربعين مليونا، واغتاله شاب ينتمى إلى جمعية «راشترياسويك سنغ» وهى جمعية تضم فرقا من الإرهابيين الهندوس المتعصبين الذين لا يطيقون وجود العنصر المسلم فى الهند، ويعملون على ابادتهم بوحشية منقطعة النظير.. هذه الجمعية تولت ابادة المسلمين كاملة فى ولايات «بهوات»، «بور» «الوار» «كابورتالا» وكان عددهم فى هذه الولايات على التوالى: ١١٠٠٠٠، ٢٥٠٠٠٠، ٢١٢٧٠٤ فلم يعد أحد منهم يرى النور، كذلك قامت هذه الفرق وهى فرق السيخ المسلحة بمذابح يشيب لهولها الولدان فى دلهى وبعض أقسام البنجاب، حيث قتل مئات الألوف من المسلمين العزل واضطر من نجا منهم إلى الهجرة، فبلغ عدد من وصل إلى باكستان من هؤلاء المهاجرين حوالى سبعة ملايين مات ضعفهم فى الطريق من الجوع والعطش والاغتيالات، ووصل من وصل منهم إلى باكستان فى حالة يرثى لها، مجردين من كل ما يملكون، لأن حكومة الهند لم تستطع حمايتهم أو لم ترد حمايتهم، وقد استولت على أملاكهم بحجة أنهم نزحوا عن البلاد!

لقد بلغ قتلى المسلمين خلال المذابح التى جرت فى شرق البنجاب فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ وفقا لتعداد رسمى ٤٧٢ ألف نفس، ومع هذا يصرخ رئيس المجلس التشريعى فى إقليم المقاطعات المتحدة بالهند - فى خطاب ألقاه بمدينة عليكر - بقوله - ليس للمسلمين حق فى البقاء فى الهند - بعد أن ذبحوا الهندوس والسيخ فى البنجاب، فخير لهم أن يغادروا الهند فى أقرب وقت.

والواقع أن فرق الإرهابيين الهندوس والسيخ ما كانت لتزاول شناعاتها فى هذه المذابح لولا أنها تعتمد على تشجيع كثيرمن الرجال المسئولين فى الهند أمثال هذا الرئيس.. وعلى الرغم من أن زعماء الهند يعرفون أن هذه الفرق تتبع النظام الفاشى المتطرف ولا تؤمن بالنظام الديمقراطى فإنهم لم يتخذوا أى إجراء للحيلولة دون أعمالها البشعة، بل على العكس من ذلك نرى السردار «بياى باثيل» وكيل رئيس وزارة الهند ينصح رجال حزب المؤتمر بألا يسيئوا إلى أعضاء فرق «راشتاريا سويك سونغ» بحجة أن أتباع هذه الفرق ليسوا بمجرمين وإنما هم وطنيون متعصبون لوطنهم!

والحكومة الهندية تقوم بتجريد المسلمين من السلاح، وبذلك يصبحون فريسة سهلة لهذه العصابات المسلحة التى لا يحاول أحد تخفيض تسليحها، بل تجد المساعدات السرية والعلنية من كثير من الرجال المسئولين الذين لا يخفون حقدهم على المسلمين لمجرد كونهم مسلمين.

وهذه صورة مظلمة لأحوال المسلمين الباقين فى الهند يرسمها السيد عبد الله دهلوى فى رسالة بعنوان «المسلمون فى الهند تحت حكم الإرهاب» نقتطف منها هذه السطور: «يختلف

مصير المسلمين فى الهند بعد التقسيم باختلاف المقاطعات، حقا إن نيران الاضطراب قد شبت أول ما شبت بعد التقسيم مباشرة فى شرق البنجاب، وقد ثبت بصورة لا تقبل الشك شهادة كثير من المراقبين السياسيين والنشرات العديدة ـ أن السكان المسلمين فى هذا الإقليم إما أن يكونوا قد أبيدوا عن بكرة أبيهم أو طردوا من مساكنهم حتى خلت البلاد تماما من أى أثر لهم.

لقد بدأت الاضطرابات فى قلب البنجاب ثم انتشرت بسرعة حتى التهمت نارها كل بقعة فى الهند بدرجات متفاوتة، وبالرغم من أن طبيعة العدوان وطريقة إعداده ضد المسلمين سارت على وتيرة واحدة، مهما تفاوتت المقاطعات، فقد بدأت أولا بتجريد جميع السكان المسلمين من السلاح لدرجة أن أصبح هذا العمل هدف رجال الدوائر الهندية الوحيد، وكل بيت من بيوت المسلمين بغض النظر عن سلوك صاحبه وميله السياسى وكل مؤسسة من المؤسسات القومية للمسلمين والمساجد والمقابر، وكل ماله علاقة بالمسلمين، أصبح عرضة لتفتيش وحشى عن السلاح والذخيرة، أما أولئك الذين أدركوا ما قد يتعرضون له من ظروف قاسية نتيجة التقسيم وحاولوا النجاة بأرواحهم فقد كانوا عرضة لمعاملة البوليس القاسية، وكثير من المنظمات العسكرية الهندية التى خفت لمعاونة الشرطة فى هذا الطراد الوحشى الفظيع ـ وهنا استطاع الشرطة بمعاونة الأهالى تجريد المسلمين حتى من متاعهم الشخصى ولكى يبرر الهندوس أعمالهم الإجرامية هذه ادعوا بأن المسلمين المتجهين إلى باكستان كانوا يهربون النساء الهنديات! ومنعا لوقوع مثل هذا العمل قررت السلطات إجراء تفتيش كامل لجميع النساء المسلمات اللواتى حاولن النزوح إلى باكستان.. وهناك كثير من الحوادث الشاهدة بفصل كثير من العائلات عن رجالهم وعدم السماح لهن بالسير بزعم أن عليه أجسامهن بعض علامات الوشم مما يدل على انهن قد يكن غير مسلمات!

أما المسلمون الذين قدر لهم البقاء فى الهند فقد جردوا من كل شىء يستطيعون الانتفاع به فى الدفاع عن أنفسهم، والمؤلم أن الهنود لا يكتفون بما يفرضون من غرامات وسجن على المسلمين بدعوى انهم هم الذين سببوا الاصدامات، بل إن حياة كل فرد منهم قد انحطت إلى أسوأ درك من دركات الخوف والقلق فى انتظار ما قد يأتى به الغد من عدوان جديد.

هذه الصورة القاتمة يؤيدها تصرف الهند فى ولالة «حيدر أباد» وفى ولاية «كشمير» لقد كان حاكم الأولى مسلما وأغلبيتها هندوسية، فضمت إلى الهند بحسب أغلبيتها وقد كان حاكم الثانية هندوسيا وأغلبها مسلمين، فساقت الهند جيوشها واحتلت أطرافها وهى إلى اليوم لا ترضى بترك الحرية لأهلها فى استفتاء حر ليختاروا الدولة التى ينضمون إليها.

وقد وزعت نشرة فى دوائر الحكومة الهندسية أن من شاء من الموظفين المسلمين أن ينتقل إلى باكستان فليفعل وخصص قطار لهذا الغرض ثم إن القطار الذى نقل الموظفين المسلمين من دوائر الهند إلى باكستان واجتمع فيه خمسون ألف موظف ماذا تم فيه؟ دخل القطار بالخمسين ألف موظف فى نفق بين الحدود الهندية والباكستانية يسمى «ممر خيبر» وخرج من الناحية الأخرى وليس له إلا أشلاء ممزقة ومتناثرة فى القطار، لقد أوقفت العصابات الهندية

الوثنية المدربة الموجهة القطار فى النفق ولم تسمح له بالمضى فى طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء.. وصدق قول الله سبحانه «كيف وأن يظهروا عليكم لا يراقبوا فيكم إلا ولا ذمة ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون» وما تزال هذه المذابح تتكرر فى صور شتى حتى الآن.. وكان أقربها فى هذا العام.

انها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية فى الجزيرة العربية، ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية فى الهند والدول الشيوعية.. انها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده، ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله فى كل زمان وفى كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص - وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة فى الجزيرة - وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركى الجزيرة - إلا أنها أبعد مدى فى الزمان والمكان، لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما فى كل زمان ومكان، والأمر فى تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ فى مثل الحالة التى نفذت فيها فى الجزيرة العربية، ولا يتعلق بأصول الحكم ولا بأصل الموقف الذى لا يتبدل على الزمان.

طريقتان لا ثالث لهما فى معاملة المشركين

ومع هذه الجرائم كلها، وتلك الفظائع جميعها، فالباب أمامهم مفتوح، والماضى كله يمكن أن تطوى صفحته، والإسلام يحتضن إليه كل من يتوب ويثوب، من أجل ذلك ما كادت الآيات تنتهى من بيان الحكمة فى تقرير الأمر بنبذ عهود المشركين حتى أسرعت فرسمت لهم طريقين وفرضت لهم فرضين: اما أن يشعروا بما هم عليه من فساد وانحراف وشذوذ، فيفكرون فى الدخول فيما دخل المسلمون - والإقلاع عما هم فيه من الشرك - ومدنساته، والتوبة عما مضى من الاعتداء ويمدون أيديهم للحق، ويفتحون قلوبهم للدعوة فيؤمنون بالله ويندمجون فى جماعة المؤمنين، يصلون كما يصلون، ويزكون كما يزكون واما أن يظلوا سادرين فى غلوائهم متنكرين للحق، مستمرين على الضلال والبهتان ومحاربة الفضيلة، ناكثين لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه طاعنين فى دين المسلمين أمران أو فرضان لا ثالث لهما.. فإن جنحوا إلى الأولى وقاموا بشعائر المسلم الحق كانوا من المسلمين، لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وربطت بينهم جميعا أخوة الدين التى تطهر القلوب من العداوة والبغضاء، وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين، وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة، ويصبح المسلمون الجدد إخوانا للمسلمين القدامى، ويسقط ذلك الماضى كله من الواقع ومن القلوب.. وأن أبوا واستمروا على الأخرى فهم إذن أئمة فى الكفر لا أيمان لهم ولا عهود ولا سبيل لكم معهم سوى القتال حتى يخضعوا للحق وينتهوا عن الشرك ويثوبوا إلى الهدى، أو تطهر منهم أرض الله «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين وتفصل الآيات لقوم يعلمون» «وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون».. ان فى هذا ما يكشف عن سماحة الإسلام وإنسانيته وأنه ليس لحساب فرد أو جماعة أو أمة، وإنما هو حظ متاح للناس جميعا.. وان هذه الحروب

التى تدور بين أتباعه وأعدائه والتى يحتمل فيها هؤلاء الأتباع ما يحتملون من ابتلاء فى أموالهم وأنفسهم.. هذه الحرب ليست لحساب أحد إنما هى من أجل هذا الدين، ولحساب هذا الدين.. ومن هنا كان مطلب المسلمين المجاهدين أولا وقبل كل شىء هو هداية الناس وابتغاء الخير لهم.. فإذا اهتدى الضال وآمن المشرك ونزع الكافر عن كفره كان ذلك هو الجزاء الحسن الذى يسعد به المسلم، والغنيمة العظيمة التى يجد فيها العزاء لكل ما أصيب به فى نفسه أو ماله، ولهذا فإن المسلمين يظلون على موقفهم العدائى من المحاربين لهم المعتدين على الإسلام ماداموا على حالهم تلك، فإذا هم تحولوا عن موقفهم هذا ودخلوا فى دين الله.. انقلبوا فى الحال أولياء للمؤمنين اخوانا لهم، قد ذهب إيمانهم بالله بكل ما كان لهم فى نفوس المؤمنين من عداوة وبغضاء، وأصبح لهم كل حقوق الأخوة الإسلامية بتلك الشروط: التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والنص يقرر هذه الشروط فى دقة كاملة ووضوح، لأنه بصدد تشريع محدد النصوص.. وهم لا يتحقق دخولهم فى الجماعة المسلمة بعد الشهادتين إلا بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وهو نص فى أن أخوة الدين تثبت بهذين الركنين، ولا تثبت بغيرهما من دونهما، والكلام فى جملة المشركين وفيهم الغنى والفقير، وهل يتعارف الإخوان فى الدين إلا بإقامة الصلوات فى المساجد وأداء الصدقات للمواساة بينهم ولإقامة الروابط والمصالح؟ وهذه الأخوة أول ميزة دنيوية للإسلام، فإن المشركين كانوا محرومين من هذه الأخوة العظيمة، بعضهم حرب لبعض فى كل وقت إلا ما يكون من عهد أو جوار قلما يفى به القوى الضعيف دائما.

«وتفصل الآيات لقوم يعلمون» [١٨] وتبين الآيات المفصلة للدلائل الفاصلة بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل والمفرقة بين الفضائل والرذائل، لقوم يعلمون وجوه الحجج والبراهين ويدركون هذه الأحكام وأسرار الحكمة فيها.. وهم المؤمنون.. فهم الذين يعقلونها دون الجاهلين من متبعى الظنون والمقلدين.. وفيه دعوة للمشركين أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم وبين هذا الدين الذى يدعون إليه، وانهم لو نظروا بقلوب سليمة وعقول تنشد الحق وتطلب الهدى لعلموا أن دعوة الإسلام لا تقوم على عصبية قبلية أو طائفية أو من أجل جاه أو سلطان، وانه لو كان هذا شأنها لما كان دخولهم الإيمان شفيعا يشفع لهم عند المسلمين، ويعفى على ما اقترفوه فى حقهم من آثام، ولما قبل منهم المسلمون إلا الاستسلام لهم واستباحة دمائهم وأموالهم شأن الحروب التى تقع بين الناس من أجل أمور الدنيا المتنازع عليها بينهم أبدا.

والشرط فى هذه الآية كالشرط فى الآية الخامسة، وإنما اختلف الجواب لمناسبة السياق.. وردت تلك الآية تالية تلو الأمر بقتل المشركين، فناسب أن يكون جواب الشرط فيها الأمر بتركهم، وهو قوله تعالى: «فخلوا سبيلهم» ووردت هذه الآية تلو اثبات رسوخ المشركين فى كفرهم وضلالهم وصدهم عن سبيل الله، وكونه هو الباعث لهم على قتال المؤمنين ابتداء ثم على نقض عهودهم، فناسب أن يذكر فى جواب شرطها «فإخوانكم فى الدين» وهذه أجلب لقلوبهم وأشد استمالة لهم إلى الإسلام.

روى ابن جرير فى تفسير هذه الآية عن ابن عباس قال: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة، وروى عن ابن زيد قال: افترضت الصلاة والزكاة جميعا ولم يفرق بينهما، وقرأ «فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين» وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه.. وروى عن عبد الله بن مسعود قال: أمرتم بإقام الصلاة وايتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له.[١٩].

«وإن نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم [٢٠]فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون».

هذا هو الوجه الآخر الذى يلقى به المؤمنون المتمردين من المشركين الناكثين للعهد وهو أنه إذا لم يستقم هؤلاء المشركون على الوفاء بالعهد، ولم يحافظوا على عهودهم وقد حفظها لهم الإسلام، ولجوا فى طريقهم الفاسق المنحرف، ونكثوا ما أبرمتم ايمانهم أو ما أقسموا عليه ايمانهم من الوفاء من بعد عهدهم وطعنوا [٢١] فى دين المسلمين بأن عابوه وثلبوه بالاستهزاء به وصد الناس عنه، وأطلقوا ألسنتهم بقالة السوء فى الإسلام والطعن فى القرآن وفى النبى صلى الله عليه وسلم، كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبى دماءهم فعندئذ لا عهد لهم ولا زمام، وينبغى على المسلمين أن يحلوا أنفسهم من أى عقد عقدوه مع هؤلاء المشركين، وأن يضربوهم بيد باطشة قاهرة لعل فى هذا ما يقطع ألسنتهم وأيديهم المتطاولة على الدين ويقصر من خطوهم إلى التمادى فى الشرك والضلال.

«فقاتلوا أئمة الكفر» قاتلوهم فهم أئمة الكفر وقادة أهله وحملة لوائه الذين يدعون إليه ويؤمنون غيرهم إلى الضلال ويقودونهم إليه.

وقد علل تعالى الأمر بقتالهم بقوله «إنهم لا إيمان لهم» [٢٢] فهم لا يحافظون على عهد يقطعونه ولا يتحرجون من يمين يقسمونها ولا ضمان من غدرهم، وقد مردوا على نقض العهود، فظهر أن عهودهم كلا عهود، لأنها مخادعة لسانية لم يقصدوا الوفاء بها «يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم» فهم ينقضونها فى أول وهلة يستطيعون فيها ذلك بالظهور أو المظاهرة عليكم «لعلهم ينتهون» [٢٣] قاتلوهم راجين بقتالكم اياهم أن ينتهوا عن كفرهم وشركهم وما يحملهم عليه من نكث إيمانهم ونقض عهودهم والضراوة عليكم كلما قدروا عليه.. وهو يتضمن النهى عن القتال اتباعا لهوى النفس أو إرادة منافع الدنيا من سلب وكسب وانتقام محض بالأولى، وهذا ما امتاز به الإسلام على جميع شرائع الأمم وقوانينها من جعل الحرب ضرورة مقيدة بإرادة منع الباطل وتقرير الحق والفضائل.

قال أبو بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام: إنكم ستجدون قوما مجوفة رؤوسهم فاضربوا معاقل الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول «فقاتلوا أئمة الكفر» رواه ابن أبى حاتم.

وفى العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر فى قوله تعالى: «فقاتلوا أئمة الكفر» بدلا من أن يجىء «النظم» «فقاتلوهم» فى هذا ما يكشف عن وجه هؤلاء المشركين ذلك الوجه الذى لا

يستحق غير الخزى والهوان.. انه وجه يطل منه الكفر فى أنكر صورة وأبشعها.. انه وجه تنعقد على جبينه امارة الزعامة والامامة لدولة الكفر والضلال فوضع الظاهر المبين لشر صفاتهم موضع ضميرهم.. وقيل: إن المراد بأئمة الكفر رؤساء المشركين وصناديدهم الذين كانوا يغرونهم بعداوة النبى صلى الله عليه وسلم ويقودونهم لقتاله، وفكر بعض من قال ذلك منهم أبا سفيان وأبا جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأمية بن خلف، من كان قتل فى بدر أو بعدها، وذلك من الفضلة بمكان، لأن السورة نزلت بعد غزوة تبوك وبعد فتح مكة وفى أثنائه أسلم أبو سفيان، وهذه الأحكام إنما تثبت بعد أربعة أشهر من تاريخ تبليغها فى يوم النحر من سنة تسع وحملها بعضهم على الخوارج، وبعضهم على فارس والروم وبعضهم على المرتدين بجعل الضمائر فيها راجعة إلى الذين تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، واختاره الزمخشرى إذ قال فى تفسير «فقاتلوا أئمة الكفر»: فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعارا بأنهم إذا نكثوا فى حال الشرك تمردا وطغيانا وطرحا لعادات الكرام الأوفياء من العرب ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين فى الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون فى دين الله، ويقولون: ليس دين محمد بشىء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيهم، لا يشق كافر غبارهم وقالوا: إذا طعن الذمى فى دين الإسلام طعنا ظاهرا جاز قتله، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة.[٢٤].

ولا أدرى ما الذى حمل هؤلاء المفسرين على إخراج الآية عن ظاهرها، حتى إنهم رووا عن على وحذيفة رضى الله عنهما أنهما قالا: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، يعنون أنها نزلت فى قوم يأتون بعد، وزعم بعضهم أنهم الدجال وقومه من اليهود.. والحق أنها صريحة فى مشركى العرب أصحاب العهود مع المؤمنين ممن بقى منهم، ويدخل فى حكمها كل من كانت حاله مع المؤمنين كحالهم، فكل من يجمع بين عداوتهم بنكث عهودهم والطعن فى دينهم فيجب عده من أئمة الكفر ولهم حكمهم، ومن لم يرهم أهلا لعقد العهد معه على قاعدة المساواة فهو أدعى وأظلم ممن ينكثون الإيمان، وذلك ما نشاهده من الجامعين بين الاعتداء على البلاد والشعوب، وبث الدعاة فيها للطعن فى ديننا لصدنا عنه واستبدال دينهم به أو جعلنا معطلين لا دين لهم.

التحريض على قتال المشركين

لعل الله علم أن فى نفوس جماعة من المؤمنين كرها لقتال من بقى من المشركين بعد فتح مكة وظهور الإسلام، لأمنهم من ظهورهم عليهم ورجائهم فى إيمانهم، وعلم أنهم يعتذرون لأنفسهم فى سرائرهم بما ليس بحق ولا مصلحة للإسلام فيه، وعلم الله أنه يوجد فيهم من المنافقين ومرضى القلوب من يزين ذلك لهم، والله يريد بهذه الأحكام النهائية الأخيرة تطهير جزيرة العرب من الشرك وخرافاته، وتمحيص المؤمنين من النفاق ودناءاته.. لذا يمضى السياق فى تحريض المؤمنين على الجهاد، وعلى الجد فى قتال المشركين وفى قتل كل المشاعر التى تدعو إلى مهادنتهم والتراخى فى تأديبهم والانتقام منهم، فإذا وقع فى نفس مسلم شىء من هذه المشاعر ليذكر ما صنع هؤلاء المشركون به وبالنبى الكريم وبجماعة المسلمين عامة،

وما كان منهم من كيد وبغى وعدوان على دين الله وعلى المؤمنين بالله فهو يلمس وجدان المسلمين بالمنطق الواقعى المثير ويستعرض النقاط الرئيسية المثيرة لمشاعرهم ويجمعها كلها فى الآية التالية، فيبدو التقاعس عن قتال المشركين عجيبا جد عجيب.

«ألا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين»(٢٥).

ان تاريخ المشركين مع المسلمين كله نكث للإيمان ونقض للعهود، وأقرب ما كان من هذا نقضهم لعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديبية، على ترك القتال عشر سنين يأمن بها الناس من الفريقين على أنفسهم، ويكونون أحرارا فى دينهم، ولقد قبل صلى الله عليه وسلم من شروطهم - بإلهام من ربه وهداية - ما حسبه بعض أفاضل أصحابه قبولا للدنية! ووفى لهم بعهده أدق ما يكون الوفاء وأسماه، ولكنهم هم لم يفوا، وخاسوا بالعهد بعد عامين اثنين عند أول فرصة سنحت، فلم يلبثوا أن نكثوا بمظاهرة حلفائهم بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم، وكان ذلك ليلا بالقرب من مكة على ماء يسمى الهجير، فكان نكثهم هذا من أفظع ما عهد من الغدر كما يدل عليه الشعر الذى أنشده عمرو بن سالم الخزاعى وهو واقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان جاءه لينبئه بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لانصرت ان لم أنصركم» وتجهز لفتح مكة سنة ثمان من الهجرة (٢٦).

كما أن هؤلاء المشركين لم يكونوا فى يوم ما على حال مستقيمة مع المسلمين، وحسبهم أن كان منهم تلك المواجهة المنكرة التى واجهوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول دعوته، وكيف أذوه وأذوا كل من استجاب له حتى هموا بإخراج الرسول من مكة، وبيتوا أمرهم فى النهاية على قتله قبل الهجرة بأيدى عصبة مؤلفة من شباب بطون قريش كلها ليتفرق دمه فى القبائل فتتعذر المطالبة بثأره، لولا أن رد الله كيدهم وأخرج النبى صلى الله عليه وسلم سليما معافى من بينهم .. وكان هذا الائتمار فى دار ندوتهم فى بلد الله الحرام الذى يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله، حتى لكان الواحد منهم يلقى قاتل أخيه أو أبيه فى الحرم فلا يمسه بسوء.. أما محمد رسول الله الداعى إلى الهدى والإيمان وعبادة الله وحده، فلم يرعوا معه هذه الخصلة، وهموا بإخراجه، ثم تآمروا على حياته، وبيتوا قتله فى بلد الله الحرام، بلا تحرج ولاتذمم مما يتحرجون منه ويتذممون مع أصحاب الشارات!

وفى التعبير بلفظ «هموا بإخراج الرسول» إشارة إلى واقع أمرهم مع الرسول فعلا، فهم لم يخرجوه بل كانوا يعملون على أن يمسكوه بينهم ويحولوا بينه وبين أن يلقى الناس، وأن تلتقى دعوته بالجماهير، ولكن لما كان هذا الموقف المتعنت الذى وقفوه منه صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى إرادة قتله - سببا فى أن يخرج من بلده مهاجرا فقد حسن أن يضاف إليهم إخراجه نية لا عملا.. وفى التعبير بكلمة «هموا» التى تفيد معنى النية المنعقدة على هذا الأمر ما يكشف عن مكنون ضمائرهم من كراهية للنبى واستثقال لمقامه فيهم، وانهم يهمون بإخراجه ولكن يرون أن إخراجه أشد بلاء عليهم من امساكه معهم، فهم يمسكون بالنبى على مضض

وتكره. كذلك هم الذين بدأوا بقتال المسلمين وحربهم فى المدينة فمنهم الذين أصروا - بقيادة أبى جهل - على ملاقاة المسلمين بعد أن نجت القافلة التى خرجوا لحمايتها، يمنون أنفسهم بالقضاء عليهم والتنكيل بهم، إذ قال قائدهم أبو جهل ردا على رسالة أبى سفيان التى أرسلها إلى قريش بعد نجاته، والتى يذكر فيها: انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا، قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم فيه ثلاثا ننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا.

ثم قاتلوهم بادئين فى أحد وفى الخندق، ثم غدرهم بعد صلاح الحديبية بمساعدتهم بنى بكر على خزاعة حلفاء المسلمين ثم جمعوا لهم فى حنين كذلك.

وكلها وقائع حاضرة أو ذكريات قريبة، وكلها أمور إذا ذكرها المسلمون أثارت حفيظتهم على المشركين وأوقدت عزائمهم لجهادهم بالبأساء والضراء حتى يستجيبوا لله وللرسول وكلها تنم عن الإصرار الذى يصفه قول الله تعالى: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا» [٢٧] كما تنم عن طبيعة العلاقة بين المعسكر الذى يعبد آلهة من دون الله تجاه المعسكر الذى لا يعبد إلا الله.

ألا تقاتلون قوما هذا موقفهم وهذا سلوكهم وهذا ماضيهم؟ ألا تقاتلون قوما نقضوا عهودهم معكم، فليس لهم شرف وليس لهم ضمير، ولستم تأمنون أن يبيتوكم بالغدر وأنتم غارون غافلون فهم مصدر تهديد دائم لكم، ولا اطمئنان إلى جوارهم ولا أمان؟ ألا تقاتلون قوما هموا بإخراج رسولكم وتآمروا عليه، ولو نجح تدبيرهم لنالوا منه وما عصمه منهم إلا الله، إذ أبطل تدبيرهم اللئيم؟ ألا تقاتلون قوما بدأوكم أول مرة بالأذى والقتال، فهم البادئون المعتدون المتحدون؟ ألا تقاتلون قوما قدموا لكم كل هذه المساءات؟

وحين يستعرض السياق هذا الشريط الطويل من الذكريات والمواقف والأحداث، فى هذه اللمسات السريعة العميقة الايقاع فى قلوب المسلمين يخاطبهم بعدها: «أتخشونهم؟ فتناموا على الضيم وتنسوا مكرهم بالرسول وتبيتوا على الحذر والقلق، أتتركون قتالهم خشية لهم وجبنا منكم، فإنكم لا تقعدون عن قتال المشركين هؤلاء الا أن تكون هى الخشية والخوف والتهيب.. ويعقب على هذا السؤال بما هو أشد استجاشة للقلوب من السؤال.. «فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين».. إن المؤمن لا يخشى أحدا من العبيد، فالمؤمن حق الإيمان لا يخاف ولا يخشى إلا الله تعالى، ليعلمه أنه هو الذى بيده ملكوت كل شىء فإن خشى غيره بمقتضى سنته تعالى فى أسباب الضر والنفع فلا يرجح خشيته على خشية الله تعالى، بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره، بل يرجع خشيته تعالى على خشية غيره، بل لا يخشى غيره حق الخشية.. فإذا كانوا يخشون المشركين فالله أحق بالخشية وأولى بالمخافة، وما يجوز أن يكون لغيره فى قلوب المؤمنين مكان!

وهذا احتجاج آخر على جماعة المسلمين الذين لا يخشون من المنافقين ومرضى القلوب والسماعين لهم من المؤمنين الذين كانوا يعظمون ما عظم الله ورسوله من أمر الوفاء بالعهد

ويكرهون القتال لذاته، إذا لم توجبه الضرورة، كما قال تعالى فيهم: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» الآية، أو لرجاء انتشار الإسلام بدونه بعد فتح مكة والطائف وهدم دولة الشرك فهذا الذى اقتضى كل هذه الحجج والبينات على كون نبذ عهود المشركين حقا وعدلا لا يتضمن خيانة ولا غدرا، وأن بقاءهم على حريتهم - وهذه حالهم - خطر لا تؤمن عاقبته، فالله تعالى يقول للمؤمنين بعد سوق تلك الحجج الثلاث التى تكفى كل واحدة منها لإيجاب قتالهم انه لم يبق بعد قيام هذه البينات من سبب يمنع من قتالهم الا أن يكون الخشية لهم والخوف من قوتهم، وخشية الله أحق وأولى من خشيتهم فإن كنتم موقنين فى ايمانكم فاخشوه وحده عز وجل وقد رأيتم كيف نصركم عليهم فى تلك المواطن الكثيرة، إذ كنتم ضعفاء وكانوا أقوياء.. وفيه دليل على أن المؤمن حق الإيمان يكون أشجع الناس وأعلاهم همة لأنه لا يخشى إلا الله عز وجل.

حث وتحريض على القتال:

وان مشاعر المؤمنين لتثور وهى تستجاش بتلك الذكريات والوقائع والأحداث.. وهم يذكرون بتآمر المشركين على نبيهم صلى الله عليه وسلم بغيا وعدوانا، وهم يستعرضون نكث المشركين لعهودهم معهم وتبيتهم لهم الغدر كلما التمسوا منهم غرة أو وجدوا فى موقفهم ثغرة، وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال بترا وطغيانا.. وفى غرة هذه الثورة والغضب المكظوم يحرض المؤمنين على القتال.. «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم».

هو تحريض وتهييج واغراء للمسلمين بقتال المشركين، حتى يفيئوا إلى أمر الله فبعد أن أثار حميتهم وملأ قلوبهم موجدة وسخطا على الكافرين جاء وعده تعالى لهم بالنصر على عدوهم، وهو وعد قطعى بإظهار المؤمنين على المشركين أكمل الظهور وأتمه، وهذا الوعد من أخبار الغيب التفصيلية فى حال معينة، فهو ليس كالوعد العام المجمل فى نصر الله لرسله وللمؤمنين الذى يراد به أن العاقبة تكون لهم، ولا يمنع أن تكون الحرب قبلها سجالا لتربية المؤمنين، وقد صدق وعده تعالى مجملا ومفصلا.

«قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» (٢٨) يجعلكم الله ستار قدرته وأداء مشيئته فيمكنكم من رقابهم قتلا ومن صدورهم ونحورهم طعنا، ويعقبهم فى قلوبهم يأسا ولا يدع فى نفوسهم بأسا «ويخزهم» بذل الهزيمة والقهر لمن لم يقتل منهم، وهم يتخايلون بالقوة، وبما يصيبهم فى أنفسهم من أثر وفى أموالهم من فقر حيث تقع غنيمة لأيدى المؤمنين فى ميدان القتال أو فى فداء الأسرى منهم، وليس هذا فحسب، فإن الذى لهم فى العرب فى مكان الرياسة والسيادة ستذهب به تلك الهزيمة المنكرة التى سيلقونها ويلقون معها الخزى والعار «وينصركم عليهم» أكمل النصر وأتمه بحيث لا يعود لهم بعد هذه المرة قوة ولا سلطان يعودون به إلى قتالكم، كما كان شأنهم بعد نصركم عليهم فى بدر وغيرها «ويشف صدور قوم مؤمنين» كان هؤلاء المشركون قد نالوا منهم ما نالوا فى سلطانهم من أذى وتشريد فكان فى صدورهم من موجدة القهر والذل ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم، وبانتصار الحق كاملا وهزيمة الباطل وتشرد

المبطلين.. وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة والذين كانوا فى دار الشرك عاجزين عن الهجرة «ويذهب غيظ قلوبهم» الذى كان قد وقر فيها إلى هذا العهد من غدر المشركين ومن ظلمهم لمن لم يكن لهم مجير من المسلمين.. فشفاء الصدور بعز الإسلام بالنصر العام الشامل لهؤلاء ولغيرهم، هو غير ذهاب ما فى قلوبهم من الغيظ والحقد من على غدرهم وظلمهم.

وقال بعضهم: فى قوله تعالى: «ويشف صدور قوم مؤمنين» انتقال من الخطاب إلى الغيبة وفى ذلك تنويه بشأن المؤمنين ورفع لقدرهم بالنأى بهم عن هذا الموطن الذى ينزل فيه العذاب على المشركين ويقع عليهم الخزى والهوان، وفى العدول عن تعريف القوم إلى تنكيرهم تفخيم لهؤلاء القوم وأنهم ليسوا قوما بأعيانهم، وإنما هم المؤمنون حيث كانوا سواء من قاتل هؤلاء المشركين أو من لم يقاتلهم، وسواء من شهد هذه الأحداث وعاصرها أو من جاء بعدها حيث يرى المؤمن فى حديث التاريخ عنها ما تقربه عينه وينشرح به صدره حين يحدثه التاريخ عن هزيمة الباطل، وانتصار الحق وانتشار ظل الإسلام وانكماش دولة الكفر والضلال.

وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر ينتظر، وثوابا آخر ينال. «ويتوب الله على من يشاء» فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون، ويحسبون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم. وهذا ما كان فعلا - وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم وأجر هداية الضالين على أيديهم، وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين..(٢٩).

«والله عليم حكيم» عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات، حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات، فيمضى حكمه بعلم العليم وحكمه الحكيم، فما وقع شىء فى ملكه إلا على هذا التقدير.

ان بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوى قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ وأن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة مرهوبة الجانب عزيزة الجناب على أن الله سبحانه وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد لم يكن بعدها وهى فى مكة قليلة مستضعفة مطاردة، إلا وعدا واحدا.. هو الجنة، ولم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا.. هو الصبر، فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب آتاها الله النصر، وجعل يحرضها عليه ويشفى صدورها به، ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها، ولكن لدينه وكلمته، وإن هى إلا ستار لقدرته.

ليس الإيمان مجرد عقيدة بل جهاد وولاء للجماعة

ان الإيمان ليس مجرد عقيدة، يعتقدها المؤمن فى الله وكتبه ورسله، ثم يعيش بهذه المعانى مضمرة فى كيانه، كما تضمر الحية فى باطن الأرض لا يصيبها وابل أو طل، ولا يحركها شوق إلى كشف وجهها ومصافحة أضواء الوجود، وإنما الإيمان هو وصل هذه الحقائق بالحياة، وصوغها فى صورة سلوك وأعمال من عبادات ومعاملات، ومن جهاد فى سبيل الله، وحماية

لراية الإيمان أن تسقطها يد البغاة المعتدين من أهل الشرك والضلال.. فللإيمان أعباؤه وتكاليفه، وعلى مقدار الوفاء بهذه الأعباء وتلك التكاليف تظهر مواقف المؤمنين وتكون منازلهم ودرجاتهم.

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة، وأن تنبذ عهود المشركين كافة وأن يقف المسلمون ازاءهم صفا.. لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة.. لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعازير، وإعلان المفاصلة للجميع لينكشف الذين يخبئون فى قولهم خبيئة ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة .. أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون»[٣٠] استبعاد لهذا الشعور الذى بداخل بعض المؤمنين من أن يكون حسبهم من إيمانهم ما تنطوى عليه صدورهم من حقائق.. كلا، انهم مبتلون بما يكشف عن معدن هذا الإيمان الذى فى قلوبهم.. الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»[٣١] «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين»[٣٢] ففى الإيمان شريعة، وفى الشريعة أوامر ونواه، والمؤمن مطالب بأن يمتثل الأوامر ويأتيها، ويجتنب النواهى ويحذر التلبث بها.. إن الإيمان عقيدة وعمل.. وأنه لا معتبر لعقيدة إذا لم يزكها العمل ويحقق المعانى المضمرة فيها..

لقد كان فى المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة - فئة تجيد المداورة، وتنفذ من الأسوار وتتقن استخدام الأعذار، وتدور من خلف الجماعة، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة، ولو على حساب الجماعة، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات فى المفاصلة بين المعسكرات، فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة وكشفت المداخل والمسارب للأنظار.. وانه لمن مصلحة الجماعة ومن مصلحة العقيدة أن تهتك الأستار وتكشف الولائج وتعرف المداخل فيمتاز المكافحون المخلصون ويكشف المداورون الملتوون، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته، وإن كان الله يعلم من قبل «والله خبير بما تعملون» ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفصلهم وسلوكهم، وكذلك جرت سنته تعالى بالابتلاء لينكشف الخبىء وتتميز الصفوف وتتمحص القلوب، ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات.

إن المطلوب من المؤمن هو الجهاد فى سبيل الله وموالاة الله ورسوله والمؤمنين، والاعتماد على كفاية الله ورسوله والمؤمنين، دون أن يقوم بينهم وبين المشركين ولاء ولا يدخل معهم فى حلف، ولا يلج لهم أمرا يلتمس منه خيرا لنفسه أو سلامة مما يتوقع من بلاء.. فإذا لم يقع منه هذا لم يكن أهلا لأن يدخل الجنة التى وعدها الله المتقين من عباده.. وقد يجاهد المجاهد ولا يكون مخلصا بل يكون منافقا باطنه خلاف ظاهره وهو الذى يتخذ الوليجة من دون الله

ورسوله والمؤمنين، والمجاهد الحق هو الذى يأتى بالجهاد مع الإخلاص خاليا عن النفاق والرياء والتودد إلى الكفار وابطال ما يخالف طريقة الدين، والمقصود بيان أنه ليس الغرض من ايجاب القتال نفس القتال فقط، بل الغرض أن يأتى به انقيادا لأمر لله ولحكمه وتكليفه، ليظهر به بذل النفس والمال طلبا لرضوان الله تعالى.

«والله خبير بما تعملون» تحذير للمؤمنين الذين فى صدورهم شىء من هذه المشاعر التى تقيم بينهم وبين المشركين صلة على حساب دينهم أو على حساب الجماعة الإسلامية وأمنها وسلامتها.

الهوامش

(١) واستثنى من المعاهدين الذين نبذت إليهم عهودهم: من وفوا بعدهم ولم ينقضوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا من أعدائهم، فأمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم.
(٢) واستثنى منهم من يستجير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمره بإجارته حتى يسمع كلام الله.
(٣) قد مضى في الفصل السابق بيان هذا الاستثناء وما يتعلق به، ولم أعيد؟
(٤) وفي تعليل الأمر بنبذ العهود جاءت الآية السابعة.. (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) إلى نهاية الآية العاشرة.. (وأولئك هم المعتدون) وفي تعليل الأمر بالقتال جاءت الآيات إلى نهاية الآية السادسة عشرة.
(٥) هذا الاستفهام للإنكار المشرب بمعنى التعجب، الخطاب للمؤمنين الذين رسخ خلق الوفاء في قلوبهم، وكان بعضهم عرضة لقبول كلام المنافقين في إنكار النبذ.
(٦) سورة الاعراف ١٧٢، ١٧٣.
(٧) سورة البقرة ٢١٧.
(٨) قوله تعالى "إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام «الى آخر الآية» اعتراض بين قوله «كيف يكون =للمشركين عهد عند الله وعند رسوله»، وقوله المفسر له «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» فالاستفهام واحد، ووجه انكار العهد ونفيه فيه مقيد بهذه الحال، وانما اعيدت اداة الاستفهام للفصل المذكور «يظهروا عليكم»... يقدروا عليكم «لا يرقبوا فيكم»... رقب الانسان يرقبه رقبة ورقوبا وهو ان ينتظره، ورقيب القوم حارسهم ولم ترقب قولي: لم تحفظه، والإل: العهد او العقد او الحلف وهي متقاربة المعنى (قتادة) او القرابة كأنها مشتقة من الآل التي بمعنى الأهل والاقارب (ابن عباس)، أو اسم لله تعالى، والمعنى: انهم لا يرقبون الله في نقض عهدهم (مجاهد)، أو تحديد الشيء (رازي جـ ٤ ص ٩٣) فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى فالصواب ان يعم ذلك (طبري جـ ١٤ ص ٤٨) والذمة والذمام: العهد، وهو كل امر لزمك وكان بحيث لو ضيعته لزمتك مذمة (الاساس والرازي) أو هي ما يتذمم منه، يعني ما يجتنب فيه الندم، يقال تذمم فلان اى القى عن نفسه الذم ونظيره تحوب وتأثم.
(٩) قال الإمام الفخر الرازي: فيه سؤالان: الأول أن الموصوفين بهذه الصفة كفار، والكفر افبح وأخبث من الفسق، فكيف يحسن وصفهم بالفسق في معرض المبالغة في الذم، والثاني ان الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله «واكثرهم فاسقون» فائدة والجواب عن الاول ان الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون فاسقا خبيث النفس في دينه، فالمراد هنا أن هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهود، اكثرهم فاسقون في دينهم وعند اقوامهم، وذلك يوجب المبالغة في الذم، وعن الثاني بأنه عين ما تقدم، لأن الكفار قد يكون محترزا عن الكذب ونقض العهد والمكر والخديعة، وقد يكون موصوفا بذلك، ومثل هذا الشخص يكون مذموما عند جميع الناس وفي جميع الأديان... فالمراد بقوله تعالى: (واكثرهم فاسقون) ان اكثرهم موصوفون بهذه الصفات المذمومة، وايضا قال ابن عباس: لا يبعد ان يكون بعض اولئك الكفار قد اسلم وتاب، فلهذا السبب قال: «وأكثرهم فاسقون»، حتى يخرج عن هذا الحكم أولئك الذين دخلوا في الاسلام (رازي جـ ٤ ص ٥٩٣)
(١٠) والصواب أن هذه الآية تشمل أهل العهد الذين غدروا، و تشمل من لا عهد لهم من المشركين بالاولى، لأنهم لشدة عداوتهم للمؤمنين لم يريدوا في وقت من الاوقات ان يقيدوا أنفسهم معهم بعهد سلم مطلق ولا مؤقت، فان لم تشملهم بالنص شملتهم بالحكم.
(١١) هذا بيان مستأنف لمن عساه يستغرب غلبة الفسق والخروج من دائرة الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء بالعهد الممدوحين عندهم، ويسأل عن سببه وجوابه: (اشتروا الآية)
(١٢) سورة الاعراف ١٢٦.
(١٣) سورة المائدة ٥٩.
(١٤) سورة البروج ٨.
(١٥) ذلك أن اليهود والنصارى من أهل الذمة كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها، وممن دلوا على عورات المدينة وشاركوا مشاركة فعلية في هذه الكارثة، واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية.
(١٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ ص٢٠١-٢٠٤
(١٧) وقد وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي بشاعات التتار.. لقد جيء بأحد زعماء المسلمين فحفرت له حفرة في الطريق العام، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته) وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات.
(١٨) هذا اعتراض وقع بين الكلامين، والمقصود: الحث والتحريض على تأمل مافصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

(١٩) وروى غيره عنه أنه قال: كما ابن زيد بعده: رحم الله أبابكر ماكان أفقهه، يعنى بهذا قوله والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما.
(٢٠) الإيمان: العهود، يضع كل من العاقدين للعهد يمينه فى يمين الآخر أو ما يوثق بينهما بالقسم.. ونكث الإيمان هنا يقابل فيما قبله استقامتهم عليها، والطعن فى ديننا يقابل فيما قبله فرض توبتهم من الكفر به بدخولهم فى جماعته.
(٢١) «طعنوا فى دينكم» هذا العطف بيان للواقع وإيذان بأن الطعن فى الإسلام ضرب من ضروب نكث الإيمان ونقض السلم والولاء، كالقتال ومظاهرة الاعداء، فهو من عطف الخاص على العام وليس المراد به تقييد حل قتالهم بالجمع بين الأمرين، بل هو كقول «ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا.
(٢٢) قرأ ابن عامر «ولا إيمان لهم» بالكسر أى لا افان لهم ـ أى لا تؤمنوهم فيكون مصدر آمنه إيمانا هو من الإيمان الذى هو ضد الإخافة أو أنهم كفرة لا إيمان لهم أى لا تصديق ولا دين لهم والباقون بالفتح أى لا إيمان لهم على الحقيقة.
(٢٣) متعلقة بـ (قاتلوا) على معنى أن القوة قد تردهم عن الكفر والغدر والنكث بالعهود.
(٢٤) الكشاف للزمخشرى الجزء الأول ص. ٥٤٥
(٢٥) تحريض على قتالهم بأوجه وجوه الأدلة وأقواها، وأوضح أساليب البيان واسماها، وهو أن الاستفهام للانكار الذى يحيل النفى اثباتا، كما يحول الاثبات إلى النفى، وقد دخل هنا على نفى القتال فكان دليلا على اثباته ووجوبه، وأقام على هذا الوجود ثلاث حجج:
(٢٦) نكثهم لإيمانهم.
(٢٧) هممهم بإخراج الرسول.
(٢٨) بدؤهم بالقتال أول مرة.
(٢٩) هكذا رواه ابن اسحاق ونقله عنه البغوى وغيره.
(٣٠) سورة البقرة ٢١٧.
(٣١) ما السر فى نسبة التعذيب إليه تعالى وذكر الأيدى؟ الظاهر أنه تعالى أسند التعذيب إلى اسمه لأنه أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب وما يفضيان إليه من القتل والجرح، وكل قوم يقاتلون فانهم يصابون بالطعن والضرب ويقتل بعضهم ويجرح بعض، ولا يسمون معذبين بذلك وحده، فإن الغالب والمغلوب فيه سواء، وانما يدل هذا الاسناد على أنه تعالى يتحدث فى أنفس المشركين فى هذا القتال ألما نفسيا لعل أظهر أسبابه اليأس وسلب البأس، ولذلك قال: «ويخزلهم» أو لعل هذا الإسناد لإرادة المبالغة، فإنه تعذيب الله تعالى القوى العزيز وإن كان بأيدى العباد. وفى ذكر الأيدى: أما التنصيص على أن ذلك فى الدنيا لافى الآخرة، واما لتكون البشارة بالتعذيب على الوجه الأتم الذى يترتب عليه شفاء الصدور ونحوه على الوجه الأكمل، إذ فرق بين تعذيب العدو بيد عدوه وتعذيبه لا بيده، فإن قلت: أليس أنه تعالى قال: (وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فكيف قال هاهنا (يعذبهم الله بأيديكم؟ قلنا: المراد من قوله: «وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم» عذاب الاستئصال، والمراد من قوله: «يعذبهم الله بأيديكم» عذاب القتل والحرب، والفرق بين البابين أن عذاب الاستئصال قد يتعدى إلى غير المذنب وإن كان فى حقه سببا لمزيد الثواب، أما عذاب القتل فالظاهر أنه يبقى مقصورا على المذنب.
(٣٢) ويمكن أن تكون مناسبة قوله تعالى «ويتوب الله على من يشاء» لما قبلها هى أنه لما كان من أسباب كراهية المؤمنين لقتالهم، حرصهم بعد ظهور الإسلام بفتح مكة ـ على إيمانهم بالاقناع اخبرهم الله تعالى بأن هذا التعذيب والخزى الذى سينزله بهم لا يعمهم وإنما هو خاص بمن استحوز عليهم الكفر واحاط بهم، حتى لم يبق فيهم استعداد للإيمان، وأن غيرهم سيتوب من شركه ويقبل الله توبته فقال: «ويتوب الله على من يشاء. (تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٩٦).
(٣٣) والمعنى: أم حسبتم أن تتركوا على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولاتبتلوا بما يمحصكم الواو فى «ولما» حالية «لما» للنفى مع التوقع، نفى العلم والمراد نفى المعلوم. وهو الجهاد - على أبلغ وجه، إذ هو بطريق البرهان، إذ لو وقع جهادهم لعلمه الله تعالى لا محالة، فإن وقوع ما لايعلمه عز وجل محال، كما أن عدم وقوع ما يعمله كذلك، فالكلام من باب الكتابة، والحاصل: إنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهى اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ماهو عليه، «ولم يتخذوا» عطف على «جاهدوا» أو حال من فاعله «وليجة»: بطانه وصاحب سر، وكل شيء ادخلته فى شيء ليس منه فهو وليجة، وأصله من الولوج، فالداخل الذى يكون فى القوم وليس منهم وليجة، ويستعمل للمفرد والجمع بلفظ واحد، وقد يجمع على ولائج.
(٣٤) سورة العنكبوت آية ١، ٢ .
(٣٥) سورة آل عمران: آية ١٤٢.

الفصل الرابع

التجرد لله والإيمان هو الضابط والمحور والميزان

ويجرى ذلك فى السياق على أربعة أشواط:

١. مواجهة الخواطر والأفكار التى كانت تحيك فى نفوس بعض المسلمين الذين لم تتضح لهم قاعدة هذا الدين، وكأنه جال بأذهانهم كيف يحرم المشركون زيارة البيت أو عمارته وقد كانوا يقومون بهما فى الجاهلية؟ وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله، فهو حق خالص للمؤمنين بالله القائمين بفرائضه، وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة.. ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم.

٢. تجريد المشاعر والصلات فى قلوب المؤمنين وتمحيصها لله ولدين الله فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة، ويجمع كل لذائذ البشر وكل وشائج الحياة فيضمها فى كفة، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى، ويدع للمسلمين الخيار.. «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء أن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموهما وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين».

٣. إعلام المؤمنين أن التجرد لله وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لاتخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد، وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد.. «لقد نصركم الله فى

مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».

٤- انهاء القول فى شأن المشركين، وإلقاء الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين.. وهى ابعادهم قاطبة عن البيت الحرام، فهم قذر لا يتناسب وطهارة المسجد، نعم سيترتب على منعهم حدوث هزة عنيفة فى اقتصاديات مكة بخاصة والجزيرة بعامة، ولكنها العقيدة، والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة.. «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم».

«من يعمر المساجد ومن لا يعمرها»

مناسبة هذه الآيات لما قبلها

قال الله تعالى: «ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين»(١) وقال: «وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود (٢)وقص علينا تعالى فى سورة البقرة خبر بناء إبراهيم وإسماعيل لهذا البيت وما كانا يدعوان به عند رفع قواعده من جعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وبعث رسول الله منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقد استجاب الله تعالى دعاءهما كله فكان من ذريتهما أمة مسلمة موحدة له تعالى، تقيم دينه فى بيته وفى غيره كما أمر، ثم طال عليهم الأمد، فطرأت عليهم الوثنية وترك جماهيرهم ملة إبراهيم الحنيفية حتى بعث فيهم منهم محمدا رسول الله وخاتم النبيين تكملة لدعوة جده إبراهيم فقاوم المشركون دعوته وصدوه ومن آمن به عن المسجد الحرام وأخرجوهم من ديارهم، ثم مازالوا يقاتلونهم فى دار هجرتهم، إلى أن صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده، ومكنهم بعد فتح مكة، وأدال للتوحيد من الشرك وللحق من الباطل.

فلما زالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام وطهره الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان فيه من الأصنام، بقى أن يطهره من العبادة الباطلة التى كان المشركون يأتونها فيه، وأن يبين لهم الوجه فى كون المسلمين أحق به منهم، فلما آذنهم بنبذ عهودهم وأمر عليا كرم الله وجهه أن يتلو أوائل سورة براءة على مسامع وفودهم فى يوم الحج الأكبر من سنة تسع للهجرة، كان من مقاصد هذا البلاغ العام أن يعلموا أن عبادتهم الشركية ستمنعهم من المسجد الحرام بعد ذلك العام، بالتبع لزوال ولا يتهم العارضة عليه فكان على وأعوانه ينادون فى يوم النحر بمنى «لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان».

وإنما أمهلهم إلى موسم السنة التالية لفتح مكة لسببين فيما يظهر: أحدهما أنه كان فيهم أصحاب عهد مع المسلمين من قبل الفتح، كان من شروطه ألا يمنع من المسجد الحرام أحد من

الفريقين، والوفاء بالعهد من أهم أحكام الإسلام، فأمهلهم إلى انقضاء عهودهم، بنبذ ما جاز نبذه واتمام ما وجب اتمامه، ولم يكن اعلانهم بذلك إلا فى موسم السنة التاسعة كما أمر الله تعالى.

وثانيهما أنه كان يتعذر منع من لا عهد لهم فى موسمى العامين الثامن والتاسع بدون قتال فى أرض الحرم، لأنهم كانوا بمقتضى التقاليد يأتون للحج من كل فج وهم كثيرون، ولا يمكن التمييز بين المشرك والمسلم ولا المعاهد وغير المعاهد إلا بعد وصولهم إلى البيت وشروعهم فى الطواف فيه، فكيف السبيل إلى منع المشرك منهم بعد ذلك بغير قتال فيه فضلا عن سائر الحرم، والقتال محرم فيه؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة «إنها أحلت له ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده»؟ فعلم من هذا أن منع عبادة الشرك من المسجد الحرام وابطال ما كان المشركون يدعونه ويفخرون به من حق عمارته الحسية، وايئاسهم من الاشتراك فيها، كان يتوقف على معرفة من نبذ عهدهم ومن العدل الواجب فى الإسلام إعلامهم بذلك قبل تنفيذه بزمن طويل يكفى لعلم الجماهير منهم به.

وهذا المنع هو ما تضمنته على أكمل وجه هذه الآية «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون» [٢]وفسره على كرم الله وجهه بأمر النبى صلى الله عليه وسلم من الجهة الخاصة فحسن أن توضع هى وما يتلوها من آيات فى هذا الوضع، ذلك بأن السورة بدأت بذكر البراءة من الكفار وبالغت فى ايجاب ذلك، وذكرت من أنواع فضائحهم وقبائحهم ما يوجب تلك البراءة، وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ولم يعد هنالك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته، وقد كانوا يقومون بهما فى الجاهلية.. فهو بيان لبعض الحكمة فيما أمر الله به المسلمين فى شأن المشركين وقتالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، ثم هو إيذان لما سيأتى بعد ذلك من الأمر بأن لا يقرب المشركون المسجد الحرام بعد عامهم الذين أنذروا فيه ببراءة الله ورسوله منهم وهو العام التاسع من الهجرة الذى شاء الله لرسوله الكريم الا يحج هذا العام الذى حج فيه المشركون، ثم حج حجة الوداع فى العام العاشر وقد طهر البيت الحرام من هذا الرجس.

وقد تكون الصلة: أنه تعالى حكى عنهم شبها احتجوا بها فى أن هذه البراءة غير جائزة، وأنه يجب أن تكون المخالطة والمناصرة حاصلة، فأولها ما ذكره فى هذه الآية، وذلك أنهم موصوفون بصفات حميدة وخصال مرضية وهى توجب مخالطتهم ومعاونتهم ومناصرتهم، ومن جملة تلك الصفات أنهم كانوا عامرين للمسجد الحرام.

سبب النزول:

روى عن ابن عباس: أنه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ على له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له على رضى الله عنه: ألكم محاسن؟ قال: نعم، اننا نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج ونفك العانى، فأنزل الله عز وجل ردا على العباس «ما كان للمشركين» الآية.

وهذه الرواية ذكرها الرازى - وغيره من المفسرين - بدون اسناد كعادته، وهى تدل على أن هذه الآية نزلت عقيب غزوة بدر فى أواخر السنة الثانية للهجرة، لكن ينافى ذلك:

أ - الارتباط الوثيق فى السياق بما قبلها، فالحديث مازال مستمرا فى المشركين منذ بدأت السورة إلى الآية الثامنة والعشرين مما يدل على أن هذه الآية وما قبلها وما بعدها نزل فى سياق واحد.

ب - لم يكن للمسلمين فى السنة الثانية للهجرة قوة يستطيعون بها منع المشركين من عمارة المساجد، فما فائدة أن يقال لهم ذلك القول آنئذ، إنما ذلك يقال للمستطيعين القادرين على تنفيذه، والمسلمون لم يكونوا كذلك إلا بعد الفتح فلا جرم نزلت الآية ثمة.

ج - فى سبب النزول المشهور الذى ذكر أول السورة ما يعين وقت نزول هذه الآية .. وهو السنة التاسعة للهجرة .. ففيه ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث عليا فى آخر هذه السنة بثلاثين أو أربعة آية من أول سورة براءة، يتلوها على الناس فى موسم الحج، ولاشك أن هذه الآية موجودة من بينها.

فلا يصح أن تكون هذه الرواية سببا فى نزول الآية، اللهم إلا أن يكون المراد أنها تتضمن الرد على ذلك القول الذى كان يقوله ويفخر به العباس وغيره من كبراء المشركين أيضا، لا أنها نزلت عندما قال القول لأجل الرد عليه فى أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة، بل نزلت - كما تقدم - فى ضمن السورة بعد رجوع النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من غزوة تبوك.

المعنى:

ما كان ينبغى ولا يصح للمشركين ولا من شأنهم الذى يقتضيه شركهم أو الذى يشرعه أو يرضاه الله منهم أو يقرهم عليه أن يعمروا مسجد الله الأعظم وبيته المحرم بالإقامة فيه للعبادة، أو الخدمة له والولاية عليه، ولا أن يزوروه حجاجا أو معتمرين، ولا شيئا من سائر مساجده كذلك والمشركون بما فى قلوبهم من كفر ليسوا أهلا لأن يدخلوا بيوت الله ويعمروها، إذ كيف يكفرون بالله ثم يعمرون مساجده؟ فهو أمر مستنكر منذ الابتداء، ليس له مبرر، لأنه مخالف لطبائع الأشياء.

إن بيوته الله خالصة لله، لا يذكر فيها إلا اسمه، ولا يدعى معه فيها أحد غيره فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم، ومن يدعون من الله شركاء، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع الذى لا يملكون انكاره ولا يسعهم إلا إقراره؟

وفى تفسير هذه الشهادة وجوه:

١ - أصحها أن شهادتهم على أنفسهم ينطق بها حالهم وأفعالهم وإن لم تنطق بها ألسنتهم فهم يدخلون بيت الله ثم يسجدون فيه لغير الله وما يعبدون من أوثان وأصنام وهذا العمل أبلغ شهادة عليهم بالكفر والضلال(٤).

٢ـ أو أنهم أقروا على أنفسهم بعبادة الأوثان وتكذيب القرآن «وإنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[٥] وكل ذلك كفر، فمن يشهد على نفسه بكل هذه الأشياء، فقد شهد على نفسه بما هو كفر فى نفس الأمر، وليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم صراحة بأنهم كافرون.

٣ـ أو أنهم كانوا يقولون: كفرنا بدين محمد والقرآن.

٤ـ أو أنهم كانوا يطوفون بالكعبة عراة، يقولون: لا نطوف عليها بثياب عصينا الله فيها، وكلما طافوا شوطا سجدوا للأصنام التى وضعوها فى البيت حول الكعبة واستشفعوا بها.

٥ـ أو أنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك[٦].

(أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله «حبطت أعمالهم» التى يعملونها من أعمال البر مثل إكرام الوالدين وقرى الضيف وصلة الأرحام وأطعام الجائعين وبناء المدارس والمستشفيات، فكل ذلك باطل، لأن عقاب كفرهم زائد على هذه الأشياء، فلا يبقى لشىء منها أثر استحقاق الثواب والتعظيم مع الكفر.

هذه الأعمال باطلة أصلا، منقلبة شرا ووبالا عليهم، ومنها عمارة بيت الله التى لا تقوم إلا على قاعدة من توحيد الله، انها باطلة فاسدة حتى لم يبق لها أدنى تأثير فى صلاح أنفسهم من الشرك والكفر ومفاسدهما، وهم مقيمون فى دار العذاب التى تسمى النار دون غيرها، إقامة خلود وبقاء، فتلك ثمرة ما كانوا يعملون، وذلك نتيجة ما قدموا من الكفر الواضح الصريح، المحيط لأعمالهم الحسنة حتى لا أثر لها فى تزكية أنفسهم وإحاطة خطيآتهم بها وقدسيتها لها، فلم يبق فيها أدنى استعداد لجوار الله فى دار الكرامة، وما ثمة إلا الجنة أو النار «فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

عمار المساجد الحقيقيون

ان العبادة تعبير عن العقيدة، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة، وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشىء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيمانى الصحيح وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء.. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله».

بعد أن بين عدم استحقاق المشركين لعمارة مساجد الله أثبتها للمسلمين الكاملين وجعلها مقصورة عليهم بالفعل لا بمجرد الشأن والاستحقاق، وهو الذى يقتضيه مقام الايجاب وهم الجامعون بين الإيمان بالله على اوجه الحق الذى بينه فى كتابه من توحيده وتنزيهه واختصاصه بالعبادة والاستعانة والتوكل، والإيمان باليوم الآخر الذى يحاسب الله فيه العباد ويجزى كل نفس ما كسبت، وبين إقامة الصلاة المفروضة بأركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها التى تكسب مقيمه مراقبة الله وحده والخشوع له والانابة إليه، واعطاء زكاة الأموال من نقد وزرع وتجارة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم، وبين خشية الله

دون غيره ممن لا ينفع ولا يضر كالأصنام وسائر ما عبد من دون الله، خوفا من ضرره أو رجاء فى نعمة ..فالمراد بالخشية الدينى منها دون الغريزى كخشية أسباب الضرر الحقيقية، فإن هذا لا ينافى خشية الله ولا يقتضى خشية الطاغوت، والدليل عليه طاعة الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه رضى الناس أو سخطوا.

تلك هى حقيقة الذين يعمرون مساجد الله، وهذه هى صفاتهم التى تؤهلهم أن يكونوا من أهلها وعمارها: أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وأن لا يكون فى قلوبهم خوف إلا من الله، ولا رجاء إلا فيه، ولا متعلق إلا به فهؤلاء فى معرض الهداية والتوفيق وعلى طريق الاستقامة والتقوى بهم تعمر بيوت الله بذكر الله ذكرا خالصا من الزيغ مبرأ من الشرك.

أولئك الجامعون لهذه الخمس من أركان الإيمان والإسلام التى يلزمها سائر أركانها هم الذين يرجون بحق أو يرجى بحسب سنن الله فى أعمال البشر وتأثيرها فى الإصلاح أن يكونوا من جماعة المهتدين إلى ما يحبه الله سبحانه ويرضاه دون غيرهم من المشركين والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطى الإيمان الباطل والعمل الظاهر لا يجىء نافلة فقد حث القرآن الكريم على الخشية من الله ونبذ الخشية من سواه فى كثير من آياته، منها قوله سبحانه: «أتخشونهم؟ فالله أحق تخشوه إن كنتم مؤمنين»(٧).

«وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (٨) الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله» (٩) «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين»(١٠) «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون»(١١).

ان المسلمين اليوم يحرصون على ارضاء الناس ولو بسخط الله، ويخشون كل أحد إلا الله، ويطيعون المخلوق فى كل شىء حتى فى معصية الخالق، وهم يعلمون ويقرأون: «يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين»(١٢).

من أرضى الله بسخط الناس أرضى الله عنه كل شىء، ومن أسخط الله برضى الناس أسخط الله عليه كل شىء، السمع والطاعة حتى مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (١٣) ان أحدهم - إلا نادرا - لا يجرؤ أن يقول الحق أو يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، لماذا؟ لأن خوف المخلوق والرهبة منه ملأ قلبه وملك عليه جوارحه، فهل هؤلاء يعتبرون عمار مساجد أو يعدون منهم؟ ان عمار بيوت الله وجماهير المساجد - والمأمول بل المفروض فيهم أنهم أخلص دينا وأقوى عقيدة وأنصع إيمانا وأنقى قلوبا وأطهر ذيلا وأنظف ثيابا وأشد فى الحق شكيمة وأصلب عودا وأحسن قولا وأطيب ريحا.. هؤلاء إذا لم ينصروا الحق فمن ذا الذى ينصره، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم وقد ركبه الغرور، ويكسروا حدة الباطل وتبجحه وقد نفش ريشه، فمن ذا الذى يصنع هذا ويتولاه؟

إن هؤلاء يجب عليهم أن يسمعوا ويطيعوا الله ورسوله فى المنشط والمكره وأن ينفقوا فى

سبيل الله فى العسر واليسر، وأن يناصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأولادهم، وأن يقوموا فى الله لا تأخذهم لومة لائم، وأن لا يخشوا أحدا إلا الله.

أقول: إن النص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطى الإيمان الباطن والعمل الظاهر لا يجىء نافلة، فلابد من التجرد لله ولابد من التخلص من كل ظل للشرك فى الشعور أو السلوك، وخشية أحد غير الله لون من الشرك الخفى، ينبه عليه النص قصدا فى هذا الوضع ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله، وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله ..«فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين»..فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح، ثم يكافئ الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح.

بقيت فى الآية أمور:

أولا: العمارة تتناول بناء المساجد ورم وما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها ما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»(١٤)

ثانيا: ان قلت: هلا ذكر الإيمان برسوله الله، قلت: لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شىء واحد غى منفك أحدهما عن صاحبه، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل: طوى ذكر الرسول تنبيها على أنه واسطة، والتوجه الحقيقى من الله وإلى الله، ولهذا ورد فى الحديث:

المصلى يناجى ربه وقيل: أكتفى بذكر الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان به إنما هو متلقف من أخبار الرسول، فتضمن الإيمان بالرسول وقيل: دل عليه بذكر إقامة الصلاة وايتاء الزكاة، إذ لا يتلقى ذلك إلا منه صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: فإن قيل: كيف قال: «ولم يخش إلا الله» والمؤمن يخاف الظلمة والمفسدين ويخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ قيل: المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى أبواب الدين وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وأن لا يطيع المخلوق فى معصية الخالق، وإذا اعترضه أمران: احدهما حق الله والآخر حق نفسه أن يخاف الله فيؤثر حق الله على حق نفسه.. فالمقصود من الخشية الدينى منها دون الغريزى كخشية أسباب الضرر الحقيقية فإن هذا لا ينافى خشية الله (١٥)

رابعا: قد استشكل بعضهم بوصف عمار المساجد بإيتاء الزكاة أنه ليس من الأعمال التى تشرع فى المساجد.. وأجاب عه الفخر بقوله: واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وايتاء الزكاة فى عمارة المسجد فإنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيما للصلاة فإنه يحضر فى المسجد فتحصل عمارة المسجد به، وإذا كان مؤتيا للزكاة

فإنه يحضر فى المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به، وأما إذا حملنا العمارة على مصالح البناء فإيتاء الزكاة معتبر فى هذا الباب أيضا، لأن ايتاء الزكاة واجب وبناء المسجد نافلة، والإنسان ما لم يفرغ عن الواجب لا يشتغل بالنافلة والظاهر أن الإنسان ما لم يكن مؤديا للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد (١٦).

والذى نراه أن المراد بهذه الصفات بيان الإسلام الكامل الذى يقوم أهله بعمارة المساجد الحسية والمعنوية بالفعل، كما أنهم هم أصحاب الحق فيها، وهذه أسسه التى دعا إليها جميع رسل الله وعليها مدار النجاة وقد ذكر هنا من العمل الصالح أعظم أركانه التى كان المشركون مجردين منها واشترط فى صحة إسلامهم قبولها كلها أو ما عدا الباطن منها (٢٧) وهو الخشية .. وهى الصلاة أعظم العبادات البدنية الروحية الاجتماعية، والزكاة أعظم العبادات المالية الاجتماعية، وخشية الله وحده أعظم ثمرات الإيمان والعبادات النفسية.

والعجب كل العجب أن من الناس من يبنى مسجدا بالمال الحرام وهو لا يصلى، وإنما يبنيه رياء وسمعة، أو ليجعل فيه أوفى قبة بجانبه قبرا له يذكر به اسمه من بعده، ومنهم من يتصدق على الفقراء ويساعد الجمعيات الخيرية والعلمية بالمال الحرام ويأكل الحرام ولا يؤدى جميع ما يجب عليه من الزكاة، لأنه مراء يبتغ بإنفاقه السمعة والصيت الحسن لا مثوبة الله ومرضاته، فهؤلاء ليسوا من عمار المساجد الحقيقيين.

خامسا: فى التعبير القرآنى بكلمة «عسى» اتجاهات:

١ـ كلمة عسى تفيد الرجاء دون القطع فالرجاء هنا ما يكون للمتصفين بما ذكر من الأمل والطمع بالفعل أو الشأن فى الوصول إلى مقام المتقين الكاملين بالثبات عليها وما يترتب عليه من الثواب فالرجاء هنا راجع لى العباد ولا يصح كون الرجاء من الله فإنه هو الذى يرجى ولا يرجو، والمعنى عليه: ان الذين يأتون بهذه الطاعات إنما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداء، كقوله تعالى: «وادعوه خوفا وطمعا»(١٨)«ويدعوننا رغبا ورهبا»(١٩) فإن المرء لا يمكن أن يجزم بقبول عمله، لما يخشى على نفسه من التقصير وشوائب الرياء والسمعة، أو عدم الثبات على الطاعة حتى يموت عليها، والخير للمؤمن أن يكون بين الخوف الذى يصده عن التقصير والرجاء الذى يبعثه على التشمير، وأن يرجع الخوف فى حال الصحة والرجاء فى حال المرض ولا سيما مرض الموت ومن أراد نعيم الآخرة ولم يسع لها سعيها الذى جعله الله سببا لها فهو من الحمقى وأصحاب الأمانى، لا من أصحاب الرجاء فهو كمن أحب أن تنبت له أرضه غلة حسنة كثيرة ولم يزرعها.

٢ـ ان عسى هنا وعد من الله، وهى منه تعالى للإيجاب والقطع، وهو متعال عن الشك والتردد، منزه عن التوقع والظن، وعن الأطماع فى الشىء وأخلافه بعد تقريبه، وإنما جاء الأسلوب كذلك على عادة الأمراء والملوك.

٣ـ ان المراد تبعيد المشركين عن مواقف الاهتداء وحسم أطماعهم فى الانتفاع بأعمالهم

التى استعظموا وافتخروا بها وأمنوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا ضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع، وضموا إليها الخشية من الله، فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائرا بين عسى ولعل، فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون، ويجزمون بفوزهم بالخير من عند الله، وفيه لطف بالمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاضرار بالله تعالى، أو الاغترار بالأعمال الصالحة، فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها.

«ميزان الله هو الميزان»

هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله، وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء بينها الله للمسلمين والمشركين، فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة يسقون الحجيج فى الجاهلية، وعقيدتهم ليست خالصة لله، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد، لا يجوز أن يتساوى هؤلاء ـ لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج ـ بالذين آمنوا إيمانا صحيحا وجاهدوا فى سبيل الله وإعلاء كلمته.

«أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله، والله لا يهدى القوم الظالمين، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم»[٢٠]

قد كان بعض مشركى مكة يقومون على خدمات فى المسجد الحرام، كالسقاية للحجيج واطعام الوافدين للحج وتأمينهم وعمارة المسجد وفرشه، وغير هذا مما كانت تتقاسمه قريش بين بيوتها من أعمال البيت الحرام، فلما جاء الإسلام وحرم على المشركين الاتصال بالمسجد الحرام والقيام بأى عمل فيه أو له، وقع فى نفس هؤلاء الذين كانوا يقومون على تلك الأعمال أنهم بعد أن دخلوا الإسلام لازالوا فى حاجة إلى ما يملأ هذا الفراغ، ويذهب بذلك القلق النفسى الذى استشعروه حين زال سلطانهم الدينى على المسجد الحرام وقاصديه، فجاءت هذه الآيات تعالج ذلك الشعور، وتكمل موضوع الآيتين اللتين قبلها، وتبين أن الحق فى عمارة المسجد الحرام بنوعيها للمسلمين دون المشركين، وان إيمانهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارته وسقاية الحاج فيه وأن قام بها المسلمون أنفسهم خلافا لما توهم بعضهم فى الأعمال التى بعد الإسلام.

سبب النزول:

وقد ذكر المفسرون أحداثا متعددة فى سبب نزول هذه الآيات وإليك بعضها:

روى الفريابى عن ابن سيرين قال: قدم على بن أبى طالب مكة فقال للعباسك: أى عم، ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أعمر المسجد وأحجب البيت، فأنزل الله «أجعلتم سقاية الحاج» الآية.[٢١]

وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: قال لعباس حين أسر

يوم بدر: ان كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى (أى الاسير) فأنزل الله «أجعلتم سقاية الحاج».

وروى أبو جعفر بن جرير عن كعب القرظى قال: افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معى مفتاحه ولو أشاء بت فيه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت فى المسجد فقال على رضى الله عنه: ما أدرى ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية كلها[٢٢].

وروى الطبرى ـ بسنده ـ أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ قال للعباس ـ رضى الله عنه ـ بعد إسلامه: يا عم ألا تهاجرون؟ ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: ألست فى أفضل من الهجرة؟ أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام، فلما نزلت هذه الآية قال: ما أرانى إلا تاركا سقايتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرا»[٢٣].

وفى الرازى: وقيل إن المشركين قالوا لليهود نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام، فنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت اليهود: أنتم أفضل فنزلت.[٢٤].

فهذه الروايات فى أسباب النزول وقائع فى تفسير الآيات وإن لم تكن أسبابا، والسبب الحقيقى أنها نزلت ضمن الآيات الثلاثين أو الأربعين التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليتلوها على الناس فى موسم الحج سنة تسع.

بين من كانت المفاضلة؟

حاصل الروايات المتعددة أنه يحتمل أن تكون هذه الآية مفاضلة جرت بين المسلمين ويحتمل أنها جرت بين المسلمين والمشركين.. واحتج للأول بقوله تعالى بعد هذه الآية «أولئك أعظم درجة عند الله» وهذا يقتضى أن يكون للمرجوح أيضا درجة عند الله وذلك لا يليق إلا بالمؤمن واحتج للثانى بقوله تعالى: «كمن آمن بالله» فهذا يدل على أن هذه المفاضلة انما وقعت بين من لم يؤمن بالله وبين من آمن بالله، قال الرازى: وهذا هو الأقرب عندى، وتقرير الكلام ان العباس حين احتج على فضائل نفسه بأنه عمر المسجد الحرام وسقى الحاج، فأجاب الله عنه بوجهين: الأول ما بين فى الآية الأولى ان عمارة المسجد انما توجب الفضيلة إذا كانت صادرة عن المؤمن، أما إذا كانت صادرة عن الكافر فلا فائدة فيها ألبتة، الثانى ما بينه فى الآية التالية، وذلك بأن يقال: هب أنا سلمنا أن عمارة المسجد الحرام وسقى الحاج يوجب نوعا من أنواع الفضيلة، إلا أنه بالنسبة للإيمان بالله والجهاد قليل جدا، فكان ذكر هذه الأعمال فى مقابلة الإيمان بالله والجهاد خطأ شنيعا، لأنه يقتضى مقابلة الشىء الشريف الرفيع بالشىء الحقير التافه، وأنه باطل وبهذا يحصل النظم لهذه الآية بما قبلها [٢٥].

ورجح بعضهم أن المفاضلة كانت بين المسلمين، واستدل له بما أخرجه مسلم وأبوداود وابن

جرير وابن المنذر عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالى أن لا أعمل عملا لله بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله: «أجعلتم سقاية الحاج» - إلى قوله - «لا يهدى القوم الظالمين» (٢٦).

قال المنار بعد ذكر الروايات السابقة:

والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها فى المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجاجه - من أعمال البر البدنية الهينة المستلذة - وبين الإيمان والهجرة والجهاد (٢٧).

لكن القرطبى لم يرتض ذلك واستبعد أن تكون هذه الرواية سببها فى نزول الآية فقال: وهذا المساق يقضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال وحينئذ لا يليق أن يقال لهم فى آخر الآية «والله لا يهدى القوم الظالمين» وإزالته أن يقال: إن بعض الرواه تسامح فى قوله، فأنزل الله الآية، وإنما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم الآية على عمر حين سأله، فظن الراوى أنها نزلت حينئذ واستدل بها النبى صلى الله عليه وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت فى هؤلاء.

فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل فى الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة .. قيل له: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله فى المشركين أحكام تليق بالمسلمين، وقال عمر: أنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتوضع صحفة وترفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى: «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» وهذه الآية نص فى الكفار، ومع ذلك ففهم منها عصر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع.(٢٨)

ورواية النعمان وان كانت أصح سندا فإن الروايات الدالة على أن التفاضل كان بين المسلمين والمشركين أكثر وأشهر، ولما أوضح القرطبى من توجيه لهذه الرواية، ولأن النعمان كانت سنه أصغر من أن تعى مثل هذه التفاصيل الدقيقة (٢٩) فقد ولد بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولما ذكره الرازى من الدليلين السابقين، ولما يظهر فى هذه الآية لأول وهلة من موازنة بين تلك الأعمال التى كان يعدها المشركون من القربات، وبين الإيمان الذى عمر قلوب المسلمين ووصلهم بالله رب العالمين.

وفى هذه الموازنة تبدو تلك الأعمال التى كانوا يعملونها وهم متمسكون بالشرك: تبدو

ضئيلة تافهة لا وزن لها، إلى جانب العقيدة الحقة وما يملأ كيان المؤمن من الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله.. «لا يستوون عند الله».

وفى هذه الموازنة بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وبين من آمن بالله واليوم الآخر ما يسأل عنه: وهو لماذا جاءت الموازنة بين أعمال هى السقاية والعمارة وبين أشخاص هم المؤمنون بالله واليوم الآخر؟ وكيف تقوم موازنة بين أعمال وأشخاص؟! إن المقصود هو أن تقوم الموازنة بين أعمال وأعمال أو بين أشخاص وأشخاص.. حتى يمكن أن يعرف الفاضل والمفضول والطيب والخبيث بالنظر فى المتجانسين والموازنة بينهما، فكيف هذا؟ والجواب - والله أعلم - أن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يؤدون تلك الأعمال ويحسبون أنها قربات عند الله وأنها تجعل لهم شأنا وذكرا عنده هى أشياء لا حساب لها فى ميزان الأعمال عند الله، إذا كانت غير مستندة إلى إيمان، ولم يكن الذين يأتونها بالمؤمنين بالله.. والحديث عن هذه الأعمال دون الحدث عن أصحابها يشير إلى أن أصحابها لا معتبر لهم فى ميزان الله ماداموا على غير الإيمان، وعلى هذا التقدير جاء النظم القرآنى بأعمالهم ولم يجئ بهم، إذ كانت الأعمال فى ظاهرها حسنة طيبة، ولكنها لا تعود بثمرة عليهم، ولا تضاف لحسابهم..

أما الآخرون فإنهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر وبجهادهم فى سبيل الله أصبحوا هم الصورة الكاملة للإنسان الكامل، الذى ينظر إليه وإلى أعماله كأصل أصيل فى تقويم الناس وأعمال الناس، ومن قبل ذلك فإن لهم اعتبارا ووزنا فى ميزان الله وتقديره.. وميزان الله هو الميزان، وتقديره هو التقدير.

«والله لا يهدى القوم الظالمين» المشركين الذين لا يدينون دين الحق، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجيج.. انهم ظلموا أنفسهم إذ لم يطهروها من الرجس والشرك، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه موضعا لعبادة الأوثان، والله خلقه ليكون موضعا لعبادته، وظلموا هذه الأعمال إذ لم يذكوها بالإيمان بالله وبما جاء به الرسول.. فأى مزية تبقى مع هذه الجرائم لخدمة حجارته واحتكار مفتاحه، وسقاية المشركين من حجاجه؟ وأى ظلم أشد من هذا الظلم فى موضوعه، وأشنع من وضع أخس الموجودات وهو الأصنام مقام أشرفها وهو تعظيم الله سبحانه.. وإنما لم يهدهم الله لأنه ليس من سنته تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يكون الظالم مهديا إلى الحق والعدل ولعدم قابلية الخير الواقع فى استعدادهم الفطرى، وذلك لكونهم مظاهر القهر.. والقوم الظالمون أشد إسرافا فى الظلم من الأفراد، وأبعد عن الهدى بغرورهم بقوتهم وتناصرهم، وذكر فى المؤمنين إثبات الهداية لهم بقوله: «فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» وفى المشركين هنا نفى الهداية عنهم بقوله: «والله لا يهدى القوم الظالمين» وهذه الجملة ظاهرة فى الرد على المشركين وابطال تبجهم وفخرهم على المؤمنين.

العمل الحقيقى وجزاؤه الحسن

ولما كان نفى استواء الفريقين، ونفى اهتداء الظالمين إلى الحكم الصحيح فى موضوع المفاضلة بينهما - وان اقتضيا بمعونة السياق تفضيل فريق المؤمنين المجاهدين على فريق

السدنة والسقائين - لا يعرف منهما كنه هذا الفضل ولا درجة أهله عند الله تعالى، وكان ذلك ما يستشرف له التالى والسامع بينه تبارك اسمه بيانا مستأنفا يتضمن الرد على المتنازعين فى أمر المفاضلة، منهيا هذا الخلاف بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين وما ينتظرهم من رحمة ورضوان ومن نعيم مقيم وأجر عظيم.. «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله».

هذا عرض لمنازل المؤمنين فيما بينهم بعد أن ميز الإيمان بينهم وبين المشركين وجعلهم جميعا فى مقام كريم عند الله، يتقبل أعمالهم الطيبة ويتجاوز عن سيئاتهم، على حين لا يقبل من غير المؤمنين عملا ولو كان مما يدخل فى باب الطيبات الصالحات من الأعمال.. والمؤمنون الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله من الذين آمنوا وجاهدوا ولم يهاجروا، والذين آمنوا وجاهدوا أعظم درجة عند الله من الذين آمنوا ولم يجاهدوا، وهكذا يتفاوت المؤمنون فى منازلهم ودرجاتهم عند الله، وأعلى درجة عند الله للمؤمنين هى درجة المهاجرين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، إذ قد اجتمع لهم الإيمان والهجرة والجهاد.

وبهذا البيان يكون أفعل التفضيل هنا فى قوله: «أعظم درجة عند الله» على بابه لأن التفضيل حينئذ واقع بين المؤمنين فيما بينهم، أما إذا كان بين المؤمنين والمشركين فأفعل التفضيل ليس على وجهه، فهو لا يعنى أن للآخرين درجة أقل، إنما هو التفضيل المطلق، فالآخرون «حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون» فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى درجة ولا فى نعيم وأى مناسبة بين هذه الدرجة وبين الإقدام على السقاية والعمارة.

لمجرد الاقتداء بالآباء والأسلاف، ولطلب الرياسة والسمعة، ويرى بعضهم أن أفعل التفضيل على بابه حتى ولو كانت المفاضلة بين المؤمنين والمشركين، والمعنى: أن المؤمنين المهاجرين المجاهدين أعظم درجة وأعلى مقاما فى الفضل والكمال فى حكم الله، وأكبر مثوبة فى جوار الله من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم أفضل القربات بعد هداية الإسلام ومن غيرهم من أهل البر بالصلاح، والذين لم ينالوا فضل الهجرة والجهاد، يدل على هذا العموم فى التفضيل عدم ذكر المفضل عليه.

فإن قيل: ان هذا التفسير يدل على أن ما يفتخر به المشركون على المؤمنين من السقاية والعمارة له درجة عند الله تعالى، ولكن درجة الإيمان والهجرة والجهاد أعظم.. وبعبارة أخرى فإنه يوجب أن يكون للمفضول درجة، والكافر ليس له درجة.. قلنا: لا مراء فى كون هذين العملين من أعمال البر التى يكون لصاحبها درجة عند الله تعالى إذا فعلا كما يرضى الله، ولذلك أقرهما الإسلام دون غيرهما من وظائف الجاهليين، ولكن الشرك بالله تعالى يحبطهما ويحبط غيرهما من أعمال البر التى كانوا يفعلونها، (٣٠) وأولئك «الموصوفون بالإيمان بالهجرة والجهاد» هم الفائزون، بمثوبة الله الفضلى وكرامته العليا المبنية فى الآية التالية، دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث وأن سقى الحاج وعمر المسجد الحرام.. فثواب المؤمن على هذين العملين

دون ثوابه على الهجرة والجهاد المذكورين، ولا ثواب للكافر عليهما فى الآخرة، فإن الكفر بالله ورسله وباليوم الآخر يحبط أمثال هذه الأعمال البدنية وإن فرض فيها حسن النية، وقلما يفعلها الكافر إلا لأجل الرياء والسمعة.

وها هنا نستشرف النفس لمعرفة هذا الفوز المجمل، فبينه تعالى بقوله «يبشرهم ربهم» فى كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل، ثم على لسان ملائكته عند الموت.. وأسند التبشير إلى «ربهم» لما فى ذلك من الاحسان إليهم بأن مالك أمرهم والناظر فى مصالحهم هو الذى يبشرهم، وذلك على تحقيق عبوديتهم لربهم وكأنه يقول لهم: إن الذى رباكم فى الدنيا بالنعم التى لا حد لها يبشركم بخيرات دائمة وسعادات باقية لا حصر لها[٣١] ولما كانت الأوصاف التى تحلوا بها وصاروا بها عبيده حقيقة هى ثلاثة:

الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس قوبلوا فى التبشير بثلاثة: الرحمة والرضوان والجنات[٣٢].

«برحمة منه» رحمة عظيمة خاصة من لدنه عز وجل.. ورضوان.. نوع من الرضى التام الكامل الذى لا يشوبه ولا يعقبه سخط.. وجنات.. تجرى من تحتها الأنهار فى دار الكرامة وجوار الرحمن.. «لهم فيها نعيم مقيم» عظيم خاص بهم دون من لم يؤمن ولم يهاجر هجرتهم ولم يجاهد جهادهم.. مقيم دائم لا يزول على عظمة وكماله [٣٣].. «خالدين فيها أبدا» مقيمين فى تلك الجنات إقامة دائمة أبدية.. «إن الله عنده أجر عظيم».. لأن ما عند الله تعالى من الأجر على الإيمان والعمل الصالح - وأعظمه وأنفعه وأشقه الهجرة والجهاد - عظيم جدا لا يقدر قدره، جل جلاله وعم نواله، وناهيك بالإيمان الكامل الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل والسكن والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس لإحقاق الحق وابطال الباطل، وترقية شئون البشر فى مدارج العلم والعمل ومن العلوم أن هذه الجهاد يشمل القتال والنفقة فيه وغيرها من أنواع مجاهدة الكفار ومجاهدة النفس لابلاغها مقام الكمال.. وناهيك بإنفاق المال الذى هو مناط وغائب الدنيا ونعيمها، وبذل النفس التى هى العلة الغائية للبشر من وجودهم.. جهادا فى سبيل الله، وهى الطريق التى شرعها، والسنن التى سنها لإعلاء كلمته، ونصر رسوله وإقامة ما شرعه من الحق والعدل لعباده.

فلا غرو أن يبشرهم بجميع أنواع الأجر والجزاء الروحية والجسدية، فالأجر الروحانى قسمان: عبر عنهما بالرحمة والرضوان، وهما رتبتان أو درجتان، نكرهما للدالة على التنويع والتعظيم الذى نطقت به الآية الثانية، فهذه الرحمة الخاصة تشمل، ما يخصهم به من العطف والإحسان فى الدنيا والآخرة مما هو فوق رحمته العامة لكل الخلق، التى وسعت لك شيء، وأما الرضوان - وهو الاسم لكمال الرضاء - فهو فوق نعيم الجنة كله، فإن الله يرحم من رضى عنه ومن لم يرضى عنه، وإن كانت رحمته لمن رضى عنه أعلى وأعظم.

والدليل على أن هذا الرضوان أعلى النعيم وأكمل الجزاء، وأن يكون فى الجنة أكبر نعيمها قوله تعالى: «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن

طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» فهذه الآية أبلغ فى تعظيم شأن الرضوان الإلهى فى الجنة من آية هذا السياق ومن آية آل عمران التى أنزلت قبلهما «قل أونبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد»(٣٤).

ويؤيد أن رضوان الله فى الجنة فوق نعيمها كله ما رواه الطبرى - بسنده - عن جابر بن عبد الله قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله سبحانه: أعطيكم أفضل من هذا! يقولون: ربنا أى شىء أفضل من هذا؟ قال: رضوانى» وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك يارب؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

تجريد المشاعر والصلات للعقيدة

لما أعلن الله تعالى براءته وبراءة رسوله من المشركين وآذنهم بنبذ عهودهم، وعود حالة الحرب بينهم وبين المؤمنين كما كانت، بعد أن ثبت بالتجربة أنهم لا عهود لهم يوفى بها ولا أيمان يبرونها بل يعقدونها عند الخوف، وينقضونها عند الشعور بالقدرة على الفتك.

عز ذلك على بعض المسلمين، وفتح به باب لدسائس المنافقين وتبرم ضعفاء الإيمان وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان هو السبب لما تقدر من تكرار الأمر بقتال المصرين على الشرك، الناكثين للإيمان وتأكيده وقامت الدلائل على وجوبه، وكونه مقتضى الحق والعدل والمصلحة.

وإنما كان موضع الضعف من بعض المسلمين فى ذلك نعرة القرابة، ورحمة الرحم، وبقية عصبية النسب، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولو قربى من المشركين يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم ويرجونه إذا تركوا وشأنهم، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان منهم بطانة ووليجة منهم.

فبعد أن بين الله تعالى لهم ما تقدم، وقفى عليه بفضل الإيمان والهجرة والجهاد، وحبوط أعمال المشركين حتى ما كان منها خيرا فى نفسه كسقاية الحاج والعمارة الصورية للمسجد الحرام - بعد هذا - بين لهم أن ما ذكر من فضل الإيمان والهجرة والجهاد، وما بشر الله به أهله من رحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، لا يتم إلا بترك ولاية الكافرين، وإيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن وفى هذا الإطار يمضى السياق فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة، وتمحيصها لله ولدين الله، فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ويجمع كل لذائذ البشر، وكل وشائج الحياة فيضمها فى كفة، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى، ويدع للمسلمين الخيار.. «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون.

قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين»[٢٥].

لا يتخذ أحد منكم أحدا من أب أو أخ وليا له ينصره فى القتال أو يظاهر من أجله الكفار بأن يتخذه بطانة ووليجة يخبره بأسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين، كما فى قوله تعالى: «أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) كما علم من شأنهم منذ ظهر الإسلام إلى نزول هذه السورة بعد فتح مكة ولاسيما جموعهم فى حنين.. وقد علم من قبل فتحها أن خاطب ابن أبى بلتعة . وهو من أهل بدر - قد استخفته نعرة القرابة، فكتب إلى مشركى مكة سرا يعلمهم فيه بما عزم عليه النبى صلى الله عليه وسلم من قتالهم، ليتخذ له بذلك يدا عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة، وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة فى نهى المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم وعن موادتهم، وقيل: إن هذه الآية نزلت فى قصته وقيل فيما تقدم من امتناع العباس من الهجرة لما دعى إليها وقيل: فى كل من ثقلت عليه الهجرة عندما دعوا إليها، ولا يصح من ذلك شىء وقيل: فى الذين شكوا مما أوجبته هذه السورة من البراءة من المشركين وتحدثوا باستنكاره: والصواب ما تقدم من نزولها مع ما قبلها وما بعدها، وانهم استثقلوا ذلك، ولم يصح أنهم شكوا منه.لقد فرق الإيمان بالله بين المومنين والمشركين، وجعل ولاء المؤمنين للمؤمنين عامة أيا كان لونهم وجنسهم، وأيا كانت درجة القرابة فى النسب بينهم وبينه على حين قطع ولاءه لأهله وأقرب المقربين إليه، إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسول الله.

وقبل فتح مكة كان المهاجرون بعضا من أهليهم المشركين فى مكة .. فمنهم من آمن وهاجر وترك وراءه أبا أو أما أو أخوة مازالوا على شركهم، ومازالت علائق القرابة تشده إليهم وتذكره بهم، وتبعث أشواقه وحنينه إليهم.. ثم بعد فتح مكة دخل الناس فى دين الله أفواجا، وأسلم أهل مكة ومن حولهم ولكن لم يكن كثير منهم مؤمنا بقلبه مطمئنا إلى الدين الجديد الذى دخل فيه بل لقد ظل بعضهم يحمل الحقد والعداوة للإسلام، الأمر الذى دعا الرسول الكريم إلى أن يتألفهم.

ولهذا جاءت هذه الآية منبهة المسلمين إلى ما قد يدخل عليهم من مشاعر القرابة نحو أهليهم الذين خلفوهم وراءهم من المشركين.. تلك المشاعر التى قد تبلغ حد الجور على حق المسلمين على المسلم من إخاء وموالاة.

وفى الآية الكريمة أمران نحب أن نقف عندهما: أولاهما - أن النهى ورد مقصورا على الآباء والإخوان، ولم يذكر غيرهم من ذوى القربى وخاصة الأبناء الذين هم أقرب قرابة من كل قريب.. فلم هذا، وما حكمته؟

والجواب على هذا - والله أعلم - أن المخاطبين بهذه الآية هم المهاجرون والأنصار الذين سبقوا إلى الإسلام وخلفوا وراءهم أهلا وعشيرة .. وهؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام، من المهاجرين والأنصار - لم يتخلف وراءهم إلا آباؤهم وإخوانهم، إذ أبى الآباء أن يتابعوا أبناءهم

أنفة وكبرا، كما أبى الإخوة أن ينقادوا للسابقين من اخوانهم حمية وحسدا.. أما الأبناء فقل منهم من أسلم آباؤهم ثم لم يتابعوهم وبقوا أثرهم، فلما دخل هؤلاء الصورة التى كان عليها المؤمنون يومئذ هى أن كثيرا منهم دخل فى الإسلام تاركا وراءه أبويه وإخوته أو أحد أبويه وبعض إخوته وقليل منهم من دخل فى الإسلام ولم يدخل معه أبناؤه.. ومن أجل هذا كان النبى عن موالاة هؤلاء الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.. كان النبى متجها إلى هؤلاء الآباء والأخوة دون الأبناء الذين كانوا - بصفة عامة - مع آبائهم، وفى هذا إشارة إلى أن الشباب أقرب من الشيوخ استجابة للدعوات الجديدة والتجاوب معها حيث كان السابقون إلى الإسلام من الشبان غالبا ويؤيد ذلك قوله تعالى: «فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه»[٢٦].

وثانى الأمرين أن النهى لم يتناول المشاعر والأحاسيس التى يجدها المسلمون نحو آبائهم واخوانهم المشركين، وإنما جاء واقعا على الولاء والايثار وتغليب مصلحتهم على مصالح المؤمنين، فهذا هو الذى نهى عنه الإسلام، وذلك أن النهى عن المشاعر والأحاسيس أمر لا تحتمله كل النفوس وإن كان يحتمله البعض فإن ذلك لم يكن إلا عن مشقة ومعاناة وحرج، الأمر الذى برئت منه الشريعة الإسلامية السمحة.

وكأن الشأن والحال لما أمر القرآن المؤمنين بالتبرى من المشركين وبالغ فى ايجابه قالوا: كيف تمكن المقاطعة التامة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه، فذكر أن الانقطاع عن الآباء والاخوان واجب بسبب الكفر «ان استحبوا الكفر على الإيمان» ولما نهى عن مخالطتهم، وكان النهى يحتمل أن يكون نهى تنزيه وأن يكون نهى تحريم ذكر ما يزيل الشبهة. (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون)..

والظالمون هنا تعنى المشركين، فولاية الأهل والقوم - ان استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان، لأنه رضا بالشرك والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق.

قال القاضى: «هذا النهى لا يمنع من أن يتبرأ المرء من أبيه فى الدنيا، كما لا يمنع من قضاء دين الكافر ومن استعماله فى أعماله»[٢٧].

ثم جاءت الآية الثانية تقريرا للجواب الذى ذكر فى الآية الأولى، وذلك لأن جماعة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، كيف يمكن البراءة منهم بالكلية، وان هذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا واخواننا وعشيرتنا، وذهاب تجارتنا وهلاك أموالنا وخراب ديارنا ولقاءنا ضائعين، فبين أنه يجب تحمل هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما قويا نظيفا من الشوائب.

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموهما وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره».

وفى هذه الآية وضع للمسلمين فى مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم، واختيار ما يحبون وما يؤثرون، فالإيمان فى جانب، والآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشير والأموال والتجارة والديار فى جانب آخر، وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله وبين أهله وماله ودياره، والاختيار هنا يمكن أن يجربه الإنسان بينه وبين نفسه حتى يورد على

مشاعره هذين الطرفين المتنازعين فى كيانه، وأن يستعرضهما واحدا بعد الآخر، وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما فأيهما يؤثر أن يمسك به ويعيش معه؟ فإذا آثار الإيمان على الولد والأهل والمال والوطن كان على الصفة التى يتحقق بها الإيمان الذى يقبله الله منه ويرضاه له، وإن كان العكس وآثر الولد والأهل والمال والوطن على الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله والولاد للمؤمنين فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام منه إلى الجبهة الموالية له «والمرء مع من أحب» بقى فى الآية أمور يجب الوقوف عندها:

أولا: ان الآية قد انتظمت كل ما تتعلق به النفوس وتحرص عليه، وليس وراءه من أمور الدنيا ما يطلبه الإنسان ويعلق به، وقد جعلها النظم فى أمور أربعة:

١. مخالطة الأقارب، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل، وهم الآباء والأبناء والاخوان والأزواج، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل وهو لفظ العشيرة.

٢. الميل إلى امساك الأموال المكتسبة.

٣. الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة.

٤. الرغبة فى الحصول على مسكن مرضٍ.

ثانيا: ان هذه الأمور قد جاءت فى النظم القرآنى مرتبة الدرجات: الأهم فالمهم فما هو دونه، ولاشك أن هذا ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الصارفة عن حب الله ورسوله حب الأقرباء والانشغال بهمه فى تكاليف العقيدة ثم انه يترتب على ذلك الحب والانشغاال الحرص على ابقاء الأموال الحاصلة، ثم على اكتساب الأموال التى هى غير حاصلة، وفى آخر المراتب الرغبة فى تشييد القصور والعمارات لأجل السكنى، فذكرت هذه الأشياء على هذا التنسيق البديع، وهذا ما يجعل المؤمن أمام تجربة ذات شعب وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون البعض، أو يؤثرها جميعا عليه، أو يؤثر إيمانه عليها جميعا.. كما أن هذه التجربة تنظم المسلمين جميعا لا يكاد واحد منهم يفلت من الدخول فيها، فمن لم يكن له أب كان له ولد ومن لم يكن له ولد ولا والد كان له زوج، ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له موطن يحن إليه ودار يرنو ببصره إليها.

ثالثا: وجه الله الخطاب فى النهى عن الجريمة الكبرى - وهى ولاية الكافرين المعادين لله ورسوله - إلى المؤمنين بعنوانهم مباشرة، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم فى أمر الجريمة الثانية والوعيد عليهما على فرض وقوعها منهم، ولم يشأ أن يعطف هذا على ما قبله، فيكون خطابا منه بعنوان صفة الإيمان المنافى لمضمونه، ولذلك عبر عنه بأداة الشرط التى من شأن شرطها أن يكون مشكوكا فى وقوعه، أو من شأنه أن لا يقع.

رابعا: وفى وصف الأموال بأنها أموال مقترفة اشارة إلى أن المال غاد ورائح، وأنه أشبه بالمنكر إذ كان أكثر ما يجىء المال من حصيلة الصراع بين الناس بعضهم مع بعض وفى قوله تعالى: «وتجارة تخشون كسادها» إشارة إلى ما قد يصيب السوق التجارية من كساد حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشركين فى حال الحرب وقد كان بعض المسلمين من أهل مكة تجارا

كما ورد، وكان لدى بعضهم شيء من عروض التجارة يخشى كساده فى أوقات الحرب، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين وكانت أسواقها تنصب فى أيام موسم الحج، وقد منع منه المشركون وكذلك ما كان لبعض المسلمين فى مكة، والمدينة من الدور الحسنة التى كانوا يرضونها للإقامة والسكنى بما فيها من المرافق وأسباب الراحة، ويكونون فى مدة خروجهم للجهاد محرومين منها، وما كان لبعض آخر فى مكة من مساكن يعدونها للاستغلال فى أيام الموسم، إذ يظهر من طبيعة الأحوال أن ذلك قديم، وهذا النوع يكون معطلا بمنع المشركين من الحج.

خامسا: وفى قوله «فتربصوا» تهديد ووعيد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية على الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله، والتربص: الانتظار، ووراء هذا الانتظار ما يسوء أولئك الذين آثروا العاجلة على الآجلة، ويسر أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نصر الله للمؤمنين وما فتح عليهم به من مغانم فى الدنيا، وفى الآخرة رضوان وجنات ونعيم مقيم.

وهكذا فى كلمات معدودة تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامى، وتتقلب القلوب، ويدور الصراع فى كيان كل مسلم، ثم تنجلى المعركة بعد صراع طويل أو قصير عن سلام وعافية أوشك وتردد.. ثم يجىء قوله تعالى: «والله لا يهدى القوم الفاسقين» الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين وتقديم محبة من ذكر على محبة الله ورسوله، أو الذين دخلوا فى دين الله ثم مال بهم الطريق ما لايرضى الله.. وقد كان من سنة الله تعالى فى القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفته، ان يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التى يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من أتباعه، فيؤثرون حسب القرابة والمنفعة العارضة على حسب الله ورسوله والجهاد المفروض فى سبيله.. يجىء تعقيبا على هذا الصراع، ممسكا بهؤلاء الشاكين المترددين لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد، فإما إلى اليمين وإما إلى اليسار، ولله فى هؤلاء المترددين الشاكين الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذى وقفوه.. لله فيهم أعداء لم يرد الله أن يهديهم ولا أن يمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان.. فليحذر كل إنسان من هؤلاء أن يكون فيمن خذله الله وجعله من أعدائه.

سادسا: «أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله»

أما حب الله تعالى - أى حب عبده له - فهو الذى يجب أن يكون فوق كل حب لأنه سبحانه وتعالى هو المتصف وحده بكل ما من شأنه أن يحب من جمال وكمال وبر وإحسان، وكل من يحب وما يحب فى الوجود فهو من صنعه وفيض وجوده واحسانه، وظهر أسمائه الحسنى وصفاته، فمن الطبيعى المعقول أن يكون حب الوالد للولد، وبما يتضمنه من عطف وأمل، شعبة من حبه واهبة، ومودع العطف والرحمة فى قلب والديه له، وأن يكون حب الولد لوالده ومربيه عندما يعقل جزءا من حب ربه الذى سخره له، ومسافة بغريزة الفطرة وحكم الشريعة لتربيته

وهو عز وجل رب كل شيء، المربى الحق لكل حى، بسننه فى الغرائز والقوى والأخلاق، وما يترتب عليها من الأعمال، وهو جل ثناؤه الخلف والعوض من كل والد ليتيمه، ومن كل ولد لأبيه وأمه، ومن الطبيعى المعقول أن يكون حب الأخ لأخيه كذلك بالأولى، وكذلك حب الزوج للزوج لا يشذ عن هذه القاعدة فهو الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى، وهو الذى أودع المحبة الزوجية فى الأنفس، ولم يخصها لفرد معين (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[٣٨] وحب العشيرة أحق وأولى بالدخول فى عمومها، فإن الباعث عليه التعاون والتناصر بوشيجة القرابة وقد حل محلها فى الإسلام ما هو أقوى وأعظم، وهو تناصر أهل الملة الكبيرة بمقتضى أحكام الشريعة، والله ولى المؤمنين ونصيرهم بوجه أخص: «وما النصر إلا من عند الله» بالوجه الأعم.

وكذلك الأموال بجميع أنواعها، ومنها عروض التجارة التى يرجى رواجها ويخشى كسادها. كلها من جوده وعطائه وتسخيره. وحبها يجب أن يكون دون حبه بل هو دون ما تقدمه من الحب وان فتن به أكثر الماديين، وكثير من الذين حرموا تهذيب الدين فصارت أموالهم من أسباب شقائهم فى دنياهم، حتى إن منهم من يبخل بها عن نفسه وأهله وولده.

والمساكن دون الأموال لأن صاحب المال يمكنه أن يبنى منها مثل ما يفقده أو خيرا منه. وقد أغنى الله المؤمنين الصادقين عن كل ما فقدوا أو خافوا أن يفقدوا بنبذ عهود المشركين وعودة حال الحروب بينهما، وكذبه وهم ضعفاء الإيمان، وايهام المنافقين لهم بأن الجهاد فى سبيل الله سبب الكساد والخسران، وصدق وعد الله للمؤمنين باستخلافه اياهم فى الأرض وتمكينهم فيها وجعلهم أغنى أهلها ماداموا مهتدين به، كما وعدهم فى قوله «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض»[٣٩] ولو عادوا إلى تلك الهداية لعادت إليهم تلك الخلافة.

وأن فوق جميع هذه الأنواع من حبه تعالى لفضله واحسانه بالإيجاد والامداد فى الدنيا وتسخير قواها ومنافعها للناس. وحبه لما وعد به مما يشبهه ولكنه يعلوه ويفوقه من الثواب فى الدار الآخرة، نوعا آخر هو حب العبادة المحضة والمعرفة العليا.[٤٠].

وأما حب رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فهو دون حبه عز وجل، وفوق حب تلك الأصناف الثمانية وغيرها ممن يحب من الخلق كالعلماء العاملين والمرشدين المربين والفنانين المتقنين، والزعماء السياسيين، والأغنياء المحسنين فإنه صلى الله عليه وسلم كان المثل البشرى الأعلى، والأسوة الحسنة المثلى، فى أخلاقه وآدابه وفضائله، وفواضله وسياسته ورياسته وسائر هديه، قد خصه الله بجعله خاتم النبين وإرساله رحمة للعالمين، وجعل اتباعه هو الدليل على حب متبعه لله عز وجل، وجعل جزاءه عنده حبه تعالى لمتبعه ومغفرته لجميع ذنوبه، وذلك نص آية: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم)[٤١].

وقد عطف عليهما الجهاد فى سبيله منكرا لأنه أظهر آياتهما ونكته تنكيره وابهامه افادة أن كل نوع من أنواع الجهاد فى سبيل الله قل أو كثر فإن تركه لأجل حب شيء من تلك الأصناف

الثمانية وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذى فى الآية والجهاد أنواع ترجع إلى جنسين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس والقتال نوع من أنواع الجنس الثانى ومنها أنواع أخرى علمية وعملية فمهندس الحرب الحق العادلة مجاهد فى سبيل الله، وواضع الرسوم لمواطنها وطرقها كذلك.. إلخ.

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فلا ريب أن من كان ما ذكر الأصناف الثمانية كليا أو بعضها أحب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فهو غير تابع الإيمان أو غير صحيحه.(٤٢)

سابعا: هذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ومن جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح أمر الدين على الدنيا، والحق أن الآية أشد آية نعت على الناس الا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه الله بلطفه.. «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله، حتى يحب فى الله أبعد الناس، ويبغض فى الله أقرب الناس»(٤٣).

ان هذه العقيدة لا تحتمل لها فى القلب شريكا، فإما تجرد لها، واما انسلاخ منها وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والمتاع واللذة، ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة.. كلا، إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ويخلص لها الحب، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة وهى المحركة والدافعة، فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ ان يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة، على أن يكون مستعدا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والأخوة وبالزوج والعشيرة، ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن، ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق - فى غير سرف ولا مخيلة بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب، باعتباره لونا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة فى الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة فى الله، فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها فى كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها).. وفى الكفة الأخرى، حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله.

الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته.. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من

تضييق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد. وهو بعد هذا كله. «الجهاد فى سبيل الله» مجردا من الصيت والذكر والظهور، مجردا من المباهاة والفخر والخيلاء، مجردا من إحساس أهل الأرض به واشارتهم إليه، واشارتهم بصاحبه، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب.

إلا أنها لشاقة، ألا وانها لكبيرة، ولكنها هى ذاك، والا: «فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والا لتعرضوا لمصير الفاسقين» و«الله لا يهدى القوم الفاسقين».

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة ترتفع على مقتضيات العقيدة فى الله، ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله.

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف الا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه. فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها. وانه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعد لها لذائذ الأرض كلها.. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء فى رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والخلاص من ثقله اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضىء، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك.

«توثيق الصلة بالله هو عدة النصر»

ثم لمسة للمشاعر بالذكرى، وباستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب.. المواطن التى نصرهم الله فيها ولم تكن لهم قوة ولا عدة يوم حنين الذى هزموا فيه بكثرتهم ثم نصرهم الله بقوته، يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد، ليعلم المؤمنون أن التجرد لله وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد، وحين يخذلهم المال والاخوان والأولاد.

«لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين[٤٤] وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».

ان التجربة التى وضع المسلمون بإزائها فى الآية السابقة هى تجربة قاسية تعالج منها النفوس الشىء الكثير من الضيق والألم، ويشق على القلوب احتمالها. إلا من عصم الله من عباده المؤمنين. حيث ذكرت الآية وجوب الأعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والاخوان والعشائر، وعن الأموال والتجارات والمساكن، رعاية لمصالح الدين، ولهذا جاءت هذه الآيات مذكرة المسلمين بعظمة الله وقدرته وفضله على المؤمنين من عباده، وفى هذا ما يخف به

ميزان كل شيء يتعلق به الإنسان من أهل مال وموطن، وبذلك يشتد عزم المؤمن ويقوى يقينه. ويجد القدرة من نفسه على أن يجلى عنها كل ما يطوف حول إيمانه بالله ورسوله والجهاد فى سبيله من دواعى الوهن والضعف حين تطلع عليه الذكريات لأهله وماله ووطنه.

جاءت هذه الآيات ذاكرة ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضا، وضربت لذلك مثلا بغزوة حنين، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه.. فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء إلخ، لأجل مصلحة الدين، وتصبيرا لهم عليها ووعدا لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله موصلهم إلى أقاربهم وأموالهم ومساكنهم على أحسن الأحوال.

لقد أيد الله المؤمنين وأمدهم بنصره ـ ومن نصره الله فلا غالب له ـ فى مواطن كثيرة فى بدر والخندق وفتح مكة، وفى حربهم مع اليهود فى قريظة وخيبر وغيرها ولقد كان نصر الله لهم فى هذه المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة.

فأما يوم حنين [٤٥] فقد كان المسلمون فى عدد عديد وعدة ظاهرة، حتى لقد قال قائلهم انا لن نغلب اليوم عن قلة ومع هذا فإنهم ما كادوا يلتقون بعدوهم حتى هزموا وانكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم للعدو، ولم يثبت معه إلا نفر قليل من المؤمنين.

هذه هى المعركة التى اجتمع فيها للمسلمين ـ للمرة الأولى ـ جيش عدته اثنا عشر ألفا بين راجل وفارس، فأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه، ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتصقت به.

والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية، وانفعالاتها الشعورية.. «إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين».

فمن انفعال الإعجاب بالكثرة إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج، حتى لكأنهم لشدة ما لحقهم من الخوف لم يعودوا يجدون فى الأرض موضعا يصلح لفرارهم من عدوهم، وحتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشتد عليهم إلى حركة الهزيمة الحسية وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب والذى كان يرصد المعركة فى تلك اللحظة ما كان يشك أبدا فى أن الدائرة على المسلمين، وأن الهزيمة واقعة بهم لا محالة لقد تبدد جيش المسلمين، وتناثرت جموعهم، وذهبت ريحهم، وما كان لقوة فى الأرض أن تجمع هذا الكيان الممزق، وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد.. ولكن امداد السماء ونفحات الحق جاءت فى وقتها فأحالت الهزيمة نصرا حاسما، وكانت تلك النفحات وذلك الامداد يتمثل فى أمور ثلاثة:

١) «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الانفعالات الثائرة.

٢) «وأنزل جنودا لم تروها» وهم الملائكة واختلفوا: هل قاتلوا ذلك اليوم؟ قيل: قاتلوا، وقيل: ان الملائكة ما قاتلوا إلا يوم بدر، وأما فائدة نزولهم فى هذا اليوم فهو القاء الخواطر الحسنة فى قلوب المؤمنين.. عن سعيد بن السيب قال: حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين، قال: لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم، فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا: شاهت الوجوه، ارجعوا، فرجعنا فركبوا أكتافنا[٤٦].

والحق فى هذا أن يقال: إن الملائكة لم تقاتل لا يوم بدر ولا يوم حنين، وإنما نزلت حين نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين والقاء الخواطر الحسنة فى نفوسهم، والدليل على ذلك أسلوب القصر الوارد فى الآيتين المعقبتين على غزوة بدر: «وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم»[٤٧] «وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم[٤٨]، كذلك يؤيده قوله تعالى: «ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضهم ببعض [٤٩] ثم اننا لا نعلم ماهية الجنود وطبيعتها «وما يعلم جنود ربك إلا هو»[٥٠].

٣. «وعذب الذين كفروا» بالقتل والأسر والسلب والهزيمة، وذلك «التعذيب» جزاء الكافرين «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».. فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب.. وهو استدعاء لمن خذلتهم عزائمهم وتخلى عنهم السداد والتوفيق، فمالوا إلى جانب الظالمين، فهؤلاء لا يزال الطريق إلى الله مفتوحا لهم، ومازالت مغفرة الله ورحمته تنتظرهم على أول الطريق ان هم راجعوا أنفسهم ونزعوا عما هم فيه من تردد وارتياب.

ان معركة حنين التى يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية.. حقيقة القوى التى تعتمد عليها كل عقيدة.. ان الكثرة العددية ليست بشىء، إنما هى القلة العارفة المتصلة الثابتة، المتجردة للعقيدة .. وان الكثرة لتكون أحيانا سببا فى الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها التائهين فى عمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله، انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة.

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذى يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح وفى هذا يرى المسلمون أن القوة الله، وأن النصر والعزة للمؤمنين وأن البلاء والخزى على الكافرين، فمن أراد النصر والعزة لا مبتغى لهما ولا سبيل إليهما إلا بالإيمان ومع المؤمنين ومن رغب عن الإيمان وآثر عليه الأهل والمال فلن يلقى إلا الذل والهوان.

بقى فى نهاية الآية وقفة لابد منها مع كلمة «ثم» وهو حرف عطف للترتيب والتراخى وقد جاء مكررا ثلاث مرات فى الحديث عن يوم حنين هكذا: «ثم وليتم مدبرين»، «ثم أنزل الله سكينته»، «ثم يتوب الله».

والعطف بـ«ثم» هنا فى هذه المواضع الثلاثة أفاد أمرين:

أولهما: الترتيب الزمنى فى وقوع هذه الأحداث، فقد وقع المسلمون أولا فى اضطراب وذعر، والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء، ولم يكن ذلك بالميسور لهم، ثم كان الفرار وتولية الأدبار هما طريق النجاة ثم كان من الله سكينة وجنود لم يرها المؤمنون، ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فر منهم وولى المشركين دبره فى القتال.

وثانيهما: التغاير بين وجوه هذ الأحداث المتعاطفة بحيث يبدو أن عنصر الزمن لابد أن يكون عاملا هنا فى تحريك الأحداث حتى تتغير وتبليغ الصورة التى كانت عليها والذى ينظر إلى الموقعة - موقعة حنين - من الظاهر يجد أنها كانت حدثا واحدا متلاحم النسج وأن ليس هناك أى فاصل زمنى يفصل بين مجريات الأمور فى هذا الحدث فهى معركة واحدة احتواها زمن واحد لم يجاوز غدوة يوم.

ولكن الذى ينظر إلى المعركة نظرة أعمق وأرحب يجد أنها لم تكن معركة واحدة، وإنما هى معارك متصلة، بدأت بمعركة هزم فيها المسلمون ثم انتهت بمعركة كتب الله لهم فيها النصر.. فالمعركة الأولى لها حسابها وتقديرها وحكمها وهى الهزيمة المطلقة للمسلمين، وقد أحاط بهم العدو وأوقع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب، الأمر الذى يسلم إلى الهزيمة التى لا مفر منها.

ومع هذا فإنه ما كان للمسلمين أن يفروا بأى حال كانوا عليه، وعلى أى تقدير يقدرون لنتائج المعركة .. فلتكن الهزيمة واقعة بهم، ولكن الذى كان يجب ألا يكون منهم هو الفرار.. فهذا أمر لا يصح أن يقع من المسلمين فى ميدان القتال، والله تعالى يقول: «**إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوا الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة قد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**»(٥١) فأى مسلم هذا الذى تحدثه نفسه بالفرار من المعركة، وهو يعلم حكم الله فيمن يفر ويولى العدو دبره؟

ولكن الذى حدث هو أن المسلمين فروا وولوا الأدبار، ومن هنا كان هذا الأمر منهم حدثا غريبا ما كان ينبغى أن يكون فى ميدان القتال.. وهذا هو بعض السر فى عطفه بـ«ثم» على الحدث الذى قبله وهو الضيق والكرب الذى ركب المسلمين فى أول القتال.

وفى هذا ما يشعر بأن هذا الحدث - حدث القرار - وان كان قد وقع فى ميدان القتال هو حدث مستقل بنفسه منقطع الصلة بما قبله غير مترتب عليه، وعطفه على ما قبله هو من عطف حدث على حدث أو قصة على قصة أو حال على حال.

أما عطف قوله تعالى: «ثم أنزل الله سكينته» فهو كذلك عطف حال على حال أو قصة على قصة وهذا ما يشعر بأن الحدث الأول وهو الفرار والهزيمة أمر قد وقع وسوى حسابه ثم بدأ أمر آخر له حسابه الخاص به، وهو الممثل فى تلك المعركة الجديدة التى دخل فيها المسلمون القتال مع العدو بنفوس جديدة ومشاعر جديدة، بل قل وبأشخاص غير الأشخاص ومقاتلين غير المقاتلين إذ أنزل الله سكينته عليهم، ونزع ما كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع،

وأمدهم بجنود من عنده كان ردءا لهم وتثبيتا لقلوبهم، فكان لهم النصر والظفر وأما عطف قوله تعالى: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» فكان من عطف حال على حال وقصة على قصة وشأن على شأن، وأن الصلة التى بينه وبين ما قبله ليست صلة سبب ومسبب أو علة ومعلول ذلك أن ما كان يتوقعه المسلمون بعد فرارهم وتوليتهم الأدبار هو وقوع غضب الله عليهم فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة، ولكن الذى حدث كان غير هذا، وقد عاد الله بفضله واحسانه عليم، وجاءهم برحمته ومغفرته، وتقبل توبة التائبين منهم.

وقد جاءت رحمة الله ومغفرته إلى الذين فروا وولوا الأدبار فى هذه الصورة المتراخية .. وفى هذا ما يشعر بأن مغفرة الله ورحمته ما كانت لتنال هؤلاء الفارين أبدا، وأنها إذ نالتهم فى تلك المرة فإنها قد لا تنالهم بعدها، لأن الحكم المسلط على الفارين الذين يولون الأدبار فى ميدان القتال هو الحكم المحكم الذى لا يرد، وأن هذا الذى أصاب المسلمين الفارين من مغفرة ورحمة فى هذا اليوم هو استثناء من أصل ليس من الحتم أن يقع فى كل حال تشبهه (٥٢).

«الكلمة الأخيرة فى المشركين»

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع، ويلمس وجدان المسلمين بالذكرى القريبة من التاريخ، ينهى القول فى شأن المشركين، ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين.. «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس (٥٣) فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة (٥٤) فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم».

تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر رضى الله عنه أذ أمره على الحج سنة تسع أن يبلغ الناس انه لا يحج بعد ذلك العام مشرك، ثم أمر عليا أن يتبع أبا بكر فيقرأ على الناس أوائل سورة براءة، يوم الحج الأكبر وأن ينادى بأن لا يحج بعد ذلك العام مشرك.. وقد كانت هذه الآية من الآيات الأربعين التى أمر على بالنداء بها، وهى أبلغ من منع المشركين من الحج.

حكم القرآن على المشركين بفساد كيانهم الداخلى، وأنهم يشركون بالله قد أفسدوا طبيعتهم كما يقع ذلك فى الأمور المادية، حيث يختلط الخبيث بالطيب فيفسده، ولهذا نهى الله المؤمنين عن نكاح المشركات وانكاح المشركين، كما نهى عن تناول المسلمين من طعامهم.

والتعبير القرآنى يجسم نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم.. فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها، بل هى نجاسة الاعتقاد وقذارة التصور وفساد الطبائع.. إنما هى طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم.

ومن المعلوم القطعى لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام بالضرورة أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم، ولاسيما بعد صلح الحديبية، إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له ولا جوار يمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبى

صلى الله عليه وسلم ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحد أحدا منهم معاملة الأنجاس، ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم بل روى عنه ما يدل على خلاف ذلك من الأحاديث الصحيحة منها: انه صلى الله عليه وسلم توضأ من مزاده مشركة وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة ابن اثال الحنفى وهو مشرك بسارية من سوارى المسجد، ومنها اطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار ولم يأمر صلى الله عليه وسلم بغسل الأوانى التى كانوا يأكلون ويشربون فيها، وروى أحمد وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله: قال: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصيب من آنية المشركين واسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا.

والمسجد الحرام معلم من معالم الهدى، ومنارة من منارات الحق، فهو بهذا كائن طيب ظاهره وباطنه، ومورد عذب يستقى منه المؤمنون، ويروون ظمأهم الروحى من جوه الطيور ومن هنا كان على المسلمين حراسته من «أن يلم به خبيث فيفسده عليهم ويعكر موارده».

والمشركون نجس، وإلمامهم بالمسجد الحرام تقذير له وافساد طبيعته، ولهذا أمر الله المسلمين بأن يحولوا بين المشركين وبينه.. «نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا». وهو العام التاسع من الهجرة الذى أعلم الله المشركين فيه بأنه برىء منهم، وأن رسوله برىء منهم، وأن المسلمين موالاة ولرسوله بريئون منهم.. وتلك غاية فى تحريمهم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصب النهى على مجرد القرب منه.. ويعلل ذلك بأنهم نجس وهو الطهور.

ولكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهل مكة، والتجارة التى يعيش عليها معظم الأثرياء فى الجزيرة، ورحلة الشتاء والصيف التى تكاد تقوم عليها الحياة .. إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج، وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة .. نعم ولكنها العقيدة، والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة! وبعد ذلك فالله هو المتكفل بأن الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة.. «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء».

وحين يشاء الله يستبدل أسبابا بأسباب، وحين يشاء يغلق بابا ويفتح الأبواب .. فالأرزاق بيد الله وبيد سبحانه مبسوطة بالعطاء، وفضله واسع عميم فليستقم المسلمون على أمر الله، وليبتغوا بذلك مرضاته وهو سبحانه الذى يتكفل بأرزاقهم، وبإعطائهم الجزيل من فضله.

والغنى من فضل الله أعم ما ورد فى الروايات معينا ومبهما، فقد أغنى الله المؤمنين من العرب السابقين إلى الإسلام ثم من سائر المسلمين جميع أنواع الغنى.. ففتح لهم سهل الملك والملك وسط لهم فى الرزق من عمارة وتجارة وزراعة وصناعة، وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيما بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة.

وقيد هذا الغنى بقوله: «فسوف يغنيكم الله من فضله» للدلالة على أن هذا لوعد إنما يكون أكثره فى المستقبل لافى الحال وعلى أنه واسع بسعة فضله تعالى، وغيب لا يخطر لهم أكثره ببال، وقد صدق وعده به، فكان من معجزات القرآن. وقيده بمشيئته التى لا يشك فى حصول كل ما تتعلق به وان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لتقوية إيمانهم ونوط آمالهم واتكالهم عليه

دون مجرد كسبهم، وان كانوا مأمورين بالكسب لأنه من سننه تعالى فى الخلق، ولكن لا يجوز أن ينسيهم توفيقه وتأييده لهم، فهو الذى نصرهم وأغناهم فيما مضى كما وعدهم، وسيزيدهم نصرا إذا هم وفوا بما شرطه عليهم من مثل «إن تنصروا الله ينصركم»(٥٥).

ويرى بعضهم أن قوله جل ثناؤه: «إن شاء» ليس قيدا واردا على الحكم الذى حكم به فى «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله» وإنما هو إشارة إلى أن مشيئة الله هى السلطة على كل شىء وانها لا تتوقف فى نفاذها على أفعال العباد إذ إن أفعال العباد كلها داخلة فى مشيئة الله واقعة تحت سلطانها ومثله قوله تعالى: «سنقرؤك فلا تنسى إلا ما شاء الله»(٥٦) «خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك»(٥٧).

ولما كانت مشيئته تعالى تجرى بمقتضى علمه وحكمته جعل فاصلة الآية قوله: «ان الله عليم حكيم»، عليم بما يكون من مستقبل أمركم فى الغنى والفقر. حكيم فيما يشرعه لكم من نهى وأمر كنهيه عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد ذلك العام «تسع من الهجرة» ونهيه قبله عن اتخاذ آبائكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان، وأمركم قبل ذلك بقتال المشركين بعد انقضاء عهدهم بأربعة أشهر وعلمه بمصالحكم ومنافعكم، وحكمته فيما يشرع من الأمر والنهى لكم تامان كاملان متلازمان، فإذا علمتم ذلك وعلمتم ما شرعه لكم وما قيد به وعده بالجزاء عليه والمزيد عن فضله، رأيتم مشيئته عز وجل موافقة لذلك كله، فهو سبحانه يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة وعن تقدير وحساب.

لقد كان المنهج القرآنى يعمل فى المجتمع المسلم الذى نشأ من التوسع الأفقى بعد الفتح، والذى لم تكن مستوياته الإيمانية قد تناسقت بعد، وكما اننا نلمح من خلال السياق فى هذا المقطع - الذى عشنا معه فى هذا الباب - ما كان بعثور هذا المجتمع من ثغرات، فكذلك نلمح عمل المنهج القرآنى فى سد هذه الثغرات ونلمح الجهد الطويل المبذول لتربية هذه الأمة بهذا المنهج القرآنى الفريد.

إن القمة التى كان المنهج القرآنى ينقل خطى هذه الأمة لتبلغ إليها هى قمة التجرد لله والخلوص لدينه وقمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحياة.. وكان هذا يتم من خلال ما يشبه المنهج القرآنى من وحى وشرح وابانة لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذى يجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده ومنهج الجاهلية الذى يجعل الناس أربابا بعضهم لبعض من دون الله.. وهما منهجان لا يلتقيان ولا يتعايشان.. وبدون هذا الفقه الضرورى للمنهجين لا يملك الإنسان أن يقوم المعاملات والعلاقات بين المعسكر الإسلامى وسائر المعسكرات.

بقى فى نهاية الباب ملحقان أولهما فى تفاصيل غزوة حنين وثانيهما فيما يستنبط من آيات هذا الباب من الأحكام الفقهية وغيرها.

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

(٢) سورة البقرة ١٢٥.

(٣) أي ما صح وما استقام للمشركين ذلك ولا ينبغي لهم ولايليق وإن وقع والنفى فى مثل هذا التعبير يسمى نفى الشأن، وهو أبلغ من نفى الفعل طبعا أو شرعا، لأنه نفى له بالدليل قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب «مسجد الله» على التوحيد، والباقون بالجمع، والمسجد فى اللغة: مكان السجود، وقد صار اسما للبيوت التى يعبد فيها الله = = وحده، فمن قرأ - بالإفراد: فيحتمل أن يراد به المسجد الحرام لأنه المتبادر من الأفراد، ولقوله: «وعمارة المسجد الحرام» ولأنه المفرد العلم الأكمل الأفضل من المساجد، أو الجنس فيدخل تحته المسجد الحرام إذ هو صدر ذلك الجنس ومقدمته، والمفرد المضاف يفيد العموم فى الأصل ومن قرأ بالجمع: فيحتمل أن يراد به المسجد الحرام، وأطلق عليه الجمع إما باعتبار أن كل مكان منه مسجد واما لأنه قبلة المساجد كلها وامامها، فكان عامره عامر المساجد، قال القرطبى وهذا جائز فيما كان من اسماء الجنس، كما يقال: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب الا فرسا (ص٢٩٢٨) ويحتمل أن يراد الجمع فيدخل تحته المسجد الحرام وهو أكد، لأن طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءة القرآن من تصريحك بذلك أبوحيان جـ٥ ص١٩ وفائدة ذكر المفرد مع الجمع - أى فى مجموع القراءتين - التنويه بمكانته وكونه محل النزاع وسبب القتال بين المؤمنين والمشركين وعمارة المسجد تطلق: على عبادة الله فيه مطلقا وعلى النسك المخصوص المسمى بالعمرة وهى خاصة بالمسجد الحرام، وعلى لزومه والاقامة به لخدمته الحسية، وعلى بنيانه وترميمه وكل ذلك مراد هنا، لأن اللفظ يدل عليه والمقام يقتضيه، قال المنا: والمختار عندنا استعمال المشترك فى معانيه التى يقتضيها المقام تبعا للشافعى وابن جرير - شاهدين حال، وهو قيد للنفى قبله مبين لعلته والعلة الحقيقية هى نفس الكفر لا الشهادة به ونكته تقييده به بيان أنه كفر صريح معترف به لا تمكن المكابرة فيه والغرض إبطال افتخار المشركين بذلك لاقترانه بما ينافيه وهو الشرك.

(٤) وفى هذا جمع بين الضدين، فإن عمارة مساجد الله الحسية أنما تكون لعمارتها المعنوية بعبادته فيها وحده، ولا تصح ولا تقع الا من المؤمن الموحد له وذلك ضد الكفر به.

(٥) لما بعث فيهم محمد رسول الله وخاتم النبيين كفروا به وبما جاء به من البينات والهدى، وكفر سادتهم وكبراؤهم جحودا وعنادا، وتبعهم زعماؤهم خضوعا لهم وتقليدا، ومن النصوص الدالة على جحودهم «فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»، ومن الأدلة على عنادهم «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»

(٦) وعلى هذه الاقوال الثلاثة الأخيرة تكون شهادتهم على أنفسهم بالكفر لفظية نطقت بها ألسنتهم.

(٧) سورة التوبة ١٣ .

(٨) سورة الاحزاب ٣٧.

(٩) سورة الاحزاب ٣٩ .

(١٠) سورة آل عمران ١٧٥.

(١١) سورة النور ٥٢.

(١٢) سورة التوبة ٦٢

١٣) رواه البخارى.

(١٤) ذكر الكشاف ص ٥٤٧ جـ١

(١٥) وقيل: ولم يخش الا الله مما يعبد فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها قرطبى ص٢٩٢٩.

(١٦) تفسير الرازى جـ٤ ص٦٠٢ إلى ٦٠٣.

(١٧) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢١٢.

(١٨) سورة الاعراف ٥٦.

(١٩) سورة الانبياء ٩٠.

(٢٠) سقاية في اللغة: الموضع الذى يسقى فيه الماء وغيره، وكذا الاناء الذى يستقى به، وهى ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء وكان يليها العباس بن عبدالمطلب فى الجاهلية والإسلام، وفى بعض روايات خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع.. كل مـأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى إلا سقاية الحاج وسدانة البيت «أ.هـ لسان، والسقاية حياض من ادم ـ كانت على عهد قصى بن كلاب توضع بفناء الكعبة ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل، ويسقاه الحاجو فجعل قصى عند موته أمر السقاية لابنه عبد مناف، ولم تزل مع عبد مناف يقوم بها فكان يسقى الماء من بئر كرادم وغيره إلى أن مات، ومن حصون خيبرو قاله النووى فى الاسماء واللغات عن الازرقى فى كتابه تاريخ مكه، وقد بنى هذا المكان المسمى بسقاية العباس ولا يزال ماثلا إلى الآن، وهو حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم وصف مؤرخو مكة مساحتها وبعدها عن زمزم والكعبة منار جـ ١٠ ص٢١٧و ويؤخذ من استعمال الكلمة أنها سارت اسم حرفة فى هذا الموضع لا اسم مكان ولا مصدر كما ذكر اللغويون وتبعهم المفسرون. وعمارة المسجد هى السدانة، و وكانت فى بنى عبدالدار وشيبه وعثمان بن طلحه هما اللذان دفع إليهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفتاح الكعبة فى ثامن يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلى وقال صلى الله عليه وسلم لعثمان وشيبه: «خذوها خالدة تالدة لا ينازعكما عليها الا ظالم «يعنى السدانة » أ. هـ البحر المحيط جـ ٥ ص٢٠ والاستفهام للإنكار المتضمن لمعنى النهى أى لا تفعلوا ذلك فإنه خطأ ظاهر. وهناك حذف والتقدير: اجعلتم أهل سقاية الحاج.. كمن آمن أو أجعلتم سقاية الحاج.. كإيمان من آمن.

(٢١) يؤخذ على هذا الأثر أن العباس ذكر حجابة البيت وهى لم تكن له دون السقاية التى كانت له.

(٢٢) طبرى جـ ١٤ ص ١٧١، ورواه عبدالرزاق أيضا ذكره ابن كثير جـ ٢ ص٣٤٢.

(٢٣) طبرى جـ ١٤ ص ١٧٢

(٢٤) تفسير الرازى جـ٤ ص٦٠٤

٢٥) تفسير الرازى جـ٤ ص٦٠٤ـ٦٠٥

(٢٦) اخرجه مسلم وأبوداود وابن جرير. وهذا لفظه. وابن مردويه وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وابن حبان فى صحيحه، وذكره ابن كثير جـ ص ٢٤٢.

(٢٧) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢١٦.

(٢٨) قرطبى ص ٢٩٣١.

(٢٩) وذلك لأنه ولد فى السنة الأولى من الهجرة السيرة النبوية لأبى شهبة ص ٥٠ .

(٣٠) فالمراد ترجيح الإيمان والهجرة والجهاد على السقاية والعمارة، ولا شك أنهما من أعمال الخير وموجبات الثواب لولا الكفر أو أن هذا وارد على حسب ماكانوا يقدرونه لأنفسهم من الدرجة والفضيلة، نظيره «أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم» أو المراد أنهم أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفا بالهجرة والجهاد وإن كان مؤمنا فضلا عن الكافر.

(٣١) تفسير النيسابورى جـ١٠ ص٥٦

(٣٢ البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص٢١.

(٣٣) ويدل على ذلك تنكيره.

(٣٤) سورة آل عمران آية ١٥.

(٣٥) استحبوا: اختاروا عشيرة الرجل: أهله الأدنون، وفى المصباح جـ٢ ص ٦٢ قبيلة المرء والمختار أن المراد بها من يعاشر من أولى القرى الذين من شأنهم التعاون والتناصر لأنها فى الأصل مؤنث العشير وهو المعاشر: اقترفتموها: اكتسبتموها تربصوا انتظروا بأمره بعقوبته لكم عاجلا أو آجلا. أحب إليكم من الله ورسوله المراد الحب الاختيارى المستتبع لأثره الذى هو الملازمة وتقديم الطاعة، لاميل الطبع فإنه أمر جبلى لا يمكن تركه ولا يؤاخذ عليه ولا يكلف

الإنسان الامتناع عنه «وجهاد فى سبيله» طريق ثوابه ورضاه سبحانه، ولعل المراد به هناك الاخلاص ونحوه لا الجهاد. الألوسى جـ ٣ ص٢٨٨.

(٣٦) سورة يونس آية ٨٣.

(٣٧) تفسير الرازى جـ٤ ص٦٠٩.

(٣٨) سورة الروم ١٩

(٣٩) سورة النور ٥٤

(٤٠) المنار جـ١٠ ص٢٣٢-٢٣٣

(٤١) سورة آل عمران ٣١.

(٤٢) المنار جـ١٠ ص ٢٣٤-٢٣٥

(٤٣) النيسابورى على هامش الطبرى جـ١٠ ص٥٧.

(٤٤) «بما رحبت» يقال رحب يرحب رحبا ورحابة، فقوله بما رحبت: أى برحبها، ومعناه مع رحبها، ف «ما» هنا مع الفعل بمنزلة المصدر، والسكينة: ما يسكن إليه القلب والنفس ويوجب الامن والطمأنينة، وتوضيح ذلك: أن الإنسان إذا خاف فر وفؤاده متحرك، وإذا أمن سكن وثبت، فلما كان الامن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن. والمراد بها رحمته تعالى التى تسكن بها القلوب وتطمئن اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب، واما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له صلى الله عليه وسلم. «وعلى» المؤمنين» الذين انهزموا، وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافى الايمان، أو الذين ثبتوا مع رسول الله، أو مايعم الطائفتين.

(٤٥) أما التفصيل فى غزوة حنين فسيأتى فى ملحق خاص بعد نهاية هذا الفصل.

(٤٦) ألوسى جـ٢ ص. ٢٩١

(٤٧) آل عمران ١٢٦.

(٤٨) الانفال ,١٠

(٤٩) محمد ٤

(٥٠) المدثر ٣١

(٥١) سورة الانفال ١٥، ١٦

(٥٢) التفسير القرآنى للقرآن «الكتاب الخامس ص ٧٣٠-٧٢٧

(٥٣) لفظ نجس: مصدر نجس الشىء (من باب تعب) فهو نجس اذاكان قذرا غير نظيف تنفر منه النفوس السليمة وتتحاشاه، والوصف بالمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع من كل منهما، ويراد به المبالغة فى الوصف بجعل الموصوف كأنه عين الصفة، ولم يذكر هذا اللفظ ولا كلمة من هذه المادة فى غير هذه الآية من التنزيل وهو يستعمل فى اللغة بمعنى القذر والخبيث حسا أو معنى كالرجس.

(٥٤) العيلة: الفقر والحاجة، وأصله من العول وهو الزيادة فى النفقة على الأصل الذى ينفق منه وفى المأثور: «لا عال من اقتصد» ونكر العيلة لأن المراد بها ضرب من ضروبها التى يخشاها أهل مكة وهى ما يحدث عن قلة جلب الأرزاق اليها والمتاع بالتجارة.

(٥٥) سورة محمد آية ٧

(٥٦) سورة الأعلى ٦، ٧

(٥٧) سورة هود ١٠٧-١٠٨ القاموس القرآنى ص ٢١-٢٢

ملاحق

الباب الأول

الملحق الأول

غزوة حنين

تألب هوازن وثقيف بأمرة مالك بن عوف ـ تحصنهم بمضيق وادى حنين ـ خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم ـ دخول المسلمين من مضيق الوادى فى عماية الصبح ـ الهزيمة ـ ثبات الرسول ومن حوله ـ صياح العباس بالمسلمين كى يعودوا ـ عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم ـ مطاردتهم للمشركين خارج الميدان ـ حصار الطائف ـ تقسيم الغنائم ـ حكمة هذا التقسيم ـ إسلام هوازن وتسليمهم السبايا ـ دروس من حنين والطائف ـ بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكمية.

«الموقف العام»

١ـ المسلمون:

ان فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة، ولقد أفلحت خطة المسلمين فى تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا فى عقر دارهم، فلم يجدوا مناصا من الاستسلام، فما استطاعوا الجلاد ولا استجلاب الامداد، وفتح العرب جميعا أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع حتى خيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها!.. ولقد كان لفتح مكة أكبر الأثر فى توحيد شبه الجزيرة العربية كلها تحت ظل الإسلام، كما كان له أثر معنوى عميق على المسلمين والمشركين على حد سواء، فأصبحت شبه الجزيرة العربية قوة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد، ولم يبق على الشرك إلا بعض القبائل كقبيلتى هوازن وثقيف، ومن الواضح أن قضية إسلام هذه القبائل أصبحت قضية وقت ليس إلا، لانهيار أكبر حصن للشرك ـ مكة ـ ولانهيار أكبر عدو للإسلام ـ قريش.

٢ـ المشركون:

كان لهذا الغلب فى فتح مكة رد فعل معاكس لدى بعض القبائل الكبيرة القريبة من مكة، وفى مقدمتها هوازن وثقيف، وتعتبر الطائف قصبتها، وهى أكبر المدن فى الجزيرة بعد مكة والمدينة، اجتمع رؤساء القبائل على مالك بن عوف سيد هوازن، واجمعوا أمرهم على السير لقتال المسلمين بل أن تتوطد دعائم الفتح، وقبل أن يتحركوا لاستئصال ما بقى من معالم الوثنية المدبرة .. وأخذت تتحشد فى منطقة الطائف.

ولكن انتشار الإسلام فى تلك القبائل جعل الكثيرين من أفرادها وفخوذها يتخلفون عن هذا الحشد، إذ تخلفت كعب وكلاب أشجع هذه القبائل [1]، كما تخلفت قبائل أخرى ورجال من ذوى العقول.. كان التردد ظاهرا على القبائل المحتشدة وكان الاختلاف واضحا بينها ولم تكن معنوياتها عالية.

قوات الطرفين:

١ـ المسلمون:

اثنا عشر ألفا بين راكب وراجل بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم: ألفان من أهل مكة من الطلقاء الذين أطلقهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح قائلا لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وعشرة آلاف من المسلمين الذين حضروا الفتح.

٢ـ المشركون:

قبيلة هوازن [2] ومعظم قبيلة ثقيف بقيادة مالك بن عوف النضرى من هوازن.

أهداف الطرفين:

١) المسلمون: ضرب القبائل المحتشدة قبل أن يستفحل أمرها وتهدد مكة نفسها ومن فيها من المسلمين.

٢) المشركون: القضاء على قوات المسلمين وأخذ المبادأة منهم.

قبل المعركة:

١) المسلمون: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار تحشد هوازن وثقيف لمهاجمة المسلمين، فبعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حدرد فدخل فيهم، حتى سمع وعلم ما قد جمعوا من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر [3]بما يفيد بأن قبائل هوازن وثقيف قد أنجزت تحشدها فى منطقة وادى أوطاس [4] وأنها تنوى مهاجمة المسلمين.

وروى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيها بظنهم وبنعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين [5].. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله»[6].

قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين وبدأ بإنجاز الاستعدادات الضرورية للحركة .. وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا، فاستعارها من صفوان ليكمل بها تسليح قواته، وكان عددها مائة درع مع أسلحتها ولما أنجز المسلمون استحضاراتهم تحركوا باتجاه حنين .. وكانت المقدمة مؤلفة بقيادة خالد بن الوليد، وأمامها القطاعات الراكبة من الفرسان، وكان القسم الأكبر

مؤلفا من القبائل الأخرى وأمام كل قبيلة رايتها، وكانت الكتيبة الخضراء المؤلفة من المهاجرين والأنصار فى مؤخرة القسم الأكبر ومعها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ان السهولة التى تم بها فتح مكة، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فلن تبدى مقاومة تذكر، وظن حدثاء العهد بالإسلام أن شيئا ما لن يقف فى طريقه كل ذلك جعل الجيش يزحف للقاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجهه، ولم يكترث؟ إنهم - وهم قلة - كانوا يكسبون المعارك الطاحنة، فكيف وهم اليوم يخرجون فى عدد لم يجمعوا مثله قبلا؟ قيل: إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال: لن نغلب اليوم من قلة (٧)! ووصل جيش المسلمين الواثق فجرا وادى حنين.

٢- المشركون: احتشدت هوازن وثقيف فى وادى حنين (أوطاس) ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم، وقد أراد مالك بن عوف قائدهم أن تكون الذرارى والأموال مع المقاتلين حتى يشعر كل رجل منهم وهو يقاتل أن حرمته وثروته وراءه فلا يفر عنها، وقد اعترضه دريد بن الصمة، وهو فارس مجرب محنك، وقال له: يا مالك انك قد أصبحت رئيس قومك وان هذا كائن له ما بعد، من الأيام، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاه ؟قال: سقت مع الناس إبلهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، قال: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟! ان كانت الدائرة لك لم ينفعك إلارجل برمحه وسيفه، وان كانت عليك فضحت فى أهله ومالك فكان جواب مالك، والله لا أفعل ذلك، انك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، واضطرت هوازن إلى الأخذ برأى مالك، وكان شابا فى الثلاثين من عمره، قوى الإرادة ماضى العزيمة شجاعا ولكنه كان سقيم الرأى مشهورا سيىء المشورة.

كانت خطة مالك تتلخص باحتلال قمم وادى حنين ومضيق الوادى، فإذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى باغتهم المشركون بالرمى عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم، ثم القيام بالهجوم لإجبارهم على الانسحاب.. وقال لهم مالك: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد، وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى ومضايقه قبل دخول المسلمين إليه، وكمنوا فى مواضعهم المستورة انتظارا لجيش المسلمين.

القتال

١- هجوم المشركين:

وسار الجيش الواثق حتى وصل إلى وادى حنين وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادى - وهى غافلة عما يكمن فيه - وكان واديا أجوف منحدرا ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا كأنهم يسيرون إلى هاوية.. فلما تكاثرت فى دروبه الفرق الزاحفة، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن، ولم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى، لأن الظلام كان سائدا إذ كان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه فى الجو الغائم، ولأن مواقع المشركين كانت مخفية تماما. فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة فهى فى عماية من الليل وعماية من أمرها، لا تعرف إلا

أن تستدير ثم تولى الأدبار.. وانتشرت موجة الفزع، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها.

انسحبت مقدمة المسلمين، وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة واستغل رجال مالك بن عوف هذا الارتباك، فهجمت كتائبهم وحملت الخيل على ما أمامها. فانكفأ المسلمون مغلوبين لا يلوى أحد على أحد ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشف وفرح، وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله، فقال أبو سفيان: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر! ولا عجب فإن الأزلام التى يستقسم بها فى جاهليته لا تزال فى كنانته، وقال آخرون ممن أسلموا حديثا مثل قوله، وقال كلدة بن جنيد: ألا بطل السحر اليوم، فأجابه صفوان بن أمية - ولما يزل مشركا : اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن، بل إن شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد حاول اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف العصيب، ليدرك ثأر أبيه من محمد.

وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل، وهوازن وثقيف منحدرون وراءه، إذا أدرك الفارين طعن برمحه، وإذا فاتوه رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه.

وانتشر الفزع بين المسلمين، وازدحمت المسالك بالسابلة وارتبكت الصفوف، واختلطت القبائل ببعضها، وركبت الإبل بعضها بعضا وهى مولية بأصحابها، وتعقدت الأمور.. ان الذى تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو.

٢. هجوم المسلمين المقابل: انحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، وقد أغضبه هذا الفرار. فأخذ ينادى الناس إذ يمرون به منهزمين: «أين أيها الناس؟ أين؟ هلموا إلى، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»[٨] فلا يرد عليه أحد.

وثبت النبى صلى الله عليه وسلم فى مكانه، ووقف ثابت الجأش، يدير الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ومن أهل بيته يبلغون العشرة [٩] فأمر العباس بن عبد المطلب - وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته: يا معشر الأنصار، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية [١٠]وفى رواية يا أصحاب الشجرة - يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه، فجعل ينادى بهم - يا أصحاب الثمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة [١١].

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ورجال الفداء عند الصدام، فهم وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب.

أما هذا الغثاء من العوام الحراص على الدنيا السعاة إلى المغانم فما يقوم بهم أمر أو تثبت بهم قدم.

وفى منجة الفزع الذى ساد المعركة أولا علت صيحات العباس، ووصلت آذان الرجال المشدوهين لماوقع، وكرر العباس النداء حتى تجاوبت فى كل جنبات الوادى أصداؤه، وسمع

الأنصار اسم النصرة، فذكروا النبى عهودهم وشرفهم، وسمع المهاجرون اسم الشجرة فذكروا النبى وذكروا بيعتهم وتضحيتهم، وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة الرسول وثباته فى نفر قليل، كثباته يوم أحد فى وجه هذا العدو الزاحف.. صورت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم اياه أن تغلب المشركون على دين الله، وكان نداء العباس إذ ذاك ما يزال يدوى فى آذانهم وتهتز لأصدقائه أوتار قلوبهم، هنالك تصايحوا من كل صوب: يا لبيك! يا لبيك! وأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت إذا أراد أحدهم أن يعطف بعيره ليعود به، لا يقدر من ضغط الفارين، فما يجد بدا من أن يقذف درعه من عنقه وينحدر عن بعيره ويرسله - إذا لم يطاوعه - ثم يحمل سيفه وترسه ثم يؤم مصدر الصوت بسرعة.

واجتمع حول رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد من الرجال الذين دعاهم حتى قارب القوم مائة، فاستقبل النبى بهم المشركين وقد ملك زمام الموقف وأعاد الكرة عليهم فاجتلد الفريقان اجتلادا شديدا، وكان النهار قد طلع، والمشركون قد تركوا مواقعهم لا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لايقاع بعض الخسائر بالمشركين لكى تتزعزع معنوياتهم وينسحبوا من الميدان، ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلتهم المشركين لكانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة كبيرة جدا.. وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد وهناك بدأوا بالهجوم المقابل على المشركين.

وقصد على وأحد الأنصار إلى حامل العلم فى طليعة هوازن فضرب على عرقوبى جمله فوقع على عجزه، ثم استكمن منه الأنصارى فوثب عليه فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله.

عن البراء بن عازب قال وقد سئل عن فرارهم يوم حنين: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، ولقد رأيته على بغلته البيضاء وأن أبا سفيان آخذ بلجامها، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا النبى لاكذب، أنا ابن عبد المطلب)[١٢] وعند ابن كثير وهو راكب بغلته الشهباء، يسوقها إلى نحر العدو، والعباس آخذ بركابها الأيمن وأبو سفيان بن الحارس بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانهما لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة إليه[١٣] ويدعو «اللهم نزل نصرك»[١٤].

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف.. قال العباس: ونظر رسول الله وهو على بغلته - كالمتطاول عليها - إلى قتالهم، فقال: «الآن حمى الوطيس» ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار، ثم قالك «انهزموا ورب محمد» قال العباس: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فما هو إلا أن رماهم فمازلت أجد حدهم كليلا وأمرهم مدبرا [١٥].

وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعا وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة وأوغلوا مولين الأدبار فى وادى حنين! تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، ولم يكن للمشركين ساقة لحماية الانسحاب، فانقلب انسحابهم إلى هزيمة .. واتبع المسلمون اتقاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع الطلقاء والبدو إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣. المطاردة:

انسحبت أكثر ثقيف باتجاه الطائف وكان معهم مالك بن عوف، وانسحبت هوازن والقبائل الأخرى باتجاه أوطاس ونخلة [١٦] وقام المسلمون بالمطاردة، وأعلن النبى صلى الله عليه وسلم أن من قتل مشركا له سلبه، ووصلت مطاردة المسلمين إلى نخلة، فأوقعوا بالمنسحبين إلى هناك خسائر فادحة، كما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى أعقاب المنحازين فمازال يناوش القوم حتى بدد شملهم، وهزموا شر هزيمة [١٧] وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأبى عامر عندما قتل فقال: اللهم اغفر لأبى عامر وأهله واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك واستغفر لأبى موسى[١٨]

(حصار الطائف)

وصل بعض المسلمين بمطاردتهم إلى الطائف، التى التجأ المنهزمون من المشركين إليها، والتى اضطر مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه أن يمضوا فى الفرار حتى يصلوا إليها فيمتنعون بحصنها وكانت مدينة محصنة ذات أسوار وحصون قوية ولها أبواب تغلق عليها.. وتجمعت فرق المسلمين التى طاردت المنسحبين إلى أوطاس ونخلة ـ بعد انجاز واجباتها ـ بفرقة المسلمين التى طاردت ثقيفا باتجاه الطائف لإجبار ثقيف على الاستسلام، إلا أن ثقيفا سددت نبالها على المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر، فقرر النبى صلى الله عليه وسلم الانسحاب بعيدا عن مرسى النبل، واستقر المسلمون هناك، وفكر المسلمون فى وسيلة يستطيعون بها اجبار الطائف على الاستسلام فأشار سلمان الفارسى بقذف حصونها بالمنجنيق وبمهاجمة تلك الحصون بالدبابات.. رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق واقترب بعضهم بحماية الدبابات إلى سور الطائف ليخترقوه، ولكن أهل الطائف استطاعوا احباط هذا الهجوم، إذ أحموا قطعا من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات الخشبية فأحرقتها، فانسحب المسلمون المحتمون بها لئلا يحترقوا، فرمتهم ثقيف بالنبل بعد انكشافهم من حماية الدبابات.

وفى أثناء الحصار أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف ففر إليه حوالى عشرين من عبيد أهلها، فعرف منهم أن المواد الغذائية كثيرة جدا لدى ثقيف، لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد أن استمر مايقرب من شهر، تاركا أمر استسلام ثقيف إلى الزمن، خاصة وأن الكثيرين من رجالها اعتنقوا الإسلام ويمكن اجمال أسباب ترك المسلمين محاصرة الطائف فيما يلى:

١ـ قوة حصون الطائف وشجاعة بنى ثقيف وتكديس المواد الغذائية فيها.. كل ذلك جعل استسلامها للمسلمين صعبا يحتاج إلى مدة طويلة.

٢ـ أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة فى رمضان حتى حصار الطائف إلى نهايته مايقرب من شهرين، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثا، مما جعل بعضهم يرغب فى سرعة الرجوع كما أن الوقت ثمين بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لتوطيد دعائم الإسلام.

٣ـ قرب حلول الشهر الحرام ذى القعدة.

٤ـ انتشار الإسلام فى ثقيف مما جعل دخولها كلها فى الإسلام أمرا أكيدا لا يحتاج إلا إلى الوقت.

وعندما قدم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم عن مالك ابن عوف النضرى، فلما علم أنه مازال بالطائف مع ثقيف طلب إليهم أن بلغوه إن أتاه مسلما رد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ولم يبطىء مالك حين علم بوعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- فأسرج فرسه فى سر من ثقيف لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ أهله وماله ومائة من الأبل.

وقد نظمت مقاومة المسلمين ضد ثقيف بعد إسلام مالك بن عوف، حتى استعمله رسول الله على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفا، لا تخرج لهم أنعام ترعى ولا تجارة إلا أغار عليها، حتى ضيق عليهم الخناق، فالتجأوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وكانت خسائر المسلمين كبيرة جدا فى الأرواح، كذلك كانت خسائر المشركين فى الأرواح كبيرة، أما خسائرهم فى الأموال والذرارى فكانت مغانم هائلة فإن مالكا ـ كما تقدم - خرج يغزو ومعه نساء القبيلة وما تملك فخلف فى الميدان أربعة وعشرين ألفا من الإبل وأكثر من أربعين ألفا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، هذا إلى جانب ستة آلاف من السبى.

(الغنائم)

بعد انتهاء معركة حنين كدس الرسول صلى الله عليه وسلم كافة الغنائم فى موضع يقال له (الجفرانة) [١٩]حتى يتفرغ للمطاردة وحصار الطائف، وبقيت الغنائم غير موزعة مدة طويلة كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها على الناس، وتأنى يبتغى أن يرجع القوم إليه تائبين فيحرزون مافقدوا، ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة، فلم يجئه أحد [٢٠] خاصة وأن الأعراب وحديثى العهد بالإسلام أخذوا يلحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبين تقسيم الغنائم.. فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة وبدأ بقسمة المال.. فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة: أخذ أبو سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، فقال: وابنى معاوية؟ فمنح مثلها لابنه معاوية، فقال وابنى يزيد؟ فمنح مثلها لابنه يزيد [٢١] وعن ابن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر النبى صلى الله عليه وسلم ناسا.. أعطى الأقرع مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله [٢٢] فقلت: والله لأخبرن النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: (رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر)[٢٣].

وعن رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبى ونهب العبى [٢٤].. د بين عيينة والأقرع فما كان بدر[٢٥] ولا حابس.. يفوقان مرداس فى المجمع

وما كنت دون امرئ منهما.. ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال: فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة [٢٦]

وأقبل رؤساء القبائل وأولوا النهمة والطمع يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه وشاع فى الناس أن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وأوجس الناس خيفة أن أفشى محمد صلى الله عليه وسلم هذه الاعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص حصتهم من الغنائم، فألحوا فى أن يأخذ كل فيأه وازدجوا عليه يبغون المزيد من المال وأكب عليه الأعراب يقولون يا رسول الله، أقسم علينا فيأنا حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه!

فقال: «أيها الناس ردوا على ردائى فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا» ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبره فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها، فقال: (يا أيها الناس والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلاالخمس والخمس مردود عليكم)[٢٧].

ان أعين القوم تكاد تخرج من المحاجر تطلعا إلى الدنيا وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ما أغنوا عن الإسلام شيئا فى مأزقه الأولى، بل كانوا هم العقبة الصلدة التى أعترضت مسيلة حتى تحطمت تحت معاول المؤمنين الراغبين فى ثواب الآخرة والمؤثرين ما عند الله.

ولكنهم اليوم ـ بعدما أعلنوا إسلامهم ـ يبغون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئا لشخصه ولو امتلك ملء هذه الأودية مالا لوزعه عليهم.

والحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة الطيش والجشع فى سبيل تآلف هؤلاء الناس وتحبيبهم فى الإسلام، ولو عاقبهم على جبنهم فى حنين لنال منهم أى منال.

روى الإمام أحمد [٢٨] أن أبا طلحة ـ وهو من فرسان المسلمين المعدودين ـ لقى أم سليم ومعها خنجر فقال لها: ما هذا؟ قالت: إن دنا منى بعض المشركين أبعج بطنه ـ وذلك فى معركة حنين ـ فقال أبو طلحة لرسول الله: أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك النبى صلى الله عليه وسلم، قالت أم سليم: يا رسول الله: أقتل من بعدها الطلقاء.. انهزموا بك! فقال: (أن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم).

والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطمع.. وشاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يلطف معهم وينسى ماضيهم تكريما وتأليفا.. وماذا يصنع؟ ان فى الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الاغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له.

عن أنس بن مالك قال: كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه اعرابى فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله

صلى الله عليه وسلم قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال: مر لى من مال الله الذى عندك!! فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[٢٩].

إن هذا الأعرابى لا يعجبه المنطق الدقيق، ولا الطبع الرقيق قدر ما يعجبه من عطاء يملأ جيوبه ويسكن مطامعه.. ومن هذا قال صفوان بن أمية: مازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه [٣٠].

حكمة هذا التقسيم: وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر، بل أطلقت ألسنة شتى بالاعتراض، فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضربا من الاعراض عنهم والإهمال لأمرهم.

روى البخارى عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه قال: إنى أعطى قوما أخاف هلعهم وجزعهم وأكل قوما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب، قال عمرو: فما أحب أن لى بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم، فكانت هذه التزكية تطييبا لخاطر الرجل، أرجح لديه من أثمن الأموال!!

وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حرموا جميعا أعطية حنين وهم الذين نودوا وقت الشدة، فطاروا يقاتلون مع رسول الله عليه وسلم، حتى تبدل الفرار انتصارا، وها هم أولاء يرون أيدى الفارين تعود ملأى.. أما هم فلم يمنحوا شيئا قط.

فكان لذلك وسواس فى كثير من الصدور وهمس على الشفاه، ولقد قال قائلهم حين أعطى رسول الله ما أعطى للمولفة قلوبهم: لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه!!

ولم تكن هذه القولة من بعض الأنصار شكا فى دين الله ولا اتهاما لرسول الله ولكنها كانت اشفاقا من أن يكون تحولا لمركز الدعوة الإسلامى من المدينة إلى مكة، وعودة برسول الله إلى بلده الذى أخرج منه، حيث كان المؤلفة قلوبهم جميعا من مكة وما حولها.. هذا هو الشعور الذى كان مستوليا على الأنصار فى مجموعهم، وإن كان قد حمل عند بعضهم ممن نافقوا فى الإسلام كعبد الله بن أبى بن سلول على غير هذا المحمل، فكان اتهاما صريحا للرسول صلى الله عليه وسلم بتعصبه لقومه وميله إليهم، وايثارهم على الأنصار بعد أن دخلوا فى دين الله وآمنوا برسول الله، وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا، ولم يعد الأنصار وحدهم هم حماة هذا الدين وأنصاره كما يبدو ذلك فى ظاهر الحال.. ولذلك فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار إليه وجمعهم حوله، واستخلصهم من بين المسلمين جميعا فى اجتماع خاص بهم عن أنس.. قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال هوازن فطفق النبى صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقتر من دمائهم (قال أنس) فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من آدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ماحديث بلغنى عنكم؟) فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما ناس منا حديثه أسنانهم

فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقتر من دمائهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» قالوا: يا رسول الله لقد رضينا، قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم: ستجدون أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنى على الحوض قال أنس: فلم نصبر(٣١).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن فى الأنصار شىء منها قليل ولا كثير، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله قومه فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: يارسول الله: إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم! قال: فيم؟ فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شىء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين أنت من ذلك يا سعد؟) قال: ما أنا إلا امرؤ من قومى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة) (٣٢) فإذا اجتمعوا فأعلمنى، فخرج سعد، فصرخ فيهم فجمعهم فى تلك الحظيرة .. حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله، اجتمع لك هذا الحى من الأنصارحتى أمرتنى أن أجمعهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟؟

قالوا: بلي الله ورسوله أمن وأفضل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الا تجيبونى يا معشر الأنصار؟) قالوا: وما نقول يا رسول الله؟، وبماذا نجيبك؟ المن لله ورسوله: قال: (والله لو شئتم فعبدتم وصدقتم..(٣٣) جئتنا طريدا فأويناك ومكذبا فصدقناك وعائلا فآسيناك (٣٤) وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك) فقالوا: ألمن لله ورسوله، فقال: (أوجدتم على فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لماعة (٣٥) من الدنيا تألقت بها قوما أسلموا (٣٦) ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم الشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار (٣٧) اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ربا ورسوله قسما ثم انصرف وتفرقوا (٣٨) وهذا من عجائب تواضعه ولطفه، ودقائق حكمته وسياسته صلى الله عليه وسلم فقد ذكر ما لعله يختلج فى مثل تلك الحال فى قلوب بعضهم بعد ذكر بعض ما من الله تعالى به عليهم من النعم بهدايته، وما كانوا قبلها إلا قبيلتين من قبائل العرب المعادية المتباغضة لا هم لإحداهما إلا الفتك بالأخرى، فصاروا أعز العرب ومفخرة الإسلام والمسلمين.

وهكذا قرت عيون الأنصار، وامتلأت قلوبهم سكينة وأمنا، إذ عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يخلى مكانه من بينهم ولن يحرمهم هذا الخير الذى ساقه الله إليهم وانهم هم أهل الرسول وأنصاره، وان بلدهم هو بلده وموطنه، وحسبهم هذا، ولساعة من رسول الله بينهم خير لهم من الدنيا وما فيها، وهكذا كان بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاء لما فى الصدور، وجلاء للبصائر، فسكنت الوساوس، وقرت العيون، ولهجت الألسن بالحمد لله رب العالمين.

وهذا البيان الذى كشف به الرسول صلى الله عليه وسلم ما خفى على الناس أمره هو مصداق لقوله تعالى: (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [٣٩] فإن من رحمة الله بعباده المؤمنين إذا طاف بهم طائف من الريب جاءهم بما يكشف الطريق لهم إليه، ويرفع عن بصائرهم ما تغشاه من ريب.

والأنصار ـ فى تاريخ الدعوات ـ مثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى حتى إذا استمرت على سوقها، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها، وتدلت ثمارها وحلا جناها، جاءت أيد غير أيديهم فقطت ما تشتهى، ولم تكتف بذلك بل لطمت أيدى الغارسين، حتى لا تلتقط من الثمارالساقطة قليلا ولا كثيرا.. ولا نقول ذلك تعليقا على توزيع الغنائم فى هذا المقام، فقد اتضح وجه الرشد فى هذه القمة الحصيفة، ولكننا نذكر فى مناقب الأنصار، وافتراض ترفعهم عن الدنيا فى سبيل الدين وتأليف الناس عليه.. أن شئون الحكم ابتعدت عنهم، واجتازها غيرهم، وهم لها أكفاء، فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت فى أيدى الطلقاء.

ولا ريب فى أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى وأن شأن الدنيا أنزل قدرا من أن يأسى عليه رجل العقيدة.. غير أننا نتساءل: أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكام، فيقصى أصحاب السبق وأولوا النصرة، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرا به؟؟[٤٠].

عودة وفد هوازن

وبينما هم فى الجعرانة، وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم، وقال أحدهم: إن ما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شعرا وللنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين[٤١].

ولم يخطىء هؤلاء فى تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم وصلته بهم وقرابته منهم فقد كان بين السبايا أخت له فى الرضاعة، تخطت الكهولة عنف عليها الجند المسلمون فقالت لهم: تعلموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها، وجاءوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: يا رسول الله، إنى أختك من الرضاعة، وقال وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة [٤٢] وعرفها فإذا هى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، فبسط لها رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه وأجلسها عليه وخيرها إن أحبت أبقاها، وإن أحبت متعها ورجعها إلى قومها فاختارت الرجوع إلى قومها.

طبيعى وتلك صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهؤلاء الرجال الذين أقبلوا عليه من هوازن مسلمين أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم، فقد كان دائما شأنه مع كل من أسدى إليه من الدهر يدا، كان عرفان الجميل بعض شأنه والبر والبر بكليم القلب فى جبلته.. فلما سمع مقالتهم قال لهم: (ان معى من ترون، وان أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالاحساب شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما صليت الظهر بالناس[٤٣] فقوموا فقولوا: انا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم) فلما كان الغداة نفذت هوازن ذلك فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم: (أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم) قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وكذلك قال الأنصار [٤٤]، وفى رواية: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد، فإن اخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين، وانى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم [٤٥] فمن أحب أن يطلب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم: (أنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم) فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا [٤٦] وهكذا رد المسلمون كافة السبايا إلى هوازن.

دروس من حنين والطائف

١ـ المباغتة:

(أ) استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم فى حصار الطائف المنجنيق والدبابات، وبذلك استفاد من سلاحين جديدين فى القتال.. هذان السلاحان الجديدان باغت بهما النبى أعداءه فى الطائف ولكن أهل الطائف استطاعوا أن يحرموا المسلمين من هذين السلاحين، وذلك بأسلوب قذف الحديد المصهور على خشب الدبابات، فاحترقت تلك الدبابات، واضطر المحتمون بها إلى الفرار، فأصبحوا بعد انكشافهم هدفا مناسبا لرمى السهام، وبذلك أحبطت ثقيف محاولة المسلمين للإفادة من استعمال المنجنيق والدبابة استعمالا مفيدا حاسما.

(ب) ان أسلوب احتلال ثقيف وهوازن وادى حنين بشكل خفى، مستفيدين من الأراضى المستورة أدى إلى مباغتتهم للمسلمين مباغتة كاملة، ولولا صمود القائد العظيم صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه لاستطاع المشركون استثمار هذه المباغتة الممتازة إلى أقصى الحدود.

٢ـ القيادة:

أى كارثة كانت تحل بالمسلمين بعد هزيمتهم فى أول معركة حنين، لو لم يكن النبى قائدهم وقت ذاك لقد كان موقف المسلمين فى هزيمتهم عصيبا للغاية.. باغتهم العدو من مواضع مستورة فى عماية الفجر، وانهالت عليهم النبال من كل جانب، فلما ارتدوا على أدبارهم طاردهم العدو فى ميدان ضيق لا يتسع للتبعثر الذى يقلل من الخسائر.. فى مثل هذا الموقف

العصيب ثبت النبى العظيم مع عشرة من أصحابه - عشرة فقط. واستطاع أن يجند مائة من المسلمين ثم يحمى بهم انهزام المسلمين من مطاردة المشركين بهؤلاء المائة من الرجال ثم يقوم بالهجوم المقابل بعد فتور زحف هجوم المشركين، فلم يعد المنهزمون إلا بعد فرار المشركين، فوجدوا أسرى المشركين مصفدين بالأغلال فلم يكن موقف المسلمين حين انهزامهم سهلا خاصة وأن حديثى الإسلام كانوا أول المنهزمين، بل المشجعين على الانهزام.. ولم يكن النبى الكريم ينافح المشركين فى موقعه هذا وحسب، بل كان يكافح كثيرا من أعدائه المتظاهرين بالإسلام، وقد رأينا كيف حاول أحدهم اغتياله فى عنفوان هذا الموقف العصيب.

ان نتيجة معركة حنين مثال رائع لأثر القائد الشخصى، بل نستطيع أن نقول: إن نتيجة معركة حنين قد كسبها الرسول وحده بعون من الله.. أما قائد المشركين فعلى الرغم من شجاعته التى بلغت حد التهور، إلا أنه لم يكن قائدا بالمعنى الصحيح، فلم يكن لاستصحاب الأموال والذرارى مع المقاتلين أى معنى، ولم يفكر بخطة غير خطة احتلال وادى حنين، أما بعد فقد ارتبك كل شىء فى صفوف المشركين، لأنه لم يكن لديهم أى خطة للدفاع أو للانسحاب حتى إن قائد المشركين لم يستطع تأمين مسافة لقواته تحمى انسحابها مما أوقع بقواته خسائر فادحة بالأرواح.

٣. المطاردة:

أ) قام المشركون بمطاردة المسلمين بعد انهزامهم فى الصفحة الأولى متفزوة حنين، ولكن الصامدين من المؤمنين وعلى رأسهم النبى صلى الله عليه وسلم استطاعوا تحديد زحف مطاردة المشركين، كما استطاعوا حماية انسحاب المسلمين بدون تدخل المشركين فيه، فكان أول واجب للذين ثبتوا من المسلمين هو قيامهم بواجب الساقة لحماية الانسحاب، وقد نجحت تلك الساقة نجاحا ممتازا، إذ لولاها لكانت خسائر المسلمين كثيرة جدا، خاصة وأن انسحابهم يجرى فى منطقة ضيقة لا تساعد على التبعثر الذى يقلل من الخسائر.

ب) لم يؤمن المشركون ساقة لحماية قواتهم عندما تجمعت بعض قوات المسلمين وقامت عليهم بالهجوم المقابل الذى انهزم على أثره المشركون، لذلك استطاع المسلمون إيقاع الخسائر الفادحة بالمشركين، كما استطاعوا جعل انسحابهم ينقلب إلى هزيمة.

ج) وقد قام المسلمون بمطاردة مثالية استطاعوا بها القضاء على المشركين المتجهين إلى أوطاس ونخلة بينما حمت أسوار وحصون الطائف فرقة المشركين الثالثة التى اتجهت إلى الطائف، وعند ذلك بدأ حصار الطائف بعد تجمع فرق المسلمين هناك.

٤- المعلومات:

أ) أرسل المسلمون قبل حركتهم فى مكة باتجاه حنين أحد رجالهم يعرف حقيقة تحشد هو أزن وثقيف ومواضع تحشدها وقواتها ونواياها، فعاد الرجل بالمعلومات الكاملة، كما أرسل المشركون دوريات استطلاعية لمعرفة اتجاه حركة المسلمين والمواضع التى وصلوها، وقوتهم، وكانت فائدة هذه الدوريات للمشركين كبيرة جدا، لأنهم أنجزوا احتلال وادى حنين بشكل ممتاز قبل وصول المسلمين إليهم وباغتوا فرق المسلمين حين دخولهم فيه.

ب) ان واجب المقدمة المهم هو حماية القسم الأكبر والحصول على المعلومات عن العدو حتى لا تباغت قوات القسم الأكبر، ولم تنجز مقدمة المسلمين هذا الواجب قط فهى لم تستطع معرفة مواضع المشركين التى احتلوها فى وادى حنين، واندفعت المقدمة بسرعة على غير هدف وبصيرة واندفعت قوات المسلمين وراء تلك المقدمة لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر، إذ لو كان هناك خطر لما اندفعت المقدمة، أو لاستطاعت القضاء عليه، وبذلك فشلت مقدمة المسلمين يوم حنين فى واجبها فشلا ذريعا، على الرغم من أنها كانت قيادة خالد بن الوليد.

٥ ـ المعنويات:

أ) هانت معنويات المشركين من أول يوم بدأوا فيه بالتجمع، فقد تخلفت أقوى وأشجع قبائلهم كما تخلف أكثر رجالهم من ذوى العقول والأحلام، وقد اضطر مالك بن عوف قائد المشركين أن يستصحب النساء والأطفال والأموال مع المقاتلين حتى لا يفر أحد من القتال، بل يكافح دفاعا عن عرضه وماله إذا لم يدافع عن غرض آخر، وظهر التردد فى نفوس القبائل المحتشدة للقتال فاضطر مالك أن يهدد قواته بأن ينفذوا أوامره ويطيعوه أو يلجأ إلى الانتحار.

ب) أما معنويات المسلمين فقد كانت عالية إلى درجة الغرور، حتى قالوا يوم زحفهم إلى حنين (لن نغلب اليوم من قلة) لكنهم غلبوا من كثرة مغرورة فى الصفحة الأولى من يوم حنين ولولا ثبات القائد العام صلى الله عليه وسلم لقضى على معظم المسلمين يوم ذاك إن لم يقض عليهم جميعا.

٦- العقيدة:

أ) العقيدة القوية لها أكبر الأثر فى النصر، فهى توحد شعور الناس، وتجعلهم يتعاطفون ويقاتلون لهدف معين معروف، وقد انتصر المسلمون بعقيدتهم فى كل معركة خاضوها تلك العقيدة التى جعلتهم يبذلون أرواحهم وأموالهم رخيصة فى سبيل الله.. بعد فتح مكة أسلم كثير من رجال قريش، فلما تحرك جيش المسلمين باتجاه حنين رافقه حوالى ألفين من هؤلاء المسلمين الحديثى الإيمان الذين لم يعرفوا عن الإسلام إلا اسمه، إذ لم يمض على إسلامهم وقت كاف لتفهم تعاليم الإسلام.. رأى حديثو الإسلام فى طريقهم مع جيش المسلمين نحو حنين شجرة عظيمة خضراء، فتنادوا من جنبات الطريق: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط.. وذات أنواط شجرة ضخمة يأتونها فى الجاهلية كل سنة للتبرك بها فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوما ولم يفقه هؤلاء أن جهاد الرسول كله لغرض واحد.. هو القضاء على الشرك واعلاء كلمة التوحيد بل كان بعض هؤلاء يحملون ازلامهم معهم، ذلك فقد سرهم انهزام المسلمين بل أظهروا شماتتهم وشجعوا عليه.

ب) إن من أسباب هزيمة المسلمين فى الصفحة الأولى من يوم حنين، هو وجود هؤلاء المسلمين من قريش الذين لم تطمئن قلوبهم للإسلام بعد، فانهزموا أول المنهزمين، وأشاعوا الذعر فى النفوس وأثروا على المعنويات.

ج) ان انتصار المسلمين لم يكن لكثرتهم فى أى معركة خاضوها، بل كان انتصارهم لعقيدتهم الراسخة، وأكبر درس يمكننا استنتاجه من معركة حنين هو فشل المسلمين على كثرتهم فى مستهل المعركة لوجود بعض ذوى العقائد الواهنة بين صفوفهم بالإضافة إلى الأسباب الأخرى، أما انتصار المسلمين فى حنين بعد ذلك فكان بثبات ذوى العقائد الراسخة وقيامهم بالهجوم المقابل فانتصروا على الرغم من قلتهم، فقد كانوا مائة رجل كما ذكرت بعض المصادر ولا يتجاوزون الثلث كما نصت عليه بعض المصادر الأخرى.

إن معارك المسلمين مع المشركين كانت معارك عقائد لا معارك عدد وتسليح.

د) ولم يكن للمشركين أية عقيدة واضحة يضحون فى سبيلها بأرواحهم عن طيب خاطر، فاضطروا إلى اصطحاب أهليهم وأموالهم معهم، حتى يدافعوا عنها عندما يعجزهم الدفاع عن شىء آخر.

٧. الفروسية:

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه بامرأة قتيل، فقال: (من قتلها؟) قالوا: قتلها خالد بن الوليد، فقال لبعض من معه: أدرك خالدا فقل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدا عسيفا (أجيرا)، لم يكن قتل المرأة المشركة عمدا بل كان خطأ فى أثناء انهزام المشركين وقيام المسلمين بمطاردتهم وفى مثل هذا الموقف وقع كثير من الأخطاء العسكرية، لأن الحالة النفسية للمنهزمين وللقائمين بالمطاردة تكون غير طبيعية، لذلك حدث مثل هذا الخطأ فى قتل امرأة واحدة، ومع ذلك فقد أراد النهى أن يؤكد أوامره السابقة فى اجتناب قتل الضعفاء.

ان حرب المسلمين حرب فروسية تطلب النصر بوسائل شريفة، وتعف عن الظلم والعدوان.

٨. القضايا الإدارية:

أ) توزيع الغنائم:

أولا: سيطر العامل النفسى بالدرجة الأولى على توزيع الغنائم، وقد تقدم ذلك، وعليه نرى الحكمة التى أرادها الرسول من توزيع أكثر الغنائم على المؤلفة قلوبهم ولكى يظهر الأسلوب الرائع الذى كان يعالج به النبى بعض المشكلات التى كانت تعترضه، وكيف يستطيع بهذه المعالجة الحكيمة التخلص من تلك المشكلات بأسلوب مقنع حكيم، قد كان كلامه صلى الله عليه وسلم للأنصار عند اجتماعهم كلاما صادرا من القلب، لذلك فهو يؤثر فى القلب.

ثانيا: وفى أسلوب جمع الغنائم من الناس والسيطرة عليها ووضعها فى محل واحد، مثال قيم للسيطرة على الغنائم العسكرية وعدم افساح المجال لتبعثرها فى الأيدى دون مبرر.

ب) الإعاشة:

كانت تدابير الإعاشة عند المسلمين جيدة، كما كانت تدابير الاعاشة عند المشركين جيدة أيضا خاصة فى حصار الطائف، فقد كدست ثقيف مواد الاعاشة داخل الطائف بحيث تكفيها

لحطار طويل، لذلك كان من عوامل عودة المسلمين بل استسلام الطائف، هو اعتقادهم بأن ثقيفا لن تستسلم لنقص أرزاقها.

ج) النقل.. كانت وسائل النقل متيسرة بكميات كافية لدى المشركين والمسلمين على حد سواء ويكفى أن تطلع على عدد الغنائم من الإبل التى خلفها المشركون وراءهم لتعرف مقدار النقلية المتيسرة عند المشركين حين ذاك.

د) التسليح.. كان تسليح المسلمين ممتازا بالدروع والأسلحة الأخرى، وبرز لنا فى هذه الغزوة سلاحان جديدان استخدمهما المسلمون هما المنجنيق والدبابة، كما برز لنا أسلوب جديد فى مكافحة الدبابة استخدمه المشركون، هو حرق الدبابة بالحديد المنصهر[٤٧].

(بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكمية[٤٨])

١- كان الله عز وجل قد وعد رسوله - وهو صادق الوعد - انه إذا فتح مكة دخل الناس فى دينه أفواجا ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ليظهر أمر الله وتمام اعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح.

٢- وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها فلا يقاوم بعد أحد من العرب.

٣- ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق أولا مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسا رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا رأسه منحنيا على فرسه حتى إن ذقنه تكاد ان تمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته، واستكانة لعزته أن أحل له حرمه وبلده، ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده.

٤- وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم عن قلة، ان النصر إنما هو من عنده وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التى أعجبتكم فإنها لم تغن عنكم شيئا، فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبكم أرسلت إليها خلع الجهر مع بريد النصر.

٥- وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)[٤٩].

٦- وان الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة فلم يغنموا منها ذهبا ولا فضة ولا متاعا ولا سبيا ولا أرضا [٥٠]،حرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف فى قلوبهم اخراج أموالهم ونعجهم وشياههم وسبيهم معهم نزلا وضيافة وكرامة لحزبه وجنده وتمم تقديره سبحانه بأن أطعمهم فى الظفر وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضى الله أمرا كان مفعولا.

٧- فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه وردت الغنائم لأهلها وجرت فيها سهام الله ورسوله، قيل لا حاجة لنا فى دمائكم ولا فى نسائكم وذراريكم، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاءوا مسلمين، فقيل: إن من شكر اسلامكم واتيانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و(أن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم).

٨- إن الله افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر فيقال: بدر وحنين، وان كان بينهما سبع سنين، والملائكة نزلت تثبت المسلمين وتبشرهم فى هاتين الغزاتين، والنبى صلى الله عليه وسلم رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهما طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله والمسلمين: فالأولى خوفتهم وكسرت من حدهم، والثانية استفرغت قوتهم واستنفدت سهامهم وأذلت جمعهم، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله.

٩- ان الله جبر بها أهل مكة وفرحهم بما نالوه من النصر والمنغم، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم وان كان عين جبرهم وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم إلى غير ذلك من الحكم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى.

١٠- وفيها من الفقه أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم.

١١- وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفى جيشه قوة ومنعة، لا يقعد ينتظرهم بل يسير إليهم كما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوازن حتى لقيهم بحنين.

١٢- وأن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه كما استعار رسول الله صلى الله عليه وسلم أدراع صفوان وهو يومئذ مشرك.

١٣- وان من تمام التوكل استعمال الأسباب التى نصبها الله طسبباتها قدرا وشرعا، فإن رسول الله وأصحابه أكمل الخلق توكلا، وإنما كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح ودخل رسول الله مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: (والله يعصمك من الناس)[51] وضمان الله له العصمة لا ينافى تعاطيه لأسبابها، فإن هذا الضمان لا يناقض احتراسه من الناس، كما أن إخبار الله له بأنه يظهر دينه على الدين كله ويعليه، لا يناقضه أمره بالقتال وإعداد العدة وكان إذا أراد الغزوة ورى بغيرها.

١٤- جواز عقر فرس العدو وركوبه إذا كان ذلك عونا على قتله، كما عقر على حمل حامل راية الكفار وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهى عنه.

١٥- عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن هم بقتله ولم يعاجله، بل دعا له ومسح صدره، حتى عاد كأنه ولى حميم.

١٦- ما ظهر فى هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة من إخباره لشيبة بما أضمر

فى نفسه، ومن ثباته، وقد تولى عنه الناس وهو يقول: (أنا النبى لا كذب، أنا بن عبد المطلب) وقد استقبلته كتائب المشركين.

١٧. إيصال الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منهم، وبركته فى تلك القبضة حتى ملأت أعين القوم إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة لتأييده حتى رآهم العدو جهرة، ورآهم بعض المسلمين.

١٨. جواز انتظار الإمام يقسم الغنائم اسلام الكفار ودخلوهم فى الطاعة، فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم.

١٩. وفى القصة دليل على أن المتعاقدين إذا جعلا بينهما أجلا غير محدود جاز إذا اتفقا عليه ورضيا به.

٢٠. وفى هذه الغزوة قال الرسول: (من قتل قتيلا له عليه بينه فله سلبه) وقاله فى غزوة أخرى قبلها، فهل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط؟

٢١. قوله (له عليه بينة) دليل على مسألتين: احداهما أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر (لا يقبل فى استحقاق سلبه، والثانية الاكتفاء فى ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من غير يمين، لما ثبت فى الصحيح عن أبى قتادة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه فضربته على حبل عاتقه وأقبل على فضمنى ضمة فوجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلنى، فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس فقلت: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه) قال: فقمت فقلت: من يشهد لى؟ ثم جلست ثم قال مثل ذلك، قال: قمت فقلت: من يشهد لى؟ ثم قال ذلك الثالثة، فقمت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مالك يا أبا قتادة) فقصصت عليه القصة فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله وسلب ذلك القتيل عندى، فأرضه من حقه، فقال أبو بكر الصديق لاها لله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صدق) فأعطاه اياه، فأعطانى، فبعت الدرع فابتعت به مخرفا فى بنى سلمة، فإنه لأول مال تأثلته فى الإسلام، وقيل لابد من شاهد ويمين، وقيل لابد من شاهد لأنها دعوى قتل.

٢٢. وفى القصة دليل على أنه لا يشترط فى الشهادة لفظ أشهد.

٢٣. قوله صلى الله عليه وسلم : (فله سلبه) دليل على أن له سلبه كله غير مخمس لتصريحه بهذا لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلا ..(له سلبه أجمع).

٢٤. والحديث يدل على أنه من أصل الغنيمة فإن النبى صلى الله عليه وسلم قضى به للقاتل ولم ينظر فى قيمته وقدره واعتبار خروجه من خمس الخمس.

٢٥. وفيه دلالة على أنه يستحق سلب جميع من قتله وان كثروا، وقد ذكر أبو داود أن أبا طلحة قتل يوم حنين عشرين رجلا فأخذ أسلابهم.

الهوامش

١) ويدل على ذلك أنهم لما نزلوا قال دريد بن الصمة: بأى واد أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهش.. ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا : لم يشهدها أحد منهم، قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علا ورفعه لم يغب عنهم، كعب ولا كلاب ولوددت أنكم فعلتم مافعلت كعب وكلاب، قال: فمن شهدها منكم؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر، قال: ذانك الجزعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. زاد المعاد جـ٢ ص١٨٥، ١٨٦

٢) عدا عقيل بن كعب بن ربيعة، وبشر بن كلاب بن ربيعة، وبنى كلاب بن ربيعة وسائر اخوتهم

٣) زاد المعاد جـ٢ ص ١٨٦

٤) واد فى ديار بنى هوازن فيه كانت وقعة حنين معجم البلدان ١ ـ ٣٧٥

٥) حنين: هو واد قبل الطائف وبين مكة ثلاث ليال معجم البلدان ٢ ـ ٣٥٤. والطائف بلد ثقيف ذات مزارع وأعناب ونخل وموز وسائر الفواكه، وبها مياه جارية.. معجم البلدان ٦ ـ ١٠

٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود بسند صحيح

٧) فقه السيرة ص ٤٢١

٨) صحيح أخرجه ابن هشام وابن جرير كلاهما عن ابن إسحق بسنده الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه

٩) هم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب والعباس عم النبى وأبو سفيان بن الحارس وابنه= = جعفر والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن ابن عبيد ـ قتل يومئذ

١٠) صحيح رواه ابن اسحاق وهو فى مسلم

١١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٤٤

١٢) صحيح أخرجه الشيخان عن البراء

١٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٤٤

١٤) تفرد به مسلم عن البراء

١٥) صحيح رواه مسلم عن العباس

١٦) نخلة: واد فى الحجاز: بينه وبين مكة مسيرة ليلتين.. معجم البلدان ص٨ ـ ٢٧٦

١٧) صحيح ذكره ابن اسحاق بدون اسناد، ومعناه فى البخارى وابن جرير.

١٨) زاد المعاد جـ٢ ص ١٨٨

١٩) الجعرانة بالكسر، ماء بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب، معجم البلدان (٣ ـ ١٠٩)

٢٠) صحيح أخرجه البخارى

٢١) ذكر ابن هشام نحوه عن ابن اسحق بدون اسناد، ورواه ابن جرير عنه عن عبد الله بن أبى بكر مرسلا، واعطاؤه صل يالله عليه وسلم للمؤلفة قلوبهم منهم أبو سفيان ثابت فى مسلم

٢٢) رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود واللفظ للبخارى

٢٣) فى رواية الواقدى: أنه معتب بن قشير بن عوف وكان من المنافقين

٢٤) المراد بالنهب الغنيمة والعبيد ـ مصغرا ـ اسم فرسه وكان يكون للفرس سهم

٢٥) بدر جد أبى عيينة وكان ينسب إليه تارة وإلى أبيه حصن تارة، وإنما تفعل العرب ذلك فى الجد المشهور كما كان ينسب النبى صلى الله عليه وسلم إلى جده عبد المطلب.

٢٦) رواه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث رافع بن خديج

٢٧) صحيح رواه أحمد والبيهقى بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، والبخارى عن جبير بن مطعم إلى قوله: (كذابا) والباقى عند الحاكم من حديث عبادة بن الصامت وعند البيهقى من حديث عمرو ابن عنسبة

٢٨) فى المسند وسنده صحيح على شرط مسلم

٢٩) صحيح أخرجه البخارى ومسلم

٣٠) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن سعيد بن المسيب وسعيد لم يسمع من صفوان شيئا

٣١) رواه الشيخان من حديث أنس واللقط للبخارى
٣٢) الحظيرة هى فى الأصل مكان يتخذ للإبل والغنم يمنعها الانفلات، ويمنعها هجمات اللصوص والوحوش
٣٣)الأولى بفتح الصاد مبنيا للمعلوم والثانية بضمها مبنيا للمجهول
٣٤) فى زاد المعاد : (فواسيناك)
٣٥) اللماعة بالفتح بقلة حمراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها، والمراد الشىء القليل التافه
٣٦) فى زاد المعاد: (للموا)
٣٧) هذه الجملة من زاد المعاد جـ٢ ص١٨٩
٣٨) حديث صحيح رواه أحمد وابن هشام وابن جرير كلهم عن ابن إسحق بسنده الصحيح عن أبى سعيد الخدرى، وذكره ابن كثير فى البداية عن رواية يونس بن بكير عن ابن أسحق والسياق له، ثم قال ابن كثير: وهو صحيح، والقصة فى البخارى بنحوها مختصرا
٣٩) التوبة ١١٥
٤٠) فقه السيرة ٤٢٨ ـ ٤٣٠
٤١) حياة محمد للدكتور هيكل ص ٤٣٦
٤٢) زاد المعاد جـ٢ صـ١٨٩
٤٣) فى زاد المعاد: (صليت الغداه)
٤٤) ولكن الأقرع بن حابس عن تميم،وعيينة بن حصن عن فزارة رفضا اعادة السبى، كما رفض عباس بن مرداس، هنالك قال النبى صلى الله عليه وسلم (أما من تمسك منكم بحقه من السبى فله بكل إنسان ستة فرائض من أول سبى أصيبه).
٤٥) وفى رواية للبخارى :(وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال، فلم يعدلوا بالاحساب شيئا)
٤٦) أخرجه البخارى عن مروان والمسور بن مخرمة معا.
٤٧) الرسول القائد للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٣٦٩ ـ ٣٨٣
٤٨) زاد المعاد لابن القيم جـ٢ صـ١٨٩ وما بعدها مع تصرف
٤٩) القصص ٥، ٦
٥٠) كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال: سألت جابرا هل غنموا يوم الفتح شيئا؟ قال: لا، وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب وهم عشرة آلاف وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة.
٥١) المائدة آية ٦٧

الملحق الثانى

بعض ما يستنبط من الأحكام المأخوذة من الآيات التى ذكرت فى هذا الباب:

أولا: قوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) تفيد دلالة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على الإسلام، وتوجب لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ دمه وماله، إلا بما يوجبه عليه الشرع من جناية تقضى حدا معلوما أو جريمة توجب تعزيرا أو تغريما.

واستدل بها بعض أئمة الفقه على كفر من يترك الصلاة ويمتنع عن أداء الزكاة، وذلك أنها اشترطت فى صحة إسلام المشركين وعصمة دمائهم مجموع الثلاثة الأشياء: ترك الشرك وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة، فإذا فقد شرط منهم لم يتحقق الإسلام الذى يعصم دم المشرك المقاتل، وقال بعضهم: بل يكفر تارك الصلاة دون مانع الزكاة، لا مكان أخذها منه بالقهر ووجوب قتال مانعيها كما فعل أبو بكر، وقال آخرون: إن ترك الصلاة ومنع الزكاة من المعاصى لا يخرج تارك احداهما ولا كلتيهما من الإسلام، ولكن تاركهما يقتل حدا لا كفرا وقال بعضهم بذلك فى الصلاة وحدها، وان صيام رمضان وحج البيت على المستطيع لا يكفر تاركهما إلا إذا استحل هذا الترك أو جحد وجوبهما [1] بعد العلم الذى تقوم به الحجة.

بيان المذاهب فى ذلك وأدلتها:

وقد ذهب إلى كفر تارك الصلاة من فقهاء الأمصار أحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك وإسحق ابن راهويه ويروى عن على كرم الله وجهه ولكن العترة وجماهير السلف والخلف ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعى على أنه لا يكفر، بل يفسق فيستتاب، فإذا لم يتب قتل حدا عند مالك والشافعى وغيرهما، وقال أبو حنيفة وبعض فقهاء الكوفة والمزنى صاحب الشافعى لا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلى.

استدل القائلون بكفر تارك الصلاة:

١ـ بآيتنا هذه على النحو المتقدم، وعززوا هذا الاستدلال بالأحاديث الصحيحة فى معناها كحديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) رواه الشيخان [2]وحديث

أنس: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله [٣] رواه البخارى وأصحاب السنن الثلاثة، ولم تذكر فيه الزكاة ولكن اشترط فيه أن ذبحوا ذبيحتنا، والمراد لازمها وهو ترك ذبائح الشرك، يعنى إن ذبحوا وجب أن يذبحوا باسم الله دون سم غيره من معبوداتهم التى كانوا يهلون بأسمائها عند الذبح.

وأعترض: بأن هذا الحديث ورد فى الصحاح والسنن بألفاظ مختلفة، منها الاقتصار على الشهادتين كحديث أبى هريرة مرفوعا: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) متفق عليه [٤] بل صرحوا بتواتره كما فى الجامع الصغير، وفى بعضها الاقتصار على كلمة لا إله إلا الله، فدل ذلك على أن ترك الصلاة ومنع الزكاة لا يعد كفرا، ولا يخرج تاركهما أو احداهما من الإسلام بل هما من المعاصى كما يقتضيه هذا الحديث، وهو أصح من حديثى ابن عمرو وأنس.

وأجيب: بأن فى الحديثين زيادة على ما فى حديث أبى هريرة، وهى زيادة ثقة وزيادة الثقة مقبولة، والمطلق يحمل على المقيد.

٢. واحتجوا أيضا بأحاديث أخرى هى أظهر فى الاستدلال على مدعاهم من هذه الآية وهذا الحديث، أصرح هذه الأحاديث حديث جابر مرفوعا :(بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) وفى رواية: (الشرك)[٥] رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى، وحديث بريدة مرفوعا.:(العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[٦] يعنى بيننا وبين الكفار رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وأصرح منهما حديث أنس (من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر)[٧].

٣. ولأن للصلاة والزكاة شأنا ليس لغيرهما من أركان الإسلام وشرائعه حتى المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وهو أن تركهما يعد كفرا، بمعنى الخروج من الملة بعد الدخول فى الإسلام أو النشوء فيه، حتى مع الاعتراف بحقيقته وكونهما من أركانه ولتسمية الشارع لتارك الصلاة بذلك قال الشوكانى: والحق أنه كافر يقتل، أما كفره فلأن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم، وجعل الحائل بين الرجل وبين جواز اطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاة، فتركها مقتض لجواز الاطلاق ولا يلزمنا شىء من المعارضات التى أوردها المعارضون، لأنا نقول: لا يمنع أن يكون بعض أنواع الكفر غير مانع من المغفرة واستحقاق الشفاعة ككفر أهل القبلة ببعض الذنوب التى سماها الشارع كفرا.

مذهب الشافعية:

أن من ترك صلاة واحدة كسلا بشرط اخراجها عن وقت الضرورة بأن لا يصلى الظهر مثلا حتى تغرب الشمس، قتل حدا لا كفرا.. واستدلوا على ذلك:

١. بهذه الآية، وبحديث بن عمر: (أمرت أن أقاتل الناس) الحديث.

وجه الدلالة: أنه تعالى أباح دماء الكفار مطلقا بجميع الطرق، ثم حرمها عند مجموع هذه

الثلاثة الأشياء: وهى التوبة عن الكفر وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة.. فعندما لم يوجد هذا المجموع وجب أن يبقى اباحة الدم على الأصل.

فإن قالوا: لم لا يجوز أن يكون المراد الاقرار بهما واعتقاد وجوبهما؟ والدليل عليه أن تارك الزكاة لا يقتل، أجابوا عنه: بأن ما ذكرتم عدول عن الظاهر، وأما فى تارك الزكاة فقد دخله التخصيص.

فإن قالوا: لم كان حمل التخصيص أولى من حمل الكلام على اعتقاد وجوب الصلاة والزكاة؟

قلنا: لأنه ثبت فى أصول الفقه أنه مهما وقع التعارض بين المجاز وبين التخصيص فالتخصيص أولى بالحمل.

وبيان الفرق بين الصلاة والزكاة أن الآية والحديث شرطا فى الكف عن القتل والمقاتلة الإسلام وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة، لكن الزكاة يمكن للإمام أخذها ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا منها وقاتلونا، فكانت المقاتلة على حق فيها بمعنى القتل، فعلم وضوح الفرق بين الصلاة والزكاة، وكذا الصوم فإنه إذا علم أنه يحبسنى طول النهار نواه، فأجدى الحبس فيه، ولا كذلك الصلاة، فتعين القتل فى حدها.

ونقل عن أبى بكر رضى الله عنه أنه كان يقول فى مانعى الزكاة: (والله لأقاتلن فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال) وفى رواية: (لا أفرق بين ما جمع الله) ولعل مراده كان هذه الآية، لأنه تعالى لم يأمر بتخلية سبيلهم إلا لمن تاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فأوجب مقاتلة أهل الردة لما امتنعوا عن الزكاة وهذا يبين أن جحدوا وجوبها، أما أن أقروا بوجوبها وامتنعوا عن الدفع إليه خاصة فمن الجائز أنه كان يذهب إلى وجوب مقاتلتهم من حيث امتنعوا من دفع الزكاة إلى الإمام، وقد كان مذهبه أن ذلك معلوم من دين رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعلم سائر الشرائع الظاهرة.

واعترض على الفرق بين الصلاة والزكاة: بأن ظاهر هذا قول بالجمع بين الحقيقة والمجاز فى الآية والحديث، لأن الصلاة والزكاة فى كل منهما، وفى الآية القتل، وحقيقة لا تجرى فى مانع الزكاة، وفى الحديث المقاتلة، وحقيقتها لا تجرى فى تارك الصلاة، فلابد أن يراد مع القتل المقاتلة فى الآية، ومع المقاتلة القتل فى الحديث، ليتأتى جريان ذلك فى تارك الصلاة ومانع الزكاة، والجمع بين الحقيقة والمجاز لا يجوز عندنا - أى عند الأحناف - على أن حمل الآية والحديث على ذلك مما لا يكاد يتبادر إلى الذهن فالنقض بمانع الزكاة فى غاية القوة.

وفى الحواشى الشهابية: ان المزنى من جلة الشافعية أورد على قتل تارك الصلاة تشكيكا تحيروا فى دفعه - كما قال السبكى فى طبقاته - فقال: إنه لا يتصور، لأنه أما أن يكون على ترك صلاة قد مضت أو لم تأت، والأول باطل، لأن المقضية لا يقتل بتركها والثانى كذلك، لأنه ما لم يخرج الوقت فله التأخير، فعلام يقتل؟ وسلكوا فى الجواب مسالك: الأول أن هذا وارد أيضا على القول بالتعزير والضرب والحبس - كما هو مذهب الحنفية - فالجواب الجواب، هو جدلى.

الثانى: أنه على الماضية، لأنه تركها بلا عذر.

ورد: بأن القضاء لا يجب على الفور، وبأن الشافعى رحمه الله قد نص على أنه لا يقتل بالمقضية مطلقا.

الثالث: أنه يقتل على ترك المؤداة فى آخر وقتها.

ورد: بأنه يلزمه أن المبادرة إلى قتل تارك الصلاة تكون أحق منها إلى المرتد، إذ هو يستتاب، وهذا لا يستتاب ولا يمهل، إذ لو أمهل صارت مقضية وهو محل كلام.

الرابع: وهو أصحها ـ أنه لا يقال: لا قتل بالحاضرة لأنه لم يخرجها عن وقتها، ولا بالخارجة عنه لأنه لا قتل بالقضاء وإن وجب فورا، لأنا نقول: بل يقتل بالحاضرة إذا أمر بها من جهة الإمام أو نائبه دون غيرهما فيما يظهر فى الوقت عند ضيقه، وتوعد على اخراجها عنه، فامتنع حتى خرج وقتها، لأنه حينئذ معاند للشرع عنادا يقضى مثله القتل، فهو لس لحاضرة فقط، ولا لقائته فقط، بل لمجموع الأمرين: الأمر والإخراج مع التصميم .. ثم إنهم قالوا: يستتاب تارك الصلاة فورا ندبا، وفارق الوجوب فى المرتد بأن ترك استتابته توجب تخليده فى النار إجماعا، ولا يضمن عندهم من قتله قبل التوبة مطلقا، لكنه يأثم من جهة الافتيات على الإمام.

فإن قيل: إن من ترك صلاة واحدة وصلى ما بعدها يكفر بترك ما ترك ويعود إلى الإسلام بأداء ما أدى، قلنا: إذا كان ترك الأولى كفرا بمعنى الخروج من الإسلام فلا يصح من فاعله التلبس بالثانية إلا إذا جدد إسلامه بالتوبة من الكفر والنطق بالشهادتين، ويترتب على القول بكفره أحكام عظيمة الخطر، منها حبوط جميع ما عمل من خير وبر، واستحقاق القتل، وأنه إذا مات لا يصلى عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين، ويكون ما له فيئا لا يرثه ورثته، وناهيك بقول من قال: لا يشترط فى قتل المرتد استتابته، وهى رواية عن أحمد.

وقد ذكر السبكى فى طبقات الشافعية أن الشافعى وأحمد تناظرا فى تارك الصلاة، فقال الشافعى يا أحمد، أتقول إنه يكفر؟ قال: نعم، قال : إذا كان كافرا فيم يسلم؟ قال؟ يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال الشافعى: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه، قال: يسلم بأن يصلى، قال: صلاة الكافر لا تصح ولا يحكم بالإسلام بها، فانقطع الإمام أحمد رحمهما الله.

وذهب الأحناف إلى أن تارك الصلاة لا يقتل لا كفرا ولا حدا، بل يحبس ويعزر قالوا:

١ـ لأن الاستدلال بالآية على قتل تارك الصلاة مبنى على القول بمفهوم الشرط وهو غير مسلم عندنا، ورد بأن مفهوم الشرط من ضروريات اللغة ومراء بعض الجدليين من الأصوليين فيه مردود لا قيمة له.

٢ـ قالوا: ولو سلمنا مفهوم الشرط فالتخلية الاطلاق عن جميع ما مر، وحينئذ يقال تارك الصلاة لا يخلى، ويكفى لعدم التخلية أن يحبس.

٣ـ على أن ذلك منقوض بمانع الزكاة عندهم.

٤ـ يجوز أن يراد بإقامتهما التزامهما، وإذا لم يلتزمهما كان كافرا، إلا أنه خلاف المتبادر وإن قاله بعض المفسرين.

٥. حملوا أحاديث التكفير على الجاحد أو المستحل للترك، وعارضوها ببعض النصوص العامة كحديث (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله: إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٨] متفق عليه من حديث ابن مسعود، ورواه مسلم وبعض أصحاب السنن من حديث عائشة بما يفسر أو يخصص معنى المفارق للجماعة بالخارج المقاتل وهو (ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض).

وأعترض: بأن ترك الصلاة كفر ومفارقة للجماعة، فتاركها لا يدخل فى عموم المستثنى منه.

«مناقشة استدلالهم بالآية والأحاديث»

إذا ألقينا نظرة فاحصة على سياق الآية وسياقها . نظرة بعيدة عن التعصب لأى مذهب - لوجدنا أن الآية وكذا حديث ابن عمر الذى فى معناها ليسا بصدد ذكر أمور هى شرائط الإسلام التى يكفر تاركها، ولا بصدد متى يكفر المؤمن؟ وما إذا كان يكتفى بها من النائب دون بقية أركان الإسلام المعروفة، فما أعتقد أن الآية والحديث بصدد شىء من هذا كله.. فهما لا يدلان على أن المسلم إذا ترك بعض الصلوات لكسل أو شاغل لا يعد عذرا شرعيا يكون بذلك مرتدا عن الإسلام، تجرى عليه أحكام المرتدين إذا لم يتب عقب أول فريضة تركها، أو الثانية إن كانت تجمع معها، بأن يجدد إسلامه ويصليها، ولا يدلان كذلك على وجوب قتله حدا كقتل من قتل مؤمنا متعمدا.

لا يدلان على ذلك بمنطوقهما ولا بمفهوم الشرط على القول الحق بحجيته.. فإن موضوع كل منهما بيان ما يشترط للكف عن قتال المشركين المحاربين، لا بيان لحقيقة الإسلام وما ينافيه وما يعد ارتدادا عنه بعد الدخول فيه.

فإن قلت: ظاهر لفظ الحديث أنه مطلق عام فى قتال كل الكفار لا فى المشركين كالآية قلت: أولا أن الله تعالى جعل لقتال أهل الكتاب فى هذه السورة غاية أخرى غير هذه الغاية العامة وهى اعطاء الجزية، وهى ليست ناسخة ولا مخصصة للآية، لاختلاف موردهما وهذا يعارض عموم الحديث، فيترجح حمله على قتال المشركين كالآية، ليكون معناه صحيحا محكما، وكان من فقه البخارى فى أبواب صحيحة إيراده تابعا للآية فى باب واحد من كتاب الإيمان.

ثانيا: أنه على كل حال وارد فى بيان الغاية التى ينتهى إليها قتال من يقاتلنا من الكفار فلا يدخل فى معناه بيان ما يصير به المؤمن كافرا.

ثالثا: أن قتال الكافرين غير قتل من عساه يستحق القتل من المسلمين . كما بينه فى المسألة بعض العلماء المدققين . فالقتال فعل يشترك بين فريقين، والقتل الشرعى تنفيذ حكم على مجرم ثبت عليه.

رابعا: من أراد جعل هذا الحديث دالا على غير ما تدل عليه الآية من حكم ردة أو حد بقتل مسلم يرد عليه اعلاله بما ينزل به عن درجة الصحة التى يثبت بها مثل هذه الأحكام العظيمة

الشأن، وهو أن فى اسناده من الغرابة المضاعفة ما استغرب معه بعض نقاد الحديث تصحيح الشيخين له مع امتناع الإمام أحمد عن إيراده فى سنده على سعته واحاطته بأمثال هذه الأحاديث، وقد صرح قوم من العلماء باستبعاد صحته، كما قال الحافظ فى شرحه من الفتح [٩]وهو مخالف لحديث أبى هريرة الذى خرجه الجماعة كلهم، وقال بعضهم بتواتره، وليس فيه زيادة الصلاة والزكاة، وهو أولى بالترجيح، ثم إنه يعارضه نصوص أخرى من الكتاب والسنة، وهى التى أخذ بها الجمهور، فثبت أن القول بدلالته على ما ذكر اجتهادية، ولا تكفر مسلما إلا بنص قطعى لا خلاف فى روايته ولا فى دلالته.

بيان المراد من الآية:

والتحقيق أن المراد من الآية والأحاديث المختلفة الألفاظ، هو ترك الكفر والدخول فى الإسلام وللدخول فى الإسلام صيغة وعنوان يكتفى به فى أول الأمر، ولاسيما مواقف القتال، وهو النطق بالشهادتين، وقد يكتفى من المشرك بكلمة «لا إله إلا الله» لأنهم كانوا ينكرونها وهى أول ما دعوا إليه، بل أنكر النبى صلى الله عليه وسلم على خالد بن الوليد قتل من قتل من بنى جزيمة بعد قولهم: «صبأنا» وقال «اللهم إنى ابرأ إليك مما فعل خالد» وذلك انهم كانوا يعبرون بهذه الكلمة عن الإسلام، فيقولون: صبأ فلان إذا أسلم، والحيث فى مواضع من صحيح البخارى وغيره.

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى كل مقام ما يناسبه، والمراد مايعلم من جملة أقواله علما قطعيا وهو ما ذكرنا من تلك الكفر والدخول فى الإسلام الذى لا يتحقق بعد النطق بعنوانه من الشهادتين أو إحداهما فى بعض المواضع إلا بإقامة أركانه والتزام أحكامه بقدر الاستطاعة بحيث إذا ترك المسلم شيئا منها بجهالة من ثورة غضب أو ثورة شهوة أو كسل تاب إلى الله تعالى واستغفر.

ومن المعلوم أن اليهود من أهل الكتاب كانوا يقولون: لا إله إلا الله، فالنطق بهاوحدها من أحدهم لا يدل على قبول الإسلام، كما يدل قول أحد مشركى العرب له، ووجدت طائفة منهم كانت تقول: إن محمدا رسول الله إلى العرب وحدهم، وقد اتفق علماؤنا بحق على أن من قال منهم : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لا يعتد بإسلامه إلا إذا اعترف بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا»[١٠] وما فى معناه.

فالإسلام هو الإذعان العملى لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أمر الدين فعلا كان أو تركا، ولا يكون الإذعان بالعمل إسلاما صحيحا مقبولا عند الله تعالى إلا إذا كان اذعانا نفسيا وجدانيا مبعثه الإيمان بصحة رسالته، فإن المنافقين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم: نشهد انك لرسول الله ويصلون ويزكون ويجاهدون» والله يشهد ان المنافقين لكاذبون.

ومتى كان الإيمان يقينيا كان الاذاعان نفسيا وجدانيا، وتبعه العمل بالضرورة فى جملة التكاليف وعامة الأوقات، ولا ينافيه ترك واجب فى بعض الأوقات لصارف عارض أو فعل محظور لعارض غالب بحيث إذا زال السبب ندم المخالف ولام نفسه واستغفر الله كما تقدم

آنفا وذلك قوله تعالى «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» إلخ فمن ترك صلاة أو أكثر لبعض الشواغل وهو يستشعر أنه مذنب ويرجو مغفرة الله تعالى وينوى القضاء، لا يكون تركه هذا منافيا لإذعانه النفسى لأصل الأمر والنهى الذى يقتضيه الإيمان اليقينى، وإن كان هذا الرجاء مع عدم العذر يعد من الغرور.

وأما عدم المبالاة بالصلاة وغيرها من فرائض الإسلام وأوامره، وعدم الانتهاء عن الفواحش والمنكرات من نواهيه فإنه ينافى الإذعان الذى هو حقيقة الإسلام ولا يعقل إيمان صحيح بغير إسلام، ولا إسلام صحيح ظاهره كباطنه بدون إيمان، فهما متلازمان فى حال الامكان فمن نطق بالشهادتين من الكفار وأبى أن يلتزم فرائض الإسلام وترك محرماته القطعية مصرحا بذلك لا يعتد بإسلامه ومن لم يصرح ولم يفعل فهو مخادع قطعا، وقد يظهر القيام ببعضها نفاقا كما ثبت عن بعض الأجانب السياسيين انهم أظهروا الإسلام لدخول الحجاز أو اختيار المسلمين وجملة القول: ان المراد من اشتراط الثلاثة الأشياء للكف عن قتال المشركين بعد بلوغ الدعوة وظهور الحجة هى تحقق الدخول فى جماعة المسلمين بالفعل، فإن التوبة عن الشرك وحدها - وهى الشرط الأول - لا تكى لتأمينهم واباحة دخول المسجد الحرام والحج مع المسلمين وسائر المعاملات التى تثبت لمن يقيم فى الحجاز وسائر جزيرة العرب، وان كان التعبير عن هذه التوبة بالنطق بكلمة التوحيد أو الشهادتين كلتيهما كافيا فى موقف القتال للكف عنهم - كما تقدم آنفا - ولكنه لا يكفى بعد ذلك لمعاملة من ينطق بهما معاملة المسلمين فى عامة الأوقات، بل لابد من التزام شرائع الإسلام وإقامة شعائره، فمقتضى الشهادة الأولى لمن كان صادقا فى النطق بها ترك عبادة غير الله تعالى من دعاء، أو ذبيحة أو غيرها، ومقتضى الشهادة الثانية طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى، فإذا لم يكن العمل الذى تقتضيه الشهادتان مؤيدا لهما كانتا خداعا وغشا، ولما كانت شرائع الإسلام القطعية من فعل وترك كثيرة وكان الكثير منها لا يتعلق به التكليف فى حال الدخول فى الإسلام كالصيام والحج من الأركان اكتفى باشتراط الركنين الأعظمين: وهما الصلاة التى تجب خمس مرات فى كل يوم وليلة وهى الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين المسلمين، والزكاة، وهى الرابطة المالية السياسية الاجتماعية .. ومن أقامهما كان أجدر بإقامة غيرهما.

ومن المعلوم بالضرورة أن من قبل من المشركين أن يسلم ويصلى ويؤدى الزكاة وامتنع من الإذعان لصيام رمضان والحج مع الاستطاعة لا يعتد بإسلامه أيضا، وكذلك إذا كان لا يحرم ما حرمه الله ورسوله قطعا، والنبى لم يقبل من الأعرابى ماشرطه فى إسلامه من اباحة الزنا، وأن بين استباحة الذنب وعدم الاذعان لحكم الله فيه وبين فعله مع الاذعان والإيمان فرقا واضحا وبونا بينا.

وبعد، فإن هذه الآية إنما هى نص كان يواجه واقعا فى مشركى الجزيرة يوم ذاك فما كان أحدهم ليعلن إسلامه ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة الا وهو يعنى الإسلام، ويعنى استسلامه له ودخوله فيه، فنصت الآية على التوبة وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة، لأنه ما كان ليفعل هذا منهم فى ذلك الحين إلا من نوى الإسلام وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه وفى أولها الدينونة لله

وحده بشهادة أن لا إله إلا الله والاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة أن محمدا رسول الله، فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهي، إنما هي بصدد اجراء واقعي له ملابساته.

كلمة نهائية في الموضوع:

ان الذى يطمئن به القلب ويقتضيه فقه الدين وكونه رحمة لا نقمة ومنحة لا محنة أن من كان صحيح الإيمان والإسلام لا يخرج من الدين بترك صلاة أو أكثر بعذر أو كسل فيحبط عمله ويستحق الخلود فى النار، كما أنه لا يعقل أن يترك الصلاة دائما أو غالبا، بأن يجعلها من العادات القومية أو الاجتماعية، يوافق عليها المعاشرين أحيانا، ويتركها أحيانا، بحيث إذا صلى لا يقيم الصلاة بباعث الأمر الإلهى ونية القربة والجزاء فى الآخرة وإذا تركها يتركها غير مبال ولا متأثم، كما يترك عادة من العادات المألوفة بين أهله وقومه، هذا شأن من ليس له من الإسلام إلا اللقب الموروث، من الملاحدة والزنادقة الذين لا يؤمنون بالوحى ولا بالبعث والجزاء، قد وصف الله المنافقين بقوله (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا)[11].

فهل يكون مؤمنا صادقا من هو دونهم فى هذا؟

ويوجد من مسلمى التقاليد الجاهلين بحقيقة الدين وما شرعه الله فيه من إصلاح الأفراد والجماعات من يترك الصلاة أياما وشهورا، وربما تمر السنة والسنون لا يصلى فيها إلا بعض الجمع والأعياد وقليلا من الفرائض وهو يؤمن بالله ورسوله وباليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء إيمانا تقليديا ناقصا مشوبا بشيء من الجهل والخرافات، فهو فى تركه للصلاة وفى غيره من المخالفات يعتقد أنه آثم ولكنه يتكل على مغفرة الله ورحمته، أو على مكفرات الذنوب من حج وغيره، أو على شفاعة الشافعين.

وقد ورد فى هذه الثلاث أحاديث كثيرة منها الصحيح والضعيف والموضوع وهى تذكر فى بعض الكتب المتداولة وخطب الجمعة المطبوعة التى يختارها على غيرها خطباء الفتنة الجاهلون والوعاظ الخرافيون يتقربون بها إلى العوام ليهونوا عليهم ارتكاب الآثام ولينالوا إعجاب الجماهير واستحسانهم لهم والثناء عليهم، وناهيك بحديث عتقى الملايين فى رمضان، وهو افتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماذا تقول فى حديث السجلات الذى عنى بعض المحدثين بإثباته وهو أشد المجرئات على ترك الفرائض وارتكاب الموبقات.

فهؤلاء العوام الذين يغترون بهذه الروايات إذا قلنا بصحة إسلامهم التقليدى معذورون فى عدم التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، وعدم الجمع بين مايصح منها وما يعارضها من نصوص الكتاب والسنة الواردة فى الترهيب والنذر، هم معذورون بالجهل حتى بما كان يعد فى القرون الخالية معلوما من الدين بالضرورة ولم يعد كذلك، فيجب على أهل العلم الصحيح تعليمهم ما يذهب بغرورهم كتقييد الآيات والأحاديث الواردة فى المغفرة بمثل قوله تعالى: (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) [12] وقوله حكاية لدعاء الملائكة للمومنين،

«فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) [١٣] وقوله تعالى فى التوبة المقبولة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما) [١٤] وأمثال هذه الآيات ومن تناله الشفاعة فى الآخرة مجهول، فهى مقيدة بقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى).

والعلماء يخصون ما ورد فى مكفرات الذنوب ومغفرتها بالصغائر بأدلة منها قوله تعالى: ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما [١٥] وقوله الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم إن ربك واسع المغفرة [١٦] أى لهم، لأن الآيات والأحاديث الواردة فى العقاب على الذنوب كثيرة، وهى نصوص قطعية لا يجوز تخلفها مطلقا، ولهذا كان من أصول العقيدة أن نفوذ الوعيد فى بعض العصاة حق، فإذا عورضت نصوص العقاب المطلقة بنصوص المغفرة المطلقة جاءت النصوص المقيدة لها بالتوبة وإصلاح العمل واجتناب الكبائر حكما جامعا بين المطلقات.

وبقى الخطر على غير التائب المصلح، فيجب عليه أن يغلب الخوف على الرجاء. إن صح أن يسمى غروره بجهله رجاء. وما الرجاء الصحيح إلا لمن سعى للمغفرة سعيها بالتوبة والعمل ورجاء الله قبولها.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها.. إن السفينة لا تجرى على اليبس

ومهما يكن من عذر للجاهل بما ورد فى المغفرة وكفارات الذنوب فلا عذر له فى ترك الصلاة وهى عمود الإسلام الذى يقوم عليه بناؤه، وأعظم مكفرات الذنوب، وقد صحت الأخبار النبوية والآثار عن الصحابة بكفر تاركها ومن هذه الآثار ما رواه الترمذى والحاكم من أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعدون شيئا من المعاصى كفرا إلا ترك الصلاة [١٧].

وما اعتدناه فى تأويلها لا يدخل فيه من يتركها فى عامة أوقاته بحيث ما يصليها إلا قليلا لأسباب عارضة، وإنما هو فى من يترك صلاة أو صلوات قليلة متفرقة لأمر عارض، ثم يتوب إلى الله، فيجب على الوعاظ والخطباء أن يبينوا لهؤلاء العوام خطر ترك الصلاة وان كل من يصدق عليه أنه تارك للصلاة فهو كافر، كما ورد فى أخبار وآثار كثيرة، اكتفينا فى أول هذا الملحق بذكر بعضها وليراجع جملتها من شاء فى كتاب الصلاة من كتاب الزواجر فهى مخيفة جدا، ثم نعود بعد ذلك إلى موضوعنا الأصلى وهو بعض ما يستنبط من أحكام هذا الباب.

ثانيا: ويستفاد من قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) الأمور الآتية:

١- تدل على أن المقصود من شرع القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد.

٢- وتدل أيضا على أن النظر فى دين الله أرفع المقامات وأعلى الدرجات، فإن الكافر الذى صار دمه مهدرا لما أظهر من نفسه أنه طالب للنظر والاستدلال زال ذلك الاهدار ووجب على المسلم أن يبلغه مأمنه.

٣- وهذه الآية أصل عند الفقهاء فى اباحة تأمين المشرك، وقد توسع الإسلام فى باب الأمان، فقرر به عصمة المستأمن وأوجب على المسلمين حمايته فى نفسه وما له مادام فى دار الإسلام، وجمل لأفراد المسلمين حق اعطاء ذلك الأمان «ويسعى بذمتهم أدناهم» ولم يشترط فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم، بأن لا تبدو على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين ولا ينسى الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للأفراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة وتقديره لوجود المصلحة حق ابطال أى أمان لم يصادف محله، أو لم يستوف شروطه كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك.

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى، وفى سائر الشئون ما لم يتصل منها بضرر الدولة.. ومن هذا يحرم عليهم بيع السلاح والعتاد الحربى إلى أعداء الإسلام.

وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية لنشر دعوته وايصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال.

قال الرازى: قال الفقهاء: الكافر الحربى إذا دخل دار الإسلام كان مغنوما مع ماله إلا أن يدخل مستجيرا لغرض شرعى كاستماع كلام الله رجاء الإسلام أو دخل لتجارة، فإن دخل بأمان صبى أو مجنون فأمانهما شبهة أمان فيجب تبليغه مأمنه، وهو أن يبلغ محروما فى نفسه وما له إلى مكانه الذى هو مأمن له، ومن دخل منهم دار الإسلام رسولا فالرسالة أمان، ومن دخل ليأخذ مالا فى دار الإسلام وله أمان، فأمان ماله أمان له(١٨).

وقال العماد بن كثير فى تفسير الآية: والغرض ان من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا، أعطى أمانا مادام مترددا فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من الاقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى(١٩).

وما ذكره ابن كثير هو المعروف عند أصحابه الشافعية، وفى الترغيب من كتب الحنابلة ويشترط لصحة الأمان عدم الضرر علينا، وأن لا تزيد مدته على عشر سنين، وفى جواز إقامتهم بدارنا هذه المدة بلا جزية وجهان (٢٠).

والتحقيق أن مثل هذه الأحكام التى لا نص فيها من الشارع تناط بالمصلحة وتفوض إلى

أولى الأمر من الأئمة والحكام وقواد الجيوش، مع ملاحظة أنه يجب على الإمام مراعاة اليسر على المستأمن فى توقيت مدة الإقامة بحيث لا تكون قليلة كالشهر أو الشهرين، فإن فى ذلك إلحاق العسر به، خصوصا، إذا كانت له معاملات يحتاج فى قضائها إلى زمن طويل على أن المدة القليلة لا تفى بالغرض الدينى المقصود وهو تفهمه لحقيقة الدعوة عن كثب.

٤- وتدل الآية على أن الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون علما يقينيا لاشك فيه ولا احتمال وإن لم يكن منطقيا ولا يكتفى فيه بالظن الراجح كالفروع العملية، والآيات المفرقة بين العلم والظن متعددة كقوله تعالى: (ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا) [٢١].

(وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا)[٢٢]

(ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون).[٢٣]

٥- كذلك لا يكتفى فى الاعتقاد بالتقليد لأنه ليس بعلم، قال الفخر فى تفسير الآية:

«اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كاف فى الدين، وأنه لابد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا لوجب أن لا يمهل هذا الكافر، بل يقال له: اما أن تؤمن واما أن نقتلك، فلما لم يقل له ذلك بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه، ووجب علينا أن نبلغه مأمنه علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن التقليد فى الدين غير كاف بل لابد من الحجة والدليل، فأمهلناه وأخرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال، إذا ثبت هذا فنقول: ليس فى الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون؟ ولعله لا يعرف مقداره إلا بالعرف، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك، ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت إليه [٢٤].

٦- قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق، والذى يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات، فدل ذلك على أن كلام الله ليس إلا هذه الحروف والأصوات، ثم من المعلوم بالضرورة أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة، لأن تكلم الله بهذه الحروف إما أن يكون معا أو على الترتيب.. فإن تكلم بها معا لم يحصل منه هذا الكلام المنتظم لأن الكلام لا يحصل منتظما إلا عند دخول هذه الحروف فى الوجود على التعاقب، فلو حصلت معا لا متعاقبة لما حصل الانتظام، فلم يحصل الكلام، وأما ان حصلت متعاقبة لزم أن ينقضى المتقدم ويحدث المتأخر، وذلك يوجب الحدوث، فدل هذا على أن كلام الله حدث.

قالوا: فإن قلتم: إن كلام الله شىء مغاير لهذه الحروف والأصوات فهذا باطل لأن القرآن ما كان يشير بقوله : «كلام الله» إلا لهذه الحروف والأصوات.

وأما الحشوية والحمقى من الناس فقالوا: ثبت بهذه الآية أن كلام الله ليس إلا هذه الحروف والأصوات، وثبت أن كلام الله قديم فوجب القول بقدم الحروف والأصوات.

واعلم أن الأستاذ أبا بكر بن فورك زعم أنا إذا سمعنا هذه الحروف والأصوات فقد سمعنا مع ذلك كلام الله تعالى وأما سائر الأصحاب فقد أنكروا عليه هذا القول، وذلك لأن ذلك

الكلام القديم إما أن يكون نفس هذه الحروف والأصوات وإما أن يكون شيئا آخر مغايرا لها.

والأول هو قول الرعاع والحشوية وذلك لا يليق بالعقلاء، وأما الثانى فباطل لأنا على هذا التقدير لما سمعنا هذه الحروف والأصوات فقد سمعنا شيئا آخر يخالف ماهية هذه الحروف والأصوات لكننا نعلم بالضرورة أنا عند سماع هذه الحروف والأصوات لم نسمع شيئا آخر سواها، ولم ندرك بحاسة السمع أمرا آخر مغايرا لها فسقط هذا الكلام. والجواب الصحيح عن كلام المعتزلة أن نقول:

١. هذا الذى نسمعه ليس عين كلام الله على مذهبكم، لأن كلام الله ليس إلا الحروف والأصوات التى خلقها أولا، بل تلك الحروف والأصوات انقضت، وهذه التى نسمعها حروف وأصوات فعلها الإنسان، فما ألزمتموه علينا فهو لازم عليكم ولقوة هذا الإلزام فإن أبا على الجبائى ارتكب مذهبا عجيبا فقال: كلام الله شىء مغاير للحروف والأصوات وهو باق مع قراءة كل قارئ، وقد أطبقت المعتزلة على سقوط هذا المذهب.

٢. لا حجة لهم فيما ذكروه على نفى الكلام النفسى لأن السماع قد ينسب إليه باعتبار الدال عليه أو يقال: إن الكلام مقول بالاشتراك أو بالحقيقة والمجاز على الكلام النفسى والكلام اللفظى، ولا يلزم من تعين أحدهما فى مقام نفى ثبوت الآخر فى نفس الأمر.

ثالثا: ويؤخذ من تعليل نبذ العهد للمشركين من آية (٧ - ١٠) وتعليل الأمر بقتالهم آية ١٢، عناية القرآن بتوجيه التشريعات وتعليلها.

وفى عناية الله بتوجيه هذا التشريع وبيان حكمته ايحاء قوى بأن من تمام قيام الحجة على الناس فيما يفرض عليهم من تشريع، أن يقدم التشريع إليهم مصحوبا ببيان حكمته والدواعى التى تقتضيه وتدعو إليه أو الثمرات التى ترجى منه ويكون التشريع وسيلة إليها.

ومن هنا لا نكاد نجد تشريعا فى القرآن إلا وأردفه الله بحكمته وأرشد إلى فائدته التى تعود على الناس فى حياتهم ونظامهم، وانظر قوله تعالى بعد تشريع القصاص :(ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) [٢٥] وقوله بعد تشريع الصيام واباحة الفطر للمريض والمسافر: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[٢٦] وقوله بعد الأمر بكتابة الدين واتخاذ وسائل الاستيثاق، «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا)[٢٧] وقوله تعالى فى وجوب الاستعداد الحربى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم[٢٨] وقوله تعالى فى تحريم الخمر والميسر: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) [٢٩]وقوله فى النهى عن البخل والاسراف: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)[٣٠].

وهكذا نجد القرآن فى معظم تشريعاته - إن لم يكن فى كلها موجها ومعللا ومرشدا إلى

الحكمة التى كان لأجلها التشريع والتى تدفع والناس إلى المسارعة فى التنفيذ والامتثال وجريا على هذه السنة ـ سنة تعليل الأحكام وتوجيه التشريع بالأسباب والمعانى التى تستوجبه ـ أردف الله التشريع الذى تضمنته الآيات الست السابقة ببيان حكمته فى الآيات من ٧ إلى ١٦. وبالنظر فى مجموع هذه الآيات العشر تتضح الحكمة فى تقرير نبذ عهود المشركين، وعدم التعاهد معهم أصلا، وتقرير الأمر بقتالهم حتى تطهر شبه الجزيرة من الشرك، ويصير بيت الله الحرام فى مأمن من ولاية المشركين عليه أو دخولهم فيه بعباداتهم الضالة التى تفسد على المؤمنين إيمانهم، ولا يمكن أن تجتمع مع عبادة المؤمنين الصادقين لله فى بيت الله.. وفى تعليل الأمر بنبذ العهود جاءت الآية السابعة.

«كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله» إلى نهاية الآية العاشرة «وأولئك هم المعتدون» وفى تعليل الأمر بالقتال جاءت الآيات إلى نهاية الآية السادسة عشرة.

رابعا: استدل بعضهم بآية «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين» على كفر كل من تارك الصلاة ومانع الزكاة، ذلك بأنه تعالى اشترط فيها لتحقق أخوة الإيمان والدخول فى جماعته ثلاثة أشياء: التوبة من الكفر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فانتفاء أحد هذه الثلاثة يقتضى انتفاء ما جعلت شرطا له وهو الإسلام، ونقص بعضهم من هذا بادعاء أن العبارة إنما تدل على حصول الإسلام بحصول هذه الثلاثة فقط دون انتفائه بانتفائها، فهذا يحتاج إلى دليل خارجى، وأرجع ذلك إلى ما زعمه من أن التعليق بكلمة (ان) إنما يدل على استلزام المعلق للمعلق عليه حصولا لا انتفاء، فهو لا يقتضى انعدامه بانعدامه، لجواز أن يكون المعلق لازما أعم فيتحقق بدون ما جعل ملزوما له.

وهذا من الجدليات اللفظية الباطلة، فليس فى المقام إلا مسألة الاحتجاج بمفهوم الشرط وهو من ضروريات اللغة، كما سبق فى هذه المسألة نفسها عند الاستنباط من الآية الخامسة.

وما أوردوا على اطراده من بعض النصوص التى لا يظهر فيها القول بالمفهوم، فمنه ما سببه ضعف الفهم، ومنه ما له سبب خارج عن مدلول اللغة، فمن ذلك قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) [٣١] بناء على أن مفهومه عدم النهى عن اكراهن إن لم يردن التحصن، وهو غفلة ظاهرة عن كون الإكراه إنما يتحقق عند إرادة التحصن ولا يعقل عندها عدمها، وهو بذل العرض وبيع البضع، ومنه قوله تعالى: (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)[٣٢] استشكل الاشاعرة القول بمفهومه على مذهبهم وما هو بمشكل إلا من حيث يكون حجة لخصومهم المعتزلة على عدم مغفرة الكبائر، ومازال المتعصبون للمذاهب يبنون على اللغة وعلى نصوص التنزيل لإبطال حجج خصومهم، على أن المعلق على اجتناب الكبائر هنا أخص من المغفرة وهو أمران: تكفير السيئات والمدخل الكريم، وأين هذا وذاك مما نحن فيه من اشتراط شروط للانتقال من أمر إلى ضده المساوى لنقيضه، أى من الكفر إلى الإيمان؟

هل يعقل أن يقال إن الإيمان يحصل بحصول شروطه وإقامة أعظم أركانه ولا ينتفى بانتفائها؟ الا أنه لا يعقل فى حال النظر إلى الحقيقة نفسها وهى ظاهرة لا حجاب عليها،

ولكنه وقع بالفعل من صرف بصره عنها وأراد معرفتها بالاصطلاحات الجدلية والتعصب للمذاهب الكلامية أو الفقهية، والحق فى أصل المسألة ما تقدم فى شرط الآية الخامسة.

والذى دعا هذا البعض إلى النقص من دلالة الآية على انتفاء أخوة الإسلام بانتفاء أداء الزكاة استشكاله اياه بالفقير الذى لا تجب عليه ولا تقع منه وبالغنى قبل وجوبها عليه بمرور الحول وأجابوا عنه فى حال عدم تلك القاعدة بأن لم يكن أهلا لوجوب الزكاة عليه يجب عليه ويكتفى منه بأن يقر بحكمها ويلتزمه عند وجوبه. وقد تبين من قبل أن الكلام فى هذا المقام فيما يشترط على جماعة المشركين فى خروجهم منها ودخولهم فى جماعة المسلمين وهو الإذعان لشرائع الإسلام بالإجمال، ولفريضتى الصلاة والزكاة بالتعيين والتفضيل وأما أفراد المشركين فإنما يطالبون بكل من فريضتى الصلاة والزكاة بالفعل عند تحقق فرضيتهما على كل منهم، ومنهم من لا تفرض عليه الزكاة مطلقا ومنهم من تفرض عليه بعد حول أو أكثر ومثله من أسلم بعد طلوع الشمس لا تجب عليه الصلاة إلا بدخول وقت الظهر ويكفى فى أخوة الإسلام من كل من الفريقين قبل افتراض الصلاة والزكاة عليهما التوبة من الكفر والاقرار بالشهادتين مع الاذعان لما يقتضيانه من عمل بدنى ونفسى بالاجمال كما تقدم فى الاستنباط من الآية الخامسة، وما هو ببعيد.

خامسا: استدل الحنفية بآية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم).. على أن يمين الكافر لا تنعقد ولا يعتد بها شرعا، لأن «لا» نافية للجنس، وعند الشافعية: يمينهم يمين، ومعنى هذه الآية عندهم أنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان.

والدليل على أن يمينهم يمين أنه لو لم تكن يمينا لما وجب علينا الوفاء لمن وفى بها منهم واستقام على وفائه، والآيات صريحة فى الوجوب، وإنما نفاها عن الناكثين وأعلمنا أنهم كانوا عازمين على النكث من أول وهلة، وهو علام الغيوب، ولو لم يكن لهم إيمان على الاطلاق لما كان لهم نكث، وقد أثبتهما لهم «وإن نكثوا أيمانهم»، «ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم».

وأجيب: بأن ذلك باعتبار اعتقادهم أنه يمين، ويبعده أن الإخبار من الله تعالى والخطاب للمؤمنين.

وقال آخرون: إن الاستدلال بالنكث على اليمين إشارة أو اقتضاء، و«لا أيمان لهم» عبارة فتترجح، والقول بأنها تزول جمعا بين الأدلة فيه نظر، لأنه إذا كان لابد من التأويل فى أحد الجانبين فتأويل غير الصريح أولى، ولعله لا يعتبر فى ذلك التقدم والتأخر.

وثمرة الخلاف.. أنه لو أسلم الكافر بعد يمين انعقدت فى كفره ثم حنث، هل تلزمه الكفارة؟ فعند أبى حنيفة لا، وعند الشافعى نعم.

وفرق بين توجيه الطعن إلى الدين نفسه اجمالا وبين توجيهه إلى بعض تفاصيله كالصلاة والحج مثلا، ومن ذلك الطعن فى القرآن وذكر النبى صلى الله عليه وسلم بسوء، قال الزجاج: هذه الآية توجب قتل الذمى إذا أظهر الطعن فى الإسلام لأن عهده مشروط بأن لا يطعن، فإن طعن فقد نكث عهده، وممن قال بقتله: مالك والشافعى والليث وابن الهمام.

سادسا: قوله تعالى: (ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) الآية الخامسة عشرة تدل على أن مشيئته تعالى فى التائبين والمصرين تجرى بمقتضى علمه المحيط بشئون خلقه وحكمته البالغة فى السنن التى وضعها لسير الاجتماع البشرى، وفى الأحكام التى شرعها لهداية الناس.

ومن سننه تعالى تفاوت البشر فى العقائد والأخلاق والأعمال، وقابلية التحول من حال إلى حال، كدرجات تأثير الشرك فى أنفس الأفراد من قوة يترتب عليها الاصرار إلى المات وضعف قابل للزوال في بعض الأوقات، بما يطرأ على أصحابه من الأسباب والمؤثرات وليست مشيئته تعالى في التوبة على من يتوب عليه منهم إكراها لهم على الإيمان، كما يزعمه الجبرية ولا من الخلق الأنف الذى تزعمه القدرية، بل هو بحسب المقادير الإلهية ، الثابتة بآيات التنزيل ونظام الاجتماع، فلو كان بالجهر والاكراه لما كان لهم فيه اختيار يستحقون به دخول الجنة والنجاة من النار، ولو كان بالخلق المستأنف لكان من قبيل المحاباة فى التفضيل الإلهى المحض لبعضهم على بعض، وذلك ينافى العدل والحكمة، وحاشا لله من ذلك.

ما كان لله أن يحابى أعدى أعداء رسوله وأبغضهم إليه صلى الله عليه وسلم، كوحشى قاتل حمزة أخيه فى الرضاعة وعمه، وأبى سفيان المحرض الأكبر للعرب على قتاله، وعكرمة بن أبى جهل فرعون هذه الأمة، فيخلق لهم الإيمان ويجبرهم عليه، من حيث يحرم منه أباطالب عمه وناصره بعصبة النسب وهو أحبهم إليه.

وقد استدل المجبرة ـ ومنهم جمهور الأشعرية ـ بهذه الآية على الجبر ونفى الاختيار فيما هو أظهر مما ذكر، وهو اخباره تعالى بأنه هو الذى يعذب المشركين فيقتل بعضهم ويجرح آخرين بأيدي المؤمنين «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» فهذا يدل ـ بزعمهم ـ على أن أيديهم كسيوفهم ورماحهم ليست إلا آلات لا تأثير لها البتة، وأن الكسب الذى هو مناط التكلف اسم لا مسمى له، ودلالة هذه الجملة عندهم أقوى فى المسألة من دلالة قوله تعالى: (وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى)[٣٣]فإن فى هذا إثباتا لإسناد الرمى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من جهة مباشرته لأخذ التراب من الأرض، والقائه على المشركين مع نفيه عنه، ثم اسناده إلى الله تعالى من جهة أثره وهو وصول التراب إلى وجوههم..وأما هاهنا فقد أسند التعذيب إلى الله وحده، وأنه يفعله بأيدى المؤمنين وقد سبق فى شرح الآية أن لهذا التعذيب معنى وراء القتل والجرح الذى هو كسب المؤمنين وعملهم، هو فعل الله وحده، على أن الحق فوق المذهبين، وأن أريد بالتعذيب القتل والجراح كما تعلم من قول كبيرى نظارهم وما نقفى به عليه تأييدا للمأثور عن السلف.

أجاب الجبائى إمام المعتزلة عن الآية محتجا على المجبرة بأنه لو جاز أن يقال إنه تعالى يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين لجاز أن يقال: إنه يعذب المؤمنين بأيدى الكافرين، ولجاز أن يقال: إنه يكذب أنبياءه على ألسنة الكفار ويلعن المؤمنين على ألسنتهم، لأنه تعالى خالق لذلك، فلما لم يجز ذلك عند المجبرة علم أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد، وإنما نسب ما ذكر إلى نفسه على سبيل التوسع، حيث إنه حصل بأمره وألطافه كما يضيف جميع الطاعات إليه بهذا التفسير أ.هـ.

حكى عنه هذا الجواب الرازى فى تفسيره للآية، وقال: إن أصحابه يجيبون عنه بما خلاصته: أنهم يلتزمون كل ما ألزمهم إياه اعتقادا، وإن كانوا لا ينطقون به أدبا مع الله تعالى، قال المنار: والرازى جبرى قح، ولا يلتزم كل الأشاعرة ما يلتزمه ويسنده إليهم فهذا البيضاوى من فحولهم، يفسر تعذيب المشركين بأيدى المؤمنين بتمكينهم منهم.

والتحقيق.. أنه قد ثبت بالحس والوجدان وبالمئات من آيات القرآن، أن للناس أفعالا يأتونها بإرادتهم وقدرتهم واختيارهم تسند إليهم ويشتق منها صفات لهم، ويستحقون الجزاء عليها فى الدنيا والآخرة وأن الله تعالى الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الذى أعطاهم القدرة والإرادة والاختيار، كما أعطاهم الأعضاء والحواس، وهو الذى سخر لهم ما تتعلق به أعمالهم فى معايشهم ومنافعهم، وهو يسند إليهم هذه الأعمال ويصفهم بها فى مواضع كثيرة فى المقامات التى تقتضى هذا الإسناد أو الوصف ويسند بعضها إلى ذاته وإلى مشيئته ويصف نفسه بما يليق به وصفه منها فى المقامات التى تقتضى ذلك.

سابعا: تدل آية «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله»

١. على أن المشركين ممنوعون من عمارة أى مسجد من مساجد المسلمين، وعمارة المساجد قسمان: إما بلزومها وكثرة اتيانها، وإما بالعمارات المعروفة فى البناء، اما على الأول فإنه يمنع من دخولها، إذ كيف يعبد غير الله أو يعبد الله وغيره ثم يغشى البيوت التى تتمحض فيها العبادة لله وحده، فإن دخل بغير اذن مسلم استحق التعزير، وإن دخل بإذن لم يعزر، ويدل على جواز دخول الكافر للمسجد بالإذن أن النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال إلى سارية من سوارى المسجد النبوى وهو كافر، والأولى تعظيم المساجد ومنعهم منها، وما فعل فى أيام النبى قال النيسابورى.. محمول على تعظيم شأنه صلى الله عليه وسلم كأنه أراد أن يكون ذلك بمحضر منه وهو فى المسجد [٣٤].

وأما على الثانى فإنه ليس للكافر أن يقدم على حرمة المساجد، ولو أوصى بها لم تقبل وصيته، وإنما لم يجز له ذلك لأن المسجد موضع العبادة فيجب أن يكون معظما والكافر يهينه ولا يعظمه وأيضا الكافر نجس فى الحكم لقوله تعالى: «إنما المشركون نجس» وتطهير المساجد واجب لقوله تعالى: «ان طهرا بيتى للطائفين» وأيضا الكافر لا يحترز من النجاسات فدخوله فى المسجد تلويث للمسجد، وذلك قد يؤدى إلى فساد عبادة المسلمين وأيضا إقدامه على حرمة المسجد يجرى مجرى الأنعام على المسلمين، ولا يجوز أن يصير الكافر صاحب منة على المسلمين.

وقد قيل: إنه لا يجوز للمسلمين أن يستخدموا الكفار فى بناء المساجد، لأنه من العمارة الحسية الممنوعة، وفيه نظر، لأن الممنوع انما هو الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها كأن يكون ناظر المسجد وأوقافه كافرا، واما استخدام المسلمين للكافر فى عمل لا ولاية فيه كنحت الحجارة والبناء والنجارة فلا يظهر دخوله فى المنع ولا فيما ذكر من نفى الشأن فى قوله «ما كان للمشركين» فإن نفى الشأن دليل على التشريع فى هذه المسألة، وكونه حقا مبينا على أساس ثابت فى فطرة البشر، وليس تشريعا لها، والدلالة فيه عقلية علمية.

فإن قيل: قد وقع من بعض الحكام والأفراد من غير المسلمين من بنى مسجدا للمسلمين، ومنهم من أوصى بمال لعمارة مسجد لهم لمصلحة له فى ذلك، قلت: إن هذا لا يعارض مافسرنا به نفى الشأن ولا ما بنى عليه من الحكم، وللمسلمين أن يقبلوا مثل هذا المسجد وهذه الوصية بشرط أن لا يكون فيها ضرر آخر دينى ولا سياسى، لأنه حينئذ يكون كمسجد الضرار، فلو عرض اليهود على المسلمين فى هذا العصر أن يعمروا المسجد الأقصى بترميم ما كان قد تداعى أو ضعف من بنائه أو بذلوا لهم مالا لذلك لماجاز لهم أن يقبلوا هذا ولا ذاك وإن لم يتول اليهود العمل، لما علم من طمعهم فى الاستيلاء على هذا المسجد والتوسل له بما يجعلونه ذريعة لادعاء حتى مالهم فيه على كفرهم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وكتابيهما وقولهم على مريم بهتانا عظيما.

٢- واحتج أهل السنة بهذه الآية على أن الفاسق من أهل الصلاة لا يبقى مخلدا فى النار من وجهين: الأول أن قوله تعالى: «وفى النار هم خالدون» يفيد الحصر، أى هم فيها خالدون لا غيرهم، ولما كان هذا الكلام واردا فى حق الكفار ثبت أن الخلود لا يحصل إلا للكافر، والثانى أنه تعالى جعل الخلود فى النار جزاء للكفار على كفرهم ولو كان هذا الحكم ثابتا لغير الكفار لما صح تهديد الكفار به.

ثامنا: وفى آية «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر».

١كلمة إنما تفيد الحصر وفيه تنبيه على أن المسجد يجب صونه عن غير العبادة فيدخل فيه فضول الحديث واصلاح مهمات الدنيا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتى فى آخر الزمان أناس من أمتى يأتون المساجد يقعدون فيها حلقا، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم بحاجة» ذكره الرازى.

٢- وفى هذه الآية دليل على فضل من يعمر المساجد إما بالمساهمة فى بنائها أو فرشها أو إضاءتها، واما بالتردد عليها وشهود الجماعات فيها.

وقد وردت فى عمارة المساجد الحسية والمعنوية أحاديث كثيرة منها فى المعنى الأول ما رواه أحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه من حديث عثمان رضى الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولامه الناس قال: انكم أكثرتم وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة» وهو دليل على أن توسيع المسجد كابتدائه.

وروى أحمد عن ابن عباس مرفوعا «من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتا فى الجنة» وسنده صحيح، وروى مثله بدون وصف للمسجد وروى بلفظ وبنى الله له بيتا أوسع منه وبألفاظ أخرى، وروى أحمد والترمذى وصححه من حديث سمرة بن جندب قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد فى ديارنا وأمرنا أن ننظفها، وفى معناه من حديث عائشة - وأن تطيب - وفى الصحيحين وسنن أبى داود وابن ماجة أن امرأة كانت تقم المسجد أى تكنسه فماتت فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عنها قيل له ماتت

فقال «أفلا كنتم أذنتموني بها؟ أى أعلمتموني بموتها لأصلى عليها» دلوني على قبرها فأتى قبرها فصلى عليها وفى الصحيحين وبعض السنن أيضا أن البزاق فى المسجد خطيئه، وأنه صلى الله عليه وسلم رأى نخامة فى المسجد فحكها ورئى الغضب فى وجهه ونهى عن ذلك، فإزالة القذر من المساجد وتطهيره واجب واتباع أثر القذر بالطيب مستحب.

ومنها فى المعنى الثانى ما رواه الشيخان وأصحاب السنن إلا النسائى من حديث أبى هريرة مرفوعا «صلاة الجميع» وفى رواية - الجماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه خمسا وعشرين درجة [٣٥] فإن أحدكم توضأ وأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة، حتى يدخل المسجد وإذا دخل المسجد كان فى صلاة ماكانت تحبسه وتصلى عليه الملائكة مادام فى مجلسه الذى يصلى فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه ما لم يؤذ بحدث «أى يحدث له رائحة كريهة ومنه رائحة الثوم والبصل ونحوهما كالدخان المعروف فى هذا الزمان» فقد روى أحمد والشيخان من حديث جابر مرفوعا من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم».

وروى أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» وتلا «إنما يعمر مساجد الله» الآية وهو نص فى العمارة المعنوية [٣٦] وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله «ورجل قلبه معلق بالمساجد» وهناك أحاديث أخرى ضعيفة ومنكرة فى الرواية وإن كان معناها صحيحا.

تاسعا: من فقهيات آية «إنما المشركون نجس» قال الرازى:

١. قال الأكثرون: لفظ المشركين يتناول عبدة الأوثان، وقال قوم: بل يتناول جميع الكفار ونقل صاحب الكشاف عن ابن عباس: ان أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن.. من صافح مشركا توضأ.

وأما الفقهاء فقد اتفقوا على طهارة أبدانهم وأعلم أن ظاهر القرآن يدل على كونهم أنجاسا فلا يرجع عنه إلا بدليل منفصل، ولا يمكن ادعاء الاجماع فيه لما بينا أن الاختلاف فيه حاصل.

واحتج القاضى على طهارتهم بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم شرب من أوانيهم وأيضا لو كان جسمه نجسا لم يبدل ذلك بسبب الإسلام.

والقائلون بالقول الأول أجابوا عنه.

أ) بأن القرآن أقوى من خبر الواحد

ب) وأيضا فبتقدير صحة الخبر وجب أن يعتقد أن حل الشرب من أوانيهم كان متقدما على نزول هذه الآية.

وبيانه من وجهين:

الأول: أن هذه السورة من آخر ما نزل من القرآن، وأيضا كانت المخالطة مع الكفار جائزة، فحرمها الله تعالى، وكانت المعاهدات معهم حاصلة فأزالها الله، فلا يبعد أن يقال أيضا: الشرب من أوانيهم كان جائزا فحرمه الله تعالى.

الثاني: ان الأصل حل الشرب من أى اناء كان، فلو قلنا إنه حرم بحكم الآية ثم حل بحكم الخبر فقد حصل نسخان، أما إذا قلنا.. إنه كان حلالا بحكم الأصل، والرسول شرب من آنيتهم بحكم الأصل ثم جاء التحريم بحكم هذه الآية لم يحصل النسخ إلا مرة واحدة فوجب أن يكون هذا أولى.

ج) أما قول القاضى: لو كان الكافر نجس الجسم لما تبدلت النجاسة بالطهارة بسبب الإسلام.. فجوابه: أنه قياس فى معارضة النص الصريح.

د) وأيضا أن أصحاب هذا المذهب يقولون: إن الكافر إذا أسلم وجب عليه الاغتسال إزالة للنجاسة الحاصلة بحكم الكفر.

وأما جمهور الفقهاء فإنهم حكموا بكون الكافر طاهرا فى جسمه، ثم اختلفوا فى تأويل هذه الآية على وجوه:

الأول: أنهم لايغتسلون من الجنابة ولا يتوضأون من الحدث.

الثاني: المراد انهم بمنزلة الشيء النجس فى وجوب النفرة عنه.

الثالث: ان كفرهم الذى هو صفة لهم بمنزلة النجاسة الملتصقة بالشيء وأعلم أن كل هذه الوجوه عدول عن الظاهر بغير دليل.

قال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله: أعضاء المحدث نجسة نجاسة حكمية، وبنوا عليه أن الماء المستعمل فى الوضوء والجنابة نجس، ثم روى أبو يوسف أنه نجس نجاسة خفيفة، روى الحسن بن زياد انه نجس نجاسة غليظة، ثم وروى محمد بن الحسن أن ذلك الماء طاهر. وأعلم أن قوله تعالى: «إنما المشركون نجس» يدل على فساد المحدث نجسه مخالف لهذا النص، والعجب أن هذا النص صريح فى أن المشرك نجس، وفى أن المؤمن ليس بنجس، ثم إن قوما قلبوا القضية وقالوا: المشرك طاهر، والمؤمن حال كونه محدثا أو جنبا نجس وزعموا أن المياه التى استعملها المشركون فى أعضائهم بقيت طاهرة مطهرة، والمياه التى يستعملها أكابر الأنبياء فى أعضائهم نجسة نجاسة غليظة وهذا من العجائب.

وما يؤكد القول بطهارة أعضاء الجسم قوله عليه السلام «المؤمن لا ينجس حيا ولا ميتا» فصار هذا الخبر مطابقا للقرآن، ثم الاعتبارات الحكمية طابقت القرآن والاخبار فى هذا الباب، لأن المسلمين أجمعوا على أن إنسانا لو حمل محدثا فى صلاته لم تبطل صلاته، ولو كانت يده رطبة فوصلت إلى يد محدث لم تنجس يده، ولو عرق المحدث ووصلت تلك النداوة إلى ثوبه لم ينجس ذلك الثوب، فالقرآن والخبر والاجماع تطابقت على القول بطهارة أعضاء المحدث فكيف يمكن مخالفته؟

وشبهة المخالف أن الوضوء يسمى طهارة، والطهارة لا تكون إلا بعد سبق النجاسة وهذا ضعيف، لأن الطهارة قد تستعمل فى إزالة الأوزار والآثام، قال الله تعالى فى صفة أهل البيت: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)[٣٧]وليست هذه الطهارة إلا عن الآثام والأوزار، وقال تعالى فى صفة مريم (إن الله اصطفاك وطهرك)[٣٨] والمراد تطهيرها من التهمة الفاسدة.

وإذا ثبت هذا فنقول: جاءت الأخبار الصحيحة فى أن الوضوء تطهير الأعضاء عن الآثام والأوزار، فلما فصل الشارع كون الوضوء طهارة بهذا المعنى فما الذى حملنا على مخالفته والذهاب إلى شىء يبطل القرآن والأخبار والأحكام الإجماعية؟.

٢ـ قال الشافعية: الكفار يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك يمنعون من كل المساجد، وعند أبى حنيفة لا يمنعون من المسجد الحرام ولا من سائر المساجد.

والآية بمنطوقها تبطل قول أبى حنيفة، وبمفهومها تبطل قول مالك، أو تقول الأصل عدم المنع وخالفناه فى المسجد الحرام لهذا النص الصريح القاطع فوجب أن يبقى فى غيره على وفق الأصل.

٣ـ اختلفوا فى أن المراد من المسجد الحرام هل هو نفس المسجد، أو المراد منه جميع الحرم؟ والأقرب هو هذا الثانى، والدليل عليه قوله تعالى: (وان خفتم عيلة فسوف يغنكيم الله من فضله» وذلك لأن موضع التجاوزات ليس هو عين المسجد فلو كان المقصود من هذه الآية المنع منا المسجد خاصة لما خافوا بسبب هذا المنع من العيلة وإنما يخافون العيلة إذا منعوا حضور الأسواق والمواسم، وهذا استدلال الحسن من الآية.

ويتأكد هذا القول بقوله سبحانه (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) مع أنهم أجمعوا على أنه إنما رفع الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ وأيضا يتأكد هذا بماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب».

وأعلم أن أصحابها قالوا: الحرم حرام على المشركين ولو كان الإمام بمكة فجاء رسول المشركين فليخرج إلى الحل لاستماع الرسالة، وإن دخل مشرك الحرم متواريا فمرض فيه أخرجناه مريضا وان مات ودفن ولم يعلم نبشناه وأخرجنا عظامه إذا أمكن.

هوامش

١) الاستحلال عبارة عن رفض الإذعان النفسي والفعلي وهو كنه الإسلام، والجحود عبارة عن عدم الاعتقاد أو الاستكبار عنه، وهو كنه الإيمان.
٢) التاج جـ١ ص ٢٩
٣) التاج جـ٤ صـ٢٢٦
٤) التاج جـ٤ صـ ٢٢٥، ٢٢٦
٥) التاج جـ١ ص١٢٤
٦) التاج جـ١ صـ١٢٤، ١٢٥
٧) رواه الطبراني في الأوسط، والصواب أنه مرسل كما قاله الدارقطني
٨) التاج جـ٣ صـ١٧
٩) قال الحافظ: وهذا الحديث غريب الاسناد، تفرد بروايته شعبة عن واقد، قاله ابن حيان وهو عن شعبة عزيز تنفرد بروايته عنه حى هذا (يعنى الذى عبر عنه البخارى بأبى روح الحرمى، وإنما أبو روح كنيته، وحرمى اسمه) وعبد الملك بن الصباح وهو عزيز عن حرمى تفرد به عنه السندى وإبراهيم بن محمد بن عرعره، ومن جهة إبراهيم أخرجه أبو عوانه وابن حيان والإسماعيلى وغيرهم، وهو غريب عن عبد الملك، تفرد به عنه أبو غسان مالك بن عبد الواحد شيخ مسلم، فاتفق الشيخان على الحكم بصحته مع غرابته، وليس هو فى مسند أحمد على سعته، وقد استبعد قوم صحته إلخ،وذكر السبب وأجاب عنه.
١٠) سورة سبأ ٢٨
١١) سورة النساء ١٤٢
١٢) سورة طه ٨٢
١٣) سورة غافر ٧ ـ ٩
١٤) النساء ١٧ ـ ١٨
١٥) النساء ٣١
١٦) النجم ٣٢
١٧) التاج جـ١ صـ١٢٤: صـ١٢٥
١٨) تفسير الرازى جـ٤ صـ ٥٩١، ٥٩٢
١٩) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٣٧
٢٠) أ هـ من كتاب الفروع
٢١) النجم ٢٨
٢٢) يونس ٣٦
٢٣) الجاثية ٢٤
٢٤) تفسير الرازى جـ٤ ص٥٩١
٢٥) صورة البقرة ١٧٩
٢٦) سورة البقرة ١٨٥
٢٧) سورة البقرة ٢٨٢
٢٨) سورة الأنفال ٦٠
٢٩) سورة المائدة ٩٠، ٩١
٣٠) سورة الاسراء ٢٩
٣١) سورة النور ٣٣
٣٢) سورة النساء آية ٣١
٣٣) سورة الأنفال ١٧
٣٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى جـ١٠ صـ٥٣
٣٥) وفى حديث آخر أنها تفضلها بسبع وعشرين درجة
٣٦) ولكن الحافظ الذهبى أنكر على الحاكم تصحيحه
٣٧) الأحزاب ٣٣
٣٨) آل عمران ٤٢

الباب الثانى

علاقة المسلمين بخصومهم من أهل الكتاب
اليهود والنصارى

قال الله - تبارك وتعالى - (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنيون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) إلى قوله تعالى (هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

يحوى هذا الباب فصولا أربعة، تتحدث عن علاقة المجتمع المسلم بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعن الأمر بأخذ الجزية منهم أو قتالهم، وعن الأسباب الداعية لقتالهم، وعن الجرائم التى ارتكبوها فى حق الإسلام والمسلمين سواء كانت قوية أو فعلية، وسواء كانت عقيدية أو واقعية أو تاريخية.

وتقدم هذه الفصول مقدمة تلقى نظرة عامة على موقف أهل الكتاب فى القرآن وفى التاريخ، ومن بين ما تتحدث عنه: النصوص فى أهل الكتاب عامة - أحكام نهائية - تعديلات أساسية فى قواعد التعامل التى كانت تقوم عليها العلاقات مع أهل الكتاب - حقيقة ما عليه أهل الكتاب - شبهة أن تقريرها هذه المرة مفاجئ ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة كما يزعم بعض المستشرقين، دحض هذه الشبهة، وانها لم تتغير، وإنما الذى تغير قاعدة التعامل. استعراض طبيعة الموقف.

(أ) الناحية الموضوعية الثابتة - هناك وحدة هدف بين أهل الكتاب والمشركين.

(ب) المواقف التاريخية .. اليهود وراء كل كارثة فى القديم والحديث. النصارى.. فى القديم، الحروب الصليبية، ذئاب الحبشة تنهش الإسلام، تقريران عن ذلك، زنجبار ●وكينيا ●والصومال● والسودان - أحكام أخيرة وأصيلة

نظرة عامة

هذا الدرس الثانى فى سياق السورة، يستهدف تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم ●وأهل الكتاب، كما استهدف الدرس الأول منها تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين هذا المجتمع ●والمشركين فى الجزيرة.

وإذا كانت نصوص الدرس الأول فى منطوقها تواجه الواقع فى الجزيرة يومئذ، وتتحدث عن المشركين فيها، وتحدد صفات ووقائع وأحداثا تنطبق عليهم انطباقا مباشرا، فإن النصوص

فى الدرس الثانى - الخاصة بأهل الكتاب - عامة فى لفظها ومدلولها، وهى تعنى كل أهل الكتاب، سواء منهم من كان فى الجزيرة ومن كان خارجها كذلك.

هذه الأحكام النهائية التى يتضمنها هذا الدرس تحتوى تعديلات أساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب - وخاصة النصارى منهم - فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود، ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى.

والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو.. الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن ين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس، أساس اعطاء الجزية، وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد، ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين، فإما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فأعتنقوه فهم من المسلمين، انهم لا يكرهون على اعتناق الاسلام عقيدة فالقاعدة الإسلامية المحكمة هى (لا إكراه فى الدين) ولكنهم لا يتركون على دينهم إلا إذا أعطوا الجزية، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس.

العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية - وطبيعة المنهج الحركى الإسلامى:

وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية، ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى، ومراحله المتعددة، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى.

وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هى عدم امكان التعايش إلا فى ظل أرضا خاصة وشروط خاصة، قاعدتها ألا تقوم فى وجه الإعلان العام الذى يتضمنه الإسلام لتحرير الإنسان بعبادة الله وحده والخروج من عبادة البشر للبشر، أية عقبات مادية من قوة الدولة، ومن نظام الحكم، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض، ذلك أن منهج الله يريد أن يسيطر، ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده - كما هو الإعلان العام للإسلام - ومناهج الجاهلية تريد - دفاعا عن وجودها - أن تسحق الحركة المنطلقة بمنهج الله فى الأرض وأن تقضى عليها.

وطبيعة المنهج الحركى الإسلامى أن يقبل هذا الواقع البشرى بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه، فى مراحل متعددة ذات وسائل متجددة .. والأحكام المرحلية والأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم :والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل فى تلك المرحلة.

حقيقة ما عليه أهل الكتاب:

ومن أجل أن يحدد السياق القرآنى فى هذا الدرس من السورة طبيعة هذه العلاقات، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ونص على أنه (شرك) و(كفر) و(باطل) وقدم الوقائع التى يقوم عليها هذا الحكم، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب، والتوافق والتضاهى بينها وبين معتقدات (الذين كفروا من قبل) أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعى كذلك.

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا: أنهم لا يؤمنون بالله ●ولا باليوم الآخر.

ثانيا: أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثا: أنهم لا يدنيون دين الحق.

رابعا: أن اليهود منهم قالت: (عزير ابن الله)، وأن النصارى منهم قالت: (المسيح ابن الله)، وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، سواء من الوثنين الاغريق أو الوثنين الرومان أو الوثنين الهنود أو الوقنيين الفراعنة أو غيرهم من الذين كفروا.[1].

خامسا: أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، كما اتخذوا المسيح ربا، وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينوية له وحده وأنهم لهذا (مشركون)!

سادسا: انهم محاربون لدين الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأنهم لهذا (كافرون)!

سابعا: ان كثير من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله، القائمين على منهج الله.

شبهة لبعض المستشرقين ودحضها:

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب مفاجئ ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة عنه، كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا، زاعمين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم!!

ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية - المكية والمدنية - عن أهل الكتاب تظهر بجلاء أنه لم يتغير شيء فى أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدهم عليها ●وانحرافها ●وبطلانها، وشركهم ●وكفرهم دين الله الصحيح - حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذى أحموه من قبل - أما التعديلات فهى محصورة فى طريقة التعامل معهم، وهذه كما تقدم مرارا - تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة، أما الأصل الذى تقوم عليه - وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب - فهو ثابت منذ اليوم الأول فى حكم الله عليهم.

ونضرب هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب، وحقيقة ما هم عليه ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله، تلك المواقف التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية فى التعامل معهم.

تقريرات قرآنية عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب

فى مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن فى المجتمع، إنما كان هناك أفراد، يحكى القرآن عنهم أنهم استقبلوا الدعوة الجديدة إلى الإسلام بالفرح والتصديق والقبول، ودخلوا فى الإسلام وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم ولابد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقى على التوحيد من النصارى واليهود، وممن كان معهم شيء من

بقايا الكتب المنزلة، وفى أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا اتبلى عليهم قالوا: آمنا به أنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين[٢]) (قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحانه ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ●ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)[٣] (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به● وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين) [٤] (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون)[٥] (أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين)[٦](والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه، قل إنما أمرت أن أعبد ولا أشرك به إليه أدعو إليه مآب)[٧].

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك فى المدينة حكى عنهم القرآن بعض المواقف فى السور المدنية، مع النص فى بعضها على أنهم من النصارى، ذلك أن اليهود كانوا قد اتخذوا موقفا آخر غير ما كان يتخذه أفراد منهم فى مكة، عندما أحسوا خطر الإسلام فى المدينة (وان أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، ان الله سريع الحساب)[٨] (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: انا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين)[٩]

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب فى الجزيرة. ومن اليهود منهم بصفة خاصة. فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام، منذ أن أحسوا خطره عليهم فى المدينة حربا خبيثة، يستخدمون فيها كل الوسائل التى حكاها القرآن عنهم فى نصوص كثيرة كما أنهم فى الوقت ذاته رفضوا الدخول فى الإسلام طبعا وأنكروا وجحدوا ما فى كتبهم من البشارة بالرسول. صلى الله عليه وسلم. ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ● ويقرونه ● ويجاهرون به فى وجه المنكرين الجاحدين، كذلك أخذ القرآن بوصف هذا الجحود ● وتسجيله وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف ●والفساد● والبطلان فى شتى السور المدنية.

على أن القرآن المكى لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب، نذكر من ذلك:

(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم لأبين لكم بعض الذين تختلفون فيه فأتقوا الله وأطيعون ان الله هو ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم فأختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)[١٠]، (وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا

كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب)[11] (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون، واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون)[12]

(وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وأنه لغفوررحيم)[13]، (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، والدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون؟)«١»

أما القرآن المدنى فقد تضمن الكلمة الأخيرة فى حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق فى حرب هذا الدين وأهله فى قطاعات طويلة من سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها، قبل أن يقرر الكلمة النهائية فى أمرهم كله فى سورة التوبة، وسنكتفى هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟ أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟، ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وان هم الا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا.. فويل لهم ما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسون)[14] (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم.. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون؟ وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون، ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين، بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين، وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله، قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين)[15] (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله؟ والله شهيد على ما تعملون، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ؟ أتبغونها عوجا وأنتم شهداء؟ وما الله بغافل عما تعملون)[16] (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا)[17](لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح: يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم، أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار، لقد كفرالذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة! وما

من إله إلا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، انظركيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون)[١٨]

رد ودحض:

من مراجعة هذه النصوص القرآنية وأمثالها - وهو كثير فى القرآن المكى والمدنى على السواء - يتبين أن النظرة إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من الانحراف عن دين الله الصحيح لم يتغير فيهما شىء فى التقريرات الأخيرة الواردة فى السورة الأخيرة، وأن و صمهم بالانحراف ●والفسوق ●والشرك ●والكفر ليس جديدا، ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد، وذلك مع ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدى الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه، فقال تعالى منصفا للصالحين منهم (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[١٩] (ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[٢٠] (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات، وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين)[٢١].

أما الذى وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب، فترة بعد فترة، ومرحلة بعد مرحلة، وواقعة بعد واقعة وفق المنهج الحركى الواقعى لهذا الدين فى مواجهة أحوال أهل الكتاب وتصرفاتهم ومواقفهم من المسلمين.

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين :(ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) [٢٢](قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وان تولوا فإنما هم فى شقاق. فسيكفيكم الله وهو السميع العليم)[٢٣](قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بينناوبينكم: ألا تعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون)[٢٤] (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شىء قدير)[٢٥].

ثم يأتى الله بأمره الذى وكل المؤمنين إليه.. فوقعت أحداث وتعدلت أحكام وجرى المنهج الحركى الواقعى الايجابى فى طريقه حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة فى هذه السورة على النحو الذى رأيناه.

إنه لم يتغير شىء فى نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة ومن الشرك بالله والكفر بآياته، إنما الذى تغير هو قاعدة التعامل، وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التى مضى الحديث عنها فى مطلع هذه المقدمة.

(استعراض طبيعة الموقف)

أ) الناحية الموضوعية الثابتة:

والآن نأخذ فى شىء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم.. سواء من الناحية الموضوعية الثابتة أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة، فهذه هى العناصر الرئيسية التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية.

ان طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها أولا:

فى تقريرات الله ـ سبحانه ـ عنها، باعتبار أن هذه الحقيقة النهائية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وباعتبار أن هذه التقريرات ـ بسبب كونها ربانية ـ لا تتعرمن لمثل ما تتعرمن له الإستنباطات والإستدلالات البشرية من الأخطاء.

وثانيا: فى المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله ـ سبحانه!

ان الله ـ سبحانه ـ يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين فى عدة مواضع من كتابه الكريم، وهو تار قيتحدث عنهم ـ سبحانه ـ وحدهم، وتارة يتحدث عن الذين كفروا من المشركين.

هناك وحدة هدف بين أهل الكتاب والمشركين: وإنما تحدث عنهم كذلك مع المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف ـ تجاه الإسلام والمسلمين ـ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين، وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف وحدة الهدف ووحدة التجمع لمواجهة الإسلام والمسلمين.

والنصوص التى تقرر هذه الحقائق من الوضوح والحزم بحيث لا تحتاج إلى تعليق، وهذه نماذج منها ..(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم)[٢٦](ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)[٢٧](ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)[٢٨] (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم)[٢٩] (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)[٣٠](يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين)[٣١] (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم)[٣٢] (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)[٣٣].

وفى هذه النماذج وحدها ما يكفى لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين، فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وهم

يحددون موقفهم النهائى من المسلمين بالاصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى، ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحق هذا الهدف، فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا، وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين!.. إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام بالمسلمين كما يقررها الله ـ سبحانه ـ فى قوله تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا)[٣٤]

(ود الذين كفروا لوتغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)[٣٥]

(ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون)[٣٦] (وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة)[٣٧] (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة)[٣٨].

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين هى بعينها ـ وتكاد تكون بألفاظها ـ هى الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك، مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هى ذاتها طبيعة موقف المشركين.

فإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة فى هؤلاء وهؤلاء ترد فى صيغ نهائية تدل بصيغتها على تقرير طبيعة دائمة، لا على وصف حالة مؤقتة، كقوله ـ تعالى ـ فى شأن المشركين (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)، وقوله تعالى فى شأن أهل الكتاب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم).

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى تأويل للنصوص أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات، ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة!

ب) المواقف التاريخية:

فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الوجه التاريخى لهذه العلاقات متمثلة فى مواقف أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ من الإسلام وأهله على مدار التاريخ، تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة، وتقرر لدينا انها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

اننا إذا استثنيا حالات فردية ـ أو حالات جماعية قليلة ـ من التى تحدث القرآن عنها، وحواها الواقع التاريخى، بدت فيها المودة للإسلام والمسلمين، والاقتناع بصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق هذا الدين، ثم الدخول فيه والإنضمام لجماعة المسلمين.

وهى الحالات التى أشرنا إليها فيما تقدم.. فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة، إلا تاريخا من العداء العنيد، والكيد الناصب، والحرب الدائبة التى لم تفتر على مدار التاريخ.

١) اليهود وراء كل كارثة فى القديم والحديث:

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم، وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذى

واجههم الإسلام فى المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الرسالة مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل، ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التى شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ.

لقد استقبل اليهود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه فى المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوى رسولا يعرفون صدقه، ودينا يعرفون أنه الحق.. استقبلوه بالدسائس والأكاذيب (والشبهات) والفتن يلقونها فى الصف المسلم فى المدينة، بكافة الطرق الملتوية الماكرة التى يتقنها اليهود.. شككوا فى رسالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يعرفونه، واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التى ينشرونها فى الجو، وبالتهم)والأكاذيب وما فعلوه فى حادث تحويل القبلة، وما فعلوه فى حادث الأفك (وما فعلوه فى كل مناسبة ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم.. وفى مثل هذه الأفاعيل كان ينزل القرآن الكريم .. وسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحزاب والتوبة وغيرها تضمنت من هذا الكثير.

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب) وللكافرين عذاب مهين)[٣٩] (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[٤٠] (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، قل: لله المشرق والمغرب، يهدى من شاء إلى صراط مستقيم)[٤٠] (ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟)«٤» (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون)«٥» (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب. ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[٤١] (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعلمون؟ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن، تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون)[٤٢] (يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات)[٤٣] (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)[٤٤].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعدمرة، وتحرشهم بالمسلمين، مما أدى إلى غزو بنى قينقاع ،وبنى النضير، وبنى قريظة ،وخيبر، كما شهد تأليب اليهود للمشركين فى الأحزاب، مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ.. كانوا عناصر أساسية فى اثارة الفتنة الكبرى التى قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه وانتشر بعدها شمل التجمع الإسلامى إلى حد كبير.. وكانوا رأس الفتنة فى ما وقع بعد ذلك بين على ومعاوية

رضى الله عنهما، وقادوا حملة الوضع فى الحديث والسيرة وروايات التفسير.. وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية[٤٥].

فأما فى التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين فى كل مكان على وجه الأرض، وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامى، وهم حماة كل وضع من الأوضاع التى تتول هذه المحاولة فى كل أرجاء العالم الإسلامى! وما موقف إسرائيل من الإسلام والمسلمين علينا ببعيد!!

٢) النصارى:

ذلك شأن اليهود، فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون، ولكن ما أن ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هى بأيديها وسمته (المسيحية) وهو ركام من الوثنيات القديمة والأضاليل الكنسية متلبسا ببقايا من كلمات المسيح عليه السلام وتاريخه، حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزعات تاريخية قديمة، وعداوات وثارات عميقة، ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون فى الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين وذلك بعد أن قتلوا الحارث بين عبيد الأزدى رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامل بصرى من قبل الروم - وكان المسلمون يؤمنون الرسل، ولكن النصارى غدروا برسول النبى وقتلوه - مما جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحه، فى غزوة مؤته» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه أنه مائة ألف من الروم ،ومعهم من عملائهم فى الشام من القبائل العربية النصرانية مائة ألف أخرى، وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة الاف مقاتل، وكان ذلك فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، ثم كانت غزوة تبوك التى يدور عليها معظم هذه السورة [٤٦].

ثم كان جيش أسامة بن زيد الذى أعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبيل وفاته، ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر رضى الله عنه إلى أطراف الشام، لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التى تستهدف القضاء على هذا الدين.

ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبى منذ موقعة اليرموك الظافرة، التى أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير مستعمرات الامبراطورية الرومانية فى الشام ومصر وشمال افريقية وجزر البحر الأبيض، ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة فى الأندلس فى النهاية.

الحروب الصليبية

ان الحروب الصليبية المعروفة بهذا الاسم فى التاريخ لم تكن هى وحدها التى شنتها الكنيسة على الإسلام.. لقد كانت هذه الحروب قبل هذا الموعد بكثير. لقد بدأت فى الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد.. منذ أن نسى الرومان عداوتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون

الفرس ضد الإسلام فى جنوب الجزيرة، ثم بعد ذلك فى «مؤته» ثم فيما تلى موقعة اليرموك الظافرة ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها فى الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية فى أوروبا، وارتكبت من الوحشية فى تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل.. وكذلك تجلت فى الحروب الصليبية فى الشرق بمثل هذه البشاعة التى لا تتحرج ولاتتذمم، ولا تراعى فى المسلمين الأ ولا ذمة.

ومما جاء فى كتاب (حضارة العرب) لـ(جوستاف لوبون) وهو فرنسى مسيحى : كان أول ما بدأ به ريكاردوس الانجليزى أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب، مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل، الذى رحم نصارى القدس، فلم يمسهم بأذى، والذى أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والازواد أثناء مرضهما [٤٧].

كذلك كتب كاتب مسيحى آخر (اسمه يورجا) [٤٨] يقول: (ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها، وقد أسرفوا فى القسوة، فكانوا يبقرون ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء!!

أما صلاح الدين فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم بجميع عهودهم ،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطئوهم مهاد رأفتهم، حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومن على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينه الكنيسة وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن).

وفى الدرب الطويل للحروب الصليبية المستمرة على مر الأجيال نجد أن روسيا القيصرية فى خلال القرون الأربعة الماضية كانت من أشد الدول عداء للإسلام والمسلمين، ومن أشدها تنكيلا وأعنتها حربا وأكثرها إلحاحا فى الصليبية المتعصبة الذميمة.

كان الاضطهاد فى عهد القياصرة ناشرا جناحيه فى كنف الموظفين الروسيين (بريكاز) والمبشرين المسيحيين بتأييد رسمى من الدولة القيصرية.. لذلك لا يعتبر الاضطهاد الدينى فى روسيا أمر حل بها حديثا . وحدث أن رفع هيرماهان أسقف قازان فى بداية العصر السادس عشر تقريرا إلى أعتاب مولاه القيصر (تيودور) يسرد فيه . بلسان محرق بالغ الأثر . حوادث فشل التبشير المسيحى، وارتداد المسيحيين الجدد إلى دينهم الأصلى (الإسلام)، وجرأتهم فى إقامة شعائرهم الدينية بمساجد أقاموها من جديد.. وبناء على هذا التقريرالأسقفى قام القيصر المذكور بأخذ تدابير صارمة ضدهم وأبلغهم حرمانهم من أملاكهم مع اجبارهم على الإقامة فى حى أنشىء خاصة لهم بمدينة قازان، تحت إشراف أحد أمراء الروس، ثم كلف الشبان تكليفا بالزواج من روسيات، والبنات من روسيين.. ومن خالف الأمركان مصيره السجن وتعذيبه فيه بوضع القيود فى يديه ورجليه وضربه بالسياط، وكما لو كان هذا التعذيب غير كاف لاشباع نفسية القيصر أمر فوق ذلك بهدم المساجد التى بنيت من عصور، ويطرد المسلمين من مدينتهم وكان له ما أراد.

وتمضى القرون، ونسير والخط الطويل الأسود المظلم للحروب الصليبية ـ على مدار التاريخ ـ حتى إذا ما أتينا العصر الحديث وجدنا أمرا عجيبا، وفظائع تقشعر منها الجلود وإليك بعض الأمثلة على ذلك.

(ذئاب الحبشة تنهش الإسلام)

أمة تذبح ودين يذوب:

أما الأمة فتسعة ملايين إنسان فى الحبشة، وأما الدين فهو الإسلام الحنيف، وراء ستار لا يخترق، وداخل سجن معتم مترامى الأطراف، تقع هذه المأساة تمزق الأكباد تفتن أمة عن دينها، لترتد عنه بالجوع والتشريد والحديد والنار، ودون أن يسمع لها أنين، أو تشهد لها عبرة أو سمع لأحد من المسلمين فى أنحاء الدنيا كلمة عطف، فضلا عن صيحة زجر وصرخة إنذار وتألم.

وقد كنت أعرف ـ كما يعرف الكثير ـ أن ثلثى الحبشة مسلمون، وكنت أدرى ـ على سبيل الإجمال لا التفصيل ـ أن هذه الكثرة المنكودة تعانى ضغطا يوشك أن يكتم أنفاسها، حتى أطلعت على تقريرين موثوق بمصدرهما فى هذا الشأن، أرى أن أسوقهما، ومعذرة ان كنت سأطيل بذكرهما، فما كان ذلك إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها، وشفاءا للصدر من غلته ونشرا للحق، وبعثا للهمم الناهضة.

التقريرالأول عن بعثة أزهرية مشاهدة بنفسها: [٤٩] سافرت بعثة من الأزهر إلى بلاد الصومال ، وأرتيريا ، وعدن ، والحبشة لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد، واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر سنة ١٩٥١، وكتبت تقريرا مفصلا يقع فى ستين ومائة صفحة كبيرة، يتسم بالدقة ، والاعتدال ، والواقعية، ومع هذا فقد حوى ذلك التقرير عجبا عجابا عن الإضطهاد الدينى فى القرن العشرين، وفيه قالوا (مع مراعاة الإختصار).

أقمنا بها[٥٠]اثنى عشر يوما حاولنا فى خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم فى العاصمة والمدن الكبيرة، وأن نتصل بالمسلمين، فلم نستطع إلى ذلك سبيلا، لأسباب خارجة عن إرادتنا، ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثير من شئون السملمين فى الحبشة وسنذكر بعض ما يمكننا ذكره متوخين الحقائق التى تهمنا:

أولا: ان الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالى قد اغتصبت من المسلمين ثلثى أملاكهم العقارية، وسلمتها للمسيحيين من الرعاية مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين حرصا على افقارهم وانحلالهم.

ثانيا: ان الحكومة الحبشية تمنح ارساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية، فى الوقت الذى تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محلته إلى محلة أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم، وتقضى على كل محاولة ترمى إلى ذلك، وقد جاء فى تقرير لهذه الارساليات.. انه يمكن تنصير جميع المسلمين فى هذه المناطق خلال خمس سنوات نظرا لجهلهم ، وفقرهم ، وعدم وجود من يعلمهم دينهم أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم.

ثالثا: ان أكثر المسلمين فى الحبشة اهتماما بنشر علوم الدين هم مسلموا مقاطعات كفا، وجيما، وللو، وهرر.. وأنه كان فى جيما وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين. ولكن بعد أن أعلن ضمها إلى الامبراطورية الحبشية، واعتقل سلطانها الأمير عبد الله بن السلطان محمود بن داود المشهور باسم أبى جعفر، وزج به فى غيابة السجن استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس، ثم أغلقت أكثرها وغيرت مناهج ما بقى منها، ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الإسلامى أثرا فيها.

رابعا: إن السلطة الحبشية جاهدة فى سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين فى البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وانها أنشأت لذلك حوالى مئتى مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات، ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة فى المائة من مسلمى الحبشة الذين لم تجد الحكومة بدا من قبولهم لظروف خاصة، وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لاتقوم الحكومة بالانفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة فى المائة من ميزانية التعليم. هذا إلى أن برامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامى نصيب منها، حتى فى المناطق الإسلامية المحضة.

خامسا: ان المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف فى هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامى ، واللغة العربية فى المدارس التى بها، فعينت مدرسين فى بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامى، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية، واختارت مدرس الدين من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئا من تعاليم الإسلام، ولم تحدد لحصة الدين زمنا خاصا كغيرها من حصص الأمهرية والانجليزية وسائرالعلوم التى تعلم فى المدرسة، بل كلفت مدرس الدين الإسلامى أن يجمع التلاميذ فى الأوقات المخصصة لراحتهم، ليعلمهم فيها المبادئ التى لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها، وشروطها وماشاكل ذلك فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم، ويمر العام كله دون أن يلقى عليهم درسا واحدا.

سادسا: إن الحكومة اختارت فى العام الماضى بعثات من المتخرجين فى بعض المدارس وأوفدتها إلى المعاهد المختلفة فى الخارج ليعودوا فيتولوا المناصب الكبيرة فى الدولة، وقد كان من بين المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ولكن بعد أن تمت اجراءات سفرهما حيل بينهما ، وبين السفر لأسباب غير معروفة.

سابعا: انه كان للمسلمين ثمانى مدارس وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامى، ومواردها تأمين التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض،وكانت تقوم بتعليم ثلاث آلاف من أبناء المسلمين، وقد ظلت تؤدى مهمتها رغم جميع المتاعب إلى سنة ١٩٤٩.. ولكن الحكومة أرادت اخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية : والدين، فلما رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكا اضطر اعضاءها بسببه إلى التخلى عن مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منها، وعندئذ حذفت منها مادتى اللغة العربية والدين الإسلامى.

ثامنا: إن المدارس الباقية فى طريقها إلى هذا المصير البائس، لأن الوسائل التى اتبعت بشأن المدارس الثلاث ماضية فى طريقها، وقد تركت البعثة الحبشية ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها.

تاسعا: إن إحدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين المصريين بالحبشة أن يقوموا بتدريس بعض العلوم فى أثناء فراغهم، نظرا لحاجة المدرسة إلى بعض المدرسين الأكفاء ولكن المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب.

عاشرا: ان الكتب العربية لا يسمح بدخولها إلى أثيوبيا، ولا تداولها أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة.

هذه هى الحقائق المفجعة فى القرن العشرين، وهذه هى الأحوال التى يعيش فى ظلها خمسة وستون فى المائة من سكان الحبشة لا لسبب إلا إنهم مسلمون.

أما التقرير الثانى فعن جماعة من المجاهدين الفارين من الحبشة، وقد أودعوا ما لديهم فى رسالة تنضح بالأسى والصدق، وتنطلق بما هنالك من مظالم تقسم الظهور، وهذا نص الرسالة أسوقه، لعلها تعرف الجاهلين وتذكر الغافلين(٥١).

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى: نحن من هر طالبان فى الأزهرالشريف، ومن حديثنا هذا الموجز ستعرفون لماذا لجأنا إليكم؟ اننا نود أن نقدم إليكم عرضا سريعا عن حال المسلمين فى الحبشة، ولكى تأخذوا فكرة مختصرة تتعرفون منها على حاضر المسلمين فى الحبشة، وما هم فيه من اضطهاد، وعلى مستقبلهم وما يبيت لهم من عسف.

نأسف إذ ننقل إليكم ما قاله امبراطور الحبشة فى الكونجرس الأمريكى فى أثناء زيارته للولايات المتحدة منذ سنوات، عندما سئل عن أهدافه وبرامجه لنهضة بلاده قال: إن أهم الأهداف التى نسعى إليها هو توحيد الدين واللغة فى بلادنا، وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئا من التقدم، وما سئل عن المسلمين قال: «نعم توجد هناك أقلية مسلمة فى الجنوب «اقليم هرر» اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب وقد وضعنا لها برامج منذ أثنى عشر عاما فلا يمضى وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها.

هذا ما قاله امبراطور الحبشة الذى يملك مصير الشعب هناك، وهو الحديث نفسه الذى تعرض له فى خطاب العرش عند افتتاح البرلمان الصورى فى سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين، وإن كان فى صورة مقنعة، فإلى أى مدى يمكنكم التنبؤ بما قد يصيبنا فى المستقبل إذا كانت هذه هى إرادة الامبراطور المتلىء بروح العداء والمقت ، والكراهية، للإسلام؟

والذى يجعل من هذاكله وسيلة لدعم سلطانه فى نفوس المسيحيين واكتساب احترامهم ومحبتهم «كحامى حمى المسيحية» و«منقذ الصليب المقدس» وهى إرادة لها جميع الإمكانيات لتنفيذ ما ترسمه إذا عرفنا أنه الحاكم المستبد المطلق الذى لا يقف فى وجهه أحد.

وتؤيده فى ذلك الكنيسة التى تدعم فكرة كونه المختار من الله، ليحمى الحبشة «المسيحية»!

من المسلمين، والتى تبثها فى عقول المسيحيين هناك بكل وسيلة، وهى بذلك قد أعطته السلطة الدينية إلى جانب سلطته الدنيوية.

والواقع أن محاربة الإسلام والمسلمين فى الحبشة لم تبدأ فى عهد هيلاسيلاسى، بل تمتد جذورها إلى زمن بعيد، حيث كان الصراع مستمرا بين هرر «معقل الإسلام» فى ذلك الجزء من افريقيا وبين الحبشة المسيحية، ففى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حدثت معارك رهيبة بين هرر والحبشة المسيحية، استولى فيها المسلمون على أراضى المسيحيين «شوا» عندار، تجرى، فوجام، وغيرها من البلدان وحكموها سنين عدة، وأشهر هذه المعارك حملة الإمام أحمد بن إبراهيم القائد الهررى، ومن بعده الأمير نور، ولم يتمكن المسيحيون قط من غزو أراضى المسلمين إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، عندما بدأت المنافسة بين الاستعماريين الغربيين فى ابتلاع افريقيا، وخاصة شرقى أفريقيا الذى بدا جليا خطورة مركزه الاستراتيجى بعدحفر قناة السويس بالنسبة لحماية المصالح التجارية .. ولذلك سارعت كل من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا إلى احتلال السواحل الشرقية للقرن الافريقى، وكانت البرتغال إحدى الدول الاستعمارية التى كانت تطمع من وقت طويل فى احتلال هرر، لولا فشلها فى جميع محاولاتها.

ولم تكن هناك وسيلة إلا استغلال العداء التاريخى والدينى فى نفوس الأمهريين ضد الهررين فحملتهم بذلك على اثارة حرب كانت هى ممولته تمويلا هائلا. فسقطت أكبر مدينة فى شرق أفريقيا وأكثرها مدنية، وأكبر معقل من معاقل الإسلام فيها، وقد وقف إلى جانب الأحباش فى هذه الحرب جنود البرتغال وعشرات المدافع الثقيلة وكثير من الأسلحة الخفيفة .. على حين لم يكن للهررين غير بضعة مدافع، أقل من أصابع الكف، وكان جل اعتمادهم على الأسلحة التقليدية وبذلك استشهد أفراد المدفعية وكان معظمهم من المصريين الذين استوطنوا هرر بعد انسحاب الحامية المصرية قبل ذلك بثلاث سنين، وانحسرت المعركة عن انهزام الجيش الهررى، والحق أنها استشهد كله، وهكذا سقطت هرر العاصمة سنة ١٨٨٧ ودخلها الأمهريون، ولم يكونوا يفكرون فى حكمها، بل فى فرض جزية على أميرها مع غرامة حربية، وعلى ذلك تم الاتفاق ووقعت المعاندة ولحين استيفاء الدين تبقى هرر محتلة مدة أقصاها عشر سنوات، ولم تمانع البرتغال فى ذلك مادام الوقت يتسع.

وهنا بدأ الصراع بين كل من بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا فى البرتغال مناساً خطيرا، فعملتا بجميع الوسائل حتى ازاحتاها عن الميدان ووقعتا معاهدة مع الامبراطور «منليك» تتعهدان له فيها بإقامة امبراطورية تشمل جميع الممالك الإسلامية التى لابد من سقوطها بعد سقوط هور - ذات المكانة العظيمة فى نفوس المسلمين - وتعترفان له بمملكة هرو، وبذلك احتلتاه من الاتفاقية الهررية الأمهرية.

والغريب أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد حضرتا هذه الاتفاقية وأخذتا - مقابل ذلك - أراضى من الجنوب والشرق، فأخذت بريطانيا الجنوب واستولت فرنسا على الشرق، فضلا عن امتيازات هائلة لهذه الأخيرة فى المديرية الشرقية.. منها مد خط حديدى يصل ثغر «جيبوتى» بـ«أديس أبابا» مارا بالمديريات الشرقية والشمالية، واحتكاره لمدة ٩٩ عاما فى مقابل مبلغ لا

يقوم بنفقات عمارة واحدة، وجعلت فرنسا قاعدة هذا الخط الحديدى مدينة «دريدوه» عاصمة المديرية الشرقية حتى تتمكن من إدارة الإقليم مباشرة، فكان القنصل الفرنسى فى «دريدوه» و«هرر» هو الحاكم الحقيقى، وان كان القنصلان الإيطالى، والانجليزى يزاحمانه فى هذا النفوذ، وخاصة فى المديريات الغربية والجنوبية حيث تتاخ حدودهما إقليم هرر.

وقد اتخذ الصراع الدينى منذ ذلك شكلا جددا بإضافة الصراع السياسى إليه، ودخل الميدان فرنسا وبريطانيا، وبدأت محاربة الإسلام بوسائل أخرى.

ولم يكن هم فرنسا أن تبسيط نفوذها على الحبشة بقدر ما كان يهمها أن تبسط نفوذها على هذا الإقليم الخصب الذى كان له أهميته الاستراتيجية والاقتصادية والروحية بعد أن وطدت أقدامها بواسطة الأمهريين وقدمت لهم مساعدات عسكرية وفنية.. وفى أثناء مد الخط الحديدى شرد الآلاف من الناس، وأحرقت قرى، وأبيد الذين أبوا أن يجلوا من أراضيهم دون تعويض أو حماية لحقوقهم ولم يسمع أحد عن هذه المجازر الرهيبة، وكانت تشبه مجازر الأمريكيين فى الهنود الحمر تماما، وأدركت فرنسا أن أهم شىء يجب القضاء عليه هو اللغة العربية والحروف العربية اللتان ذاقت منهما الكثير فيما استعمرته من الأراضى، فأوعزت إلى الامبراطور، بفتح باب الهجرة الإجبارية للمسيحيين من ناحية واستعملت نفوذها من ناحية أخرى فى التقليل من مكاتب القرآن فى الوقت الذى فتحت فيه مكاتب تبشيرية ومستشفيات ومدارس، ونشرت دعايات باللغة الحبشية فى الكتب والمنشورات وغيرها.

وزحف جيش المهاجرين من الشمال، ووقعت القرى الهررية تحت أفظع نوع من الاقطاع ونظام التبعية وصار الناس عجيجا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، وأرغم الاقطاعيون سكان القرى والفلاحين الذين يعيشون فى أراضيهم على حضور القداس وحمل صليب خشبى على رؤوسهم كل يوم أحد، كنوع من اظهار الولاء لسادتهم! وكانت القيود والسياط هما اللغة الوحيدة التى يخاطب بها أولئك الفلاحون المساكين.

ونزلت إلى ميدان التبشيرالبروتستانتية مع الأرثوذكسية التى كانت تساعدها الحكومة باضطهاد المسلم حتى يلجأ إلى التنصير، وفعلا كانت تحصل حالات نادرة من ضعاف النفوس حيث كان يتعمد الأمهريون اعطاءهم أراضى واسعة ونياشين، بل يضعون تحت تصرفهم كثيرا من الفلاحين الذين كانوا اخوتهم بالأمس.

ودارالزمن، وعجلة الإقطاع لا تكف عن السحق والدق، فاستولى هيلاسلاسى على العرش وكان أول ما فعله هو التخلص من الزعماء الهرريين الذين كانوا لا يزالون يطالبون بحقهم فى الجلاء وإعادة ممتلكاتهم وأراضيهم، وسادت موجة من الجرائم الغامضة والخطف والاغتيال، حتى كادت العاصمة تخلو من إنسان يفكر فى أمن وغده، بعد أن تركز عليها الاضطهاد بكافة أنواعه، باعتبارها مقرا لخلاصة الطبقة الوطنية المثقفة لجميع القبائل فى ريف هرر.

غير أنه بالرغم من ذلك الاضطهاد والاستعباد وانتزاع الأراضى وتجويع الناس وكبت حرياتهم لم يستطيعوا قتل الروح الوطنية فى الشعب تماما، ولم تكف أصابع المبشرين

الفرنسيين - الذين كانوا مدرسين على حساب الحكومة - عن الكيد للغة العربية بغية محوها، بيد أنهم فوجئوا بالغزو الإيطالى بعد أن كادت محاولاتهم تنجح نوعا من النجاح، واستولى الإيطاليون على الحبشة فى أواخر عام ١٩٣٥ وبذلك توقف ادنا برنامج بيت لشرق افريقيا، وكان ذلك الإحتلال ضربة قاضية لفرنسا ولتلميذتها، فتحطمت السلاسل والقيود التى كان يرسف بها المسلمون فى الحال باعتبارهم الطبقة العاملة التى عليها أن تدفع الضرائب والجباية والعشور إلى غير ذلك من وسائل السلب والنهب.

وكان يخول الاقطاعى أن يحكم بنفسه على أى فرد تحت أمرته، ويقيد بالسلاسل ويقضى عليه بالشنق أحيانا فى بيته دون اللجوء إلى المحاكمة.

خرج من سجن هرر وحده أكثر من سبعة آلاف شخص، ظل بعضهم مقيد الرجلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة، وخمسة عشر عاما، فلما أفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، إذ تشكل عمودهم الفقرى بذلك الشكل القومى، واختفت السياط الرهيبة التى يزن الواحد منها أكثر من خمسة وعشرين رطلا، وهى عبارة عن سيور جلدية مغفورة بأحكام تتدرج فى الدقة حتى الطرف، واختفى الرق أيضا وتنفس المسلمون الصعداء إذ وقفوا لأول مرة منذ أكثر من خمسة وأربعين عاما سواسية مع المسيحيين وأعيدت لهم معظم أراضيهم، وبدأوا يشعرون بأنهم بشر، ونشطت حركة التجارة التى كانت قد ماتت تماما، كما افتتحت المدارس العربية وظهرت الصحف المحلية، وجىء بمدرسين من طرابلس الغرب.

ولكن هذه الفترة لم تطل، فما أن أطل شهر مايو من عام ١٩٤١ حتى عاد الأمهريون فى ركاب البريطانيين، وحدثت عدة ثورات تولت بريطانيا اخمادهاب بوحشية، وانبعثت من جديد عواء السلاسل وفرقعة السياط، وعادت شهوة الانتقام والسيادة أعنف من ذى قبل، كأنما يستدركون الأيام التى فاتتهم إبان الإحتلال الإيطالى.

وانطلقت الكنائس معلنة لا عن التسامح والأخوة بل عن الحقد والكراهية، وبانطلاقها انطلقت كل الأشياء التى كانت تجعل من المسلمين عبيدا وخدما، فازيحوا عن الوظائف التى كانوا يشغلونها وسرح الجند منهم والشرطة، وصودرت الأملاك من جديد، حتى تلك التى وهبتها الحكومة الإيطالية عوضا لمن لحقتهم خسائرمادية.

ولكم أن تتصوروا مدى البغضاء التى امتلأت بها نفس (هيلاسلاسى» حين رأى الجيش الذى هزمه فى معركة ضد الإيطاليين (وكان معظمهم من المسلمين الطرابلسيين ، والصوماليين وغيرهم).

وهذا من الأسباب التى جعلته عازما على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين فى الحبشة بأى ثمن وذلك ما أشار إليه فى الكونجرس الأمريكى متحدثا عما زعمه أقلية مسلمة تعيش فى الإقليم الجنوبى، وأنه وضع لها برنامجها خاصا وهنا «فقد لم يتوخ الدقة فى التاريخ فبدلا من اثنى عشر عاما كان أولى به أن يقول خمسة عشر عاما، وهو الوقت الذى تنازلت فيه الإدارة البريطانية له عن إدارة هذا الإقليم.

ومنذ ذلك الحين وضع خطة جديدة بدأها بالمصادرات الجماعية للأراضى التى كان الإيطاليون قد أعادوها إلى أصحابها الحقيقيين، ثم مطالبة ملاك الأراضى الصغار بضرائب السنين الخمس وما قبلها حتى عجز صغار الملاك عن الدفع، فاستولى عليها ووزعها على عائلته وهى بدورها بدأت تؤجرها بأجور مرتفعة للفلاحين، ثم عزل سكان المدن عن الريف، وحرم على أهل المدن الانتقال إلى القرى إلا باذن خاص، كما عزل المديريات بعضها عن بعض وفرض قيودا ثقيلة على التنقل بينها، ذلك إلى جانب الدعايات الكنسية ضد المسلمين، ويتحمل كل مسيحى حماية الدولة.. وبذلك أصبح لكل فرد منهم حق اتهام أى مسلم لأقل سبب وتقديمه للمحاكمة.

وأى موظف لا يركع له المسلم فى مكتبه حينما يدخل عليه يعتبر ذلك اهانة موجهة إلى السلطة العليا التى تمثل الذات الملكية، وجزاؤه أن يجلد ٤٥ جلدة - ربما لا يبقى حيا بعد عشر منها - وأن يحبس مدة تتراوح بين سنتين وخمس سنين.

وأى كلمة يقولها المسلم يمكن أن تفسر تفسيرا ضد الدولة سياسيا، وتعتبر جريمة يعاقب عليها، وبذلك تعرض المسلمون للون جديد من الإرهاب، وأساسه الظن والاتهام، وإذا كان الحاكم والقاضى والشرطى وسائر الموظفين مسيحيين وجميع السلطات مسيحية فإلى أى مدى يمكن أن يتعرض المسلم للظلم! وأى إجحاف واضطهاد يقعان عليه دون أن يملك ردا، أو يستطيع دفاعا؟!

المحاكم دائما ملأى بالمتهمين، والسجون غاصة بالمظلومين وكثرتهم من المسلمين، فهم دافعوا الضرائب والغرامات، ومتحملوا الخسارات وهم الذين أرهقهم الأثقال الجائرة، فعجزوا عن الدفع واستضافتهم السجون، وما أسهل أن تنسب الحوادث التى ترتكب ولا يعرف فاعلها إلى المسلمين!

وهاكم حادثةوقعت منذ سنة ١٩٤٦: وفى قرية صغيرة من قرى «كمبولتشا» إحدى المراكز شرقى العاصمة (هرر) وجد جندى أمهرى قتيلا، فبعثت الحكومة كتيبة مؤلفة من مائتى رجل بكامل أسلحتهم، واقتحموا القرية ليلا وقتلوا منها أكثر من ثمانين شخصا، منهم الشيخ والطفل والمرأة، وأحرقوا الأكواخ عن آخرها، ونهبوا المواشى، وزجوا بالعشرات فى السجون وذلك كله قبل أن يتحروا عن الحادث، وبعد مضى مدة تبين أن القاتل كان زميلا للقتيل وفى فرقته نفسها، فاتهمه بعلاقته بامرأته، وهكذا ذهب أولئك المساكين ضحية الخيانة والانتقام والحقد والكراهية.

هذا واحد من مئات الأمثلة التى حدثت، ولا تزال تحدث فى كل وقت مادام هناك حاكم أمهرى، ومحكوم مسلم، ومادام المسلمون يقرأون القرآن العربى.

وقد كانت واحد من مئات الأمثلة التى حدثت، ولا تزال تحدث فى كل واقع مادام هناك حاكم أمهرى، ومحكوم مسلم، ومادام المسلمون يقرأون القرآن العربى.

وقد كانت خلال هذه السنوات ثورات ضد هذا الظلم، ولكن قوى الشر والاستعمار

وأصحاب المصالح تتكتل ضدها، فتخمدها.. ففى (جرسو) مثلا - إحدى المديريات الهررية التسع - ثار الشيخ عبد القادرآدم ضد الضرائب الفادحة التى فرضت على هذه المديرية وضد الأوامر التى كانت تقضى بأن يخبز نساء المركز المسلمات جواليق من الدقيق كل أسبوع للمعسكر ويحملنه إليه، وبعد أن دخل رجال الثورة الغابات للمقاومة جمعت الحكومة الشيوخ والأطفال والنساء فى أكواخ، كل عشرين أو ثلاثين منهم فى كوخ - وهو مبنى عادة من الحشيش أو القصب وسكبت عليها صفائح البنزين، فاحرقتها جميعا بمن فيها.. والذى أمر بهذه الجريمة المروعة لا يزال موجوداً، وهو وزير الحربية الراس (أبيا أراغى).. أما المواشى فقد أبيدت بالسم والرصاص، وكان هذا العمل انتقاما من الرجال الذين لجئوا إلى الغابات.

ومن جهة أخرى لبث الرعب فى القرى المجاورة، وكانت هذه الأعمال تسيرجنبا إلى جنب مع جميع أساليب الاضطهاد الوحشية سواء فى المحاكم ، أو فى السجون ، أو فى المصالح الحكومية ، أو فى المستشفيات أو المراكز التبشيرية.

وللمبشر الأرذوكسى - وهو الدين الرسمى للحكومة - حق مطالبة إعدام أى مسلم دون ابداء الأسباب أحيانا، واتهامه بإنتقاص الدين الرسمى أحيانا أخرى، وهذه الأشياء لا تظهر فى المدن بالطبع، بل تتركز فى القرى النائية البعيدة عن العمران، ولهم فى تكتم الأخبار ألف ، وسيلة ووسيلة.

وما أن أهل عام ١٩٤٨ وقد بلغ حدا بعيدا، حتى هبت هرر تطالب بحقوقها العادلة ومساواة أهلها بالمسيحيين، مما اعتبرته الحكومة وقاحة وخيانة فجردت له ثلاثة ألوية من الجيش اقتحمت المدينة ، وأعملت فيها السلب ، والنهب ،والتعذيب، واشترك معهم رجال الشرطة والمدنيون - وقد رخص لهم باقتناء السلاح فى هذه الحملة الإرهابية ، فصودرت ، المتاجر والمدارس والمزارع ، وأقيمت محاكم للتطهير، واعتقل الآلاف ووضعوا فى معسكرات التعذيب، وأخذت أوقاف المساجد وضمت إلى الكنائس، وأرسل الزعماء إلى مناطق نائية، وكان التعذيب وحشيا لم يقتصر على اطفاء السجائر فى الأجساد أو تعريض الناس للشمس اللافحة فى حالة جوع ،وظمأ شديدين، وقد وضعت على مقربة منهم براميل الماء والطعام، أو هتك الأعراض على مرأى من الأزواج والأولاد، أو العبث فى ظهورهم بالسياط، بل تعداه إلى دق (خصيات الرجال) بأعقاب البنادق، وإلى قذفهم بين أسلاك شائكة تمزق أجسادهم والجنود يتلذذون بذلك المنظر الوحشى، واستخدمت كل وسائل العنف ، والتعذيب فى الاستجواب، واستمرت هذه الأعمال الفظيعة سبعة أشهر كاملة، قتل فيها من ، قتل وهلك من هلك بسبب الجوع ، والبرد.

وفى تلك الأيام قدم وفد من مسلمى هرر إلى القاهرة ليعرضوا شكواهم على العالم الإسلامى، فلم يجدوا سندا، ولا نصيرا، والظروف لم تكن فى صالحهم، والعالم الإسلامى لم يقدم لهم شيئا بالرغم من أن الوفد عرض أمره على حكومة الحجاز ، واليمن، وقدم مذكرات إلى كثير من سفارات الدول الإسلامية وغير الإسلامية ومن يومها اعتبرت (هرر) منطقة مفتوحة لكل أنواع التبشير - ما عدا الإسلام منها أن كان هناك تبشير إسلامى - للتعجيل

بتنصيرها وعين لها حاكم عسكرى هو نفسه الذى كان يتولى التحيق والتعذيب والاستجواب فى تلك الحركة.

وفى(هرر) الآن البعثات البروتستانتينية والكاثوليكية، والأرثوذكسية، والسويدية الأمهرية وخصصت مديرية (عروس) للتبشير الأرثوذكسى، ولا يقربها أحد، كما منح رجال الدين هناك - مع السلطات المحلية - حق الاجبار ومطاردة الأشخاص الخطيرين «المشايخ».

ونتيجة لهذه الموجة من الإرهاب والنهب اللذين حدثا فى هرر قلت موارد الناس وهبطت حركة التجارة، وكثر العاطلون وعجز الناس عن دفع أى ضريبة، مما سهل للحكومة الاستيلاء على الممتلكات والمزارع.

وفى الوقت نفسه أفتتحت بعض المدارس الأمهرية المسيحية وطلب إلى المسلمين أن يدخلوا أبناءهم فيها بعد أن أغلقت مدارسهم الخاصة.

ومن المعلوم أن المدرسين فئة منتقاه من الجزويت والهندوك المعروفين بميولهم العدائية نحو الإسلام، وعليه فإن التحاق أبناء المسلمين بتلك المدارس نوع من الانتحار الدينى ، والوطنى فضلا عن البرنامج الذى يدرس، والمبعوث فيه كل ما من شأنه اهانة الإسلام ، والمسلمين.

والتعليم الدينى اجبارى، وليس للمسلمين حق افتتاح مدارس خاصة بهم، كما أنه يحرم على أى هيئة أو طائفة إسلامية أن تزور أرضهم ، أو أن تتصل بهم، مثل ما فعل بالبعثة الأزهرية قبل بضع سنوات، إذ منعت من الدخول إلى منطقة هرر.

ومن الأساليب التى تلجأ إليها الحكومة لتقوية التبشير الأرثوذكسى أسلوب غريب، هو اشاعة أن روح جبريل ظهر فى دير صغير فى قرية (قلبى) بواسطة القسيسين، وهذه القرية تبعد حوالى خمسة وأربعين كيلو مترا من هرر، وهى أشد مناطق هرر ازدحاما بالريفيين (السذج) وان هذا الروح طلب من المسيحيين من كل بقعة فى الحبشة أن يجتمعوا سنويا فى هذا المكان ، ويؤدوا اليمين المقدسة لنصر المسيحية وأحيطت هذه الاشاعة بهالة من الخرافات وخوارق العادات التى عرضت لمن زار هذا المكان، وكان أول من استجاب لهذا النداء هو الامبراطور نفسه مع جميع أفراد عائلته ووزرائه وقدم النذور والتبرعات، وبذلك صار الذهاب إلى هذا المكان حجا مقدسا، يفد إليه المسيحيون من كل أطراف الحبشة، والهدف الذى يرمون إليه من وراء هذا العمل هو جعل هذا المكان أرضا مقدسة يدافع عنها كل مسيحى ضد أى تحرر أو اضطراب من جانب المسلمين الذين تخصهم هذه الأرض ثم استغلال العاطفة الدينية لجمع التبرعات التى تبلغ سنويا ثلاثة ملايين من الدولارات مخصصة كلها للتبشير فى مقاطعة هرر، ويستعرض القساوسة هناك النتائج أمام الوزراء والكبراء ، ورجال الحكم ، والعائلة المالكة، ويقدمون من هداهم الله على أيديهم إلى الدين المسيحى - بحسب زعمهم - بين عاصفة من التصفيق ، وقراءة المزامير والموسيقى، وتطلق الأعيرة النارية ابتهاجا لهذا النصر ويقوم الجيش باستعراض ثم تقدم العطايا والبركات من الامبراطور ، أو أحد أعوانه لأولئك المرتدين، ثم توزع عليهم النياشين، كل ذلك بغية التأثير على غيرهم من القرويين الذين

يحيطون بهذا المكان، ولا غرابة فى أن يكون لها تأثيرها إذاكان المسلمون فى تلك النواحى متأخرين، وقد أرهقتهم الضرائب ، والمطالب التى لا تنتهى من جانب الحكومة فهم ـ بذلك ـ يحاولون التخلص من الأثقال التى عليهم، ولا يدرى بذلك أحد.

وليست هرر إلا صورة من الصور المنتشرة فى جميع المقاطعات الإسلامية، وما فى (جسة) من الاضطهاد ، والظلم لو وزع وحده على افريقيا كلها لأصبحت أرض الجوع ، والدموع.

فحينا كان (سفين سلسى) ـ وزير الداخلية حاليا ـ حاكما عاما لمقاطعة (كفاجما) اشترع قوانين جائرة بنفسه، وشرد الألوف ، واغتصب أراضيهم، وقتلهم بطريقة غامضة، لأنهم أبوا التنازل عن أراضيهم واستولى عليها، والخلاصة أنه دخل (جسة) والمسلمون يمتلكون من الأراضى ٩٠٪، وغادرها وهم لا يملكون غير ٢٥٪ وكان نصيبه فى ذلك من لا شىء إلى ٢٥٪. والباقى موزع بين الحكومة والعائلة المالكة والمهاجرين الأمهريين، ولم يقف فى ظلمه عند ذلك الحد فى اغتصاب أموال الشعب وأراضيهم بل اخترع طريقة أخرى هى أن لا يجنى البن إلا إذا أصدر أمرا بذلك فى الوقت الذى تجنى فيه مزارعه الواسعة ،وتجفف وتباع بأسعار مرتفعة، لأنها فى هذه الحال ستكون المعروض الوحيد فى السوق وبعد أن ينتهى من ذلك يكون قد تلف أكثر محصول البن فى المزارع الشعبية إما بتساقطه أو بأن تلحقه الأمطار، ويستغل هذه الفرصة أيضا ليبعث سماسرته فى القرى والأرياف لشراء البن بأثمان زهيدة، وفضلا عن ذلك فقد أقام مصافى للبن ، ولا يمكن الإنسان أن يصفى بنه فى غير هذه المصافى، ولا يمكن أن تحمل العربات إلا من هذا المكان، ولا يمكن أن يقدر رطل واحد من البن دون أن يحمل الايصال الذى يشهد له بأنه قد صفى فى ذلك المكان المعين، ولا عربة دون أن يكون لها ايصال يكون بموجبه قد دفعت ستين دولارا عن كل شحنة، وهذه الأموال الطائلة لا تذهب إلى خزينة الحكومة بل إلى جيبه.

والمعلوم أن المسلمين من أصحاب البلد وغيرهم من العرب هم الذين ينجرون، وبذلك يضمن افقارهم، وهذا ما حدث فعلا، وقد أثرى ثراء فاحشا حتى أصبح مليونير الحبشة، فمزارعه التى اغتصبها يستخدم فيها مساجين المسلمين دون مقابل، وقد ارتفعت درجته لدى الامبراطور لأنهما يتقاسمان تلك الأرباح، فمن درجة (صاغ) إلى (لواء) فى الرتب العسكرية ومن درجة)فنياز ماتجس) إلى (راس) وهى أكبر رتبة مدنية بعد الامبراطور، ثم عَين وزيرا للداخلية.

وفى خلال حكمه رأت (جمة) المسلمة أفظع أنواع الحكم والاضطهاد، وكان كل من يقوم فى وجه التبشير المسيحى يوضع فى حفرة عميقة ويقذفه الجنود الأحباش بصخور ، وحجارة كبيرة، وقد أجبر المسلمين على بناء كنيسة (مريم) واعتقل الذين لم يتبرعوا وصادر أملاكهم وهو الذى استن بناء كنيسة على مدخل كل مدينة مسلمة حتى يظن الأجانب أن الحبشة كلها مسيحية.

كانت التجارة هى الطريق الوحيد الذى بقى للمسلمين بعد ما سلبت الأراضى الزراعية من أيديهم، غير أن قيود ثقيلة فرضت على هذه التجارة، ومنحت امتيازات التصدير والاستيراد

للأجانب، وبذلك أخذ المسلمون يتدهورون اقتصاديا ومعنويا.. ليس هذا فحسب بل أخذوا يتدهرون خلقيا بعد تشعب طرق محاربتهم.

فقد سمحت الحكومة للعاهرات بالهجرة إلى كل من (هرر) و(جمة) وجميع المدن الإسلامية الأخرى، وفتحت بيوت الدعارة بتشجيع من البلدية المحلية فى كل مقاطعة وفى كل شارع كبير من شوارع المدن.. وانتشرت الحانات، ولعل أفظع منار هو ذلك الذى يطالع المرء حول جامعى (هرر) و(جمة) حيث تحيط بهم بيوت الدعارة والحانات.. وقد حاول المسلمون أن يحتجوا وأن يقفوا ضد هذا الوباء الخلقى، ولكنهم باءوا بالفشل، وقد أخذ التضييق على إقامة الشعائر الدينية يزداد يوما بعد يوم فى السنين الأخيرة، فالأعياد ممنوع اقامتها إلا فى المدن الرئيسية بعد تقديم طلب بالسماح، ويحدث الا يسمح بها فى الوقت المعين ، وترجأ إلى مابعد يومين أو ثلاثة من الميعاد، أما الحج فأمره معروف، إذ منعوه صراحة، ولا يحج إلا عدد محدود توفرت فيه الشروط التى تكفل اغلاق فمه، وهذا العدد المحدود يقل كل عام، وفى العام الماضى أصدر وزير الداخلية (سلسى) ووزير المالية (مكنن هبت ولر) أمرا بمنع الحجاج من مغادرة الأراضى الحبشية، وفى آخر لحظة سمح الامبراطور لعدد معين منهم بعد شكاوى ، وعرائض قدمت، وكان هو نفسه وراء ذلك المنع!

وفى العام نفسه نشركتاب (الإسلام وافريقيا) لمؤلفه القس الانجليزى (جود فيرنوبل) وترجمه وعلق عليه القس الأمهرى (جونزى طافطا) وهذا الكتاب من أول حرف فيه إلى آخر حرف تهجم صريح على الإسلام، وسب فاضح لنبى الإسلام والتشهير به، فأجيز المترجم، واحتفلت به الأوساط الدينية، وعلى رأسها كاهن الحبشة الكبير (باسيليوس) وهو أعدى أعداء الإسلام الذى يدبر هذه المآسى كلها ضد حرية العقائد، ومعه الامبراطور.

أما لماذا وكيف لا يثور المسلمون؟ فهناك أسباب كثيرة . ولو أنهم قد فعلوا ذلك فى حدود ضيقة لاسيما فى هرر . منها أن معظم المسلمين متأخرون بسبب فرض الحصار على تعليمهم فانهم غير مركزين فى إقليم واحد، فهم متباعدون جدا، وأقاليمهم تفصل بينها أراضى الأمهريين . ومنها بث روح التفرقة التى تشنها الحكومة فيما بينهم بإحياء التعصب القبلى، واثارة الخلافات الدموية بسبب الحدود الوهمية التى تصنعها لكل قبيلة، ومنها حكمهم حكما ارهابيا أفقدهم الثقة بأنفسهم وقتل فيهم الروح المعنوية، فضلا عن عدم حيازتهم الأسلحة، ومنها يأسهم من مساعدة اخوانهم المسلمين فى العالم الإسلامى عامة وفى مصر خاصة، ومنها العجز الإقتصادى الذى منوا به فى السنوات الأخيرة، وضغط الحكومة عليهم من كل ناحية، حتى فقدوا الإحساس بالظلم نفسه، ولعل الإنسان يفقد احساسه بكل شىء حينما يصل به الألم والظلم إلى نقطة معينة من التشبع به.

وأسباب كثيرة أخرى صارت عقبة فى طريق تقدمهم وتحررهم وآخر صورة من صور التعسف هى اجبار الفلاح الهررى على بيع أبقاره إلى شركة (أنكودا) اليهودية، بعد أن اكتشف أن هذه الأبقار لاتذهب إلى مصر وبالطبع لم نستطع إزاء ذلك أن نفعل شيئا.

هذا هو الموجز لحال المسلمين فى الحبشة عامة، وفى هر خاصة وأسمحوا لنا بتقديم

أنفسنا كهاربين من هذا الاضطهاد والارهاب والظلم والوحشيةو ذلك أننا اشتركنا فى كثير من المقاومات السرية ضد الحكومة، وانتقلنا إلى كثير من البلدان الاسلامية نفتتح فيها المدارس الصغيرة لتعليم اللغة العربية، ونعرف الأهالى ما يهدد مستقبلهم ومستقبل أبنائهم.

وحينما كان يكتشف أمرنا كان اغلاق المدارس والاستجوابات والسجون أحيانا هو الجزاء لهذه الأعمال وقد ذهبنا إلى «هرر» ثم «جمة» ثم «دسى» ثم «عروس» وأخريا ذهنبا إلى «دريده» حيث افتتحنا مكتبا للقرآن والقراءة العربية، واستطعنا أن نصمد أكثر من سنة، وهيئنا بذلك أسباب الاستمرار، وجعلنا الشعب يلتف حول هذا العمل ثم عرفنا أن الحكومة تسعى إلى تلفيق تهمة هى وجود علاقة ضارة بالبلاد بيننا وبين مصر، فأحاطتنا بشبكة من الجواسيس وكان ـ لحسن الحظ ـ لنا من بينهم أصدقاء أنقذونا فى آخر لحظة.

وكان الخيط الوحيد الذى أمسكت به الحكومة لتبنى عليه حكمها أن كلامنا كان فى مصر مدة من الزمن، وعاد ليواصل الكفاح فى الإجازة، وهكذا بقينا مراقبين مدة طويلة، واستطعنا أخيرا الهرب، ولم يكتشفوا ذلك إلا بعد وصولنا إلى السودان، ذلك لأننا خرجنا فى أيام كانت أعيادا مسيحية متوالية، وتلتها أعياد إسلامية، فانتهزنا هذه الفرصة للهرب، وقد اخطروا السفارة الحبشية فى السودان للإتصال بحكومة السودان لإعادتنا .. ومن حسن الحظ أننا عرفنا ذلك فى الوقت المناسب ووصلنا إلى مصر، وكنا نعتقد أننا سنجد آذانا مصغية، وقلوبا رحيمة، ورجالا يفهمون ديننا.

لكننا أبنا ولينا وجوهنا قوبلنا بفتور وقلة اكتراث حتى كدنا نشك فى أننا مسلمون أو أننا بين مسلمين.

وأخيرا طلبنا العون لكن نحيا فحسب طلبناه من كل هيئة تهتم بالشئون الإسلامية، وفى مقدمتها المؤتمر الإسلامى الذى تركنا نتردد عليه أكثر من سبعة أشهر، ثم قال لنا أخيرا: ليس لدينا عين نستطيع تقديمه لكم، وعجبنا لماذا لم يصارحنا بهذه الحقيقة من أول الأمر، أننا نأسف إذ نقول لقد اكتشفنا أنه مؤتمرا سمى لا اسلامى، وأن قضايا المسلمين ـ ومن بينهم مسلمو الحبشة ـ آخر شيىء يهتم له المؤتمر.

كنا نأمل أن يأخذ بيدنا ويوجهنا إلى مافيه خيرنا وخير أمتنا ولكن هيهات..

والتحقنا بالأزهر فوجدنا فيه ما يحفظ علينا أنفسينا، أو بتعبير أدق ما يقيم أودنا، ومالهذا جئنا، فأن علمنا واجبات كثيرة نريد أن ننهض كيما نحرر أمتنا، ونصون عقيدتنا ـ أن الأزهر يعطينا ما يصد الريق فمن أين نأتى بما يعيننا على انجاح قضيتنا وانقاذ أخوتنا؟

أننا لم نأت طلبة علم فحسب بل جئنا ليرانا العالم على حقيقتنا، مآسى تعرض نفسية فى همت ، علها تجد دمعة تترقرق لوطن منكوب وإسلام مستباح، أو لسان يقول: قفوا هذه الجرائم فى الحبشة، وأرحموا حرية العقائد ، واكفلواحقوق الإنسان. جئنا لنطالب الأزهر ، وفى ا لأزهر ،عن الهيئات الدينية ليبعث بعوثا علمية إلى المسلمين هناك: المسلمين المحجوبين عن النور ، والعدل المتطلعين إلى الانصاف والرحمة.

أننا نطالب المسلمين هنا بأداء هذا الحق أن كانت لديهم ذرة من الحمية الدينية أو الأخوة الإسلامية أو العاطفة الإنسانية ولو كلفهم ذلك تقديم شكوى إلى الأمم المتحدة «فرع حقوق الإنسان».

وإذا كان حرية التبشير مكفولة للجميع فمن حق الأزهر ، أو المؤتمر الإسلامى أن يطالب بذلك اسوة بالأخرين.

ثم ماالذى يمنع أن تكون الروابط بين مسلمى الحبشة والأزهر مثل الروابط بين الكنيسة الحبشية ، وأقباط مصر؟ أن الحكومة المصرية لم تمنع أن تدخل البعثة التى قدمت أخيرا لحل المشاكل المعلقة بين الكنيستين، لماذا لايطالب الأزهر أو غيره بحق ـ النظر فى شئون المسلمين الأحباش؟ أننا نأمل أن نجد من يتبنى هذه القضايا ويبذل الجهد لانجاحها، وقد أودعنا صدركم هذه الأمانة، وعسى أن يوفقكم الله لحملها .

نرجو أن تسمعوا شكوانا كل أذن، وأن تلفتوا إليها كل قلب، وأن تنتهزوا لنشرها كل فرصة، والا تكفوا عن شغل الاذهان بها ـ وأن ذلك دأبكم دائما ـ لعل الله يكشف بكم الغمة وينير الطريق..

وليس لدى ما أقوله الا أن يراجع المسئولون موقفهم من هذه الدولة الجائرة الكنود، وأن يميطوا اللثام عن سياستها الظالمة حيال الكثرة المسلمة المغلوبة على أمرها وأن يفضحوا النفاق الذى يبرز به البعض حين يتصل بنا كأنه صديق، وهو للإسلام وأهله خصم خبيث العداوة.

إن كارثة المسلمين فى الحبشة يجب أن تطوف انباءها العالم، وأن يعرف الجميع هذه المأساة الدامية «ولله عاقبة الأمور».

زنجبار وكينيا والصومال والسودان

ولا يتسع المجال ـ فى هذه الرسالة ـ لاستعراض الخط الطويل للحرب الصليبية ـ على مدار التاريخ ـ ولكن يكفى بعدما ذكر أن نقول: إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية.. ويكفى أن نذكر ماذا حدث فى زنجبار حديثا حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم، فقتل منهم اثنا عشر ألفا، وألقى الأربعة آلاف الباقون فى البحر!!

ويكفى أن نذكر مايقع الآن فى الفلبين من اضطهاد ، وتقتيل ، وابادة للمسلمين ويكفى أن نذكر ماذا وقع فى قبرص حيث منع الطعام والماء عن الجهات التى يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا، فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح ، والتشريد!!

ويكفى أن نذكر ماتزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالى ، ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين فى الصومال!!

ويكفى أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية فى السودان الجنوبى وحرصهم أن ينفصل ويستقل عن بقية ا لسودان(٥٢) ويكفى لتصوير ذلك عدد المبشرين الذى طردوا من السودان أخيرا فقد كانوا ثلاثة مائة مبشر أثاروا القلق والاضطراب هنالك!!

ويكفى لتصوير نظرة الصليبين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوروبى صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه: (لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد اختيار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى، وبالخطر الأصفر، وبالخطر البلشفى. الا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.. أننا وجدنا اليهود اصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد!! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام وفى قوته على التوسع والاخضاع، وفى حيويته، أنه الجدار الوحيد فى وجه الإستعمار الأوروبى.[٥٣])

ولا نستطيع أن نمضى ابعد من ذلك فى استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية الى اعلنتها الصليبية على الإسلام وماتزال، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى الكتب التى هى مظان هذا الأمر ففيها غناء[٥٤].

أحكام أخيرة وأصيلة

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع ـ بالإضافة إلى ما سبق من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامى العام بتحرير الإنسان، ونحفر الجاهلية فى الأرض كلها لسحق الحركة التى تحمل هذا الإعلان العام ، وننطلق به فى الأرض كلها ـ أن هذه الأحكام الأخيرة والواردة فى هذه السورة، هى المتقضى الطبيعى لهذه الحقائق كلها مجتمعة، وأنها ليست أحكاما محددة بزمان ولا مقيدة بحالة، وان كان هذا فى الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة، النسخ الشرعى الذى يمنع العمل بها فى الظروف والملابسات التى تشابه الظروف والملابسات التى تنزلت فيها.

فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلام الحركية التى تواجه الواقع البشرى مواجهة واقعية بوسائل متجددة، فى المراحل المتعددة وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة فى هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها فى الجزيرة، وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة الممثلة فى غزوة تبوك، لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله ـ وهى الغزوة التى يقوم عليها محور السورة ـ ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة، انما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة، كما أن حربهم للإسلام والمسلمين عن دينهم تماما!!.. وهى معلنة بضراوة وإصرار وعناد، لشتى الوسائل على مدار التاريخ!

ومن ثم فهذه الأحكام الواردة فى هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان.. ولكن العمل بالأحكام انما يتم فى إطار المنهج الحركى الإسلامى، الذى يجب أن يتم الفقه به، قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام فى ذاتها ، وقبل أن يحمل واقع ذرارى المسلمين وضعفهم وانكسارهم على دين الله القوى المتين.

إن الأحكام الفقهية فى الإسلام كانت ـ وستظل دائما ـ وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامى والنصوص لا يمكن فهمها الا باستصحاب هذه الحقيقة.. وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب فى فراغ والنصوص فى صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامى.. ولابد من هذا

القيد «الحركة وفق المنهج الإسلامى» فليست هى الحركة المطلقة خارج المنهج، بحيث يعتبر «الواقع البشرى» هو الأصل أيا كانت الحركة التى أنشأته، ولكن «الواقع البشرى» يصبح عنصر أساسيا فى فقه الأحكام إذاكان قد انشأه المنهج الإسلامى ذاته

وفى ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية فى العلاقات بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم، وهى تتحرك الحركة الحية فى مجالها الواقعى، وفى ذلك المنهج الحركى الواقعى الايجابى الشامل.

وحسبنا هذا التمهيد المجمل لنواجه النصوص فى أربعة فصول تأتى تباعا عن أخذ الجزية من أهل الكتاب أو قتالهم، وعن جرائمهم الداعية لهذا القتال عامها وخاصها، وعن الأشهر الحرم وصلة هذا الموضوع بأهل الكتاب مع مايبدو بين الأمرين من بعد. والله الموفق.

الهوامش

١) وسنفصل فيما بعد - إن شاء الله - التثليث عند النصارى، وادعاء البنوة لله منهم أو من اليهود مقتبس من الوثنيات السابقة وليس من أصل النصرانية ولا اليهودية.

٢) القصص ٥٢ - ٥٣

٣) الاسراء ١٠٧ - ١٠٩

٤) الأحقاف ١٠

٥) العنكبوت ٤٧

٦) الأنعام ١١٤.

٧) الرعد ٣٦

٨) آل عمران ١٩٩

٩) المائدة ٨٢ - ٨٥

١٠) الزخرف ٦٣ - ٦٥

١١) شورى ١٤

١٢) الأعراف ١٦١ - ١٦٣

١٣) الأعراف ١٦٧

١٤) الأعراف ١٦٩

١٥) البقرة ٧٥ - ٧٩

١٦) البقرة ٨٧ - ٩١

١٧) آل عمران ٩٨ - ٩٩

١٨) انساء ٥١ - ٥٢

١٩) المائدة ٧١ - ٧٥

٢٠) الأعراف ١٥٩

٢١) آل عمران ٤٥

٢٢) آل عمران ١١٣ - ١١٥

٢٣) العنكبوت ٤٦

٢٤) البقرة ١٢٦ ـ ١٢٧

٢٥) آل عمران ٦٤

٢٦) البقرة ١٠٩

٢٧) البقرة ١٠٥

٢٨) البقرة ١٠٩

٢٩) البقرة ١٢٠

٣٠) آل عمران ٦٩

٣١) آل عمران ٧٢ ـ ٧٣

٣٢) آل عمران ١٠٠

٣٣) النساء ٤٤ ـ ٤٥

٣٤) النساء ٥١

٣٥) البقرة ١٧

٣٦) النساء ١٠٢

٣٧) الممتحنة ٢

٣٨) التوبة ٨

٣٩) التوبة ١٠

٤٠) البقرة ٨٩ ـ ٩٠

٤١) البقرة ١٠١

٤٢) البقرة ١٤٢

٤٣) آل عمران ٧٨

٤٤) آل عمران ٩٨. ٩٩

٤٥) النساء ١٥٣

٤٦) التوبة ٣٢

٤٧) راجع البداية والنهاية الن كثير جـ١٢ صـ٢٠٠ وما بعدها

٤٨) وسيجىء تفصيل القول فيها فى موضعه ان شاء الله تعالى فى الفصل الثالث من الباب الرابع المخصص للجهاد من هذه الرسالة.

٤٩)، ٢) نقلا عن كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام للأستاذ على على منصور

٥٠) أى العاصمة أديس أبابا

٥١) هذا هو النص الذى قدمه عن المجاهدين من مسلمى الحبشة لأستاذ محمد يوسف إسماعيل ـ نزيل القاهرة. نقلا عن كتاب كفاح دين للشيخ الغزالى ص ٦٠ ـ ٨٠ مطبعة السعادة.

٥٢) المحاكمات القائمة الآن لرئيس المرتزقة الشتير فى السودان تبدل دلالة قاطعة على ما تحاوله الصليبية العالمية ـ وحرصهم ـ على انفصال السودان الجنوبى عن بقية السودان.

٥٣) من كتاب جورج براون نقلا عن كتاب «التبشير والاستعمار فى البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ

٥٤) يراجع كتاب الاستعمار والتبشير (المرجع السابق) وكتاب «الغارة على العالم الإسلامى» للأستاذين الباقى ومحب الدين الخطيب، وكتاب «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» للدكتور محمد حسين وكتاب «هل نحن مسلمون» لمحمد قطب.

الفصل الأول

الموقف النهائى من أهل الكتاب

الإسلام ـ الجزية ـ القتال

قال الله عز وجل: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

تضمن الدرس الماضى تقريرا الموقف النهائى للإسلام من مشركى الجزيرة، وهو فى هذا الدرس يقرر موقفه كذلك من أهل الكلتاب، الذين انحرفوا عن كتابهم، فلم يعودوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ايمانا صحيحا، ممن زعموا أن الله سبحانه ولدا، وممن زعموا أن الله لن يحاسبهم فى اليوم الآخر لأنهم خلصاؤه واحباؤه:

هذا الموقف النهائى هو:

اما أن يفيئوا إلى الدين القيم الذى ختمت به الديانات.

واما أن يعطوا الجزية فيأمن الإسلام جانبهم.

واما أن يقاتلوا حتى تخمد أنفاسهم ويستريح الناس من باطلهم.

وكان هذا أول أمر بقتال أهل الكتاب، وكان قد بلغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الروم جيشوا الجيوش على أطراف الجزيرة، فتجهز المسلمون لغزوة تبوك.

وفى صدد الأمر بقتالهم يكشف السياق عن جانب من ضلالهم فى العقيدة وجانب من ضلالهم فى السلوك.

فهم فى العقيدة يشركون بالله بعض خلقه، ويدعون له أبناء، ويتخذون من احبارهم ورهبانهم آلهة يحلون لهم ما يشاءون ويحرمون عليهم ما يشاءون وهم فى السلوك يأكل أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله: ومن ثم لا يؤمنون ايمانا صحيحا، ولا يسلكون سلوكا صحيحا، ولا يتركون العقيدة الصحيحة تسير فى أمان:

لقد جاء الإسلام فوجد أهل الكتاب - الا قليلا منهم - قد تركوا أصول كتابهم، وأخذ احبارهم ورهبانهم يزيفون لهم دينا غير دين الله الذى جاءهم به أنبياؤهم فيحلون لهم ماحرم الله عليهم ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا: وأن منهم من يعلم أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم نبى وأن الكتاب الذى معه هو الحق، يعلمون ذلك من كتبهم التى بشر الله فيها بهذا الرسول وحدد صفاته وصفات الأمة التى تتبعه، ولكنهم لا يؤمنون به استبقاء لمصالحهم ومراكزهم وحسدا للنبى صلى الله عليه وسلم وقومه، واستكافا أن يؤمنوا لرسول ليس منهم كما كانوا يرجون..

ولقد سالمهم الإسلام فترة طويلة، وقصر جهاده على المشركين، ولكنهم ظلوا يعادون الإسلام وأهله ويعينون عليهم الكفار، ويقولون للذين أشركوا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً..

وأخيرا أخذت الدولة المسيحية الرومانية تجهز جيوشها على أطراف الجزيرة وتستعد للانقضاض على قاعدة الإسلام ، ومحضن العقيدة.. عندئذ أمر المسلمون أن يجاهدوا أهل الكتاب المنحرفين عن كتبهم.

واذن فهذه الآية ـ والآيات التالية لها فى السياق ـ كانت تمهيدا لغزوة تبوك ومواجهة الروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب.. وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيها هى صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة، وانها اثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة وهذا ما يلهه السياق القرآنى فى مثل هذه المواضع..

فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنها شروط[1] لقتال أهل الكتاب انما ذكرت على أنها أمور واقعة فى عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم، وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم ومثلهم فى هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم.

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة ثلاثة [2]:

أولا: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

ثانيا: أنهم لا يحرمون ماحرم الله ورسوله

ثالثا: أنهم لا يدينون دين الحق

ثم بين فى الآيات التالية كيف أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، وذلك بأنهم:

أولا: قالت اليهود (عزيز بن الله، وقالت النصارى المسيح بن الله) وأن هذا القول يضاهى قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين، فهم مثلهم فى هذا الاعتقاد الذى لا يعد صاحبه مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر[3]

ثانيا: اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وأن هذا مخالف لدين الحق وهو الدينونة لله وحده بلا شركاء: فهم بهذا مشركون لا يدينون دين الحق.

ثالثا: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فهم محاربون لدين الله، ولا يحارب دين الله مؤمن بالله واليوم الآخر بدين دين الحق أبدا.

رابعا: يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل فهم اذن لا يحرمون ماحرم الله ورسوله وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس الى نصارى الشام والروم، كما أنها واقعة

بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام، وقالت ببنوة عيسى عليه السلام وبتثليث الأقانيم - على الرغم مما بين المذاهب والفرق من خلاف يلتقى كله على التثليث على مدار التاريخ حتى الآن واذن فهو أمر عام يقرر قاعدة مطلقة فى التعالم مع أهل الكتاب الذين تنطبق عليه هذه الصفات التى كانت قائمة فى نصارى العرب ونصارى الروم.

ولا يمنع من هذا العموم أن الأوامر النبوية استثنت افرادا وطوائف بايمانها لتترك بلا قتال كالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى الاديرة: بوصفهم غير محاربين - فقد منع الإسلام .. أن يقاتل غير المحاربين من أية ملة - وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقع منهم اعتداء بالفعل على المسلمين، ولكن لأنهم ليس من شأنهم أصلا أن يقع منهم الاعتداء، فلا محل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلا - كما يقول بعض الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام! فالاعتداء قائم ابتداء.. الاعتداء على ألوهية الله!

والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير الله! والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية الله سبحانه والدفاع عن كرامة الإنسان فى الأرض، لابد أن تواجهه الجاهلية بالحرب والمقاومة والعداء.

ولا نفر من مواجهة طبائع الاشياء!.. أن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب لماذا؟

أولا: لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر:

فأما الايمان بالله فقد شهد القرآن بأن الفريقين فقدوه بهدم ركنه الأعظم وهو التوحيد فأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يشرعون لهم العبادات والحلال والحرام فيتبعونهم، وذلك حق الرب وحدة، فقد أشركوهم به الربوبية، ومنهم من أشرك فى الألوهية كالذين يقولون ببنوة عزيز لله أو ببنوة المسيح لله والذين يقولون أن الله هو المسيح ابن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة أو أن الله تجسد فى المسيح إلى آخر التصورات الكنسية التى ضافتها المجامع المقدسة على كل مابينها من خلاف!.. واليهود لا تنكر وجود المعبود ويثبتون أن الله هو الرب الخالق لكل شيىء وأنه واحد لا شريك له، ولكن لهم أفهاما فى نصوص التوراه يختلفون فيها كالمسلمين.

ومنها ما ظاهر ةالتشبيه، وما يقال فى الموحدين من اليهود يقال فى الموحدين من النصارى كأتباع آريوس[٤] من المتقدمين والعقليين المعاصرين من أهل أوربا وغيرهم ويبقى النظر فى سائر ما اشترط فى قتالهم.

وأما مخالفة النصارى للمسلمين ولجميع كتب الله ورسله فى الايمان بالله تعالى وما يجب من توحيد، فهو ظاهر فأصحاب المذاهب الرسمية منهم كلهم يقولون بألوهية المسيح وربوبيته ويعبدونه جهرا بغير تأويل، ويقولون بالتثليث، ومنهم من يعبد أمه مريم وغيرها من الرسل والصالحين وتماثيلهم.

وأما اليوم الآخر فالفريقان يخالفان فيه المسلمين، وكذا الموحدون من النصارى فأنهم انما يقولون بأن حياة الآخرة روحانية، يكون فيها أهلها من الناس كالملائكة، ونحن نؤمن بأن الانسان يكون فيها انسانا لا تنقلب حقيقته، بل يبقى مؤلفا من جسد وروح، ويتمتع الكاملون الناجون بجميع نعيم الارواح والاجساد وتكون أرواحهم أقوى.. ثم الذين يقولون أنهم لن يدخلوا النار الا أياما محدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم ابناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار والذين يقولون أن كل معصية تغفر بالاتحاد بالمسيح وتناول العشاء المقدس وأنه لا مغفرة الا عن هذا الطريق.. هؤلاء وهؤلاء لا يقال.. أنهم يؤمنون باليوم الآخر.. وليس فى التوراةج التى فى أيدى اليهود والنصارى بيان صريح للبعث والجزاء بعد الموت وإنما فيها وفى مزامير داود اشارات غير صريحة.

ثانيا: ولأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، وفيه وجهان: أحدهما أن المراد به ماحرم فى شرعنا، ويرد عليه أنه لا يقعل أن يحرموا على أنفسهم ماحرم الله ورسوله علينا، الا اذا اسلموا وانما الكلام فى أهل الكتاب لا فى المسلمين العاصين.

والثانى: أنه ماحرم فى لاشرع الذى جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى وحينئذ يكون المراد به فى اليهود أنهم لا يلتزمونه كله بالعمل، كأتباعهم عادات المشركين فى القتال والنفى ـ ومفاداة الأسرى الذى قال تعالى فيه لهم .. (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) واستحلالهم لأكل أموال الناس بالباطل كالربا وغير ذلك.. والمراد به فى النصارى أنهم استباحوا ماحرم عليهم فى التوراة مما لم ينسخه الانجيل، واتبعوا مقدسهم بولس فى اباحة جميع محرمات الطعام والشراب فيها الا ماذبح للاصنام، اذا قيل للمسيحى.. أنه مذبوح لوثن فيراعى ضمير القائل أمامه وعلله بأن كل شيىء طاهر للطاهرين، وأن مايدخل الفم لا ينجس الفم وانما ينجسه مايخرج منه وهذا بعض ما يقال فى النصارى فى عصر التنزيل.

وأما نصارى هذا الزمان ولاسيما أهل اوربا فأنهم أبعد خلق الله عن كل مافى أناجيلهم من الزهد والسلم والتقشف، ولكنهم بعد الاسراف فى الشهوات والطغيان فى العدوان والالحاد فى الاديان، طفقوا يبحثون فى حقيقة الأديان، فتظهر لهم أنوار الإسلام والمرجو أن يهتدوا به فى يوم من الأيام.

واختار الألوسى الأول، وضعف الثانى فقال:

المراد به أى ما يثبت تحريمه بالوحى متلو وغير متلو، فالمراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وسلم، وقيل: رسلوهم الذى يدعون اتباعه، فأنهم بدلوا شريعته وأحلوا وحرموا من عند أنفسهم اتباعا لاهوائهم، فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم، وأن كان التحريف بعد النسخ ليس علة مستقلة.(٥)

واختار فتح البيان الثانى فقال (ولا يحرمون ما حرم الله) مما ثبت فى كتبهم، فإن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها ، وأكلوا أثمانها، وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها قال سعيد بن جبير فى الآية:

يعنى لا يصدقون بتوحيد الله وماحرم الله عليهم من الخمر والخنزير، وقيل معناه: لا يحرمون ماحرم الله فى القرآن ولا محرم رسوله فى السنة، والأول أولى وقيل: لا يعملون بما فى التوراة والانجيل بل حرفوها وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم وقلدوا احبارهم ورهبانهم فاتخذوهم(٦) أربابا من دون الله).

وسواء كان المقصود بكلمة «رسوله» هو رسولهم الذى أرسل إليهم أو هو النبى صلى الله عليه وسلم، فالفحوى واحدة، ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وأكل أموال الباطل محرم فى كل رسالة وعلى يد كل رسول، وأقرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية، وهو ما يأخذه رجال الكنيسة مقابل «صك الغفران»! وهو الصد عن دين الله والوقوف فى وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين عن دينهم، وهو تعبيد العباد لغير الله واخضاعهم لاحكام وشرائع لم ينزلها الله.. فهذا كله ينطبق عليه (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) وهذا كله قائم فى أهل الكتاب كما كان قائما يوم ذاك.

ثالثا: ولأنهم لا يدينون دين الحق.. وهذا واضح مما سبق بيانه، فليس بدين الحق اى اعتقد بربوبية أحد مع الله، كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله، وتلقى الاحكام من غير الله، والدينونة لسلطان غير سلطان الله.. ومن ثم يكون معناه على الوجه الأول.. أنهم لا يدينون الله بدينه الحق الكامل الأخير المكمل، والمبين لما اختلفوا فيه من قبل، والناسخ لما لا يصلح للبشر منه فيما بعد وهو الإسلام ويكون المعنى على الوجه الثانى.. أن الدين الذى يتقلده كل منهم إنما هو دين تقليدى وضعه لهم احبارهم واسقافتهم بآرائهم الاجتهادية وأهوائهم المذهبية، لادين الله الحق الذى أوحاه إلى موسى وعيسى عليهما السلام، وذلك بأن اليهود لم يحفظوا ما استحفظوا من التوراة التى كتبها موسى، وكان يحكم بها هو والنبيون من بعده، ويخالفهم الفاسقون الناقضون لعهده الذى اخذه عليهم قبل موته إلى أن عاقبهم الله تعالى بتسليط البابليين عليهم فجاسوا خلال الديار، واحرقوا الهيكل ومافيه من تلك الاسفار، وسبوا بقية السيف منهم وأجلوهم عن وطنهم إلى أرض مستعبديهم، فدانوا لشريعة غير شريعتهم، ولما أعتقوهم من الرق وأعادوهم إلى تلك الأرض وكانوا قد فقدوا نص التوراة وانما حفظوا بعضها دون بعض، كتبوا ماحفظوا من شريعة الرب ممزوجا بما دانوا من شريعة ملك بابل كما أمر كاهنهم عزرا «عزيرا».. ثم أنهم حرفوا وبدلوا ولم يقيموها كما أمروا..

وكذلك النصارى لم يحفظوا كل ما بلغهم عيسى عليه السلام من العقائد والوصايا والاحكام القليلة الناسخة لبعض تشديدات التوراه.. وهو دين الله الحق.. بل كتب كثيرون منه تواريخ له أودعها كل كاتب منهم ماعرفه من ذلك ومن غيره فجاءت المجامع الرسمية بعد ثلاثة قرون فاعتمدت أربعة أناجيل من زهاء سبعين انجيلا رفضتها وسمتها «أبو كريف» أى غير قانونية، وقد وصل إلينا انجيل القديس برنابا منها وهو من أصحاب المسيح ورسله لبداية الناس، فاذا فيه من أصول التوحيد والصفات الألهية والحكم والمواعظ العالية ما يفوق مافى الأربعة القانونية..

ثم أنهم نقضوا شريعة التوراة من بعده وأخذوا بتعاليم بولس وهو فيلسوف يهودى تنصر بعد المسيح وقبل تنصره الحواريون الذين يسمونهم «الرسل» بشفاعة برنابا، لأنه كان عدوا لهم، مع أنهم ينقلون عن المسيح أنه قال: (ما جئت لانقض الناموس (٧) وانما جئت لأتمم) متى وهذا موافق لما حكاه الله تعالى عنه بقوله: (ومصدقا لما بين يدى من التوراه ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون، أن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم)(٨)

ولم يكتف النصارى بهذا بل وضع لهم أحبار رومية وغيرهم من أساقفتهم ورهبانهم شرائع كثيرة فى العبادات ،والحلال، والحرام، يخالف فيها كل فريق منهم مذهب الآخر، قال تعالى عن أهل الملتين: (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولانزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فأعف عنهم واصفح أن الله يحق المحسنين، ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)(٩)

وفى الآيتين من الحقائق التى كانت مجهولة ومن أخبار الغيب عن الماضى والمستقبل ما يعد من حجج القرآن على أنه وحى من الله «ليس للنبى الأمى صلى الله عليه وسلم منه الا تبليغه والعمل به.. فعلم من هذا أن كلا منهم نسى حظا عظيما مما ذكرهم به نبيهم، ولم يعملوا بالبعض الآخر كله، بل أكثر عباداتهم وما يسمى «الطقوس» والناموس الأدبى هو من وضع أحبارهم ورهبانهم.. وانما كان دين الحق عندهم ما جاءهم به موسى وعيسى عليهما السلام ولو أنهم حفظوه وأقاموه كما أنزل، أو دانوا بما حفظوا منه دون غيره لهداهم الى اتباع المصلح الأعظم الذى بعثه الله تعالى مكملا لدينه ولا تزال بشارات انبيائهم به محفوظة فيما بقى لهم من كتبهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

الذين اوتوا الكتاب(١٠)

المراد بالكتاب: جنس الكتاب الألهى الذى يشمل توراة موسى وأنجيل عيسى وزابور داود وغيرها، ولكن لقب (أهل الكتاب) و(الذين أتوا الكتاب) وأن كان لفظه عاما، خص به اليهود والنصارى، لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين عندهم كما قال تعالى مخاطبا مشركى العرب (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين)(١١)(فقد جعل لقب المشركين خاصا بوثنيى العرب ولقب أهل الكتاب خاصا باليهود والنصارى وأن كان قد دخل عليهم الشرك.

والتاريخ يدل على أن الصابئين والمجوس كانوا أهل كتاب أما الصابئون فقد ذكروا مع المؤمنين واليهود والنصارى فى آيتين من سورتى البقرة والمائدة (١٢) وأما المجوس فقد ذكروا مع أولئك كلهم فى آية من سورة الحج (١٣) وجاءت السنة بمعاملتهم كأهل الكتاب فى انهاء قتالهم بالجزية، فدل ذلك على أنهم كانوا أهل كتاب وان لم يحفظ منه ما يصحح اطلاق

اللقب عليهم، وروى ذلك عن على كرم الله وجهه، وجزم به الشافعى فى الأم، والصابئمون أولى بذلك منهم، كما يؤخذ من آيتى البقرة والمائدة..

والشرط الذى يشترطه النص للكف عن قتال أهل الكتاب أيا كانوا، ليس أن يسلموا، فلا اكراه فى الدين، ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

الجـــزية

معناها ما اشترط فيها - حكمة هذا الشرط - كونها الغاية التى ينتهى عندها القتال - ليست عوضا بل للحماية. من يؤخذ الجزية منه - الجزية فى الفقه - الجزية فى الآثار - الجزية فى التاريخ

معنى الجزية:

هى ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لأعلى الأرض وظاهر كلام اللغويين والمفسرين أن لفظ الجزية عربى محض من مادة الجزاء، وهل هى جزاء حقن الدم، أو جزاء الحماية لهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم أن يجندوا للقتال معنا، أو جزاء اعطاء الذمى حقوق المسلمين ومساواته بأنفسهم فى حرية النفس والمال والعرش والدين؟ وجوه أضعفها أولها.[١٤]

قال صاحب اللسان[١٥]: والجزية خراج الأرض، وجزية الذمى منه، الجوهرى: والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة والجمع الجزى مثل لحية ولحى، وقد تكرر فى الحديث لفظ الجزية فى غير موضع، وهى عبارة عن المال الذى يعقد الكتابى عليه الذمة، وهى فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله ومنه الحديث «ليس على مسلم جزية» اراد أن الذمى إذا اسلم وقد مر بعض الحول لم يطالب من الجزية بحصة ما مضى من السنة، وقيل: اراد أن الذمى اذا أسلم وكان فى يده أرض صولح عليها خراج توضع عن رقبته الجزية وعن أرضه الخراج.. وهل هى أصيلة فى العربية أو معربة أصلها فارسى؟ رأيان أصحهما الأول.

وأول من سن الجزية - فيما علمنا - كسرى أنو شروان، وهو الذى رتب أصولها وجعلها طبقات.

قوله تعالى: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا..

أى قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى القتال، كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم، حتى تأمنوا عدوانهم بأعطائهم الجزية.. وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام، بما يرونه من عدلكم وهداينكم وفضائلكم التى يرونكم أقرب بها إلى هداية انبيائهم منهم، فإن اسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وأن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم..

ومتى اعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم ومنحهم حريتهم فى دينهم، بالشروط التى تعقد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ويحرم ظلمهم وارهاقهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين ويسمون أهل ذمة، لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمتقضى ذمة الله وذمة رسوله.

وجوب اعطاء الجزية احيط بقيدين:

القيد الأول: لهم وهو أن تكون صادرة «عن يد» أي قدرة وسمحة (١٦) فلا يظلمون ويرهقون قاله المنار.(١٧) وفى الطبرى: (عن يد) فإنه يعنى: من يده إلى يد من يدفعه اليه وكذلك تقول العرب لكل معط قاهرا له، شيئا طائعا له أو كارها: أعطاه عن يد وعن يد) وذلك نظير قولهم كلمته فما لهم ولقيته كفة لكفة، وكذلك أعطيته (عن يد ليد) (١٨) وقال صاحب الكشاف: قوله (عن يد) اما أن يراد به يد المعطى أويد الآخذ فأن كان المراد به المعطى ففيه وجهان: أحدهمها أن يكون المراد عن يد مؤاتيه غير ممتعة، لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك يقال: أعطى يده إذا انقاد واطاع، ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة كما يقال: خلع وثقة الطاعة عن عنقه.

وثانيهما: أن يكون المراد حتى يعطوها عن يد الى يد نقدا غير نسيئة ولا مبعوثا على يد أحد، بل على يد المعطى إلى يد الآخذ. واما إذا كان المراد يد الآخذ ففيه أيضا وجهان.. الأول: أن يكون المراد حتى يعطوا الجزية عن يد قاهرة مسئولية للمسلمين عليهم، كما تقول اليد فى هذا لفلان، وثانيهما أن يكون المراد عن انعام عليهم، لأن قبول الجزية منهم وترك ارواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم)(١٩) وكلام المنار أقرب للسماحة.

القيد الثانى ـ لكم، وهو (وهم صاغرون).. والصغار والصغر ضد الكبر، ويكون فى الأمور الحسية ، والمعنوية، والمراد به هنا:

الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته، وبذلك تصغر أنفسهم لديهم، وتخضد شوكتهم بفقدهم الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم.. قال الشافعى رحمه الله فى الأم: وسمعت عددا من أهل العلم يقولون.. الصغار أن يجرى عليهم حكم الإسلام (٢٠) أ. هـ

ومن المفسرين من قال فى الآية اقوالا يأباها عدل الإسلام ورحمته، ومن ناحية أخرى فإن هذين القيدين يعطيان اشارة إلى علو يد المسلمين وتمكينهم من عدوهم بما لهم من بأس وقوة.. وهذا يعنى أن يحتفظ المسلمون دائما بتلك القوة التى مكنت لهم، والا كان عليهم أن ينزلوا عن هذه المنزلة التى هم فيها، فأنهم أن لم ينزلوا عنها طائعين نزلوا عنها مكرهين.. بل ربما تحولت الحال فكانوا تحت يد من كانوا تحت يدهم، فالمراد باليد هنا القوة والقدرة التى يعلموا بها المسلمون ـ على غيرهم..

والقوة التى يعتمد عليها المسلمون تقوم دعائمها أولا وقبل كل شيىء على الايمان بالله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.. فاذا حقق المسلمون حقيقة الايمان فى قلوبهم مكن الله لهم من أسباب العزة والقوة وملأ أيديهم من خير الدنيا والآخرة جميعا واقامهم فى هذه الدنيا مقاما كريما، وجعل كلمتهم العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى..

فليس المراد بقوله تعالى: وهم صاغرون تحريضا للمسلمين على امتهان أهل الذمة واذلالهم، بقدر ماهو تحريض للمسلمين على اكتساب القوة والاحتفاظ بها، حتى لا يكونوا يوما فى هذا المنزل الذليل المهين، الذى ينزله المغلوب على أمره بها النازل على حكم غالبه..

فهذا هو واقع الحياة، وتلك هى سنة الله فى خلقه.. الغالب متحكم متسلط، والمغلوب مقهور مهين.. واذا كان هناك من المبادىء الخلقية أو المواضعات السياسية ما يخفف من هذا المبدأ العامل فى الحياة، فإن سماحة الإسلام وإنسانية شريعته قد كان لهما فى هذا الباب مالا يمكن أن يلحق بغباره القوانين الدولية أو المنظمات الإنسانية.. ذلك أن دعوة الإسلام إلى التسامح والرفق والاخاء دعوة مشدودة إلى ضمير الإنسان، موصولة بإيمانه بالله، بحيث لا يكمل ايمانه الا بها، أما ما تحمله القوانين الدولية وما تنادى به المنظمات الإنسانية فلا يعدو أن يكون مجرد نصائح ووصايا تخاطب أذن الإنسان دون أن تبلغ مواطن الادراك أو الوجدان منه..

فالقوة التى يملك بها المسلمون مصائر الأمور فى الناس قوة رحيمة عادلة، ومن الخير للناس جميعا أن تنمو هذه القوة وأن يمتد سلطانها،، وحيث كانت فهى بر ورحمة، فإذا صارت تلك القوة الى يد غير مؤمنة بالله ولا آخذة بشريعته كانت قوة ظالمة غشوما، تطلع على الناس كما تطلع العواصف العاتية لا تذر من شيىء أتت عليه ألاجعلته كالرميم.

لماذا لم يعاملوا كالمشركين؟

حقا أن أهل الكتاب بمنزلة المشركين فى الشرك - وأن كانت طرق القول بالشرك مختلفة إذ لافرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره، لأنه لا معنى للشرك الا أن يتخذ الإنسان مع الله معبودا، فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشرك، بل أنا لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى، لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وآلهه بل يجريه مجرى الشيىء الذى يتوسل به إلى طاعة الله، أما النصارى فأنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك شرك قبيح، فثبت أنه لافرق بين هؤلاء الحلوليه وبين سائر المشركين.

ومع أن أهل الكتاب هؤلاء قريبون كل القرب فى عقائدهم وسلوكهم من المشركين - أو لافرق - فإن الإسلام ظل يراعى أنهم أهل كتاب حتى بعد انحرافهم عن كتابهم، فلم يعاملهم معاملة المشركين الذين لا يقبل منهم الا الإسلام أو القتال، بل قرر أن يقبل منهم الجزية إذا لم يرغبوا فى الإسلام، وأن يدع لهم حرية الاعتقاد، وأن يحميهم من كل اعتداء، استنادا إلى أنهم أهل كتاب من عند الله،وأنهم فى الظاهر الصقوا أنفسهم بموسى وعيسى عليهم السلام وادعوا أنهم يعملون بالتوراة والانجيل، فلأجل تعظيم هذين الرسولين المعظمين، وتعظيم كتابيهما، وتعظيم أسلاف هؤلاء اليهود والنصارى، وحرمة آبائهم الذين انقرضوا بسبب أنهم كانوا على الدين الحق حكم الله تعالى بقبول الجزية منهم.

ما الحكمة فى فرض الجزية؟

ولماذا كانت هذه هى الغاية التى نتمى عندها القتال؟

وهل هى تحمل معنى الطمع والجشع أو معنى الامتهان والاذلال؟

أن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقادا وسلوكا، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية الممثلة فى عقيدة أهل الكتاب وواقعهم، وفق ما تصوره هذه الآيات كما أن الواقع التاريخى قد اثبت

حقيقة التعارض وطبيعة التصادم، وعدم إمكان التعايش بين المنهجين، وذلك بوقوف أهل الكتاب فى وجه دين الله فعلا، واعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة، خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآيات (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا!)

والإسلام بوصفه دين الحق الوحيد القائم فى الأرض لابد أن ينطلق لازالة العوائق المادية من وجهة، ولتحرير الإنسان من الدينونة لغير دين الحق على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار بلا اكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك.. واذن فان الوسيلة العملية لبيان ازالةالعوائق المادية وعدم الاكراه على اعتناق الإسلام فى الوقت نفسه هى كسر شوكة السلطات القائمة على دين غير الحق، وبذلك تستسلم، وتعلن استسلامها بقبول اعطاء الجزية فعلا وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا، بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع، فإن لم يقتنع بقى على عقيدته وأعطى الجزية لتحقيق عدة أهداف:

أولها: أن يعلن باعطائها اقراره بسلطان الإسلام واعلانه الخضوع لقوته واستسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية، وعدم وقوفه فى سبيل الدعوة إلى دين الله الحق.

وثانيها: أن يساهم فى نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التى يكفلها الإسلام لأهل الذمة «الذين يؤدون الجزية ويصبحون فى ذمة المسلمين وضمانتهم» ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها: المساهمة فى بيت مال المسلمين الذى يضمن الكفالة والاعاشة لكل عاجز عن العمل بما فى ذلك أهل الذمة، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعى الزكاة.

ورابعها: أن أخذ الجزية على هذا النحو - اثارة لدوافع الانسانية عند هؤلاء الذين يؤدونها، ولتحريك الرغبة فيهم إلى الخلاص من هذا الوضع المشين، وذلك بمراجعة معتقدهم من جهة والنظر فى وجه الدعوة التى يدعوهم الإسلام إليها من جهة أخرى.. وهذا أن فعلوه فأنه لابد أن يسحح عقيدتهم ويفتح عقولهم وقلوبهم للدين الحق..

وبهذا التوجيه يفسر كعب شبهة ابن الراوندى فتهوى فلا تقوم أبدا وهى التى كان يطعن بها فى القرآن ويقول.. أنه ذكر فى تعظيم كفر النصارى قوله: «تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، أن دعوا للرحمن ولدا» [٢١] فبين أن اظهارهم لهذا القول بلغ إلى هذا الحد، ثم أنه لما أخذ منهم دينارا واحدا قررهم عليه وما منعهم منه..

والجواب - مرة أخرى - أن الجزية التى فرضها الإسلام على أهل الكتاب - كما أن أخذها لم يكن ضربا من التحكم ولا نزعة من نزعات القهر والتسلط - ليس المقصود من أخذها تقريرهم على الكفر، بل المقصود منها حقن دمائهم وأموالهم، مع منحهم أوقاتا متسعة رجاء أن يقفوا فيها على محاسن الإسلام وقوة دلائله فينتقلوا من الكفر إلى الإيمان.

انها دعوة حكيمة من دعوات الإسلام إلى الإيمان بالله، واسلوب من اساليبه المحكمة فى فتح الابصار المغلقة إلى النور، ولفت العقول الشاردة إلى الهدف، وايقاظ القلوب الغافية لاستقبال آيات الله وكلماته.

ومما تقدم يتبين: أن الاسلام ليس من شأنه التسلط والقهر والعدوان والبغى، ولو كان كذلك لأخذ أهل الكتاب الذين وقعوا ليده ونزلوا على حكمه بما آخذ به المشركين ولما قبل منهم الا الإسلام أو القتل ولما استبقاهم ابتغاء اصلاحهم، وشفائهم مما ألم بهم من زيغ فى العقيدة وضلال فى الدين.

وأن الجزية ليست عوضا ماليا عن دم أوعقيدة وانما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم واعراضهم وكرامتهم، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسملين سواء بسواء.. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والاموال وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: (انى عاهدتكم على الجزية والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية، والا فلا حتى نمنعكم).. ولقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص، وأبو عبيده على أهل دمشق، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك، وكان مما قال القواد المسلمون لأهل تلك المدن: (انا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه هى أموالكم نردها إليكم)

لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين، اذ كانت تفرض بمقادير قليلة على القادرين على العمل أو من له مال فحسب، وكانت على ثلاثة أقسام: أعلاها وهو ٤٨ درهما فى السنة على الأغنياء، (وهو حوالى دينارين ونصف دينار عراقى، أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية، أو ٢٤٠ قرشا مصريا) وأوسطها وهو ٢٤ درهما فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع، وأدناها وهو ١٢ درهما فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملا.. وهذا المبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله، وهى بنسبة اثنين ونصف فى المائة، القدر الشرعى لفريضة الزكاة..

ان اسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوى العاهات (٢٢) أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تحصيلها.. وقد جاء عهد خالد لصاحب قس الناطف: انى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد: القوى على قدر قوته، والمقل على قدر اقلاله».

والمسلمون يساهمون فى بناء الدولة بأموالهم ـ زكاة ـ وبأرواحهم ـ جهادا ـ وليس على أهل الذمة الذين يعيشون فى ظل هذه الدولة وحمايتها وكفالتها الا الجزية وهى المساهمة المالية الوحيدة منهم، ـ كما سبق ـ دليل مادى على الخضوع لسلطان الدولة فأما ضريبة الدم فهم معفون منها فإن الإسلام يعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش الا أن يتطوعوا هم تطوعا فى الجيش الإسلامى وعندئذ تسقط عنهم الجزية وهذا معناه أن الجزية تشبه البدل النقدى للخدمة العسكرية فى عصرنا الحاضر.. وانما لم يرغموا على الخدمة فى العسكرية الإسلامية لأن الجهاد فى الإسلام جهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله فم لا يجبرون عليه كما

يجبرون على الجزية، لأن الإسلام لا يجبر الناس على اعتناق عقيدته، ويردها إلى اقتناع الضمير - انما يجبرهم على الخضوع لسلطانه ليمنع وقوفهم فى وجه الدعوة وليؤمن آهله من الفتنة بايدى المخالفين له المؤلبين عليه.. كما ضمن الإسلام اعالة البائسين من الذين جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة.. «وأيما شخص ضعف عن العمل أو اصابته آفة أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله»

وأخيرا فالجزية دواء لداء واستطباب لعلة، وأنه لا بأس من أن يكون الدواء مرا إذا أثمر ثمرته فى شفاء الداء.

من تؤخذ منهم الجزية

نص الآية الكريمة أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب، والمراد بهم اليهود والنصارى، ونقل الحافظ فى الفتح الاتفاق على هذا، أى وأن كان اللفظ عاما، وكان القرآن نفسه يدل فى آيات أخرى على بعثة رسل كثيرين فى الأمم منهم من كان أصحاب كتب.

ولا فرق فى أهل الكتاب بين العرب والعجم خلافا للحنفية، وقد ثبت بالسنة القولية والعملية أخذ الجزية من المجوس، واختلف فى كونهم أهل كتاب أو شبهة كتاب.

وجمهور الفقهاء على أن حكم جميع الوثنيين حكم مشركى العرب فى أنهم لا يقبل منه الا الاسلام أو السيف، وقال بعضهم تقبل منهم الجزية فالاصناف أربعة:

الأول: مشركو العرب، وهؤلاء لا تقبل منهم الجزية بالاجماع.

الثانى: اليهود والنصارى على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم وهؤلاء تقبل منهم الجزية بنص القرآن وقيل إلا العرب منهم.

الثالث: المجوس والصابئون، وقد قبل الصحابة ومن بعدهم من أمراء المسلمين الجزية منهم (وسنذكر ماقال الفقهاء فى ذلك).

الرابع: ما عدا هذه الاصناف الثلاثة من الوثنيين وغيرهم، ولا نص عليهم فى الكتاب ولا فى السنة وعندنا أن أمرهم اجتهادى يحكم فيهم الو الأمر من المسلمين بما يرون فى المصلحة ككل مسكوت عنه وجمهور الفقهاء يدخلونهم فى عموم المشركين ولا سيما الآية التى يسمونها آية السيف.

والحق أن المراد بالمشركين فى الآية مشركو العرب (٢٣) فهو عام مراد به الخصوص من أول وهلة كأهل الكتاب، ويؤيد هذا ماتقدم من الآيات فى تعليل قتالهم وأدلته، وكذا الأحاديث الناطقة بوجوب جعل جزيرة العرب خاصة بالمسلمين، وما ذكرناه من حكمة ذلك، وقد لاحظ هذه الحكمة الامام أبوحنيفة وصاحبه الامام أبويوسف رحمهما الله ولكنهما جعلا غرض الشارع أن يكون جنس العرب كله مسلما، سواء كان فى جزيرته أو غيرها، فلا تقبل من أحد منهم الجزية عندها، وفى هذا من مخالفة السنة ما يأتى، وانما أصابا فى قولهما أن الجزية تقبل من جميع العجم مهما تكن مللهم واديانهم، وعلى هذا المذهب جرى عمل الدول الإسلامية فى كل فتوحاتهم لبلاد الملل الوثنية كالهند وغيرها، فلم يحاولوا استئصال أهل ملة منهم. وأما

كونهم مشركين بالفعل فمثلهم فيه أهل الكتاب، كما شهدعليهم القرآن، ولكن الشرك طرأ عليهم وليس من كتابهم ولوثنى الهند والصين وغيرهم كتب قديمة مشتملة على التوحيد.[٢٤]

الأخبار والآثار فى الجزية

عن عمر رضى الله عنه أنه لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر[٢٥] وفى رواية أن عمر ذكر المجوس فقال:ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم؟ فقال له عبدالرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[٢٦] وهو دليل على أنهم ليسوا من أهل الكتاب، عن المغيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى: أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية[٢٧] وعن ابن عباس قال: مرض أبوطالب فجاءته قريش وجاءه النبى صلى الله عليه وسلم، وشكوه إلى أبى طالب، فقال: يا ابن أخى، ما تريد من قومك؟ قال" «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية) قال: كلمة واحدة؟ قال" (كلمة واحدة قولوا لا اله الا الله) قالوا: الها واحدا ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة أن هذا الا اختلاق، قال فنزل فيهم القرآن (ص والقرآن ذى الذكر - إلى قوله - أن هذا إلا اختلاق)[٢٨]

وعن عمر بن عبدالعزيز أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن: (أن على كل إنسان منكم دينارا كل سنة أو قيمته من المعافرة)[٢٩] يعنى أهل الذمة منهم، وعن عمرو بن عوف الانصارى[٣٠] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى [٣١] وعن الزهرى قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسا.[٣٢] وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى آكيدر دومه فأخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية[٣٣] وعن ابن عباس قال: صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألف حلة: النصف فى صفر والبقية فى رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم ان كان باليمن كبد ذات غدر على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنوا عن دينهم مالم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا[٣٤].

وذكرت هذه الاحاديث المرفوعة والموقوفة فى كتاب منتقى الأخبار.[٣٥]

ملخص أقوال أئمة الفقه فى الجزية

لخص الشيخ موفق الدين بن قدامه فى المغنى مذاهب الفقهاء فى الجزية - وانما اخترته لاختصاره وحسن جمعه وبيانها - قال: (مسألة .. قال: ولا تقبل الجزية الا من يهودى أو نصرانى أو مجوسى إذا كانوا مقيمين على ماعوهدوا عليه) وجملته: ان الذين تقبل منهم الجزية صنفان: من له كتاب ومن له شبهة كتاب.. فأهل الكتاب: اليهود والنصارى ومن دان

بدينهم كالسامرة يدينون بالتوراة ويعملون بشريعة موسى عليه السلام وانما خالفوهم فى فروع دينهم، وفرق النصادى من اليعقوبة والنسطورية والملكية والفرنجة والروم والأرمن وغيرهم ممن دان بالانجيل وانتسب إلى عيسى عليه السلام والعمل بشريعته فكلهم من أهل الأنجيل ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب، بدليل قول الله تعالى: «أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا»(٢٦)

واختلف أهل العلم فى الصابئين، فروى عن أحمد أنهم جنس من النصارى، وقال فى موضع آخر: بغلنى أنهم يسبتون فهؤلاء اذا سبتوا فهم من اليهود، وروى عن عمر أنه قال: ثم يسبتون وقال مجاهد: هم بين اليهود والنصارى، وقال السدى والربيع: هم من أهل الكتاب وتوقف الشافعى فى أمرهم، والصحيح أنه ينظر فيهم فان كانوا يوافقون أحد أهل الكتابين فى نبيهم وكتابهم فهم منهم وأن خالفوهم فى ذلك فليس هم من أهل الكتاب، ويروى عنهم أنهم يقولون: أن الفلك حى ناطق وأن الكواكب السبعة آلهة.. فإن كانوا كذلك فهم كعبدة الأوثان.

وأما أهل صحف إبراهيم وشيث وزبور داود، فلا تقبل منهم الجزية، لأنهم غير الطائفتين ولأن هذه الصحف لم تكن فيها شرائع وانما هى مواعظ وأمثال، كذلك وصف النبى صلى الله عليه وسلم صحف إبراهيم وزبور داود فى حديث أبى ذر.

وأما الذين لهم شبهة كتاب فهم المجوس، فأنه يروى أنه كان لهم كتاب فرفع، فصار لهم بذلك شبهة أوجبت حقن دمائهم وأخذ الجزية منهم، ولم ينهض فى اباحة نكاح نسائهم ولا ذبائحهم دليل.. هذا قول أكثر أهل العلم، ونقل عن أبى ثور أنهم من أهل الكتاب وتحل نساؤهم وذبائحهم، لما روى عن على رضى الله عنه أنه قال: أنا أعلم الناس بالمجوس، كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه، وأن ملكهم سكر فوقع على بنته واخته، واطلع عليه بعض أهل مملكته فلما صحا جاءوا يقيمون عليه الحد، فامتنع منهم ودعا أهل مملكته وقال: أتعلمون دينا خيرا من دين آدم وقد انكح بنيه بناته؟ فأنا على دين آدم قال: فاتابعه قوم وقاتلوا الذين يخالفونهم حتى قتلوهم فأصبحنا وقد اسرى بكتابهم ورفع العلم الذى فى صدورهم، فهم أهل كتاب وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر - واراه قال: وعمر - منهم الجزية رواه الشافعى وسعيد وغيرهما، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

ولنا: قول الله تعالى: "أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا" والمجوس من غير الطائفتين، وقول النبى صلى الله عليه وسلم "سنوا بهم سنة أهل الكتاب" يدل على أنهم غيرهم وروى البخارى - باسناده - عن بجالة أنه قال: ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى حدثه عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوسى هجر، ولو كانوا أهل كتاب لما وقف عمر فى أخذ الجزية منهم مع أمر الله تعالى بأخذ الجزية من أهل الكتاب وما ذكروه هو الذى صار لهم به شبهة الكتاب، وقد قال أبوعبيد: لا أحسب مارووه عن على فى هذا محفوظا (رواه الشافعى وعبدالرزاق عنه باسناد حسن.

ولو كان له أصل لما حرم النبى صلى الله عليه وسلم نساءهم، وهو كان أولى بعلم ذلك،

ويجوز أن يصح هذا مع تحريم نسائهم وذبائحهم، لأن الكتاب المبيح لذلك هو الكتاب المنزل على إحدى الطائفتين وليس هؤلاء منهم، ولأن كتابهم رفع فلم ينتهض للاباحه ويثبت به حقن دمائهم.. فأما قول أبي ثور في حل ذبائحهم ونسائهم فيخالف الاجماع فلا يلتفت إليه [٣٧]
وقوله عليه السلام: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) في أخذ الجزية منهم.

إذا ثبت هذا فإن أخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس ثابت بالاجماع لا نعلم في هذا خلافا، فإن الصحابة رضي الله عنهم اجمعوا على ذلك وعمل به الخلفاء الراشدون ومن بعدهم إلى زماننا هذا من غير نكير ولا مخالف وبه يقول أهل العلم من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وغيرهم مع دلالة الكتاب على أخذ الجزية من أهل الكتاب ودلالة السنة على أخذ الجزية من المجوس، بما روينا من قول المغيرة لأهل فارس: (أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية). وحديث بريده وعبدالرحمن بن عوف، وقول النبي صلى الله عليه وسلم:" سنوا بهم سنة أهل الكتاب" ولا فرق بين كونهم عجما أو عربا، وبهذا قال مالك والاوزاعي والشافعي وأبوثور وابن المنذر. وقال أبو يوسف : لا تؤخذ الجزية من العرب. لأنهم شرفوا بكونهم من رهط النبي صلى الله عليه وسلم.

ولنا عموم الآية وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى دومه الجندل. فأخذ أكيدر دومه فصالحه على الجزية، وهو من العرب (رواه أبو داود) وأخذ الجزية من نصارى نجران وهو من عرب، وبعث معاذا إلى اليمن فقال: أنك تأتي قوما أهل كتاب متفق عليه وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارا وكانوا عربا، قال ابن المنذر: ولم يبلغنا أن قوما من العجم كانوا سكانا لليمن حيث وجه معاذا ولو كان لكان في أمره أن يأخذ من جميعهم من كل حالم دينارا دليل على أن العرب تؤخذ منهم الجزية، وحديث بريده فيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر من بعثه على سرية أن يدعو عدوه إلى أداء الجزية ولم يخص بها عجميا دون غيره وأكثر ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يغزو العرب،ولأن اجماع فإن عمر رضي الله عنه أراد الجزية من نصارى بني تغلب فأبوا ذلك وسألوه أن يأخذ منهم مثل ما يأخذ من المسلمين فأبى ذلك عليهم حتى لحقوا بالروم ثم صالحهم على ما يأخذه منهم عوضا عن الجزية فالمأخوذ منهم جزية غير أنه على غير صفة جزية غيرهم، وما أنكر أخذ الجزية منهم أحد، فكان ذلك اجماعا.. وقد ثبت بالقطع واليقين أن كثيرا من نصارى العرب ويهودهم كانوا في عصر الصحابة في بلاد الإسلام ولا يجوز اقرارهم فيها بغير جزية فثبت يقينا أنه أخذ الجزية منهم.

وظاهر كلام الخرقي أنه لا فرق بين من دخل في دينهم قبل تبديل كتابهم أو بعده ولا بين أن يكون ابن كتابيين أو ابن وثنيين أو ابن كتابي ووثني، وقال أبوالخطاب.. من دخل في دينهم بعد تبديل كتابهم لم يقبل منه الجزية، ومن ولد بين أبوين أحدهما تؤخذ منه الجزية والآخر لا نقبل منه فهل نقبل منه؟ على وجهين، وهذا مذهب الشافعي.

ولنا عموم النص فيهم، ولأنهم من أهل دين نقبل من أهله الجزية فيقرون بها كغيرهم هذا وانما تقبل منهم الجزية اذا كانوا مقيمين على ما عوهدوا عليه من بذل الجزية والتزام أحكام

الملة لأن الله تعالى أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية، أى يلتزموا أداءها فما لم يوجد ذلك يبقوا على اباحة دمائهم وأموالهم.

(فصل) ولا يجوز عقد الذمة المؤيده الا بشرطين: أحدهما - أن يلتزموا اعطاء الجزية فى كل حول، والثانى التزام أحكام الإسلام وهو قبول ما يحكم به عليهم من أداء حق أو ترك محرم لقول الله تعالى: " حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث بريده: "فادعهم إلى أداء الجزية، فإن أجابوك فأقبل منهم وكيف عنهم" ولا تعتبر حقيقة الاعطاء ولا جريان الأحكام، لأن اعطاء الجزية انما يكون فى آخر الحول والكف عنهم فى ابتدائه عند البذل والمراد بقوله: "حتى يعطوا" أى يلتزموا الاعطاء ويجيبوا إلى بذله كقول الله تعالى: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» والمراد به التزام ذلك دون حقيقته، فإن الزكاة انما يجب اداؤها عند الحول، لقوله عليه السلام "لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول".

(مسألة) قال: (ومن سواهم فالإسلام أو القتل) يعنى من سوى اليهود والنصارى والمجوس لا تقبل منهم الجزية ولايقرون بها ولا يقبل منهم الا الإسلام، فإن لم يسلموا قتلوا، هذا ظاهر مذهب أحمد، وروى عنه الحسن بن ثواب أنها تقبل من جميع الكفار الاعبدة الأوثان من العرب، لأن حديث بريده يدل بعمومه على قبول الجزية من كل كافر الا أنه خرج منع عبدة الاوثان من العرب، لتغلظ كفرهم من وجهين: أحدهما دينهم، والثانى كونهم من رهط النبى صلى الله عليه وسلم، وقال الشافعى: لا تقبل الا من أهل الكتاب والمجوس ، لكن فى أهل الكتب غير اليهود والنصارى مثل أهل صحف إبراهيم وشيث وزبور داود ومن تمسك بدين آدم وادريس وجهان: أحدهما يقرون بالجزية، لأنهم من أهل الكتاب فاستبهود اليهود والنصارى وقال أبو حنيفة: تقبل من جميع الكفار الا العرب، لأنهم رهط النبى صلى الله عليه وسلم، فلا يقرون على غير دينه، وغيرهم يقر بالجزية، لأنه يقر بالاسترقاق، فأقروا بالجزية كالمجوس. وعن مالك أنها تقبل من جميعهم الا مشركى قريش لأنهم ارتدوا وعن الأوزاعى وسعيد بن عبدالعزيز: أنها تقبل من جميعهم، وهو قول عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، لحديث بريده، ولأنه كافر يقر بالجزية كأهل الكتاب.

ولنا قول الله تعالى: «فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقول النبى صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وهذا عام خص منه أهل الكتاب بالآية، والمجوس يقول النبى صلى الله عليه وسلم « سنوا بهم سنة أهل الكتاب" فمن عداهم من الكفار يبق على قضية العموم، وقد بينا أن أهل الصحف من غير أهل الكتاب المراد بالآية فيما تقدم[٣٨].

جولة مع النصوص القرآنية والنبوية فى الجزية:

استيحاء من نصوص الكتاب والسنة، وبناء على ما تقدم من آيات وأحاديث وآثار وفقهيات ومن شرح لذلك، يمكن التجوال بين القواعد القرآنية والنبوية عن الجزية وبسط الحديث عنها فى نقاط:

١ـ من هم الأعداء وبم يعاملون؟

أعداء الإسلام هم الذين يقاتلون المسلمين ويكيدون لهم ويطعنون فى دينهم، ويصدون عن الدعوة إليه، ويمنعون حرية التدين به، ويفتنون المسلمين عنه، ويظلمون المستضعفين منهم. وينكثون ايمانهم وعهودهم معهم، ويتربصون بهم الدوائر ويبيتون لهم الغدر والخيانة ويظاهرون عليهم أعداء هم ويتآمرون عليهم معهم، ويضيقون عليهم حتى يخرجوهم من ديارهم ويعتدون على أموالهم وأعراضهم، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق.[٣٩]

فكل من فعل واحدا من هذه الأفعال أو أكثر وجب على المسلمين قتاله ومطاردته بدون هوادة ولا تهاون وبكل وسيلة وفى كل ظرف وموقف ولو كان فى المسجد الحرام والشهر الحرام إلى أن ينتهى من موقفه ويدين بالإسلام أو يخضع للسلطان الإسلامى ويؤدى إليه الجزية أو يقوم بينه وبين المسلمين عهد صلح، وإذا دان بالإسلام أصبح أخا للمسلمين وغفر له ما سلف..

روى الخمسة الا البخارى عن بريده قال: (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: (اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن مما أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم.. ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فأقل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن ابوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء الا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن ابوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل فأراد أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذلك، واجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فانكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله، واذ حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تنزلهم على حكم الله فلا تقبل منهم ولكن أنزلهم على حكمك فأنك لا تدرى اتصيبوا حكم الله فيهم أم لا؟

وظاهر أن النبى صلى الله عليه وسلم فى نهيه عن اعطاء ذمة الله ورسوله وانزالهم على حكم الله محتاط لئلا يبدو من المسلمين ما يناقض ذلك فيقعوا فى الحرج ازاء الله ورسوله وازاء أعدائهم وفى هذا مافيه من حكم سياسية باهرة.

٢ـ هل لابد أن يسبق أخذ الجزية قتال؟ وهل تؤخذ من أهل الكتاب فقط؟ والآية التى معنا وصفت أهل الكتاب بصفات استوجبت قتالهم. ويرى الاستاذ محمد عزة دروزه أن هذه الصفات يمكن أن لا تكون صفات أهل الكتاب جميعهم، وأيد ذلك بجعل «من» فى الآية للتبعيض، فيكون القتال خاصا بطوائف منهم..

والآية تأمر بقتال أهل الكتاب الموصوفين فيها وفى الآيات التالية لها حتى يعطوا الجزية

فى حين أن هناك روايات وثيقة تذكر أن طوائف من النصارى واليهود صالحهم النبى صلى الله عليه وسلم على الجزية بدون حرب وقتال مقابل عهد أخذوه منه بذمة الله ورسوله وأمانة وحمايته، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية بدون حرب من غير أهل الكتاب وأنه أمر يأخذها من المشركين أيضا وأن خلفاءه الراشدين ساروا على سنته فى كل ذلك.

ومن الأمثلة على النوع الأول: نصارى نجران باليمن الذين أوفدوا وفدا للنبى صلى الله عليه وسلم لأخذ عهده وذمته فأعطاهم (عهد لأنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهم وبيعهم ولا يغير اسقف عن اسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا واقف عن وقفانيته، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلى ولا يخسرون ولا يعشرون، غير ظالمين ولا مظلومين، ولا يفتنون عن دينهم، ومن أكل الربا منهم أحد أحدث حدثا فذمة الله ورسوله بريئة منه، ولا يؤخذ رجل بظلم آخرا.

وفرض عليهم مقابل ذلك: (ألفى حلة وافية،) ألفا فى كل رجب وألفا فى كل صفر، ومثواة رسله شهرا فدونه، وثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا عارية إذا كان كيد «حرب» فى اليمن وماهلك من العارية يرد إليهم[٤٠]

ومن ذلك عهود أمان وذمة أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوحنا بن رؤبة ملك ابله وأهلها، مقابل ثلاث مائة دينار جزية سنوية وهم نصارى، ولاهل متنا، مقابل ربع ثمارهم ولأهل جربا وأذرج مقابل مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة وليهود بنى عريض، مقابل عشرة أوسق قمحا وعشرة اوسق شعيرا وخمسين وسقا تمرا فى كل حصاد[٤١] ومن الأمثلة على النوع الثانى: أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأخذ جزية مقدارها دينار من كل حالم من معافر، وعرضه على اقبال الدين الإسلام أو الجزية، وقبوله الجزية من مجوس هجر والبحرين ويهودهما وقبول عمر بن الخطاب الجزية من الفرس، وقبول عثمان الجزية من البربر[٤٢] ومن ذلك ماجاء فى الحديث الصحيح الذى رواه بريده «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر أمراء الجيوش بأن يعرضوا على الأعداء المشركين الإسلام فإن أبوا فالجزية وبالكف عنهم إذا اسلموا أو قبلوا بأداء الجزية».

٣- موقف السنة من الآية: وهذه الأمثلة تصوغ القول: إن آية التوبة هذه ليست على سبيل الأمر بقتال الموصوفين فيها من أهل الكتاب إلى أن يعطوا الجزية حصرا، وانما فيها أمر بالموقف الذى يجب أن يقفه المسلمون من الموصوفين فيها، ويكون ماروته الروايات التى يؤيد بعضها أحاديث وثيقة، والتى ليس هناك ما يمنع صحتها جميعا من أخذ النبى صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل الكتاب يهود ونصارى بدون قتال، مقابل اعطائهم ذمة الله ورسوله وتأمينهم وحمايتهم ومن أمره بأخذ الجزية من مجوس ومن عرب مشركين بدون قتال، ويأخذ الجزية من أعداء مشركين ومن أخذ خلفائه الجزية من غير أهل الكتاب بغير قتال هو اتمام لتشريع الجزية التى احتوت الآية صورة من صوره.

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعمل فى عهوده وأحاديثه تعابير «ذمة الله ورسوله» للمستسلم الخاضع الراضى بدفع الجزية مع احتفاظه بدينه، ومن هنا جاء صفة «الذمى» له،

فليست هى والحالة هذه - صفة ذم وتحقير كما يتبادر إلى بعض الأذهان بل صفة منبثقة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

٤- وقت مشروعية الجزية: والجو الذى نزلت فيه آية الجزية كان جو الاستنفار لغزوة تبوك التى قادها النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة للهجرة بسبب ماكان يقع من نصارى مشارف الشام من عدوان متكرر كان من ورائه الروم والغساسنة النصارى وكان من صوره قتل رسول لرسول الله أرسله إلى ملك بصرى وقتل عامل من عمال الغساسنة أعتنق الإسلام ونهب قوافل المسلمين والتحشد لغزوة المدينة.. مماجعل حالة الحرب قائمة بين المسلمين ونصارى مشارف الشام والروم والغساسنة معا قبل نزول هذه الآيات.. وكان تسيير الجيوش من قبل أبى بكر رضى الله عنه إلى بلاد الشام التى حررت هذه البلاد من سلطان الروم ووطدت السلطان الإسلامى العربى فيها استمرارا لها(٤٣).

٥- من حكم مشروعية الجزية" وليس فى الأمر القرآنى بقتال من يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية إذا ما أرادوا الاحتفاظ بدينهم أى شطط كما هو المتبادر، بل هو فى الحقيقة علامة من علامات تسامح الإسلام ومبادئه التى تمنع الاكراه فى الدين، واجبار الناس على الإسلام بالقوة واتساعه لبقاء أعداء الإسلام والمسلمين على دينهم، بعد أن تخضد شوكتهم ويؤمن خطرهم، فضلا عن اتساعه لذلك بالنسبة لغير الأعداء من المسالمين والموالين من غيرالمسلمين الكافين أيديهم وألسنتهم والراغبين فى العيش مع المسلمين بسلام.

ولقد أوجبت السنة حمايتهم وضمان سلامتهم وأموالهم وحريتهم الدينية وغير الدينية والدفاع عنهم مقابل الجزية، فيكون التسامح الإسلامى لذلك قد بلغ الذروه..

ونص آية التوبة هذه يلهم بقوة أنه ليس للسلطان الإسلامى أو قائد الجيش الإسلامى أن يقاتل العدو اذا استسلم وخضع وكف عن القتال، وأعلن رغبته واستعداده لأداء الجزية وحديث بريده الذى أشرنا إليه قبل متساوق مع ذلك، وهذا متسق مع المبادىء القرآنية والنبوية العامة التى شرعت القتال لدفع العدوان والمقابلة من جهة، وضمان حرية الدعوة والمسلمين ومصلحتهم وكرامتهم واحترام دينهم من جهة أخرى.

٦- اتجاهان قويان فى الجزية: يروى الطبرى وغيره من المفسرين أقوالا عن بعض أصحاب رسول الله وتابعيهم تفيد أنهم كانوا لا يجيزون أخذ الجزية من الكتابى العربى، وأنهم لا يرون أخذها على كل حال من غير كتابى، وأنه ليس لهؤلاء وأولئك الا القتال حتى يسلموا.. ويأخذ بعض المجتهدين بهذا مستندين إلى نص آية التوبة التى معنا والتى لا تذكر الا أهل الكتاب وإلى آيتى سورة التوبة (٥ و١١) اللتين توجب قتال المشركين إلى أن يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، أى إلى أن يسلموا هذا اتجاه.

وهناك اتجاه آخر يرى اصحابه أن آيتى التوبة (٥ و ١١) فى حق المعاهدين الناكثين لعهدهم وايمانهم، وأنهما مع ذلك لا يمنعان تجديد العهد والصلح معهم، قالوا ولم نر القائلين بعدم جواز أخذ الجزية من العربى الكتابى يستندون إلى سند قرآنى أو نبوى.

وقد أخذ النبى صلى الله عليه وسلم الجزية من نصارى نجران وهم عرب أقحاح وظل ما فعله قائما مستمرا من بعده، وفي حديث بريده الصحيح ما يفيد صراحة بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالكف عن الأعداء المشركين إذا ما أعلنوا خضوعهم وقبلوا آداء الجزية.. والروايات مستفيضة متكاثرة لا خلاف فيها أن قواد الفتح الإسلامى الأول فى عهد الخلفاء الراشدين وبأمرهم وموافقتهم كانوا يصالحون أهل البلاد المفتوحة على الجزية إذا ما استسلموا وخضعوا، وكان منهم عرب كتابيون أقحاح فى الشام والعراق، وكان منهم الوثنييون والمشركون وعبدة النار.

وهناك حديث طريف مؤيد لذلك رواه الإمام أبوعيد فى كتاب الأموال جاء فيه:(إن عمر بن الخطاب قد هم أن يأخذ من نصارى بنى تغلب الجزية فتفرقوا فى البلاد، فقال زرعة بن النعمان يا أمير المؤمنين، أن بنى تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية، وليس لهم أموال، انما هم أصحاب حروث ومواشى، ولهم تكاية فى العدو، فلا تعن عدوك عليك بهم، فصالحهم عمر على أن أضعف (ضاعف) عليهم الصدقة، واشترط عليهم أن لا ينصروا أولادهم، ومع أنهم لم يوفوا بهذا الشرط على ماذكره أبوعبيد فأن أمرهم لم يتغير.. ويورد أبوعبيد حديثا آخر بدون هذا الشرط عن زياد ابن حدير جابى العشر والصدقة: أن عمر أمره أن يأخذ من نصارى تغلب العشر ومن نصارى أهل الكتاب نصف العشر، تبعا لأمره بمضاعفة الصدقة عليهم، مقابل اعفائهم عن الجزية دون سائر أهل الكتاب(٤٤)

٧. تساهل فى الجزية: ويرى الأستاذ دروزة (٤٥) أن آية التوبة هذه وأن كانت تأمر بقتال من يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية، ويتفق معها حديث بريده فليس فيها ما يمنع من مصالحتهم على غير جزية أيضا إذا جنحوا للصلح على شرط عدم الجزية إذا كانت ظروف المسلمين ومصلحتهم تقتضى ذلك، وقد صالح النبى صلى الله عليه وسلم قريضا فى الحديبية بدون جزية، وقد يقال: إن آية التوبة قد نزلت بعد ذلك وأن الآخر ينسخ الأول، غير أن روح آية سورة الانفال (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (٤٦) المعقودة على وصف وحالة المعاهدين، بل وفحواها وسياقها تلهم أنها تشريع مستمر التلقين لا تساقه مع ظروف الحياة وطبائع الأمور.. قال: فهناك احتمالات دائمة لقيام ظروف لا تسمح للمسلمين بالاستمرار فى قتال عدوهم إلى أن يخضع ويعطى الجزية فمن الحق أن يستلهم ولى أمر المؤمنين هذه الآيات والسنة النبوية فى مصالحة قريش بعد حرب وعداء شديدين فى مثل هذه الظروف فيقابل جنوح العدو إلى السلم بالمثل ولو كان بدون جزية..

قال: وظروف الدنيا الراهنة التى لم يعد فيها محل لفرض جزية سنوية على المغلوب قد تسوغ ذلك بصورة دائمة، وقد يكون فى هذا معجزة من اعجاز الهدى القرآنى والنبوى اللذين يهيئان المجال والإساغة للحلول المختلفة حسب اختلاف الظروف.

والحق أن صلح الحديبية وآية سورة الانفال وغيرها مما سبق هذه السورة، نظام من النظم المرحلية التى اقتضتها ظروف معينة كضعف المسلمين وغيره. وليس تشريعا مستمر التلقين لاتساقه مع ظروف الحياة. وأنه اذا حل بالمسلمين ظرف يشبه الظرف الذى عمل فيه بالنظام

المرحلى كان على المسلمين أن يأخذوا بالنظام المرحلى هذا لا على أنه تشريع دائم، ولكن على أنه تشريع اقتضته الظروف، فاذا زال ذلك الظرف عنهم وعادت إليهم قوتهم عادوا إلى التشريع النهائى الذى لا بديل له ولا محيد عنه والذى تضمنته هذه السورة التى هى كلمة السماء الأخيرة فى هذا الشأن (وهو الإسلام أو الجزية أو القتال).

٨ مقدار الجزية:

وفى صدد مقدار الجزية والفئات التى تؤخذ من المصالحين عليها نقول: أنه يبدو مما فعله النبى صلى الله عليه وسلم وأوردناه قبل، أنه كان يفرض الجزية حسب مايراه ممكنا ومتساوقا مع الظروف، فاناس أمر بأخذ دينار من حالمهم، واناس فرض عليهم جملة ألفى حملة مع ضيافة رسله واعارة بعض وسائل الحرب اذا كانت حرب، واناس فرض عليهم ربع غزولهم، وربع ثمر نخلهم أو قدرا معينا من غلاتهم.. ولقد روى الامام أبوعبيد: أن عمر بن الخطاب ضرب على أهل الذهب والمقصود من ذلك الناس الذين كان مقياس تعاملهم الذهب كماهو المتبادر. اربعة دنانير وعلى أهل الورق «الفضة» اربعين درهما، مع ارزاق المسلمين وضايفتهم ثلاثة أيام، وروى: انه بعث عمارين ياسر وعبدالله بن مسعود وعثمان بن حنيف إلى أهل الكوفة، فوضعوا على كل رجل اربة وعشرين درهما فأجاز ذلك وفى رواية: أنه بعث عثمان بن حنيف فوضع على كل رجل ثمانية واربعين درهما واربعة وعشرين درهما واثنى عشر درهما، حيث يكون قد صنف الرجال ثلاثة صنوف.. اغنياء ومتوسطين وكسبه.. وقد قال الامام ابوعبيد بعد هذا: إن خلفاء المسلمين كانوا لايرون الزيادة على هذه المقادير الثلاثة، بل كانوا يرون النقصان اذا ما عجزت فئة منهم عن المرتب عليها وانهم كانوا يعفون النساء والصبيان اطلاقا والعميان والزمنى والمقعدين والرهبان اذا لم يكن لهم مال، وكانوا يأمرون بالرفق باصحابها وعدم الإصرار على اخذها ذهبا او فضة، وبأخذ قيمتها من غلة الأرض والماشية وصنعة اليد، وكانوا يسقطونها عن العاجزين عن ادائها، وقد ورد كل هذا فى كتاب الخراج للإمام ابى يوسف أيضا..

ولقد روى هذا الإمام خبرا رائعا عن عمر بن الخطاب جاء فيه.. انه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل؟ وهو شيخ كبير ضرير، فضرب عضده من خلفه وقال له: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى قال" فما الجأك إلى ما أرى؟ قال: اسألة الجزية والحاجة والسن، فأخذ بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيىء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا واضرابه فرتب لهمما يقوم بأودهم واسقط عنهم الجزية فوالله ما انصفناهم أن أكلنا شبيتهم ثم نخذلهم عند الهرم.

ويروى ابوعبيد أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى وليه بالبصرة أن لا يأخذ الجزية الا ممن اطاف وأن يجرى على من كبرت سنه وضعفت قوته وولت مكاسبه من أهل الذمة من بيت المال ما يصلحهم لأنه بلغه أن أميرالمؤمنين عمر قد فعل ذلك، ولقد قال الإمام مالك فى الموطأ :(مضت السنة على أن لا جزية على نساء أهل الكتاب، ولا على صبيانهم، ولا تؤخذ الا من الذين بلغوا الحلم. وليس على نخلهم وكرومهم ومواشيهم صدقة، لأن الصدقة وضعت على المسلمين تطهيرا لهم وردا على فقرائهم وليس على أهل الكتاب الا الجزية..

والجزية وان كانت فى أصلها علاقة خضوع غير المسلمين للسلطان الإسلامى، فأنها فى نفس الوقت مقابل الحماية والدفاع وضمان الحرية وحسن المعاملة.

وليس فيما فعله عمر رضى الله عنه وتابعه فيه الخلفاء من بعده خروج عن السنة النبوية، بل هو من نطاق هديها الذى نبهنا عليه قبل وهو أخذ الجزية بمقدار يخضع للظروف والامكانيات، وفيه صورة من صور فهم كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للهدى النبوى يصح ترسيها.. والمتبادر أن هذا الهدى هو الذى يظل ضابطا للجزية أكثر من التعيين والتحديد.. وليس ما يمنع والحالة هذه أن يأخذ المسلمون الجزية جملة سنوية من قوم هم يتوزعونها فيما بينهم حسبما يرون نقدا أو سلعة مصنوعة أو غلة.

٩ـ المراد بالصغار فى الآية: ولقد تعددت التأويلات التى يرويها المفسرون عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم جملة (عن يد وهم صاغرون).. من ذلك أنها تعنى دفع الجزية نقدا ووجاها مع اظهار الخشوع والتذلل، ومن ذلك أنها تعبير لفظى عن حال الصغار التى يتلبس بها المعطى.. وأنكر كثيرون أن يكون فيها تسويغ لإهانة المعطى وتعذيبه وصفعه وتلبيبه حين الدفع كما يذهب إليه بعضهم.. وهناك أحاديث تدعم هذا الانكار رواها الإمام أبوعبيد فى كتاب الأموال منها: (إن عياض بن غنم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نبطا يعذبون فى الجزية فقال للجابى: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله تبارك وتعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس فى الدنيا)(٤٧) ومنها (أن عمر أتى بمال كثير من الجزية فقال: إنى لاظنكم قد أهلكتم الناس، فقالوا لا والله ما أخذنا الا عفوا صفوا، فقال: بلا سوط ولا نوط، قالوا نعم فقال: الحمد الله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا فى سلطانى)(٤٨) ومنها (أن عمر مر على قوم أقيموا فى الشمس وهو راجع من الشام ـ فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا: عليهم الجزية لم يؤدوها فهم يعذبون حتى يؤدوها، فقال عمر: فماذا يقولون؟ قالوا: يقولون لا نجد، فقال: دعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون، فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة). وأمر بهم فخلى سبيلهم.(٤٩)

ولقد قال الامام أبويوسف فى كتاب الخراج: (إنه لا يجوز ضربهم فى استبدائهم الجزية ولا يوقع عليهم فى ابدائهم شيىء من المكاره) والصفع والتلبيب والاهانة من التعذيب والمكاره.. واذا كان عمر وعياض رضى الله عنهما وجدا تعذيب الذمى الذى تأخر عن دفع الجزية منطبقا على نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعذيب الناس وانكراه، واذا كان الإمام ابو يوسف يقول إنه لا يجوز ضرب الذمى واحداث أى مكروه فى بدنه فى استيدائه الجزية، فمن باب أولى أن يكون ضربه وتعذيبه واهانته وتلبيبه وهو مقبل على دفعها منكرا غير جائز بل موضعا لإنكار أشد.

ولقد روى أبو يوسف حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) وعن عمر حضرته الوفاة أنه قال: (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهودهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا

يكلفوا فوق طاقتهم)(٥٠) وروى الإمام ابوعبيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:(أنكم لعلكم تقاتلون قوما فيقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ويصالحونكم على صلح فلا تأخذوا منهم فوق ذلك، فأنه لا يحل لكم) ولقد قال الإمام أبو يوسف فى كتابه المذكور:(إن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين لهم وحسن سيرتهم فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين عليهم ولقد بعثوا رجالا من قبلهم يتجسسون أخبار الروم فرجعوا يخبرون أهل مدنهم بأن الروم جمعوا جمعا لم ير مثله فأتى رؤساء المدن الأمير الذى خلفه أبوعبيدة فيهم، وكان ذلك فى بلاد الشام فأخبروه، فكتب والى كل مدينة إلى أبى عبيدة بذلك، وتتابعت الأخبار على أبوعبيدة فكتب إلى الولاة يأمرهم بأن يردوا على أهل مدنهم ما جمعون من جزية وخراج، وأن يقولوا لهم انما رددنا أموالكم لأنه بلغنا ما جمع الروم من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ولا نقدر الان على ذلك ونحن لكم على الشرط وما كتبناه أن نصرنا الله عليهم، فقال لهم أهل المدن ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا، وأخذوا كل شيىء بقى لنا حتى لا يدعوا لنا شيئا(٥١) وفى هذا مافيه من جلال وروعة وينبغى أن لا يشك أحد فى صحة هذه الرواية، فإنها لم تسق للدفاع عن سلوك المسلمين والدعاية لهم فى ذلك الوقت الذى لم يكن لمثل هذا الدفاع والدعاية محل..

والإمام أبو يوسف كتب كتابه قبل نهاية القرن الثانى الهجرى، وهو من أقدم الكتب التى وصلت إلينا أن لم يكن أقدمها.

١٠- مناقشة كتاب أوردة ابن كثير يحدد معنى الصغار: ولقد أورد بن كثير فى سياق جملة [(عن يد وهم صاغرون) نص كتاب عجيب يزعم راويه أن نصارى الشام كتبوه وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب فيه اقرار لأمور قالوا: إنه قررها عليهم حين صالحهم على الجزية وهى:(ان لا يجددوا ماخرب من كنائسهم، وألا يحدثوا اديارا ولا كنائس ولا صوامع وأن لا يمنعوا مسلما من النزول فى كنائسهم وأن لا يعلموا أولادهم القرآن وأن لا يدعوا أحدا إلى دينهم ، وأن يوقروا المسلمين ويقوموا لهم فى المجالس، وأن لا يتشبهوا بهم فى الازياء والملابس، وأن لا يكتنوا بكناهم، وأن لا يضعوا سرجا على دوابهم حين يركبونها، ولا يبيعوا الخمور ولا ينقشوا خواتمهم بالعربية ولا يجزوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم وأن يشدوا الزنار على أوساطهم، وأن لا يظهروا النواقيس، ولا يضربوها الا ضربا خفيفا، وأن لا يخرجوا شعانين ولا بعوثا، ولا يرفعوا أصواتهم، ولا يظهروا نيرانا، ولا يسكنوا فى طرق المسلمين واسواقهم وأحيائهم، وخططهم، ولا يدفنوا موتاهم قرب موتاهم.)

ويقول ابن كثير: إن الائمة الحفاظ قد رووا هذا الكتاب (٥٢) ولكنه لا يذكر اسماءهم كعادته - ولا يذكر اسم المدينة ا لتى كتب أهلها الكتاب وهو عجيب غريب فى بدايته ونهايته واسلوبه وفحواه فيما نرى، وفيه ما يطعن فى صحته، مثل ذكر احياء المسلمين وخططهم واسواقهم وهو مالم يكن قد حدث بعد، ومثل قولهم لعمر: إنك اخذت علينا هذه الشروط حينما قدمت علينا، وسألناك الامان، وعمر لم يشهد فتح الشام ولم يشهد غير فتح القدس.

والنص المتداول للعهد الذى أعطاه لنصارى القدس مناقض مناقضة صارخة لهذا الكتاب

وفحواه حيث جاء فيه: (هذا ما أعطاه عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إلياء من الامان اعطاهم أمانا لأنفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شيىء من أموالهم ولا يضار أحد منهم، وأن لا يسكن أحد من اليهود معهم، وعلى أهل الياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم، فمن خرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ماعلى أهل الياء من الجزية، ومن أحب من أهل الياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، وأنه لا يؤخذ منهم شيىء حتى يحصد حصادهم، وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية)(٥٣).

ومعلوم أنه ورد فى بعض الكتب بعض الالزامات فى الملابس والازياء والسلوك للنصارى واليهود الذين خضعوا للمسلمين على أساس الجزية فيها شيىء مما ورد فى الكتاب، بل إن فى كتاب الخراج لأبى يوسف معظم ماجاء فى الكتاب، مع القول إن عمر أمرعماله بأخذ أهل الذمة به، وأن عمر بن عبدالعزيز أمر عماله بأخذهم به بعد أن رآهم يخالفونه فيلبسون العمائم ولا يتزنرون بالزنار، ولا يقصون مقادم شعور رؤوسهم.

وورود هذا فى كتاب ابى يوسف لا يجعلنا نسلم بصحة عزو هذه الالزامات إلى عمر رضى الله عنه، ولا بصحة الكتاب الذى فيه ما ينقضه كما نبهنا على ذلك..

والذى نرجحه أن بعض النصارى فى دور متقدم من ادوار الحكم الإسلامى خامروا أو غامروا مخامرة أو مغامرة كان لها وقع شديد وعميق فى نفوس المسلمين وحكامهم، فتشددوا معهم والزموهم بما ورد فى الكتاب أو فى كتاب الخراج، ولعل الكتاب افتعل بسبيل ذلك.

ولقد روت مصادر التاريخ الإسلامى والتاريخ المسيحى القديمة أن بعضا منهم ناصروا الروم حينما جاءت جيوش الفتح ثم استجابوا لتحريكاتهم وصاروا يقومون ببعض الحركات التمردية المؤذية ضد المسلمين، فى أوائل الدولة الاموية وأواسطها ثم فى أوائل عهد الدولة العباسية اغتناما لفرصة الاحداث والخلافات الداخلية، ولعل ذلك كان من أسباب ذلك التشدد والالزام.. وبهذا فقط يصبح الالزام بعدم سكنى الذميين فى احياء المسلمين وخططهم وأسواقهم وعدم دفن موتاهم عند موتاهم مفهوما، بل ويصبح عزو ذلك إلى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ايضا مفهوما.

واذا صح ترجيحنا - وليس من سبيل معقول غيره - فيكون هذا الالزام ناتجا عن سوء تصرف وسلوك المغامرين والمخامرين من النصارى وليس اصلا اسلاميا لذاته بعد أن روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وخليفته عمر ماروى من التشديد فى التوصية بالذميين ورعايتهم. ولا ينبغى أن يكون مستمرا للتطبيق والتنفيذ، ولا سيما فى حالة انعدام الأسباب التى دعت إليهو وقد صار الأمر كذلك فى الحقب التالية الممتدة إلى الآن.

١ـ قضايا فى الجزية يدعمها التاريخ: ومن كلام الشيخ شبلى النعمانى الهندى فى رسالة له نشرت فى المجلد الأول من المنار: أما أهل الذمة فما كان يحق للإسلام أو يجبرهم على مباشرتهم القتال فى حال من الأحوال، بل الأمر بيدهم أن رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عفوا عن الجزية، وأن أبوا أن يخاطروا بالنفس، فلا أقل من أن يسامحوا بشيىء من المال. وهى الجزية، ولعلك تطالبنى باثبات بعض القضايا المنطوية فى هذا البيان أى اثبات أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين الا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم، وأن الذميين لو دخلوا فى الجند أو تكفلوا أمر الدفاع لعفوا عن الجزية، فإن صدق ظنى فأصغ إلى الروايات التى تعطيك الثلج فى هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال:

فمنها ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وأوغل فيها وهذا نصه: (هذا كتاب من من خالد بن الوليد لصلوبا ابن نسطونا وقومه انى عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمة والمنعة، وما منعناكم (أى حميناكم) فلنا الجزية والا فلا، كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر)، ومنها ماكتب نواب العراق لأهل الذمة وهذا نصه: (براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التى صالحهم عليها خالد والمسلمون، لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكنتم، امانكم أمان، وصلحكم صلح، ونحن لكم على الوفاء).

ومنها ماكتب أهل ذمة العراق لامراء المسلمين، وهذا نصه (انا قد ادينا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم). ومنها: المقاولة التى كانت بين المسلمين وبين (يزدجرد) ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الإسلام وكان هذا فى سنة أربع عشرة فى عهد عمر بن الخطاب، وكان من جملة كلام نعمان الذى كان رئيس الوفد: (وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم). ومنها المقاولة التى كانت بين (حذيفة بن محصن) وبين (رستم) قائد الفرس وحذيفة هو الذى ارسله سعد بن أبى وقاص وافدا على رستم فى سنة أربع عشرة فى عهد عمر بن الخطاب وكان فى جملة كلامه: (أو الجزاء ونمنعكم أن احتجتم إلى ذلك).

فانظر إلى هذه الروايات الموثوق بها كيف قارنوا بها بين الجزية والمنعة، وكيف صرح خالد فى كتابه بأنا لا نأخذ منكم الجزية الا اذا منعناكم ودفعنا عنكم، وان عجزنا عن ذلك فلا يجوز لنا أخذها: وهذه المقاولات والكتب مما ارتضاها عمر وجل الصحابة، فكان سبيلها سبيل المسائل المجمع عليها.

قال الإمام الشعبى ـ وهو أحد الأئمة الكبار: (أخذ أى سواد العراق) عنوة وكذلك كل أرض إلا الحصون فجلا أهلها فدعوا إلى الصلح والذمة فأجابوا وتراجعوا، فصاروا ذمة وعليهم الجزاء، ولهم المنعة وذلك هو السنة، كذلك منع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدومة) ولا تظنن أن شرط المنعة فى الجزية انما كان يقصد به مجرد تطييب نفوس أهل الذمة واسكان غيظهم، ولم يقع به العمل قط، فإن من أمعن النظر فى سير الصحابة وأطلع على مجارى أحوالهم عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدا ولا ذكروا شرطا الا وقد عضوا عليها بالنواجذ وأفرغوا الجهد فى الوفاء بها، وكذلك فعلهم فى الجزية ـ التى يدور رحى الكلام

عليها. فقد روى القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج عن مكحول: أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدوالمسلمين وعيونا للمسلمين على اعدائهم، فبعث أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعا لم ير مثله، فأتى رؤساء كل مدينة الأمير الذى خلفه أبوعبيده عليهم فأخبروه بذلك فكتب والى كل مدينة ممن خلفه ابوعبيدة إلى أبى عبيدة يخبره بذلك وتتابعت الأخبار على أبى عبيده، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين فكتب أبوعبيدة إلى كل وال ممن خلفه فى المدن التى صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ماجبى منهم من الجزية والخراج، وكتب إليهم أن يقولوا لهم: انما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع، وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم؟ وانا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وماكان بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم: فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التى جبوها منهم قالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا، وأخذوا كل شيىء بقى حتى لا يدعوا شيئا).

وقال العلامة البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان: حدثنى أبوجعفر الدمشقى قال حدثنا سعيد بن عبدالعزيز قال: بلغنى أنه لم جمع هرقل المسلمين الجمع، وبلغ المسلمين أقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، قالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا على ماكنا عليه، والا فانا على أمرنا مابقى للمسلمين عدد).

وقال العلامة الأزدى فى كتابه فتوح الشام - يذكر اقبال الروم على المسلمين ومسيرة أبى عبيدة من حمص: (فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال: أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ماكنا أخذنا منهم فإنه لا ينبغى لنا اذ لا نمنعهم أن نأخذ منهم شيئا، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح ولا نرجع عنه الا أن ترجعوا عنه، وانما رددنا عليكم أموالكم لأنا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم، فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلوا إلى دمشق، ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذوا منهم المال، فأخذ يرده عليهم وأخبرهم بما قال أبوعبيدة، وأخذ أهل البلد يقولون: ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ماردوا إلينا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا، وقال أيضا يذكر دخول أبى عبيدة دمشق: (فأقام أبوعبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشى أن يرد على أهل دمشق ما كان اجنبى منهم، الذين كانوا أمنوا وصالحوا، فرد عليهم ما كان أخذ منهم وقال لهم المسلمون: نحن على العهد الذى كان بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم أمانا).

أما ما ادعينا من أن أهل الذمة اذا لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا فى الذب عن حريم

الملك لا يطالبون بالجزية أصلا فعمدتنا فى ذلك أيضا صنيع الصحابة وطريقة عملهم، فأنهم أولى الناس بالتنبه لغرض الشارع وأحقهم بادراك سر الشريعة.. والروايات فى ذلك وأن كانت جمة نكتفى هنا بقدر يسير يغنى عن كثير.

فمنها كتاب العهد الذى كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر بن الخطاب لرزيان وأهل دهستان وهاك نصه بعينه (هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بنى رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، أن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا عن جزائه. ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيىء من ذلك، شهد سواد بن قطبة وهند بن عمرو وسماك بن مخرمة وعتيبه بن النهاس، وكب فى سنة مائة وثمانية. أ. هـ. طبرى صحيفة ٢٦٥٨).

ومنها الكتاب الذى كتبه عتبه بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه (هذا ما أعطى عتبه فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل اذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ومن حشر [٥٤] منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك أ. هـ طبرى صحيفة ٢٢٦٢).

ومنها العهد الذى كان بين سراقة عامل عمر بن الخطاب وبين شهر براز، كتب به سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه، وهاك نصه (هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمنيه والأرمن من الامان، اعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقضوا، وعلى أرمينيه والابواب الطراء منهم والثناء [٥٥] ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك، ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء، فإن حشروا وضع ذلك عنهم شهد عبدالرحمن بن ربيعه وسليمان بن ربيعه وبكير بن عبدالله وكتب مرضى بن مقرن، وشهد أ. هـ طبرى صحيفة ٢٦٦٥ - ٢٦٦٦)

ومنها ما كان من أمر الجراجمة، وقد أتى العلامة البلاذرى على جمله من تفاصيل أحوالهم: فقال: حدثنى مشايخ من أهل انطاكية أن الجراجة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بيان وبوقا يقال لها الجرجومة، وأن أمرهم كان فى استيلاء الروم على الشام وانطاكيه إلى بطريق انطاكية وواليها فلما قدم ابوعبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم اذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم، ثم أن أهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبوعبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمه الفهرى، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم باءك بطلب الامان والصلح فصالحوهم على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومصالح فى جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية).

ثم أن الجراحمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط حتى أن

بعض العمال فى عهد الواثق بالله العباسى ألزمهم جزية رؤسهم فرفضوا ذلك إلى الواثق فأمر باسقاطها عنهم أ. هـ

قال المنار: وقد اختصر النعمانى رحمه الله خبر الجراجمة بقوله: ثم أن الجراجمة الخ وفى سائر خبرهم فى البلاذرى من غدرهم ونقضهم للعهد ومظاهرتهم للعدو وحسن معاملة الامويين والعباسيين لهم ولغيرهم ما يفتخر به التاريخ الإسلامى العربى بالعدل والفضل، والشاهد هنا وضع الجزية عنهم بعد تكرار غدرهم (٥٦).

١٢. الجزية الآن قضية تاريخية لا واقعية:

وأخيرا فقد كان الاجدر بنا والأولى الا نذكر الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم ولا حول مقدارها، ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم، كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم فى وقتها.. أنها قضية تعتبر اليوم (تاريخية) وليست (واقعية) لأن المسلمين اليوم لا يجاهدون.

أن قضية (وجود) الإسلام و(وجود) المسلمين هى التى تحتاج اليوم إلى علاج..

والمنهج الإسلامى منهج واقعى جاد يأتى أن يناقش القضايا المتعلقة فى القضاء، ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق فى عالم الواقع. لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة الله، ويصرف حياته الفقه الإسلامى. ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث فى أقضية لا وجود لها بالفعل ويسميهم (الأرايتيين) الذين يقولون.. (أرأيت لو كان كذا وقع فما هو الحكم؟)..

إن نقطة البدء الآن هى نقطة البدء فى أول عهد الناس برسالة الإسلام: أن يوجد فى بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا اله الا الله، وأن محمدا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا فى واقع سالحياة، ثم يحاولون أن ينطلقوا فى الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان، ويومئذ. ويومئذ فقط. سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية فى مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات..

ويومئذ. ويومئذ فقط. يجوز الدخول فى تلك المباحث الفقهية والاشتغال بصياغة الاحكام والتقنين للحالات الواقعية التى يواجهها الإسلام بالفعل، لافى عالم النظريات.. وهذا المنهج فيه احترام لجدية المنهج الإسلامى وواقعيته وترفعه على هذا الضياع.

الهوامش

١) معنى هذا أن هذه الصفات ليست قيودا فى شرعية قتالهم بل هى بيان للواقع لا مفهوم له وصرح الرازى بأن هذه الصفات السلبية قيود تشترط فى قتالهم ولكنهم فاقدون لها، فإن وجد منهم قوم متصفون بها حرم علينا بدؤهم بالقتال. ذكره المنار جـ١٠ صـ ٢٨٢

٢) هذه الأمور التى أسند إليهم تركها هى أصول الدين الإلهى عند كل أمة، وقد أمر هنا بقتال الذين لا يتيمونها عندما يقوم السبب الشرعى لقتالهم حتى يعطوا الجزية بشرطها، ووضع (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق) فى موضع تركهم للعمل الصالح - منار جـ١٠ ص ٢٨١

٣) وسنبين بالضبط كيف أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

٤) هكذا يرى المنار (جـ١٠ صـ٢٨٤) أن اتباع اريوس موحدون، والحق أن الاريوسيين لا يوحدون التوحيد المفهوم من دين الله الحق وسيأتى بيان ذلك عند قوله تعالى (وقالت النصارى المسيح بن الله »

٥) روح المعانى جـ٣ صـ٢٩٣

٦) فتح البيان فى مقاصد القرآن للسيد حسن صديق

٧) الناموس هو شريعة موسى.

٨) آل عمران ٤٩ وإنما قال (لما بين يدى من التوراه) أى الشريعة لأن بعضها كان فقد باحراق البابلين لنسخة موسى التى كتبها بيده.

٩) المائدة ١٣: ١٤

١٠) قوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب) بيان للمراد من المتصفين بالصفات السلبية المتقدمة

١١) سورة الأنعام ١٥٦

١٢) البقرة آية ٦٢ والمائدة آية ٦٩

١٣) الحج آية ١٧

١٤) المنار جـ١٠ ص ٢٩٠

١٥) لسان العرب مبادة جزى

١٦) واليد: السعة والملك أو القدرة والتمكن

١٧) تفسير المنار جـ١٠ ص٢٨٥

١٨) تفسير الطبرى جـ١٤ ص١٩٩: ٢٠٠

١٩) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ١ ص٥٥٠

٢٠) كتاب الأم للشافعى جـ٤ صـ٩٩

٢١) سورة مريم ٩٠ . ٩١

٢٢) هذا مذهب أبى حنيفة وهو أقرب إلى سماحة الإسلام وإلى مرامى أهدافه البعيدة فى تأليف القلوب ودعوتها إليه بالتى هى أحسن، بينما يرى مالك والاوزاعى أنها تؤخذ من جميع الواقعين تحت حكمه فردا فردا.

٢٣) هذا هو اتجاه المتساهلين أما المتشددون فيرون أن الآية عامة فى مشركى العرب وغيرهم إذ لا فرق

٢٤) أخذا من المنار بنصه ج ١٠ صـ ٢٩٨، ٢٩٩

٢٥) رواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى

٢٦) رواه الشافعى

٢٧) رواه أحمد والبخارى

٢٨) رواه أحمد والترمذى وقال: حديث حسن، ورواه النسائى أيضا وصححه الترمذى والحاكم

٢٩) رواه الشافعى فى مسنده. والمعافر قبيلة، والحديث مرسل، ولكن له شاهدا يقويه

٣٠) الصواب أنه مهاجرى، وقيل أن أصله من الأنصار وكان بمكة فهاجر، منار

٣١) متفق عليه

٣٢) رواه أبو عبيد فى الأموال

٣٣) رواه أبو داود، وقد سكت عليه هو والمنذري، ورجال اسناده ثقات، وفيه عنعنة محمد ابن اسحق وفيه دليل على «أنها لا تختص بالعجم لأن اكيدر دومه عربي من غسان».

٣٤) أخرجه أبو داود، وهو من رواية السدي، وفي ساعة من ابن عباس نظر، ولكن له شواهد تقويه

٣٥) منتقى الأخبار وشارحه نيل الأوطار جـ٨ ص ٥٨ ـ ٦٣

٣٦) سورة الأنعام ١٥٦

٣٧) نقل الحافظ بن حجر هذا وقال: وفيه نظر فقد حكى ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب انه لم يكن يرى بذبيحة المجوسي بأسا إذا أمره المسلم بذبحها، وروى ابن أبي شيبه عنه وعن عطاء وطاوس وعمرو بن دينار أنهم لم يكونوا يرون بأسا بالتسري بالمجوسية».

٣٨) المغني لابن قدامه قال المتساهلون واستدلاله بعموم المشركين ممنوع، لأنه من العام الذى أريد به الخاص، فالحق المختار أن قبول الجزية من أهل الكتاب والمجوس حتم، وعدم قبولها من مشركي العرب حتم وما عداهما فموكول إلى اجتهاد أولي الأمر كسائر المصالح التي ليس فيها نص ومقدار الجزية اجتهادي أيضا بشرطه.

٣٩) البقرة ١٩٠ ـ ١٩٤، ٢١٧، النساء ٧٢ ـ ٧٦، ٩١، ٩٤ ـ ١٠٤، الأنفال ١٥ ـ ١٦، ٣٨ ـ ٤٠، ٥٥ ـ ٦٠، التوبة ١ ـ ١٥، ٢٩، الحج ٣٩ ـ ٤١، محمد ١ ـ ٤

٤٠) النص مقتبس من كتاب الخراج لأبي يوسف المؤلف فى أواخر القرن الثاني الهجري، وهو من أقدم الكتب التي وصلت إلينا، ومن كتاب فتوح البلدان للبلاذري، ومن حديث رواه أبو داود عن ابن عباس، ومن طبقات ابن سعد.

٤١) طبقات ابن سعد جـ٢ صـ ٥٤ ـ ٥٦

٤٢) ورد ذلك فى أحاديث رواها البخاري وأبو داود والترمذي عن عبد الرحمن بن عوف: انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول جـ٤ ص٣٤٧، جاء فى أحدها (أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر، وفي احدها «أخذ النبى الجزية من مجوس البحرين» وأخذها عمر من فارس، وأخذها عثمان من الفرس أو البربر).

٤٣) طبقات بن سعد جـ ٢ . ٣ وتاريخ الطبري جـ٢ . ٣

٤٤) أما الموقف بصدد الصلح مع اليهود الذين اغتصبوا فلسطين وأقاموا دولتهم فيها والذين يرضون الصلح على العرب فهؤلاء لا ينطبق عليهم هذا، وليس للعرب والمسلمين إلا قتالهم و الاستمرار فى ذلك وعدم مصالحتهم والاعتراف باغتصابهم إلى أن يقوضوا دولتهم ويطهروا الأرض من رجسهم مهما طال الزمن وعظمت التكاليف.

٤٥) فى كتابه التفسير الحديث جـ١٢ صـ١٢٣

٤٦) الأنفال ٦١

٤٧) كتاب الأموال صـ٤٣

٤٨) نفس المصدر وفسر الناشر كلمة (نوط) بالتعليق وهو على ما يبدو نوع من التعذيب

٤٩) كتاب الخراج صـ٦٩ ـ ٧٢

٥٠) كتاب الأموال صـ٧١

٥١) كتاب الخراج صـ٨٠ ـ ٨١

٥٢) تفسير ابن كثير الجزء الثاني صـ٣٤٧

٥٣) كتاب تاريخ المطارنة للمطران الدبس صـ٢٤ وبعدها، ١٨٦ وبعدها وكتاب فتوح البلدان للبلاذري صـ١٣٢ وبعدها، والطبري جـ٣ صـ٣١٥، جـ٤ صـ٢ وروض الشقيق للأمير شكيب أرسلان.

٥٤) الحشر هنا: جمع الناس وسوقهم للقتال أو مساعدة المقاتله

٥٥) الطراء: الغرباء الذين يطرأون جمع طارئ، والتناء: المقيمون

٥٦) تفسير المنار جـ١٠ صـ٢٩٨

الفصل الثانى

جرائم أهل الكتاب الداعية لقتالهم

قال الله تبارك وتعالى «وقالت اليهود عزيز بن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون».

ملابسات استدعت مزيد ايضاح - لفتة عن ذكر اليهود مع أن المقام لا يقتضيه - قول اليهود - عزيز بن الله - ذكر شيء من تاريخ عزيز ومكانته عند القوم - نقل من دائرة المعارف اليهودية - اسرائليات حول عزيز - قول النصارى المسيح بن الله - نقل عن دائرة المعارف العربية للبستاني - تعقيب قرآني - ما معنى تخصيص هذا القول بالفم؟ - الوثنية تسود الحضارات القديمة - الأحبار والرهبان - كيف اتخذوهم أربابا؟ - تفسير رسول الله - نقول عن المفسرين - حقائق لابد منها - لا تشريع لغير الله - لا تقليد موروث - لا ابتداع بل اتباع.

ملابسات: استدعت مزيد ايضاح

لما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) كانت هناك ملابسات في واقع المجتمع المسلم في المدينة تدعوا إلى توكيد هذا الأمر وتقويته، وجلاء الأسباب والعوامل التي تحتميه، وإزالة الشبهات والمعوقات التي تحيك في بعض النفوس تجاهه، وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضي مواجهة الروم في أطراف الشام.. والروم كانوا مرهوبين من العرب قبل الإسلام، وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة ولهم أعوان من القبائل العربية، وسلطنة خاضعة لنفوذهم هي سلطنة الغساسنة.

وحقيقة أن هذه لم تكن أول ملحمة يخوضها المسلمون مع الروم بعد أن أعز الله أولئك العرب بالإسلام وجعل لهم أمة تواجه الروم والفرس بعد أن كانوا قبائل لا تجرؤ ولا تفكر في الالتحام بالروم والفرس بعد أن كانوا قبائل لا تجرؤ ولا تفكر في الالتحام بالروم والفرس، وكل ا عرف عنها من شجاعة إنما يتبدى في قتال بعضها لبعض، وفي الغارات والثأرات والنهب والسلب، ولكن مهابة الروم كانت لا تزال باقية في أعماق النفوس - وبخاصة تلك التي لم يتم انطباعها بالطابع الإسلامي الأصيل - وكانت آخر ملحمة كبيرة بين السسلمين والروم - وهي غزوة مؤتة - ليست في صالح المسلمين، وقد احتشد فيها من الروم وعملائهم من نصارى العرب ما روى أنه مائتا ألف.

كل هذه الملابسات - سواء ما يتعلق منها بتركيب المجتمع المسلم فى هذه الفترة، أو ما يختص برواسب المهابة للروم والتخوف من الالتحام معهم، مضافا إليها ظروف الغزوة ذاتها وقد سميت غزوة العسرة لما سنبينه من الظروف التى أحاطت بها - وفوق ذلك كله شبهة أن الروم وعمالهم من نصارى العرب هم أهل الكتاب.. كل هذه الملابسات دعت إلى زيادة الايضاحات والبيانات القوية لتقرير حتمية هذا الأمر، وإزالة الشبهات والمعوقات النفسية وجلاء الأسباب والعوامل لتلك الحتمية.

وفى الآية الأولى يبين السياق القرآنى ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء، وأنها تضاهى عقيدة المشركين من العرب، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم، وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التى جاءتهم بها كتبهم، فلا عبرة إذن بأنهم أهل كتاب، وهم يخالفون فى الاعتقاد الأصل الذى تقوم عليه العقيدة الصحيحة فى كتبهم.

على أن من الممكن أن يقال فى المنابة: إن الآية السابقة لهذه الآيات أفادت أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالله على الوجه الحق الذى جاءت به رسله من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته، ولا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الصحيح من أن الناس يبعثون بشرا كما كانوا فى الدنيا أجسادا وأرواحا وأنهم يجزون بإيمانهم وأعمالهم، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله إلى كل منهم إيمانا وإذعانا وعملا، ولا يدينون دين الحق وإنما يتبعون تقاليد وجدوا عليها آباءهم وأحبارهم ورهبانهم.

فلما بين تعالى هذا فى سياق قتالهم وما ينتهى به إذا لم يؤمنوا بما جاء رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - وهو أداء الجزية بشرطها - عطف عليه ما يبين مبهمه ويفصل مجمله.

(وقالت اليهود عزيز بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون).

نبدأ بلفتة عن ذكر اليهود مع أن المقام لا يقتضيه، ثم بذكر شىء من تاريخ عزير هذا ومكانته عند القوم، ثم ببيان من سموه ابن الله من اليهود، ونقفى على ذلك بذكر قول النصارى المسيح ابن الله، وتفنيده، ثم من قال بمثل هذا القول من الوثنيين القدماء.

قول اليهود عزير ابن الله

والذى يلفت النظر هو ذكر اليهود هنا وقولهم: عزيز بن الله فى حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب.. وذلك - على ما نرجح - يرجع إلى أمرين:

الأول: أنه لما كان نص الآيات عاما والأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون عما فقد اقتضى السياق بيان الأصل الإعتقادى الذى يستند إليه هذا الأمر العام فى شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء.

الثانى: إن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام بعد ما اشتبكوا مع الإسلام

والمسلمين في حرب مريرة منذ مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، انتهى بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير، وأفراد من بنى قريظة إلى أطراف الشام، فكان اليهود يومئذ في طريق الإنطلاق الإسلامى إلى أطراف الشام، مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر، وأن يشملهم ذلك البيان، وقول النصارى (المسيح بن الله) معلوم مشهور، وما تزال عليه عقائدهم حتى اللحظة، منذ أن حرفها بولس، ثم تم تحريفها على أيدى المجامع المقدسة ـ كما سنبين ـ فأما قول اليهود (عزير بن الله) فليس شائعا ولا معروفا اليوم، والذى فى كتب اليهود المدونة الباقية سفر باسم (عزرا) ـ وهو عزير [١] نعت فيه بأنه كاتب ماهر فى توراة موسى وأنه وجه قلبه لإلتماس شريعة الرب.. ولكن حكاية هذا القول عن اليهود فى القرآن دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل ـ وخاصة يهود المدينة ـ زعموا هذا الزعم، وراج بينهم، وقد كان القرآن يواجه اليهود والنصارى مواجهة واقعية، ولو كان فيما يحكيه من أقوالهم مالا وجود له بينهم لكان هذا حجة لهم على تكذيب ما يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما سكتوا عن استخدام هذا على أوسع نطاق.

وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار [٢] خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها كذلك تعليقا مفيدا ننقل منه هنا فقرات تفيدنا فى بيان حقيقة ما عليه اليهود اجمالا. قال:

(جاء فى دائرة المعارف اليهودية الانجليزية «طبعة ١٩٠٣» ان عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية التى تفتحت فيه أزهاره وعبق هذا ورده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة «وفى الأصل عربة أو مركبة الشريعة» [٣] لو لم يكن جاء بها موسى «التلمود ٢ ب» فد كانت نسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحياها، ولولا خطايا بنى إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات «المعجزات» كما رواها فى عهد موسى.. أ.هـ.

وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الآشورية ـ وكان يضع علامة على الكلمات التى يشك فيها وأن مبدأ التاريخ اليهودى يرجع إلى عهده وقال الدكتور جورج بوست فى قاموس الكتاب المقدس: عزرا «عون» كاهن يهودى وكاتب شهير سكن بابل مدة ملك «ارتحشتا» الطويل الباع وفى السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عددا وافرا من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق.م «عزرا ص٧» وكانت مدة السفر أربعة أشهر.

ثم قال : وفى تقليد اليهود يشغل عزرا موضعا مهما يقابل بموضع موسى وايليا ويقولون إنه أسس المجمع الكبير وانه جمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة وانه ألف أسفار «الأيام» و«عزرا» و«نحيما».

(ثم قال: ولغة سفر «عزرا» من ص ٤ : ٨ ـ ٦ : ١٩ كلدانية وكذلك ص ٧ : ١ ـ ٢٧ وكان الشعب بعد رجوعهم من السبى يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية أ.هـ.

(وزقول: إن المشهور عند مؤرخى الأمم، حتى أهل الكتاب منهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى تابوت العهد أو بجانبه «ت ث ٣١: ٢٥، ٢٦» فقد فقدت قبل عهد

سليمان عليه السلام، فإنه لما فتح التابوت فى عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر [٤] كما تراه فى فسر الملوك الأول، وأن «عزرا» هذا هو الذى كتب التوراة وغيرها بعد السبى بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التى نسى اليهود معظمها، ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحى أو بإلهام من الله.

وهذا ما لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة فى مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن، حتى من تأليفهم، كذخيرة الألباب للكاثوليك ـ وأصله فرنسى ـ وقد عقد الفصلين الحادى عشر والثانى عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى ومنها قوله : «٧ ـ جاء فى سفر عزرا «٤ف ١٤عد ٢١» أن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار فى عهد نبوخذ نصر حيث قال «إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأى امرئ أن يعرف ما صنعت» [٥] أ.هـ ويزول على ذلك أن عزرا أعاد بوحى الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التى أبادتها النار، وعضده فيها كتبه خمسة معاصرون ولذلك ترى «ثرتوليانوس» والقديس «ايرغاوس» والقديس «ابرونيموس» والقديس «يوحنا الذهبى» والقديس «باسيليوس» وغيرهم يدعون عزرا: مريم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود : أ.هـ إلى أن قال «نكتفى بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان: «أحدهما أن جميع أهل الكتاب مدنيون لعزير هذا فى مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم، و«ثانيهما أن هذا المستند واهى البنيان متداعى الأركان، وهذا هو الذى حققه علماء أوروبا الأحرار [٦]

فقد جاء فى ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعدما ذكر ما فى سفره وسفر نحميا من كتابته للشريعة (انه جاء فى روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد اليهم الشريعة التى أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التى كانت أتلفت، وأعاد سبعين سفرا غير قانونية «أبو كريف» ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا فى شىء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواه اختلاقا.. «انظر ص ١٤ جـ ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩».

(وجملة القول أن اليهود كانوا وما يزالون يقدسون عزيزا هذا حتى أن بعضهم أطلق عليه لقب «ابن الله»، ولا ندرى أكان اطلاقه عليه بمعنى التكريم الذى أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى الذى سيأتى قريبا عن فيلسوفهم «فيلو» وهو قريب من فلسفة وثنى الهند اليت هى أصل عقيدة النصارى [٧] وقد اتفق المفسرون على أن اسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم.

وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم» [٨] .. الآية .. والذين قال فيهم (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) [٩] ردا على قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) [١٠] ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا.

(روى ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردوديه عن ابن عباس رضى الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيز ابن الله؟.. إلخ.

(ومن المعلوم أن بعض النصارى الذن قالوا: إن المسيح ابن الله، كانوا من اليهود وقد كان «فيلو» الفيلسوف اليهودى الاسكندرى المعاصر للمسيح يقول إن الله ابنا هو كلمته التى خلق بها الأشياء فعلى هذا لا يعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا: إن عزيز ابن الله، بهذا المعنى)

ومن هذا البيان يتضح ما وراء حكاية القرآن لقول اليهود هذا - فى هذه المناسبة التى يتوخاها السياق - فهى تقرير حقيقة ما عليه فريق من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد، الذى لا يتفق معه أن يكونوا مؤمنين بالله، أو أن يكونوا يدينون دين الحق.

وهذه هى الصفة الأساسية التى قام عليها حكم القتال.. وان يكمن القصد من القتال ليس هو اكراههم على الإسلام، وإنما هو كسر شوكتهم التى يقفون بها فى وجه الإسلام، واستسلامهم لسلطانه، ليتحرر الأفراد - فى ظل هذا الاستسلام من التأثر بالضغوط التى تقيد إرادتهم فى اختيار دين الحق من غير إكراه من هنا أو من هناك.

إسرائيليات حول عزير

ذكر السيوطى فى الدار المنثور روايات أخرى إسرائيلية خرافية فى هذا المعنى، منها ما رواه ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس، وملخصه أن الله سلط يختصر على بنى إسرائيل فحرق التوراة وخرب بيت المقدس، وعزيز يومئذ غلام، فلحق بالجبال يتعبد فيها، وأن الدنيا تتمثلت له فى صورة امرأة، فاخبرته بأنه سينبع فى مصلاة عين ماء وتنبت فيه شجرة، فإذا شرب من العين وأكل من الثمرة جاءه ملكان..إلى أن قال: فجاء الملكان ومعهما قارورة فيها نور، فأوجراه ما فيها فألهمه الله التوراة!! وروى ابن أبى حاتم والطبرى وابن كثير عن السدى هذه الخرافة بأطول مما روى ابن عباس.. وهاك رواية الطبرى عن السدى: «وقالت اليهود عزيز ابن الله إنما قالت ذلك لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم، وأخذوا التوراة وذهب علماؤهم الذين بقوا وقد دفنوا كتب التوراة فى الجبال.. وكان عزير غلاما يتعبد فى رؤوس الجبال لا ينزل إلا يوم عيد فجعل الغلام يبكى ويقول: رب تركت بنى إسرائيل بغير عالم! فلم يزل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرة إلى العيد، فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلت له عند قبر من تلك القبور تبكى وتقول: يا مطعماه ويا كسياه! فقال لها: ويحك، من كان يطعمك أو يكسوك، أو يسقيك أو ينفعك قبل هذا الرجل؟ قالت: الله، قال: فإن الله حى لم يمت! قالت: يا عزيز، فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله، قالت: فلم تبكى عليهم؟ فلما عرف أنه قد خصم [١١] ولى مدبرا، فدعته فقالت: يا عزير، إذا أصبحت غدا فائت نهر كذا وكذا فأغتسل فيه، ثم أخرج فصل ركعتين، فانه يأتيك شيخ، فما أعطاك فخذه، فلما أصبح انطلق عزير إلى ذلك النهر فأغتسل فيه ثم خرج

فصلى ركعتين، فجاء الشيخ فقالك افتح فمك! ففتح فمه، فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة، مجتعا كهيئة القوارير، ثلاث مرات، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة، فقالوا: يا عزيز ما كنت كذاب، فعمد فربط على كل أصبع له قلما، وكتب بأصابها كلها، فكتب التوراة كلها، فلما رجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرج أولئك العلماء كتبهم التى كانوا دفنوها من التوراة فى الجبال، وكانت فى خوابى مدفونة [١٢] فمارضوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها، فقالوآك ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه!

ومن الإسرائيليات كذلك ما رواه ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عزيزا كان فى أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم، فلما رأى الله تعالى انهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضا فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشى كبده، حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزيز.. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم وكان عزيز قبل من علمائهم، فدعا عزيز الله وابتهل إليه أن يرد إليه الذى نسخ من صدره من التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله، نزل نور من الله فدخل جوفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن فى قومه فقال: يا قوم، قد أتانى الله التوراة وردها إلى فعلق [١٣] بهم يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذين كان عزيز يعلمهم فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتى عزيز هذا إلا أنه ابن الله!!

وما حكاه ابن عباس من سبب قولهم، فما هو إلا رواية عن بعضهم كذبوا فيه عليه أو على من حدثه به.. والظاهر أنه مما سمعه من كعب الأحبار، إذ روى عنه كثيرا من الإسرائيليات .. فقد أخرج أبو الشيخ عن كعب أنه قال: دعا عزيز ربه عز وجل أن يلقى التوراة كما أنلل على موسى عليه السلام فى قلبه، فأنزلها الله تعالى عليه، فبعد ذلك قالوا عزيز بن الله.

وما ذكرنا هذا - وأطلنا فيها - إلا لنبين لطالبى العلم أنه من شر الخرافات الإسرائيلية التى كان يغش المسلمين بها كعب الأحبار [١٤] وأمثاله مما ليس فى كتب اليهود، وقد راجت على أقلام أكثر المفسرين لعدم اطلاعهم على كتب العهد العتيق ولاسيما سفر الأيام الثانى، وسفرى عزرا ونحميا، ولا على غيرها من كتبهم، ولا على تاريخ يوسيفوس اليهودى وغيره من التواريخ دع كتب أحرار الأفرنج ومؤرخيهم ما لم يكن فى زمنهم.

هذا الذى قررته المجامع الرسمية بتأثير الفلسفة الرومية، ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون، ويخالفه خلق كثير منهم أعظمهم شأنا الموحدون والعقليون والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم.

وسنكتفى بنقل ملخص جيد عن عقائد النصارى من دائرة المعارف العربية للبستانى جاء فيه بعنوان: «ثالوث» Trinite -y

(كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معا فى اللاهوت بالآب والابن والروح القدس، وهذا التعليم من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت إلا ما ندر. والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون إلى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس، وقد أضاف اللاهوتيون إليه شروحا وايضاحات اتخذوها من تعاليم المجامع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام، وهى تبحث عن طريقة ولادة الأقنوم الثانى وانبثاق الأقنوم الثالث، وما بين الأقانيم الثلاثة من النسبة وصفاتهم المميزة والقابهم.

ومع أن لفظة ثالوث لا توجد فى الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث، قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية فى اللاهوت، ولكن إذا كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لا يؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث بل كرموز إلى الوحى الواضح الصريح الذى يعتقدون انه مذكور فى العهد الجديد، وقد اقتبس منه مجموعات كبيرة من الآيات كحجج لإثبات هذا التعليم «أحدهما» الآيات التى ذكر فيها الأب والابن والروح القدس معا «والآخر» التى ذكر فيها كل منهم على حدة، والتى تحتوى على نوع آخص صفاتهم ونسبة أحدهم إلى الآخر.

(والجدال عن الأقانيم فى اللاهوت ابتدأ فى العصر الرسولى، وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين، فإن ثيوفيلوس أسقف انطاكية فى القرن الثانى استعمل كلمة «ثرياس» باليونانية، ثم كان ترتليانوس» أول من استعمل كلمة «ترينيناس» المرادفة لها ومعناها الثالوث، وفى الأيام السابقة للمجمع النيقاوى حصل جدال مستمر فى هذا التعليم وعلى الخصوص فى الشرق، وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها «أراتيكية»[١٥] ومن جملتها آراء «الابيونيين» الذين كانوا يعتقدون أن المسيح إنسان محض و«السابيليين» الذين كانوا يعتقدون أن الآب والابن والروح القدس إنما هى صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس «والآريوسيين» الذين كانوا يعتقدون «أن الابن ليس أليا كالآب بل هو مخلوق منه قبل العالم ولذلك هو دون الأب وخاضع له ، «والمكدونيين» الذين أنكروا كون الروح القدس اقنوما.

(وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوى سنة ٣٢٥ للميلاد، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، وقد حكما بأن الابن والروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت، وان الابن قد ولد منذ الأزل من الآب وأن الروح القدس منبثق من الأب، ومجمع طليطله المعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن الروح القدس منبثق من الابن أيضا، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها، وأما الكنيسة اليونانية فمع انها كانت فى أول الأمر ساكنة لا تقاوم قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حساسية ذلك بدقة.

وعبارة «ومن الابن أيضا» لا تزال من جملة المواضع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليوانية والكاثوليكية، وكتب اللوثريين والكنائس المصلحة أبقت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثاث عشر جهود كبيرة من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين، والموحدين، والعموميين وغيرهم حاسبين ذلك مضادا للكتاب المقدس والعقل، وقد أطلق «سويد نبرغ» الثالوث على

أقنوم المسيح معلما بثالوث ولكن لا ثالوث الأقانيم بل ثالوث الأقنوم، وكان يفهم بذلك أن ما هو إلهى فى طبيعة المسيح هو الآب وأن الالهى الذى اتحد بنا ؟؟ المسيح هوالابن، وأن الالهى الذى انبثق منه هو الروح القدس، وانتشار مذهب العقليين فى الكنائس اللوثرية، والمصلحة أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين.

(وقد ذهب «كنت» إلى أن الآب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاث صفات أساسية فى اللاهوت، وهى القدرة والحكمة والمحبة أو على ثلاثة فواعل عليا وهى الخلق والحفظ والضبط، وقد حاول كل من «هجين» و«شلنغ» أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسا تخيليا، وقد اقتدى بهما اللاهوتيون والجرمانيون المتأخرون، وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تحيلية ولاهوتية، وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحى لا يتمسكون بتعليم استقامة الراى الكنائيسية بالتدقيق كما هى مقررة فى مجمعى نيقية والقسطنطينة المسكونيين، وقد قام محامون كثيرون فى الأيام المتأخرة لعضد آراء السابيليين على الخصوص»أ هـ

ومن هذا العرض المجمل المفيد، يتبين أن جميع الطوائف والمذاهب المسيحية الكنسية لا تدين دين الحق، الذى يقوم على توحيد الله سبحانه وعلى أنه ليس كمثله شىء، وأنه لا ينبث منه سبحانه أحد!! وكثيرا ما ذكر«الاريوسيون» على أنهم «موحدون» واطلاق اللفظ هكذا ضلل، فالاريوسيون لا يوحدون التوحيد المفهوم من ين الله الحق، إنما هم يخلطون!! فبينما هم يقررون أن المسيح ليس أليا كالله - وهذا حق - يقررون فى الوقت نفسه أنه «الابن»! وأنه ملخوق من «الآب» قبل خلق العالم! وهذا لا يعتبر من «التوحيد» الحقيقى فى شىء!

ولقد صدر حكم الله بالكفر الصريح على من يقولون: المسيح بن الله، وعلى من يقولون المسيح هو الله، وعلى من يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ولا تجتمع صفة الكفر وصفة الإيمان فى عقيدة ولا فى قلب، إنما هما أمران مختلفان!

الرد عليهم:

وشبهتهم فى هذا هى أن المسيح ولد من رحم امرأة دون أن تتصل برجل، وجهلوا أن هذا الميلاد وان كان عجيبا خارجا على مألوف الحياة وغير مضطرد مع السنن المألوفة لنا فإنه ليس خارجا عن قدرة الله التى لا يعجزها شىء ولا يقيدها قيد من عادة أو مألوف بل هى قادرة قدرة مطلقة بلا حدود ولا قيود.

ثم ان لقب «ابن الله» أطلق فى كتب اليهود والنصارى على آدم ويعقوب وافرايم وداود وسليمان والملائكة والمؤمنين الصالحين، وهذا الاستعمال مجازى قطعا، لا يحتمل المعنى الحقيقى بأى حال من الأحوال، ولكن النصارى، قد خرجوا من قوانين العقل واللغات بجعل اطلاق لفظ «ابن الله» على المسيح وحده حقيقيا وعلى غيره مجازيا، فالنصارى قد حكموا فى تفسير «ابن الله» و«الكلمة» و«روح القدس» واسم الجلالة «الله» بما ينافى العقل ونصوص العهد القديم والعهد الجديد، فجعلوها متعارضة متناقضة، كل ذلك لادخال عقيدة قدماء الوثنيين على دين أنبياء بنى إسرائيل المبنى على أساس التوحيد المطلق [١٦]

وقد حدثت فى هذا العهد مذاهب جديدة فى النصرانية فى أوروبا وأمريكا قرب ببعضها كثيرون من اصلاح الإسلام لها، سيفنى هذا إلى رجوع المواد الأعظم إليه بعد تنظيم الدعاية الصحيحة له وتعميمها.

مضاهاة اللاحقين للسابقين فى الكفر

والتعقيب القرآنى على قول اليهود «عزيز بن الله» وقول النصارى «المسيح بن الله» يثبت أنهم فى هذا يماثلون قول الذين كفروا من قبل ومعتقداتهم وتصوراتهم (ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل).

ولقائل أن يقول: إن كل قول إنما يقال بالفم، فما معنى تخصيصه لهذا القول بهذه الصفة؟ والجواب: ان هذه الزيادة ليست لغوا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وليست أطنابا زائدا. إنما هو:

أولا: لاثبات أن هذا القول صادر منهم وليس منقولا عنهم، ومن ثم يذكر «أفواههم» لاستحضار الصورة الحسية الواقعية - على طريقة القرآن فى التصوير - إذ انه مفهوم ان قولهم يكون بأفواههم، إنما هى طريقة التعبير القرآنية التصويرية، فهى التى تستحضر «صورة» القول، وتحيليها واقعيا كأنها مسموعة مرئية!

ثانيا: وذلك فضلا على ما يؤديه من معنى بيانى - إلى جانب استحياء الصورة واثباتها - وهو ان هذا القول لا يعضده برهان ولا حقيقة له فى عالم الواقع، إنما هو مجرد قول بالأفواه فارغ من غير معنى معتبر، ليس وراءه موضوع ولا حقيقة! والحاصل أنهم قالوا باللسان قولا، ولكن لم يحصل عند العقل من ذلك القول أثر، لأن إثبات الولد للإله مع أنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل ليس عند العقل منه أثر ونظيره (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) [١٧]

ثالثا: فإن الإنسان قد يختار مذهبا أما على سبيل الكفاية وأما على سبيل الرمز والتعريض، فإذا صرح به وذكره بلسانه فذلك هو الغاية من اختياره لذلك المذهب، والنهاية فى كونه ذاهبا إليه قائلا به، والمراد ها هنا أنهم يصرحون بهذا المذهب ولا يخفونه البتة.

رابعا: ان المراد أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتى وقعت فى الأفواه والألسنة، والمراد منه مبالغتهم فى دعوة الخلق إلى مذهبهم.

(يضاهئون قول الذين كفروا من قبل)[١٨] أى أنهم فيما يقولون من نسبة الولد إلى الله لم يكونوا إلا مقلدين ومحاكين لمن قال هذا القول من الذين كفروا من قبلهم، والذين كفروا من قبل من همه؟ فيهم أقوال:

١- ان المراد أن هذا هذا القول من اليهود والنصارى يضاهى قول المشركين من العرب «الملائكة بنات الله».

٢- ان الضمير فى «يضاهئون» للنصارى أى قولهم «المسيح بن الله» يضاهئ قول اليهود «عزيز بن الله» لأنهم أقدم منهم.

٣. ان هذا القول من النصارى يضاهى قول قدمائهم، يعنى أنه كفر قديم فهو غير مستحدث.

٤. ان المراد أن اليهود والنصارى جميعا يضاهئون سلفهم الذين قالوا هذا القول قبلهم وهذا مبنى على أن الكلام فى اليهود والنصارى الذين كانوا فى عصر نزول القرآن، إذ لم يصل إلينا أن أحدا من سلف أولئك اليهود فى بلاد العرب أو غيرها قالوا : «عزيز بن الله» وإن كان غير بعيد فى نفسه، ولو كانت الآية نصا فيه لجزمنا به لأن عدم وصول نقل إلينا فيه لا يقتضى عدم وقوعه.. والراجع المختار أن المراد بكل من اليهود والنصارى فى الآية الجنس وهو يصدق بوقوع ذلك من بعضهم فى أى عصر كان والمختار فى مضاهئتهم للذين كفروا من قبلهم يصدق فى كل من وقع ذلك منه، لاسيما الوثنيين القدامى.

وقول المفسرين عن هذه الآية: إن المقصود بها هم قولتهم بنبوة أحد لله تماثل قول المشركين العرب بنبوة الملائكة لله.. قولهم هذا صحيح، ولكن دلالة هذا النص القرآنى أبعد مدى، فكيف كان ذلك؟ لابد من كلمة موجزة عن الوثنية ومهانتها وشقاء الإنسانية بها، وكيف سادت الحضارات القديمة، وزحفت على الأديان الصحيحة؟ وهنا ندرك كيف امتد النص إلى هذا الغور البعيد، وكيف كان أبعد مدى مما قاله المفسرون.

الوثنية تسود الحضارات القديمة

إن الوثنية الوضعية اغتالت البشرية وفرضت عليها سقوطها هذه السقطة الزرية، فأمسى الإنسان الذى استخلفه الله ليكون ملكا فى السموات والأرض أمسى عبدا مسخرا لأدنى شىء فى السموات والأرض.. وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار، وتعبد الأخشاب والأحجار وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة؟؟

ان الوثنية هو أن يأتى من داخل النفس لا من خارج الحياة.. فكما يفرض المحزون كآبه على ما حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحا جاثمة، كذلك يفرض المرء المسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى يحيا فيها، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء.. ويوم ينفسح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة، فإن هذه الانعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها.. ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه، فلو ذبحت العجول المقدسة، ونكست الأصنام المرموقة وبقيت النفس على ظلامها القديم، ما أجدى ذلك شيئا فى حرب الوثنية! سيبحث العباد المفجوعون عن آلة أخرى غير ما فقدوا، يوفضون إليها من جديد: وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفوا حول نصب! وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق وربه الأعلى، والجرى وراءهم بعيدا!!

والخرافة لاتأخذ مجراها فى الحياة وهى تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها، كلا.. أنا تدارى مجونها بثوب الجد وتستعير من الحق لبوسه المقبول، وقد نأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين وكذلك فعلت الوثنية!

لقد أغارت الوثنية على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة، لا كما يغير النحل على أزهار

الربيع بل كما تغير الديدان واسراب الجراد على الحدائق الغناء، فتحليها قاعا بلقعا وهى أذ أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت ولئن كان ما أخذته خيرا قبل أن تتصل به لقد أصبح شرا بعد أن تحول فى جوفها إلى سموم..

وهذا هو السر فى أن الوثنية التى لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبتغى مرضاته.. جزء من الحق فى اجزاء من الباطل، فى سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ويبعدهم عن ساحته!

وأعظم نكبة اصابت الأديان اثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروع رد نهارها ليلا، وسلامها ويلا، وجعل الوحدة شركة وانتكس بالإنسان فعلق همته بالقرابين وفكرة بالالغاز المعماه.

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى فى اقحامها اقحاما على النصرانية الجديدة.. وبذلك انتصرت الوثنية مرتين:

الأولى فى تدعيم نفسها والأخرى فى تضليل غيرها.

على النصرانية الجديدة.. وبذلك انتصرت الوثنية مرتين:

الأولى فى تدعيم نفسها والأخرى فى تضليل غيرها.

ان المجوسية فى فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشى فى الهند والصين وبلاد العرب وسائر المجاهلى.. والنصرانية التى تناوئ هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدامى، فهى تجعل لله صاحبة وولدا، وتغرى أتباعها فى رومة ومصر والقسطنطينية بلون من الاشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان.. شرك مشوب بتوحيد مقتبس من شرك محض.. ولكن ما قيمة هذه النقائض التى جمعت النصرانية بين سكانها.. ومن ثم ندرك أن النص القرآنى: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» أبعد مدى مما ذكره المفسرون. وتلك ناحية أخرى من الاعجاز القرآنى الدال على مصدره الربانى. ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديث بعد دراسة عقائد الوثنيين فى الهند ومصر القديمة والإغريق مما اتضح معه أصل العقائد المحرفة عند أهل الكتاب. وبخاصة النصارى. وتسربها من هذه الوقنيات إلى تعاليم «بولس الرسول» أولا، ثم إلى تعاليم المجامع المقدسة أخيرا.

إن الثالوث المصرى المؤلف من أوزوريس وايزيس وحوريس هو قاعدة الوثنية الفرعونية، وأوزوريس يمثل «الآب» وحوريس يمثل «الابن» فى هذا الثالوث.. وفى علم اللاهوت الاسكندرى الذى كان يدرس قبل المسيح بسنوات كثيرة «الكلمة هى الإله الثانى» ويدعى أيضا «ابن الله البكر» .. والهنود كانوا يقولون بثلاثة أقانيم أو ثلاث حالات يتجلى فيها الإله «برهما» فى حالة الخلق والتكوين و«فشنو» فى حالة الحفظ والقوامة «شيفا» فى حالة الاهلاك والإبادة .. وفى هذه العقيدة أن «فشنوا» هو الإبن المنبثق والمتحول من اللاهوتية فى «برهما»!

وكان الآشوريون يؤمنون بالكلمة ويسمونها «مردوخ» ويعتقدون أن «مردوخ» هذا هو ابن الله البكر!

وكان الإغريق يقولون بالإله المثلث الأقانيم، وإذا شرع كهنتهم فى تقديم الذبائح يرشون

المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات.. اشارة إلى التثليث!

وهذه الشعائر هى التى أخذتها الكنيسة بما وراءها من العقائد الوثنية وضمنها للنصرانية تضاهى بها قول الذين كفروا من قبل!

ومراجعة عقائد الوثنيين القدامى - التى لم تكن معروفة وقت نزول القرآن - مع هذا النص القرآنى (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» - كما أنها تثبت أن أهل الكتاب لا يدينون دين الحق، ولا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح، تبين كذلك جانبا من جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم بالدلالة على صدره وأنه من لدن عليم خبير.

وبعد هذا التقرير والبيان تختتم الآية المبينة لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من الكفر والشرك بالدعاء عليهم بالتعجب من حالهم.

(قاتلهم الله)[١٩] أى هم أحقاء بأن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم (أنى يؤفكون» كيف يصرفون عن الحق الواضح البسيط إلى هذه الوثنية المعقدة الغامضة التى لا تستقم لدى عقل أو ضمير؟ وكيف يصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عز وجل، وهو الذى تجزم به العقول والذى بلغه عن الله تعالى كل رسول.

فهو جمع بين العقول والمنقول، ويقولون هذا القول الذى لا يقبله عقل، ولا يصح به عن أنبياء الله ورسله نقل؟

فأين عزير والمسيح من رب العالمين؟ الخالق لهذا الكون العظيم الذى وصل من عجائب سعته إلى علم البشر القليل.. ان بعض شموسه لا يصل نورها إلى الأرض إلا بعد قطع الملايين من السنين النورية، فهل يليق بعاقل من هذه الدواب التى تعيش على هذه الذرة الصغيرة من الوجود - وهى الأرض - أن يجعل لخالق الكون كله ومدبر أمره ولدا وعائلة من جنسه، وأن يرتقى به الغرور إلى أن يجعل واحدا منهم هو الخالق له والمدبر لأمره، مع العلم بأن ولد من امرأة وكان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم.. إلخ، (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا بضمته يوم القيامة والسموات مطويات بيمنه سبحانه وتعالى عما يشركون)[٢٠] (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إنى إله من دون فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين)[٢١]

ما يستفاد من الآية:

١- يستفاد من قوله تعالى: (وقالت اليهود عزير بن الله) مع ملاحظة أن الذى قاله بعضهم لا كلهم - تقرير أن الأمة تعدد متكافلة فى شئونها العامة، وأن ما يفعله بعض الجماعات منها يكون له تأثير فى جملتها، وأن المنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم.. وان من سنن الإجتماع البشرى أن المصائب، والرزايا التى تحل بالأمم بفشو المفاسد والرذائل فيها لا تختص الذين تلبسوا بتلك المفاسد وحدهم، كما أن الأوبئة التى

تحدث بكثرة الأقذار في الأمة، وغير ذلك من الإسراف في الشهوات تكون عامة أيضا.. (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة).

٢ـ قال بن العربي: في هذا ـ قول اليهود عزير بن الله وقول النصارى المسيح بن الله ـ دليل من قول ربنا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذين لا يجوز لأحد أن يبتدئ به، لا حرج فيه، لأنه إنما ينطق به على معنى الإستعظام له والرد على ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد. فإذا أمكن من اطلاق الألسن به فقد أذن بالأخبار عنه، على معنى انكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان.

٣ـ ان النص (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أبعد مدى مما ذكره المفسرون مما يدل على الإعجاز القرآني الدال على مصدره الرباني.

٤ـ النهي عن المضاهاة، والمحاكاة بدون تعقل، وامعان نظر (لاتكونوا معه)

اتخاذ اليهود والنصارى رجال الدين أربابا

ثم ينتقل السياق القرآني إلى صفحة أخرى من صفحات الانحراف الذي عليه أهل الكتاب. تتمثل في هذه المرة لا في القول والإعتقاد وحدهما، ولكن كذلك في الواقع القائم على الإعتقاد الفاسد.. (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إله واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون).

يجوز أن تكون هذه الآية استئنافا مبينا الإجمال في قوله تعالى: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) فإن أهل الكتاب لو أطلقوا لقب بن الله على عزير والمسيح اطلاقا مجازيا كما أطلق في كتبهم، ولم يضاهئوا به من قبلهم من الوثنيين، لما كانوا به كفارا، وإنما كانوا كفارا بهذه الوثنية التي أشير إليها بهذه المضاهئة.

والأصح أن هذه الآية استمرار في وجهة السياق في هذا المقطع من السورة من إزالة الشبهة في أن هؤلاء أهل كتاب.. فهم اذن على دين الله.. فهي تقرر أنهم لم يعودوا على دين الله، بشهادة واقعهم ـ بعد شهادة اعتقادهم ـ وأنهم أمروا بأن يعبدوا الله وحده فاتخذوا رؤساء الدين فيهم أربابا من دون الله، فاليهود اتخذوا أحبارهم ـ وهم علماء الدين فيهم ـ أربابا بما أعطوه من حق التشريع وأطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم ـ وهم عبادهم الذين يخضع العوام لهم ـ أربابا بعطائهم حق التشريع الديني لهم كذلك ما هو حق الرب، فهم بهذا في اتخاذ رجال دينهم أربابا مشتركون.. وينفرد النصارى ـ دون اليهود ـ بإتخاذهم المسيح بن مريم ربا والاها يعبدونه [٢٢] وان هذا من كلا الفريقين شرك بالله، تعالى الله عن شركهم.. فهم اذن ليسوا مؤمنين بالله اعتقادا وتصورا، كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعا وعملا.

«الأحبار والرهبان»

الأحبار جمع حبر ـ بفتح الحاء وكسرها ـ وهو العالم من أهل الكتاب [٢٣] وكثر اطلاقه على علماء اليهود، والرهبان: جمع راهب، وهو عند النصارى المتبتلي المنقطع للعبادة في صومعته، وهو عادة لا يتزوج ولا يزاول الكسب ولا يتكلف للمعاش [٢٤].

والرهبان عند النصارى زدنى طبقات رجال الدين، فأتخاذهم أربابا يستلزم اتخاذ من فوقهمه من الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى، فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدونا كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون، سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم.

وإلا ظهر أن المراد من الأحبار والرهبان جملة رجال الدين فى الفريقين .. أى من العلماء والعباد.. فذكر من كل فريق ما حذف مقابلة من الآخر على طريق الاحتباك أى اتخذ اليهود أحبارهم وربانيهم والنصارى قسا وستهم ورهبانهم أربابا.

والنصارى يعبدون المسيح، ومنهم من يعبدون أمة عبادة حقيقية ويصرحون بذلك وجميع الكاثوليوك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القسيسن فى عرفهم: يتوسلون بهم ويتخذون لهم الصور والتماثيل فى كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة فى الغالب والظاهر أن من كان قد تنصر من مشركى العرب لم يكونوا يعبدون هؤلاء الرؤساء والكبراء فى الملة إلا قليلا.

«كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا؟»

وهل كان ذلك بالعبادة؟

أما اليهود فقد اتخذوا أحبارهم أربابا بمعنى أنهم لم يقتصروا فى دينهم على أحكام التوراة ولم يتلزموها بل أضافوا إليها من الشرائع اللسانية عن رؤسائهم ما كان خاصا ببعض الأحوال من قبل أن يدونوه فى المشنه والتلمود، ثم دونوه، فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم، وأما النصارى فقد اتخذوا رجال دينهم أربابا على معنى أن رؤساءهم غيروا جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية - مع اقرار المسيح لها - واستبدلوا بها شرائع بعيدة فى العقائد والعبادات والمعاملات جميعا وزادوا على ذلك انتحالهم حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا وحرمان من شاءوا من رحمة الله وملكوته، والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة فى تفسير الكتب الإلهية ووجوب طاعته فى كل ما يأمر به من العبادات أو ينهى عنه من المحرمات.

تفسير رسول الله:

وفى تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للآية فصل الخطاب.. ففى الدر المنثور: روى الترمذى «وحسنه» وبن المنذر وبن أبى حاتم وأبو الشيخ وبن مردويه والبيهقى فى سننته وغيرهم، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال:

أتيت النبى صلى الله عليه وسلم (٢٥) وهو يقرأ فى سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال: (أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه).

وفى تفسير بن كثير، وروى الإمام أحمد والترمذى وبن جرير - من طرق - عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على

أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام، وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم عدى إلى المدينة . وكان رئيسا فى قومه طئ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم . فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدى صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال فقلت: أنهم لم يعبدوهم، فقال بلى! انهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم» (٢٦) .

وقال السدى: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا).. أى الذى إذا حرم شيئا فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

نقول عن المفسرين:

ولبعض المفسرين أقول فى الآية جديرة بأن تنقل بنصها لما فيها من العبرة لأهل هذا العصر:

قال الطوفى الحنبلى (٢٧) فى تفسير هذه الآية أما المسيح فاتخذوا ربا معبودا بالحقيقة وأما الأحبار لليهود والرهبان للنصارى، فإنما اتخذوهم أربابا مجازا لأنهم أمروهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وانكار رسالته فأطاعوهم، وغير ذلك مما أطاعوهم فيه، فصاروا كالأرباب لهم بجامع الطاعة، والنصارى يزعمون أن المسيح قال لتلاميذه عند صعوده عنهم ما حللتموه فهو محلول فى السماء، وما ربطتموه فهو مربوط فى السماء.. فمن ثم إذا ذنب أحدهم ذنبا جاء بالقربان إلى التبرك أو الراهب وقال: يا أبونا أغفر لنا.. بناء على أن خلافة المسيح مستمرة فيهم، وأنهم أهل الحل والعقد فى السماء والأرض على ما نقلوه عن المسيح، وهو من ابتداعاتهم فى الدين، (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) الآية بدليل قول المسيح «يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار».

وقال الإمام الرازى: الأكثرون من المفسرون قالوا: ليسوا المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم.

وقال الربيع: قلت لأبى العالية: كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل؟

فقال: إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

ثم قال الرازى، قال شيخنا ومولانا (٢٨) خاتمة المحققين والمجتهدين رحمه الله: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، فيها بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

ثم قال: فإن قيل: انه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحبار والرهبان، فالفاسق يطيع الشيطان، فوجب الحكم بكفره، كما هو قول الخوارج.

والجواب: أن الفاسق وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لا يعظمه، لكنه يلعنه ويستخف به، أما أولئك الأتباع فكانوا يقبلون قول الأحبار والرهبان ويعظمونهمه فظهر الفرق.

قال: والقول الثانى فى تفسير هذه الربوبية، إن الجهال والحشوية إذا بالغوا فى تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الدين فقد يلقى إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون، وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيدا عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له وكان يقول لهم: أنتم عبيدى، فكان يلقى إليهم من حديث الحلول والإتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه فربما أدعى الألوهية .. كان هذا مشاهدا فى هذه الأمة، فكيف يبعد ثبوته فى الأمم السالفة؟

قال: وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا منهم أنواع الكفر فكفروا بالله، فصار ذلك جاريا مجرى أنهم اتخذوهم أربابا من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا فى حقهم الحلول والإتحاد.. وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع فى هذه الأمة [٢٩] .

٢. وقال السيد حسن صديق فى تفسيره «فتح البيان فى مقاصد القرآن»:

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والتقليد فى دين الله وايثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به هذه النصوص به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم أصلا، بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا وعدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بها، وطلبه للعمل منهم بما دل عليه وأفاده؟ فعملتم بما جاءوا به من الآراء التى تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة بل تنادى بأبلغ نداء، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك وبباينه، فأعرتموها آذانا صما وقلوبا غلفا وأفهاما مريضة وعقولا مهيضة، وأذهانا كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال.

وما أنا إلا من غزية ان غوت .. غويت وان ترشد غزية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله واياى ـ كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تعدونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى أقوال أمامكم وأمامهم وقدوتهم وقدوتكم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، دعوا كل قول عند قول محمد، فما آمن فى دينه كمخاطر.

اللهم هادى الضال مرشد التائه موضع السبيل أهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية أ.هـ.

«حقائق مستفادة من هذا النص»

ومن النص القرآنى الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فصل الخطاب، ثم مما نقلناه مطيلين من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة تتمثل فى أمور ثلاثة، نشير إليها هنا فى غاية الاختصار:

أولا: لا تشريع لغير الله:

ان العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم - مع هذا فقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك فى هذه الآية - وبالكفر فى آية تالية فى السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها.. فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر - يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين.

إن النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا، وقدموا إليه الشعائر فى العبادة، فهذه كتلك سواء فى اعتبار فاعلها مشركا بالله، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين.. إن الشرك بالله يتحقق بمجرد اعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ولو يصحبه شرك فى الاعتقاد بألوهيته ولا تقديم الشعائر التعبدية له.

ومن ثم نجد فى سورة يونس، وفى ظل الحديث عن فضل الله ورحمته المتمثلين فيما جاء للناس "من موعظة وهدى وشفاء لما فى الصدور يتعرض السياق للجاهلية وهى تزاول حياتها العملية، لا وفق ما جاء من عند الله، ولكن وفق أهواء البشر واعتدائهم على خصائص الله سبحانه ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله.. (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا. قل الله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) (٣٠).

قل : ماذا ترون فى رزق الله الذى أنزله إليكم ؟ - وكل ما جاء من عند الله فى عليائه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى - ماذا ترون فى هذا الرزق الذى أعطاه لكم لتتصرفوا فيه وفق أذنه وشرعه، فإذا أنتم - من عند أنفسكم ودون اذن من الله لكم - تحرمون منه أنواعا وتحلون منه أنواعا والتحريم والتحليل تشريع، والتشريع حاكميه، والحاكمية ربوبية، وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم (قل الله أذن لكم أم على الله تفترون؟).

انها القضية التى يتكرر ذكرها فى القرآن الكريم وتواجه بها الجاهلية بين الحين والحين..

ذلك انها القضية الكبرى التالية لشهادة أن لا إله إلا الله، بل انها هى فى حالة التطبيق الواقعى فى الحياة.

ان الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق يستتبعه حتما أن يكون الله هو الرب المعبود، وأن يكون هو الذى يحكم فى أمر الله كله.. ومنه أمر هذه الأرزاق التى أعطاها الله للبشر، وهى تشمل كل ما يرزقهم من السماء والأرض.

والجاهليون العرب كانوا يعترفون بوجود الله سبحانه وبأنه الخالق الرازق، كما يعترف اليوم ناس يسمون أنفسهم «المسلمين!» ثم كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله ـ كما يزاولون ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم «المسلمين» ـ وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين ما يعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق، وما يزاولونه فى حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل فى التشريع الذى يزاوله نفر منهم! وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك، كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم ـ وغدا وإلى آخر الزمان مهما اختلفت الأسماء واللافتات، فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان.

ولقد كان الجاهليون العرب يزعمون ـ كما يزعم اليوم ناس ممن يسمون أنفسهم «المسلمين» ـ أن هذا الذى يزاولونه من التحريم والتحليل إنما اذن لهم به الله، أو كانوا يقولون عنه شريعة الله! وقد ورد فى سورة الأنعام ادعاؤهم أن هذا الذى يحرمونه وهذا الذى يحلونه شرعه الله، وذلك فى قوله تعالى ـ وقوله هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليهم سيجزيهم بما كانوا يفترون) [٢١]

فهم كانوا يقولون: إن الله يشاء هذا، ولا يشاء هذا.. افتراء على الله.. كما أن ناسا اليوم يدعون أنفسم «مسلمين» يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون: شريعة الله!

والله يجبههم هنا بالافتراء، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟) وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب وتنتظمهم جميعا، فما ظنهم يا ترى؟ ما الذى يتصورون أن يكون فى شأنهم يوم القيامة؟!

وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية!

(ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) على هذا الرزق المادى والمعنوى فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه.

وهذه الحقائق ـ وان كان المقصود الأول بها فى السياق هو مواجهة الملابسات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم وذلك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب ـ هى كذلك حقائق مطلقة تفيدنا فى تقرير «حقيقة الدين» عامة.

ان دين الحق الذى لا يقبل الله من الناس كلهم دينا غيره هو «الإسلام» والإسلام لا يقوم

إلا باتباع الله وحده فى الشريعة - بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده - فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صح فيهم ما صح فى اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله - مهما كانت دعواهم فى الإيمان - لأن هذا الصوف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله بغير انكار منهم يبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن اكراه واقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه، وأنهم لا يقرون هذا إلا فئات على الله.

ان مصطلح «الدين» قد انحصر فى نقوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه عقيدة فى الضمير، وشعائر تعبدية تقام! وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم - ويقرر تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم - انهم لم يكونوا يؤمنون بالله وأنهم أشركوا به وانهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلها واحدا، وانهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله.

ان المعنى الأول للدين هو الدنيونة - أى الخضوع والإستسلام والإتباع وهذا يتجلى فى اتباع الشرائع، كما يتجلى فى تقديم الشعائر.. والأمر جد لا يقبل هذا التميع فى اعتبار من يتبعون شرائع غير الله - دون انكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتذات على سلطان الله - مؤمنين بالله مسلمين لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر، وهذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين فى هذه الحقبة من التاريخ وهو أفتك الأسلحة التى يحاربه بها أعداؤه، الذين يحرصون على تشبيت لافتة «الإسلام» على أوضاع وعلى أشخاص يقرر الله سبحانه فى أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق، وأنهم يتخذون أربابا من دون الله.

وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة «الإسلام» على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص، فواجب حماة هذا الدين أن ينزعوا هذه اللافتات الخادعة، وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله، وأن يشرحوا للناس الأساس الذى ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية فى الإسلام.. وهو أن تنزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدى البشر منفردين ومجتمعين .. وليس لأحد - وان كان نبيا - أن يأمر وينهى من غير أن يكون له سلطان من الله، ومن ذلك يتبين أن الخصائص الأولية للدولة الإسلامية ثلاث:

١- ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب نصيب من الحاكمية فانها لله وحده.

٢- ليس لأحد من دون الله شىء من التشريع، والمسلمون جميعا لا يستطيعون أن يشرعوا.

٣- ان الدولة الإسلامية لايؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذى جاء به النبى من ربه، ولا تستحق الحكومات طاعة الناس إلا من حيث إنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره.

ثانيا: لا ابتداع بل اتباع

إن العالم البصير بأصول الإسلام وفروعه لن يخطئه إدراك ما انضاف إلى هذا الدين من محدثات ليست منه، شابت صفاءه، ونفرت منه، وأساءت إلى حقيقته وصورته جميعا.. هذه الزيادات تبعث على التساؤل: لماذا يأتى الإنسان بجديد من عنده يضمه إلى الدين؟ ألنقص رآه فى التعاليم التى أنزل الله؟ إن كان ذلك فهو حمق كبير، كيف وقد قال الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى)[٣٢]

وأغلب الظن أن المبتدعين يدفعهم إلى ذلك الغلو فى الدين.. والغلو فى أمر ما مزلقة إلى الخروج منه، وكم من مبالغة ضاعت فيها الحقيقة وثبت بها الباطل، غالى النصارى فأشركوا وغالى غيرهم فحرموا الحلال (لا تغلوا فى دينكم غير الحق [٣٣]

(لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) [٣٤] ثم أمر الله الصالحين أن يلتزموا طريقا واحدا لا يحيدون عنها (وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) [٣٥] .

روى مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى خطبته «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» وفى الحديث: «إنما هما اثنتان: الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهدى هدى محمد، غير أنكم ستحدثون ويحدث لكم، فكل محدثة ضلالة وكل ضلالة فى النار».

ولو فتح الباب فى هذه الزيادة لاستحدث المتنطعون مقالات طويلة فى الدين .. والمبتدع فى الدين يعطى نفسه منزلة ليست له، فإن المشرع للعباد هو الله تعالى، فكيف يجىء أحد ليضم أحكاما إلى أحكام الله؟

(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) [٣٦].. ان هذه نزعة إلى الألوهية يعدو بها الإنسان قدره ويجاور حده..

والآية التى معنا ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة نبيه لكلام علمائهم ورؤسائهم، ولاشك أن التزيد على الدين ميل مع الهوى، وأن ترك الاتباع الدقيق جور عن الطريق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم إلا ساء ما يزرون). [٣٧]

ليس خطر البدعة أنها وسخ يشوب وجه الحقيقة فحسب، بل هى مرض يفقد الدين عافيته وينقص قلبه وأطرافه، قال بن مسعود: ما أحدث الناس بدعة إلا أضاعوا مثلها من السنة، وعن معاذ: إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غير، فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة.

والعجب كل العجب، والغرابة كل الغرابة فى موقفنا وموقف الأجانب، فالأجانب تقدموا واخترعوا فى شئون دنياهم، أما نحن فبدل أن نجمد على شئون الدين ونخترع فى شئون الدنيا قلبنا الآية فاخترعنا فى شئون الدين ما لا معنى له، وجمدنا فى شئون الدنيا، فطار الناس بين الأرض والسماء، ومازلنا ندب على الثرى.. ماذا لو اتبعنا فيما أنزل الله وابتدعنا فيما وكل إلى عقولنا، أليس ذلك أدعى لديننا وأجدى على حياتنا؟

وقد وردت آثار أساء البعض فهمها: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا» ومن ذلك ما نسب إلى رسول الله: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن.

فالحديث الأول فى مسلم، وهو لا يفيد بتاتا أن الاختراع فى الدين جائز، إذ ليست هناك سنة حسنة إلا ولها من كتاب الله وسنة رسوله معتمد، فهو يشبه «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به لا ينقص من أجورهم شيئا» «الدال على الخير كفاعله».. فالهدى المدعو إليه هو السنة الحسنة وهو الخير الذى يرضاه الله لعباده، وليس من الهدى أن تستدرك على الله شيئا فاته، أما ما نسب إلى رسول الله «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» فليس من كلامه، بل هو من كلام بن مسعود، ولعله يريد تزكية ما ينعقد عليه اجماع الصحابة على رجاء أن الحق لن يفوت عامتهم.. إن قبول الزيادة فى الدين انها حسنة كقبول الحذف من تعاليمه بدعوى أنها رديئة أو غير مسايرة للتطور، وكلا الأمرين ضلالة.

(إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) وقال مالك : من استحسن بدعة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة وقال الشافعى: لو رأيت صاحب بدعة يمشى على الهواء ما قبلته، من حسن فقد شرع، وقال: ما حدث مخالفا كتابا أو سنة أو أثرا أو اجماعا فهو بدعة ضلالة، وقال ركيع: لأن أزنى أخف على من أسأل مبتدعا.

وقال بن مسعود : عليكم بالعلم، واياكم والتبدع، واياكم والتنطع، واياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق «أى المأثور».

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» وكلاهما حرب على البدع: الأول على اختراعها والآخر على إقرارها ومتابعتها [٣٨] قال الشيخ السماحى فى المعلم: إن أعظم بدعة فى عصرنا اليوم هو ترك كتاب الله وهدى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى قواعد وأصول من الرأى يدعونها، تساس عليها الأمم الإسلامية ويحكمون بمقتضاها ويسيرون على مناهجها ومجراها، ويعتقدون أنها أصلح لأمور الدنيا ما جاء عن الله ورسوله مما أدى إلى فساد ذريع فى الأمم الإسلامية، نسأل الله العافية [٣٩].

ثالثا : لا تقليد موروث للكتب والمذاهب

لقد نعى القرآن على التقليد والمقلدين، وما نقلنا ما نقلناه من المفسرين وأطلنا فيه إلا ليعتبر به مسلموا هذا العصر الذين يقلدون شيوخ مذاهبهم الموروثة، بغير علم فى العبادات والحلال والحرام، بدون نصر من كتاب الله قطعى الدلالة، أو سنة رسوله القطعية المتبعة بالعمل المتواتر، ولا من حديث صحيح ظاهر الدلالة، بل فيما يخالف النصوص مادام موافقا لأصول أئمتهم، وأرجع إلى كلام شيخ الرازى تجد فيه وصفا دقيقا لهذه الحالة، والذين يتبعون مشايخ الطرق فى بدعهم وغلوهم وضلالهم، ويوجد فيهم فى هذا الزمان من هم مثل فى ذكر الرازى ومن هم شر منهم.

ونحن لا نجد بعد دقة البحث سببا لهذا التقليد الأعمى من هؤلاء وهؤلاء، رغم وضوح الحق وسهولة أخذه من مصدريه الأصليين . إلا ما أرشدت إليه الآية الكريمة من شرك أهل

الكتاب باتخاذ رؤسائهم أربابا من دون الله، باعطائهم حق التشريع للعبادات والتحريم والتحليل غلوا فى تعظيمهم، ومضاهأة مبتدعة المسلمين لهم فى ذلك، كما ضاهئوا هم من قبلهم من الوثنيين كما أنبأ عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله المروى فى الصحيحين وغيرهما: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراع بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» قلنا: اليهود والنصارى؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: «فمن؟».

وبعد: فقد ثبت فى الآيات المحكمات القطعية الدلالة أن الله تعالى هو شارع الدين وأركان الدين التى لا تثبت إلا بنص كتاب الله تعالى أو بيان رسوله لمراده منه ثلاث:

١. العقائد.

٢. العبادات المطلقة والمقيدة بالزمان أو المكان أو الصفة أو العدد.

٣. التحريم الدينى.

وماعدا ذلك من أحكام الشرع فيثبت باجتهاد الرأى فيما ليس فيه نص.. ومداره على إقامة المصالح ودفع المفاسد.

ونصوص الكتاب وهدى السنة وعمل السلف الصالح وكلامهم كثير فى هذا، ولاسيما التحريم الدينى الذى هو موضوعنا هنا، وكونه لا يثبت إلا بدليل قطعى الرواية والدلالة.. نقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية: أن السلف الصالح لم يطلقوا الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعا [٤٠] وروى الإمام الشافعى فى الأم [٤١] عن القاضى أبى يوسف معنى ما ذكره بن تيمية عن السلف ولكن بعبارة أخرى وأقوى ، وهى : «أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون فى الفتيا أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، إلا ما كان فى كتاب الله عز وجل بينا بلا تفسير».

حدثنا بن السائب عن ربيع بن خيثم ـ وكان أفضل التابعين ـ أنه قال: اياكم أن يقول الرجل: إن الله أحل هذا أو رضيه، فيقول الله له: لم أحل هذا ولم أرضه، ويقول: إن الله حرم هذا ونهى عنه، فيقول الله: كذبت، لم أحرمه ولم أنه عنه، وحدثنا بعض أصحابنا عن إبراهيم النخعى أنه حدث عن أصحابه أنهم كانوا إذا افتوا بشىء أو نهوا عنه قالوا: هذا مكروه وهذا لا بأس به فأما أن نقول هذا حلال وهذا حرام، فما أعظم هذا!! والشافعى ينقل هذا نقل الراضى عنه القائل به.

وذكر بن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحدا اقتدى به يقول فى شىء: هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره هذا أو نرى هذا حسنا، وننفى هذا، وا نرى هذا وزاد عتيق بن يعقوب: ولا يقولون: حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله عز وجل: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا؟ قال الله أذن لكم أم على الله تفترون؟) الحلال ما أحله الله وذكره، والحرام ما حرمه الله وذكره، وقال بن مفلح فى مقدمة كتابه الفروع للحنابلة : «وقوله ـ أى أحمد ـ لا ينبغى أولا يصلح أو استقبحه أو هو قبيح أولا أراه، للتحريم».

وإذا كان كلام الله عز وجل الدال على التحريم بالظن الراجح المحتمل لعدمه بالاجتهاد، لم يجعله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه دليلا على التحريم العام المطلق ويلزموا الأمة العمل به بل تركوه لإجتهاد الأفراد، فكيف يجوز أن نجعل كلام من لا يحتج بكلامه مطلقا بإجماع المسلمين دليلا على التحريم العام؟

وجملة القول: إن الله تعالى أنكر فى كتابه على من يقول برأيه وفهمه: هذا حلال وهذا حرام وسماه كذابا، وسمى اتباعه شركا.. (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) [٤٢] والعمدة فى تفسير اتخاذ رجال الدين أربابا: كون التحريم على العباد إنما هو حق ربهم عليهم، وكونه تشريعا دينيا، وإنما شارع الدين هو الله تعالى، فإذا نيط التشريع اليدنى بغيره تعالى كان ذلك إشراكا بنص قوله تعالى :(ألم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله).

فليتق الله من يشرعون للناس أو يقبلون فى ضبط حياتهم غير ما شرع الله، وليتق الله من يظنون بجهلهم أن جرأتهم على تحريم ما لم يحرمه الله تعالى على عباده من كمال الدين وقوة اليقين، سواء حرموا ما حرموا بآرائهم وأهوائهم، أو بقياس فى غى محله، مع كونهم غير أهله، أو بالنقل عن بعض مؤلفى الكتب الميتين وان كبرت ألقابهم، وكذا إن كان أخذا من نص شرعى لا يدل عليه دلالة قطعية.. وليتق الله من يضعون للناس الأوراد والأحزاب الكثيرة ويجعلونا لهم كشعائر الدين المنصوصة، بحملهم عليها فى الاجتماعات، واشتراكهم فيها برفع الأصوات، أو توقيتها لهم كالصلوات.. وكل ذلك حق لله تعالى وحده، ولم يكن عند أكمل البشر فى الدين من أهل القرون الأولى شىء من ذلك، والله ان المأثور فى كتاب الله وسنة رسوله من الأذكار والدعوات خير من حزب فلان وورد فلان، وما هى بقليل، فليراجعوها فى كتب الأذكار للمحدثين، كأذكار النووى وكتاب الحصن الحصين للجزرى، ففيها ما يكفيهم من الأذكار والأدعية المطلقة والمقيدة.. والله الهادى إلى سواء السبيل.

ختام الآية: ان الربوبية تستلزم الألوهية بالذات، إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده، واليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله المسيح بن مريم والحال أنهم «ما أمروا» على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به (الا ليعبدوا الها واحدا». إلا أن يعبدوه ويطيعوه فى الدين بما شرعه هو لهم، وهو ربهم ورب كل شىء ومليكه «لا إله إلا هو» تعليل للأمر بعبادة الله واحد، بأنه لا وجود لغيره فى حكم الشرع ولا فى نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونهع بمحض الهوى والجهل «سبحانه عما يشركون» .. تنزيها له عن شركهم فى ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفى ربوبيته بطاعة الرؤساء فى التشريع الدينى بدون اذنه.

أما أمر الله تعالى اياهم بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام فهو فى مواضع من التوراة، أظهرها وأشهرها أول الوصايا العشر من سفر الخروج وهذا أولها «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرقى مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من تحت، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور».

وأما أمره تعالى اياهم بها على لسان المسيح عليه السلام فستجد منه فيما رواه يوحنا عنه فى انجيله قوله ٣٠٧ وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته» وفى انجيل برنابا الذى تعده الكنيسة غير قانونى، من أيات التوحيد المطلق المجرد من جميع شوائب الشرك ما هو أجدر ن الأناجيل الأربعة القاونية بأن يكون من انجيل المسيح الصحيح الموحى إليه من ربه عز وجل.

الهوامش

١) عزير هذا هو الذى يسميه أهل الكتاب «عزرا» والظاهر أن يهود العرب الذين صغروا بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه، وعنهم أخذ المسلمون، والتصرف فى أسماء الأعلام المنقولة من لغة أخرى معروف عند جميع الأمم، حتى إن اسم (يسوع قلبته) لعرب فقالت عيسى ونسبه يرجع إلى العازار بن هارون عليه السلام.

٢) تفسير المنار جـ١٠ صـ٣٢٢

٣) لعل تعبير (حامل الشريعة) أدق فى ترجمة الأصل الانجليزى من عبارة (ناشر الشريعة)

٤) جاء فى القرآن الكريم عن هذه الواقعة: (أن آية ملكه «أى طالوت» أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) البقرة ٢٤٨

٥) ونحن نقول: إن قول القرآن أصدق وقد قرر أنه كان هناك «بقية»

٦) يجب أن ننبه إلى دلالة مثل هذه العبارات «الأحرار» فى مدرسة الشيخ محمد عبده وتلاميذ وقد كانت هذه المدرسة بجملتها متأثرة بمناهج تفكير وبأفكار غريبة على منهج التفكير الإسلامى الخالص، وكان هذا التأثر يجعلها تنظر إلى كتاب أوروبا المناهضين للكنيسة بوصفهم أحرارا وكذلك الكتاب الذين يكتبون عن الديمقراطية والحرية الغربية، وكذلك إلى الأوضاع الأوروبية، نظرة استحسان.. وكانت تدعو إلى الأخذ بما تسميه (الصالح من هذه الأفكار والأوضاع) بناء على ذلك التأثر، وهذا مزلق خطر، كان يعطف عليه لورد كرومر وأمثاله من الصليبين، والأمر فى حاجة إلى نظرة أعمق وأوسع، وإلى استقلال واستغناء بالمنهج الإسلامى.

٧) ونحن نرى انه لا مجال لهذا التردد، فإن النص القرآنى يلهم أن قول اليهود «عزيز ابن الله» هو كقول النصارى «المسيح ابن الله» كلاهما مقصود به ما يضاهىء قول الذين كفروا من قبل، فهو من اسناد النبوة التى تخرج قائلها من أهل دين الحق إلى القوم الكافرين.

٨) المائدة ٦٤

٩) آل عمران ١٨١

١٠) البقرة ٢٤٥

١١) أى غلب فى الخصام والحجاج

١٢) خوابى جمع خابية وهى الجرة الكبيرة

١٣) يقال: علمت أفعل كذا، بمعنى طفقت، وعلق بالشىء لزمه

١٤) ويبدو أن أباذر كان هو الذى يفهم اتجاه كعب الأحبار حيث اشتبك معه فى أمر الزكاة أمام عثمان رضى الله عنه قائلا له مالك ولهذا يا بن اليهودية.

١٥) المراد بالاراتيكية المبتعدة من الارتقة، والأشهر الهرتقة، وبعضهم يقول هرطقة بقلب التاء طاء وأصله

١٦) وإذا أردنا استيفاء هذا البحث فلنراجع المنار جـ١٠ ص٣٣٢ - ٣٣٩

١٧) ومثله أيضا «وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» «إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم»، أى أنه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شىء

فى الوجود فهو كما يقول العوام: كلام فارغ.

١٨) المضاهاة المشابهة والمحاكاة والمماثلة، وقيل: المتابعة قرئ يضاهون «ويضاهئون» يقال ضاهيت وضاهئت لغتان مثل أرجيت وأرجأت.

١٩) هذه الجملة تستعمل فى اللسان العربى للتعجب، فهو المراد بها لا ظاهر معناها، وحكى النقاش أن أصل "قاتله الله" الدعاء، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، أ. هـ وفسره بعضهم بالدعاء على أن المراد اللعنة أو الهلاك والأول أظهر.

٢٠) الزمر ٦٧ .

٢١) سورة الانبياء ٢٩-٢٦.

٢٢) واليهود لم يعبدوا عزيزا، ولم يؤثر عمن قال منهم أنه ابن الله، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح: أنه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد وقد تقدم بيان ذلك.

٢٣) قال الألوسى: والصحيح اطلاق الحبر على العالم ذميا كان أو مسلما، فقد كان يقال لابن عباس: الحبر ص ٣ صـ٢٩٨.

٢٤) هذا فى عرف الاستعمال، أما أصل معناها اللغوى، فالحبر: العالم الذى بصناعته يحبر المعانى ويحسن البيان عنها، والراهب: الذى تمكنت الرهبة والخشية فى قلبه، وظهرت آثار الرهبة على وجهه ولباسه.

٢٥) وفى رواية: أتيت رسول الله وفى عنقى صليب من ذهب، قال: "ياعدى اطرح عنك هذا الوثن" وسمعته يقرأ فى سورة براءة الخ.

٢٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عدى ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يضرك؟ ايضرك أن يقال: لا اله الا الله؟ فهل تعلم الها غير الله؟ "ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: "إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون" وهكذا قال حذيفة ابن اليسار وعبدالله بن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية أ. هـ بن كثير جـ ص٣٤٨، ٣٤٩

٢٧) هو العلامة سليمان بن عبدالقوى الطوفى الحنبلى، وكتابه (الاشارات الالهية إلى المباحث الأصولية) أى ما يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه فى القرآن.

٢٨) أشهر شيوخه والده عمر ضياء الدين ومحيى السنة البغوى فأيهما يعنى هنا؟

٢٩) تفسير الرازى جـ ٤ ص ٦٢٣، ٦٢٤.

٣٠) سورة يونس ٥٩، ٦٠

٣١) سورة الانعام ١٣٨.

٣٢) سورة المائدة ٣ .

٣٣) سورة المائدة ٧٧.

٣٤) سورة المائدة ٨٧ .

٣٥) سورة الانعام ١٢٦.

٣٦) سورة الشورى ٢١ .

٣٧) سورة النحل ٢٥

٣٨) كتاب «ليس من الإسلام» للغزالى

٣٩) كتاب المعلم للسماحى ص ١٦

٤٠) كتاب الاداب الشرعية الجزء الأول ص ١٢٥

٤١) الأم الجزء السابع ص ٣١٩

٤٢) سورة النحل ١١٦

الفصل الثالث

من جرائم أهل الكتاب أيضا
الداعية إلى قتالهم

ارادة اطفاء نور الله ـ أكل أموال الناس بالباطل ـ الصد عن سبيل الله ـ كنز الذهب والفضة

قال الله عز سلطانه: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، يا أيها الدين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

أهل الكتاب محاربون لنور الله ـ المراد بنور الله ـ فرق بين آيتين ـ الواقع التاريخى لمحاولة اطفاء نور الله ـ المراد بدين الحق ـ كيف ظهر على الأديان كلها ـ شواهد تاريخية ـ شبهات حول هذه الآية وردها ـ أحاديث المهدى والمسيح لا يصح الاعتماد عليها فى هذا الشأن ـ أكل الأحبار والرهبان أموال الناس بالباطل ـ أنواع هذا الأكل الصد عن سبيل الله ـ كنزل الذهب والفضة ـ وقفة قصيرة للتعقيب ـ حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة .. إلخ.

«أهل الكتاب محاربون لنور الله»

هذا امتداد لما مضى فى الفصل السابق واتمام لجرائم أهل الكتاب الداعية إلى قتالهم .. إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق وعبادة أرباب من دون الله وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر ـ إنما م كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون اطفاء نور الله فى الأرض، المتمثل فى هذا الدين، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض، وفى المنهج الذى يصوغ على وقفة حياة البشر.. ومن ثم يمضى السياق خطوة أخرى فى تحريض المؤمنين على قتالهم، وذلك بتفصيل حال كفرهم المجمل المتقدم، بعد وصفهم باتخاذهم ابنا لله، ورؤسائهم أربابا من دون الله.

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذى أفاضه على البشر بهداية دينه الحق الذى أوحاه إلى موسى وعيسى وغيرهما من رسله، ثم أتمه وأكمله ببعثته خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، يريدون اطفاءه بالطعن فى الإسلام والصد عنه بالباطل، كما فعلوا من قبل

بمثل تلك الأقوال فى عزيز والمسيح، التى لم تتجاوز أفواههم إلى معنى صحيح، وبما ابتدعه الرؤساء لهم من التشريع، حتى صار التوحيد لديهم شركا، والعبد المربوب ربا، والعابد المألوه إلها، على تفاوت بين فرقهم فى ذلك.

إن أهل الكتاب الذين عادوا الإسلام منذ البعثة المحمدية كانوا يقصدون ابطاله والقضاء عليه بالحرب والقتال من جهة، وبافساد العقائد والطعن فيه من جهة أخرى، وكل من الأمرين يصح التعبير عنه بإرادة اطفاء النور [1] لأنه تمثيل لحالهم معه.. أما أنهم محاربون لنور الله فذلك واقع لاشك فيه سواء بما يطقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا فى وجهه. كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص، وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وأما ما كان من افسادهم فى دينهم، فمنه ما كان يقصد من المنافقين والمبتدعين فيه، ولاسيما الروم الذين اتخذوا من النصرانية عصبية سياسية منذ عهد قسطنطين، ومنه ما كان بغير قصد إلى اطفاء نوره، بل كان بعضه بقصد خدمته «كما يفعل بعض مبتدعة المسلمين الذين اتبعوا سننهم من حيث لا يشعرون بوضع الأحاديث والعبادات المبتدعة ونشر الخرافات».

واضافة «الاطفاء» إلى «أفواههم» لأن أفواههمه هى التى تنطق بهذا الزور والبهتان والافتراء على الله ونسبة الولد إليه.

«ذلك قولهم بأفواههم» فهذه الأفواه التى تنطق بهذا الضلال وما أشبهه هى مما يضل الناس ويفتنهم فى دينهم إذا كانوا مؤمنين، أو يمسك بهم على الكفر والضلال إذا كانوا كافرين ضالين.. وهذا من شأنه ـ لو مضى إلى غايته ـ أن يذهب بنور الحق ويمحو معالم الهدى ويقيم الناس فى ضلال وعمى وظلام.. ثم أن هذه الأفواه هى التى تكيد للإسلام وتدس له وتسعى بقالة السوء فيه.. لكن هيهات أن يبلغوا موادهم، فذلك دونه خرق القتاد كمن ينفخ فى نور قوى ليطفئه بذلك اشتعالا، أو كمن يحاول اطفاء نور الشمس فلا ينال منها منالا.

والمعنى: أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذى شرعه لهداية عباده. وإنما قلبه الذى تدور عليه جميع عباداته توحيد الربوبية والألوهية. فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية والله تعالى لا يريد ذلك، لا يريد فى هذا الشأن إلا أن يتمت هذا النور الذى بدا فى الأجيال السابقة كالسراج على منارته، أو كنور الهلال فى بزوغه فالقمر فى مازله، حتى يجعله بدرا كاملا بل شمسا ضاحية .. وتمام النور وكماله هو أن يبسط الإسلام سلطانه على الوجود كله ويصبح دين الإنسانية جميعا، يطلع عليها طلوع الشمس، فيغمر نوره كل صقع ويتسرب شماعه إلى كل قلب! ويهدد كل ما يحجبه أو يفعل عنه.. وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التى لا تتبدل فى اتمام نوره بإظهار دينه وما يريده الله كائن لا مرد له (ولو كره الكافرون) [2]ذلك بعد اتمامه كما كانوا يكرهونه من قبل عند بدء ظهوره.. فلترغم أنوفهم، ولتأكل الحسرة قلوبهم.. وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق، على المشقة واللأواء وعلى الكيد والحرب من الكافرين «والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم» .. كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان!

«ما المـراد بنـور اللـه؟»

١. قال المدى: المراد بالنور هنا الاسم

٢. وقال الضحاك: هو محمد صلى الله عليه وسلم

٣. وقال الكلبى : «هو القرآن العظيم الصادع الصادح بوحدانية الله

ويمكن أن يختار هذا الأخير لموافقته لقوله تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا)[٣](فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) [٤] (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا)[٥] أما التوراة والانجيل فقال تعالى فيهما :(انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور)[٦] وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور[٧] ولم يجعلها عين النور كالقرآن.

٤. وفى الألوسى [٨]: والمراد بنور الله حجته تعالى المشرقة النيرة الدالة على وحدانيته وتنزيهه سبحانه عن الشركاء والأولاد.

٥. وفى الرازى [٩] الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم، وهى أمور كثيرة، ذكر منها المعجزات القاهرة التى ظهرت على يده، والقرآن العظيم، وأن حاصل شريعته تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لطاعته وصرف النفس عن حب الدنيا، وأن شرعه خال من جميع العيوب فليس فيه اثبات ما لا يليق بالله، وليس فيه دعوة إلى غير الله، وإنما سمى الدلائل بالنور لأنها يهتدى بها إلى الحق فى العقليات، كما يهتدى بالنور فى رؤية الحسيات. [١٠].

واختـار المنار - وهو الأجدر بالإختيار بل هو الحق - أن المراد بنور الله هو دين الإسلام بالمعنى العام الشامل لكل ما جاء به رسل الله ولاسيما دين التوراة والانجيل والقرآن، وقد كان كل منها نورا لأهله فى الزمن الذى نزل به بقدر حاجتهم، حتى إذا نزل القرآن كان هو النور الأعظم الكافى لهداية جميع البشر إلى آخر الزمان ولله در البوصيرى حيث قال فى لاميته بعد ذكر تلك الكتب:

الله أكبر إن دين محمد

وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده

طلع الصباح فاطفىء القنديلا

نعم أن القوم قد أطفأوا جل ذلك النور الذى أتاهم، فزجوا بأنفسهم فى ظلمات لا يلوح لهم فيها إلا وميض ضئيل منه، وهم يريدون اخفاء الجزء الأخير أيضا وانما اخترت هنا أن المراد بالنور، دين الله الذى بعث به رسله فى كل قوم بما يناسب حالهم فى زمنهم، لأنه هو الذى كان يقبل الكمال والتمام فى قوله تعالى (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) وذلك إنما يكون ببعثه محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إلى الخلق أجمعين، مبينا لهم كل ما يحتاجونه من أمر الدين .. من عقائد يؤيدها البرهان، ويطمئن لها الوجدان وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان، فضلا عن الأصنام والأوثان وعبادات تتزكى بها النفس وتطهر من كل رجس، وتجعل كفاية

الأغنياء للفقراء حقوقا إلهية، تكفلها العقائد الوجدانية، ويبطل ثوابها المن والأذى، وآداب تطبع فى الأنفس ملكات الفضائل، وتتوثق بها عرى المصالح، وتشريع سياسى وقضائى يجمع بين العدل والرحمة ويجعل السلطان الحكمى للأمة، واحترام حرية الإرادة والرأى والوجدان، ومنع الاكراه على الأديان، والتوحيد المصلح للاجتماع البشرى فى العقائد والتعبد والتشريع، لإزالة التعادى بين الشعوب فمن لم يقبلها كلها كان تشريع المساواة بالعدل كافيا لحفظ حقوقه فيها، أتم الله تعالى ذلك كله على لسان خاتم النبيين، الذى أرسله رحمة للعالمين، وجعل آيته الكبرى علمية عقلية وهى هذا القرآن وكفل حفظها إلى آخر الزمان، ولم يكفل ذلك لكتاب آخر لأن سائر الكتب كانت أديانا خاصة مؤقتة، وأنزل عليه بعد أن أتم الدعوة وأقام الحجة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) (١١).

الفرق بين الآيتين:

وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى سورة الصف بمثل هذه الآية، إلا أنه قال هنالك (ليطفئوا) (والله متم نوره) والفرق بين الآيتين:

١- أن آية سورة الصف تعليل لإفترائهم بإرادتهم اطفاء النور به وآية براءة لما جادت بعد سياق شركهم بمضاهأتهم لأقوال الوثنيين من قبلهم جعل ذلك نفسه بمعنى إرادة اطفاء النور بلا واسطة.

٢- ثم إن بينهما فرقا آخر وهو التعبير فى آية سورة الصف بقوله (والله متم نوره» وفى سورة براءة بقوله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) والأول يفيد أن متمه بالفعل فى الحال والثانى وعد بأن يتمه فى الاستقبال فيجتمع منها اثبات هذا الاتمام فى الحال والإستقبال فهو النور التام الكامل الذى لا ينطفىء بالقيل والقال، بل يبقى مشرقا إلى أن يأذن الله لهذا العالم بالزوال.

ولما كان هذا الوعد الذى يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق من شأنه أن يرتاب فيه الناس أكده الله تعالى بما لم يؤكد به الخبر الأول، لأن صدقة مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، وناهيك بقوله: (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) أى أنه لا يرضى ولا تتعلق إرادته بشىء فى هذا الشأن إلا شيئا واحدا، وهو أن يتم نوره فلا يجعل فى قدرة أحد أن يطفئه.

«الواقع التاريخى لمحاولة اطفاء نور الله»

وهذه الآية - وإن كان يراد بها استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هى كذلك تصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل فى دينه الحق - الذى يهدى الناس بنور الله - فهى مشعرة بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له سيحاولون فى المستقبل اطفاء هذا النور كما حاولوا ذلك فى عصر من أتمه وأكمله بوحيه إليه وبيانه له.. وهذا ما وقع وما هو واقع الآن، فهم فى كل وقت يكيدون له ويتفرون عليه ويطعنون فيه وفيمن جاء به ويحاولون اخفاءه أو خنق دعوته وحصد نبتته (١٢).

أما اليهود فكان من أمرهم فى مقاومة دعوته ومساعدة المشركين عابدى الأصنام فى قتال أهله ومن خذلان الله تعالى اياهم ونصر رسوله والمؤمنين عليهم، فكانوا فى أول الإسلام أشد

الناس عداوة لأهله كمشركى العرب سواء، ولما عجزوا عن اطفاء نوره بمساعدة المشركين على قتال النبى صلى الله عليه وسلم قصدوا أطفاء نوره ببث البدع فيه وتفريق كلمة أهله، بما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشنيع لعلى كرم الله وجهه، والغلو فيه، وإلقاء الشقاق بين المسلمين فى مسألة الخلافة، وكان لشريعته من الدسائس، فى قتل عثمان رضى الهل عنه ثم فى الفتنة الكبرى بين على ومعاوية أقبح التأثير، ولولاهم لما قتل أولذك الألوف الكثيرون من صناديد المسلمين، فإن السعى إلى الصلح نجح غير مرة، فأفسدوه بدسائسهم .. ثم كان لليهود الذين أظهروا الإسلام والقيام بفرائضه نفاقا، مكيدة أخرى لا تزال مفاسدها مبثوثة فى كتب التفسير والحديث والتاريخ والتى تحتاج إلى جهد ضخم من السملمين لإزالتها وهى الإسرائيليات وانه لا غنى عن البيان ما تفعله إسرائيل اليوم من محاولة إطفاء نور الله عسكريا وسياسيا وثقافيا.. الأخير منها وليس آخرها طبع مصحف محرف زادوا فيه ونقصوا منه حسب أهوائهم، ووزعوه فى البلاد النائية من افريقيا وآسيا.

وأما النصارى فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة له، وأكرم ملكهم النجاشى من لجأ إليه من مهاجريهم، ومنعهم من تعدد المشركين عليهم، بل أسلم هو على أيديهم.. ثم انقلب الأمر وانعكست القضية بعد انتشار الإسلام، فكان اليهود يتوددون للمسلمين، لأنهم أنقذوهم من لم النصارى واستبدادهم وصار نصارى الرومان المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد ولاسيما سوريا ومصر الأصليين، فإنهم رأوا من عدل المسلمين وفضائلهم ما فضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهمه ويحتقرونهم، مع أنهم على نفس دينهم.

وأفظع ما حدث بعد ذلك الحروب الصليبية وما برز فيها من غلو نصارى أوروبا فى عداوة المسلمين.. ثم انتهى الأمر إلى ما نرى من حال مسلمى هذا العصر مع دول أوروبا المسئولية على أكثر بلادهم، إن لم يكن سياسيا فاقتصاديا وثقافيا.. ودعاة النصرانية من المبشرين والمستشرقين يغلون فى الطعن على الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم فى كل بلد لدولهم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز.. وها هى كتبهم الكثيرة جدا تدل على حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين، ولا نتوقع منهم فى الأزمنة التالية إلا شدة غلوهم ووقاحتهم فى الافتراء والبهتان على الإسلام ان اضطهاد المسلمين يجرى فى كل مكان على ظهر هذه الأرض.. يجرى فى العالم المسيحى والعالم الشيوعى والعالم الوثنى ولا تنس فظائع إسرائيل وجرائمها مع المسلمين .. كأنما هناك حلف أعظم مقدس ضد المسلمين، ذلك الإضطهاد الذى لو وقع مثله لمسيحى واحد لارتجت الأرض، واندكت الجبال، وأتهم المسلمون بالتوحش والهمجية فى القرن العشرين.

ومثل هذا الاضطهاد بل أشنع منه يتم فى روسيا، ويمتاز بأنه عملية افناء منظمة تتم بمعرفة الدولة منذ ربع قرن، وقد انتجت تناقص المسلمين من ٤٢ مليونا إلى ٢٦ مليونا ويتم فى يوغوسلافيا حيث تتعرض حياة مليون مسلم ووجودهم للزوال، وبخاصة العنصر الألبانى المسلم الذى اغتصبت يوغوسلافيا أرضه بالتعاون بين روسيا وانجلترا وفرنسا وأمريكا فى أثناء الحرب العالمية الثانية.

ولعلنا على ذكر ما تقدم من الوحشية التى تصنعها المسيحية فى الحبشة بالمسلمين فى

ارتيريا ومرر، وما صنعته المسيحية البروتستانتية وما قدمته من مساعدات وقامت به من مجهود ضائع لخلق دولة بيافرا الإقليم المنشق من نيجيريا المسلمة، وكذلك صنع الإستعمار فى كل مكان وأقربه ما يقوم به المسيحيون الآن فى القلبين من حصد المسلمين وابادتهم.

ولولا قوة كامنة فى الإسلام تتخطى الحدود والسدود، ما أمكن أن تنبث النبتة من جديد.. ولكن ها نحن أولاء نعيش لنرى المد الإسلامى تظهر بوادره من جديد ونرى الحواجز والسدود التى وضعها الإستعمار فى الطريق، ونرى القدرة التى صنعها الاستعمار على عينه تقف، لحراسة الموج والركام.. وعندئذ تتم كلمة الله، وتعلو راية الإسلام.. الإسلام الصحيح، الإسلام الذى يصرف الحياة كلها، الإسلام الذى هو عقيدة تجمع بين قلوب المسلمين، ونظام اجتماعى ينسق مصالح وأوضاع المسلمين، ونظام سياسى يوحد الهدف الإسلامى والجيش الإسلامى والكتلة الإسلامية.. وقد صدق الله وعده، ومن أصدق من الله حديثا؟ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

دين الحق

ويزيد السياق هذا الوعد الحق من الله الدال على سننه التى لا تتبدل فى اتمام نوره وذلك الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار التاريخ يزيدهما توكيدا (هو الذى أرسل رسلوه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وفى هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذى سبق فى قوله تعالى (ولا يدينون دين الحق) هو هذا الدين الذى أرسل الله به رسوله الأخير، وأن الذين لا يدينون بهذا الدين دين الحق من أهل الكتاب - لكونهم أضاعوا حظا عظيما من كتب أنبيائهم ومواعظهم وحرفوا الباقى منها فلم يقيموه على وجهه، بل استبدلوا به تقاليد وضعها لهم الرؤساء بأهوائهم - هم الذين يشملهم الأمر بالقتال.. وهذا صحيح على أى وجه أو لنا الآية.

فالمقصود اجمالا بدين الحق هو الدينونة لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع - وهذه هى قاعدة دين الحق كله، وهو الدين الممثل أخيرا فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. فأيما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع مجتمعة، انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق، ودخلوا فى مدلول آية القتال.. مع مراعاة طبيعة المنهج الحركى للإسلام ومراحله المتعددة ووسائله المتجددة - كما قلنا مرارا.

وهذا توكيد لوعد الله الأول (ويأبى الله إلا أن يتم نوره).. ولكن فى صورة أكثر تحديدا.. وهو أن الله كفل اتمام هذا النور هو الذى أرسل رسوله الأكمل، الذى أخذ العهد على النبيين من قبل (ليؤمنن به ولتنصرنه» أن جاء فى زمن أحد منهم..

أرسله بالهدى الأتم الأكمل الأعم الأشمل ودين الحق.. وفيه وجهان صحيحان كل واحد منهما بجامع الآخر ولا يباينه.

الأول - أنه الثابت المتحقق الذى لا ينسخه دين آخر، ولا يبطله شئ آخر، (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [١٣]).

الثاني: أن معناه دين الله المحض الذي لا شائبه فيه، كالشوائب التي عرضت للأديان السابقة ولما بقى من كتبها [١٤].

وعلى أية حال فسرت «الحق» فـ«دين الحق» ـ كما أسلفنا ـ هو الدينونة لله وحده فى الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة، وهو متمثل فى كل دين سماوى جاء به رسول من قبل.. ولا يدخل فيه طبعا تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات فى الاعتقاد التى عليها اليهود والنصارى اليوم، كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التى ترفع لافتة الدين وهى تقيم فى الأرض أربابا يعبدها الناس من دون الله، فى صور الاتباع للشرائع التى لم ينزلها الله.

ومن المعلوم عند جميع علماء التاريخ العام ولاسيما تاريخ الأديان أنه لا يوجد دين منقول عمن جاء به رسل الله تعالى أو من غيرهم نقلا صحيحا متواترا بالقول والفعل تصل الأسانيد إلا دين الإسلام.. وقد حدث أن فيلسوفا هنديا درس تواريخ الأديان كلها وبحث فيها بحث حكيم منصف لا يريد إلا استبانة الحق، وأطال البحث فى النصرانية، لما للدول المنسوبة إليها من الملك وسعة السلطان، ونظر بعد ذلك كله فى الإسلام، فكانت غاية ذلك الدرس أن عرف بالبرهان أن الإسلام هو الدين الحق، فأسلم وألف كتابا باللغة الإنجليزية عنوانه «لماذا أسلمت» أظهر فيه مزاياه على جميع الأديان، وكان من أهمها عنده أنه هو الدين الوحيد الذى له تاريخ ثابت محفوظ، وكان من مثار العجب عنده أن ترضى أوروبا لنفسها دينا ترفع من تنسب إليه عن مرتبة البشر فتجعله الها وهى لا تعرف من تاريخه شيئا يعتد به.

ثم بين غاية إرسال خاتم النبيين والمرسلين بدين الحق أو علته بقوله: «ليظهره على الدين كله».. يقال: أظهره على الشىء أو على الشخص، جعله فوقه مستعليا عليه، والاستعلاء هنا بالعلم والحجة، أو السيادة والغلبة، أو الشرف، والمنزلة أو بها كلها، وهو المختار وان كان الوعد بصدق ببعضها.

وفى الضمير المنصوب فى قوله: «ليظهره» قولان: أحدهما أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مروى عن بن عباس رضى الله عنهما، والثانى أن الضمير لدين الحق الذى أرسل به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«ولو كره المشركون» ذلك الاظهار.. والشرك أخص من الكفر، وفى الجملتين «ولو كره الكافرون» و«لو كره المشركون» أخبار بأن اتمام الله لدينه واظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغام من أنوف جميع الكفار المشركين منهم بالله تعالى وغير المشركين «لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

«إظهار الله ورسوله ودينه الحق»

والأولى أن تنظر المعنى على التقديرين:

١. فإذا قلنا إن الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم كان المعنى: أنه تعالى يظهر هذا الرسول على كل ما يحتاج إليه المرسل هو إليهم من أمور الدين ـ عقائده وآدابه، وسياسته وأحكامه، لأن ما أرسله به هو الدين الأخير الذى لا يحتاج البشر بعده إلى زيادة فى الهداية

الدينية، بل يوكلون فيما وراء نصوصه إلى اجتهادهم واختبارهم العلم مع الاهتداء بها حتى لا يضلوا ولا يتفرقوا بتركها.. ونحن نعلم من كتب الأديان وتاريخها انها ليست كذلك، بل لا تعدو كتب كل منها حاجة المخاطبين بها من قوم رسولها.

فاليهودية دين شعب نسبى أراد الله تربيتهم بشريعة شديدة التضييق عليهم لتطهيرهم من الوثنية وعبادة البشر، ليقيموا التوحيد فى بلاد مباركة استحوذ عليها الشرك، وقد كان ذلك زمنا ما، ثم فسدوا وصار أكثرهم وثنيين ماديين، فبعث الله المسيح بتعاليم شديدة المبالغة فى الزهد ومقاومة المفاسد المادية، وكبح جماح الشهوات الجسدية، فكان له ما كان من التأثيرفيهم وفى الروم وغيرهم زمنا ما، ولكن غلا بعضهم فى الزهد، وعرض عليهم فيه الغرور مع الجهل، وعاد الأكثرون إلى الإسراف فى الشهوات والعلو فى الأرض.

وكان هذا بعد ذاك تمهيدا للدين التام الوسط الجامع بين المصالح المادية والمعنوية والمزايا الروحية والجسدية، ليكون عاما للبشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه النصرانية التى يدعى أهلها أنها دين عام بالرغم مما فى أناجيلها من قول المسيح لهمه «مت ١٠: ٥ , ٦ انه لم يرسل ولم يرسلهم إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» يعترفون بأنه قال «مت ٥: ٧ ألا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل» إلخ.

ونقلوا عنه أيضا انه مع هذا قال: «يو ١٦: ١٢ ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكنكم لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كان كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» إلخ.

وهذا لا يصدق ولا يمكن تأويله إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى أخبرهم وأخبر غيرهم بكل شىء من أمر الدين (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) [١٥]

وإنما أخبر عن الله عز وجل لا من عند نفسه (وما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحى يوحى) [١٦] وأخبرهم بأمور آتية كثيرة جدا صريحة بعضها فى القرآن وأظهرها غلب الروم الفرس فى مدى بضع سنين، وبعضها فى الأحاديث الصحيحة، ومن المتواتر منها قوله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر «لتقتلك الفئة الباغية» وفى روايات بالغيبة، أى قال هذا له ولغيره وقوله على المنبر فى الحسن عليه السلام «ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وأخباره فاطمة عليها السلام بموته وبأنها أول من يلحق به، واخباره بموت النجاشى يوم موته وصلاته عليه.

ولا يزال الزمان يظهر صدقه فى كل ما أخبر به فى وقته.

وقد مجد محمد المسيح - عليهما الصلاة والسلام - بنفى طعن اليهود فيه وفى أمه، واثبات كونه ولد طاهرا من الدنس بكلمة الله وكونه من روح الله، ومؤيدا بآيات الله، وقد سماه المسيح باسمه الدال على الحمد الكثير «أحمد» ومثله «محمد»، وهو فى نسخ الانجيل اليونانية والعربية القديمة «البارقليط» ثم غيروه فى التراجم الأخيرة فسموه «المعزى».

٢- وإذا قلنا إن الضمير لدين الحق الذى أرسل به صلى الله عيه وسلم كان المعنى: «أنه

تعالى يعلى هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، وكذا السيادة والسلطان - كما قلنا آنفا - ولم يكن لدين من الأديان مثل هذا التأثير الروحى والعقلى والمادى والاجتماعى والسياسى إلا للإسلام وحده.

لا تنكر أن جميع أتباع الأنبياء قد صلحت حالهم باهتداء كل منهم بنبيهم مدة اهتدائهم به، ولكن التاريخ لم يرو لنا أنه كان لدين من الأديان كل هذه الفوائد بتأثيره فيهم.. أما ظهور الإسلام بالحجة والبرهان فلا يختلف فيه عاقلان مستقلان، عرفاه وعرفا غيره من الأديان.. وأما ظهوره عليها بالعلم والعمران والسيادة والسلطان فذلك يستوجب إيراد شبهة أو استفهام.

تساؤل وجوابه

يرد تساؤل - أو شبهة - مفاده: أن الذى يتراءى للناس فى هذا الزمان أن دول أوروبا وأمريكا تبدو فى أوج عظمتها وقوتها على حين يرى ضعف ما بقى من دول الإسلام «وانه انما يظهر وجهه فى دول العرب الأولى وكذا دولة الترك فى أول عهدها».. والجواب عن ذلك:

أولا: بأن ما عليه دول الحضارة الآن ليس من تأثير أديانها فى تعاليمها ولا فى العمل بها، ولو كان كذلك لظهر عقب وجود الدين فيهم وأخذهم به.

ثانيا: وعلماء الأفرنج الأحرار المستقلون يشهدون أن مدينتهم الحاضرة وما بنيت عليه من العلوم والفنون لم يكن إلا من تأثير الحضارة الإسلامية والاقتباس من كتبها وحضارة العرب لا يمكن أن يكون لها سبب إلا هداية دينهم.

ثالثا: يجب أن نفهم «الدين» بمدلوله الواسع الذى بيناه، لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهى ومؤداه.. أن «الدين» هو «الدينونة».. فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء.. والله سبحانه يعلن قضاده بظهور الدين الحق الذى أرسل به رسوله على «الدين» كله بهذا المدلول الشامل العام! ان الدينونة ستكون لله وحده والظهور سيكون للمنهج الذى تتمثل فيه الدينونة لله وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان، وكان دين الحق أظهر وأغلب، وكانت الأديان التى لا تخلص فيها الدينونة لله تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه، خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة فى تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى المنوعة الأساليب التى أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء.

رابعا: ما نحن عليه ليس نهاية المطاف.. إن وعد الله قائم ينتظر العصبة المسلمة التى تحمل الراية وتمضى، مبتدئة من نقطة البدء التى بدأت منها خطوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الدين.

خامسا: وقد جاء تفسير لذلك الظهور على الدين كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها) (١٧).

وقوله (انه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها) [١٨] وهو مطلق غير مقيد بما زوى له صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله عليه من الأرض، ومن علماء الأصول من يوجب حمل المطلق على المقيد، وفى بعض الروايات تعيين مصر، وأوصى بالقبط خيرا، والشام وملك كسرى وقيصر، وكل هذا قد تم فإن كل شىء مما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سيفتح للمسلمين ولما يفتح فلابد أن يفتح.

روى الإمام أحمد عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا عدى، أسلم تسلمش قلت: إنى من أهل دين: قال «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «نعم ألست من الركوسوية [١٩] وأنت تأكل مرباع [٢٠] قومك؟».

قلت: بلى، قال: «فإن هذا لا يحل لك فى دينك» فلم يعد أن قالها فتواضعه لها، قال«أما إنى أعلم الذى يمنعك من الإسلام.. تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قولة له وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟»

قلت: لم أرها ولكن سمعت بها، قال: «فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الضغينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد [٢١] ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدى: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها» [٢٢].

تفسير مردود:

ومن العلماء من يقول: إن بعض هذه البشارات لا يتم إلا فى آخر الزمان عند ظهور المهدى وما يتلوه من نزول عيسى من السماء وإقامته لدين الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، واظهاره بالحكم والعمل به [٢٣] وذلك مردود من وجوه:

أولا: ان شيوع هذا بين المسلمين من أسباب تقاعسهم وتقاعدهم عما أوجبه الله تعالى فى كل وقت من اعلاء دينه واقامة حجته وحماية دعوته، وتنفيذ شريعته وتعزيز سلطته، اتكالا على أمور غيبية مستقبلة، لا تسقط عنهم فريضة حاضرة.

ثانياك ان أحاديث المهدى لا يصح منها شىء يحتج به، وانها مع ذلك متعارضة متدافعة.

ثالثا: ان مصدرها نزعة سياسية شيعية معروفة، وللشيعة فيها خرافات مخالفة لأصول الدين.

رابعا: وأما أحاديث نزول عيسى فبعض أسانيدها صحيحة، وهى على تعارضها واردة فى أمر غيبى متعلق بأحاديث الدجال المتعارضة مثلها، فينبغى أن نفوض أمرها إلى الله تعالى، لكن لا تكون سببا للتقصير فى إقامة الدين والدنيا بما شرعه الله تعالى فيها.

خامسا: وقد كان اليهود يتكلمون فى إعادة ملكهم فى فلسطين وما جاورها على ما فى

كتب أنبيائهم من البشائر بظهور المسيح «مسيا» الذى يعيده لهم بخوارق العادات، فلما طال عليهم الأمد ومرت ألوف السنين ولم يقع ذلك هبوا إلى اعادته بالأسباب الكسبية، حتى انهم سخروا الدول الغربية لمساعدتهم عليه ومعاداة العرب وسائر المسلمين فى سبيله.. أفلسنا أحق بحفظ ما بقى من ملكنا واستعادة ما فقدنا منه بكسبنا واجتهادنا من هؤلاء اليهود على قلتهم وكثرتنا؟ بلى والله.

سادسا: ان من الجهل بالدين وسنن الله فى الخلق أن نقصر فى ذلك اتكالا على المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومتى جاء وكنا مقيمين لديننا كنا أجدر بالانتفاع به، بل لا يعقل أن يعتد المهدى والمسيح بدين أحد لا يفعل ما يستطيع فى إقامة فرائض الله وحدوده، وانا لنرجو ونتوقع ظهور الإسلام فى المستقبل القريب إن شاء الله، وبذلك تتم هذه البشارات على أكمل وجه، وكذا ما فى معناها من قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) (٢٤).

شبهتان مردودتان

بقى بعد هذا شبهتان قد تندفعان فى صدور أولئك الذين يأخذون الأمور بما يلوح على ظاهرها دون أن ينفذ نظرهم إلى ما وراء هذا الظاهر من حق وصدق.

الشبهة الأولى: هى ما يبدو على ظاهر الحياة اليوم من انكماش الدين عموما فى النفوس واستيلاء الإلحاد على مواقع الإيمان عند كثير من الشعوب والأفراد.. وهذا يعنى بظاهر واقعه أن عصر الإيمان قد ولى وأن الناس فى طريقهم إلى إيمان آخر غير هذا الإيمان المستند إلى ما وراء المادة..

إيمان بالطبيعة وبالحياة فى صورها المادية المختلفة وما تولده منها العلوم والفنون وهذا يعنى أيضا أنه لا الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان الأخرى سيبقى على ما هو عليه الآن فضلا عن أن يمتد ظله ويقوى سلطانه!

ونقول إن هذه الظاهرة هى مقدمة طبيعية لإقامة الإنسانية على دين صحيح يتجاوب مع العقل ومنطقه، ويدخل إلى عقول الناس كما تدخل الحقائق العلمية، فالعقل الحديث الذى بعد عن الدين إنما بعد عن تلك المعتقدات التى لا تثبت لأدنى نظر ينظر إليها، ثم يفرض عليه - مع هذا - أن يقبلها وأن يتعامل معها، لأنه لابد له من دين يعيش به ويحيى معه.

فإذا وقف العقل من تلك المعتقدات هذا الموقف، وإذا أبى أن يخضع خضوعا أعمى لسلطانها فذلك حق مشروع له، وإلا فما كان لهذا العقل الذى ميز الله الإنسان به عن عالم الحيوان وظيفة يؤديها للإنسان، أو عمل يعمله فى هدايته، وكشف معالم الطريق له، وخاصة فى أهم شأن حيوى من شئونه وهو ما يمس الحياة الروحية منه.. فليس إذن هذا الموقف المنحرف الذى يقفه العقل العصرى من الدين، ليس هذا الموقف عن آفة فى هذا العقل أو عن استغناء منه عن الدين، وإنما ذلك لهذا الخلاف البعيد الذى بينه وبين الدين الذى ينظر فيه ويدعى إلى الإيمان به.

ولا تحسبن أن هذا العقل «العصرى» الذى بعد عن الدين هذا البعد قد اطمئن إلى تلك الحياة التى يحياها بلا دين.. كلا.. فالإنسان متدين بطبعه والدين مطلب من مطالب الإنسان على أى مستوى من مستويات الإنسانية .. فالإنسان البدائى وسقراط وأفلاطون وأرسطوا والفارابى وابن سينا وابن رشد، هم سواء فى الحاجة إلى الدين، وإلى تصور المعتقد الدينى الذى يرضيهم ويغذى عاطفتهم، ويروى الجدب الروحى الذى يجده الإنسان - أى إنسان - إذا هو بات ليلة أو بعض ليلة على غير دين!

والملحدون الذين تعج بهم الدين فى الغرب والشرق أكثر الناس ظمأ إلى الدين وتطلعا إليه وبحثا عنه ووسواسا به.. وليست هذه المذاهب التى يعيش فيها الماديون من طبيعية ووجودية وغيرها إلا سعيا وراء الدين وإلا ملأ لهذا الفراغ الدينى الذى يجدونه فى كيانهم، ولا يجدون الدين الحق الذى يملؤه! وهم فى هذا معذورون.. وإلا فماذا يمنع الجائع الذى لا يجد الطعام الطيب الذى يسد جوعه إذا هو مد يده إلى الخبيث الذى تعافه النفوس من الطعام وتستقذره؟ ان هذا من ذاك سواء بسواء!

الشبهة الثانية: هى هل الدين الإسلامى دين يحمل فى كيانه من الحقائق ما يتقبله العقل «العصرى» ويجد فيه شيئا يمسك به ويقيمه على منطقه؟ وكيف تدعى الإسلام هذه الدعوى وهذه ثمراته ظاهرة فى أهله الذين يدينون به، وهى ثمرات معطوبة لا تشتهيها نفس ولا يستريح إليها نظر!

فحال المسلمين - فى أفرادهم وجماعاتهم وأمتهم - فى المستوى الذى لا يرضى أحد من الشعوب المتقدمة أن يكون عليه من الفقر والضعف فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعها.. فكيف يكون للإسلام وجه يطلع به على الحياة العصرية ويدعو أهلها إليه؟

والحق إن الذى ينظر إلى الإسلام من خلال أهله ويأخذه بحسابهم يفر من الإسلام ويصرف وجهه عنه إن لم يكن هناك طريق آخر يصله بالإسلام وبمبادئه اتصالا مباشرا لا يمر به على طريق يطلع منه على العالم الإسلامى وأحوال المسلمين اليوم!

إن الدين بأهله.. ولقد صغرت نفوسنا - نحن المسلمين - وضمرت ذاتيتنا فصغر فيها كل معنى كريم، وضمر فيها كل مثل فاضل.. إن النفوس المريضة تتغير فيها حقائق الأشياء، كما تتغير حقائق المرئيات وصورها فى العين المريضة، وكما تنحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم.

قد تنكر العين ضوء الشمس رمد.. وينكر الفم طعم الماء من سقم

والواقع أننا قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع أفسدت حياتنا وأنزلتنا منازل الهون فى دنيا الناس.. فاستعمرت أوطاننا بالدخلاء، وصار إلى غيرنا تدبير شئوننا وتوجيه حياتنا.. وكان من خداع المستعمر ومكره بنا وكيده لنا أن جعل من همه الأول إفساد عقيدتها.. وعزانا من ديننا، وخلق جفوة بيننا وبينه.. إذ كان يعلم أن الدين هو الذى يقف عقبة فى سبيل اماتة مشاعر الحياة الإنسانية الكريمة فى الشعوب التى يحتلها وأنه مادم للدين الإسلامى سلطان

على النفوس، وتحكم فيها، فإن الاستعمار لن يبلغ الغاية التى يريدها من استسلام الناس استسلاما مطلقا له يتمكن به من تضييع معالمهم ومسخ انسانيتهم، وتحويلهم إلى دمى تتحرك حسب مشيئته تبع اشارته.

ومن هنا كانت حرب الاستعمار للدين الإسلامى فى نفوس أهله وفى تصويره لنا بصورة الداء الذى أصابنا فى الصميم من حياتنا، فصار بنا إلى ما نحن فيه من ضعف وفقر وتخلف، وأنه لولا تمسكنا به لما كانت تلك حالنا ولما قالمت علينا تلك الوصاية القاهرة الظالمة من الأمم التى استولت على مواطن الإسلام.. هكذا ألقى الاستعمار إلينا بهذا الظلام المسموم فتلقاه كثير منا وكأنه نصيحة ناصح أمين، وتذكرة طبيب حاذق لمريض يشفق عليه، ويلتمس الدواء لعلته القاتلة!

ولقد عمل الاستعمار جاهدا على أن يمكن لهذا الضلال من نفوسنا وأن يغرى به الشباب خاصة بما أذاع بأساليبه وصنائعه من مفتريات على الإسلام وتهجم عليه وازدراء لأهله واستخفاف بمكانهم فى الحياة، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها.. بل وأكثر من هذا.. فلقد أرانا الاستعمار صورة عملية تعيش بيننا وتشهد لما يحدثنا به عن الإسلام وعن جنايته على المسلمين!

.. فالإستعمار إذا وضع يده على أوطان الإسلام كلها ترك فى وسط العالم الإسلامى بلادا غير مسلمة - كالحبشة مثلا - دون أن يمد إليها يدا، ليرى المسلمين من ذلك أن دينهم هو الذى جعل أوطانهم - دون سائر الأوطان - على هذه الحالة من الضعف الذى أغرى المستعمرين بهم ومكن منهم واقامة قيما عليهم حتى يرشدوا ويبلغوا مبلغ الرجال.. ولن يكون لهم ذلك إلا إذا تحللوا من هذا الدين وتركوه ورائهم ظهريا.

نشدان الحق للحق:

إن الإسلام شىء وأهله شىء آخر.. وانه إذا كانت قد عرضت للمسلمين عوارض الضعف والوهن فى فترة من فترات تاريخهم الطويل فليس من الإنصاف للإسلام أن يقام ميزانه على حساب تلك الفترة العارضة .. وان على الذى ينشد الحق للحق أن ينظر إلى الإسلام أولا وقبل كل شىء فى مبادئه وأحكامه، وفى تصوره للألوهية والحياة الآخرة وفى دعوته الأخلاقية لبناء الكيان الإنسانى وصلته بالمجتمع الإنسانى والحياة.. فإن وجد نظاما وضعيا أو دينيا عرفته الحياة قديما أو حديثا فى سياسة الأمم والشعوب، وفى إقامة موازين العدل بين الناس، وفى تنظيم العلاقات بينهم فى الحرب والسلم.. إن وجد نظاما وضعيا أو دينيا يقارب نظام الإسلام فى اعتداله وتواؤمه وتوافقه مع متطلبات الناس وواقع الحياة، فليقل فى الإسلام ما يقول، وليرمه بالسهم القاتل، وهو أنه ليس من عند الله، إذ لا يكون من عند الله شىء يكون فيه خلل أو اضطراب!

ثم ان من ينشد الحق للحق وينظر إلى الإسلام نظرا مباشرا ينبغى ألا يغفل عن تلك الفترة من تاريخ المسلمين يوم كان الإسلام قائد حياتهم وراية دولتهم ودستورهم العامل فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فذلك من شأنه أن يعطى الإسلام فرصته ليقيم بين دينى

الناظر إليه مجتمعا بشريا لم تعرف الحياة مثلا له فى ماضيها وحاضرها مجتمعا ملأ يديه من طيبات الحياة فى أصفى مواردها وأكرم منازلها دون أن ينسى نصيبه من معطيات الروح فكانت قدمه على الأرض ورأسه فى السماء.

مبادئ الإسلام التى كفلت له الظهور على كل الأديان

أولا: الإسلام دين الفطرة فهو لا يقاوم الفطرة بل يصلحها ويطهرها ولا يكبت الغرائز بل يقومها ويهذبها قوام تشريعه انه يحل الطيبات ويحرم الخبائث ويرفع الحرج ومن أجل ذلك يسر الأمور عند الشدة كقصر الصلاة للمسافر والفطر فى رمضان عند المرض أو السفر قال تعالى: (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) [٢٥] وهو ينفى المشقة ويقدر الضرورة ولا يكلف بما لا يطاق قال تعالى (لا يكلف الله نفسا إلى وسعها)[٢٦] وقال (فاتقوا الله ما استطعتم)[٢٧].

ثانيا: الإسلام دين الإجتماع فهو ينمى القوة ولا يخمدها ويؤلف الجماعات ولا يفضها (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)[٢٨] وقد نظم الإسلام الجماعة الإسلامية بما يكفل لها كل خير وسعادة تحث على الألفة والصفاء وجعلها أخص صفات المؤمنين وجعل قوام الجماعة الإسلامية التعاون على تهذيب النفس وصلاح الناس وقد أوجب الله اجتماع المسلمين وسنه فى مواضع كثيرة كالحج والجمعة والعيدين وأوجب على الأغنياء معونة الفقراء فكفل بذلك نظام الحياة الاقتصادية والاجتماعية بين أفراد الجماعة الإسلامية، ونهى عن المن والأذى والمباهاة والمراءاة وجعلها محبطة للصدقة، كما نهى عما يشوب صفو هذا المجتمع من الغيبة والنميمة والفتنة والوقيعة وتتبع عورات الناس والتجسس وسوء الظن والبغى والسخرية والسباب وشدد الشارع النكير على الغش والحقد والحسد وجعل الله كمال الإيمان أن يحب الإنسان لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.

ثالثا: الإسلام دين المساواة والانصاف وقد قرر الإسلام حق المساواة حطم الفوارق بين طبقات المسلمين جميعا وجعلهم أخوة متساويين فى الحقوق لأفضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

ونظم الحياة الزوجية بما يكفل لكل من الزوجين هناءته وسعادته، وحرر الضعفاء من ظلم الأقوياء والرقاب من رق المستعبدين، وهذب الرق وجعله ولاية وكفالة وأمر بتحرير الرقاب فى الكفارات وغيرها.

رابعا: الإسلام دين العلم والعمل وقد أطلق الإسلام عنان الفكر فى ملكوت السموات والأرض وصرف العقل وأوسع له المجال ليتدبر فى دقائق الأمور وخوافيها ولا تكاد تخلو سورة من القرآن عن الحث والدعوة إلى التبصر فى مصنوعات الله.

وقد جعل الله للمسلمين نصيبا فى التشريع بعد الكتاب والسنة واعتبر القياس والاجماع من مصادر التشريع الإسلامى وذلك ليحملهم على العلم والتفكير ولتكون الشريعة الإسلامية خالدة إلى يوم الدين وذلك هو الفوز العظيم.

وكما حث الإسلام على العلم حث على العمل والاخلاص فيه ولم يجعل الإسلام بين العهد وربه حجابا ولا وسيطا فلا يدنيه من الله أو يبعده عن رحمته إلا نيته وعمله فمن أخلص النية وأحسن العمل فقد هدى إلى صراط المستقيم ومن لم يخلص النية ولم يحسن العمل فقد باء بالخسران المبين.

خامسا: الإسلام دين التضحية فى الواجب والتفانى فى سبيله وقد طلب الإسلام من المؤمن أن يكون فدائيا يضحى بنفسه فى سبيل الله ويبيعها فى مرضاة الله وجعل ذلك أعلى درجات الإيمان لما فيه من السمو الروحى والخلقى والتجرد عن مآرب النفس وأهوائها.

سادسا: الإسلام دين السلام وقد بث الإسلام السلام والرحمة بين المؤمنين بما حثهم عليه من الألفة والمودة والمحبة والتعاطف وبما شرع لهم من قانون السلام.

وقد جاءت آيات القرآن كلها تحث على كظم الغيظ ودفع السيئة بالحسنة والاعراض عن الجاهلين حتى الذين شاقوا الله ورسوله، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باحتمالهم ومجادلتهم بالتى هى أحسن وضرب الله الأمثال لنبيه بالأنبياء قبله الذين احتملوا الأذى فى سبيل الله.

ولم يحارب الإسلام إلا أمما انغمست فى ظلمات الظلم وحمأة الشرك وأسرفت فى الشهوات والفتن وران على قولهم الجهل والضلال ذلك بعد أن دعاهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام بالحسنى وجادلهم بالتى هى أحسن فلم يزدادوا الأعداء وإلا ظلما وعدوانا فكان من الحكمة والمصلحة محاربة هذا الجهل لإصلاح الأجيال المستقبلة إلى يوم الدين، ولما كان الإسلام هو المقصد الأسمى والغاية العظمى من بعثته صلى الله عليه وسلم فقد جعله الله شعار الأمة المحمدية وتحيتهم عند اللقاء والوداع والسلام يجاب بالسلام والرحمة.. وبعد: فهذه اثاره من مبادئ الإسلام وهى أرفع ما عرفه الإنسان من قواعد الحياة السامية ولن ينقذ البشرية التى تهوى إلى قرار سحيق إلا أن تعتصم بهذه المبادئ فالإسلام فى هذا الجو العاصف القاصف هو وادى الأمن وركن السلام.(٢٩).

والسؤال الذى نسأله هنا هو: إذا كانت بعض الأديان - بما دخل عليها من تبديل وتحريف - قد فضحها العلم الحديث وانكشف للمتدينين بها ما تلبس بها من أوهام وخرافات، فهل وقع الإسلام تحت هذا الحكم الذى أصدره العلم الحديث على هذه الأديان وهل أمتحن الإسلام ومحصت حقائقه على ضوء العلم وفى مخابير الحياة ثم ظهر منه ما لا يرضاه العلم وما لا تقبله الحياة؟

إن الإسلام - وثوقا منه بما ضم عليه من حق وخير - ليفتح ذراعيه للعلم الحديث ويرحب به كل الترحيب، ويسعد السعادة كلها بلقاء العقول الناضجة المستنيرة له بكل ما وضعه العلم بين يديها من وسائل التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار والسليم والسقيم، فتلك هى فرصة الإسلام التى يظهر فيها كرم معدنه وتتجلى فيها عظمة حقائقه ويسفر بها وجهه المشرق الكريم.

إن هذا العصر - عصر العلم والشك، عصر الامتحان لكل شيء، عصر الالحاد وغربلة الأديان - هو عصر الإسلام، وهو اللسان المجد لدعوته حيث يجلى حقائق هذا الدين ويكشف عن الخير الكثير المخبوء للناس فيه.. ولا يريد الإسلام - ولا نريد له أن يتلقى الناس دعوته قضية مسلمه، بل إن ذلك لتأباه طبيعته التى تدعو العقل دائما وتأنس بصحبته، وتسعد بالحديث إليه والاستماع له.. فالذى يريده الإسلام - ونريده له - هو أن يضع العلماء والفلاسفة والمفكرون هذه العقيدة موضع الشك أو الانكسار - إن شاءوا - ثم ليعاملوها معاملة القضايا التى ينكرونها أو يتشككون فيها، وليسلموا عليها نظرا باحثة فاحصة، ثم ليقلبوها فى أيديهم ظهرا لبطن وبطنا لظهر، وليمنحونها بكل ما فتح به عليهم العلم من أساليب الامتحان، ثم ليحكموا بعد هذا على الإسلام بما يظهر لهم على محك الفحص والاختبار.

وان الإسلام ليتقبل هذا الحكم فى غبطة ورضا، لأنه لن يكون إلا شهادة بينة الحجة ساطعة البرهان على أن هذا الدين هو دين الحق، دين الله الذى أراده لخير الإنسانية وإسعادها.. إن العلم الحديث هو فرصة الإسلام التى تتجلى فيها معجزته من جانبها العلمية والسياسية والاجتماعية، فيرى العقل الحديث منها أنه أمام عجزة قاهرة متحدية، لا يملك إلا التسليم لها والسجود بين يديها تماما، كما تجلت معجزته البيانية للأمة العربية يوم كان سلطان البيان هو الذى يحكم هذه الأمة، ويستولى على مواطن الإدراك والشعور منها، فآمنت به وسجدت بين يديه.

وهذا هو كتاب الإسلام، وتلك هى حجته القاذمة، ودستوره المسطور فى القران الكريم.. انه يقدم نفسه لكل من يريد النظر فيه والتعرف إليه غير ؟؟ إلى تأويل أو تفسير، فلسانه أفصح من كل لسان، وبيانه أوضح من كل بيان.. فالذين يعرفون العربية يعرفون طريقهم إليه ففى غير عناء، ويضعون أيديهم على حقائقه من غير معاناة .. والذين لا يعرفون العربية يمكن أن تترجم لهم حقائقه، كما تترجم الدساتير القانونية والحقائق العملية، ولا عليهم ان فإنهم إعجاز الكلمة، فإن الحقائق التى تصل إليهم من خلال الترجمة كافية فى الكشف عن وجوه أخرى من الاعجاز، ممثلة فى محكم أحكامه وروعة حقائقه وخلود مقرراته والإسلام - فى يسره وسماحته ومواء منه للفطرة الإنسانية - قريب من كل نفس، واضح لكل ذى نظر، واقع فى فهم كل ذى فهم، تلتقى عنده عقول المتعلمين والعلماء، وتجتمع عليه أنظار العامة والفلاسفة بحيث يجد فيه كل عقل ما يغنيه ويرضيه، ويأخذ منه كل نظر ما يرشده ويسعده.. هكذا دائما آيات الله المبثوثة فى هذا الوجود مما يمسك على الناس حياتهم، ويحفظ وجودهم، ولا تقصر عنها يد، ولا يستأثر بها إنسان دون إنسان، أو تختص بها جماعة دون جماعة أو أمة دون أمة انها من الله ولعباد الله، كالماء والهواء والشمس والقمر والنجوم.. وإن كان لأحد أو لجماعة أو أمة نصيب أوفر أو حظ أعظم، فهومما زاد الحاجة التى لاتتطلبها ضرورات الحياة، وإن كان فيها متعة فوق متعة ورضا فوق رضى.. فصاحب النظر الحديد يرى من جمال الوجود وروائع آياته ما لا يراه صاحب النظر الكليل وصاحب الشم السليم يجد من طيب الظهر وعبيره ما لا يجده المزكوم ومثل هذا تماما موقف الناس جميعا أمام القران الكريم، وما

تحمل سورة من آيات الله البينات.. الناس كلهم بين يديه - على اختلاف حظوظهم من العلم والمعرفة - على مائدة طيبة طعامها لكل عقل، وشرابها مرئ سائغ لكل قلب ن طعم منها لا يجد الجوع العقل أبدا ومن روى منها لايعرف الظمأ الروحى أبدا.. وتلك هى معجزة القران القائمة على الناس أبد الدهر، وتلك هى حجة الله على من أخلى عقله وقلبه من الدين أو دان بغير دين الحق.. دين الله الذى ارتضاه لعباده كما يقول الحق جل وعلا (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[٣٠] وكما يقول سبحانه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)[٣١].

إن الأيام ستثبت صدق هذه الدعوى التى ندعيها لعالمية الإسلام، لأننا لا نقيم هذه الدعوى على عاطفية دينية نحو الدين الذى ندين به وإنما نقيمها على ما نستشفه من كلمات الله، بل على ما تكاد تصرح به كلمات الله لمن أصغى إليها باذن واعية والتفت نحوها بقلب سليم، ونظر فيها بعقل متحرر من التعصب والهوى.

تحقيق وعد الله

وكذلك أنجز الله لهؤلاء المؤمنين الخلص الذين استمسكوا بدينهم ما وعدهم به من ظهور هذا الدين على جميع الأديان فسرعان ما انتشر الإسلام فى جزيرة العرب وجاوزها إلى أكبر ممالك الدنيا قد أنت لسلطانه فارس والروم وما وراءهما من أقطار وأمصار ورفرفت راية الإسلام عالية على معظم أقطار الدنيا المعروفة إذ ذاك وما كان انتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها بهذه السرعة التى لا نظير لها فى التاريخ إلا بفضل مبادئه القوية، واخلاص المؤمنين لهذه المبادئ وتمسكهم بها، والمسلمون الآن وهم على ما هم عليه من الضعف والاستكانة والتواكل عن مبادئ الدين قد صاروا عبئا ثقيلا على الإسلام وعنوانا غير صالح له فمن العنت فى الرأى والعدول عن جادة الانصاف أن يخلط الباحث بين الإسلام ومسلمى هذا العصر وأن يرسم صورته فى حالهم ويرهن مآله بمآلهم.. ولو أن المسلمين عرفوا الله حق معرفته واتقوه حتى تقاته وساروا كما رسم الدين رحماء متوادين أخوة متعاونين متجهين إلى غاية واحدة هى اعلاء كلمة الله والاعتصام بحبل الله لحقق لهم ما وعد به عباده الصالحين. ولكنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم وأوهنوا دينه فأوهن قوتهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ولعل الله أن يهديهم سبيل الرشاد ويقيض لهذا الدين من زعمائه وعلمائه من يعلى كلمته ابتغاء وجه الله ويكون شعاره شعار النبيين يدعون إلى الله ويجاهدون فى سبيل الله (يا قوم لا أسألكم عليه ما لا أن أجرى إلا على الله)[٣٢] ولعل فى هذه الأحداث الراجفة ما يوقظهم من سباتهم ويرد إليهم صوابهم ويجمع شتاتهم فيعتصموا بحبل الله جميعا ويعيدوا للإسلام عزه السالف ومجده التالد فيجد الخائف أمنه والعافى راحته والعالم كله عصمته وسعادته هذا ما كفله الله للمؤمنين إن هم استمسكوا بدينهم (وكفى بالله شهيدا) على إنجاز ما وعد به رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق وأيده بالمعجزات وأظهر دينه على جميع الأديان.

وأن المرء عندما يقرأ هذه الآيات ـ التى نعيش معها ـ يجد فى قسمات وجهها السماوى الوضىء ملء مشاعره يقينا بأنه أمام معجزة من معجزات الكتاب الكريم تكشف له عن مستقبل الإسلام، وتشير إلى يوم قريب فى دورة الزمن، تصبح فيه الإنسانية كلها وقد دانت بهذا الدين ورضيت بما ارتضاه الله لها فى قوله سبحانه (ورضيت لكم الإسلام دينا).. هذا وقد استظهر بعض العلماد المشغلين بالدراسات الإسلامية، استظهر مع مسيرة الإسلام فى فلك النبوة ـ والذى كانت دورته فيها ثلاثا وعشرين سنة ـ ان للإسلام دورة فى فلك خارج فلك النبوة أشبه بهذه الدورة، مدتها ثلاثة وعشرون قرنا، أى أن كل سنة من عثر النبوة تمثل قرنا كاملا فى تلك الدورة الجديدة .. كما استظهر أيضا أن الثلاثة عشر عاما الأولى التى عاشتها الدعوة الإسلامية فى دائرتها الضيقة وفى مواجهة الكيد لها والمكر بها والتضييق على اتباعها قبل الهجرة النبوية.

هذه المدة تمثل الثلاثة عشر قرنا التى انسلخت بعد عصر النبوة والتى تحرك فيها الإسلام تحركات محدودة خلال هذه الدورة أشبه بما كان له من تحركات فى تلك الفترة بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة قبل الهجرة النبوية.

وان الإسلام وبعد هذه القرون الثلاثة عشر التى مضت سينطلق من محبسه كما انطلقت دعوته بعد الهجرة، وستكون له فتوحات فى آفاق الأرض كلها، كما كانت له فتوحاته فى الجزيرة العربية التى دانت كلها بدين الإسلام قبل أن يلحق النبى بالرفيق الأعلى، وقد تحقق له ما وعده الله سبحانه وتعالى به فى قوله جل شأنه (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا).

فالقرون العشرة المقبلة ـ كما استظهر هذا العالم ـ هى انطلاقة جديدة للإسلام أشبه بانطلاقته التى كانت له بعد الهجرة فى سنواتها العشر، وستكون هذه القرون العشرة كما كانت تلك السنوات العشر تميكنا للإسلام وتثبيتا لقواعده وامتدادا لدولته، حتى تدين به الجزيرة الأرضية جميعها، كما دانت له الجزيرة العربية كلها من قبل (لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٢٣].

أما بعد هذه القرون العشرة فقد تبدأ دورة جديدة للحياة الإنسانية كلها أو قد ينتهى عمر الإنسان على هذه الأرض وعلم ذلك عند علام الغيوب.

أكلهم أموال الناس بالباطل

تقدم فى هذا السياق أن اليهود والنصارى ما أمروا: «الا ليعبدوا إلها واحدا، فعبدوا غيره من دونه، وأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذى أفاضه على عباده برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله لا يريد اطفاءه بل يريد اتمامه وقد فعل.. فناسب أن يبين مع هذا شىء من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العملية، ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التى تحملهم على محاولة اطفاء نور الله تعالى، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم.. ومن

يم تخطو السياق الخطوة الأخيرة ف يهذا المقطع من السورة، مصورا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بعدما أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) التى فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم «أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم».. فبين أنهم اذن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، إنما يحرمون ما حرمه عليهم الأحبار والرهبان! يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى بيان هذه الحقيقة، مخاطبا بها الذين آمنوا، كاشفا لهم فى هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب (يا أيها الذين أمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله).

وهو استطراد فى بيان دور الأحبار والرهبان الذين اتخذتهم أهل الكتاب أربابا من دون الله، فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء .. فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون أنفسهمن ويجعلهم قومهم أربابا تتبع وتطاع، وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

ولابد أن نلحظ الدقة القرآنية فى التعبير، والعدل الإلهى فى تحرى الحق، وذلك فى قول الله تعالى: (إن كثيرا من الأحبار والرهبان للاحتراز من الحكم على القليل منهم، الذى لا يزاول هذه الخطيئة والقران العظيم لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسهم أو ظلمهم، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه [٣٤] إذ لابد من أفراد فى آية جماعة من الناس فيهم بقية خير، ولا يظلم ربك أحدا.

وعبر عن أخذ الأموال والتصرف فيها بوجوه الانتفاع، بـ«الأكل» لأنه يعد أعم أنواع الاستعمال والتصرفات، ولأن المقصود الأعظم من جمع الأموال هو الأكل فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده.. والمعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو أخذها بغير وجه شرعى من الوجوه التى يبذل الناس فيها هذه الأموال بحق يرضاه الله عز وجل، وهو أنواع كثيرة.

أنواع أخذهم الأموال بالباطل

١. ما يبذله له كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله زاهد فى الدنيا، ليدعو لهم ويشفع لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم لاعتقادهم أن الله يستجيب دعاءه ولا يرد شفاعته، أو لظنهم أن الله تعالى أعطاه سلطانا وتصرفا فى الكون فهو يقضى الحاجات من دفع الضر عمن يشاء وجلب الخير لمن شاء متى شاء كما هو المعهود من الوثنيين فى الأصل، وممن طرأت عليهم العقائد الوثنية من أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون المضلون بأنها لا تتنافى التوحيد الذى جاء به الرسل.

٢ـ ما يأخذه سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التى بنيت بأسمائهم من الهدايا والنذور التى يحملها إلى تلك المواضع أمثال من ذكرنا ممن لا يعقلون معنى التوحيد المجرد.. والنصارى يبنون الكنائس وأديرة بأسماء القديسين والقديسات فتحبس عليها الأراضى والعقارات، وتقدم لها النذور والهدايا تقربا إلى تلك الأسماء أو المسميات.

وهذا وما قبله مما اتبع المسلمون فيه ينضهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، مصداقا للحديث النبوى الصحيح.. والوقف على الدير أو الكنيسة عندهم كالوقف على المسجد عندنا.. قربة حقيقية .. فأخذ المال واعطاؤه فى بناء المعابد حق فى أصل كل دين سماوى، وإنما البدع الوثنية فى المعابد هى المتعلقة بعبادة من ينسب إليه المعبد ويوضع له فيه قبر أو صورة أو تمثال، فيدعى فيه مع الله تارة ومن دونه تارة، وينذر له وحده آونة ومع الله آونة .. فهذه بدع تتبرأ منها أديان الأنبياء الموحاة إليهم من الله عز وجل، والنفقة فيها كلها من الباطل وأكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

٣. ما هو خاص بالنصارى، بل ببعض فرقهم كالأرثوذكس والكاثوليك وهو ما يأخذونه جعلا على مغفرة الذنوب أو ثمنا لها، ويتوسلون إليها بما يسمونه «سر الاعتراف».. وهو أن يأتى الرجل أو المرأة القسيس أو الراهب المأهذون له من الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب، فيخلوا به أو بها فيقص عليها الخاطئ ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له لأن من عقائد الكنيسة أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله تعالى.. وقد كان لبيع الباباوات للغفران نظام متبع فى القرون الوسطى للنصرانية، وكان الثمن يتفاوت بقدر ثروة المشترين من الملوك والأمراء والنبلاء وكبار الأغنياء فمن دونهم وكانوا يعملون بالمغفرة «صكوكا» يحملونها ليلقوا الله تعالى بها.. وكان هذا الخطب الكبير من غلو الكاثوليك فى استغلال سلطتهم الدينية أعظم أسباب الخروج عليهم، والانقلاب الكبير الذى يسمونه الاصلاح «البروتستانت» إذ ترتب عليه فسا دكبير فى استباحة الفواحش وكبائر المعاصى.. والاعتراف فى الأصل لم يوضع له ثمن، ولكن سوء استعمال بعض رجال الدين له أغراهم بجعله وسيلة لسلب المال.. وفى القوانين السرية لبعض الرهبنات الكاثوليكية مواد صريحة فى ذلك.

٤. الفتاوى:

ما يؤخذ على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال.. فأولو المطامع والأهواء يفتون الملوك والأمراء وكبار الأغنياء بما يساعدهم على ارضاء شهواتهم والانتقام من أعدائهم أو ظلم رعاياهم ومعامليهم بدروب من الحيل والتأويل يصورون به النوازل بغير صورها، ويلبسون به المسائ أثوابا من الزور تلتبس بحقيقتها.. وفى المادة الثانية من الفصل الثانى من التعاليم السرية للرهبنة المشار إليها آنفا وجوب التساهل مع الملوك وعشائرهم فى الزواج غير الشرعى، وغفران أمثال هذه الخطيئة وغيرها لهم، واستخراج براءة من البابا لهم بالمغفرة، بل فى تلك المادة نص فى وجوب التساهل فى الاعتراف والغرفة حتى لخدم الملوك والأمراء.. ومن هذا النوع ما خاطب الله تعالى به أحبار اليهود خطاب الاحتجاج والتوبيخ بقوله تعالى: (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)[٣٥].

٥. ما تيسير لهم سلبه من أموال المخالفين لهم فى جنسهم أو دينهم من خيانة وسرقة وغيرها، كما قال تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤمه إليك ومنهم من ان تأمنه

بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون[٣٦] يعنون ان الله حرم عليهم أكل أموال اخوانهم الإسرائيليين بالباطل، دون الأميين وهم العرب، وكذا سائر الطوائف، وفى هؤلاء يقول البوصيرى فى سرد ما خالف اليهود فيه الحق وادعوا أنه مشروع لهم «وبأن أموال الطوائف حللت لهم ربا وخيانة وغلولا».

٦ـ الرشوة:

وهى ما يأخذه صاحب السلطة الدينية أو المدنية رسمية أو غير رسمية من المال وغيره لأجل الحكم، أو المساعدة على ابطال حق أو احقاق باطل، وهو فى معنى الأخذ على الفتوى.. وهما ما أتبع فيه بعض فقهاء المسلمين وحكامهم سنن أهل الكتاب أيضا.

٧ـ الربا:

حتى الفاحش منه، وهو فاش عند اليهود والنصارى، ولكن منه ما يحله لهم رجال الدين. ومنه ما يحرمونه فى الفتوى وكتب الشرع.

واليهود: أساتذة المرابين فى العالم كله، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير اخوتهم الإسرائيليين، ويأكلونه معهم مستحلين له بنص فى توراتهم المحرفة بدلا من نهيهم عنه.. وقد تكرر فى التوراة النهى عن أخذ الربا والمرابحة واقراض النقد والطعام بالربا مطلقا.. وذكر «الأخ» فى نصوص النهى سببه أنه نص فى المعاملة مع الخاضعين لشريعتهم، وهم لا يكونون إلا منهم، لأنها خاصة بهم.. وفى سفر تثنية الإشتراع «١٩:٢٣» لا تعرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا «٢٠» للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها».

المراد بالأجنبى هنا ـ ان كان من الأصل ـ هو العدو الحربى الذى كانوا مأذونين فى شريعتهم بقتاله لامتلاك بلاده، وهذا قد مضى.. ولا يصدق على كل من كان غير إسرائيلى فى أى بلد من بلاد الله تعالى.. خلافا لما يجمعون عليه إلى اليوم.. والظاهر أنهم يعدون عرب فلسطين المالكين لمعظم أرضها أعداء حربيين، كالذين كانوا فيها عند مقاتلة «يوشع لهم» ويستحلون سلب أموالهم وسفك دمائهم ان استطاعوا، لأنهم يزعمون أن أنبياءهم وعدوهم بأن هذه البلاد كلها وما فيها من موضع هيكل سليمان ستعود إليهم كما وعد الرب أجدادهم من قبل يجعلها لهم، ولكن وعد أنبيائهم مقيد باتيان المسيح، وقد أتى وكذبه أكثرهم.. فإن كانوا ينتظرون غيره فليصبروا إلى أن يأتى ويصدق بشارات الأنبياء.. وأما التعدى على أهل البلاد ومحاولة سلب أرضهم وعقارهم منهم بتسخير بعض الدول التى تعبد المال بمالهم لمساعدتهم على هذا الظلم، فليس له شبهة فى تلك البشارات.

ولكن عند المسلمين بشارة أصح وأصرح من بشارتهم، وهو اخباره صلى الله عليه وسلم لهم بأن اليهود يقاتلونهم فيظهرهم الله تعالى عليهم.. فانتظروا أنا منتظرون.

على أن اليهود لم يقفوا فى الربا عند حد، فقد صاروا يأكلون الربا من اخوتهم الفقراء

وهم منهيون فى التوراة عنه بلفظ : «شعبى الفقير» كما يروى فى سفر الخروج «٢٢ : ٢٥» وقد وبخهم على ذلك «نحميا» الذى كان صاحب السعى الأول لاطلاقهم من السبى، والمعبد لبناء أورشليم بعد خرابها، والحاكم فيها والمقيم للسبت وسائر الشرائع التى كتبها لهم رفيقة العزيز «عزرا»[٣٧] وفى نبوة «حزقيال» نهى لهم عن الربا تارة بالاطلاق وتارة بتخصيص الفقير، كما ترى فى الاصحاح ١٨ منه.. وكذلك داود عليه السلام: أطلق القول فى ذم الربا والرشوة فى آخر المرمور الخامس عشر وأما النصارى فقد وضع لهم الأساقفة أحكاما للربا والقروض فيما يسمونه الكهنوت الأدبى، يبيحون فيها بعض الربا دون بعض.. وهم كاليهود فى المعاملات الربوية الرسمية، وليس من موضوعنا بيان هذا بالتفصيل، وإنما موضوعنا أن الربا المحرم عند الله تعالى على ألسنة انبيائه لضرره مما يأكله رهبانهم أفرادا وجماعات، وأن لبعض رهبنانهم جميعات غنية معظم ثروتها من الربا، منها جمعيات كانت قد أسست بأرض فرنسا مصرفا ماليا جمعوا فيه من الأمانات ألوف الألوف، ثم ادعوا افلاسه، فضاعت تلك الأمانات الكثيرة على مودعيها فى مصرفهم، فهاج عليهم الناس هيجة شؤما، فكانوا يبيحون عليهم فى اديارهم ويقتلونهم تقتيلا، ثم طردتهم فرنسا من بلادها، ولنا تساعدهم فى مستعمراتها وغيرها من بلاد الشرق لترويجهم لسياستها.

وقد أطلعت على نظام فى الطرق الخفية التى يجمعون بها أموال من أهل دينهم ومذهبهم ومن أهمها حمل الأغنياء ولاسيما المثريات من النساء، على الوصية لجمعيتهم أو بعض أديارهم وكنائسهم أو الوقوف عليها، وقد أتقنت رهبانهم جمع المال ثم أتقنت الانتفاع به فى دينها التقليدى ودنياها وأخذت رهبنات الشرق النظام عنها.. وماذا فعل المسلمون فى أوقافهم وخدمة دينهم.

صدهم عن سبيل الله؟

ومن جرائم الأحبار والرهبان صدهم عن سبيل الله، وهو منعهم الناس من الإسلام فإن سبيل الله فى الدين هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة ورأس معرفته التوحيد والنزيه وهم مشركون غير موحدين، ومشبهون غير منزهين، كما علم من الآيات السابقة، فاليهود قد تركوا جل ما شرعه لهم حتى القرابين والتقدمات، إذ يزعمون أن شرطها أن تفعل فى هيكل سليمان، مع أن الله شرع الشرائع على لسان موسى قبل سليمان عليهما السلام، ثم كفروا بالمسيح المصلح الأكبر فى شريعتهم.. والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسيين وجل عبادتهم من صلاة وصيام مبتدعة لم تكن فى عهد المسيح، فمعرفة الله تعالى وعبادته على الوجه الحق المرضى له تعالى محصورة فى الإسلام الذى حفظ الله كتابه المنزل وما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.. وكل ما ابتدعه جهلة المسلمين والكائدون له من غيرهم، فالقرآن الحكيم والسنة الصحيحة حجة على بطلانه وعلى أهله، يقيمها أنصار السنة عليهم فى كل زمان، فسبيل الله اذن هذا الإسلام إسلام القرآن والسنة الصحيحة.

وأما طرق صدهم عن الإسلام فهى تختلف باختلاف الزمان والمكان والامكان، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الد عن طريقى السياسة والدعوة معا وكل ذلك داخل فى معنى الآية،

لأن الخير فيها بصيغة المضارع الذى يدل على الحال والاستقبال، وهى من كلام علام الغيوب.. وهم لا يقنعون بعد أهل مللهم عن الإسلام، بل يصدون أهله عنه ويدعونهم إلى دينهم الملفق من الأديان الوثنية الحقيرة، وقسمت أممهم ودولهم البلاد الإسلامية إلى مناطق نفوذ دينية تبشرية تابعة لمناطق النفوذ السياسية الدولية.. وقد اشتدت ضراوتهم بعد الحرب العالمية الأولى بسلب البلاد الإسلامية ما بقى من استقلالها، وتصميم النصرانية فى جميع أهلها، حتى الجزيرة العربية مهد الإسلام ومعقله ومأرزه، وعقدوا للتنصير عدة مؤتمرات دولية، وألفوا للتمهيد له كتبا كثيرة، وقد سخروا بعض أمراء المسلمين المستبعدين وشيوخ الطرق والفقه المنافقين لشد أزرهم.. فماذا تنكر بعد هذا من تسخير زنادقتهم وملاحدتهم، وهذا وأن أشد طوقهم فى الصد عن الإسلام فظاعة وقبحا واهانة لهو الطعن فى النهى الأعظم والقران الكريم، وأشد منه وأضر تعليم المدارس التى يفسدون بها عقائد النشء والتى يتربى ويتعلم فيها، ولكن أكثر مسلمى الأمصار لا يعقلون كفه مفاسدها وسوء عاقبتها فى الدين والأدب وسياسة الأمة واستقلالها.

ويؤخذ من الآية: التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عينية: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.

كنزهم الذهب والفضة

والكثير من الأحبار والرهبان يكنزون هذه الأموال التى يأكلونها بالباطل، وقد شهد تاريخ هؤلاء الناس أموالا ضخمة تنتهى إلى أيدى رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاه!

والسياق القرآنى يصور عذابهم فى الآخرة بما كنزوا، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها فى سبيل الله، فى مشهد من المشاهد التصويرة الرائعة المروعة (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب إليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتهم لأنفسكم فقذوقوا ما كنتم تكنزون)[٣٨].

إن رسم المشهد هكذا فى تفصيل.. وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة ليطيل المشهد فى الخيال والحس، وهى إطالة مقصودة (فبشرهم بعذاب أليم) .. ويسكت السياق، وتنتهى الآية على هذا الاجمال والابهام فى العذاب.

ثم يأخذ فى التفصيل بعد الاجمال ليبين هذا المصير المشئوم الذى سيؤول إليه هذا المال الكثير بمن أكتنزوه، وأنهم إذ خلفوه وراءهم فلم ينفقوه فى سبيل الله، فإنه قد تبعهم إلى آخرتهم ليلقاهم هناك فى يوم القيامة حيث لا بيع ولا شراء.. ولكن لابد أن يكون لهذا المال عمل، وقد صار إلى يد أربابه (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) وحين يتصل هذا المال سيتحول لى كتل من الجمر، وينتظر السامع عملية الاحماء!

.. ثم ها هى ذى حميت واحمرت وها هى ذى معدة مهيأة.. فليبدأ العذاب الأليم..

ها هى ذى الجباه تكوى..

لقد انتهت عملية الكى فى الجباة، فليداروا على الجنوب..

ها هى ذى الجنوب تكوى..

لقد انتهت هذه، فليدأروا على الظهور..

ها هى ذى الظهور تكوى..

لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتأنيب..

(هذا ما كنزتكم لأنفسكم).. هذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب!

(فذوقوا ما كنتم تكنزون)! ذوقوه بذاته فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه! إلا انه لمشهد مفزع مروع، يعرض فى تفصيل وتطويل وأناة!

وهو يعرض أولا لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان، لم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها فى سبيل الله.. والسياق يمهد لغزوة العسره كذلك يوم ذاك!

وقفة قصيرة للتعقيب

وبعد فلابد من أن نقف هنا وقفة قصيرة للتعقيب، نبرز فيها دلالة هذا البيان الربانى لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة ومن دين ومن خلق ومن سلوك - وذلك بالإضافة إلى الاشارات التى أوردناها خلال الفقرات السابقة.

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيىء من دين الله، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين فى شركهم، الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم.

ذلك أن نفوس المسلمين لا تنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهفية الاحين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية ! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب (ومن يزعمون أنهم على شيىء من دين الله من أمثالهم، كالشأن فى الغالبية العظمى ممن يدعون أنفسهم اليوم "مسلمين"!).

ولقد احتاج الانطلاق الكامل لمواجهة المشركين كثيرا من البيان فى هذه السورة نظرا للملابسات المتقدمة فى المقدمة وفى التقديم للباب الأول منها، كذلك حيث قال الله سبحانه للمؤمنين: (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) (كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا دمة يرضونكم بأفواهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) (الا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه أن كنتم مؤمنين) (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) (لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء أن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون)..

وإذا كان الانطلاق لمجاهدة المشركين قد اقتضى كل هذه الحملة - وأمرهم ظاهر - نظرا تلك الملابسات التى كانت قائمة فى التكوين العضوى للمجتمع المسلم فى تلك الفترة.. فقد كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب فى حاجة إلى حملة أشد وأعمق، تستهدف أول ما تستهدف تعرية أهل الكتاب هؤلاء من تلك (اللافتة) الشكلية التى لم تعد وراءها حقيقة، وتظهرهم على حقيقتهم الواقعية.. مشركين كالمشركين.. كفارا كالفكار،، محاربين لله ولدينه الحق كأمثالهم من المشركين الكافرين.. ضلالا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.. فى مثل هذه النصوص القاطعة الصريحة.. وما علينا الا أن نقرأ هذا المقطع كله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق) (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم) (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم) (إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل. ويصدون عن سبيل الله)..

وذلك بالإضافة إلى التقريرات القرآنية الحاسمة - فى السور المكية والمدنية على السواء عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر والخروج من دين الله الذى جاءهم به انبياؤهم من قبل، فضلا على وقفتهم من رسالة الله الأخيرة التى على أساس موقفهم منها بتحدد وصفهم بالكفر أو بالايمان.

فلقد سبق أن وجه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيىء من دين الله أصلا فى قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب لستم على شيىء حتى تقيموا التوراة، والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منها ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين) (٣٩)

كذلك سبق وصفهم بالكفر وضمهم إلى المشركين فى هذه الصفة.. يهودا ونصارى.. أو مجمتعين فى صفة (أهل الكتاب) فى مثل قوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) (٤٠)(لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم) (٤١) (لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة)(٤٢) (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين آوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) (٤٣)

وغيرها كثير أثبتنا بعضه فيما تقدم.. والقرآن الكريم - مكية ومدنية - حافل بمثل هذه التقريرات..

فرق مابين المشركين وأهل الكتاب:

وإذا كانت الأحكام القرآنية قد جعلت لأهل الكتاب بعض الامتيازات فى التعامل عن المشركين، وذلك كإحلال طعامهم للمسلمين، واجازة التزوج بالمحصنات (أى العفيفات) من نسائهم.. فإن ذلك لم يكن مبنيا على أساس أنهم على شيىء من دين الله الحق، ولكن كان

مـراعى فيـه ـ والله أعلم ـ أن لهـم أصـلا من دين وكـتـاب ـ وأن كـانوا لا يقـيمـونه ـ فمن الممكن محـاكمـتـهم إلى هذا الأصل الذى يـدعـون أنهم عليـه! فهم فـى هذا يفـتـرقـون عن المشـركـين الوثنيين الذين لا كتاب لهم، لأنه ليس لهم من أصل يردون إليه ويمكن محاكمتهم له..

حقيقة ما عليه أهل الكتاب من العقيدة

أما تقريرات القرآن عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة ودين فهى صريحة وحاسمة فى أنهم ليسوا على شيىء من دين الله، بعد ما تركوا كتبهم ودينهم إلى ذلك الذى صنعه لهم أحبارهم ورهبانهم ومجامعهم وكنائسهم! وفى قول الله سبحانه فصل الخطاب فى هذا الموضوع!

والمهم الآن أن نبرز دلالة هذا البيان الربانى لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من العقيدة والدين.. أن هذه (اللافتة) المضللة التى ليس ورائها شيىء من الحقيقة تحول دون الانطلاق الإسلامى الكامل لمواجهة (الجاهلية)، فتتحتم ـ اذن ـ ازالة هذه اللافتة وتعريتهم من ظلها الخادع، وكشفهم على حقيقتهم الواقعة.. ولا نغفل الملابسات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يوم ذاك ـ والتى أشير إليها من قبل سواء منها ما يختص بالتكوين العضوى لهذا المجتمع يومها، وما يختص بظروف الغزوة ذاتها فى الحر والعسرة! وما يختص كذلك بالتهيب من لقاء الروم بسبب ما كان لهم فى نفوس العرب قبل الإسلام من هيبة وسمعة ومخافة!.. ولكن الأعمق من هذا كله هو ما يحيك فى النفس المسلمة عند الأمر بقتال أهل الكتاب على هذا النحو الشامل وهم أهل كتاب!!

حرصهم على رفع لافتة إسلامية خادعة مخدرة:

وأعداء هذا الدين الراصدون لحركات البعث الإسلامى الجديدة فى هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية، وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء.. وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص ـ على رفع (لافتة إسلامية) على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التى يعدونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامى الجديدة فى ارجاء الأرض جميعا، ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقى لمواجهة (الجاهلية) الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة..

وقد أخطأوا ـ مضطرين ـ مرة أو مرات فى إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات، وفى الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنقضة على الإسلام فيها.. وأقرب مثال لذلك حركة (اتاتورك) اللا إسلامية الكافرة فى تركيا.. وكان وجه الاضطرار فيها هو حاجتهم الملحة إلى الغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامى تحت راية العقيدة، ذلك المظهر الذى كان يتمثل فى قيام (الخلافة).. وهو ـ وأن كان مجرد مظهر ـ كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة! كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينقض هذا الدين عروة عروة، فأولها الحكم وآخرها الصلاة)(٤٤)

ولكن أولئك الأعداء الواعين ـ من أهل الكتاب والملحدين الذين لا يجتمعون الا حين تكون

المعركة مع هذا الدين! لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطرار فى الكشف عن الوجهة اللا اسلامية الكافرة فى حركة (اتاتورك) حتى عادوا يحرصون بشدة على ستر الاوضاع التالية المماثلة لحركة اتاتورك فى وجهتها الدينية، بستار الإسلام، ويحرصون على رفع تلك اللافتة الخادعة على تلك الأوضاع - وهى أشد خطرا على الإسلام من حركة اتاتورك السافرة - ويفتنون افتنانا فى ستر حقيقة هذه الأوضاع التى يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ويهيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخابراتهم وبأدوات اعلامهم العالمية، وبكل ما يملكون من قوة وحيلة وخبرة، ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها، لتؤدى لهم هذه المهمة التى لم تنته منها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا، يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام واعدائه المكشوفين الظاهرين!

والسذج ممن يدعون أنفسهم (مسلمين) يخدعون فى هذه اللافتة.. ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام فى الأرض! فيتحرجون من انزالها عن (الجاهلية) القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الاوضاع بصفتها الحقيقية التى تحجبها هذه اللافتة الخادعة.. صفة الشرك والكفر الصريحة.. ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك!

وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقى الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة! بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطره لحركات البعث الإسلامى، كما تقوم حاجزا دون الوعى الحقيقى، ودون الانطلاق الحقيقى لمواجهة جاهلية القرن العشرين التى تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين.

هؤلاء السذج من الدعاة إلى الإسلام - أخطر فى نظرى على حركات البعوث الإسلامية من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التى يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين..

إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعى بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة فى نفوس العصبة المؤمنة - فى أى زمان وفى أى مكان - والخطر الحقيقى على هذا الدين ليس كامنا فى أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون، بقدر ما يمكن فى أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتحرجون فى غير تحرج، ويقبلون أن يشترى أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة!..

واجب الدعاة:

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين فى الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية والتى تحمى هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين فى الأرض جميعا! وأن نقطة البدء فى أية حركة إسلامية هى تعرية الجاهلية من رداءها الزائف واظهارها على حقيقتها.. شركا وكفرا.. ووصف الناس بالوصف الذى يمثل واقعهم، كيما ما

تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم - وهى الحقيقة التى انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير - عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم، ليغير الله مابهم من الشقوه والنكد والعذاب الاليم الذى هم فيه مبلسون!

وكل تحرج فى غير موضعه، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات، هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأية حركة إسلامية فى الأرض جميعا، وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذى ارادوه بالحصر على اقامة تلك اللافتات بعدما انكشفت حركة (اتاتورك) فى التاريخ الحديث، وباتت عاجزة عن المضى خطوة واحدة بعد الغاء آخر مظهر من مظاهر التجمع الإسلامى على أساس العقيدة، نظرا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف الصريح .. مما دعا كاتبا صليبيا شديد المكر عميق الخبث مثل (ولفورد كانتبول سميث) فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث» إلى محاولة تغطية حركة اتاتورك مرة أخرى، ونفى الالحاد عنها، واعتبارها أعظم وأصح حركة لبعث «إسلامى» «كذا» فى التاريخ الحديث!!!

الهوامش

١) اذ الارادة فى الأصل: القصد إلى الشيىء وقد تطلق على ما يفضى إليه وأن لم تتصوره ف اعله. يقال فى الرجل المسرف المبذر: يريد أن يخرب بيته أو أن يترك أولاده فقراء، أى أن تبذيره يفضى إلى ذلك. فكأنه يقصده، لأن فعله فعل من يقصد ذلك.

٢) جواب "لو" محذوف للعلم به مما قبله كما يقول النحاة

٣) النساء ١٧٤

٤) الاعراف ١٧٥

٥) التغابن ٨

٦) المائدة ٤٤

٧) المائدة ٤٦

٨) تفسير روح المعانى جـ ٢ صـ ٢٩٩

٩) تفسير الرازى جـ ص٦٢٤، ٦٢٥

١٠) المعنى الجامع بين النور الحسى والنور المعنوى: هو أنه الشيىء الظاهر فى نفسه المظهر لغيره. ولك أن تقول: إن النور المعنوى للبصرية كالنور الحسى للبصر. منار جـ١٠ ص ٣٨٤

١١) سورة المائدة آية ٣

١٢) كما قال الامام محمد عبده

١٣) فالحق: هو الأمر الثابت واضافة الدين إليه من اضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع.

١٤) وكلمة (الحق) على هذا من اسماء الله تعالى كما قال: "فذلك الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال؟ "منار جـ ١٠ ص٢٨٩

١٥) سورة الانعام ٣٨

١٦) سورة النجم ٤-٣

١٧) وهو حديث طويل رواه مسلم من حديث ثوبان

١٨) هذا فى مسند أحمد عن شاب من محارب

١٩) الركوسية بالفتح: أهل دين بين الصابئين والنصارى، وقال ابن الاعرابى: هو نعت النصارى أ . هـ من القاموس جـ٢ ص٢٢٠

٢٠) المرباع ما كان يأخذه رئيس القوم وعصبته منهم أو من غنائمهم . وهو من عادات الجاهلية

٢١) أى من غير حماية أحد لها فى طريقها، وذلك كناية عن أمان الطريق

٢٢) من تفسير العماد بن كثير جـ٢ ص٣٤٩، ٣٥٠

٢٣) واستدل هؤلاء على مدعاهم بقول السدي: ذاك عند خروج المهدى لا يبقى أحد الا دخل فى الإسلام وأى الجزية. وقول ابى هريرة والضحاك هذا عند نزول عيسى عليه السلام

١٤) سورة النور ٥٥

٢٥) سورة الحج ٧٨

٢٦) سورة البقرة ٢٨٦

٢٧) سورة التغابن ١٦

٢٨) سورة المائدة ٢

٢٩) انتهى ملخصا من رسالة (تفسر سورة الفتح والفتوح المتصلة بها) للدكتور أحمد السيد على الكومى ص١٦١ - ١٧١

٢٠) سورة آل عمران ٨٥

٢١) سورة المائدة ٣

٢٢) سورة هود ٢٩

٢٣) سورة الروم ٤، ٥، ٦

٣٤) فمن الأول قوله تعالى " ونرى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان" ومن الثانى «وأن أكثركم فاسقون" كلاهما فى المائدة، ومن الثالث، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا" (النساء)

٣٥) سورة الانعام ٩١

٣٦) سورة آل عمران ٧٥

٣٧) كما تقدم فى تفسير (وقالت اليهود عزيز بن الله) ويراجع الفصل الخامس من سفر نحميا

٣٨) سيأتى تفصيل هذه الآية، وفيمن نزلت؟ وما المراد بالكنز، وغير ذلك من الابحاث فى الفصل الرابع من (باب متمم) فى أصناف المجتمع المسلم)

٣٩) المائدة ٦٨

٤٠) المائدة ٦٤

٤١) المائدة ٧٢

٤٢) المائدة ٧٣

٤٣) سورة البينة ٤-١

٤٤) رواه ابن حيان من حديث ابى امامة . فقه السنة جـ ١ ص١٥٥

الفصل الرابع

الأشـــهر الحـــرم

قال الله تبارك وتعالى:

(أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وأعلموا أن الله مع المتقين، إنما النسيىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين).

هذا الفصل أقرب إلى الباب السابق منه إلى هذا الباب، فكان حقه أن يذهب إلى هناك، بيد أن حرصنا الشديد على المحافظة على السياق ما أمكن جعلنا نستبقيه هنا، وهو وأن كان بالمشركين الصق منه بأهل الكتاب الا أن هذا لا يعنى تباعدا أو انقطاعا فى العلاقة، فالارتباط وثيق بينه وبين أهل الكتاب كما سيتبين قريبا.

وهذا الفصل يحوى النقاط التالية..

تقدمه - المناسبة - المباحث اللغوية - المعنى الاجمالى - فقه الموضوع النسيىء وتاريخه - آيات تتعلق بالأشهر الحرم - هل فى الأشهر الحرم نسخ؟ وإذا كان فما هو الناسخ وماهو المنسوخ؟ وإذا لم يكن فكيف نوفق؟ ما القول الفصل؟ ما يؤخذ من الآيات.

مناسبة الآيتين لما قبلها

هاتان الآيتان من السياق، استطراد فى ازالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة، ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة تبوك - كان فى رجب من الاشهر الحرام، ولكن كانت هناك ملابسة واقعة.. وهى أن رجب فى هذا العام لم يكن فى موعده الحقيقى وذلك بسبب (النسيىء) الذى ورد ذكره فى الآية الثانية. كما سنبين - فقد ورد أن ذا الحجة فى هذا العام لم يكن فى موعده كذلك انما كان فى ذى القعدة فكان رجب كان فى جمادى الآخرة.. وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدها وعدم التزامها بالحرمات الا شكلا، والتأويلات والفتاوى التى تصدر عن البشر مادام أن أمر التحليل والتحريم يوكل فى الجاهلية إلى البشر..

وبيان هذه القضية.. أن الله حرم الأشهر الحرم الأربعة، والواضح أن هذا التحريم كان مع

فرض الحج فى أشهره المعلومات منذ إبراهيم وإسماعيل وعلى كثرة ما حرف العرب فى دين إبراهيم، وعلى شدة ما انحرفوا عهنه فى جاهليتهم قبل الإسلام، فأنهم بقوا يعظمون الأشهر الحرم هذه، لارتباطها بموسم الحج الذى كانت تقومه عليه حياة الحجازيين وبخاصة سكان مكة، كيما يكون هناك السلام الشامل فى الجزيرة الذى يسمح بالموسم والنتقال إليه والتجارة فيه!

ثم كانت ـ بعد ذلك ـ تعرض حاجات لبعض القبائل العربية تتعارض مع تحريم هذه الأشهر وهنا تلعب الأهواء ويقوم من يفتى بإستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره فى عام وتقديمه فى عام آخر، فتكون عدة الأشهر المحرمة أربعة، ولكن أعيان هذه الأشهر تتبدل (ليواطئوا عدة ماحرم الله).. فلما كان هذا العام التاسع كان رجب الحقيقى غير رجب وكان ذو الحجة الحقيقى غير ذى الحجة.. كان رجب هو جماد الآخرة، وكان ذو الحجة هو ذا القعدة، وكان النفير فى جمادى الآخرة فعلا وواقعا ولكنه كان فى رجب اسمابسبب هذا النسيىء..

فجاءت هذه النصوص تبطل النسىء وتبين مخالفته ابتداء لدين الله الذى يجعل التحليل والتحريم (والتشريع كله) حقا خالصا لله، ونجعل مزاولته التى تحيك فى بعض النفوس من استحلال رجب.. وفى الوقت ذاته تقرر أصلا من أصول العقيدة الأساسية، وهو قصر حق التشريع فى الحل والحرمة على الله وحده، وتربط هذه الحقيقة بالحق الأصيل فى بناء الكون كله يوم خلق الله السموات والأرض،، فتشريع الله للناس انما هو فرع من تشريعه للكون كله بما فيه هؤلاء الناس، والحيدة عنه مخالفة لأصل تكوين هذا الكون، فهو زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا،،

وحقيقة أخرى تقررها هذه النصوص تتعلق بما سبق تقريره فى المقطع السابق مباشرة من اعتبار أهل الكتاب مشركين، وضمهم فى العداوة والجهاد إلى المشركين، والأمر بقتالهم كافة المشركين وأهل الكتاب، كما أنهم يقاتلون المسلمين كافة، الأمر الذى يقرره الواقع التاريخى، كما تقرره من قبل كلمات الله سبحانه، وهى تعبر عن وحدة الهدف تماما بين المشركين وأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين، وعن وحدة الصف التى تجمعهم كذلك عندما تكون المعركة مع الإسلام والمسلمين مهما يكن بينهم هم من عداوات قبل ذلك وثارات واختلافات فى تفصيلات العقيدة كذلك لا تقدم شيئا ولا تؤخر فى تجمعهم جميعا فى وجه الانطلاق الإسلامى وفى عملهم مجتمعين لسحق الوجود الإسلامى..

وهذه الحقيقة الأخيرة الخاصة بأن أهل الكتاب مشركون كالمشركين، وأن المشركين هؤلاء وهؤلاء يقاتلون المسلمين كافة، فوجب على المسلمين أن يقاتلوهم كافة.. بالإضافة إلى الحقيقة الأولى وهى أن النسىء زيادة فى الكفر فهو كفر يضاف إلى الكفر الاعتقادى ويزيد عليه لأنه أما مزاولة للتشريع بغير ما أنزل الله، وأما تأويلات فاسدة لشريعة الله فتغير وتبدل من صورتها التى أقامها الله عليها، وذلك أشبه بما عليه الأحبار والرهبان من العبث بدين الله وجعله وراء أهوائهم ومام يشتهون..

هاتان الحقيقتان هما المناسبة التى تربط هاتين الآيتين بما قبلهما وما بعدها فى السياق

الذى يعالج المعوقات دون النفير العام، والانطلاق الإسلامى تجاه المشركين وأهل الكتاب، وثمة مناسبة أخرى لا تنفك عن سابقتها ولا تنفصل عنها، وهى أنه بعد الأمر بقتال أهل الكتاب الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق يبين أن هذا القتال ليس على اطلاقه فى كل وقت، ولذا عرج السياق على الأشهر الحرم التى لا يحل فيها القتال الا دفاعا أو امتدادا لحرب قامت قبلها.

الأبحـاث اللغـوية

١) (عدة).. عدد (عند الله): فى حكمه، وهو معمول لعدة، لأنها مصدر. (اثنا عشر) خبر إن، (شهرا) تميز مؤكد.

٢) (فى كتاب الله) الكتاب يطلق على نظام الخلق، والتقدير والسنن الالاهية فيه، لأنه ثابت كالشيىء المكتوب المحفوظ الذى لا ينسى، أو لأنه تعالى كتب كل نظام فى خلقه فى كتاب عنده فى عالم الغيب يسمى (اللوح المحفوظ) ، وقد فسر به الكتاب هنا. قال تعالى حكاية عن موسى فى جوابه لفرعون على سؤاله عن القرون الخالية: (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى)(١) وقال:(لكل أجل كتاب)(٢) وقال: (كتب فى قلوبهم الايمان)(٣) وقال: (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء)(٤) وهذا كله بمعنى النظام الالاهى القدرى، وقيل: إن المراد بكتاب الله هنا حكمه التشريعى لا نظامه التقديرى، ومنه حرمة الأشهر الحرم وكون الحج فى أشهر معلومات واطلاق الكتاب بهذا المعنى معروفو ومنه قوله تعالى بعد سرد محرمات النكاح: (كتاب الله عليكم) (٥) ولكن ذكر خلق السموات والأرض أشد مناسبة للأول، ويناسب الثانى قوله (منها أربعة حرم) وقيل هو القرآن، لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر، وليس بشيىء، وهو صفة لأثنى عشر أى مثبت٩ فى كتاب الله.

٣) (يوم خلق السموات والأرض) أى فى ابتداء ايجاد هذا العالم، والمراد به الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى جملته وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله وخلق كل منهما وما فيهما.. والظرف متعلق بما فى كتاب الله من معنى الثبوت الدال عليه بمنطوقه أو بمتعلقه، أو متعلق بالكتاب أن كان مصدرا بمعنى الكتابة..

٤) (ذلك الدين القيم) ذلك: أى تحريم الأشهر الأربعة. وما فيه من معنى البعد لتفخيم المشار إليه.. وقيل: هو اشارة لكون العدة كذلك، ورجحه الرازى، لأن كونها أربعة محرمة مسلم عند الكفار، وانما القصد الرد عليهم فى النسىء والزيادة على العدة، ورجح الأول بأن التفريغ الاتى يقضتيه، ولا يبعد أن تكون الاشارة إلى مجموع مادل عليه الكلام السابق، والتفريع لا يأبى ذلك. وقيل: الاشارة لعدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها وعدد الحرم منها.. والمراد بالدين: الشرع والطاعة، وبالقيم: الصحيح المستقيم الذى لا عوج فيه، أى ذلك الشرع المستقيم من لدن إبراهيم وإسماعيل لا ما يفعله أهل الجاهلية، أو ذلك هو الحق الذى يدان الله به دون النسىء ، وقيل.. المراد من الدين الحكم والقضاء، ومن القيم: الدائم الذى لا يزول أى ذلك الحكم الذى لا يبدل ولا يغير وقيل: الدين هنا بمعنى الحساب، وسنة قوله صلى الله عليه

وسلم (الكيس من دان نفسه - أى حاسبها - وعمل لما بعد الموت) أى ذلك الحساب المستقيم والعدل الصحيح لا ما ابتدعته مالعرب من زيادة وتأخير، وقد يكون المراد به أن هذا التعبد هو الدين اللازم فى الإسلام، ويمكن أن يقال: الأصل فى لفظ الدين الانقياد، يقال: يأمن دانت له الرقاب أى انقادت.

٥) (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ظلم النفس فيها يكون بفعل المعاصى مطلقا أو القتال فيها أو النسىء، والضمير فى قوله: (فيهن) راجع إلى الأشهر الحرم، وهو قول أكثر المفسرين، وقيل راجع إلى الأشهر كلها، لأن المقصود منع الإنسان عن المعاصى فى جميع الأوقات ومما يؤيد الرأى الأول ما نقل عن العرب من أنهم يعيدون ضمير المعدود ثلاثة وعشرة وما بينهما جمعا، فيقولون: هؤلاء وفيهن وخلون، ويأتون بضمير ما بعد ذلك مفردا فيقولون: هذه وفيها وخلت، وأن الكسائى ليعجب من صنيع العرب ذلك.

٦) (كافة) معناه جميعا، واعرابه حال من الفاعل فى (قاتلو) أو من المفعول وهو (المشركين) وهو مصدر عند الأزهرى على فاعلة كالعافية والعاقبة، وقيل: هو اسم فاعل من كف، والتاء فيه للمبالغة كعالمة وراوية ولا يثنى ولا يجمع ولا تدخله (الـ) واشتهر أنه لابد من تنكيره ونصبه على الحال وكون ذى الحال من العقلاء، ولذلك خطأ ابن هشام فى المغنى الزمخشرى، لأنه استعمله على خلاف هذا بقوله: ووهم الزمخشرى فى تفسير (وما أرسلناك الا كافة للناس) اذ قدر (كافة) نعتا لمصدرمحذوف أى رسالة كافة، كوهمه فى خطبة المفصل اذ قال: محيطا بكافة الأبواب. ولكن الألوسى عابد على ابن هشام تخطئته للزمخشرى وقال: هذا القول لا يلتفت إليه، وأن مخطئه هو المخطىء، واستدل على دعواه بدليلين عقلى ونقلى، أما الأول فملخصه: أنه اذا وضع لفظ لمعنى عام بنقل من السلف ورأيناهم استعملوه على حالة مخصوصه جاز لنا أن نخرج عن تلك الحالة، لأنا لو اقتصرنا فى الألفاظ على ما استعملته العرب العارية والمستعمرية نكون قد حجرنا الواسع وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم، وأما الثانى فهو ما ورد من كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ قال: قد جعلت لآل بنى كاكله على كافة بيت مال المسلمين.. قال الألوسى: والحاصل أنهم رواية ودراية لم يصيبوا فيما التزموه من تنكيره ونصبه واختصاصه بالعقلاء. ثم اختلفوا هل هو مصدر أو اسم فاعل من الكف؟ وهل التاء للمبالغة أو للتأنيث؟[٦]

٧) (واعلموا أن الله مع المتقين) أى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال، وانما وضع الظاهر موضعه مدحا لهم بالتقوى، وحثا للقاصرين عليه وايذانا بأنه المدار فى النصر، وقيل هو بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

٨) (انما النسىء) فيه قولان: أحدهما أنه مصدر على فعيل من أنسأ أى آخر، كالنذير من أنذر، والنكير من أنكر، وهذا ظاهر قول الزمخشرى فى الكشاف، أو هو مصدر نسأه إذا أخره نساء ونسيئا ونسئيا نحو من مساسا ومسا ومسيسا، وقرىء بهن جميعا وهو قول أبى السعود، الثانى أنه فعيل بمعنى مفعول من نسأة أى أخره فهو منسوء، ثم حول مفعول إلى فعيل كما حول مقتول إلى قتيل، وإلى ذلك نحا أبوحاتم، وفى المختار: والنسيئة كالفعيلة التأخير وكذا

النساء بالفتح والمد التأخير، والنسىء فى الآية فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأة من باب قطع أى أخره فهو منسوء فحول منسوء إلى نسىء[٧] وقرأ الجمهور (النسىء) وقرأ ورش من السبعة (النسى) بالاضغام وقرىء شاذا (النسىء) بالاسكان و(النسوء) بالفتح على فعول، وهو فى المصادر قليل فالنسىء بمعنى التأخير، وقيل معناه الزيادة يقال: نسأ ينسأ اذا زاد، وفى الحديث (وينسأ له فى أثره) قال قطرب: النسىء أصله من الزيادة، يقال نسأ فى الأجل وأنسأ اذا زاد فيه وكذلك قيل للبن النسىء لزيادة الماء فيه، وقيل للناقة نسأتها أى زجرتها ليزداد سيرها، وكل زيادة حدثت فى شىء فالشىء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسىء.

٩) (يضل به الذين كفروا) فيها قراءات أسوقها ليظهر المعنى: الأولى (يضل) بالبناء للمفعول وهى سبعيه، الثانية (يضل) بفتح الياء وكسر الضاض من الضلال وهى كذلك سبعيه، الثالثة (يضل) مبنيا للفاعل من الافعال، وهى عن يعقوب من العشرة. والفاعل فى القراءة الثانية هو الموصول، وفى الثالثة الفاعل هو الله، أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه، وأسبابه، وهو المعنى على القراءة الأولى وقيل الفاعل فيهما الشيطان لاغوائه لهم، وقيل وجوز أن يكون الموصول فاعلا والمفعول محذوفا، أى اتباعهم ومن يسير على نهجهم، أو الفاعل مقدر، أى الرؤساء والمفصول هو الموصول [٨] والضمير فى (به) تعود على النسىء، أى يضلون بسببه ضلالا زائدا على ضلالهم القديم.

١٠) (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) الضمير المنصوب فيهما للشهر أو للنسىء على أنه فعيل بمعنى مفعول والعام والسنة بمعنى، وقيل: إن العام من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة، والسنة من كل يوم إلى مثله من السنة القابلة، والجملتان تفسير للضلال، أو حال من الموصول، والعامل عامله.

١١) (ليواطئوا عدة ما حرم الله) أى ليوافقوا العدة التى هى الأربعة، واللام تتعلق بـ (يحرمونه) وهو الظاهر، وذلك مذهب البصريين، فأنهم يعملون الثانى، أو بـ (يحلونه) وهو مذهب الكوفيين، أو بما دل عليه مجموع الفعلين أى فعلوا ما فعلوا لأجل الموافقة، قال الجمل: وقول من قال إنها متعلقة بالفعلين معا فانما يعنى من حيث المعنى له اللفظ[٩]

١٢) (زين لهم سوء أعمالهم) وقرىء بالبناء للفاعل وهو الله تعالى، أى جعل أعماله مشتهاة بالطبع محبوبة للنفس، أو خزلهم حتى رأوا حسنا ماليس بالحسن، وقيل: المزين هو الشيطان وذلك بالوسوسة والاغواء.

المعنى الاجمالى للأيتين

١. إن عدة شهور السنة اثنا عشر شهرا فى حكم الله وتقديره وفيما بينه فى كتابه منذ بدأ العالم، وبذلك يرد معيار الزمن وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها، وإلى أصل الخلقة، خلقة السموات والأرض.. ويشير هذا النصر إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة مقسمة إلى اثنى عشر شهرا يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر، فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة، وأن ذلك فى كتاب الله أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام الكون..

وقد تكون هذه الدورة قمرية كالأشهر العربية فهى ثابتة على نظامها، وقد تكون شمسية فهى كذلك ثابتة على نظامها لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة، لأنها تتم وفق قانون ثابت هو ذلك الناموس الكوني الذى أراده الله يوم خلق السموات والأرض.

٢- ومن هذه الاثنى عشر شهرا أربعة أشهر محرمة لها ميزة على بقية الشهور، كما للحرم ميزة على سائر البقاع تضاعف فيها الحسنات وتكثر فيها الخيرات كما تعظم فيها السيئات، وهى رجب والقعدة والحجة والمحرم.. وهذا التحريم للأشهر الأربعة المذكورة هو دين الله المستقيم المطابق للناموس الأصيل الذى تقوم به السموات والأرض منذ أن خلقهما الله والذى لا تبديل فيه ولا تغيير، فلا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السموات والأرض، ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس، كما أنه هو المشرع للكون.. لا تظلموا أنفسكم هو أن الله هو المشرع للناس، كما أنه هو المشرع للكون.. لاتظلموا أنفسكم باستحلال القتال فيها، أو امتناعكم عنه اذا أغار عليكم الاعداء فيها، أو بارتكاب المعاصى، ولا سيما احلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة امان وواحة سلام فلا تخالفوا عن ارادة الله، وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعرضها لعذاب الله فى الآخرة، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض حين تستحيل كلها جميعها حربية لا هدنة فيها ولا سلام.

٣- وقاتلوا أيها المؤمنون جماعة المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.. قاتلوهم جميعا بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة، فهم يقاتلونكم جميعا لا يستبقون منكم أحدا ولا يبقون منكم على جماعة وذلك فى غير الأشهر الحرم مالم يبدأ المشركون بالقتال، فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر، لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة المنوط بها حفظ الحرمات، ويطغى القوة الشريرة المعتدية، ويشيع الفساد فى الأرض والفساد فى النواميس فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم فلا يعتدى عليها ولا تهان.

والمعركة فى حقيقتها إنما هى معركة بين الشرك والتوحيد وبين الكفر والايمان والهدى والضلال.. معركة بين معسكرين متمايزين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام ولا أن يتم بينهما اتفاق، لأن الخلاف بينما ليس عرضيا ولا جزئيا.. ليس خلافا على مصالح يمكن التوفيق بينها، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها.. وأن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين.. وثنيين وأهل كتاب إذا هى فهمت أو هى أفهمت أنها معركة اقتصادية أو معركة قومية أو معركة وطنية أو معركة استراتيجية كلا أنها قبل كل شىء معركة العقيدة، والمنهج الذى ينبثق من هذه العقيدة، أى الدين..

وهذه لاتجدى فيها انصاف الحلول، ولا تعالجها الإتفاقات ولا المناورات، ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح الجامع الشامل.. والكفاح الكامل العام سنة الله ا لتى لا تتخلف، وناموسه الذى تقوم عليه السموات والأرض وتقوم عليه العقائد والأديان وتقوم عليه الضمائر والقلوب فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض..

وكونوا على يقين من أن الله ناصر الذين يخافونه، فيلتزمون أوامره ويجتنبون نواهيه..

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله وأن يحلو ماحرم الله وأن يحرفوا نواميس الله.. فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ولا يتخوفوا من اثارة الحرب فهى حرب فى سبيل الله يقفون فيها عند حدوده وآدابه ويتوجهون به إلى الله يراقبون فى السر والعلن.. فلهم النصر، لأن الله معهم، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال.

٤ـ وما تأخير حرمة هذه الأشهر الحرم أو بعضها عما رتبها الله عليه ـ كما كان يفعله أهل الجاهلية ـ الا امعان فى الكفر يزداد به الذين كفروا ضلال فوق ضلالهم.. فالمخالفة عن شرع الله زيادة فى الكفر ولجاج فيه وضراوة عليه، يضل بسببه الذين كفروا ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل.. وكان العرب فى الجاهلية يجعلون الشهر الحرام حلا لا اذا احتاجوا إلى القتال فيه، ويجعلون الشهر الحلال حراما، ويقولون: شهر بشهر، ليوافقوا عدد الأشهر التى حرمها الله وقد حسنت لهم أهواؤهم أعمالهم السيئة فاذاهم يرون السوء حسنا، ويرون قبح الانحراف جمالا، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال والله لا يهدى القوم المصرين على كفرهم إلى طريق الخير.. الذين ستروا قلوبهم عن الهدى، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم، فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال.

فقـــه الموضـــوع

تبين الآن أن مبلغ عدد شهور السنة فى حكم الله اثنا عشر، وأن هذا الأمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة وهى الآن على ماكانت عليه، وانما قال هذا ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه تعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على انبيائه فى كتبه المنزلة.. والمقصود من ذلك اتباع امر الله فيها، ورفض ماكان عليه أهل الجاهلية من تأخير اسماء الشهور وتقديمها، وفيها الرد عليهم، لأنهم ربما جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت.

والمراد بهذه الأشهر شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل وهى الشهور المعروفة عند العرب، والتى يعتد بها المسلمون فى حياتهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر امورهم الدينية واحكامهم العبادية.. وأيام هذه الشهور ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما.. والسنة الشمسية عبارة عن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، قال الجمل: هى عبارة عن دورة الشمس فى الفلك دورة تامة، وهى ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم، فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام وبعض يوم.. فبسبب هذا النقصات تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف [١٠] لأن السنة الشمسية هى التى ينتج منه الفصول الأربعة.

وهذه اللفتة إلى ثبات الكون يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديها ليقول إن هذا التحديد والتحريم جزء من نواميس الله ثابت بثباتها، لا يجوز تحريفه بالهوى ولا يجوز تحريكه تقديما وتأخيرا، لأنه يشبه دورة الزمن التى تتم بتقدير ثابت وفق ناموس لا يتخلف.. وهكذا يتضمن ذلك النص القصير سلسلة طويلة من المدلولات العجيبة يتبع بعضها البعض

ويمهد بعضها لبعض ، وتشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث أن يقررها بطريقته ومحاولاته وتجاربه، ويربط بين نواميس الفطرة فى خلقة الكون وأصول هذا الدين وفرائضه، ليستقر فى الضمائر والأفكار عمق جذوره وثبات أسسه وقدم أصوله، كل أولئك فى إحدى وعشيرن كلمة، تبدو فى ظاهرها عادية بسيطة قريبة مألوفة والأشهر الحرم أربعة: ثلاث سرد، ذو القعدة، للقعود عن القتال فيها، وذو الحجة، للحج، والمحرم، لتحريم القتال فيه وواحد فرد وهو رجب، لترجيب العرب اياه أى تعظيمه حتى سموه الأصم ومنصل الاسنة واختلف فى ترتيبها : فقيل: أولها المحرم وآخرها ذو الحجة، فهى من شهور عام، وانما قسمت هذا التقسيم ليكون مبدأ العام ووسطه وآخره هدنة يقف فيها القتال، لعل النفوس الغاضية تهدأ ثورتها فيمتنع القتال وتزول الضغائن وجعل آخر العالم شهرين متتالين من الأشهر الحرم لارادة تعضيد الختام والأعمال بخواتيمها، ولأنه موسم الحج والتأهب له فيجب أن يتمحض للتوجه إلى بيت الله وتعظيم شعائره.. وقيل أولها رجب، فهى من عامين، واستدل له بما أخرجه من جرير وغيره عن ابن عمر قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بمنى إلى أن قال: (أولهن رجب) وقيل: أولها ذو القعدة، واستدل به بما أخرجه الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فى خطبته الجامعة فى حجة الوداع (أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم ثلاث منها متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان) وقيل: إن ما ذكر من أنها على الترتيب الأول من شهور عام، وعلى الترتيب الثانى من شهور عامين، انما يتمشى على أن أول السنة المحرم، وهو انما حدث فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. وكان يؤرخ قبله بعام الفيل، وكذا بموت هشام بن المغيرة، ثم ارخ فى صدر الإسلام بربيع الأول، وعلى هذا التاريخ يكون الأمر على عكس ماذكر، ولم يبين هذاالقائل ما أول شهور السنة عند العرب قبل الفيل والذى يفهم من كلام بعضهم أن أول شهور السنة المحرم عندهمه من قبل أيضا الا أن عندهم فى اليمن والحجاز تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفا عن سلف، ولعلها كانت باعتبار حوادث وقعت فى الأيام الخالية، وأنه لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ المسلمون هجرته مبدأ التاريخ وتناسوا ماقبله، وسوا كل سنة أنت عليهم باسم حادثة وقعت فيها، كسنة الاذن وسنة الأمر، وسنة الابتلاء، وساروا على هذا المنوال إلى خلافة عمر رضى الله عنه، فسأله بعض الصحابة فى ذلك وقال هذا يطول، وربما يقع فى بعض السنين اختلاف وغلط..

وفى بعض شروح البخارى: أن أبا موسى الأشعرى كتب إليه: أنه يأتينا من أميرالمؤمنين كتب لا ندرى بأيهما نعمل، وقد قرأنا صكا محله شعبان فلم ندر أى الشعبانين الماضى أم الآتى؟ ويروى أن عمر قال: إن الأموال قد كثرت فينا، وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل إلى ضبطه؟ فشرح له ملك الاهواز ما عند العجم من حساب، فقال عمر: ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه وتضبط أوقاتهم، فذكروا له تاريخ اليهود فما ارتضاه والفرس فما ارتضاه، فاستحسنوا الهجرة تاريخا من غير تسمية السنين بما وقع فيها...

وما ذكر من أنهم كانوا يؤرخون فى صدر الإسلام بربيع الأول، فيه اجمال ويتضح المراد منه بما فى النبراس من أنهم كانوا يؤرخون على عهد النبى صلى الله عليه وسلم بسنة القدوم وبأول شهر منها وهو ربيع الأول..

وقد يقال: لم لم تتعرض فى حديثك عن الأربعة الحرم إلى الآيتين أول السورة: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) أليست الأربعة هنا هى الأربعة فى الآية الأولى، والحرم هنا هى الحرم فى الآية الثانية؟ وأقول: هناك بون شاسع بين هذه وتينك، فإن هذه تعرض للحديث عن الأربعة الحرم المعروفة عند العرب والمصطلح عليها ـ القعدة والحجة والمحرم ورجب ـ وتانك تتحدثان عن مهلة منحت للمشركين الناقضين منحها القوى العزيز للضعيف مقدارها أربعة أشهر اذا لم يتوبوا خلالها تستباح دماؤهم (وقد مر ذلك بتوسع فى الفصل الأول من الباب الأول).

وكأن الله عز وجل فى تنصيصه على أن السنة اثنا عشر شهرا يكذب ما اختلقته أهواء بعض الناس فيما بعد، فإن نحلا مضلة جعلت السنة فى هذه الأيام تسعة عشر شهرا، وارادت بهذا أن تغير النظام الكونى شمسيا كان أو قمريا، ولكن الله عز وجل ألهمنا وأطلعنا على أن نظامه الذى استبقاه لديننا ودنيانا هو أن تكون السنة اثنى عشر شهرا يوم خلق السموات والأرض ـ أى من الأزل ـ منها أربعة حرم.

ويحسب بعض الناس أن وقف القتال فى الأشهر الحرم كان شريعة أرضية تواضع العقلاء عليها، كى يحقنوا الدماء ويخلقوا فرصا للسلام، ويجعلوا الأمة العربية بمأمن من غرائز الشر فيها كلما هاجت بها غرائز الشر وأوقعها ذلك فى قتال لا تعرف نتائجه، وأن العرب فى الجاهلية يعرفون أن بلادهم قاحلة وهم فقراء، فكانوا يكثرون من القتال، حتى قال شاعرهم

وأحيانا على بكر أخينا ... إذا مالم نجد الا أخانا

فكان رزقهم فى رؤوس رماحهم، فإذا استمروا السنة كلها فى حرب طاحنة كثرت خسائرهم وازدادت ثاراتهم وعداواتهم، فرأى عقلاؤهم أن يجعلوا أربعة أشهر يحرمون فيها القتال حتى يسود منطق العقل على العاطفة والثارات.

والذى اعتقده أن الأشهر الحرم حرمت بشريعة سماوية، وأن هذا التحريم للأربعة من بداية الخليفة، ومع امتداد الزمن يدخل هذا التحريم لمصلحة الإنسانية فى اعصارها، لا لقطر خاص ولا لبلد خاص، وليس خاصا بالعرب وحدهم، وانما هو شريعة إنسانية عامة.

واحترام العرب لهذه الأشهر بقية من ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التى شرع فيها الحج وحرم الحرم وحرمت ايضا هذه الأشهر وهذه الشعائر كلها من مواريث ديانة إبراهيم التى بقيت سليمة فى المجتمع العربى، فكانت العرب فى الجاهلية تعظمها وتحرم فيها القتال، حتى أن أحدهم لو لقى قاتل ابيه أو أخيه أو ابنه فى هذه الأربعة لم يزعجه، وأن كان العرب قد تلاعبوا فيما بعد بهذه ا لأشهر، إذا استباحوا القتال فيها حينا أو نقلوها من زمانها إلى زمان آخر..

وقد كان هذا التحريم كشعيرة دينية، كما كان الحج والاعتمار شعائر دينية، كانت شعائر لاتزال بقاياها متألقة فى الجاهلية، وكانت موضع احترام العرب جميعا ولذلك شنعوا على المسلمين عندما وقع قتال عن طريق الخطأ بين سرية عبدالله ابن جحش وبين المشركين من قريش، ولذلك أيضا سموا الحرب التى نشبت بين القبائل هوازن وقريش فى الشهر الحرام «حرب الفجار» من فاجر يفاجر مفاجرة، أى أن الفريقين من المقاتلين تبادلوا الفجار الفجر، لأن القتال اثير فى الأشهر الحرم، ومكث أربعة أيام منها، ثم جاء رجل من أفضل رجالات كنانة، وأصر على أنه يفدى القلتى، ثم انتهى الأمر بالصلح.

ومما يذكر فى هذا المقام أن هذه الحرب وقعت فى صدر حياة النبى صلى الله عليه وسلم، فكان فى سن العشرين، أى أنه كان فى سن يستطيع فيها بمقتضى العادات العربية أن يحمل الرمح والسيف ولكنه لم يحمل ولم يشترك حتى دعى فى اليوم الرابع من قبل أعمامه، فذهب لا ليقاتل ولا ليحمل سيفا بل ذهب ليحمى أعمامه من النبل الذى يوجه إليهم، فكأنه صلى الله عليه وسلم لا يريد الا الرحم الموصولة الدائمة، ثم كان وجوده بركة، لأنه فى اليوم الرابع انتهى القتال فكان مجيئه يمنا وسلاما وانهاء لخصام فاجر.

ولما جاء الإسلام لم يزد الأشهر الحرم الا حرمة وتعظيما ولذلك نص على منع الظلم فيها بقوله تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وظلم النفس يشمل كل محظور، ويدخل فيه دخولا أوليا هتك حرمة الشهر الحرام..

١. بالنسيىء الذى كانوا يعملونه فى الجاهلية فينقلون الحج من الشهر الذى أمر الله بأقامته فيه إلى شهر آخر، ويغيرون سائر تكاليف الله تعالى.

٢. وبالمقاتلة فيه، لأنه جعل للناس سكنا آمنا يفيئون فيه إلى العافية والسلام ويستظلون فيه بظل الطمأنينة والا من فإنه ليس بكثير على الناس أن يعيشوا فى سلام مطلق أربعة أشهر من كل عام إذا كانت حياتهم قائمة على العدوان.

٣. وبجميع المعاصى، بسبب مزيد أثرها فى تعظيم الثواب والعقاب.

فإن قلت: فإن كان الأمر على ماوصفت، فقد يحسب أن يكون مباحا لنا ظلم أنفسنا فى غيرهن من سائر شهور السنة.. قلت: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرام علينا فى كل وقت وزمان، ولكن الله عظم حرمة هذه الأشهر وشرفهن على سائر شهور السنة فخص الذنب فيهن بتعظيم، كما خصهن بالتشريف وذلك نظير قوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[١١] ولا شك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله: (حافظوا على الصلوات) ولم يبح ترك المحافظة عليهن بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى، ولكنه تعالى زادها تعظيما، وعلى المحافظة عليها توكيدا ، وفى تضيعها تشديدا، فكذلك هنا..

فإن قلت: اذن فلم خص الأشهر الحرم بالنهى عن الظلم فيهامع أن الظلم منهى عنه مطلقا كما بينت؟ قلت: انما نهى عنه فيها بخاصة لتعظيمها، ولا متيازها عن غيرها، فأن الله تعالى اختص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تستلزم ترك المحرمات فيها،

والمكروهات بالأولى لأجل تنشيط الانفس على زيادة العناية بما يزكيها ويرفع شأنها، فإن من طبع البشر الملل والسآمة من الاستمرار على حالة واحدة تشق عليها، فجعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة فى ادائها كالصلوات، فأن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة خمس دقائق للرباعية منها وهى أطولها، ومازاد فهو كمال وخاصة يوم الجمعة فى الأسبوع بوجوب الاجتماع العام لسماع خطبتين فى التذكير والموعظة الحسنة وصلاة ركعتين، وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة، وأياما معدودات من شهر ذى الحجة، لا سيما يوم عرفة بأداء مناسك الحج وجعل ما قبلها من أول ذى القعدة ومابعدها إلى آخر المحرم من الأيام التى يحرم فيها القتال، لأن السفر إلى مشاعر الحج فى الحجاز والعودة منها تكون فى هذه الأشهر الثلاثة، وحرم رجب لتقليل شرور القتال وتخفيف اوزاره، ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه، كما حرم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت، ولاحترام البيت الذى اضافة إلى نفسه، وميز بعض الليالى على سائرها وهى ليلة القدر، وميز بعض الأشخاص على سائر الناس بأعطائهم خلعة الرسالة، وهذه الميزات ظاهرة مشهورة.

قال قتاده رضى الله عنه: إن الله اصطفى صفايا من خلقه.. اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فانما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل(١٢).

وبذلك نعلم أن ارتكاب المعاصى فى الأشهر الحرم أعظم وزرا من غيرها كارتكابها فى الحرم وحال الاحرام.. وكذلك فعل الطاعات فيها أعظم أجرا وأكثر مضاعفة.. عن قتاده قال: العمل الصالح أعظم اجرا فى الأشهر الحرم، والظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فى سواها، وأن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء(١٣).

ومن ذلك نعلم أيضا أنه يختلف عقاب الظلم والمعاصى تبعا للأزمنة والأمكنة والأشخاص.. فمن عصى الله فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ليس عقابه عقاب من عصى الله فى الشهر الحلال فى البلد الحرام، أو فى الشهر الحرام فى البلد الحلال، ومن عصى الله فى الشهر الحلال فى البلد الحرام أو فى الشهر الحرام فى البلد الحلال ليس كمن عصاه فى الشهر الحال فى البلد الحلال ويقال مثل ذلك بالنسبة إلى الطاعة.. وكذلك فى الأشخاص فكلما زاد الشخص قربا من ربه كلما زادت محاسبته ألم تر إلى أمهات المؤمنين كيف ضوعف أجرهن كما ضوعف عذابهن؟ اقرأ قول الله فى ذلك: (يا نساء النبى من يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنط منكن لله ورسوله، وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين، واعتدنا لها رزقا كريما)(١٤)

وقديما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين

ولله أن يميز بعض الأوقات وبعض الأماكن على بعض، ولا يقال: لم ميز؟ لأن للبارى أن يفعل مايشاء (لا يسئل عما يفعل) (١٥) (وربك يخلق ما يشاء ويختار)(١٦)..

ولولا اختصاصه تعالى لما شاء من زمان ومكان لما كان للأزمنة والأمكنة فى نفسها مزية.. واهواء الناس لا تتفق على زمان ولا مكان فيوكل ذلك إليهم، فلم يبق الا أن يجعل الله الاختصاص أمرا تعبديا خالصا، يفعل لمجرد الامتثال والقربة كما ورد فى تقبيل الحجر الأسود من قول عمر رضى الله عنه: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك.

ولنا أن نقول: لا يبعد أن يعلم الله تعالى أن وقوع الطاعة فى هذه الأوقات أكثر تأثيرا فى طهارة النفس، ووقوع المعاصى فيها أقوى تأثيرا فى خبث النفس.. وسئل النبى صلى الله عليه وسلم: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: (الصلة فى جوف الليل) قيل: ثم أى الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال" (شهر الله الذى تدعونه المحرم)[١٧] وقال صلى الله عليه وسلم لطالب الاستزادة من الصوم: (صم من الحرم واترك) ثلاثا [١٨] وقال: (من صام يوما من أشهر الله الحرم كان له بكل يوم ثلاثون يوما)[١٩].

وفيه فائدة أخرى: وهى أن الطباع مجبولة على الظلم والفساد وامتناعهم من هذه القبائح على الاطلاق شاق عليهم، فالله سبحانه وتعالى خص بعض الأوقات بمؤيد التعظيم والاحترام وخص بعض الأماكن بمزيد التعظيم والاحترام، حتى أن الإنسان ربما امتنع فى تلك الأزمنة وفى تلك الأمكنة من القبائح والمنكرات وذلك يقلل القبائح، وأنه ربما صار تركه لها فى تلك الأوقات سببا لميل طبعه إلى الاعراض عنها مطلقا، فيصير ترك المعاصى فى هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم والمعاصى فى غيرها من الأشهر.. واذا أتى الإنسان بالطاعات فى تلك الأوقات وأعرض عن المعاصى فيها، فبعد انقضاء تلك الأوقات لو شرع فى القبائح والمعاصى صار شروعه فيها سببا لبطلان ماتحمله من العناء والمشقة فى أداء تلك الطاعات فى تلك الأوقات، والظاهر من حال العاقل أن لا يرضى بذلك، فيصير ذلك سببا لإجتنابه المعاصى بالكلية، فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم.

ولما كان الظلم منهيا عنه فى الأشهر الحرم أكثر من غيرها فقد حرص الشافعى رحمه الله على ابراز ذلك فى ميدان العقوبات، حيث غلط الدية فى النفس وفى الجراح بزيادة ثلثها فى ثلاث حالات: اذا قتل فى الشهر الحرام، أو قتل فى البلد الحرام، أو قتل ذا رحم محرم. أما أبوحنيفة ومالك - رحمهما الله - وأصحابهما فقد أبو التفرقة فى الأزمنة والأمكنة فى هذا الشأن، اذ قالوا: القتل فى الحل والحرم سواء، وفى الشهر الحرام وغيره سواء، قال القرطبى: وهو الصحيح لأن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الديات ولم يفرق فى ذلك بين الحل والحرم ولا بين الشهر الحرام وغيره، وأيضا فقد اجمعوا على أن الكفارة على من قتل خطأ فى الشهر الحرام وغيره سواء، فالقياس أن تكون الدية كذلك[٢٠]..

وقد وهم بعض المفسرين اذ ادعوا أن الظلم فى الآية معناه القتال أى لا تظلموا أنفسكم بالقتال فى الأشهر الحرم، وهذا حق، الا أنهم اضافو.. وأن ذلك قد نسخ باباحة القتال فى جميع الشهور بقوله تعالى:(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وهؤلاء القائلون بذلك

لم يعرفو عن النسخ الا صورة مشوهة ولم يقفوا على شيء منه إلا على اسمه والا فأين التعارض بين النهى عن ظلم النفس فى الشهر الحرام وبين قتال المشركين فيه، وإذا كان ثمة تعارض فهل تعذر معه الجمع؟ ثم هل ثبت فى تاريخ التشريع أن الجزء الأول من الآية نزلا أولا وعمل به ثم نزل الجزء الثانى منها بعد ذلك حتى يتحقق ماهو معروف من تقدم المنسوخ وتأخر الناسخ - كما يقول أصحاب النسخ - ثم كيف يعقل أن يكون المنسوخ والناسخ فى آية واحدة؟ والخلاصة: أن شروط النسخ الثلاثة التى هى وجود التعارض بين النصين، وتعذر الجمع بينهما، وكون المنسوخ متقدما والناسخ متأخرا، لم تتحقق اذن فلا نسخ، وانما هى أوهام قد ادخلوها فى النسخ وعدوها منه، بل إن الكثير قد توسع فى هذا الباب فأطلق على كل شبه تعارض أو على مالا يقف على سر أو تاريخ تشريعه أو حقيقة أمره أنه نسخ، حتى قال الزركشى فى البرهان: وأما بالقرآن على ماظنه كثير من المفسرين فليس ينسخ وانما هو نساء وتأخير، أو مجمل آخر بيانه لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم لخاص أو لمداخلة معنى فى معنى وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخا وليس به أ. هـ (٢١).

وانما النسخ الحقيقى كما ذهب اليه جمهور المفسرين - واقع بين قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله :(وقاتلوا المشركين كافة) وسأرجئه إلى نهاية الفصل لطول الكلام عليه.

سر عطف (وقاتلوا المشركين) على ماقبله:

إن الأشهر الحرم دعوة إلى السلام الذى ينبغى أن يقوم بين الناس حتى تطيب لهم الحياة، وحتى يكون سعيهم كله متجها إلى العمل المثمر الذى يعود عليهم جميعا بالخير والبركة والنماء لما فى أيديهم من عمل فى غيرمجال الحرب والقتال..

كذلك فإن الأشهر الحرم هدنة تقطع حبل القتال اذاكان واقعا بين جماعة وجماعة، وهذه الهدنة من شأنها أن تدعو المتقاتلين إلى مراجعة انفسهم، وإلى العمل على الخلاص من هذا البلاء الذى حل بهم، فيطرقون باب السلم، أو يفتحونه لمن يدعوهم إليه..

إن هذه الدعوة التى تدعو إلى السلام، وتجنب القتال فى الأشهر الحرم وأن كان حتما على المسلمين أن يمتثلوها، ويحققوها من جانبهم، الا أنها لا تحمل المسلمين على التهاون فى قتال المشركين، وترك الإعداد لحربهم، لأن المشركين لا يحترمون هذه الدعوة، ولا يستقيمون عليها، ولا يدعون المسلمين فى أمن وسلام اذا هم قدروا على قتالهم، ووجدوا الفرصة السانحة لهم فيه.. وهذا هو السر فى عطف هذا الأمر (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) على النهى السابق فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) اذ أن هذا النهى يقتضى الكف عن القتال فى هذه الأشهر الحرم خاصة وفى غيرها عامة، اذا لم يكن من المشركين عدوان على المؤمنين، وهذا من شأنه - لو أطلق - أن يحمل المسلمين على طلب المسالمة والموادعة وترك الاستعداد للحرب والانخلاع عن مشاعر القتال فى حين أن المشركين على غير هذا الموقف، لأنهم أبدا على عداوة مضمرة أو ظاهرة للمؤمنين، وأنهم اذا وجدوا فرصة للنيل منهم فلم يمسكهم عن

ذلك عهد أو قرابة (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) فكان اتباع هذا النهى بذلك الأمر (وقاتلوا المشركين كافة) كان وضعا للنهى فى موضعه الصحيح، فهذه دعوة للسلم مع الحذر من خطر الحرب ومع مراقبة العدو والإعداد لدفع عدوانه أن حدثته نفسه بعدوان..

وفى الآية دعوة إلى الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة ضدهم فحسب قتالهم، واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا وقتالنا لهم، أى قاتلوهم كافة لا يتخلف أحد منكم عن قتالهم، أو لا تتركوا قتال واحد منهم، واستدل بالإحتمال الأول على أن الجهاد فرض عين.

وفى الآية أيضا فى ختامها دعوة إلى التقوى وجعلها الميزان الذى يضبط عليه المسلمون موقفهم من المشركين فلا بغى ولا عدوان ولا ظلم لأن ذلك يخرج المسلمين عن صفة التقوى ويقيمهم هم والمشركون على مقام واحد، الأمر الذى من شأنه أن يفوت عليهم أن يكون الله سبحانه معهم يؤيدهم، وبنصرهم على عدوهم لأنه سبحانه لا يكون إلا مع المتقين (واعلموا أن الله مع المتقين).

وعن هذا الفهم لخاتمة هذه الآيات كانت وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين كتب إلى قائد الجبهة الشرقية سعد بن أبى وقاص يقول فى رسالته:

(أنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العود وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وانما ينصر المسلمون بطاعتهم لله ولمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة والا ننصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا) [٢٢]

ملخص تاريخ النسىء وفكرته

إن العرب فى الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظمها، حيث كان ذلك مما تمسكوا به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارات وكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية، وربما وقعت حروب فى بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال، فنسأوا - أى أخروا - تحريم شهر إلى شهر آخر، حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول، وكانوا يصنعون هكذا، يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت، وكانوا فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين، وكذلك باقى شهورا لسنة، فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه فى ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسىء قد تناسخت بإستدارة الزمان ورجع إلى نظامه الأول وهيئته التى كان عليها، وعاد الأمر إلى ماوضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض..

وهو مارواه البخارى عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الزمان قد استادر كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث منها متواليات.. ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى، وشعبان)..

وقد أعلم أمته فى هذا الجزء من خطبة الوداع، أن الزمان فى انقسامه إلى الأعوام والأشهر عاد إلى أصل الحساب والموضع الذى ابتدأ منه، وصار كل شهر فى موضعه الأصلى، وبطل النسىء الذى ابتدعته العرب فى جاهليتهم، وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام..

وقد أثبت صحة هذا الكلام علماء الفلك بالحساب الدقيق، وماذاك الا فيض العليم الحكيم على رسوله العظيم..

وانما أضاف النبى صلى الله عليه وسلم رجبا إلى مصر لأنها كانت تحافظ على تحريمه أشد من محافظة سائر العرب، وعلى هذا يكون قوله.. (الذى بين جمادى وشعبان) تأكيدا أو ازاحة للريب الحادث فيه من النسىء، ويصح أن يقال أضيف إلى مضر لأن ربيعه كانوا يحرمون رمضان، ويسمونه رجبا، فيكون قوله «الذى بين جمادى وشعبان» تأسيسا لا تأكيدا، والأشبه أنه تأسيس، لأنهم كانوا يؤخرون الشهر عن موضعه إلى شهر آخر، فينتقل عن وقته الحقيقى، فقال صلى الله عليه وسلم (رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان) لا رجب الذى عندكم وقت أنسأتموه.

من أحدث النسىء؟ وأول من سن النسىء:

١. قال بن عباس هو عمرو بن لحى بن قمعه بن خندف، وروى كما فى الخازن [٢٣] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار).

٢. وقال مجاهد: كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس، أنى لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول، أنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر، ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مثالته، ويقول: إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم، فهو قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) قال: يعنى الأربعة، فيحلوا ماحرم الله تأخير هذا الشهر الحرام.

٣. وقال الكلبى: أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وكان اذا هم بالناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول: لا مرد لما قضيت، وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبيك ثم يسألونه: أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه، فيقول: إن صفر العام حرام، فإذا قال ذ لك حلوا الاوتار، ونزعوا الأسنة والأذجة، وأن قال حلال، عقدوا الاوتار وشدوا الاذجة وأغاروا.

٤. وقيل: أول من صنع ذلك هو جنادة بن عوف الكنانى، قيل: لما يكن هو الأول بل إنه جاء

بعد نعيم بن ثعلبةو وهو الذى أدركه النبى صلى الله عليه وسلم وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته: ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلون، ثم يقوم فى العام القبل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه.. ويشهد لعماروى فى الطبرى ـ باسناده ـ عن بن عباس أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى كان يوافى الموسم كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادى: الا أن أبا ثمامة لا يحاب، ولا يعاب، الا وأن صفر العام حرام فيحرمه الناس.. الا وأن صفر العام حلال فيحله الناس، فيحرم صفر عاما ويحرم المحرم عاما، فذلك قوله تعالى (انما النسىء..)[٢٤]

٥ـ وعن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال: اخرجوا بنا، قالوا له: هذا المحرم، قال: ننسئه العام هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين، قال: ففعل ذلك فلماكان عام قابل قال: لا تغزوا فى صفر، حرموه مع المحرم، هما محرمان.. قال قائلهم:

ومنا نسىء الشهر القلمس.. وقال الكميت:

ونحن الناسئون على معد.. شهور الحل نجعلها حرام

وأيا ماكان الفاعل للنسىء أولا فقد ظهر لنا من هذا العرض صورتان من صور النسىء: فى الصورة الأولى يحرم صفر بدل المحرم، فالشهور المحرمة أربعة فى العدد ولكنها ليست هى التى نص عليها التحريم بسبب أحلال شهر المحرم وفى الصورة الثانية يحرم فى عام ثلاثة أشهر وفى عام خمسة، فالمجموع ثمانية فى عامين بمتوسط أربعة فى العام ولكن حرمة المحرم ضاعت فى أحدهما، وحل صفر ضاع فى ثانيهما.. وهذه كتلك فى احلال ماحرم الله..

وعلى ذلك فيكون النسىء معناه تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، لكن هذا المعنى لم يكن ليحدث هذه الضجة الكبرى، بل لم يكن فى مقدور هذا المعنى ـ أعنى التأخير ـ ان يوجد هذا التغيير الشامل ولا ذلك الانقلاب الخطير فى أسماء الشهور وأعدادها ونظامها، فليس متوقعا أن يحدث كل هذا من حرمة شهر تنتقل إلى شهر آخر.. اذن فلابد أن يفيد النسىء معنى آخر مع هذا المعنى حتى يمكن أن يتأتى بسببه هذا التبديل العام .. ألا وهو الزيادة..

١ـ والنسىء بمعنى الزيادة مستعمل لغة، قال قطرب: النسىء أصله من الزيادة يقال: نسأ فى الأجل وأنسأ إذا زاد فيه وكذلك قيل اللبن النسىء لزيادة الماء فيه، ونسأت المرأة حبلت، عل زيادة الولد فيها كزيادة الماء فى اللبن، وقيل للناقة: نسأتها أى زجرتها ليزداد سيرها، وكل زيادة حدثت فى شىء فالشىء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسىء.

٢ـ وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره ـ أى يزداد له فى عمره ـ فليصل رحمه).

٣ـ قال قتاده: انهم عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرم فى التحريم، وعليه يكون النسىء بمعنى الزيادة.

٤. ولأنه لو لم يكن النسيء، بمعنى الزيادة لما كان هناك كبير فائدة من قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) ومن قوله صلى الله عليه وسلم «السنة اثنا عشر شهرا» مما يدل على أن العرب تجاوزوا الحد المرسوم لهم ولغيرهم من جعل السنة اثنى عشر شهرا. فزادوا فيها شهرا أو شهرين لكى يواصلوا الحروب ويستمروا فى القتال، وليبعدوا عن أنفسهم الأشهر الحرم ما استطاعوا.

وهذه الزيادة هى التى أحدثت الخلاف الكبير والتبديل والتغيير فى أسماء الشهور وعددها وتنظيم حرمتها.

٥. ومما يؤيد ذلك قول كثير من المفسرين: وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت.

٦. ويؤيد ذلك أيضا أن حجة أبى بكر رضى الله عنه كانت فى ذى القعدة كما قال الزمخشرى، وعليه فلو كان النسيء بمعنى التأخير فقط لكانت حجة الوداع فى ذى القعدة أيضا، لمرور اثنى عشر شهرا على حجة أبى بكر، فتعين أن يكون مع التأخير الزيادة حتى يمكن أن تقع حجة الوداع فى ذى الحجة .. وبذلك فقد كانت السنة بين الحجتين ثلاثة عشر شهرا.

وتعقب ذلك بأن حج أبى بكر لو لم يكن فى ذى الحجة لما قال الله تعالى فى شأنه «يوم الحج الأكبر»، لعدم صحة الحج فى ذى العقدة.

ويمكن أن يجاب بأن حجة أبى بكر لو كانت فى ذى الحجة لما كانت هناك داع لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته» إلخ.. فإنه يدل بفحواه أن الزمان قبل هذا العام يستدر كهيئته، ورد بأنه لا يلزم منه ذلك وبأنه لا يثبت إلا بنقل تاريخى وهو غير موجود قطعا(٢٥).

٧. ويقول الرازى: فحصل لهم هذان الأمران: الأول الزيادة فى عدة الشهور، والثانى تأجير الحرمة الحاصلة من شهر إلى شهر آخر.

وإنما كان النسيء، زيادة فى الكفر لكفرهم بحكم الله فيه حيث يجحدون تحريم القتال فى المحرم ويثبتونه فى صفر، يعنى أنهم لما توارثوه على أنه شريعة ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفرا.. وقيل: كان زيادة فى الكفر لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله الله فهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم.

فعلم من هذا أن النسيء تشريع ملتزم غيروا به ملة إبراهيم بسوء التأويل واتباع الهوى فلهذا سماه الله زيادة فى الكفر، أى انه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على أصل كفرهم بالشرك بالله تعالى.. وبعبارة أخرى: انه كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الإعتقاد، فإن شرع الحلال والحرام، والعبادة حق له وحده، فمنازعته فيه شرك فى ربوبيته، كما تقدم فى قوله تعالى: (أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا).

وقيل: إنه معصية ضمت إلى الكفر، وكما يزداد الإيمان بالطاعة يزداد الكفر بالمعصية..

وأورد عليه: بأن المعصية ليست من الكفر، بخلاف الطاعة فانها من الإيمان.. ولما كان النسىء زيادة فى الكفر فإن الذين كفروا يضلون بسببه ضلالا زائدا على ضلالهم القديم.

والمصير فى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) يعود إلى هذا الشهر.. شهر المحرم.. الذى إذا اقتضت دواعيهم للحرب أنساؤه، وإذا لم تدع للقتال داعية عندهم تركوه على حاله.. فهم يحلون المحرم عاما من الأعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام، ويحرمون المحرم عاما آخر إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم.. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى النسىء، بمعنى أنهم يعملون بالنسىء عاما ولا يعملون به عاما، حسب ما تقتضيه دواعى الحال عندهم، وهنا يمكن أن يكون النسىء مراد لكل شهر من الأشهر الحرم، فيقدمون ويؤرخون فيها حسبما يشاؤون فإن قلت:

المتبادر من (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) أنهم يلتزمون ذلك عاما بعد عام فى تتابع بين الاحلال والتحريم، فهل ذلك مراد؟

قلت: ليس ذلك مرادا، انما المراد به عدم ثباتهم على وضع واحد مع هذه الأشهر، بل يتلاعبون بها حسب دواعى أحوالهم فإن قلت: كيف يقول (ويحرمونه) مع أنه محرم من ذاته؟ قلت: معنى يحرمونه: يحافظون على حرمته كما كانت، وإنما عبر عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى، أو لاسناده له إلى آلهتهم.

وإنما فعلوا ما فعلوا من ذلك ليوافقوا العدة التى هى الأربعة، ولا يخالفونها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين، فرفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، إذ كل همهم أن يجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما، وان لم تكن هى الأشهر التى حددها الله، ولذلك نصت السنة الصحيحة على العدد، كما نصت على التعيين.

ومعنى (فيحلوا ما حرم الله) أنهم يحلون بمواطئة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الإختصاص للأشهر بعينها.

والحاصل أنه كان الواجب عليهم التخصيص والعدة، فحيث تركوا التخصيص فقد استحلوا ما حرم الله، وانهم ليضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيه فيتوهمون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم، إذا وافقوا فيه العدة فى ملته، وإن أحلوا ما حرمه الله وهو المقصود بالذات من شرعه فى هذه المسألة، لا مجرد العدد.. فهل يعتبر بهذا من يتجرئون على التحليل والتحريم بآرائهم وتقاليدهم من غير نص قطعى عن الله ورسوله؟

(زين لهم سوء أعمالهم) انهم اطمأنوا إلى هذا الزيف الذى صنعوه، وساغ لهم هذا الباطل الذى جاءوا به، وحسن لهم وحبب إليهم سيىء أعمالهم وقبيحها وما خولف به، أمر الله وطاعته (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا).

قال بن عباس رضى الله عنهما: يريد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة، وهى أنهم يحرمون الذى حرمه الله تعالى لم ينقصوا منه شيئا.

(والله لا يهدى القوم الكافرين) إلى حكمة فى أحكام شرعه وبنائها على مصالح الناس

وإصلاح أفرادهم ومجتمعهم فى أمور دينهم ودنياهم، بل يتبعون فيها أهواءهم وشهواتهم وما يزينه لهم الشيطان، وهو سبب الشقاء ودخول النار.

أولا يوفقهم لمحاسن الأفعال وجميلها وما لله فيه رضا، ولكنه يخذلهم عن الهدى كما خذل هؤلاء الناس عن الأشهر الحرم.

أو يخلى الكافرين وكفرهم فلا يعدل بهم عن طريق الضلال الذى ركبوه ولا يمنحهم هداية موصلة إلى المطلوب البتة، وإنما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكه.. وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم، لأنهم استحبوا العميعلى الهدى والبلاء على العافية، والكفر على الإيمان، فتاهوا فى تيه الضلال.

والمراد بالكافرين: أما المتقدمون الناسئون، ويكون فيه وضعا للظاهر موضع الضمير لتسجيل علة الحكم عليهم بعدم الهداية كأنه قال: لا يهديهم لأنهم كفروا، وأما العموم، وبدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا.

أيات تتعلق بالأشهر الحرم

وإتماما للموضوع لا أرى بأسا أن أذكر الآيات التى تتحدث عن الأشهر الحرم وتبين أحكامها، وأول هذه الآيات قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، واخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل)[٢٦].

سبب نزول هذه الآية:

ولقد نزلت هذه الآية فى السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى، وسبب نزولها كما روى بن جرير الطبرى وابن أى حاتم وبن اسحق عن الزهوى عن عروة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش - وهو ابن عمة النبى صلى الله عليه وسلم - إلى نخلة «مكان قرب مكة» فقال: «كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش» ولم يأمره بقتال، وذلك فى الشهر الحرام وكتب له كتابا قبل أن يعلمه أين يسير، فقال «اخرج أنت وأصحابك، حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه، فما أمرتك به فأمض له ولا تستكره أحدا من أصحابك على الذهاب معك» فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه أن أمضى حتى تنزل نخله، فأتنا من أخبار قريش بما اتصل إليك منهم، فقال لأصحابه - وكانوا ثمانية - حين قرأ الكتاب: سمعا وطاعة من كان منكم له رغبة فى الشهادة فلينطلق معى، فانى ماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كره ذلك منكم فليرجع، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانى أن استكره منكم أحدا، فمضى معه القوم، حتى إذا كانوا بنجران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبه بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعاقبانه، فتخلفا عليه يطلبانه، ومضى القوم حتى نزلوا نخلة، فمر عليهم عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله، معهم تجارة قد مروا بها من الطائف أدم وزبيب، فلما رآهم القوم أشرف لهم واقد بن عبد الله وكان قد حلق رأسه فلما رأوا حليقا قالوا: عمار ليس عليكم منهم بأس، وائتمر القوم

بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان آخر يوم من جمادى ، فقالوا.. لئن قتلتموهم أنكم لتقتلونهم فى الشهر الحرام، ولئن تركتموهم ليدخلن فى هذه الليلة مكة الحرام، فليمتنعن منكم، فأجمع القوم على قتلهم.. فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل وأعجزهم واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: «والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» فأوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسبيرين والعير فلم يأخذ منها شيئا، فلما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال سقط فى أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم اخوانهم من السملمين وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء: قد سفك محمد الدم الحرام وأخذ المال وأسر الرجال، واستحل الشهر الحرام، وقالت اليهود ـ تفائلوا بذلك على محمد ـ : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله.. عمرو: عمرة الحرب، والحضرمى: حضرة الحرب، وواقد بن عبد الله، وقدت الحرب!

وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشتى الأساليب الماكرة التى تروج فى البيئة العربية، وتظهر محمدا وأصحابه بمظهر المعتدى الذى يدوس مقدسات العرب وينكر مقدساته هو كذلك عند بروز المصلحة! حتى نزلت هذه النصوص القرآنية، فقطعت كل قول، وفصلت فى الموقف بالحق.. فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسيرين والعير.

وفيما أعرف أن الألمان يفتخرون فى الوقت الحاضر بالرسائل المكتومة، ويقولون: إن أول من استخدمها الألمان فى الحرب العالمية الثانية، فيرسلون مثلا طيارا أو قائدا إلى هدف معين، ومعه رسالة، ثم يسير إلى مسافة يفتح بعدها الرسالة، حتى يؤمن الكتمان، وأنا لا ألوم الألمان أو غير الألمان عندما يفتخرون بمثل هذه الرسائل، ولكن ما عذر العرب والمسلمين عندما يقولون: إن الألمان سبقوا، بينما نجد الحقيقة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سبق العالم كله بهذا الأسلوب قبل أربعة عشر قرنا من الزمان حتى يأمن الكتمان.

وعلى أية حال فقد بعثت السرية فى الشهر الحرام، وكان هدفها الإستطلاع وليس القتال، ولكن الأمور تطورت إلى القتال، فأريق أول دم فى الإسلام.. وقد وقع القتل فى الليلة الأخيرة من جمادى الآخر، ليلة الشك التى لا يعرف أهى ليلة متممة لجمادى أم هى الليلة الأولى من رجب، والظاهر أن السرية كانت تحسب أنها فى اليوم الأخير من جمادى الآخر فإذا هى فى اليوم الأول من رجب.. وقد دخلت الأشهر الحرم التى تعظمها العرب، وقد عظمها الإسلام، وأقر حرمتها، فحصل شيء من الضيق لدى المسلمين، لأنهم شعروا أنهم استباحوا الشهر الحرام.. ويرى ابن سيد الناس أن ذلك لم يكن فى آخر يوم من جمادى الآخرة بل كان فى آخر يوم من رجب.

من السائل فى هذه الآية؟ قيل: هم المشركون

وذلك أن وفدا منهم ركب إلى المدينة بعد الحادث المتقدم، فقالوا: أيحل القتال فى الشهر الحرام؟ وقيل: هم المسلمون، وعليه أكثر المفسرين، قالوا: وأكثروا الروايات تقتضيه.. وقيل :

إن اليهود قالت: كيف يكون على ملة إبراهيم ويقتل فى الأشهر الحرام! فعلى هذا هم السائلون أو أنهم أوعزوا لقريش أن تسأل.

وفى نزول القرآن وتعقيبه وتعليقه على القصة ما يشير إلى أمور

أولا: ان القتال فى الشهر الحرام لا يجوز

ثانيا: أنه وان كان لا يجوز أن المشركين ما ينبغى أن يحتجوا بحرمة الشهر، لأنهم استباحوا الحرم واستباحوا الشهر قبل المسلمين بأن فتنوا عباد الله وأكرهوهم على الضلال وشردوهم بإيمانهم، ولم يدعوهم يستقرون فى البلد الآمن، فكيف يحتجون بحرمة الشهر وهم قد ارتكبوا ما هو أشد من استباحتها.

ونجد الآية تتحدث على هذا النحو: يسألونك عن حكم القتال فى الشهر الحرام، الجواب، قل لهم: إن القتال فى الشهر الحرام أثم كبير، وهى جملة مستقلة نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم ولكن (وصد عن سبيل الله وكفر بهوالمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله).. وهذه الجملة جاءت لكى يبدأ الرد بها على المشركين، ثم يؤكد هذا المعنى مرة آخرى بقوله (والفتنة أكبر من القتل).

فأشعر من هذا الكلام أن الآية تؤكد حرمة الأشهر الحرم.. وأن هذه الحرمة ليست موضع جدال فى بقائها بين المسلمين والمشركين، إنما موضع رد القرآن مناطة تعنيف المشركين، لماذا تريدون أن تؤنبوا المسلمين إذا قاتلوكم فى الشهر الحرام؟ وأنتم قد ارتكبتم ما هو أشنع وما هو أشد، وكان موقفكم وتهجمكم وكانت استثارتكم للمسلمين هى السبب فيما وقع؟ فالمسلمون معذرون وأنتم السبب أولا وأخيرا.

ان المسلمين لم يبدأوا القتال ولم يبدأوا العدوان، إنما هم المشركون، هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام.. لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمته، وآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذى جعله الله آمنا، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته.. وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل.. وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين، فسقطت حجتهم فى التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.. وضع موقف المسلمين فى دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات، الذين يتخذون منها ستارا حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة.. وكان على المسلمين الا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التى لا احترام لها فى نفوسهم ولا قداسة!

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة واظهارها بمظهر المعتدى.. وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

إن الإسلام منهج واقعى للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة فى قوالب نظرية.. انه يواجه الحياة البشرية - كما هى - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية، يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الإرتقاء فى ان واحد، يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعياتها، ولا ترفرف فى خيال حالم ورؤى مجنحة لا تجدى على واقع الحياة شيئا!

هؤلاء قوم طغاة بغاه معتدون، ما يقيمون للمقدسات وزنا ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الايذاء ويخرجونهم من البلد الحرام الذى يأمن فيه كل حى حتى الهوام!

ثم بعد ذلك يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم، انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهون حرمة الشهر الحرام، فكيف يواجههم الإسلام؟ أيواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟ انه لن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح!

كلا، إن الإسلام لا يصنع هذا، لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه، يريد أن يزيل البغى والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة.. ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة، وهم فى مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة.

آية ثانية: ومن أجل هذا تأتى آية أخرى توضح هذا الموقف وتقرر تلك القاعدة بما لا يدع مجالا للبس ولا فرصة لمحتال فتقول : (الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص)«١» فالذى ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التى يكفلها له الشهر الحرام.

وقد جعل الله البيت الحرام واحة لأمن والسلام فى المكان، كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام فى الزمان، تصان فيها الدماء والحرمات والأموال، ولا يمس فيها حى بسوء وهو سبق لتقرير نظام الحياد فى الزمان والمكان، وضعه الإسلام قبل أن توجد الأمم المتحدة وتوجد سويسرا وغيرها من البلاد الحيادية بقرون طويلة.

فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها فجزاؤه أن يحرم هو منها، والذى ينتهك الحرمات لا تصان حرماته، فالحرمات قصاص، ومع هذا فإن اباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع فى حدود لا يعتدونها، فما تباح هذه المقدسات إلا بالضرورة وبقدرها.

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) بلا تجاوز ولا مغالاة، والمسلمون موكولون فى هذا إلى تقواهم، وقد كانوا يعلمون أنهم انما ينصرون بعون الله، فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين، بعد أمرهم بالتقوى.. وفى هذا الضمان كل الضمان.. (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين).

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدد فى هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ويرتكبون كل منكم وهم فى منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التى يجب أن تصان.

وهو يمضى فى هذا المبدأ على اضطراد.. انه يحرم الغيبة، ولكن لا غيبة لفاسق، فالفاسق الذى يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكنوون بفسقه، وهو يحرم الجهر بالسوء من القول، ولكنه يستثنى «إلا من ظلم» فله أن يجهر فى حق ظالمه بالسوء من القول، لأنه حق، ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم فى الاحتماء بالمبدأ الكريم الذى لا يستحقه! ومع هذا يبقى الإسلام فى مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاه، ولا إلى أسلحتهم الخبيثة، ووسائلهم الخسيسة.

انه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم، وإلى قتالهم وقتلهم، وإلى تطهير جو الحياة منهم.. هكذا جهرة وفى وضح النهار.

وحين تكون القيادة فى الأيدى النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات.. حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما آرادها الله.

هذا هو الإسلام صريحا واضحا قويا دامغا لا يلف ولا يدور، ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور، وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامهم، وهم يضمون فى سبيل الله، لتطهير الأرض من الشر والفساد، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس..

هذا شر وفساد وبغى وباطل.. فلا حرمة له اذن، ولا يجوز أن تترس بالحرمات، ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا فى طريقهم فى يقين وثقة، فى سلام مع ضمائرهم، وفى سلام من الله.

ويمضى السياق بعد بيان هذه الحقيقة، وتمكين هذه القاعدة وإقرار قلوب المسلمين واقدامهم.. يمضى فيكشف لهم عن عمق الشر فى نفوس أعدائهم، وأصالة العدوان فى نيتهم، وخطتهم (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا».

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الاصرار الخبيث على الشر، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم، بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم، وهو الهدف الذى لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة فى كل أرض وفى كل جيل.

إن وجود الإسلام فى الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين، ولاعداء الجماعة المسلمة فى كل حين.. إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ويرهبه كل باغ ويكرهه كل مفسد.

انه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم، إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغى والفساد.. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاه المفسدون، ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارا فى صورة من صور الكفر الكثيرة.

وذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم، وبغيهم، وفسادهم، وفى الأرض جماعة مسلمة، تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء المسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتا.. أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم أن استطاعوا، وكلما انكسر فى يدهم سلاح انقضوا سلاحا غيره، وكلما كلت فى أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها.. والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الإستسلام وينبهها إلى الخطر، ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهى خسارة الدنيا والآخرة، والعذاب الذى لا يدفعه عذر ولا مبرر.. (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت..

والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل، فيتطابق المدلول الحسى والمدلول المعنوى..

يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره، وهلاكه فى النهاية وبواره، مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها فى النهاية بهذا الانتفاخ.. ومن يرتد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه، تحت مطارق الأذى والفتنة - مهما بلغت - فهذا مصيره الذى قرره الله له .. حبوط العمل فى الدنيا والآخرة ثم ملازمة العذاب فى النار والخلود فيها.

إن القلب الذى يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا، إلا إذا فسد فساد الإصلاح له.. وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذى يتجاوز الطاقة .. فالله رحيم، رخص للمسلم - حين يتجاوز العذاب طاقته - أن يقى نفسه بالتظاهر، مع بقاء قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان.. ولكنه لم يرخص له فى الكفر الحقيقى، وفى الإرتداد الحقيقى بحيث يموت وهو كافر والعياذ بالله..

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان، ليس لمسلم عذر فى أن يخضع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه، ويرتد عن إيمانه وإسلامه، ويرجع عن الحق الذى ذاقه وعرفه.

وهناك المجاهدة، والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله، والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به ويصبرون على الأذى فى سبيله، فهو يعوضهم إحدى الحسنيين.. وهذا ما تطلع إليه الصحابة من أهل السرية، فإنه لما نزلت آية (يسألونك عن الشهر الحرام(قالوا: إذا لم يكن علينا من وزر فهل لنا من أجر؟ فنزل (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم).

الآية الثالثة:

انها منطقة الأمان يقيمها الله فى بيته الحرام، كما يقيم فترة الأمان فى الأشهر الحرم.. منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى وأن يروعها العدوان، انه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت فلا يروعه خوف ولا يهيجه فزع.. وانه لسلام الضمير البشرى يستشعره فترة من الزمان، ويتذوق حلاوته ليحرص عليه وليعمل له فى كل زمان وفى

كل مكان.. لذلك يهيب القرآن بالمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا أمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا. وإذا حللتم فاصطادوا) (٢٧) بعد منطقة الأمان وفترة السلام.

وفى جو الحرمات وفى منطقة الأمان، يدعو الإسلام دعوته لكف العدوان، حتى على الذين صدوا المسلمين عن البيت الحرام - عام الحديبية - وتركوا فى نفوس المسلمين ندوبا، وجروحا من هذا الصدد وخلفوا فى قلوبهم الكره والبغض.. حتى على هؤلاء لا يجوز العدوان (ولا يجر منكم شنأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) وتجىء هذه الدعوة فى أوانها فى فترة السلام، وفى مكانها فى منطقة الأمان، لتغسل ما فى القلوب من بغض وشنأن، ولتحمل هذه النفوس على الضبط والكتمان، ولتقول للأمة المسلمة: اذكرى عقدك مع الله أن تكونى الأمة الوسط التى تشهد على الناس، والتى تقيم القسط بين الناس، والتى لا تتعاون على الأثم والعدوان، لكن تتعاون على البر والتقوى والعدل بين الناس (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب).

وهو تعقيب لتهديد من لا يتقى ومن لا يفى بالعقد، ومن تجرفه دفعة الشنآن إلى شاطئ العدوان.

الآية الرابعة:

انها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر فى زحمة الصراع، انها الكعبة الحرام، والأشهر الحرام، تقدم وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين، والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس.. بين الرغائب والمطامع، والشهوات والضرورات.. فتحل الطمأنينة محل الخوف، ويحل السلام محل الخصام، وترف أجنحة من الحب والاخاء والأمن والسلام، وتدرب النفس البشرية فى واقعها العملى - لا فى عالم المثل والنظريات - على هذه المشاعر وهذه المعانى، فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤيا حالمة تعز على التحقيق فى واقع الحياة .. (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد)(٢٨).

فأقتران البيت الحرام والشهر الحرام فى النص القرآنى يدل على اقترانهما فى الزمان فمن وقت أن جعل الله الكعبة بيتا حراما جعل أيضا أيضا هذه الأشهر الأربعة حرما، وهذا ينبىء بأن الأشهر الحرم مرتبطة بالكعبة، ارتباطها بالكعبة لأنها هى المزار الإنسانى العام للمسلمين، والطواف بها من أعظم أركان الحج والعمرة فحرمة هذه الأشهر منوطة بفريضة الحج .. فكان شهر ذى القعدة شهر قعود واستعداد للحج، وكان شهر ذى الحجة شهرالحجة، ثم كان المحرم منصرف الحجيج إلى بيوتهم آمنين.. وهذا هو سر تحريم القتال فى الأشهر الحرم.. وحرم رجب أيضا ليكون شهر عمرة وزيارة، ولعل ما يرشد إلى ذلك ويدل عليه قوله تعالى: (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج)(٢٩).. فهذه الأمور منهى عنها فى فريضة الحج، ولاشك أنها فى الأشهر الحرم جريمة منكرة فهى أكثر منها، ما الذنب فيها أعظم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم).

وبذلك كان تحريمها احتراما للحج وتأمينا لسلامة الحجيج فيه.. ولكننا نجد أن نص القرآن الكريم والحديث النبوى يجعلها حراما فى الحج وفى غير الحج، حراما سواء أكان الناس حجاجا فى البيت الحرام أم كانوا غير حجاج خارج البيت الحرام، فهى أشهر محرمة لذاتها، وتحريم القتال فيها نوع من السياسة الحربية، وليس فقط سياسة دينية تعبدية.. فكأن الله عز وجل أراد أن يجعل ثلث الدهر سلاما بين الناس فيتحاجزون فيه عن الشر ويطفئون فيه نار الحب إذا اشتعلت بينهم حتى يمكن أن تكون مصالح الناس مصونة جبرا فى هدنة اجبارية تفرض عليهم فرضا.. ولعل هذه الهدنة التى تفرض عليهم ثلث الدهر - لأنها أربعة أشهر - تكون سببا فى تقليل ما يقع بين البشر من شرور، وفى تخفيف الخسائر المادية والأدبية التى تتبع هذه الحروب باستمرار.

وفى تعقيب الحكم فى الآية ما يشعر بأن فى هذا التحريم للحرم والأشهر الحرم ولشعائر الحج عموما ما فيه من الصيانة لمصالح الناس وضمان الاستقرار والعمران، وامتداد المنافع التى يحرص الناس عليها (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم).. وهو تعقيب عجيب فى هذا الموضوع ولكنه مفهوم.. ان الله بشرع هذه الشريعة، ويقيم هذه المثابة ليعلم الناس أن الله يعلم كل شىء.. ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجات نفوسهم وهتاف أرواحهم، ولذلك يقرر الشريعة لتلبية الطبائع والحاجات والاستجابة للأشواق والمكنونات.

هل وقع فى الأشهر الحرم نسخ؟

كثيرا ما يتحدثون عن وقوع نسخ فى آيات الأشهر الحرم، والآية التى تتجه إليها الأنظار أنها منسوخة هى قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) والآية الناسخة هى قوله تعالى فى سورتنا هذه «التوبة» (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة».

وفى هذا الموضوع ثلاثة آراء:

١. مذهب عطاء أنها محكمة.

٢. مذهب الجمهور أنها منسوخة.

٣. مذهب الرازى أن النسخ يمكن وإليكم المذاهب موضحة بأدلتها:

أولا: مذهب الجمهور:

يرى الجمهور أن آية (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) منسوخة بقوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أو بقوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» أو بهما معا.

وبيان ذلك : أن آية (يسألونك عن الشهر الحرام) أفادت حرمة القتال فى الشهر الحرام وآية (وقاتلوا المشركين كافة) أفادت الأذن بقتال المشركين عموما، إلى هنا لا تعارض بين الآيتين، فمن أين جاء النسخ؟ قالوا: إن العموم فى الأشخاص - كما فى الآية الثانية يستلزم العموم فى الأزمان، ومعنى ذلك أن قتال المشركين مأذون فيه فى كل زمن، سواء كان ذلك

الزمن الشهر الحرام أم غيره.. وإذن فالآية الثانية تفيد الأذن بالقتال فى الشهر الحرام، والآية الأولى تفيد حرمة القتال فى الشهر الحرام، وبذلك ظهر التعارض بين الآيتين، وتعذر الجمع بينهما، إذ فيهما اذن ومنع ولاشك أن احداهما متقدمة ـ وهى (يسألونك) فقد نزلت فى السنة الثانية من الهجرة قبل بدر، والأخرى متأخرة ـ وهى (وقاتلوا المشركين) فقد نزلت فى أواخر سنة تسع.. ومادامت هذه الأمور الثلاثة قد اجتمعت، فقد تحقق النسخ.

هذا على أن الناسخ آية (وقاتلوا المشركين كافة).. أما على أن الناسخ آية (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين حيث وجدتموهم) فإننا نقول: إن المراد بالأشهر الحرم أشهر معينة أبيح للمشركين السياحة فيها بقوله تعالى: (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) وليس المراد بها الأشهر الحرام من كل سنة المعروفة لدينا، فالتقيد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به فى جميع الأمكنة، وعموم الأمكنة يستلزم عموم الأزمنة، ثم يقال فيها ما قيل فى الآية السابقة.

أدلة الجمهور: ويؤيد القول بالنسخ:

١ـ ما ورى عن كثير من السلف أنها منسوخة، كأبن عباس وسليمان بن يسار وقتادة والاوزاعى وعطاء بن ميسرة.

٢ـ ما نقله أبو جعفر النحاس من اجماع العلماء ما عدا عطاء على القول بهذا النسخ، فقد أجمعت الأمة قولا وعملا على ذلك.

٣ـ ما ثبت من قتاله صلى الله عليه وسلم هوازن بحنين وثقيفا بالطائف فى شوال وذى القعدة سنة سنة ثمان من الهجرة ؟؟ أبا عامر الأشعرى هوازن كذلك، ولاريب أن ذا القعدة شهر حرام.

وقد اعترض الشافعية على ذلك النسخ فقالوا: إن الآية الأولى خاصة متقدمة، والآية الثانية عامة متأخرة، والخاص سواء كان متقدما على العام أو متأخرا عنه ـ يتعين كونه مخصصا للعام، ولا يصح أن يكون العام ناسخا له، وذلك لأن دلالة الخاص قطعية، ودلالة العام وإن كانت على أصل المعنى قطعية إلا أنها على كل فرد فرد ظنيه، والنى لا يتعارض القطعى ولا ينسخه.

وأجيب من قبل الحنفية، بأن العام وإنكار ظنى الدلالة إلا أن الحديث جعل صورة النزاع ـ الأذن بالقتال فى الشهر الحرام ـ قطعية، والقطعى يعارض القطعى، فثبت النسخ.

ثانيا: مذهب عطاء:

ويرى عطاء أن الآية غير منسوخة، بل هى محكمة ويستدل على ذلك بما يأتى:

١ـ أنه لا تعارض بين آية (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) والآيتين الأخريين وذلك أن عموم الأشخاص فى الآية الأولى، وعموم الأمكنة فى الآية الثانية، لا يستلزم واحد منهما عموم الأزمنة، وإذن فلا تعارض ولا نسخ، بل الآية الأولى نبهت على العموم فى الأشخاص، والثانية نبهت على العموم فى الأمكنة، وكلاهما غير مناف لحرمة القتال فى الشهر الحرام،

لأن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان فى بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم، ولذلك يقول الزرقانى، ويؤيد ذلك أن حرمة القتال فى الشهر الحرام لا تزال باقية، اللهم إلا إذا كان جزاء لما هو أشد منه فإنه يجوز حينئذ لهذا العارض، كما دل عليه قول الله فى الآية نفسها (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله)[٣٠].

٢. استدل بحديث: (كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يغزى) ولذلك فقد حلف عطاء بالله حين سئل عن القتال فى الشهر الحرام: أنه لا يحل للناس أن يقاتلوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا وما نسخت ويمكن أن يرد هذا الرأى من قبل الجمهور بالآتى:

١. بما سبق من أن العموم فى الأشخاص والأمكنة يقتضى العموم فى الأزمان.. فمعها عموما مأخوذان من النص: الأشخاص والأمكنة، وعموم مأخوذ بطريق الإستلزام وهو الأزمان، لأن «أى فعل لابد فيه من زمان ومكان وحال.. فيكون التعارض قائما، ولا مخرج منه إلا بالقول بالنسخ».

٢. ثم انه لم يبين زمن الحديث، وهل هو متقدم على الآية أو متأخر عنها؟ وإذا لم يبين ذلك فالحديث محتمل التقدم والتأخر، والدليل إذا تطرق إليه الإحتمال، وسقط به الإستدلال.

٣. قال الألوسى: وخالف عطاء فى ذلك، وجعل ذلك حكما مستمرا إلى يوم القيامة، والأمة على خلافه فى سائر الأمصار.

ثالثا: مذهب الإمام الرازى:

يرى الرازى أن النسخ غير متعين، كما أن الأحكام غير متعين.. فالنسخ عنده اذن ممكن، والدليل عليه:

١. قال الرازى: والذى عندى أن الآية لا تدل على حرمة القتال مطلقا فى الشهر الحرام لأن القتال فيها نكرة فى حيز المثبت فلا تعم، فلا حاجة حينئذ إلى القول بالنسخ.

واعترض:

أ) بأنها عامة لكونها موصوفة بوصف عام أو بقرينة المقام

ب) ولو سلم أنها غير عامة فقتال المشركين مراد قطعا، لأن قتال المسلمين حرام مطلقا من غير تقييد بالأشهر الحرم.

وأجيب عن ذلك:

أ) بأنا لا نسلم أنها موصوفة، لجواز أن يكون الجار ظرفا لغوا.

ب) ولو سلم أنه وصف فلا نسلم عموم الوصف بل هو مخص لها بالقتال الواقع فى الشهر الحرام المعين.

فإن قلت، فما الوصف المفيد للعموم؟ قلت: هو الوصف المساوى عمومه، عموم الجنس مثل «فى الأرض» و«يطير» فى قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه).

ج) وأيضا كون الأصل مطابقة الجواب للسؤال قرينة على الخصوص

د) وكون المراد قتال المشركين على عمومه غير مسلم، لأن الكلام فى القتال المخصوص.

هـ) ولو سلم عمومها فى السؤال فلا نسلم عمومها فى الجواب، بناء على ما ذكره الراغب أن النكرة المذكورة إذا أعيد ذكرها يعاد معرفا، نحو سألتنى عن رجل، والرجل كذا وكذا، ففى تنكيرها هنا تنبيه على أنه ليس المراد كل قتال حكمه هذا.. والدليل على ذلك أن قتال النبى صلى الله عليه وسلم لأهل مكة لم يكن هذا حكمه فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحلت لى ساعة من نهار».

و) وحرمة قتال المسلمين مطلقا لا يخفى ما فيه، لأن قتال أهل البغى يحل وهم مسلمون.

٢. والدليل الثانى للرازى أن بن عباس قال به، كما رواه عنه الضحاك، وعن سفيان الثورى أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا شىء منسوخ ولا بأس بالقتال فى الشهر الحرام.

٣. قال الألوسى: فالانصاف أن القول بالنسخ ليس بضرورى، بل هو ممكن.

ترجيح ما أختار..

من هذا العرض يتبين أن النسخ ليس بواجب، لما نصبه الإمام الرازى من أدلة عقلية قوية ومرتبة، ومن أدلة نقلية مروية عن بن عباس والثورى، ولما عقب به الألوسى على ذلك من قوله: فالانصاف أن القول بالنسخ ليس بضرورى بل هو ممكن، وبهذا زحزح النسخ لحرمة القتال فى الأشهر الحرم عن الوجوب إلى الامكان.. هذه خطوة.

أما الخطوة الثانية فهى أنه يحق لى هنا أن أتساءل: ما معنى امكان النسخ؟

إن النسخ ضرورة، نلجأ إليها عند الحاجة القصوى التى لا مخلص منها إلا به.. عند تعارض نصين تعارضا لا يمكن معه الجمع بينهما، فندفع إلى النسخ دفع المضطرين، والضرورة تقدر بقدرها.. وحيث لا ضرورة فلا نسخ مطلقا، لا واجها ولا ممكنا، بل النسخ ممتنع والآية محكمة كما ذهب إليه عطاء.. وذلك للأدلة الآتية:

أولا: إن أدلة الجمهور لا تستطيع أن تقف على قدم وساق فى اثبات مدعاهم وردهم على عطاء رد غير مقنع، ذلك أن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة لا يستلزم أحدهما أو كلاهما عموم الأزمنة، إذ من الممكن أن يتحققا فى أى زمان آخر غير الأشهر الحرم، فلا استلزام لعموم الأزمنة. واذن فلا تعارض ولا نسخ.

ثانيا: إن الإجماع على النسخ الذى ادعاه الجمهور غير مجمع عليه، فقد خالف فيه الكثير مثل عطاء نفسه وما نقله الرازى عن بن عباس والثورى، وهؤلاء قمم فى التفسير وكذلك الشافعية، فإنهم رفضوا القول بالنسخ كما سبق فأين الاجماع بعد هذا؟

ثالثا: بقى من أدلة الجمهور الحديث الذى مفاده: أنه صلى الله عليه وسلم قاتل فى ذى القعدة هوازن وثقيفا.. وللرد عليهم أقول: يجب أن يعلم هؤلاء جميعا أن الإسلام لم يقف فى أية معركة موقف المهاجم أبدا، والأدلة على ذلك كثيرة ومشهورة ليست فى حاجة إلى ذكر: فلم يكن قتاله صلى الله عليه وسلم هوازن وثقيفا فى الشهر الحرام، هجوما واستيلاء واستعمارا،

وما كان انتهاكا لحرمة الشهر الحرام، إنما كان دفاعا عن النفس وذودا عن العقيدة، لأن هؤلاء هم الذين دبروا الهجوم على المسلمين بليل ورتبوه بظلام، ثم باشروا العدوان نهارا جهارا دون مبالاة.. ثم إن هؤلاء هم الذين أعانوا أهل مكة على إخراج المسلمين من ديارهم وأموالهم منذ ثمان سنوات، حتى اضطروهم إلى الهجرة، أو على الأقل هم الذين شجعوهم وأيدوهم تأييدا معنويا.. ولا ننسى تاريخ الطائف الأسود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أغروا به صبيانهم وعبيدهم يضربونه بالحجارة حتى أدموا قدميه فقتاله صلى الله عليه وسلم هوازن وثقيفا فى الشهر الحرام كقتاله غيرهم فى غنز الشهر الحرام أمر دفاعى لابد منه.. فلا يستدل به على جواز القتال فى الشهر الحرام.

وذلك أن الدفاع ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، ألا ترى أن القتال فى الحرم محظور، لكن إذا هوجم المسلمون فيه وجب عليهم - فى هذه الحالة - أن يردوا الهجوم، وأن يدافعوا عن أنفسهم، قال تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فإن قاتلوكم فاقتلوهم)[٣١] وليس معنى ذلك أن نفهم أن القتال فى الحرم جائز بكل حال، فكذلك الحال فى شأن القتال فى الأشهر الحرم.. ولذا:

أ - يقسم عطاء على أنه لا يحل للناس أن يقاتلوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا، وما نسخت.

ب - ويقول الزرقانى: ويؤيد ذلك - أى قول عطاء - إن حرمة القتال فى الشهر الحرام لا تزال باقية، اللهم إلا إذا كان جزاء لما هو أشد منه فانه يجوز حينئذ لهذا العارض كما دل عليه قول الله تعالى فى الآية نفسها (وصد عن سبيل الله).. إلخ.

ج - وأقول: إن الله سبحانه وتعالى منح العالم منطقة أمان وفرصة سلام حتى يتمكن المتخاصمان والمتحاربان من التفاوض والتفاهم والتقارب فى وجهات النظر.. أما فى دار الأمان التى هى الحرم، وأما فى فرصة السلام التى هى الأشهر الحرم، وحتى لا تتعرض الدنيا إلى الخوف والقلق والاضطراب حين تستحيل كلها جحيما حربية لا هدنة فيها ولا سلام.

اننا لا يجوز أن نبدأ فيها قتالا ولا أن نهجم فيها على الآخرين، ولكن إذا هوجمنا واعتدى علينا فإن القتال يجب أن ينشب فورا.. فإذا كان الاعتداء قبل الأشهر الحرم، ثم امتد إلى الأشهر الحرم ووجدنا أن الهدنة الاجبارية ستجعل هذا العدو يتقوى علينا، فينبغى ألا نعطيه هذه الفرصة .. وهذا - فى نظرى - ليس خدشا لحرمة الأشهر الحرم، إنما هو منع العدو الذى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بحرمة هذه الأشهر أن يستغلها لصالحه، فإنه يمتنع مراعاة حرمتها مع من لا يحترمها ولا يؤمن بها.

أما إذا كان هناك عهود واتفاقيات واحترام لهذه المعانى بين شتى الجماعات فلابد من القول بأن الأشهر الحرم باقية الحرمة.

وبهذا البيان يندفع ما قيل إن النبى قاتل فى ذى القعدة، وان الصحابة قاتلوا فى الأشهر الحرم وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما اللذان كانا يرسلان الجيوش فيها.. يندفع

بأن المحرم ابتداء القتال فيها، والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد بدأه فى شوال، وبأن الصحابة عندما انسابوا فى الأرض غزاة مدافعين عن الإسلام ما كانوا يستطيعون أن يسكتوا ثلاثة أشهر متوالية، وخصمهم لا يؤمن بها قط فهو مستمر الحرب دائب الاستعداد.. والا فيؤدى ذلك أن يمكنوا الناس من رقابهم، وينطبق عليهم النبى فى قوله تعالى: « فلا تلموا فيهن أنفسكم» فهى إشارة إلى أن الإمتناع المطلق قد يؤدى إلى أن تظلموا أنفسكم، فلا تمكنوا الأعداء من رقابكم.

واحتج بعض للنسخ فقالوا: إن المسلمين فى حروبهم قاتلوا فى الأشهر الحرم.

والرد: متى كان عمل القواد دليل على النسخ؟

وأغرب من هذا قول من قال: إن قوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة) ناسخ لقوله (منها أربعة حرم) اعجبوا يا قوم من هذا القول.. آية واحدة يضرب بعضها بعضا على هذا النحو «منها أربعة حرم» منسوخة «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» ناسخة وقاتلوا المشركينة كافة.. ناسخة.

فالناسخ والمنسوخ فى آية واحدة. وهذا بداهة لا موضوع له بل ولا معنى له.

واذن فما الذى استدلوا به على النسخ؟ لا دليل من القرآن ولا من السنة بل إن عموم القران والسنة يدل دلالة قاطعة على التحريم إلى يوم الناس هذا.. ونحن لا نؤمن بأن هناك نسخا فى القرآن الكريم، وانه لا يوجد حكم محنط موضوع فى المصحف للذكرى والتاريخ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك حكم اطلاقا إلا معمولا به، وبالتالى فإن حرمة الأشهر الحرم معمول بها يقينا وليست منسوخة.

والدليل على أنها شريعة باقية هذه الآية من سورة التوبة، وآيتنا سورة المائدة، وهما من أواخر سور القرآن نزولا.. وثمة دليل يقطع كل لسان وهو خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع إذ قال: «منها أربعة حرم، ثلاث منها متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» فبعد هذا التقرير فى سور الوداع وفى حجة الوداع لا يسوغ الإنسان أن يدعى النسخ.

فالأشهر الحرم شريعة باقية، ويجب علينا أن نعلنها، وأن نذكرها فى الخافقين فإذا كان البوذيون فى فيتنام يذكرون عيدهم القمرى ويطالبون بانهاء الحرب فيه أو يطالبون بهدنة فيه، وإذا كان المسيحيون يطالبون بوقف القتال فى عيد ميلادهم، وإذا كانت كل طائفة تحاول فى أثناء القتال أن تخضع لشيعرة من شعائرها، فعلينا معشر المسلمين أن نحيى هذه الشريعة فى العالمين.. فإذا دخلنا فى حرب مع أى جماعة من شراذم هذه الأرض فعلينا أن نعلمهم بأن عددنا أياما أو أشهرا محرمة فإن احترموها بادلناهم ذلك الإحترام وإلا قاتلناهم.

إن الأشهر الحرم شريعة إنسانية كاملة، وكما قال بعض المتكلمين: انها كواحة فى صحراء الحرب.. إننا لو أقمنا هذه الشعيرة ودعونا إليها ونفذناها، وجعلناها هدنة لأزمة فى أثناء الحروب، لكانت واحدة فى وسط زمهرير الحرب، وربما أدت هذه الواحة إلى الامتناع عن القتال، وإلى الرضا بالصلح، ومحو الخصام، وبذلك تضع الحرب أوزارها.

والخلاصة: ان القتال فى الأشهر الحرم حرمته لا تزال باقية فيما إذا كنا مهاجمين أما إذا كنا مهاجمين معتدى علينا فى الشهر الحرام وجب علينا الدفاع عن أنفسنا وذلك لقوله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ولأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة المنوط بها حفظ الحرمات، ويطغى القوة الشريرة المعتدية، ويشيع الفساد فى الأرض، فرد الإعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم، فلا يعتدى عليها ولا تهان.

«ما يؤخذ من الآيات»

١. إن السنة اثنا عشر شهرا لا تصح الزيادة فيها ولا النقص عنها.

٢. إن الأشهر الحرم أربعة معينة محددة، لا يجوز تبديلها ولا تغييرها.

٣. إن حرمة الأشهر الحرم لا تزال باقية ولم تنسخ، وأن دعوى النسخ لا دليل عليها.

٤. كما أن الحرم دار أمان، فإن الأشهر الحرم فرصة سلام، تضع فيها لاحرب أوزارها وتتبادل الآراء لعل النفوس الغاضبة تهدأ.

٥. فيه رد على العرب فيما أحدثوه من النسىء فى الجاهلية.

٦. محاربة الإعتقادات الفاسدة بالقول، والعمل.

٧. منع التلاعب الشهور وأسمائها لأنه عد من أعمالهم الخاطئة.

٨. إن لبعض الأزمنة حرمة تستتبع مضاعفة السيئات، وكذلك بعض الأمكنة، وصدورها من بعض الأشخاص، ويقاس على السيئات الحسنات.

٩. ان تحليل ما حرمه الله أو تحريم ما أحله الله كفر صريح.

١٠. ان التشريع حق لله تعالى لا يجوز لأحد مهما بلغت درجته أن يباشره.

١١. وفيه أن الإيمان ببعض الواجب والعمل به، والكفر بالبعض الآخر وتركه «انحراف عن سبيل الجادة وسلوك لغير سبيل المؤمنين وسوء أعمال قد زينها الشيطان وحسن مباشرتها.

١٢. احتج الجبائى بقوله تعالى (زيادة فى الكفر) على فساد قول من يقول: الإيمان مجرد الاعتقاد والاقرار، قال: لأنه تعالى بين أن هذا العمل زيادة فى الكفر، والزيادة على الكفر يجب أن تكون اتماما، فكان ترك هذا التأخير إيمانا، وظاهر أن الترك ليس بمعرفة ولا باقرار، فثبت أن غير المعرفة والاقرار قد يكون إيمانا.

وردوا عليه: بأن هذا الاستدلال ضعيف، لأنا بينا أنه تعالى لما أوجب عليهم ايقاع الحج فى شهر ذى الحجة مثلا من الأشهر القمرية، فإذا اعتبرنا السنة الشمسية فربما وقع الحج فى المحرم مرة وفى صفر مرة أرى، فقولهم بأن هذا الحج صحيح يجزى، وأنه لا يجب عليهم ايقاع الحج فى شهر ذى الحجة إن كان منهم بحكم علم بالضرورة كونه من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فكان هذا كفرا بسبب عدم العلم، وبسبب عدم الإقرار.

١٣. وفى حديث خطبة الوداع دلالة على معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام، حيث

كان أميا فى أمة آمية، ثم يأتى بهذه الحقائق التى أثبت البحث العلمى الحديث صدقها وتمام مطابقتها للواقع عن طريق علماء الفلك بحسابهم الدقيق ومراصدهم الكاشفة، وما ذلك إلا لأن هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من عند نفسه بل هو من عند الله الذى أطلعه عليه.

١٤. وفى الرازى قال أهل العلم: الواجب على المسلمين بحكم هذه الآية أن يعتبروا فى بيوعهم ومد ديونهم وأحوال زكواتهم وسائر أحكامهم «الدينية والمدنية» المسنة العربية بالأهلة، ولا يجوز لهم اعتبار السنة العجمية والرومية ـ الميلادية والقبطية وذلك من مستلزمات استقلالهم فى الشخصية الذى حرص عليه الإسلام ودعا إليه فى كثير مثل العيدين وعاشوراء والقبلة والآذان.

وبعد فهذه هى العلاقات النهائية بين المسلمين، وخصومهم من المشركين، وأهل الكتاب، وخصوم السملمين لا يغفلون عن الكيد لهم والنيل منهم لحظة واحدة من ليل أو نهار يتربصون بهم الدوائر ويترقبون كل فرصة للهجوم عليهم واستئصال شأفتهم، وقد قامت مصر بأعظم دور فى رد كيد الأعداء بغيظهم لم ينالوا خيرا سواء أكانوا مشركين أم أهل كتاب، ويقول الميثاق فى ذلك:

«وفى إطار التاريخ الإسلامى وعلى هدى من رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإنسانية وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثمانى على المنطقة بأسرها كان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها، كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أولى موجات الاستعمار الأوروبى التى جاءت مستترة وراء صلب المسيح وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم، وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى رد غزوات التتار الذين اجتاحوا سهول الشرق واجتازوا جهاله حاملين الخراب معهم والديار.

ثم كان قد تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا وجمعية باسم الدين والدين منهم براء [٣٢]

المقطع الثالث من السورة

قال الله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل، الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير، الا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم، انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون).

هذا السياق من هنا إلى آخر السورة فى غزوة تبوك، وما كانت وسيلة لها من هتك أستار النفاق وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق، إلا الآيتين فى آخرها. وما يتخللها من بعض الحكم والأحكام على السنة المعروفة فى أسلوب القرآن.

ومناسبة لما قبله أن الذين أريد قتالهم فى تبوك هم الروم وأتباعهم المستبدون عرب الشام وكلهم من النصارى الذين نزلت الآيات الأخيرة فى حكم اليهود وقتالهم، وبيان حقيقة أحوالهم، وأهمها خروجهم من هداية دين المسيح عليه السلام فى كل من العقائد والفضائل والأعمال.. وكان ذكر النسىء فى آخره لما تقدم.

ولعلاقة هذه الآيات الوثيقة بالجهاد فقد رأينا أن نؤخر الحديث التفصيلى عن معناها وأحكامها وأهدافها إلى الفصل الأول من الباب الرابع الذى عقد خصيصا للجهاد فإلى هناك والله المستعان.

الهوامش

١) طه آية ٥٢
٢) الرعد آية ٣٨
٣) المجادلة آية ٢٢
٤) الحشر آية ٣
٥) سورة النساء آية ٢٤
٦) الألوسى جـ ٣ ص٣٠٤
٧) مختار الصحاح ص ٦٥٦ مادة نسأ
٨) تفسير الالوسى جـ٣ ص ٣٠٥
٩) الفتوحات الالهية جـ ٢ ص٢٨٢
١٠) الفتوحات الالهية جـ ٢ ص٢٨٠
١١) سورة البقرة آية ٢٢٨
١٢) أخرجهما الطبرى
١٣) الأحزاب ٣٠:٣١
١٤) الانبياء ٢٣
١٥) القصص ٦٨
١٦) رواه أحمد ومسلم وابو داود عن ابى هريرة
١٧) وقال بأصابعه الثلاثة (فضمها ثم ارسلها) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والبيهقى بسند جيد عن رجل من باهله
١٨) ذكره الرازى ولم يخرجه جـ ٤ ص٦٣٥
١٩) تفسير القرطبى طبعة الشعب ص ٢٩٧٤
٢٠) البرهان للذمركشى جـ٢ ص٤٤
٢١) عبقرية عمر للعقاد
٢٢) تفسير الخازن جـ٢ ص٣٠٤ قال: وروى عن ابى هريرة وعائشة أن عمرو بن لحى أول من سيب السوائب وقال فيه النبى ..الخ
٢٣) الطبرى جـ ٤ ص٢٤٥
٢٤) يراجع هذا فى الفصل الأول من الباب الأول بعنوان ابتداء المهلة ص ٦٠
٢٥) سورة البقرة ٢١٧
٢٦) سورة البقرة ١٩٤
٢٧) سورة المائدة ٢
٢٨) سورة المائدة آية ٩٧
٢٩) البقرة آية ١٩٧
٣٠) مناهل العرفان جـ٢ ص١٥٦
٣١) سورة البقرة ١٩١
٣٢) الميثاق: الباب الثالث جذور النضال المصرى ص ٢٠، ٢١

الباب الثالث

علاقة المسلمين بخصومهم من المنافقين

قال الله عز وجل(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم، والله يعلمإأنهم لكاذبون) إلى قوله تعالى (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) من آية ٤٢ إلى آية ٩٦

من هنا يبدأ الحديث عن الطوائف التى ظهر عليها اعراض الضعف فى الصف، وبخاصة جماعة المنافقين الذين اندسوا فى صفوف المسلمين بإسم الإسلام، بعد أن غلب وظهر، فرأى هؤلاء أن حب السلامة، وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤسهم للإسلام، وأن يكيدوا له داخل الصفوف، بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف، وسنرى فى هذا المقطع كل الظواهر التى ذكرت فى المقدمة كما يصورها السياق القرآنى.

وقد سبق هناك: إن هذا المقطع فى سياق السورة هو أطول مقاطعها، وهو يستغرق أكثر من نصفها، فى فضح المنافقين، وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية، والعملية، ومواقفهم فى غزوة تبوك وقبلها، وفى اثنائها، وما تلاها، وكشف حقيقة نواياهم، وحيلهم، ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة بالفرقة فى الصف، وايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلاص من المؤمنين، يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء، والمفاصلة بين الفريقين، وتمييزكل منهما بصفاته وأعماله، وهذا القطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة، ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة، فأستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح، وما علينا الا إن نقرأ هذه الآيات حتى نلمس هذه الحملة الطويلة الكاشفة، تشى بما كان للمنافقين فى هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم، وفتنته وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته، كما أنها فى الوقت ذاته تكشف عن حالة الخلخلة وعدم التناسق فى التكوين العضوى للمجتمع الإسلامى فى هذه الفترة، يشير إليها قول الله تعالى (وفيكم سماعون لهم) كما يشير إليها النهى المشدد عن الاستغفار للمنافقين أو الصلاة عليهم.. هذه الحالة التى نشأت من دخول جماعات كثيرة فى الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم، ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامى الصحيح.

والسياق هنا يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة مابعد الفتح، ويصف تكوينه العضوى.. وفى هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة، وقلة التناسق بين مستوياته الايمانية، كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال، ومن النفاق، والضعف، والتردد فى الواجبات، والتكاليف، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامى، والمعسكرات الأخرى، وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة - وأن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة من المهاجرين والانصار - مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة، للكشف والتوعية والبيان والتقرير، تشى بحاجة المجتمع إليها.

والنفاق خلق ردىء، ووصف خبيث، تتلوث به الأنفس الدنيئة الفاسدة الفطرة، فلا يرى أهلها وسيلة إلى مطامعهم فى المال، ومطامحهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء، ولقاء الناس بوجوه مختلفة، والتصنع، والخداع، ولين القول، كما قال تعالى فيهم (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) [1] وهم يوجدون فى كل شعب وكل أمة ، لا تخلوا منهم بادية، ولا حاضرة.

أقسام النفاق وعلاماته:

والنفاق قسمان: عقيدى وعملى، فإن كان فى اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه، والنفاق يتكون من خصال، كما أن الإيمان يتكون من شعب. روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث.. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) وبعده روى هو أيضا عن عبدالله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.. إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر).

الجمع بين الحديثين:

وقد جمع العلماء بين الحديثين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم بما أخبر ببعض العلامات فى وقت، وببعضها فى وقت آخر، وقال النووى: حصل من مجموع الروايتين خمس خصال، لأنهما تواردتا على الكذب فى الحديث، والخيانة فى الأمانة، وزاد الأول الخلف فى الوعد، وزاد الثانى الغدر فى المعاهدة، والفجور فى الخصومة وقال العينى: إنها بالنظر إلى الحقيقة ثلاث، وإن كانت بحسب الظاهر خمسة، لأن قوله (إذا عاهد غدر) داخل فى قوله (إذا اؤتمن خان) وقوله (إذا خاصم فجر) يندرج فى الكذب فى الحديث.

وخص هذه الخصال بالذكر لأنها مبنية على ما عداها إذ أصل الديانة منحصر بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف، إذ الخلف المذموم شرعا ماكان مبنيا على العزم وسبق الإصرار، بأن اقترن الوعد بالعزم على الخلف، أما لو كان عازما على الوفاء فعرض له مانع، أو بدا له رأى فهذا لم توجد فيه صفة النفاق، يشهد لذلك ما رواه الطبرى: (إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف) وما رواه ابو داود والترمذى: (إذا وعد الرجل أخاه، وفى نيته أن يفى له فلم يف فلا أثم عليه).

توجيه الحديث:

نعم قد توجد هذه الخصال فى المسلم المصدق بقلبه ولسانه، ولهذا وجه العلماء قوله صلى الله عليه وسلم (كان منافقا خالصا) بتوجيهات كثيرة منها:

١ـ أن المراد من النفاق نفاق العمل لا نفاق الإعتقاد الذى هو كفر.

٢ـ أو أن الكلام على التشبيه، أى كان كالمنافق الخالص، لا أنه منافق فى الإسلام مبطن للكفر فصاحب هذه الخصال شبيه بالمنافق فيها، إذ النفاق اظهار ما يبطن خلافه، وهو موجود فى صاحب هذه الخصال.

٣ـ أو أن هذا فى من كانت هذه الخصال غالبة عليه، وعادة له، يدل عليه التعبير بـ (إذا) فأنها تدل على تكرر الفعل، والتعبير بـ (كن فيه) يدل على تمكنها منه.

٤ـ أو أن الغرض من هذا تحذير من اعتاد هذه الخصال، خوفا أن يفضى به إلى النفاق فعلا.

٥ـ أو أن المراد النفاق فى هذه الخصال فقط دون غيرها.

ولا جدال فى أن المتمسك بالنفاق العملى المداوم على خصاله يودى به ذلك إلى النفاق العقيدى الذى نحن بصدد الحديث عنه فى هذه السورة.

والنفاق من جهة أخرى ينقسم إلى خاص وعام، فالخاص هو الشخص الذى يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه عنه ويحببه إليه، ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب، والثراء الذين يرجو الإنتفاع منهم أو يخشى ضررهم، فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح، ويخلع للفساق جلباب الحياء، ويفرغ على المستكبرين حلل الاطراء وهذا القسم أهون النفاقين، وأما النفاق العام فهو ما يكون فى الدين، والدولة، وخيانة الذمة هو أشد المنافقين لعظم ضرره.

متى وأين ظهر النفاق فى المجتمع المسلم؟

لم يكن بمكة منافقون:

١ـ لأن كبراء قريش المغرورين بثروتهم الواسعة، وجاههم فى العرب بسدانة البيت الحرام، واستكبارهم على سائر الناس، واسرافهم فى التمتع بالمكر، والزنا وأكل الربا والشهوات، أقول: لأن كبراء قريش اعتبروا هذا الدين من أول يوم مناهضا لمصالحهم الدينية، والدنيوية، ولسيطرتهم على الحرم، وكانوا يرون أن الاسلام يسوى بينهم، وبين سائر الناس فى جميع الحقوق، ويفضل الفقير المتقى لله على الغنى المسرف فى الفسوق، ويقتص للسوقه من الأمراء والملوك، ويحقر المتكبرين، ويكرم المتواضعين، ويزدرى الظالمين، والفاسقين، فيسلبهم بهذا جميع ما يمتازون به على دهاء الناس، فلهذا أعلنوا عليه حربا لا مداراة فيها، ولا خفاء ولهذا كان أكثر من اهتدى به فى مكة الفقراء، يضاف إليهم بعض أصحاب الفطر السليمة، والعقول الحرة من الطبقة الوسطى.

٢ـ ولأن طبيعة العرب الخلص تأبى النفاق، فأما إيمان صادق وأما كفر ظاهر.

وانما نجم النفاق فى المدينة:

١. فقد ظهر الإسلام، وفشا فى المدينة، وأسلم أكثر الانصار بظهور نور هذا الدين القيم، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تحجب هذا النور عن بصائرهم، أو تحملهم على مكابرة الحق، وجحوده ككبراء قريش، بيد أن من المعقول أن لايكون نور الاسلام قد ظهر لكل فرد منهم على سواء، وأن يكون منهم من اضطر إلى الدخول فيما دخل فيه قومه مواتاه لهم، فأضطر افراد كثيرون ،ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم ـ أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم.. حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبيرهم: هذا أمر قد توجه.

٢. وكان يساكن العرب فى المدينة يهود، وهم قوم مخادعون منافقون بطبيعتهم وعنهم أخذ عرب المدينة الذين لم يسلموا من هذا الخلق المرذول، ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة، وصارت له الكلمة النافذة على المسلمين جميعا، وصارت إليه الرئاسة الدينية، والدنيوية، والقيادة السياسية، والاجتماعية، حقد عليه وعلى دينه بعض العرب الذين كانت لهم الزعامة فى المدينة، واليهود الذين حقدوا على العرب أن يكون منهم النبى المبعوث فى آخر الزمان، وقد عاهدهم النبى على حريتهم فى دينهم، وأنفسهم، وأموالهم، ولكنهم كانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة، ويظاهرون عليه المشركين كلما جاء لقتاله، بل كانوا يغوونهم ويحرضونهم عليه سرا، فكانوا فى إظهار الوفاء بعهده وابطان العداوة له والكيد لدينه منافقين، وكان لهم أحلاف مع عرب المدينة، فحافظ على مودتهم منافقوها سرا.

وتآمر من هؤلاء وأولئك فئات على الشر وعداوة الإسلام، ولم يكن فى استطاعتهم أن يعلنوا عن الحقد، والبغض الخبىء فى قلوبهم، فلم يجدوا بدا من التستر بالإسلام، يظهرونه ويبطنون الكفر والحقد، والضغينة على الإسلام والمسلمين.

زعيم المنافقين وبعض اتباعه

وقد تزعم هؤلاء رجل من العرب، كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ويملكوه عليهم، فلما انصرفوا عنه ـ ومنهم أهله وولده ـ حقد، وضغن، ونافق، وداهن، وهو عبدالله بن أبى بن سلول الخزرجى، وانضوى تحت لوائه ـ لواء النفاق ـ جماعة منهم: أبو عامرو وكان يقال له فى الجاهلية الراهب، ولبس المسموح قال فيه الرسول: (لا تقولوا : الراهب، ولكن قولوا : الفاسق) ومات بالشام غريبا طريدا، وحيدا، وكان ابنه حنظله من خيارالمسلمين، واستشهد يوم أحد، وهو غسيل الملائكة، وجلاس بن سويد بن الصامت، قال ابن اسحق: وقد زعموا أنه تاب، وحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير ونبتل بن الحارث، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا) وكان جسيما ثائر شعر الرأس أحمر العينين اسفع الخدين، وكان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينقله إلى المنافقين، وهو الذى قال:

(إنما محمد أذن، من حدثه بشىء صدقه)، فأكذبه الله، وعباد بن حنيف، وكان من بنى

مسجد الضرار، ومربع بن قيظى، وكان أعمى وهو الذى قال لرسول الله حين جاز فى حائطه وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبيا أن تمر فى حائطى، وأخذ فى يده حفنة من تراب ثم قال: لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك لرميتك بها، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله (دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر) وقد ضربه سعد بن زيد الاشبلى بالقوس فشجه، وأخوه أوس بن قيظى، وحاطب بن أميه بن رافع، وكان شيخا جسيما قد آسن فى الجاهلية، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب اثخنته الجراح فأستشهد، وهؤلاء من الأوس.

ومن الخزرج: رافع بن وديعة، والجد بن قيس، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو.

ومن المفارقات العجيبة أن عبدالله بن أبى رأس المنافقين كان له ابن من خيار المسلمين وأصدقهم ايمانا، حتى لقد عرض على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقتل أباه، فأبى النبى وقال: (لا، بل نحسن صحبته مادام بيننا).

وتبع ابن أبى من اليهود قوم أظهروا الإسلام نفاقا وتقيه، منهم: سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت ورافع بن حرملة، وهو الذى قال فيه رسول الله يوم مات(قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين) ورفاعه بن زيد بن التابوت، أخبر النبى بموته مرجعه من تبوك، ونعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى وغيرهم. (٢)

المنافقون أشد خطرا من غيرهم:

وهذا الخليط المنافق الممزوج من عرب المدينة ويهودها، وإن لم يعلنوها حربا سافرة، فقد كانوا أشد خطرا على الدعوة من غيرهم، لأن العدو المكاشف أهون شأنا من العدو المخالط المتستر تحت ستار من الخداع والتمويه، وكان هؤلاء المنافقون بحكم ظاهرهم يحضرون المسجد، والجماعات، ويسمعون أحاديث المسلمين، ثم هم يسخرون ويستهزئون بدينهم سرا، ويتسقطون الاخبار، وينقلونها إلى الأعداء ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد، فما بيتوا أمرا إلا أظهره الله وفضحه، وما دبروا مكيدة الا رد الله كيدهم فى نحرهم، وأنزل فى شأنهم آيات كثيرة فى سور متعددة: كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والانفال، والاحزاب، والمنافقون، واخيرا معظم سورة التوبة، فمازال يقول فيها: ومنهم، ومنهم، حتى اخزاهم وكشف نذالة نفوسهم، وخبث طواياهم، ولؤم طباعهم، وفساد مقاصدهم تجاه الإسلام والمسلمين.

عرض تاريخى سريع
لمؤامرات المنافقين، ومكايدهم كما يصورها القرآن

النفاق صفة النفوس الضعيفة الملتوية، التى تضعف عن المواجهة فتلجأ إلى الدسيسة، وتصعب عليها الإستقامة فتداور، وتحاور، وتتثنى كالديدان، والحيات، ولقد وقف هؤلاء المنافقون فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم عند مقدمه إلى المدينة يكيدون له بكل وسيلة،

فلما نصره الله يوم بدر قال كبيرهم: هذا أمر قد توجه - أى بلغ وجهته وانتصر - فدخلوا فى الإسلام ظاهرا، وقلوبهم تغل بكراهية الإسلام والكيد له، والتخذيل عنه عند أول فرصة، وسنعرض فى سرعة خاطفة بعض الأحداث المفزعة التى قاموا بها فى العهد النبوى، وبعض المتاعب التى اثاروها للمجتمع الإسلامى بالمدينة، حتى يتبين على ضوئها من جهة مدى القلاقل، والعراقيل التى وضعوها فى طريق الدعوة الى الله، ومن جهة أخرى مدى وماوصلت إليه تلك الصورة الزرية لسقوط الهمة، وضعف العزيمة، والعجز عن المواجهة، وها هى على الترتيب الآتى:

أولا: بنو قينقاع:

عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى قينقاع، فنقضوا العهد فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضيق عليهم الخناق فلما أمكن الله منهم جاء عبدالله بن أبى فقال: يا محمد أحسن فى موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله، فكرر ابن أبى مقالته: أحسن فى موالى، فأعرض عنه الرسول، فأدخل يده فى جيب درعه، فتغير وجه النبى وقال له: (أرسلنى)وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم أعاد أمره وهو مغضب، (ارسلنى ويحك!) قال ابن أبى: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى، وأربع مائة حاسر، وثلاث مائة دارع قد منعونى من الأحمر ، الأسود تحصدهم فى غداة واحدة؟

انى والله أمرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوبون بها)[٣]

وفى حوار عبدالله بن أبى مع النبى صلى الله عليه وسلم نزل قوله تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح، أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين)[٤]

ثانيا: أحد:

لما خرج المشركون لقتال المسلمين فى غزوة أحد استشار النبى أصحابه، فأشار الشباب بالخروج، فنزل على رأيهم وهو له كاره، ثم خرج بألف رجل، الا إن عبدالله بن أبى انسحب فى الطريق عند مكان يقال له.. الشوط[٥] ورجع بثلث الناس قائلا ما ندرى، علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس، ومحتجا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه، وأطاع غيره!! وفيه وفيمن انسحب معه نزلت الآية: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله او ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان)[٦]

ثالثا: بنو النضير:

وعاهد الرسول أيضا يهود بنى النضير، فخالفوا العهد بمحاولتهم اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محلتهم، فحاصرهم المسلمون وقطعوا بعض نخيلهم ولم يجد بنو النضير مناصا من الخروج، فأخذوا يتجهزون للرحيل، بيد أن منافقى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى أرسلوا إليهم.. أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه، فعادت لليهود ثقتهم، واستقر

رأيهم على المناوأة، وزادهم إصرارا على المقاومة ما ترامى إليهم من أن ابن أبى أعد ألفى مقاتل لنصرتهم، ثم جد الجد، ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم المنافقين، فلم يفوا لهم بما وعدوهم به من نصرهم إذا هم قوتلوا، ومن الخروج معهم إذا هم اخرجوا، ولم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا أو يدفع عنهم شرا، ثم فضح القرآن مسلك هؤلاء المنافقين الذين حاولوا إعانة يهود فى غدرها، وحربها، وحرضوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من امداد وعتاد (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا. وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن اخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون)[٧]

رابعا: حديث الأفك .. جهد المناقون جهدا عظيما فى ترويج الأخبار الكاذبة المتصلة بحديث الأفك، لحبهم أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، (والذى تولى كبره منهم لهم عذاب عظيم) وهو عبد الله بن أبى، مع رجال من الخزرج، والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف، أما ابن أبى مدبر الحملة وجرثومتها الخفية فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب، لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه.

خامسا: الأحزاب.. قال المؤمنون يوم الخندق (هذا ما وعدنا الله ورسوله. وصدق الله ورسوله. وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)[٨] أما الواهنون والمرتباون ومرضى القلوب فقد تندروا بأحاديث الفتح وظنوها أمانى المغرورين، وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا؟ وفيهم قال الله تعالى (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضا ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)[٩].

سادسا: فى غزوة بنى المصطلق.. حدثت أحداث جسام نرى أن نفصل فيها قليلا حتى تبرز الصورة الحقيقية الشوهاء للمنافقين، وأفاعيلهم الخبيثة، ومؤامراتهم الدنيئة.

وهناك تتسع دائرة الحرب النفسية لتشمل محاولات المنافقين الايقاع بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين .. المهاجرين والأنصار.. والنموذج الذى سنعرضه يرجع - على الرأى الراجح - إلى سنة خمس من الهجرة قبل غزوة الخندق، أخطر ما تعرض له المسلمون من خطر، وكانت جزءا من سلسلة المؤامرات التى شنتها القبائل الموالية لقريش استدراجا للمسلمين وقتلا لوفودهم بعد غزوة أحد.

وقريش وراء ذلك كله تتصل بالمنافقين داخل المدينة وخارجها، ووسط هذا كله تبرز محاولات المنافقين من الخزرج ضرب الإخاء القوى بين المهاجرين، والأنصار، وينتصر الرسول فى غزوة بنى المصطلق، فكيف يرضى المنافقون بهذا النصر؟ ولم لا يثيرون قضية يحاولون بها اغراق هذا النجاح فى فتنة داخلية تعصف به وبتماسك الجبهة الداخلية.

ويحدث حادث يسير كثيرا ما تشاهده حياة الرعاة .. أن يتنازع اثنان على مورد الماء، ونحن نعلم مكانة مورد المياه فى الحياة البدوية، ويصرخ الأنصارى: يا معشر الأنصار، ويصرخ المهاجرى: يا معشر المهاجرين، فأجتمع الفريقان وكادوا يقتلون، فذهب اليهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فانها منتنة» وأزال ما بينهما من شحناء، ولكن عبد الله بن أبى عز عليه أن تنام الفتنة، وأراد أن يوقظها، ويذكى لهيبها، فقال وعنده رهط من قومه من الأنصار فيهم زيد بن أرقم: أوقد فعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش «فقراؤهم» إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فزعيم المنافقين بحديثه هذا قد أراد أن يثبت فى أذهان قومه:

١ـ أن العلاقة بين المهاجرين، والأنصار علاقة تنافر وتكاثر فى الفترة السابقة.

٢ـ أن العلاقة المقبلة بينهما ستكون على أساس اخراج القوى للضعيف من المدينة.

وإذا كان الأمر كذلك فلتكن القوة للأنصار وليخرجوا منها المهاجرين، ويتابع رأس المنافقين اثارة قومه قائلا: هذا ما فعلتم بأنفسكم .. احللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم.

خطة القائد: ويصل الخبر إلى الرسول القائد، يحمله شاب أنصارى مؤمن هو زيد بن أرقم، وسرعان ما علم رأس المنافقين بذلك، فجاء مسرعا إلى الرسول، منكرا ما حدث، حالفا بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، ويتدخل فى الأمر بعض كبار الأنصار قائلين: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، ويتخذ الرسولة خطة يصرف بها أذهان القوم عن التفكير فى هذا الأمر، أو مجرد القدرة على الحوار فيه، ويصدر أمره بالتحرك فورا إلى المدينة فى ساعة كانوا لا يرحلون فيها، ويلقاه أسيد بن حضير الأنصارى قائلا: يا نبى الله، والله قد رحت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فى مثلها، فيقول الرسول «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» فيقول أسيد: وأى صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبى بن سلول، زعم انه إذا رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فيقول أسيد ـ فى ريمان ـ : فأنت رسول الله تخرجه إذا شئت، وهو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم يلقى أسيد بن حضير الضوء على الدوافع الحقيقية التى حركت عبد الله بن أبى إلى الفتنة ومحاولة الايقاع بين المهاجرين والأنصار، فيقول يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

هذا هو السر الحقيقى.. الطمع فى ملك المدينة .. وبتقدير عميق للموقف يدفع الرسول الجيش إلى السير المرهق الطويل حتى يمسوا، وليلتهم حتى يصبحوا، وصدر يومهم حتى أذتهم الشمس، فما نزلوا ووجدوا مس الأرض حتى وقعوا عليها نياما.. وما استيقظوا حتى وجدوا مرحلة عنيفة من السير حتى بلغوا المدينة.

الوحى ينزل: وينزل الوحى مصدقا لما قال الشاب المؤمن، ولم يرد الله ـ وهو البر الرحيم ـ أن يترك هذا الفتى بعد أن نقل الخبر إلى الرسول القائد تتألب عليه قوى المنافقين تكذبه أو تتهمه بالوهم، وما فعل إلا خيرا، وتنزل «سورة المنافقون» تكذب عظيم القوم عبد الله بن أبى سلول والذين معه، وتصدق الفتى المؤمن زيد بن أرقم.

موقف المدينة من المنافقين: ولقد كان من رأى عمر بن الخطاب أن يأمر الرسول بقتل رأس المنافقين، ورأى أسد بن حضير أن يترفق الرسول به، ولقد تجلى فى هذا الوقت موقف بطولى إيمانى سما عن الرحمة والعاطفة، وعز فى تاريخ الدنيا بله سير الصحابة، ذلك أن المؤمن الصادق المخلص لربه ولرسوله ولدينه عبد الله بن عبد الله بن أبى قد وصله ذلك الخبر، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ونفسه موزعة بين ايمانه بربه، وبره بأبيه وقال: يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بين أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالده منى، وأنى آخشى أن تأمر غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس، فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار، فماذاكان جواب الرسول؟ وهو الذى وصفه ربه بوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) قال «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

إنه لموقف محرج حقا.. ويقف الأبن المؤمن البار بأبيه . وهم ايبون . عند مدخل المدينة، وبيده سيفه قائلا له: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله فى ذلك، فلما أذن له تركه يدخل، وقد أشاح عنه بوجهه.

وكان إمهال الرسول لرأس المنافقين فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة الدعوة الإسلامية تجربة بدت فيها سماحة الإسلام، وصلابة القاعدة الأمينة ثم إن انكشاف موقف نفاق ابن أبى زاد الناس كراهية فيه، والتفافا حول الرسول القائد، ويعقب الرسول على هذا كله قائلا لعمر بن الخطاب «كيف ترى يا عمر؟ اما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فيقول عمر بن الخطاب: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى، ويقضى الرسول على هذه الفتنة، ويسلم له الإخاء الصامد بين المهاجرين والأنصار.

سابعا: موقف المنافقين فى غزوة تبوك، وهذا ما سنفصله بعد إن شاء الله.

سياسة الإسلام مع المنافقين

وقد كانت سياسة الإسلام تجاه المنافقين أن من أظهر الإسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين، لأن قاعدة الإسلام ان الحكم على الظواهر، وان الله تعالى وحده هو الذى يحاسب ويعاقب على السرائر، فهو الذى يعلمها، وهو الذى يجازى عليها ولا يباح لحاكم، ولا لنبى أن يحكم على إنسان بأنه يسر الكفر فى نفسه، ولا أن يتهمه بذلك ويعاقبه عليه، ولا يثبت الكفر على من ظاهره الإسلام إلا بإقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل، كتكذيب القرآن أو النبى، أو جحود كونه خاتم النبيين لا نبى بعده، والشرك بالله بدعاء غيره، وغير ذلك مما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل، كجحود فرضية الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، أو استحلال الزنا، والربا، وشرب الخمر.

وأما حكمة ذلك وفائدته.. فهى أن من يلتزم شعائر الإسلام وأحكامه، ولو بغير إيمان يقينى فإنه يرجى له بطول العمل أن ينشرح صدره للإيمان ويطمئن به قلبه، ويوقن به عقله، وإلا كانت استفادته، وافادته للأمة دنيوية فقط.

اعتراضان وردهما

١ـ فإن قيل: إن مقتضى حرية الدين التى امتاز بها الإسلام فى معاملة أهل الكتاب ـ إذا أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم إنهم خالفوا فيه ما جاء به رسلهم أن يسمح للمنافقين بأن يظهروا كفرهم، فالجواب: إن الجمع بين اظهار كفرهم وحسبانهم من المسلمين لهم ما لهم من الحقوق، وعليهم ما عليهم من الواجبات، تناقض لا يقول به عاقل، ولا يحكم به عادل، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بحقوق الجنسية السياسية الوطنية، ولا يطالب بالخضوع لقوانينها، ولا يعاقب على انتهاكها، ومخالفة أحكامها، وإنما تكون حرية الدين المعقولة لأهله فى دائرة محيطه بأن لا يحاسب أحدهم أحدا على عقيدته، ووجد أنه فيه، ولا اجتهاده فى فهمه إلا من طريق البحث العلمى، وليس منها أن يخالف أصوله القطعية التى لا يكون المسلم مسلما بدونها وبعد ذلك مع ذلك مسلما، وإذن فليس لأحد أن يطالب حكومته المتدينة بالسماح له بالخروج على دينها، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هى وحرية أمتها.

٢ـ وان قيل: إن القرآن قد فضح بعض المنافقين فى هذه السورة وحكم بكفرهم، ولم ينفذ النبى صلى الله عليه وسلم عليهم أحكام المرتدين عن الإسلام، بل بقى يعاملهم هو وأصحابه معاملة المسلمين.. فالجواب: أن ما بينه الله تعالى من حال المنافقين إنما كان وصفا لأناس غير معينين بأشخاصهم انذارا، وزجرا لهم، ليعرفوا حقيقة حالهم ويخشوا سوء ما لهم عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم، وقد تاب الكثيرون منهم بما ظهر لهم من اخبار القرآن عنهم بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم.

وكان الذين عرف النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جدا، كالذين هموا باغتياله صلى الله عليه وسلم بتشريد راحلته فى عقبة فى الطريق، منصرفة من تبوك، ليطرحوه منها، وقال بعضهم لبعض: لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير، وفيهم نزل (يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بما لم ينالوا)[١٠] ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه» أى فى رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الإيمان فإن كثيرا من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك فى أحكامه، وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحيا من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالإيمان اليقينى، ومنهم من كان يدخل فيه تبعا لأكثر قومه من غير نظر إلى تفضيله على غيره لقلة علمه بدعوته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعا، وفيهم نزل قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا)[١١] ولو سمع أمثال هؤلاء أن النبى صلى الله عليه وسلم يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم إيمانهم فى الباطن، أو لأعلام الله تعالى أياه بما فى قلوبهم لنفروا من الإسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه.

وثمة مفسدة أخرى فى هذه الإشاعة .. وهى أن المنافقين، والكفار يذيعون فيها ما شاؤا من التهم الباطلة، والأفك المفترى، كزعمهم إنه إنما قتل من ظهر له منه ما دله على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه.

ويكفى هذا القدر فى هذا التقديم لنواجه مع السياق فصولا أربعة، لم يقم تقسيمها على أساس الموضوعية الأصيلة، بل قام على أساس التسهيل والترتيب، وذلك أن السياق القرآنى فى المنافقين - فى هذه السورة - استغرق نصفها أو يزيد، حتى أن بعضهم ذكر أن المنافقين لم يكونوا معروفين إلى أن نزلت هذه السورة، فكان من الأوفق من الناحية الشكلية، ومن الأليق ترتيبا، وتيسيرا، وتنظيما أن توضع كل جملة من جرائمهم، وكل طائفة من مخازيهم وفضائحهم فى فصل مستقل، تجلية للنفاق، وتبصيرا بأهله.

ذكر البغوى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة»، والظاهر أن مراده لم يكن يعرفهم كلهم، ويعرف شئونهم بمثل ما فى هذه السورة من التفصيل، كما قال الله تعالى له فى الذين مردوا على النفاق (لا تعلمهم، نحن نعلمهم) إذ من المعلوم أن ذكر المنافقين وبعض صفاتهم، وأقوالهم، وأفعالهم جاء فى عدة سور نزلت قبل سورة براءة، منها سور المنافقين، والأحزاب، والنساء، والأنفال، والقتال، والحشر، وأما سورة براءة فهى الفاضحة لهم، والكاشفة لجميع أنواع نفاقهم الظاهرة، والباطنة، ولعله صلى الله عليه وسلم لم يعلم ذلك إلا بعد نزولها والله أعلم.

الهوامش

١) سورة المنافقون ٤
٢) البداية والنهاية جـ٢ صـ
٣) إلى هنا رواه بن هشام عن ابن اسحق مرسلا
٤) سورة المائدة ٥٢
٥) مكان بين المدينة وأحد
٦) آل عمران ١٦٧
٧) سورة الحشر ١١، ١٢
٨) الأحزاب ٢٢
٩) الأحزاب ١٢
١٠) سورة التوبة آية ٧٤
١١) سورة الحجرات آية ١٤

الفصل الأول

المنافقون محبو الراحة والسلامة ومثيرو الفتن والقلاقل

- الأفق العالى تتغاصر دونه الهمم الساقطة - اجتهاد رفيق وعتاب رقيق - بالجهاد يتميز المؤمن من المنافق - كرهوا البعث فكرة انبعاثهم - النفوس الخائنة خطر على الجيوش - حكمة بالغة فى اذن النبى للمتخاذلين - ماض مملوء فتنا، ومستقبل مفعم كراهية - معاذير صبيانية - مساءة المنافقين بمسرة المؤمنين - التسليم لله والرضا بقدره - التوكل والأسباب - تربص كل من الفريقين بالآخر - امساك العصا من الوسط - أسباب عدم قبول نفقاتهم - نعم هى فى الحقيقة نقم - كشف رداء المداورة

فى هذا الفصل يستعرض السياق موقف جماعة من المنافقين، الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التخلف، فأذن لهم، يستعرض موقفهم فيرسم صورة زرية لسقوط الهمة، وضعف العزيمة وسوء الطوية والعجز عن المواجهة، وحب الراحة، والإخلاد إلى الأرض، والطاعة فى الأمور الهينة المسهلة، وتركها فيما فيه مشقة، وعناء، ويعتب على الرسول أن اذن لهم قبل أن ينكشفوا على حقيقتهم ويتخلفوا جهارا نهارا فيفتضح أمرهم.

وهؤلاء المتخلفون المعتذرون بشتى المعاذير لم يكن تخلفهم لقلة ما بأيديهم أو لعجز فى قدراتهم، فقد كانوا ذوى قدرة على الخروج لديهم وسائله، وعندهم عدته، لكنهم لم يعدوا للخروج عدة، لأنهم لم يريدوه، وكان ذلك خيرا للدعوة وخيرا للمسلمين، فإنهم إذا خرجوا مع المسلمين لم يزيدوهم قوة، بل اضطرابا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة، والفتنة، وان ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم وسوء طويتهم. فلقد وقفوا فى وجه الإسلام وبذلوا ما فى طوقهم حتى غلبوا على أمرهم، فاستسلموا وفى القلب ما فيه، ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم، ومن معاذيرهم المفتراه، ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وكيف انهم لا يريدون بهم خيرا، وأنهم يسؤوهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرا، وأنهم يفرحون بما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة، زاعمين أنهم ينظرون إلى عواقب الأمور بحزم وحذر وكان بعض هؤلاء يعرض ما له على المسلمين امسكا للعصا من الوسط، فرد الله عليهم مناورتهم، مبينا أسباب ذلك، ثم كشفت السورة رداء المداورة ومزقت ثوب النفاق.

قال الله تعالى: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة.

وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون عفا الله عنك لم إذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم، والله عليم بالمتقين، إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم فهم فى ربهم يترددون، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا، ولأ وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم والله عليهم بالظالمين، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، ومنهم من يقول أئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل، ويتولوا وهم فرحون، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، قل هل تربصون لنا إلا إحدى الحسنين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون، قل انفقوا طوعا، أو كرها لن يتقبل منكم نكم كنتم قوما فاسقين، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاهتم إلا إنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون. فلا تعجبك أموالهم، ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا. وتزهق أنفسهم، وهم كافرون، ويحلفون بالله إنهم لمنكم، وما هم منكم، ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون).

هو تعريض بأولئك الذين إذا دعوا إلى القتال لم يخفوا له، بل تلبثوا وأخذوا يديرون أعينهم هنا وهناك، ليتعرفوا إلى وجوه الربح والخسارة فى الدعوة التى دعوا إليها، فإن كان المغنم إليها دنيا، والسفر قريبا استجابوا ،وخرجوا مع المجاهدين، وإن كان المغنم عسير الوقوع بعيد المسافة، تثاقلوا، وتباطؤا، وانتحلوا شتى العلل ومختلف المعاذير.

والمعنى.. لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، أو أمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة، لأتبعوك فيه وأسرعوا بالنفر إليه، ولكنها الشقة البعيدة التى تتقاصر دونها الهمم الساقطة، والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الخطر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة، والقلوب المنخوبة، ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

وإنه لنموذج مكرور فى البشرية، ذلك الذى ترسمه تلك الكلمات الخالدة (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة) [1] فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون فى الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص، كثيرون تعرفهم البشرية فى كل زمان، وفى كل مكان، فما هى قلة عارضة، إنما هى النموذج المكرور، وانهم ليعيشون على حاشية الحياة، وأن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع، ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالى، فالثمن القليل لا يشترى سوى التافه الرخيص.

إن حب السلامة والراحة، وحب الكسب والمنفعة المادية، والرغبة فيها لاصقة بطبع الإنسان وناهيك بها إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال، وكان الراغب فيها من غير الموقنين بالآخرة، وما فيها من الأجر

العظيم للمجاهدين.. كأولئك المنافقين الذين دعوا إلى غزوة تبوك، فكبر عليهم التعرض لقتال الروم فى ديار ملكهم، وتخلفوا جبنا وحبا للراحة والسلامة.

ثم انهم لا يكتفون بهذا، بل يزكون هذه العلل ويؤكدون تلك المعاذير بالحلف المؤكد «اننا لو استطعنا الخروج إلى الجهاد - بإنتفاء الأعذار المانعة - لخرجنا معكم» فإننا لم نتخلف عنكم إلا مضطرين.. وحلفهم اما عندهم يعاتبون بسبب التخلف، وأما ابتداء على طريقة إقامة العذر فى التخلف.

وهذا الحلف نفسه هو دليل فاضح لكذبهم، إذ لم يطلب أحد إليهم أن يحلفوا، ولكن هكذا الكاذب دائما يجد الكذب الذى يعرضه على أعين الناس لا يقف على قدميه لضعفه وهزاله، فيعمد إلى تقويته بالحلف، ودعمه بتوكيد هذا الحلف، فهو الكذب المصاحب للضعف أبدا.. وما يكذب إلا الضعفاء.. أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا فى صورة الأقوياء الجبارين فى بعض الأحايين، فالقوى يواجه، والضعيف يداور، وما تتخلف هذه القاعدة فى موقف من المواقف ولا فى يوم من الأيام.

(يهلكون أنفسهم) بهذا الحلف، وبهذا الكذب الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، وبإمتهان اسم الله تعالى بالحلف الكاذب لستر نفاقهم واخفائه.. يؤيدون الباطل بالباطل، والاجرام بالإجرام، أو يهلكون أنفسهم بالتخلف عن الجهاد المفضى إلى الفضيحة، وما تقتضيه من سوء المعاملة وأنهم يريدون به النجاة فيقعون فى الهلاك، والله يعلم الحق ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه، ويهلك فى الآخرة بما أورث نفسه سخط الله، واكسبها أليم عقابه يوم لا يجدى النكران.

(والله يعلم إنهم لكاذبون) فى زعمهم انهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا معكم، وسيجزيهم على ذلك كله، لأنهم كانوا للخروج مطيقين بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال ما يحتاج إليه الغازى فى غزوة، والمسافر فى سفره وصحة الأبدان وقوة الأجسام، فهذا الموقف الذى يقفه أولئك المتثاقلون عن الجهاد، المتعللون لذلك بالعلل الكاذبة، إنما قد جنوا على أنفسهم وأوردها موارد الهلاك بتخلفهم عن الجهاد، وعصيانهم لأمر الله، وهم قادرون على القتال، فإنهم إن خفى أمرهم على الناس فلن يخفى على الله.

وفى الآية دليل على أن الإيمان الكاذبة توجب الهلاك، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليمين الفاجرة - وفى رواية الغموس - نذر الديار بلا قع».

اجتهاد رفيق وعتاب رقيق:

روى عن مجاهد أن ناسا قال بعضهم لبعض: استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن اذن لكم فأقعدوا، وان لم يأذن لكم فأقعدوا، والذى حصل من النبى صلى الله عليه وسلم انه اذن لهم لما أقسموا كاذبين انهم لا يستطيعون الجهاد فنزل: (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) هذا عتاب رقيق للنبى الكريم من رب كريم، وفى تصديره بما صدره به (عفا الله عنك) تعظيم لقدر النبى وتوقير له، وتوقير لحرمته، وهو

عتاب يحمل فى اطوائه نفحات الرضا والرضوان، بحيث يبدو هذا العتاب جزاء حسنا عن عمل حسن، فقد عجل له بالصفح قبل العتاب لطفا من الله برسوله، وقدم العفو عن الأمر الذى يطلب العفو له وجاء العفو من أجله، وهذا على غير المألوف، حتى لا يقع الرسول تحت مشاعر الألم لحظة واحدة إذا هو تلقى اللوم ثم جاءه العفو.

أى عفا الله عما تعلق به اجتهادك أيها الرسول حين استأذونك وكذبوا عليك فى الإعتذار، لأى شىء سارعت فى الأذن لهم بالقعود والتخلف عنك كما أرادوا، إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك؟ وهلا انتظرت حتى ينجلى الأمر، فإن هذا هو الحزم والحكمة .. هلا استأنيت وتريثت بالإذن حتى تعرف من له عذر فى تخلفه ومن لا عذر له، وتميز بين الصادقين فى الإعتذار والكاذبين فيه المتخلفين نفاقا وشكا فى دين الله، فتعامل كلا بما يليق به، وذلك أن الكاذبين لا يخرجون.. سواء اذنت لهم أم لم تأذن لهم، كما تشهد بذلك رواية مجاهد السابقة، فكان مقتضى الحزم أن تتريث فى الأذن، أوتمسك به اختبارا لهم.

ودلت هذه الآية:

١. على وجوب الإحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأنى، وعدم الإغترار بظواهر الأمور، والمبالغة فى التفحص.. حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الابعاد.

٢. وفيها اشارة إلى أن أمر الكذب مفضوح، وأن الزمان لابد أن يكشف عن وجهه يوما ما، فلو انتظر النبى بهؤلاء الذين جاءوا بأعذارهم إليه، ولم يقبل هذه الأعذار فى حينها لا نكشف له أمر ذوى الأعذار الكاذبة منهم.. أما بما يظهر من حالهم، أو بما يكشف له أصحابه من أمرهم، أو بما ينزل عليه من قرآن يفضحهم.

٣. وفيها أن الأذن المعاتب عليه كان اجتهادا منه صلى الله عليه وسلم فيما لانص فيه من الوحى، وهو جائز، وواقع من الأنبياء، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وإنما العصمة المتفق عليه خاصة بتبليغ الوحى.. ببيانه والعمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل، ويؤيده حديث طلحه فى تأبير النخل، إذ رآهم صلى الله عليه وسلم يلقحونها فقال: «ما أظن يغنى ذلك شيئا» فأخبروا بذلك فتركوه، ظنا منهم أن قوله هذا من أمر الدين فنضت النخل وسقط ثمرها، فأخبر بذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنى أنما ظننت ظنا فلا تؤاخذنى بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فانى لن أكذب على الله عز وجل»[٢] وعلى هذا فيحمل قوله «لم أذنت لهم» على ترك الأولى، والأكمل، لاسيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب، ومصالح الدنيا.

وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الإجتهاد على الأنبياء، قالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه، ومنه ما تحدثت عنه سورة الأنفال من عتاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى أخذ الفدية من أسارى بدر، والخطأ هناك أعظم ما هنا، فغاية ما فيه هنا انه مخالف لما يقتضيه الحزم، وكان من لطفه تعالى برسوله أن أخبره

بالعفو عنه قبل بيانه له، وأما ذاك فقد بدأ عتابه له وللمؤمنين الذين عمل برأى جمهورهم فى أخذ الفدية بقوله: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض)[٣] ثم بين أنه كان مقتضيا لعذاب أليم لولا كتاب من الله سبق بأن المجتهد آن أخطأ لا يؤاخذ بخطئه، فكان مانعا من العذاب.

بالجهاد يتميز المؤمن من المنافق:

قلنا: لقد تدارى المتخلفون خلف اذن الرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير، وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يؤذن لهم، فعندئذ تتكشف حقيقتهم، ويسقط عنهم ثوب النفاق، ويظهرون للناس على طبيعتهم، ولا يتوارون خلف أذن الرسول، وإذا لم يكن ذلك فإن القران يتولى كشفهم، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون.

(لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله، واليوم الآخر أن يجاهدوا [٤]بأموالهم وأنفسهم، والله عليهم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون).

وهذه هى القاعدة التى لا تخطىء، وذلك هو البيان الذى يفرق بين الصادقين والكاذبين فى الأعذار.. فالذين يؤمنون بالله إيمانا صادقا ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكأون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافا، وثقالا كما أمرهم الله، طاعة لأمره، ويقينا بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وأنهم ليتطوعون تطوعا.. فلا يحتاجون إلى ما يستحثهم فضلا عن الإذن لهم.

وأيضا فالمؤمنون لا يطلبون الأذن لأنفسهم بالتخلف عن القتال، ذلك أنهم ـ مع الأعذار القائمة معهم ـ لا يجعلون من تلك الأعذار حاجزا يحجزهم عن أخذ حظهم من الجهاد فى سبيل الله، فإذا دعا الداعى إلى الجهاد كانوا فى مقدمة المستجيبين له، حتى إذا نطقت حالهم عن انهم بهذه الأعذار التى معهم من مرض أو صغر أو شيخوخة أو نحو هذا، ولن يمكنوا بسببها من الإنتظام فى صفوف المجاهدين، رحمة بهم وتخفيفا من مؤنتهم على المسلمين، كان ذلك مما يحزنهم ويبعث الحسرة والأسى فى نفوسهم أما الذين خلت قلوبهم من اليقين، وامتلأت مرضا ونفاقا فانهم يتكلؤن ويتلمسون المعاذير لعل عائقا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التى يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.. وبالطبع لا يعجزهم العثور على تلك العلل، والمعاذير التى يقدمونها للنبى والمسلمين، لتكون مبررا لتخلفهم عن الجهاد.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذى لا يعرف الطريق، أو الذى يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق، هذه هى القاعدة التى لا تتخلف .. قاعدة تمييز المؤمنين من المنافقين.. فالمؤمنون متى أمروا بالخروج إلى الجهاد تبادروا إليه ولم يتوقفوا، والمنافقون يتوقفون ويتبلدون ويأتون بالعلل، والأعذار، فالاستئذان علامة النفاق.

ومعنى الآيتين: ليس من شأن المؤمنين بالله الذى كتب عليهم القتال، وباليوم الآخر الذى يكون فيه الأجر الأكمل على الأعمال، ولا من عادتهم أن يستأذنوك أيها الرسول فى أمر الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا عرض المقتضى له، لأن هذا من لوازم الإيمان، التى لا تتوقف عن الإستئذان (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)(٥).

وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبى فى الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فأى فائدة فى الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول بالقعود لشق عليهم ذلك، ألا ترى أن على بن أبى طالب لما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه لغزوة تبوك بأن يبقى فى المدينة يخلفه فى أهله شق عليه ذلك ولم يرض، إلى أن قال له الرسول «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وإذا لم يكن من شأنهم أن يستأذنوا فى الجهاد، بل يقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان، بل هم يستعدون له فى وقت السلم بإعداد القوة، ورباط الخيل من استطاع ذلك منهم، فهل يكون من شأنهم أن يستأذنوك فى التخلف عنه بعد اعلان النفير العام له؟ كلا، ان أقصى ما قد يقع من بعضهم التثاقل، والبطء فى مثل هذا السفر البعيد.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يستأذنك هؤلاء المؤمنون فى القعود، والتخلف كراهة أن يجاهدوا فى سبيل الله، فإن الجهاد لا يكرهه مؤمن صادق يرجو الله والدار الآخرة، ويعلم أن عاقبة الجهاد الفوز بإحدى الحسنيين.. الغنيمة، والنصر، أو الشهادة والأجر، وإنما قد يستأذن صاحب العذر الصحيح منهم، وهم الذين قبل الله عذرهم وأسقط الحرج عنهم فى قوله (ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت: لا أجد ما أحملكم عليه. تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، ألا يجدوا ما ينفقون)(٦).

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعه، أو فزعة طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانة»(٧).

والله عليم بمن خافوا فاتقوه بإجتناب ما يسخطه، وفعل ما يرضيه، وأنه ليس من شأنهم أن يستأذنوه بالتخلف كراهة للقتال، وهو يجزيهم وضعهم.

وقد استنبط من الآية: أنه لا ينبغى الإستئذان فى أداء شىء من الواجبات ولا فى الفضائل، والفواصل من العادات، كقرى الضيوف، واغاثة الملهوف، وسائر أعمال المعروف، وهو أدب يجب أن يتقضى مطلقا، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى إليه معروفا، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما، فإن الاستئذان فى مثل هذه المواطن امارات التكلف والتكره، وكرم الخليل لضيفه ومجيؤه عجل ثمين أكبر دليل على ذلك.

(إنما يستأذنك) يا رسول الله، فى القعود خلافك، والتخلف عن الجهاد من غير عذر بين،

الذين لا يصدقون بالله ولا يقرون بتوحيده، ولا يعترفون بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، لأنهم يرون بذل المال للجهاد مغرما يفوت عليهم بعض منافعه، ولا يرجون عليه ثوابا كما يرجوا المؤمنون، ويرون الجهاد بالنفس آلاما ومتاعب، وتعرضا للقتل الذى ليس بعده حياة عندهم، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضى كراهتهم للجهاد، وفرارهم منه ما وجدوا له سبيلا.. بضد ما يقتضيه إيمان المؤمنين، وقد وقع لهم الريب، والشك فى الدين من قبل.. فشكت قلوبهم فى حقيقة وحدانية الله، وفى ثواب أهل طاعته، وعقاب هل معاصيه، ولم تطمئن به قلوبهم، ولم تذعن له نفوسهم - وإنما الإيمان هو اليقين المقارن للإذعان وخضوع النفس - إنهم فى ريبهم يترددون. وهم فى شكهم متحيرون، وفى أعمالهم مذبذبون، وفى ظلمة الحيرة مترددون يحسبون كل صيحة عليهم، لا يعرفون حقا من باطل فيعملون على بصيرة فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداؤه من عبادات الاسم، فإذا عوض لهم ما يشق عليهم فعله ضاقت به صدورهم، والتمسوا التنصل منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة، حتى انه كان يشق عليهم حضور صلاة الفجر، والعشاء كما ورد فى الصحيح.

كرهوا البعث فكره انبعاثهم:

ولقد كان أولئك الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وقدموا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعذارهم الكاذبة ذوى قدرة على الخروج، لديهم ومسائله وعندهم عدته، كانوا مستطيعن لذلك ولم يفعلوا.. فلم يعدوا للخروج عدته، لأنهم لم يريدوه، وإنما أراوا بالاستئذان، ستر ما عزموا عليه من العصيان.

(ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)[8] فهؤلاء الذين تخلفوا لم يكونوا على نية الجهاد فى سبيل الله لأنهم لو كانوا على تلك النية لأعدوا للجهاد عدته، ولأخذوا له أهبته، حتى إذا دعا داعى الجهاد كانوا على أتم الإستعداد.. وقد كان بين أيديهم أدوات الجهاد وعدته، وكان فيهم عبد الله بن أبى بن سلول، وكان فيهم الجد بن قيس، وكانوا أشرافا فى قوتهم أثرياء، ولكنهم لم يكونوا أبدا على نية الجهاد.. حتى كانوا على كره قائم فى نفوسهم له فـ«كره الله انبعاثهم» وانطلاقهم مع المجاهدين، وأبغض نفرهم وخروجهم مع المؤمنين، لما يعلمه من طبيعتهم، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين، ومن ضررهم العائق عما أحبه وقدره من نصرهم - كما سيجىء - ولهذا.. ثبطهم عنه وحل عزائمهم دون الجهاد، ولم يبعث فيهم الهمة للخروج بما أحدث فى قلوبهم من الخواطر، وما أذاع فى جوانبهم من المخاوف، التى هى مقتضى سنته فى تأثير النفاق.. وإذا هم دعوة مستجابة لكل ناطق وصامت، يدعوهم بلسان المقال أو لسان الحال، ساخرا مستهيئا .. (اقعدوا مع القاعدين) وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال، الذين شأنهم القعود فى البيت، لأنهم لا يستطيعون الغزو، ولا ينبعثون للجهاد.. فهذا مكانهم اللائق بالهمم الساقطة، والقلوب المرتابة، والنفوس الخاوية من اليقين.. وكان ذلك خيرا للدعوة وخيرا للمسلمين.

وفى هذا القيل وجوه:

١. إنه تمثيل لداعية القعود التى هى أثر التثبيط، وفى معناه أنه أمر قدرى تكوينى، لا خطاب كلامى.

٢. أو أنه قول الشيطان على سبيل الوسوسة.

٣. أو بعضهم قال ذلك لبعض لما أرادوا الاجماع على التخلف، لأن من يتولى الفساد يحب التكثر بأشكاله (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)..

٤. أو أنه حكاية لاذن الرسول لهم فى التخلف، وأنه قاله بعبارة تدل على السخط لأعلى الرضا، إذ معناه.. أقعدوا مع الزمنى، والعجزه، فأخذوه على ظاهره لموافقته لمرادهم.

وفى التعبير عن كراهية الله سبحانه لخروج هؤلاء المنافقين للجهاد ب«الانبعاث». وهو الإنطلاق. اشارة إلى أن ذلك هو الذى ينبغى أن يكون من المجاهدين فى وجهتهم نحو العدو، وهؤلاء المنافقون لم يكن منهم مجرد الحركة، فضلا عن الانبعاث.

النفوس الخائنة خطر على الجيوش:

ولو كان منهم لما رضيه الله منهم ولا جعلهم فى المجاهدين، لفساد نياتهم وخيانتهم وضعفهم، وخورهم.. والقلوب الخائرة تبث الضعف، والخور فى الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش، ولو خرج أولئك المنافقون مازادوا المسلمين قوة بخروجهم، بل لزادوهم اضطرابا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة، والفتنة، والتفرقة والتخذيل، وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين، ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين.

(لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم، يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم، والله عليم بالظالمين)[٩] وفيها ما يكشف عن الحكمة فيما كان لله من تدبير فى تثبيط هؤلاء المتخلفين وعزلهم عن جماعة المجاهدين.. فلو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى القعود فى جماعتكم أيها المؤمنون. وهم يحملون هذا الداء الخبيث المتمكن فيهم. مازادوكم قوة ومنعة واقداما، كما هو شأن القوة العددية المتحدة فى العقيدة والمصلحة، بل لزادوكم اضطرابا فى الرأى، وفسادا فى العمل، وضعفا فى القتال، فإن المنافقين ولو الأدبار فى أول المعركة، وتبعهم ضعفاء الإيمان من المؤلفة قلوبهم من طلقاء فتح مكة، فاضطرب لذلك الجيش كله وفسد نظامه، فولى أكثر المؤمنين منهم بلا روية ولا تدبر، كما هو شأن جماعات البشر فى مثل هذه الأحوال.

لو خرجوا فيكم لزادوكم خبالا. ولأفسدوا عليكم أمركم، ولادخلوا عليكم الوهن والضعف فى لقاء عدوكم (ولأوضعوا خلالكم) ولأسرعوا فى الدخول فى خلالكم وما بينكم، سعيا بالنميمة وافساد ذات البين وتفريق الكلمة، حال كونهم يطلبون بذلك أن يفتنوكم.. بالتشكيك فى دين الله، وإذاعة السوء، وتثبيط الهمم عن القتال، وتهويل أمر العدو، والتخويف من قوته، وإلقاء الرعب فى القلوب، وايقاع الخلاف.. وذلك بتزيين أمر القوم، وتقبيحه لقوم آخرين

ليختلفوا وتفترق كلمتهم، وهو من أعظم الأمور التى يجب الإحتراز عنها فى الحروب، لأنه عند حصول الإختلاف فى الرأى يحصل الانهزام والإنكسار على أسهل الوجوه.

(وفيكم سماعون لهم) وفيكم أناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم والعقل، أهل سمع وطاعة لهم، يكثرون الاستماع إليهم لاستعدادهم لقبول وسوستهم، فإذا ألقوا إليهم أنواعا من الكلمات الموجهة لضعف القلب، قبلوها، وفتروا بسببها عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغى، بل أفسدوهم عليكم بتثبيطهم اياهم عن السير معكم. وقيل: وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، فهم أناس نماموون يسمعون لأجلهم، ما يعنيهم من أقوالكم فيلقونها إليهم [١٠](والله عليم بالظالمين) من هولاء وغيرهم.. الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم، وظلموا غيرهم بسبب أنهم سعوا فى إلقاء غيرهم فى الآفات والمهلكات.. أى محيط علما بذواتهم وسرائرهم وأعمالهم، ما تقدم منها وما تأخر، وبما هم مستعدون له فى كل حال مما وقع، ومما لم يقع ولا يقع، ككون هؤلاء المنافقين لا يزيدون المؤمنين لو خرجوا فيهم إلا خبالا.. ذو علم بمن يوجه أفعاله إلى غير وجوهها ويضعها فى غير مواضعها، ومن يستأذن رسول الله لعذر ومن يستأذنه شكا فى الإسلام ونفاقا، ومن يسمع حديث المؤمنين ليخبر به المنافقين، ومن يسمعه ليسر بما سر به المؤمنون ويساء بما ساءهم، لا يخفى عليه شىء من سرائر خلقه وعلا نيتهم.

فإن قيل: كيف يجوز ذلك على المؤمنين مع قوة دينهم ونيتهم فى الجهاد؟ قلنا:

١. لا يمتنع فى من قرب عهده بالإسلام أن يؤثر قول المنافقين فيهم.

٢. ولا يمتنع كون بعض الناس مجهولين على الجبن وضعف القلب فيؤثر قولهم فيهم.

٣. ولا يمتنع أن يكون بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقين فينظرون إليهم بعين الإجلال والتعظيم، فلهذا يؤثر قول الأكابر من المنافقين فيهم.

٤. ولا يمتنع أيضا أن يقال: المنافقون على قسمين.. منهم من يقتصر على النفاق ولا يسعى فى الأرض بالفساد، ثم إن الفريق الثانى يحملونهم على السعى بالفساد بسبب إلقاء الشبهات والأراجيف إليهم.

وفى قوله تعالى (مازادوكم إلا خيالا) اشارة إلى أن الجماعة الإسلامية التى ضم عليها ركب المجاهدين إلى تبوك لم تكن كلها على السلامة والعافية فى ايمانها وعزمها على الجهاد، بل كان فيها عدد غير قليل من المنافقين وأشباه المنافقين، ومن فى قلوبهم مرض خرجوا مع المجاهدين على كره فكانوا عبئا على المسلمين فلو انضم إلى هؤلاء أعداد أخرى من المتخلفين الذين ثبطهم الله عن الجهاد لما فى قلوبهم من نفاق لزادوا المؤمنين خبالا واضطرابا إلى ما كان ينبغى به جيشهم من نبضات الخبال والإضطراب.. ويشهد لهذا قوله تعالى بعد لك (ولأ وضعوا خلالكم) إذ يشير هذا إلى ما فى صفوف المسلمين من خلخلة، ومن فروج، وفجوات يمكن أن يتحرك فيها المنافقون كيف يشاؤون.. يلقون فى أسماع المسلمين بكلمات السوء للوقيعة بينهم وتثبيط عزائمهم من لقاء العدو، واشارة أخرى تجدها فى قوله سبحانه (وفيكم

سماعون لهم) إلى ما كان فى جيش المسلمين من أصحاب النفوس المريضة والقلوب الفاسدة حيث يعطون أسماعهم لقالة السوء، ويمنحونهم الثقة والاطمئنان، وحيث يصادف نفاقهم هوى عندهم.

حكمة بالغة فى اذن النبى للمتخاذلين:

لما آذن النبى الكريم المسلمين بغزوة تبوك، وندبهم جميعا إلى الجهاد فى سبيل الله، جاء إليه صلى الله عليه وسلم كثير من المنافقين يعتذرون إليه بأعذار كاذبة وقد قبلها النبى منهم، وتركهم لما اختاروا لأنفسهم على ما عند الله للمجاهدين من رضا ورضوان.. وماذا يكون من النبى صلى الله عليه وسلم حيال هؤلاء المعتذرين عن الجهاد غير الذى فعله معهم؟ إذ تركهم لشأنهم واعفائهم من مؤونة الجهاد مع المجاهدين؟ وماذا كان غناء أمثال هؤلاء المتكرهين للجهاد إذا هم حملوا عليه حملا، وأخذوا به قرا؟

أمثل هؤلاء يكون للمسلمين منهم قوة ينتفع بها فى هذا المجال؟ إن الجهاد فى سبيل الله قربة من أعظم القربات إلى الله، والقربات لكى تقع موقعا من القبول عند الله سبحانه ينبغى أن تكون عن تطوع واختيار، وعن استعداد للتضحية والفداء، بل وعن اشتهاء للتضحية والفداء.

إن هؤلاء المتكرهين للحرب المؤثرين للسلامة والعافية فى أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله، والاستشهاد فى سبيل الله، هؤلاء هم أشد على المجاهدين بلاءا من العدو الذى يلقونه فى ميدان القتال، إن هؤلاء المنافقين هم صوت الهزيمة الذى يندس بين المجاهدين، وإنهم لهم السلاح الخفى للعدو يضرب به فى جبهة المجاهدين، ولهذا فقد كان ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم من عزل هذه الجماعة المثبطة عن الجيش المجاهد، كان ذلك هو الحكمة فى صميمها، ولهذا جاء قوله تعالى (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا، ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم ساعون لهم) جاء مؤيدا لما رآه الرسول فى هؤلاء المعتذرين، حيث قبل منهم ما اعتذروا به، ولم يراجعهم فيه، ولم يدخل معهم فى جدل لا جدوى معه.

ولا ينقض هذا التأييد السماوى لرأى النبى فى هؤلاء المعتذرين ما جاء من عتاب للنبى من الله سبحانه فى قوله جل شأنه (عفا الله عنك، لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا، وتعلم الكاذبين).

فهذا العتاب هو - فى الواقع - مدح للنبى ورضا كريم عنه، على حين أنه فضيحة لهؤلاء المعتذرين وكشف لنفاقهم.

ماض مملوء فتنا ومستقبل مفعم كراهية:

وان ما فيهم ليشهد بدخل نفوسهم وسوء طويتهم، فلقد وقفوا فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وبذلوا ما فى طوقهم، حتى غلبوا على أمرهم، فاستسلموا وفى القلب ما فيه، وكان ذلك عند مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل أن يظهره الله على أعدائه ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله، فحنوا لها رؤوسهم وهم مغتاظون، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.

(لقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلبوا لك الأمور، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون).

قال الطبرى [١١].. وكان عبد الله بن ابى أخا بنى عوف بن الخزرج، وعبد الله بن نبتل أخا بنى عمرو بن عوف، ورفاعة بن يزيد بن التابوت أخا بنى قينقاع، وكانوا من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيدون للإسلام وأهله، قال الحسن البصرى.. وفيهم أنزل الله (لقد ابتعوا الفتنة من قبل).

وهى تشير إلى ماضى هؤلاء المنافقين، وأنهم لم يستقيموا على طريق الإسلام أبدا، وأنهم فى كل موقف يتعرض فيه الإسلام لإمتحان كانوا حربا خفية عليه، إلى جانب الحرب الظاهرة التى كان يلقاها بها أعداؤه لقاء مباشرا.. فكانوا يضربون فى جبهة المسلمين بالفتنة، وتقليب الأحداث، وإثارة الدفين من الثارات القديمة فى الجاهلية.. وفى كل مرة كانوا يرجعون بالخيبة، والخسران، حيث يضل سعيهم وتسوء عاقبة من يعملون لهم، ويكتب الله للنبى والمسلمين النصر، والغلبة.

والمعنى: فالله لقد ابتغى هؤلاء المنافقون ايقاع الفتنة فى المسلمين والتمسوا تشتيت شلك، وتفريق أصحابك وصدهم عن دينهم، وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذيل عنه، من قبل هذا العهد - عهد غزوة تبوك - ومثال لهذا.. ما كان فى غزوة أحد «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا» وذلك انهى لما خرجوا إلى أحد اعتزلهم عبد الله بن ابى بن سلول زعيم المنافقين بنحو ثلث الجيش، فى موضع يسمى «الشوط» بين المدينة وأحد، وطفق يقول لهم فى النبى صلى الله عليه وسلم: أطاعهم وعصانى، وفى رواية: أطاع الولدان ومن لا أرى له فلا ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا؟ وكان رأى ابن أبى - لعنه الله - عدم الخروج إلى أحد، ورأى الجمهور - ولاسيما الشبان - الخروج، فعمل صلى الله عليه وسلم برأى الأكثر، على أنه كان خلاف رأيه أيضا.. فرجع ابن أبى بمن اتبعه من المنافقين، وكاد يفشل بنو سلمه من الأوس وبنو حارثة من الخزرج بقوله وفعله، فعصمهم الله تعالى من الفتنة بفضله، وذلك قوله تعالى (والله وليهما) وهذا على سبيل المثال والا فهم قد ابتغوا الفتنة منذ قدم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فى غزوات بنى قينقاع، والنضير، والمصطلق، والأحزاب إلى حنين، وفى حديث الأفك، كما روت الاشارة إليه.

إن هؤلاء المنافقين واظبوا على تدبير الكيد والمكر واثارة الفتنة.. «وقلبوا لك الأمور»[١٢] ودبروا لك الحيل والمكايد، وصرفوا الآراء واجالوها، ودوروا الأفكار فى كل وجه من وجوهها لابطال دينك وفض قومك من حولك، وفكروا كثيرا فى القضاء على دعوتك وتنفير الناس من قبولها، ولكن.. أطنين أجنحة الذباب يضير؟

ماذا يصنع مبتغوا الفتنة ومدبروا المكايد أمام رسالة لم تكن لبناء وطن صغير، بل كانت إنشاء جديدا لأجيال، وأمم تظل تتوارث الحق، وتندفع به فى رحاب الأرض إلى أن تنتهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء.

ما تجدى وقف جهول، أو غضبة مغرور، أو تدبير كائد، أو حقد حاقد من فرد أو جماعة،

فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى إلى هدفها البعيد.. إن الطحالب العائمة لا تقف سير السفن الباخرة.. ولذا فإن هؤلاء المنافقين دبروا، وبيتوا، ومكروا، وقلبوا الأمور، وكان ما يزال لهم ضلع مع اليهود، وضلع مع المشركين فى كل ما فعلوا من عداوة الإسلام وقتال المؤمنين.

(حتى جاء الحق) النصر والظافر الذى وعدك به ربك، وكانوا به يمترون.. (وظهر أمر الله) وعلا شرعه، وغلب دينه على الدين كله بالتنكيل باليهود الغادرين، والنصر على المشركين، وابطال الشرك بفتح مكة، ودخول الناس فى دين الله أفواجا.. والمنافقين لظهور.. أمرا لله ولنصر دينه كارهون، حتى كانوا بعد الفتح يمنون أنفسهم بظهور المشركين على المؤمنين فى حنين، وكذلك الآن يظهرك الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به وهم كارهون، وفيه تنبيه على أنه لا أثر لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم فى اثارة الشر، فانهم منذ كانوا فى طلب هذا المكر والكيد، والله تعالى رده فى نحرهم وقلب مرادهم وآتى بضد مقصودهم.

أعذار صبيانية:

ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراه ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

(ومنهم من يقول أئذن لى ولا تفتنى، إلا فى الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين).

روى محمد بن اسحق عن الزهرى، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتاده قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو فى جهازه «أى لغزوة تبوك» للجد بين قيس أخى بن مسلمة [١٣]: هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر[١٤]؟ «يعنى الروم» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتن، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى، وانى أخش أن رأيت نساء بنى الأصفر الا أصبر عنهن فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «قد أذنت لك» ففى الجد بين قيس نزلت هذه الآية: (يا عجبا من هؤلاء المنافقين ينتحلون الأعذار،س ويظهرون التمسك بالفضيلة حتى يقول قائلهم معتذرا بهذا العذر الصبيانى الكذوب، ويمثل هذه المعاذير كل المنافقون يعتذرون، وما علموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وإن الله علام الغيوب.. وإن مثل الجد فى نفاقه لا يخشى على نفسه أثم الافتنان بالنساء، إذ لا يجد من دينه مانعا من التمتع بين وهو يحببن، بل شأن ذلك أن يكون مرغبا له فى هذه الغزوة.

وهذا بيان لأول استئذان معين فى التخلف وقع من أولئك المنافقين وهو يكشف عن وجه من وجوه المنافقين الذين دعوا إلى الجهاد فى سبيل الله.. وقد رد الله شبهته وشبهة من وافقه عليها وردعوا معناها بقوله:

(ألا فى الفتنة سقطوا) الا فليعلموا أنهم سقطوا وترددوا حين خرجوا بهذه القولة الكاذبة عن أمر الله فحق عليهم غضب الله وتلك هى الفتنة، وذلك هو البلاء الذى ليس لصاحبه من نجاة.. ترددوا فى هاوية الفتنة بأوسع معناها لاقى شىء آخر من مشابهاتها من حيث يزعمون اتقاء الأثم بالنظر إلى جمال نساء الروم واشتغال القلب بجمالهن فترددوا فى شر مما اعتذروا

به، ووقعوا فيها كما يقع الإنسان فى البئر.. فهم يحترزون عن الوقوع فى الفتنة، وهم فى الحال ما وقعوا إلا فى فتنة أعظم.. فإن أعظم أنواع الفتنة: الكفر بالله ورسوله والتمرد على قبول التكليف، والتخلف عن رسول الله، والرغبة بأنفسهم عن نفسه.

والويل لهم على الفتنة التى ترددوا فيها (وان جهنم لمحيطة بالكافرين).. وهؤلاء المنافقون هم كافرون، بل أشد كفرا من الكافرين، والله سبحانه يقول (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا)(١٥) وجهنم ستكون محيطة بهم، جامعة لهم يوم القيامة، أو محيطة بهم الآن، لأن أسباب الاحاطة معهم (١٦) فكأنهم فى وسطها وإنما تحيط النار بين أحاطت به خطايا حتى لا رجاء فى توبته بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون..(١٧).

والتعبير يرسم مشهدا، كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات، فلا يفلتون، كناية عن مقاومتهم للخطيئة كاملة، وعن انتظار العقاب عليها حتما، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير، وتقريرا لكفرهم، وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام، وهم فيه منافقون.

مساءة المنافقين مسيرة المؤمنين وعكسه:

إنهم لا يريدون بالرسول خيرا ولا بالمسلمين، وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرا، وأنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب، وما ينزل بهم من مشقة .. «إن تصبك حسنة تسؤهم، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون».

أخرج ابن أبى حاتم عن جابر قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا فى المدينة يخبرون عن النبى صلى الله عليه وسلم اخبار السوء، ويقولون إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبى وأصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: والمتبادر أن هذا اخبار عن شأنهم فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ولكن التفسير المأثور هذا يدل على أن الآية خير عن مستقبل الأمر فى غزوة تبوك.

انهم يتربصون بالمؤمنين وهم على طريق الجهاد.. فإذا عاد المسلمون بالنصر والغنيمة اغتنموا وحزنوا وعلاهم الخزى والهوان، كما ساءهم النصر فى بدر وغير بدر من الغزوات.. وان وقع بالمسلمين سوء كالذى وقع فى أحد فرحوا فرحنين .. فرحة لأن المسلمين قد أصيبوا وفرحة لأنهم هم لم يكونوا فى هذا الوجه الذى وقع فيه للمسلمين ما وقع من بلاء.. ثم يدعوهم هذا إلى أن يحمدوا لأنفسهم بعد نظرهم وتقديرهم للأمور حيث سلموا، وكان من شأنهم أن يعطبوا لو أنهم استجابوا لما دعوا إليه» وأن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل.. أى أخذنا حذرنا، ونظرنا إلى عواقب الأمور بالحزم والحذر، والتيقظ الذى هو دأبنا من قبل وقوعها، واحتطنا لأنفسنا ألانصاب من المسلمين بشر، إذ تخلفنا عن الكفاح والغزو ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك، ورأينا بحسن تقديرنا أن لا تشارك فى هذه الحرب التى يتجه إليها المسلمون، والتى لا يلقون فيها إلا الهزيمة، وهنا قد صح تقديرنا.. هكذا تقديرهم، وذلك هو

حسابهم مع الإسلام والمسلمين.. «ويتولوا» عن مقام التحدث بذلك والإجتماع له، وينصرفوا عن الموضع الذى يقولون فيه هذا القول عند بلوغهم خبر المصيبة إلى أهليهم، أو يعرضوا عنك بجانبهم «وهم فرحون» فرح البطر والشماتة بالنجاة، وبما أصاب المسلمين من بلاء.

التسليم لله والرضا بقدره:

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شرا فى كل حال، ويظنون انهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود، وقد خوت قلوبهم من التسليم لله والرضا بقدره واعتقاد الخير فيه.. والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى اعتقادا بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن الله ناصر له ومعين.. (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الذين تفرحهم مصيبتك، وتسؤهم نعمتك وغنيمتك: لن يصيبنا إلا ما كتبه الله وأوجهه لنا بوعده فى كتابه، وتقديره لنظام سننه فى خلقه، من نصر وغنيمة، وتمحيص وشهادة، وضمان لحسن العاقبة.. من الظفر بالعدو والاستيلاء عليه.

والمقصود أن يظهر للمنافين أن أحوال الرسول والمسلمين وإن كانت مختلفة فى السرور والغم، إلا إن فى العاقبة الدولة لهم والفتح، والنصر، والظفر من جانبهم فيكون ذلك غيظا للمنافقين، وردا عليهم فى ذلك الفرح.

والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به فى النهاية، فمهما يصبهم من شدة ومهما يلاقوا من ابتلاء، فهو إعداد للنصر الموعود، ليناله المؤمنون عن بيعة وبعد تمحيص، وبوسائله التى اقتضتها سنة الله.. نصرا عزيزا لا رخيصا، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية.

والله هو الناصر وهو المعين ..«هو» وحده «مولانا» يتولانا بالتوفيق والنصر، ونتولاه باللجوء إليه والتوكل عليه.. فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمة، وقد قال لنا فى وعده:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.. فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وان تولوا فأعملوا أن الله مولاكم، نعم المولى ونعم النصير)[١٨] وقال فى بيان سننه فى خلقه: (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها) «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وإن الكافرين لا مولى لهم)[١٩] وقال فى سننه فى العواقب (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[٢٠].

وإذ كان الله هو مولاهم فحق عليهم أن يتوكلوا عليه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون» وان يفوضوا الأمر إليه سبحانه مع القيام بما أوجبه عليهم فى شرعه، والإهتداء بسننه فى خلقه.. ومنها ما أخبرهم به من أسباب النصر المادية، والمعنوية التى فصلها فى سورة الأنفال وغيرها، كأعداد ما تستطيع الأمة من قوة واتقاء التنازع الذى يولد الفشل ويفرق الكلمة وذلك بأن يكلوا إليه توفيقهم لما يتوقف عليه النجاح، وتسهيل أسبابه التى لم يصل إليها كسبهم.

التوكل والأسباب:

وما أجهل من يظن أن التوكل وكتابة المقادير يقتضيان ترك العمل والأخذ بالأسباب.. إن

الإعتقاد بقدر الله والتوكل الكامل على الله لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق، فذلك أمر الله الصريح، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، وما يتكل على الله حق الإتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحدا ولا تراعى خاطر إنسان.

تصور حالة مؤمن يوقن أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له وأنه ان لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يعتقد أنه لا يعدو فى جملته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة فى سبيل الله، ويعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذى يتولى نصره وتوفيقه فهو بمقتضى ايمانه يتوكل عليه ويفوض أمره إليه. تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه، وملكت عليه وجدانه، هل يخاف من غير الله؟ هل ييأس من روح الله: هل يمنعه خطب من الخطوب عن الجهاد لاعلاء كلمة الله، واقامة دين الله، وبذل الجهد فى إقامة الحق والعدل، ومد بسياط البر والفضل؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ما ذكر، الا تكون أعز الأمم نفسا وأشدها بأسا.

«تربص كل من الفريقين بالآخر والفرق بينهما»

على أن المؤمن أمره كله خير، سواء نال النصر أو نال الشهادة، والكافر أمره كله شر سواء اصابه عذاب الله المباشر أو على أيدى المؤمنين فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين؟ انها الحسنى على كل حال.. النصر الذى تعلو به كلمة الله، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض، أو الشهادة فى سبيل الحق لنيل عليا الدرجات عند الله وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم، أو يبطش المؤمنون بهم. والعاقبة معروفة، والعاقبة للمتقين.

(قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا. فتربصوا انا معكم متربصون).

إن الذى تنتظرونه فينا - أيها الجاهلون - لا يخرج عن إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما حسنى العواقب وفضلاها، وكلتاهما نعمة عندنا ورحمة من الله ورضوان.. النصرة المضمونة للجماعة والشهادة المكتوبة لبعض الأفراد، فأما أن تظفر ونغنم وإما أن نستشهد فى سبيل الله، ونال رضوانه، وننزل منازل الشهداء عنده، وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله .. لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته .. أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة».

إلا لا شيء ينتظر لنا غير هاتين العاقبتين مما كتب لنا ربنا: فإن عشنا عشنا أعزة مؤمنين، وان متنا متنا شهداء مأجورين.

ونحن ننتظر فيكم - أيها المنافقون - فى مقابلة ذلك، العذاب الذى لابد أنه واقع بكم، وهو لا يخرج عن إحدى السؤيين: الأولى (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) بأن يهلككم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها، كما أهلك من قبلك من الأمم الكافرة التى كذبت الرسل، كما فعل بعاد وثمود، أو بأن تموتوا على ما أنتم عليه من نفاق فليقاكم الله بالعذاب الأليم الذى أعده لكم.. والثانية: أن يكون هلاككم فى هذه الدنيا «بأيدينا»: بأن نقتلكم ونأسركم ونستولى على

أموالكم ودياركم، وذلك عند الأذن لنا فيه أن أغراكم الشيطان بإظهار كفركم بهذا الإستدراج فى الإستمرار على اجرامكم، كما قال فى سياق غزوة الأحزاب (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم).[٢١]

(فتربصوا» بنا إحدى الحالتين الشريفتين (إنا معكم متربصون) وقوعكم فى إحدى الحالتين الخسيستين إن اصررتم على كفركم، وظهر أمركم بما نحن فيه على بينة من ربنا ولا بينة لكم، فإذا لقى كل منا ومنكم مايتربصه لا نشاهد إلا ما يسؤكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا.

وحكم الشرع أنهم لا يقتلون ماداموا يظهرون الإسلام بإقامة الشعائر وأداء الأركان ولاسيما الصلاة والزكاة.. ولم تذكر هاتان العاقبتان لهم بصيغة الحصر كعاقبتى المؤمنين، لجواز أن يتوبوا عن نفاقهم ويصح إيمانهم، وقد تاب بعضهم واعترفوا بما كانوا عليه بعد ظهور أمرهم، كالذين أخبرهم النبى بإئتمارهم لإغتياله صلى الله عليه وسلم، ومن المعقول أن يكون أكثر الباقين قد تابوا بعد أن أنجز الله لرسوله جميع ما وعد به، ووقع ما كانوا يحذرونه من تنزيل سورة تنبئهم بما فى قلوبهم، ومنها فضيحته تعالى لزعيمهم الذى مات على كفره، وهذه الآية فيها الجواب الثانى عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين بعد الجواب الأول الذى تضمنته آية (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا).

امساك العصا من الوسط:

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين قد عرض ماله وهو يعتذر عن الجهاد، وهو الجد بن قيس حين قال للرسول صلى الله عليه وسلم: أئذن لى فى القعود وهذا ما لى أعينك به، ذلك : ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان، فرد الله عليهم مناورتهم، وكلف رسوله أن يعلن أن انفاقهم غير مقبول عند الله، لأنهم انما ينفقون عن رياء وخوف لا عن إيمان وثقة، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين، أو عن كره خوفا من انكشاف أمرهم، فهو فى الحالتين مردود لا ثواب له، ولا يحسب لهم عند الله.

(قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين. وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون).

وشىء آخر: هو أنه بعد أن دعا الله سبحانه المسلمين إلى الجهاد بالنفس والمال فى قوله تعالى: (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) رد المنافقين الذين أرادوا أن يدخلوا فى صفوف المسلمين بما يقدمونه من مال ومتاع. ولم يقبل سبحانه من أولئك المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ما تقدموا به من مال ومتاع. لأنهم لم ينفقوه فى سبيل الله، وابتغاء مرضاته، وإنما أنفقوا ما أنفقوا مدارة لنفاقهم، وسترا لما فى قلوبهم من ضغينة، وحقد، ويأس، فهم بهذا المال الذى أنفقوه، يجدون وجها يعيشون به بين المسلمين، ويأخذون

فرصتهم فى بث سمومهم بينهم، وقد فضحهم الله ورد كيدهم، ورجسهم بالمال الذى قدموه.

(قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم)[٢٢]

قل يا أيها الرسول المنافقين: انفقوا ما شئتم من أموالكم فى الجهاد أو غيره ما أمر الله به، وعلى أى حال شئتم من حال الطوع [٢٣] لتتقوا به المسلمين وصولتهم، أو من حال الكره خوف العقوبة.. فمهما .. تنفقوا فى الحالين فلن يتقبله الرسول ويأخذه منكم، أو فلن يتقبل الله منكم شيئا منه ويثيبكم عليه ما دمتم فى شك مما جاءكم به الرسول من أمر الدين وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه، والجزاء على الأعمال فى الآخرة.. وهو تيئيس لهؤلاء المنافقين من أن يتقبل الله أعمالهم، وأن يجزيهم جزاء العاملين المحسنين، لأنهم لا يؤمنون بالله إلا على حرف، ولا ينفقون ما ينفقون فى سبيل الله إلا على خوف وتكره، وحتى لو انفقوا عن تطوع ورضا ـ وهذا غير واقع منهم ـ فلن يتقبل الله ما أنفقوا (إنما يتقبل الله من المتقين) [٢٤] فكيف إذا كان انفاقهم عن نفاق لا يريدون به من وجه الله؟ انهم لن يكونوا من المقبولين أبدا، انهم كانوا قوما فاسقين.. متمردين واتين خارجين عن الإيمان بربهم.

فليعتبر بهذا منافقوا هذا الزمان الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ويعلنون أمرها على صفحات الجرائد أو المجلات، ليذيع صيتهم فى الآفاق ويشتهروا بها بين الناس حبا للثناء.

أسباب عدم القبول:

ثم بين تعالى ما من أجله لم يتقبل من هؤلاء المنافقين أعمالهم ولو كانت ما يعد فى الصالحات من الأعمال فقال:

(وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون).. وما منعهم قبول نفقاتهم ـ التى ينفقونها فى الجهاد معك أو فى غيره من السبل ـ شىء من الأشياء إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق، ومنها الحكمة والتنزه عن العبث فى خلق الخلق وهدايتهم وجزاؤهم على أعمالهم، وكفرهم برسالة رسوله وما جاء به من البينات، والهدى.. فإيمانهم هذا الذى يراه الناس منهم هو إيمان يضمر وراءه كفرا والحادا.. وكل عمل لا يزكيه الإيمان بالله وبرسوله هو رد على أهله، والله سبحانه وتعالى يقول (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد)[٢٥].

وإذا كان المنافقون على هذا الكفر بالله وبرسوله فإن ما يأتون من أعمال المؤمنين فى ظل هذا النفاق المتمكن من قلوبهم، إنما يأتونه رياء ونفاقا حتى لا يفتضح نفاقهم وينكشف المستور من كفرهم.. إنها صورة المنافقين فى كل آن، خوفه ومداراة، وقلب منحرف وضمير مدخول، ومظاهر خالية من الروح، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير.. فهم إذا اقتضاهم الحال أن يصلوا لم تكن صلاتهم ولاء لله واستجابة لأمره إنما هو ثوب من أثواب النفاق يلبسونه إلى حين، ومن هنا كانت صلاتهم باردة فاترة لاتتصل بها نبضة قلب أو هزة وجدان، والتعبير القرآنى الدقيق (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى).. فهم يأتونها مظهرا بلا حقيقة، ولا يقيمونها اقامة

واستقامة، يأتونها كسالى، لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعا فيحسون أنهم عليها مسخرون، لا تنشط لها أبدانهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ذلك بأنهم لا يرجون على الصلاة ثوابا، ولا يخشون فى تركها عقابا.. ان كان أحدهم فى جماعة صلى، وان انفرد لم يصل (يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا)[٢٦] فالنفاق - لا محالة - يثقل البدن ويورث الكسل فى العبادة.. فعلى كل مسلم أن يحاسب نفسه هل صلاته صلاة المؤمنون أم صلاة المنافقين؟!

وكذلك الشأن فيما ينفقون فى سبيل الله.. إنهم لا ينفقون عن إيمان بالله وبرسوله وبالجهاد فى سبيله، ولكنهم ينفقون حين لا يكون بد من الانفاق، حتى لا يفتضح أمرهم وينكشف نفاقهم: (ولا ينفقون الا وهم كارهون) كراهة دائمة لازمة لهم، غير طيبة أنفسهم بها، فإن أنفقوا أمر ولا إلزام من الرسول بل طوع أنفسهم فهم أيضا كارهون كراهة قلبية لانفاقهم، ومع الإلزام من باب أولى كارهون مكرهون، لأنهم يعدون هذه النفقات مغرما، ومنعها مغنما.. يرونها مغارم مضروبة عليهم تقوم بها مرافق المؤمنين، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم ليسوا منهم، فلا يرون لهم به نفعا فى الدنيا، ولا يؤمنون بنفعها لهم فى الآخرة.

فتبين أن هؤلاء المنافقين ليس لهم قدم صحيح ولا همة فى العمل، وقد أخبر الصادق المصدوق «ان الله لا يمل حتى تملوا، وان الله طيب لا يقبل إلا طيبا» فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا، لأنه إنما يتقبل من المتقين، ومما كان الله ليتقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدوا إليها عقيدة، ولا يصاحبها شعور دافع، فالباعث هو عمدة العمل، والنية هى مقياسة الصحيح.

ومن سمات هؤلاء المنافقين أنهم يتتبعون السهل اليسير من الطاعات فيعملونه، ويتركون ما هو شاق أو ما يخيل إليهم انه شاق، وهذا خطأ وهو شائع بين كثير من المسلمين.. فمن أطاع الله ورسوله فيما يسهل عليه، وعصاهما فيما يشق عليه فلا يعد مذعنا للأمر والنهى، لأنه حكم الله ودينه، وهو لا يتجزأ، ومن لم يكن مذعنا لا يكون مؤمنا (أفتأمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء متى يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب)[٢٧].

وقد بايع المؤمنون الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الكبرى على السمع والطاعة فى المنشط والمكرة.

وفى قوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) تحريض لهولاء المنافقين على التخلص من هذا النفاق الذى يقف لهم بالمرصاد على طريق الوصول إلى الله بما يقدمون من أعمال.. فالمفروض فى كل من يعمل عملا أن يجنى ثمرته، وهؤلاء المنافقون يعملون أعمالا كان من شأنها أن تثمر ثمرا طيبا، ولكن هناك آفة خطيرة تتسلط على هذه الأعمال تأتى عليها قبل أن تزهر أو تثمر، وهذه الآفة هى النفاق، فإذا كان بالمنافقين حاجة إلى أعمالهم تلك، وإلى الثمرة المرجوة منها فعليهم أن يحاربوا هذا النفاق الذى يمنعهم أن ينالوا ثمرا مما يعملون، وما يستنبط من الآية سيأتى إن شاء الله بعد قليل آخر الفصل.

نعم هى فى الحقيقة نقم:

ولقد كان هؤلاء المنافقون المنفقون وهم كارهون، ذوى مال وذوى أولاد وذوى جاه فى قومهم وشرف، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله، وكذلك يجب ألا يكون شيئا عند الرسول والمؤمنين، فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها.

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة والإصلاح بها فى الأرض، والتوجه بها إلى الله، فإذا هو مطمئن الضمير ساكن النفس واثق من المصير، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرا، وكلما أصيب فى نفسه أو بنيه أو ماله احتسب، فإذا السكينة النفسية تغمره، والأمل فى الله يسرى عنه، وقد تكون نقمة يصب الله بها عبدا من عباده، لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيما، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا، ويشقى بهم إذا صحوا.. وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب!

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - وأمثالهم فى كل زمان - يملكون الأموال ويرزقون الأولاد، يعجب الناس ظاهرها وهى لهم عذاب على نحو من الانحاء، عذاب فى الحياة الدنيا وهم - بما علم الله من دخيلتهم - صائرون إلى الهاوية هاوية الموت على الكفر، والعياذ بالله من هذا المصير.

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون).

ان جناية النفاق على أهله ليست واقفة عند حد، فهو إذ يفسد على المنافقين كل ما يبدو انه متصل بما يقرب إلى الله من عبادات وقربات، وكذلك هو مفسد لكل ما هو متصل بحياتهم الدنيوية مما يجمعون من أموال وما يستكثرون من أولاد.. فهذه الأموال التى يجمعونها ويشقون فى جمعها، وهؤلاء الأولاد الذين يعملون لهم ويكدحون فى الحياة من أجلهم، إنما هى مصادر شقاء لهم وبلاء عليهم، حيث تبدوا جميعها فى ظل الكفر بالله، انها ظل زائل سرعان ما ينفضون أيديهم منه إذا هم فارقوا هذه الدنيا وصاروا ترابا فى التراب، انهم لا يؤمنون بحياة أخرى، وراء هذه الحياة تتصل بها حياتهم، ويجدون فيها شيئا من ثمرة أعمالهم، ومن هنا تتضاعف حسراتهم على هذا المال الذى جمعوه، وعلى هؤلاء الأولاد الذين لن يلتقوا بهم بعد الموت أبدا.

وعلى خلاف هذا شعور المؤمنين بالله واليوم الآخر، انهم لا يحزنون على فائت فى هذه الدنيا، لأن أنظارهم ممتدة على طريق أفسح من طريق هذه الحياة، وقلوبهم معلقة بحياة أكرم وأطيب وأخلد من تلك الحياة، فإذا فاتهم شىء من هذه الدنيا كان لهم فيما يرجون من الله ما يغنى عن كل فائت. ومن أجل هذا لم يكن الموت عند المؤمنين بالله واليوم الآخر شيئا يفزعون له ويبيتون مؤرقين للقائه، فما هو عندهم إلا نقلة إلى عالم خير من هذا العالم، وإلى حياة طيبة وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

أما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فإن للموت عندهم رهبة رهيبة مسلطة عليهم مع كل نفس يتنفسونه فى هذه الدنيا فما الموت عندهم إلا الفناء الأبدى والضياع فى تيه العدم، والغرق فى بحار الظلام الأبدى (ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر)(٢٨) فهذا هو العذاب الدنيوى الذى يعذب به الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وإنما يعذبون بأيديهم، وبما يجمعون من مال، وما يستكثرون من أولاد.. وانهم كلما كثر مالهم وكثر أولادهم كلما اشتد عذابهم وتضاعف بلاهم بما يعرض لهم فيها من المنغصات والحسرات.

أما الأموال فلخوف فواتها، ولحزن فراقها، ولضياع الوقت فى كسبها، والمحافظة عليها، فإنهم يكابدون فى جمعها المتاعب ويقاسون فى حفظها، والحرص عليها الشدائد والمصائب، وليس عندهم من الإعتقاد بثواب الله ما يهون عليهم ما يجدونه، ويشق عليهم ما ينفقون منها فى وجوه البر من زكاة وإعانة على جهاد وانفاق على قريب من المؤمنين، وهم غير طيبى النفس، ولا معتقدين الثواب على ذلك ولا راجين من الله جزاء ولا من الأخذ منه حمدا ولا شكرا، على ضجر منهم وكره، واشق منه اعتقادهم أنهم يتركونها بعدهم لمصالح المسلمين، لأن ورثتهم منهم فى الغالب حتى زعيمهم الأكبر عبد الله بن ابى لعنه الله.

وأما الأولاد فلأنهم يرونهم قد نشأوا فى الإسلام واطمأنت به قلوبهم، وإنهم يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وقد يقتلون فى الغزو، فيجزعون حيث لا يعتقدون بالشهادة.. وكل هذه حسرات فى قلوبهم، وكل هذه عذاب الدنيا (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا)(٢٩) فهم بهذا أحق بالرثاء منهم من أن يكونوا موضع قدوة واعجاب، فإذا كان الأمر كذلك وكان هذا شأنهم فى مظنة ما ينتفعون به من أموالهم لا يقبل منهم صرف ولا عدل (فلا تعجبك) أيها الرسول أو أيها السامع أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم التى هى فى نفسها من أكبر النعم وأجلها، ولا تسر من حالهم، ولا يروقك من ذلك فإنه استدراج لهم ووبال عليهم، ولا تظن أنهم وقد حرموا ثوابها فى الآخرة قد صفا لهم نعيمها فى الدنيا ونظره (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه)(٣٠). وفى الحديث «ثلاث مهلكات.. شح مطاع، وهوى متبع، واعجاب المرء بنفسه» «هلك المكثرون» «وهل لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

وقوله تعالى (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) عطف على (ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) بمعنى أن هذا الذى فى أيديهم من كثرة الأموال والأولاد إنما جعله الله ليكون مصدر عذاب وبلاء لهم فى الدنيا، ولتزهق أنفسهم وتخرج من هذه الدنيا على كره، وهم فى لجاج فى الكفر واغراق فى الضلال، إذ لم يدع لهم تعلقهم بالأموال والأولاد فرصة يفكرون فيها فى الله وفى الإيمان به واليوم الآخر، فكل همهم هو هذه الأموال وأولئك الأولاد فإذا نزل بهم الموت اشتد كربهم، وامسكوا بالحياة فى ذعر وجنون، فهم يعذبون بها فى الآخرة أشد مما عذبوا بها فى الدنيا لموتهم على كفرهم المحبط لعملهم، والتعبير (وتزهق أنفسهم) يلقى ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك، ظلا مزعجا لا هدوء فيه ولا اطمئنان فينسق هذا الظل مع ظل العذاب فى

الحياة الدنيا بالأموال والأولاد، فهو القلق والكرب فى الدنيا والآخرة، وما يحسد أحد على هذه المظاهر التى تحمل فى طياتها البلاء.

قال الرازى فى نسق هذه الآية مع ما قبلها: (لما بين تعالى قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم، بين ما لهم فى الآخرة من العذاب الشديد وما لهم فى الدنيا من وجوه المحنة والبلية، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة البتة، ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو فى الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم، وتشديد المحنة عليهم، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا وهو ترتيب بديع)[٣١] وقال المنار: (ولما كان أولئك المنافقون من أولى الطول والسعة فى الدنيا، وكان ترف الغنى وطغيانه أقوى أسباب اعراضهم عن آيات الله والتأمل فى محاسن الإسلام بين الله تعالى سوء عاقبتهم بهذه الآية)[٣٢].

ومن أهداف الآية الزجر عن الإرتكان إلى الدنيا، والمنع من التهالك فى حبها والاغترار بها.

«كشف رداء المداورة»

ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم فى الصف لا عن إيمان واعتقاد ولكن عن خوف وتقية، وعن طمع ورهب ثم يحلفون أنهم من المسلمين، اسلموا اقتناعا، وآمنوا اعتقادا.. فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق.. (ويحلفون بالله انهم لمنكم، وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)[٣٣].

من نفاق المنافقين مع أنفسهم أنهم يحلفون للمؤمنين أنهم منهم فى الدين والملة، لأنهم يحسبون الإيمان كلمة يقولونها، ولباسا يلبسونه أول النهار ثم يخلعونه آخره، وما أكثر الإيمان التى تجرى على ألسنة المنافقين، إنها هى الطلاء الذى يطلى به كذبهم، ويزيف به نفاقهم حتى يروج عند من تغره ظواهر الأمور ولا يستشفون ما وراءها، وقد رد الله عليهم بأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من أهل دينهم وملتهم، لأن المؤمنين لا يخافون أبدا، لما فى قلوبهم من إيمان بالله وثقة بما عنده، واطمئنان لما يقضى به فيهم، فإن أصابهم خير لم يطيروا به فرحا، وإن اصابهم بلاء لم يجزعوا له فرقا وخوفا، الموت والحياة عندهم سواء، والغنى والفقر لديهم أشباه، والسراء والضراء عدلان كل من عند الله.

أما أهل الكفر والنفاق، والزيغ والضلال فهم على خوف دائم وهو مقيم، وهم فرقا من المؤمنين يظهرون الإسلام تقيه، ويؤيدنه بالإيمان الفاجرة، ويقولون بألسنتهم انهم منهم، ليأمنوا فيهم فلا يقتلوا ولا يفعل بهم ما يفعل بالمشركين، ونظيره قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: انا معكم انا نحن مستهزءون)[٣٤] وقوله سبحانه : (إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد أنك لرسول الله، والله يعلم انك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)[٣٥].

فالفرق الذى يقض مضاجع هؤلاء الكافرين والمنافقين المكذبين بيوم الدين والجزع الذى

يعيش فى كيانهم، والخوف الذى يمزق قلوبهم ويفرقها، هو داءعافى الله المؤمنين منه، إذ كان ايمانهم بالله سكنا لقلوبهم، وأنسا لأنفسهم وزاداً طيبا ينفردون منه لكل نازلة تنزل بهم وكل حدث يقع لهم.. فأنظر كيف فرق الإيمان بين الناس فى مدركاتهم، ومشاعرهم، وتصوراتهم وإن جمعتهم لحمة القرابة، والنسب، فهؤلاء غير أولئك.. فمن كان على الإيمان لا يدخل قلبه هم أو جزع، ومن كان على غير الإيمان فهم فى هم وكرب، وجزع.

ان هذه الدنيا على سعتها هى أضيق من سم الخياط فى أعين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، إذ لا حياة لهم بعدها، ولا رجاء لهم فى ما يرجوه المؤمنون بعد الموت، ومن هنا كانت الدنيا على ما فى أيديهم منها من مال وبنين هى سجن مطبق عليهم يقضون فيه أيام حياتهم المعدودة:

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة ... على الخالف المكروب كفة حابل

يؤتى إليه ان كل ثنية ... تيممها ترمى اليبه بقاتل

هكذا حال الذى لا يؤمن بالله باليوم الآخر، هو دائما فى خوف متوقع يطلع عليه من كل جانب فلا يبيت على جناح آمن أبدا.

(لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون).. هو بيان لسوء حال الكافرين والمنافقين الناجم عن الفرق، وتصوير لحجم الفزع الذى يعيش فى كيانهم، والجزع والهلع والخوف الذى يسيطر على نفوسهم.. إنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سررتم ساءهم ذلك، فهم يودون الا يخالطوكم، فلا تظنوا أن موافقتهم اياكم فى الدار صادر عن القلب.. انهم لشدة كرههم لمعاشرتكم وللقتال معكم، ولشدة رعبهم من ظهور نفاقهم لكم، يتمنون الفرار منكم، والمعيشة فى مضيق من الأرض يتحصنون فيه فيأمنون على أنفسهم منكم، ويعتصمون به من انتقامكم.. بحيث لو يجدون ملجأ يلجأون إليه، أو مغارات يطمرون فيها، أو مدخلا يندسون وينجرون فيه، لولوا إلى ما يجدونه من هذه الوجوه الثلاثة، وهم يسرعون منقمحين لا يلوون على شىء ولا يردهم شىء، سرعة الفرس الجموح الذى لا يرده لجام ولا قائد.

وهذه المخابئ التى يلجأ إليها الفارون من وجه الحياة هى كل ما يمكن أن يتصور الفرار إليه فى عالم الإنسان أو الحيوان أو الهوام، وفى هذا ما يدل على أن المنافقين يلتمسون أى مفر يفرون إليه ويدفنون وجودهم فيه، بل وأكثر من هذا إنهم فى سبيل الإحتفاظ بالحياة، وفى طلب الفرار من الموت لا يأنفون أن يكونوا على أية صورة من صور الاحياء من حشرات، وهوام ودواب ونحوها، المهم عندهم هو أن يعيشوا، ليس من المهم عندهم فى شىء الصورة التى يكون عليها العيش.

انهم جبناء، والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهدا، ويجسمه فى حركة، حركة النفس والقلب، يبرزها فى حركة جسد وعيان.. فهم متطلعون أبدا إلى مخبأ يحتمون به ويأمنون فيه: حصنا

أو مغارة أو نفقا، انهم مذعورون مطاردون، يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى، ومن هنا (يحلفون بالله أنهم لمنكم) بكل أدوات التوكيد، ليداروا ما فى نفوسهم ولينقر انكشاف طويتهم، وليأمنوا عى ذواتهم، وهذا الوصف من أبلغ لغات القرآن فى تصوير الحقائق التى لا تنجلى للفهم والعبرة بدونها، فتصور شخوصهم وهم يعدون بغير نظام، يلهثون كما تلهث الكلاب، يتسابقون إلى تلك الملاجئ من مغارات، ومدخلات، فيتسلقون إليها أو يندسون فيها.. فكذلك كان تصورهم عندما يسمعون الآيات فى وصفهم.. وانها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء، لا يرسمها إلا هذا الأسلوب القرآنى العجيب الذى يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق.

بعض ما يستنبط من آيات هذا الفصل

١. عدم الأخذ بالقريب السهل من الطاعة، وتكاليف الدين، وترك الشاق الصعب منها، بل الواجب الأخذ بالجميع على سواء.

٢. ترك كثرة الحلف ووضع الإيمان فى موضعها الصحيح، وتجنب اليمين الغموس التى يحلف بها الإنسان وهو معتقد كذب نفسه والتى تغمس صاحبها فى الغار، وقيل ذلك تغير الديار بلا منع.

٣. عدم الاستئذان فى مباشرة المعروف، والقيام بأى نوع من أنواع البر، بل أقدم عليه وأسرع إليه، وخير البر عاجله.

٤. عدم التردد والتلكؤ وتقديم رجل وتأخير أخرى فى مباشرة مهام الأعمال ولاسيما بين الخير منها، بل ينبغى العزم والحزم والحسم فى الأمور كلها بعد الاستخارة والاستشارة فى الغامض منها.

٥. مشاركة المؤمنين احساسا وشعورا فيما يسرهم، وبحزنهم وأن العكس من ذلك هو امارة النفاق.

٦. وجوب التوكل على الله حق توكله، والإلتجاء إلى الله فى كل ما يعرض للمسلم من ملمات، وعدم الخوف إلا منه سبحانه.

٧. جواز الإجتهاد من الأنبياء، وجواز خطئهم فيه، إلا إنهم لا يقرون على الخطأ.

٨. محاسبة النفس ولاسيما بالنظر فى أمر الصلاة، ليرى هل صلاته صلاة المؤمنين أم صلاة المنافقين يقوم إليها كسالانا؟

٩. دلت آية (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) على الزجر عن الإرتكان إلى الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتخار بها.

١٠. كما دلت على بطلان القول بالأصلح، لأنه أخر أن اعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والأمانة على الكفر، ودلت كذلك على إرادة الله تعالى المعاصى، لإن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه، وكذا إرادة الأمانة على الكفر.

١١. (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) دلت هذه الآية على أن شيئا من أعمال البر لا يكون مقبولا عند الله مع الكفر بالله.

١٢. وعلى أن الصلاة لازمة للكافر، ولولا ذلك لما ذمهم الله تعالى على فعلها على وجه الكسل.

١٣. وعلى أن الواجب أن تكون النفس طيبة عند أداء الزكاة والإنفاق فى سبيل الله، لأن الله تعالى ذم المنافقين لكراهيتهم الانفاق، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام «أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم» فإن أداها وهو كاره لذلك كان من علامات الكفر والنفاق، وحاصل هذا يدل على أن روح الطاعات الإيتان بها لغرض العبودية والإنقياد فى الطاعة فإن لم يؤت بها لهذا الغرض فلا فائدة فيها، بل ربما صارت وبالا على صاحبها.

١٤. والآية أدل دليل على أن أفعال الكافر إذا كان برا كصلة الرحم وجبر الكسير واغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة، بيد أنه يطعم بها فى الدنيا، دليله ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه ؟قال «لا ينفعه، انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» وروى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها» وهذا نص.

ثم قيل: هل بحكم هذا الوعد الصادق لابد أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته فى الدنيا، أو ذلك مقيد بمشيئة الله المذكورة فى قوله (عجلنا فيها ما تشاء لمن تريد)[٣٦] وهذا هو الصحيح من القولين.. وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب ظن الكافر، وإلا فلا يصح منه قربة، لعدم شرطها المصحح لها وهو الإيمان، أو سميت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا قولان أيضا.

فإن قيل.. فقد روى مسلم عن حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أى رسول الله، أريأت أمور كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أسلمت على ما أسفلت من خير» قلنا: قوله «اسلمت على ما اسلفت من خير» مخالف ظاهره للأصول، لأن الكافر لا يصح منه التقرب لله تعالى، فيكون مثابا على طاعته، لأن من شرط المتقرب أن يكون عارفا بالمتقرب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط، فكان المعنى فى الحديث: انك اكتسبت طباعا جميلة فى الجاهلية صحة المشروط، فكان المعنى فى الحديث: انك اكتسبت طباعا جميلة فى الجاهلية اكسبتك عادة جميلة فى الإسلام، وذلك أن حكيما رضى الله عنه عاش مائة وعشرين سنة: ستين فى الإسلام وستين فى الجاهلية فأعشق فى الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير، وكذلك فعل فى الإسلام، وهذا واضح .. وقد قيل: لا يبعد فى كرم الله أن يثنيه على فعله ذلك بالإسلام كما يقط عنه ما ارتكبه فى حال كفره من الآثام، وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافرا، وهذا ظاهر الحديث، وهو الصحيح إن شاء الله.

وليس عدم شرط الإيمان فى عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم أسلم ومات مسلما بشرط عقلى لا يتبدل، والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه، وقد تأول الحربى الحديث على هذا المعنى فقال: أسلمت على ما أسفلت، أى ما تقدم لك من خير عملته فذلك لك كما تقول: أسلمت على ألف درهم أى على أن أحرزها لمدنه.

فإن قيل: فقد روى مسلم عن العباس قال قلت يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال«نعم وجدته فى غرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح».. قيل له: لا يبعد أن يخفض عن الكافر بعد العذاب بما عمل من الخير، لكن مع انضمام شفاعة: كما جاء فى أبى طالب، فأما غيره فقد أخبر التنزيل بقوله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)[٢٧] وقال مخبرا عن الكافرين (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)[٢٨] وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال (لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح[٢٩] من النار يبلغ كعبيه يغلى من دماغه) من حديث العباسى..(ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار).. من القرطبى صـ٢٠٠ ـ ٢٠٠٢.

الهوامش

١) العرض.. ما يعرض للمرأ من منفعة ومتاع مما لا ثبات له ولا بقاء

قريبا.. قريب المكان أو المنال ليس فى الوصول إليه كبير عناء، قاصدا.. وسطا لا مشقة فيه ولا كلال، الشقة.. الناحية أو المسافة التى لا تقطع الا بتكبد المشقة والتعب.

٢) رواه مسلم

٣) الأنفال ٦٧

٤) التقدير لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فى أن يجاهدوا، أو فى التخلف كراهة أن يجاهدوا، مثل (يبين الله لكم أن تضلوا) أى لا يستأذنوك فى الخروج ولا فى القعود بل إذا أمرت بشىء ابتدروه.

٥) سورة الحجرات ١٥

٦) التوبة ٩١، ٩٢

٧) هيعة: صيحة لقتال أو فى قتال. فزعة: دعوة للاغاثة والنصر. فى مظانة: المواضع التى يظن انه يلقى القتل والموت فيها.

٨) عدة: من الزاد والراحلة وغير ذلك مما يعد لهذا السفر البعيد. وتركهم العدة.. دليل على انهم أرادوا التخلف، أو هو اشارة إلى انهم كانوا مياسير قادرين على تحصيل الأهبة والعدة. الانبعاث: الانطلاق فى الأمر. التثبيط: التعويق عن الأمر والمنع منه بالتكسيل أو التخذيل، ولم ترد فى التنزيل إلا فى هذه الآية.

٩) هذا التفات عن خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم إلى خطاب جماعة المؤمنين الذين معه، والاستثناء أما متصل أى ما زادوكم شيئا من الأشياء إلا خبالا، وأما منقطع أى ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال. والخبال: الشر والفساد فى كل شىء، ومنه يسمى العته بالخبل، وقال الراغب: هو الفساد الذى يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون والمرض المؤثر فى العقل والفكر، أى الإشراء أو ضرا أو غيا أو مكرا أو غدرا أو فسادا أو ضعفا أو اضطرابا. خلالكم: فيما بينكم: وأصله من الخلل وهو الفرجة بين الشيئين، وجمعه خلال. ومنه «فترى الودق يخرج من خلاله» يبغونكم أى يبغون لكم، أى يطلبون الفتنة، وهى افتراق الكلمة أو الافساد أو الشرك.

١٠) واللام على الأول للتقوية مثل «فعال لما يريد» وعلى الثانى للتعليل، وضعف الثانى المنار قال: وهو بعيد، وان رجحه الطبرى وقدمه الزمخشرى، لأن أولئك المنافقين، لم يكونوا معروفين متميزين بحيث تكون منهم هيئة مجتمعة فى الجيش تتخذ الجواسيس لتنظيم عملها. تفسير المنار جـ١٠ صـ٤٧٣

١١) الطبرى جـ١٤ صـ٢٨٦

١٢) تقليب الأمر: تصريفه وترديده لأجل التدبر والتأمل فيه يعنى: اجتهدوا فى الحيلة عليك والكيد بك.
١٣) وكان من بنى سلمة، فقال لهم النبى «من سيدكم يا بنى سلمة؟ فقالوا الجد ابن قيس: على ما أنا نبخله - وفى رواية: غير أنه بخيل جبان - فقال النبى صلى الله عليه وسلم «وأى دواء أدوأ من البخل؟ ولكن سيدكم القشى الأبيض الجعد، بشر بن البراء بن معرور» أخرجه الصحيح والطبرى.. ولذا قال حسان بن ثابت فيه:

وسود بشرا ابن البراء لجودة.. وحتى لبشر بن البرا أن يسودا
إذا ما أتاه الوفد اذهب ماله.. وقال خذوه اننى عائد غدا

١٤) قال المهدوى.. والأصفر رجل من الحبشة وكانت له بنات لم يكن فى وقتهن أجمل منهن وكان ببلاد الروم.. وقيل سوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكن صفرا.
١٥) النساء آية ١٤٠
١٦) بأن يراد من جهنم أسبابها من الكفر والفتنة التى سقطوا فيها
١٧) البقرة آية ٨١
١٨) الأنفال ٣٩: ٤٠
١٩) محمد ١٠، ١١
٢٠) الأعراف ١٢٨
٢١) الأحزاب ٦٠
٢٢) المراد بالفسوق: الخروج من دائرة الإيمان الذى هو شرط لقبول الأعمال مع الاخلاص، وهو كثير الاستعمال فى القرآن، وتخصيصه بالمعاصى من اصطلاح الفقهاء. وخرج قوله (انفقوا طوعا أو كرها) مخرج الأمر ومعناه الخبر والعرب تفعل ذلك فى الأماكن التى يحن فيها «ان» التى تأتى بمعنى الجزاء، كما قال تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وقول الشاعر أسيىء بنا أو أحسنى. فهو فى لفظ الأمر ومعنى الخبر، أى أن انفاقكم طائعين أو مكرهين سيان فى عدم القبول. وسمى الإلزام اكراها لأنهم منافقون فكان إلزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه.
٢٣) حاصله أن المراد به طواعية المصلحة أو الطبع، لا طاعة الشرع، وقد يقال: إن الترديد بين الطوع والكره فى مثل هذا التعبير لا يقتضى اثبات وقوع كل منهما، وإنما المراد منه انه مهم يكن الواقع فهى غير مقبولة لوجود الكفر المانع من القبول.
٢٤) المائدة ٢٧
٢٥) ابراهيم ١٨
٢٦) النساء ١٤٢
٢٧) البقرة ٨٥
٢٨) البقرة ٩٦
٢٩) فى الآية محذوف كأنه قيل: إنما يريد الله أن يملى لهم فيها ليعذبهم، أو اللام بمعنى «أن» مثل يريد الله ليبين لكم.
٣٠) سورة طه ١٢١
٣١) الرازى جـ٤ صـ٦٦٤
٣٢) المنار جـ١٠ صـ٤٨٤
٣٣) الفرق: الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وادراكه. الملجأ: المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليلوذ به ويكون مأمنه مما يخاف من حصن أو قمة جبل أو قلعة أو جزيرة فى بحر.
المغارة: النقرة فى الجبل تلجأ إليها الهوام والحشرات فرارا من الخطر الذى يتربص بها فى ضوء النهار.
المدخل: السرب فى الأرض يدخله الإنسان بشقة، مفتعل من الدخول.
الجماح: السرعة الشديدة التى تتعسر مقاومتها أو تتعذر، فمعنى يجمحون: يفرون ركنا مسرعين.
٣٤) البقرة ١٤
٣٥) المنافقون١
٣٦) الاسراء ١٨
٣٧) سورة المدثر ٤٨
٣٨) سورة الشعراء آية ١٠٠، ١٠١
٣٩) الضحضاح فى الأصل مارق من الماء على وجه الأرض، ما يبلغ الكعبين. فاستعاره للنار.

الفصل الثانى

حملة مسعورة من ايذاء المنافقين للرسول والقرآن

النفاق ضروب كثيبة، والمنافقون وجوه متعددة، وعلى طريق النفاق انماط مختلفة من المنافقين، كل له لون بل ألوان يعيش بها فى الناس، ويلقاهم باللون الذى يناسب الحال الداعية إليه.. فالمنافق هو فى الشر أمة وحده، لكثرة ما يلبس من وجوه، وما يتخذ من صور وأشكال ولهذا نجد القرآن الكريم يقلب هؤلاء المنافقين على وجوههم المختلفة، ويعرضهم فى ألوانهم وازيائهم المتعددة فيقول جل شأنه فى أكثر من موضع (ومنهم) مشيرا إلى طائفة من طوائف المنافقين، وفاضحا لفعلة من فعلائهم فهم أكوان وليسوا كونا واحدا، وهم أبعاض من هذا الجسد المتضخم من الفساد والعفن الذى يضمهم ويشتمل عليهم.. ولذلك فإن سياق سورة النوبة يستمر فى الحملات التفتيشية على المنافقين، ويشن الهجوم عليهم مرة أخرى لما يند منهم من أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها فلا يستطيعون.. فمنهم من يلمز النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات، ويتهم عدالته فى التوزيع، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم، ومنهم من يقول: هو أذن يستمع لكل قائل، ويصدق كل ما يقال، وهو النبى الفطن البصير المفكر المدبر الحكيم، ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة حتى اذا انكشف امره استعان بالكذب، والحلف ليبرىء نفسه من تبعة ما قال، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين.

والقرآن فى ذلك كله يكشف عن حملاتهم المسعورة، وايذائهم المتواصل، وتهمهم الباطلة، يفندها ويرد عليها ويبين عقابها الاليم، ثم يحذر المؤمنين التأثر بها، ويعلمهم الأدب مع الدسول.. أدب النفس وأدب اللسان، وأدب الايمان، ويرشدهم إلى الحرص على رضا الله وإن لم يرض الناس وإلى الخوف من الله لا الخوف من الناس.

قال الله عز وجل: (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون.. ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون.. إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم.. ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن، قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين امنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم.. يحلفون بالله

لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه أن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها، ذلك الخزى العظيم، يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم، قل استهزئوا أن الله مخرج ما تحذرون. ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين).

طعن المنافقين على النبى فى التوزيع

ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)

سبب نزول الآية والتعقيب عليه:

وقد وردت روايات متعددة عن سبب نزول هذه الآية تقص حوادث معينة عن أشخاص باعيانهم لمزوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدالة التوزيع..

روى البخارى والنسائى عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسما اذ جاءه ذو الخويصرة التميمى [1] فقال: اعدل يا رسول الله فقال: ويلك! ومن يعدل اذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ائذن لى فأضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له اصحابا يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرميه... قال أبو سعيد: فنزلت فيهم ومنهم من يلمزك فى الصدقات وروى ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لما قسم النبى صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلا يقول: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال: رحمة الله على موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر "ونزل" ومنهم من يلمزك فى الصدقات

وروى سعيد وابن جرير عن داود ابن ابى عاصم قال: أوتى النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسمها ها هنا وهاهنا حتى ذهبت وراه رجل من الانصار فقال: ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية..

وقال قتاده فى قوله "ومنهم من يلمزك فى الصدقات" يقول: ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بإعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم، وهو يقسم ذهبا وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم: "ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى؟ ثم قال نبى الله صلى الله عليه وسلم" احذروا هذا واشباهه فأن فى أمتى اشباه هذا يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فأقتلوهم ثم اذا خرجوا فأقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم"

وذكر لنا أن نبى اليه صلى الله عليه وسلم كان يقول" «والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا امنعكموه ، إنما أنا خازن"»

تعقيـب:

نرى من خلال الروايات السابقة أن رجلا من المنافقين يرى النبى صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم هوازن بعد غزوة حنين، ويتألف بها من يتألف من الذين دخلوا فى الإسلام بألسنتهم ولما يدخل الايمان فى قلوبهم، يرى ذلك فلا يستطيع أن يغالب نفاقه، ولا أن يمسك ما انطوت عليه نفسه من اتهام لرسول الله، فيقول - والرسول بين يدى صحابته، وعلى رأس الجيش الظافر الغانم - يقول له: يا رسول الله أعدل.. وهل يتفق قوله: يا رسول الله، ثم قوله لرسول الله: أعدل؟ وهل يكون من رسول الله غير العدل؟ ولكنه جهل الجاهلين وضلال الضالين، ولا يجد الرسول ما يقوله لهذا السفيه ذى القولة الآثمة الفاجرة، الا تلك الكلمة الوديعة الوادعة المشرقة:«ومن يعدل اذا لم أعدل؟» فأى عدل يبقى فى هذه الدنيا اذا لم يكن إلى يد الرسول ميزان العدل كله؟ واذا لم يعدل الرسول فمن يعدل بعده؟ ونرى بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يهمون بتأديب هذا السفيه الاحمق الجهول، فيمنعهم رسول الله مظهرا معجزة من معجزات النبوة، وهى أن أصحاب هذا المنافق هم من الخوارج الذى يمرقون من الدين، وقد ظهروا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وبانت فيهم كل العلامات التى تحدث عنها الرسول الكريم..

وليس ذو الخويصرة هذا الذى يقال إنه صاحب هذه الكلمة المهلكة ليس وحده الذى كان على هذا الضلال الذى انطقه بما نطق به، وإنما كان هناك غيره كثير من الذين يرون ما يرى، ولكنهم لم يظهروا ما بأنفسهم وطووا صدورهم على ما فيها من زيغ وضلال، وإنما نظم ذو الخويصره وامثاله فى سلك المنافقين مع أنه زيغ وضلال، وإنما نظم ذو الخويصره وامثاله فى سلك المنافقين مع أنه صرح بما كان يضر من كفر وضلال - على حين أن النفاق انما يكون نفاقا اذا كان صاحبه على ظاهر هو خلاف الباطن - نقول: إنه عد فى المنافقين هو وأمثاله لأن النفاق فى الواقع هو كفر مضمر، وكون المنافق يفضحه نفاقه بين الحين والحين فينكشف منه بعض ما أضمره، لا يرفع ذلك عنه صفة النفاق، فإنه اذا اظهر بعضا من كفره فإن ما أخفى من هذا الكفر أكثر وأعظم ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر" [٢] فالمنافق منافق وكافر معا.

وهناك روايات أخرى يدل مجموعها على أن هذا القول قاله أفراد من المنافقين، وكان سببه حرمانهم من العطية فى الغنائم، وكانوا من الأنصار، ولكن الآية نص فى قسمة الصدقات.. فجعل قسمة الغنائم سبب لنزولها من جملة تساهلهم فيما يسمونه (أسباب النزول).

وعلى أية حال فالنص القرآنى يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين، يقولونها لا غيرة على الدين ولكن غضبا على حظ أنفسهم، وغيظا أن لم يكن لهم نصيب، وهى آية نفاقهم الصريحة، فما يشك فى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمن بهذا الدين، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين. والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين، فضلا عن بنى المؤمنين.

وواضح أن هذه النصوص تحكى وقائع وظواهر وقعت من قبل، ولكنها تتحدث عنها فى ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفى ثناياها.

معنى الآية:

كان المنافقون يترقبون الفرص للصد عن الاسلام، وبعضهم يريد أن يشوه جمال الاسلام بالطعن على النبى صلى الله عليه وسلم وايراد الشبه التى يظنون انها توقع الريب فى قلوب ضعفاء الايمان من الجانب الذى يوافق اهوائهم.. ومنها تقسيم الغنائم والصدقات، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرى اعطاء المؤلفة قلوبهم، وعندئذ يظهر ضرب من نفاق المنافقين، وينكشف وجه من وجوههم المنكرة، ويلوح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم، فمن هؤلاء المنافقين من يغمزك - يا رسول الله - بالقول، ويطعن عليك فى قسمة الصدقات - وهى أموال الزكاة المفروضة - ويعيب عدالتك فى التوزيع، ويدعى زاعما أنك تحابى فى قسمتها، وهم لا يقولون ذلك غضبا للحق ولا حماسة للعدل، ولا غيرة على الدين.. انما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم،وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم «فأن أعطوا منها رضوا» ولم يبالوا الحق والعدل ولادين وأن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون[٣] لاهم لهم ولا حظ من الاسلام الا المنفعة الدنيوية كنيل الحطام، وهذا دأب المنافقين فى كل زمان ومكان، كما نراه بالعين حتى من مدعى كمال الايمان والعلم والعرفان.

قال الضحاك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله من قليل المال وكثير وكان المؤمنون يرضون بما يعطون ويحمدون الله عليه، وأما المنافقون فإن اعطوا كثيرا فرحوا، وإن اعطوا قليلا سخطوا، وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لأجل الدين، فليس نقدا بريئا، ولكنه لغرض حقير، وهو يدل على ركاكة اخلاقهم، ودناءة طباعهم، وذلك أنهم لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات عابوا الرسول فنسبوه إلى الجور فى القسمة، مع أنه كان أبعد خلق الله عن الميل إلى الدنيا.

الأدب اللائق بالمؤمنين

وبهذه المناسبة يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادق الايمان.. وهو أدب النفس وأدب اللسان وأدب الايمان، وهو الرضا بقسمة الله ورسوله.. رضا التسليم والإمتناع لا رضا القهر والغلب، والإكتفاء بالله، والله كاف عبده والرجاء فى فضل الله ورسوله والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ومن كل طمع دنيوى.. ذلك أدب الايمان الصحيح الذى ينضح به قلب المؤمن، وأن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين الذين لم تخالط بشاشة الايمان أرواحهم، ولم يسر فى قلوبهم نور اليقين..

(ولو أنهم رضوا ما آتهم الله وروسوله وقالوا: حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، انا إلى الله راغبون)..[٤] ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من فضله بما انعم عليهم من الغنائم وغيرها واعطاهم رسوله بقسمه للصدقات والغنائم كما أمره الله تعالى وطلبت نفوسهم وأن قل، وقالوا: الله حسبنا وكافينا فى كل حال، سيرزقنا الله ويعطينا من فضله فى المستقبل من

الغنائم والكسب، لأن فضله دائم لا ينقطع، ويعطينا رسوله مما يأتيه من الغنائم والصدقات زيادة على ما أعطانا من قبل، لا يبخس أحدا منا حقا يستحقه فى شرع الله تعالى.. إنا إلى الله راغبون لا نرغب إلى غيره فى شيىء لأنه بيده ملكوت كل شيىء، فإليه تتوجه ومنه ترجو أن يبسط لنا فى الرزق بما يوفقنا له من العمل ويهبه لنا من النصر لكان خيرا لهم من الطمع فى غير مطمع، ولمز الرسول المعصوم من كل ملمز ومهمز.

ما يؤخذ من الآيتين

١ـ تهديان المؤمن إلى القناعة بكسبه، وما يناله بحق من صدقة ونحوها..

٢ـ وبأن يوجه قلبه إلى ربه، ولا يرغب الا إليه فى شيىء من رغائبه التى وراء كسبه وحقوقه الشرعية، لا إلى الرسول ولا إلى من دونه فضلا وعدلا وقربا من الله تعالى بالأولى، فتعسا لعباد القبور، والراغبين إلى من دفن فيها فى مهمات الأمور.

٣ـ فيهما بيان لما ينبغى أن يكون عليه المسلمون جميعا ازاء كل ما يقول الرسول أو يعلم وهو الرضا المطلق والتسليم المطلق بكل ما يقضى به.. فهو صلى الله عليه وسلم الأمين الذى ائتمنه الله على دين الله والقيم الذى اقامه الله على عباد الله، وإنه صلى الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى، ولا يحكم إلا بما اراه الله، فمن آمن بالله فلن يكون مؤمنا حتى يؤمن بما يقضى به رسول الله.

٤ـ قال الرازى [٥]: والآية تدل على أن من طلب الدنيا (يعنى أقبل عليها بكليته) آل أمره فى الدين إلى النفاق وأما من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله فيه، وكان غرضه من الدنيا أن يتوصل إلى مصالح الدين ويكون راضيا بقضاء الله، فهذا هو الطريق الحق.

٥ـ وقال ابن كثير [٦] : تضمن هذه الآية أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله«وقالوا حسبنا الله» وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق اخباره، والإقتفاء بآثاره.

٦ـ وفى ذكر الرسول الكريم مرتين فى هذا الموضوع مع ذكر الله سبحانه وتعالى ما يكشف عن مقام الرسول الكريم عند ربه، ويؤكد منزله الرفيعة عنده، فما أعظم هذا الفضل العظيم، وما أسمى هذا المقام الكريم، لهذا النبى الذى يحفه ربه بهذا الفضل ويرفعه إلى هذا المقام، الذى يشرف منه مع ربه على الناس ويعطيهم من فضل الله ما يعطيهم ويغنيهم، وما أشقى أولئك الذين يحادون هذا الرسول أويخالفون عن أمره، أو يقع فى نفوسهم ريب فى قول يقوله أو فعل يفعله.

لم وقعت آية الزكاة فى تضاعف ذكر المنافقين؟

١ـ ويعد بيان هذا الادب اللائق فى حق الله وحق رسوله، تطوعا ورضا واسلاما، يقرر أن الأمر مع ذلك ليس أمر الرسول وانما هو امر الله وفريضته وقسمته، وما الرسول فيها الا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين، فهذه الصدقات ـ أى الزكاة ـ تؤخذ من الأغنياء

فـريضـة مع الله، وترد على الفـقـراء فـريضـة من الله وهـى مـحـصـورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن، وليست متروكة لإختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم.

«إنما الصـدقـات للفـقـراء والمسـاكين، والعـاملين عليـهـا، والمؤلفـة قلوبهم، وفى الرقـات والغارمين، وفى سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم»..

٢ـ وايضا: لما كان طمع البشر فى المال لاحد له، وقد يكون الغنى أشد طمعا فيه من الفقير، وكان ضعيف الإيمان لا يرضيه قسمة الرسول المعصوم له إذا لم يعطه ما يرضى طمعه، وكان غير المعصوم من أولياء الأمور ومن الأغنياء عرضة لإتباع الهوى فى قسمة الصدقات.. فبين الله تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، ولا تعلق للرسول بها، ولا هو آخذ لنفسه نصيبها منها.. وهى حجة على من لمز النبى صلى الله عليه وسلم من المنافقين بعدم اعطائهم منها، وهم ليسوا منهم ـ وقاطعة لاطماعهم، وأطماع أمثالهم، ومشعرة بأنهم بعداء عنها، وعن مصارفها، فمالهم وماله؟ وما سلطتهم على التكلم فيها ولمز قاسمها؟

٣ـ وأيضا: هذه الآية بيان مصاحب لما وقع فى نفوس المسلمين من قسمة غنائم هوازن، والتى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تألف بها بعض النفوس التى كانت تعادى الإسلام، وتحقد على رسول الله ان كان هو المبعوث المتخير للتبليغ من الله.. وقد اشتمل هذا البيان فيما اشتمل عليه ممن لهم نصيب فى الصدقات ـ المؤلفة قلوبهم، الذين كان منهم من تألفه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما فعله فى غنائم هوازن، وفى اقتطاع قدر منها لمن اراد أن يتألف قلوبهم: كان منفذا لأمر الله، ولم يكن فيما قضى به من ذلك منقادا لهوى، أو مؤثرا لقرابة، أو صدقاة وحاشاه صلى الله عليه وسلم!

وبعد بيان مناسبة هذه الآية لما قبلها أحسبنا قادرين على الاجابة عن هذا السؤال: لم وقعت هذه ا لآية فى تضاعف ذكر المنافقين؟

أما الحديث بالتفصيل عن هذه الآية فسيأتى ـ إن شاء الله ـ مع قوله تعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» وقوله «والذين يكنزون الذهب والفضة» فى فصل معقود خصيصا لهذه الآيات، هو الفصل الرابع من (باب بين الأبواب).. وانما صنعت ذلك لمضى مع آيات المنافقين التى هو موضوع فصلنا.

أذى المنافقين للنبى والرد عليهم

وبعد بيان قواعد الصدقات التى يرجع إليها التوزيع والتقسيم، ذلك البيان الذى يكشف عن جهل الذين يلمزون الرسول صلى الله عليه وسلم، فوق سوء أدبهم حين يلمزون الرسول الأمين.. بعد هذا يمضى السياق فيعرض صنوف المنافقين وما يقولون وما يفعلون.. فهذا صنف من أصنافهم، ووجه من وجوهم النكرة، صنف يتخذ من الإستهزاء بالنبى والسخرية منه مادة يطعن منها فى شراهة، ونهم ليشبع بذلك جوعا مسعورا من الحقد على الإسلام، والشنآن له وللرسول الذى حمل رسالته، وقد ضبط القرآن الكريم هذه الجماعة الآثمة، وهى قائمة على هذا الاثم

تلوكه فى أفواههم المنكرة كما تلوك الكلاب قطعا من العظم الرميم، فكان ذلك فضحا لهم على الملأ، وخزيا متنقلا معهم فى كل مكان، ينادى عليهم بالذلة، والمهانة، والصغار!

«ومنهم الذين يؤذون النبى، ويقولون: هو أذن، قل: أذن خير لكم.. يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم».

سبب النزول:

أخرج ابن اسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنها نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلا آدم أحمر العينين اسفع الخدين مشوه الخلقة، وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد اذن، من حدثه شيئا صدقه، نقول أى شيىء ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم «من اراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث».

وفى الرازى[٧]: قال ابن عباس: إن جماعة من المنافقين ذكروا النبى صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغى من القول، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فانا نخاف أن يبلغه ما تقول، فقال الجلاس بن سويد: بل نقول ما شئنا ثم نذهب إليه ونحلف إنا ما قبلنا فيقبل قولنا وانما محمد اذن سامعة، فنزلت هذه الآية.

ولكن منطوق هذه الآية يسند هذا القول إلى جماعة منهم وهو أقرب، وأن كان الإسناد إلى الجماعة يصدق بقول واحد واقرار الباقين.. والأول مروى عن السدى عند أبى حاتم.. وفى الرازى عن الحسن قال: اجتمع ناس من المنافقين يقولون: ماهذا الرجل الا أذن، من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له[٨] وقالوا.. إنما محمد، أذن، ولو لقيته وحلفت له ليصدقنك، فنزلت هذه الآية.

والمعنى: ضرب آخر من دلائل نفاق أولئك المنافقين وآثاره.. وهو ايذاء الرسول بالطعن فى أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة، أنه سوء الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم يبدو فى صورة أخرى غير صورة اللمز فى الصدقات أنهم يجدون النبى صلى الله عليه وسلم أدبا رفيعا فى الإستماع إلى الناس بإقبال وسماحة، ويهش لهم ويفسح لهم عن صدره، ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته وأحكامها، وآدابها التى يعامل بها عامة المسلمين، كما أمره الله تعالى ببناء المعاملة على الظواهر.. فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه، ويصفونه بغير حقيقته، ويقولون أذنه لكل قائل يلقى فيه ما يقول له ثم يصدقه من غير فرق بين ما يليق بالقبول وما لا يليق يجوز عليه الكذب والخداع، والبراعة، ليس له ذكاء ولا بعد غور ولا يفطن إلى غش القول وزوره.. بل هو سليم القلب، سريع الإغترار بكل ما يسمع، من حلف له صدقهو ومن دس عليه قولا قبله.

ما الدافع لهذا القول؟

١- يقولون هذا بعضهم لبعض تطمينا لأنفسهم أن يكشف النبى صلى الله عليه وسلم حقيقة أمرهم أو يفطن إلى نفاقهم، فكلمات النفاق الكاذبة التى يلقونها بين يديه صلى الله علسه

وسلم ويحلفون عليها كذبا وزورا.. هذه الكلمات يخيل إليهم أن النبى الكريم - اذ يقبلها منهم أو يسكت عليها فلا يبهتهم بها أنه - يحمل كلماتهم الكاذبة المنافقة تلك محمل الصدق.

٢- أو يقولونه طعنا على النبى فى تصديقه للمؤمنين الخلص الذى ينقلون له مايطلعون عليه من شئون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين وقد وردت الروايات بهذا وذاك فى سبب نزول الآية، وكلاهما يدخل فى عمومها، وكلاهما يقع من المنافقين ولهذا فهم يقولون فى النبى هذا القول المنكر (هو أذن)

طريقة القرآن فى الرد والدفاع

ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه ردا عليهم يما يكبتهم ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا (ويقولون هو أذن) نعم ولكن (قل أذن خير لكم) [٩] لا كما تزعمون

اذن خير يستمع إلى الوحى ثم يبلغه لكم وفيه خيركم وصلاحكم، وأذن خير يستمع إليكم فى أدب ولايجهمكم بنفاقكم ولا يرميكم بخداعكم ولا يأخذكم بريائكم، وأذن خير لا يقبل مما يسمعه الا الحق وما وافق الشرع ومافيه الخير والمصلحة للخلق.. وليس باذن فى غير ذلك، كسماع الباطل والكذب والغيبة والنميمة والجدل والمراء، فهو لا يلقى سمعه لشىء من ذلك واذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله، ولا يصدق مالا يجوز تصديقه شرعا أو عقلا، كما هو شأن من يوصفون بهذا الوصف من الملوك والزعماء فيستعين المتعلقون وأصحاب الاهواء به على السعاية عندهم لابعاد الناصحين المخلصين عنهم، وحملهم على أيذاء من يبقون ايذاءه.

وفى هذا الرد أمور:

١- منها.. أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المأمور بتبليغ هذا الرد السماوى بقوله تعالى (قل) وفى هذا تكريم للنبى بوضع هذا السلاح السماوى فى يده ليضرب به فى وجه هؤلاء الذين آذوه بهذا المنكر من القول الذى قالوه عنه.

٢- ومنها الإشارة للنبى الكريم بضمير الغيبه (هو) وظاهر النظم يقضى بأن يكون النبى هو المتحدث عن نفسه هكذا (قل أنا أذن خير لكم) وفى هذا اشارة إلى أن الذى يتولى الدفاع عن النبى هو الله سبحانه وتعالى، وأنه اذا كان النبى فى غير محضر من هؤلاء الذين يقولون فيه هذا القول المنكر فإن الله سبحانه وتعالى هو وليه، وهو الذى يدافع عنه، ويفضح المتآمرين عليه.

٣- ومنها ما تضمن هذا الرد من أن النبى هو خير لهؤلاء المنافقين، فكيف هذا وهم فى معرض العقاب والتقريع؟

والجواب على هذا - والله أعلم - أنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بالهدى والرحمة، وأن اذنه التى يعيبها اولئك المنافقون بتصديق ما يلقى اليها من اخبار، هى اذن خير ووعاء رحمة تتلقى ما ينزل اليها من كلمات الله وآياته فننقله إلى الناس ونؤديه لهم كما سمعته.. فاذن الرسول هى وعاء خير خالص للناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم.. ذلك أن

الرسول يؤذن بكلمات ربه التى سمعها من الروح الأمين . يؤذن بها فى الناس جميعا . فمن سمع وعقل ووعى فقد أخذ لنفسه بحظها من هذا الخير العام وتلك الرحمة الشاملة، ومن أصم اذنيه وأعرض عن آيات ربه فقد حرم نفسه الخيركله وأورده الضلال والهلاك.

فلو أن هؤلاء المنافقين استمعوا لكلمات الله ولم يمكروا بها لكان لهم ذلك الخير كل الخير ولكنهم نافقوا ومكروا فمكر الله بهم وحرمهم أن ينالوا من تلك النعمة شيئا.

وقرء: (أذن خير) بتنوين أذن وجعل (خير) خبرا له بمعنى قل من يسمع منكم أيها المنافقون ما تقولون ويصدقكم، أن كان محمد كما وصفتموه من أنكم اذا اتيتموه فأنكرتم ما ذكر له عنكم من اذاكم اياه وعيبكم له سمع منكم وصدقم، خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل منكم ما تقولون.

توضح المراد من أذن خير:

ثم فسرالمراد من (اذن خير) بأفضل الخير وأعلاه مما يكشف عن صفات هذا الرسول الكريم الذى يقول فيه المنافقون هذا القول المنكر.. «يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا منكم»(١٠)

١ـ يصدق بالله تعالى فيما يوحيه إليه ويخبره به عنكم وعن سواكم، وهو الخبر القطعى الصدق الذى لا يحوم حوله الشك.

٢ـ ويصدق تصديق ائتمان وجنوح للمؤمنين الصادقى الايمان الذين برهنوا على صدقهم بجهادهم معه فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فهو يطمئن إليهم، ويثق بهم، ويصدق أخبارهم لا لذاتها بمجرد سماعها، بل لما عليه من آيات ايمانهم الذى يوجب عليهم الصدق، ولا سيما الصدق فيما يحدثونه به، ويعصمهم عن الكذب، والالتواء والوباء.. ويتضمن هذا أنه لا يؤمن لهؤلاء المنافقين ايمان تسليم وائتمان، ولا يصدقهم فى اخبارهم وان وكدوها بالايمان، كما ظن من قال منهم: هو اذن، اغترارا بلطفه وأدبه صلى الله عليه وسلم، اذ كان لا يواجه أحد بما يكره، وبمعاملاته اياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه، وفى هذا تهديد لهم وتخويف.

٣ـ وهو رحمة للذين اظهروا الايمان منكم أيها المنافقون، حيث يقبله منكم.. لكن لا تصديقا لكم فى ذلك، بل رفقا بكم وترحما عليكم، ولا يكشف اسراراكم، ولا يهنك استاركم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين أو هو رحمة للذين آمنوا منكم ايمانا صحيحا صادقا بما جاء به من عند الله، حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، وأخذ بأيديهم إلى الخير، وكان سبب هدايتهم إلى مافيه سعادة الدنيا والآخرة، دون من أظهر الإسلام، وأسر الكفر منافقا فهو نقمة عليه.

ومع هذا فهو اذن خير للمنافقين.. يعاملهم بالحلم وما يقتضيه حكم الشرع من العمل بالظواهر ومنها قبول المعاذير، ولو كان يعاملهم بتقتضى ما يسمح عنهم كما يتقتضيه استعمال كلمة «أدن» لما سلموا من عقابه لأن أخبار السوء عنهم كثيرة، وفى هذا تعريض بهم بأنهم آذان

سوء لا تستمع آذانهم خيرا وأن سمعته تغيرت معالمه فيها، فلا تعرف للحق وجها، ولا تنال من الخير المحمول اليها فيه شيئا.

قال الرازى [11]: فهذه الثلاثة كالموجهة لكونه اذن خير.. أما الأول فلأن كل من آمن، بالله كان خائفا من الله، والخائف من الله لا يقدم على الايذاء بالباطل، وأما الثانى فلأن معناه أنه يسلم للمؤمنين قوله، أى أنهم اذا توافقوا على قول واحد سلم لهم ذلك القول، وهذا ينافى كونه سليم القلب سريع الإغترار، وأما الثالث فلأنه يجرى أمركم على الظاهر ولا يبالغ فى التفتيش عن بواطنكم ولا يسعى فى هتك استاركم.

ثم أنه صلى الله عليه وسلم اذا كان يسعى فى ايصال الخير، والرحمة إليهم مع كونهم فى غاية الخبث والخزى، ويقابلون احسانه بالإساءة وخيراته بالشرور فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله.. (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله وهو تهديد ووعيد لأولئك المنافقين الذين يؤذون رسول الله بتلك الكلمات المنكرة التى يصفون بها الرسول هذا الوصف الشنيع، ويتطاولون بها على مقامه الكريم فى غير حياء من دين أو خلق.. فهؤلاء قد أعد الله لهم عذابا أليما، انتقاما منهم لرسول الله وجزاءا وفاقا لهذا العدوان الآثم على مقامه الكريم.

والآية تدل:

١- على وجوب حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخير الألفاظ الطيبة فى الحديث معه أو عنه.

٢- وعلى أن ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل ينافى الإيمان الذى هو سبب الرحمة فجزاؤه ضد جزائه - وهو العذاب الشديد الإيلام.

٣- وعلى أن ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم كفر اذا كان فيما يتعلق بالرسالة كوصفه بالسحر والكذب وعدم الفطنة، فان ايذاءه فى رسالته ينافى صدق الايمان بطبيعته وأما الايذاء الخفيف فيما يتعلق بالعادات والشئون البشرية فهو حرام لا كفر كايذاء الذين كانوا يطيلون المكث فى بيوته، عند نسائه بعد الطعام، فنزلت فيهم «أن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم» [12] «وماكن لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، أن ذلكم كان عند الله عظيما» [13] ومنه الخوض فى أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيا.

من النفاق الحرص على رضى الناس لا رضى الله

إن من عادة المنافقين والكافرين ومن يرتكبون جرما أن يشعروا بحرج موقعهم، وكأن الناس جميعا مطلعون عليهم عالمون بأحوالهم، ولذلك تراهم يكثرون من الحلف حتى تبتعد عنهم الشبهة المحيطة بهم وتلك عادة المنافقين فى كل زمان.. يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون، من وراء الظهور، ثم يجبنون عن المواجهة ويضعفون عن المصارحة، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم، فماذا يكون الناس؟ وماذا تبلغ قوتهم؟ ولكن الذى لا يؤمن بالله عادة، ولا يعفو له، يعفو لإنسان مثله ويخشاه، ولكن كان خيرا أن يعفو لله الذى يتساوى أمامه الجميع،

ولا يذل من يخضع له إنما يذل من يخضع لعباده.. ولا يصغر من يخشاه، إنما يصغر من يعرضون عنه ويرضون من دونه من عباد الله.. (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين).

سبب النزول:

قيل نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله إلى المينة أتوه واعتذروا وحلفوا فضيهم نزلت الآية وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، ولئن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمر، فسمعها بجل من المسلمين [١٤] فقال: إن ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم لحق، ولأنت شر من الحمار، فسعى بها الرجل إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال: «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله تعالى ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب، فأنزل الله فى ذلك (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) وهذا ليس بحصر، بل المراد أن الآية نزلت فى هذا وأمثاله.

اتخاذ الإيمان جُنة:

وهذا تسفيه لموقف هؤلاء المنافقين الذين يتخذونه من المؤمنين، وقد شعروا بما لم يكونوا يشعرون من ظهور نفاقهم، فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين فى كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول وعمل، خصوصا وبالذات عندما أتوا إليهم معتذرين عما شاع عنهم من قولهم المنكر فى الرسول صلى الله عليه وسلم فهم يدفعون عن أنفسهم هذا الإتهام الذى يتهمهم به المؤمنون بالحلف بالله تعالى كذبا أنهم ما قالوا شيئا يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نقل عنهم.. وهم فى هذا كاذبون منافقون، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا لكان أول ما يعنيهم من أمرهم هو براءة ساحتهم عند الله، وذلك باخلاص إيمانهم وسلامة قلوبهم واخلاء ضمائرهم من النفاق الذى يموج فيها وتوبتهم وموافقتهم لأمره تعالى، وايفاء حقوقه صلى الله عليه وسلم فى باب الإجلال والإعظام حضورا وغية.. فلو أنهم فعلوا هذا لكانوا مؤمنين حقا، ولرضى الله عنهم ورسوله، ولما كان بهم من حاجة إلى استرضاء المؤمنين والإكثار نم الحلف لهم لأن المرء إذا لم يكن ؟؟ عند نفسه لا يجد داعية إلى دفع اتهام هو منه برئ، كما لا يجد داعية إلى الحلف إن هو أراد دفع هذا الاتهام.

لماذا يحرصون على ارضاء المؤمنين، والله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين[١٥]؟ فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه، إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين، ولكن الله لا يخف عليه شيء، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وهو يوحى إلى رسوله من أمور الغيب ما فيه المصلحة.

وفى الآية عبرة للمنافقين فى زماننا هذا وكل زمان.. وهى عبرة بحالهم لمن يراهم يكذبون ويحلفون عند الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به ارضاء الناس ولاسيما الحكام الذين يتقربون إليهم فيما لا يرضى الله تعالى، بل فيه يسخطه من المقصاد التى يتوصلون إليها بأخس الوسائل، وأحقرها ولو على أكتاف البشر وجماجمهم.

مخالفة النظم للسياق:

وفى مخالفة النظم فى قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) لما يقتضيه وهو أن يعود الضمير على الله والرسول هكذا (والله ورسوله أحق أن يرضوهما) فى هذه المخالفة ما يشعر بأن فى رضى الله رضى الرسول، وأن فى رضى الرسول رضى الله سبحانه وتعالى، إذ ليس فيما يرضى الله ما لا يرضى الرسول، ولا فيما يرضى الرسول ما لا يرضى الله..

ولو جاء النظم على ما يقتضيه ظاهر السياق فجاء هكذا: (والله ورسوله أحق أن يرضوهما) لكان من معنى هذا أن لله سبحانه وتعالى ما يرضيه من عباده، وأن للرسول صلى الله عليه وسلم ما يرضيه منهم، وأن هذا الذى يرضى الله، وذلك الذى يرضى الرسول، قد يتفقان وقد يختلفان.. أما الذى جاء عليه النظم القرآنى فإنه لا يدع مجالا لهذا الإحتمال، بل يجعل التوافق تاما مطلقا بين ما يرضى الله وما يرضى رسول الله، وفى هذا - فوق انه تكريم للرسول وتنويه بقدره، وتشريف للرسالة الكريمة التى يحملها - هو اعجاز من القرآن فى أحكام نظمه، وصدق أدائه، ووزن كلماته وحروفه بمعيار لا تستطيع قوة بشرية أن تمسك به، لدقته وعلوه عن مستوى الحواس والمدركات.

ومن جهة أخرى: فإنه لو عاد الضمير على الله والرسول معا لكان فيه إخلال بمقام الألوهية، وتسوية الخالق بمخلوق من مخلوقاته، والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يشاركه فى جلاله بشر، ولو كان أكرم الخلق عليه، فاقتضى هذا المقام أن يجىء الضمير مفردا يعود إلى الله سبحانه، وكفى الرسول شرفا أن يجىء تابعا لله سبحانه فيما يرضيه.. وعلى هذا جاء قوله .. (ان الله برئ من المشركين ورسوله) ولم يجىء النظم هكذا.. (ان الله ورسوله برئيان من المشركين) فهذا وذاك على سواء.

حرب الله ورسوله كبرى الكبائر:

انهم ليدعون الإيمان، ومن يؤمن يعلم أن حرب الله ورسوله كبرى الكبائر، وأن جهنم فى انتظار من يرتكبها من العباد، وإن الخزى هو الجزاء المقابل للتمرد، فإذا كانوا قد آمنوا - كما يدعون - فكيف لا يعلمون أنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ولينفسوا ما بلغهم عنهم، فكيف لا يخشون خالق العباد؟ وهم يؤذون رسوله ويحاربون دينه، فكأنما يحاربون الله (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها، ذلك الخزى العظيم)[١٦].

سؤال للتأنيب والتوبيخ قصد به تهديد بعد تهديد، ووعيد تلو وعيد، لهؤلاء المنافقين الذين يحادون الله ورسوله، ويعلنون هذه الحرب السفيهة على الله ورسوله يتعدى حدود الله، أو بلمز الرسول صلى الله عليه وسلم فى أعماله كقيمة الصدقات، أو فى أخلاقه وشمائله كقولهم: هو أذن، أو بما يذيعون من كلمات السوء مطلقا فى رسول الله، وليس لمن يحارب الله ورسوله - تعالى الله أن يقصده أحد بحرب! إنما هو تفظيع ما يرتكبون من اثم، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة، وتخويف من يؤذون رسول الله ويكيدون لدينه فى الخفاء - إلا أن يصلى عذاب الله يوم القيامة، ويأخذ مكانه فى جهنم خالدا فيها لا مخرج له منها... ذلك الصلى الأبدى هو الذى

النكال العظيم - الذى يتضاءل دونه كل خزى وذل فى الدنيا - للمنافقين حين يساقون إلى جهنم ويدعون فيها دعا .. على حين تفتح أبواب الجنات للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا دينهم له، ولم تحمل قلوبهم نفاقا، ولم تجر على ألسنتهم كلمة منافقة.

كاد المريب أن يقول خذوني:

المنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر، شاكون مرتابون فى الوحى، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الشك والإرتياب يدعوهم إلى الحذر والإشفاق، بل هو لازم له، إذا لو كانوا موقنين بكذب الرسول لما جاء هم الحذر، ولو كانوا مؤمنين حقا لما كان لهذا الخوف والحذر محل.. انهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول والذين معه، وانهم ليخشون أن يكشف الله سترهم وأن يطلع الرسول صلى الله عليه وسلم على نواياهم، وانهم ليحذرون أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيئتهم ويتحدث عما فى قلوبهم، فينكشف للناس ما يخبئونه.

(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبذهم بما فى قلوبهم، قل استهزئوا، إن الله مخرج ما تحذرون)[١٧].

سبب النزول:

أخرج ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبأهم بما فى قلوبهم) قال: يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون عسى أن لا يفشى علينا هذا وفى رواية الطبرى: وقيل إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا شيئا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: لعل الله لا يفشى سرنا، فقال الله لنبيه :(قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون).

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين وكان يقال لها المنبئة أنبأت بمثالبهم وعوراتهم وذكر الرازى رواية عن الحسن دون أن يبين من الذى أخرجها - وهى عادته دائما فى ذكر الروايات، لا يذكر مصدرها ولا مكانها من الصحة أو الحسن أو الضعف - قال: قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافقين على أمرا من النفاق، فأخبر جبريل الرسول بأسمائهم فقال صلى الله عليه وسلم (ان أناسا اجتمعوا على كيت وكيت، فليقوموا وليعترفوا، وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم) فلم يقوموا: فقال صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :(قم يا فلان ويا فلان) حتى أتى عليهم، ثم قال: نعترف ونستغفر، فقال: (الآن؟ أنا كنت فى أول الأمر أطيب نفسا بالشفاعة، والله كان أسرع فى الاجابة، أخرجوا عنى، أخرجوا عنى) فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية.. وذكر الأصم حادثة العقبة، وتدبيرهم لإغتيال الرسول عندها وأن الآية نزلت فيهم[١٨].

معنى الآية:

هذا شأن آخر من شئون المنافقين التى كشفت سوءتهم فيها غزوة تبوك، وهذا نذير لهم وفضح لنفاقهم على الملأ، وكشف ما بيتوا من نفاق، فهم يحذرون أن تنزل على المؤمنين سورة

فى شأنهم - شأن المنافقين - تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم، وتنبئهم بما فى قلوبهم من الأسرار الخفية، فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم خاصة من أقاويل الكفر والنفاق، والمراد أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فينشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة إذاعة ظاهرة، فكأنها تخبرهم بها، وإلا فما فى قلوبهم معلوم لهم.. والمحذور عندهم اطلاع المؤمنين عليه أو علم الرسول به.. فالمقصود من ذلك اللازم، وهو فضيحتهم وكشف عورتهم، وبيان شكهم وارتيابهم، وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانذارهم بما قد يترتب على ذلك من عقابهم، وكل ذلك قد كان ووقع.

بل إن الأمر أكثر من هذا، فقد فضح الله كثيرا من المنافقين، ونزلت آيات الله تحدث بما كان يسر به بعضهم إلى بعض، بل وبما كان لا يزال مضمرا من السوء فى صدورهم، لم يطلع عليه أحد بعد.. ومن هنا كان بلاء المنافقين، وكان الخوف الذى يطل عليهم من حيث لا يحتسبون، فالله تعالى مطلع على ما يدور بينهم، عالم بما يجرى فى خواطرهم، ومحال أن يفلتوا من الفضيحة، ولهذا سميت السورة الفاضحة والمثيرة والمبعوثة إلى آخر ما تقدم فى أسماء السورة. وفى القرابى: قال الحسن: كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة، لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته.[١٩]

أعتراض ورده:

فإن قلت: إن حذر المنافقين من انزال سورة غير متوقع إذ كيف يصدر هذا الحذر منهم وهم غير مؤمنين بالوحى؟

ولنا على هذا الأشكال ردان، أولهما لأبى مسلم، الثانى للجمهور:

أجاب أبو مسلم عنه بأنهم أظهروا الحذر استهزاء وأجاب الجمهور بما حاصله أن أكثر المنافقين كانوا شاكين مرتابين فى الوحى ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يكونوا موقنين بشىء من الإيمان ولا من الكفر، فهم مذبذبون بين المؤمنين الموقنين والكافرين الجازمين بالكفر، ومنهم من كان شكه قويا، ومن كان شكه ضعيفا.. وهذا الحذر والاشفاق أثر طبيعى للشك والارتياب.. فلو كانوا موقنين بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم لما خطر لهم هذا الخوف على بال، ولو كانوا موقنين بتصديقه لما كان هناك محل لهذا الخوف والحذر، لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان.

واستدل أبو مسلم بهذا الجواب (قل: استهزئوا، ان الله مخرج ما تحذرون) على أن المنافقين أظهروا الحذر مما ذكر استهزاء، ولم يكونوا يحذرون ذلك بالفعل لعدم إيمانهم.

ويرده اسناد الحذر إليهم فى أول الآية وآخرها، ولو صح هذا لذكر ذلك عنهم بالحكاية، فاسند الحذر إلى قولهم ولم يسنده إليهم، كما أسند إليهم كثيرا من الأقوال فى هذه السورة وغيرها، ومنها قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: انا معكم، إنما نحن مستهزئون)[٢٠].

ويؤيد وقوع الحذر منهم قوله تعالى فى سورة المنافقون :(يحسبون كل صيحة عليهم)[٢١]

وفى الآية التالية لهذه الآية بيان لضرب آخر من استهزائهم فى هذا المقام من سياق غزوة تبوك، فالاستهزاء دأبهم وديدنهم، وحذرهم لتنزيل السورة، ليس من هذا الإستهزاء بل من خوف عاقبته.. وإنما العجب من أمرهم استمرارهم عليه مع هذا الحذر.. وأما أمرهم به فهو للتهديد والوعيد عليه، وبيان كونه سببا لإخراجه تعالى ما يحذرون ظهوره من مخبآت سرائرهم ومكنونات ضمائرهم، والأصل فى الإخراج آن يكون للشيء الخفى المستتر فالله سبحانه وتعالى مخرج إلى الوجود ما أمسكته قلوبهم، وما انطوت عليه نياتهم وانعقدت عليه دخائلهم من نفاق، أو مخرج ما يحذرون من انزال السورة فيهم.

الهذر فى مسائل الدين نفاق:

وأمر واحد هو الذى يضمن لصاحبه الأمن والسلامة من هذا البلاء المبين، وهو أن يتخلص من النفاق جملة، وان يخلص إيمانه من كل شائبه نفاق، وأن لا يستهزئ بالإسلام ولا برسول الإسلام، وعندها يجد الإنسان أن سره وعلانيته على سواء، وانه لا يسوءه بحال أبدا أن ينكشف للناس باطنه كما انكشف لهم ظاهره.. فهل كلف المنافقون أنفسهم هذا الأمر الهين اليسير؟ كلا، انهم على العكس من ذلك أمعنوا فى السخرية والعيب.. ففى أثناء سيرهم.. ففى أثناء سيرهم إلى تبوك أخذوا يستهزئون برسول الله لتصديه لقتال الروم الذين ملأ صيتهم بلاد العرب بما كان تجارهم يرون من عظمة ملكهم فى الشام، إذ كانوا يرحلون إليها فى كل صيف.. ولقد نبأ الله رسوله بما كان يقول هؤلاء المنافقون نبأ مؤكدا بعينة القسم فقال: (ولئن سألتهم ليقولون انما كنا نخوض ونلعب، قل آبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟).. وهو كشف عن وجه آخر من وجوه النفاق التى يظهرون بها فى الناس، وهو أنهم إذا ضبطهم القرآن متلبسين بجريمة من جرائمهم المنكرة، أو سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عم انكشف من مستور تدبيرهم السيء، وما جرى على ألسنتهم من هزو وسخرية برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالمؤمنين قالوا معتذرين: لم نكن نجادين فيما كنا فيه، ولا منكرين، وإنما هو لعب وعبث وفاكهة، وهكذا المنافق لا يجد ما يستر به نفاقه إلا الكذب، فهو كذب يستر كذبا ونفاق يدارى نفاقا.

سبب النزول:

وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة فى سبب نزول هذه الآية: قال أبو معذر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء «يقصدون قراء القرآن» فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله «إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين» وان رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال محمد بن اسحق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى بن حمير [٢٢]، يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض:

أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ـ ارجافا وترهيبا للمؤمنين ـ فقال مخشى بن حمير: والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، واننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فانهم قد احترقوا، واسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على راحلته ـ فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشى بن حمير، يارسول الله، قعد بن اسمى واسم أبى، فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، ولم يوجد له أثر وقال عكرمة ـ فيما رواه ابن كثير ـ فى تفسير هذه الآية: كان رجل ممن ان شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها، تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فأجعل وفاتى قتلا فى سبيلك، لا يقول أحد.. أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد، غيره[٢٣].

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوته إلى تبوك، وبين يدين اناس من المنافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «احبسوا على هؤلاء الركب، فآتاهم فقال.. «قلتم كذا، قلتم كذا» قالوا: يا نبى الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون.

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، عن سعيد بن جبير قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مسيرة وأناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كانوا ما يقول محمد حقا فلنحن شر من الحمير، فأنزل الله تعالى ما قالوا، فأرسل إليهم ما كنتم تقولون؟ فقالوا: إما كنا نخوض ونلعب، وقيل: إنه ضلت للنبى صلى الله عليه وسلم ناقة فى هذه الغزوة، فجعل أصحابه يبحثون عنها، فقال المنافقون لو كان محمد متصلا بربه ـ كما يقول ـ لأخبره بالمكان الذى فيه ناقته، فكيف يدعى بعد هذا أنه يوحى إليه من ربه؟ وقد أطلع الله سبحانه نبيه على ما دار بين هؤلاء المنافقين، فلما أنبأهم النبى بهذا الأثم الذى تعاطوه قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، وقد أخزاهم الله سبحانه بقوله (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟) ثم أخزاهم خزيا بعد خزى إذا أطلع النبى صلى الله عليه وسلم على المكان الذى شردت إليه الناقة، فأشار إلى أصحابه إليه فوجودها حيث أشار.

عذر أقبح من الذنب، ونفاق أوضح من الكفر:

(إنما كنا نخوض ونلعب) كأن هذه المسائل الكبرى التى يتصدون لها، وهى ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة، كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب، وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يرد عليهم زعمهم هذا وأن ينسف باطلهم الذى هم فيه، وأن يفضح عذرهم المفضوح الذى اعتذروا به (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

ألم تجدوا ما تستهزئون به فى خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله، فقصرتم ذلك عليهما؟

فهل ضاقت عليكم جميع مذاهب الكلام تخوضون فيهما وتعبثون دونهما ثم تظنون أن هذا عذر مقبول فتدلون به بلا خوف ولا حياء؟ أفهذا مقام يخوض فيه الخائضون ويلعب اللاعبون؟ انه لعذر أقبح من الذنب.

ولعظم الجريمة التى ارتكبوها يأخذهم الله بنفاقهم ولا يقبل منهم عذرهم الذى اعتذروا به، لأنه كذب إلى كذب ونفاق إلى نفاق، ثم يحكم تعالى عليهم بالكفر بسبب هذا النفاق الذى لبسوه بعد أن نزعوا ثوب الإيمان الذى كان يخفون به ما انطوت عليه قلوبهم من نفاق، وبهذا . وبعد أن افتضح أمرهم . صاروا كافرين ظاهرا وباطنا بعد أن كانوا كافرين باطنا مؤمنين ظاهرا.. ومن ثم يجبههم الله بأنهم قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهروه، وينذرهم بالعذاب الذى أن تخلف بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح، فإنه لن يصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله وبرسوله وبعقيدته ودينه.

(لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[٢٤].

لا تشتغلوا بالاعتذار وتستمروا عليه، لأن ما تزعمونه معلوم الكذب بين البطلان.. قد أظهرتم الكفر بهذا الخوض واللعب، وايذاء الرسول، والطعن فيه، بعد اظهاركم الإيمان من قبل، فأعتذاركم إقرار بذنبكم، وأنتم قد جئتكم بما يثبت الذنب ويقتضى العقاب.

فإن قيل: ظاهر هذا انهم كانوا مؤمنين فكفروا بهذا الاستهزاء الذى سموه خوضا ولعبا، وظاهر السياق ان الكفر الذى يسرونه هو سبب الاستهزاء الذى يعلنونه، قلنا: كلاهما حق، ولكل منهما وجه، فالأول بيان لحكم الشرع، وهو أنهم كانوا مؤمنين حكما فإنهم ادعوا الإيمان فجرت عليهم أحكام الإسلام، وهى إنما نبنى على الظواهر، والإستهزاء بما ذكر عمل ظاهر يقطع الإسلام، ويقتضى الكفر فيه صاروا كافرين حكما بعد أن كانوا مؤمنين حكما، والثانى - وهو ما دل عليه السياق - هو الواقع بالفعل..

(إن نعف طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين).. إن نعف عن بعضهم بتلبسهم بما يقتضى العفو وهو التوبة والانابة، ومنهم مخشى بن حمير [٢٥]، نعذب بعضا آخر لإنصافهم بالإجرام ورسوخهم فيه، وعدم تحولهم عنه.. أى بالإصرار على النفاق وما يستلزمه من الجرائم الظاهرة.

فإن كان الوعيد من النبى صلى الله عليه وسلم فمعناه: ان هذا ما سننفذ حكم الشرع عليكم به عند الرجوع من دار الحرب إلى دار الإسلام، لأن دار الحرب لا تقام فيها الحدود وأمثالها من الأحكام.. والمختار أنه من الله تعالى وأن المراد به عفوه وتعذيبه فى الآخرة.

وفى هذا إشارة إلى أن باب التوبة والقبول لا يقفل أبدا فى وجه أى إنسان يتجه إلى الله وينزع عما كان فيه من غى وضلال، وإن هؤلاء المنافين الذين كفروا بعد إيمانهم ليسوا على

حال واحدة.. ففيهم من سيثوب إلى رشده وينزع عن غيه، ويرجع إلى الله تائبا نادما، وفيهم من يلج به الضلال ويستبد به العمى فيمضى إلى مساقه الذى يسوقه شيطانه إليه.

فالذين يتوبون إلى الله ويرجعون إليه من قريب من هؤلاء المنافقين، سيلقون من الله عفوا ومغفرة، والذين يصرون على هذا النفاق الذى هم فيه، سيلقون من الله ما أعد للكافرين والمنافقين من عذاب، ونكال بسبب ما كانوا عليه من ضلال، ومحادة لله ورسوله والظاهر أن أكثر أولئك المنافقين قد تابوا، واهتدوا بعد نزول هذه السورة التى نبأتهم بما فى قلوبهم.

بعض ما يستفاد من آيات هذا الفصل

ويؤخذ من الآيات ـ فضلا عما تقدم:

١ـ أن الاستتار بالدين لتحقيق أغراض ذاتية ـ وأن المطالبة بإقامة العدل لنيل مطامع شخصية، لا لذات العدل ولا حبا فيه ـ وأن عدم الرضى بما أعطى الله وقسم الرسول ـ وأن ايذاء الرسول بالقول أو الفعل ـ وإن الحرص على ارضاء الناس ولو بالحلف الكاذب أو غيره مما يسخط الله ـ وإن معاداة الله ورسوله ـ وأن الإستهزاء بالله وآياته ورسوله ـ كل ذلك نفاق، والمتصف بها أو بواحدة منها يكون منافقا يحتاج إلى العلاج.

٢ـ إن الواجب على المؤمن أن يسعى حثيثا على ارضاء الله ولو أسخط الناس فى سبيل ذلك [٢٦]، و أن يحرص على الخوف من الله وحده ولا يخاف أحدا من البشر فهم عبيد مثله، وعقدة الناس اليوم محاولة ارضائهم لعبيد أمثالهم بشتى الوسائل، وخشيتهم والخوف منهم وليتهم يرضون الله كما يرضون الناس، أو يخافون الله كما يخافون الناس.. مع أن القران أنكر هذا الصنيع وحذر منه فى غير آية :(يحلفون بالله لكم ليرضوكم، والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين)[٢٧] (أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين)[٢٨] (ونخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[٢٩] (ويخشونه، ولا يخشون أحدا إلا الله)[٣٠] (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله)[٣١] (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه، فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)[٣٢].

٣ـ علو مقام الرسول العظيم، وعظم شأنه، ورفعة قدره، حيث اقترن باسم الله سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع فى هذا الفصل.. سواء ما كان منها فى طلب الارضاء، أو فى النهى عن المحاربة والإستهزاء، حتى فى الرضى بالعطاء (ولو انهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله) (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) (والله ورسوله أحق أن يرضوه) (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

٤ـ إن باب التوبة والقبول مفتوح لن يغلق أبدا.

٥ـ واستدل بالآية على أن الجد واللعب فى اظهار كلمة الكفر سواء.

٦ـ والآية صريحة فى أن الخوض واللعب إذا كان موضوعه صفات الله وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته، كان ذلك استهزاءاً بها، لأن الإستهزاء بالشيء عبارة عن الإستخفاف به وكل ما يلعب به فهو مستخفيه.. والإستهزاء بشيء من ذلك من الكفر

الحقيقى الذى يخرج به المسلم من الملة وتجرى عليه به أحكام الردة، إلا أن يتوب ويجدد إسلامه.. ويغفل عن هذا كثير من الناس الذين يخوضون فى القرآن والوعد والوعيد، ويدخل فى عمومها المبتدعون والمحدثون فى الدين، والذين يخوضون فى الداعين إلى الكتاب والسنة، ويستهزئون بهم لاعتصامهم فى الدين، وايثارهم اياهما على المذاهب المقلدة.

٧ـ فى الآيات ـ لاسيما آية (يحذر المنافقون) ـ تصوير لعملية المتابعة السماوية تجاه المجتمع المدنى مؤمنه ومنافقه .. وليس من الممكن أن يتصور أحد ما الذى كان يعيش فيه المنافقون يومئذ من كرب وفزع، وهم يرون كل يوم صرعاهم، وقد رمتهم كلمات الله بسهام نافذة لم تخطىء صميم الداء منهم.

ولقد كان ما صنعه الله بالمنافقين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى فضح من فضح منهم، حماية للمجتمع الإسلامى الأول من هذا الداء الخبيث، ووقاية للمؤمنين من أن يطوف بهم طائف منهم، حتى لقد كان صحابة رسول صلى الله عليه وسلم ـ وهم من هم ـ يضعون أنفسهم تحت مراقبة دقيقة منهم لكل خاطرة تخطر لهم، ولكل وسواس يطوف بهم.

ومن هنا ندرك السر فى هذا الصفاء الروحى الذى كان عليه صحابة رسول الله، وتلك العظمة الإنسانية الموجودة فيهم، والذى كان من آثاره ما شهدته الحياة ـ وربما لأول مرة، ولآخر مرة أيضا ـ من مجتمع مثالى يحكمه وازع الضمير، ويقوم فيه مقام السلطان القاهر، الذى يتسلط على كف نفس ويأخذ على كل جارحة.

وفى قصتى ماعز والمرأة الغامدية شاهد بين، يحدث بأن المجتمع الإسلامى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان تحت مراقبة سماوية تتكشف للناس منها سرائرهم، كما تتكشف لهم صور المرئيات على المرايا العاكسة، فإن عمى الإنسان من أن يرى نفسه فيها، رآه الناس من حوله من قريب وبعيد.

ووراء هذه القصة أكثر من آية معجزة من آيات السمو الإنسانى، وعظمة الإنسان حين يسكن الإيمان قلبه ويملأ كيانه، فلا يخاف غير الله، ولا يطمئن إلا بالجأ إليه والإستسلام له.

ونحسب أننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن ما عزا، والغامدية لم يكن منهما هذا الإصرار العنيف على فضح أمرهما بعد أن ستر الله عليهما إلا خوفا من فضيحة مهلكة يتنزل بها القران فى شأنهما، فتكون لعنتهما على لسان كل قارئ للقرآن إلى يوم الدين، فهما إذ يطلبان الموت، وإذ يجدان هذه الحرارة فى الإقدام عليه، واستساغة طعمه، إنما ليهربا من تلك السياط الملتهبة التى تتساقط عليهما بنذر الفضيحة التى يشهدها الوجود كله على امتداد الزمن إلى يوم النشور.

وطبيعى أن هذا الشعور الذى تسلط على ما عز والغامدية، والذى أراهما مدى الهوة التى سيهويان فيها إذا هما وقعا تحت لعنة الله، وأنزل الله سبحانه فى شأنهما قرآنا يفضحهما ـ طبيعى أن هذا الشعور إنما بلغ به هذه الدرجة من اليقظة، والحساسية هو وثاقة الإيمان بالله وحسن الإدراك لكماله سبحانه وتعالى، وأنه القادر الذى لا يعجزه شىء، العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

فإذا جاءت بعد ذلك شواهد عملية تكشف عن تلك القدرة وهذا العلم فيما كشف القرآن الكريم من خبايا المنافقين وخفايا صدورهم.. لم يكن ثمة مهرب من الله إلا إليه، ولم يكن ثمة سبيل للنجاة إلا فى طلب التطهير من الأثم وإقامة حد الله على من اعتدى على حرمات الله.

هذا، ولما لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، وانقطع وحى السماء، تنفس المنافقون الصعداء وزايلهم هذا الشعور من الحذر والخوف أن يمسوا أو يصبحوا على أعين الناس فضيحة مفضوحة للعالمين.. فاستعلن نفاقهم، وتحركت ألسنتهم بما كانت تكنه فى صدورهم من منكر القول وأثم التدبير، ولكن - مع هذا - لم يكن للنفاق ولا للمنافقين أثر فى حياة المجتمع الإسلامى الذى تركه الرسول صلى الله عليه وسلم، ويدل على ذلك حين سئل حذيفة أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانظر ما فى من النفاق فعرفنى به! فيقول حذيفة: والله يا أمير المؤمنين ما أعلم فيك نفاقا، فيقول: انظر وحقق النظر، فيبكى حذيفة ويبكى عمر رضى الله عنهما، فلا يزالان يبيكان حتى يغشى عليهما.

ومن هنا ندرك السر فيما كان من التفات الدعوة الإسلامية إلى هذا المرض الخبيث - مرض النفاق - ورصد تحركاته فى المجتمع الإسلامى، وفضح أهله وكشف وجوههم للملأ، حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منه، وحتى لا تصيبهم عداوة.

الأمر الذى ان فشا فى الناس أفسد عليهم حياتهم، وأراهم الأمور فى أوضاع مقلوبة لا يلتقون معها إلا إذا قلبوا هم أوضاعهم ومشوا على رؤوسهم بدلا من أرجلهم.

الهوامش

١) اسمه حرقوص بن زهير، وقومه هم الخوارج الذين ظهروا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

٢) آل عمران ١١٨

٣) اللمز: الغمز الخفيف وذلك يكون بالإساءة باللسان، بالكلمة الجارحة تجيىء فى خبث ومواربة، وعبر عن رضاهمه بصيغة الماضى للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء فى وقته وينقضى، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام بدوامها. وعبر عن سخطهم بـ«إذا» الفجائية وبفعل المضارع للدلالة على سرعته واستمراره.

٤) جواب «لو» هنا محذوف لدلالة الحال والمقام عليه تقديره: لو فعلوا ذلك لكان لهم فى هذا الخير والفلاح كله.. وترك الجواب فى هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل.

٥) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٧٠

٦) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٦٤

٧) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٨٣

٨) المرجع السابق جـ٤ صـ٦٨٢

٩) والرد من باب أسلوب الحكيم فهو فى أوله يوافقهم على قولهم ثم يتبعه ما ينقضه عليهم حتى ينقض على رؤوسهم كقوله «يقولون لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وجعله ابن المنير فى الانتصاف من قبيل القول بموجب العله ففيه اطماع لهم بالموافقة ثم كر على طمعهم بالحسم واليأس.

١٠) فإن قيل: لم عدنى الإيمان إلى الله بالباء، وإلى المؤمنين باللام؟ قلنا: لأن الإيمان المعدى إلى الله، المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر، فعدى بالباء، والإيمان المعدى إلى المؤمنين، معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم، فيتعدى باللام مثل «وما أنت بمؤمن لنا».

١١) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٨٤

١٢) الأحزاب ٥٣

١٣) الأحزاب ٥٣

١٤) واسم الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار

١٥) «ان كانوا مؤمنين» تذييل لبيان أن ما قبله هو مقتضى الإيمان الصحيح لا ما يدعون ويحلفون فليرضوا الله ورسوله، وإلا كانوا كاذبين.

١٦) يحادد الله: يصير فى حد غير حد أولياء الله بالمخالفة والمعاندة والمحاربة. الخزى: الذل والهوان المقارن للفضيحة.

١٧) قال صاحب الكشاف: الضمير فى قوله «عليهم» و«تنبئهم» للمؤمنين، وفى قوله «فى قلوبهم» للمنافقين، ويجوز أيضا أن تكون الضمائر كلها للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت فى معناهم فهى نازلة عليهم، ومعنى تنبئهم: ان السورة تقول لهم فى قلوبهم كيت وكيت، يعنى أنها تذيع أسرارهم إذاعة ظاهرة، فكأنها تخبرهم صـ٥٥٩. استهزئوا: أمر تهديد.

١٨) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٨٦

١٩) تفسير القرطبى صـ٣٠٢٥ ط مطبعة الشعب

٢٠) البقرة ١٤

٢١) المنافقون ٤

٢٢) فى سيرة ابن هشام فى هذا الموضع «مخشن بن حمير» وقد أشار ابن هشام إلى هذا الاختلاف فيما سلف من سيرته. ابن هشام جـ٢ صـ٣١٩

٢٣) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٦٧

٢٤) الخطاب هنا للمعتذرين أو لجملة المنافقين، فإن كانت هذه الآية مما أمر الله رسوله أن يقوله لهم كالذى قبله، فالمراد بالعفو والتعذيب ما يفعله صلى الله عليه وسلم فى المدينة، والا كان المراد ما سيكون فى الآخرة، وفيه تقدير: أن نعف عن طائفة منكم لتوبتهم نعذب طائفة لاصرارهم على النفاق والكفر.

٢٥) عن كعب بن مالك: كان الذى عفى عنه مخشى بن حمير الأشجعى، وسأل الله تعالى أن يقتل شهيدا.. وفى الطبرى عن معمر: قال بعضهم: كان رجل منهم لم يمالئهم فى الحديث يسير مجانبا لهم، فنزلت (ان نعف عن طائفة) فى طائفة وهو واحد. جـ١٤ صـ٣٣٧

٢٦) (من ارضى الله بسخط الناس أرضى الله عنه كل شىء، ومن أسخط الله برضى الناس أسخط الله عليه كل شىء)

٢٧) التوبة ٦٢

٢٨) التوبة ١٣

٢٩) الأحزاب الآية ٣٧

٣٠) الأحزاب الآية ٣٩

٣١) التوبة الآية ١٨

٣٢) آل عمران الآية ١٧٥

الفصل الثالث

صفات المنافقين وجزاؤهم
وجهادهم وبعض مناكرهم

سمات المنافقين وسلوكهم المستتبع لعقابهم - ضرب المثل بالأولين ليعتبر الآخرون - صفحات من تاريخ المكذبين بالرسل - سمات المؤمنين وسلوكهم المستتبع لثوابهم - أسباب النصر والتمكين فى الأرض - اثابة الله للمؤمنين - الجنة وخلودها - جهاد الكفار والمنافقين - بعض الأسباب المقتضية لجهادهم : الكذب، الغدر، رد المعروف بالإساءة، ظهور ما اختبأ من النفاق - سبب نزول يحلفون بالله ما قالوا - محاولتهم اغتيال النبى منصرفة من تبوك - نماذج من أحوال المنافقين وأقوالهم - قصة ثعلبة - اشكالات عليها - لون آخر من تصورات المنافقين للصدقة - حجبوا أنفسهم عن الإيمان فاستحال عليهم الغفران - بعض ما يستفاد من الآيات.

كان السياق فيما مضى من الآيات التى احتواها الفصلان السابقان، يعالج بعض أحوال المنافقين ويستعرض نماذج من أقوالهم وأعمالهم وتصوراتهم.. وهو الآن - وفى هذا الفصل - يعمد إلى تقرير طبيعة النفاق والمنافقين وتبيين حقيقتهم بصفة عامة، وذلكر حالهم جميعا، ذكرانهم واناثهم، مع عرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين، مقرونا بالوعيد الشديد، والعقاب الأليم مع اخوانهم الكفار على فسادهم وافسادهم، وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين يتلوه ضرب المثل لهم بحال أمثالهم فى الأمم الماضية، ويربط بينهم وبين هؤلاء الذين كفروا من قبل فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبهم إلى أجل معلوم، ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون، ومن ثم يحدد طبيعتهم وصفاتهم وما أعد له من فوز عظيم ورضوان من الله أكبر، ثم يمضى السياق فيحث على جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ويقرر أن هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر من أحوال المنافقين قبل الغزوة وفى ثناياها، ليخلص من هذا كله إلى أن هؤلاء المنافقين قد تقرر مصيرهم فما عاد يتبدل، لن يجد بهم استغفار ولو كان من رسول الله.

ومن ذلك يتبين أن اتصال آيات هذا الفصل بما قبلها من بيان شئون المنافقين المتعلقة بغزوة تبوك، هو من قبيل التناسق بين القواعد العلمية فى الأخلاق، والسنن العامة فى روابط الاجتماع، وبين الوقائع الخاصة التى تعد من الشواهد على هذه القواعد والسنن.

قال الله تبارك وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن

المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون.وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله. ولهم عذاب مقيم. كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم. وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم. يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير. يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وأن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب. الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. استغفر لهم أولا تستغفر لهم أن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين).

سمات المنافقين وسلوكهم المستتبع لعقابهم:

(المنافقون والمنافقات) من طينة واحدة وطبيعة واحدة، والمنافقون فى كل زمان وفى كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز، والدس، والضعف عن المواجهة والجبن عن المصارحة.. هكذا هم المنافقون، وذلك هو مجتمعهم، لا ينضح بغير الاثم والمنكر، ولا يلد إلا البغى والفجور.

(بعضهم من بعض) على طبيعة سواء، يجمعهم النفاق وصفا وعملا، ويؤلف بينهم رجالا ونساء، حتى لكأن كلا منهم عين الآخر، أو كأنهم أفراد أسرة واحدة، تجمعها لحمة النسب والقرابة، وتؤلف بينها مشاعر الحب والولاء.. كما قيل:

تلك العصا من هذه العصية.. وهل تلد الحية إلا حية؟!

وكما قال تعالى: على سبيل الإستئناس لا غير : (ذرية بعضها من بعض)[1] وذلك أن المنافق لا يجد المرعى الخصيب الذى يغطى فيه نفاقه ويحقن به وجوده ويرض فيه مشاعره إلا فى بيئة منافقة تتجاوب معه وتروج لهذه البضاعة التى يتعامل فيها، ذلك أن بضاعة المنافقين بضاعة خبيثة، وطعامهم طعام فاسد عفن، لا تقبله إلا النفوس المريضة ولا تستطعمه إلا

الطبائع الخبيثة، انهم عملة زائفة لا تروج إلا فى الظلام، ولا يتعامل المتعاملون بها إلا فى أوكار اللصوص وفى حانات الخمر حيث تدور الرؤوس وتذهب العقول تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم: فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف والبخل بالمال، هذه هى بضاعة القوم، وتلك هى رسالتهم فى الحياة وشأنهم فى الناس.

١. (يأمرون بالمنكر) فلا يكفيهم أنهم يطعمون من هذا الطعام الخبيث، ولا يرضيهم أن يعرضوه على الناس.. بل يأمرونهم به ويحرضونهم عليه ويزينون لهم تعاطيه، انهم لا يهنئوهم هذا الطعام الخبيث المغن حتى يستكثروا له من الأيدى التى تشاركهم فيه، ومن الأفواه التى تضعه معهم.

٢. (ولا ينهون عن المعروف) فمن دعا إلى منكر وأمر به وحرض عليه فهوناه . ضمنا . عن معروف صار عن خير، ولكن القوم لا يقفون عند هذا، بل انهم بعد أن يدعوا إلى المنكر يقومون بدعوة أخرى: هى تبغيض الخلال إلى الناس وتزهيدهم فى الخير.. وذلك إذا تأبوا عليهم ولم يستجيبوا لدعوتهم إلى المنكر، وحسبهم فى هذا أن يصرفوا وجوه المؤمنين عن الإيمان، ويكفوا أيديهم عن التعامل بالخير، فذلك ان تم لهم كان كسبا للمعركة التى يخوضونها مع المؤمنين، وهو عزل أكبر عدد يمكن عزله منهم عن المعركة، بحيث لا يكونون مع المؤمنين ولا مع المنافقين.. ومن المنكر الذى يأمرون به: الكذب والخيانة واخلاف الوعود والفجور والغدر بنقض العهود (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان).. ومن المعروف الذى ينهون عنه: الجهاد وبذل المال فى سبيل الله للقتال وغير القتال، كقوله تعالى (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا)[٢] وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بها ويفعلون ذلك دسا وهمسا وغزا ولمزا، لأنهم لا يجرؤن على الجهر إلا حين يأمنون.

٣. (ويقبضون ايديهم)[٣] أى أن هؤلاء المنافقين الذين يسعون فى هذا السعى الحثيث فى مجال الافساد والاهلاك للناس هم . فى الوقت نفسه . أشحة على الناس بأى خير يمكن أن تحمله أيديهم من زكاة أو صدقة أو انفاق فى سبيل الله أو غيرها . ان كان فى يدهم أى خير . إلا أن يبذلوه رثاء الناس فيفعلون، انهم اسخياء كرام يبذلون . فى تبذير شديد . كل منكر ويجودون . بلا حساب . بكل مفسد، وكل ضلال.. أما فى مجال الخير والإحسان فهم بخلاء أشحاء، لا تند أيديهم بذرة خير، ولا تسخوا أنفسهم لعارفة من احسان. انهم.

٤. (نسوا الله) فلا يذكرونه أبدا، إذ لو ذكروه لما كان لهم فى عباد الله هذا البلاء الذى يرمونهم به فى غير حرج أو تأثم، ولو أنهم ذكروه تعالى لوجدوا فى قلوبهم خشية له، ولكان لهم فى خشيتهم لله ما يمسك بهم عن هذا الضلال الذى يهلكون به أنفسهم ويهلكون به كثيرا من الناس معهم.

(نسوا الله) أن يترقبوا إليه بالإنفاق فى سبيله، وغير ذلك من فعل ما أمر به وترك مما نهى عنه، فهم لرسوخهم فى الكفر لم يعد يخطر ببالهم أن له تعالى عليهم حق الطاعة، والشكر، فهم لا يذكرونه بشىء من أعمالهم وإنما يتبعون فيها أهواءهم من الرياء ووسوسة

الشيطان ..(نسوا الله) فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم.

(نسوا الله فنسيهم) الله [٤]

جازاهم على نسيانهم اياه بأن تركهم لأنفسهم، وما هم فيه من ضلال، وحرمهم من فوائد ذكره تعالى وفضيلة التقرب إليه بالإنفاق والجهاد فى سبيله، وغير ذلك من توفيقه وهدايته، ولطفه فى الدنيا، وحرمهم من الثواب على ذلك ومن رحمته فى الآخرة (حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة)[٥] (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)[٦] وبالتالى نسيهم الناس، فلا وزن لهم ولا اعتبار.. وإنهم لذلك فى الدنيا بين الناس، وانهم لكذلك فى الآخرة عند الله.. وما يحسب الناس حسابا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء، الذين يجهرون بآرائهم، ويقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدنيا بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون فى وضح النهار.. أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس، فلا يخشون فى الحق لومة لائم.. وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس، ويحسبون حسابهم.

(إن المنافقين هم الفاسقون) الراسخون فى الفسو، الخارجون عن الإيمان، المنحرفون عن الطريق، الناكبون عن الصراط المستقيم، الراكبون طرق الضلال والهلاك.

وقد وعدهم الله مصيرا كمصير الكفار (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم)[٧] .

هذا هو الجزاء الذى أعده الله لأهل النفاق والكفر.. نار جهنم خالدين فيها لا يتحولون عنها أبدا، (هى حسبهم) أى فيها كفايتهم وفيها من الجزاء ما يكفيهم عقابا فى الآخرة، وهى كفاء اجرامهم، (ولعنهم الله) فهم مطردون من رحمته (ولهم عذاب مقيم) ثابت لا يتحول عنهم (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون»[٨].

ويتبين لنا فى الآية أمور:

١) ذكر المنافقات مع المنافقات للنص على أن فى النساء نفاقا كالرجال، وإن كان هذا معروفا فى طباع الناس، كما قرن ذكر الإناث بالذكور فى صفات الإيمان.

٢- آخر ذكر الكفار فى مقام الوعيد على المنافقين للايذان بأن المنافقين - وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام - شر من الكفار الصرحاء، ولاسيما المتدينين منهم بأديان باطلة عن الأصل أو محرفة ومنسوخة كأهل الكتاب.

٣- زيادة التشديد فى الوعيد هنا للفرق بين جزاء جماعة المنافقين والكفار الراسخين فى النفاق والكفر المتعاونين على أعمالهم، وجزاء أفراد العاصين لله ورسوله.. فمفاسد هؤلاء الأفراد شخصية كبيرة كانت أو صغيرة، وأما مفاسد جماعات النفاق والكفر الوطنية والقومية - والأمم المتعاونة معهم فيها - فهى أكبر لأنها أعم.

٤- الظاهر من العطف فى قوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) على جهنم أنه نوح من العذاب نفسى معنوى غير عذاب جهنم الحسى، الخاص بها بنوعية الظاهر والباطن: الظاهر كالسموم

الذى يلفح وجوههم، والحرارة التى تنضج جلودهم، والحسيم الذى يصهر ما فى بطونهم، والزقوم طعام الأثيم، والضريع الذى لا يثمن ولا يغنى من جوع، والباطن الذى يعبر عنه بقوله تعالى فى الحطمة .. (التى تطلع على الأفئدة).. فهذا النوع من العذاب المقيم: ان كان فى الدنيا فهو ما يلصق بقلوب المنافقين من خوف الفضيحة، وما تقدم فى قوله تعالى (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) وغير ذلك من تعذيب الضمير والوجدان، ولكل طائفة من الكفار عذاب دنيوى مقيم بحسب حالهم، ولاسيما المعطلين منهم الذين لا هم إلا فى لذات الدنيا، فكل ما يفوتهم منها أو ينغصها عليهم لهم فى عذاب، لا يشعر به المؤمنون الراضون بقضاء الله الصابرون على بلائه الشاكرون لنعمائه، وإن كان فى الآخرة فهو حرمانهم من لقاء الله تعالى وكرامته والحجاب دون رؤيته.

ضرب المثل بالأولين ليعتبر الآخرون

هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ليست جديدة، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال.. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز، ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويم بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الأرض، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فلم يغن عنهم من ذلك كله شيئا.. انها الفتنة بالقوة والفتنة بالأموال والأولاد.. فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة التى تخول لهم فى الأرض، لأنهم يخشون من هو أقوى، فينفقون قوتهم فى طاعته واعلاء كلمته، وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد، لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد، فيحرصون على شكر نعمته، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته، وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون فى الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام.. والقران يذكر القوم بما كان من اسلافهم ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم لعلهم يهتدون.

(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقكم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون)[٩] .

أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ولرسوله والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم فى أقوام الأنبياء، وتلك صورة من صور الضالين المفسدين تطلع عليكم من ثنايا الزمن الغابر وترتفع إلى بصائركم وأبصاركم لتعتبروا بها، فأنتم مفتونون بأموالكم وأولادكم مغرورون بدنياكم، كما كانوا مفتونين بأموالهم وأولادهم، ولكنهم (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا) وأنتم لن تخلدوا فى هذه الدنيا كما لم يخلد من كان قبلكم من الماضين ممن كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا وأشد قوة وأمكن سلطانا.. فليست هذه الدنيا دار بقاء وخلود، وليس ما فيها من متاع إلا ظل زائل وعرض ذاهب، ثم يجىء من بعد هذا الحساب والقضاء والجزاء.

لقد استمتع هؤلاء الذين ذهبوا بما كان بين أيديهم من مال وبنين، وبما كان لهم من جاه

وسلطان، استمتع كل بخلاقه وبنصيبه المقسوم له، وبحظه المتاح له كثيرا وإن قليلا، فقد كان مطلبهم من أعمالهم وسعيهم التمتع والتنعم بنصيبهم وحظهم الدنيوى من الأموال والأولاد، لم يكن لهم مطلب ولا غرض من الدنيا إلا التمتع بعظمتها، تطغيهم بها القوة، وبلذتها تغريهم بها الثروة، وبزينتها تفرحهم بها كثرة الذرية، لأنهم لم تكن لهم مقاصد شريفة عالية من الحياة سواها.. كالذى يقصده أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة من اعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل فى الخلق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. بل كان خلاقهم كخلاق السباع والأنعام، لا هم لهم إلا العدوان واللذات البدنية، والتناسل، ثم ذهبوا وذهب كل ما كان لهم وما كان معهم، وانتهى كل إلى نهايته، وصار كل ما قدم من خير أو شر، وقد كانوا أكثر مالا وزقوى قوة وأعز نفرا.

ومع ذلك فقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم وفعلتم فعلهم فى الاستمتاع بخلاقكم من القوة والأموال والأولاد سواء، لم تفضلوا عليهم بشىء من إرشاد كلام الله وهدى رسوله فى الفضائل والأعمال الصالحة التى تتزكى بها الأنفس البشرية وتكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والآخروية، فكنتم أجدر بالملازمة والعقاب منهم، لأنهم أوتوا من القوة المطغية، والأموال المبطرة، والأولاد الفاتنة فوق ما أوتيتم، ولم يروا من آيات الله تعالى ما رأيتم، ولاسمعوا من حكم كلامه، وشرائعه ما سمعتم، ولا نصب لهم من المثل الأعلى لهداية رسله ما نصب لكم بهدى محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله نزل عليه أحسن الحديث وأفضل الكتب وأكمل به الدين، وجعله خاتم النبيين.. وخضتم فى حمأة الباطل كالخوض الذى خاضوه من كل وجه، على ما بين حالكم وحالهم من الفرق الذى كان يقتضى أن تكونوا أهدى منهم فلستم. أيها الكائدون للنبى المحادون لله ورسوله، لستم. بدعا فى الناس، ولن تخرجوا على سنة الله التى خلت فى عباده، فلن تغنى عنكم أموالكم، ولا أولادكم من الله شيئا، وانكم لتأخذون حظكم المقدور لكم مما فى أيديكم من مال وولد، ثم تلحقون بمن سبقكم إلى عالم الموت، وتنتظمون فى ركب الضالين، والمكذبين، لتقفوا بين يدى الله وتنالوا الجزاء الذى أنتم أهله.. فأحذروا عاقبتهم، وانظروا إلى مصيرهم.

(أولئك [١٠] حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) وبطلت بطلانا أساسيا، لأنها كالنبتة بلا جذور لا تستقر، ولا تنمو، ولا تزدهر فلم يسلم لهم منها شىء.

حبطت أعالهم الدنيوية فى الدنيا فكان ضررها أكبر من نفعها لهم لاسرافهم فيها وافسادهم فى الأرض أو هى فشلهم وخيبتهم فيما كانوا يكيدون للمؤمنين، وحبطت أعمالهم الدينية فى الآخرة من العبادات، وصلة الرحم، ومنع المعروف، وقرى الضيوف، والصدقة، فلم يكن لها أجر يدخلهم الجنة، ولم تدفع عنهم عذاب الله الذى أعده لهم وأنزله بهم لأنها كانت لأجل الرياء والسمعة، وحب الظهور الثناء، ولأجل أن يعاملوا معاملة المسلمين وتجرى عليهم أحكامه، لم تكن إذ فعلوها لأجل أن يزكوا بها أنفسهم ولا أن يرضوا الله عز وجل، ولا أن يريدوا بها وجه الله، ولا أن يطلبوا بها ما عند الله لأنهم لا يؤمنون بالله ولا يتعاملون مع الله.

(وأولئك هم الخاسرون) الذين خسروا كل شىء على وجه الاجمال بلا تحديد ولا تفصيل.

التامو الخسران دون غيرهم ممن لم يكن كل حظهم من نعم الله الاستمتاع العاجل، والخوض فى الباطل، إذ لا خسران بعد هذا الخسران ولا ضياع بعد هذا الضياع، والعجب كل العجب أن يأتى خسارهم من مظنة الربح والمنفعة، كقوله تعالى (قل هل انبئكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[١١] وكل خسار دون هذا هين كأنه ليس بخسار، فهل يعتبر بهذا أهل هذا الزمان؟ أم هل يعتبر به التالون والمفسرون للقرآن، أم يقرأونه ويفسرونه لكسب الحطام ولنيل درجة المدير العام؟ (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[١٢]

وأخذا مما تقدم يمكننا أن نقسم أعمال الكفار والمنافقين إلى دينية ودنيوية، فالدينية تحبط كلها فى الآخرة، لأن شرط قبولها الإيمان والاخلاص، وتحبط فى الدنيا إذا ظهر نفاقهم، وافتضح أمرهم، ولحبوطها منى آخر، وهو أنها لا تأثير لها فى تهذيب أخلاقهم، وتزكية أنفسهم من الفحشاء، والمنكر ومساوئ الأخلاق، لأن هذا لا يحصل إلا بالإخلاص، وأما الدنيوية فهى قسمان:

١ـ التمتع بالأموال والأولاد والقوة.

٢ـ كيد ومكر ونفاق.

وأعمال النفاق الدنيوية فى أيام الملوك والحكام الظالمين الفاسقين تكون أكثر رواجا ونتاجا من أعمال الصادقين المخلصين، ولا دليل على فساد الملوك والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم وابعادهم للناصحين الصادقين عنهم.

قال الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

قال الرازى : والمقصود أنه تعالى لما شبه حال هؤلاء المنافقين بأولئك الكفار بين أن أولئك الكفار لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال والا الخزى والخسار مع أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المنافقين وأكثر أموالا وأولادا منهم فهؤلاء المنافقون والمشاركون لهم فى هذه الأعمال القبيحة أولى أن يكونوا واقعين في عذاب الدنيا والآخرة محرومين من خيرات الدنيا والآخرة [١٣] وقال الألوسى: ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية، والتهائهم فيها عن النظر فى العاقبة والسعى فى تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين لمشابهتهم واقتفاء أثرهم [١٤] .

وروى ابن جرير بسنده . عند تفسير هذه الآية [١٥] . عن الربيع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «حذركم أن تحدثوا فى الإسلام حدثا، وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة قال الله فى ذلك (فأستمتعوا بخلاقهم، فاستمتعنم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذى خاضوا، وإنما حسبوا أن لا يقع بهم فى الفتنة ما وقع ببنى إسرائيل قبلهم وأن الفتنة عائدة كما بدأت) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله

عليه وسلم قال: «والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قال أبو هريرة: اقرأوا ان شئتم القرآن كالذين من قبلكم» الآية، قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم، قال: فهل الناس إلا هم؟ قال ابن كثير: وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح(١٦) وقال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنوا إسرائيل شبهنا بهم.

صفحات من تاريخ المكذبين بالرسل

وإذا تصفح هؤلاء المنافقون تاريخ القرون الماضية فلن ينكشف لهم منها ـ لما هم فيه من ضلالة وعمى ـ ما أخذ الله به الظالمين من نكال وبلاء، فها هى ذى المثولات يضعها الله بين أيديهم ويكشف لهم عما خفى منها.. ومن ثم يلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون فى طريق الهالكين ولا يعتبرون..(ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين، والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١٧).

هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين، ويسيرون فى طريق الهلكى ولا يتعظون، هؤلاء (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) ممن ساروا فى نفس الطريق؟ (قوم نوح) وقد طمرهم الطوفان وطواهم اليم فى تيار الفناء المرهوب (وعاد» وقد أهلكوا (بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية) و(ثمود) قوم صالح وقد أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، (وقوم إبراهيم) وقد أهلك طاغيتهم المتجبر «النمروذ» الذى حاول احراق إبراهيم فأنجاه الله منها وجعلها عليه بردا وسلاما، وجعل فى ذريته الكتاب والحكم والنبوة، (وأصحاب مدين) قوم شعيب وقد أخذتهم الصيحة كما أخذت قوم صالح (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها إلا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) و(المؤتفكات) (١٨) قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الاقلين، إذا أمطرهم بحجارة من سجيل منضود فطحنتهم طحنا وقلبت عليهم قراهم فأصبح عاليها سافلها.

ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين (أتتهم رسلهم بالبينات) بالحجج والدلائل القاطعات تحمل إليهم الهدى والخير، فمكروا بآيات الله، وأعرضوا وعاندوا وكذبوا رسل الله، فماذا كانت عاقبة أمرهم، لقد أخذهم الله بذنوبهم، وأوقع بهم نقمته وصب عليهم عذاب ألوانا متعددة من البلاء، وصورا متباينة من المهلكات وجزاهم جزاء الظالمين فما كان الله ليظلمهم» (١٩) ما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب وقد أنذرهم وأعذر إليهم ليجتنبوه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فلقد ظلموا أنفسهم بأن جحدوا وعاندوا، ولم يبالوا بالانذارات، وصرفوها عن الخير الذى جاءهم على يد رسل الله فماذا بعد الحق إلا الضلال، وماذا بعد الضلال إلا البلاء والعذاب؟

ان النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر، ونعيمها النعمة فلا تنظر، وما تنفع عظات

الماضين ولا عبرهم إلا من تتفتح تذكر، وتعميها النعمة فلا تنظر، وما تنفع عظات الماضين ولا عبرهم الا من تتفتح بصائرهم لادراك سنة الله التى لا تتخلف ولا تتوقف ولا تحابى أحدا من الناس وان كثيرا ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى بصائرهم وأبصارهم غشاوة، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين.. عندئذ تحق عليهم كلمة الله، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وهم فى نعمائهم يتقلبون، وبقوتهم يتحايلون.. والله من ورائهم محيط.

انها الغفلة والعمى والجهالة، نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء، نراها فى كل زمان وفى كل مكان، إلا من رحم الله من عباده المخلصين.

وإنما ذكر هؤلاء الطوائف الستة لأن نبأهم - لا محالة - قد أتى العرب.. تارة بأن سمعوا هذه الأخبار ممن وفد إلى بلادهم من خارج، وتارة لأن بلاد هذه الطوائف - وهى بلاد الشام فيما عدا عادا فكانت بالأحقاف جنوبى الجزيرة - قريبة من بلاد العرب، وقد بقيت آثارهم مشاهدة.

والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من المجاهرين والمنافقين: ان سنة الله فى عبادة واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، كأنه قال: أفأمن هؤلاء المنافقون الذين يستهزئون بالله أن يسلك بهم فى الانتقام منهم وتعجيل الخزى والنكال لهم فى الدنيا سبيل أسلافهم من الأمم الماضية؟ فإذا لم يتوبوا فلابد أن يحل بهم من العذاب حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال تعالى فى سورة القمر (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر) (٢٠)

وليس لكفار هذه الأمة عهد بالنجاة، ولا هم خير من السابقين.. فقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم فى أول غزوة هاجموا المسلمين فيها وهى غزوة بدر، ثم خذل الله من بعدهم فى سائر الغزوات، وأخرج الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من ديارهم (وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، فاعتبروا يا أولى الأبصار) ثم صار الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

وأما المنافقون فمازالوا يكيدون له فى السر حتى فضحهم الله تعالى بهذه السورة فى آخر الأمر فتاب أكثرهم، ومات زعيمهم عبد الله بن أبى بغيظه وكفره، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده، ولو بقى لهم قوة يكيدون بها للإسلام لما خفى أمرها على المؤرخين.

فخير قوم محمد صلى الله عليه وسلم بهذا التمحيص خير أقوام النبيين، نشر الله تعالى بهم اعلام هذا الدين، فسادوا به جميع العالمين، ولولا ما أحدثه الروافض المنافقون، والخوارج المغرورون من الشقاق بين المسلمين لعمت سيادة الإسلام جميع العالمين.

سمات المؤمنين وسلوكهم المستتبع لثوابهم

وفى مقابل المنافقين والكفار يقف المؤمنون الصادقون.. طبيعة غير الطبيعة، وسلوكا غير السلوك، ومصيرا غير المصير، وأنه لما يضاعف حسرة المنافقين ويزيد فى بلائهم أن يطلع عليهم المؤمنون فى هذا الموكب العظيم، الذى يحفه الجلال والاكرام، ويتغشاه النعيم والرضوان،

بعد أن انكشف للمنافقين سوء أمرهم وعاقبة سعيهم وما أخذوهم الله به من نكال وبلاء..
وفى هذا الموكب الذى ينتظم المؤمنين يرى الرائى لهم أن بعضهم أولياء بعض، تجمعهم الأخوة، وتؤلف بينهم المودة، يلتقون على الإيمان بالله والولاء له، والاستجابة لرسوله..

«المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله أن الله عزيز حكيم.. وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم».

اذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، اذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة، فالمؤمنون والمؤمنات «بعضهم أولياء بعض» وهو يشير إلى مافى المؤمنين من معانى الإنسانية التى تعطى المؤمن وجودا مشخصا وذاتية مستقلة، ثم هو مع ذلك الوجود الذاتى المستقبل. يحكمه عقل رشيد ويوجهه قلب سليم، فيلتقى مع أصحاب العقول الرشيدة ويتجاوب مع أولى القلوب السليمة، على جبهة الحق وتحت راية الخير..

فإذا هو قوة عاملة فى هذا الميدان، يعمل للحق مع العاملين وينتصر للخير مع أهل الخير.. يبادلهم ولاء بولاء وحبا بحب، واخاء باخاء.

وليس كذلك المنافقون والمنافقات «بعضهم من بعض» انهم كتلة متضخمة من الخبث اشبه بالديدان التى تتخلق من الرمم، ليس بينها تجاوب فى المشاعر أو تلاق فى التفكير، وإنما هى كائنات تسبح على هذه الرمم وتتغذى منها..

إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض.. فالولاية تحتاج إلى مرؤة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف، وطبيعة النفاق تأتى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم..

إن المنافقين أفراد ضعاف مهازل وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة على ما يبدوا بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك وأن كان يشبه بعضهم بعضا فى شكهم وارتيابهم ونفاقهم وما يتبع ذلك من قول وعمل.. أن المنافقين لا ولاية بينهم بأخوة تبلغ فضيلة الايثار ولا تناصر يبلغ الاقدام على القتال، لأن النفاق شكوك وذبذبة من لوازمهما الجبن والبخل، وهما الخلقان المانعان من التناصر ببذل النفس والمال بل قصاراه التعاون بالكالم ومالا يشق من الأعمال..

وانما تكون ولاية التناصر بالقتال لأصحاب العقائد الثابتة والملة الراسخة.. سواء كانت حقا أم باطلا، ولذلك اثبتها القرآن لليهود والنصارى وللكفار على الاطلاق.. لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» (٢١) ولم يثبتها للمنافقين الخلص بعضهم مع بضع، بل كذب منافقى المدينة فى وعدهم لليهود حلفائهم بنصرهم على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اذا قاتلوهم فى قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لتخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وأن قوتلتم لننصرنكم

والله يشهد أنهم لكاذبون لئن اخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم «ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون» (٢٢)

والتعبير القرآنى الدقيق لا يغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء.. «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» والمؤمنون، والمؤمنات بعضهم أولياء بعض..

بعضهم أولياء بعض فى الولاية العامة من أخوة، ومودة، وتعاون وتراحم حتى شبه النبى صلى الله عليه وسلم جماعتهم بالجسد الواحد(٢٣) وبالبنيان يشد بعضه بعضا (٢٤)

وولاية النصرة فى الدفاع عن الحق والعدل والملة والوطن واعلاء كلمة الله عز وجل وفى آثار ذلك من القول والعمل(٢٥)

إن طبيعة المؤمن من طبيعة الأمة المؤمنة.. طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر..

١، ٢) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفا واحدا، لا تدخل بينها عوامل الفرقة، وحيثما وجدت الفرقة فى الجماعة المؤمنة فثمة، ولابد عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها هو الذى يدخل بالفرقة، ثم غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التى يقررها العليم الخبير «بعضهم أولياء بعض» يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واعلاء كلمة الله وتحقيق الوصاية لهذه الأمة فى الأرض..

٣- «ويقيمون الصلاة» الصلة التى تربطهم بالله، أى يؤدون الصلاة المفروضة وما هاءوا من التطوع على أقوم وجه وأكمله فى شروطها واركانها وآدابها، ولا سيما الخشوع لله تعالى وكثرة ذكره فيها، وما يوجبه الايمان من حضور القلب فى مناجاته..

٤- «ويؤتون الزكاة» المفروضة عليهم لمن فرضت لهم، وما وفقوا له من التطوع.. وهى الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة وتحقيق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

٥- «ويطيعون الله ورسوله» يستمرون على الطاعة بترك ما نهوا عنه مطلقا وفعل ما أمروا به بقدر الاستطاعة.. فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور الا شريعة الله ورسوله: ولا يكون لهم منهج الا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة الا اذا قضى الله ورسوله.. وبذلك يوحدون نهجهم، ويوحدون هدفهم، ويوحدون طريقهم فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم.

تلك هى سبيل المؤمنين، وذلك هو حبل الله الذى يعتصمون به ويشدون ايمانهم عليه «أولئك سيرحمهم الله»(٢٦) لأنهم لجأوا إليه والتمسوا مرضاته واخلصوا القول والعمل له واستمروا على طاعته وطاعة رسوله.. والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها، إنما تكون فى هذه الأرض أولا.. ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، واقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح.. رحمة الله فى اطمئنان القلب، وفى الإتصال بالله، وفى الرعاية والحماية من الفتن والاحداث، ورحمة

الله فى صلاح الجماعة، وتعاونها، وتضامنها، واطمئنان كل فرد للحاية، واطمئنانه لرضاء الله.

«إن الله عزيز حكيم» عزيز لا يضام من لجأ إليه واعتصم به، حكيم فى قضائه بين عباده وحكمه فيهم، فيجازى المحسنين باحسانهم ويتجاوز عن سيائتهم ويأخذ المسينين بما عملوا أن شاء أو يتوب عليهم.. كل ذلك عن قدرة متمكنة وعزة غالبة وحكمة بالغة، سبحانه عز فحكم، لا معقب ولا منازع لسلطانه.. و«عزيز» قادر على اعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعها أولياء بعض فى النهوض بهذه التكاليف «حكيم» فى تقدير النصر والعزة لها لتصلح فى الأرض وتحرس كلمة الله بين العباد و«عزيز» لا يمتنع عليه عيه شيىء من وعده ولا من وعيده «حكيم» لا يضع شيئا منهما الا فى موضعه (٢٧).

أسباب النصر والتمكين فى الأرض: إن هذه الصفات الأربع: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة قد جعلها الله غاية للأذن للمؤمنين بقتال من يقاتلونهم ويعادونهم فى الدين، ووعدهم عليها النصر والتمكين فى الأرض بالملك والسيادة ليحققوها فى وصايتهم الرشيدة على البشرى، اذ قال بعد أول ما نزل من الاذن لهم بالقتال: «الذين أن مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» (٢٨) فحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة، التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغيره، ولا تقعد عن معروف، وهى قادرة على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، اذ ينصرون نهجه الذى اراده للناس فى الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته. الشروط بتكاليفه.. والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصرا، والنصر هزيمة، عندما تختل القوائم، أو تهمل التكاليف: "ولله عاقبة الأمور"

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الالهى فى الحياة. من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح. المنظور فيه إلى هذه الغاية التى يتوارى فى ظلها الاشخاص والذوات، والمطامع والشهوات..

وهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه.. فلا يعطى لاحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه..

فبهذه الصفات فتح المسلمون الفتوحات ودانت لهم الأمم طوعا، وبتركها سلب أكثر ملكهم والباقى على وشك الزوال أن لم يتوبوا إلى ربهم ويرجعوا إلى هداية دينهم ولا سيما اقامة هذه الأركان منه (٢٩)

مقارنة:

١- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المؤمنين يقابل من صفات المنافقين بالأمر بالمنكر، والنهى عن المعروف.

٢- واقامة المؤمنين للصلاة يقابل فى صفات المنافقين نسيانهم الله عز وجل، لأن روح

الصلاة مراقبة الله تعالى وذكره بالقلب واللسان، ولا فائدة لها بدون ذلك، كما قال تعالى: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر [٣٠] أى أن ذكره الذى شرعت الصلاة له هو أكبر من كل شيىء، اذ به يستحكم للمؤمن ملكية المراقبة لله تعالى فى جملة أحواله وأعماله، فينتهى عن الفحشاء وتذكر نفسه وتعلو همته وتكمل شجاعته ويتم سخاؤه ونجدته، ولذلك قال تعالى: «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى» [٣١] وقال لموسى عليه السلام: «وأقم الصلاة لذكرى»[٣٢]

٣- وايتاء المؤمنين للزكاة يقابل فى صفات المنافقين قبض الأيدى.

ولقد كان المنافقون يصلون، ولكنهم لم يكونوا يقيمون الصلاة، وكانوا يزكون وينفقون ولكن خوفا أو رياء الا طاعة لله «واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا» [٣٣] ومن لم يتدبر هذه الآيات كلها والمقارنة بين صلاة المؤمنين وصلاة المنافقين وزكاتهما لايفقه حكمة الله تعالى فى هذين الركنين اللذين هما أعظم أركان الإسلام، وهذا الفقه لا يجده طالبه فيما يسميه الناس كتب الفقه، وأن زعم الخاسرون الجاهلون أنها تغنى عن هداية كتاب الله تعالى، وإنه لم يبق للمسلمين فائدة منه إلا التعبد بتلاوته والتبرك بمصاحفه، وكذا اتجار بعض حفاظ الفاظه بتغنيهم به.[٣٤]

٤- وقوله تعالى فى المؤمنين «ويطيعون الله ورسوله» يقابل وصفه للمنافقين بأنهم «هم الفاسقون» فإن الفسق هو الخروج من حظيرة الطاعة

٥- ورحمة الله للمؤمنين تقابل لعنته للمنافقين والكفار.

اثابة الله المؤمنين

٦- وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين وإخوانهم الكفار، وكانت لعنته لهم بالمرصاد، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضآلة والحرمان، فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين وعدا مبينا للرحمة المجملة التى منحوها.. «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن [٣٥] ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم».

فهى جنات لا يتحول عنها ساكنوها إلى مكان آخر حيث تطيب لساكنيها الاقامة المطمئنة لما يجدون فيها من نعيم لا ينفد ولا يمل مهما طالت صحبته وامتد الزمن فى الحياة معه.

ولهم فوق هذا النعيم الذى نالوه ماهو أعظم وأكبر، ولهم غير جنات عدن ماهو أجل وأعلى، وذلك بما يفيضه تعالى عليهم من رضوانه، وما يضفيه عليهم من رضاه، فكل نعيم - وأن عظم - هو قليل إلى رضوان الله الذى يناله من رضى الله عنه، وأن الجنة بكل مافيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هالات ذلك الرضوان الكريم.. «ورضوان من الله أكبر»..

ثم أن كل نعيم هو تبع لهذا الرضا، ونسبة من انسامه الطيبة المباركة، ولهذا جاء قوله تعالى: «ورضوان من الله أكبر» مستأنفا غير معطوف على ماقبله حتى كأنه اضراب عما سبقه، كأنه قال: بل رضوان من الله أكبر وأعظم من تلك الجنات ومافيها، لا يقدر قدره ولا يكتنه سره، وماهو الا مقام رؤية الرب تعالى التى تكمل بها معرفة الرحمن، وتتم سعادة

الإنسان.. فالإنسان جسد وروح.. ففى الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسمانى، ورضوان الله أكبر هو أعلى النعيم الروحانى..

إن لحظة اتصال بالله، لحظة شهود لجلاله، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ومن ثقلة هذه الأرض، وهمومها القريبة لحظة تنبثق فيها فى أعماق القلب شاعة من ذلك النور الذى لا تدركه الابصار، لحظة اشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التى تتفق للندرة القليلة من البشر فى ومضة صفاء ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، ويستشعره بدون انقطاع..؟

«ذلك» الرضوان هو وحده «الفوز العظيم» الفوز كل الفوز. والنعيم كل النعيم، لا ما يعده الناس فوزا، ولا ما يطلبه المنافقون والكفار من التمتع بطيبات الدنيا.

اخرج الشيخان والطبرى وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ومالنا لا نرضى وقد اعطيتنا مالم تعط أحد من خلقك؟ فيقول: الا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك يارب؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا.

الجنـــة

الجنة فى الأصل مأخوذة من الجن بمعنى الستر وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه، وعلى الأرض التى بها شجر ونخل، كما تطلق على نفس الشجر، ثم صارت علما على دار الثواب التى فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وجمعت الجنة جمع قلة لقلتها عددا مع اشتمال كل واحدة منها على درجات متفاوتة، ومنازل متباينة، بحسب تفاوت درجات العمل، ومراتب الاخلاص.

وقد ورد أنها سبع جنات، أعلاها وأفضلها جنة الفردوس، فجنة المأوى، فجنة الخلد، لجنة النعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الاجلال، واختار هذا القول ابن عباس - رضى الله عنهما - وجماعة - وذهب جمع من العلماء إلى أنها أربع فقط: بدليل ما جاء فى سورة الرحمن قال تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان».. جنة النعيم، وجنة المأوى ثم قال تعالى: «ومن دونهما جنتان».. جنة عدن وجنة الفردوس، وقيل: الجنة واحدة والاسماء المتقدمة صادقه عليها.

والحق الذى يجب الإيمان به أن الجنة هى دار الثواب التى وعدها الرحمن عباده الصالحين،، أما أنها واحدة أو أكثر فهذا بحث لا يترتب عليه كبير فائدة، ولم يرد فى ذلك نص صريح أو مستند صحيح.

وقد وصف الله الجنة بقوله: «تجرى من تحتها الأنهار»..

والنهر اسم لمجرى الماء، أو اسم لنفس الماء، وهو أعظم من الجدول، وقد يخص بما دون

البحر، وهو المتبادر عند الإطلاق لكثرة وروده فى ذلك وقد يسمى النهر العظيم بحرا وجريان الأنهار إنما هو من تحت أشجار الجنة.

وقد ورد أن انهار الجنة تجرى فى غير أخدود وهذا فى أرض حصباؤها الدر والياقوت، وترابها المسك أبلغ فى النزهة، وأبهى فى المنظر، وأبهج للنفس، يضاف إلى هذه المتع الروحية مافى أنهار الجنة من رى عذب هنىء، وغذاء شهى مرى.. «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات»[٣٦]

ولروعة هذا الوصف وجمال هذا المنظر منظر الأنهار، وهى تجرى تحت ظلال الاشجار كثر فى القرآن، وورد الوعد بالجنة مقرونا بهذا الوصف.

خلود الجنة والنار

وقد ضمن الله للمؤمنين والمؤمنات أن يتمتعوا بالتنعم فى الجنة خالدين فيها والخلود هو الدوام الأبدى، أى البقاء الذى لا نهاية له كما ذهب إليه الجمهور.

وقال قوم: هو البقاء الطويل الأمد، وجاءت اللانهائية فى هذا الوعد للتصريح بالأبدية فى القرآن مع عدم المعارض العقلى، وقد اتفقت الفرق الإسلامية كلها على أن لا فناء للجنة ونعيمها، ولا للنار وعذابها، ولافناء لأهليهما فيهما، وعليه جرى السلف.. فلم يعفر خلاف فى العصر الأول عن أحد من الصحابة فى ذلك، ولم يشد عن هذا الجهم بن صفوان، وأبوالهذيل العلاف، وبعض الروافض:

أما جهم فقال: إن الجنة والنار يفنيان، ويفنى أهلهما، وأما أبوالهذيل فقال: إن الجنة والنار لا يفنيان ولا يفنى أهلهما، الا أن حركاتهم تفنى، ويبقون بمنزلة الجهاد، ولا يتحركون وهم فى ذلك احياء منعمون أو معذبون.

وأما بعض الروافض فقالوا: أن أهل الجنة وأهل النار يخرجون منها إلى حيث شاء الله.

وهذه الدعاوى تفتقد إلى ما يثبتها، فهى مابين دعوى لا دليل عليها، وأخرى مستندة إلى شبهة واهية، وثالثة مستندة إلى ظاهر آية غير مراد ويكفى أنها جميعا مخالفة للإجماع الذى عليه سلف الأمة، وجرى معاصرو هؤلاء المخالفين.

وقد صرح القرآن الكريم بخلود أهل الجنة، وخلود أهل النار فى النار «بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون» [٣٧] «أن الدين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه» [٣٨] «لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين»[٣٩] كما صرح بأن الفريقين احياء فيها، فقال فى حق أهل النار: «لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها» [٤٠] وقال فى حق أهل الجنة: «لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى» [٤١] والله أعلم.[٤٢]

ومن مجموع الآيات تستفيد:

١ـ أنه ما على المؤمن الا أن يحاسب نفسه، وينصب لها الميزان مكونا من كفة المؤمنين وكفة المنافقين فى هذه الآيات ويحكم لها أو عليها، بحكم الله عز وجل لا بهواها ولا يغترن أحد بلقب الاسلام، ولا بدعوى الإيمان، الا اذا شهد بصدقه القرآن.

٢ـ والآيات نص فى مساواة النساء للرجال فى نعيم الآخرة كله حتى أعلاه، لمساواتهم لهم فى التكليف وولاية الايمان، الا ماخصهن الشرع به لضعفهن وانفرادهن بوظائفهن الخاصة بهن، اذ حط عنهن وجوب القتال، والصلاة، والصيام فى بعض الأحوال. وكذا مساواتهن للرجال فى عذاب الآخرة، التابع لمشاركتهن لهم فى الكفر، أو النفاق.. وهذا من المعلوم بالضرورة من أحكام الاسلام وأن جهله أو تجاهله أعداؤه الطغام.

جهاد الكفار والمنافقين

وبعد بيان صفة المؤمنين الصادقين، وصفة المنافقين الذين يدعون الإيمان، يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين، ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد اسلامهم، وهموا بأمر خيبهم الله فيه، وهو من وحى الكفر الذى صاروا إليه، ويعجب من نقمتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماكان لهم من بعثته الا الخير والغنى، ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الكفر والنفاق.. «يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم، وبئس المصير، يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد اسلامهم، وهموا بما لم ينالوا، وما نقموا الا أن اغناهم الله ورسوله من فضله، فإن يتوبوا يك خيرا لهم وأن يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا والآخرة ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير»..

يا أيها النبى ابذل جهدك فى مقاومة الفريقين اللذين يعيشون مع المؤمنين، بمثل ما يبذلون من جهدهم فى عداوتك، وعاملهم بالغلظة والشدة الموافقة لسوء حالهم..

والكفار والمنافقون هم على سواء فى كفرهم بالله، ومحاربتهم لدين الله، وكيدهم لرسول الله.. وعلى النبى أن يجاهد هؤلاء وأولئك جميعا، وأن يلقاهم بكل قوة وبأس.. والمنافقون كافرون وأكثر من كافرين، فهم أشد أعداء الإسلام خطرا على الإسلام، لأنهم يسترون كفرهم بالنفاق، ويدارونه باظهار الإسلام، فهم بهذا عدو خفى.. يأمن المسلمون جانبه، ولا يأخذون حذرهم منه فيطلع منهم على ما يطلع عليه العدو الظاهر من مواطن الضعف منهم، وانتهاز الفرصة فيهم.

فاذا جاهد النبى الكفار فليجاهد المنافقين كذلك، وليشتد فى جهادهم، وليغلظ عليهم، فلا يرخى يده عنهم إذا أمكنته الفرصة فيهم..

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم لاين المنافقين كثيرا، وأفضى عنهم كثيرا وصفح عنهم كثيرا فهاهو ذا يبلغ الحلم غايته، وتبلغ السماحة أجلها، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة

جديدة، ويلحقهم بالكافرين فى النص، ويكلفه جهاد هؤلاء، وهؤلاء جهادا عنيفا لا رحمة فيه ولا هوادة..

إن للين مواضعه، وللشدة مواضعها، فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة، واذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع، وللحركة مقتضاياتها، وللمنهج مراحله، واللين فى بعض الاحيان قد يؤذى، والمطاولة قد تضر.

وقد اتفق علماء الملة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين، فلا يقاتلون إلا إذا اظهروا الكفر البواح بالردة أوبغوا على جماعة المسلمين بالقوة أو امتنع بعض طوائفهم من اقامة شعائر الإسلام واركانه، ثم اختلفوا فى الجهاد، والغلظة عليهم:

١. أتكون بالسيف؟ كما روى عن على وابن مسعود، واختاره ابن جرير، ولهذا اعتبر كثير من المفسرين بالمأثور هذه الآية. السيف الخاص بالمنافقين وعدوها إحدى الاسياف الأربعة المعدة لأعداء الإسلام.

٢. أم تكون فى المعاملة، والمواجهة وكشف خبيئتهم للانظار؟ كما اختاره الرازى والبيضاوى وهو مروى عن ابن عباس اذ قال: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان.

وفى تأييد هذا الرأى يقول الرازى: القول الثالث. وهو الصحيح. إن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، وليس فى اللفظ ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر.. فالآية تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين، فأما كيفية تلك المجاهدة فلفظ الآية لا يدل عليها، بل إنما يعرف من دليل آخر.. وقد دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف، ومع المنافقين بإظهار الحجة تارة، وبترك الرفق ثانيا، وبالإنتهار ثالثا. (٤٣)

ويظهر أن ابن جرير يرى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا اظهروا النفاق، قال: وأولى الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب ما قال ابن مسعود من أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم من جهاد المنافقين بنحو الذى أمره به من جهاد المشركين.

فإن قال قائل: فكيف تركهم صلى الله عليه وسلم مقيمين بين اظهر أصحابه، مع علمه بهم؟ قيل: إن الله تعالى ذكره انما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر ثم اقام على اظهاره ما اظهر من ذلك، وأما من اذا اطلع عليه منهم أنه تتكلم بكلمة الكفر وأخذ بها انكرها ورجع عنها وقال: إنى مسلم، فإن حكم الله فى كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن بذلك له دمه وماله، وأن كان معتقدا غير ذلك، وتوكل هو جل ثنائه بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر، فلذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم مع علمه بهم واطلاع الله اياه على ضمائرهم، واعتقاد صدورهم، كان يقرهم بين اظهر الصحابة، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبه الحرب على الشرك بالله، لأن أحدهم كان اذا اطلع عليه انه قال قولا كفر فيه بالله ثم أخذ به انكره واظهر الإسلام بلسانه، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يأخذهم إلا بما اظهر له من قوله، عند حضوره اياه، وعزمه على امضاء الحكم فيه دون ماسلف من قول كان نطق به قبل ذلك ودون اعتقاد ضميره الذى لم يبح الله لأحد إلا أخذ به فى الحكم، وتولى الأخذ به هو دون خلقه. (٤٤)

أ - بالجهاد كالكفار المجاهرين اذا استرسلوا بهذه الجرأة فى اظهار ما ينافى الإسلام من الاقوال، والأفعال كالقول الذى انكروه بعد أن اظهره الله عليه وكذبهم الله تعالى فى انكارهم.

ب - أو بجهاد دون جهاد الكفار المحاربين.. وأقله الا يعاملوا بعد هذا الأمر كمعاملة المؤمنين الصادقين، وأن يقابلوا بالغلظة، والتجهم. لا بالطلاقة، والبشر، واللين وسيأتى أن من جهادهم حرمانهم من الخروج والقتال مع النبى صلى الله عليه وسلم ومن صلاته على جنائزهم، ذكره المنار..(٤٥)

ثم قسم أعداء الإسلام إلى حربيين وغير حربيين.. فالحربيون يجاهدون بالسيف، وعليهم حمل رواية ابن عباس: «جهاد الكفار بالسيف» قال: واما الأعداء غير المحاربين كالمنافقين الذين قال الله عنهم لرسوله «هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله إنى يؤفكون»..(٤٦) والكفار المعاهدين والذميين الخائنين فقد كان صلى الله عليه وسلم يعاملهم اولا بلطفه ولينه، بناء على حكم الإسلام وكانت هذه المعاملة هى التى جرأت المنافقين على اذاه، ومنه قولهم فيه «هو اذن» وكذلك كفار اليهود.. كان صلى الله عليه وسلم عاهدهم ووفى لهم، وكانوا يؤذونه حتى بتحريف السلام عليهم بقولهم: السام عليكم ، وهو الموت، فيقول: وعليكم ثم تكرر نقضهم حتى كان من أمرهم ماكن، فأمره الله تعالى فى هذه الآية بالغلظة على الفريقين فى جهاده التأديبى لهم، وهو جهاد فيه مشقة عظيمة، لأنه موقف وسط بين رحمته، ولينه للمؤمنين المخلصين، وشدته فى قتاله للأعداء الحربيين، يجب فيه اقامة العدل، واجتناب الظلم، ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيهم: أذلوهم ولا تظلموهم

وهذه الغلظة الإرادية «أى غير الطبيعية» تربية للمنافقين، وعقوبة يرجى أن تكون سببا لهداية من لم يطبع الكفر على قلبه، وتحيط به خطايا نفاقه، فإن اكفهراره صلى الله عليه وسلم فى وجوههم تحقيراً لهم يتبعه فيه المؤمنون، وبه يفقدون جميع منافع اظهار الإسلام الأدبية، ومظاهر إخوة الإيمان وعطفه.. فمن رأى أنه محتقر بين قومه وابناء جنسه من الرئيس، والامام الأعظم، وغيره يضيق صدره ويرجع إلى نفسه بالمحاسبة، فيراها اذا انصف، وتدبر ملمة مذنبة فلا يزال ينحى عليها بالأئمة حتى تعرف ذنبها، وتثوب إلى رشدها فتتوب إلى ربها.. وهى سياسة حكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين، وإسلام كثير من الكافرين. هذا وإن معاشرة الرئيس لمنافقى قومه بمثل ما يعاشر به المخلصين منهم، فيه توطين لأنفسهم على النفاق، وحصل بغيرهم على الشقاق، فكيف اذا وضع المحاسنة موضع المخاشنة، والايثار لهم حيث تجب الاثرة عليهم، وبالغ فى تكريمهم بالحباء، والإصطفاء، لمبالغكم فى التملق له، ودهان الدهاء، والإطراء فى الثناء؟ فإن هذه المعاملة مفسدة لأخلاق الدهماء، ومثيرة لحفائظ المخلصين الفضلاء.. وكم أفسدت على الملوك الجاهلين أمرهم، وكانت سبب لاضاعة ملكهم؟..

هذا جزاؤهم فى الدنيا، فما جزاؤهم فى الآخرة؟ هو أن جهنم مأواهم الذى يأوون إليه، ومصيرهم الذى يصيرون له، فلا ملجأ لهم يلجأون إليه هناك إلا دار العذاب الكبرى التى لا يموت من أوى إليها ولا يحيى، فهم يصيرون إليها معتولين، ويدعون إليها مقهورين، لا يأوون إليها مختارين، «إنها ساءت مستقرا، ومقاما» (٤٧)

فقد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد، والغلظة، وعذاب الآخرة بجعل النار مأواهم وأنهم اذا افلتوا فى هذه الدنيا من القتل، أو الاسر فلن يفلتوا فى الآخرة من عذاب جهنم، والآية تطالب الأمة المسلمة بالمحافظة على الإسلام، ومجاهدة الكفار والمنافقين، لأن الخطاب وأن كان موجها للنبى صلى الله عليه وسلم بالأصالة، إلا أنه موجه لكل فرد من أفراد الأمة لقائده، وبالأسوة والقدوة لرسوله وكذلك كل من وقفت بمنه الأمة على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن.

بعض الأسباب المقتضية لجهادهم

الكذب ـ الغدر ـ رد المعروف بالاساءة ـ ظهور ما اختبأ من النفاق

(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد اسلامهم، وهموا بما لم ينالوا)..

هذا عرض لحال من أحوال المنافقين، وكشف لوجه من وجوهم المنكرة، وبيان للسبب المقتضى لجهادهم كالكفار.. وهو أنهم أظهروا الكفر بالقول وهموا بشر ما يغرى به من الفعل، وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أظهره الله على ذلك وأنبأه بأنهم سينكرونه اذا سألهم عنه، ويحلفون كذبا وزورا على انكارهم ليصدقوا، كدأبهم الذى سبق (اتخذوا إيمانهم جنة) وكانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم، وكانوا يخوضون فى آيات الله وفى رسوله بما هو استهزاء خرجوا به من حظيرة الايمان الذى يدعون إلى محظور الكفر الذى يكتمونه، وفى هذه الآية اسناد قول آخر من الكفر إليهم ينافى الاسلام الظاهر فضلا عن الإيمان الباطل.

والمعنى: يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التى أسندت إليهم ولا ذلك القول المنكر الذى كان سرا بينهم، وقد رد الله إيمانهم الفاجرة، وكذبهم وفضحهم، وأطلع رسوله والمسلمين عليه وأثبت بتأكيد القسم، إنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم، والمراد بها الكلام الذى تحدثوا به فيما بينهم، وتناولوا فيه النبى صلى الله عليه وسلم بالهزؤ والسخرية، وقالوا حين سئلوا: انما كنا نخوض ونلعب، وذلك منهم هو الكفر الصراح، فلو كان فى قلوبهم شيىء من الإيمان لما حدثتهم أنفسهم بهذا السوء ولما طاوعتهم ألسنتهم على النطق بهذا المنكر من القول.

ولم يذكر هذه الكلمة التى نفوها وأثبتها، لأنها لا ينبغى أن تذكر فى نص الكتاب فيتعبد المسلمون بتلاوتها.. وفى التعبير عن كلمات السوء بكلمة الكفر اشارة إلى أن حصيلة هذا الكلام الكثير الذى دار على ألسنتهم هو كلمة واحدة هى الكفر، الذى دمغوا به ظاهرا بعد أن كان يعيش فى كيانهم متخفيا مستبطنا.. فكلامهم كله هو الكفر، اذ لا ثمرة له الا الكفر.

(وكفروا بعد إسلامهم).. تأكيد لكفرهم الذى استعلن بكلماتهم المنكرة المنافقة التى فضحهم الله تعالى بها، وفيه اشارة إلى أنهم لم يكونوا مؤمنين أبدا، وأن الإيمان لم يدخل قلوبهم، وانما جرت كلمة الإسلام على ألسنتهم فحسبوا بهذا من المسلمين لامن المؤمنين. (قالت الأعراب آمنا، قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) (٤٨)

سبب نزول الآية

وهناك روايات متعددة تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية، وتعين كلمة الكفر والقائلين لها:

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتاده قال: نزلت فى عبدالله ابن أبى، وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى فعلا الجهنى على الانصارى، فقال عبدالله للانصار: ألا تنصرون أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية.

وروى الامام أبو جعفر بن جرير - باسناده - عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا تحت ظل شجرة فقال: (إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين الشيطان، فاذا جاء فلا تكلموه) فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق(٤٩) فدعاه رسول الله صلى عليه وسلم، فقال: (علام تشتمنى أنت وأصحابك؟) فانطلق الرجل فجاء بأصحابه. فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله تعالى (يحلفون بالله ما قالوا) الآية.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ، عن عروة بن الزبير وابن عباس وأنس وغيرهم ما مؤاده أنها نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصامت(٥٠) وكان له ربيب من امرأته اسمه عمير بن سعد - وفى رواية: (٥١) لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين ، وفى أخرى (٥٢) اقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه ومنهم الجلاس(٥٣) فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها، فقال عمير: والله يا جلاس أنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى بلاء، وأعزهم على أن يصله شىء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك، ولئن كتمتها لتهلكنى، ولاحداهما أهون على من الأخرى، فأخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنكرها وحلف بالله ما قالها، ولقد كذب على عمير، فقال الغلام: بلى والله لقد قلته، فتب إلى الله، ولولا أن ينزل القرآن فيجعلنى معك ما قلته، وكان يدعو حين حلف الجلاس: الله أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب، فجاء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسكنوا فلا يتحركون اذا نزل الوحى فرفع عن النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: (يحلفون بالله ما قالوا -إلى - فإن يتوبوا يك خيرا لهم) فقال الرجل: قد قلته، وقد عرض الله علىّ التوبة فأنا أتوب فقبل منه ذلك، ولما نزل القرآن أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بأذن عمير فقال له: (يا غلام أذنك وصدقك ربك).. وقتل للجلاس قتيل فى الإسلام، فوداه رسول الله عليه وسلم فأعطاه دينه، فاستغنى بذلك، وكان هم أن يلحق بالمشركين، وقيلى هم أن يقتل عميرا، فذلك قوله تعالى.. (وهموا بما لم ينالوا).

تعليق على سبب النزول

النص فى عمومه يستعرض حالة المنافقين فى كثير من مواقفهم، ويشير إلى ما أرادوه من الشر للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، المعبر عنه بكلمة الكفر والتى حددتها الروايات السابقة بما حكى من قولهم: والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك، أو والله لئن كان هذا الرجل صادقا فلنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها، لكن:

١ـ أشار الحافظ الذهبى إلى ضعف حديث الجلاس هذا، مع قوله: إنه كان من المنافقين وتاب.

٢ـ وروى أنه كان من المخلفين لم يحضر غزوة تبوك.

٣ـ وقول ابن أبى هذا قد رواه الشيخان وغيرهما، فأخرجه البخارى فى تفسير سورة المنافقون وأنه كان فى غزاة، وذكر الحافظ فى شرحه عن محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند النسائى، وعن سعيد بن جرير مرسلا عند عبد بن حميد باسناد صحيح أنها غزوة تبوك، وأن الذى عيه أهل المغازى أنها فى غزوة بنى المصطاق، وأن هذا القول كان سبب نزول سورة المنافقون، وليس فيه أن آية براءة ـ التى نفسرها ـ نزلت فى ذلك.

٤ـ وحديث البخارى ومسلم عن جابر بن عبدالله من طريقين: أن الخصام الذى كان سبب قول ابن أبى ـ لعنه الله ـ ما قال، كان بين مهاجرى وأنصارى وذكر الحافظ فى شرحه رواية قتادة فى ذلك.

٥ـ وابن أبى كان من المخلفين لم يخرج فى غزوة تبوك كالجلاس.[٥٤]

٦ـ قال الرازى[٥٥]: قال القاضى ويبعد أن يكون المراد من الآية هذه الروايات، وذلك لأن الآية كلها صيغ المجموع، وحمل صيغة الجمع على الواحد خلاف الأصل، وكون واحد تكلم به، ورضى به الباقون خلاف الظاهر، والظاهر أنهم لما اجتمعوا لذلك الغرض فقد طعنوا فى نبوته، ونسبوه إلى الكذب، والتصنع فى ادعاء الرسالة.

٧ـ وفى المسألة روايات أخرى، قالوا: ولا مانع من التعدد عقلا، وإن لم يصح نقلا.

٨ـ ثم أن الروايات السابقة لا تنسجم مع عبارة (وهموا بما لم ينالوا) لأن المعنى بها حينئذ . كما ذكره الطبرى ـ هو رجل من المنافقين وكان الذى هم بقتل ابن امرأته الذى سمع منه ماقال، وخشى أن يفشيه عليه، أو كان الذى هم رجلا من قريش والذى هم به قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال للرجل الأسود، قاله مجاهد، أو الذى هم عبدالله ابن أبى بن سلول، وكان همه الذى لم ينله قوله: لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قاله قتادة: مع أن المقصود من العبارة فضح لخفية من خفايا المنافقين، وكشف لمكيدة من مكايدهم، وأنهم قد بيتوا عدوانا ودبروا كيدا، ولكن الله سبحانه أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم.

محاولة اغتيال النبى منصرفه من تبوك

ولهذا تتضافر الروايات على أن المعنى بها ما أراده جماعة من المنافقين فى أثناء العودة من الغزوة من شر وائتمار فيما بينهم، على أن يرصدوا للنبى صلى الله عليه وسلم، وأن يقتلوه غيلة منصرفه من تبوك، فأطلع الله نبيه عليهم وأراه ما دبروا، وسنختار بعض هذه الروايات:

قال الامام أحمد رحمه الله : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبدالله بن جميع، عن أبى الطفيل قال: لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة [٥٦]، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عمارا وهو

يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل عما رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة: (قها . قها) حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع عمار، فقال: (يا عمار، هل عرفت القوم؟) فقال: لقد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، قال: (هل تدرى ما أرادوا؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فيطرحوه) قال: فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: نشدتك بالله كما تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال : أربعة عشر رجلا، فقال: أن كنت منهم فكان . كانوا خمسة عشر، قال: فعد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة، قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد).

وذكر ابن القيم فى هذه المسألة ما نصه(٥٧) ذكر أبو الأسود فى مغازيه عن عروة قال: ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة، حتى اذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المنافقين، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق، فلما بلغوا العقبة ارادوا أن يسلكوها معه فلما غشيهم رسول الله أخبر خيرهم، فقال: (من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادى فإنه أوسعت لكم وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادى، إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه) وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها، فبينما هم يسيرون اذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع ومعه محجن، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمون، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافرو فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليهو فأسروعا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أدركه قال: (اضرب الراحلة يا حذيفة، وأمشى أنت ياعمار وراءها) فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لحذيفة: (هل عرفت من هؤلاء الرهط أو الركب أحدا؟) قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟) قالوا: لا والله يا رسول اللهو قال: (فإنهم مكروا ليسيروا معى، حتى اذا طلعت فى العقبة طرحونى منها) قالوا: أولا تأمر بهم يا رسول الله اذن فنضرب اعناقهم؟ قال: (أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه) فسماهم لهما وقال:(اكتماهم)

وهذا السياق رواه البيهقى وغيره من هذه الطريق، وفى رواية عنده قلنا يا رسول الله، أو لا

تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث لك من كل قوم برأس صاحبهم؟ قال:(أكره أن يتحدث العرب عنا أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم).

وقد روى القصد ابن اسحق فى سيرته، وذكر أسماء أولئك الرهط بما انكر عليه بعضه والصحيح فى عدد هؤلاء الرهط ما رواه مسلم من حديث عمار وحذيفة اللذين كانا مع راحلة النبى صلى الله عليه وسلم فى العقبة، وقد أخبرهما باسمائهم، وأمرهما بكتمانها..

روى مسلم فى صحيحه من حديث قيس بن عباد قال: قلنا لعمار: أرأيت قتالكم (يعنى مع على كرم الله وجهه) أرأيا رأيتموه، فإن الرأى يخطىء ويصيب؟ أو عهدا عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة وقال:[٥٨] إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أن فى أمتى - قال شعبة: وأحسبه قال: حدثنى حذيفة قال: [٥٩] وقال غندر: أراه قال: (فى أمتى - اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة: سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم[٦٠]

وروى بعده من حديث أبى الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: انشدك بالله كما كان من أصحاب العقبة؟ قال: قال لهم القوم أخبره اذ سألك، قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا، ويوم يقوم الاشهاد وعذر ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علمنا بما اراد القوم وقد كان فى حرة فمشى فقال: (إن الماء قليل فلا يسبقنى إليه أحد) فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ، أ. هـ

قال ابن كثير: ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السحر الذى لا يعلمه غيره أى من تعين جماعة من المنافقين، وإن هؤلاء قد أطلعه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره.

وقد ذكر الطبرانى فى مسند حذيفة أسماء أصحاب العقبة، وروى عن على بن عبدالعزيز عن الزبير بن بكار أنه قال: هم عتيب بن قشير[٦١] ووديعة بن ثابت وجد بن عبدالله بن نبتل بن الحارث من بنى عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائى، وأوس ابن قيظى والحارث بن سويد، وسعد بن زراره، وقيس بن فهد، وسويد بن داعس من بنى الحبلى، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام - وهما من بنى قينقاع، أظهروا الاسلام، أ.هـ من تفسير ابن كثير [٦٢] وإنما ذكر عددهم واسماؤهم حتى لا يكون لمنافقى الروافد واخوانهم سبيل إلى تضليل عوام المسلمين بما اعتادوا من الطعن فى جميع أصحاب النبيين والمرسلين.

هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم، وسواء كانت هى أو شىء مثلها هو الذى تعنيه الآية؛ فإنه ليبدو عجيبا أن تنطوى صدور القوم على مثل هذه الخيانة.

تعجيب واستنكار

والنص يعجب هنا منهم ويستنكر هذا المنكر الذى هم فيه، وأنهم لم يتخذوا هذا الموقف المنحرف اللئيم من الله ورسوله الا لما أفاء الله ورسوله به عليهم من فضله.. (وما نقموا الا أن اغناهم الله، ورسوله من فضله)..

فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها، اللهم إلا أن يكون الغنى الذى غمرهم بعد الإسلام، والرخاء الذى أصابهم بسببه هو ما ينقمون.. وهكذا أصحاب الطباع السيئة، والنفوس المريضة تنقلب حقائق الاشياء عندهم، فإذا النور ظلام. والحق باطل.. والنعمة نقمة، والله سبحانه وتعالى يقول فى مثل هؤلاء الحمقى والسفهاء من الناس: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار)[٦٣]

انظر كيف جاء النظم القرآنى (وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) ليكشف بذلك عما بلغه القوم من سفه وضلال حتى أنهم ليجدون فى النعم التى يتفضل الله عليهم بها ما يحرك فى نفوسهمه داعية الانتقام ممن أنعم عليهم، حتى لكأن هذه النعم شر قد سيق إليهم وبلاء قد وقع بهم.

الحكم الفاصل فى التوبة والتولى:

ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم بعد كشف خبيآتهم بالحكم الفاصل مرسلا إليهم سحائب مزنة تمطر أرضهم المجدبة، وملوحا لهم باشارات مضيئة تطلع فى ليلهم المطبق عليهم رجاء أن يتوبوا إلى الله ويستقيموا على الطريق الحق.. فبعد هذا الحشد الضخم من أعمال النفاق، وأقواله، ومساويه المدنسة للأرواح، يظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح، ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج فالعاقبة كذلك معروفة.. العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة، وانعدام الناصر، والمعين فى هذه الأرض) ولمن شاء أن يختار، وهو وحده الملوم..

(فإن يتوبوا يك خيرا لهم، وأن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير)..

والخيرية للتائبين منهم تكون فى الدنيا والآخرة بدليل مقابلة فى الجملة التالية:

أما فى الدينا فيما فيه من الفوائد الروحية، والعلمية بالايمان بالله والتوكل عليه والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر لنعمائه، وعلو الهمة، والتوجه إلى سعادة الآخرة، ومعاشرة الرسول الأعظم، ومشاهدة ما حجبه النفاق عنهم من أنواره ومعارفه، وفضائله.

ومن الفوائد الاجتماعية: بإخوة المؤمنين ومافيها من الود الخالص، والوفاء الكامل والإيثار على النفس، وغير ذلك من مزايا التعاون، والاتحاد. وأما فى الآخرة فيما تقدم قريبا من وعد الله للمؤمنين.

والعذاب الأليم للمصرين على النفاق، المتولين عما دعوا إليه من التوبة يكون أيضا فى الدنيا والآخرة، وأما فى الدنيا فيمثل ما تقدم من قوله تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) [٦٤] وقوله بعده فى وصف ما يلازم قلوبهم من الفرق (لو يجدون ملجأ أومغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) [٦٥] وفى معناه (يحسبون كل صيحة عليهم) فهم فى جزع دائم وهم ملازم، وكذلك حرمانهم من كل ولى، ونصير فى هذه الأرض كلها، وأما فى الآخرة فحسبك ما تقدم آنفا من وعيد المنافقين، والمنافقات.

ثم بعد هذا ليس لهم فى الأرض كلها أدنى ولى يتولاهم، ويهتم بشأنهم، ولا أضعف نصير ينصرهم ويدافع عنهم، لأن من خذله الله وآذنه بحرب منه لا يقدر أحد أن يجيره منه، وأما ناحية الأسباب الدنيوية فأبوابها قد اغلقت فى وجوههم، فإن الله تعالى حصر ولاية الأخوة، والمودة، وولاية النصرة فى المؤمنين، والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات فلن يجدوا بعد الآن أحدا من المسلمين يتولاهم أو ينصرهم بما يظهرون من الإسلام وقد كان منهم ماكان، ولا من قبائلهم وأولى أرحامهم، لأن الإسلام قد أبطل عصبية الأنساب، ولا من الغرباء بماكان يكون عند العرب من الجوار والحلف، فقد قضى الإسلام على الجاهلية وجوارها، ولا من أهل الكتاب أيضا فإن احلافهم منهم قد قضى عليهم فى الحجاز بالقتل والجلاء، ولا سبيل لهم إلى غيرهم فى شاسع الامصار.. على أن الله تعالى وعد المؤمنين بملك قيصر وكسرى، وهكذا كان وصدق ما أخبر الله به من انتفاء الأولياء، والأنصار لهم فى الأرض كلها.. وهذا من نبأ الغيب الذى يكثر فى القرآن.

هذا ما يخص حرمانهم من الأولياء، والنصراء فى الدنيا كلها، ومن المعلوم بالنصوص الأخرى أنه ليس للمنافقين، ولا للكفار ولى ولا نصير فى الآخرة وإنما خص أمر الدنيا بالذكر هنا لأنه هو الذى يهم المنافقين هؤلاء دون الآخرة التى لا يوقنون بها.

بعض نماذج من أحوال المنافقين وأقوالهم

ثم يمضى السياق فى عرض نماذج من المنافقين، وأحوالهم، وأقوالهم من قبل الغزوة وفى ثناياها، وفى كشف وجه كريه آخر من وجوه النفاق تبلور فى طائفة أخرى من أولئك الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر، والإملاق، ويوجد مثلهم فى كل زمان، وهم الذين يلجأون إلى الله تعالى في وقت العسرة، والفقر، أو الشدة، والضر، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له، والطاعة لشرعه، إذا هو كشف ضرهم، وأغنى فقرهم، فإذا استجاب لهم نكسوا على رؤوسهم، ونكصوا على أعقابهم وكفرو النعمة، وبطروا الحق، وهضموا حقوق الخلق، وهذا مثل من شر امثالهم..

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن، ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)..

من المنافقين من يلقى الله فى حال الضيق والعسرة مستكينا مستسلما ويبسط إليه يده ضارعا طامعا، يتمنى على الله أن يبسط له فى الرزق وأن يملأ يديه مالا وثروة، ويقسم أوكد الإيمان أن استجاب الله له فيما طلب ليبذلن الصدقة وليبسطن يده بالعطاء والانفاق فى وجوه الخير وليصلحن العمل، فينتظم به فى سلك الصالحين القائمين بحقوق الله وحقوق عباده، وليشغلن قلبه ولسانه بالحمد والشكر لله رب العالمين..

هذا موقف من مواقف المنافقين مع الله فى وقت الرجاء، والطمع حين ينزل بهم العوز ويمسهم الضر، ويصيبهم الفقر..

فماذا يكون منهم اذا كشف الله مابهم من ضر، وصرف عنهم العوز والفقر، ووسع لهم فى الرزق وأفاء عليهم من فضله؟ هنا يغلب عليهم طبعهم اللئيم فإذا هم على طريق النفاق قد تنكروا لوعودهم ونقضوا عهودهم التى عقدوها مع الله وتحللوا من الوفاء بها.

(فلما آتاهم من فضله) ما لبثوا أن بخلوا بما آتاهم عقب حصوله، وضنوا بهذا الفضل الذى هو من عند الله على الانفاق فى سبيله، وأدركهم الشح، وقبضوا أيديهم فلم يتصدقوا بشىء منه، وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة، وإصلاح حالهم وحال أمتهم بما عاهدوا وآقسموا.. ولم يكن توليهم هذا أمرا عارضا شغلهم عنه شاغل يزول بزواله، بل (تولوا وهم معرضون) بكل قواهم عن الوفاء بما عاهدوا من الصدقة والعمل الصالح، فكان الاعراض صفة راسخة فيهم، وعادة لهم، بحيث اذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون، واذا دعوا إليه لا يستجيبون.

وقد وصفهم الله تعالى بصفات ثلاثة: البخل وهو منع الحق، والتولى عن العهد، والأعراض عن تكاليف الله وأوامره.. فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سببا فى التمكين للنفاق في قلوبهم والموت على هذا النفاق ولقاء الله به..(فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه)[٦٦]..

أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك كفرا مضمرا ونفاقا راسخا فى قلوبهم متمكنا منها لازما لها.. لقد تبعهم النفاق وركب معهم الطريق الذى ركبوه مبعدين عن الله مطرودين من رحمته، وسيصحبهم هذا النفاق إلى يوم القيامة يوم لقاء الله عزو وجل للحساب والجزاء، حيث يطلع عليهم هذا النفاق بوجهه الكالح الكريه ليقف معهم بين يدى الله، وليكون شاهد ادانتهم ورفيق طريقهم إلى عذاب السعير.

وإنما كان هذا العقاب لأن النفاق بلغ المنتهى الذى لا رجاء معه فى التوبة، ذلك (بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)[٦٧] فذكر سببين هما أخص صفات المنافقين وأظهر الآيات الدالة على نفاقهم: اخلاف الوعد والكذب.. فكيف اذا كان الوعد لله تعالى مع العهد والقسم.

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة الا من عصم الله، ولا تطهر من هذا الشح الا أن تعمر بالإيمان وترتفع عن ضرورات الأرض، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب لأنه تؤمل فى خلف أعظم، وتؤمل فى رضوان من الله أكبر.. والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان، فلا يخشى الفقر بسبب الانفاق لأنه يثق بأن ماعند الناس ينفد وما عند الله باق، وهذا الإطمئنان يدفع به الى النفاق المال فى سبيل الله تطوعا ورضى وتطهرا وهو آمن مغبته فحتى لو فقد المال وافتقر منه فإن له عوضا أعظم عند الله..

فأما حين يفقر القلب من الايمان الصحيح فالشح الفطرى فى نفسه كلما دعى إلى نفقة أو صدقة، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار..

والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد، لا يسلم قلبه

من النفاق (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا أؤتمن خان) فلا جرم يعقب اخلاف العهد، والكذب على ا لله نفاقا داخلا فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآية.. فهذا النفاق الذى لبسهم، وأشتمل عليهم، وأصبح بعضا منهم، هو الثمرة الخبيثة التى أثمرها أخلافهم وعدهم لله، وقولهم بألسنتهم ماليس فى قلوبهم، وهم يحسبون أن الله محدود القدرة محدود العلم، وأنه اذا لم يشهد شهود عيان.

هذا العهد الذى عاهدوه عليه لم تقم عليهم حجة، وكان لهم أن يمكروا به وينكروا العهد الذى أعطوه من أنفسهم له!!..

وهذا عدوان على الله أوقعهم فيه سوء فهمهم وتقديرهم لجلال الله وعظمته وقدرته وعلمه، ولهذا أنكر الله عليهم سوء ظنهم به وخطأ تصورهم لكمال صفاته.. (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم[٦٨] وأن الله علام الغيوب) ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون، ويقولون مالا يفعلون ويتناجون فيمابينهم بالأثم والعدوان ولمز الرسول - وهم يدعون الايمان - أن الله مطلع على السرائر الكامنة فى أعماق قلوبهم، عالم بما يدور بينهم من أحاديث يخصون بها فى خفية عن الناس؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور؟ (لا يخفى عليه شيىء فى ا لأرض ولا فى السماء) [٦٩] (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور)[٧٠] ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا ألا يستخفوا من الله بنية، وألا تحدثهم نفوسهم باخلاف ما عاهدوا الله عليه، والكذب عليه فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه بإسمه.

قصة ثعلبة

وقد وردت روايات عن سبب نزول الآيات الثلاثة، نذكر منها رواية عن ابن جرير وابن أبى حاتم[٧١] من حديث معان - باسناده - عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى[٧٢] أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يرزقنى مالا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه) قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: (أما ترضى أن تكون مثل نبى الله، فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت) قال: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله أرزق ثعلبة مالا) قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود[٧٣]، فضاقت المدينة، فتنحى عنها، فنزل واديا من أوديتها، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهى تنمى كما ينمى السدود، حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنم فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! وأنزل الله جل ثناؤه (خذ من أموالهم صدقة) الآية، ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم،

وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: (مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذ اصدقائهما) فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذه الاجزية ما هذه الا أخت الجزية، ما أدى ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بل فخذوها[٧٤] فإن نفسى بذلك طيبة، وإنما هى لى فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أرونى كتابكما فقرأه فقال: ما هذه إلاجزية ماهذه الا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال: (يا ويح ثعلبة!) قبل أن يكلمهما، ودعا السلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبه والذى ضع المسلمى، فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد اله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) الآية الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) الآية، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبه، فسمع بذلك فخرج حتى اتاه، فقال: ويحك يا ثعلبه أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: أن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك" فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعنى) فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبض صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى اليه عليه وسلم ولم يقبل منه شيئا، ثم أتى أبابكر رضى الله عنه حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الانصار فأقبل صدقتى، فقال أبوبكر: لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبى أن يقبلها فقبض أبوبكر ولم يقبلها، فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبوبكر وأنا أقبلها منك؟ فقبض ولم يقبلها، فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتى، فقال: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبوبكر ولا عمر وأنا اقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان.

اشكالات فى سبب النزول: وفى الحديث هذا اشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات:

١- ظاهر سياق القرآن أنه كان فى سفر غزوة تبوك، وظاهر الحديث أنها نزلت عقب فرضية الزكاة والمشهور أنها فرضت فى السنة الثانية.

٢- وبعدم قبول توبة ثعلبة وظاهر الحديث ولا سيما بكائه - أنها توبة صادقة، وكان العمل جاريا على معاملة المنافقين بظواهرهم، وظاهر الآيات أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب عن بخله واعراضه وأن النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاءه عاملوه بذلك لا بظاهر الشريعة، وهذا لا نظير له فى الإسلام.

٣- أن لفظ الآيات جاء على صيغ الجموع، والحديث جاء فى شخص واحد.

ويمكن أن يجاب عن الأول: بأن الزكاة وأن كانت قد فرضت فى السنة الثانية للهجرة فإن آية (خذ من أموالهم صدقة) نزلت سنة تسع، اذ قد جاءت فى سياق تعداد اصناف المجتمع المدنى فى هذه السنة، على أنه لا مانع من أن تفرض الزكاة سنة اثنتين ثم يعاد الأمر

بفرضيتها سنة تسع تقريرا وتوكيدا لها، ويكون معنى عبارة الحديث (ونزلت فرائض الصدقة) وتأكدت فرائض الصدقة بنزول هذه الآية واذن فلا اشكال فى أن تنزل عقبها هذه الآيات.

ونجيب عن الإشكال الثانى: بأنه اذا كانت الرواية صحيحة فى ربط الحادثة بنزول الآيات، فإن علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن نقض العهد، والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه، يكون هو الذى منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التى ظهر بها، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة، إنما عامله بعلمه بحاله الذى لا شك فيه، لأنه اخبار من العليم الخبير وكان تصرفه صلى الله عليه وسلم تصرفا تأديبيا برد صدقته، مع عدم اعتباره مرتدا فيؤخذ بعقوبة الردة ولا مسلما فتقبل منه زكائه.. ولا يعنى هذا اسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة.. إن الشريعة تأخذ الناس بظاهرهم فيما ليس فيه علم يقينى كالذى كان فى هذا الحادث الخاص فلا يقاس عليه.

ويجيب الفخر على هذا الاشكال بعدة احتمالات فيقول: فإن قيل: إن الله تعالى أمره باخراج الصدقة، فكيف يجوز من الرسول عليه الصلاة والسلام أن لايقبلها منه؟ قلنا: لا يبعد أن يقال: أنه تعالى منع الرسول عليه السلام عن قبول الصدقة منه على سبيل الاهانة له ليعتبر غيره به فلا يمتنع عن أداء الصدقات ولايبعد أيضا أنه انما أتى بتلك الصدقة على وجه الرياء لا على وجه الاخلاص، وأعلم الله الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، فلم يقبل تلك الصدقة لهذا السبب، ويحتمل أيضا أنه تعالى قال: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة.(٧٥)

ولنا أن نجيب عن الأمر الثالث: بأن الاحلاف، والكذب وان كانا قد وقعا من ثعلبة فهما دأب المنافقين وديدنهم، ولا ريب أن عمل ثعلبة قد نال اعجاب كثير منهم، وحاز موافقتهم، فكانوا مشاركين له، وليس ثعلبة وحده - أن صح ماروى فيه - هو الواقع تحت حكم هذه الآيات «بل هو حكم واقع على كل من نكث مع الله عهدا.. وما أكثر الناكثين عبود الله!

وسواء كانت هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أو كان غيرها فإن النص عام وهو يصور حالة عامة، ويرسم نموذجا مكررا للنفوس التى لم تتيقن ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن.

غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة، أنهم كانوا يحسبونها نعمة عليهم من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه فهو الخاسر الذى يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته مدركين لحقيقة المعنى الكامن فى قوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فكانت لهم غنما ينالونه، ولا غرما يحملونه، وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله وضريبة تدفع لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس.

لون آخر من تصورات المنافقين للصدقة

والآن يعرض السياق لونا آخر من تصورات المنافقين للزكاة يخالفون به ذلك التصور الحق عند المؤمنين الصادقين، ويكشف عن سلاح من أسلحتهم الخفية التى يضربون بها فى كيان

المجتمع الإسلامي، وعن لون من طبيعة الغمز فيهم واللمز التابعين من طبعهم المنحرف المدخول..

الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات، والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم(٧٦)

سبب النزول: والقصة المروية عن سبب نزول هذه الآية تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الانفاق فى سبيل الله وبواعثه فى النفوس.. أخرج ابن جرير عن طريق يحيى بن أبى كثير ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبى حاتم عن طريق الحكم بن ابان عن عكرمة - بألفاظ مختلفة - قال: حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة (يعنى فى غزوة تبوك) فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله، مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: (بارك الله لك فيما أمسكت وفيما اعطيت) (٧٧) وجاء أبوعقيل (٧٨) بصاع من تمر فقال: يا رسول الله، اصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربى وصاع لعيالى، قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما الذى أعطى بن عوف الارياء وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ وفى روايات أخرى أنهم قالوا عن أبى عقيل، وهو الذى بات يعمل ليحصل على صاعين أجرا له، جاء بأحدهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه انما أراد أن يذكر بنفسه!

وعن أبى مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا(٧٩) فجاء رجل فتصدق بشيىء كثير، فقالوا مرائى وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: أن الله لغنى عن صدقة هذا، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين)(٨٠) الآية.

وفى روايات أخرى: قال المنافقون: جاء هذا بأربعة آلاف، وجاء هذا (يعنون عاصم ابن عدى الانصارى) بسبعين وسقا للرياء والسمعة فهلا اخفياها فهلا فرقاها، ولمز المنافقون أبا عقيل وقالوا: جاء أهل الابل بالأبل، وجاء أهل الفضة بالفضة وجاء هذا بتمرات يحملها فأنزل الله تعالى الآية.

وفى رواية ابن أبى حاتم عن ابن زيد: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أحد المطوعين وأنه جاء بمال كثير يحمله، فقال له رجل من المنافقين: أترائى يا عمر؟ فقال: نعم ارائى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فأما غيرهما فلا.

وأخرج أحمد والطبرى - باسنادهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يتصدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة) فجاء رجل ليس رجل بالبقيع أقصر منه ولا أشد سوادا ولا أدم بعين منه، يقود ناقة ليس بالبقيع أحسن منها ولا أجمل منها، قال: أصدقة هى يا رسول الله قال: نعم قال: فدونك فالقى بخطامها أو بزمامها قال: فلمزه رجل جالس، فقال: والله أنه ليتصدق بها ولهى خير منه، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (بل هو خير منك ومنها،حتى يقول ذلك ثلاثا صلى الله عليه وسلم).

وهكذا تقولت جماعة المنافقين على المؤمنين الذين ابنعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس

ورضى قلب واطمئنان ضمير، ورغبة فى المساهمة فى الجهاد.. كل على قدر طاقته وكل على غاية جهده.. ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع فى النفوس المؤمنة لا يدركون حساسة الضمير الى لا تهدأ الا بالبذل عن طيب خاطر، لا يدركون المشاعر الرفرافة التى تنبعث انبعاثا ذاتيا لتلبى دواعى الايمان والتضحية والمشاركة.. من أجل هذا نرى أنهم لا يكفيهم أنهم كفوا أيديهم عن الجهاد فى سبيل الله وغلوها عن الانفاق فى وجوه الخير، بل جعلوا يترصدون المنفقين ويتخذون منهم مادة للهزؤ والسخرية، سواء المكثرون منهم والمقلون.. فالذين بسط الله لهم فى الرزق من المؤمنين، فبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل الله، وجاءوا بالكثير من أموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء هؤلاء هم عند الجماعة المنافقة مراؤون لا يطلبون بما انفقوا الا أن يظهروا فى الناس، والا أن يكونوا حديث المتحدثين وأما الذين قصرت أيديهم عن العطاء الكثير فأعطوا ما وسعهم الجهد، وجاءوا بما ملكت أيديهم فإنهم لم يسلموا من تلك الألسنة المنافقة، اذ جعلوا منهم مادة سخرية واستهزاء وتندر فيقولون فيما قالوا: ماذا تغنى الحفنة من التمر التى جاء بها فلان؟ وماجدوى هذه الكسرات من الخبز التى جاء بها فلان؟ وما هذا الثوب الخلق الذى يذله فلان؟ أن هؤلاء لم يفعلوا ما فعلوا من هذا العبث إلا ليذكروا مع المتصدقين وإلا ليذكروا بأنفسهم اذا وقعت للمسلمين غنيمة وأصابهم خير.

قال الرازى: ثم أن اولئك الجهال من المنافقين ماكان يتجاوز نظرهم عن ظواهر الأمور فعيروا ذلك الفقير الذى جاء بالصدقة القليلة وذلك التعبير من وجوه:

١- أن يقولوا: أنه لفقره محتاج إليه فكيف يتصدق به؟ إلا أن هذا من موجهات الفضيلة كما قال تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[٨١]

٢- أن يقولوا: أى أثر لهذا القليل؟ وهذا جهل، لأن هذاالرجل لما لم يقدر الا عليه، فإذا جاء به فقد بذل كل ما يقدر عليه، فهو أعظم موقعا عند الله من عمل غيره لأنه قطع تعلق قلبه عماكان فى يده وأكتفى بالتوكل على مولاه، وقد يكون القليل الذى يأتى به الفقير أعظم موقعا عند الله من الكثير الذى يأتى به الغنى.

٣- أن يقولوا: إن هذا الفقير انما جاء بهذا القليل ليضم نفسه إلى الأكابر من الناس فى هذا المنصب، وهذا جهل لأن سعى الإنسان فى أن يضم نفسه إلى أهل الخير والدين خير له من أن يسعى فى أن يضم نفسه إلى أهل الكسل، والبطالة)[٨٢]

وهكذا يكيد المنافقون للإسلام، ويحاولون جاهدين أن يفسدوا كل صالحة فيه يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرا، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل قليلا، فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين.. ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الايدى شحيحوا الانفس، لا ينفقون إلا رياء ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير..

جزاء المنافقين اللامزين: ومن ثم يجبهم الرد الحاسم الجازم لبيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين .. (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم)[٨٣]

جزاهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية المؤمنين وللناس أجمعين بفضيحته لهم فى هذه السورة وذلك ببيان هذا الخزى وغيره من مخازميهم وعيوبهم، ولهم فوقه عذاب أليم.. وفيه دفاع من الله عن المؤمنين الذين سخر منهم المنافقون وفى هذا تكريم للمؤمنين المنفقين واذان منه سبحانه بأنه قد تقبل صدقات المتصدقين قليلها وكثيرها وأنه هو الذى يتولى حماية هذه الصدقات وحماية أصحابها من كل سوء فإذا سخر ساخر من الصدقات، واستهزأ بأهلها سخر الله منه واستهزأ به، أنه عدو لله محارب وحسب من يعادى الله ويحاربه ضياعا، وهلاكا، وسوء مصير..

ويالهولها سخرية ويا لهولها عاقبة فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين، وسخرية الخالق الجهار تنصب عليهم، وعذابه يترقبهم؟! الا إنه للهول المفزع الرهيب!

حجبوا أنفسهم عن الإيمان فأستحال عليهم الغفران

لقد تردوا فى هاوية سحيقة من النفاق فلم يعد لهم أدنى حظ من التلبس والإسلام ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم، لرسوخهم فى الكفر بالله ووصله وعدم الرجاء فى إيمانهم ومن ثم يبين تعالى عقابهم الخاص بأمر الدين بما جعل حكمهم فى ذنوبهم حكم الكافرين فقال: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، أن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين)..

هو تيئيس لهؤلاء المنافقين من رحمة الله، وقطع لطريق النجاة من العذاب الذى أعده الله لهم، أنه لن ينقذهم من الله منقذ، ولن يشفع لهم شفيع حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو من هو عند الله - لن تقبل شفاعته فيهم، ولن يستجاب استغفاره لهم ولو حرص النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاستغفار وبالغ فيه، وذلك الامتناع من المغفرة بسبب كفرهم بالله ورسوله فهم لا يقينون بما وصف به تعالى نفسه من العلم بسرهم ونجواهم وبسائر الغيوب ولا بوحيه لرسوله وما أوجبه من اتباعه ولا ببعثه للموتى وحسابهم وجزائهم.. ومن كان هذا موقفهم مع الله ومع رسول الله فلن يقبل الله فيهم شفاعة، ولن يصرف عنهم العذاب الذى رصده لهم لأنهم فسقوا عن أمر ربهم، وبلغوا مبلغ الرسوخ فى ذلك وقد جرت سنته تعالى فى الراسخن فى فسوقهم وتمردهم، المصرين على نفاقهم، الذين احاطت بهم خطاياهم، أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون اليهما سبيلا (والله لا يهدى القوم الفاسقين).. وقصارى القول: أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو قد تقرر مصيرهم فما عاد يتبدل (فلن يغفر الله لهم) لن يجديهم استغفار فأنه وعدم الاستغفار لهم سواء ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم، فأما هؤلاء فقد أخبر أن مصيرهم قد تقرر فلا رجعة فيه (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) (والله يهدى القوم الفاسقين) أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح فلا رجاء فهم فى مغفرة لأنه لا سبيل لهم إلى توبة.. والقلب البشرى حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح والضلال حين ينتهى إلى أمد معين لا يرجى منه اهتداء والله أعلم بالقلوب.

وفى الآية ابحاث

أولا: (استغفر لهم أولا تستغفر لهم).. أمر ومعناه الخبر - كما قال الجمهور - اريد به التسوية بن الاستغفار وعدمه فى التيئيس من المغفرة بدليل (فلن يغفر الله لهم) وانما جاء على صورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما وتقدير الكلام: الاستغفار لهؤلاء المنافقين المعينين وعدمه سيان فلن يغفر الله لهم وأن كثر الاستغفار وقدره الطبرى [٨٤]: أن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم.

وقال النسفى: [٨٥] كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم، لأنهم كفار، والله لا يغفر لمن كفر به، والمعنى وان بالغت فى الاستغفار فلن يغفر اغلله لهم.

وفى الألوسى:[٨٦] واختار غير واحد أن المراد التسوية بن الأمرين كما فى (انفقوا طوعة أو كرها) والمقصود الاخبار بعدم الفائدة فى ذلك وفيه من المبالغة ما فيه هذا هو الصحيح وادعى بعضهم [٨٧] أن المراد به ويمثله التخيير، فكأنه تعالى قال لرسوله: إن شئت فاستغفر لهم وأن شئت فلا وايدوا دعوى إرادة التخيير بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم ذلك منه، إذ قال لعمر وهو يحول بينه، وبين الصلاة على ابن أبى: (إنى خيرت فأخترت).

وهو رأى ضعيف اذ لو خير لأختار الإستغفار فلم لم يستغفر؟ والجأهم ذلك إلى أن يقولوا: ثم نسخ هذا لما نزل (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم)..

ثانيا: هذه الآية بمعنى آية سورة المنافقين: (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم أن الله لا يهدى القوم الفاسقين) [٨٨] .. وفيها زيادة تأكيد بذكر السبعين مرة، والتصريح بأن سبب عدم المغفرة هو الكفر.. الخ، وحسنت هذه الزيادة منها لتأخر نزولها عن آية سورة المنافقون، لأن هذه نزلت فى أحداث غزوة تبوك سنة تسع وتلك نزلت فى غزوة بنى المصطلق سنة خمس على الراجح، اذ أن سورة المنافقون تكاد تكون كلها نزلت فى هذه الغزوة فدعوى العكس مردودة بعد هذا التحقيق.

ثالثا: وليس المقصود من ذكر هذا العدد تحديد المنع ولا حصر الإستغفار بسبعين مرة مرادا به أن النبى صلى الله عليه وسلم لو جاوز هذا العدد لخرج به عن قيد الشرط وجاز أن يغفر الله لهم، كلا فإن عدد السبعين يراد به الكثرة المطلقة فى عرف العرب، لا على انها رقم محدد.. فإذا قال قائلهم: لا أكله سبعين سنة، صار عندهم بمنزلة قوله لا أكله أبدا، وكما يقول القائل لمن سأله لحاجة: لو سألتنى سبعين مرة لم أقضها لك، ولا يريد بذلك أنه اذا زاد قضاها، ومثله (فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا). [٨٩] (من صام يوما فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا) فكذا هاهنا ويكون المراد به هو الدلالة على أن استغفار النبى لهم لن يقبل من الله فيهم على أية حال كثر العدد أو قل وذلك للأمور الآتية:

١- ان هذا ما يشير إليه قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) فإن هذا معناه انه لن يغفر لهم على أية حال، سواء استغفر لهم النبى أو لم يستغفر لهم، قل استغفاره لهم أو أكثر.

٢ـ ويؤكده قوله تعالى (فلن يغفر الله لهم) ففى هذه العبارة أوضح دليل على استمرار عدم المغفرة لهم على أى وضع.

٣ـ والذى يؤكد ذلك أيضا قوله سبحانه (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) فبين أن العلة التى لا جلها لا ينفعهم استغفار الرسول وان بلغ سبعين مرة كفرهم، وهذا المعنى قائم فى الزيادة على السبعين، فصار هذا التعديل شاهدا بأن المراد إزالة الطمع فى أن ينفعهم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اصرارهم على الكفر.

٤ـ ويؤيده أيضا قوله جل ثناؤه (والله لا يهدى القوم الفاسقين)..

٥ـ واستدل له الجلال بحديث البخارى «فلو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» [٩٠] ذلك هو رأى الجمهور، وهو الصحيح المنصور.

ويرى البعض أن العدد له مفهوم، وان المراد بالسبعين العدد المخصوص، واستدلوا لمدعاهم بحديث البخارى «وسأزيد على السبعين»، وسرعان ما شعروا بالحرج من تساؤل مفاده:

فلم لم يستغفر لهم النبى أكثر من سبعين؟ فأضافوا قائلين: فبين له صلى الله عليه وسلم حسم طمعه فى المغفرة بقوله تعالى: (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم).

وقد عرفنا ما فى هذا الجواب من ضعف وحينما سئلوا هذا السؤال القوى المحكم: كيف خفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب العرب أن المقصود بهذا العدد عدم جدوى الاستغفار ولو كثر، خصوصا وقد ردفه (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) فبين الصارف عن المغفرة لهم؟ أجابوا فى ضعف ووهن: معلوم انه صلى الله عليه وسلم لم يخف عليه ذلك، وإنما أراد بما قال إظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث إليهم، وفيه لطف بأمته وحث لهم على التراحم، وشفقة بعضهم على بعض، وهذا أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال إبراهيم)ومن عصانى فإنك غفور رحيم) [٩١].

والحق الرأى الأول ـ وهو رأى الأكثر ـ لقوة أدلته، ولضعف ما استدل به الآخرون، ولانكار الرازى كون مفهوم العدد بأدلته، ولانكار إمام الحرمين انه صلى الله عليه وسلم بهم أن حكم ما زاد على السبعين بخلافه.

رابعا: الخبر الذى يروى ـ واستدل به القائلون بالتخيير فى الآية ومفهوم العدد ـ من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت هذه الآيةك (وسأزيد على السبعين) هو خبر آحاد لا يعول عليه هنا ـ وان ثبت فى أصح كتب الحديث ـ عند معارضته لصريح المفهوم من الآية الكريمة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم ما فى هذه الآية من القطع بأن الله سبحانه لن يغفر لهم ولن يقبل شفاعة شافع فيهم، فلا يعقل ـ مع هذا ـ أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم هذا القول بعد أن تلقى هذه الآية، والذين عنوا بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من عنايتهم بالروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون به عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة الحديث ـ ولو من جهة متنه ـ وفى طليعتهم الباقلانى وأمام الحرمين والغزالى، والداودى شارع البخارى، والقشيرى إذ قال: ولم يثبت ما يروى انه قال: (لأزيدن على السبعين).

وكذلك الشأن فى الخبر الذى يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «لو أعلم إنى ان زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليهم» فانه خبر لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن فيه ما يشبه التحدى لحكم الله، وسيتضح الموقف أكثر عندما نعود - إن شاء الله - إلى الحديث عن هذين الخبرين عند قوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا).

خامسا: هل استغفر النبى صلى الله عليه وسلم للمنافقين قبل نزول هذه الآية أو هم ولم يفعل؟ وإذا كان قد استغفر لهم قبل نزولها فهل هناك تعارض بين عمله هذا وقوله تعالى: (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم)؟ الظاهر انه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر لهم، رجاء ان يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد ايذاؤهم له ويقول: (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) [٩٢] والإستغفار للمشركين فى جملتهم لا يدخل فى معنى قوله تعالى (ما كان للنبى والذين امنوا) الآية، لأن النهى هنا عن الإستغفار لمن تبين للنبى أنه من أصحاب الجحيم، ولاسيما بعد الموت على الشرك، لا للإحياء غير المعينين، وهؤلاء المنافقون المعنيون هنا من هذا القبيل، لأنهم هم المعنيون الذين أخبره الله بكفرهم فيما تقدم وفيما سيأتى، ولذلك بين سبب عدم مغفرته لهم بقوله: (ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله)..

وليس سببه عدم الإعتداد بإستغفارك أيها الرسول لهم فإن شرط قبوله مع قابلية المغفرة وضعه فى موضعه، كما قال تعالى (ولو أنهم إذا ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) [٩٣] يعنى أن المغفرة إنما وعد بها التائبون المستغفرون لذنوبهم إذا استغفرت لهم وهؤلاء كفار فى باطنهم مصرون على كفرهم فاسقون عن أمر ربهم (والله لا يهدى القوم الفاسقين).. وهو كدليل آخر على الحكم السابق، فإن المغفرة للكافر بالاقلاع عن الكفر الإرشاد إلى الحق، والمنهمك فى كفره المطبوع عليه لا ينقطع ولا يهتدى وهو أيضا كالتنبيه على عذر الرسول فى استغفاره لهم قبل، وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلال، والممنوع هو الإستغفار بعد العلم، لآية «ما كان للنبى».. الآية..

واختار الرازى انه صلى الله عليه وسلم لم يستغفر للمنافقين ولا اشتغل به حين طلبوه منه، وأيد اختياره بأدلة، قال: من الناس قال إن الرسول صلى الله عليه وسلم اشتغل بالاستغفار للقوم فمنعه الله منه، ومنهم من قال: إن المنافقين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم، والله تعالى نهاه عنه، والنهى عن الشىء لا يدل على كون المنهى مقدما على ذلك الفعل، وإنما قلنا أنه صلى الله عليه وسلم ما اشتغل بالاستغفار لهم لوجوه:

١) ان المنافق كافر، وقد ظهر فى شرعه صلى الله عليه وسلم ان الإستغفار للكافر لا يجوز، ولهذا السبب أمر الله رسوله بالإقتداء بإبراهيم عليه السلام إلا فى قوله لأبيه (لاستغفرن لك(، وإذا كان هذا مشهورا فى الشرع فكيف يجوز الإقدام عليه؟

٢) ان استغفار الغير للغير لا ينفعه، إذا كان ذلك الغير مصرا على القبح والمعصية.

٣) ان إقدامه على الإستغفار للمنافقين يجرى مجرى اغرائهم بالإقدام على الذنب.

٤) انه تعالى إذا كان لا يجيبه إليه بقى دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم مردودا عند الله، وذلك يوجب نقصان منصبه.

٥) ان هذا الدعاء لو كان مقبولا من الرسول لكان قليله مثل كثيره فى حصول الاجابة.. فثبت أن المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه. (٩٥).

وقد رد الألوسى (٩٤) على الرازى فى اختياره عدم الإستغفار، وكذا فى انكاره كون مفهوم العدد حجة، وأخذ يفند حججه واحدة بعد أخرى بما ليس له من القوة ما لأدلة الرازى.

وقد رد المنار الوجه الأول للرازى إذ قال: وفى التعليل بحث وهو أن من ظاهره الإسلام، كالمنافق لا يحكم بكفره إلا بوحى من الله تعالى، أو صدور ما يدل على الكفر دلالة قطعية ولمز المطوعين ليس منه، على أن طلبهم الاستغفار اظهار للتوبة. (٩٦).

خامسا: سبب نزول الآية:

ذكر الرازى وتبعه الألوسى فى أن سبب نزول هذه الآية هو ما روى عن ابن عباس: انه لما نزل قوله تعالى: (سخر الله منهم).. سأله عليه الصلاة والسلام اللامزون الإستغفار لهم، فهم أن يفعل فنزلت فلم يفعل، وقيل: نزلت بعد أن فعل.

وفى الرازى : قال الحسن: كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعذرون إليه ويقولون: ان أردنا إلا الحسنى، وما أردنا إلا احسانا وتوفيقا، فنزلت هذه الآية.

وفى الرازى أيضا: وروى الأصم انه كان عبد الله بن أبى بن سلول إذا خطب الرسول قام وقال: هذا رسول الله أكرمه الله وأعزه ونصره، فلما قام ذلك المقام بعد أحد قال له عمر: اجلس يا عدو الله فقد ظهر كفرك، وجهبة الناس من كل جهة، فخرج من المسجد ولم يصل، فلقيه رجل من قومه، فقال له: ما صرفك؟ فحكى القصة فقال: ارجع إلى رسول الله ليستغفر لك، فقال ابن أبى: ما أبالى استغفر لى أو لم يستغفر لى، فيقول (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم) وجاء المنافقون يتعللون ويعتذرون بالباطل ان يستغفر لهم فنزلت هذه الآية.

قال الرازى: ظاهر قوله (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) كالدلالة على طلب القوم منه الاستغفار، والأقرب أن الذين يلمزون هم الذين طلبوا الاستغفار، فنزلت هذه الآية كما روى سابقا عن ابن عباس. (٩٧).

قال المنار معقبا على روايات الرازى: وهذه الرواية لم نرها فى كتب التفسير المأثورة، فلا ندرى من أين جاء بها الرازى، وهو لم يعزها إلى أحد من المحدثين، ولا من رواة التفسير، كعادته، وهى معارضة بما ورد فى سبب نزولها من أن الإستغفار لعبد الله بن أبى رئيس المنافقين وزعيمهم، روى هذا بعض رواة التفسير المأثور عن ابن عباس وعروة والشعبى والسدى، فيراجع فى الدر المنثور (٩٨).

ونحن نستطيع أن نعرف - بدون أدنى عناء - ان رواية الأصم أبعدت عن القصد، لأن سورة براءة - وهذه الآية منها - من آخر ما نزل، فما الذى أتى بها عند أحد أو بعدها حتى بسنة أو اثنتين؟

وقال الألوسى [٩٩] قيل: «إن الصحيح المعول عليه فى ذلك أن عبد الله بن عبد الله ابن أبى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل، فنزلت، فقال صلى الله عليه وسلم «لأزيدن على السبعين» فنزلت (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم).

لكن فى دعوى نزول آية المنافقينخ بعد هذه الآية أشكال: أما على القول بأن براءة آخر ما نزل ـ كما هو مروى فى البخارى ـ فظاهر، وأما على القول بأن أكثرها أو صدرها كذلك، وحينئذ لا مانع من تقدم نزول بعض الآيات منها على نزول بعض من غيرها.. إلا أن جو السورة يوحى بأنها كلها نزلت فى فترات متقاربة الأزمان إن لم تكن قريبة جدا، وانها كلمة السماء الأخيرة فى موضوعها، والرواية التى تذكر أنها من آخر ما نزل صحيحة، وقد قدمنا أن آية سورة المنافقون نزلت ضمن سورتها عقيب غزوة بنى المصطلق سنة خمس على الراجح ـ أو على الأكثر سنة ست ـ وان آيتنا هذه نزلت مع سورتها سنة تسع.

قال الرازى ردا على الرواية السابقة، والإستدلال بها على أن التخصيص بالعدد المعين يدل على أن الحال فيما وراء ذلك العدد بخلافه، وهو مذهب القائلين بدليل الخطاب قال: ولقائل أن يقول: هذا الاستدلال بالعكس أولى، لأنه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم انه لا يغفر لهم البتة ثبت أن الحال فيما وراء العدد المذكور مساو للحال فى العدد المذكور، وذلك يدل على أن التقييد بالعدد لا يوجب أن يكون الحكم فيما وراءه بخلافه [١٠٠].. وبعضهم يرى أن آية سورة المنافقين نزلت مرتين.. مرة مع سورتها سنة خمس، ومرة سنة تسع بعد آية سورة التوبة .. لكن القول بأنها نزلت مرتين يحتاج إلى النقل، ولا نقل عندهم.

قال بن كثير: وقال الشعبى: لما ثقل عبد الله بن أبى انطلق ابنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أبى قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلى عليه، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «ما اسمك» قال: الحباب بن عبد الله، قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، ان الحباب اسم شيطان» فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلى عليه؟ فقال: «إن الله قال: «ان تستغفر لهم سبعين مرة» ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين» وكذا روى عن عروة ابن الزبير ومجاهد وقتادة، ورواه ابن جرير بأسانيده. [١٠١]

وسنبين ذلك ـ إن شاء الله ـ بعد تفسير (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) وما هى من هنا ببعيد.

(ما يستفاد من الآيات)

ومن هذه الآيات المذكورة فى هذا الفصل

يمكن أن نستخلص الأحكام والفوائد الآتية

١ـ ينبغى على المرء أن يتحلى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة واطاعة الله ورسوله، فهذه صفات المومنين، وان يبتعد عن اضدادها من الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدى، فتلك علامات المنافقين، وصفتا الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر من أخص صفات المؤمنين التى يمتازون بها عن الكفار والمنافقين، وهما سياج حفظ الفضائل ومنع فشو الرذائل، وقد فضل الله بهما أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم فى قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١٠٢).

وندب طائفة من هذه الأمة تتخصص فيهما وتتفرغ فقال) (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر) (١٠٣)

ورسولنا صلى الله عليه وسلم من أبرز صفاته المميزة له والمكتوبة فى التوراة والانجيل أنه (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) (١٠٤)

والدعوة إليهما ليست فى شريعة الإسلام فحسب، بل فى الشرائع السابقة، وقد أثنى القرآن على بعض أهل الكتاب لأنهم (لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات) (١٠٥)

ولذا (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) (١٠٦)لأنهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) (١٠٧).

وأخشى ما أخشاه أن يصيبنا مثل ما أصابهم، لأننا ألفنا أن نرى المعروف متروكا مهملا ولا نأمر به، وتعودنا أن نرى المنكر متبجحا منتشرا نافشا ريشه ولا ننهى عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم) وورد فى فرضيتهما وفوائدهما آيات كثيرة وأحاديث متزاحمة.

ولا ننسى فى هذا الباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم؟» قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذى نفس محمد بيده وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعرفو ولم تنهوا عن منكر؟» قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟» قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف انتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتهم عن المعروف؟» (١٠٨).

٢- وفيها مطالبة الأمة المسلمة بالمحافظة على الإسلام ومجاهدة الكفار والمنافقين، وكذلك كل من عرفت عنه الأمة فسادا فى العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن.

٣- ظاهر آيات (ومنهم من عاهد الله) .. إلخ يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه، فإذا عاهد الله فى أمر فليتجهد فى الوفاء به قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صلى، وصام وزعم أنه مؤمن: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان» (١٠٩).

وقال «اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم» (١١٠) وقال: «لا إيمان لمن لا أمانه له ولا لا دين لمن لا عهد له» (١١١).

٤ـ وتدل آية (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) إلخ على أن للمرأة دورا كبيرا فى احقاق الحق وابطال الباطل وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعدم قيام النساء بهذا الواجب أو مشاركتهن فى هذا العمل الضخم ارادهن فى هوة سحيقة من الخلق المرذول والسفور المستهجن.

ان تبذل النساء فى هذا العصر بغ حد السفهه وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المنكورة .. وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذوب بددا .. لماذا؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة، متسم بالسلبية والعجز محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.. وأغلبهم لو امكنته الفرص لرد المرأة إلى البيت وأغلق عليها الأبواب وحرمها مختلف الحقوق المادية والأدبية، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة أو الجناح المكسورة للأمة الصاعدة.

والمسلمون فى العصر الماضى خالفوا الإسلام مخالفة مستغربة فى الطريقة التى تحيى بها المرأة .. فهم حرموها حق العبادة ـ بتعبير العصر الحديث ـ وحظروا عليها دخول المساجد، ويوجد فى أنحاء مصر نحو سبعة عشر ألف مسجد لا ترحب بدخول المرأة، ولم يبين فى أحدها باب مخصص للنساء كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجده بالمدينة المنورة، وقد كانت حقوق النساء فى بيوت الله إحدى معالم المجتمع الإسلامى الأول.. وهم حرموها حق العلم ـ بتعبير العصر الحديث ـ مع أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل طلب العلم فريضة على الرجال والنساء، ومع أنه أمر بإخراج النساء وهن حوائض ليشهدن الخير ويعرفن دعوة الإسلام.. وهم رفضوا أن يكون لها دور فى احقاق الحق وصيانة الأمة بنشر المعروف وسحق المنكر، مع أن الله قال فى السورة التى نحن بصددها (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر).

إن الجاهلية التى دفعت إليها المرأة المسلمة بهذا الفكر القاصر جعلتها دون المرأة فى الجاهلية الأولى، فإن المرأة العربية ظهرت فى بيعة العقبة الكبرى، كما ظهرت مبايعة بعد فتح مكة وقارب عدد النساء المبايعات ستمائة امرأة، وكان نساء النبى صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش، يسقين الماء ويجهزن الطعام ويضمدن الجرحى، وفى الصحيح أن فاطمة عليها السلام كانت هى وأم سليم وغيرها ينقلن قرب الماء فى غزوة أحد ويسرعن بها إلى المقاتلة والجرحى يسقينهم ويغسلن جراحهم، وكان النساء يحرضن على القتال، ويرددن المنهزم من الرجال، قال حسان رضى الله عنه: يظن جيادنا متمطرات.. يلطمهن بالخمر النساء.

وفى صحيح البخارى : «باب غزو المرأة فى البحر» وفيه أن ابنه ملحان تزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة «وباب حمل الرجل امرأته فى الغزو دون بعض نسائه»

وفيه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.. أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها النبى صلى الله عليه وسلم، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها، فخرج فيها سهمى، فخرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب.

وباب «غزو النساء وقتالهن مع الرجال» وفيه عن أنس رضى الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وانهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقلن القرب، وقال غيره، تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانهما فى أفواه وترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم» وباب « حمل النساء القرب إلى الناس فى الغزو» وفيه أن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه قال عن أم سليط : «أم سليط أحق به، وأم سليط ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم» قال عمر: فإنها كانت تزفر [١١٢] لنا القرب يوم أحد» وباب «مداواة النساء الجرحى فى الغزو» وفيه عن الربيع بنت معوذ قالت كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى، وباب «رد النساء الجرحى والقتلى» وفيه عن الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة [١١٣].

وفى صحيح مسلم عن أم عطية رضى الله عنها قالت: غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات اخلفهم فى رحالهم.. أصنع الطعام، وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى.

وأرسل ابن عباس إلى نجدة بن عامر الحرورى يقول له: كتبت تسألنى هل كان رسول الله يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين من الغنيمة، وأما سهم فلم يضرب لهن.. أى أنه كان يعطيهن مكافآت على عملهن دون السهم الذى فرض للمجاهدين من الرجال.

وفى سيرة الخنساء رضى الله عنها أنها كانت تحرض أبناءها على القتال بشعرها كلما قتل أحد، حتى إذا ما قتل الرابع قالت: الحمد لله الذى أكرمنى بشهادتهم، هذا شأن الخنساء فى الإسلام، وكانت من أرق النساء قلبا وأكمدهن حزنا فى الجاهلية، ورثاؤها لأخيها ملأ الدنيا الأدب شجوا وشجنا.

على أن فنون القتال التى تمخض عنها هذا الجيل وما طرأ على العلاقة بين الرجل والمرأة من اضطراب أحدثته حضارة الغرب والشرق - التى لا دين لها - يجعلنا نحدد الدائرة التى يمكن للمرأة المسلمة أن تجاهد فيها لنصرة دينها وحماية وطنها، وخصوصا فى جو لا تقام فيه حدود الله، ولا تصل فيه أعراض الأسر، ولا تشل فيه أيدى الفسقة .. وعندى أنه ينبغى أن تخلف المرأة رجلها بخير فإن كان زوجها طمئنته على أداء واجبه، أو كان ابنا أو أخا حرضته على النهوض بمقتضيات الرجولة الحقة والإيمان الصحيح.. وهذا حسبها من جهاد فى هذه الأيام الكالحات.. فإذا فقدت عزيزا عليها فى ميدا التضحية والفداء ثمع صفرت واحتسبت فهى شريكته فى المثوبة وحسن العقبى عند الله.. ثم إن لدينا ألوفا من الشباب العاطلين فحتى تستنفذ أغراض الجهاد هذا العدد الضخم من الشباب القوى الفارغ نفكر فى استجلاب النساء لرد الأعداء.

وبعد - فإن جهلة المتدينيين تستكثر على المرأة المسلمة هذه المكانة الكبيرة وقد نتج عن هذا التفكير فى قضية المرأة، وعن التفكير المماثل له فى قضايا أخرى كثيرة أن ظلم الإسلام ظلما شديدا، وإن أساء به الظن من لم يحط به خبرا ومن لم يحسن له فقها.. وان إفلات النهضة النسائية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز والغباء، وقد لاحظت أن بعض المصلحين الذين اشتغلوا بتحرير المرأة قد جرأهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة .. فهم لما قاموا بنجاح أخطاء بعض المتدينين اندفعوا فى طريقهم مغالين، فخطأوا الدين نفسه حيث لا مجال لتخطئة ولا مكان لتصويب.. وانه لمن المحزن أن يسيء ا لدعاة عرض دينهم فى ميدان ما، فترفع الثقة بهم فى كل ميدان، ثم ينفتح الباب على مصراعيه ليتناول من شاء أحكام الإسلام بالمحو والإثبات، يقبل منها ما يعجبه، ويرد منها ما ينبو عن مزاجه اللطيف.. لقد كان الإستحبار العلمى سمة ساطعة لأمتنا فى اعصارها الأولى، فلا يجوز أن يقطعنا عن هذا الماضى الزاهر جهل عارض، أو فكر غامض.

الهوامش

١) سورة آل عمران ٣٤

٢) سورة المنافقون ٧

٣) قبض الأيدي: ضم أصابعها إلى باطن الكف، وهو كناية عن الامتناع عن البذل، كما أن بسط اليد كناية عن الانفاق والبذل، فهم ينهون الناس عن البذل ويمتنعون منه بالفعل.

٤) المراد من نسيان الله لهم لازمه وهو: تركهم لأنفسهم وحرماتهم من توفيق الله وهدايته ورحمته، وجعلهم كالمنسى الذى لا يتعهد ولا يعتنى بشأنه، لا كالمنسى مطلقا، وعن قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر.

٥) البقرة ٢١٧، التوبة ٦٩

٦) الحشر ١٩

٧) الوعد يستعمل فى الخير والشر وفيما ينفع وفيما يضر، والوعيد خاص بالثانى، ولا يكاد يذكر الوعد فيه إلا مع ذكر متعلقه صراحة أو ضمنا كهذه الآية، وقيل ذكر الوعد هنا للتهكم.

٨) الزخرف ٧٥

٩) وتقدير الكلام: وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم، أو فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف، أو أنتم كالذين من قبلكم، وقال ابن جرير: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين قالوا: انما كنا نخوض ونلعب: «أبا الله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزئون؟ كالذين من قبلكم من الأمم فعلوا فعلكم فأهلكهم الله عجل ولهم فى الدنيا الخزى مع ما أعد لهم من العقوبة والنكال فى الآخرة جـ١٤ صـ٣٤٠ (بخلافهم): بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير، فانه ما خلق لصاحلهع أى قدر له وأعاد ذكر استمتاع من قبلهم بخلاقهم، لما يقتضيه التبكيت والتأنيب من الاطناب لبيان اختلاف الحالين، فهو يقول لهم: انكم فعلتم فعلتهم حذو القذرة بالقذرة مع توفر الدواعى على ضده. «كالذى خاضوا» تقديره: وخضتم كالذين خاضوا، أو كالفوج الذى خاضوا، أو كالخوض الذى خاضوه، حبطت : بطلت.

١٠) أى أولئك المستمتعون بخلاقهم وحظهم مما ذكر والخائضون فى الباطل

١١) الكهف ١٠٣، ١٠٤

١٢) آل عمران ٧٨

١٣) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٩٢

١٤) تفسير الألوسى جـ٣ صـ٣٢٥

١٥) الطبيرى جـ١٤ صـ٣٤٢، ٣٤٣

١٦) لعله يعنى الحديث الذى أخرجه البخارى عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبرا وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه «قلنا اليهود والنصارى؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم» فمن؟».

١٧) هذا استفهام تقرير وتوبيخ لمن نزلت فيهم الآيات من الكفار والمنافقين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، يذكرهم بالأقوام الذين ضلوا من قبلهم ووصلت إليهم سيرتهم وكانوا أكثر أموالا وأولادا منهم.

١٨) جمع مؤتفكة من الانتفاك وهو الانقلاب والخسف أى المنقلبات على أهلها، ومنه الآفك وهو الحديث المفترى الذى تقلب فيه وجوه الأمور وتغير معالمها.
١٩) ما كان ليفعل كذا، معناه: ما كان من شأنه أن يفعل، وهو يتضمن نفى الفعل بدليله، وهو أبلغ من ما فعل.
٢٠) سورة القمر ٤٣
٢١) المائدة ٥١
٢٢) الحشر ١١، ١٢
٢٣) عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»
٢٤) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك النبى بين أصابعه.
٢٥) ولكن نصرة النساء تكون فيما دون القتال بالفعل فللنصرة أعمال كثيرة مالية وبدنية وادبية، وسيأتى مزيد بيان لذلك فى آخر الفصل ضد الاستنباطات.
٢٦) قال المحققون من علماء العربية: إن السين فى مثل «سيرحمهم» لتأكيد الاثبات كما أن «لن» لتأكيد النفى. وكلتاهما للمستقبل وليس دخول حرف الاستقبال فى «سيرحمهم» بالذى يجعل وعد الله غير محقق فى الحال كما هو محقق فى الاستقبال، بل هو وعد منجز فى جميع الأحوال والأزمان، فالمؤمن محفوف برحمة الله دائما، ولولا هذه الرحمة لما كان من المؤمنين الذين دعاهم الله إلى الإيمان وهداهم إليه وأمسك بهم على طريقه.
٢٧) ولولا أن الوعد هنا للمقابلة بالوعيد الذى قبله لكان المناسب أن يقال إن الله غفور رحيم.. وللدكتور أحمد السيد على الكومى فى رسالته «تفسير سورة الفتح والفتوح المتعلقة بها صـ١٢٣ ـ ١٢٦ «ولقد ذيل سبحانه هذا الوعد العظيم بأن وصف نفسه بالعزة والحكمة نرى العزة والحكمة أدل على الله وانسب للمقام من كل ما سواهما من الصفات، فهو عزيز بقوته حكيم بتدبيره، ولولا اقتران حكمة الله بعزته ما طاول المنافق ولا أملى له ولا أرخى له حبل غروره حتى يغتر به، وهو فى كل ذلك عزيز لا يغلب، حكيم لا ينحرف، وقلما اجتمعت العزة والحكمة للناس فى نطاق واحد، لأن العزة هى القهر والغلبة، والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه، وقل ان يكون القوى القاهر واضعا كل شىء فى موضعه لا تدفعه العزة ولا يستفزه الغضب ولا تصرفه القوة والصولة عن اللين والاناة وايثار الصلح والصفح على البطش والقتال، وان فيما أفاضت الله عليه عباده المؤمنين من نعم وخيرات لنيرة بالغة وآية بينة فى حكمة العزيز وعزة الحكيم.. انتهى بتصرف.
٢٨) سورة الحج آية ٤١
٢٩) المنار جـ ١٠ صـ٥٤٣
٣٠) العنكبوت ٤٥
٣١) الأعلى ١٤، ١٥
٣٢) طه ١٤
٣٣) النساء ١٤٢
٣٤) المنارا جـ١٠ صـ٥٤٤
٣٥) «ومساكن طيبة».. تستطيبها النفوس أو يطيب بها العيش «فى جنات عدن» فيها قولان: الأول انه اسم على لموضع معين فى الجنة، بدليل «جنات عدن التى وعد الرحمن» الثانى انها صفة للجنة بمعنى إقامة واستقرار على وجه الخلود، يقال: عدن فلان بالمكان أى أقام واستقر، وعلى هذا القول فالجنات كلها جنات عدن.
٣٦) محمد ١٥
٣٧) البقرة ٨١، ٨٢
٣٨) البينه ٧، ٨
٣٩) الحجر ٤٨
٤٠) فاطر ٣٦
٤١) الدخان ٥٦
٤٢) انتهى بنصه فى هذين الموضوعين من رسالة «تفسير سورة الفتح وبيان الفتوح المتصلة بها» للدكتور أحمد السيد على الكومى من ٦٣ ـ ٦٥
٤٣) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٩٦، ٦٩٧
٤٤) تفسير ابن جرير جـ١٤ صـ٣٥٩، ٣٦٠
٤٥) تفسير المنار جـ١٠ صـ٥٤٨، ٥٤٩
٤٦) المنافقون ٤
٤٧) الفرقان ٦٦
٤٨) الحجرات ١٤
٤٩) إذا قيل رجل أزرق فإنما يعنون زرقة العين، وقد عدد الجاحظ فى كتاب الحيوان ٥: ٣٣٠ «الزرق من العرب»، وكانت العرب تتشاءم بالأزرق وتعده لئيما.
٥٠) الجلاس بضم الجيم وفتح اللام غير مشددة بوزن غراب

٥١) أخرجهما ابن اسحق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك
٥٢) ذكرها النسفى ولم يعزها جـ٢ صـ١٠٤
٥٣) فى الكشاف فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس الخ.
٥٤) وسيأتى تفسير ذلك فى أثناء الحديث عن غزوة تبوك الباب الرابع الفصل الثالث.
٥٥) تفسير الرازى جـ٤ صـ٦٩٧
٥٦) مرتفع فى الطريق ضيق
٥٧) من زاد المعاد جـ٣ صـ٨
٥٨) أى وقال أيضا فى غير سياق ذلك الجواب
٥٩) وفى رواية مسلم من حديث قتادة عن عمار بن ياسر قال «أخبرنى حذيفة» بالجزم
٦٠) وفى رواية: «فى أصحابى» وفيها: «يظهر بين أكتافهم حختى ينجم فى صدورهم» وفى رواية: «شهاب من جهنم يجعله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه» فكان كذلك خرجه مسلم بمعناه، أ.هـ قرطبى وعند البيهقى: شهاب من نار يقع على نياط أحدهم فيهلك». والدبيلة كجهينة،قال فى اللسان: الدبلة والدبيلة، داء يجتمع فى الجوف، وفى حديث عامر بن الطفيل، «فأخذته الدبيلة» هى خراج ودمل كبير، تظهر فى الجوف فتقتل صاحبها غالبا، وهى تصغير دبلة، وكل شىء جمع فقد ذبل، والدبيلة: الواهية وهى مصغرة التكبير، أ.هـ، وقوله صلى الله عليه وسلم «سراج من النار» تشبه للمبالغة كما فى النهاية ومجمع البحار، ولم يفسروا ذلك تفسيرا بينا ولا ذكروا مصادقه كيف كان أ.هـ منار. جـ١٠صـ٥٥٥.
٦١) فى المنار: معتب بن بشير وفى ابن كثير معتب ابن قشير
٦٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٧٣
٦٣) سورة إبراهيم آية ٢٨
٦٤) التوبة آية ٥٥
٦٥) التوبة ٥٧
٦٦) يقال أعقبت فلانا الندامة .. إذا صيرت عاقبة أمره ذلك. أى فأعقبهم ذلك البخل والتولى والاعراض، بعد العهد الموثق بأوكد الإيمان، أو فأعقبهم الله تعالى، لأن معناه أنهم لما ضلوا فى الماضى فهو تعالى أضلهم عن الدين فى المستقبل «إلى يوم يلقونه» أى يلقون الله تعالى، أو يلقون جزاد بخلهم والمراد بيوم يلقونه: الموت أو يوم القيامة.
٦٧) وقد عبر عن اخلافهم الوعد بالماضى لأنه صار حادثة وقعت، وعبر عن كذبهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار، لأن ذلك هو شأنهم الدائم الذى هو أخص لوازم النفاق، فالمنافق مضطر إلى الكذب فى كل وقت، لأن ظاهره يخالف باطنه، ولابد له من كتمان ما فى باطنه واظهار خلافه دائما، لئلا يظهر فيفتضح ويعاقب، ولا يحصل ذلك إلا بالكذب.
٦٨) السر: ما أسر الإنسان فى نفسه وانطوى عليه صدره، ولم يطلع عليه غيره، والنجوى ما ناجى به غيره من حديث وأفضى به إليه فى سر، وأصل النجوى والنجوة المكان المرتفع الظاهر للعيان.
٦٩) ال عمران آية ٥
٧٠) غافر آية ١٩
٧١) كذلك أخرج هذه القصة الحسن بن سفيان وابن المنذر وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والبارودى وأبو نعيم فى معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة.. إلخ.
٧٢) وفى بعض الروايات أن ثعلبة هذا كان قبل ذلك ملازما لمسجد النبى صلى الله عليه وسلم، حتى لقب حمامة المسجد، ثم رآه النبى صلى الله عليه وسلم يسرع الخروج من المسجد عقيب الصلاة، فقال صلى الله عليه وسلم له: «مالك تعمل عمل المنافقين؟» فقال: انى افتقرت ولى ولامرأتى ثوب واحد، أجيىء به للصلاة ثم أذهب فانزعه لتلبسه وتصلى به. فادع الله تعالى أن يوسع على رزقى، إلى آخر ما فى الخبر، ويقال له: ثعلبة بن أبى حاطب، وهو من بنى أمية بن زيد، وليس هو البدرى، لأنه قد استشهد بأحد رضى الله عنه، وهذا التشابه فى الاسم قد ألبس على بعض المفسرين، فاعتقدوا أن ثعلبة هذا هو ثعلبة البدرى، ورتبوا على هذا وجود تناقض بين الآثار الواردة فى أهل بدر والشاهدة لهم بغفران الذنوب مهما عملوا وبين هذه الآيات، ومن هؤلاء القرطبى قال: وما جاء فيمن شاهد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم) وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها قال: وثعلبة بدرى أنصارى، وممن شهد الله ورسوله بالإيمان، حسب ما يأتى بيانه فى أول الممتحنة وما روى عنه غير صحيح ويلاحظ أن الذى ذكره فى أول سورة الممتحنة انما هو حاطب بن أبى بلتعه لا ثعلبة بن حاطب، قال: قال أبو عمر : ولعل قول من قال فى ثعلبة إنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح. ص٣٠٤٩ طبعة الشعب.
٧٣) فى بعض الروايات كما ينمو
٧٤) وفى رواية : بلى فخذوه
٧٥) فخر الرازى جـ٤ صـ٦٩٩
٧٦) تقديره: أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان، أو أعنى بما ذكر من الذنب الذين يلمزون المتطوعين ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم، والجهد - بالفم والفتح - الطاقة.

وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان.. وهم الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم، وعطفهم على المطوعين من عطف الخاص على العام تنويها بهم، لأن مجال لمزهم وعيبهم عند المنافقين أوسع، والسخرية منهم فى عرفهم أشد، ولذلك قيل.. انهم هم المراد بقوله تعالى (فيسخرون منهم) أى يستهزئون بهم احتقارا لما جادوا به ، وقيل انه عام يشمل المكثرين والمقلين.

٧٧) فبارك الله له حتى صولحت احدى امرأتيه عن نصف الثمن وعلى ثمانين ألف درهم.

٧٨) هو أبو عقيل الابراشى اخوينى انيف واسمه حبحاب

٧٩) أى تواجو أنفسنا فى الحمل، وفى رواية أخرى عند البخارى فى التفسير «نتحامل» أى يحمل بعضنا البعض بالأجرة

٨٠) رواه البخارى ومسلم

٨١) سورة الحشر٩

٨٢) تفسير الرازى جـ٤ صـ٧٠٥

٨٣) هذا التعبير يسمى مشاكلة، وما هو إلا العدل فى جزاء المماثلة لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارا للمؤمنين

٨٤) تفسير الطبيرى جـ١٤ صـ٣٩٤

٨٥) تفسير النسفى جـ٢ صـ١٠٥

٨٦) جـ٣ صـ٣٤٥ . ٣٤٦

٨٧) منهم الألوسى

٨٨) المنافقون آية ٦

٨٩) الحاقة آية ٣٢

٩٠) تفسير الجلالين صـ١٦٣ طبعة المطبعة ؟؟المصرية

٩١) سورة ابراهيم ٣٦

٩٢) رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث سهل بن سعد، وروى مثله الشيخان من حديث ابن مسعود قال: كأنى انظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول ـ وذكر ـ وفى مسلم «رب اغفر» قال بعض العلماء انه صلى الله عليه وسلم يعنى نفسه حين شجوا رأسه فى أحد، فهو الحاكى والمحكى عنه.

٩٣) النساء ٦٤

٩٤) تفسير الرازى جـ٤ صـ٧٠٦

٩٥) تفسير الألوسى جـ٣ صـ٣٤٦

٩٦) تفسير المنار جـ١٠ صـ٥٨٦

٩٧) تفسير الرازى جـ٤ صـ٧٠٥

٩٨) تفسير المنار جـ١٠ صـ٥٦٨

٩٩) الألوسى جـ٣ صـ٣٤٦

١٠٠) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٧٠٥، ٧٠٦

١٠١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٤٦

١٠٢) آل عمران ١١٠

١٠٣) آل عمران ١٠٤

١٠٤) الأعراف ١٥٧

١٠٥) آل عمران ١١٤

١٠٦، ١٠٧) المائدة ٧٨، ٧٩

١٠٨) رواه ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف دون قوله كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ورواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة مقتصرا على الأسئلة الثلاثة الأول دون الأخيرين واسناده ضعيف قاله العراقى على هامش الأحياء جـ٢ صـ٣٠٥

١٠٩) رواه

١١٠) رواه أحمد

١١١) رواه أحمد وابن حبان

١١٢) تزفر: أى تحمل أو تخيط

١١٣) هذا كله إذا لم يهجم العدو، فإذا هجم ـ كحالتنا هذه ـ وجب على جميع الناس رجالا ونساء أن يخرجوا للدفاع عن الحوزة والوطن، فتح البارى فى شرح البخارى «٦: ٥٧ ـ ٦٠» طبعة بولاق.

الفصل الرابع

المتخلفون عن الجهاد وبيان أعذارهم الصادقة والكاذبة

أسبابا ودوافع ونتائج

آثروا الراحة الفانية فأعطوا الشقاء الأبدى. فرح لن يطول وحزن لن يزول. حرمانهم من شرف الجهاد حماية للصف. لا يكرم موتاهم بصلاة أو استغفار، ولا يفتر ما بملك احياؤهم فهو عذاب وخسار. حديث صلاة النبى على أبن أبى. التعارض بينه وبين القرآن. مشكلات حول الحديث. من أنكر صحته ومن تأوله. من تكلف الجمع بينه وبين الآيات. التحقيق فى ذلك. بقية من اشكالات وردها. عدم التسامح فى منح مظاهر التكريم لهم. طبيعة النفاق والضعف والاستخزاء، وطبيعة الإيمان، والقوة والبلاء. منافقوا الأعراب مستأذنين، وغير مستأذنين. أصحاب الأعذار الحقيقية. البكاؤون. سبب نزول (ولا على الذين إذا ما أتوك). أصحاب الأعذار الباطلة، والتمحلات المختلفة. أنباء ما سيكون من المتخلفين. طلبوا أعراض الصفح فاعطوا أعراض المقت. رضى أحد غير الله لا يجدى. ما يستفاد من آيات هذا الفصل.

سبق أن تحدثت السورة عن إعلان النفير العام لقتال الروم فى تبوك من أرض الشام، وفى خلال الحديث عن ذلك بينت أحوال المنافقين مع المؤمنين من استثقالهم للجهاد واستئذانهم فى التخلف عنه، وظهروا ما رأيت نفاقهم فى الأقوال، والأفعال فضحتهم فيها، ووعيدهم عليها، وكشف تدبيراتهم الخفية، ومؤامراتهم الدنيئة وما كان من ذلك فى اثناء السفر والعودة منه، وانتهى ذلك بالآية الثمانين.. وفى هذا الفصل يعود السياق إلى بيان حال الذين تخلفوا عن القتال فى غزوة تبوك، وظلوا فى المدينة، ويرسم للنبى الأسلوب الذى يعاملهم به والموقف الذى يقفه منهم بعد الرجوع إليهم.. فلا يسمح للمتخلفين أن يعودوا فينتظموا فى صفوف الجيش ولا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم. فلا يصلى على موتاهم، أو يستغفر لهم ولا يقيم وزنا للأموال، والأولاد عند احيائهم، ويبين السياق أنه إن تخلف هؤلاء واستأذن أهل الغنى، واليسار منهم عند الدعوة للجهاد، فقد نهض إلى الغزو من هو خير منهم، الرسول والذين آمنوا معه، وأن للمجاهدين الخير، والفلاح، والفوز العظيم، وللمنتحلين الأعذار الكاذبين الله ورسوله الخزى والخسار والعذاب الأليم، وأخيرا يحدد السياق التبعة، فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون، فالذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم، ولا مؤاخذة لأنهم معذرون.. إنما التثريب على الذين يستأذنون فى القعود، وهم

قادرون، وكان من أنباء الله لنبيه ما سيكون من حال المتخلفين، وأعذارهم إذا رجع من الغزوة، وتوجيه للمؤمنين إلى ما يجب أن يجيبوهم به وأن يعاملوهم على مقتضاه.

قال تعالى: (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم فى سبيل الله، وقالوا لا تنفروا فى الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فأستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا، ولن تقاتلوا معى عدوا أنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون. وإذا أنزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لكن الرسول، والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم، وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات، وأولئك هم المفلحون، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وسيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم، ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. انما السبيل على الذين يستأذنوك، وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون، يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من اخباركم، وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون، سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون. يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين).

آثروا الراحة الفانية فأعطوا الشقاء الأبدى

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله [1]

تهديد ووعيد لهؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك إذا أمرهم بالنفير إلى جهاد أعداء الله فخالفوا أمره، وجلسوا فى منازلهم هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض، ثقلة الحرص على الراحة والشح بالنفقة وقعد بهم ضعف الهمة، وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.. هؤلاء المخلفون ـ والتعبير يلقى ظل الاهمال، كما لو كانوا متاعا يخلف أو هملا يترك، إذ المخلفون الذين بقوا خلف القوم وتركوا وراءهم، وكأنهم بهذا هم المتروكون، لا التاركون، والمخلَّفون لا المخلِفون، وفى هذا إشارة إلى أن هؤلاء الذين تخلفوا هم مخلفون قد تركهم المجاهدون، وسبقوهم إلى حظهم من الخير الذى أراده الله لهم، هؤلاء

المخلفون - فرحوا بالسلامة، والراحة «خلاف رسول الله» وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال.

وإنما فرحوا لأنهم لا يؤمنون بما فى الخروج معه صلى الله عليه وسلم من الأجر العظيم الذى لا تذكر بجانبه راحة القعود فى البيوت شيئا، وأن هذه الفرحة التى شاعت فى نفوسهم حين بدا لهم أنهم أفلتوا من هذا البلاء الذى ابتلى به المؤمنون فى هذه الغزوة من قلة الزاد، وبعد الشقة ووقدة الحر.. هذه الفرحة لن يهنأوا طويلا بها، بل ستعقبها حسرة وندامة وعذاب شديد.

(وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) ايثارا للراحة، والتنعم بالمآكل، والمشارب على التعب، والمشقة، وميلا إلى الدعة، والخفض، وشحا بالمال أن ينفقوه فى طاعة الله.. وكيف لا يركوهونه، وليس عندهم ما فى قلوب المؤمنين من باعث الإيمان، وداعى الايقان.. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا على الراحة تحصيل رضى الله ببذل الأموال، والمهج (وقالوا لا تنفروا فى الحر).. قد يكون من حديث إخوان النفاق بعضهم إلى بعض، وتحريض بعضهم لبعض على ترك الجهاد فى الحر، نهيا لهم عن المعروف، واغراء بالثبات على المنكر وهو عدم النفر، وذلك ليكثر عددهم وتقوى جبهتهم، وليكون للمتخلف منهم وجه من العذر بكثرة المتخلفين غيره، وقد يكون هذا القول منهم على اطلاقه يقولونه لكل من يلقاهم، تثبيتا لهم فيه، وتثبيطا للمُؤمنين عنه، وليفتروا به الهمم، ويكسروا العزائم، حتى لا يجتمع على دعوة النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد الجيش الذى يخرج به فى هذه الغزوة وبهذا لا ينكشف أمر المنافقين الذين عقدوا العزم على التخلف عن الغزو، حيث لا يخف أحد للجهاد إذا صح ما قدروا له وعملوا له من اشاعة الدعوة فى النار بأن لا ينفروا فى الحر.

وعلى كلا التقديرين فهى قوله المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشىء مما يصلح له الرجال.. ان هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة وطراوة الإرادة .. وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ويفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون أعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات.. ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات، والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان، وانه ألذ وأجمل من القعود، والتخلف، والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال.

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوى على الحقيقة (وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم) التى أعدها الله لمن عصاه وعصى رسوله (أشد حرا) من تلك الأيام فى أوائل فصل الخريف[٢] فهو لا يلبث أن يخفف، ويزول، على أنه مما تحمله الأجسام.

والمعنى: أن تركهم النفير فى الحر يوقعهم فى حر أشد هولا من هذا الحر الذى يعتبر بردا وسلاما إذا قيس بحر جهنم، فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ويؤثرون الراحة المسترخية فى الظلال، فكيف بهم فى حر جهنم وهى أشد حرا وأطول أمدا؟ فهو يلفح وجوههم وينضج جلودهم وينزع شواهم؟ وانها لسخرية مريرة، ولكنه كذلك حقيقة .. فإما كفاح فى سبيل الله فترة محدودة فى حر الأرض، واما انطراح فى جهنم لا يعلم مداه إلا الله.

فلو أنهم عقلوا هذا فقهوه لما اشتروا عذاب الآخرة بلفحات الهجير هذه التى يخشون لقاءها فى طريقهم إلى الجهاد، ولما خالفوا وقعدوا، ولما فرحوا بقعودهم إذا أجرموا فقعدوا، بل لحزنوا وأكتأبوا، وبكوا وانتحبوا، كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا، ولكنهم قوم لا يفقهون.. وفى هذا أكبر عبرة لمن يتركون الجهاد وغيره من الواجبات ايثارا للراحة والنعيم، وما يفعله فى حال وجوبه عليهم إلا المنافقون.

وأجهل الناس من صان نفسه عن أمر يوقعه فى ورطة عظيمة هى أشد وأخس، ولم يعلم أن بعد هذا الدار دارا أخرى، وبعد هذه الحياة حياة الآخرة، وأن هذه المشقة منقضية سهلة وتلك باقية صعبة، ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها مساءة يوم أريها شبه الصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساءة أحقاب[٣]

فرح لن يطول وحزن لن يزول

انهم فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، وقالوا لا تنفروا فى الحر، وانهم له بهنأهم هذا الفرح، ولن يطول مقامهم فى ظل هذه العافية التى هم فيها، فما هى إلا أيامهم الابقية لهم فى هذه الدنيا، ثم إذا هم فى العذاب الأليم الدائم (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) .. انه لضحك فى هذه الأرض وأيامها المعدودة، وانه لبكاء فى أيام الآخرة الطويلة (وان يومك عند ربك كألف سنة مما تعدون)[٤].

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون)

وفى هذا الأمر بقلة الضحك وكثرة البكاء وجوه:

أحدها : وهو المختار عند الأكثرين - أن هذا هو الأجدر بهم بل الواجب عليهم بحسب ما تقتضيه حالهم، وتستوجبه جريمتهم لو كانوا يفقهون مافاتهم بالتخلف والخلاف من أجر، وما سيحملون فى الآخرة من وزر، وما يلاقون فى الدنيا من خزى وضر[٥].

وفى البحر [٦]... ويحتمل أن تكون صفة حالهم أى هم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوء الحال بحيث ينبغى أن يكون ضحكهم قليلا، وبكاؤهم كثيرا من أجل ذلك، وهذا يقتضى أن يكون وقت الضحك، والبكاء فى الدنيا.

ثانيا: أن هذا ما يكون من أمرهم فى الدنيا، فلن يطيب لهم فيها عيش بعد أن هتك الوحى استارهم، وكشف عوارهم، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاملتهم بما يقتضيه نفاقهم، وعدم الإعتداد بما يظهرون من إسلامهم.

ثالثا: ان المراد بالضحك القليل ما سيكون منهم فى الدنيا بعد الفضيحة، وهو قليل بالنسبة إلى ما كان من ماضيهم مع المؤمنين وبالنسبة إلى حياتهم فى هذه الدنيا، وبالبكاء الكثير الذى سيكون منهم فى الآخرة [٧].

رابعا: ان قوله «فليضحكوا قليلا) اشارة إلى مدة العمر فى الدنيا. (وليبكوا كثيرا) اشارة إلى تأبيد الخلود [٨].

وهو على كل حال إنذار مقابل لما ذكر من فرحهم بالتخلف، مثبت أنه فرح عاقبته الحزن والكآبة والخيبة والندامة، فى الدنيا، ويوم القيامة.

وفى معنى الآية قوله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)(٩)

خامسا: وقال بعضهم: إن الأمر هنا للتكوين، والمعنى على هذا: فليكونوا بقدرتنا وتقديرنا قليلى الضحك كثيرى البكاء، لأن سبب سرورهم وفرحهم بتخلفهم ونفاقهم قد زال، وأعقبه الفضيحة والنكال، ويؤيد كونه تكوينيا قدريا لا تكليفيا شرعيا جعله عقابا جزائيا لهم على عملهم بقوله: (جزاء بما كانوا يكسبون) فهو الجزاء من جنس العمل، وهو الجزاء العادل الدقيق، وكما يدين المرء يدان.

حرمانهم من شرف الجهاد حماية للصف

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد - فى ساعة العسرة - وتخلفوا عن الركب فى أول مرة، هؤلاء لا يصلحون لكفاح ولا يرجون لجهاد، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين.

ومن ثم يبين الله للنبى موقفه منهم - إذا هو رجع من غزوة تبوك - وما يجب لهم من الجزاء الذى يعاملون به فى الدنيا قبل الآخرة، مما يتقضى انقضاء عهد فرحهم وغبطتهم فى دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام الصورية، والمعنوية.

(فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فأستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فأقعدوا مع الخالفين).

ان من هؤلاء المتخلفين من تخلف لا عن شك فى دينه، أو ارتياب فى عقيدته، ولكن قعد به فتور همته أن يلحق بالركب، وأن يجمع عزمه المشتت ليقطع حبال التردد العالقة به، فلما أن فاتته الفرصة، ولم يعد فى استطاعته أن يلحق بالجيش المجاهد استبد به الندم، واستحولت عليه الحسرة، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، كالثلاثة الذين خلفوا، والذين اعترفوا بذنوبهم.

ومن هؤلاء المتخلفين من تخلفوا عن نية فاسدة وعقيدة منافقة، ودين مريض، فهؤلاء هم المنافقون حقا، وهم الطائفة التى تشير إليها الآية .. انهم يريدون أن يحتفظوا بمكانهم فى المسلمين، وأن يأخذوا موقفهم مع المجاهدين، فإذا كانت الشقة بعيدة والحر شديدا أو البرد قارصا تباطأوا وجاءوا بالمعاذير، والعلل، وإن كانت الشقة قريبة والمغانم دانية أخذوا مكانهم فى صفوف المسلمين (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة).. وليست هذه سبيل المؤمنين المجاهدين، وإنما سبيلهم قائمة على نية منعقدة أبدا على الجهاد، والإستشهاد فى سبيل الله، ومن كانت تلك سبيله، وهذه غايته، فإنه لا ينظر إلى نفسه، ولا يعمل حسابا لمغنم أو مغرم، وإنما حسابه كله مضاف إلى الإنتصار لدين الله، والإعزاز لكلمة الخير.

والمعنى: فإن ردك الله - أيها الرسول - من سفرك هذا إلى جماعة المنافقين المتخلفين

(فأستأذنوك للخروج) معك فى غزاة أو غير غزاه مما تخرج لأجله، فقل لن يكون لكم شرف صحبة المومنين بالخروج معى إلى الجهاد فى سبيل الله ولا إلى غيره كالنسك «أبدا» ما بقيت، (ولن تقاتلوا معى عدوا) من الأعداء بصفة ما، لا بالخروج والسفر إليهم ولا بغير ذلك [١٠]، هكذا يلقاهم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم القاطع الذى لاستثناء فيه ولا رجوع عنه، وهكذا تمحى أسماؤهم من ديوان المجاهدين عقوبة لهم، ويؤمر القائد العظيم صلى الله عليه وسلم أن يبعدهم عنه وأن يعزلهم عن جماعة المجاهدين، وأن يكون رده عليهم دائما (لن تخرجوا معى أبدا، ولن تقاتلوا معى عدوا) لماذا هذا الحرمان من شرف الجهاد؟

(انكم رضيتم) لأنفسكم بخزى (القعود أول مرة) دعيتم فيها للجهاد دعوة ملزمة لا تحلل منها، فلم تنفروا عصيانا لله ولرسوله، وذلك فى غزوة تبوك التى ندب لها المسلمين جميعا كما أمره تعالى بذلك (انفروا خفافا وثقالا) فهذه أول مرة يدعى فيها المسلمون دعوة عامة للجهاد بكل ما يملكون من أنفس وأموال.

(رضيتم بالقعود) ففقدتم حقكم فى شرف الخروج، وشرف الانتظام فى الكتيبة. . والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل، فلا سماحة فى هذا ولا مجاملة.. (فأقعدوا مع الخالفين).. إن الحاجة فى المرة الأولى إلى موافقتكم كانت أشد، وبعد ذلك زالت تلك الحاجة، فلما تخلفتم عند مسيس الحاجة إلى حضوركم فعند ذلك لا تقبلكم ولا نلتفت إليكم.. فأقعدوا مع المتجانسين معكم فى التخلف، والقعود من الرجال الذين تخلفوا عن النفر، ومتكوا فى بيوتهم لا يبرحون، أو مع المخالفين، أو مع المتخلفين لعدم لياقتهم كمرضى الرجال وأهل زمانتهم والضعفاء العاجزين منهم، والنساء، والصبيان، الذين لا يكلفون بالقيام بشرف الجهاد أو الدفاع عن الحق، أو مع الأشرار الفاسدين الذين خرجوا عن سبيل المهتدين [١١] قال الرازى: [١٢] ويصح حمل اللفظ عليها جميعها لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات قال: وهذا يجرى مجرى الذم، واللعن لهم، ومجرى اظهار نفاقهم، وفضائحهم، وذلك لأن ترغيب المسلمين فى الجهاد أمر معلوم بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن هؤلاء إذا منعوا من الخروج إلى الغزو بعد إقدامهم على الإستئذان كان ذلك تصريحا بكونهم خارجين عن الإسلام موصوفين بالمكر، والخداع، لأنه عليه السلام إنما منعهم من الخروج حذرا من مكرهم وكيدهم، وخداعهم فصار هذا المعنى من هذا الوجه جاريا مجرى اللعن، والطرد ونظيره (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى ـ لن تتبعونا[١٣]) وهذه الآية تدل على:

١ـ أن الرجل إذا ظهر له من بعض أصدقائه مكر وخداع، وكيد وراه مبالغا فى ذلك فإنه يجب عليه أن يقطع العلاقة بينه، وبينه وأن يحترز عن مصاحبته.

٢ـ وأن استصحاب المخذل فى الغزوات لا يجوز.

٣ـ وان الدعوات فى حاجة إلى طبائع مستقيمة ثابتة مصممة، تصمد فى الكفاح الطويل الشاق.. والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد، لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان، والضعف، والإضطراب.. فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف، وقاية له من التخلخل، والهزيمة.. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى

ساعة الشدة ثم يعدوون إليه فى ساعة الرخاء جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير.

هذا هو الطريق الذى رحمه الله تعالى لنبيه الكريم، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدا، فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق.

لا تكريم لموتاهم بصلاة أو استغفار

لقد دعا الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن يسعى فى تخذيل المنافقين، واهانتهم وإذلالهم، فكما أمره تعالى بأن لا يسمع للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف - وهو سبب قوى من أسباب إذلالهم واهانتهم - كذلك أمره - زيادة فى التخذيل، والإذلال - أن لا يخلع عليهم أى ظل من ظلال التكريم (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

ويمكن أن يقال فى المناسبة: إن هذه الآية بيان ما شرعه الله تعالى فى شأن من يموت من هؤلاء المنافقين فى أثر ما شرعه فى شأن الأحياء منهم، وهو - كسابقه - خاص بمن نزلت فيهم الآيات، وهم الذين ثبتت أدلة كفرهم، أو أعلم الله رسوله بحقيقة أمرهم، وفى مقدمتهم الأكبر الأكفر عبد الله بن أبى بن سلول والاثنا عشر الذين أردوا اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يكشف عن شناعة جرم هؤلاء وفظاعة الجناية التى جنوها على أنفسهم، ولهذا فإن الصلة التى بينهم وبين المؤمنين قد انقطعت انقطاعات تاما فى الحياة وفيما بعد الحياة، حتى لو مات ميتهم لم يلتفت المسلمون إليه ولم تعطفهم عليه عاطفة رحم أو رحمة.

فلا تصل أيها الرسول بعد الآن على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين عرفناك شأنهم صلاة الجنازة (أبدا) ما حييت، ولا تقف على قبره عند الدفن للدعاء له بالتثبيت، كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم.

روى أبو داود والحاكم وصححه والبزار من حديث عثمان رضى الله عنه قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف طيع فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث، ولا نعرف شيئا من السنة فى معنى القيام على القبر غيره.. ويلزم هذا النهى عدم تشييع جنائزهم وقال الطبرى: لا تتول دفنه وتقبيره[١٤] وهو أخص منه.

وقال الألوسى: لا تقف عند قبره للدفن[١٥]، وانتظار الدفن أعم منه.. وقال الرازى: أولا تقم بإصلاح مهمات قبره [١٦] وفيه بعد.. وأدخل فيه بعضهم زيارة القبور، وهو غير ظاهر، فقد ورد فى زيارة القبور أحاديث متعددة بلفظ الزيارة لا بلفظ القيام.

ان الصلاة على الميت، والإحتفال به، والدعاء بالتثبيت له إنما يكون لحرمته، وهم بمعزل عن ذلك، ولهذا علل تعالى النهى ببيان مستأنف فقال: (إنهم كفروا بالله ورسوله) مدة حياتهم (وماتوا وهم فاسقون)[١٧] وهم فى حالة خروجهم السابق عن حظيرة الإيمان.. والمنافقون لما كانوا موصوفين بالكذب، والنفاق، والخداع، والمكر والكيد، وصفهم الله تعالى بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر تنبيها على أن طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل العالم.

وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما روى الإمام أحمد بسنده عن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعى إلى جنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيرا قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها» ولم يصل عليها، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يصل على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره من الصحابة.. وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر: إنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها «ثم يحكى عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع».

وقرائن هذه الآيات دالة على أن المقصود منعه صلى الله عليه وسلم من أن يصلى على أحد منهم منعا كليا دائما، وهو نهى للمسلمين جميعا فى جميع الأحوال والأزمان أن يصلوا على المنافقين أو يدعوا لهم، وكذلك بقية المشركين يلحقون بهم قياسا.. وسأذكر سبب نزول هذه الآية بعد شرح الآية التالية..

لا اغترار بما يملك احياؤهم فهو عذاب وخسار

(ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون).

هو تحقير لهؤلاء المنافقين، واستخفاف بما كان لهم فى الدنيا من مال وولد فإن كثيرة هذه الأموال وهؤلاء الأولاد لم تكن مبعث سعادة، ورضى لهم فى دنياهم كما يبدو ذلك من ظاهر الحال، ولكنها كانت مثار قلق دائم، وازعاج متصل لهم، لأن عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أرراهم كل الذين بين أيديهم هو فى معرض الهلاك والزوال، لا يلتقون به بعد هذه الحياة بل، ولا يلتقون بعد أن تحتويهم القبور ويشتمل عليهم التراب، وهم فى هذه الحياة يختطفون اللذات اختطافا، ويختلسونها اختلاسا بلا أمل فى غد، ولا رجاء فيما بعد غد، وإنهم كلما كثرت أموالهم، وأولادهم كلما ازدادات همومهم وثقلت عليهم مؤونة حراستها، ودفع غائلة العدو الراصد لها ولهم، وهو الفناء الأبدى، والقطيعة القاطعة بينها وبينهم.

(ونزهق أنفسهم وهم كافرون) هو من البلاء المسلط عليهم من أموالهم وأولادهم، إذ كانت هذه الأموال والأولاد من الأسباب التى مدها الله لتحجبهم عن الإيمان وتقيمهم على طريق الكفر، فيعيشون به ويموتون عليه، إذ كان شغلهم بأموالهم وأولادهم مما أعمى بصيرتهم عن النظر إلى ما وراء الأموال، والأولاد.. وفى قوله سبحانه فى هذه الآية (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقوله فى الآية التى قبلها: (وماتوا وهم فاسقون) اشارة إلى أن الكفر والفسق من واد واحد، وأن الكافر فاسق، والفاسق كافر، إذ الفسق هو الخروج عن طريق الحق، والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين، وذلك هو الكفر كله.

وقد تقدمهذا بنصه فى السياق.. وبيان حكمة التكرير هو:

١. أن أشد الأشياء جذبا للقلوب وجليا للخواطر إلى الإشتغال هو الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى، فالتكرير يكون لأجل التأكيد، فها هنا للمبالغة فى التحذير.

٢. وقيل إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية قوما من المنافقين لهم أموال وأولاد فى وقت نزولها، وأراد بهذه الآية أقواما آخرين، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين فى أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع الآخرين.

٣. وتكرر كذلك للتأثير الذى يكون له فى نفس التالى والسامع.

٤. والإقتضاء المقام له كإقتضائه هناك.

٥. ولأن مانسبة ورودهما تختلف: فالمقصود هنا أن لا يقام وزن لأموالهم وأولادهم، لأن الاعجاب بها بعض من التكريم الشعورى لهم وهم لا يستحقونه لا فى الظاهر ولا فى الشعور، إنما هو الإحتقار والإهمال لهم ولم يملكون.(١٨).

سبب نزول آية ولا تصل على أحد

حديث صلاة النبى على ابن أبى. التعارض بينه وبين القران. مشكلات حول الحديث. من أنكر صحته ومن تأوله. من تكلف الجميع بينه وبين الآيات. التحقيق فى هذا الأمر.

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلت: أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى؟ القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا.. . أعدد أيامه. ورسوله الله صلى الله عليه وسلم يبتسم، حتى إذا اكثرت قال: «يا يعمر، أخرعنى، أنى قد خيرت، قد قيل لى: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة، فلو أعلم أنى ان زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبت لى ولجراءتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآتيان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا، ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل.

وروى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه(١٩) ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما خيرنى الله، فقال: أستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وان تستغفر لهم سبعين مرة «وسأزيده على السبعين» قال: انه منافق، قال فصلى الله عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) زاد مسلم فى رواية أخرى: فترك الصلاة

عليهم، وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله كان يقول: أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبر عبد الله بن أبى. وفى رواية: جاء إلى عبد الله ابن أبى بعد ما أدخل فى حفرته. فأخره من قبره فوضعه على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه أ.هـ، وقد وردت فى هذه المسألة روايات أخرى فنقتصر على هذا الذى فى الصحيحين وغيرهما مما فى معناه:

اشكالات: وقد استشكل العلماء على هذا الحديث بإستشكالات كثيرة، فإن ورود هذا فى سبب نزول الآيات، وبيان المراد منها مما يخالف ظاهرها وهى، لا إشكال فى شىء منها. كما تقدم. ولكن حديث معارضة عمر بطريقيه مشكل ومضطرب من وجوه:

١. جعل الصلاة على ابن أبى سببا لنزول آية النهى، وسياق القرآن صريح فى انها نزلت فى سفر غزوة تبوك سنة تسع، وإنما مات ابن أبى فى السنة التى بعدها.

٢. قول عمر للنبى صلى الله عليه وسلم: وقد نهاك ربك أن تصل عليه، يدل على أن النهى عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبى، وقوله بعده: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم).. إلخ، صريح فى أنه نزل بعد موته والصلاة عليه.

٣. قوله: إنه صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى خيره فى الاستغفار لهم وعدمه، إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كما ذكرت فى الحديث ولم يكن فيها بقيتها: أى التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم، وان الله لا يهدى القوم الفاسقين.. ومن ثم كان المتبادر من «أو» فيها أنها للتسوية بين ما بعدها وما قبلها، لا للتخيير[٢٠]، وبه فسرها المحققون كما فهمها عمر.

٤. استشكلوا الحديث، إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو غيره أصح من فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخطاب الله له، ولذلك أنكر بعضهم صحته.[٢١].

٥. التعار ض بين رواية «فلو أعلم أننى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» ورواية «وسأزيد على السبعين»[٢٢].

٦. التعارض بين اعطائه صلى الله عليه وسلم قميصه لأبنه لتكفينه فيه، وحديث جابر اخراجه صلى الله عليه وسلم لابن أبى من قبره والباسه قميصه.

٧. إذا أمكن أن تكون الصلاة على ابن أبى قبل نزول النبى عن الصلاة عليه فلاشك فى أنها كانت بعد آية (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) وآية (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) والجزم فى كل منهما بأن الله لن يغفر لهم [٢٣].

٨. وبالجملة: كيف يجوز أن يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى أن يصلى على ابن أبى بعد أن علم كونه كافرا، وقد مات على كفره، وأن صلاة الرسول صلى الله على وسلم تجرى مجرى الإجلال والتعظيم له، وأنه إذا صلى عليه فقد دعا له، وذلك محظور، لأنه تعالى أعلمه أنه لا يغفر للكفار البتة، وأن دفع القميص اليه يوجب اعزازه، وهو المنافق الذليل؟

محاولة الاجابة على بعض هذه الإعتراضات:

لعل السبب فيه أنه لما طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليه قميصه الذى مس جلده ليدفن فيه، غلب على ظن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه انتقل إلى الإيمان لأن

ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر، ويؤمن فيه الكافر، فلما رأى منه إظهار الإسلام، وشاهد منه هذه الأمارة التى دلت على دخوله فى الإسلام غلب على ظنه أنه صار مسلما، فبنى على هذا الظن ورغب فى أن يصلى عليه فلما نزل جبريل عليه السلام وأخبره أنه مات على كفره ونفاقه امتنع عن الصلاة عليه.. وأما دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوها:

١- أنه إنما أعطاه صلى الله عليه وسلم قميصه مكافأة لقميصه الذى ألبسه العباس رضى الله عنه حين أسر يوم بدر، فإنه جيء به ولا ثوب عليه وكان طويلا جسيما، فلم يكن ثوب يقدر قامته غير ثوب ابن أبى فكساه إياه.

وخرج البخارى عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم بدر أتى بأسارى، وأتى العباس ولم يكن عليه ثوب فطلب النبى صلى الله عليه وسلم له قميصا، فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه فكساه النبى صلى الله عليه وسلم اياه، فلذلك نزع النبى صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه»[٢٤] .

٢- ان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله (وأما السائل فلا تنهر) فلما طلب القميص منه دفعه إليه لهذا المعنى.

٣- ان منع القميص لا يليق بأهل الكرم

٤- ان ابنه عبد الله كان من الصالحين، وأن الرسول أكرمه لمكان ابنه.

٥- لعل الله تعالى أوحى إليه أنك إذا دفعت قميصك إليه، صار ذلك حاملا لألف نفر من المنافقين فى الدخول فى الإسلام، ففعل ذلك لهذا الغرض فأسلم ألف من المنافقين.

٦- ان الرأفة والرحمة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٢٥] وقال: (فيما رحمة من الله لنت لهم)[٢٦] فامتنع عن الصلاة عليه رعاية لأمر الله تعالى، ودفع إليه القميص لإظهار الرحمة والرأفة [٢٧]فإن قال قائل: فكيف قال عمر: أتصل عليه وقد نهاك الله أن تصل عليه، ولم يكن تقدم نهى عن الصلاة عليه من قيل له:

١- يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره، ويكون من قبيل الإلهام والتحدث الذى شهد له به النبى صلى الله عليه وسلم.

٢- ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى: (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)[٢٨] لأنها نزلت بمكة [٢٩] فى بعض الآراء.

٣- ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) الآية، لا أنه كان تقدم نهى، على ما دل عليه حديث البخارى ومسلم.

تلخيص ابن حجر لهذا الموقف

وقد لخص الحافظ فى فتح البارى ما ورد وما قاله العلماء من أشكال وجواب بما هو أجمع مما قاله من قبله ومن بعده، وهو ما كتبه فى الكلام على قول البخارى: باب قوله :(ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وهذا نصه:

«ظاهر الآية انها نزلت فى جميع المنافقين، ولكن ورد ما يدل على أنها نزلت فى عدد معين منهم، قال الواقدى: انبأنا معمر عن الزهرى قال: قال حذيفة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى مسر إليك سرا فلا تذكره لأحد، انى نهيت أن أصلى على فلان وفلان» رهط ذوى عدد من المنافقين، قال: فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصل يعلى أحد استتبع حذيفة، فإن صلى معه والا لم يصل عليه، ومن طريق أخرى: عن جبير بن مطعم انهم اثنا عشر رجلا، وقد تقدم حديث حذيفة قريبا أنه لم يبق منهم غير رجل واحد، ولعل الحكمة فى اختصاص المذكورين بذلك أن الله علم أنهم يموتون على الكفر بخلاف من سواهم فانهم تابوا.

ثم أورد المصنف حديث ابن عمر المذكور فى الباب قبله من وجه آخر، وقوله فيه: «انما خيرنى الله» أو «اخبرنى الله» كذا وقع بالشك، وقد أخرجه الإسماعيلى من طريق إسماعيل ابن أبى أويس عن ابى ضمرة الذى أخرجه البخارى من طريقه بلفظ «إنما خبرنى الله» بغير شك، وكذا فى أكثر الروايات بلفظ التخيير.. أى بين الاستغفار وعدمه كما تقدم.

«واستشكل فهم التخيير من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن فى صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه، واتفاق الشيخين سائر الذين خرجوا الصحيح على تصحيحه، وذلك ينادى على منكرى صحته بعدم معرفة الحديث وقلة الاطلاع على طرقه.

«قال ابن المنير مفهوم الآية زلت فيه الاقدام حتى أنكر القاضى أبو بكر صحة الحديث، وقال: لا يجوز أن يقبل هذا ولا يصح أن الرسول قاله. أ.هـ ولفظ القاضى أبى بكر الباقلانى فى التقريب: هذا الحديث من أخبار الآحاد التى لا يعلم ثبوتها.

وقاتل إمام الحرمين فى مختصره: هذا الحديث غير مخرج فى الصحيح، وقال فى البرهان: لا يصححه أهل الحديث، وقال الغزالى فى المستصفى: الا ظهر أن هذا الخبر غير صحيح، وقال الداودى الشارح: هذا الحديث غير محفوظ.

والسبب فى انكارهم صحته ما تقرر عندهم مما قدمناه، وهو الذى فهمه عمر رضى الله عنه من حمل «أو» على التسوية، لما يقتضيه سياق القصة وحمل السبعين على المبالغة.

«قال بن المنير: ليس عند أهل البيان تردد أن التخصيص بالعدد فى هذا السياق غير مراد.أ.هـ وأيضا فشرط القول بمفهوم الصفة - وكذا العدد عندهم، مماثلة المنطوق للمسكوت وعدم فائدة أخرى، وهنا للمبالغة واضحة فأشكل قوله: «سأزيد على السبعين» مع أن حكم ما زاد عليها حكمها.

«وقد أجاب بعض المتأخرين عن ذلك بأنه إنما قال: «سأزيد على السبعين» استمالة لقلوب عشيرته لا أنه أراد ان زاد على السبعين يغفر لهم.. ويؤيده تردده فى ثانى حديثى الباب حيث قال: «لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت».. لكن قدمنا أن الرواية ثبتت بقوله .. «سأزيد» ووعده صادق، ولا سيما وقد ثبت قوله.. «لأزيدن» المبالغة فى التأكيد بصيغته.

وأجاب بعضهم بإحتمال أن يكون فعل ذلك استصحابا للحال، لأن جواز المغفرة بالزيادة كان ثابتا قبل مجىء الآية، فجاز أن يكون باقيا على أصله فى الجواز، وهذا جواب حسن..

وحاصلة أن العمل بالبقاء على حكم الأصل مع فهم المبالغة لا يتنافيان، فكأنه جوز أن المغفرة تحصل بالزيادة على السبعين لا أنه جازم بذلك، ولا يخفى ما فيه، وقيل: إن الإستغفار يتنزل منزلة الدعاء، والعبد إذا سأل ربه حاجة فسؤاله اياه يتنزل منزلة الذكر، لكنه من حيث طلب تعجيل حصول المطلوب ليس عبادة، فإذا كان كذلك والمغفرة فى نفسها ممكنة، وتعلق العلم بعدم نفها، لا يغير ذلك، فيكون طلبها لا لغرض حصولها، بل لتعظيم المدعو فرذا تعذرت المغفرة عوض الداعى عنها ما يليق به من الثواب أو دفع السوء، كما ثبت فى الخبر، وقد يحصل بذلك عن المدعو لهم تخفيف، كما فى قصة أبى طالب.

«هذا معنى ما قاله ابن المنير، وفيه نظر، لأنه يستلزم مشروعية طلب المغفرة لمن يستحيل المغفرة له شرعا، وقد ورد انكار ذلك فى قوله تعالى (ماكان للنبى، والذين آمنوا أن يتسغفروا للمشركين).

«وقع فى أصل هذه القصة اشكال آخر: وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أطلق أنه خير بين الاستغفار لهم وعدمه بقوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وأخذ بمفهوم العدد من السبعين فقال: «سأزيد عليها» مع أنه قد سبق قبل ذلك بمدة طويلة نزول قوله تعالى: { ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) فإن هذه الآية ـ كما سيأتى فى تفسير هذه السورة قريبا ـ نزلت فى قصة أبى طالب حين قال صلى الله عليه وسلم «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت، وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقا.. وقصة عبد الله بن أبى هذه هى السنة التاسعة من الهجرة كما تقدم، فكيف يجوز مع ذلك الإستغفار للمنافقين مع الجزم بكفرهم فى نفس الآية؟

«وقد وقفت على جواب لبعضهم عن هذا حاصله: أن المنهى عنه استغفار ترجى اجابته، حتى يكون مقصوده معصيا المغفرة لهم، كما فى قصة أبى طالب، بخلاف الاستغفار لمثل عبد الله بن أبى، فإنه استغفار لقصد تطيب قلوب من بقى منهم.. وهذا الجواب ليس بمرضى عندى.

«ونحوه قول الزمخشرى فإنه قال: فإن قلت: كيف خفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن المراد بهذا العدد أن الإستغفار ولو كثر لا يجدى، ولا سيما وقد تلاه قوله : (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) فبين الصارف عن المغفرة لهم؟

قلت لم يخف عليه ذلك ولكنه فعل ما فعل وقال ما قال اظهارا لغاية رحمته ورافته على من بعث إليه، وهو كقول إبراهيم عليه السلام: «ومن عصانى فإنك غفور رحيم» وفى اظهار النبى صلى الله عليه وسلم الرأفة المذكورة لطف بأمته وباعث على رحمة بعضهم بعضا.

«وقد تعقبه بن المنير وغيره وقالوا: لا يجوز نسبة ما قاله إلى الرسول، لأن الله أخبره انه لا يغفر للكفار، وإذا كان لا يغفر لهم فطلب المغفرة لهم مستحيل، وطلب المستحيل لا يقع من النبى صلى الله عليه وسلم».

«ومنهم من قال: إن النهى عن الاستغفار لمن مات مشركا لا يستلزم النهى عن الاستغفار لمن مات مظهرا للإسلام، لاحتمال أن يكون معتقده صحيحا، وهذا جواب جيد.

وقد قدمت البحث فى هذه الآية فى كتاب الجنائز، والترجيح أن نزولها كان متراخيا عن القصة، ولعل الذى نزل أولا وتمسك النبى صلى الله عليه وسلم به قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) إلى هنا خاصة، ولذلك اقتصر فى جواب عمر على التخيير وعلى ذلك السبعين، فلما وقعت القصة المذكورة كشف الله عنهم الغطاء وفضحهم على رؤوس الملاء ونادى عليهم بأنهم كفروا بالله ورسوله.

ولعل هذا هو السر فى اقتصار البخارى فى الترجمة من هذه الآية على هذا القدر إلى قوله: (فلن يغفر الله لهم) ولم يقع فى شىء من نسخ كتابه تكميل الآية كما جرت به العادة من اختلاف الرواه عنه فى ذلك.

«وإذا تأمل المتأمل المنصف وجد الحامل على من رد الحديث أو تعسف فى التأويل ظنه بأن قوله: (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) نزل مع قوله : (استغفر لهم) أى نزلت الآية كاملة، لأنه لو فرض نزولها كاملة لاقترن النهى بالعلة، وهى صريحة فى أن قليل الاستغفار وكثيرة لا يجدى، وإلا فإذا فرض ما حررته: أن هذا القدر نزل متراخيا عن صدر الآية ارتفع الاشكال، وإذا كان الأمر كذلك فحجة المتمسك من القصة بمفهوم العدد صحيح، وكون ذلك وقع من النبى صلى الله عليه وسلم متمسكا بالظاهر وذلك على ما و المشروع فى الاحكام، إلى أن يقوم الدليل الصارف عن ذلك لا اشكال فيه.. فلله الحمد على ما ألهم وعلم.

«وقد وقفت لأبى نعيم الحافظ صاحب حلية الأولياء على جزء جمع فيه طوق هذا الحديث، وتكلم على معانيه، فلخصته، فمن ذلك أنه قال: وقع فى رواية أبى أسامة وغيره عن عبيد الله العمرى فى قول عمر: «أتصلى عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين؟ ولم يبين محل النهى فوقع بيانه فى رواية أبى ضرة عن العمرى، وهو أن مراده بالصلاة عليهم الإستغفار لهم، ولفظه: (وقد نهاك الله أن تستغفر لهم(وفى قول بن عمر: «فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلينا معه» أن عمر ترك رأى نفسه وتابع النبى صلى الله عليه وسلم، ونبه على أن ابن عمر حمل هذه القصة عن النبى صلى الله عليه وسلم بغير واسطة، بخلاف ابن عباس فإنه إننا حملها عن عمر، إذ لم يشهدها أ.هـ الحادث[٢٠] وحاصل ما لخطه الحافظ من أقوال العلماء فى هذه المسألة - وهو من أوسع حفاظا الملة اطلاقا - انه لا يمكن الجمع بين القران والحديث فيها على وجه مقبول، إلا إذا فرضنا أن آية النهى عن الصلاة عليهم قد نزلت بعد الصلاة على ابن أبى، وهو وإن كان خلاف ظاهر السياق لا مانع منه عقلا، ولكن يبعد جدا أن تكون آية الإستغفار للمنافقين قد نزل صدرها أولا ثم نزل باقيها متراخيا بعد سنة أو أكثر، أى بعد الصلاة على ابن أبى، وكذا تأويل قول عمرك (وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين» بأنه يعنى بالصلاة الاستغفار.. وإذا سلمنا نزول صدر آية من سياق طويل كآية براءة فى سنة، ونزول باقيها فى سنة أخرى على بعده، فماذا تقول فى آية سورة «المنافقون» وقد نزلت قبل آية براءة بأربع سنين فى غزوة بنى المصطلق وكانت سنة خمس من الهجرة على الراجح، وهى أصح فى التسوية بين الاستغفار وعدمه.

الحقيقة فى هذا الموضوع

والحق أن هذا الحديث معارض للآيتين.. فالذين يعنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون به عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة الحديث ولو من جهة متنه، وفى مقدمتهم أكبر أساطين النظار كالقاضى أبى بكر الباقلانى، وإمام الحرمين، والغزالى، ووافقهم على ذلك الداودى من شراح البخارى.. وأما الذين يعنون بالأسانيد أكثر من عنايتهم بالمتون، وبالفروع أكثر من الأصول، فقد تكلفوا ما بينا خلاصته عن احفظ حفاظهم.

ومن الأصول المتفق عليها انه: ما كل ما صح سنده يكون متنه صحيحا، وما كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعى فى الواقع وفى النصوص، وان القران مقدم على الأحاديث عند التعارض وعدم امكان الجمع.. فمن اطمأن قلبه لما ذكروا من الجمع أو لوجه آخر ظهر له فهو خير له من رد الحديث، ومن لم يظهر له ذلك فلا مندوحة له عن الجزم بترجيح القرآن، والتماس عذر لرواة الحديث [٣١].

وبعد، فقد ذكرنا سبب النزول، أو الحادثة الخاصة التى عنتها هذه الآية، وما قيل فى ذلك من كلام وما دار حوله من نقاش.. ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة، وأسباب النزول، فهى تقرر أصلا من أصول التقدير فى نظام الجماعة المكافحة فى سبيل العقيدة، وهو عدم التسامح فى منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق، وعدم المجاملة فى تقدير منازل الأفراد فى الصف، ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التى لا تسترخى ولا تلين.

والنص يعلل هذا النهى فى موضعه هنا: (أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).. وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول صلى الله عليه وسلم على قبر منافق، ولكن القاعدة - كما ذكرنا - أوسع من المناسبة الخاصة، فالصلاة والقيام تكريم، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد لتبقى له قيمته ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله، وبما يصبرون على البذل ويثبتون على الجهد، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله، لا يتخلفون بهما فى ساعة الشدة ثم يعودون فى الصف مكرمين!.. لا التكريم الظاهر ينالونه فى أعين الجماعة، وذلك بعدم انتظامهم فى الصف أو الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم، ولا التكريم الباطن ينالونه فى عالم الضمير، وذلك بترك الإعجاب بأموالهم، وأولادهم.

طبيعة النفاق والضعف والاستخزاء

وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء

«وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم»[٣٢]

هذا بيان لحالة المنافقين العامة فى أمر الجهاد بالمال والنفس الذى هو أقوى آيات الإيمان بالله ورسوله، وما يقابله من حال المومنين الصادقين فيه، وما بين الحالين من التضاد فى العمل والأثر فى القلب، اللذين هما مناط الجزاء.

انهما طبيعتان: طبيعة النفاق، والضعف والاستخزاء، وطبيعة الإيمان، والقوة والبلاء.. وانهما خطتان: خطة الالتواء والتخلف، والرضا بالدون، وخطة الإستقامة والبذل، والكرامة.

فكلما نزلت سورة تدعو الناس أو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله، وتأمرهم بالجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم، جاء أولو الطول وأصحاب الرياسة، والسيادة، وأهل المقدرة، والثروة، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل.. جاءوا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيه المقدرة التى وهبها الله لهم، وشكر النعمة التى أعطاها الله اياهم، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا فى البيوت مع الضعفاء، والزمنى، والعاجزين عن القتال، والصبيان، والنساء غير المخاطبين به.. جاءوا ليقوموا بواجب الحمد لله فيبذلوا النفس والمال رخيصا لإعلاء كلمة الله، ولكن ليتحللوا من هذا الأمر بالإعتذار إلى رسول الله، واستئذانه فى أن يعفيهم من اجابة هذه الدعوة والجهاد فى سبيل الله (ذرنا نكن مع القاعدين) مستخفين بأمر الله مستروحين للتحلل منه، حتى ليهنأهم المقام وتطيب لهم الحياة، فيقعدون مع القاعدين ويسمرون مع السامرين.. جاءوا لا ليذودوا عن حرمة، ولا ليدفعوا عن سكن، وإنما ليبتغوا الخلود إلى الأرض والركون إلى القعود دون أن يستشعروا ما فى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان، مادام فيها السلامة، وطلاب السلامة لا يحسون العار، فالسلامة هدف الراضين بالدون.

وعن ابن اسحاق: (استأذنك أولو الطول منهم) كان منهم عبد الله بن أبى والجد بن قيس، فنعى الله ذلك عليهم.

وفى معنى الآية قوله تعالى: (ويقول الذين آمنوا لوا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم)[٣٣] وقوله (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد)[٣٤] أى عدت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء كما قال الشاعر:

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة.. وفى الحرب أشباه النساء الفوارك

وخص أول يالطول بالذكر لأن الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على السفر والجهاد، ولأن من لا مال له ولا قدرة على السفر لا يحتاج إلى استئذان لأنه معذور.. وفيه دليل على جبن المنافقين، وضعفاء الإيمان، ورضاهم لأنفسهم بالذل والهوان.

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) من النساء [٣٥] ومن لا خير فيهم من أهل الفساد، ومن لا فائدة فيهم للجهاد.. وسولت لهم أنفسهم أن يكونوا من لا طول لهم ولا حول من المرضى

والزمنى وأصحاب العاهات، والعلل، والاطفال، والاماء، والعبيد.. رضوا أن يكونوا مع هذه الطوائف من الناس، وهم أصحاب طول وحول، لم يكن يرضيهم أبدا أن يكون بينهم وبين هذه الطوائف أمر جامع، أو صفة مشتركة، فكيف. وهم أصحاب الحول والطول. ينزلون إلى هذا المستوى الذى يضيفهم إلى مجتمع الصبيان والعبيد! ولكن هكذا أرادوا أن يكونوا، وهكذا صنعوا بأيديهم هذا الثوب الذى لبسوه، ثوب الصغار، والإمتهان.

(وطبع على قلوبهم فهم) لأجل ذلك (لا يفقهون) عن الله مواعظه فيتعظون بها، أو لا يفقهون أسرار حكمة الله فى الأمر بالجهاد أو ما فيه صلاح لهم فيفعلونه وما فيه مضرة لهم فيجتنبونه، أولا يفهمون ما يخاطبون به فهم تدبر واعتبار فيعملون به.. وفيه اشارة إلى أنهم وقد لبسوا ثياب المهانة، والخزى بهذا الموقف الذى وقفوه لا يدركون ما وقع عليهم من ذلة وهوان، إذ كانت أعينهم فى عمى، وقلوبهم فى غفلة وعقولهم.. ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة، وبقاء كريم، وما فى التخلف من ضعف، ومهانة، وفناء ذميم.

ان للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة، وان ضريبة الذل لأفدح فى كثير من الأحايين، وان بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة تخاف من ظلها وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة.. هؤلاء الاذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، أنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، ويؤيدونها من أقدارهم، ويؤيدونها من سمعتهم، ويؤيدونها من اطمئنانهم، وكثرا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون، ومن هؤلاء، أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

صورة مشرقة وضيئة:

وهناك الوجه الآخر المشرق الوضىء من وجهى هذا الموقف.. وهو أمر الله بالإيمان ودعوته إلى الجهاد.. فإذا كان المنافقون وأصحاب الطول فيهم قد نكصوا على أعقابهم ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف. وما كان أولئك الجبناء البخلاء، بأهل للقيام بهذه الأعباء، من البذل والجهاد بالنفس والسخاء. فإن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلوا كل طاقتهم وأنفقوا كل وسعهم، فما إن دعاهم الله إلى الجهاد حتى طاروا إليه سراعا، ونفروا خفافا وثقالا، وإذا كان المخلفون قد ألبسهم الله بتخلفهم ثوب الخزى والذلة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجاهدين قد تلقاهم الله حفيا بهم موسعا لهم فى رحاب فضله ورضوانه فملأ أيديهم من المغانم، وكتب لهم النصر على عدوهم، ومكن لهم فى الأرض، ويدلهم من بعد خوفهم أمنا.

(لكن الرسول والذين آمنوا معه)[٣٦] وهم طراز آخر غير ذلك الطراز (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) فنهضوا بتكاليف العقيدة وأدوا واجب الإيمان.. وعملوا للعزة التى لا تنال بالقعود.. (وأولئك لهم الخيرات).. خيرات الدنيا والآخرة، فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم، ولهم الكلمة العليا من شرف النصر ومحو كلمة الكفر، واجتثاث شجرة الشرك واعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل والسيادة فى الأرض، وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان

الله الكريم (وأولئك هم المفلحون).. الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم، والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) يحتمل أن تكون «(الخيرات) هى الثواب، (والفلاح) هو التخلص من العقاب، والعذاب.. ويحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات، وللفلاح، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا مثل الغزو، والكرامة والثروة، والقدرة، والغلبة وتحمل الجنات على ثواب الآخرة.. والفوز العظيم عبارة عن كون الثواب مرتبة رفيعة ودرجة عالية.

بقى أن العطف بالواو فى (أولئك لهم الخيرات) فيه اشارة إلى ما للرسول والمؤمنين معه عند الله من أوصاف كريمة غير تلك الأوصاف التى وصفهم بها، وأن ما وصفوا به هنا ليس إلا من قبيل التنويه، والاشارة إلى تلك الأوصاف التى لا تحصر وإن كان ذكر قليلها يغنى عن كثيرها، لأنها كلها من باب واحد هو باب الخير والإحسان ويكون من مفهوم الآية :(لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم أولئك رضى الله عنهم، وأنزلهم منازل رحمته واحسانه)، (وأولئك لهم الخيرات)، (وأولئك هم المفلحون).

وفى تكرار الاشارة إلى الرسول والمؤمنين فى (أولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون تأكيد للتنويه بهم وتقرير لدرجتهم العالية، كما أن فى ذلك اشارة إلى أن مقامهم هذا الرفيع الذى هم فيه، لا تبلغه الاشارة التى يقصر عنها النظر وانه لكى يمكن أن يرتفع النظر إلى هذا المستوى ينبغى أن يكون ذلك على مراحل يقطعها ؟؟ فى الوصول إليهم (أولئك لهم الخيرات) فأنظر إليهم انهم هنا؟ ألا، إنهم هنا كلا، إنهم فوق هذا.. أولئك هم المفلحون، فأرجع البصر خاسئا، وهو حسير.

منافقو الأعراب مستأذنين وغير مستأذنين

لما بين تعالى أحوال منافقى الحضر الذين كانوا فى المدينة، ابتدأ بشرح أحوال المنافقين من الأعراب، وهم بدو العرب، الذين طلبوا الأذن بالتخلف والذين تخلفوا بغير اذن، فى قوله تعالى: (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم).

قرأ الجمهور.. «المعذرون» بالتشديد وقرأ يعقوب «المعذرون» بالتخفيف [٢٧]

والواو فيها تصل ما انقطع من حديث القرآن عن المنافقين وما كشف من وجوههم المنكرة وما فضح من أساليبهم المخادعة المضللة، والفعل «جاء» فى امتداد مقطعة هكذا «جاء» وفى تذبذب انغامه بين همس الواو وجهر الجيم وخطف الهمزه، يرسم صورة مكتملة الألوان والظلال للمنافقين، وهم فى طريقهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم متحاملين متثاقلين، تدور أعينهم هنا وهناك حظرا من أن تفضحهم أعذارهم التى بين أيديهم، يسوقونها إلى النبى ويدفعون بها فى خوف وخطف واضطراب، ثم هم فى موكبهم الطويل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنماط مختلفة: منهم السفيه الوقح الذى لا يعرف الحياء وجهه، فيجىء خفيفا مسرعا يبادر القوم قبل أن يسبقوه فيأخذوا عليه الطريق إلى ما يعتذر به، إذ كانوا قد

استنفذوا الأعذار بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من لا يعرف له عذرا ولكنه لابد أن يعتذر أو أن ينتحل عذرا كاذبا، لأنه لا يريد أن يكون فى المجاهدين، فيمشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم متثاقلا متحاملا حتى تتكشف له وجوه الأعذار التى يعتذر بها المعتذرون لعله يقع على واحد منها! ومنهم من له عذر صورى لا حقيقى، وهو يوهم أنه حقيقى، عالما بأنه مخادع، ومنهم من له عذر ضعيف هو فى شك منه إن نوقش فيه عجز عن اثباته، ومنهم من قطع الطريق إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولا يبلغه، بل يقف بعيدا يتسمع الأنباء عن المعتذرين وما يعتذرون به وما يقوله النبى لهم!.. ومنهم .. ومنهم انهم أشكال متعددة وأنماط مختلفة، ولكنهم جميعا على طريق النفاق سائرون، وعلى نية التخلف عن الجهاد قائمون.. وبذلك تكون الحكمة فى القراءتين على اختلاف معانى الصيغيتين هو بيان اختلاف أحوال أولئك الأعراب فى اعتذارهم، وهذا من ايجاز القرآن العجيب بالاتيان بلفظ مفرد يتناول هذه الأقسام كلها.

وانظر فى وجه النظم القرآنى يشهدك على هؤلاء الأعراب سكان البوادى، وقد جاءوا من شتى الجهات، بعد أن سمعوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بقوله: «انفروا خفافا وثقالا» جاءوا لينتظموا فى صفوف المجاهدين، ولا ليقاتلوا فى سبيل الله، وإنما جاءوا ليطلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى التخلف عن الخروج إلى تبوك معتذرين عن الجهاد، وليقدموا من المعاذير ما فى جهدهم، كما يقوم المجاهدون فى سبيل الله أموالهم وأنفسهم!! فما أتعس هذا المجىء، وما أشام ذلك السعى!

(وقعت الذين كذبوا الله ورسوله) هم منافقو الأعراب الذين ما جاءوا للقتال، وما اعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الإيمان.. وهؤلاء (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل أو الذلة، وفى الآخرة بالنار.. أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعل لهم مصيرا غير هذا المصير، وعلى هذا تدل كلمة «منهم» فهى تشير إلى علمه تعالى أن بعضهم سيؤمن ويتخلص من هذا العقاب.

والسؤال الملح هو: هل المعذرون كلهم أو بعضهم صادقون، أو كلهم كاذبون؟ وهل هم والقاعدون الذين كذبوا الله ورسوله صنفان أو صنف واحد؟ يرى جماعة أن المعذرين هم ذوو الأعذار الحقيقية، فلهم عذرهم ان استأذنوا فى التخلف، أو على الأقل فالبعض منهم صادق.. قال الرازى: فإن أخذنا بقراءة التخفيف كان المعذرون صادقين، وإن أخذنا بقراءة التشديد وفسرناها بالمعتذرين، فعلى هذا التقدير يحتمل انهم كانوا صادقين وأنهم كانوا كاذبين(٣٨).

١- ومن المفسرين من قال: المعذرون كانوا صادقين بدليل:

أ- أنه تعالى لما ذكرهم قال بعدهم: (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما ميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا بكاذبين.

ب- وقال ابن عباس: هم قوم تخلفوا بعذر باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال المنار: وظاهره أن عذرهم حق، وهو يصدق ببعضهم دون بعض، كمقابلة الذى يذكر عن أبى عمرو(٣٩).

ج ـ وقال الطبرى: وبعد، فإن الذى عليه من القراءة قرأة الأمصار التشديد فى الذال أعنى فى المعذرون ـ ففى ذلك دليل على صحة تأويل من تأوله بمعنى الاعتذار، لأن القوم الذين وصفوا بذلك لم يكلفوا أمرا عذروا فيه، وإنما كانوا فرقتين: إما مجتهد طائع، وإما منافق فاسق لأمر الله مخالف، فليس فى الفريقين موصوف بالتعذير فى الشخوص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما هو معذر مبالغ أو معتذر [٤٠].

٢) وقال آخرون: انهم كانوا كاذبين، ودليلهم:

أ ـ قيل هم أسد وغطفان، قالوا: إن لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف، وقال الضحاك: هم رهط عامر بن الطفيل جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعا عن أنفسهم، فقالوا : يا نبى الله، ان نحن غزونا معك تغير أعراب طيىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد ابنأنى الله من اخباركم وسيغنى الله عنكم».

ب ـ وقال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئا: قوم تكلفوا عذرا بالباطل، وهم الذين عفاهم الله تعالى بقوله: (وجاء المعذرون)، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى، وهم المنافقون فهم المرادون بقوله: (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله).

ج ـ وقال القرطبى: إن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون، لم يحتاجوا أن يستأذنوا.[٤١].

د ـ وقال عبد الكريم الخطيب: والمعذرون هم مدعو الأعذار ومختلقوها، فخلق الأعذار واصطناعهم هو عملهم، والصفة الغالبة عليهم، كما يقال: المهندسون والمعلمون، فهم صناع الأعذار لا صنعة لهم غير هذا.[٤٢].

هـ ـ وقال ابن جرير: قال بعضهم: كانوا كاذبين فى اعتذارهم فلم يعذرهم الله، عن قتادة : اعتذروا بالكذب، وعن مجاهد: هم نفر من بنى غفار، جادوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله [٤٣]، وقد كان بعضهم يقول: إنما جاءوا معذرين غير جادين، يعرضون ما لا يريدون فعله، فمن وجهه إلى هذا التأويل فلا كلفة فى ذلك، غير أنى لا أعلم أحدا من أهل العلم بتأويل القران وجه تأويله إلى ذلك، فاستحبوا القول به[٤٤].

ثم ان الجمهور يرى أن المعذرين والقاعدين الذين كذبوا الله ورسوله، صنفان لا صنف واحد، كل منهما له أوصافه، غير أنه يعكر على هذا الرأى قوله تعالى (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم).

هل يعود إلى الأقرب ـ القاعدين ـ أو إلى المعذرين، أو إلى الفريقين جميعا؟ وهذا يتبع عود الضمير فى «منهم».

الظاهر أن المختار عند الأكثرين أن هذا الوعيد يعود على ما قبله من الفريقين .. عاما فى المكذبين، وخاصا ببعض المعذرين، كما هو المتبادر من قوله تعالى «منهم» أى الأعراب الذين

اعتذر بعضهم وقعد بعض، فإن الذين كذبوا الله ورسوله كلهم كفارا، وأما المعتذرون فمنهم الصادق فى عذره والكاذب فيه، لمرض فى قلبه، أو لتكذيبه لله ورسوله، وكل منهم يعرف نفسه فيحاسبها إذا وجد الوعيد موضعا للعبرة منها، ولو جعل التبعيض لهم وحدهم لظل القاعدون الكاذبون بغير وعيد، وهم شر من شرهم، فلا يصح التبعيض فيهم وحدهم.

ومن ثم اقتضى التحقيق أن يوجه الوعيد إلى الذين كفروا منهم لكفرهم، لا لاعتذارهم، وإلى الذين قعدوا لكفرهم، لا لقعودهم، بل للكذب الذ يكان سببه، وهو عين الكفر، وهو لم يذكر بصيغة الحصر لأن من القعود ما يكون بعذر من الأعذار المنصوصة فى الآية التالية وهم أولو الضرر فى قوله تعاليك (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم)[٤٥] فالإبهام لمستحقى هذا الوعيد من الفريقين، من بلاغة القرآن التى امتاز بها اعجازه البيانى.[٤٦].

وترى جماعة قليلة: أنها صنف واحد وأن القعود وتكذيب الله ورسوله هو الوصف الذى وصف به أولئك المعذرون والسمة التى وسموا بها، فهم الذين قعدوا متخلفين عن الجهاد، وهم الذين افتروا الكذب على الله ورسوله بهذه الأعذار التى اختلقوها وجاءوا إلى النبى بها.

وفى هذا الخبر تهديد ووعيد لهم، إذ ليس مرادا به الإخبار عنهم، وأنهم قعدوا، وانما هو خبر يكشف عن جريمة غليظة، ويحدث عن منكر عظيم.

وفى قوله تعالى: (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) حكم عليهم بالإدانة، وبأن هذه الأعذار التى اعتذروا بها إنما هى محض كذب وافتراء، إذ هم الذين كذبوا الله ورسوله، وقد عدل عن الضمير إلى الأسم الظاهر، ليعرضوا هذا العرض الكاشف عن كذبهم، ويسمعوا حكم الله عليهم.

وهؤلاء المعذرون الذين كذبوا الله ورسوله هم جميعا من أهل الكفر، فليس فيهم كافر وغير كافر، ولا مثوى للكافرين غير العذاب الأليم، فحرف الجر فى «منهم» للبيان لا للتبعيض [٤٧].

أصحاب الأعذار الحقيقية

لما بين السياق الوعيد فى حق من يوهم العذر مع أنه لا عذر له، أخذ يحدد التبعية فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون: فالشريعة الإسلامية قائمة على اليسر ورفع الحرج عن المؤمين، فلا اعنات فيها ولا مشقة، ولا عسر فى تكاليفها، ولا يكلف الله نفسها إلا وسعها، والذين عجزوا عن النفرة لكونهم أصحاب أعذار حقيقية ظاهرة، ينطق بها لسان الحال قبل أن ينطق لبها لسان المقال، لا تثريب عليهم، ولا مؤاخذة لهم، فقد أغناهم الله عن أن يقفوا هذا الموقف، فعذرهم قبل أن يعتذروا، ورفع الحرج عنهم (ليس على الضعفاء، ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون).

والمعذرون أقسام:

١ـ الضعفاء: وهم من لا قولة لهم فى أبدانهم تمكنهم من الجهاد كالزمنى والشيوخ والعجزة (٤٨) والصبيان والنساء (٤٩) ومن عجزوا عن القتال لعلة فى تكوينهم، كالأعمى والأعرج، وقد ذكر هؤلاء لأن عذرهم دائم لا يزول.

٢ـ المرضى: وهم الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، ولا يستطيعون الحركة، والجهد، وعذرهم ينتهى بالشفاء منه.

٣ـ الذين لا يجدون ما ينفقون: وهم الفقراء المعدومون الذين لا يجدون ما لا ينفقون منه على أنفسهم، ويتزودون به إذا خرجوا للجهاد، ويتركون لعيالهم ما يكفيهم: وكان المسلمون يجهزون أنفسهم للقتال، فالفقير ينفق على نفسه، والغنى ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته، كما فعلوا فى غزوة تبوك، إذا لم يكن للمسلمين بيت مال غنى، ينفق منه النبى صلى الله عليه وسلم على الغزة، واليوم تبدل الحال فى نظام الجيوش، فأصبحت الدولة هى التى تتولى الإنفاق على المجاهدين، فهذا العذر خاص بالمال ويزول إذا كان للأمة بيت مال قوى. الذى هو خزينة الدولة ـ ولها ميزانية خاصة بالإعداد الحربى، كحال العالم فى الوقت الحاضر.

ليس على هذه الأصناف الثلاثة ومن فى حكمهم، حرج ولا ضيق فى أن يتخلفوا عن ركب المجاهدين، ولا أثم عليهم فى أن يقعدوا عن المعركة فى الميدان «إذا نصحوا لله ورسوله» إذا كانت قلوبهم سليمة عامرة بالإخلاص لله فى الإيمان، وللرسول فى الطاعة، ترتبط مشاعرهم بمشاعر المؤمنين المجاهدين، فهم معهم بأحاسيسهم كلها.. يدعون لهم بالنصر، ويتمنون لهم الغلبة والسلامة، ثم هم يحافظون على أداء الأمانة بالقول والعمل ـ ولاسيما الذى تقتضيه حالة الحرب ـ وعلى كتمان السر، والحث على البر، ومقاومة خيانة الخائنين فى سر أو جهر، والإحتراز عن القاء الأراجيف، وإثارة الفتن وإحداث الشائعات المبلبلة للأفكار، والغش، والخداع، ويقومون بعد ذلك بما يستطعونه ـ دون القتال ـ من حراسة أو صيانة، ويخلفون المجاهدين فى أهليهم، ويقومون على رعاية أبنائهم، وأزواجهم وقضاء حوائجهم ورفع الضرر عنهم، ومواساة من أصيب منهم فى أب أو أخ أو زوج، والسعى فى ايصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم « ومن خلف غازيا فى سبيل الله فقد غزى (٥٠)» إلى غير ذلك من الأعمال التى تعود بالنفع على المسلمين، وتبعث فى نفس المجاهد الطمأنينة، وتطلق يديه كلتهيما ووجوده كله للعمل فى ميدان المعركة ومواجهة العدو، وبهذا يكون المؤمنون جميعا فى ميدان المعركة، سواء منهم من شهدها وحارب فيها أو من تخلف بما معه من عذر ونصح لله ولرسوله.

على أن هذا الذى يبذله المتخلفون من ذوى الأعذار من نصح لله ورسوله وراء جبهة القتال، هو غاية ما فى مستطاعهم، وهو ميدانهم الذى يكون لهم فيه عمل واحسان .. فإذا أعطى المؤمن ـ فى باب الاحسان ـ ما وسعته نفسه فهو من المحسنين، ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذته أو النيل منه فكل السبل مسدودة دون الوصول إليه ـ (ما على المحسنين من سبيل).. فإذا كان أولئك المعذرون فى القعود عن الجهاد محسنين فى سائر أعمالهم بالنصح

المذكور، انقطعت طرق المؤاخذة دونهم [٥١]، وليس عليهم جناح وهمه يحسنون بقدر ما يستطيعون فلا جناح على المحسنين، إنما الجناح على المسيئين.

والشرع الإلهى لا يؤاخذ المسيئين إلا بقدر اساءتهم، أما المحسنون فيجزيهم الله أضعاف احسانهم ويقبل أحسن أعمالهم ويصفح عن سيئاتهم (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما علموا ونتجاوز عن سيئاتهم)[٥٢] فإذا ندت منهم بادرة تقصير، أو لم يبلغوا فى الإحسان غايته فإن رحمة الله واسعة ومغفرته شاملة، يصفح عن المقصرين، ويستر عليهم ما لا يخلو منه البشر من ضعف فى أداء الواجبات لا ينافى الإخلاص، والنصح لله ورسوله.. (والله غفور رحيم)..

أخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت براءة، فانى لواضع القلم على أذنى إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت (ليس على الضعفاء» الآية، وفى الألوسى [٥٣]: (الذين لايجدون ما ينفقون) قيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة.

فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب، فخرج ابن أم مكتوم إلى أحد وطلب أن يعطى اللواء، وهو أعمى، وهذا الأعرج، عمرو بن الجموح من نقباء الأنصار وهو فى أول الجيش قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد عذرك، فقال: والله لأحفرن بعرجتى هذه فى الجنة، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف [٥٤].

البكاؤون

لا جناح على الضعفاء والمرضى والفقراء إذا نصحوا الله ورسوله، ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تنقلهم إلى أرض المعركة .. وإذا ما أتوك يا رسول الله لتوهيئ لهم مواصلات يركبونها إلى الميدان. ولم يكن بين يديك ولا فى جيش المسلمين ما تحملهم عليه. قلت لا أجد ما أحملكم عليه(فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب، امتلئت نفوسهم أسى وحسرة، وانصرفوا وهم فى حال بكاء شديد، هاجه حزن عميق، فكانت أعينهم تمتلىء دمعا فيتدفق فائضا من جوانبها تدفقا، حتى كأنها ذابت فصارت دمعا، فسالت همعا، وحزنا منهم وأسفا ان فاتهم حظهم من الجهاد، وإن لم يكن فى أيديهم ما ينفقونه فى سبيل الله، وفى اعداد المركب الذى يحملهم مع المجاهدين.. وهؤلاء هم الذين عرفوا فى التاريخ الإسلامى بالبكائين، وإذا كان بكاء الرجال مذموما فى كل موطن، إلا إنه هنا فى هذا المقام - مقام التعامل مع الله - محمود غاية الحمد، ومطلوب من المؤمن أن يكون هنا حاضر الدمعة غزيرها، وفى الحديث «إن لم تبكوا فتباكوا» فالدمعة هنا دمعة عزيزة على الله، ولا تقع على الأرض، كما تقع دموع الباكين فتضيع بددا، وإنما تتلقاها ملائكة الرحمة، فإذا هى نهر جار من نور يغمر فيه صاحبها، فإذا هو خلق من نور، أصفى من الجوهر وأضوء من

شمس الضحى.. يقول الرسول الكريم: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله» فإن قيل: أليس هؤلاء داخلين تحت قوله تعالى :(ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فما الفائدة فى اعادته؟ قلنا: الذين لا يجدون ما ينفقون هم الفقراء الذين ليس معهم أقل النفقة، وهؤلاء هم الذين ملكوا قدر النفقة إلا انهم لم يجدوا الراحلة، أو هم يدخلون فى عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد فى سفر طويل كغزوة تبوك، وهم فقدهم الرواحل التى تحملهم وفهو من عطف الخاص على العام.

والحكمة فى التعبير بـ«الإتيان» لأجل الحمل، والاعتذار بعدم وجدان ما يجهل عليه دون ذكر جنسه من راحلة ودابة، هى افادة العموم فى ما يحمل عليه مريد السير فتدخل فيه وسائل المواصلات لهذا العصر، من برية وبحرية وجوية، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها فى كل سفر بحسبه، وزوال العذر بوجوده، فوجود الخيل والجمال لا ينفى العذر فى الفر الذى يقطع فى القطارات الحديدية أو السيارات أو الطائرات أو البواخر أو غيرها من وسائل النقل الحديثة.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينبعثوا غازين، فجاءت عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفل المزنى، فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يحسبوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة، ولا محملا، فلما رأى الله حرصهم على محبته، ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه (ولا على الذين إذاما أتوك لتحملهم).

وأخرج ابن جرير عن مجاهد: نزلت فى بنى مقرن من مزينة [٥٥] وقال ابن جرير وقال آخرون: إنها نزلت فى نفر سبعة من قبائل شتى، وأخرج ابن جرير أيضا عن محمد بن كعب قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فأنزل الله (ولا على الذين إذاما أتوك لتحملهم(الآية، قال: هم سبعة نفر، من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير، ومن بنى واقف هرمى بن عمرو[٥٦]، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بنى المعلا سلمان بن صخر[٥٧] ومن بنى حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة، وهو الذى تصدق بعرضه فقبله الله منه، ومن بنى سلمه عمرو بن غنمه[٥٨].

وعبد الله بن عمرو المزنى وقال ابن اسحق فى سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم: من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار، وعمرو بن الحسام بن الجموح أخو بنى سلمة، وعبد الله بن المغفل المزنى، وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزنى، وهرمى بن عبد الله أخو بنى واقف، وعياض[٥٩] بن سارية الفزارى، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا أهل حاجة، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون»[٦٠].

وقال الحسن: نزلت فى أبى موسى الأشعرى وأصحابه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه ووافق ذلك منه غضبا، فقال: «والله ما أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ذودا خير الذود، فقال أبو موسى: الست حلفت يا رسول الله؟ فقال: «أما أنى إن شاء الله لا أحلف بيمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى»(٦١).

وفى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتم سيرا إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر» وفى رواية : «ألا شاركوكم الأجر» وهناك روايات أخرى أنهم ما سألوه صلى الله عليه وسلم إلا الزاد والماء، ورواية أخرى انهم ما سألوه إلا الحملان على النعال، كما روى فى القرطبى: قالوا يا بنى الله، قد ندبتنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة، والنعال المخصوفة نغز معك، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون.

ولا مانع من وقوع كل ذلك فى هذه الغزوة الكبيرة، ولكن الآية خاصة بطلاب الرواحل، لأنه هو المتبادل من اللفظ، ولقول ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب، وكان الرجل يحتاج إلى بعيرين.. بعير يركبه، وبعير يحمل ماء وزاده لبعد الطريق(٦٢).

وانها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه.. وانها لصورة رائعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول، تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة الثابتة، الخالدة على مر الأجيال، شاهد صدق على حب المسلمين الأوائل للجهاد ورغبتهم الصادقة وتفانيهم الحق فى اعلاء كلمة الله.

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وعزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، والا فلنسدد، ولنقارب.. والله المستعان.

أصحاب الأعذار الباطلة والتمحلات المختلقة

(إنما السبيل على الذين يستأذونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون، يعتذرو إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبئسنا الله من اخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون، سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم أنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين).

وقد كان هذا من أنباء الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم عما سيكون من حال المنافقين المتخلفين وأعذارهم إذا رجع من الغزوة سالما هو ومن معه من المسلمين الخلص وتوجيه له ولهم إلى ما يجب أن يجيبوهم به، وما ينبغى أن يعاملوهم على مقتضاه كذلك.

والمعنى: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون، ولا يجد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة من جناح ولا حرج إذا هم تخلفوا عن المعركة.. إنما الجناح والحرج، وإنما المؤاخذة والمعاقبة على الذين يستأذون رسول الله صل يالله عليه وسلم فى القعود والتخلف عن الجهاد «وهم أغنياء» لا يقعدهم عذر حقيقى عن الخروج، لأنهم قادرون بأشخاصهم على أداء هذا الواجب المفروض عليهم، فهم ليسوا ضعفاء أو مرضى، وهم قادرون بأموالهم على أن يجدوا الزاد الذى يتزودون به للسفر من طعام وحمولة وسلاح.. وعلة واحدة لا غير هى التى قعدت بهم عن أن يكونوا من المجاهدين، هى أنهم رضوا بأن يقعدوا قعدة الخوالف فى الدور، أو قعدة الخالفين الفاسدى الأخلاق المفسدين.

هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج والاستئذان فى القعود، وذلك أنهم ناكلون متثاقلون.. لا يؤدون حق الله عليهم، وقد أغناهم وأقدرهم، ولا يؤيدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم، ولا يؤيدون حق المجتمع الذى يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم.. ومن ثم يختار الله سبحانه لهم هذا الوصف «رضوا بأن يكونوا من الخوالف»[٦٣]

فهو الرضى بالدناءة والضعة، والإنتظام فى جملة النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون فى الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد.. وهم معذورون.

فأما أولئك فما هم بمعذورين! ولكنه سقوط الهمة وضعف العزيمة، وايثار العافية والسلامة لأنفسهم، وضنهم بالمال والجهد فى سبيل الله، وذلك خذلان منهم لله، فكان أن أحاط بهم ما جروا عليه من خطاياهم وذنوبهم بحسب سنن الله فى أمثالهم، وكان أن خذلهم الله «وطبع الله على قلوبهم»[٦٤] «فهم لا يعلمون» ما فى الجهاد من منافع الدين والدنيا، وهم لا يعلمون ما وقع عليهم من غبن فى هذا الموقف الذى وقف من أمر الله، وهم لا يعلمون كنه حالهم ولا سوء مآلهم، وما هو سببه من أعماله.. فأما حالهم فى التخلف، وطلب القعود مع الخوالف بغير أدنى عذر، فهو رضا بالذل والمهانة فى الدنيا، لأن تخلف الأفراد عن القتال الذى تقوم به حياة الأمم والشعوب، ورضا الرجال بالانتظام فى سلك النساء، والأطفال يعد ما فى عرف العالم كله من أعظم مظاهر الخزى والعار، وهو فى حكم الإسلام من أقوى آيات الكفر والنفاق.. وأما مآلهم وسوء عاقبتهم فيه فهو ما فضحهم الله به فى هذه السورة وما شرعه لرسوله للمؤمنين من جهادهم وإهانتهم، وعدم العود إلى معاملتهم بظاهر إسلامهم، وما أعده لهم من العذاب الأليم، والخزى الدائم فى الآخرة.. لقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك، بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول، والبلادة، والوخم، والإحتجاب عن مزاولة النشاط الحركى الحى المتفتح المنطلق الوثاب! وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة، إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع، والتذوق، والتجربة والمعرفة، فوق ما فرغت من دوافع الوجود، والشهود، والتأثر، والتأثير فى واقع الحياة.. وإن بلادة ا لراحة لتغلق المنافذ، والمشاعر، وتطبع على القلوب، والعقول..

والحركة دليل الحياة، ومحرك فى الوقت نفسه للحياة.. ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل، وتشد العضل، وتكشف عن الإستعدادات المخبوءة التى تفتقد عند

الحاجة، وتدرب الطاقات البشرية على العمل، وتشحذها للتلبية والاستجابة.. وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحلة البليدة والسلامة الذليلة، فهم لا يعلمون.

وفى مخالفة النظم لمقتضى السياق فى قوله تعالى: (إنما السبيل) إذ كان من مقتضى السياق أن يكون «إنما الحرج» فى هذا ما يشير إلى ما بين الحالين من اختلاف .. فالضعفاء، والمرضى الذين لا يجدون ما ينفقون، هؤلاء ومن على شاكلتهم واقعون تحت عفو الله، غير مطالبين بما هو مطلوب من أهل القوة والصحة، والغنى.. فلا حرج عليهم ولا جناح إذا هم كانوا من المتخلفين: أما هؤلاء الأغنياء الذين تخلفوا عن قدرة فهم فى مقام المؤاخذة وفى معرض الجزاء، والعقاب.. ومن هنا كان السبيل مفتوحا، والطريق مكشوفا للجزاء الذى هم أهل له، وللعقاب الذى لابد هو واقع بهم إن عاجلا وآن آجلا [٦٥].. فأنظر فى وجه هذا الكلام المشرق تجد أنه كلام - وان أخذ من أفواه الناس. قد نظمته يد القدرة، وجاءت به على هذا الإعجاز المبين، فسبحان من هذا كلامه.

أنباء بما سيكون من المتخلفين:

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأصحاء الأغنياء القادرين، الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.. ان وراء حب الدعة، وايثار السلامة، سقوط الهمة، وذلة النفس، وانحناء الهامة، والتهرب من المواجهة والمصارحة ..«يعتذرون إليك إذا رجعتم إليهم».

وهذا من أنباء الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الخلص، بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك، مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة، وقبل الوصول إلى المدينة.

يعتذر إليكم. أيها المؤمنون. أولئك المخلفون معا لفقوا من أعذار، وما نسجوا من أكاذيب، يبررون بها قعودهم وتخلفهم عن الجهاد مع المجاهدين، وذلك أنهم يخجلون من الظهور بفعلتهم هذه عارية، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية .. وهى ضعف الإيمان، وايثار السلامة، والاشفاق من الجهاد.. وقد أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يبهتوا هؤلاء المعذرين، وأن يفضحوهم على رؤوس الأشهاد.

(قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبئنا الله من اخباركم)[٦٦].

قل: وفروا عليكم معاذيركم فلن نطمئن إليكم، ولن نصدقكم تصديق جنوح وائتمان، ولن نأخذ مظاهر إسلامكم شيئا للنفس، كما كنا نفعل.. وليس هذا ما تشهد به حالكم، وتفضحه السنتكم وحسب، وإنما كان ذلك لأن الله قد كشف لنا حقيقتكم وما تنطوى عليه صدوركم، و قص علينا ؟؟ التى ترونها دوافع حالكم التى تسترونها مخالفة للمظاهر التى تعتذرون بها، وحدثنا عن حالكم، فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا من قبل معكم. ونبأ الله هو الحق اليقين، ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ولا يصدق الكاذب.

والتعبير عن عدم التصديق، والثقة، والإئتمان والإطمئنان بقوله تعالى: (لن نؤمن لكم) ذو دلالة خاصة، فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان.. تصديق بالقول، وائتمان بالعقل،

واطمئنان بالقلب، وثقة من المؤمن بربه، وثقة متبادلة بينه، وبين المؤمنين معه.. وللتعبير القرآنى دائما دلالته، وايحاؤه.

قل لا تعتذروا.. فلا جدوى للقول، ولا معول على الكلام ولكن اعملوا، فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك، وإلا فلا ثقة بالقولة، ولا ائتمان، ولا اطمئنان.. إنكم كنتم تظهرون من أنفسكم عند تقرير تلك المعاذير حبا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وشفقة عليهم، ورغبة فى نصرتهم.. فسننظر هل تبقون بعد ذلك على هذه الحالة التى تظهرونها عن الصدق، والصفاء، أو لا تبقون عليها؟

(وسيرى الله عملكم ورسوله).. وما يكون منكم بعد هذا من مواقف حيال الإسلام والمسلمين، والله لا تخفى عليه الأعمال، ولا النواية المخبوئة وراءها ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيزن قولكم بأعمالكم، وعلى أساسها سيكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم، فهى التى تدل: أما على البغى، والعدوان، والمخادعة، والإصرار على النفاق، وأما على التوبة، والمسالمة، والسلام، والإذعان فى الإيمان الذى تترتب هى عليه.. وأما أقوالكم فلا قيمة لها وإن أكدتموها بالإيمان.

فإن تبتم، وأنبتم وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم فإن الله يقبل توبتكم ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين تشهد لهم أعمالهم بإخلاصهم وصدقهم، وان أبيتم إلا الإصرار على نفاقكم و الاعتماد على أعذاركم الكاذبة وإيمانكم الفاجرة فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به فى هذه السورة من جهادكم والاغلاظ عليكم، كإخوانكم الكفار المجاهرين، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبدا، ولا بأن تقاتلوا معه عدوا وما يتعلق بذلك من اهانة واحتقار.[٦٧]

ولن ينتهى الأمر - على كل حال - بما يجرى فى هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا فورا، ذلك حساب وجزاء يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر.

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) والغيب: ما غاب عن الناس علمه، والشهادة: ما يشهدونه ويعرفونه.

والغيب والشهادة هما جامعان لأعمال الإنسان لا يخلوا منهما، وفى ذلك دلالة على أن الله مطلع على ضمائرهم، كأطلاعه على ظواهرهم، لا تفاوت عنده فى ذلك، وهو تعالى عالم الغيب، والشهادة بهذا المعنى، وبمعنى أشمل وأكبر، فهو سبحانه يعلم ما فى هذا العالم المشهود، ويعلم ما وراءه من العوالم المغيبة.

وفى قوله تعالى لأولئك المخاطبين (فينبكم بما كنتم تعملون) ايماءة مقصودة، فهم يعلمون ما كانوا يعملون، ولكن الله سبحانه أعلم منهم بها حتى لينبئهم هو بها! وكم من دافع خفى للعمل يخفى حتى على صاحبه وهو يفعله، والله أعلم به منه، وكم من نتيجة لهذا العمل لا يدرى صاحبه وقوعها، والله يعلمها دون صاحبها! والمقصود بطبيعة الحال - هو نتيجة الأنباء، وهى الحساب والجزاء الحق على الأعمال.. ولكن هذه النتيجة لا ينص عليها، إنما ينص على

الأنباء ذاته لمناسبة هذه الايماءة فى هذا السياق، وعلى أية حال ففى العبارة تخويف شديد، وزجر عظيم وتهديد لهؤلاء المعذرين، بوضعهم تحت المراقبة التى لا تغفل، والتى تعلم سرهم وجهرهم، وتأخذهم جميعا بما عملوا فلا يفلت منهم أحد.

ومن الفقه فى الآية: ان من آداب الإسلام تحامى كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله إلى الاعتذار، وورد فى بعض الأحاديث المرفوعة: «اياك وكل أمر يعتذر منه»(٦٨)

طلبوا أعراض الصفح فأعطوا أعراض المقت

هؤلاء المنافقون الذين ردهم النبى والمؤمنون، وفضحوا ما جاءوا إليهم به من أعذار، ها هم أولاء يجيئون إلى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بوجه آخر من وجوه نفاقهم، يجيئون بأعذارهم تلك التى كذبها الله وفضحها النبى، والمؤمنون، فيذكونها بالحلف، كما يذكى الذابح البهيمة بالذبح بعد أن تموت وتتعفن!

وماذا يريدون بهذا الحلف الكاذب؟ يريدون أن يقبل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعذارهم، وأن يصدقوا منهم هذا الكذب المفضوح، وبهذا يتحقق لهم أمران:

الأمر الأول - عدم فقدان الثقة فى أنفسهم، وفى تلك البضاعة التى يتعاملون بها، لأنه لا يوجود لهم إذا أفلت من بين أيديهم هذا الزاد الذى يعيشون فيه، وبارت تلك البضاعة التى هى رأس مالهم فى الحياة.

وثانى الأمرين - وهو تبع للأمر الأول - أن يعرض النبى والمؤمنون عنهم، فلا يأخذونهم باللوم، ولا يضعونهم موضع الإتهام.

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم، إنهم رجس، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون).

وهذا أنباء آخر من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم عما سيكون من أمر القوم عندما يعود اليهم هم والمؤمنون الخلص معه سالمين آمنين، وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعدون من لقاء الروم! فقد علم الله وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف بالله، لعل المسلمين يعرضون عن عتبهم، وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء، والأطفال، والعجزة وبخلهم بالنفقة علهم يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم عفوا وصفحا، ولا يحاسبونهم عليها ولا يجازونهم بها (٦٩).

وقد دعا الله النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعرضوا عنهم فعلا، ولكن لا اعراض المصدق، أو المتسامح، بل اعراض المشمئز المتقزز النافر من شىء كريه تؤذيه رائحته، لا اعراض العفو، والصفح، وإنما اعراض الإهمال والإجتناب.. لا اعراض قبول وأعذار، بل اعراض اهانة واحتقار..(٧٠).

قال ابن عباس: أريد ترك الكلام والسلام، وقال مقاتل: قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت.. وعلل ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى «فأعرضوا عنهم انهم رجس» .. أى قذر معنوى يجب الاعراض

عنه، تنزها عن القرب منه، بأشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسه الارجاس والأقذار الحسية، فمن كان رجسا لا تنفع فيه المعاتبة، ولا يمكن تطهير الرجس [٧١].. وهذا بمعنى ما تقدم من قوله تعالى: (إنما المشركون نجس).

وهو التجسيم الحسى للدنس المعنوى، فهم ليسوا رجسا ـ أى دنسا ـ بأجسادهم وذواتهم، إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم، وما انطووا عليه من النفاق، ولكنها الصورة المجسة أشد بشاعة وأبين قذارة، وادعى إلى التقزز والإشمئزاز، وإلى الإحتقار كذلك والإزدراء!

والقاعدون فى الجماعة المكافحة ـ وهم قادرون على الحركة ـ الذين يقعد بهم ايثار السلامة عن الجهاد.. رجس ودنس، ما فى ذلك شك ولا ريب.. رجس خبيث يلوث الأرواح، ودنس قذر يؤذى المشاعر، كالجثة المنتنة فى وسط الأحياء تؤذى وتعدى.. انهم لو سلموا من أذى النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلن يسلموا من عقاب الله ومن عذاب السعير المعد لهم ..(ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون» فى الدنيا من أعمال النفاق التى دنست أنفسهم، والأعراض عن آيات الله الذى زادهم رجسا على رجسهم، وهم يحسبون أنهم يكسبون بالتخلف، ويربحون بالقعود، ويجنون السلامة، والراحة، ويحتفظون بالعافية، والمال..ولكن الحقيقة أنهم دنس فى الدنيا، وأنهم يضيعون نصيبهم فى الآخرة فهى الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها.. ومن أصدق من الله حديثا؟ وأخرج الطبرى عن كعب بن مالك: .. ان الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد : (سيحلفون بالله لكم ـ إلى قوله ـ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) وعن جابر.. وذكر أن هذه الآية نزلت فى رجلين من المنافقين قالا: قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة، فلا تفتنا بهن فأذن لنا، فأذن لهما، فلما انطلقا قال أحدهما: أن هو إلا شحمة لأول آكل.

رضا أحد غير الله لا يجدى: ثم يمضى السياق فينبىء عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين، فهو إذ قد بين أنهم يحلفون بالله ليعرض المسلمون عن ايذائهم، يبين أيضا أنهم يحلفون ليرضى المسلمون عنهم.. «يحلفون لكم لترضوا عنهم، فان ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين».

انهم يطلبون ابتداء من المسلمين أن يعرضوا عن فعلتهم صفحا، وعفوا، ثم إنهم يتدرجون من هذا إلى طلب رضا المسلمين عنهم، فهم لا يهنأ عيشهم بدونه، ولا حظ لهم من اظهار الإسلام غيره، ولو كان إسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله، كما تقدم فى آية (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) إلخ[٧٢] وإنما كان حرصهم على رضا المسلمين، ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضا! ويضمنوا أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسلامهم كما كانوا يعاملونهم، ولا يجاهدونهم ويغلظون عليهم كما أمرهم الله فى هذه السورة أن يفعلوا، محددا بذلك العلاقات النهائية بين المسلمين، والمنافقين فيهم.

ولكن الله سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشىء عن النفاق، وأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون!

وحكم الله فيهمه هو الحكم، ورضا الناس ـ ولو كانوا هم المسلمين، فرضا وهذا ما لا يكون أبداً ـ فى هذه الحالة لا يغير من غضب الله عليهم، ولا يجديهم فتيلا.. إنما السبيل إلى ارضاء الله هو الرجوع عن الفسق والعودة إلى دين الله القويم.

والله لا يرضى عن القوم الفاسقين: الخارجين عن أمره منهم أو من غيرهم، فإن هذا الفسوق سبب أو علة لسخط الله تعالى، فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم، ومقتضاه أنه إذا فرض أن بعض المؤمنين رضى عنهم وآمن لهم باعتذارهم بعد النهى عنه كان فاسقا مثلهم محروما من رضائه تعالى، كما أن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل، ويدخل فى حظيرة مرضاته، إذ لا يعد بعد ذلك فاسقا.

فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالأعمال، والصفات النفسية، والبدنية لا بالذوات، والأعيان، ولو قال (فإن الله لا يرضى عنهم) لما أفاد التعبير هذه الحقائق والمعانى، بل كان يكون حكما على أفراد معينيين مسجلا عليهم الموت على كفرهم، وعدم قبول توبة أحد منهم، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هدى كتابه العزيز.

ولا ينافى هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات فى الجد بن قيس ومعتب ابن قشير وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلا، أمر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم، إذ لا دليل على أن هؤلاء مقصودون من الآيات بذواتهم وشخوصهم كالذين نهى عن الاستغفار لهم، وعلله بموتهم على كفرهم كعبد الله ابن أبى، وقد قال قتادة: إن هذه الآيات نزلت فيه، فإنه حلف اللنبى صلى الله عليه وسلم بعد عودته، إنه لا يتخلف عنه، وطلب أن يرضى عنه، فلم يفعل، والآيات أعم من هذا وذاك.

وهى من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية، وإن كان الإعتذار والحلف من سجاياهم المعروفة.

وهكذا كشف الله هؤلاء القاعدين ـ من غير عذر ـ فى الجماعة المسلمة، وقرر العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين، كما قررها من قبل بين المسلمين وبين المشركين وأهل الكتاب، وكانت هذه السورة هى الحكم النهائى فى العلاقات بين المسلمين وخصومهم.

ما يستفاد من آيات هذا الفصل

ويؤخذ من الآيات غير ما تقدم:

١ـ الاقلال من الضحك والاكثار من البكاء لقوله صلى الله عليه وسلم (والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددت أنى كنت شجرة تعضد» أخرجه الترمذى، وكان الحسن البصرى ممن غلب عليه الحزن فكان لا يضحك، وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول: الله أضحك وأبكى.. وكان الصحابة يضحكون، إلا إن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب صاحبه مذموم منهى عنه، وهو من فعل السفهاء والبطالة، وفى الخبر: «ان كثرته تميت القلب» وأما البكاء من خوف الله وعقابه

فمحمود لقوله صلى الله عليه وسلم «ابكوا فلن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النفر يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فتقرح العيون، فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت» أخرجه ابن المبارك من حديث أنس وابن ماجه أيضا.

٢ـ لما نهى الله عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للإستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفى فعله الأجر الجزيل، كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: اصغرهما مثل أحد» وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فروى أبو داود عن عثمان رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخاكم وأسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل».

قال القرطبى: قال علماؤنا: هذا نص فى الإمتناع من الصلاة على الكفار، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين، واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين؟على قولين: يؤخذ، لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم، لقوله تعالى: (إنهم كفروا بالله ورسوله) فإذا زال الكفروجبت الصلاة، ويكون هذا نحو قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجبون)[٧٣] يعنى الكفار، فدل على أن غير الكفار يرونه، وهم المؤمنون، فذلك مثله، أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية، وهى الأحاديث الواردة فى الباب، وأيضا الإجماع، ومنشأ الخلاف: القول بدليل الخطاب وتركه. [٧٤]

٣ـ ومن قوله تعالى: (إذا نصحوا لله ورسوله) يؤخذ أن النصح العام ركن من الأركان المعنوية للإسلام، به عز السلف وبزوا، وبتركه ذل الخلف وابتزوا.

روى البخارى ومسلم والترمذى عن جابر قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة» ـ ثلاثا ـ قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» قال العلماء: النصيحة لله اخلاص الإعتقاد فى الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبته ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سننه، واحياؤها بعد موته بالبحث عنها والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة .. وكذا النصح لكتاب الله قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه، وإكرامه، والتخلق به والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق، وتنبيههم فيما اغلفوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم، والقيام بواجب حقهم.. والنصح للعامة: ترك معاداتهم، وارشادهم، وحب الصالحين منهم، والدعاء لجميعهم، واردة الخير لكافتهم.[٧٥]

٤ـ ان من علامات النفاق كثرة الحلف، لشعور المنافق دائما بأنه متهم بالكذب، فيجب على المسلم البعد عن الحلف، أو التقبل منه ما استطاع.

٥ـ هذه الآيات عامة تكف عما فى وجوه المنافقين من صفاقة، وأنهم لا يكترثون كثيرا بما يجيبهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من رد وردع، ومن تكذيب وبهت.. والمنافق لا يلبس ثوب النفاق إلا إذا كان صفيقا، لا يعرف الحياء سبيلا إليه، ولو كان فى وجه المنافق شىء من الحياء لما رضى لنفسه أن يلقى الناس بشخص غير شخصه، وبوجود غير وجوده! وليس هكذا شأن المؤمن بالله.. أنه بإيمانه بالله واستناده إلى أقوى الأقوياء لا يرى فى هذا الوجود قوة يخشى بأسها، أو يرهب سلطانها مادام مستمسكا بالحق مستقيما على طريق العدل والاحسان، ورحم الله البوصيرى إذ يقول:

ومن تكن برسوله الله نصرته.. ان تلقه الأسد فى اجامها تجم

فالاستنصار برسول الله هو التمسك بالشريعة التى جاء بها صلوات الله وسلامه عليه، فذلك هو الإيمان بالله، والله سبحانه وتعالى يقول: من يطع الرسول فقد أطاع الله.

وهكذا كل من استقام على طريق الحق يجد من نفسه القوة التى تنأى به عن سفساف الأمور، وترفعه عن الدنايا، فلا يأتى ما يخل بالمروءة أو يشين الشرف!

وليس هذا فى الإنسان وحده، بل إنه فى عالم الحيوان.. فالحيوان الضعيف يقوى ضعفه بالاحتيال، والمخادعة، على حين أن الحيوان القوى يأخذ فى حياته خطا مستقيما واضحا، وشتان بين الثعلب والأسد.. فذاك من ضعفه مخادع مخاتل، وهذا من قوته ظاهر واضح، ذلك يأكل الجيف ولا يعافها، وهذا يعف عن أن يلوث فمه بالميتة وإن هلك جوعا!

وأكثر من هذا فإن عالم النبات يجرى على هذا الأسلوب من الحياة .. الشجرة القوية الطيبة لا تأوى إليها الهوام ولا تندس فيها الحشرات، على حين أن الأشجار الواهية الضعيفة تكون مباءة للآفات ومرتعا للحشرات والهوام.

وأكثر من هذا أيضا عالم الجماد تجد فيه هذه الحقيقة واضحة على انها: فالأرض الصلبة لا تشوه وجهها الأخاديد، والحفر، والمرتفع من الأرض لا يكون مستودعا للمياه الراكدة، كالمستنقعات، وقمة الجبل لا تكون محطا لخسيس الطير أبدا.

القوة أبدا هى موطن السلامة والعافية، وهى مستودع الخير، والحسن، فإذا كانت القوة قوة من بعثة من إيمان يعمر القلب، ويغذى الوجدان، كانت قوة كلها خير ورحمة واحسان.. والإيمان هو الزاد الذى يغذى القوة الروحية فى الإنسان، ذلك الزاد الذى ؟؟ عناصره من الأعمال الصالحة التى نمت فى ظل الإيمان، ويكون تجمعها التقوى التى يقول الله سبحانه فيها: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى).

٦ـ ويجب التنبيه فى هذا المقام لجهل فظيع وقفنا عليه بمذاكرة بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وأمثالها من كتاب الله تعالى.. وهو زعمهم : أن ما عابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك والكفر، كدعاء غير الله، واتخاذ أولياء من

دونه يقربونهم إليه ويشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضر وجلب نفع، مما لا ينال بالكسب، فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعائهم وإن وقوع مثله من المسلمين لا ينافى صحة إيمانهم، والإعتداد بإسلامهم، للفرق الواضح بين من يدعو الأصنام والأوثان، يجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه إليه زلفى، ومن يدعو الأنبياء والأولياء لذلك، وهم عباد الله المكرمون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!

جهل هؤلاء أن الشرك والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه، فمن يدعو مع الله صنما أو كوكبا كمن يدعو نبيا أو ملكا .. على أن الأوثان والأصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الأولياء والصالحين، كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة أو مزورة، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهليون المدافعون عن الشرك وأهله فى أهل الكتاب، الذين يدعون ويستغيثون الأنبياء، والصالحين متوسلين بهم ومستشفعين؟ وهم الذين أتبع القبوريون من المسلمين سننهم فى شركهم، كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك تحذيرا وإنذارا بقوله: «لتتبعن سنن من قبلكم» الحديث، وهو متفق عليه.

ويذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الإسلام فرقا آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم: وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وأنبياءهم وأولياءهم آلهة، وأربابا، وأن المسلمين الذين يدعون الأولياء ويستغيثونهم فى الشدائد طلبا لشفاعتهم، لم يتخذوهم آلهة ولا أربابا، وإنما يتخذونهم وسائل ووسائط، ويعتقدون انهم مخلوقون مثلهم.

والجواب عن هذا: أنه لا فرق بين عمل الفريقين إلا فى التسمية .. ولكن من بعض الوجوه: فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنانهم أربابا بل كانوا يعتقدون ويقولون: ان رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذين يجير ولا يجار عليه هو الله وحده، لأن هذا مقتضى لغتهم، وإنما كانوا يسمونها آلهة لأن الإله فى لغتهم هو المعبود، والمعبود هو من يتوجه إليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم فى دائرة الأسباب المعروفة لهم، ويعظم ويتقرب إليه بالذبائح وغيرها .. لأجل ذلك، سواء كان سلطانه على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى، أو بشفاعته عند الله .. فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلا فى عرف بعض الناس لا يخرجها عن حقيقتها، ولا عن كون اسمها فى اللغة العربية عبادة، وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغة، وإنما التوسل الشرعى التقرب إلى الله تعالى بما شرعه من الأعمال الصالحة، لا بالأهواء المبتدعة، ولا بالتقاليد المتبعة، والله الهادى إلى سواء السبيل.

الهوامش

١) المخلفون: المتروكون، وهم الذين خلفهم الله تعالى بتثبيطه اياهم، لحكمة علمها، أو خلفهم الشيطان لاغرائهم، أو خلفهم الكسل والنفاق أو خلفهم النبى واذن لهم فى التخلف، أو تركهم صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى غزوة تبوك بقعودهم فى بيوتهم مخالفين لله ولرسوله، وهذا المعنى أصح هنا.

والمقعد: مصدر ميمى من فعل قعد. والخلاف: ظرف بمعنى خلف ووراء، ويجوز أن يكون مفعولا له، أى لأجل خلافهم، أو مخالفة لرسول الله حين ساروا قاموا أوحال أى مخالفين له. و«كرهوا» معطوف « على فرح»، «وقالوا» معطوف على ما قبله، بمعنى أنهم فرحوا بقعودهم وتخلفهم وكرهوا أن يجاهدوا وقالوا الخ.

٢) بل أشد حرا من نار الدنيا. قال صلى الله عليه وسلم «نار بنى آدام التى توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فضلت عليها بتعسة وستين جزءا» أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به.

٣) الكشاف جـ١ صـ٥٦٣

٤) سورة الحج ٤٧

٥) فهو خبر فى صيغة أمر نكتته انه أمر مبنى على واجب مقرر

٦) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٥ صـ٧٩

٧) فالامر بالضحك والبكاء فى معنى الخبر، أى فسيضحكون قليلا ويكون كثيرا، وإنما كان الأمر فى الآية بمعنى الخبر، لأنه انذار بالجزاء لا تكليف، وقد قيل فى فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإنشاء انه يدل على أنه حتم لا يكون غيره ولا يحتمل الصدق والكذب، كما هو شأن الخبر لذاته فى احتمالهما، لأن الأصل فى الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم ويمكن أن يقال: إن الأمر بما ذكر يتضمن الاخبار بسببه فيكون مؤكدا للخبر ببناء الحكم عليه، ويقابله التعبير عن الأمر بصيغة الخبر، للتفاؤل بمضمونه، كأنه وقع بالفعل، افاده المنار جـ١٠ صـ٥٧١

٨) البحر المحيط جـ٥ صـ٧٩

٩) متفق عليه، بل رواه الجماعة - الا أبا داود - من حديث أنس ورواه الحاكم من حدث أبى هريرة بلفظ: «لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا، يظهر النفاق، وترتفع الأمانة، وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن غير الأمين، اناخ بكم الشُرف الجون، الفتن كأمثال الليل المظلم».

والشرف: - بضمتين - جمع شارف، وهى الناقة العالية السنم، والجون: السوداء، أى الفتن الكبيرة المظلمة، فهو تشبيه، وروى بالقاف، أى التى تأتى من قبل مشرق المدينة، ذكره المنار جـ١٠ صـ٥٧٠

١٠) كأن يهاجموا المسلمين فى عاصمتهم كما فعلوا يوم الأحزاب مثلا، فكل من الخروج المطلق الذى حزف متعلقه، والقتال الذى ذكر متعلقه، نكرة، منفية، عام.. فيصدقان.. بكل قتال وكل خروج لعدو فى أى مكان، وقد يكون كل منهما بدون الآخر، فبينهما عموم وخصوص وجهى، وقد غفل عن هذا من غفل من المفسرين فزعموا أن الثانى تأكيدا للأول.

١١) ذكره المنار جـ١٠ صـ٥٧٢ وقال الطبرى: ولو وجه معنى ذلك.. فاقعدوا مع أهل الفساد من خطف الرجل عن أهله يخلف خلوفا إذا فسد، ومن قولهم هو خلف سوء كان مذهبا جـ١٤ صـ٤٠٥. وقال القرطبى: أو الفاسدين، بمن قولهم.. فلان خالفه أهل بيته إذاكان فاسدا فيهم، من خلوف فم الصائم، ومن قولك: خلف اللبن إذا فسد بطول المكث فى السقاء صـ٣٠٥٧

١٢) تفسير الرازى جـ٤ صـ٧٠٩

١٣) المرجع السابق جـ٤ صـ٧٠٨

١٤) طبرى جـ١٤ صـ٤٠٥

١٥) الألوسى جـ٣ صـ٢٥١

١٦) الرازى جـ٤ صـ٧١٠

١٧) والنهى فى «ولا تصل» يتعلق بالحال والاستقبال، ولاسيما إذا أكد بكلمة «أبدا» التى هى نص فى معنى الاستقبال.

ولكن قال فى تعليل النهى «وماتوا» وهو فعل ماض، والقاعدة فى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى أن يكون لتأكيده وتحققه حتى كأنه وقع بالفعل، أى وسيموتون وهم متلبسون بكفرهم، ولعل فيه اشارة إلى ما روى فى سبب نزول الآية وهو صلاته صلى الله عليه وسلم على عبد الله ابن أبى «وسأذكر بعد شرح آية ولا تعجبك أموالهم» فيكون المعنى. ومات من مات منهم على كفره، وسيموت الآخرون كذلك. منار جـ١٠ صـ٥٧٤.

١٨) إلا أنه زاد «لا» فى تلك الآية للنهى عن الاعجاب بكل من أموالهم وأولادهم على حدة، وهو يصدق بمن كان له احدى الزينتين، والنهى فى هذه عن الاعجاب بهما مجتمعتين، وهو ادعى إلى الاعجاب، وجيء بالواو هنا لمناسبة عطف نهى على نهى قبله، أعنى «ولا تصل» وبالفاء هناك لمناسبة التعقيب فى «ولا ينفقون الا وهم كارهون» للانفاق، فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد. فنهى عن الاعجاب المتعقب له.

١٩) وفى الرازى: فأرسل إليه القميص الفوقانى فرده وطلب الذى يلى جلده، فقال عمر: لم تعطى قميصك الرجس النجس. وفى الطبرى: عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كلم فى ذلك فقال: ومما يغنى عنه قميصى من الله . أو ربى . وإنى لأرجو أن يسلم به ألف من قومه» ووقع فى مغازى ابن اسحق وفى بعض كتب التفسير: فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله ألف رجل من الخزرج. وأخرج أبو يعلى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فأخذ جبريل بثوبه وقال «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا».

٢٠) وقد قدمت تحقيق ذلك وأدلته بشيء من التوسع عند قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) فى آخر الفصل الماضى.

٢١، ٢٢) تقدم تحقيق ذلك فى آخر الفصل السابق عند شرح آية (استغفر لهم).

٢٣) منار جـ١٠ صـ٥٧٥، ٥٧٦

٢٤) والعجب من ابن كثير إذ يقول . وهو يروى هذه الحادثة . «وقد ذكر بعض السلف» جـ٢ صـ٣٧٩

٢٥) سورة الأنبياء ١٠٧

٢٦) سورة آل عمران ١٥٩

٢٧) من تفسير الرازى جـ٤ صـ٧١٠

٢٨) سورة التوبة ١١٣

٢٩) من تفسير القرطبى صـ٣٠٥٨

٣٠) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ٨ صـ٢٣٥ . ٢٣٧

٣١) تفسير المنار جـ١٠ صـ٥٧٩، ٥٨٠

٣٢) الطول . بالفتح . يطلق على الغنى والثروة، وعلى الفضل والمنة، وهو من مادة الطول بالضم ضد القصر، من طال الشيء يطول إذا قدر عليه وتمكن منه. وأولوا الطول: هم أصحاب القدرة التى تمكن لهم من بلوغ مالا يستطيع غيرهم بلوغه بجاههم وسلطانهم وأموالهم. والسورة: يجوز أن يراد بها كلها أو بعضها، أى سورة مطلقا أو هى سورة براءة، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد . والخطاب للمنافقين أولهم وللمؤمنين، ومعنى أمر المؤمنين بالإيمان، الدوام عليه والتمسك به فى المستقبل. والخوالف: النساء، أو جمع خالفه الذى هو غير تحبيب، والأول أوله، لأنه أدل على القلة والذلة، والطبع على القلوب والختم عليها: عبارة عن عدم قبولها لشيء جديد من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها.

٣٣) سورة القتال ٢٠ . ٢١

٣٤) سورة الأحزاب ١٩

٣٥) روى عن ابن عباس وقتادة

٣٦) استدراك لما فهم من الكلام. والمعنى: ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فلا ضير لأنه قد نهض على أتم وجه من هو خير منهم. فهو على حد قوله تعالى (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) (فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار) والخيرات: تتناول منافع الدارين لاطلاق اللفظ، أو هى الحور عن الحسن . دليله (فيهن خيرات حسان والأصل خيرات بالتشديد فخفف، أو هو جميع خير).

٣٧) المعذِّرون بالتشديد اسم فاعل من التعذير، كالمقصرين من التقصير. والإعذار ابداء العذر. ومنه المثل: أعذر من أنذر، وأعذر: ثبت له عذر. . وقصر ولم يبالغ وهو يرى انه مبالغ كأنه ضد . وكثرت ذنوبه وعيوبه وله معان أخرى كما فى

القاموس قال: وقوله تعالى (وجاء المعذرون» بتشديد الدال المكسورة أى المعتذرون الذين لهم عذر، وقد يكون المعذر غير محق، فالمعنى:

المقصرون بغير عذراً هـ جـ٢صـ٨٦ وزاد شارحه: ومعنى المعذِّرون: الذين يعتذرون كان لهم عذرا ولم يكن، وهو ها هنا شبيه بأن يكون لهم عذر، قال أبو بكر: ففى المعذرون وجهان: إذا كان المعذرون من عذر الرجل فهو معذر فهم لا عذر لهم، وإذا كان المعذرون أصله المعتذرون فألقيت فتحة التاء على العين وأبدل بها ذال وأضغت فى الذال التى بعدها، فلهم عذر. وقال أبو الهيثم فى تفسير الآية: معناه المعتذرون، يقال عَذَّر عِذَّارا فى معنى اعتذر ويجوز عذَّر الرجل يعذِّر عذارا فهو معذِّر، قال: ومثله هدى يهدى هداء إذا اهتدى، قال الله تعالى (آمن لا يهدِّى إلا أن يهدى» منار جـ١٠ صـ٥٨٤

٣٨) الرازى جـ٤ صـ٧١٤

٣٩) تفسير المنار جـ١٠ صـ٥٨٥

٤٠) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٤١٨

٤١) تفسير القرطبى صـ٣٠٦٤

٤٢) تفسير عبد الكريم الخطيب جـ١٠ صـ٨٦٥

٤٣) وفى القرطبيك فلم يعذرهم النبى صلى الله عليه وسلم لعلمه أنهم غير محقين

٤٤) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٤١٧ ، ٤١٨

٤٥) سورة النساء ٩٥

٤٦) تفسير المنار جـ١٠صـ٥٨٥

٤٧) تفسير القرآن بالقرآن لعد الكريم الخطيب الكتاب الخامس صـ٨٦٥

٤٨) عن ابن عباس

٤٩) ذكره البغوى

٥٠) رواه البخارى

٥١) والمحسن عام فى كل من أحسن عملا من أعمال البر والتقوى، والاحسان أعم من النصح المذكور. فالجملة تتضمن تعليل رفع الحرج عنهم بما ينتظمون به فى سلك المحسنين، فيكون رفعه عنهم مقرونا بالدليل، فكل ناصح لله ورسوله محسن، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وايقاعه فى الحرج، اذن كل ناصح لا سبيل إلى مؤاخذته.. وهذه المبالغة فى أعلى مكانة من أساليب البلاغة «منار جـ١٠ صـ٥٨٨» وقد اتفقوا على أن المقصود من هذه العبارة أنه لا = أثم عليهم بسبب القعود عن الجهاد، واختلفوا فى أنه: هل يفيد العموم فى كل الوجوه؟ فمنهم من زعم أن اللفظ مقصور على هذا المعنى، لأن هذه الآية نزلت فيهم، ومنهم من زعم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهو يقتضى نفى الأثم عن جميع المسلمين، فهذا بعمومه يقتضى أن الأصل فى حال كل مسلم براءة الذمة، وعدم مطالبة الغير عليه فى نفسه وماله فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلا معتبرا فى الشريعة «رازى جـ٤ صـ٧١٥» وأصلا فى رفع العقاب عن كل محسن «قرطبى صـ٣٠٦٦ طبعة الشعب».

٥٢) الأحقاب ١٦

٥٣) تفسير روح المعانى جـ٣ صـ٣٥٣

٥٤) من القرطبى بتصرف صـ٣٠٦٥ طبعة الشعب وهذا على سبيل التمثيل لا أنه فعل بعد أن نزلت هذه الآية قد فعلت قبل ذلك.

٥٥) بنو مقرن المذنبون كانوا سبعة أخوة، كلهم صحبوا النبى صلى الله عليه وسلم وهاجروا، وقد قيل انهم شهدوا الخندق كلهم، ولم يشاركهم . فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة . فى هذه المكرمة غيرهم، إذ ليس فى الصحابة سبعة أخوة سواهم، وهم: النعمان ومعقل وعقيل وسويد وسنان وسابع لم يسم، قرطبى صـ٣٠٦٧ ط الشعب «بل سادس وسابع».

٥٦) فى المطبوعة والمخطوطة «حرمى بن عمرو» والصواب «هرمى» بالهاء، أنظر ترجمته فى الاصابة، قال المعلق على الطبيرى جـ١٤ صـ٤٢٣

٥٧) فى ابن كثير: ومن بنى المعلا فضل الله

٥٨) وفى ابن كثير: عمرو بن عتمة أو ؟؟ جـ٢صـ٢٨١

٥٩) فى القرطبى: مكان عياض: عرياض. وقال: هكذا سماهم أبو عمر فى كتاب الدرر له. وفى الالوسى بدل المغفل: معقل

٦٠) سيرة بن هشام جـ٢ صـ٣١٦، صـ٣١٧

٦١) حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم بلفظ، ومعناه وفى مسلم فى آخره: «فانطلقوا فإنما حملكم الله».

٦٢) القرطبى صـ٣٠٦٧ طبعة الشعب

٦٣) قال الزمخشرى جـ١ صـ٥٦٤ «فان قلت» «رضوا» ما موقعه؟ «قلت».. هو استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل رضوا..

٦٤) قال هناك «وطبع» ليتناسب «أُنزلت» بخلافه هنا، وقال هنا «لا يعلمون» وهناك «لا يفقهون» لأن العلم فوق الفقه فكان أنسب بالمقام الذى جرى فيه ذكر الله: نيسابورى على هامش الطبرى جـ١١صـ٦

٦٥) ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) شورى ٤٢ فهؤلاء الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق قد عرضوا أنفسهم للنقمة والبلاء، وانه لا عاصم لهم يدفع عنهم هذا البلاء الذى سيحل بهم، وقوله سبحانه (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا).

(النساء ٩٠) أى أن هؤلاء الكافرين الذين اعتزلوا القتال الذى بين المسلمين وبين الكافرين وفاءوا إلى السلم ولم يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتم بأذاهم. فليس للمسلمين سبيل إلى قتالهم.

٦٦) (لن نؤمن): علة للمنع من الاعتذار، لأن غرض المعتذران يصير عذره مقبولا، فإذا علم بأن القوم يكذبونه فيه وجب عليه تركه. (قد نبئنا): علة لانتفاء التصديق، لأنه تعالى لما أطلع رسوله على ما فى ضمائرهم من الخبث والمكر والنفاق، امتنع أن يصدقهم الرسول فى تلك الأعذار «رازى جـ٤ صـ٧١٧» ولم يقل «نبينى» وهو صلى الله عليه وسلم المنبأ من الله وحده، لأن المراد أنه أمره أن ينبىء بذلك أصحابه، ولم يكن هذا النبأ خاصا به، واعتذارهم للجميع يقتضى أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به، وان كان المبلغ لهم هو الرسول صلى الله عليه وسلم بما له من الرياسة، وما لخبره من الثقة التى لا يشك فيها أحد، والتأثير الذى يحسب له كل حساب، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك. دع كونه أسمى وأعلى، لأنه نبأ الرزسول المعصوم عن الله تعالى «منار جـ١١ صـ٣» وفيه اشارة إلى قوله تعالى)لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبا لا ولأوضعوا خلالكم» البحر المحيط جـ٥ صـ٨٩.

٦٧) منار جـ١١ صـ٣

٦٨) رواه الضياء فى الأحاديث المختارة عن أنس، وروى غيره مثله فى أثناء حديث آخر.

٦٩) ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه.

٧٠) وهذا التعبير من أسلوب الحكيم، وهو قبول ما يبغون من الاعراض عنهم، ولكن على غير الوجه الذى يرجونه منهم، بل على ضده. منار جـ١١ صـ٤

٧١) البحر المحيط جـ٥ صـ٨٩

٧٢) ان هذه المعانى مذكورة فى تلك الآية، وقد أعيدت هنا مرة أخرى، وأظن أن الأول خطاب مع المنافقين الذين كانوا فى المدينة، وهذا خطاب مع المنافقين من الاعراب وأصحاب البوادى، ولما كانت طرق المنافقين متقاربة لا جرم كان الكلام معهم على مناهج متقاربة.

٧٣) سورة المطففين آية ١٥

٧٤) قرطبى صـ٣٠٦٠ طبعة الشعب

٧٥) قرطبى صـ٣٠٦٦

الباب الرابع

باب متمم أو باب بين الأبواب

أصناف المجتمع المسلم، وعناصره

سنة تسع من الهجرة، مع بيان تكافله الإجتماعى

يحتوى هذا الباب على أربعة فصول:

الأول: عن معظم أصناف هذا المجتمع.

الثاني: عن مسجد الضرار.

الثالث: عن المهاجرين والأنصار.

الرابع: عن الزكاة

وإنما كان هذا البـاب بين الأبواب . ولم يكن الباب الرابع مثلا . لأن علاقة المسلمين بخصومهم، الذى هو موضوعنا لا ينضوى تحته فصول هذا الباب،وإن كانت تمت إليه بصلة وثيقة، إذ هى تتحدث عن العناصر التى كان يتكون منها المجتمع سنة تسع من الهجرة، أى فى الفترة التى كانت قبل غزوة تبوك، وفى أثنائها ،وهذا غير موقف المسلمين من خصومهم من المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين.

قال الله عز وجل: (الأعراب أشد كفرا، ونفاقا، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما، ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء، والله سميع عليم، ومن الأعراب من يؤمن بالله، واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله،وصلوات الرسول إلا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته، إن الله غفور رحيم، والسابقون الأولون من المهاجرين، والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم، ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم، وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم،والله سميع عليم، ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات، وأن الله هو التواب الرحيم،وقل أعملوا فسيرى الله عملكم، ورسوله، والمؤمنون، وارصادا لمن حارب الله، ورسوله من قبل، وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين أفمن أسس بنينه على تقوى

من الله ورضوان خير أم من أسس بنينه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم؟ والله لا يهدى القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبه فى قلوبهم إلا إن تقطع قلوبهم، والله عليم حكيم).

وإذ قد فرغت السورة من تحديد العلاقات النهائية بين المسلمين من ناحية والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين من ناحية أخرى، فليأت هذا المقطع منها يتولى تصنيف المجتمع المسلم إلى جماعات متنوعة، وهى التى كان المجتمع يتكون منها فى هذه الفترة - إبان غزوة تبوك - ويصور طوائفه، وطبقاته الإيمانية الداخلة فى تركيبه العضوى العام، مع تميز كل منها بصفاته، وأعماله.

ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار - وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية - جماعات أخرى: الأعراب وفيهم المخلصون، والمنافقون، والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان، والمنافقون من أهل المدينة، وآخرون خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا، ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى، ولم يصهروا فى بوتقة الإسلام تماما، وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها، ومتآمرون يتسترون باسم الدين، والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد، وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم، وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم.

وظاهر من تعدد الطبقات، والطوائف، والمستويات الإيمانية فى المجتمع المسلم - كما تصفه هذه النصوص - مدى الخلخلة التى وجدت فيه بعد الفتح، مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبل فتح مكة.

وهذا الباب ذو علاقة وثيقة بالمقدمة، فهو متمم لها، أو هى متممة له، وإنما هو لم يتقدم إليها حفاظا على موضعه فى السياق القرآنى الذى حرصنا على مراعاته ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وإنما لم تأت المقدمة إليه هنا لأنها لو جاءت لم تكن مقدمة، ولأن وجودها فى الصدارة أمر ضرورى حتى يكون المرء عند الشروع فى الأمر على بصيرة، أو على بصيرة كاملة..

ولقد فصلت القول فى المقدمة عن الأسباب التاريخية التى أنشأت هذه المستويات الإيمانية المتعددة فى الجماعة المسلمة فى المدينة، فاجتزئ هنا من ذلك التفصيل بالفقرات الأخيرة منه لإستحضار الملابسات التى كانت تحيط بوجود هذه المستويات المتعددة فى المجتمع الواحد.

لقد كانت وقعة قريش العنيدة الطويلة، حاجزا قويا دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية، فقد كانت قريش هى صاحبة الكلمة العليا فى الشئون الدينية فى الجزيرة - فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادى، وسياسى،وأدبى كذلك - فكانت وقفتها فى وجه الدين الجديد، بهذه الصورة العنيدة، مدعاة لصرف العرب فى أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه، أو على الأقل مدعاة للتردد، والإنتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش، وهذا النبى من أبنائها! فلما دانت قريش بالفتح، ودامت بعدها هوازن، وثقيف فى الطائف، وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا، فأجليت بنو قينقاع، وبنو النضير إلى الشام، وأبيدت بنو

المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا، فأجليت بنو قينقاع، وبنو النضير إلى الشام، وأبيدت بنو قريظة، واستسلمت خيبر الإستسلام الأخير.. كان ذلك إيذانا بدخول الناس فى دين الله أفواجا، وانسياح الإسلام فى أرجاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد.

غير أن هذا الإتساع الأفقى فى رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض، والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد انتصار بدر - ولكن على نطاق أوسع - بعدما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى، المستمرة التأثير فى خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى! ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة، والأساس الركين لهذا المجتمع، لكان هناك خطر كبير من هذا الإتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة.

ولكن الله الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار لتكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبى الذى جاء به انتصار بدر، كما أنه سبحانه كان قد أعد المجتمع المدنى بجملته، ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع السريع الذى جاء به فتح مكة ..«« »"والله أعلم حيث يجعل رسالته».

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذى جاء عنه فى هذه السورة: (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله، وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها، وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين).

وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة فى أول الأمر أن ألفين من «الطلقاء» الذين أسلموا يوم الفتح، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة، فكان وجود هذين الألفين - مع عشرة آلاف - سببا فى اختلال التوازن فى الصف - بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن - ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها، وتناسقها فى الزمن الطويل ما بين بدر، والفتح كذلك كان ما ظهر فى أثناء غزوة تبوك من الأعراض،والظواهر المؤذية، ثمرة طبيعية لهذا الإتساع الأفقى السريع، ودخول تلك الأفواج الجديدة بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة هذه الظواهر، والأعراض التى تحدثت عنها سورة التوبة، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب.

وفى ضوء هذا البيان المجمل نملك المضى مع نصوص هذا الدرس تفصيلا

الفصل الأول

بعض أصناف المجتمع المسلم

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم، ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ،ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من يؤمن بالله،واليوم الآخر، ويتخذ ماينفق قربات عند الله، وصلوات الرسول إلا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم)[1]

قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب

بدأ بتصنيف الأعراب - وهم البدو - وقد كانت قبائل منهم حول المدينة، وكانت لهم أدوار فى الهجوم على دار الإسلام فى المدينة - قبل إسلامهم - فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين فى الفئتين اللتين ورد وصفهما فى هذه الآيات، وقد بدأ الحديث عنهما بتقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب.. «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله».

والآية تشير إلى ما للبيئة من أثر فى طبيعة الإنسان،وفى رسم معالم شخصيته، وتحديد مواقفه من الحياة، والتعبير بهذا العموم يعطى وصفا ثابتا متعلقا بالبدو، والبداوة..

فالبادية وما فيها من جفاف وجدب، وقسوة قد طبعت الكائنات فيها - وخاصة الإنسان - بطابعها الجاف الجديب القاسى، ومن هنا كانت الطبيعة الحادة فى نفس البدوى ذاهبة به مذهب الغلو،والتطرف مما اقتضى أمرين:

الأول: إن المنافقين من أهل البادية على نفاق أشد، وأسوأ من نفاق سكان الحضر، وكذلك كفرهم هو كفر غليظ كثيف مغلق، لا تطلع عليه ضوءةً من الحق أبدا، وذلك لأنهم أغلظ طباعا، وأقسى قلوبا، وأجفى أقوالا، وأبعد من مشاهدة أهل الخير،وأقل ذوقا، وآدابا - كدأب أمثالهم من بدو سائر الأمم - مما يقضون جل أعمالهم فى رعى الأنعام، وحمايتها من ضوارى الوحوش، ومن تعدى أمثالهم عليها، وعلى نسائهم وذراريهم، فهم محرمون من وسائل العلو الكسبية، والآداب الاجتماعية.

وسبب ذلك عند الرازى

١. أن أهل البدو يشبهون الوحوش.

٢. استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وذلك يوجب مزيد من التيه والتكبر، والنخوة والفخر، والطيش فيهم.

٣. أنهم ما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، ولا ضبط ضابط، تنشأوا كما شاءوا، ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات فسادا.

٤. أن من أصبح وأمسى مشاهدا لوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبياناته الشافية، وأدبياته الكاملة كيف يكون مساويا لمن لم يؤثر هذا الخير ولم يسمع خيره[٢]

الثاني: إنهم ـ لبعدهم عن مواقع الهدى من رسول الله ومن المؤمنين ـ أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله [٣] على رسوله، من البينات، والهدى فى كتابه، وما آتاه من الحكمة التى يبين بها تلك الحدود بسنته القولية، والفعلية ،وفهم ألفاظ القرآن اللغوية لا يكفى فى علم حدوده العملية.. وكان أهل المدينة، وما حولها من القرى يتلقون عنه صلى الله عليه وسلم كل ما ينزل عليه من القرآن،وقت نزوله، ويشهدون سنته فى العمل به، وكان يرسل العمال إلى البلاد المفتوحة، يقيمون بها يبلغون القرآن، ويحكمون بين الناس به والسنة المبينة له، فيعرف أهلها تلك الحدود التى حدها الله تعالى، ونهاهم أن يعتدوها.

ولم يكن هذا كله ميسورا لأهل البوادى، ولذا فهم مأمورون بالهجرة لأجل العلم والنصرة، لأن الإسلام دين علم، وحضارة فالجدارة [٤] بالجهل ـ من الحضر ـ لما أنزل الله على رسوله، ليست ناشئة من ضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم، أو ضيق نطاق بيانهم، فقد كانوا مضرب الأمثال فى قوة الجنان، ولوذعية الأذهان، وذرابة اللسان، وسعة بيداء البيان، وعنهم أخذ رواة العربية أكثر مفردات العربية،و أساليبها، وإنما هى ناشئة من ظروف حياتهم، وطبيعة بدواتهم، وماتنشئه فى طباعهم من جفوة، ومن بعد عن المعرفة، وعن الوقوف عند الحدود، ومن مادية حسية تجعل القيم المادية هى السائدة، وإن كان الإيمان يعدل من هذه الطباع، ويرفع من تلك القيم، ويصلهم بالأفق الوضىء المرتفع على الحسيات.

وقد وردت روايات كثيرة عن جفوة الأعراب.. ومما أورده ابن كثير فى التفسير: قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس إعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه،وكانت يده قد أصيبت يوم «نهاوند» فقال الأعرابى: والله إن حديثك ليعجبنى، وان يدك لتريبنى! فقال زيد: وما يريبك من يدى؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ورسوله «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سفيان، عن أبى موسى عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من سكن البادية جفا ،ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»[٥] ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى [٦] كما قال تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى» [٧].

ولما أهدى ذلك الاعرابى تلك الهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فرد عليها اضعافها

حتى رضى . قال: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشى، أو ثقفى أو أنصارى، أو دوسى لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما فى طبع الأعراب من الجفاء.

قال حديث مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبوكريب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام، عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم! قالوا: لكنا، والله ما نقبل! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلمك «وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»(٨).

وكثير من الروايات يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة فى نفوس الأعراب حتى بعد الإسلام، فلا جرم يكون الشأن فيهم أن يكونوا أشد كفرا، ونفاقا، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، لطول ما طبعتهم البداوة بالجفوة، والغلظة عندما يقهرون غيرهم، أو بالنفاق والإلتواء عندمايقهرهم غيرهم، وبالإعتداء وعدم الوقوف عند الحدود بسبب مقتضيات حياتهم فى البادية.

«والله عليم حكيم» عليم بأمور عباده، وصفاتهم، وطباعهم، وأحوالهم الظاهرة من بداوة، وحضارة، وعلم، وجهل، والباطنة من إيمان، وكفر، واخلاص، ونفاق، حكم فيها يحكم به عليهم، وما يشرعه لهم، وما يجزيهم به من نعيم مقيم، عذاب إليم، حكيم فى توزيع المواهب، والخصائص، والإستعدادات، وتوزيع الأجناس، والشعوب والبيئات. وفيه دعوة لهؤلاء الأعراب أن ينزعوا لباس البداوة، وأن يخرجوا من حياتهم تلك إلى حياة الحضر، وأن يقتربوا من مواطن العلم، والمعرفة حيث يلقون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأخذون عنه، ويخالطون المؤمنين،ويحذون حذوهم.. فالله عليم حكيم، ولا يعرف الطريق إلى الله، ويحسن التعامل معه إلا أهل العلم، والحكمة.

فالإسلام إذا يشنع على البداوة، وإذ يصم أهلها بالنفاق الكريه، والكفر الغليظ، والجهل الفاضح.. الإسلام بهذا يدعو إلى العمران، ويحرض على المدنية ويبغض إلى الناس العزلة، والوحشة وقبول الحياة، كما هى من غير معالجة لأشيائها، ووضع بصمة الإنسان العالم الحكيم عليها.

نفحات النفاق تنبعث عن قلوب بعض الأعراب

وبعد الوصف الرئيسى العام للأعراب يجىء التصنيف حسبما أحدث الإيمان فى النفوس من تعديلات، وما أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشته، والقلوب التى بقيت على ما بها من كفر، ونفاق مما يمثل الواقع فى المجتمع المسلم حينذاك.. وربما عجل بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ؟؟ بمنافقى المدينة الذين كان يتحدث عنهم فى المقطع السابق كله، وليتصل جو الحديث عن المنافقين من هؤلاء، ومن هؤلاء.

(ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما، ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم)(٩)

هناك جماعة من الأعراب دخلوا فى الإسلام على غير علم، أو نظر لم يكن لهذا الدين أثر فى نفوسهم،ولا لشريعته حساب فى ضمائرهم.. إنهم مسلمون، وليسوا مؤمنين، كما وصفهم الله تعالى بقوله: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)[١٠].

هذه الجماعة من الأعراب - وهم بنو أسد، وغطفان - كانوا مضطرين لأن ينفقوا من أموالهم فى الزكاة، وفى غزوات المسلمين، تظاهرا بالإسلام، ليستمتعوا بمزايا الحياة فى المجتمع المسلم، ومداراة للمسلمين، وهم أصحاب السلطان يومها فى الجزيرة! وهؤلاء الأعراب المنافقون يعدون ما ينفقونه غرامة،وخسارة، ويؤدونها كارهين أو مرائين، اتقاء أن يغزوا، ويحاربوا، لا مساعدة للغزاة المجاهدين، ولا حبا فى انتصار الإسلام، والمسلمين ولا رجاء فى ثواب الله، وجزاء الآخرة فهم بالبعث غير مؤمنين ..(ويتربص بكم الدوائر)[١١] ينتظرون دوائر الزمان، أى تعاريفه، ونوائبه التى تدور بالناس، وتحيط بهم بشرورها أن تنزل بكم، فتبدل قوتكم ضعفا، وعزكم ذلا، وانتصاركم هزيمة، وكسرا حتى لا يكون للإسلام يد عليهم تأخذ من أموالهم ما تأخذ، وحتى يستريحوا من أداء هذه المغارم لكم بالتبع للخروج من طاعتكم والإستغناء عن إظهار الإسلام نفاقا لكم.

كانوا أولا يتوقعون ظهور المشركين، واليهود على المؤمنين، فلما يئسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم، ويظنون أن الإسلام يموت بموته عليه السلام.. وهكذا يعلل الجاهل الضعيف نفسه بالأمانى، والأوهام.

وإذا كان منافقوا المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الأعراب أن يعلموا ما فى الإسلام من القوة الذاتية، وما فى اعتصام المؤمنين الصادقين به من القوة الحربية، كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم فى تبوك، ويتمنون ألا يعودوا من غزاتهم هذه سالمين، وكانوا أن أصاب النبى صلى الله عليه وسلم مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون ويقولون: «قد أخذنا أمرنا من قبل» أى احتطنا لهذه العاقبة من قبل وقوعها.. فهل يستغرب مثل هذا التربص من الأعراب سكان البادية الذين يجهلون كل هذا؟ وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله سبحانه عليهم، ودعاء الله معناه وقوع مدلول الدعاء عليهم..(عليهم دائرة السوء)[١٢] أى عليهم وحدهم الدائرة السوء تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، فإن هؤلاء لا عاقبة لهم تتربص بهم إلاما يسرهم، ويفرحهم من نصر الله، وتوفيقه لهم، وما يسوء أعداءه من خذلان وخيبة، وتعذيب لهم فى الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم، وأولادهم كأن للسوء دائرة تطبق عليهم لا تفلتهم، وتدور عليهم فلا تدعهم، وذلك من باب تجسيم المعنوى، وتخييله الذى يعمق وقع المعنى، ويحييه.

(والله سميع عليم).. والسمع، والعلم هنا يتناسبان مع جو التربص بالسوء من أعداء الجماعة المسلمة، والنفاق الذى تحتويه جوانحهم، وتخفيه ظواهرهم.. والله سميع لما يقولون، عليم بما يظهرون وما يكتمون، لا يخفى عليه شىء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم، واعتقادهم فى نفقاتهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم، وأقوالهم التى يقولونها للرسول أو لعماله

على الصدقات، أو لغيرهم من المؤمنين مراعاة لهم، ولا من أعمالهم التى يعملونها، ومن نياتهم وسرائرهم التى يخبونها، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم - أى على كل قول وفعل - ويجزيهم به.

نسمات الإيمان تهب على صدور بعض الأعراب

ليس الأعراب جميعا على حال سواء، فإذا كانت الصحراء تنبت الشوك، والحسك، وتؤوى الوحوش والحيات، فإنهما تخرج العرار[١٣] والريحان، وتتحلى بالظباء والنعام.. وإذا كان فى أعراب البادية الجفاه، وأهل الوحشية، والجهالة فإن فيهم ذوى النفوس الرقيقة والقلوب المتفتحة والوجدانات الشفيفة، التى تذوب رقة، وعذوبة.. إن هؤلاء أشبه بالأنسام العليلة الرطبة التى تتهمس بها أنفاس الصحراء بين الحين والحين، فى آذان الأصائل والأشجار، وتبعث الروح والعافية فى كيان الأحياء التى كادت تهلك من فحات الهجير، ووقدات السموم.. ففى أعراب البادية الشعراء والحكماء، وأصحاب الفراسة، والألمعية التى تلمح بذكائها ما لا تلمحه العين المبصرة وراء المجهر، وتكشف بصدق حدسها، وظنها من خفايا النفوس ما لا يكشفه عالم النفس بأدوات علمه، ومقاييس فنه.. والذين دخلوا الإسلام من هؤلاء الأعراب من ذوى النظر، والحكمة قد عرفوا هذا الدين معرفة كاشفة، فإزدادت به بصائرهم استضاءة وتألقا، واستروحت منه قلوبهم روح الطمأنينة، واليقين فصعبوا هذا الدين صحبة المآخاة، والمخالطة، وعايشوه معايشة الأمن، والعافية، وامسكوا به امساك الأرض الطيبة هواطل الغيث السخى، فاهتزت وبت وأنبتت من كل زوج بهيج.

(ومن الأعراب من يؤمن بالله، واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم)،

قال مجاهد: هم بنو مقر من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم)[١٤] الآية، وقال الكلبى: هم أسلم، وغفار، وجهينة، وزينه [١٥] وثم روايات أخرى فيهم.. والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الأعراب ..فهو الإيمان بالله واليوم الآخر، إيمانا صادقا اذعانيا تصدق عنه آثاره من العمل الصالح، وهو باعث الانفاق عند هذا الفريق، لا الخوف من الناس، ولا الملق للغالبين، ولا حساب الريح والخسارة فى دنيا الناس.

وهذا الفريق المؤمن بالله، واليوم الآخر على النقيض من سابقه فى أمر الانفاق فى سبيل الله، فذلك يتخذ ما ينفق مغرما، وهذا يتخذ ما ينفق مغنما، فهو يقصد ما ينفقه أن يكون وسلة لأمرين عظيمين:

١) طلب القربات [١٦] عند الله عز وجل وابتغاء مرضاته، وقصد القربة فى العمل هو الاخلاص، وطلب مرضاة الله، ورحمته، ومثوبته فيه.

٢) التماس صلوات الرسول [١٧] - أى دعواته - الدالة على رضاه صلى الله عليه وسلم، المقبولة عند الله، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر، المنفقين ابتغاء القربى من الله

ورضاه.. ودعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يتقدم بالصدقات هو ما يتقرب به المتقربون إلى الله، فهى صدقات إلى صدقاتهم يضيفها الرسول إليهم لتزيد رصيدهم فى قربهم إلى الله.. وقد كان صلى الله عليه وسلم يصلى على المتصدقين، أى يستغفر لهم، ويدعو لهم بالخير، والبركة.

وقد بين الله جزاء هؤلاء الأعراب على ما شهد لهم به من صدق الإيمان واخلاص النية فى الإنفاق فى سبيل الله، وأدائهم به حق الله، وهو قصد القربة عنده، وحق الرسول، وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم واثابتهم عليها.. (إلا انها قربة لهم)[١٨].

فهذا الإنفاق أو هذه الصلوات، والدعوات من الرسول هى قربة لهم عن الله، بمعنى أن دعاء الرسول للمؤمن يعنى رضا الرسول عنه، وهذا الرضا هو فى ذاته قربة عند الله للمؤمن، ينال به رضا الله ومغفرته، سواء أكان دعاء الرسول، ورضاه عن نفقة أنفقها المؤمن أو عن كلمة طيبة قالها، أو عن مسعى حميد به بين المسلمين، أو موقف كريم وقفه، أو مشهد حسن شهده.. وقد دعى الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان رضى الله عنه حين أنفق ما أنفق فى تجهيز جيش العسرة فقال: «اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض» فكان عثمان بذلك أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ويبشرهم بحسن العاقبة وعدا من الله حقا (سيدخلهم الله فى رحمته) وهو تفسير لهذه القربة، والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة لمن رضى الله عنه وهو هداية الصراط المستقيم، وما تنتهى إليه من دار النعيم.

ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها، وتكون هى محيطة بهم شاملة لهم[١٩] فهو يجسم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم وذلك في مقابل تجسيم دائرة السوء على الفريق الآخر الذى يتخذ ما ينفقه مغرما ويتربص بالمؤمنين الدوائر ..(إن الله غفور رحيم) يقبل التوبة ويتقبل النفقة، ويغفر ما كان من ذنب، ويرحم من يبتغون الرحمة.

وفى الآية أمور:

١. فيها من بلاغة الايجاز ما يدل علي علو مقام هؤلاء الأعراب.

٢. التنبيه على أنه لابد فى جميع الطاعات من تقدم الإيمان.

٣. لم يثبت فى النص انتفاع أحد يعم غيره إلا الدعاء، وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح، والسنة الحسنة يتبع فيها.

٤. يسن للمتصدق عليه، أو من يحضر أو من يجمع الصدقات أن يدعو للمتصدق عند اعطاء صدقته، والذى ذهب إليه المحققون ـ كما قال مالك وسفيان ـ انه يجب تخصيص النبى صلى الله عليه وسلم، وسائر الأنبياء بالصلاة، والتسليم، كما يختص الله سبحانه عند ذكره بالتقديس، والتنزيه، ويذكر من سواهم بالغفران والرضى، كما قال تعالى: (رضى الله عنهم ورضوا عنه) »يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان«، وأن ذلك فى غير من ذلك لم يكن فى الصدر الأول، وإنما أحدثه الرافضة فى بعض الأئمة.

والتشبيه بأهل البدع منهى عنه فتجب مخالفتهم.. ولا يخف أن مذهب الحنابلة جواز ذلك فى غير الأنبياء، والملائكة استقلالا، عملا بظاهر الحديث: (اللهم صل على آل أبى أوفى) وكراهة التشبيه بأهل البدع مقررة عند الأحناف أيضا، لكن لا مطلقا، بل فى المذموم، وفيما قصد به التشبيه بهم.[٢٠]

أربع طبقات إيمانية

ويعد تصنيف الأعراب على وجه الاجمال يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله حاضره، وباديه إلى أربع طبقات إيمانية:

١- السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان.

٢- والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب

٣- والذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

٤- والذين أرجئ الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه.

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين، ومن المؤمنين المتخلفين كذلك، سواء منهم من اعتذر صادقا، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يعتذر بشىء راجيا أن يقبل الله توبته بصدقه، وهم الثلاثة الذين خلفوا، فلم يحكم فى شأنهم بشىء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم - كما سيجىء - وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة فى الجزيرة بعد غزوة تبوك، وكان الله سبحانه يكشف أرض الحركة كلها، وما عليها، ومن عليها لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المؤمنين الخلص، هذا الكشف النهائى الكامل قرب نهاية المطاف، فى الجولة الأولى لهذا الدين، فى مواطنه الأول، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده، والدينونة له وحده، وتحرير «الإنسان» فى الأرض العبودية للعباد فى شتى الصور، والأشكال.

ولابد للحركة الإسلامية حين تنطلق أن تتكشف لها أرض المعركة، وما عليها ومن عليها، فهذا التكشف ضرورى لكل خطوة، حتى يعرف أصحاب الحركة مواضع أقدامهم فى كل خطوة فى الطريق.

١- السابقون الأولون:

«والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم، ورضوا وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم».

وإنما ناسبت هذه الآية ما قبلها، لأنها تعرض صورة مشرقة للمؤمنين الذين يتجلى عليهم الله سبحانه برضوانه، وينزلهم منازل فضله، واحسانه، وذلك بعدأن عرض فى الآية السابقة عليها صورة مضيئة انبثقت من بين ظلام البداوة، وطلعت من سباب سمومها، ولهبها.. فالسابقون الأولون من المهاجرين الأنصار الذين اتبعوهم بإحسان هم الإنسانية الكريمة الوضيئة، يتمثل فيهم كل ما يمكن أن تعطيه الإنسانية من ثمر طيب مبارك، فهم من الإنسانية

بمنزلة هذه القلة من أعراب البادية الذين خلصوا من كدر البداوة، وسلموا من أدرانها، وأوضارها.

أما الحديث عن الآية نفسها فهذا ما نرجئه قليلا، إذ آثرنا أن تستقل بفصل وحدها، هو الفصل الثالث من هذا الباب - إن شاء الله - حتى يمكن توفيه من تضمنتهم الآية بعض حقهم، والله الموفق.

٢- المنافقون الذين مردوا على النفاق:

بعد هذه الصورة المشرقة التى عرضتها هذه الاية لكملة المؤمنين، وأهل السبق والاحسان، وما أعد لهم من نعيم وما أسبغ عليهم من رضا، تجيء الآية التالية لتعرض صورة معتمة طامسة، لأهل الزيغ، والضلال، والمردة من المناقين، وتكشف عن وجوه منكرة للإنسانية حين تفسد فطرتها، وتشوه معالم إنسانيتها.. «وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم».

إن بعض الأعراب الذين حولكم - أيها المؤمنون - منافقون، قال البغوى: وهم من مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، كانت منازلهم حول المدينة [٢١] وأن من أهل المدينة نفسها منافقين أيضا من الأوس، والخزرج، ولقد سبق الحديث والكشف عن المنافقين بعامة - سواء من هؤلاء أو أولئك - وأعلم الله رسوله بهم فى هذه الصورة بما صدر عنهم من الأقوال، والأفعال المنافية للإيمان، ولكن الحديث عن جماعة خاصة من المنافقين..

جماعة حذقوا النفاق، ومرنوا عليه، ولجوا فيه، ومردوا [٢٢] حتى بلغوا الغاية من اتقانه، وجعله بحيث لا يشعر به أحد لاتقائهم جميع الإمارات، والشبهات التى تدل عليهم.. إنهم شبوا على النفاق، ووضعوا أخلافه، وخف عليهم محمله، وصاروا فيه اساتيذ بل أضحى بعضا منهم أشبه بجارحة من جوارحهم، حتى ليخفى أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعرفهم مع كل تجريته، وفطنته، وقسوة خاطرة وصفاء حدسه، ونفسه، ودقة فراسته التى تنظر بنور الله.

فإذا كانوا قد حذقوا فى التقية، وتجنبوا مثارات الشبهة، واشتد اهتمامهم بإظهار الإخلاص، والولاء، وإذا كانوا قد برعوا فى النفاق، وصاروا أساتذة فيه لا يكاد يطلع عليهم أحد، وهم يتعاملون به ويتعاطون كئوسه منوعة، فإن من لا تخفى عليه خافية يعلمهم، ويقف على سرائرهم المركزة فيهم، وهو سبحانه يتولى حسابهم، ويأخذهم بذنوبهم، ويفضحهم فى هذه الدنيا بما ينزل من آيات فيهم «لا تعلمهم» «نحن نعلمهم».

وهو لا ينافى قوله تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم، ولو نشاء لأرينكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم فى لحن القول [٢٣] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق، والريب على التعيين، ولعل هؤلاء أخف نفاقا، وأشد تقية من الذين يعرفون بسيماهم، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا إن كان يراه صباحا، ومساء، ويشهد على

صحة هذا ما رواه الإمام أحمد - باسناده - عن جبير بن مطعم قالك يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال:(لتأتينكم أجوركم، ولو كنتم فى جحر ثعلب).

وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال: (إن فى أصحابى منافقين) ومعناه أنه قد بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم.

كما لا ينافى ذلك ما تقدم فى تفسير «وهموا بما لم ينالوا» من أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر، أو خمسة عشر منافقا، لأن هذا التخصيص لا يقتضى أنه أطلع على أسمائهم، وأعيانهم كلهم، فهؤلاء لم يعلمه الله بأشخاصهم، كما أعلمه بأولئك الخمسة عشر، ولا فضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم فى هذه السورة، لأنهم بمردودهم على النفاق يتحامون ما يكون شبهة على إيمانهم، فضررهم قاصر عليهم.

وحكمة اخباره تعالى ورسوله ذلك أن يعلموا هم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذرهم أن يفضحهم كما فضح غيرهم، وذلك ليكون هؤلاء لهؤلاء المنافقين الضالين نظر فى أنفسهم، ورجعة إلى ربهم ان كانت قد بقيت فيهم بقية صالحة لنظر أو اعتبار، أوليتوب المستعد للإيمان منهم وهو فى ستر الله قبل أن ينجز ما أوعدهم به.

والله سبحانه يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين معه من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة فى النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم، فسيعذبهم عذابا مضاعفا فى الدنيا والآخرة، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم».

والعذاب مرتين فى الحياة الدنيا: أحداهما ما يصيبهم من المصائب، وتوبيخ الضمائر، وانتظار الفضيحة بهتك استار السرائر، والخوف، والقلق النازل بهم من توقع انكشاف نفاقهم فى المجتمع المسلم، وتعرضهم للجهاد الغليظ، والخسرات التى تصيبهم بإنتصار المسلمين، وغلبتهم، والمغانم التى تمتلىء بها أيدى المسلمين، وتعذيبهم بالأموال، والأولاد، وأخذ الزكاة من أموالهم، والثانية آلام الموت، وزهوق أنفسهم، وهم كافرون، وسؤال الملائكة لهم، وضربهم، وجوههم وأدبارهم عند موتهم.

(ثم يردون إلى عذاب عظيم) فى الآخرة وهو جهنم وهم فى الدرك الأسفل أخرج ابن جرير - بسنده - عن ابن عباس فى قول الله تعالى (سنعذبهم مرتين) قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال: أخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم، فلقيهم عمر، وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم!

«وفى رواية ابن مردويه عن ابن مسعود الأنصارى أنه صلى الله عليه وسلم أقام فى ذلك اليوم - وهو على المنبر - ستة وثلاثين رجلا» فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثانى عذاب القبر»[٢٤].

والحق فى هذا أنه إن صح هذا الحديث فهو عدد الذين سبق تهديدهم فى هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يروا لنا ما كان من أمر هؤلاء بعد هذه الفضيحة بكفرهم، ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه أن تجرى عليهم أحكام المرتدين، ومثل هذا لا يخفى، وتتوفر الدواعى على نقله بالتواتر أو الإستفاضة، ولم يرو لنا المحدثون شيئا فيه، قال المنار [٢٥]: والذى أراه أن الرواية غير صحيحة، والله أعلم.

قال الطبرى: إن فى قول الله جل ثناءه (ثم يردون إلى عذاب عظيم) دلالة على أن العذاب فى المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار، والأغلب من إحدى المرتين أنها فى القبر [٢٦] ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه، وجوز أن يراد بالمرتين التكثير كما فى (فأرجع البصر كرتين) لقوله سبحانه (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين).

ما يستفاد من الآية:

١. إن المنافقين فريقان: فريق عرف بأقوال قالوها، وأعمال عملوها، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه، وكل من الفريقين يوجد فى كل عصر، وفى عصرنا الحاضر نجد ذينك الفريقين المنافقين: فريق اتخذهم الأجانب المعتدون على بلاد الإسلام دعاة وولائج وأعوانا على استعباد أمتهم، واستعمار أوطانهم، يزعمون أنهم يخدمون أمتهم ووطنهم عن طريق استمالتهم واسترضائهم وأنهم لولا هم لما وقف الغاصب المستعمر من الظلم، وهضم الحقوق عند الحد الذى هم عليه، ووفريق آخر يخدمون الأجانب خدمات خفية لا تشعربها الأمة لأنهم مردوا على النفاق، وأشدهم مردوا واتقانا للنفاق أعوان الحكام المستبدين الذين يلبسون الباطل لباس الحق ويروجونه فى أعين الجماهير خدمة لأولئك الحكام، وشرهم وأضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين.

٢. واستدل بالآية على أنه لا ينبغى الاقدام على دعوى الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها، وقد أخرج عبد الرازق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة أنه قال: «ما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ يقولون: فلان فى الجنة، وفلان فى النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدرى! لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفته الأنبياء قبلك، قال نوح عليه السلام: وما علمى بما كانوا يعملون.. وقال شعيب عليه السلام: وما أنا عليكم بحفيظ، وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم «لا تعلمهم نحن نعلمهم».

٣. هذه الاية ونحوها أقوى دليل فى الرد على من يزعم الكشف، والإطلاع على المغيبات بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل.

٤. فى الآية دلالة على اثبات عذاب القبر.

٣ ـ الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا

وبين المستويين المتقابلين مستويان بين بين، فليسوا من المنافقين، ولا من السابقين الأولين، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان لا إساءة فيه، ولكنهم من المؤمنين المذنبين.. أحدهما «واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا[٢٧] عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم».

وثم اناس آخرون أقرهم عن معرفة بذنوبهم التى منها تخلفهم عن الغزو وايثار الدعة والرضا بسوء جوار المناقين، خلطوا فى أعمالهم، بأن عملوا عملا صالحا وعملا سيئا أو خلطوا صالحا بسيء، وسيئا بصالح، أو خلطوا فى كل منهما ما ليس منه، فكان ناقصا، ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه، فلم يكونوا من الصالحين الخلص، ولا من الفاسقين أو النمافقين، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، واقترفوا بعض السيئات.. وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر، والخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح، كالضعفاء والمرضى، وغير الواجدين، ولا استئذان، كإستئذان المرتابين، ولا اعتذاركاذب مؤكد. بالايمان الفاجرة كالمنافقين.. ثم كانوا ناصحين لله، ورسوله فى أثناء قعودهم، شاعرين بذنبهم، خائفين من ربهم، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترنا بالآخر، كالذى يدخل أرضا مغصوبة فيصلح فيها، ويعترف بأنه مذنب بدخولها، ويأتى بالإصلاح لتكفير ذنب الإعتداء.

سبب النزول:

وأمر الله لرسوله باجراء معين مع هذه الطائفة دليل على «أنها كانت معينة بأشخاصها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر، وقد روى أن الآية - وآيتين بعدها - نزلت فى جماعة خاصة معينة[٢٨] فعلا ممن تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك، ثم أحسوا وطأة الذنب، فأعترفوا بذنوبهم ورجوا التوبة، فكان منهم التخلف، وهو العمل السيىء، وكان منهم الندم، والتوبة وهو العمل الصالح.

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى حدثت عن الحسين بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ قال: أخبرنا عبيد بن سلمان قال: سمعت الضحاك يقول فى قوله: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» نزلت فى أبى لبابة وأصحابه، تخلفوا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك، فلما قفل رسول الله عليه وسلم من غزوته، وكان قريبا من المدينة، ندموا على تخلفهم عن رسول الله، وقالوا: نكون فى الظلال، والأطعمة، والنساء، ونبى الله فى الجهاد والاواء! والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ثم لا نطلقها حتى يكون نبى الله صلى الله عليه وسلم يطلقنا ويعذرنا! وأوثقوا أنفسهم، وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته، فمر فى المسجد، وكان طريقه، فأبصرهم! فسأل عنهم: فقيل له: أبو لبابة وأصحابه، تخلفوا عنك يا نبى الله، فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم! فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم :(لا أطلقهم حتى أأمر باطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين! فأنزل الله: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم - إلى - عسى الله أن يتوب عليهم» و«عسى» من الله واجب .. فأطلقهم نبى الله وعذرهم[٢٩].

ووردت روايات متعددة أخرى: منها أنها فى أبى لبابة وحده، لما وقع فى غزوة بنى قريظه من تنبيههم لما يراد بهم، وأنه الذبح، بالإشارة إلى عنقه! ولكن هذا مستبعد، فأين هذه الآيات مما وقع فى بنى قريظة؟! كذلك ورد أنها فى الأعراب.. وقد عقب ابن جرير على هذه الروايات كلها بقوله:

«وأولى هذه الأقوال بالصواب فى ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية فى المعترفين بخطأ فعلهم فى تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم حين شخص إلى تبوك،، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة (وإنما لنا: ذلك أولى بالصواب فى ذلك، لأن الله جل ثناؤه، قال: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم».. فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم، ولم يكن المعترف بذنبه الموثق نفسه بالسارية فى حصار قريظة غير أبى لبابة وحده، فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف فى قوله «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» بالإعتراف بذنوبهم جماعة، علم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك ليست بالواحد، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذ لم تكن إلا لجماعة، وكان لا جماعة فعلت ذلك - فيما نقله أهل السير، والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل - إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، صح ما لنا فى ذلك، وقلنا «كان منهم أبو لبابة» لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك»[٣٠].

ولما ذكر الله سبحانه صفة هذه الجماعة من الناس المتخلفين المعتذرين التائبين عقب عليها بقوله: «عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم» وكما قال ابن جرير: «وعسى من الله واجب» فهو رجاء من يملك اجابة الرجاء سبحانه! والإعتراف بالذنب على هذا النحو والشعور بوطأته، دليل حياة القلب، وحساسيته، ومن ثم فالتوبة مرجوة القبول، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرحيم، وقد قبل الله توبتهم وغفر لهم.

وقبول الله توبتهم يشير إلى وقوعها اعترافهم بذنوبهم، أو توفيقهم للتوبة الصحيحة سبب المغفرة والرحمة، وإنما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته، وألم الوجدان ممن تصور سخط الله، والخوف من عقابه، والإقلاع عن الذنب بباعث هذا الألم الذى هو ثمرة ذلك العلم، والعزم على عدم العود إلى اقترافها، ثم العمل بضدها ليمحى من النفس أثرها.. والروايات صريحة فى أن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا.

وقال الألوسى: وكلمةعسى للاطماع، وهو من أكرم الأكرمين ايجاب وأى إيجاب[٣١] وقال الفخر: قال المفسرون: كلمة «عسى» من الله واجب، والدليل عليه قوله تعالى: «فعسى الله أن يأتى بالفتح»، وفعل ذلك، وتحقيق القول فيه إن القرآن نزل على عرف الناس فى الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئا فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجى مع كلمة «عسى» أو «لعل» تنبيها على أنه ليس لأحد أن يلزمه شيئا، وأن يكلفه بشىء، بل كل ما عليه فعله فإنما يفعله على سبيل التفضل والتطول، فذكر كلمة عسى الفائدة فيه هذا المعنى، مع أنه يفيد القطع بالاجابة، والمقصود منه بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع، والإشفاق، لأنه أبعد عن الإنكار والإهمال [٣٢] ولكن المنار لا يرتضى هذا فهو يقول: وكلمة عسى للتقريب والإطماع، ثم استعملت فى الرجاء كلعل، وقول بعضهم: إنها من الله للإيجاب غير صحيح[٣٣].

ثم علل رجاء قبول توبتهم فقال: (إن الله غفور رحيم) وكما قال:(وإنى لغفار لمن تاب وآمن، وعمل صالحا، ثم اهتدى)[٣٤] (إن رحمة الله قريب من المحسنين)[٣٥] وكما قص علينا من خبر

استغفار الملائكة للمؤمنين فى قوله: (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك و قهم عذاب الجحيم)[٣٦] قال بعض العلماء: إن هذه أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يجترحون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقلعون عن ذنوبهم [٣٧] وقد روى البخارى فى تفسير الآية فى صحيحه عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتانى الليلة - أى فى النور - ملكان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، وبلبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا فى أحسن صورة، قالا لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك قالا :و وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا تجاوز الله عنهم».

فهذا تمثيل فى الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس، وتشويه العمل القبيح لها، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح، حتى تكون كلها حسنة جميلة وأهلا لدار الكرامة بعد أن تبعث في الصورة التى كانت عليها قبل التوبة، وقد قال تعالى «إن الحسنات يذهبن السيئات»[٣٨] وشبه النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر يفيض على عتبة المسلم خمس مرات كل يوم، فهل يبقى من درنه من شىء؟ قالوا : لا.

ونأخذ من عموم الآية:

١- ان الفريق الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا يوجد فى كل زمان ومكان، وإن أكثر المسلمين الصادقين فى عصرنا الحاضر من هذا الصنف، وأن أسوأ سيئاتهم تركهم الجهاد فى سبيل الله.

٢- ينبغى أن نسترشد بهذه الآية وبما ورد فى سبب نزولها من توبة أبى لبابة وأصحابه، وتطهير النفس.

ثم قال الله تعالى لنبيه: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم).

ولطول الكلام عليها إذا تتحدث عن الزكاة، ولإتصالها بآيتى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين - الآية - والذين يكتزون الذهب والفضة - الآية، أرى أن نؤخر الكلام عليها فى فصل مستقل هو الفصل الرابع من هذا الباب.

ليس إلى الرسول بل إلى الله قبول التوبة والصدقة

إن الله وحده هو الذى يقضى فى شأن العباد، فيقبل منهم توبتهم ويأخذ منهم صدقاتهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ ما يأمره به ربه، ولا ينشىء شيئا من هذا من عنده، فقبول توبة من تاب من المتخلفين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها ليس إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم، وان نبى الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسوارى عند الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عليهم حين اذن فى ذلك، إنما فعل ذلك من أجل

أن ذلك لم يكن إليه صلى الله عليه وسلم، وإنما ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدا إنما يفعل ما يفعل من ترك واطلاق، وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر الله.. وتقرير لهذه الحقيقة يقول تعالى فى الآية التالية: (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم».

ثم إن هؤلاء القوم الذين ذكر أنهم تابوا عن ذنبهم، وأنهم تصدقوا، لم يطمئنهم هناك إلا قوله تعالى:(عسى الله أن يتوب عليهم) وما كان ذلك صريحا فى قبول التوبة، فذكر فى هذه الآية أنه يقبل التوبة، وأنه يأخذ الصدقات، والمعنى: ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم أن الله هو الذى يقبل توبة التائبين من عباده، ولم يجعل ذلك لرسوله بله من دونه من خلقه، أو لم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الإيمان وموجبه؟[٣٩]

«ويأخذ الصدقات» يتقبلها بأنواعها، ويثيب عليها،وبعدها اقراضا له فيضاعف ثوابها بمقتضى وعده فى مثل قوله: (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم)[٤٠] وقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة[٤١] وأن الله هو التواب) الذى يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه ويتوب عنه منيبا إلى ربه، مهما تكرر ذلك «الرحيم» بالتائبين، الذى يثيبهم.. وصيغة المبالغة تتحقق بكثرة التائبين، وبتكرار التوبة من المذنب الواحد الذى يمنعه الخوف من ربه، أن يصر على ذنبه،، كما قال تعالى فى وصف المتقين: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)[٤٢]وفى احديث «ما أصر من استغفر، وان عاد فى اليوم سبعين مرة»[٤٣] وهذه التأكيدات تفيد أعظم البشرى للتائبين.

والتوبة: أن يرجع عن القبيح، والإخلال بالواجب، بالندم عليهما، والعزم على أن لا يعود، وان كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التقصى على طريقه، وقال على كرم الله وجهه: هو اسم يقع على ستة معان: على الماضى من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، واذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته، وعن المدى: هو صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب، وعن غيره: هو أن لا يجد حلاوة الذنب فى القلب عند ذكره، وعن سهل: هو الإنتقال من الأحوال المذمومة، إلى الأحوال المحمودة.

وعن الجنيد: هو الإعراض عما دون الله.

ويستفاد من الآية:

١. ان قبول التوبة ليس إلى أحد حتى، ولا رسول الله إنما هو إلى الله، الذى يقبل التوبة إن شاء: فاقصدوا الله بها، ووجهوها إليه.

٢. فيها ترغيب من لم يتب فى التوبة، وترغيب كل العصاة فى الطاعة.

٣. قال المعتزلة: قبول التوبة واجب عقلا على الله، وقال أصحابنا: قبول التوبة واجب بحكم

الوعد، والتفضل والاحسان، أما عقلا فلا، وحجة أصحابنا وجوه: الأول أن الوجوب لا يتقرر معنا، إلا إذا كان بحيث لو لم يفعله الفاعل لاستحق الذم، فلو وجب قبول التوبة على الله تعالى لكان بحيث لو لم يقبلها لصار مستحقا للذم، وهذا محال، لأن من كان كذلك فإنه يكون مستكملا بفعل القبول، والمستكمل بالغير ناقص لذاته، وذلك فى حق الله تعالى محال.

الثانى: إن الذم انما يمنع من الفعل إذا كان بحيث يتأذى عن سماع ذلك الذم، وينفر عنه طبعه، ويظهر له بسببه نقصان حاله، أما من كان متعاليا عن الشهوة، والنفرة والزيادة والنقصان لا يعقل تحقق الوجوب فى حقه بهذا المعنى.

الثالث: إنه تعالى تمدح بقبول التوبة فى هذه الآية، ولو كان ذلك واجبا لما تمدح به، لأن أداء الواجب لا يفيد المدح، والثناء، والتعظيم.

٤. ويخذ من هذه الآية، ومن غيرها أن أخذ الصدقات له ثلاث صور: احداها أخذ الفقراء، والمساكين أياها من المستحقين من يد المتصدق.

الثانية: أخذ النبى صلى الله عليه وسلم فى عهده والأئمة من بعده اياها لأجل وضعها فى مصارفها التى أمر الله بها.

الثالثة: أخذ الله عز وجل أياها، وهو الإعتناء بأمرها، ووقوعها عنده سبحانه موقعا حسنا، وقبولها الإثابة عليها، والمضاعفة التى وعدها.

٥ ـ فى التعبير بأخذ الله تعالى للصدقات بعد قوله للنبى صلى الله عليه وسلم (خذ من أموالهم صدقة» تشريف للنبى صلى الله عليه وسلم بكونه تعالى هو الذى يأخذ ما أمره بأخذه.

٦. فيها الحث والترغيب فى الصدقة على أبلغ وجه، روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما تصدق أحد بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمنه وان كانت تمرة، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله (٤٤)

والحديث تمثيل لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة، وأخرج الدارقطنى فى الأفراد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تصدقوا فإن أحدكم يعطى اللقمة أو الشىء فيقع فى يد الله عز وجل قبل أن يقع فى يد السائل، ثم تلا هذه الآية، وأخرج الطبرى عن قتادة فى هذه الآية، قال: ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «والذى نفس محمد بيده لا يتصدق رجل بصدقة فتقع فى يد السائل حتى تقع فى يد الله».

خير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل:

وفى النهاية يتوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين، أو إلى المؤمنين كافة، أو إلى غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة، قال الزمخشرى ـ وتبعه النسفى (٤٥): فقد روى أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فمالهم؟ فنزلت: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، ورسوله، والمؤمنون وستردون إلى عالم

الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون؟[٤٦] وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم، وآخرتكم، ولأنفسكم، وأمتكم، فإنما العبرة بالعمل لابالإعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجد، والتشمير.. وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل، وهو لا يخفى على الله، ولا على الناس أيضا.

وهو دعوة عامة للمبادرة إلى العمل فى مجال الخير، والإحسان، وفى العمل فى هذا المجال يعرف العاملون بأعمالهم من خير أو شر.. فما كان فى السر أو فى الجهر يعلمه الله، لأنه عليم بالمقاصد، والنوايا، لا تخفى عليه خافية من بواطن الأمور وظواهرها، وماكان فى الجهر يعلمه الرسول، والمؤمنون، ويعلمون كثيرا من أعمال السر المختبئة بإطلاع الله لهم عليها، وفضح أصحابها، فيزنون هذا العمل بميزان الإيمان المميز بين الإخلاص، والنفاق، وهم شهداء الله على الناس.

وعلى حسب هذه الأعمال يجزى الله، ويضع المحسنين، والمسيئين كل منهم فى منزله، ويجزيه الجزاء الذى هو أهل له، وعلى ما يظهر من هذه الأعمال للرسول وللمؤمنين يكون قرب العاملين أو بعدهم من رسول الله ومن المؤمنين، ويكون حسابهم معهم من موالاة أو معاداة .. هذا فى الدنيا، فإذا جاءت الآخرة وكان البعث بعد الموت كشف الغطاء عن أعمال العاملين خيرها، وشرها، جوزوا عليها بالإحسان احسانا وبالسوء سوءا، وستردون إلى عالم الغيب، والشهادة، الذى يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور، فينبئكم بما كنتم تعملون فى الدنيا مما كان مشهودا للناس منه، وما كان غائبا عن علمهم منه، ومن نياتكم فيه، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب أو سوء العذاب (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[٤٧] (يوم تبلى السرائر)[٤٨] (وحصل ما فى الصدور)[٤٩].

وأورد الرازى سؤالين: أولهما أن عملهم لا يراه كل أحد، فما معنى هذا الكلام؟ وأجاب عنه: بأن معناه وصول خبر ذلك العمل إلى الكل، وثانيهما: ما الفائدة فى ذكر الرسول والمؤمنين بعد ذكر الله فى أنهم يرون أعمال هؤلاء التائبين؟ وأجاب قائلا: فيه وجهان:

الأول: إن أجدر ما يدعو المرء إلى العمل الصالح ما يحصل له من المدح، والتعظيم والعز الذى يلحقه عند ذلك، فإذا علم أنه إذا فعل ذلك الفعل عظمه الرسول والمؤمنون، عظم فرحه بذلك، وقويت رغبته فيه.. ومما ينبه على هذه الدقيقة أنه ذكر رؤية الله تعالى أولا: ثم ذكر عقبيها رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فكأنه قيل: ان كنت من المحققين فى عبودية الحق فأعمل الأعمال الصالحة لله تعالى، وان كنت من الضعفاء المشغولين بثناء الخلق فأعمل الأعمال الصالحة بثناء الخلق، وهو الرسول والمؤمنين.

الثانى: ما ذكره أبو مسلم: أن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة، كما قال: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[٥٠] الآية، والرسول شهيد الأمة كما قال: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)[٥١] فثبت أن الرسول، والمؤمنين شهداء الله يوم القيامة، والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية، فذكر أنهم يرون هذه الأعمال للشهادة.[٥٢].

ولعله يدخل فى رؤية المؤمنين للأعمال ما ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من

الأقرباء، والعشائر فى البرزخ.. روى أحمد بسنده عن سمع أنسا يقول: قال النبى صلى الله عليه وسلم «إن اعمالكم تعرض على أقاربكم، وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».. وقال البخارى: قالت عائشة رضى الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل أمرئ مسلم فقال: «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

ما يستنبط من الآية

١ـ أن المنهج الإسلامى منهج عقيدة، وعمل يصدق العقيدة

٢ـ ان الندم، والتوبة ليسا نهاية المطاف، ولكنه العمل الذى يعقب الندم، والتوبة، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية، ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون! فمحك الصدق فى التوبة إذن هو العمل الظاهر يراه الله ورسوله، والمؤمنون.

٣ـ ان الإسلام منهج حياة واقعية، لا تكفى فيه المشاعر، والنوايا ما لم تتحول إلى حركة واقعية.. وللنية الطيبة مكانها، ولكنها هى بذاتها ليست مناط الحكم، والجزاء، إنما هى تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل.. وهذا معنى الحديث: «إنما الأعمال بالنيات» الأعمال: لا مجرد النيات!

٤ـ الإرشاد إلى ما يقتضى الإحسان فى الأعمال: من مراقبة الله، وتحرى مرضاته، ومرضاة رسوله وجماعة المؤمنين، وقصد الخير لعباده بها.

٥ـ جدير بمن يؤمن برؤية اللهّ لعمله أن يتقنه، وأن يخلص له النية فيه فيقف فيه عند حدود شرعه، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه، ولا يكتفى فيه بترك معاصيه واجتناب مناهيه.. راود رجل امرأة عن نفسها فى فلاة، قائلا: انه لا يرانا هنا إلا الكواكب: قالت: فأين مكوكبها؟ فخجل، وانصرف.

٦ـ يستفاد من قوله: «والمؤمنون» أن الخلائق النفسية، والأعمال السرية لا تخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها لاخفائها، فماذا يقال فى الأعمال التى هى مقتضى العقائد والأخلاق، وما انطبعت عليه النفس من الملكات، ومرنت عليه من العادات؟ ترى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله، ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب، ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان»(٥٣) وقال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أمثال العوام: إن الذى يختفى هو الذى لا يقع

٧ـ والآية تهدينا إلى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، المقررة صفاتهم فى القرآن، تلى مرضاة الله ورسوله، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة، وفى معناه حديث أنس فى الصحيحين قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا، فقال: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما وجبت؟ قالك «هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنتيم عليه شرا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض» وفى لفظ مسلم تكرار «وجبت» ثلاث مرات فى الموضعين.

وكذا تكرار «أنتم شهداء الله فى الأرض» وفى معناه حديث عن الترمذى: «إن الله لا يجتمع أمتى - أو قال أمة محمد - على ضلالة، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار» [٥٤] ويعزى الحديث إلى الطبرانى بلفظ «لا تجتمع أمتى على ضلالة».

والعلماء يستدلون به على حجية الإجماع، لصحة معناه وموافقته للآيات والصحاح من الأخبار - وإنما يدل على اجماع الأمة.. أمة الاجابة وأهل الاستقامة .. لا على الاجماع المصطلح عليه عند الأصوليين.. وفى معناه قول ابن عباس رضى الله عنهما: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن [٥٥] ومن الناس من يظن أنه حديث مرفوع.

٤- الذين آخر الحكم فى أمرهم:

والفريق الأخير هو الذى لم يبت فى أمره، وقد وكل أمره إلى ربه.. (وآخرون مرجون لأمر الله ما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم)[٥٦].

وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك، فقد علم مما تقدم أن المتخلفين منهم المنافقون، وفيهم من اعتذر، وفيهم من لم يعتذر، ومنهم المؤمنون، وهم قسمان: الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، والذين حاروا فى أمرهم، ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فإنهم لا عذر لهم، فأرجأ الله الحكم القطعى فى أمرهم، وقد أبهم الأمر عليهم وعلى الناس لا يدرون ما ينزل فيهم، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم، أم يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين؟ فالترديد بين الأمرين هو بالنسبة إلى الناس لا إلا الله عز وجل.

و،حكمة ابهام أمر هؤلاء عليهم اثارة إلهم، والخوف فى قلوبهم لتصح توبتهم وحكمة ابهامه على الرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين على ما يجب فى أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله، ورسوله، والجهاد فى سبيله لإعلاء كلمة الحق، والعدل، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين.

وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآية قد بت فى أمره بشىء، وكان أمرهم موكولا إلى الله لم يعلموه، ولم يعلمه الناس بعد.. وقد روى أن هذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا - أى أجل إعلان توبتهم، والقضاء فى أمرهم - وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، الذين قعدوا عن غزوة تبوك كسلا وميلا إلى الدعة، واستروحا للظلال فى حر الهاجرة! ثم كان لهم شأن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى تفصيله فى موضعه من السورة « فى العضل الثالث من الباب الرابع إن شاء الله».

وإنما شدد عليهم مع اخلاصهم، والجهاد فرض كفاية، لما نقل عن ابن بطال فى الروض الأنف، وارتضاه: أن الجهاد كان على الأنصار خاصة فرض عين، لأنهم بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عليه، ألا ترى قول راجزهم فى الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا .. على الجهاد ما بقينا أبدا

وهؤلاء من أجلهم فكان تخلفهم كبيرة.

روى ابن جرير ـ باسناده – عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية .. يعنى قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .. أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أموالهم.. يعنى أموال أبى لبابة وصاحبيه.. فتصدق بها عنهم، وبقى الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة، ولم يوثقوا، ولم يذكروا شىء، ولم ينزل عذرهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وهم الذين قال الله (وآخرون مرجون لأمر الله اما يعذبهم، واما يتوب عليهم، والله عليم حكيم» فجعل الناس يقولون: هلكوا! إذا لم ينزل لهم عذر، وجعل آخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم! فصاروا مرجئين لأمر الله، حتى نزلت: (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين، والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة).. الذين خرجوا معه إلى الشام.. من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم.. ثم قال: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» . يعنى المرجئين لأمر الله – نزلت عليهم التوبة فعموا بها، فقال: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ـ إلى قوله – إن الله هو التواب الرحيم..)[٥٧] «وكذلك روى ـ باسناده عن كرمه ، وعن مجاهد، وعن الضحاك، وعن قتادة، وعن ابن اسحاق»، فهذه الرواية أرجح، والله أعلم.

(والله عليم» بحال عباده وبما يربيهم ويزكيهم، ويصلح حال أفرادهم، ومجتمعهم «حكيم» فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة، ولما كان أمرهم مرجأ فإننا نحب أن نرجئ الحديث فيه حتى يجيىء فى موضعه إن شاء الله.

رأى للخطيب.. وللأستاذ عبد الكريم الخطيب رأى آخر فى الآية، فهو يرى أنها تكشف عن جانب من رحمة الله بعداه وتفضله على المذنبين العصاة منهم، وهم الذين لم يتوبوا إلى الله منهم، ولم ينزعوا عما اقترفوا فعذبهم، وإن شاء عاد بفضله عليهم فعفا عنهم كرما منه، وفضلا، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : (نصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين)[٥٨] ولا يرد على هذا بأن ذلك مما يبطل عمل العاملين، ويسوى بين المحسنين، والمسيئين، كما أنه يناقض قوله تعالى: (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى)[٥٩] (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٦٠].. فنقول: إن الله سبحانه وتعالى باحسانه إلى المسئيين، وتجاوزه عن سيئاتهم لا يجوز على عمل المحسنين، ولا ينقص من احسانهم شيئا بل إنه سبحانه يوفيهم أجرهم غير منقوص، كما يقول سبحانه: (ولا نضيع أجر المحسنين).. أما التسوية بين المحسنين، والمسيئين فليست واقعة على اطلاقها وذلك:

أولا: ان المحسن مجزى بإحسانه بلاشك، كما يقول تعالى: (ولا نضيع أجر المحسنين) أما المسىء فهو فى منزلة بين المنزلتين: أما أن يأخذه الله بذنبه، وهذا هو الوجه الذى يطل عليه من سوء عمله، وإما أن يتجاوز الله عنه، ويعود بفضله عليه، وهذا هو الوجه الذى يطل عليه من رحمة ربه.

ثانيا: إنه ليس إحسان المحسن وحده هو الذى يدخله الجنة، وإنما قبل ذلك كله هو شموله برحمة الله، كما فى الحديث: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته» .. رحمة الله التى وسعت كل شىء تنال البر، والفاجر.

ثالثا: ليس المحسنون، والمسيئون على سواء من رحمة الله، فالمحسنون أقرب إليها وأكثر تعرضا لها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :(ان رحمة الله قريب من المحسنين)[٦١] والمسيئون وان بعدوا عن رحمة الله فليس ذلك بالذى يحجبهم عنها ويحرم بعض المسيئين حظهم منها، وذلك لمشيئة الله فيهم، وإرادته بهم، كما يقول سبحانه :.(نصيب برحمتنا من نشاء)[٦٢].

وأما قوله تعالى: (وان ليس للإنسان إلا ما سعى) وقوله: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فهو الميزان الذى يوزن به عمل كل عامل وسعى كل ساع، ومع هذا فإن الله يضاعف للمحسنين احسانهم، وأنه سبحانه إذ يرى المحسن عمله لا يقف به عند هذا الفضل، بل يتفضل عليه بأضعاف ما عمل، وكذلك المسيء إذا كان لا يقدم على الله إلا بما سعى وما حصل من سيئات، فإنه ليس من حرج على فضل الله أن يتجاوز عنه، ليرى آثار رحمة الله فيه، وذلك رهن بمشيئة الله وتقديره، والله تعالى يقول على لسان المسيح عليه السلام: (إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[٦٣]

وهذا المعنى وأن كان مقبولا تحتمله الآية، إلا أن فيه بعدا عن سبب النزول، وذلك أمر غير معهود عند جماعة المفسرين، كما أنه لا ضرورة إليه، ولا حاجة.

ويؤخذ من قوله تعالى: (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم):

١. تفويض ذلك إلى إرادة الله ومشيئته، لأنه لا يجب عليه سبحانه تعذيب العاصى ولا مغفرة التائب.

٢. احتج الجبائى بها على أنه تعالى لا يعفو عن غير التائب، وذلك لأنه قالها فى حق هؤلاء المذنبين، وذلك يدل على أنه لا حكم الا أحد هذين الأمرين: وهو إما التعذيب، وإما التوبة، وإما العفو الذنب من غير التوبة، فهو قسم ثالث فلما أهمل الله تعالى ذكره دل على أنه باطل، وغير معتبر.

والجواب: أنا لا نقطع بحصول العفو عن جميع المذنبين، بل نقطع بحصول العفو فى الجملة، وأما فى حق كل واحد بعينه فذلك مشكوك فيه.. ألا ترى أنه تعالى قال: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[٦٤] فقطع بغفران ما سوى الشرك، ولكن لا فى حق كل أحد، بل فى حق من يشاء، فلم يلزم من عدم العفو فى حق هؤلاء عدم العفو على الاطلاق وأيضا: فعدم الذكر لا يدل على العدم، الا ترى أنه تعالى قال: (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قطرة أولئك هم الكفرة الفجرة)[٦٥] فها هنا المذكورون أما المؤمنون، وأما الكافرون، ثم إن عدم ذكر القسم لم يدل عند الجبائى على نفيه فكذا ها هنا.

الهوامش

١) هذه الآيات الثلاث فى بيان حال الأعراب ومنافقيهم، ومؤمنيهم، والظاهر أنها قد نزلت هى وما بعدها إلى آخر السورة بعد وصول النبى صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين إلى المدينة، وإنما بدئ بذكر الأعراب من المنافقين لمناسبة ما قبله من الحديث عن منافقى الحضر، وفصل عنه لأنه سياق جديد مع ما بعد. وأو بيان مستأنف والأعراب: اسم جنس لبدو العرب واحدة أعرابى، والجمع أعاريب، والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره واحدة عربى.

٢) مفاتيح الغيب حـ٤ ص٧١٩

٣) الحدود على المشهور تخص الفرائض، أو الأوامر والنواهى لقوله تعالى (تلك حدود الله فلا تعتدوها) (تلك حدود الله فلا تقربوها) أو مقادير التكاليف والأحكام «الوسى» أو مراتب أدلة العدل والتوحيد والنبوة والمعاد المرازى» جـ٤ ص٧١٩.

٤) الجدارة بالشىء: قد تكون طبعية، وقد تكون بأسباب كسبية، من فنية وشرعية وادبية، وقد تكون بأسباب سلبية، اقتضتها حاجة المعيشة والبيئة «منار جـ١١ ص٨.٩».

٥) رواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرف عن سفيان الثورى به وقال: الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى. وعند أبى داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا بلفظ: من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعد. وسبب الأخير أن السلاطين قلما يرضون عمن يلتزم الحق، والصدق، والنصح الصريح، وقلما يأتيهم، ويزداد قربا منهم إلا المرائى الذى يمدحهم بالباطل، ويعينهم على الظلم، ولو بالتأويل لهم «منار جـ١١ص٩».

٦) القرية هى الحاضرة أو المدينة

٧) سورة يوسف ١٠٩

٨) وفى البخارى: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة» أ هـ ابن كثير جـ٢ ص٣٨٣

٩) المغرم: ما يلزمه المرء ما يثقل عليه فيلتزمه كرها أو طوعا لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه، وليس له فيه منفعة ذاتية

١٠) سورة الحجرات ١٤

١١) الدوائر: جمع دائرة وهى خط أشبه بالحلقة يدور حول نقطة ارتكاز فى وسطه، وقد استعيرت للشر يقع بالإنسان عند الجماعة، فى مجال الصراع مع قوة أخرى معادية، فيقال: دارت عليه الدائرة أى هزموا، وذلك يعنى أنهم قد أطبق عليهم العدو وأحكم عليهم اغلاق طريق الإفلات فكانوا وكأن العدو دائرة عليهم.

١٢) دعاء عليهم بتربصونه المؤمنين، أو خبر بحقيقة حالهم معهم، ومآل الاحتمالين واحد، لأن الخبر فى كلامه تعالى حق، ومضمونه كمضمون الدعاء واقع، ماله من دافع والدعاء منه عز وجل يراد به مآله، وهو وقوع السوء عليهم واحاطته بهم.

والسوء بالفتح فى قراءة الجمهور، وهو مصدر سائر الأمر ضده سره، وقراه ابن كثير وأبو عمرو بالضم وهو اسم لما يسوء، وهو المكروه، والإضافة كرجل صدق وقدم صدق، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

١٣) العرار بالفتح نبت طيب الرائحة

١٤) اخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وغيرهم عن مجاهد فى قوله تعالى: (ومن الاعراب من يؤمن إلى قوله . رحيم) قال: نزلت فى بنى مقر من مزينه

١٥) ولا يرد على صدق توبة هؤلاء الأعراب ومدح الرسول اياهم قوله تعالى:)الأعراب أشد كفرا ونفاقا) الآية فقد روى انها نزلت فى أسد وغطفان، كما لا يرد على صدق توبة الكثير منهم قوله تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون) الآية: وقوله: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية فإن هاتين الآيتين نزلتا فى حق طائفة قليلة من هؤلاء الأعراب لم يكونوا أخلصوا فى إيمانهم «رسالة الدكتور أحمد السيد على الكومى» تفسير سورة الفتح ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

١٦، ١٧) القربات كالقرب جمع قربة . بضم القاف . وهى فى المنزلة والمكانة كالقرب فى المكان، والقرابة والقربى فى الرحم، والأصل فى الكل واحد وهو الدنو من الشىء مطلقا، وجمعها باعتبار تعدد النفقات، ففيه إيماء إلى اخلاصهم فى كل فرد منها «وصلوات الرسول» عطف على قربات، أى وسببا لدعائه عليه السلام، وجوز عطفها على «ما ينفق» أى يتخذ ما ينفق وصلوات الرسول قربات.

١٨) الضمير فى «انها» أما للنفقة المعلومة مما تقدم، أو لما، التى هى بمعناها فلذا أنثه أو لمراعاة الخبر، وجوز ابن الخازن رجوعه للصلوات والأكثرون على الأول.

١٩) وهو أبلغ من مثل «يبشرهم وبهم برحمة منه» والسين لتأكيد الوعيد وتحقيقه.

٢٠) ذكره الألوسى جـ٣ صـ٣٥٨، صـ٣٥٩

٢١) أى كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله: «غفار غفر الله لهم، وأسلم سالمها الله» بل كانت الكثرة من هؤلاء هم المؤمنون ـ كما ذكر الدكتور الكومى فى رسالته ـ وان هذه الآية نزلت فى حق طائفة قليلة من هؤلاء الأعراب لم يكونوا خلصوا فى إيمانهم.

٢٢) مردوا: مرنوا عليه ودربوا به، ومنه شيطان مارد ومريد وهو الخبيث العاتى أو لجوا فيه وأبوا غيره، أو أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون.

٢٣) سورة محمد ٢٩ ، ٣٠

٢٤) رواه ابن أبى حاتم، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٧: ٣٣، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزى وهو ضعيف.

٢٥) تفسير المنار جـ١١ ص١٩ ، ٢٠

٢٦) الطبرى جـ١٤ صـ٤٤٥

٢٧) وهذا المعنى لا يؤديه قولك: خلطت العمل الصالح بالسيئ كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن، لأن هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئا واحدا أو كالشىء الواحد فلا يقول صاحبه: عندى ماء فرات ولا لبن محض، وأما الضرب الأول المراد من الآية فقد بقى فيه كل من النوعين ممتازا بنفسه، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما وعدم انفراد أحدهما دون الآخر وفيه تنبيه على نفى القول بالمحابطة ـ والواو العاطفة هى التى تؤدى هذا المعنى من الجمع، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التعدية بالباء إلى العطف.

٢٨) وهى وان كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوثين «ابن كثير جـ٢ صـ٣٨٥».

٢٩) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٤٥٠، ٤٥١

٣٠) المرجع السابق جـ١٤ صـ٤٥٣
٣١) تفسير الألوسى جـ٣ صـ٣٦٤
٣٢) تفسير الرازى جـ٤ ص٧٣٦ وفيه أيضا: قال المعتزلة: المراد من قوله (عسى الله أن يتوب عليهم) أنه يتقبل توبتهم، والجواب: ان الصوب من الظاهر انما يحسن إذا ثبت بالدليل انه لا يمكن اجراء اللفظ على ظاهره، فالدليل العقلى أنه لا يمكن اجراء اللفظ إلا على ظاهره، فكيف يحسن التأويل؟
٣٣) تفسير المنار جـ١١ص٣١
٣٤) طه ٨٢
٣٥) الأعراف ٥٦
٣٦) غافر
٣٧) وقال آخرون: ارجع الآيات قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه الغفور الرحيم) وإنما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من اسرافهم فى شهواتهم حتى كادوا يقنطون من رحمة ربهم لا للمصرين على ذنوبهم بغير مبالاة، لذلك قال بعدها (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له» إلى آخر الآيات.
٣٨) سورة هود ١١٤
٣٩) فالاستفهام على الأول لتقرير ما دل عليه القرآن، وكونه هو الذى حملهم على التوبة والاستفهام على الثانى تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة، وقبول التوبة عنهم: قيل إنه بمعنى قبولها منهم، نحو لا صدقة إلا من غنى ومن غنى، وقيل إن القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح، أى هو الذى يقبلها منهم متجاوزا عن ذنوبهم عفوا عنها وهذا أبلغ.
٤٠) التغابن ١٧
٤١) سورة البقرة ٢٤٥
٤٢) سورة آل عمران ١٣٥
٤٣) رواه أبو داود والترمذى عن أبى بكرة مرفوعا
٤٤) الفلو ـ كعدو ـ المهر أى ولد الفرس وفصل عن أمه والفصيل: ولد الناقة حتى يفصل عن أمه.
٤٥) الكشاف جـ١ صـ٥٦٧ والنسفى جـ٢ صـ١١٠
٤٦) هذا عطف على «خذ من أموالهم» وحذف متعلق العمل يدل على العموم، وقدره بعضهم أعلم ما شئتم.
٤٧) الحاقة ١٨
٤٨) الطارق ٩
٤٩) العاديات ١٠
٥٠) البقرة ١٤٣
٥١) النساء ٤١
٥٢) تفسير الرازى جـ٤ ص٧٣٦، ٧٣٧
٥٣) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى
٥٤) أخرجه الترمذى عن ابن عمر مرفوعا من طريق سليمان المدينى، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسليمان المدينى عندى هو سليمان بن سفيان أ.هـ قال المنار: وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم جـ١١صـ٣٤.
٥٥) رواه عنه أحمد فى السنة لا فى السند، ويستدل به الجهال على استحسان البدع الفاشية حتى فى العقائد الثابتة كبدع القبور التى كان يلعن النبى صلى الله عليه وسلم فاعليها فى مرض موته من بناء المساجد عليها، والصلاة إليها، وايقاد السرج عندها والطواف حولها، ودعاء أصحابها، والنذر لهم، والاستغاثة بهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.
٥٦) هذه الآية عطف على (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» قرا نافع وحمزة والكسائى وحفص «مرجون» بحذف الهزة للتخفيف، والآخرون «مرجأون» بالهمزة على الأصل، وهو اسم مفعول من ارجاه إذا آخره، وقيل لهما لغتان، رجاء يرجوه، وأرجاه يرجئه.
وسمتالمرجئة بهذا الاسم لأنهم لا يجزمون القول، ومغفرة التائب ولكن يؤخرونها إلى مشيئة ا لله، لتاخيرهم المعصية عن الاعتبار فى استحقاق العذاب حيث قالوا: لا عذاب مع الإيمان، فلم يبق للمعصية عندهم أثر، وفى المواقف: سوا مرجئه لأنهم يرجون العمل عن النية، أى يؤخرونه فى الرتبة عنها وعن الاعتقاد، أو لأنهم يعطون الرجاء فى قولهم: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.
٥٧) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٤٦٥
٥٨) يوسف ٥٦
٥٩) النجم ٣٩
٦٠) الزلزلة ٧، ٨
٦١) الأعراف ٥٦
٦٢) يوسف ٥٦
٦٣) المائدة ١١٨
٦٤) النساء ٤٨
٦٥) عبس ٣٨ ـ ٤٢

الفصل الثانى

مســجد الضــرار

قال الله تعالى: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا، وكفرا، وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون. لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم[1].

المناسبة - سبب النزول - الأغراض التى بنى من أجلها - صور متكررة له - أى المسجدين أسس على التقوى؟ من هؤلاء الرجال؟ وقفة أمام البنائين - ما يؤخذ من الآيات

المناسبة

نزلت هذه الآيات الأربع فى واقعة حال من مكايد المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وإنما تأخرت عن أمثالها مما نزل فى أعمال المنافقين، ووضعت هنا فى سياق توبة المذنبين من المؤمنين.. ما تقدم منها فقبل، وما تأخر فأرجئ:

١- الحكمة العامة فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد، وهى تجديد الذكرى والعظة، وما تقتضيه من التأثير والعبرة.

٢- ولأن قصة مسجد الضرار قصة بارزة فى غزوة تبوك، لذلك أفرد المنافقون الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين، وخصص لهم حديث مستقل بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس فى المجتمع المسلم حينذاك.

٣- ولعل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا أولئك المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار فى عملهم جاهلين مقاصدهم منه، فأريد بوضع القصة هنا، وايهام عطفهما على من أرجأ الله الحكم فى أمرهم، أن يتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم، ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم.

ويدلنا على هذا ما روى أن مجمع بن جارية كان إمامهم فى مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو

بن عوف أصحاب مسجد قباء عمرو بن الخطاب فى خلافته بأن يأذن لمجمع فيؤمهم فى مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل على، فوالله لقد صليت، والله يعلم أنى لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاما قارئا للقرآن، وكانوا شيوخا لا يقرأون من القرآن شيئا، فعذره وصدقه، وأمره بالصلاة بقومه.

سبب النزول

قال ابن كثير فى التفسير: سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب [٢] وكان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية، وله شرف فى الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه[٣]، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من احياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق [٤] قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى احداهن رسول الله وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار خاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله! ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومى بعدى شر! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدا طريدا[٥] فنالته هذه الدعوة .. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم»[٦] يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهمه بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، فيحتجوا بصلاته فيه على تقرير، واثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليالية الشاتية! فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «أنا على سفر، ولكن إذا رجعت إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل يخبره مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين

جماعة المؤمنين فى مسجدهم - مسجد قباء - الذى أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة «وكذلك روى - باسناده - عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة»(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مسلمة عن ابن اسحق، عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى من تبوك - حتى نزل بذى اوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أما قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وانا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه! فقال: «انى على جناح سفر وحالى شغل - أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولو قد قدمنا أتيناكم ان شاء الله فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذى اوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف، ومعن بن عدى - أو أخاه.. عاصم بن عدى - أخا بنى العجلان ، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه! فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القران ما نزل،.(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) إلى آخر القصة، وكان الذين نبوه اثنى عشرة رجلا: خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بن عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق - وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد، وهو إلى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بعنى عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية، ونبتل ابن الحارث، وهم من بنى ضبيعة، وبحزج وهو إلى بنى ضبيعة، ويجاد بن عثمان وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت وهو إلى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنز»(٨).

وروى أن هذا المسجد بناه جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف، حسدا لبنى عمهم عمرو بن عوف الذين كانوا قد بنو مسجد قباء.

وفى القرطبى وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقمامات.

الأغراض التى من أجلها بنى مسجد الضرار

وقد فضح الله نفاق هؤلاء المنافقين وكشف عن تدبيرهم السيىء، فإنهم ما بنوا هذا المسجد ليكون بيتا من بيوت الله، وإنما اتخذوه:

١- لمضارة المؤمنين من أجل مسجد قباء(٩)، أى محاولة ايقاع الضرر بهم، إذ بنوه بجوار مسجدهم مضارة لهم حتى لا يعمر مسجد قباء.

وروى الدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار من ضار ضر الله به، ومن شاق شاق الله عليه».

٢ـ الكفر [١٠] أو تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك، كجعله مأوى يأوى إليه المنافقون ويدارون نفاقهم بالإجتماع فيه والإستظلال بظله، وكتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم فى مسجد واحد وكالتشاور بينهم فى الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه.

٣ـ التفيرق بين المؤمنين .. حيث لا تجتمع جماعتهم فى مسجد واحد، بل يتوزعهم المسجدان المتجاوران، فيقل بذلك جمعهم، وتصغر فى الأعين جماعتهم.. الأمر الذى يخالف ما يدعو إليه الإسلام من جمع المسلمين فى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين لتتوحد مشاعرهم وتمتلىء العيون مهابة واجلالا لهم.. وفى ذلك من مقاصد الإسلام الإجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة.

ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لمقاصد الإسلام ومن الواجب على المسلمين فى كل بلد أن يصلوا الجمعة فى مسجد واحد إذا تيسر، فإذا لم يتيسر فليكن التعدد بقدر الحاجة، فإن تفرقوا عمدا وصلوا فى عدة مساجد ـ مع عدم الحاجة ـ كانوا خاطئين، وذهب بعض الأئمة أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لأهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع، وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قربة مقبولة عند الله إلا إذا كان بقدر رجاحة المؤمنين المصلين، وغير سبب لتفريق جماعتهم.

ومنه يعلم أن كثيرا من مساجد القريب بعضها من بعض ـ وكذلك اشباهها فى البلدان الأخرى ـ لم يبن لوجه الله تعالى، بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأمراء والأغنياء، ولتخفيف الضرائب على الأثرياء.

٤ـ الارصاد [١١] لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد.. أى الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيىء محاربا، فيجد مكانا مرصدا له، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه وهم هؤلاء المنافقين الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك: وليكون راية منصوبة لأهل النفاق والضلال حيث لا يخطئهم أن يجدوا فيه فى أى وقت من هم على شاكلتهم فى نفاقهم وضلالهم.

واتفق المفسرون على أن الذى أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض هو أبو عامر الفاسق كما تقدم فى سبب النزول.

فعل المنافقون هذا كله، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبررون موقفهم ويشرحون الدوافع التى من أجلها اقاموا هذا المسجد، مؤكدين كلامهم بالإيمان الغليظة، انهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة أو الخطة الحسنى التى تفوق غيرها فى الحسن، وهى ما يراد ببناء المساجد من عبادة الله فيها، والرفق بالمسلمين، وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجزوالضعف ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويصلى لهم

فيه.. والمنافقون هكذا دائما يتخذون ايمانهم جنة يحتمون بها من نظرات الإتهام التى يرمون بهما أو يقدرون أنهم يرمون بها من كل عين تنظر إليهم (اتخذوا إيمانهم جنة)[١٢] وقد فضحهم الله وأخزاهم وكذبهم بما كشف من سوء تدبيرهم.. (والله يشهد انهم لكاذبون) فى قولهم حانثون فى يمينهم.. وصدق الله العظيم، وكذب المنافقون المفترون.

نهى الرسول عن الصلاة فيه

ولذلك نهى الله النبى الكريم - والمسلمون تبع له - أن يلم بهذا المسجد أو أن يتلبث عنده، فإنه وإن أخذ سمت المساجد وسمى أسمها فلن يشفع له ذلك فى أن يكون على طهر المساجد وقدسيتها، لما وسمه به المنافقون من دنس ورجس.. فهذا البناء لا يمثل من المساجد إلا وجهه الظاهر، أما باطنه فكفر ونفاق وضلال.. (لا تقم فيه أبدا).

وهو نهى عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الأبد الذى يستغرق الزمن المستقبل وتفسير القيام هنا بالصلاة مروى عن ابن عباس، وهو معهود فى التنزيل، كقوله تعالى (وقوموا لله قانتين)[١٣] وقوله: (قم الليل إلا قليلا)[١٤].

والنهى عن القيام المطلق يتضمن النهى عن القيام للصلاة، ولكنها هى المقصودة بالنهى لطلبهم لها منه صلى الله عليه وسلم.

صور متكررة لمسجد الضرار

هذا المسجد - مسجد الضرار - الذى اتخذ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيدة للإسلام والمسلمين، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين، ولا الكفر بالله، ولا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة الكائدين لها فى الظلام، والا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين.. هذا المسجد انما يتخذ فى صور شتى، تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين:

١. تتخذ فى صورة نشاط ظاهره للرسلام، وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه وتمويهه وتمييعه.

٢. تتخذ فى صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها، وهى ترمى هذا الدين!

٣. وتتخذ فى صورة تشكيلات، وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخذر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحى، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب التى تخبر أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق![١٥] وتتخذ فى صور شتى كثيرة.

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وانزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها.. ولنا أسوة حسنة فى كشف مسجد الضرار على عهد رسول لاله صلى الله عليه وسلم بذلك البيان القوى الصريح.

شرط المسجد الذى يصلى فيه:

لقد أمر الله رسوله أن لا يقوم فى مسجد الضرار مصليا، وأن يقوم فى المسجد الأول الذى

أقيم على التقوى من أول يوم، والذى يضم رجالا يحبون أن يتطهروا «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»[١٦]

ان مسجدا قصد ببنائه من أول يوم شرع فيه بالبناء، أو من أول يوم وجد فى موضعه[١٧] تقوى الله تعالى باخلاص العبادة له، وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف، والتعاون على البر، والتقوى، هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصليا بالمؤمنين من غيره، ولاسيما ذلك المسجد الذى وضع أساسه على المقاصد الأربعة الخبيثة التى وجدت فى مسجد الضرار.

أى المسجدين أسس على التقوى؟

واختلف أهل التأويل فى المسجد الذى عناه بقوله: «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم» قال بعضهم: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه منبره، وقبره اليوم وقد صح فى أحاديث رواها الإمام أحمد، ومسلم، والترمذى، والنسائى وغيرهم أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة.. ففى رواية مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه، فقلت يا رسول الله، أى المسجدين الذى أسس على التقوى؟ فأخذ كفا من الحصباء، فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» وفى رواية لأحمد عنه وعن سهل بن سعد: «هو مسجدى هذا» وفى رواية تفرد بها أحمد عن أبى «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا» وأخرج الطبرى ـ بمسنده ـ عن عثمان بن عبيد الله قال: أرسلنى محمد بن أبى هريرة[١٨] إلى ابن عمر أسأله عن المسجد الذى أسس على التقوى أى مسجد هو.. مسجدكم أو مسجد قباء؟ قال: لا مسجد المدينة، وعند الطبرى أيضا، اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد النبى، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه: فقال: «هو مسجدى هذا»[١٩] وقال آخرون: بل عنى بذلك مسجد قباء، روى ذلك عن ابن عباس وعروة، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «صلاة فى مسجد قباء كعمرة».

قال الترمذى: لا نعرف لأسيد هذا شيئا يصح غير هذا الحديث، وفى معناه ما أخرجه أحمد ومسلم عن سهل بن حنيف، وأخرج ابن سعد عن ظبير بن رافع الحارثى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى فى مسجد قباء يوم الاثنين والخميس انقلب بأجر عمرة».

الترجيح: وكما اختلفوا فى المسجد الذى أسس على التقوى، اختلفوا كذلك فى الترجيح أو الجمع بين الأدلة:

١ـ قال الألوسى[٢٠]: والجمع فيما أرى بين الأخبار، والأقوال متعذر، وليس عندى أحسن من التنقير عن حال تلك الروايات صحة وضعفا، فمتى ظهر قوة احدهما على الآخر عول على الأقوى.

٢ـ وقال الطبرى[٢١]: وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب قول من قال هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله.

٣ـ وقال المنار [٢٢]: ولفظ الآلية لا يمنع من إرادة كل من المسجدين، لأن كلا منهما قد بناه النبى صلى الله عليه وسلم، ووضع أساسه على التقوى من أول يوم.

٤(والأرجح عندى أن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء:

أ. لأن سياق الآية القرآنية إنما هو فى مسجد قباء، وهو الذى قصد أهل مسجد الضرار أن يصدوا الناس عنه بمسجدهم.

ب ـ ويمكن الإستناد إلى قوله تعالى: (من أول يوم) ومسجد قباء هو الذى أسس بالمدينة أول يوم، فإنه بنى قبل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم.

جـ ـ وقلوله تعالى: (فيه) وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين فهو مسجد قباء.. والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال: نزلت هذه الآية فى أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

د ـ ولا تنافى بين الآية والأحاديث السابقة التى حددت مسجد المدينة لهذا الأمر، لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد المدينة بطريق الأحرى والأولى، وهذا الحديث ذكر فى معرض المفاضلة، وليس من شك فى أن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وهو خير المساجد بعد المسجد الحرام.[٢٣]

هـ ـ وقد ورد فى مسجد قباء أن جبريل عليه السلام هو الذى أشار للنبى صلى الله عليه وسلم إلى موضع قبلته، ولما كان مسجد قباء أول مسجد بنى فى الإسلام وجعل لعموم الناس من هذه الأمة، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحمل له ذكريات جميلة فى نفسه، فقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه كان يزوره كل يوم سبت، تارة راكبا وتارة ماشيا.

من هؤلاء الرجال؟

وأيا ما كان المسجد ففى التعبير تنويه به وتكريم له، ورفع لقدره، وقدر الذين بنوه والذين يلقون الله فيه، بقدر ما هو ايذاء لأصحاب مسجد الضرار، وتشنيع عليهم وعلى هذا البناء الذى رفعوه فهدمه الله عليهم، فهم رجس يحبون النجس فى أبدانهم وأفكارهم..

على حين نرى الذين يلتقون فى مسجد التقوى، يقيمون فى مكان طاهر تؤدى فيه عبادة خالصة لله من شأنها أن تطهر أهلها الذين يداومون عليها ويقيمونها بقلوب مؤمنة خالية من الرياء والنفاق .. (فيه رجال يحبون أن يتطهروا)..

فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف، واقامة الصلاة وذكر الله، وتسبيحه فيه بالغد والآصال، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من دون الآثام، أو التقصير فى إقامة دعائم الإسلام، ومن لوازم الطهارة المعنوية طهارة الثوب، والبدن الحسية، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية، والبدنية، ووردت الروايات بكل منهما، ولكل من الإستعمالين موضع من التنزيل، والجمع بينهما هو الأولى.

(والله يحب المطهرين) المبالغين فى الطهارة الروحية، والجسدية، وإنما يبالغون فيها إذا أحبوها، وحينئذ تكمل انسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد، ولا يطيق نجاسة البدن وقذارته إلا

ناقص الفطرة، والأدب، وأنقص منه من يطيق حبث النفس بالإصرار على المعاصى والعادات القبيحة، والتخلق بالأخلاق الذميمة، دع رجس المنافقين المرائين فى الأعمال، الأشحة الباخلين بالأموال.

فمعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء، ومعنى محبة الله اياهم أنه يرضى عنهم وحسن إليهم.

وقد وردت روايات تعين الرجال وتحدد الطهارة التى كانوا يحبونها، نذكر بعضها: ذكر السيوطى فى الدار المنثور عدة روايات حاصلها أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية؟ فأجابوه بأنهم يستنجون بالماء، وفى بعضها أنهم يتبعون الحجارة بالماء، وذكر أن هذه الآية لما نزلت (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور، فما طهوركم هذا؟).

قالوا: نتوضىء للصلاة ونغتسل من الجنابة، قال: «فهل من ذلك غيره؟» قالوا: ان أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال: «هو ذلك فعليكموه»[٢٤] وعن عويم بن ساعده - وكان من أهل بدر - قال قال رسول الله صل بالله عليه وسلم لأهل قباء: «انى أسمع الله قد أثنى عليكم الثناء فى الطهور، فما هذا الطهور؟ قالوا: يا رسول الله ، ما نعلم شيئا إلا أن جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط غسلنا كما غسلوا[٢٥] وفى رواية عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية (ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟) فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال مقعدته - فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «هو هذا»[٢٦] وروى صاحب الكشاف: أنه لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباد، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «مؤمنون أنتم» فسكت القوم، ثم أعادها، فقال عمر: يا رسول الله، انهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال عليه السلام: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال «أتصبرون على البلاء؟» قالوآك نعم، قال: «أتشكرون فى الرخاء؟» قالوا: نعم، قال عليه السلام: «مؤمنون ورب الكعبة» ثم قال: «يا معشر الأنصار ان الله أثنى عليكم، فما الذى تصنعون فى الوضوء؟» قالوا: نتبع الماء الحجر، فقرأ عليه السلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا)[٢٧].

الفرق بين المسجدين

ثم يعرض السياق الفرق بين المسجدين: مسجد قباء، ومسجد الضرار، فى وضع يواجه فيه أحدهم الآخر، فيكشف ذلك عن مدى ما بينهما من تفاوت، هذا عذاب فرات، وهذا ملح أجاج، هذا طيب أطيب الطيب، وهذا خبيث أخبث الخبث، والضد إذا قورن بضده زاد كل منهما فى الصفة الغالبة زيادة لا ترى إلى حيث يتقابل مع ضده، فيزداد الحسن حسنا وروعة، ويزداد القبيح شناعة وقبحا، وبضدها تتميز الأشياء، وبالتالى يظهر الفرق بين أهل المسجدين فى مقاصدهما منهما: أهل مسجد الضرار الذين زادوا به رجسا إلى رجسهم، وأهل مسجد

التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم.

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله، ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين)(٢٨).

أى هذين الفريقين خير؟ وأى هذين البناءين أثبت؟ أمن ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله وعلم منه بأنه بناءه لله طاعة، والله به راض، أم من ابتداه بنفاق، وضلاله وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدرى متى يتبين له خطأ فعله وظهور ذنبه فيهدمه، كما يأتى البناء على جرف ركية، ولا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، ترى به التراب متناثرا لا تلبثه السيول أن تهدمه، وتنشره فانتثر الجرف الهارى ببنائه فى نار جهنم (٢٩) وهو تصوير للعاقبة التى ينتهى إليها هذا المسجد ـ مسجد الضرار ـ وأهله الذى بنوه وأنهم إذ بنوه على نفاق، وضلال، وزيف فهو بناء على خواء، على شفا جرف هار، وإذ أنه ينهار فسينهار بهم فى نار جههم، وهذا التعبير يضرب مثلا لما كان فى منتيه الضعف والاشراف على الزوال وهو من أبلغ الأمثال لمنتهى الهوى، والإنحلال.

والخلاصةك أفمن كان مؤمنا صادقا يتقى الله فى جميع أحواله، ويبتغى رضوانه فى أعماله بتزكية نفسه بها، أفمن كان كذلك خير عملا وأفضل عاقبة، أمن هو منافق مرتاب، مراء كذاب، يبتغى بأفضل أعماله الضر والضرار، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار، وتفريق جماعة المؤمنين الأخيار والارصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الأشرار، وما يكون من عاقبة ذلك فى الدنيا من الفضيحة والعار، والخزى والبوار، وفى الآخرة من الانهيار، فى جهنم وبأس القرار.

وقد ذكر فى وصف بنيان الفريق الأول ـ وهم المؤمنون ـ المشبه دون المشبه به لأنه المقصود بالذات، ولم يذكره فيما قبله من عملهم إلا المبالغة فى الطهارة، وذكر من وصف بنيان الفريق الثانى الهيئة المشبه بها دون المشبه.. لأنه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها، وهذا من دقائق ايجاز القرآن الكريم.

والمراد بالمثل هنا: بيان ثبات الحق الذى هو دين الإسلام وقوته، ودوامه، وسعادة أهله به، وذكره بأثره وثمرته فى عمل أهله، وجماعها التقوى وجزائهم عليه، واعلاء رضوان الله تعالى.. وبيان ضعف الباطل، واضمحلاله، ووهيه، وقرب زواله، وخيبة صاحبه، وسرعة انقطاع آماله، وضر أهله المنافقين، وبشر أعمالهم، ما اتخذوه من مسجد الضرار للمفاسد الأربعة السابقة، فهم بهذا قد ظلموا أنفسهم، وقد مضت سنته تعالى ـ فى ارتباط العقائد والأخلاق بالأعمال ـ بأن الظالم لا يكون مهتديا فى أعماله إلى الحق والعدل، فضلا عن الرحمة والضل (والله لا يهدى القوم الظالمين) ولا أظلم فى الناس من المنافقين.

النوايا السيئة تدور آثارها حتى الموت

وقد نفى القرآن عن مسجد الضرار ككل ما تتسم به المساجد حتى اسمه، فلم يعد مسجدا بعد أن فضحه الله وفضح أهله، وكشف عن الوجه الذى قام عليه، والغاية التى بنى من أجلها، فهو الآن بنيان، مجرد بناء من حجر وطين، لا يناله حتى شرف هذا الاسم الزائف الذى أعطوا

اياه.. وسيظل هذا البناء مبعث شك، وارتياب فى قلوب الذين بنوه لا يستطيعون فكاكا منه (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم[٣٠] والله عليم حكيم).

والظاهر أن ارتيابهم فيه كان منذ بنوه إلى أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه فهدم، وذلك أنهم لسوء نيتهم فى بنائه فى بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله ورسوله على مقاصدهم السوء فيه، وكان ذلك شأن سائر اخوانهم، وهو مثل (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم)[٣١] وأجد ربهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتيابا وأكثر اضطرابا بما يحذرون من عقابهم فى الدنيا، وان يستمر ذلك ملازما لهم (الا أن تقطع قلوبهم) أى إلا أن تقطع الريبة قلوبهم افلاذا، فتتقطع بها فتكون جذاذا.

قال صاحب الكشاف [٣٢]: لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم، ولا يضمحل أثره (الا أن تقطع قلوبهم) قطعا، وتفرق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه، وأما مادامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة عنهم، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها، وما هو ماذن منه بقتلهم، أو فى القبور، أو فى النار وقيل معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم.

(والله عليم) بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار من شكهم فى دينهم، وما قصدوا فيما بنوا، وما إليه صائر أمرهم فى الآخرة، وفى الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم (حكيم) فى تدبيره لهم ولجميع خلقه، فحكم فى أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شىء.

تعليق وتعميق

والتعبير القرآنى الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة تنبىء عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ويراد به ما أراد الضرار، وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفى ورائه نية خبيثة، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين.

فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسى الراسخ المطمئن.. ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر! لنشهد الحركة السريعة العنيفة فى بناء الضرر.. انه قائم على شفا جرف هار.. قائم على حافة جرف منهار.. قائم على قربة مخلخلة مستعدة للانهيار.. إننا نبصر باللحظة يتأرجع، ويتزحلق، وينزلف!.. انه ينهار! إنه ينزلق! إنه يهوى! إن الهوة تلتهمه! ياللهول! إنها نار جهنم.

(والله لا يهدى القوم الظالمين) الكافرين المشركين.. الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين!

أنه مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرترسمه وتحركه بضع كلمات!.. ذلك ليطمأن دعاة الحق على مصير دعوتهم، فى مواجهة دعوات الكيد، والكفر، والنفاق!

وليطمأن البناة على أساس التقوى كلما واجهوا البناء على الكيد. والضرار!

ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار، فى نفوس بنائه الأشرار.. لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم».

لقد انهار الجرف المنهار، انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه، انهار به فى نار جهنم وبأس القرار!

ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته، بقى فيها ريبة، وشكا، وقلقا، وحيرة، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر، إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور! وإن صورة البناء المنهار، لهى صورة الريبة والقلق وعدم الإستقرار..

تلك صورة مادية، وهذه صورة شعورية .. وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية العجيبة التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد.. وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان.. فمازال صاحب الكيد الخادع مزلزل العقيدة، حائر الوجدان، لا يطمئن، ولا يستقر، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها، ولا استقرار.

وهذا هو الإعجاز الذى يرسمه الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى فى مثل هذا التناسق، بمثل هذا اليسر فى التعبير، والتصوير على السواء.

وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآنى فى كشف مسجد الضرار، وأهله، وفى تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانية الوضاحة، وفى كشف الطريق للحركة الإسلامية، ورسم طبيعة المجال الذى تتحرك فيه من كل جوانبه.. لقد كان القران الكريم يعمل فى قيادة المجتمع المسلم، وفى توجيهه، وفى توعيته، وفى إعداده لمهمته الضخمة.

ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس فى مجاله الحركى الهائل، ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة الضخمة فى مثل هذا المجال.

ما يؤخذ من قصة مسجد الضرار

١ـ تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار، وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضرارا وتفريقا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين.. وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله.. أما بهدم وتحريقه، وأما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له.. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها اندادا من دون الله لحق بذلك، وكذلك محال المعاصى، والفسوق، وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات.. وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بحرق بيت سويلم اليهودى لما كان المنافقون يجتمعون فيه لتثبيط الناس عن الخروج لتبوك، كما حرق عمر بن الخطاب قرية بأكملها يباع فيها الخمر، وحرق حانوت رويشد الثقفى، وسماه فويسقا، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة، ومنعه من ذلك وجود النساء، والذرية، كما أخبر هو عن ذلك.

٢ـ ان الوقف لا يصح على غير بر، ولا قربة، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن فى المسجد، نص على ذلك أحمد،

وغيره. فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجد، وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعنا معا لم يجز، ولا يصح هذا الوقف، ولا تصح الصلاة فى هذا المسجد، لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ولعن من اتخذ القبر مسجدا أو أقود عليه السرج.

٣ـ لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه، لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى حينئذ، وكذلك قالوا: لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثانى، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه، وقد أحرق النبى صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وهدمه، وأسند الطبرى عن شقيق:

أنه جاء ليصلى فى مسجد بنى عامر وجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: ان مسجد بنى فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، لأنه بنى على ضرار، قال علماؤناك وكل مسجد بنى على ضرار، أو رياء وسمعة، فهو فى حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه.

٤ـ قال العلماء: إن من كان إماما لظالم لا يصلى وراؤه، إلا أن يظهر عذره أو يتوب فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلى بهم فى مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين!

أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين، لا تعجل على، فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضروا عليه، ولو علمت ما صليت بهم فيه، كنت غلاما قارئا للقرآن، وكانوا شيوخا قد عاشوا على جاهليتهم، وكانوا لا يقرأون من القرآن شيئا، فصليت ولا أحسب ما صنعت اثما، ولا أعلم بما فى أنفسهم، فعذره عمر، وصدقه، وأمره بالصلاة فى مسجد قباء.

٥ ـ إذا كان المسجد يهدم مادام فيه ضرر بغيره، فما ظنك بسواه، بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم، فمن أدخل على أخيه ضررا منعه منه.

٦ـ فيه دليل فى قوله تعالى:(وتفريقا بين المؤمنين) على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب، والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد.

٧ـ تفطن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال: لا يصلى جماعتان فى مسجد واحد بإمامين وروى عن الشافعى المنع حيث كان تشتيتا للكلمة، وابطالا لهذه الحكمة، وذريعة لمن يريد الإنفراد على الجماعة أن يقيم جماعته، فيقع الخلاف، ويبطل النظام.

٨ـ فيه دليل على حب الله لمن أحب الطهارة، وآثر النظافة، وهى مروءة آدمية ووظيفة شرعية.. وفى الترمذى عن عائشة أنها قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإنى استحييهم، قال: حديث صحيح، وثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الماء معه فى الإستنجاء، فكان يستعمل الحجارة تخفيف والماء تطهيرا.

٩ـ (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله) فى الآية دليل على أن كل شىء ابتدئ بنية تقوى

الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى، ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)

١٠. قال ابن كثير: فيه دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله، وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على اسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

١١. ودل هذا على أن اكمال الطهارة يسهل القيام بالعبادة، ويعين على اتمامها واكمالها.

١٢. وفيها دليل على سنية الجمع بين الماء والحجر.

١٣. ويستفاد منه النبى عن الصلاة فى مساجد بنيت مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى، وألحق بذلك كل مسجد بنى بمال غير طيب.

١٤. قال الألوسى: ويستفاد من الآية صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم فى التاريخ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة، لأنه الوقت الذى أعز الله فيه الإسلام، والحين الذى أمن فيه النبى صلى الله عليه وسلم، وبنيت المساجد وعبد الله تعالى كما يجب.

١٥. قال ابن حجر فى الزواجر: وتجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التى على الفور إذ هى أضر من مسجد الضرار لأنها أسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر ولا يصح وقفه ونذره(٢٣).

الهوامش

١) «والذين» بالواو، والجملة ابتدائية معطوفة على ما قبلها من السياق فى الجملة وعليها تنظيم وجوه المنافقين فى سلك واحد على تقدير ومنهم الذين، والأفصح أن يكون لفظ «الذين» منصوبا على الاختصاص للذم، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف، لأنها قصة بحيالها والمنصوبات المتعاطفة مفعولات لأجله تكشف عن السبيل الذى لأجله بنى هذا المسجد، وهو للمضارة لا للنفع، وللكفر لا للإيمان، وللتفريق لا للتجميع ولايواء من حارب الله ورسوله لا لإيواء المؤمنين.

٢) هو والد حنظلة غسيل الملائكة رضى الله عنه، وسمى بذلك لأنه استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة وذلك أنه ألم بأهله ليلة عرسه، فدعا داعى الجهاد إلى أحد مما انساه الغسل وأعجله عنه، فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته «عن الاستيعاب».

٣) قال للنبى صلى الله عليه وسلم عند مقدمه المدينة: ما هذا الدين الذى جئت به؟ قال عليه السلام: «الحنيفية البيضاء دين إبراهيم عليه السلام» قال: فأنا عليها. فقال النبى: «ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية» فسماه الناس أبا عامر الكذاب، وسماه النبى عليه السلام الفاسق

٤) قال للنبى: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم

٥) وفى رواية قال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا، فأمن النبى صلى الله عليه وسلم، فمات هو كذلك طريدا شريدا وحيدا بقنسرين «كورة بالشام»

٦) فى رواية ابن كثير هذه أنه ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد، وعند البغوى وأكثر الرواة: انه ذهب إليه بعد حنين، وذلك هو الذى يتناسب مع سير الأحداث ليمكن الرب طبينه وبين مسجد الضرار، قال البغوى.. إنه مازال يقاتل النبى صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه المشركين إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن بأس وخرج هاربا إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم، إلى آخر القصة.

٧) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٨٧، ٣٨٨

٨) هذا الأثر فى الطبرى برقم ١٧١٨٦ ص٤٦٨ جـ١٤، وفى سيرة ابن هشام أربعة ١٧٣، ١٧٤

٩) الذى بناه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجموا وقبل وصوله إلى المدينة.

١٠) لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبى صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد، وقيل: وكفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم وبما جاء به.

١١) هو الانتظار، أو مع العداوة، أو الاعداد «يقال رصدته أى قعدت له على طريقه أترقبه، وراصدته راقبته، وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد» أ.هـ ملخصا من الأساس.

١٢) المنافقون ٢

١٣) البقرة ٢٣٨

١٤) المزمل ٢

١٥) حدثنا مسئول بمجمع البحوث الإسلامية أن فتاة مسلمة كانت تعمل فى الصليب الأحمر. ظنوها مسيحية. قد أخبرت أنها سمعتهم يتحدثون عن الإعلان الذى أرسلوه هم لينشر فى الصحف، والذى مفاده: ان الإسلام بخير فى افريقيه، وان المسيحية عاجزة عن الانتشار. فسألتهم عن فائدة هذا الإعلان فأخبروها أن ذلك يحقق هدفين:

١٦) استنامة المسلمين واستكانتهم وتثبيطهم عن نشر دينهم هناك.

١٧) استجلاب المزيد من الامدادات الآتية من أوروبا وأمريكا.

١٨) اللام الداخلة على «مسجد» للقسم أو للابتداء.. والتأسيس: وضع الأساس الأول للبناء الذى يقوم عليه ويرفع، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء.. والتقوى: الاسم الجامع لها يرضى الله ويقى من سخطه.

١٩) قال الأكثرونك ان «من» فى «من أول يوم» بمعنى «منذ» لأن منذ هى التى تدخل على الزمان، والتحقيق أن «من» تدخل على الزمان والمكان، قال ابن مالك: بعض يبين وابتدئ فى الأمكنة .. بمن وقد تأتى لبدء الأزمنة

٢٠) ارتبنا فى قوله: «محمد بن أبى هريرة» كل الارتياب، وأرجح أنه «محررين أبى هريرة» ولم أجد لأبى هريرة ولد يقال له محمد، بل ولده هم: المحرر وعبد الرحمن وبلال.

٢١) اخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧: ٣٤ وقال «رواه أحمد والطبرانى باختصار، ورجالهما رجال الصحيح» وقال القرطبى: روى الترمذى نحو حديث الطبرى.

٢٢) تفسير الألوسى جـ٣ صـ٣٦٩

٢٣) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٤٧٩

٢٤) تفسير المنار جـ١١ صـ٤٢

٢٥) تفسير ابن كثير والبغوى جـ٤ صـ٢٤٢، البداية والنهاية جـ٣ صـ٢٠٩

٢٦) رواه ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم والدراقطنى وغيرهم عن طلحة بن نافع قال: حدثنى أبو أيوب وجابر عبد الله وأنس بن مالك رضى الله عنهم الحديث.

٢٧) رواه الطبيرى فى تفسيره، وذكره ابن كثير فى تفسيره ٤: ٤١ ثم قال: «ورواه ابن خزيمة فى صحيحه» وخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد وقال: «رواه أحمد والطبرانى فى الثلاثة، وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه وابن معين وأبوزرعه ووثقه ابن حبان»

٢٨) رواه الطبرانى بأسناده، وروى نحوه أبو داود والترمذى وابن ماجه

٢٩) ذكره الكشاف ولم يخرجه كعادته جـ١ صـ٥٦٨، قال العراقى معلقا على الأحياء جـ٤ صـ٦١ حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار.. الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

٣٠) ورد بصيغة الاستفهام التقريرى لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير، والبنيان مصدر كالعمران والغفران، ويراد به المبنى من دار أو مسجد، وهو المتعين هنا. والشفا: الحرف والشفير للجرف والنهر وغيره. والجرف: جانب الوادى ونحوه الذى يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلا للسقوط والهار: الضعيف المتصدع المتداعى للسقوط. وأصله هائر من هار يهور فهو هائر وهار ومثله شائك وشاك. والتقدير: انهار الجرف بالبنيان فى النار، أو انهار من أسس بنيانه على غير تقوى.

٣١) اختلفوا فى قوله تعالى: (فانهار به فى نار جهنم) هل ذلك حقيقة أو مجاز؟ قيل: حقيقة لقول جابر رضى الله عنه: رأيت المسجد الذى بنى ضرارا يخرج منه الدخان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. وهذا خبر صحيح الاسناد خرجه السيوطى فى الدار المنثور وقال: «اخرجه مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه وابن مردويه» وقيل: مجاز والمعنى صار البناء فى نار جهنم فكأنه انهار إليه مثل «فأمه هاوية»

٣٢) والمراد شكهم فى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم المضمر فى قلوبهم، وهو عين النفاق، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة فى كونه سببا لها. =

= والاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال، وما بعد إلا فى محل النصب على الظرفية أو الحالية، أى ريبة فى كل وقت الا وقت تقطع قلوبهم، أو فى كل حال إلا حال تقطعها، أى تفرقها وخروجها عن قابلية الادراك والاضمار، وهذا كتابة عن تمكن الريبة بحيث لا تزول منها، وهو فى غاية المبالغة.

٣٣) سورة التوبة آية ٦٤

الفصل الثالث

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

قال الله عز وجل: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم).

قبل أن نتحدث عن من هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أرى من الخير أن نسوق العامة موجزة عن المهاجرين والأنصار بعامة، وعن الاخاء الذى أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم.

المهاجـــرون

وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فرار بدينهم تاركين الأهل والولد والدور والمال، مجردين من كل شيء إلا من الإيمان، ومنهم من اصطحب معه زوجه وولده، ومنهم من تركهم، وقد عانى المهاجرون فى مبدأ قدومهم شدة ومرضا وغربة ووحشة، ولكنهم لم يلبثوا - بفضل اخوانهم الأنصار - أن تعودوا على جو المدينة، وأن اندمجوا فى المجتمع الجديد، وصارت المدينة وطنا لهم، وأبدلهم الله بالأهل أهلا، وبالمال مالا.

وكانت الهجرة قبل فتح مكة واجبة، وفرضا على المسلمين من أهل مكة لنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ومواساته بالنفس، وليكون لهم فى تجمعهم فى مكان واحد كيان وقوة، ولذلك انحى الله باللائمة والتوبيخ على من استطاع الهجرة ولم يهاجر، ولم يعذر إلا المستغفر الذين ليست لهم قدرة عليها، فقال سبحانه (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيهم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا).[1]

أما بعد الفتح فلم تعد الهجرة واجبة، ففى الحديث المتفق عليه: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» ومع هذا فقد أبى الله ورسوله إلا أن تكون المدينة هى الوطن للمهاجرين، فحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم على من هاجر قبل الفتح أن يستوطن مكة بعد الفتح، وأباح لمن قصدها لحج أو عمرة أن يقيم بها بعد أداء نسكه ثلاثا لا يزيد عليها.

ففى الحديث المتفق عليه - واللفظ لمسلم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا» ولذلك رثى النبى صلى الله عليه وسلم لسعد بن خوله [٢] أن مات بمكة[٣] عام حجة الوداع.

والحكمة فى تحريم الاقامة للمهاجر بمكة بعد الفتح خشية أن يعتبر هذا رجوعاً فى هجرتهم، لأنهم تركوا ديارهم وأهليهم، وأموالهم، لله، وفى سبيل نصرة رسول الله، فأراد الله سبحانه أن يستمر تركهم لها ابتغاء مرضاته، ليكون شاهد صدق على قوة اخلاصهم ،وعظمة نفوسهم، وسمو أخلاقهم، وليكونوا قدوة حسنة لمن يجىء بعدهم.

إن من نترك شيئا لله لا ينبغى أن يرجع إليه.. هذا إلى أن المدينة - دار الهجرة - قد أضحت قلب الإسلام النابض، ومركز الدعوة الإسلامية، ففيها استقر الرسول بعد الهجرة، والخلفاء الراشدون من بعده، فما أشد الحاجة إلى أن يبقى فيها السابقون الأولون من المهاجرين من قريش التى تدين لها العرب كلها.. فمن ثم حرم على المهاجرين الأولين الإقامة بمكة بعد الفتح، ولو أبيح لهم الرجوع لنزع الكثيرون منهم إلى الرجوع إليها، فإن النفوس البشرية مجبولة على حب الوطن والرجوع إليه إذا سنحت الفرصة، لذلك اقتضت حكمة الله سبحانه - ولله الحجة البالغة - أن يحرم ذلك ليبقى المهاجرون مع الأنصار فى البلد الطيب «طيبة» الذى أوى الإسلام، ومنه انتشرت دعوة الإسلام وعم نوره الخافقين، وهو من أسمى أنواع الوفاء.. ولما مرض سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بمكة فى حجة الوداع خاف أن يموت، فطمأنه الرسول وأشار له إلى أنه ستطول به الحياة وقال: (اللهم أمض لأصحابى هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم)[٤].

ولهذه المعانى كان النبى صلى الله عليه وسلم يرغب أصحابه فى سكن المدينة، ولا يتحولون عنها إلا لضرورة فقد قال رسول الله صلى الله عليم وسلم «انى أحرم ما بين لابتى[٥] المدينةك ان يقطع عضاها [٦] أو يقتل صيدها»[٧]..

وقالك «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوارئها وجهدها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة، ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح فى الماء».

الأنصـــار

هم أولئكم الذين استجابوا إلى الإسلام من أهل المدينة أوسها، وخزرجها فى بيعة العقبة الأولى والثانية، وقد كان يساكنهم بالمدينة جالية كبيرة من اليهود الذين نزحوا إليها من الشام مشردين مضطهدين، وكان بينهم وبين اليهود، وقائع وحروب، فكانوا إذا انتصفوا من اليهود وأذلوهم قالوا لهم: لقد قرب عهد نبى يبعث من العرب وسننطوى تحت لوائه، ونقتلكم معه قلت عاد أرم، فلما دعا النبى صلى الله عليه وسلم أهل المدينة فى موسم الحج قالوا فيما بينهم: هذا هو الذى بشرت به يهود، فلا يسبقتكم إليه، فكان هذا من أسباب كرامة الله لهم بالمسارعة إلى الإسلام، ونشره بالمدينة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد كانت بين الأوس والخزرج فى الجاهلية حروب، وأيام مشهودة كيوم بعاث، ولذلك لما عرض النبى عليهم الإسلام قالوا : انا تركنا قومنا، وبينهم ما بينهم من العداوة والبغضاء، فان يجمعهم الله بك فلن يكون أحد أعز منك فى العرب.

وقد حقق الله الرجاء، فقد صاروا بعد أن أنعم الله عليهم بالإسلام اخوانا متحابين متآلفين، وكان للإسلام من هذا الغنم والخير الكثير، وقد ذكرهم الله بهذه النعمة فى قوله عز شأنه:(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته اخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)[٨].

وقد قام السادة الأنصار تجاه اخوانهم المهاجرين من ضروب المواساه والاكرام والايواء والايثار ما استحقوا به أن ينزل الله فيهم قرأنا يتلى إلى يوم الدين، وصاروا مثلا عاليا يضرب فى الأولين والآخرين.

مآثر الأنصار الخالدة

ان المتأمل فيما قام به الأنصار رضى الله عنهم تجاه النبى صلى الله عليه وسلم واخوانهم المهاجرين ليتعجب مما فعله هؤلاء القوم.. ولو ذهب يتلمس الأسباب فلن يجد يجد إلا سبب الأسباب وهو أن ذلك كان بفضل الله ورحمته، لا يصنع بشر وحكمته وسياسته، وصدق الله حيث يقول :(لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)[٩] فلم يلتق النبى صلى الله عليه وسلم بالأنصار إلا فى سويعات تحت جنح الليل، واكتفى فيها بعرض الإسلام، وأخذ العهود والمواثيق، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذى فعله بسبب توبة النبى صلى الله عليه وسلم اياهم، وطول تعهده لهم كما فعل تجاه المهاجرين حتى كون منهم رجالا، ولم يكن بين دخولهم فى الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام، وقد استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم بحفاوة بالغة وأكرموا وفادته.. ولم يكن شعورهم تجاه اخوانهم المهاجرين بأقل من هذا، فقد فتحوا لهم قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعوهم بصدورهم قبل أن يسعوهم بأموالهم، وتسابقوا إلى لقائهم واكرامهم، حتى لم يجدوا بدا فى بعض الأحيان من تحكيم القرعة بينهم، وضربوا فى باب الايثار وسخاء النفس وكسر الطبع مثلا عليا لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالاكبار والإعظام.. وكانت عواطف الإيثار، والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذا الحب وتملأ المجتمع الجديد بأروع، الأمثال.

حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين.. وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف.

روى البخارى: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع.. فقاعل سعد لعبد الرحمن: انى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فأنظر اعجبهما إليك! فسمها لى اطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟؟ فداوه على سوق بنى قينقاع،

فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن!! ثم تابع الغدو.. ثم جاء يوما، وبه أثر صفرة[١٠] فقال النبى صلى الله عليه وسلم «مم!»[١١] قال: تزوجت! قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة: من ذهب! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «أو لم ولو بشاه»[١٢]

وهكذا ضرب سعد بن الربيع مثلا فريدا فى الايثار، وضرب عبد الرحمن بن عوف مثلا عاليا لعزة النفس والرغبة فى العمل والإكتساب، واعجاب المرء بسماحة سعد لا يعد له إلا اعجابه بنبل عبد الرحمن هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم وعزهم فى ميدانهم، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه.

ان علو الهمة من خلائق الإيمان، وقبح الله وجوه أقوام انتبسوا للإسلام، فأكلوه وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم.

ويبالغ الأنصار فى الايثار والعمل على مقتضى هذه الأخوة، فيأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقولون: أقسم بيننا وبين اخواننا النخيل، فيقول لهم النبى صلى الله عليه وسلم: «لا» فقالوا لإخوانهم المهاجرين: تكفونا المؤنة - يعنى السقى والعمل - ونشكرككم فى الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا» رواه البخارى فى صحيحه، وروى أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دعا النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: الا أن نقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما [١٣] لا فاصبروا حتى تلقونى، انه سيصيبكم بعدى أثره»[١٤] وكان النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يكافئهم على ما قدمه له للمهاجرين من بر ومواساة وايواء، ولكن القوم سموا وأبوا إلا أن يكون عملهم لوجه الله، لا يريدون من أحد عليه جزاء ولا شكورا.

وان شذت فى باب الايثار أروع من ذلك وأعجب، فإليك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صليه الله عليه وسلم يوم النضير للأنصار: «ان شئتم قستم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم فى هذه الغنيمة، وان شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم تقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها.[١٥].

بالله لهذه النفوس الكريمة الأبية، المؤثرة السخية، لقد كان جزاؤهم من وبهم أن أنزل فيهم قرآنا يتلى إلى يوم الدين، وصدق الله: (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[١٦].

وان قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم مشيدا بمناقبهم وفضلهم: «لولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار» وإن جعل حبهم علامة الإيمان وبغضهم علامة النفاق فقال:

«آية الإيمان حب الأنصار، وآية ا لنفاق بغض الأنصار»[١٧] وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله، وان أوصى بهم المسلمين بعده خيرا» فقد حدث أنس بن مالك رضى الله عنه فقال: مر أبو بكر والعباس رضى

الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار، وهم يبكون، فقالا .. ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبى صلى الله عليه وسلم منا، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، قال: فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بردة، قال: فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فانهم كرشى وعيبتى»[١٨] وقد قضوا الذى عليهم، وبقى الذى لهم، فأقبلوا من محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم»[١٩].

الأنصار وغنائم حنين

وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم السياسة فى تقسيم غنائم حنين، لقد حرموا جميعات أعطيه حنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تبدل الفرار انتصارا، وها هم أولا يرون أيدى الفارين تعود ملائ، أما هم يمنحوا شيئا قط!

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن فى الأنصار شىء منها، قليل ولا كثير، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقى والله رسوله الله قومه، فمشى سعد بن عباده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم! قال: «فيم؟» قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شىء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: ما أنا إلا امرؤ من قومى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة، فإذا اجتمعوا فاعلمنى» فخرج سعد فصرخ فيهم، فجمعهم فى تلك الحظيرة.. حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله، اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟؟ قالوا: بلى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ك «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المن لله ورسوله، قال: و«الله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم.. جئتنا طريدا فأويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك» فقالوا: المن لله ورسوله فقال: «أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة[٢٠] من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاه والبيعر وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم أرحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» فبكى القوم حتى أختفلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ربا ورسوله قسما. ثم انصرف وتفرقوا[٢١].

وهكذا قرت عيون الأنصار، وامتلأت قلوبهم سكينة وأمنا، إذا عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يخلى مكانه من بينهم، ولن يحرمهم هذا الخير الذى ساقه الله إليهم، وأنهم هم أهل الرسول وأنصاره، وأن بلدهم هو بلده وموطنه وحسبهم هذا، ولساعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم خير لهم من الدنيا وما فيها.. وهكذا كان بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاء لما فى الصدور وجلاء للبصائر، فسكنت الوساوس، وقرت العيون، ولهجت الألسن بالحمد لله رب العالمين والأنصار - فى تاريخ الدعوات - مثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى، حتى إذا استوت على سوقها، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها، وتدلت ثمارها، وحلا جناها، جاءت أيد غير أيديهم فقطفت ما تشتهى، ولم تكتف بذلك! بل لطمت أيدى الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلا ولا كثيرا، ولا نقول ذلك تعليقا على توزيع الغنائم فى هذا المقام، فقد اتضح وجه الرشد فى هذه القسمة الحصيفة .. ولكنا نذكر فى مناقب الأنصار، وافتراض ترفعهم عن الدنيا فى سبيل الدين وتأليف الناس عليه أن شئون الحكم ابتعدت عنهم، واحتازها غيرهم، وهم لها أكفاء.. فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت فى أيدى الطلقاء..

ولا ريب فى أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وان شأن الدنيا أنزل قدرا من أن يأسى عليه رجل العقيدة .. غير أننا نتساءل: أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكام، فيقصى أصحاب السبق، وأولو النصرة، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرا به؟

الاخاء بين المهاجرين والأنصار

ولما استقر المسلمون بالمدينة ألهم الله سبحانه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بعمل يعتبر غاية فى حسن السياسة، وأصالة الرأى، وبعد النظر، فقد عقد بين المهاجرين والأنصار أخوة يتعاونون، ويتوافقون، ويتقاصرون ويتوارثون ذلك الإخاء الكامل الذى تمحى فيه كلمة «أنا ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كيانا دونها، ولا امتدادا إلا فيها.

ومعنى هذا الاخاء: أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.. وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقدا نافذا، لا لفظا فارغا، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر به الألسنة ولا يقوم لها أثر! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة لم يتميز عنهم بلقب أعظم خاص، وفى الحديث : «لو كنت متخذا من آمتى خليلا لزتخذته - يعنى أبى بكر - خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل»(٢٢)

والإخاء الحق لا ينبت فى البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصح اخاء، أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخى

الوثيق فى ذات الله.. قسموا الغاية التى التقوا عليها، وجلال الأسوة التى قادتهم إليها، فمن فيهم جلال الفضل والشرف، ولم يدعا مجالا لنجوم خلة رديئة!

ثم إن محمدا عليه الصلاة والسلام كان إنسانا، تجمع فيه ما تفرق فى عالم الإنسان كله من أمجاد، ومواهب، وخيرات، وصورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر. فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه، وداروا فى فلكه رجالا يحيون بالنجدة، والوفاء، والسخاء.

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده، ولا يتكلف استخراجه بالآلات، والأثقال.. والأخوة لا تفرض بقوانين، ومراسيم وإنما هى أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح، والضعة.. وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين، لأنهم ارتقوا ـ بالإسلام ـ فى نواحى حياتهم كلها، فكانوا عباد الله إخوانا، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض!!

وقد اختلف العلماء فى وقت هذه المؤاخاة: فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة أشهر، وقيل وهو يبنى المسجد، وقيل قبل بنائه، والذى نرجحه أن ذلك كان بعد الهجرة بقليل، وأن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعا للشمل وتوثيقا للعرى، وقطعا لدسائس الأعداء ولاسيما اليهود.

ولم تكن هذه الأخوة أخوة إسلام فحسب، وإنما كانت أخوة بها يتوارثون، قال عز شأنه (إن الذين آمنوا،وهاجروا، وجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم فى سبيل الله، والذين زووا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض[٢٣]) ولقد استمر الأمر على ذلك حتى عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت آثار الغربة من وحشة، وحاجة، فنسخ الله حكم التوارث[٢٤] بهذه الأخوة، بالحكم الثابت المستقر، وهو التوارث بالقرابة، والرحم، قال عز شأنه :(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين، والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا إن ذلك فى الكتاب مسطوراً[٢٥]) وقال: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله أن الله بكل شيء عليم[٢٦] وروى البخارى عن ابن عباس.. فى تفسير قوله تعالى (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم)[٢٧].. قال: كان المهاجرون ـ لما قدموا المدينة ـ يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه، للأخوة التى آخى النبى عليه صلاة والسلام بينهم، فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى) نسخت ذلك، ثم قال: (والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم) من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصى له.

وروى فى تفصيل هذا الاخاء: فكان الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب أخوين، وأبو بكر، وخارجة بن زيد أخوين، وحاطب بن أبى بلتعه، وعويم بن ساعدة أخوين، وعمر، وعتبان بن مالك أخوين، وحمزة، وزيد بن حارثة أخوين، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع أخوين، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل أخوين، ومصعب بن عمير، وأبو أيوب الأنصارى أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة، وعباد بن بشر أخوين، وبلال وأبورويحة أخوين، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو طلحة الأنصارى أخوين، والزبير بن العوام، وسلمه بن سلامة بن وقش أخوين، وطلحة بن عبيد الله، وكعب ابن مالك أخوين، وسعيد بن زيد وأبى بن كعب أخوين، وعمار وحذيفة بن اليمانى حليف بنى عبد الأشهل أخوين، وهكذا، قال ابن سعد: «آخى بين مائة.. خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار».

وليس معنى هذا أنه لم يكن التآخى إلا بين هذا العدد، وإنما كان هذا أول ما آخى، وصار يجددها بحسب من يأتى إلى المدينة مهاجرا، ومن دخل فى الإسلام بعد ذلك، ومما ينبغى أن يتنبه إليه أن الإمام محمد بن اسحق وهم فى بعض من ذكرهما أخوين، وذلك مثل عده جعبر بن أبى طالب، ومعاذ بن جبل أخوين، والمعروف الثابت أن جعفر كان بالحبشة آئنذ، ولم يقدم المدينة إلا عام خيبر سنة سبع، وعدة أبا عبيده، وسعد بن معاذ أخوين، والصحيح ما ذكرته، وهو ما رواه الإمامان أحمد، ومسلم، وقد أجاب بعض العلماء عن بعض هذه المآخذ(٢٨).

وقد أنكر الإمام بن تيمية المؤاخاة بين مهاجرى ومهاجرى، وقال: إنها كانت بين مهاجرى وأنصارى.. ورد عليه الحافظ بن حجر فى الفتح قال: وأنكر ابن تيمية فى كتاب الرد على ابن المطهر الرافضى - يعنى كتاب منهاج السنة - المؤاخاة بين المهاجرين، وخصوصا مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم لعلى، قال: لأن المؤاخاة شرعت لارفاق بعضهم بعضا، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى، وهذا رد للنص بالقياس، واغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى، والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا نظر مؤاخاته صلى الله عليه وسلم لعلى، لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة، وكذا مؤاخاة حمزة، وزيد ابن حارثة، لأن زيدا مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين»(٢٩).

ويوافق على هذا الرأى الغزالى، ويضيف له دليلا آخر فيقول: ولعل ما صح من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عليا منه بمنزله هارون من موسى يؤيد هذه الرواية، وليس يخدش هذا من منزلة أبى بكر، ولا استحقاقه الصدارة»(٣٠).

ورد المعلق عليه بقوله: كلا، لا تأييد، فإن الأخوة المذكورة أخص من تلك المنزلة ولا يثبت الأخص بالأعم، فلابد من اثبات الأخوة بنص خاص، وقد تتبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها لا تخلو من كذاب، ومن أشهرها ما أخرجه الترمذى «٤: ٣٢٨» والحاكم «٣: ١٤» من طريق حكيم ابن جبير عن جميع بن عمير عن بن عمر قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فجاء علىٌّ تدمع عيناه فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، آخيت بين أصحابك ولم تواخ بينى، وبين أحد، فقال رسول الله .. «أنت أخى فى الدنيا، والآخرة» وقال الترمذى «هذا حديث حسن غريب» وتعقبه الشارح المبار كفورى بقوله: «حكيم بن جبير ضعيف مرمى بالتشيع» قلت: ذهل هو والترمذى، عن علقه الحقيقة وهى «جميع بن عمير» هذا، قال الذهبى فى الميزان: «قال ابن حبان رافضى يضع الحديث، وقال: إن عميرا كان من أكذب الناس» ثم ساق له الذهبى هذا الحديث، وقد رواه عنه أيضا سالم بن أبى حنيفه الكاهلى أخرجه الحاكم متابعة لحكيم بن جبير فتعقبه الذهبى فى التلخيص بقوله: قلت: جميع أتهم، والكاهلى هالك، قلت: كذبه ابن أبى شيبه، وقال الدارقطنى: هو فى عداد من يضع الحديث.

القاعدة الصلبة من المهاجرين، والأنصار

بعد أن فرغنا من كلمة موجزة عن المهاجرين، والأنصار بوجه عام نأتى إلى هدفنا الأصلى وهو تحديد السابقين الأولين من الفريقين، ولعله يحسن أن نعيد هنا فقرات مما سبق أن

فصلناه، فى المقدمة عن مراحل بناء المجتمع المسلم، وتكون طبقاته الإيمانية، حتى تكون حاضرة بين أيدينا، وحتى تكون هذه الحقيقة قريبة منا، نتتبع على ضوئها ذلك التصنيف النهائى للمجتمع فى الآيات.

لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة فلم تكد الجاهلية - ممثلة فى قريش - تحس بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة «أن لا إلا رله إلا الله وأن محمدا رسول الله» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستند من سلطان الله، ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض، والفرار منه إلى الله، ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا التجمع الذى يدين من اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله، ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية.

لم تكن الجاهلية ممثلة فى قريش أول الأمر - تحس بهذا الخطر وذاك، حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمع الجديد، وعلى القيادة الجديدة، وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى، ومن كيد، ومن فتنة، ومن حيلة.

لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل ما يدفع منه، كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله فى العالمين، فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد، وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجميع حركى جديد، يتبع فى تحركه قيادة جديدة، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض!

وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى، والفتنة بكل صنوفهاإلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان.. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والرنضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد، والدينوية لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لإحتمال الأذى، والفتنة والجوع، والغربة، والعذابو والموت فى أبشع الصور، فى بعض الأحيان.. بذلك تكونت الإسلام قاعدة صلبة، من أصلب العناصر عودا فى المجتمع العربى، فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد تبينت عن دينها، وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلا، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل فلم يكن يقدم ابتداء على الإنتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر الممتازة الفريدة التكوين، وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة، مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم «بيعتى العقبة» قد دلت على أن خصوهم ذو طبيعة أصيلة لكافئة لطبيعة هذا الدين.

قال ابن كثير فى التفسير: «وقال محمد بن كعب القرظى وغيره، قال عبد الله بن رواحه رضى الله عنه لرسول الله صلى الله غليه وسلم «يعنى ليلة العقبة» اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «اشترط لربى أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا واشترط لنفسى أن تمنعونى مما

تمنعون منه أنفسكم، وأموالكم» قالو فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، ولا تقيل ولا نستقيل.

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه البيعة، ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة، ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه، ولا أن يرجع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم، وأن العرب كلها سترميهم، وأنهم لن يعيشوا بعدها فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة وبين ظهرانيهم فى المدينة.

فقد كان الأنصار اذن يعلمون - عن يقين واضح - تكاليف هذه البيعة، وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر، والغلبة - وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة .. ثم كان هذا مدى وعيهم بها، ومدى حرصهم عليها.. فلا جرم أن يكونوا مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة.

توافد عناصر أخرى متباينة مع استمرار عمليات الصهر والتنسيق

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص، والنقاء.. لقد ظهر الإسلام، وفشا فى المدينة، واضطر أفراد كثيرون - ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم - أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم.. حتى إذا كانت و«قعة بدر» قال كبير هؤلاء عبد الله ابن أبى بن سلول: هذا أمر قد توجه! وأظهر الإسلام نفاقا، ولابد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة، فدخلوا فى الإسلام تقليدا - ولو لم يكونوا منافقين - ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه.. مما أنشأ تخلخلا فى بناء المجتمع المدنى ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية.

وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد، بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة، ويعمل كذلك على إعادة التناسق، والتوافق بين المستويات العقيدية، والخلقية، والسلوكية العناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد.

وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبى - فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم، وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة، وتأليبها لكل قبائل الجزيرة، ومن وقفة اليهود البشعة، وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد، والتجمع الجديد.

وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر، والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر، ولا تغفل لحظة.

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة فى فترات الشدة - أعراض من الضعف، والنفاق، والتردد، والشح بالنفس، والمال، والتهيب من مواجهة المخاطر، وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم، وقرابته من أهل الجاهلية.

والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة.

قدار إيمانية متفاوتة مع تقارب فى المستويات الإيمانية

إلا إن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليما فى جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين، والأنصار، وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض، والظواهر، والخلخلة أحيانا، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها، ونضجها وتماسكها، وتناسقها.

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر، وتتطهر، وتتناسق مع القاعدة، ويقل عدد الناشرين من ضعاف القلوب، ومن المنافقين، ومن المترددين كذلك، والمتهيبين، وممن لم يتم فى نفوسهم الوضوح المتردى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين.. حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد.

نعم انه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلاها فى الحركة وسبقها وثباتها.

تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتميز أهل بدر، وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية، ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها.

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية، لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية، وتتناسق فى مجتمع المدينة قبيل الفتح، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف، والكثير من ظواهر الضعف والتردد والشح بالنفس والمال، وعدم الوضوح العقيدى والنفاق.. من ذلك المجتمع، بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدنى بجملته هو القاعدة الإسلامية.

إلا إن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف، وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش فى الجزيرة، قد عاد فصب فى المجتمع المسلم أفواجاً جديدة كثيرة دخلت فى الين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية، وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر، وفيهم المؤفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا أن هذه الطبقات من المسلمين . بمجموعاتها الثلاث: «السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان» .. كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح، وكانت هى التى تمسك المجتمع كله فى كل شدة وفى كل رخاء كذلك [٣١]. وكانت هى الكوكبة الأولى التى تقدمت ركب الإسلام الميمون، وكانت هى الكواكب الدرية التى بزغت بين يدى فجره الوليد.

من هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؟

أولئك هم الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية، واحتملوا - فى صبر ورضى - مواجهة العاصفة التى هبت عليهم عاتية مزمجرة، تحمل فى كيانها جهالة الجاهلية وحماقاتها وسفاهاتها، وعتوها وضلالها.. فكان لهم عند الله هذا المكان الكريم، وتلك المنزلة التى اختصهم بها الله تعالى وأفردهم فيها.

وقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار؟ فقيل .. هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر، وقيل: هم الذين صلوا للقبلتين، وقيل: هم أهل بدر، وقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية، وقيل: هم أهل بيعة الرضوان.

ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية أن أرجح الأقوال من ذلك هو أن السابقين الأولين هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر.. ويقرب من هذا الرأى اختيار الرازى.. أن المراد بالسابقين من المهاجرين السابقون فى الهجرة، ومن السابقين من الأنصار السابقون فى النصرة، وقال: إن ذلك هو الصحيح عنده، واستدل عليه، بأن سبحانه ذكر كونهم سابقين، ولم يبين أنهم سابقون فى ماذا، فبقى اللفظ مجملا. إلا أنه تعالى لما وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا علم أن المراد من السبق السبق فى الهجرة والنصرة إزالة للاجمال عن اللفظ، وأيضا كل واحدة من الهجرة والنصرة لكونه فعلا شاقا على النفس طاعة عظيمة، فمن أقدم عليه أولا صار قدوة لغيره فى هذه الطاعة، وكان ذلك مقويا لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وسببا لزوال الوحشة عن خاطره الشريف، فلذلك أثنى الله تعالى على كل من كان سابقا إليها وأثبت لهم ما أثبت، وكيف ولا هم آمنوا وفى عدد المسلمين فى مكة والمدينة قلة وضعف، فقوى الإسلام بسببهم وكثر عدد المسلمين بإسلامهم وقوى قلبه صلى الله عليه وسلم بسبب دخولهم فى الإسلام واقتداء غيرهم بهم، فكان حالهم فى ذلك كحال من سن سنة حسنة وفى الخير: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» ولا يخفى أنه حسن(٣٢).

ويرى المرحوم الشيخ رشيد رضا (٣٣) أن السابقين من المهاجرين هم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، و استدل عليه: بأن المشركين كانوا إلى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين فى بلادهم ويقاتلونهم فى دارهم وما حولها، ولا يمكنون أحدا من المهاجرة ما وجدوا إلى صدهم سبيلا، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين، ليس فيهم منافق، إذ لم يكن للنفاق فى ذلك الوقت مقتض ولا سبب، ولا للمهاجرة والجهاد داع غير الاخلاص فى الإيمان، وإقامة بناء الإسلام، وإن كان هؤلاء يتفاضلون فى السبق وفى غيره من الأعمال، فأفضلهم الخلفاء الأربعة، فسائر الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة بأشخاصهم (٣٤)، وكذلك يرى أن السابقين من الأنصار هم الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة احدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفى المرة الثانية وكانوا سبعين رجلا وامرأتين، ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير من قبل

النبى صلى الله عليه وسلم يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين، وقد أرسله مع أهل العقبة الثانية سنة اثنتى عشرة من البعثة، وكذا من آمن عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم وقبل أن تكون للإسلام قوة غالبة تتقى وترتجى [٣٥] فهؤلاء جميعا قد استجابوا لله والرسول، وأقاموا المجتمع الإسلامى الأول بالمدينة، وكانوا حصن الإسلام والمسلمين، فهم جديرون بأن يشاركوا المهاجرين الأولين منزلتهم، وأن يزاحموا بالمناكب عليها، وإن كان فضل الله أوسع وأرحب من أن يقع فى رحابه زحام أو صدام.

الذين اتبعوهم بإحسان

كما اختلفت الأقوال فى تحديد من هم «الذين اتبعوهم بإحسان» فقالت جماعة هم الذين اتبعوا هؤلاء السابقين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة [٣٦]، فهم سائر الصحابة فقط وتضمن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان، لأنهم صاروا أئمة متبوعين، واستدلوا على ذلك:

أولا: بأن لفظ «الإتباع» فيها نص على الصحابة المتأخرين الذين اتبعوا الأولين من المهاجرين والأنصار فى صفتيهم.. الهجرة والنصرة .. وهو بصيغة الماضى، فلا يدخل فى عمومة التابعين الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم ينالوا شرف الصحابة.. والهجرة والنصرة، وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

ثانيا: أن هذه الآية وما بعدها فى بيان حال المسلمين فى عصر نزول القرآن.. مؤمنيهم ومنافقيهم ومحسنيهم ومسيئيهم.. ويلزم منه أن يكون الذين اتبعوهم بإحسان صنفا من هذه الأصناف التى كانت موجودة فى ذلك العصر وعصر الصحابة.

واستدرك أصحاب هذا الرأى قائلين: ولاشك فى مشاركة سائر المؤمنين لأولئك الصحابة الكرام فى رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم فى الهجرة ان وجدت أسبابها، والجهاد بالأموال والأنفس لنصرة الإسلام، ومنها نصرته بالحجة والبرهان، وفى سائر أعمال البر والاحسان، لأن الجزاء فى حكم الله الحق وشرعه العدل على الأعمال.. وللسابقين فى كل عمل فضيلة السبق والامامة... وكفانا نحن قوله عز وجل: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)[٣٧] وقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[٣٨] وفى الحديث: «عبادة فى الهرج كهجرة إلى»[٣٩] وقال صلى الله عليه وسلم: «وددت أنا قدرأينا اخواننا» الحديث [٤٠] فجعلنا اخوانه أن اتقينا الله واقتفينا آثاره.

٢- وقال آخرون: هم الذين اتبعوا السابقين الأولين بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة [٤١]، وقالوا:

أولا: لأن الذى يعنيه هذا النص - وهو يتحدث عما كان واقعا ابان غزوة تبوك - هم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى وان بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر، وهى أشد الفترات طبعا.

ثانيا: لأن حقيقة دورهم من أخطر الأدوار، فهو الدور الباقى على امتداد الزمان فى بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملى يبقى مؤثرا فى التاريخ البشرى كله.

فإذا كانت مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار آيات النبوة ونفحات النبى فسبقوا إلى الإيمان ودانوا له، وأعطوه ولاءهم كاملا حتى اشتمل عليهم ظاهرا وباطنا، وكان حريا بهم أن يبلغوا من الصفاء والشفافية واليقين ما بلغوا مما تتقطع دونه الأعناق.. إذا كان ذلك كذلك، فإن الذين يجيئون من بعدهم فى أجيال الإسلام المتعاقبة إلى يوم القيامة، ويؤمنون إيمانا أقرب إلى إيمانهم، ويأخذون سمتا مدانيا لسمتهم، ويسلكون طريقهم ويسيرون سيرتهم، هم أهل لأن يلحقوا بهذا الركب الميمون، وأن ينزلوا منزلتهم وأن يكونوا منهم غير بعيد، إذ أنهم آمنوا وأحسنوا ولا نبوة بين أيديهم ولا نبى يملأ حياتهم هدى ونورا.. فمن أراد أن يلحق بهم ويضاف إليهم، فسبيله إلى ذلك أن يتبع أثرهم ويتبع سبيلهم، ويحسن كما أحسنوا ويبلى كما أبلوا، فذلك هو الثمن لمن يطلب رضى الله ويطمع فى أن يكون من أحبابه واصفيائه. فيكون بهذا مضافا إليهم مع الذين اتبعوهم باحسان، وفى الحديث «عبادة فى الهرج كهجرة إلى» ولفظ «بإحسان» هل هو قيد للإخراج أو التوكيد، قيل هو قيد مؤكد يكشف عن الإحسان الذى يكون من متابعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتأسى بهم، فمتابعتهم هى احسان، وقوله تعالى «باحسان» هو توكيد لهذا الإحسان الذى تنطوى عليه المتابعة، وهذا يعنى أن ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار هو إحسان كله، فمن تابعهم وتأسى بهم على ما كانوا عليه فهو محسن كل الاحسان.

وقيل: انه شرط فى المتبعين وقيد للإخراج، فيخرج به من اتبعوهم فى ظاهر الإسلام مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع وهم المنافقون، ومن اتبعوهم محسنين فى بعض الأعمال ومسيئين فى بعض وهم المذنبون.. والآيات التالية مبينة حال الفريقين.. واستدلوا لذلك بما روى - كما فى الألوسى - عن حميد بن زياد أنه قالك قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى: الا تخبرنى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان بينهم من الفتن، فقال لى: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم وأوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم ومسيئهم، فقلت له: فى أى موضع أوجب لهم الجنة؟ فقال: سبحانه الله، ألا تقرأ قوله تعالى: (والاسبقون الأولون) الآية، فتعلم أنه تعالى أوجب لجميع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطا، قلت: وما ذلك الشرط؟ ولا يقتدون بهم فى غير ذلك[٤٢] قال حميد: فكأنى اقرأت هذه الآية قط [٤٣] وعلى هذه الرواية - ان صحت - فالشرط المتبوع لا فى التابع، إذ التقدير عليه، والذين اتبعوهم شريطة أن يكون المتبوعون محسنين، وهو غير الأول، وفيه ما فيه.

مناقشة قراءة: قرأ يعقوب: «والأنصار» بالرفع عطفا على «والسابقون» وروى كذلك عن الحسن البصرى، بل روى أيضا أن عمر رضى الله عنه قرأها كذلك مع حذف واو العطف فى «والذين» وجعلها صفة للأنصار، وأنكر على رجل قرأها بالخفض، وعلى هذا يكون «السابقون الأولون» مقصورا على المهاجرين وحدهم، وهذه القراءة ينقصها أمران:

الأول: رد أبى بن كعب كاتب الوحى وجامع القرآن لها، وتصويبه لقراءة الجمهور.. روى ابن جرير - بسنده - عن محمد بن كعب القرظى قال: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين(فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبى بن كعب، فقال: لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت اقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم «أى هكذا سمعتها من رسول الله، وفى رواية أنها هكذا أنزلها الله على جبريل نزل بها جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم» قال لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبى: تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) وفى سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم) الآية، وفى الأنفال (والذين آمنوا بعد وهاجروا وجاهدوا معكم).. أى قد ورد ذكر الطبقات الثلاث على هذا الترتيب فى أول سورة الجمعة حيث قال فى الطبقتين الأوليين :(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وعبر عن الطبقة الثالثة بقوله: (وآخرين منهم) وفى وسط سورة الحشر (للفقراء والمهاجرين) (والذين تبوأوا الدار) وعبر عن الطبقة الثالثة بقوله: (والذين جاءوا من بعدهم) وفى آخر سورة الأنفال: (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنين حقا) وعبر عن الطبقة الثالثة بقوله: (والذين آمنوا من بعد).

الثانى - ينقصها التفصير العملى للآية الكريمة التى احتج بها أبو بكر رضى الله عنه على الأنصار، وجعلها مستندة فى تقديم المهاجرين على الأنصار، فقال فى خطبة يوم السقيفة مخاطبا الأنصار: أسلمنا قبلكم، وقدمنا فى الكتاب عليكم، فقال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فنحن الأمراء وأنتم الوزراء.. وهذا يعنى أن الأنصار شركاء للمهاجرين فى هذا الفضل الذى تطلب الخلافة به، وأن المهاجرين إذا كانوا أولا فالأنصار ثانيا كما جاء ذكرهم فى القرآن الكريم، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فذكر المهاجرين أولا ثم الأنصار ثانيا.. وإذا كانت واو العطف النحوى لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا، فإن واو العطف القرآنى تفيد ترتيبا وتعقيبا هكذا دائما فى كل مقام وقع فيه العطف بين متعاطفين أو أكثر.

شبهة وردها: ويمتاز عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الذى وجد فيه الإسلام وأقيم بنيانه ورفعت أركانه، ونشرت فى الخافقين أعلامه، على كل عصر بعده، وهم الأقلون المقربون، كما قال تعالى (والسابقون الأولون) (وقليل من الآخرين) هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدمغ حقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم، ويحثو التراب فى أفواههم، والذى سن لهم هذا الطعن فى جمهورهم الأعظم، عبد الله بن سبأ اليهودي الذى أظهر الإسلام لأجل ايقاع الشقاق بين المسلمين وافساد أمرهم، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة المجوس بعد فتح المسلمين لبلادهم، ثم جعل الرفض مذهبا له فرق ذات عقائد، منها ما هو كفر صريح ومنها ما هو ابتداع قبيح، ومنها ما هو دون ذلك.

والرد على مثل هذه الأوهام: أن هذه الآيات وما بعدها فى بيان حال المسلمين فى عهد نزولها، مؤمنيهم ومنافقيهم، ومحسنيهم ومسيئهم، والذين خلطوا منهم عملا صالحا وآخر

سيئا، والذين تاب الله عليهم، والذين أرجأ توبتهم، وهذه الآية نص فى أن الطبقات الثلاث من السابقين الأولين والذين اتبعوهم فى الإيمان والهجرة ـ عندما ابيحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية ـ قد فازوا كلها برضاء الله ووعده لهم بالجنة، وأنه ليس فيهم أحد من المنافقين، بل كان جميع المنافقين من أهل المدينة وما حولها إلى أن فتحت مكة واعتق النبى صلى الله عليه وسلم أهلها، فأظهروا الإسلام والسيوف تقتر من دمائهم، فكان منهم المنافقون، وضعفاء الإيمان المقلدون، وهم الذين كانوا سبب الهزيمة فى حنين، ثم حسن إسلام الأكثرين، ففتحوا الفتوحات ونشروا الإسلام فى العالمين.

والخلاصة:

ان جميع أفراد هذه الطبقات الثلاث، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شىء، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنب.. وإذا كان بعض المحدثين يقول: إن من اتفق الشيخان على تعديله فى الرواية[٤٤]قد جاز قنطرة الجرح فماذا يقال فى عدلهم الله عز وجل وشهد له بقوله: (رضى الله عنهم ورضوا عنه).. رضى الله عنهم بما كان منهم من إيمان وإسلام وإحسان، واعلاء ما كان منهم من هجرة وجهاد قبل طاعتهم وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، اذبهم أعز الإسلام ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب.. فرض الله عنهم هو الرض الذى تتبعه المثوبة، وهو فى ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضوا عنه بما أرضاهم الله به وما وفقهم له، وما اسبغه عليهم من نعمة الدينية والدنيوية، فأنقذهم من شرك، وهداهم من ضلال، وأغناهم من فقر، وأعزهم من ذل.. ورضوا عنه بالرطمئنان إليه سبحانه، والثقة بقدره، وحسن الظن بقضائه، والشكر على نعمائه، والصبر على ابتلائه.

ولكن التعبير بالرضا هنا وهناك يشيع جو الرضا الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة ـ من البشر ـ حتى ليبادلون ربهم الرضا، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يتسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآنى بالروح المتطلع، والقلب المتفتح والحس الموصول.. فسبحانه ما أعظم لطفه، وما أوسع فضله، وما أكرم عطاءه وأسبغ احسانه.

ذلك حالهم الدائم مع ربهم (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وهناك تنظرهم علامة هذا الرضا (وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» وأى فوز بعد هذا وذلك عظيم؟!

الهوامش

١) سورة النساء آية ٩٧ ـ ٩٩

٢) سعد بن خوله من بنى عامر بن لؤى من المهاجرين السابقين، وقد مات بمكة عام حجة الوداع.

٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز. انظر فتح البارى جـ٣ ص١٢٨

٤) روه البخارى.

٥) أى حرتها وهى الأرض ذات الحجارة السود

٦) جمع عضه، شجر ذو شوك

٧) رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن سعد بن أبى وقاص

٨) آل عمران ١٠٣

٩) سورة الأنفال ٦٣

١٠) زينه

١١) سؤال عن حاله

١٢) صحيح البخارى: باب كيف آخى النبى بين أصحابه

١٣) «اما لا» هى إن الشرطية المضغمة فى «ما» الزائدة، ولا نافية، وفعل الشرط محذوف تقديره تفبلوا

١٤) آثره: بوزن قصبه، أى استئثار بالأموال دونهم

١٥) ذكره البغوى فى تفسيره

١٦) الحشر ٩

١٧) أخرجه الشيخان

١٨) بطانتى وخاصتى، وموضع سرى

١٩) رواه البخارى فى صحيحه، باب مناقب الأنصار

٢٠) الشىء القليل التافه

٢١) حديث صحيح رواه أحمد وابن هشام وابن جرير كلهم عن ابن اسحق بسنده الصحيح عن أبى سعيد الخدرى، وذكره ابن كثير فى البداية من رواية يونس ابن بكير عن ابن اسحق والسياق له، ثم قال ابن كثير.. «وهو صحيح. والقصة فى البخارى بنحوها مختصرا».

٢٢) حديث صحيح أخرجه البخارى ٧: ١٤ من حديث ابن عباس بهذا اللفظ

٢٣) سورة الأنفال ٧٢

٢٤) يرى بعضهم أن نسخ التوارث بينهم وقع بعد غزوة بدر

٢٥) الأحزاب ٦

٢٦) الأنفال ٧٥

٢٧) النساء ٣٣

٢٨) البداية والنهاية جـ٣

٢٩) فتح البارى جـ٧ صـ٢١٧

٣٠) فقه السيرة صـ١٩٥

٣١) فابتلاء الرخاء كثيرا ما يكون أصعب وأشق من ابتلاء الشدة

٣٢) تفسير الرازى جـ٤ صـ٧٢١

٣٣) المنار جـ١١ صـ١٣، ١٤

٣٤) وما كل سابق أفضل من كل مسبوق، ومن السابقين بالإيمان من سبقه غيره بالهجرة.. فأول من آمن على الاطلاق خديجة رضى الله عنها، لأنه صلى الله عليه وسلم بلغها خير بعثه قبل كل أحد فصدقت وآمنت.

ويليها من كان معه صلى الله عليه وسلم فى بيتها وهو على، وكان ابن عشر سنين، وزيد بن حارثة، ومن خارجه أبو بكر رضى الله عنه، والمشهور أنه أول من آمن من الرجال، ولا خلاف فى أنه آمن عندما دعاه النبى صلى الله عليه وسلم بغير أدنى تريث أو تردد، ولا فى أنه أول المهاجرين مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأول الدعاة إلى الإسلام.

٣٥) وهذه القوة رسخت عقب هجرته صلى الله عليه وسلم، وصار بعض أهل المدينة يظهرون الإسلام نفاقا، بدليل قوله تعالى فى الآيات التى نزلت فى شأن غزوة بدر وكانت فى السنة ا لثانية (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) ولم يكن فيهمه أحد من المهاجرين ولا من الأنصار السابقين وان كانوا كلهم من الأوس والخزرج.

٣٦) أى ملتبسين بإحسان، أو اتباعا بإحسان، أو محسنين فى الأفعال والأقوال، على أن من تبعيضيه، والإحسان كل خصلة حسنة.

٣٧) آل عمران

٣٨) البقرة ١٤٣

٣٩)

٤٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وانا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون، وددت لو أنا قد رأينا إخواننا» قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال« أنتم أصحابى، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟= - قال: «أرأيت لو ان رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دهم بهم الا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، إلا لزداد رجال عن حوضى كما أزدود البعير الضال أناديهم: الا هلم، فيقال: انهم بدلوا بعدك، فأقول سحقا سحقا» رواه مسلم.

٤١) وتعليقا على هذا الرأى قال الألوسى: المراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار، ومعنى كونهم سابقين أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين، وكثيرون ذهبوا إلى هذا جـ٢ صـ٣٥٩

٤٢) أو يقال: هو ان يتبعوهم باحسان فى القول، والا يقولوا فيهم سوء، والا يوجهوا الطعن فيما اقدموا عليه.

٤٣) الألوسى جـ٢ صـ٣٥٩

٤٤) أى اعتمدوا عليه فى أصولهما المسندة

الفصل الرابع

الزكـــــاة

قال الله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم).

وقال جلا وعلا: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم).

وقال عز من قائل: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتهم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

هذا الموضوع ليس من مواضيع السورة الرئيسية، ولا علاقة له بموقف الإسلام من خصومه - عنوان الرسالة - بيد أني ذكرت إتماما لتتبع آيات السورة، ولأن هذه الآيات فى مواضعها من السياق لها علاقة وثيقة بالموضوع الرئيسى للسورة: فالآية الأولى فى المتخلفين عن غزوة تبوك المعترفين بذنوبهم، والثانية رد على المنافقين، والثالثة فى شأن أهل الكتاب «وسيأتى كل منها بالتفصيل».

ونظرة عجلى إلى هذه الآيات: نجد أن الآية الأولى منها تتحدث عن فائدة الزكاة، والثانية عن مصارفها، والثالثة عن عقاب مانعيها على اعتبار أن الكنز لما لم تؤد زكاته وسأتناولها إن شاء الله على هذا الترتيب.

فوائـد الزكـاة

ان الأموال قوام حياة الناس، وقطب الرحى لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة، وهم متفاوتون فى الاستعداد للكسب والتثمير، والاسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر.. فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض فى كسب الرزق وفى انفاقه، وأشدهم استعدادا لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولى قرباهم وبهذا يكون بعضهم فتنة وامتحانا لبعض، ومثارا للتنازع والتخاصم، كما قال تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون؟[1]) أى ذلك مقتضى سنته تعالى فى تفاوت البشر فى الاستعداد والأخلاق والأعمال.

ولما كان الدين مرشدا للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم، ويرتقى به أفرادهم وجماعتهم، شرع الله فيه من الأحكام التعبدية والعملية ما يقيهم شر هذه الفتنة وينقذهم مما يترتب على اهمالها من المحنة، فأوجب على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يبدل سيئات الثروة فى الإسلام حسنات، يقلب الأحقاد والضغائن على أصحاب المال والغنى إلى محبة وأخوة صادقة .. وأهم هذه النفقات والصدقات ما أوجبه الإسلام على معتنقيه من زكاة تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم، وجعل هذه الزكاة تطهيرا وتزكية لأصحابها من الأوضار والآثام التى تعلق بهم.. وذلك يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهى تطهر أنفس الأفراد من ارجال البخل والدناءة والقسوة الأثرة، والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل، من خيانة وسرقة وغضب وربا وغير ذلك. فإن الذى يتربى بالإيمان على بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزانته وصندوقه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، ومغفرة ذنوبه، ورفع درجاته، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق.. وهذا التطهير لا نفس الأفراد وتزكيتها بالعلم والعرفان، والتقوى التى هى مجموع ثمرات الإيمان، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين من ارجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان، والفتن والحروب.

وكل هذه التطهيرات والتنظيفات يجمعها قوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم).

سبب النزول

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد قال: حدثنى أبى قال: حدثنى عمى قال: حدثنى أبى عن أبيه، عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه [٢] انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا، وصل علينا.. يقولون: استغفر لنا .. وطهرنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا آخذ منها شيئا حتى أؤمر»، فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) يقول: استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوا، فلما نزلت الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم جزءا من أموالهم فتصدق بها عنهم، ولقد كانت تلك الحساسية التى بعثت الندم والتوبة فى تلك القلوب جديرة بالطمأنينة حقيقة بالعطف الذى يسكب فيها الأمل، ويفتح لها أبواب الرجاء.. ورن كان رسول اللهع صلى الله عليه وسلم وهو يقود حركة، ويربى أمة، وينشىء نظاما، قد رأى الأخذ بالحزم فى أمرهم حتى يأتيه أمر من ربه فى شأنهم.. ثم جاء الأمر ومن الله عليهم لما علمه سبحانه من حسن سريرتهم وصدق توبتهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بعض أموالهم ويتصدق بها عنهم.. ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد إليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة فى الجماعة المسلمة، فهم يشاركون فى واجباتها، وينهضون بأعبائها، وهم لم ينبزوا منها ولم ينبتوا عنها، وفى تطوعهم بهذه الصدقات تطهير لهم وتزكية.

المناســبة:

وقد اختلف المفسرون: هل هذه الآية عائدة إلى التائبين، أو أنها كلام مبتدأ؟ وهل هى فى الصدقة الواجبة أو المندوبة؟

١. يرى البعض أنها راجعة إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا محتجين.

أولا: بأنهم بذلوا أموالهم للصدقة حتى يتوب الله عليهم، لأن السبب فى مشاغلهم عن الغزو هو أموالهم، فتصدقوا منها كما ورد فى سبب النزول المتقدم.

وثانيا: بأن الآيات لابد أن تكون متناسقة مترابطة، ولو حملت هذه الآية على الزكوات الواجبة ابتداء لم يبق لها تعلق بما قبلها ولا بما بعدها، وصارت كلمة أجنبية، وذلك لا يليق بكلامه تعالى.

٢. ويرى آخرون أن هذه الآية كلام مبتدأ، والمقصود منها ايجاب أخذ الزكوات من الأغنياء، وعليه أكثر الفقهاء.

أ . إذا استدلوا بهذه الآية فى ايجاب الزكاة، وقالوا فى الزكاة: إنها طهرة.

ب . وقالوا: المناسبة حاصلة، و ذلك لأنهم إنما أظهروا التوبة وأقروا بأن السبب الموجب لذلك التخلف حبهم للأموال وعدم انفاقهم لها، فكأنه قيل لهم: إنما يظهر صحة قولكم فى ادعاء هذه التوبة لو أخرجتم الزكاة الواجبة ولم تتبرموا بها أو تتضايقوا منها.

ج . قالوا: ومما يدل على أن المراد بالصدقات الزكاة الواجبة قوله تعالى: (تطهرهم وتزكيهم بها) إذ المعنى: تطهرهم عن الذنب بسبب أخذ تلك الصدقات، وهذا إنما يصح لو قلنا انه لو لم يأخذ تلك الصدقة لحصل الذنب، وذلك إنما يصح حصلوه فى الصدقة الواجبة.

ورد: بأنه عليه الصلاة والسلام لما عذر أولئك التائبين وأطلقهم قالوا: خذ من أموالنا .. فـزخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك الثلثين، لأنه تعالى قال: (خذ من أموالهم صدقة) ولم يقل خذ أموالهم، وكلمة (من) تفيد التبعيض.

وأجيب: بأن هذه الرواية لا تمنع القول بالوجوب، كأنه قيل لهم: انكم لما رضيتم بإخراج الصدقة التى هى غير واجبة، فلأن تصيروا راضين بإخراج الواجبات أولى.

ويرى الرازى: أن حمل هذه الآية على التكليف بإخراج الزكوات الواجبة مع أنه يبقى نظم هذه الآيات سليما أولى.

اختيارى، أنها فى التائبين.

أ . للنظم

ب . ولسبب النزول، وكلاهما يمنع عن كونها كلاما مبتدأ ، وكونها فى الزكاة الواجبة.

ج . واستدلال الفقهاء بها على ايجاب الزكاة ليس بحجة، ولا يلزمنا.

د . وقولهم فى الزكاة: إنها طهرة، مسلم غير ممتنع، لأنه إذا كانت الصدقة المندوبة طهرة . كما تعطى الآية . فلأن تكون الزكاة الواجبة طهرة أولى.

هـ - وعلى القول بالوجوب ليست المناسبة حاصلة، ولا ارتباط للآية لا بالسابق ولا باللاحق.

و - وهم الذين قدموا أموالهم طيبة بها نفوسهم، ولم يقل لهم: تظهر صحة توبتكم لو أخرجتم الزكاة الواجبة.

ز - والاستدلال بأنه لو لم يأخذ تلك الصدقة لحصل الذنب استدلال خارج عن الآية بعيد عنها، فهو غير ملزم.

ح - والذنب المطهر بالصدقة لا يتحتم كونه الذنب الناشىء عن ترك الزكاة الواجبة.

ط - وأخيرا فالأوفق جعل الصدقة شاملة للمندوبة والواجبة.

المعنـى:

خذ أيها الرسول من أموال من ذكر ومن سائر أموال المؤمنين - على اختلاف أنواعها ، ومنها مال التجارة - صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهى التطوع [٣] تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين، وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكى أنفسهم بها، أى تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والآخروية [٤].. وادع أيها الرسول للمتصدقين، واستغفر لهم عاطفا عليهم، إن دعاءك واستغفارك سكن لهم، يذهب به اضطراب أنفسهم إذا اذنبوا، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا ويرتاحون لقبول الله صدقاتهم بأخذك لها، ووضعك إياها فى مواضعها[٥] (والله سميع) لدعائك سماع قبول ورجابة (عليم) بما فيه من الخطر والمصلحة «فالمراد من السماع والعلم لازمهما» وسميع لاعترافهم بذنوبهم، عليم بندمهم وتوبتهم منها، وباخلاصهم فى صدقتهم وطيب أنفسهم بها، فهو الذى يثيبهم عليها.

ما يستفاد من الآية

احتج بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب فى زمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه بهذه الآية على أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصا بالرسول، وقالوا: إنه تعالى أمر رسوله بأخذ الصدقات، ثم أمره بأن يصلى عليهم، وذكر أن صلاته سكن لهم، فكان وجوب الزكاة مشروطا بحصول ذلك السكن، ومعلوم أن غير الرسول لا يقوم مقامه فى حصول ذلك السكن فوجب أن لا يجب دفع الزكاة إلى أحد غير الرسول.

وقد رد عليهم هذا التأويل الفاسد أبو بكر وسائر الصحابة رضى الله عنهم، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق:

«والله لو منعونى عناقا - وفى رواية عقالا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه» وهذا مشهور فى الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه.

حقا إن روح الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قوية مشرقة صافية باهرة.. فإذا دعا الرسول لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت أسرارهم، وانتقلوا من الظلمة إلى النور، ومن الجسمانية إلى

الروحانية، ولكن هذا لا يعنى أن يمتنعوا عن دفع الزكاة إلى الخلفاء والأئمة من بعده صلى الله عليه عليه وسلم، فإن سائر الآيات دلت على أن الزكاة إنما وجهت دفعا لحاجة الفقير، كما فى قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء) الآية (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)(٦) ومنه يعلم أن هذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصا .. عام فى الأخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وفى المأخوذ منه وهم المسلمون الموسرون.

قال ابن كثير وهذا عام وإن عاد الضمير فى (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا»(٧).

٢. رن فى صلاة النبى صلى الله عليه وسلم على المتصدق ودعائه له مجازاة عاجلة بالاحسان، يجد المتصدق أثرها فى نفسه ويردها على قلبه، فيشيع فى كيانها الرضا وتملأ قلبه السكينة.. وهذا أدب ينبغى أن يتأدب المسلمون به فيلقون رحسان المحسن بالحمد والشكر، فإن ذلك أقل ما يجزى به، (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(٨) وبهذا تتفتح النفوس للخير وتسخو الأيدى بالإحسان.

٣. رن الإحسان فى ذاته جدير بأن يحمد للمحسن فى كل إنسان، سواء أصابه شىء من هذا الإحسان أم لم يصيبه، فهو عمل طيب وصنيع مبرور، وكما ينبغى على المؤمن أن ينكر المنكر لذاته، كذلك يجب عليه أن يحمد المعروف لذاته، وبهذا شيع فى الناس الخير، وتتكاثر أعداد المتعاملين به والرسول صلى الله عليه وسلم إنما يدعو للمتصدقين ويصلى عليهم، لا لأنه يحتجز صدقاتهم لنفسه ويضمها لذات يده، وإنما لأنها خير مبذول فى وجوه الخير، وبر مرسل فى سبيل الله، وهو صلى الله عليه وسلم قائم على رسالة الخير والبر.

٤. روى الشيخان من حديث عبد الله بن أبى أوفى قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل على فلان» فأتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى» فقوله بصدقته صريح فى أن المراد بها زكاة الفريضة، وهو يدل على أن المراد بالآية صدقة الفريضة، أو ما يعم الفريضة وغيرها، وعلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء، ولذلك قيل: إن الأمر فى الآية للوجوب، وهو خاص به صلى الله عليه وسلم، وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذى الزكاة من الأئمة أيضا، والجمهور على أنه مستحب لهم، وقد بوب البخارى للحديث بقوله: «باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة وقوله تعالى خذ من أموالهم ـ إلى قوله سكن لهم». والجمهور على أن الدعاء (٩) بلفظ «الصلاة» خاص بدعائه صلى الله عليه وسلم لغيره وبدعاء المسلمين له وقيد الأول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذى كان يدعو به للمتصدقين «اللهم صل على فلان» عند اعطاء الصدقة، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو بغيره أيضا .. فقد روى النسائى من حيث وائل بن حجرأنه صلى الله عليه وسلم قال فى رجل بعث بناقة حسناء فى الزكاة «اللهم بارك فيه وفى أبله» قال الشافعى: السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول: أجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت.

٥ . قوله : (من أموالهم) يدل على أن المطلوب بذله فى وجوه الإحسان من المال هو بضعه لا

كله، وفى ذلك رحمة بالناس، قال الرازى: ومعلوم أن تلك الصدقة ليست إلا التى وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كيفيتها، وذلك يدل على أن القيمة لا تكون مجزئة «كما هو عند الشافعية».

٦ـ وقال الوازى ظاهر هذا العموم يوجب الزكاة فى مال المديون وفى مال الضمان.

٧ـ وفيه أيضا: ظاهر الآية يدل على أن الزكاة إنما وجبت طهرة عن الآثام، وذلك فى حق البالغ، وهو قول أبى حنيفة، وأجاب الشافعى، بأن الآية تدل على أخذ الصدقة من أموالهم، وهو يستلزم كونها طهرة، فلم قلتم: إن أخذ الزكاة من أموال الصبى والمجنون طهرة لأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا.

مصـــارف الزكـــاة

قال الله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم).

كان المنافقون يلمزون الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصدقات ويطعنون عليه فى توزيعها، فردت عليهم هذه الآية قائلة لهم: إن الأمر ليس ليس أمر الرسول ولا توزيعه، إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته، وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين.. فهذه الصدقات ـ أى الزكاة ـ تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله، وترد على الفقراء فريضة من الله، وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن، وليست متروكة لإختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ومكانها فى النظام الإسلامى.. لا تطوعا، و لا تفضلا ممن فرضت عليهم.. فهى فريضة محتمة، ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع، فهى فريضة معلومة.

رنها إحدى فرائض الإسلام، تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة.. وهى ليست احسانا من المعطى، وليست شحاذة من الآخذ، كلا، فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ولن يقوم.. إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل بكل صنوفه وألوانه وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه، وأن تمكنه منه بالإعداد له، وبتوفير وسائله، وبضمان الجزاء الأوفى عليه، وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة، فالزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين القادرين والعاجزين، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح منفذا شريعة الله لا يبتغى لها شرعا ولا منهجا سواه.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى»[١٠] وعن عبد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة، فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب»[١١].إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعى فى الإسلام، وهذا النظام أشمل وأوسع كثيرا من الزكاة، لأنه يتمثل

فى عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها، ونواحى الارتباطات البشرية بأكملها، والزكاة خط أساسى من هذه الخطوط.

والزكاة تجمع بنسبة العشر ونصف العشر وربع الشعر حسب أنواع الأموال، وهى تجمع من كل من يملك حوالى ستة جنيهات فائضة عن حاجته يحول عليها الحول، وبلذلك يشترك فى حصيلتها معظم أفراد الأمة، ثم تنفق فى المصارف التى بينتها الآية هنا.

وان كثيراً ممن يؤدون الزكاة فى عام قد يكونون فى العام التالى مستحقين للزكاة بنقص ما فى أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم، فهى من هذه الناحية تأمين اجتماعى، وبعضهم يكون لم يؤد شيئا فى حصيلة الزكاة، ولكنه يستحقها، فهى من هذه الناحية ضمان اجتماعى، وهى قبل هذا وذاك فريضة من الله تزكو النفس بأدائها، وهى إنما تعبد بها الله وتخلص من الشح وتستعلى عليه فى هذا الأداء.

وبعد ذلك كله فثمة فوائد فى ايجاب الزكاة، بعضها عائد إلى معطى الزكاة، وبعضها عائدا إلى آخذها.. أما الذى يعود إلى معطى الزكاة فكثيرة منها:

أ - ليصير ذلك كسبا إلى المال ومنعا من انصراف النفس بالكلية إليها، وتبينها لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الإشتغال بطلب المال، إنما تحصل بانفاق المال لمرضاة الله تعالى، فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، ولذلك قال تعالى: (تطهركم وتزكيهم بها).

ب - ليصرف النفس عن الطريق الظلمانى الذى لا آخر له، ويتوجه إلى طريق عبودية الله وطلب رضوانه.

ج - ايجاب الزكاة يقال الطغيان، ويرد القلب إلى طلب مرضاة الرحمن.

د - ليحصل للروح هذا الكمال، وهو انصافه بكونه محسنا إلى الخلق ساعيا فى ايصال الخيرات إليهم مانعا الآفات عنهم (تخلقوا بأخلاق الله).

هـ - حب الفقراء لهم وامدادهم بالدعاء، وللقلوب آثار، وللأرواح حرارة .. فصارت تلك الدعوات سببا لبقاء ذلك الإنسان فى الخير والخصب وإليه الاشارة بقوله تعالى (واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) [١٢] وقوله عليه السلام «حصنوا أموالكم بالزكاة» «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها».

و - أن ينقله من درجة الإستغناء بالشىء إلى المقام الذى هو أعلى منه وأشرف وهو الاستغناء عن الشىء.

ز - أنه يوجب المدح الدائم فى الدنيا، والثواب الدائم فى الآخرة.

ح - اعطاء المال فيه تشبه بالملائكة والأنبياء وامساكه فيه تشبه بالبخلاء والمذمومين.

ط - فى الزكاة شكر للنعمة، لأن شكر النعمة عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم.

ى - ايجاب الزكاة يوجب حصول الألفة والمودة بين المسلمين وزوال الحقد والحسد عنهم.

وأما الفوائد التى تعود إلى مستحقى الزكاة فظاهره معروف لا تحتاج إلى توضيح، ومع ذلك فستأتى تباعا مع كل صنف من أصناف المستحقين.. وسأعرض لهذه الأصناف بشىء من التفصيل حسب ترتيب الآية، والله الموفق والمعين.

١، ٢) الفقراء والمساكين:

هم أحق جماعة فى المجتمع الإنسانى بالرعاية والحماية من آفة الفقر والمسكنة التى تفتك بهم وتغتال المعانى الإنسانية فيهم، ومحاربة هذه الآفة - فوق أنه واجب إنسانى تفرضه الأخوة الإنسانية، وتقتضيه لحمة النسب بين الإنسان والإنسان - هى حماية للأغنياء أنفسهم، وضمانة لأمنهم وسلامتهم فى أموالهم وأنفسهم من عادية الفقراء والمساكين عليهم، والتذرع بكل وسيلة ممكنة يجد فيها الفقراء منفذا ينفذون منه إلى ما عند الأغنياء، ليشبعوا جوعتهم، وليدفعوا عن أنفسهم خطر الموت جوعا.

فإذا لم تكن الزكاة فسيبقى الفقراء والمساكين جياعا عرايا قد خلت أيديهم من كل مال وليس لهم ما يجبرهم، وربما حملهم شدة الحاجة ومضرة المسكنة على الالتحاق بأعداء المسلمين والإقدام على الأفعال المنكرة، كالسرقة والنهب والاغتصاب والقتل الفردى أو الجماعى، وكل هذا - وكثير غيره - مما يتولد عن شدة الحاجة، وهو مما يراه الجياع المحرومون - ان كان للجائع المحروم أن يرى - حقا مشروعا لهم فى الدفاع عن النفس، واتقاء خطر الموت الذى يتهددهم، إذ ليس عند الفقير المحروم المشرف على الموت جوعا ما يحرص عليه غير نفسه تلك التى يكاد يفقدها، ان هو لم يعمل على انقاذها، ولو كان ذلك يحمله على ركوب كل مهلكة، فإنه هالك لا محالة، إن هو لم يعمل عملا فى وجه هذا الخطر الذى يتهدده، ورنه لابد له أن يعمل بدافع غريزة حب البقاء، ولن يكف عن العمل مادام فى صدره نفس يتردد.

ان الغريق الذى ابتلعه اليم لا يكف عن الضرب بكيانه كله فى وجه الماء ضربات محمومة مجنونة يائسة، وكأنه بهذا ينتقم لنفسه من اليم الذى أوقعه فى شباكه! يقول الإمام الشافعى رحمه الله: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فإنه مَوله العقل» أى شارد العقل مضطرب التفكير.. فالفقراء خطر يهدد المجتمع من أكثر من وجه.. يهددونه بالخروج على شرائعه السماوية والوضعية، وبالتحلل من كل نظام يحكم الجماعة، ويدفع عدوان بعضها على بعض وذلك بمد أيديهم إلى ما ليس لهم، وفى هذا ازعاج للمجتمع، واثارة للفتن والإضطرابات فى كيانه، ويهددونه بإشاعة البطالة، وسوء استغلال الموارد المتاحة له، حيث لا يجد الفقير القدرة على العمل، وهو تحت وطأة الجوع والحرمان، وإذا وجد القدرة فلن يجد بين يديه الوسائل التى تمكنه من العمل.. وفى هذا خسارة يعود ضررها على المجتمع كله، وبخاصة أغنياء المجتمع الذين يفقدون اليد العاملة القوية التى تعمل لهم، كما يفقدون اليد القادرة على تبادل المنافع معهم.

ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة، إن فرض على المسلمين الزكاة وجعلها ركنا من أركان الدين لمن ملك نصابا معينا من المال، وكان من تدبير الإسلام أيضا إن بدأ بالفقراء والمساكين، وجعل داءهم هو الداء الأول الذى

يتهدد المجتمع بالضياع ويؤذنه بالهلاك، إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة. ورصد كل قواها للقضاء عليها وشفاء المجتمع منها.

والتكافل بين المسلمين هو ملاك الشريعة الإسلامية، إذ المسلمون فى حقيقتهم كيان واحد. كل فرد منهم هو عضو فى الجسد الاجتماعى الكبير، ولن تقوم سلامة هذا الجسد إلا بسلامة جميع أعضائه.

وقد اختلفت عبارات الفقهاء والمفسرين فى التفرقة بين الفقير والمسكين.. وجعلوا ذلك من تقاليد المذاهب التى يتعصب لها بعضم على بعض.. وجمهور الفقهاء على أنهما صنفان مستقلان لكن:

أ - قال بعضهم: إن الفقير اسوأ حالا وأشد حاجة من المسكين[١٣].

ب - وقال بعضهم : العكس [١٤]

ج - وذهب بعضهم إلى أنه لا فرق بينهما وهما صنف واحد ١٥[١٥]، والعطف الواقع بينهما هو من عطف البيان.

د - ورأت طائفة: أن الفقراء هم المحتاجون من المسلمين، وأن المساكين هم الفقراء من أهل الذمة الذين فرضت عليهم الجزية [١٦] واحتجوا بأنه ليس فى المسلمين مسكين وإن كان فيهم الفقير، لأن المسكين من المسكنة والذلة والضراعة، وما يلبس المسلم - مع الإسلام - ثوب المسكنة والذلة والضراعة أبدا، وإن عضد الفقر وأضر به الضر.. وقد ذكر الله فقراء المسلمين فقال: (للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا)[١٧] كما ذكر المسكين فى معرض الذلة والمهانة فقال: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)[١٨] فهذه الأصناف الثلاثة يحتويها الضعف وتشتمل عليها الذلة، وقال: (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة)[١٩] فقد جمعت الآيات بين العبد الرقيق واليتيم الفقير والمسكين المشرب وفقير المسلمين - كما قالوا - لا يكون على هذا المستوى الإنسانى أبدا من الاستكانة والذلة والضعف، بل هو من ايمانه بالله فى عزة وقوة وان صفرت يداه من الأصفرين! والذميون - وهم الذين فى يد المسلمين وذمتهم - من أهل الكتاب فيهم - كما فى كل جماعة - من هم فى حاجة إلى الصدقة التى تسد مفاقرهم، وتدفع غائلة الحاجة عنهم، فإذا جعل الإسلام نصيبا مفروضا فى الزكاة لفقراء أهل الذمة فذلك من البر الذى دعانا الله إليه نحوهم فى قوله :(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتسقطوا إليهم ان الله يحب المقسطين)[٢٠].

ه - ويرى بعض العلماء المستقلين: أنهما قسمان لصنف واحد يختلفان بالوصف لا بالجنس، قال: ويكفى من دلالة العطف فيها على المغايرة تغايرهما فى الوصف[٢١]، وعلى هذا القول: فالفقير هو المحتاج فى معيشته إلى مواساة غيره لعدم وجود ما يكفيه بحسب حاله، والمسكين هو الفقير الذى كان الفقر سبب سكونه، وذلك لقلة الحركة والاضطراب الحسى من الضعف

والعجز، أو النفسى من القناعة والصبر، أو هو القانع الذى يتجمل فلا يبدى حاجته ولا يسأل، وهو الراجح بل المتعين ويدل عليه حديث «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف، اقرأوا ان شئتم لا يسألون الناس الحافا» لفظ «ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» والحديث بلفظيه متفق عليه، وهو صريح فى ذلك[٢٢].

٣ـ العاملون عليها: وهم الذين يوليهم الإمام أو نائبه العمل فى جمع الزكاة وتحصيلها من الأغنياء وحفظها وحراستها، وهم الجباه والخزنة والحراس والصيارفة والكتبة لديوانها والرعاة للأنعام منها وغير ذلك من مباشرة مصالحها، فهؤلاء جميعا مشتغلون بجمعها عاملون على تحصيلها، ومن ثم وجب أن ينالوا نصيبا منها يكفل لهم الحياة المناسبة لهم.. إنهم عاملون، ولابد لكل عامل من أجر فى مقابل ما يعمل، فيعطون أجرة عملهم من الزكاة مالم تخصص لهم رواتب من بيت المال العام [٢٣] ولا يشترط أن يكون فقيرا، بل يعطاها ورن كان غنيا.. روى أحمد والشيخان عن بسر بن سعيد ان ابن السعدى المالكى قال: استعملنى عمر على الصدقة، فلما فرغت منها وأديتها إليه أمر لى بعمالة، فقلت: إنما عملت لله، فقال: خذ ما أعطيت فإنى عملت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعملنى، فقلت مثل قولك، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدق».

٤ـ المؤلفة قلوبهم: وهم الطوائف: منهم الذين دخلوا فى الإسلام ولكن على ضعف فيعطون لتقوى نيتهم فى الإسلام ويثبتوا عليه، ومنهم الذى يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا، ومنهم الذين كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا، ويرجى تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون.

وهذا المال ليس رشوة يقدمها الإسلام لتلك الجماعات المتأبية عليه المزورة عنه، حتى تسكت عنه ولا تقف فى سبيله، وإنما الذى قصد إليه الإسلام من هذا هو أن يروض جماح هذه الجماعات ويهدئ من ثائرتها، ويطفيء من نار حنقها وضغنها على الإسلام، حتى تستطيع أن تنظر إليه، وتعرض دعوته على العقل، بعيدا عن دخان الحقد وضبابه.. وبهذا يكون حكم هذه الجماعات على الدين الذى يدعون إليه حكما صحيحا قائما على النظر والتعقل والتدبر.

وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفه قلوبهم بعد غلبة الإسلام فيرى كثير من الفقهاء أن نظرة الإسلام إلى هذا الصنف إنما كان أول الإسلام حيث حاجة المسلمين، إلى من يكثر جمعهم ويسند ظهرهم من الرجال ولكن لما قويت شوكة الإسلام وكثرت أعداد المسلمين لم يكن ثمة داع يدعو إلى عملية التأليف هذه، وعلى هذا فقط أسقط سهمهم من الزكاة .. قال الشافعى: لا تتألف كافرا، فأما الفاسق فيعطى من سهم التأليف، وقال أبو حنيفة وأصحابه: قد سقط بإنتشار الإسلام وغلبته.. واستدلوا على ذلك بإمتناع أبى بكر من اعطاء أبى سفيان وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس[٢٤] وفى الهداية [٢٥] ان هذا الصنف من الأصناف الثمانية قد سقط وانعقد اجماع الصحابة على ذلك فى خلافة الصديق، وروى أن عيينه والأقرع جاءا يطلبان ارضاء من أبى بكر، فكتب بذلك خطا فمزقه

عمر رضى الله عنه وقال: هذا شيء كان يعطيكموه رسول الله صلى الله عليه وسلم تأليفا لكم، فأما اليوم قد أعز الله تعالى الإسلام وأغنى عنكم، فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبى بكر فقالوا: أأنت الخليفة أم عمر؟ بذلت لنا الخط ومزقه عمر، فقال رضى الله عنه: هو ان شاء، ووافقه ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

الرأى الراجح عندى:

ولكن المنهج الحركى لهذا الدين سيظل يواجه فى مراحله المتعددة كثيرة من الحالات تحتاج إلى اعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه: أما اعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون فى أرزاقهم لإسلامهم كأناس فى الهند وغيرها الآن، أو يغرون من المبشرين والمستعمرين على الكيد للإسلام ومنهم فى ديارنا كثيرون، وإما تقريبا لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك.

واذن فالذى تراه أن تأليف القلوب وشدها إلى الإسلام والعمل على تعاطفها معه أمر لازم للدعوة الإسلامية فى حال ضعف المسلمين وقوتهم على السواء.. فتأليف القلوب على الإسلام وقتل ضغنها عليه وشنأنها له هو تدبير حكيم وسياسة رشيدة لا تستغنى عنها دعوة جاءت لهداية الناس وخيرهم وإسعادهم، فهذا التدبير الحكيم من شأنه.. أولا أن يشفى هؤلاء المرضى.. مرضى القلوب.. من دائهم الذى عزلهم عن الإسلام وحجزهم عن الإنتفاع به والإهتداء بهديه، وهو ثانيا - إذ يجلب للمسلمين قوة جديدة بإضافة هؤلاء المؤلفة قلوبهم إليه، يدفع عن الإسلام والمسلمين شرا كان يتربص به وعداوة كانت تتحين الفرص للنيل منه وهو ثالثا - يوقف أو يقلل التيار التبشيرى المدعم بالمال والقوة المتدفقين من أوروبا وأمريكا.. وقد طال نوم المسلمين وامتد عليهم الليل الذى احلولك ظلامه ولما يطلع له فجر.

فأولى الناس بالتأليف فى زماننا هذا قوم من المسلمين يتزلفهم الكفار ليدخلوهم تحت حمايتهم أو فى دينهم .. فإننا نجد دول الإستعمار الطامعة فى استعباد جميع المسلمين وفى ردهم عن دينهم يخصصون من أموال ميزانياتهم سهما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين: فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره واخراجه من حظيرة الإسلام، ومنهم من يألفونه لأجل الدخول فى حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية أو الوحدة الإسلامية.. أفليس المسلمون أولى منهم بهذا وأجدر؟

فإذا أدركنا هذه الحقيقة رأينا مظهرا لكمال حكة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال.. وهذا الرأى قد ارتضاه جماعة من فحول المفسرين.

أ - ففى الرازى (٢٦) والصحيح أن هذا الحكم غير منسوخ، وأن للإمام أن يتألف قوما من المسلمين أو غيرهم ويدفع إليهم سهم المؤلفة.

ب - وقال الطبرى: (٢٧) وقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم من أعطى من المؤلفة قلوبهم بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله، فلا حجة لمحتج بأن يقول: لا يتألف اليوم على الإسلام أحد لإمتناع أهله بكثرة العدد من ارادهم.

ج ـ وقال الشوكانى فى نيل الأوطار:[٢٨] وقد ذهب إلى جواز التأليف العترة والجبائى وابن بشر.. قال: والظاهر جواز التأليف عند الحاجة إليه، فإن كان فى زمن الإمام قوم لا يطيعونه إلا للدنيا، ولا يقدر على إدخالهم تحت طاعته بالقسر والغلب فله أن يتألفهم، ولا يكون لفشو الإسلام تأثير، لأنه لم ينفع فى خصوص هذه الواقعة.

د ـ وقال المنار [٢٩] تعقيبا على الشوكانى: وهذا هو الحق فى جملته وإنما يجيىء الإجتهاد فى تفصيله من حيث الإستحقاق والمقدار الذى يعطى من الصدقات ومن الغنائم إن وجدت، والواجب فيه الأخذ برأى أهل الشورى، كما كان يفعل الخلفاء فى الأمور الإجتهادية.

هـ ـ ثم ان رواية تمزيق عمر الخط: لا تقتضى سقوط هذا السهم، وإنما ذلك اجتهاد من عمر رضى الله عنه، بانه ليس من المصلحة استمرار هذا التأليف لهذين الرجلين الطامعين وأمثالهما بعد الأمن من ضرر ارتدادهما لو ارتدا، لأن الإسلام قد ثبت فى أقوامهما، حتى أنه لا يترتب على قتلهما ـ لو ارتدا ـ أدنى فتنة.

و ـ ومن ادعى أنه منسوخ بالإجماع لما تقدم من عمل الخلفاء والسكوت عليه من سائر الصحابة، فدعواه ممنوعة.. الإجماع بثابت بما ذكر، ولا كونه حجة على نسخ الكتاب والسنة الصحيحة.

٥ـ (وفى الرقاب):

هؤلاء هم الأرقاء.. وهم أعضاء ضعيفة فى جسم المجتمع، وأنه لكى لا يشيع الضعف فى هذا الجسم، ولكى يكون على أحسن ما يمكن من الصحة والسلامة يجب أن يعمل على تخليصه من دواعى الضعف التى ألمت به، لا بإستئصال هذه الأعضاء الضعيفة كما تدعو إلى ذلك بعض المذاهب المادية، ولكن بطلب الطلب والعلاج لها من دائها وتصحيح آدميتها ونظمها فى سلك الآدميين.

ذلك حين كان الرق نظاما عالميا تجيىء المعاملة فيه على المثل فى استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم، ولم يكن للإسلام بد من المعاملة بالمثل حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الإسترقاق، وهذا السهم كان يستخدم فى إعانة من يكاتب سيده على الحرية فى نظير مبلغ يؤديه له ليحصل على حريته بمساعدة قسطه من الزكاة، أو بشراء رقيق واعتاقهم من هذا المال من طرف الدولة أو الأفراد[٣٠].

والإسلام يتشوف للحرية، فهو وان لم يستطع ـ فى أول الأمر ـ الغاء نظام الرق بالكلية فقد جفف موارده، وذلك بترغيبه فى الاعتاق واعتباره من أعظم القربات، وجعله من أول خصال الكفارات فى اليمين والقتل والظهار والوطء أو الإفطار عمدا فى نهار رمضان وغيرها.

عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار، فقال: «اعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله، أو ليسا واحدا؟ قال: لا، عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين بثمنها»[٣١]. وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة كان حق على الله عونه: الغازى فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح المتعفف»[٣٢].

ويدخل فى الرقاب المال المدفوع لفك الأمة وعتقها من رق الاستعمار وكيد الدخيل الأجنبى.

٦ ـ (والغارمين):

وهم المدينون فى غير معصية، الذين رهقهم الدين ولم تكن لهم موارد يؤدون منها الدين.. فهذه الجماعة التى ركبها الدين هى فى معرض الضياع أو الانحلال أو الفساد ان لم تجد يدا رحيمة تمسك بها وترفع عن كاهلها هذا العبء الثقيل الذى هو هم بالليل ومذلة بالنهار، وفى تسمية المدينين بالغارمين اشارة إلى أن الدين أيا كان هو غرم واقع على صاحبه، لأنه يحمل المدين عبء إلى العبء الذى كان يحمله من ضيق ذات اليد قبل أن يستدين، فهو حين استدان قد وضع فى يده غلا جديدا وأضاف على كاهله حملا فوق حمل، وأن هذا اليسر الذى وجده بعد أن استدان لم يكن إلا أمرا عارضا لا يلبث أن يزول، ويعود الحال به إلى ما كان عليه، بل وأسوأ مما كان عليه.. فالدين غرم، هكذا يجب أن تكون نظرة المدين إليه، فلا يقدم عليه إلا عند الاضطرار، وأن أقدم عليه فلا يستدين إلا بقدر ما يدفع الحاجة الملحة التى تبرر له يده للاستعانة.

والإسلام إذا وصف الدين بتلك الصفة وجعله غرما على المين لا غنى له، فإنه من جهة أخرى حبب إلى أصحاب الغنى واليسار أن يقرضوا المعسرين من أخوانهم، حتى يحموهم من التعامل بالربا، كما دعا المدينين إلى قضاء دينهم عند أول فرصة تمكنهم من قضائه، وفى هذا يقول الرسول الكريم: «مطل الغنى ظلم»[٣٤].

وفى نظرة الإسلام إلى الغارمين، وفرض نصيب لهم فى الصدقات، سياسة حكيمة وتدبير محكم، يريد به لاإسلام أن يصحح أوضاع المجتمع الإسلامى، ويقضى على العلل التى تنجم فيه قبل أن تعظم وتستشرى.. فالغارم إذا ترك وشأنه لم يستطع الوفاء بدينه، وينشأ عن هذا أمور: منها ضياع مال الدائن الذى خف متطوعا لإنقاذ المدين والأخذ بيده فى ساعة العسرة، والدائن إنما عمل خيرا، ومن حقه أن ينتظر خيرا لما فعل فإذا جاءت عاقبة أمره مع المدين على تلك الصورة ضاقت نفسه بفعل الخير بعد هذا، وكره أن يدخل فى تجربة جديدة كتلك التجربة .. والإسلام حريص على اشاعة المعروف بين الناس، وتبادل الاحسان بين أفرادهم وجماعاتهم.. وموقف كهذا الموقف يقبض يد الناس عن الاحسان، ويزهدهم فيه.. ومنها أن المدين نفسه إذاما وصلت به الحال إلى اليأس من قضاء دينه، صغرت نفسه بين الناس، وخفت ميزانه فيهم، ثم لا يلبث حتى ينعكس ذلك على نظرته هو إلى نفسه، ثم يصبح وإذا هو إنسان ساقط المروءة متعثر الخطا مضطرب الحياة ضائع الوجود.. وإذا فرض الإسلام نصيبا من الزكاة ورصده لقضاء دين المدينيين المفلسين فانه حمى بذلك الدائن والمدين جميعا، وابقى على مشاعر البر والإحسان بين الناس وقطع دواعى الشحناء والعداوة بينهم، وهذا خير وأجدى من إعلان افلاس المدينيين. كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجار مهما تكن الأسباب.. فالإسلام نظام تكافلى لا يسقط فيه الشريف ولا يضيع فيه الأمين، ولا يأكل الناس بعضهم بعضا فى صورة قوانين نظامية كما يقع فى شرائع الأرض أو شرائع الغاب.

ويدخل فى الغارمين من اجتاحته جائحة أو حلت به كارثة.. أخرج ابن جرير عن مجاهد

قال: الغارمون من احترق بيته أو يصيبه السيل فيذهب متاعه ويدان على عياله، وكذا الغارمون لإصلاح ذات البين، وقد كانت العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة فى دية أو غيرها قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة، وكانوا إذا علموا أن أحدهم التزم غرامة بادروا إلى معونته على أدائها وإن لم يسأل.

هذا، و تقييد الدين بكونه فى غير معصية اتجاه معظم الفقهاء، وترى قلة منهم أن لا حكمة لهذا القيد الذى يرد على الآية فى اطلاقها، فيضيق دائرة نفعها، ويحجز خيرها المطلق ورحمتها الواسعة عن أن ينال كل غارم مشرف على الهلاك والضياع... إن الحكم القرآنى. هنا. يواجه حالا واقعة، ويداوى علة قائمة، ويستنفذ غريقا مشرفا على الغرق، قالوا: وإذا كان الأمر على تلك الصفة فإنه ليس من الحكمة ولا من المنطق أن يقلب أحد صفحات هذا الإنسان ويستعرض تاريخه، ثم ليحكم هو أهل لأن يمد إليه يده لينقذه أم يدعه حيث هو يلقى مصيره المحتوم كلا، ان المطلوب أولا هو انقاذ هذا الإنسان دون نظر إلى أى اعتبار آخر، فإذا أنقذ كان من الممكن أن ينصح له، وكان من المرجو له أيضا أن ينتصح وأن يتقبل هذا الاحسان الذى يجىء إليه فى صورة هداية وتبصرة له بعد أن تلقى هذا الاحسان الذى أمسك عليه حياته وأنقذه من وطأة الدين الذى انقض ظهره.

والحق أن الإسلام قد صنع مع المدينين أكثر من هذا فهو:

أولا: مع كراهته سؤال الناس فقد سمح للغارمين بالمسألة اشفاقا عليهم عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال: «أن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع، أو لذى دم موجع»(٣٥) وعن قبيصة بن مخارق الهلالى قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل اصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قالك سدادا من عيش. ورجل أصابته فاقه حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش. أو قال: سدادا من عيش. أمر الإسلام الدائن أن يتنازل يا قبيصة فسحت، يأكلها صاحبها سحتا»(٣٦).

ثانيا: أمر الإسلام الدائن أن يتنازل عن بقية حقه إذا أعطى الدين من الصدقة، ولم يوف ذلك بالدين.. عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه فقال رسول الله صلى اله عليه وسلم: «تصدقوا عليه» فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك»(٣٧).

ثالثا: وتكفل الإسلام. من بيت المال. بقضاء دين المدينين ممن يتوفون وليس فى تركتهم ما يقضى دينهم .. عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «فايما مؤمن مات وترك مالا فليشربه عصبته من كانوا، ومن نترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه(٣٨).

هذا شيء رائع معجز، لايمكن أن يقع فى حساب تشريع وضعى، مهما بلغ من المثالية والإحكام، وإنما هو مما تجيء به السماء من رحماتها وبركاتها، وانه بحسب الإسلام أن يقدم الإنسانية هذه اللفتة الرائعة من لفتاته فى بناء المجتمع وحياطة بنيانه من دواعى التصدع والتشقق، فتلك نظرة من نظراته النافذة إلى الصميم من حياة المجتمع، لا تستطيع الشرائع الوضعية فى أعمق نظراتها أن تحوم حولها.

٧ ـ (وفى سبيل الله):

وذلك باب واسع يدخل فيه كل مصلحة عامة للجماعة المسلمة تحقق اعلاء كلمة الله وإقامة أمر الدين والدولة، وتأييد الحق، وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد، ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة.. وذلك ينتظم أمورا كثيرة:

١ـ أإولها وأولاها بالصدارة وأحقها بالتقديم، اعداد العدة للجهاد، وتجهيز المجاهدين وتدريبهم، وامدادهم بالعتاد والمؤن والسلاح وغيرها وبناء الحصون والقلاع والدشم والخنادق، واعداد البوارج والغواصات والسفن الحربية، والعربات المصفحة والدبابات والمدرعات، والطائرات الحربية على اختلاف أنواعها، والمدافع والقنابل ـ حتى الذرية ان اقتضى الأمر ـ مما يعين المجاهدين على الجهاد لتأمين المجتمع وحمايته من عدوان المعتدين ودفع الأعداء إذا هددوا أمتنا، أو أغاروا على أرضنا، أو نهبوا أموالنا، أو صادرونا فى تجارتنا أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس، ولا يختص ذلك بالقتال لأجل الشرك، وإنما يعم القتال لبغى والظلم والفساد، إلى غير ذلك مما هو أثر فى واقع أمره للشرك وعدم الإيمان، وان قال الظالمون المفسدون إنهم مؤمنون.. ولكثرة اقتران الجهاد الدينى فى القرآن بكونه فى سبيل الله اتفقت المذاهب على أن الغزاة والرابطين هم المقصودون بهذا الصنف.

٢ـ ومن أهم ما ينفق فى سبيل الله فى زماننا هذا إعداد الدعاة وبعث البعوث للدعوة إلى الإسلام وبيان أحكامه وشرائعه أجمعين، وبخاصة إرسال الدعاة إلى بلاد الكفار كما يفعل الكفار فى نشر دينهم.

٣ـ ويدخل فيه النفقة على تعليم العلوم الشرعية وغيرها مما تقوم به المصلحة العامة، وعلى تأسيس المدارس والجامعات التى تربى الناشئة تربية إسلامية صحيحة، فلا نكلهم إلى مدارس تعلمهم كل شيء إلا الإسلام، ولا مدارس المبشرين تعتدى على طفولتهم وحداثتهم وهم لا يملكون رد العدوان.

٤ـ إنشاء المستشفيات العسكرية والمدنية وإنشاء الطرق وتعبيدها ومد الخطوط الحديدية وبناء دور الصناعة التى تتوقف عليها حياة الأمة ورقيها، وتحقق اكتفاءها بنفسها وتدفع حاجتها إلى غيرها.

٥ـ ويجوز الصرف من هذا السهم على تأمين طرق الحج وتوفير الماء والغذاء وأسباب الصحة للحجاج إن لم يوجد لذلك مصرف آخر [٣٩] روى أحمد ـ بسنده ـ عن أبى لاس الخزاعى قال: حملنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبل من الصدقة إلى الحج.

٦ـ وفى الرازى [٤٠]: وأعلم أن ظاهر اللفظ فى قوله : (وفى سبيل الله) لا يوجب القصر على لغزاه، فلهذا المعنى نقل القفال فى تفسيره عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد، لأن فى سبيل الله عام فى الكل.

هذا، ولا نعرف لكلمة «سبيل الله» فى القرآن الكريم معنى غير البر العام والخير الشامل، حتى آية مصارف الزكاة هذه، ومن الغريب أن أكثر الناس مع وضوح إرادة العموم فيها حملوها على خصوص منقطع الغزاه أو منقطع الحج، ولا نرى لهذا التخصيص من باعث سوى اعتبارات لا تنهض دليلا على التخصيص.[٤١]

٨ ـ «وابن السبيل»:

وهو المسافر فى طاعة، أو على الأقل فى غير معصية .. المنقطع عن ماله ولو كان غنيا فى بلده.. والمسافر على تلك الصفة هو إنسان فى معرض الضياع والهلاك، ان لم يجد اليد الرحيمة التى تمتد إليه بالبر والإحسان، فتدفع عنه عادية الجوع التى تهجم عليه وتريد اغتياله.

وفى جعل بيت المال هو الذى يقوم بهذا الأمر ويتولى رعاية أبناء السبيل، فى هذا ضمان موثق لحماية هذه الطائفة، إذ كان بيت المال بموارده الكثيرة أقدر على كفالة هذه الجماعة وتتغير أسباب الحماية لها، ثم هو ـ من جهة أخرى ـ صيانة لكرامة الإنسان من أن يمد يده إلى غيره من الناس أو أن يستشعر أنه عالة على أحد، الأمر الذى عافاه الله منه، إذ جعل إلى بيت المال كفالة هذا الإنسان والبر به والإحسان إليه.

ومن جهة أخرى: فإن الإسلام قد نظر نظرة أوسع من هذا، فلم يجعل إلى بيت المال وحده القيام بهذا الواجب حيال أبناء السبيل، فقد يكون ابن السبيل فى مكان لا تصل إليه يد بيت المال، وقد يكون بيت المال ولا مال فيه يتسع للوفاء بحاجة المحتاجين من أبناء السبيل.. ومنأجل هذا فقد فرض الإسلام على المسلمين جميعا القيام بهذا الواجب إذا عرض لهم، وطلع عليهم ابن سبيل أو أبناء سبيل! روى البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر قال: قلنا يا رسول الله، تعبثنا فننزل بقوم لا يقروننا، فما ترى فى ذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم ما ينبغى للضيف فأقبلوا منهم، ورن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم» وعنه صلى الله عليه وسلم قال: «أيما مسلم ضاف قيما فأصبح الضيف محروما فإن حقا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه أو ماله» وعن أبى كريم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بغنائه محروما كان دينا عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه».

فإلى هذا الحد تبلغ عناية الشريعة الإسلامية ورعايتها للغرباء الضعفاءفى المجتمع الإسلامى، حتى لتجعل فرضا على كل مسلم نزل به ابن سبيل أن يجعله ضيفا عليه، وأن يقدم إليه من البشاشة والرعاية والإكرام ما يقدم للضيف العزيز دون من أو أذى، ودون ضيق أو

تكره.. إنه صاحب حق، وهو إذ ينزل بأحد المسلمين فإنما ليستقضى حقه عنده.. وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»[٤٢] فأين فى دنيا الناس هذا المجتمع الذى ينزل فيه الفقير الغريب منزلة الضيف العزيز المكرم، ان ذلك لن يكون إلا فى المجتمع الإسلامى الذى يحفظ شريعة الإسلام ويقيم سلوكه عليها، وهو فى الوقت ذاته من عناية الإسلام بالسياحة، بالإعانة عليها ولا يعرف مثلها فى دين آخر، وإذا كان إكرام ابن السبيل وضيافته حقا واجبا على المسلمين على هذا النحو وذلك فى غير مال الزكاة فلأن يكون رعايتهم وكفالتهم من مال الزكاة أولى.

وعندنا اليوم من أبناء السبيل الذين طالت غربتهم لاجئون مشردون من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التى دنسها الرستعمار والطغيان تتولى الدول الاستعمارية كفالتهم لتأكل رجولتهم ومروءتهم وتبقيهم متسولين منحلين، لا يفكرون فى وطن ضائع ولا عزة جريحة، وتبيدهم ابادة منظمة باسم الاغاثة، ولو كان لهم سهم من الزكاة فى الوطن الإسلامى الكبير مالقوا هذا المصير المفزع الذى يلقاه لاجئو فلسطين من المشردين.

والحاصل: إن فى الأصناف الأربعة الأول بصرف المال إليهم حتى يتصرفوا كما شادوا فى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة، وبعضهم يرى أن ما دخلت عليه «فى» فى النص مثل «فى الرقاب» و«فى سبيل الله» فسهم الزكاة فيه مستحق للجهة، وما كان غير ذلك فهو مستحق للأشخاص، والله تعالى جعل الصدقة فى معنيين: أحدهما سد خلة المسلمين، والآخر معونة الإسلام وتقويته، فما كان فى معونة الإسلام وتقوية أسبابه فإنه يعطاه الغنى والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالجهاد فى سبيل الله، وإنما يعطاه معونة للدين، وذلك كما يعطى من يعطاه بالجهاد فى سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيا كان أو فقيرا، للغزو لا لسد خلته، وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحا باعطائهم أمر الإسلام وطلب تقويته وتأييده، كما تقدم.. عن أبى سعيد الخدرى رضى الله نه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: لعامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز فى سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى منها»[٤٣].

إن هذا التشريع الذى شرعه الله فى أموال الأغنياء، ثم رد هذه الأموال على تلك الجهات التى بينها الله تعالى فى الآية الكريمة، هذا التشريع هو فرض محكم فرضه الله على المسلمين وأوجب عليهم أداءه على هذا الوجه الذى شرعه، فليس لأحد فيه رأى .. «فريضة من الله والله عليم حكيم».. عليم بحال عباده ومصالحهم ومراتب استحقاقهم، حكيم فيما يشرعه لهم، فهو لتطهير أنفسهم وتزكيتهم بما يحمل عليها من الاخلاص والشكر له تعالى وارضائه بنفع عباده.. فهذا التشريع الذى شرعه هو مما قضى به علمه وحكمته.. علمه الذى يحيط بكل شىء، وينفذ إلى كل شىء، ويستولى على كل شىء، وحكمته المقدرة لكل أمر، المحكمة لكل تدبير، فليس بعد قضاء الله قضاء، ولابعد تدبيره تدبير، ولا وراء حكمه حكم، من أخذ به اهتدى وآمن وسعد، من عدل عنه ضل وخاب وشقى.

التزام أداء الزكاة كاف لإعادة مجد الإسلام

إن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه، واعتبارها من أركانه الأصيلة التى لا يقوم إلا بها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقامة الصلاة واتياء الزكاة والحج وصوم رمضان»[٤٤] ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا إلى اليمن قال: «أدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[٤٥] وعن أبى بكر رضى الله عنه قال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال»[٤٦] وعن جرير بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[٤٧] وقرنها بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية، وجعلها حقا واجبة (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)[٤٨] ورغب فى أدائها (ويأخذ الصدقات)[٤٩] (ويربى الصدقات)[٥٠] «ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثا فاحفظوه، ما نقص مال من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا راده الله بها عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[٥١].

«تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل»[٥٢] «من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره»[٥٣].

هذه هى الزكاة التى يتقول عليها المتقولون فى هذا الزمان، ويلمزونها بأنها نظام تسول واحسان [٥٤].. هذه هى فريضة اجتماعية تؤدى فى صورة عبادة إسلامية ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح، وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة تندى جو الحياة الإنسانية، وتمسح على جراح البشرية، وتحقق فى الوقت ذاته التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى فى أوسع الحدود وتبقى لها صفة العبادة التى تربط بين القلب البشرى وخالقه كما تربط بينه وبين الناس.

ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم . بعد أن كثرهم الله ووسع عليهم فى الرزق . فقير مدقع ولا ذو غرم مفجع، ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة فجنوا على أنفسهم وملتهم وأمتهم «ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وأن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا إليما»[٥٥] وبذلك صاروا أسوأ حالا من جميع الأمم فى مصالحهم المالية والسياسية، حتى فقدوا ملكهم وعزهم وشرفهم، وصاروا عالة على أهل الملل الأخرى حتى فى تربية أبنائهم وبناتهم.. وإذا قيل لهم: لماذا لا تؤسسون لأنفسكم مدارس وجمعيات خيرية تنشر الإسلام وتدعو إليه فى سائر البقاع كما يفعل الرهبان والمبشرون أو المداحدة الاباحيون لمعتقداتهم؟ قالوا: إننا لا نجد من المال ما يقوم بذلك، وليس الأمر كما زعموا بل الحق أنهم لا يجدون من الدين والعقل وعلو الهمة والغيرة ما يمكنهم من ذلك فهم يرون أبناء الملل الأخرى يبذلون للمدارس وللجمعيات الخيرية والسياسية والتبشيرية ما لا يوجبه عليهم دينهم وإنما

أوجبته عليهم عقولهم وغيرتهم الملية والقومية، ولا يغارون منهم، وإنما يرضون أن يكونوا عالة عليهم، تركوا دينهم فضاعت باضاعتهم له دنياهم ..(نسوا الله فنسيهم)[٥٦] (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)[٥٧] فالواجب على دعاة الإصلاح فيهم أن يبدأوا بإصلاح من بقى فيه بقية من الدين والشرف بتأليف جمعية لتنظيم جمع الزكاة منهم، وصرفها لمستحقيها على أنيراعى أن لسهم المؤلفة قلوبهم مصرفا فى مقاومة الردة والالحاد، وان لسهم فك الرقاب مصرفا فى تحرير الشعوب المستعمرة فى الاستعباد، وأن لسهم سبيل الله مصرفا فى السعى لإعادة حكم الإسلام، وهو أهم من الجهاد لحفظه فى حال وجوده من عدوان الكفار، ومصرفا آخر فى الدعوة إليه والدفاع عنه بالألسنة والأقلام، إذا تعذر الدفاع عنه بالمدافع والقنابل.

إلا أن أبناء جميع المسلمين أو أكثرهم للزكاة وصرفها بنظام، كاف لإعادة مجد الإسلام، بل لإعادة ما سلبه الأجانب من دار الإسلام، وإنقاذ المسلمين من رق الكفار، وما هى إلا بذل العشر أو نصفه أو ربعه مما فضل عن حاجة الأغنياء، وإننا نرى الشعوب التى سادت المسلمين بعد أن كانوا سادتهم، يبذلون أكثر من ذلك فى سبيل عقيدتهم، وهو غير مفروض عليهم من ربهم، فهل نجد من أهل الاستقامة والقدرة من ينهض به؟ اللهم وفق وأعن وسدد خطا المصلحين.

عقاب مانعى الزكاة

قال الله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)[٥٨].. والآية تصور عذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها فى سبيل الله، ولا يصرف منها فى أى وجه من وجوه الخير العام، بل يجمعها ويكدسها، لا لغاية إلا حب التملك والإقتناء.. تصور عذابهم فى الآخرة بما كنزوا من مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة .. إن رسم المشهد هكذا فى تفصيل، وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة ليطيل المشهد فى الخيال والحس، وهى اطالة مقصودة (فبشرهم بعذاب أليم).. ويسكت السياق، وتنتهى الآية على هذا الاجمال والإبهام فى العذاب.. ثم يأخذ فى التفصيل بعد الاجمال ليبين هذا المصير المشئوم الذى سيصير إليه هذا المال الكثير بمن اكتنزوه، وأنهم إذ خلفوه وراءهم فلم ينفقوه فى سبيل الله فإنه قد تبعهم إلى آخرتهم ليلقاهم هناك فى يوم القيامة حيث لا بيع ولا شراء.. ولكن لابد أن يكون لهذا المال عمل، وقد صار إلى أصحابه، وليس هناك إلا النار التى يعيشون فيها ويتعاملون معها، (يوم يحمى عليها فى نار جهنم).

وحين يتصل هذا المال ـ من ذهب أو فضة ـ بالنار سيتحول إلى كتل من الجمر، وينتظر السامع عملية الاحماء!

ثم ها هى ذى حميت وأحمرت، وها هى ذى معدة مهيأة فليبدأ العذاب الأليم..

ها هى ذى الجباه تكوى..

لقد انتهت عملية الكى فى الجباه، فليدار على الجنوب..

ها هى ذى الجنوب تكوى..

لقد انتهت هذه، فليدار على الظهور..

ها هى ذى الظهور تكوى..

لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه التزيل والتأنيب، وليأت ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم يقولون لهم.. (هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى هذا العذاب الأليم الواقع بكر هو جزاء ما كنزتم فى الدنيا، أو هذا المال الذى تكوون به هو المال الذى كنزتموه لأنفسكم لتنفرد بالتمتع به.

(فذوقوا ما كنتم تكنزون) ذوقوه بذاته، فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه ذوقوا نكاله، ووبال كنزكم له وامساككم اياه عن النفقة فى سبيل الله، وأطعموا عذاب الله بما كنتم تمنعون منه حقوق الله، وتكنزونه مكاثرة ومباهاة، فهذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة، واعتقدتم منفعة كنزه لأنفسكم خاصة بها لا يشارككم فيها أحد، قد كان لكم عدوا وعليكم ضدا، وانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب فى الآخرة، بعد أن صار فى الدنيا لغيركم، كدأب جميع أهل الباطل، فيما زين لهم من الرذائل.

يرى البخلاء أن البخل حزم، كما يرى الجبناء أن الجبن حزم، وتلك خديعة الطبع اللئيم، واجتهاد الرأى الأفين.. فالأولون من خوف الفقر فى فقر، والآخرون يعرضون أنفسهم للأذى أو الموت بهربهم من الموت!

فإن جبنهم هو الذى يغرى المعتدين بايذائهم ويمكن المقاتلين من الفتك بهم.

إلا انه لمشهد مفزع مروع يعرض فى تفصيل وتطول وأناة، إلا وأن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذى نراه فى المسلمين فى هذا العصر - حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدهم عن دينهم - هو بخل أغنيائهم، وجبن زعمائهم، إذ لو وجهوا هممهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل لتعليم النشأ العلوم الدينية والدنيوية من فنون الحرب وصنع الأسلحة لأمكنهم أن يخرجوا للأمة رجالا يحفظون الدين والملك، ويعيدون إليها مجدها الزائل ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام ويدخلونها فيه أفواجا أفواجا.

بقى فى الآية مباحث

المبحث الأول: فى كيفية الكى والاحماء، ولم خصت هذه الأعضاء؟

(يوم يحمى عليها فى نار جهنم) ظاهر العبادة انه يحمى عليها بأعيانها والله قادر على اعادتها، وان كان المعنى المراد من الانذار يحصل بالاحماء عليها وعلى مثلها، وليس فى أعيانها من المعنى ولا الحكمة ما فى إعادة الأجساد وأمور الآخرة من عالم الغيب، فلا ندرك كنهها وصفاتها من الألفاظ المعبرة عنها.. فمذهب السلف الحق الإيمان بالنصوص مع تفويض كسر الكنة والصفة إلى عالم الغيب سبحانه، والواجب علينا مع الإيمان بالنص العبرة إذ أنها المرادة منه فى اصلاح النفس.

وأوردوا عليه إيرادات:

١. أوردوا عليه أن هذه الأموال تفنى بخراب الدنيا وصيرورة الأرض بقيام الساعة هباء منبثا.. ويجاب عنه بما أجيب عن القول بإعادة الأجساد بأعيانها من قدرة الله تعالى على ذلك.

٢. وأهون منه إيراد كون الدرهم أو الدينار الواحد قد يكنزه كثير من الناس بالتداول، وقد يقال: انهم يكون بها بالتناوب، وفى معناه إيرادهم على إعادة الأعيان ان جسد الإنسان الواحد قد يكون جسدا لكثير من الناس والحيتان والوحوش والأنعام.

٣. وأوردوا كذلك أن جسد الإنسان قد لا يتسع للمحمى عليه من الدراهم والدنانير المكنوزة إذا كثرت، مما يلزم عنه التناوب بينها أو تعطيل بعضها.. ويجاب بأن فى بعض الآثار أن الدنانير والدراهم بينها أو تعطيل بعضها.. ويجاب بأن فى بعض الآثار أن الدنانير والدراهم المكنوزة تحمى عليها وإن كثرت، ويتسع جسده لها كلها حتى لا يوضع دينار مكان دينار ولا درهم بدل درهم، وهذا وإن لم يصح مرفوعا فقد صح موقوفا على عبد الله بن مسعود. كما أخرجه الطبرى. قال: والذى لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما، ولكن يوسع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته.

٤. وأوردوا أيضا أن النصوص متضاربة فى كيفية الكى بذلك: فالآية يوم يحمى عليها فى نار جهنم» وفى صحيح مسلم من حديث أبى ذر ذكر الرضف، وفيه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله لا جعل له يوم القيامة صفاذح من نار»[٥٩] وفى رواية عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله أما إلى الجنة وأما إلى النار» وفى البخارى ومسلم عنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلى النبى صلى الله عليه وسلم :«ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة»[٦٠] وفى رواية النسائى: «ان الذى لا يؤدى زكاة ماله يخيل إليه ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان فيلزمه أو يطوقه، يقول: أنا كنزك أنا كنزك».

قال القرطبى فى الجواب على هذا ولعل هذا يكون فى مواطن: موطن يمثل المال فيه ثعبانا، وموطن يكون صفائح، وموطن يمثل المال فيه ثعبانا، وموطن يكون صفائح، وموطن يكون رضفا، فتغيير الصفات، والجسمية واحدة.[٦١].

ويرى المنار فى الجواب رأيا آخر، فقال بعد ذكر هذه النصوص: فهذا نص صريح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن ذلك التعذيب يجعل المال صفائح بها مانع الزكاة، أو شجاعا

يطوقه، وإنما هو ضرب من التمثيل أو التخيل، لا نفس ذلك المال الذى كان يكنزه فى الدنيا، وبه يبطل كل إيراد ويزول كل أشكال، والتعذيب حقيقى على كل حال.(٦٢).

فإن قيل: الذى يجعل كيا على بدن الإنسان هو كل ذلك المال أو القدر الواجب من الزكاة؟ فالجواب: مقتضى الآية الكل، لأنه لما لم يخرج منه الزكاة لم يكن الحق منه جزءا معينا بل لا جزء إلا والحق متعلق به، فوجب أن يعذبه الله بكل الأجزاء.

وفى قصر الاكتناز على الذهب والفضة اشارة إلى أنهما النقدان اللذان ترجع اليهما جميع العاملات وتوزن بهما كل قيم الأشياء، فهما اللذان يقصدان بالكنز، لأنهما قانون التمول، وذكر كنزهما دليل على ما سواهما.

وإنما خصت هذه الأعضاء بالكى لوجوه:

١. أنهم كانوا يستقبلون بجباههم الناس منبسطة أساريرها من الاغتباط بعظمة الثروة، ويستقبلون بها الفقراء منقبضة من العبوس والتقطيب فى وجوههم لينفروا ويحجموا عن السؤال، وإذا ضمهم والفقراء مجلس ازوروا عنهم وطووا كشوحهم وتولوا بأركانهم، وإذا سألوهم أو أكثروا عليهم ولوهم ظهورهم، فهم إذ قد أعرضوا بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ازورارا وادبارا رتب الله العقوبة على حال المعصية، فلا يكون لهم فى جهنم ارتفاق ولا استراحة فيما سوى الوقوف إلا الانكباب على وجوههم كما قال: «يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر».

٢. وقال علماء الصوفية: لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم، ولما طووا كشحا عن الفقير إذا جالسهم كويت جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتمادا عليها كويت ظهورهم.

٣. إن المقصود من كسب الأموال حصول فرح فى القلب يظهر أثره فى الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، وليس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم أو يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعا واستلقاء، فلما طلبوا تمتيع هذه الأعضاء لا جرم حصل الكى لها.

٤. إن هذه الأعضاء الثلاثة قد حصل فى داخلها آلات ضعيفة يعظم تألمها بسبب وصول أدنى أثر إليها بخلاف سائر الأعضاء.

٥ . إنهم يكوون على الجهات الأربع: أما من مقدمه فعلى الجبهة، وأما من خلفه فعلى الظهر، وأما من يمينه ويساره فعلى الجنبين.

٦. إن أطفل أعضاء الإنسان جبينه، والعضو المتوسط فى اللطافة والصلابة جنبه، والعضو الذى هو أصلب أعضاء الإنسان ظهره، فبين أن هذه الأقسام الثلاثة تصير مغمورة فى الكى.

٧. إن الكى على الوجه أشهر وأشنع، وعلى الجنب والظهر ألم وأوجع.

٨. ان كمال حال بدن الإنسان فى جماله وقوته، أما الجمال فمحله الوجه، وأعز الأعضاء فى الوجه الجبهة، فإذا وقع الكى فى الجبهة زال الجمال بالكلية، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان، فإذا حصل الكى عليها فقد زالت القوة، فحصول الكى فى هذه الأعضاء يوجب زوال الجمال والقوة، والإنسان إنما طلب المال لحصولهما.

المبحث الثانى

فيمن نزلت هذه الآية؟

فى ذلك ثلاثة آراء:

١ـ ان تكون هذه الجملة نزلت فى الكثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وهو مروى عن معاوية والضحاك، ووجهه: أنه مقتضى السياق، وأن الكلام فيهم، فهم الذين جمعوا بين أكل أموال الناس بالباطل من أخذ الرشا وغيره، وبين كنزها والضن بها والإمتناع من انفاقها فى سبيل الله، بل ينفقون كثيرا منها فى صدهم الناس عن سبيل الله.. وفيه على هذا دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

٢ـ ويجوز أن تكون فى المؤمنين المخاطبين بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا) فى أول هذه الآية المبينة لحال أولئك الأحبار والرهبان الذين صار جمع الأموال والافتنان بكثرتها وخزنها فى الصناديق واستغلالها فى البنوك أعظم همهم فى الحياة، لأنهم فقدوا لذة الحياة الروحية بمعرفة الله تعالى وخشيته ومحبته وعبادته. تحذيرا للمؤمنين من الاخلاد إلى هذه الحياة المادية القاسية وهو مروى عن السدى.

٣ـ ويجوز أن تكون فى المسلمين وفى أهل الكتاب جميعا.. وهو مروى عن أبى ذر.. وهو الصحيح المختار، لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال: (ويكنزون) بغير (والذين) فلما قال: «والذين» فقد استأنف معنى آخر، وبين أنه عطف جملة على جملة، وأيضا فإن اللفظ مطلق فيجب جريانه على اطلاقه وعمومه.

وأولئك الأحبار والرهبان يدخلون فيه أولا وبالذات، بدلالة السياق، لأنهم هبطوا فى المطامع المادية إلى أسفل الدكارت فيكون نسق الآية أنه تعالى وصفهم بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل، ثم أردفه بوعيد كل من امتنع عن اخراج الحقوق الواجبة من ماله، تنبيها على أنه لما كان حال من أمسك مال نفسه غير مزكى كل هذا الوعيد، فما ظنك بحال من سعى فى أخذ مال غيره بالباطل والتزوير والمكر.

وروى البخارى وغيره من حديث زيد بن وهب قال: مررت بالربذة[٦٣] فإذا أنا بأبى ذر رضى الله عنه فقلت: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) فقال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذلك[٦٤]، وكتب إلى عثمان رضى الله عنه يشكونى، فكتب إلى عثمان: أن أقدم المدينة، فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك[٦٥] فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شائت تنحيت فكنت قريبا، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أمروا على حبشيا لسمعت وأطعت.. وذكر الحافظ فى شرح هذا الحديث من الفتح: أن زيد بن وهب إنما سأل أبا ذر عن نزوله فى ذلك المكان لأن مبغضى عثمان كانوا يشنعون عليه نفى أباذر، وقد بين أبو ذر أن نزوله فيه كان باختياره. «قال»: نعم أمره عثمان بالتنحى عن المدينة لدفع المفسدة التى خافها على غيره من مذهبه المذكور، فاختار الربذة، وقد كان يغدوا إليها فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كما

رواه أصحاب السنن من وجه آخر، «قال»: وفى طبقات ابن سعد من وجه آخر: ان ناسا من أهل الكوفة قالوا لأبى ذر - وهو بالربذة - ان هذا الرجل فعل بك وفعل، فهل أنت ناصب لنا رايته؟ - يعنى فنقاتله - فقال: لا، لو أن عثمان سيرنى من المشرق إلى المغرب لسمعت وأطعت. وذكر عن أبى يعلى باسناد فيه ضعف عن ابن عباس قال: استأذن أبو ذر على عثمان: أنه يؤذينا، فلما دخل قال له عثمان: أنت الذى تزعم أنك خير من أبى بكر وعمر؟ قال: لا، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ان أحبكم إلى وأقربكم منى من بقى على العهد الذى عاهدته عليه» وأنا باق على عهدى، قال: فأمره أن يلحق بالشام، وكان يحدثهم ويقول: لا يبتين عند أحدكم دينار ولا درهم، إلا ما ينفقه فى سبيل الله أو يعده لغريم فكتب معاوية إلى عثمان: إن كان لك بالشام حاجة فابعث إلى أبى ذر، فكتب إليه عثمان أن أقدم على فقدم أ.هـ[٦٦] وفى الألوسى: فاستدعاه إليها فرآه مصرا على ذلك، حتى أن كعب الأحبار قال له: يا أباذر، إن الملة الحنيفية أسهل الملل وأعدلها، وحيث لم يجب انفاق كل المال فى الملة اليهودية وهى أضيق الملل وأشدها، كيف يجب فيها؟ فغضب رضى الله عنه، وكانت فيه حدة - وهى التى دعته إلى تعبير بلال رضى الله عنه بأمه، وشكايته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله فيه «إنك امرو فيك جاهلية» - فرفع عصاه ليضربه وقال له: يا يهودى ماذاك من هذه المسائل فهرب كعب فتبعه حتى استعاذ بظهر عثمان، فلم يرجع حتى ضربه.أ هـ [٦٧] وإنما ذكرت حديث أبى ذر هذا بكماله لما فيه من الفوائد:

١- فيه عمرة بما كان من دسائس الشيعة فى الخروج على عثمان رضى الله عنه.

٢- وفيه أن حرية العلم والرأى واحترام العلماء كانت على عهد الصحابة رضى الله عنهم فى أعلى درجات الكمال.

٣- وفيه ملاطفة الأذمة للعلماء، فإن معاوية لم يجسر على الانكار عليه حتى كاتب من هو أعلى منه فى أمره، وعثمان لم يحنق على أبى ذر مع كونه كان مخالفا له فى تأويله.

٤- وفيه التحذير من الشقاق والخروج على الأئمة، والترغيب فى الطاعة لأولى الأمر.

٥- وأمر الأفضل بطاعة المفضول خشية المفسدة.

٦- وجواز الإختلاف فى الاجتهاد

٧- والأخذ بالشدة فى الأمر بالمعروف وان أدى ذلك إلى فراق الوطن.

٨- وتقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة، لأن فى بقاء أبى ذر بالمدينة مصلحة كبيرة من بعث علمه فى طالبى العلم، ومع ذلك رجع عند عثمان دفع ما يتوهم من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد فى هذه المسألة، ولم يأمره بالرجوع عنه، لأن كلا منهما كان مجتهدا[٦٨].

المبحث الثالث

ما المراد بالكنز؟[٦٩]

اختلف العلماء - حتى من عهد الصحابة - فى المراد بهذا الكنز المذموم المتوعد عليه، وأظهر الآراء فى ذلك مذهبان، نعرضهما وأدلتهما، ثم نبين الحق من ذلك إن شاء الله.

يرى الفريق الأول أن الكنز: كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه، وهو رأى بعض الصحابة أبرزهم أبو ذر رضى الله عنه، وقيده على كرم الله وجهه بما زاد على أربعة آلاف درهم، فهو كنز أديت منه الزكاة أو لم تؤد، قال على: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة وما فوقها كنز [٧٠].

ويرى الفريق الآخر أن الكنز:خ كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد ذكاته وإن كان ظاهرا غير مدفون أو مخبأ، وهو رأى أكثر الصحابة، منهم عمر وابنه وجابر وابن عباس وغيرهم، احتج الذاهبون إلى القول الأول بأمور:

١- عموم هذه الآية، ولاشك أن ظاهرها دليل على المنع من جمع المال، فالمصير إلى أن الجمع مباح بعد اخراج الزكاة ترك لظاهر هذه الآية، فلا يصار إليه إلا بدليل منفصل.

٢- قوله تعالى: (ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: ا لعفو)[٧١] أى ما فضل عن الكفاية فذلك هو الواجب.

٣- عن سالم ابن أبى الجعد قال: لما نزلت (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) قال النبى صلى الله عليه وسلم: «تبا للذهب تبا للفضة» بقولها ثلاثا، قال: فشق ذلك على زصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فأى مال نتخذ؟ فقال عمر: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، ان أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأى مال نتخذ؟ فقال: «لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه»[٧٢].

٤- عن أبى مجيب قال: كان نعل سيف أبى هريرة من فضة، فنهاه عنها أبو ذر وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها»[٧٢].

٥- عن أبى أمامة قال: توفى رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيه».. ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم :«كيتان»[٧٣].

٦- انه تعالى إنما خلق الأموال ليتوصل بها إلى دفع الحاجات، فإذا حصل للإنسان قدر ما يدفع به حاجته ثم جمع الأموال الزائدة عليه فهو لا ينتفع بها لكونها زائدة على قدر حاجته، ومنعها من الغير الذى يمكنه أن يدفع حاجته بها، فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعا من ظهور حكمته، ومانعا من وصول إحسان الله إلى عبيده.

٧- ما روى عن الصحابة، فى هذا الباب: عن أبى هريرة: كل صفراء أو بيضاء أوكى عليها صاحبها فهى كنز.. وعن أبى الدرداء: انه كان إذا رأى العير تقدم بالمال صعد على مكان مرتفع ويقول: جاءت القطار تحمل النار، وبشر الكنازين بكى فى الجباه والجنوب والظهور والبطون، وقد تقدم قول على، وأما أبو ذر فأخباره مشهورة.

أخرج الطبرى، عن حميد بن هلال قال: كان أبو ذر يقول: بشر الكنازين بكى فى الجباه وكى فى الجنوب وكى فى الظهور، حتى يلتقى الحر فى أجوافهم، وأخرج الطبرى أيضا عن الأحنف قال: رأيت فى مسجد المدينة رجلا غليظ الثياب رث الهيئة يطوف فى الحلق وهو يقو:

بشر أصحاب الكنوز بكى فى جنوبهم وكى فى جباههم وكى فى ظهورهم، ثم انطلق وهو يتذمر يقول: ما مى تصنع بى قريش؟

وروى البخارى ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلز[٧٤] ثم ولى، فتبعته وجلست إليه، وأنا لا أدرى من هو، فقلت: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئا، قال لى خليلى - قال: قلت ومن خليك؟ قال: النبى صلى الله عليه وسلم: «يا أباذر أتبصر أحدا؟» قال: فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلنى فى حاجة له، قلت نعم، قال: «ما أحب ان لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»[٧٥] وان هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا، ولا والله لا أسألهم دنيا ولا استفتيهم عن دين، حتى ألقى الله عز وجل.

واحتج الذاهبون إلى القول الثانى بأمور:

١- عموم قوله تعالى «لها ما كسبت»[٧٦] فإن ذلك يدل على أن كل ما اكتسبه الإنسان فهو حقه.

٢- قوله تعالى: (ولا يسألكم أموالكم)[٧٧].

٣- حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى حيث قال: هل على غيرها؟ «يعنى الزكاة» قال صلى الله عليه وسلم: لا، إلا إن تطوع»[٧٨].

٤- وقوله صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»

٥- وقوله صلى الله عليه وسلم: «كل امرئ أحق بكسبه»

٦- وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أدى زكاته فليس بكنز وان كان باطنا، وما بلغ أن يزكى ولم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرا»[٧٩].

٧- ونقل هذا الرأى الحافظ عن ابن عبد البر عن الجمهور، قال: ويشهد له حديث أبى هريرة مرفوعاك «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك».

٨- ولقد كان كثير من الصحابة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وبعده كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن كان يعرض عن القنية، لأن الاعراض اختيار للأفضل والا دخل فى الورع والزهد فى الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه، ولكل شىء حد، وما روى عن على كلام فى الأفضل [٨٠].

٩- انه عليه الصلاة والسلام ندب إلى إخراج الثلث أو أقل فى المرضى، ولو كان جمع المال محرما لكان عليه الصلاة والسلام أقر المريض بالتصدق بكل ما كان يأمر الصحيح فى حال صحته بذلك.

١٠- وما روى عن بعض الصحابة فى هذا الباب، عن ابن عمر قال: ما أدى زكاته فليس

بكنز وان كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وان كان ظاهرا[٨١] وعن جابر قال: أى مال أديت زكاته فليس بكنز [٨٢] وقال جابر: قلت لعامر: مال على رفه بين السماء والأرض لا تؤدى زكاته أكنز هو؟ قال: يكوى به يوم القيامة[٨٣]. وقال ابن عباس: وكل مال لا تؤدى زكاته كان على ظهر الأرض أوفى بطنها فهو كنز، وكل مال تؤدى زكاته فليس بكنز كان على ظهر الأرض أو فى بطنها [٨٤] وقال عمر: ما أديت زكاته فليس بكنز[٨٥].

١١ـ أخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجه وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما انزلت جعلها الله طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبا أعلم عدده أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله. والمراد أن هذا الحكم ـ وهو وجوب انفاق كل ما يملك المؤمن من النقدين ـ كان فى أول الإسلام وقيل فرض الزكاة، وليس معناه أن آية براءة هذه تنزلت قبل ايجاب الزكاة، لما عليه الجمهور من أن الزكاة فرضت فى السنة الثانية من الهجرة، وبراءة نزلت سنة تسع ـ كما تقدم ـ وهى السنة التى عين فيها العمال لجمع الزكاة.

قال الحافظ فى الفتح ضد شرح هذا الحديث: هذا مشعر بأن الوعيد على الاكتناز، هو حبس ما فضل عن الحاجة عن المواساة به، فعلى هذا المراد بنزول الزكاة بيان نصابها ومقاديرها لا انزال أصلها، والله أعلم، وقول ابن عمر: لا أبالى لو كان لى مثل أحد ذهبا، كأنه يشير إلى قول أبى ذر «السابق»، والجمع بين كلام ابن عمر وحديث أبى ذر: أن يحمل حديث أبى ذر على مال تحت يد الشخص لغيره فلا يجب أن يحبسه عنه، أو يكون له لكنه ممن يرجى فضله وتطلب عائدته كالإمام الأعظم، فلا يجب أن يدخر من المحتاجين من رعيته شيئا، ويحمل حديث ابن عمر على مال يملكه قد أدى زكاته فهو يجب أن يكون عنده ليصل به قرابته ويستغنى عن مسألة الناس، وكان أبو ذر يحمل الحديث على اطلاقه، فلا يرى ادخار شىء أصلا، والظاهر أن هذا كان فى أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر ثم نسخ، والله أعلم أ.هـ[٨٦].

الرأى الراجح: والحق من ذلك أن يقال: الظاهر المختار هو رأى الجمهور، لكن الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير، إلا انه لم يمنع عنه فى ظاهر الشرع، فالمذهب الأول محمول على التقوى، والثانى على ظاهر الفتوى.

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فلأمور:

١ـ أن الإنسان إذا أحب شيئا فكلما كان وصوله إليه أكثر والتذاذه بوجدانه أكثر، كان حبه له أشد وميله أقوى، فالإنسان إذا كان فقيرا فكأنه لم يذق لذة الإنتفاع بالمال، وكأنه غافل عن تلك اللذة، فإذا ملك القليل من المال وجد بقدره اللذة فصار ميله أشد فكلما صارت أمواله أزيد كان التلذذ به أكثر، وكان حرصه فى طلبه وميله إلى تحصيله أشد، فثبت أن تكثير المال سبب تكثير الحرص فى الطلب، فالحرص متعب للروح والنفس والقلب، وضرره شديد، فوجب على العاقل أن يحترز عن الإضرار بالنفس.

٢ـ ثبت بالدليل.. كلما كان تملك الأموال أكثر كان الضرر الناشىء من الحرص أكبر، وأنه لا نهاية لهذا الضرر ولهذا الطلب، فوجب على الإنسان أن يتركه فى أول الأمر.

٣. إن كسب المال شاق شديد، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب، فيبقى الإنسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل وأخرى فى تعب الحفظ، ثم إنه لا ينتفع بها إلا بالقليل، وأخيرا بتركها مع الحسرات والزفرات، وذلك هو الخسران المبين.

٤. إن كثرة المال والجاه تورث الطغيان، كما قال تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)[٨٧] والطغيان يمنع من وصول العبد إلى مقام رضوان الرحمن ويوقعه فى الخسران والخزلان.

٥. إنه تعالى أوجب الزكاة، وذلك سعى فى تنقيص المال، ولو كان تكثيره فضيله لما سعى الشرع فى تنقيصه[٨٨].

وأما أنه لا يمنع من جمع المال فى ظاهر الشرع ـ كما هو رأى الجمهور. فلأمور:

١. إن الله تعالى فرض فى زكاة الأموال ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربع العشر، وردا كان كذلك فمعلوم أن القليل من المال وان بلغ فى الكثرة ألوف ألوف، لو كان ـ وان أديت زكاته ـ من الكنوز التى أوعد الله أهلها عليها العقاب، لم يكن فيه الزكاة التى ذكرنا من ربع العشر، لأن ما كان فرضا إخراج جميعه من المال وحرام اتخاذه فزكاته الخروج من جميعه إلى أهله لا ربع عشرة، وذلك يناقض قانون الزكاة.

٢. إن قوله تعالى: (ولا ينفقونها فى سبيل الله) وان كان ظاهره وجوب انفاقها كلها وتوجه الوعيد إلى من يبقى عنده شيئا يزيد على حاجته منها، فهذا لا يتحتم ولا يلزم فى قواعد الشريعة، فإن الله وصف المؤمنين فى كتابه بقوله: (وما رزقناهم ينفقون)[٨٩] (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)[٩٠] (انفقوا من طيبات ما كسبتم)[٩١] (وانفقوا مما رزقناكم)[٩٢] فنجد معنى البعضية فى كل هذه الآيات.

٣. فى الروايات المأثورة ما يدل على أن الصحابة فهموا من الآية وجوب انفاق جميع ما يملك الإنسان من نقد الذهب والفضة، وأن جمهورهم رجعوا عن هذا، وبقى عليه أبوذر رضى الله عنه.

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق واتبعه ثوبان، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبى الله، انه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، فكبر عمر رضى الله عنه، ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[٩٣].

٤. قال الزمخشرى: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم منأن يجمع عبده مالا من حيث اذن له فيه ويؤدى عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه[٩٤] وقال القرطبى ردا على حديث الكية والكيتين: وهذا اما لأن الرجلين أظهرا الفقر ومزيد الحاجة بانتظامهما فى سلك أهل الصفة الذين هم على تلك الصفة، فعاشا على الصدقة مع

أن عندهما ما عندهما من التبر، فكان جزاؤهما ذلك، وأما لأن هذا كان في صدر الإسلام ثم قرر الشرع ضبط المال وأداء حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعا لكان حقه أن يخرج كله، وليس في الأمة من يلزم هذا، وحسبك حال الصحابة وأموالهم، وأما ما ذكر عن أبي ذر فهو مذهب له في رضى الله عنه[٩٥].

٥. على أن أحاديث أبي ذر رضى الله عنه السالفة الذكر لا تدل على وجوب انفاق كل ما زاد على الحاجة، وإنما هو في الزهد في المال، وإنما الزهد من صفات النفس، وتفضيل انفاقه في وجوه البر على امساك ما فضل عن الحاجة، وهو عزيمة الخواص الذين ليس لهم عيال، لا المشروع لكل الناس، فإن نصوص الكتاب والسنة كثيرا منها يدعو إلى القصد والإعتدال فمن الآيات قوله تعالى: (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[٩٦] (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)[٩٧] ومن الأحاديث الصحيحة المشهورة حديث نهيه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عن التصدق بجميع ماله واجازته بالثلث مع قوله «والثلث كثير».

٦. ولنا أن نتساءل: ما السبب الذي حدا بأبي ذر إلى مخالفة رأى الجمهور ودعوته إلى ذلك المذهب الذي عرف عنه؟ ذكروا أن السبب هو ما أخرجه أحمد والطبراني عن شداد بن أوس قال: كان أبو ذر رضى الله عنه يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر فيه الشدة، ثم يخرج إلى باديته، ثم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، فيحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر الرخصة فلا يسمعوا أبو ذر، فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك».

واستبعد مثل هذا السبب، فملازمة أبي ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه المبكر وأخذه عن الرسول وتلقيه منه وروايته عنه الكثير من الأحاديث كل ذلك ينفي هذا التعليل.. والسبب الحقيقي لتشدده: استعداده الفطري للأخذ بالعزائم واحتمال الشدائد، واحتقار التنعم والسعة في الدنيا، وعرف هذا التشدد عن أفراد من الصحابة رضى الله عنهم، ونهاهم عنه صلى الله عليه وسلم، وقد اختبر معاوية أبا ذر فأرسل إليه مالا كثيرا، فلم يلبث أن تصدق به، وأرسل إليه صهيب ابن مسلمة وهو أمير بالشام ثلاث مائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فردها وقال لرسوله: ارجع بها إليه، أما وجد أحد أغر بالله منا؟ مالنا الا الظل نتوارى به، وثلاثة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدق [٩٨] علينا بخدمتها، ثم إني لأنا أتخوف الفضل.

فجملة هذه الأخبار والآثار تدل على أن الكنز المتوعد عليه في هذه الآية هو ما لم تؤد زكاته، وكذا النفقات الواجبة التي لا تجب الزكاة إلا فيما زاد من المال عليها.. وما قدمناه قبل يدل على أن الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير، وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاؤه ثم فعل الخليفتين من بعده أكبر شاهد على ما ذكرنا، ومع ذلك فقد كثر فينا البخلاء والمسرفون، وقل الزهاد والمقتصدون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بقيت كلمة نهائية موجزة فى سياسة الإسلام المالية

إن الإسلام هو الدين الوسط الجامع بين مصالح الروح والجسد، للسيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.. فهو وسط بين اليهودية المالية الدنيوية، والنصرانية الروحانية الزهدية.

وان من مقاصد الإصلاحية للاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل والفضل فى أمر المال ليكتفى الناس شر طغيان الأغنياء وذلة الفقراء، ولمعاونة الفقراء على نوائب الدهر، مع ما فى ذلك من سد ذريعة المفاسد فى تضخم الأموال وحصرها فى اناس معدودين (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٩٩).

ومن قبل ذلك لابد أن يحدد المنهج الذى يرسم على ضوئه نظام الاقتصاد الإسلامى، وقد حدد المنهج· فى قوله تعالى: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا)(١٠٠).

فإذا كانت الأموال للابتلاء والاختبار فعلام التظالم؟

ليس الإسلام نماذج ثقافية عليا فحسب، كما انزلق إليه المستشرقون، بل هو نظام متكامل.. ونظرية التكامل هى أن لا تدع مجالا للظروف والحدس والتخمين ليغير من النتيجة النهائية.. ان كلا من تحريم الربا وأخذ الزكاة يعد من النماذج الثقافية العليا، فإذا ما نظر إليهما معا كونا نظاما متكاملا، لأن تحريم الربا يمنع نمو المال غير مشروع، وإخراج الزكاة يأخذ من أصل المال، والإدخار لا يزيد المال شيئا إن لم ينقصه، فلا سبيل إذن إلا بإخراج المال للاستثمار والعمل فيه بالبيع والقراض والشركة والإنفاق، وهذا ما يعرف عندهم بالحراك المالى أو الاقتصادى، فهو رذ أوجب الزكاة وحرم الربا فقد أوقع المال بين شقى الرحا.

على أن نظرية «صلاح الكون فى الهبات» هى نظرية مستمدة من قوله تعالى (وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وإن تصدقوا خيرا لكم إن كنتم تعلمون)(١٠١).

إن الذى دفع برجال إلى القول بحل فائدة البنك والمريد انما هو الحرج من أن الرسالام لا يساير نظم العصر الاقتصادية، مع سطحية التفكير.. انك إذ تودع المال بالبنك فإنك مطالب بزكاته، والفائدة التى تأخذها من البنك تصرف فى الزكاة، ثم من أين تنفق على نفسك إذا كانت هذه الفائدة اليسيرة تدفعها زكاة؟ أليس الأجدر بك والأولى أن تستغل مالك فى البيع والشراء والقراض ونحو ذلك؟ وبذلك تحصل من طريق حلال على أضعاف ما تأخذه من الفائدة الحرام.

أهم أصول السياسة المالية فى الإسلام

١. إقرار الملكية الشخصية، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٢. تحريم الربا والقمار

٣. منع جعل المال دولة بين الأغنياء - أى يتداولونه بينهم من دون الفقراء - ولم يكن هذا التداول فى عصر من اعصار البشر كما فى عصر النظام المالى المتبع فى الحضارة الغربية، نظرا البيوت المالية «المصارف» والشركات والاحتكارات التى يحاربها العمال ويعادون لأجلها أرباب الأموال.

٤. الحجر على السفهاء فى أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم.

٥. فرض الزكاة المطلقة فى أول الإسلام.. وكانت اشتراكية باعثها اذعان الوجدان لا إكراه الحكام .. ثم نسخت أو قيدت بالمعينة الاجبارية عندما صار للإسلام دولة، ولو وجدت تلك الحالة التى كان عليها المسلمون فى مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية. أعنى انه إذا وجد فى مكان جماعة محصورون، منهم الموسر والمعسر، وصاحب الثروة وذو الفقر المتقع، وجب أن يقوم أغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم.

٦. جعل الزكاة المعينة ربع العشر فى النقدين والتجارة، والعشر أو نصف العشر فى الغلات الزراعية التى عليها مدار الأقوات وزكاة الأنعام معروفة فى كتب الفقه.

٧. فرض نفقة الزوجية والقرابة.

٨. ايجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين، وضيافة الغريب حيث لا مأوى ولا فنادق للمسافرين، إلا إذا كان مهدور الدم أو محاربا للمسلمين.

٩. جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب التى منها الظهار والحنث فى اليمين والقتل الخطأ وتعمد الوطء أو الافطار فى نهار رمضان.

١٠. ندب صدقات التطوع والترغيب فيها.

١١. ذم الإسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير.

١٢. اباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الاسراف والخيلاء الموقعين فى الأمراض والأدواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والعداوة، والمفاسد الاجتماعية.

١٣. مدح القصد والاعتدال فى النفقة على النفس والعيال.

١٤. تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا خير من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدى نفعها إلى الناس أفضل من الأعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية من المثوبات الدائمة الباقية.

أرأيت أمة من الأمم تقيم هذه الأركان ويوجد فيها فقر متقع أو غرم موجع أو شقاء مفظع؟ ألم تر أن زكاة النقدين الواجبة هى أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك؟ إن أداء الزكاة وحده كاف لإعادة مجد الإسلام الذى أضاعه المسلمون: (وانفقوا فى سبيل الله ولا تقلوا بأيديكم إلى التهلكة)[١٠٢] (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[١٠٣])ها أنتم هولاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه، والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)[١٠٤].

وقد جاء فى الكتاب والسنة من الترغيب فى بذل المال فى سبل البر وجعله من أكبر آيات الإيمان وموجبات الثواب والرضوان، وتبوئ غرف الجنان، وتسميته اقراضا للرحمن، ما لم يجىء مثله فى أى عمل من أعمال البر والإحسان.

الهوامش

١) سورة الفرقان ٢٠

٢) فى رواية أنهم ثلاثة، وفى رواية انهم سبعة، وفى رواية انهم عشرة، وان ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم

٣) فالصدقة المراد بها: ما ينفقه المؤمن قربة لله تعالى

٤) والمطهر هنا هو الرسول، والمطهر به الصدقة، أو المطهر الصدقة، والمزكى الرسول لا غيره وعليه فـ«تطهرهم» صفة لـ«صدقة»، والتاء للخطاب أو الغيبة المؤنق، وفى «تزكيتهم» للخطاب لا محالة.

والتزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الاتاء والبركة فى المال صيغة مبالغة من الزكاة وهو نماء الزرع، قال فى مجاز الاحساس، رجل زكى زائر الخير والفضل بين الزكاة والزكاة «وحنانا من لدنا وزكاه» أ هـ

٥) «وصل عليهم» أدع لهم، فالأصل فى الصلاة الدعاء السكن: ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومتاع ومال ودعاء وثناد.. وجملة «ان صلاتك سكن لهم» تعليل للأمر بالدعاء، وتذييلها بالتذكير بسمع الله وعلمه اشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعة والجزاء عليها.

٦) الذاريات ٩

٧) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٨٥

٨) الرحمن ٦٠

٩) ولهذا يمنع الجمهور من ذكر «عليه الصلاة والسلام» إلا فى حق الرسول، والشيعة يذكرونه فى على وأولاده، واحتجوا بأن نص القران دل على أن هذا الذكر جائز فى حق من يؤدى الزكاة يمنع ذكره فى حق على والحسن والحسين رضى الله عنهم؟

١٠) رواه أحمد وأبو داود والترمذى

١١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى

١٢) سورة الرعد ١٧

١٣) الشافعية

١٤) الأحقاف

١٥) أبو يُوسف

١٦) عبد الكريم الخطيب الكتاب الخامس جـ١٠ صـ٨١٠، ٨١٢ التفسير القرآنى للقرآن

١٧) البقرة ٢٧٣

١٨) الدهر ٨

١٩) سورة البلد ١٢ ـ ١٦

٢٠) الممتحنة ٨

٢١) وهو اختيار المرحوم الشيخ رشيد رضا، وهو الأرجح لأنه أقوى دليلا جـ١٠ صـ٤٩٠ منار

٢٢) والخلاصة : أن بين الفقير والمسكين عموما وخصوصا وجهيا فى اللغة، وعموما وخصوصا مطلقا فى استعمال الشرع للفظين فى هذه الآية، إذ لم يجمع الذكر الحكيم بينهما إلا فيها، وحيث ذكر أحدهما وحده يراد به ما يعم الآخر. فاللفظان مختلفان فى مفهومها متحدان فيما يصدقان عليه.

٢٣) أى خزانة الدولة، وحصيلة الزكاة لا تدخل هذه الخزانة لأنها ضريبة اجتماعية خاصة بشأن خاص

٢٤) نيل الأوطار للشوكانى جـ٤ صـ١٨٧

٢٥) الهداية شرح بداية المبتدئ جـ١ صـ١١٢

٢٦) تفسير مفاتيح الغيب للرازى جـ٤ صـ٦٨٠

٢٧) تفسير الطبرى جـ١٤ صـ٣١٦

٢٨) نيل الأوطار جـ٤ صـ١٨٧

٢٩) المنار جـ١٠ صـ٤٩٧

٣٠) وبعضهم يرى أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة، ولكن يعطى منها فى رقبة ويعان بها مكاتب، لأن قوله تعالى (وفى الرقاب) يقتضى أن يكون له فيه مدخل، وذلك ينافى كونه تاما فيه.

٣١) رواه أحمد والدارقطنى

٣٢) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه

٣٣) رواه البخارى

٣٤) رواه أحمد وأبو داود

٣٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى

٣٦) رواه مسلم

٣٧) رواه البخارى
٣٨) وذلك بالنسبة للأمور العامة والجماعية فى الحج، دون الخاصة الفردية، فان حج الأفراد لا يكون من الزكاة لأنه واجب على المستطيع دون غيره، وهو من الفرائض العينية بشرطه كالصلاة والصيام، لا من المصالح الدينية الدولية. منار جـ١٠ ص٥٠٤
٣٩) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٦٨١
٤٠) تفسير الشيخ شلتوت صـ٦٥١
٤١) رواه أبو داود فى سننه عن المقدم بن معد يكرب مرفوعا «يعقبهم»: روى مشددا ومحققا من المعاقبة، أى يأخذ من أموالهم بقدر قراه، وهو يدل على منزلة التكافل الاجتماعى فى الإسلام
٤٢) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه
٤٣) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر
٤٤) رواه البخارى فى كتاب الزكاة والجماعة أيضا عن ابن عباس
٤٥) رواه البخارى ومسلم
٤٦) رواه البخارى ومسلم
٤٧) الذاريات ١٩
٤٨) التوبة ١٠٤
٤٩) البقرة ٢٧٦
٥٠) رواه الترمذى عن أبى كبشة الانبارى
٥١) رواه الطبرانى بسند صحيح . عن أنس
٥٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر
٥٣) يراجع كتاب السلام العالمى والإسلام فى موضوع الزكاة
٥٤) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن على، قال الطبرانى: تفرد به ثابت بن محمد الزاهد قال الحافظ وثابت: فقيه صدوق. روى عنه البخارى وغيره، وبقية رواته لا بأس بهم.
٥٥) التوبة ٦٧
٥٦) الحشر ١٩
٥٧) أنث الضمير فى «ينفقونها» وما قبله مثنى، لأن المراد بالذهب الدنانير، وبالفضة الدراهم، المضروبة من كل منهما، ولا جنس الذهب والفضة، وكل مثنى له أفراد لكل من نوعية يجوز ارجاع الضمير بعده إلى جملة الافراد من نوعية، كقوله تعالى.. (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) والأصل فى البشارة الخير المؤثر يظهر تأثيره فى بشرة الوجه بالسرور أو الكآبة، ولكن غلب فى الأول، ولذلك يحمل فى مثل هذا المقام على التهكم، والمراد به الانذار.
و«يوم» يتعلق بـ«عذاب أليم» أى أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم فى ذلك اليوم الذى يحمى فيه على تلك الأموال المكنوزة فى نار جهنم دار العذاب، بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها. فهو كقوله تعالى: (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع) وهذا أبلغ من يوم تحمى، فتكون من الاحماء عليها كالميسم
٥٨) والصفائح غير الدراهم والدنانير، وهى بالرفع نائب فاعل لـ«جعل» فيجوز أن تكون مما يخلقه الله يوم القيامة، ورواية الرفع هى المشهورة، قال الشراح: وفى رواية بالنصب. منار جـ١٠صـ٤٠٩
٥٩) وفى رواية: «مثل له شجاع يتبعه فيضطره يده فيقضمها كما يقضم الفحل» وفى رواية عند الطبرى وابن حبان فى صحيحه عن ثوبان: «فيتبعه يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزلك الذى تركته بعدك، فلا يزال يتبعه حتى أنه يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده» والشجاع: هو الحية الذكر الذى يواثب الفارس والراجل ويقوم على ذنبه، وربما بلغ الفارس، ويكون فى الصحارى، وقيل هو التعبان. والأقرع من الحيات هو الذى تمعط رأسه وأبيض من السم.
زبيبتان: نقطتان منتفختان فى شدقيه كالرغوتين ويكون ذلك فى شدقى الإنسان إذا غب وأكثر من الكلام، ضرب مثلا للشجاع الذى كثر سمه، فيمثل المال بهذا الحيوان فيلقى صاحبه غضبان.
٦٠) تفسير القرطبى صـ٢٩٦٩ طبعة الشعب
٦١) تفسير المنار جـ١٠ صـ٤١٠
٦٢) وهى بالفتح، مكان بين مكة والمدينة
٦٣) أى فصار ذلك سببا للوحشة بينى وبينه
٦٤) وفى الرازى: فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لى: تنح قريبا، فقلت ثانى والله لن أدع ما كنت أقول
٦٥) فتح البارى جـ٢ صـ١٧٦
٦٦) روح المعانى جـ٣ صـ٣٠٠
٦٧) من الفتح للحافظ جـ٣ صـ١٧٦ وما بعدها

٦٨) الكنز في اللغة: جمع الشيء ورصه بعضه على بعض، ومنه كنيز اللحم ويكتنزه أي صلبه وشديده، وكنزت الحب في الجراب فكتنز فيه، وكنزت الجراب إذا ملأته جدا قاله في الأساس، وقال الراغب: الكنز جمع المال بعضه على بعض وحفظه. والمراد بالكنز هنا: خزن الدنانير والدراهم في الصناديق أو دفنها في التراب وامساكها. وما يلزمه من الامتناع عن انفاقها في ما شرعه الله من البر والخير «منار» جـ١٠ صـ٤٠٢

٦٩) أخرجه الطبري، وغيره، وقال ابن كثير فيه: حديث غريب

٧٠) سورة البقرة ٢١٩

٧١) أخرجه الطبري، ورواه الترمذي وغيره عن ثوبان

٧٢) أخرجه الطبيري ونعل السيف: ما يكون في أسفل جفنه من حديدة أو فضة

٧٣) أخرجه الطبري

٧٤) النغض بالضم والفتح: أعلى الكتف، وقيل: العظم الرقيق الذي على طرفه. قال العلماء: فخروج الرضف من حلمة ثديه إلى نغض كتفه لتعذيب قلبه وباطنه حين امتلأ بالفرح بالكثرة في المال والسرور في الدنيا، فعوقب في الآخرة بالهم والعذاب.

٧٥) هكذا أورد البخاري هذا الحديث في كتاب الزكاة. وفيه اختصار واستثناء ثلاثة دنانير، وقد أورده تماما في كتاب الرقاق بلفظ: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا تمضي على ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئا أرصده لدين. ألا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا - عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم مشى، ثم قال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا وهكذا وقيل ما هم» وله تتمه في معنى آخر ومعنى قال به هكذا وهكذا ألخ، أنفقه في كل ناحية من نواحي البر.

٧٦) سورة البقرة ٢٨٦

٧٧) سورة محمد ٣٦

٧٨) أخرجه مسلم

٧٩) هذه الأحاديث الثلاثة ذكرها الرازي ولم يخرجها كعادته جـ٤ صـ٦٢٩

٨٠) تفسير الكشاف جـ١ صـ٥٥١، ٥٥٢

٨١) أخرجه مالك والشافعي وابن شيبه موقوفا، وكذا الطبري، وعنده «وان لم يكن مدفونا» وان كان على وجه الأرض» وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثله، قال البيهقي: والمحفوظ الموقوف

٨٢) أخرجه ابن عدي والخطيب عنه مرفوعا، وأخرجه ابن أبي شيبه عنه موقوفا، وهو المحفوظ كما قال البيهقي

٨٣) أخرجه ابن جرير جـ١٤ صـ٢١٩

٨٤) أخرجه الطبري جـ١٤ صـ٢٢٥

٨٥) ذكره الرازي جـ٤ ص٦٢٨

٨٦) فتح الباري جـ٣ صـ١٧٦ وما بعدها

٨٧) سورة العلق ٦، ٧

٨٨) انتهى ملخصا من الفخر جـ٤ صـ٦٢٩، ٦٣٠

٨٩) البقرة ٣

٩٠) المعارج ٢٤، ٢٥

٩١) البقرة ٢٦٧

٩٢) المنافقون ١٠

٩٣) اخرجه ابن أبي شيبه في مسنده وأبوداود وأبو يعلى وابن أبي خاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه

٩٤) تفسير الكشاف جـ١ صـ٥٥١

٩٥) تفسير القرطبي ٢٩٧٠ طبعة الشعب

٩٦) الفرقان ٦٧

٩٧) الاسراء ٢٩

٩٨) «تصدق» أصله تتصدق فحذفت إحدى التائين للتخفيف

٩٩) الحشر ٧

١٠٠) الكهف ٧، ٨

١٠١) سورة البقرة ٢٨٠

١٠٢) البقرة١٩٥

١٠٣) التغابن ١٦

١٠٤) القتال ٣٨

الباب الخامس

الـجـهـاد

يندرج تحت هذا الباب أربعة فصول، تتحدث عن الدعوة إلي الجهاد والترغيب فيه، والترهيب من تركه، والمفاصلة علي أساس العقيدة، وتفاصيل غزوة تبوك، وأحكام أخر تتعلق بالجهاد، ويسبق هذه الفصول الأربعة مقدمة تنتظم:

أقسام الجهاد . معني الجهاد . تشريع الجهاد . متي شرع؟ أول آية نزلت في الجهاد . تنظيم الجهاد في الإسلام.. المعنويات، الماديات، الاعفاء من الجندية، اعلان الحرب، عقاب المتخلف، تطهير الجيش، الهدنة، الأسري. لم شرع الجهاد؟

الاطوار التي مر بها الجهاد . تلخيص لإبن القيم في مراحل الجهاد . شبهات حول الجهاد والرد عليها، واهمها شبهة انتصار الإسلام بالسيف.

المقدمة

أقسام الجهاد

قال الراغب فى مفردات القرآن: والجهاد ،والمجاهده، استفراغ الوسع فى مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده)(١) (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله)(٢) (أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبل الله)(٣) وقال صلى الله عليه وسلم (جاهدوا اهواءكم كما تجاهدون اعداءكم) والمجاهدة تكون باليد واللسان، قال صلى الله عليه وسلم (جاهدوا الكفار بأيديكم والسنتكم)(٤) أ. هـ

والجهاد بالألسنة اقامة البرهان ، والحجة وفى معنى الحديثين السابقين أحاديث أخرى.. كحديث فضالة بن عبيد عند الترمذى (المجاهد من جاهد نفسه) وحديث أبى ذر عند ابن النجار (أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه) ورواه الديلمى بلفظ (أن تجاهد نفسك ،وهواك فى ذات الله تعالى) وحديث جابر عند الخطيب (قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه) وحديث على عند أبى نعيم فى الحلَيه (الجهاد أربعة.. الامر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والصدق فى مواطن الصبر، وشنآن الفاسق) وغيرها كثير.

تشريع الجهاد فى الاسلام:

لقد مكث النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما بمكة، وهو يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حارب أهل مكة الدعوة الاسلامية حربا لا هوادة فيها، وآذوا النبى واصحابه ايذاء تجاوز كل معانى الانسانية، ومع هذا كان المسلمون يزدادون عددا وصلابة وقوة فى التمسك بدينهم، وكان الله سبحانه وتعالى ينزل على نبيه من الأيات ما يقويه ويثبته على الصبر، وذلك مثل (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا)(٥) (ولربك فاصبر)(٦) (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت)(٧) (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)(٨) (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور)(٩) (واصبر وما صبرك الا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك فى ضيق مما يمكرون)(١٠)

وكان المسلمون كثيرا ما يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم.. ما بين مضروب ومشجوج

ومعذب، شاكين إليه، فيثبتهم ،ويضرب لهم الامثال والعظات، ويقول لهم (اصبروا فانى لم أومر بقتال) حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم، والمسلمون إلى المدينة، وتآخوا هم والأنصار، واصبح لهم كيان وسلطان، واضحوا ذوى عدد وقوة فلم يكن بد من أن يأذن الله لهم فى القتال.

معنى القتال فى الاسلام:

هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة، وتوطيد أركان السلام، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى القتال، وحرب الفروسية: هى كفاح شرف، لا يجوز أن يلجأ المحاربون فيه إلى عمل او اجراء يتنافى مع الشرف، فالشرف العسكرى الاسلامى يستلزم احترام العهد المقطوع، ويحرم استعمال السلاح الذى لا يتفق استعماله مع الشرف، أو القيام بعمل من أعمال الخيانة، ويجب مواساة الجرحى والمرضى والاسرى، والعناية بهم، وعدم الاجهاز عليهم، وعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين والنساء والاطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحون من الآمنيين من السكان.

متى شرع الجهاد؟

إن المسلمين فى السنة الأولى من الهجرة كانوا مشتغلين بتنظيم احوالهم الدينية والدنيوية، كبنائهم المسجد النبوى، وامور معايشهم وطرق اكتسابهم، وتنظيم احوالهم السياسية، وعقد التآخى بينهم، ومواداعتهم اليهود المساكنين لهم فى المدينة، كى يأمنوا شرورهم. فالذى يترجح عندى بعد النظر والبحث أن يكون تشريع الجهاد فى أوائل السنة الثانية للهجرة، حين خرج الرسول صلى الله عليه وسلم غازيا فى صفر على رأس اثنى عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة وبذلك بدأ القتال (فعلا) فى الاسلام. ولا يقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم ارسل سرايا فى السنة الأولى، لأنها كانت للمناوشات ،وارغام الاعداء على أن يفكروا جديا فى تغيير خطتهم تجاه المسلمين، وتركهم يبلغون دين ربهم ، وهم آمنون مطمئنون.

وكانت أول آية نزلت فيه هى قوله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،وأن الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا: ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، أن الله لقوى عزيزالذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة،وآتوا الزكاة ،وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور)[١١]

والإذن لا يكون إلا بعد منع بأسلوب الأيات يشعر بأنها أول ما نزل بالإضافة إلى ما روى الحاكم فى المستدرك عن حبر القرآن.

ابن عباس:

أنها أول ما نزل فى القتال، ورواعبدالوازق وابن المنذر عن الزهرى، وأخرج ابن جرير عن أبى العاليه .وهو من التابعين. أن أول آية فيه قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين)[١٢] ويرى البعض أن أول ما نزل هو قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ،وأموالهم بأن لهم الجنة)[١٣] الأية والذى نرجحه هو الأول، وهو

الذى يرجحه العقل والنقل، أما الآية الثانية فهى إلى تنظيم شئون القتال أقرب، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن، وأما الآية الثالثة فهى إلى الحث ،والترغيب فى الجهاد أقرب.

حكم الجهاد فى الاسلام

الجهاد فى الاسلام من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا .. أنه اذا قام به من يكفى فى دفع غائلة الاعداء ونصر الاسلام سقط عن الباقين ،ولا يكونون آثمين، وإن لم يقم به من يكفى أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع هذا الإثم الإ بخروج من فيهم الكفايه، ولو أدى ذلك إلى تجنيد الجميع.

ويصير الجهاد فرض عين فى احوال ثلاثة:

الاولى: إذا التقى الجيشان ،وتقابل الصفان تعين على من حضر الجهاد، وحرم عليه الفرار، قال تعالى (يا أيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا ، وأذكروا الله كثيرا لعلكم تلفحلون) [١٤] (يا أيها الذين أمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يؤمئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ،ومأواه جهنم وبئس المصير)[١٥] وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق، وأكل الربا ، وآكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)

الثانيه: إذا هاجم الكفار بلدا من بلاد الإسلام او نزلوا فيه تعين على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا، ووجب على اخوانهم المسلمين فى كل قطر ببلد أن يخفوا إليهم بالعون ،والمساعدةَ، اداء لحق الإخوه الإسلامية، فى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، وفى رواية: ولا يسلمه) أى لا يخذله اذا استنصر به ،ولا يسلمه أو يتركه لاعدائه ينالون عنه.

الثالثه: إذا استنفر ولى الامر خليفة أو ملكا أو رئيسا . قوما لزمهم الخروج وتعين عليهم الجهاد، وذلك لقوله تعالى (يا أيها الذين امنوا مالكم؟ إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض؟ ارضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة؟ فمامتاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل . الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا، والله على كل شىء قدير)[١٦] وفى الحديث الصحيح المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، واذا استنفرتم فانفروا) وفى معنى الإستنفار اعلان التعبئة العامة فى العرف الحديث، ودعوة الامة للجهاد، وفى الحديث الذى رواه ابو داود عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا، والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم برا كان أو فاجرا وإن عمل الكبائر).

تنظيم القتال فى الاسلام

١) تقوية المعنويات:

يعمل الاسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين

،وثواب المجاهدين، لأنهم يقاتلون فى سبيل انقاذ الضعفاء والبر بالانسان، ومقاومة الجبروت ،والطغيان، ولدحض عوامل الشر ،والإفساد .

واستأصل الاسلام جميع النواحي التى ينبعث من قبلها الجبن والخور، وحث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله، والحق فى سبيل الخير والسعاده، فلا الاباء ولا الابناء ،ولا الإخوة ،ولا الازواج ،ولا العشيرة ،ولا االأموال ،والتجارة ،والمساكن . لا شىء من ذلك كله يصح أن يحول بين المؤمنين ،وبين ماتقتضيه معية الله ورسوله من تضحية،وجهاد (قل أن كان اباؤكم وأبناؤكم واخواتكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين) (١٧) يمثل هذا الاسلوب القوى حارب الاسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف، وغرس فى نفوس الامة خلق الشجاعة ،والتضحية، والإستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرته (إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)(١٨) وقد توخى الاسلام تقوية الروح، المعنوية وقد كانت المعنويات العالية ،ولا تزال من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية وفى القرآن الكريم رفع لمعنويات المجاهدين بما فيه من تنويه بشأنهم، وتبشير لهم بالنصر، وتبصير للمسلمين على مكاره القتال، وتنبيه إلى أنه لا يقدم الأجل، وأن التخلف عنه لا يؤخره، وتقرير بأنه عنوان على صدق ايمان المسلم ،واخلاصه لدينه، (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،والله يضاعف لمن يشاء)[١٩] (الذين امنوا ،وهاجروا ،وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم ،وأنفسهم أعظم درجة عند الله ،وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا أن الله عنده أجر عظيم)[٢٠] (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[٢١] (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم)[٢٢].

ولقد أثرت أحاديث نبويه عديدة متساوقه مع أى القرآن فى رفع المعنويات كحديث (والذى نفسى بيده لوددت أنى اقتل فى سبيل الله فأحيا، ثم اقتل فأحيا، ثم اقتل فأحيا، ثم أقتل)[٢٣] وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لغدوة أوروحة فى سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب)[٢٤] وأن النبى صلى الله عليه وسلم سئل: أى الناس أفضل؟ قال (مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه ومال)[٢٥] وقال صلى الله عليه وسلم (ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار)[٢٦] وقال المجاهد الأول صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق)[٢٧] ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (ما من عبد يموت، له عند الله خير يسره، أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها الا الشهيد، لما يرى

من فضل الشهادة، فأنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى) وفى رواية (غير الشهيد فأنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة)[٢٨] وقال (الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أوفاجرا) [٢٩] وقال: (يوشك الامم أن تداعى عليكم كما تداعى الآكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يا رسول الله؟ قال:(بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولتقذفن فى قلوبكم الوهن، فقال قائل: وما الوهن يارسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت)[٣٠] وقال: (تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الاجهاد فى سبيلى، وايمان بى وبرسلى، أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة،والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولايجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فى فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[٣١] وقال صلى الله عليه وسلم (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها)[٣٢] وقال (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه)[٣٣] وعين المرابط التى تبيت ،وتحرس وتراقب الاعداء فى سبيل الله ولا تذوق طعم الكرى هى عين أوجب الله لها الجنة، قال صلى الله عليه وسلم (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله)[٣٤] وفى مواقف الرسول فى الغزوات مواطن مشهودة، تشجع الجبان وتجرىء الشجاع حتى تصير منه ليثا هصورا وكذلك غب الاسلام فى الاستشهاد فى سبيل الله، ففى الكتاب الكريم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٣٥] وهى حياة برزخية تتمتع فيها الروح بشتى أنواع الملذات الحسية والمعنوية ومثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الأية فقال (أرواحهم فى جوف طيور خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تمرح بين الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فأطلع الله عليهم اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئا؟ فقالوا: أى شئ نشتهى نمرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا فى اجسادنا، حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) رواه مسلم عن ابن مسعود، وفى مسند الامام أحمد نحو حديث مسلم، وفى آخره (فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ عنا أخواننا أنا أحياء فى الجنة نرزق، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال سبحانه: (ولاتحسبن الذين قتلوا..).. فلا تعجب وهذا موقف القرآن والسنة من الجهاد والاستشهاد أن حب المسلمون الاولون ، فى باب الجهاد ،حب الاستشهاد مثلا عليا، وإن جادوا بأرواحهم طيبة بذلك نفوسهم، وإن حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة فجاءت لهم الدنيا طوعا ووهبت لهم الحياة.

٢) أعداد القوة المادية:

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين: القوة والرباط، فأما القوة فتتناول العدد والعدة، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد

التموين وكافة القضايا الادارية الاخرى. وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضا من تحصين الجدود والثغور ،والأماكن الواهنة تجاه العدو، وتهيئة القوة الكامنة فيها لحمايتها..

يهدف الاسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين المسلم والاستقرار، وذلك لإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل (ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيمليون عليكم ميلة واحدة)[٣٦]

كما يحث الاسلام على أنشاء المعامل الحربية لصنع الاسلحة، ويذكر بالحديد بصورة خاصة للإستفادة منه للاغراض العسكرية (وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب أن الله قوى عزيز)[٣٧]

٣) التنظيم العملى للقتال:

أ. الإعفاء من الجندية: أسباب الاعفاء من الجندية فى الاسلام محصورة فى الضعف، ويشمل الضعف: المرض ،والعجز ،والشيخوخة، وعدم القدرة على الإنفاق (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله)[٣٨]
لم يجعل الاسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية، ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم ،ولا رفع البدل النقدى، ولا البنوة لحاكم كبير مما عهدناه فى عصور الإنحلال بل كان العمل فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والعصور التالية له على عكس ذلك، وما كان التفكير فى جمع القرآن الكريم الاخوفا من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا اكثر القوم اقداما وبسالة فى حرب اليمامه، وكان اقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الاعداء سبب فى أن يستحر القتل فيهم.

ب ـ اعلان الحرب: حذر القرآن الكريم انتهاز غفلة العدو، وأخذه على غرة غدرا (وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[٣٩] فتطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحا.

إن المسلمين لا يخونون أحدا ولا يغدرون بأحد، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم، ثم يشرعون بعد هذا الاعلان فى القتال.

ج ـ الدعوة إلى الجهاد: حذر الاسلام من التباطؤ فى تلبية داعى الجهاد، والتثاقل عنه (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الارض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا)[٤٠]

د ـ عقاب المتخلفين: عاقب الاسلام المتخلف عن الجهاد عقابا نفسيا، اذ يهجر المتخلف أهله حتى زوجه، كما يهجره المسلمون جميعا ويقاطعونه، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار واذدراء (وعلى الثلاثةالذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا الا ملجأ من الله الا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا)[٤١]

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط، ولايشمل أهله ،وعشيرته، ولاسكان قريته، كما حدث

فى القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى، اذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف ،وعشيرته، وحتى بأهل قريته فى بعض الاحيان بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف، أو ينالهم العقاب.

هـ ـ تطهير الجيش/ يأمر الاسلام بتطهيز الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ومن الذين يختلفون عن افراده فى العقيدة، حتى يكون الجيش كله مؤمنا بعقيدة واحدة، يعمل لتحقيقها ويبذل كل ما يملكه فى سبيلها، وبذلك يستطيع الفوز فى الحرب (ولو كانوا فيكم لقاتلوا الا قليلا)[٤٢] لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة)[٤٣]

و. أساليب القتال: ينظم الاسلام مواقعه الدفاعيه، ويوزع وحداته على تلك المواضع (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد القتال) [٤٤] ويبتكر القتال بأسلوب الصف، الذى لم تكن العرب تعرفه حينئذاك، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)[٤٥]

إن اسلوب الصف يتفق مع اساليب القتال فى العصر الحاضر، فهو يؤمن العمق والإحتياط، ليستطيع القائد معالجة المواقف التى ليست فى الحسبان.

ز. الضبط: يحث الاسلام على السمع والطاعة لقيادة العامة والثبات فيالمواقف، وتجنب أسباب الفشل، والإعتصام بالله واليقين (يا أيها الذين امنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، واطيعوا الله ورسوله، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وأصبروا إن الله مع الصابرين)[٤٦] كما حذر الإسلام من الفرار وبين سوء عاقبته (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ،ومن يولهم يومئذا دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)[٤٧]

ح ـ الكتمان: حذر الاسلام من اذاعة الاسرار العسكرية، وجعل اذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا ممايصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغزنيك بهم ثم لايجاورنك فيها الا قليلا)[٤٨] (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى اولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[٤٩]

ط ـ الهدنة والصلح: أمر الاسلام بتلبية دعوة المسلم ،ووقف الحرب اذا جنح إليها الاعداء وظهرت منهم علامات الصدق، والوفاء (وأن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم، وأن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله، وهو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين)[٥٠]

ى ـ الاسرى: خير الاسلام القائد بين أن يمن عليهم، ويطلقهم من غير فدية أو مقابل، او يأخذ منهم الفدية حسب المصلحة (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق، فاما منا بعد واما فداء)[٥١]

لقد حرم قتل الاسير، ومن اسلم قبل اسره ولو لخوف فهو كالمسلم الاصلى يحرم دمه ايضا.

ك ـ المحافظة على العهود: حث عليها الإسلام وأوجب الوفاء بها وحرم الخيانة فيها والعمل على نقضها، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ،ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة)(٥٢)

لم شرع الجهاد فى الاسلام؟

إن الإسلام يدعو الى الجهاد كضرورة لحماية حرية التوحيد.. توحيد الله وتوحيد الناس، والقتال ليس أساس العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وهذا طبيعى فى دين لا ينشره اصحابه للتوسع الاقتصادى او الإستغلال، دين يحرم العدوان، ويشرع التكافؤ ،والمساواة بين الناس، ويجعل مقياس التفاضل بينهم التقوى والعمل الصالح.

إن المسلم فى الاسلام هو القاعدة الثابتة والحرب هى الاستثناء(٥٣)

إن الاسلام كما تدل عليه تسميته دين أمن وسلام، يقوم على اساس الود والتسامح لا يجيز الحرب الا فى حالات محدده، بحيث تعبتر فيما عداها جريمة والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع ،والإستئثار واذلال الضعفاء، وتوخى به أن يكون طريقا إلى السلام والاطمئنان، وتركيز الحياة على موازين العدل ،والإنصاف (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها)(٥٤) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)(٥٥) فالاسلام لا يؤمن ـولم تكن الحروب فيه ـ بالحروب التى تثيرها العصبية العنصرية، ولا بالحروب التى تثيرها المطامع والمنافع.. حروب الاستعمار والإستغلال، والبحث عن الأسواق، والخامات، واستعباد المرافق والرجال، كما أنه لا يؤمن ـ ولم تكن الحروب لديه ـ بتلك الحروب التى يثيرهاحب الأمجاد الزائفة أو حب المغانم الشخصية.

ولم يكن من أهداف الحرب فى الاسلام ـ بل منع ـ أن تكون للاكراه على الدين، أو للإبادة ، أو للإستعباد الشخصى، أو لسلب ثروات الامم، أو للذة القهر ،والتمتع بالشهوات، ولا أن تكون الحرب دالة على القسوة، والبشاعة، والتجرد من الإنسانية، كالتمثيل بالقتلى، والإجهاز على الجرحى، وقتل الاسرى، وقتل من لايقاتل كالنساء والاطفال والعباد، وكالتحريق ،والتخريب ،والتدمير الذى لا ضرورة تقتضيه.. ولا تلال هذه الفظائع كلها على اشدها عند دول اوربا، إلا استعباد الا فراد بأسم الملك الشخصى، فهذا هو الذى يجتنبونه مع بقاء استعبادهم للاقوام والشعوب على ما كان، فى نظام ودسائس يقصد بها افساد الآداب والاديان.

واذا كانت هذه الأغراض الدنيئة الهدامة ليست من مقاصد الحروب الاسلامية فما هى أذن الاهداف الحقيقة للجهاد فى الاسلام ولماذا شرعه؟

تضمنت أيات سورة الحج التى هى قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير...)(٥٦)

الأسباب والاغراض التى اقتضت تشريع الجهاد فى الاسلام، ولن أخرج فى بيان ذلك عن

منطق الأيات وفحواها، حتى يكون فى هذا القلم الحج و من يتقول على الاسلام ومن هذه الأيات نستخلص الاسباب والحكم الآتيه:

١) حماية حرية نشر الدعوة: ليس من أهداف الحرب فى الاسلام (نشر) الدعوة، بل (حماية حرية) نشر الدعوة، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الاكراه، والله تعالى يقول (لا أكراه فى الدين) [٥٧] ولو كان الفضل فى انتشار الأسلام لسيوف أهله ورماحهم لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله ،وغلبوا على امرهم.

ولكن هدف الحرب فى الاسلام هو حماية حرية انتشار العقيدة فى الآفاق وتأمين دعوة الاسلام.. الدين العام الخالد الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى، حتى يتمكن النبى من تبليغ رسالة ربه، حسبما صدع به الوحى فى قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [٥٨] وقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به،ومن بلغ)[٥٩] وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام عن رضى واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم فى الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون.

وليس من الحق والعدل أن يدافع اصحاب المذ اهب الباطله عن باطلهم بالقوة، وأن يترك اصحاب العقائد والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم فى الدفاع عن عقيدتهم ودينهم وقد اشار الحق الى ذلك (بأنهم ظلموا)وأى ظلم اظلم من أن لايجد الهداه والمصلحون متنفسا لدعوتهم فى ارض الله الواسعه ومن ان يحجر عليهم فلا يستطيعون الاعلان عن عقائدهم، ولااظهار شعائرهم والمظلوم ان لم يجد النصر من أهل الارض فسيجده لامحالة من السماء، وصدق الله (وان الله على نصرهم لقدير).

٢) الانتصاف للمظلوم من الظالم والانتصار للنفس:

فهاهم المشركون قد أذوا المسلمين وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم والانتصار للنفس أمر فطرى، وحق من حقوق الانسان، قررتة الشرائع السماوية ، والقوانين الارضية، وقد قرر الله هذه الحقيقة الانسانية فى قوله (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق، أولئك لهم عذاب اليم)[٦٠]

وقد أمر الله المسلمين بالصبر والتسامح طول العهد المكيى ،واوائل العهد المدنى عسى ان يرعووا ولكنهم لم يزدادوا إلا بطرا ،وظلما ،واستعلاء فى الارض، فاما اذا لم تفلح معهم سياسة المهادنه ،والتسامح فلتقابل القوة بالقوة والسلاح بالسلاح، والا صار السكوت ،والإغضاء عجزا ،وضعفا ،ومهانة.

وليس من العدل والحق أن يترك المشركون يمرحون فى الارض ،ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال ،ولا يؤذن للمسلمين فى محاربتهم من جنس ماحاربوهم به، وان يقطعوا عليهم تجارتهم ويأخذوا منها ماتصل إليه أيديهم نظير ما أغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيقوا عليهم، (وجزاء سيئة سيئة مثلها)[٦١] وقد اشار الحق

تبارك وتعالى إلى هذا بقوله (الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله)[٦٢]

٣) إن فى تشريع الجهاد نشر السلام والأمان وتأمين كل ذى دين على دينه، واحترام مقدسات الاديان فى الأرض والاسلام هو الدين الذى الزم معتنقيه بالايمان بجميع رسل الله وجميع كتبه المنزلة من عنده، واذا كان اعتبر القرآن هو الشاهد المهيمن على الكتب السماوية كلها فلأنه هو الكتاب الذى سلم من التحريف والتبديل، لأنه نقل بأقوى طرق النقل والاثبات.. وهو التواتر المفيد للقطع واليقين فالمسلمون حينما تكون لهم السلطة والغلبة فى الأرض فلا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت، ولا كذلك الحال لو ساد غيرهم وهذا ما صدقه الواقع والتاريخ الصادق.. فحينما كان السلطان للمسلمين فى الارض لم يضار أحد من أهل الذمة فى دينه ولا فى دنياه، ولا فى نفس ولا عرض ولا مال، فلما ذهبت ريحهم وغلبوا على امرهم ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل وتخريب وانتهاك للحرمات، وليس أول على ذلك من أن الإسلام قبل من أهل الكتاب اما إن يسلموا، واما ان يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية، وهى كما سبق ـ ليست للاكراه على دخول الإسلام ،أو المضايقة ولكنهم نظير ماتقوم به الدولة الاسلامية من رعاية وحماية لأهل الأديان الأخرى ، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية واقتصادية [٦٣] وقد اشار الله إلى هذا الغرض النبيل فى قوله سبحانه (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)[٦٤]

٤) إن الاسلام بما خصه الله به من عموم الدعوة للناس أجمعين، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب اكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان وهو الحقيق بأن يسود فى الأرض، والمسلمون المتمسكون به هم الاحق بالسيادة والاستخلاف فى الارض، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى، والحق والعدل ،والرحمة ،والبر ،والخير، وهم الذين يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر. وهما أساس كل خير واصلاح.. وليس من شك فى أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح وبذل النفس والمال فى سبيل هذه الغاية الشريفة وقد أشار المولى إلى هذا فى قوله (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ،وأتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور)[٦٥]

وقد اشار الله سبحانه بهذه الاصول الى ماعداها: فالصلاة رأس العبادات البدنية التى تزكى النفس، وتحسن علاقة المخلوق بالخالق والإنسان بأخيه الإنسان، والزكاة رأس العبادات المالية التى تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس كل خير دينى أو دنيوى، وهما دعامتا كل اصلاح ودرء كل شر[٦٦].

الأطوار التى مر بها الجهاد[٦٧]

الطور الأول:

لقد كان القتال فى هذا الدور مقصورا على القريشين الذين عذبوهم وأخرجوهم من

ديارهم وأموالهم، والذين لا يزالون يعذبون المستضعفين الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا، أما من لم يحارب المسلمين ول يتسبب فى اخراجهم فلا يحارب، وهذا هو صدعت به الآية الكريمة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين، وأقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)(٦٨)

الطور الثانى:

إن بعض القبائل كانوا أحلافا لقريش، أو صاروا أحلافا لها بعد هجرة الرسول فحملوا على المسلمين تمشيا مع سياسة قريش العامة، أو أخذا بثأرها، ومن هؤلاء من فكروا فى مهاجمة المدينة أو هاجموها بالفعل.. كما فعل "كرزين جابر الفهرى" فقد أغار على سرح المدينة، وكان ذلك سببا فى خروج المسلمين إليه فى غزوة بدر الأولى، فلم يدركوه، ومنهم من تحرشوا بالمسلمين أو قتلوا بعوثا منهم غدرا وغيلة فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبادر إلى لقائهم، أو يرسل إليهم السرايا والبعوث ليعاقبهم على بغيهم ،ويرد عليهم كيدهم.. ومن هذه القبائل ببنوغطفان وبنو سليم وبنو عامر والأحابيش أحلاف قريش، وقبائل نجد ،وثقيف.. وقد أفادت حروبه مع هؤلاء كثيرا، فقد اطلعوا على الاسلام وعرفوا سماحته، فاسلم منهم كثيرون، وصاروا أعوانا للاسلام بعد أن كانوا حربا عليه.

الطور الثالث:

لما تمالأ المشركون فى مكة وخارجها على المسلمين وصاروا يدا واحدة فى قتالهم، لم يك بد من قتال هؤلاء جميعا، كما يقاتلون جميعا المسلمين، وهذا هو ما أشارت إليه فى قوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)(٦٩) وبذلك صار الجهاد عاما لكل من ليس له كتاب سماوى، وفى هذا الدور من الجهاد يقول الرسول صلى الله عليه،وسلم؟!! أومرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.. فأن فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم وأموالهم، وحسابهم على الله(٧٠).

الطور الرابع:

كان النبى صلى الله عليه وسلم وادع اليهود وعاهدهم، وبذلك أمنهم على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا العهد، وتملؤا مع المشركين، وصاروا يحرضونهم على قتال النبى، كما حدث فى أحد وغيرها، بل حاولوا طعن المسلمين فى ظهورهم كما حدث فى غزوة الاحزاب، وطالما سعوا فى افساد مابين الاوس والخروج، وافساد مابين المهاجرين والانصار، وبذلك اصبحوا شوكة فى ظهور المسلمين، وجراثيم افساد فى المجتمع المدنى لابد من القضاء عليها، فلذلك أمر الله سبحانه نبيه أن غتالهم بعد ايذائهم بنفض مابينه وبينهم من عهود بقوله سبحانه "واما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين"(٧١) وهو أدب من اداب الحرب فى الاسلام لم تصل إليه المدنية فى القرون العشرين! وقد قتل المسلمون البعض، وأجلوا البعض الآخر من المدينة، ولم يلبثوا أن قطع دابرهم من جزيرة العرب كلها واراح الله منهم العباد والبلاد.

الطور الخامس:

لما فتح المسلمون مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، ودانت لهم الطائف وماحولها، ونجد وما جاورها، لم تلبث الجزيرة العربية أن صارت مؤمنة موحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل كتبا إلى الملوك والامراء فى الهدنه ما بين الحديبيه والفتح، عارضا عليهم الدخول فى الاسلام.. فمنهم من أسلم، ومنهم من أبى وتوعد، وبذلك أصبحت دعوة الاسلام معروفة عند الدول المتاخمة للجزيرة والمعروفة للمسلمين أفئذ، ثم تحفزت الروم لغزو بلاد المسلمين، فلما علم الرسول جمع الجموع وخرج إليهم، فلم يجد أحدا، فرجع بعد أن أراهم أن سلطان الله فى الأرض لا يرهب أحدا. وهو ماتدور حوله سورة التوبة. وهذا الدور من أهم أدوار الكفاح والجهاد فقد انتقلت الدعوة إلى العالمية، وانتقل ميدان الجهاد إلى خارج الجزيرة، وحدث بعد وفاة الرسول الوقائع المشهودة بين الدولة الناشئة ودولتى الفرس والروم، وتمت الفتوحات العظيمة فى شرق الأرض وغربها، وتحققت سنة الله فى الكون من تغليب المؤمنين على الكافرين، والمحقين على المبطلين، وصدق الله" ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين(٧٢)

تلخيص ابن القيم لاطوار الجهاد:

وقد لخص الامام ابن القيم تلخيصا جيدا مراحل الجهاد فى الاسلام فى كتابه زاد المعاد(٧٣) فقال: (فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل.. اول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى.. أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، وذلك أول نبوته، فامره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره اذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه "يا أيها المدثر، قم فانذر" فنبأه بقوله "أقرأ" وأرسله بـ "يا أيها المدثر"، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حوله من العرب، ثم أنذر العرب قاطبه، ثم أنذر العالمين، فاقام بضع عشره سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزيه، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له فى الهجرة، وأذن له فى القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: اهل صلح وهدنه، وأهل حرب، وأهل ذمة فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به، ما استقاموا على العهد، فان خاف متهم خيانة نبذا لهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم ينقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.. ولما نزلت سورة برأة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا فى الاسلام وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان وامره فيها بالبرأة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام: قسما أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسما له عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يضاهروا عليه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أوله عهد

مطلق، أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمه الجزية.. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول برأة على ثلاثة أقسام:

محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمه.. ثم آلت حالة أهل العهد والصلح إلى الاسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه.. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالن له أمن وخائف محارب. وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، وبكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجه، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهى أن يصلى عليهم، وأن يقوم على قبورهم، واخبر أن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته فى اعدائه من الكفار والمنافقين.

شبهات فى الجهاد والرد

من الفرى التى يثيرها ويرددها أعداء الاسلام من المبشرين والمستشرقين ومن لف لفهم.. أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يغرى اتباعه بالغنائم، حتى انها كانت هدفا رئيسيا من أهداف القتال، وأنه صلى الله عليه وسلم بعد أن كان يعلن فى مكه أنه ليس الا بشيرا ونذيرا، وأنه ليس جيازا على الناس ولا مصيطرا انقلب فى المدينة إلى محارب يسفك الدماء لاجبار الناس على الاسلام، وأن الاسلام قام على السيف، وأنه اكره الناس على الدخول فيه، وبتعبير فى الافتراء أدق قالوا: إن الاسلام متناقض، لأنه فرض بالسيف، فى الوقت الذى قرر فيه أن لا اكراه فى الدين.

ويتظاهر بعض أخر من المغرضين بأنه يدفع عن الاسلام هذه التهمة، وهو يحاول فى خبث أن يخمد فى المسلم روح الجهاد ويهون من شأن هذه الاداة فى تاريخ الاسلام، وفى قيامه وانتشاره، ويوحى إلى المسلمين - بطريقة ملتهبه ناعمه ماكره - أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانه بهذه الاداة[٧٤] وذلك كله فى صورة من يدفع التهمه الجارحة عن الاسلام، كذلك يلقون فى خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة ابدا تقتضى الجهاد، انما هى فقط حرب اسواق وخامات ومراكز وقواعد.. ومن ثم فلا داعى للجهاد.

وهؤلاء واولئك من المبشرين والمستشرقين الذين يعملون فى حقل واحد فى حرب الاسلام وتحريف منهجه، وقتل أى حالته الموحية فى حسن المسلم، كى يأمنوا انبعاث هذا الروح، الذى لم يقفوا له مرة فى ميدان! والذى أمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل، وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية فى كل مكان ونحن نحاول أن نفند هذه الشبهات - التى هى شنشته نعرفها من أخذم - وأن نرد عليها فى النقاط التالية:

١) فى سورة النساء آية تحمل التكذيب القاطع للاغراء بالغنائم وهى قوله تعالى "[٧٥]يا أيها الذين أمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن القى إليكم السلام - لست مؤمنا، تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم

فتبينوا، إن الله كان بما تعملون خبيرا"(٧٦) وقد نزلت هذه الآية فى مناسبة رواها البخارى ومسلم وابو داود والترمذى عن ابن عباس قال: مر رجل من بنى سليم على نفر من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، ومعه غنم له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم عليكم الا ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه، فنزلت الآ ية، وفى رواية يرويها مسلم "أن النبى صلى الله عليه وسلم غضب وقال لقائد السرية: من لك بلا اله الا الله يوم القيامة، فقال: يا رسول الله، انما قالها مخافة السلاح، فقال له "افلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم أ لا؟ من لك بلا اله الا الله يوم القيامة؟ فمازال يقولها حتى ود الرجل أنه لم يكن اسلم الا يومئذ".

وجل آيات الجهاد جعلت عزة الاسلام والمسلمين والدفاع عنهم واذلال اعدائهم، الهدف الجوهرى، وينبه على توطين النفس على التضحية بالمال والبدن، والصبر على ما يؤدى إليه الجهاد من خطر وضرر على الأنفس و،الاموال ،وجعلت جزاء الجهد ثواب الله ورضوانه فى الآخره، على ما يبدو للتمعن فيها، وفى الاحاديث النبوية التى سقناها قبل، وماجاء فى بعض الآيات من تبشير بالغنائم واحلالها هو متسق مع طبائع الامور والظروف والاحداث فحسب، بحيث يسوغ القطع بأن ذلك ثانوى، ولم يكن فى أى حال هدفا من أهداف الجهاد.

٢) ومبدأ الانتصار من البغى، أى مقابله العدوان بالمثل، مبدأ قدره القرآن المكى، حيث جاء فى سورة شورى المكيه "والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله، إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم"(٧٧).

ومبدأ عام اجبار الناس على الإسلام ظل هو المبدأ المحكم فى العهد المدنى وما بعده إلى ما شاء الله، كما كان فى العهد المكى.

٣) وبصدد انتشار الاسلام بقوة السلاح واكراهه الناس على الدخول فيه تقول: لقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى الله بالحجه والموعظه الحسنة وقد دخل فى الاسلام فى هذه الفترة من الدعوة خيار المسلمين من الاسراف وغيرهم وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء ، وهذا امر لايختلف فيه اثنان وقد تحمل المسلمون ولا سيما الفقراء والعبيد ومن لاعصبيه له منهم من صفوف العذاب والبلاء الوانا، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة فى الحق، وصمدوا صمود الابطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحدا منهم ارتد سخطا عن دينه او اغرته مغريات المشركين فى النكوص عنده وانما كانوا كالذهب الابريز لا تزيده النار الا صفاء ونقاوة، وكالحديد لا تزيده الا قوة وصلابه بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا فى العذاب عذوبة، وفى المرارة حلاوة، ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشه هجرتين، ثم هاجروا جميعا الهجرة الكبرى إلى المدينة، تاركين الأهل والولد والمال والوطن متحملين آلام الأغتراب ومرارة الفاقة والحرمان.. واستمر الرسول بالمدينة عاما وبعض العام، يدعو إلى الله بالحكمة والمجادلة بالتى هى أحسن وقد دخل فى الاسلام من أهل

المدينة قبل الهجرة وبعدها عدد كثير عن رضى واقتناع ويقين واعتقاد، وما يكون لانسان يحترم عقله ويذعن للمقررات التاريخية الثابتة، أن يزعم انه كان للنبى وللمسلمين فى هذه الأربعة عشر عاما او تزيد، حول أو قوة ترغم احدا على الدخول فى الإسلام الا إذا الغى عقله وهدم التاريخ الصحيح.

٤) أن تشريع الجهاد فى الاسلام لم يكن لارغام أحد على الدخول فى الاسلام كما وعموا وانما كان للدفاع من العقيد وتأمين سبلها ووسائلها، وتأمين المعتقين للاسلام، ورد الظلم والعدوان، واقامة معالم الحق، ونشر عبادة الله فى الارض، وبحسبى ما ذكرته آنفا من أن القتال كان للمقاتلين والمعتدين فلما تمالأ المشركون على المسلمين امرهم الله قتالهم عامة.

ثم ماذا يقول هؤلاء المغرضون فى قوله تعالى "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ،واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"(٧٨) فالإسلام لم يقف عند حد أن من سالمنا سالمناه، بل لم يمنع من البر بهم والعدل معهم، وعدم الجور عليهم، وكذلك كان موقف القرآن كريما جدا مع الذين قاتلوا المسلمين ةاخرجوهم من ديارهم أو ساعدوا عليه، فلم يأمر بظلمهم او البغى عليهم، وانما نهى عن توليهم بإفشاء الاسرار إليهم، أو بنصرتهم واخلاص الود لهم، فإن حاربونا حاربناهم، وأن كفوا عنا كففنا عنهم ، وصدق الله(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)(٧٩).

٥) نصوص القرآن والسنه الصحيحه تردان على هذا الزعم وتكذبانه: وقد صرح الوحى بذلك فى غير ما آيه ، قال تعالى: "(٨٠) لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم(٨١) .
واليك ماذكره ثقات المفسرين فى سبب نزول هذه الآيه: روى ان كان لرجل من الانصار من بنى سالم بن عوف، ابنان متنصران قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينه فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما ابوهما وقال: لاأروعكما حتى تسلما ، فاختصموا الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله ايدخل بعض فى النار وانا انظر؟ فانزل الله تعالى" لا اكره فى الدين" فخلى سبيلهما . وقال الزهرى: سألت زيد ابن اسلم عن قوله تعالى " لااكراه فى الدين" قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكه عشر سنين لايكره احداً فى الدين ، فابى المشركون الا أن يقاتلوه ، فاستئذن الله فى قتالهم فأذن له ، ومعنى (لاأكراه فى الدين" : أى دين الاسلام ليس فيه اكراه عليه .

وقال سبحانه(٨٢)افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ((٨٣) وقال "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (٨٤) وهى نصوص صريحه فى عدم الاكراه على الاسلام واما السنة فقد جاءت مؤيده لما جاء به القرآن، وإليك طرفا منها: روى الامام مسلم فى صحيحه بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا امر اميرا على الجيش أو سريه أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال:"اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله،

أغزواولا تغلوا ولا تغدروا، ولاتمثلوا، ولا تقتلوا وليدآ ، واذالقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال ـ أو خلال ،. فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم .. وكف عنهم .. ثم ادعهم الى الاسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .فإن هم أبوا فسلهم، فآن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. فإن هم أبوا فاستعن بالله ،وقاتلهم" وهكذا ترى أن النبى لم يأمر بالقتال الا بعد أن تستنفد الوسائل السلمية، وليس بعد استنفادها الا أنهم قوم مفسدون أويريدون الحرب.

وقد بينت قبل أن الجزية ليست للارغام على الاسلام، وأنما هى نظير حمايتهم وتأمينهم، وتقديم شتى الخدمات لهم، وليس أدل على هذا مما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان: أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم إليهم لموقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الجزية، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم، فقال: أهل حمص: لولايتكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل -مع أنه على دينهم- عن المدينة مع عاملكم، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ماكنا عليه، والا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد.

وقد يقول قائافما تقول فى الحديث الشريف: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله"؟

قلنا: المراد بالحديث فئة خاصة.. وهم وثنيو العرب.. أما غيرهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم على التخيير بين الأمرى الثلاثة التى نص عليها حديث مسلم.

على أن بعض الائمه كمالك والاوزاعى ومن رأى رأيهما، يرون أن حكم مشركى العرب كحكم غيرهم فى التخيير بين الثلاثة.. الاسلام أو الجزية أو التقال، ويستدلون بحديث مسلم السابق ويقولون: أن حديث أمرت أن أقاتل الناس "منسوخ"، أو أن فيه ايجازا اقتصارا على بعض الأمور الثلاثة[٨٥]

واذا نظرنا بعين الانصاف إلى الذين حملوا حديث المقاتلة على وثنيى العرب لا نجده يجافى الحق والعدل.. فهؤلاء الوثنيون الذين بقوا على شركهم لم يدعوا وسيلة من وسائل الصد عن الإسلام الا فعلوها، ثم هم أعرف الناس بصدق الرسول.. فهو عربى من أنفسهم، والقرآن عربى بلغتهم، فالحق بالنسبة إليهم واضح ظاهر فلم يبق الا أنهم متعنتون، معوقون لركب الايمان والعدل والحضارة عن التقدم.

هذا إلى أن الشرك مذهب فاسد، والمذاهب الفاسده تحارب ويحارب دعاتها بكل الوسائل من قتل أو نفى أو سجن، وهذا أمر مقرر فى القديم والحديث[٨٦] وهاهى دول الحضارة اليوم فى سبيل تأمين سلامتها، وفى سبيل أرضاء نزواتها وأهوائها، تزهق الالوف من الارواح، ويغض الناظرون أعينهم عن هذا ولا يعترض المعترضون، فهل هذا حلال لهم حرام على غيرهم؟

٦) يقولون: إن الإسلام انتشر بالسيف، ويتجاهلون ما قام به المسيحيون باسم الصليب تجاه المسلمين من حروب دامية دامت حقبا من الزمان، وحاولوا أن يغتصبوا جزءا عزيزا من أرض المسلمين في فلسطين، بل وأن يقضوا على الاسلام والمسلمين ويتناسون المجازر الكبرى التى قامت باسم المسيحية تجاه اخوانهم المسيحيين مثل مجزرة (سان بارتلى) هذه المجزرة التى تعتبر سبة فى تاريخ المسيحية لا شئ مثلها قط فى تاريخ الاسلام، هذه المجزرة التى دبرت بليل، وقام فيها الكاثوليك يذبحون البروتستنتين فى باريس وفى فرنسا كلها غدرا وغيله، بل فى أحط صور الغدر، وأبشع صور الغيلة(٨٧)

وتجاهلوا أيضا ما حدث فى اثناء الثورة الفرنسية والثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى اوروبا المختلفة. من تقتيل وتذبيح للالوف، وما قامت وتقوم به الدول المسيحية فى العصر الحديث باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمونها فما تقوم به الدول المتحضرة اليوم فى المشرق والغرب، وماجرى فى الحربين العالميتين الاولى والثانية من قتل الاسارى قتلا جماعيا والتنكيل بهم تنكيلا جاوز حدود الانسانية؟

فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم، وأصموا آذانهم، وفتحوها على شبهة مفتراه اختلقوها من عند أنفسهم وقاموا بنشرها والداعية لها؟

إن ما جرى من المسلمين فى مغازيهم وفتوحاتهم انما هى رحمة وعمل من آثار هذا الدين: دين الرحمة والعدل، ولقد لهج بذلك رجل لا يمت إلى الاسلام بصلة، وهو المؤرخ الكبير (غوستاف لوبون) حيث قال: ما عرف التاريخ فاتحا اعدل ولا أرحم من العرب"(٨٨)

وإليكم أيها السادة المستشرقون والمبشرون هذه الحكمه "من كان بيته من زجاج فلا يرشق بيوت الناس بالحجارة"

٧) ويرد هذه الفرية ويقتلها من أساسها ماالتزمه الرسول صلى الله عليه وسلم فى سيرته من التسامح مع أناس أسروا وهم على شركهم، فلم يلجئهم على الاسلام، بل تركهم واختيارهم..

ذكر الثقات من كتاب السير والحديث أن المسلمين أسروا فى سرية من السرايا سيد بنى حنيفة (ثمامة بن أثال الحنفى) وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان فى كل يوم يعرض عليه الاسلام عرضا كريما، فيأبى ويقول: أن تسأل مالا تعطه، وأن تقتل ذا دم، وأن تنعم على شاكر، فما كان من النبى صلى الله عليه وسلم الا آن اطلق سراحه، ولقد استرقت قلب ثمامة هذه السماحة الفائقة، وهذه المعاملة الكريمة، فذهب واغتسل، ثم عاد إلى النبى مسلما مختارا، وقال له: يا محمد، والله ما كان على الأرض من وجه ابغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ماكان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله الى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك، فقد أصبح أحب البلاد الى. وقد سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه سرورا عظيما، فقد اسلم باسلامه قومه، ولم يقف أثر هذا

التسامح فى المعاملة عند اسلام ثمامة ،وقومه، بل كانت له آثار بعيدة المدى فى تاريخ الدعوة الاسلامية، فقد ذهب إلى مكة معتمرا، فهم أهلها أيه يؤذوه، ولكنهم ذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامه، فآلى على نفسه الا يرسل لقريش شيئا من حبوب اليمامة حتى يؤمنوا، فجهدوا جهدا شديدا فلم يروا بدآ من الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ترى ماذا كان من أمر رسول الله معهم؟ أيدع ثمامة حتى يلجئهم بسبب منع الحبوب عنهم، إلى الايمان؟ لا لقد عاملهم بما عرف عنه من التسامح وأن لا اكراه فى الدين، فكتب إلى ثمامة أن يخلى بينهم وبين حبوب اليمامة ففعل!!

فما رأيكم أيها المفترون؟

بل أمتد أثر دخوله فى الاسلام على أساس من الاختيار والرغبة الصادقة إلى ما بعد حياة النبى، ذلك أنه لما ارتد بعض أهل اليمامه ثبت ثمامة ومن أتبعه من قومه على الاسلام، وصار يحذر المرتد من اتباع مسليمة الكذاب، ويقول لهم: أياكم وأمرا مظلما لا نور فيه، وأنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به منكم "ولما لم يجد النصح معهم خرج هو ومن معه من المسلمين وانضموا للعلاء بن الخضرمى مددا له، فكان هذا مما فت فى عضد المرتدين والحق بهم الهزيمة.

وإليك قصة أخرى لما فتح النبى مكه ودخلها ظافرا منتصرا، كان صفوان بن أمية ممن أهدرت دماؤهم لشدة عداوتهم للاسلام، والتأليب على المسلمين، فاختفى، وأراد أن يذهب ليلقى بنفسه فى البحر فجاء ابن عمه (عمير بن وهب الجمحى) وقال: يا نبى الله، أن صفوان سيد قومه، وقد هرب ليقذف بنفسه فى البحر، فأمنه فأعطاه صلى الله عليه وسلم عمامته، فأخذها عمير، حتى اذا لقى صفوان قال له: فداك أبى وأمى جئتك من عند أفضل الناس وابر الناس وأعلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك وعزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك فقال صفوان: أنى اخافه على نفسى، قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه علامة الأمان، وهى العمامة، وقيل: بردة، فرجع إلى رسول الله فقال: أن هذا يزعم أنك أمنتى، فقال النبى: صدق، فقال صفوان: أمهلنى بالخيار شهرين، فقال له رسول الله: بل أربعة أشهر ثم أسلم بعد وحسن اسلامه.

فهل بعد هذه الحجج البالغة يتقول متقول على الإسلام زاعما أنه قام على السيف والإكراه؟

٨) ثم ما رأى المبشرين والمستشرقين فى أن من أكره على شئ لا يلبث أن يتحلل منه اذا وجد الفرصة سانحة له، ويصبح حربا على هذا الذى أكره عليه؟ ولكن التاريخ الصادق يكذب هذا .. فنحن نعلم أن العرب – إلا شرذمة تسور الشيطان عليها – ثبتوا على ما تركهم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وحملوا الرسالة، وبلغوا الأمانة، كأحسن ما يكون البلاغ إلى الناس كافة ولم يزالوا يكافحون ويجاهدون فى سبيل تأمين الدعوة وازالة العوائق من طريقها حتى بلغت ما بلغ الليل والنهار فى أقل من قرن من الزمان، ومن يتطلع على ما صنع العرب فى حروبهم وفتوحاتهم لا يسعه الا أن يجزم بأن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم رخيصة لله، لا يمكن

أن يكون قد تطرق الاكراه إلى قلوبهم.. وفى صحائف البطولة التى خطوها أقوى برهان على اخلاصهم وصدق ايمانهم، وسل سهول الشام وسهول العراق، وسل اليرموك والقادسية، وشل شمال افريقيا تخبرك ما صنع هؤلاء الابطال.

٩) ثم ما رأى هؤلاء المفترين على الاسلام فى حالة المسلمين لما ذهبت ريحهم وانقسمت دولتهم الكبرى إلى دويلات، وصاروا شيعا وأحزابا، وتعرضوا لمحن كثيرة فى تاريخهم الطويل.. كمحنة التتار والصليبيين فى القديم، ودول الاستعمار فى الحديث.. وكل محنة من هذه المحن كانت كافية للمكرهين على الاسلام أن يتحللوا منه ويرتدوا عنه، فأين هم الذين ارتدوا عنه؟ أخبرونا يا أصحاب العقول؟!!

إن الاحصائيات الرسمية لتدل على أن عدد المسلمين فى ازدياد، على الرغم من كل ما نالهم من اضطهاد، وما تعرضوا له من عوامل الاغراء وقد خرجوا من هذه المحن بفضل اسلامهم وهم اصلب عودا، وأقوى عزيمة على استرداد مجدهم التليد وعزتهم الموروثة.

بل ما رأى هؤلاء فى الدول التى لم يدخلها مسلم مجاهد بسيفه، وانما انتشر فيها الإسلام بواسطة العلماء والتجار ،.. كأندونيسيا والصين وبعض أقطار أفريقيا وأوروبا وأمريكا.. فهل جرد المسلمون جيوشا أرغمت هؤلاء على الإسلام؟ الا فليسألوا أحرار الفكر الذين أسلموا من أوروبا وغيرها، وسيجدون عندهم النبأ اليقين.

لقد انتشر الإسلام فى هذه الاقطار بسماحته وقربه من العقول والقلوب، وهانحن نرى كل يوم من يدخل فى الإسلام، وذلك على قلة مايقوم به المسلمون من تعريف بالإسلام.. ولو كنا نجرد للتعريف به عشر معشار ما يبذله الغربيون من جهد ومال لا يحص فى سبيل التبشير بدينهم وحضارتهم، لدخل فى الإسلام ألوف الألوف فى كل عام، ولن ترى -إن شاء الله- من يحل عروة الإسلام من عنقه أبدا مهما انفقوا وأسرفوا فى سبيل دعاياتهم التبشيرية وبعثاتهم التعليمية والطبية.

أما بعد.. فقد لاح الصبح لذى عينين، وتبين الحق لكل ذى عقل وقلب، وما أرى المنصف بعد هذا الا ازداد يقينا بسماحة الإسلام وسماحة الرسول فى الدعوة إليه، وأن ما ردده المستشرقون والمبشرون ماهو الا فرية كبرى «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا".»

١٠) لقد أنتضى الاسلام السيف، وناضل وجاهد فى تاريخه الطويل، لا ليكره أحدا على الإسلام، ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضى الجهاد.. جاهد الإسلام أولا ليدفع عن المؤمنين الاذى والفتنة التى كانوا يسامونها، وليكفل لهم الآمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وتقرر ذلك المبدأ العظيم "والفتنة أشد من القتل" (٨٩) فاعتبر الاعتداء على العقيدة والايذاء بسببها وفتنة أهلها عنها، أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم.

واذا كان المؤمن مأذونا فى القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون

فيالقتال ليدفع عن عقيدته ودينه.. وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم، ويؤذون، ولم يكن لهم بد أن يدافعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون.. وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشى ،والتقتيل الجماعى لفتنة المسلمين عن دينهم، وفتنةأصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ليرتدوا إلى الكثلكة، ما ترك أسبانيا اليوم ولاظل فيها فلإسلام! ولا للمذاهب المسيحية الأخرى ذاتها، كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التى لم تكن موجهة الا للعقيدة والاجهاز عليها، وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم.. ومازال المسلمون يسامون الفتنة فى أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية فى أنحاء من الأرض شتى، ومايزال الجهاد مفروضا عليهم لرد هذه الفتنة أن كانوا حقا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثانيا لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة.. جاء بهذا الخبر ليهديه إلى االبشرية كلها، ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا اكراه فى الدين، ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق ابلاغ هذا الخبر للناس كافة، كما جاء من عند الله للناس كافة، وأن تزول الحواجز التى تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى اذا ارادوا.. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية فى الأرض تصر الناس عن الاستماع إلى الهدى، وتفتن المهتدين أيضا.. فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عاد لايكفل حرية الدعوة إلى الحق فى كل مكان، وحرية الداعاة ومايزال هذا الهدف قائما، ومايزال الجهاد مفروضا على المسلمين، ليبلغوه أن كانوا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثالثا ليقيم فى الأرض نظامه الخاص، وليقرره ويحميه.. وهو وحده النظام الذى يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر فى جميع اشكالها وصورها ، فليس هناك فرد ولاطبقة ولامه تشرع الاحكام للناس وتستذ لهم عن طريق التشريع، أنما هنا لك رب واحد للناس جميعا، هو الذى يشرع لهم على السواء ، واليه وحده يتجهون بالطاعة ، والخضوع، كما يتجهون اليه وحده بالايمان ، والعبادة سواء.

فلا طاعة فى هذا النظام لبشر الاأن يكون منفذ إلشريعة الله، موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ، حيث لايملك أن يشرع هوابتداءآ ، لان التشريع من شأن الآلوهية وحدها ، وهو مظهر الآلوهية فى حياة البشر، فلا يجوز أن يزاوله انسان فيدعى لنفسه مقام الآلوهية وهو واحد من العبيد !!

هذه هى قاعدة النظام الربانى الذى جاء به الاسلام، وعلى هذه القاعده يقوم نظام أخلاقى نظيف، تكلفل فيه الحرية لكل انسان، حتى لمن لايعتنق عقيدة الاسلام، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لايعتنقون الاسلام وتحفظ فيه حقوق كل مواطن فى الاسلام ، ولااكراه فيه على الدين، إنما هو البلاغ.

جاهد الاسلام ليقيم هذا النظام الرفيع فى الأرض، ويقرره ويحميه وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الطاغيه التى تقوم على عبوديه البشر للبشر، والتى يدعى فيها العبيد مقام الآلوهيه، ويزاولون فيها وظيفة الآلوهية- بغير حق ولم يكن بدأن تقاومه تلك النظم الباغية فى الأرض كلها وتناصبه العداء، ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الاسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع فى الآرض.. ثم يدع الناس فى ظله أحرارا فى عقائدهم الخاصه، لايلزمهم الا بالطاعةلشرائعه الاجتماعيه ،والاخلاقيه ،والاقتصادية.

أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار، وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار يزاولونها وفق عقائدهم.. والاسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمى حريتهم فى العقيدة، ويكفل لهم حقوقهم، ويصون لهم حرماتهم فى حدود ذلك النظام.

ومايزال هذاالجهادلاقامة هذاالنظام الرفيع مفروضا على المسلمين(حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله) فلا تكون هنالك ألوهية للعبيد فى الآرض، ولادينون لغير الله(٩٠) لم يحمل الاسلام السيف اذن ليكره الناس على أعتناق عقيدته ولم ينتشر بالسيف على هذاالمعنى، كما يريد بعض أعدائه أن يتهموة!انما جاهد ليقيم نظاما أمنا، يأمن فى ظله أصحاب العقائد جميعا، ويعيشون فى أطارة خاضعين له وأن لم يعتنقوا عقيدته.

وكانت قوة الاسلام ضرورية لوجوده وأنتشاره، وأطمئنان أهله على عقيدتهم، واطمئنان من يريدون اعتناقه على انفسهم وأقامة هذا النظام الصالح وحمايته.

ولم يكن الجهاد أداة قليلة الآهلية، ولامعدومة الضرورة فى حاضره ومستقبله كما يريد أخبث أعدائه أن يوحو اللمسلمين!..

لابد للاسلام من نظام، ولابدللاسلام من قوة، ولابد للاسلام من جهاد.. فهذه طبيعته التى لايقوم بدونها اسلام يعيش ويقود.(لااكراه فى الدين)(٩١) نعم، ولكن (وأعدوالهم مااستطعتم،من قوه ومن رباط الخيل ترهبون به عدوالله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم، الله يعلمهم)(٩٢) وهذا هوقوام الامر فى نظرالاسلاموهكذاينبغى أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذى يحاول الدفاع، انما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلى على تصورات الآرض جميعا وعلى نظم الآرض جميعا وعلى مذاهب الارض جميعا ولايتخدعون بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده فى حسهم من حقهم فى الجهاد وتأمين أهله ، والجهاد لكسر شوكة الباطش المعتدى، والجهاد لتمتيع البشريه كلها بالخيرالذى جاء به، والذى لايجنى أحد على البشرية جناية من يحرمها منه، ويحول بينها وبينه فهذا هو أعدى البشرية، الذى ينبغى أن تطارد البشرية لو رشدت وعقلت، وإلى أن ترشد البشرية وتعقل يجب أن يطارده المؤمنون، الذين اختارهم الله وحياهم بنعمة الإيمان، فذلك واجبهم لأنفسهم وللبشرية كلها، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله(٩٣)

كلمات قيمة فى الجهاد لأبى الأعلى المودودى

وبعد، فإن هناك بقية فى بيان طبيعة "الجهاد فى سبيل الله" و "طبيعة هذا الدين" يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذى امدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان، بعنوان "الجهاد فى سبيل الله".. وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة لاغنى عنها لقارئ يرير رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق فى بناء الحركة الإسلامية.

"لقد جرت العادة أن يعبروا عن كلمة الجهاد "بالحرب المقدسة" (holy war) إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيرا منكرا وتفننوا فيها، والبسوها ثوبا فضفاضا من المعانى المموهة الملفقة، وقد بلغ الأمر فى ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد، عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء.. وقد كان من لباقتهم، وسحر بيانهم، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة.. الجهاد.. تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب الهج المحتشدة، مصلته سيوفها، متقده صدورها بنار التعصب والغضب، متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب عالية اصواتها بهتاف "الله أكبر" زاحفة إلى الامام، ما أن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقة، وجعلته بين أمرين:

وجملته: أما أن يقول كلمة (لاإله إلا الله) فينجو بنفسه، واما أن يضرب عنقه فتشخب اوداجه دما!

ولقد رسم الدهان هذه (الصورة) بلباقة فائقة، وتفننوا فيها بريشة المتفنن .

أ- المبدع، وكان من دهائهم ولباقتهم فى هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها:

"هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء، وجشع إلى الفتك بالأبرياء"

والعجيب كل العجب، أن الذين عملوا على هذه الصورة، وقاموا بما كان لهم من حظ موفور فى ابرازها وعرضها على الانظار، هم هم الذين مضت عليهم قرون واجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم ارضاء لشهواتهم الدنيئة واطفاء لأوار مطامعهم الاشعبية، وتلك هى حربهم الملعونة غير المقدسة (unholy war) التى اثاروها على الأمم المستضعفة فى شارق الأرض زمغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن اسواق لبضائعهم واراض لمستعمراتهم التى يريدون أن يستعمروها، ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ويفتشون عن المناجم والمعادن، وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التى يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم. يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والحياة وبين أيديهم الدبابات المدججه وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة فى جو السماء، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة، يريدون بذلك أن يهيئوا وقودا لنيران مطامعهم الفاحشة التى لا

تزيدها الأيام الا التهابا افطوافا. فلم تكن حروبهم فى (سبيل الله) وانما كانت فى سبيل شهواتهم الدنيئة واهوائهم الذميمة.

هذه هى حال الذين يصموننا بالغزو ،والقتال، الذى سبق لنا من أعمال الفتوح والحرب قد مضت عليه أحقاب طويلة. أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومس مع من العالم (المتحضر المتمدن!) وأى بلاد الله يا ترى، قد سلمت من عدوانهم، وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية؟ وأية هذه القادات العظيمة من آسيا وأفريقية وأمريكا ماذاقت وبال حروبهم الملعونة؟.. لكن هؤلاء الدعاة وسموا صورتنا بلباقة منكرة. وابدأوا واعادوا فى عرضها بشكل هائل بشع، وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة، حتى لايكاد يذكرها أحد بجانب الصورة المنكرة التى صوروا بها تاريخنا ومآثر اسلافنا. فما أعظم دهاءهم أو ما أبرعهم فى التزوير والتمويه!

"اما سذاجتنا وبله رجالنا، فحدث عن البحر ولاحرج ، وأى بله اعظم من أغترارنا بالصورة المنكرة التى صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نوءمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة؟ ومادار بخلدنا أن ننظرالى الآيدى الاثيمة التى عملت عملا فى رسم هذه الصورة المزورة، وأن نبحث عن الأقلام الخفيه التى ثقنت فى تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من أغترارنا بتزويرهم، وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامه وعدنا نعتذر الى القوم، نبدل كلام الله، ونحرف الكلم عن مواضعه، ونقول لهم (مالنا وللقتال، ايها السادة انما نحن دعاة مبشرون، تدعون الى دين الله، دين الآمن والسلام والدعة والحكمة والموعظة الحسنه، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية، ونجادل من يعارضنا بالتى هى احسن، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يوءمن من يوءمن بدعوتنا عن بينة ! هذه هى دعوتنا لاتزيد ولاتنقص !اما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت اليه بصلة. اللهم الاأن يقال. انما بها دافعنا عن انفسنا حينما اعتدى علينا احد ! ذلك ايضاً قد مضت عليه سنون واعوام طويله.

اما اليوم فقد اظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً !ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد(رسمياً) ذلك الجهاد الممقوت الذى يعمل فيه السيف عمله ! حتى لايقلق بالكم ويقض عليكم المضجع ! فما الجهاد اليوم الاواحد الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا الاأن نلعب بمرهفات الآلسنه وأسنة الاقلام ! اما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرهما من آلات الحرب واستخدامها، فأنتم احق بها واهلها!)

"هذه مكايدهم السياسيه التى كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم لكنا اذا امعنا النظر فى المسألة من الوجهه العلمية ، ودققنا النظر فى الاسباب التى اشكل لآجلها استجلاً حقيقة "الجهاد فى سبيل الله" واستكمناه سرهاعلى المسلمين انفسهم فضلا عن غير المسلمين، لاح لنا ان مرجع هذاالخطأ الى امرين مهمين لم يسبروا غورهما، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

"فالآولاً: أنهم ظنو الاسلام نحلة (Religion) بالمعنى الذى تطلق علية كلمة (النحلة) Re-ligion)عامة..

"والثانى: انهم حسبوا المسلمين أمة Nation بالمعنى الذى تستعمله فى هذه الكلمة فى عامة الاحوال..

فالحقيقة ان خطأ القوم فى فهم هذين الامرين المهمين، وعدم استجلائهم لوجه الحق فى هاتين المسألتين الاساسيتين هو الذى شوة وجه الحقيقة الناصعة فى هذا الشأن وعاقهم عن ادراك مغزى الجهاد الاسلامى . بل الحق- والحق ان يتبع - ان هذا الخطأ الاساس فى فهم هاتين المسألتين قد ارخى سدوله على حقيقة الدين الاسلامى باسره، وقلب الامر ظهر البطن، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجا ضيقا، لايرضاه الاسلام وتعاليمه الخالدة.."فالنحلة" (٩٤) Religion على حسب الاصطلاح الشائع عندهم، لا يراد بها الا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر. ولاجرم أن (النحلة) بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية. فأنت حر فيما تختاره من العقيدة، ولك الخيار فى أن تعبد بأى طريق شئت من رضيت به ربا لنفسك، وأن أبت نفسك الا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض، وتجوب الأرض، وجوب بلاد الله الشاسعة، داعيا إلى عقيدتها، مدافعا عن كيانها بالحجج وبراهين، مجادلا من يخالفونك فيها بمرهفات الالسنة واسنة الاقلام. أما السيف وآلات الحرب والقتال فمالك ومالها فى هذا الشأن؟ اتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك؟! وإن كان الإسلام نحلة Religion كنحل العالم، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون، فالظاهر أنه لا شأن فيهما للسيف وأدوات الحرب، كما قالوا. ولو كان موقف الإسلام فى نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد، ولم يكن من الإسلام فو ورد ولا صدر، لكن الأمر خلاف ذلك كما سوف تعرفه فيما يأتى من البيان، وكذلك كلمة "الأمة" Nationفما هى الا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها Homogeneos Group of Men اجتمعت وتآلفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها فى بعض الأمور الجوهرية. فالطائفة التى تكون "أمة" بهذا المعنى، لا يبعثها على استخدام السيف الا امران: اما أن يعتدى عليها أحد، ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة. ففى الصورة الأولى منهما، لها سعة فى الأمر، وهى لاتخلو من وازع خلقى يلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها وأن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضا! أما الصورة الثانية أى الاعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب - فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين Dictatersحتى أن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأمريكا أيضا لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها!

فإن كان الإسلام "نحلة" كالنحل الأخرى، والمسلمون "أمة" كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم أن "الجهاد" الإسلامى يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التى جعلته رأس العبادات ودرة تاجها.. لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم.. بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية Revolutionaryومنهاج انقلابى يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى.. ومن هناك تعرف أن لفظ "المسلم" وصف للحزب الانقلابى العالمى Interna-

tional Revolutionary Partyالذى يكونه الإسلام، وينظم صفوفه، ليكون اداة فى احداث ذلك البرنامج الانقلابيالذى يرمى إليه الإسلام، ويطمع إليه ببصره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابى Revalutionary Strrggleعن تلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول إلى هذه الغاية، وادراك هذا المبتغى.

والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة فى دعوته وبيان مناهجه العملى -شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات Terminology خاصة، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات، وبين الأفكار ،والتصورات الشائعة الرائجة. "فالجهاد" أيضا من الكلمات التى اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبين تفاصيل دعوته، فأنت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة (الحرب) وغيرها من الكلمات التى تؤدى معنى القتال Warفى اللغة العربية، واستبدل بها كلمة Struggleفى اللغة الانجليزية غير أن لفظة (الجهاد) ابلغ منها تأثيرا، وأكثر منها احاطة بالمعنى المقصود. فما الذى افضى بالاسلام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة، صارفا بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة؟ الذى اراه واجزم به أنه ليس لذلك الا سبب واحد: وهو أن لفظة "الحرب" Warكانت لا تزال تطلق على القتال الذى يشب لهيبه وستعر ناره بين الرجال والاحزاب والشعوب لمآرب شخصية واغراض ذاتية. والغايات التى ترمى إليها امثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد اغراض شخصية او اجتماعية، لاتكون فيها رائجة لكفرة او انتصار لمبدأ..

وبما أن القتال المشروع فى الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة. فإن الإسلام لا ينظر إلى مصلحة أمة دون أمة، ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب، وكذلك لا يهمه فى قليل ولا كثيرا أن تملك الأرض وتستولى عليها هذه المملكة أو تلك، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم وله فكرة خاصة ،ومنهاج عملى مختار لسعادة المجتمع البشرى والصعود به إلى معارج الفلاح، فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة، ومنهاج غير هذا المنهاج، يقاومها الإسلام، ويريد أن يقضى عليها قضاء مبرما، ولا يعنيه فى شئ بهذا الصدد أمر البلاد التى قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية، أو الأمة التى ينتمى إليها القائمون بأمرها. فإن غايته استعلاء فكرته، وتعميم منهاجه، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة.

وهذا المنهاج، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفسادهٌ والإسلام يتطلب "الأرض" ولا يقنع بقطعة أو جزء منها، وأنما يتطلب ويستدعى المعمورة الأرضية كلها، ولا يتطلبها لتستولى عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها، بعدما تنتزع من أمة أو أمم شتى، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشرى بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجا العملى اللذين اكرمه الله بهما، وفضله بهما على سائر الاديان والشرائع. وتحقيقا لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل المستطاعة (بالجهاد). فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد. وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت: إن تغيير وجهات انظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم،

واحداث انقلاب عقلى وفكرى بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة جمد السيوف، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضا من اصناف الجهاد. كذلك بذل الأموال، وتحمل المشاق، ومكابدة الشدائد أيضا فصول وأبواب مهمة من كتاب (الجهاد) العظيم.

"لكن الجهاد الاسلامى ليس بجهاد لاغاية له، وإنما هو الجهاد فى سبيل الله، وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبدا، وذلك أيضا من الكلمات التى اصطلح عليها الإسلام لتبين فكرته وايضاح تعاليمه، كما أشرت إليه آنفا. وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوى الظاهر، وحسبوا أن اخضاع الناس لعقيدة الإسلام واكراههم على قبولها هو "الجهاد فى سبيل الله" وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا فى سماء أوسع بكثير مما يتصورون، واسمى غاية وأبعد مراما مما يظنون ويزعمون..

"فالذى يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل، أو جماعة من المسلمين، تبذل جهودها، وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية، لا تقصد من وراء جهودها، ما تبذل فى سبيل غايتها من النفوس والنفائس الا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس، ولا تبتغى بها بدلا فى هذه الحياة الفانية، ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لاعلاء كلمة الله أن ينال جاها وشرفا أو سمعة وحسن احدوثة. ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعى الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته، ويستبد بزمام الأمر، ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة، بعدما يعزل غيرها من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم، وها هوذا القرآن الكريم ينادى بملء صوته:

"الذين أمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت" (النساء:٧٦)

وقد تضمنت الآية الكريمة: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون" (البقرة:٢١)

لباب هذه الدعوة، دعوة الإسلام الانقلابية، وجوهرها، فإنه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال، أو الفلاحين، أو الملاكين، أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع، ولا يسميهم بأسماء احزابهم وطبقاتهم. وأنما يخاطب الإسلام بنى آدم كافة. ولا يناديهم كذلك الا بصفة كونهم أفراد الجنس البشرى. فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا، ولا يتخذوا الها ولا با غيره. وكذلك يدعوهم الا يعتوا عن أمر ربهم، ولا يستنكفوا عن عبادته، ولا يتكبروا فى أرض الله بغير الحق، فإن الحكم والأمر لله وحد، وبيده مقاليد السماوات والأرض، فلا يجوز لأحد من خلقه، كائنا من كان، أن يعلو فى الأرض ويتكبر، ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته. ودعوته لهم جميعا أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء فى هذه العبودية الشاملة، كما ورد فى التنزيل:

"تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد الا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله" (آل عمران: ٦٤)

فهذه دعوة إلى انقلاب عالمى شامل، لا غموض فيها ولا ابهام، فإنه قد نادى بملء صوته:

" أن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم"..... (يوسف: ٤٠)

فليس لأحد من بنى آدم أن ينصب نفسه ملكا على الناس ويسيطروا عليهم، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد. ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنبى من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى، هو تكبر فى الأرض على الله بغير الحق، وعتو عن أمره، وطموح إلى مقام الألوهية[٩٥] والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكا وأمراء انما يشركون بالله، وذلك مبعث الفساد فى الأرض، ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان.

إن دعوة الإسلام إلى التوحيد، وعبادة الله الواحد، لم تكن قضية كلامية ,أو عقيدة لا هوتية فحسب. شأن غيره من النحل والملل، بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعى So-cial Reovlutionارادت فى أول ماارادت أن تقطع دابر الذين تسلموا ذروة الالوهية، واستعبدوا الناس بحيلهم ومايدهم المختلفة، فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان، ومنهم من استأثر بالملك والأمرة، وتحكم فى رقاب الناس، ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض، وجعل الناس عالة عليهم ليتكففون ولا يجدون ما ما يتبلغون به.. فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعا وتستأصل شأفتهم استئصالا وهؤلاء تارة تسنموا قمة الالوهية جهرا وعلانية، وارادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم، وينقادوا لجبروتهم، مستندين إلى حقوقهم التى ورثوها عن آبائهم، أو استأثرت بها الطبقة التى ينتمون إليها، فقالوا:

«"ما علمت لكم من إله غيرى"».. «و"أنا ربكم الأعلى" ».. "«أنا احيى واميت" «و"من أشد منا قوة؟".. إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الالوهية التى تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغيا وعدوانا، وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفههم، فاتخذوا من الاصنام والتماثيل ،والهياكل آلهة، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين بأنفسهم من ورائها، يلعبون بعقول الناس، ويستعبدونهم لاغراضهم وشهواتهم وهم لايشعرون[٩٦]!

فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد، واخلاص العبادة لله الواحد الأحد، وبتنديده بالكفر واشرك بالله، واجتناب الاوثان والطواغيت..

كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين فى أمورها، والذين يجدون فيها سندا لهم، وعونا على قضاء حاجاتهم وأغراضهم.. ومن ثم ترى أنه كلما قام نبى من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة وخاطبهم قائلا: "يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره".. قامت فى وجهه الحكومات المتمكنة فى عصره وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلما وعدوانا.. خرجت تقاومه، وتضع فى سبيل الدعوة العقبات، وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية، أو شرح لمسألة من مسائل الالهيات Metaphysical propcsition وانما

كانت نداء لانقلاب اجتماعى عالمى، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العز والجاه المستبدين بمنابع الثراء، من يشمون رائحة الإضطراب السياسى قبل حدوثه بأعوام!

إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقد الكلامية، وجملة من المناسك والشعائر، كما يفهم من معنى الدين فى هذه الأيام. بل الحق أنه نظام شامل، يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية فى العالم، ويقطع دابرها، ويستبدل بها نظاما صالحا، ومنهاجا معتدلا، يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى، وأن فيه نجاة للجنس البشرى من أدوار الشر والطيغان، وسعادة له وفلاحا فى العاجلة والآجلة معا.

ودعوته فى هذه السبيل، سبيل الاصلاح والتجديد والهدم والبناء، عامة الجنس البشرى كافة، لا تختص بأمة دون أمة، أو طائفة دون طائفة. فهو يدعو بنى آدم جميعا إلى كلمته، حتى أنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله فى أرضه، واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس.. يهيب بالملوك والامراء أنفسهم ويناديهم قائلا: لاتطغوا فى الأرض، وادخلوا فى كنف حدود الله التى حدها لكم، وكفوا ايديكم عما نهاكم اله عنه وحذركم اياه. فإن اسلمتم لأمر الله، ودنتم لنظام الحق لا يعادى احدا، وإنما يعادى الحق الجور، فلكم الأمن والدعة والسلامة فإن الحق لا يعادى أحدا، وإنما يعادى الحق الجور، والفساد والفحشاء، وأن يتعدى الرجل حدود الفطرة ويبتغى ماوراء ذلك، مما لاحظ له فيه حسب سنن الكون، وفطرة الله التى فطر الناس عليها.

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن، يصير عضوا فى "الجماعة الإسلامية" أو "الحزب الإسلامى" لا فرق فى ذلك بين الأحمر منهم والأسود، أو بين الغنى منهم والفقير، كلهم سواسية "لافرق فى ذلك بين الأحمر منهم والأسود، أو بين الغنى منهم والفقير، كلهم سواسية كأسنان المشط، لافضل لأمة على أمة، أو لطبقة على أخرى.. وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمى أو الأممى، الذى سمى "حزب الله" بلسان الوحى.

وما أن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد فى سبيل الغاية التى انشئ لأجلها، فمن طبيعته، وما يستدعيه وجوده أن لا يألو جهداً فى القضاء على نظام الحكم التى أسس بنيانها إلى غير قواعد الإسلام، واستئصال شأفتها، وأن يستنفد مجهوده فى أن يستبدل بها نظاما للعمران والإجتماع معتدلا، مؤسسا على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذى يسميه القرآن الكريم: "كلمة الله" فإن لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع، ولم يسع سعيه وراء تغير نظم الحكم واقامة نظام الحق.. نظام الحكم المؤسس على قواعد الإسلام.. ولم يجاهد حق جهاده فى هذه السبيل، فاتته غايته، وقصر عن تحقيق البغية التى انشىء لأجلها. فإنه ما انشئ الا لادراك هذه الغاية، وتحقيق هذه البغية.. بقية اقامة نظام الحق والعدل ولا غاية له ولا عمل الا الجهاد فى هذه السبيل، وهذه الغاية الوحيدة التى بينها الله تعالى فى كتابه العزيز قوله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران:١١٠).

ولا يظن أحدا أن هذا الحزب "حزب الله" بلسان الوحى.. مجرد جماعة من الوعاظ

المبشرين، يعظون الناس فى المساجد، ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ليس الا! ليس الأمر كذلك! وانما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده، ويكون شهيدا على الناس، ومن مهمته التى القيت على كاهله من أول يوم أن يقضى على منابع الشر والعدوان، ويقطع دابر الجور والفساد فى الارض والإستقلال الممقوت، وأن يكبح جماح الآلهية الكاذبة، الذين تكبروا فى أرض الله بغير الحق، وجعلوا أنفسهم اربابا من دون الله، ويستأصل شأفة الوهيتهم، ويقيم نظاما للحكم والعمران صالحا يتفيأ ظلاله القاصى ،والدانى ،والغنى ،والفقير.. وإلى هذا المعنى اشار الله تعالى فى غير واحدة من آية ذكر الحكيم: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" ... (الانفال: ٣٨). "« هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" » (التوبة:٣٣)

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لابد له من امتلاك ناصية الأمر، ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم الا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد فى الأرض، وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح، ويؤتى أكله، الا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدى الطغاة المفسدين. ويأخذوه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فساد.

وأضف إلى ذلك أن هذا الحرب، بصرف النظر عما يرمى إليه من اصلاح العالم، وبث الخير والفضيلة فى أنحاء الأرض كافة، لا يقدر أن يبقى ثابتا على خطته، متمسكا بمنهاجه، عاملا وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائما على أساس أخر، سائرا على منهاج غير منهاجه.

وذلك أن حزبا مؤمنا بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص، ولايمكن أن يعيش متمسكا بمبدئه عاملا حسب مقتضاه فى ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التى يؤمن بها، ويريد السير على متهاجها، فإن رجلا يؤمن بمبادئ الشيوعية، وأن اراد أن يعيش فى بريطانيا أو المانيا، متمسكا بمبدئه، سائرا فى حياته على البرنامج الذى تقرره الشيوعية، فلن يتمكن من ذلك ابدا لأن النظم التى تقررها الرأسمالية أو الفاشية تكون مهيمنة عليه، قاهرة بما أوتيت من سلطان، فلا يمكن أن يتخلص من براثنها أصلا.. وكذلك أن أراد المسلم أن يقضى حياته مستظلا بنظام للحكم مناقض لمبادئ الأسلام الخالدة ويود أن يبقى متمسكا بمبادئ الإسلام، سائرا وفق مقتضاه فى أعماله اليومية، فلن يتسنى له ذلك، ولا يمكنه ان ينجح فى بغيته هذه أبدا. إن القوانين التى يراها باطلة، والضرائب التى يعتقدها غرما ونهبا لأموال الناس، والقضايا التى يحسبها جائزة عن الحق وافتئاتا على العدل، والنظم التى يعرف انها مبعث الفساد فى الارض ومناهج التعليم التى يجزم بوخامة عاقبتها وسوئ نتائجها، ويرى فيها هلاكا للآمة .. يجد كل هذه مهيمنة عليه، ومسيطرة على بيئته وأهله واولاده، بحيث لايمكنه ان يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من اثرها ونفوذها . فالذى يؤمن بعقيدة ونظام- فرداكان أوجماعة- مضطر بطبيعة عقيدته وايمانه بها ان يسعى سعيه فى القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته، ويبذل الجهد المستطاع فى اقامة

نظام للحكم مستند الى الفكرة التى يؤمن بها، ويعتقد إن فيها سعادة للبشر ، لأنه لايتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه الا بهذا الطريق، واذا رأيت رجلا لايسعى وراء غايته ، اويغفل عن هذا الواجب. فاعلم انه كاذب فى دعواه، ولما يدخل الايمان فى قلبه. وبهذا المعنى ورد فى تنزيل :"«عفا الله عنك. لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين؟ لايستاذنك الذين يؤمنو بالله واليوم الآخر. ارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون"(التوبة:٤٣-٤٥).

وأى شهادة أصدق، وأى حجة انصع من شهادة القرآن وحجته؟ ففى هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذى لايلبى نداء الجهاد، ولايجاهد بماله ونفسه فى سبيل اعلاء كلمة الله، واقامة الدين الذى ارتضاه لنفسه، وتوطيد نظام الحكم المبنى على قواعده، فهو عداد الذين لايؤمنون بالله واليوم الاخر، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون...

لعلك تبينت مما اسلفنا آنفا أن غاية Objective الجهاد فى الإسلام، هى هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه، واقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام فى مكانها، واستبدالها بها، وهذه المهمة.. مهمة احداث انقلاب إسلامى عام.. غير منحصرة فى قطر دون قطر. بل مما يريده الإسلام، ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل فى جميع انحاء المعمورة.. هذه غايته العليا، ومقصده الأسس الذى طمع إليه ببصره.. الا إنه لا مندوحة للمسلمين، أو أعضاء "الحزب الإسلامى" عن الشروع فى مهمتهم باحداث الانقلاب المنشود، والسعى وراء تغيير نظم الحكم فى بلادهم التى يمكنونها. أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمى الشامل World Revolutionالمحيط بجميع أنحاء الأرض وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية، بل تدعو الناس جميعا إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين، لا يمكنها أصلا أن تضيق دائرة عملها فى نطاق محدود من أمة أو قطر. بل الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمى غايتها التى تضعها نصب عينها، ولا تغفل عنها طرفة عين. فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية، ولا يرضى أن ينحصر فى حدود ضيقة اخترعها الجغرافية واصطلحوا عليها. فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة، ويقول لها مطالبا بحقه: ما بالكم تقولون: إن القضية الفلانية "حق" فى هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلا، ثم تعود القضية نفسها "باطلا"

- بزعمكم - اذا جاوزنا ذاك الجانب من ذاك الجبل أو النهر بأذرع؟! الحق حق فى كل حال وفى كل مكان! وأى تأثير للجبال والأنهار فى تغيير حقيقته المعنوية؟! الحق ظلة وارف وخيره عام شامل، ولا يختص ببيئة دون بيئة، ولا قطر دون قطر فاينما وجد "الإنسان" مقهورا فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له. ومهما اصيبت "الإنسانية" فى ابنائها المستضعفين، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبوا نداءها، ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا فهم من أعدائهم الجائرين، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التى استبد بها الطغاة بغيا وعدوانا. وبهذا المعنى نطق لسان الومى، حيث ورد فى التنزيل: "وما لكم لا تقاتلون فى

سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"... (النساء: ٧٥).

وزد على ذلك أن الاواصر البشرية والعلاقات الانسانية - على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية، واحدثت فيها من نزعات الشتات والإختلاف - قد تشتمل على تلاؤم شامل، وتجانس عام بين اجزائها، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة فى قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة، ما دامت الاقطار المجاورة لها لا توفقها على مبادئها وخطتها، ولاترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم، حفظا لكيانه، وابتغاء للإصلاح المنشود، ألا يقنع بإقامة نظام الحكم الإسلامى فى قطر واحد بعينه بل من واجبه الذى لامناص له منه بحال من الاحوال، ألا يدخر جهدا فى توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه فى مختلف ارجاء الأرض ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامى فى جانب، وراء نشر الفكرة الإسلامية وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها فى أقصى الأرض وادناها، ويدعو سكان المعمورة - على اختلاف بلادهم واجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ويدينوا بهذا المنهاج الذى يضمن لهم السعادتين، سعادتى الدنيا والآخرة.. وبجانب آخر، يشرعن سياق الجد، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة، اذا استطاع ذلك وأعد له عدته، ويقيم مكانها نظام العدل والحق، المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التى لا تبلى، ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالى..

هذه الخطة التى سلكها. وهذا هو المنهاج الذى انتهجه النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن جاء بعده، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين، فإنهم بدأوا ببلاد العرب، ثم اشرقت شمس الإسلام من افاقها، واخضعوها اولا لحكم الإسلام، وادخلوها فى كنف المملكة الإسلامية الجديدة. ثم دعا النبى -صلى الله عليه وسلم - الملوك والأمراء والرؤساء فى مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله. فالذين آمنوا الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها، والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع فى قتالهم وجهادهم.. ولما استخلف ابوبكر رضى الله عنه، بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم- والتحق بالرفيق الأعلى، حمل على المملكتين المجاورتين للملكة الإسلامية مملكتى الروم والفرس. اللتين بلغ عتوهما وتماديهما فى الغى والاستكبار فى الأرض ما طبقت شهرته الآفاق. وبلغت هذه الحملات التى بدأ بها الصديق -رضى الله عنه - غايتها فى عصر الفاروق الذى يرجع إليه الفضل العظيم فى توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى، حتى شمل ظلها الوارف تلك الاقطار جميعا [٩٧]

الهوامش

١) سورة الحج ٧٨
٢) سورة التوبة ٤١
٣) سورة الانفال ٧٢
٤) قال المنار١) لا تذكر من خرج الحديثين اللذين أستشهد بهما الراغب فى الجهاد المعنوى ج٥٠ ص٣٠٦
٦) سورة المزمل ١٠
٧) سورة المدثر ٧
٨) سورة القلم ٤٨
٩) سورة الاحقاق ٥
١٠) سورة شورى ٤٣
١١) سورة النحل ١٢٧
١٢) سورة الحج ٣٩-٤١
١٣) سورة البقرة ١٩٠
١٤) سورة التوبة ١١١
١٥) سورة الانفال ٤٥
١٦) سورة الانفاقل ١٥، ١٦
١٧) سورة التوبة ٣٨، ٣٩
١٨) سورة التوبة ٢٤
١٩) سورة الحجرات ١٥
٢٠) سورة البقرة ٢٦١
٢١) سورة التوبة (٢٠-٢٢)
٢٢) سورة التوبة ١١١
٢٣) سورة الصف (١٠-١٢)
٢٤) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعا
٢٥) رواه الشيخان عن أبى هريرة أيضا
٢٦) رواه الخمسة
٢٧) رواه البخارى والنسائى والترمذى
٢٨) رواه مسلم وأبو داود
٢٩) رواه الخمسة عن انس
٣٠) رواه أبو داود عن أبن عباس
٣١) رواه أبو داود أيضا
٣٢) مروى فى الصحيحين
٣٣) مروى فى صحيح البخارى
٣٤) مروى فى صحيح مسلم
٣٥) رواه الترمذى وحسنه
٣٦) سورة آل عمران (١٦٩-١٧٠)
٣٧) سورة النساء ١٠٢
٣٨) سورة الحديد ٢٥

٣٩) سورة التوبة ٩١
٤٠) سورة الانفال ٥٨
٤١) سورة (٣٨-٣٩)
٤٢) سورة التوبه ١١٨
٤٣) سورة الاحزاب ٢٠
٤٤) سورة التوبه ٤٧
٤٥) سورة آل عمران ١٢١١) سورة
٤٦) سورة الصف ٤
٤٧) سورة الانفال ٤٥، ٤٦
٤٨) سورة الانفال ١٥، ١٦
٤٩) سورة الاحزاب ٦٠
٥٠) سورة النساء ٨٣
٥١) سورة الانفال ٦١-٦٢
٥٢) سورة محمد ٤
٥٣) سورة النحل ٩١-٩٢
٥٤) أنظر ما قاله الأستاذ (هاك) فى كتابه (مساهمة الإسلام فى السلام العالمى) الذى نشره باللغة الإنكليزيه فى لاهور عام ١٩٣٢: (أن الأمم تبذل الكثير من الجهود وتعقد المؤتمرات لمنع التسليح ومنع الحرب أو التقليل من فرص اعلانها، ولكن جهودها باءت بالفشل، ذلك لأن الدول إذ تتعهد لاتقيد نفسها بالمعاهدة الا حين تعدم عندها الوسيلة لنقضها، حتى إذا ماتوفرت عندها القوة الكافية لذلك أعلنت أن المعاهدة التى أبرمتها وأرتبطت ببنودها حبر على ورق، ويقدم لنا التاريخ كثيرا من الأمثال على ذلك، ولو طبقت أحكام الإسلام فيما يتعلق بالحروب والجهاد تطبيقا كاملا لوجد العالم فيها جنته التى يبحث عنها بدلا من الجحيم الذى هو مسوق إليه ليطيع كل منا دعوة الله تعال التى يقول فيها (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أنظر مقال الدكتور عبدالفتاح حسن عن ميثاق الأمم والشعوب فى الإسلام المنشور فى مجلة مجلس الدولة ج. ع. م السنة الثامنة والتاسعة والعاشرة فى (١٨١-١٨٢)
٥٥) سورة الانفال ٦١
٥٦) سورة البقره ٢٠٨
٥٧) سورة الحج ٣٩
٥٨) سورة المائده ٦٧
٥٩) سورة البقره ٢٥٦
٦٠) سورة الانعام ١٩
٦١) سورة الشورى ٤١، ٤٢
٦٢) سورة الشورى ٤٠
٦٣) سورة الحج ٤٠
٦٤) يراجع بتوسع الفصل الأول من الباب الثانى من هذه الرسالة فهو خاص بالجزية
٦٥) سورة الحج ٤٠
٦٦) سورة الحج ٤١
٦٧) السيرة فى ضوء القرآن والسنة للدكتور أبو شهبه
٦٨) مأخوذ من المرجع السابق ص ٥٣، ٥٦ ص٦٢، ٦٤
٦٩) سورة البقره ١٩٠، ١٩١
٧٠) سورة التوبه آية ٣٦
٧١) رواه البخارى - كتاب الصلاة
٧٢) سورة الانفال ٥٨

٧٣) سورة القصص آية ٥

٧٤) زاد المعارد٢ ص٨١، ٨٢

٧٥) فى مقدمة هؤلاء "سيرت"، وأرنولد صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور إبراهيم حسن وأخيه.

٧٦) سورة النساء ٩٤

٧٧) آية ٣٩-٤٠ وبعض الروايات تذكر أن هذه الآيات مدنية، وليس هناك أثر وثيق فى ذلك والآيات منسجمة فى سياقها السابق واللاحق انسجاما تاما، وأسلوبها من نوع الأسلوب المكى ولذلك فنحن نتوقف فى الرواية، وقد فعل غيروا حد من المفسرين ذلك

٧٨) سورة الممتحنة ٨، ٩

٧٩) سورة البقرة ١٩٠ وهذا الكلام دفع للشبهة على منهج المتساهلين أما المتشددون فسيتأتى دفاعهم بعد.

٨٠) سورة البقرة ٢٥٦

٨١) سورة يونس ٩٩

٨٢) سورة الكهف ٢٩

٨٣) يراجع الكلام فى هذا الحديث بتوسع فى الملحق الثانى فى آخر الباب الأول. مع ملاحظة أنا سرنا فى هذا الدفع على طريقة المتساهلين، وللمتشددين فى هذا كلام آخر.

٨٤) يراجع هذا المعنى بتوسع فى مقدمة الباب الأول تحت عنوان تعقيب.

٨٥) حياة محمد لهيكل ص ٢٦٨

٨٦) الوحى المحمدى ص ١٢٩

٨٧) سورة البقرة آية: ١٩١

٨٨) لزيادة الايضاح فى شأن الجهاد يراجع كتاب الجهاد للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى، وكتاب السلام العالمى فى الإسلام.

٨٩) لزيادة الايضاح فى شأن الجهاد يراجع كتاب الجهاد للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى، وكتاب السلام العالمى فى الإسلام.

٩٠) يعنى أمة قومية وهى التى تطلق عليها لفظ Nation وإلا فالمسلمون (أمة) بالمصطلح الإسلامى وهى الجماعة من الناس المتجمعة على عقيدة الإسلام، المنتظمة فى تجمع على هذا الأساس الخاضعة لقيادة تنفذ شريعة الله.

٩١) وردت فى الأصل كلمة: "مذهب" التى ترادفها لفظة: Religion فى الإنجليزية .. المترجم.

٩٢) ولا يختلف الحال لو كانت هيئة، أو كان "الشعب" هو الذى ينشئ شرائعه من غير سلطان من الملك الأعلى.. فالعبرة هى بهذا القيد.. سواء كان المشرع فردا أم جماعة أم شعبا!

٩٣) أما فى الجاهلية الحاضرة فإن شكل الاصنام والهياكل فقط هو الذى تغير. وهى تقيم للمغفلين من الناس والمستخفين اصناما وهياكل معنوية من نوع آخر ينطق سدنتها باسمها ويقولون: إنها تريد كذا وكذا فيستجيب المغفلون والمستخفون!!!

٩٤) كتب هذا البحث سنة ١٩٣٨ والنظام النازى قائم فى ألمانيا.

٩٥) وكل حكم لا تتمحض فيه العبودية لله، بسيطرة شريعة الله كلها على الحياة كلها هو حكم مناقض للإسلام.

٩٦) وبخاصة إذا كانت هذه المبادئ والخطط هى مبادئ الإسلام وخططه التى تنتزع السلطان من كل متسلط وترده إلى الله وحده، ومن ثم تتجمع فى وجهها جميع الأنظمة، وجميع الحكومات وجميع المعسكرات التى تقوم على أساس عبودية البشر للبشر.. القاعدة التى تشترك فيها جميع أنظمة البشر!

٩٧) ولم تكن تلك الفتوحات التى بدأت على عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وسارت فى طريقها فى عهد الخليفتين الراشدين بعده.. مجرد عدوى من الروح الامبراطوية السائدة فى الأرض فى ذلك الزمان كما يزعم بعض المستشرقين والمستأثرين بمزاعمهم! فما كان هذا الدين الذى جاء ليبدل واقع الأرض وتصوراتها! وما كان رسول الله ليخدع عن حقيقة دين الله بهذه العدوى.

الفصل الأول

الدعوة إلى الجهاد والترهيب من تركه

الأسباب التى حملت المسلمين على غزو الروم - معركة مؤته- انكار وتقريع للمتثاقلين عن الجهاد - الأمة كلها جيش- سر توجيه الانكار إلى الجماعة وفيهم المخلصون - التذكير بنتائج التثاقل عن الجهاد - نصر الله لنبيه لا يتوقف على المتخاذلين - تذكيرهم بتاريخ عناية الله برسوله ونصره له وحده - فى الغار مصدر هذا النصر - دلالة الآية على فضل أب بكر - على من يعود المضير فى (فأنزل الله سكينته عليه وأيده) - المراد بكلمة الله وكلمة الذين كفروا - التعبئة العامة عند مواجهة الشدائد - حرص المسلمين الأولين على الاستشهاد مكن لهم فى الأرض.

قال الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتهم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل، الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئا والله على كل شيئ قدير، الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم، انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذالكم خير لكم أن كنتم تعلمون).

هذا المقطع من سياق السورة يرجح أنه نزل بعد الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك، شرحا لنفسيات المسلمين حينما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم للخروج بقصد غزو الروم.. وقبل التحدث عن هذه الآيات وماتضمنته من العظات والعبر والأحكام والآداب، يحسن بنا أن نرجع إلى الوراء قليلا، وأن نستعرض صفحات التاريخ لنستمليها الخطوات والأسباب التى حملت النبى على دعوة المسلمين لغزو الروم.

معركة مؤته

فى أواخر السنة السادسة بعد أن أمنت الطرق بصلح الحديبية، أخذ النبى صلى الله على هوسلم يرسل كتبه إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، وكان ممن أنفذ إليهم كتاب الدعوة أمير بصرى، أحد أمراء الروم، ولما بلغ رسوله مؤته -وهى قرية من قرى الشام - تعرض له شرحبيل الغسانى، وعرف مهمته، وعرف أنه من رسل محمد. فأمر به فضربت

عنقه، وكان هو الرسول الوحيد الذى قتل من رسل النبى صلى الله عليه وسلم وحاملى كتبه، وقد حزن النبى لمقتله حزنا شديدا، وكان العرب والناس جميعا متواضعين على قتل الرسول من أكبر أنواع الغدر التى تشن الحرب لأجلها، وهذا فوق ما توجبه الحكمة فى تأمين طريق الدعوة، وقد قدر الروم أنفسهم أن محمدا وأصحابه لا يسكتون على قتل الرسول، فأخذوا حذرهم، وحشدوا من الروم ومتنصرى العرب قوة يستأصلون بها أمر محمد، وحينما علم الرسول بذلك جهز جيشا يضعف به من حدة الثائرين عليه، الهازئين بدعوته، وأنفذه إلى الروم فوجد الحشد على قوة واستعداد، وكانت الموقعة المعروفة بموقعة مؤته، وقد استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين، عقد النبى لهم لواء الجيش على الترتيب وهم زيد بن حارثة، فجعفر بن أبى طالب، فعبد الله بن رواحة وقال: (إن قتل عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون لامارتهم رجلا من بينهم).

وفعلا قتل عبدالله بن رواحة وهم بعض المسلمين بالرجوع ولكن بادرهم عقبة بن عامر بقوله: يا قوم، يقتل الإنسان مقبلا خير من أن يقتل مدبرا.. فتراجعوا واتفقوا على تأمير القائد، سيف الله فى أرضه، خالد بن الوليد.. وبمهارته الحربية انقذ جيش المسلمين، وكان عدده ثلاثة آلاف - من جيش الروم الذى كان عدده حوالى مائة وخمسين ألفا.

سلم الجيش ورجع إلى المدينة وكانت هذه الموقعة أولى المواقع بين المسلمين والروم، وبعدها فتح المسلمون مكة ثم جاءت السنة التاسعة، وتوالت الأنباء للنبى بأن الروم قد جمعوا للمسلمين الجموع، واعتزموا غزوهم فى بلادهم، فأمر النبى أن يتجهز المسلمون ويأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم فى بلادهم قبل أن يفاجئوه هو فى بلده، وكانت غزوة تبوك التى يأتينا تفاصيل احداثها ونتائجها فى الفصل الثالث من هذا الباب إن شاء الله.

وقد ظل النبى صلى الله عليه وسلم بعدها مشغولا بأمر الروم، اعتقادا منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين، فجهز فى آخر حياته لغزوهم، الجيش الذى انفذه - من بعده صلى الله عليه وسلم - خليفته الأول أبوبكر رضى الله عنه بقيادة أسامة بن زيد، وبه توالت الفتوحات الإسلامية فى الروم والفرس، وامتدت كلمة الله على معظم اجزاء المعمورة فى عهد خلفائه الراشدين.

وكان استعظامهم للجهاد وتثاقلهم عن الغزو يرجع لأسباب منها:

شدة الحر، شدة القحط، بعد المسافة، الحاجة إلى الاستعداد الكثير، ادراك الثمار بالمدينة، مهابة عسكر الروم، قرب العهد برجوعهم من غزوتى حنين والطائف، على حين طابت الظلال وأينعت الثمار وحبب إلى الناس المقام.. عندئذ بدأت تظهر فى المجتمع المسلم تلك الأعراض التى سبقت فى المقدمة، كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل، فقالوا: لا تنفروا فى الحر، وخوفوا الناس بعد الشقة، وحذرهم بأس الروم..

وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها فى تثاقل بعض الناس عن النفرة، وهذا ما تعالجه هذه الفقرة.. حيث تبدأ بالعتاب للمتخلفين، والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل الله،

والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله قبل أن يكون معه منهم أحد، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم، فلا ينالهم عندئذ الا أثم التخلف والتقصير.

انكار وتقريع للمتثاقلين عن الجهاد:

ينكر الله على المؤمنين تثاقلهم واخلادهم إلى الأرض حين يدعون إلى الجهاد ويسوق ذلك فى صورة الاستفهام الانكارى التوبيخى عما أصابهم وهم مؤمنون، فألهاهم عن واجب الإيمان.. (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل اله اثاقلتم إلى الأرض[1] أى ما الذى عرض لكم مما يخل بصحة الإيمان أو بكماله، عن المتثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم، واخلادكم إلى الراحة واللذة حين قال لكم الرسول صلى الله عليه وسلم: انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم، والقضاء على دينكم الحق الذى هو سبيل سعادتكم..

(اثاقلتم إلى الأرض) فى تعدية هذا الفعل بإلى ما يحقق أمرين: أولهما:

اشارة إلى أن هؤلاء المتثاقلين إنما ينحدرون انحدارا إلى الأرض، ويهو هويا من عل إليها! وذلك لأنهم - وهم المؤمنون بالله، هم بهذا الإيمان- فى مستوى عال فى هذه الحياة التى يحياها الناس، وانهم -وهذا شأنهم - ينبغى أن تكون وجهتهم دائما إلى السماء، وأن يكون متعلقهم بها ومآلهم فيها.. وأن تلفتهم إلى الأرض وانحدارها إليها هو رجعة إلى الوراء ونكوص على الأعقاب.

وثانيهما: إن التثاقل إلى الأرض يفيد الإختلاء بها، والامتزاج بترابها، وأن هذا الآنسان المؤمن الذى كان يحلق بإيمانه فوق هذا العالم الترابى، قد اصبح بهذا التثاقل فى عداد هذه الكائنات التى تدب على الأرض من هوام وحشرات! ومن هذه الصورة التى ترتسم للمؤمن من كلمة (أثاقلتم إلى الأرض) ما يريه المصير الذى هو صائر إليه أن هو أمسك بنفسه مع هؤلاء المتثاقلين إلى الأرض، حين يدعو داعى الحق.. أن حى على الجهاد فى سبيل الله..

انها ثقله الارض ومطامع الارض وتصورات الارض .. ثقله الخوف على الحياه والخوف على المال والخوف على اللذائذ والمصالح والماع.. ثقله الدعه والراحه والاستقرار .ثقله الذات الفانيه والاجل المجدود والهدف القريب .ثقله اللحم والدم والتراب .. والتعبير يلقى كل الظلال بجرس الفاظه ..(اثاقلتم) [٢] فهى بجرسها تمثل الجسم المسترخى الثقيل يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط منهم فى ثقل ! ويلقيها بمعنى الفاظه (اثاقلتم الى الارض) ومالها من جاذبيه تشد الى اسفل وتقاوم رفرفه الارواح وانطلاق الاشواق .

ان النفره للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الارض وارتفاع على ثقله اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوى فى الانسان وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضروره وتطلع الى خلود الممتد وخلاص من الفناء المحدود ومن ثم يفترض ان لا سبب يحملهم على ذلك التثاقل سوى مالا يختاره عاقل .. وهو الرضا بحياه الذل والاستعباد على حياه العزه والقوه.

(أرضيتم بالحياه الدنيا من الاخره؟ فما متاع الحياه الدنيا فى الاخره الا قليل).. أرضيتم براحه الحياه الدنيا ولذاتها الناقصه الفانيه بدلا من سعاده الاخره الكامله الباقيه ؟ مع ان الذى يرضى بمثل هذا فقد استبدل الذى هو أدنى بالذي هو خير .. فما هذا الذى يتمتع به فى الحياه الدنيا منغصا بالشوائب والمتاعب مليئا با الافات والبليات منقطعا عن قريب بجانب ما فى الاخره من المتاع الابدى الدائم الخالص عن الافات ومن النعيم المقيم والرضوان الالهى العظيم . الا شيئ قليل لا يؤتى له حقير لا يرضاه عاقل وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم نعيم الدنيا بالإضافه الى نعيم الاخره فى قلته فى نفسه وزمنه بقوله :(والله ما فى الدنيا لما فى الاخره الا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ثم يرفعها فلينظر بم يرجع؟) رواه أحمد ومسلم والترميذى والنسائى عن المسور .وأخرج الحاكم وصصحه عن سهل قال :مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى الحليفه فرأى شاه شائله برجلها فقال :(اترون هذه الشاه هينه على صاحبها ؟) قالوا : نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ٠ والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله تعالى من هذه على صاحبها ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى كافرا منها شربه ماء) نعم هى نعمت الدار لمن تزود منها لاخرته فنعيم الدنيا فى قلته اذا قيس الى نعيم الاخره الطويل كانت تلك حاله .

الامه كلها جيش :

ويدل توجيه الخطاب الى المؤمنين عامه على أن الجيش فى الاسلام هو كل الامه ولا يعفى من الجنديه سوى من ذكروا فى قول الله تعالى " ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحو لله ورسوله)[٢] وعنى عنايه تامه بتطير الجيش من عناصر الفتنه والخذلان واذا كان الجيش في الاسلام هو كل الامه فتطهيره هو تطهير الامه .

وانما بنى الفعل للمجهول (اذا قيل لكم)- إن كان القائل معلوما وهو الرسول للدلاله على ان التثاقل عن دعوه الجهاد فى سبيل الله من اى داع كان لا ينبغى ان يكون من المؤمنين فيشمل الرسول وغيره من كل من يدعو الى الجهاد فى سبيل الله .

سر توجيه الانكار إلى الجماعة وفيها المخلصون المسارعون:

ولعل سائلا يسأل هنا ويقول: كيف يوجه هذا الانكار وذلك التوبيخ إلى جماعة المؤمنين, وفيهم من لبى الدعوةوبذل المال دون المال دون أن يتثاقل ,ودون أن يؤثر متاع الدنيا على متاع الآخرة، بل لباها وأسرع إليها ابتغاء مرضاة الله وأعراضا عن متاع الدنيا الفانى، وايثارا للمتاع الباقى؟ وفى جوابه نقول: هو وأن كان انكارا وتوبيخا لجماعة المسلمين إذ ذاك ,غير أنه تعليم عام، وارشاد شامل لجماعة المسلمين فى كل مكان، وفى كل عصر، وهو بذلك يقرر شأنا للمؤمنين لا ينبغى أن يزايلهم، وهو مسارعتهم لدعوة الجهاد وعدم الاخلاد إلى الأرض واذا كان المسلمون جميعا فى ذلك الوقت لا يصدق عليهم بموجب هذا الإنكار، فإن اطوار المسلمين التى اعقبت هذا الجيل الأول منهم قد تحقق فيها موجب ذلك الانكار بالنسبة لجميعهم، وماعهدنا الحاضر الا أكبر مظهر التثاقل التى انضوى تحت ظلها جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فهو الان خطاب لهم جميعا، وخطاب واقعى بالنظر إلى ماصاروا إليه من

التفرق وشتات الأرض وضعف السلطان اذا اثاقلوا وأخلدوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة.

على أن خطاب المؤمنين فى ذلك الوقت وفيهم من لبى الدعوة، دليل واضح على التضامن الذى يجب أن يكون بين المؤمنين، وعلى أن تثاقل نفر منهم محسوب على الجميع، وأن جماعتهم مسئولة عن افرارهم، وهذا هو الشأن العام فى التكاليف الالهية، ومن هنا كان التواصى بالحق، والتآمر بالمعروف، والتناهى عن المنكر من المبادئ التى يشاد عليها صرح الحياة الإسلامية.. ومن هنا كان من وصايا القرآن "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة [٤] ومقتضى هذا وجوب تعهد الجماعة لمن يبدو عليه من أفرادها شيئ من امارات الضعف والتخاذل بما يقويه ويرفع من معنوياته ويجعله عضوا عاملا قويا مخلصا فى حياة الجماعة.

التذكير بنتائج التثاقل عن الجهاد:

مضت سنة الله فى هذه الحياة على أن البقاء والعزة والسلطان وعلو الكلمة أنما يكون للعاملين المجاهدين ,أما المتباطئون والمتثاقلون الذين يؤثرون حياتهم ويضنون بأنفسهم وأموالهم ويخلدون إلى الأرض ويعرضون عن دعوة الجهاد فى سبيل حرصهم وبقائهم، فإنهم ولابد ذاهبون، وأنهم لا محالة مستذلون مستعبدون. وما يحجم ذو عقيدة فى الله عن النفرة للجهاد وفى سبيله، الا وفى هذه العقيدة دخل، وفى إيمان صاحبها بها وهن، لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق"[٥] فالنفاق - وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال- هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل الله خشية الموت أو الفقر.. والآجال بيد الله، والرزق من عند الله، وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليلة ومن ثم يتوجه الخطاب اليهم بالتهديد.. "ألا تنفروا [٦] يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئا والله على كل شيئ قدير". والخطاب لقوم معينين فى موقف معين، ولكنه عام فى مدلوله لك لذوى عقيدة فى الله، والعذاب الذى يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا، عذاب الاذلال والاستعباد لغيرهم يسومهم سوء العذاب.. يستلب أموالهم وينتهك أعراضهم، ويذبح ابناءهم.. عذاب الذلة التى تصيب القاعدين عن لجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للاعداء والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين.. وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال اضعاف مايخشون فى الكفاح والجهاد ويقدمون على مذبح الذل اضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء! وما من أمة تركت الجهاد الا ضرب الله عليها الذل فقعت مرغمة صاغرة لاعدائها اضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الاعداء[٧]، وليس معنى اذلال المتثاقلين من المؤمنين ان يضيع الحق الذى اذن الله أن يكون بين عباده، وبعث به رسله وأنزل كتبه، فالحق لله، وهو لابد لحقه ناصر، فإن لم ينصر بسواعد قوم رضوا بالحياة الدنيا وذهب بهم الضعف والخور فسيهيء الله لحقه من يدعو إليه ويحافظ عليه، وهذا ما يقصد من قوله تعالى «بعد "ويستبدل قوما غيركم" يجاهدون فى سبيل الله» ويأخذون هذا المقام الكريم الذى كان مهيأ لكم من قبل فتخليتم عنه مختارين حين تثاقلتم عن الجهاد، واستحببتم الحياة الدنيا على

الآخرة.. قوما يؤمنون بالدعوة، ويقومون على العقيدة ويؤدون ثمن للعزة ويستعلون على أعداء الله، ويؤمنون بوعد الله ونصره للمؤمنين.. قوما يطيعونالله ويطيعون رسوله، لأنه قد وعد بنصره واظهار دينه على الدين كله، فإن لم يكن ذلك بأيديكم فلابد أن يكون بأيدى غيركم (ولن يخلف الله وعده).

ونظير هذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه.. أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) (٨) (وأن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم) (٩) ووصف القوم بالغيرية للدلالة على المغايرة الذاتية، أى قوما مطيعين، يؤثرون الدار الآخرة على متاع الدنيا.. فالأسلوب يدل على شدة السخط عليهم، كما يتضح من آيتى المائدة والقتال.

إنكم بهذا قد أوقعتم الضرر بأنفسكم، وأخذتم الطريق المؤدى بكم إلى الهلاك ثم لا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون فى الحساب (ولا تضروه شيئا).. ولا تضروا الله تعالى شيئا مامن الضرر فى تثاقلكم عن طاعته ونصرة رسوله، فإنه غنى عنكم- وعن العالمين جميعا - ولن يبلغ أحد ضره ولا نفعه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره، وأن كان قد جعل للبشر شيئا من الاختيار هو حجة عليهم فيما يلقون من الجزاء على الأعمال وقيل: إن المراد ولا تضروا رسوله بتثاقلكم، فإن عصمه من الناس، وكفل له النصر والغلبة.

"والله على كل شيئ قدير" لا يعجزه أن يذهب بكم ويستبدل قوما غيركم، ولا يخافون فى الله لومة لائم، ويغفلكم من التقدير والحساب، أن أنتم اصررتم على العصيان، وتوليتم عن اقامة دينه واتمام نوره ونصر رسوله.. ومن مظاهر قدرته هذه الغير التى تقع بالناس فتنقلهم من حال إلى حال، ومن أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، فليحذر الإنسان - وخاصة اذا كان على الإيمان- أن يأخذ اتجاها منحرفا عما يدعوه إليه الإيمان فإن ذلك من شأنه أن يعرضه للخروج من الإيمان آخر الأمر.. وليذكر دائما قوله تعالى (أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(١٠).

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس، اثبات للمعنى الإنسانى الكريم، فهو حيادة بالمعنى العلوى للحياة، وأن التثاقل إليالأرض والاستسلام للخوف، اعدام للوجود الإنسان الكريم، فهوفناء.. فى ميزان الله، وفى حساب الروح المميزة للإنسان.. وقد مضت سنته تعالى بأنه لابقاء للأمم التى تتثاقل عن الدفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها، ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية الا بطاعة الإمام والقائد العام المسلم، فكيف اذا كان الإمام والقائد هو النبى الموعود من ربه العزيز القدير بنصر وهلاك من عصاه وخذله، المتكفل له مولانا بنصره على اعدائه.. فإن سارعوا معه إلى الخروج حصلت النصرة بهم، وأن تخلفوا وقعت النصرة بغيرهم وحصل العتبى لهم، لئلا يتوهموا أن غلبة أعداء الدين وعز الإسلام لا يحصل الا بهم.

نصر الله لنبيه لا يتوقف على المتخاذلين:

بعد أن أنكر الله على المؤمنين التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد، واشار إلى أن التثاقل

مما يأباه الإيمان، وأن الإيمان جدير بأن يدفع المؤمنين إلى الجهاد ورد كيد الأعداء، وهددهم بأن نتائج هذا التثاقل لابد أن تقع بهم، وأنه لا يضر الحق الذى كفله الله.. بعد هذا آخذ يقرر أن نصر الرسول علياعدائه لا يتوقف علينصرهم اياه، ولاعلى خروجهم معه، ويضرب لهم مثلا من الواقع التاريخى الذى يعلمونه علينصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء، وقد عود الله رسوله النصر، ونصره فى مواطن عدة، ولم يكن له من الاتباع فى تلك المواطن مثل ماله الأن..

(الا تنصروه فقد نصرهالله اذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن أن الله معنا، فانزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) (١١)

ذكرهم فى هذه الآية بتاريخ عنايته ونصره لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق، لاتملك لها دفعا، ولا تطيق عليها صبرا.. فآذته وضيقت عليه الخناق، وائتمرت به فى دار الندوة، وقررت أن تتخلص منه، فأطلعه الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه بالخروج، فخرج وحيدا الا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثير، وقوتهم إلى قوته ظاهرة (اذ أخرجه الذين كفروا) (١٢) فقد خرج من ذلك النطاق الذى ضرب حول بيته بالحديد والنار، خرج ظافرا منتصرا وقد باء القوم فى مكرهم بالفشل، وهذا هو ماتشير إليه الآية (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (١٣) نصره فى ذلك الوقت حالة كونه بعيدا عنكم وليس معتمدا عليكم، وإنما كان ثانى اثنين: أحد اثنين لا ثالث لهما منكم.(١٤)

فى الغـــار

اتفق الرسول مع صاحبه أبى بكر على تفاصيل الخروج وتخيروا الغار الذى يأوون إليه، تخيروه جنوبا فى اتجاه اليمن لتضليل المطاردين، وحددوا الاشخاص الذين يتصلون بهم اثناء اللجأ إليه، ومهمة كل شخص.

ثم عاد الرسول صلياالله عليه وسلم إلى بيته، فوجد قريشا بدأت تضرب الحصار حوله، وبعثت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفريق دمه بين القبائل.. وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى على بن أبى طالب فى هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذى ينام فيه، وأن يتسجى به على سريره.. وفى هجعة من الليل، وغفلة من الحرس، انسل الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أبى بكر، ثم خرج الرجلان من خوخة فى ظهرها.. إلى غار ثور، إلى الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع.

وسارت الأمور على ما قدرا، وكان أبوبكر أمر ابنه عبدالملك أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما، ثم يأتيهما اذا امسى بما يكون فى ذلك اليوم من أخبار، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما اذا امسى فى الغار.. فكان عبدالله ابن ابى بكر فى قريش

يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وأبى بكر، ثم يأتيهما اذا أمسى فيقص عليهما ماعلم، وكان عامر فى رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا، فاذا إذا عبدالله من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه.. وتلك هى الحيطة البالغة كما تفرضها الضرورات على أى إنسان.

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب، وراحوا ينقبون فى جبال مكة، وكهوفها، حتى وصلوا فى دأبهم قريبا من غار ثور، وانصت الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى اقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروع أبابكر، وهمس يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا"، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"[١٥]

"اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن أن الله معنا" ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط من العثور عليهما فى هذا الفج، فتراكضوا عائدين..

وروى أحمد: "أن المشركين اقتفوا الأثر حتى اذا بلغوا الجبل -جبل ثور- اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، قالوا لم يدخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال"[١٦] ورواية أحمد حسنة، وأن لم ترد بها السنن الصحاح، ولم يرد كذلك ذكر لحمائم باضت على فم الغار وغير ذلك.

ومضت ثلاث ليال على مبيت الرسول صلىالله عليه وسلم فى الغار، وخمد حماس المشركين فى الطلب، وتزود الركب ثم سار على اسم الله. غير أن قريشا ساءها أن تخفق فى استرجاع محمد عليه السلام وصاحبه، فجعلت دية كل واحد منهما لمن يجئ بهما أحياء أو أمواتا جائزة.. مائتين أو مائة من الابل، وهى فى الصحراء ثروة تغرى بركوب المخاطر وتحمل المشاق.. فيرغب سراقة بن مالك أن تكون الجائزة له، قال: حتى أتيت فرسى فركبتها فدفعتها فقربت بى حتى دنوت منهم، فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت... وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى، فزجرها فانطلق حتى قرب من الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وكان أبوبكر كيثر الالتفات يتبين هذا العدو الجسور، فلما دنا عرفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان ماضيا إلى غايته- "هذا سراقة بن مالك قد رهقنا" وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقة على ظهره، فقام معفرا ينادى بالأمان، ووقع فى نفس سراقة أن الرسول حق، فاعتذر إليه، وسأله أن يدعو الله له، وعرض عليهما الزاد والمتاع، فقالا: لا حاجة لنا، ولكن عم عنا الطلب[١٧] فقال: قد كفيتم، ثم رجع فوجد الناس جادين فى البحث عن محمد صلى الله عليه وسلم فجعل لا يلقى أحد من الطلب الا رده، وهو يقول: كفيتم هذا الوجه.. أصبح أول النهار جاهدا عليهما، وأمسى آخره حارسا لهما.

وفى رواية أنه قال:

أباحكم والله لو كنت شاهدا ... لأمر جوادى اذ تسيخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمدا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، إنها اكراه رجل آمن فى سربه، ممتد الجذور فى مكانه على إهدار مصالحه والتضحية بماله والنجاة بشخصه فحسب.. إنه مستباح منهوب يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى أيهلك فى أول الطريق أم فى نهايته ,ولكنه الإيمان الناضج الذى يحيل البشر إليخلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة.. الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش، وإيمان بمن؟ بالله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ولكنها الثقة الغامرة بالله، والقلب الكبير الذى يهدئ من روع صاحبه ويطمئن من نفسه..

(اذ يقول لصاحبه لاتحزن [١٨] أن الله معنا) بالنصر والمعونة والحفظ والعصمة والتأييد والرحمة، ومن كان الله تعالى معه - بعزته التى لا تغلب، وقدرته التى لا تقهر، وولايته الدائمة التى لا تنقطع، ورحمته التى قام ويقوم بها كل شيئ - فهو حقيق بأن لا يستسلم لحزن أو خوف، فنحن غير مكلفين بشئ من الأسباب أكثر مما فعلنا من استخفائنا هنا مع أخذ الحيطة الكاملة.

مصدر هذا النصر.. ثم ماذا كانت العاقبة، والقوى المادية كلها فى جانب، والرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله، ومصدر هذا النصر أمران: داخلى يرجع إلى انزال الله السكينة فى قلبه، والثقة بتمام نصر الله له.. وبها خرج من مكة ووصل إلى الغار وأقام فيه مع صاحبه، وطمأن صاحبه وبها خرجا منه، وبها وصلا إلى المدينة، وبها رتب شأنه، وأقام أسس مجتمعه الجديد على.. المسجد والأخوة والمعاهدات، ودخل مع القوم فى حروب.. (فأنزل الله سكينته عليه) [١٩] وخارجى، وهو الامداد بقوى من قوى الحق - فكانت عينا تحرسه ويدا ترد من يريد السوء به - والامداد بجنود لا يراها القوم، وانما كانوا يرون أثر ذلك فى نهاية الغزوات، حتى أكمل الله دينه وجاء نصر الله والفتح (وأيده بجنود لم تروها).

والجنود التى يخذل بها الباطل، وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح، ولا صورة خاصة من الخوارق، أنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، واذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل فى ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لجب (وما يعلم جنود ربك الا هو) [٢٠] ومن صنع الله لنبيه أن تعمى عنه عيون عداته، وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا فى استكمال أسباب النجاة، بل هو مكافأة من القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر الا اتخذوها..

ولا ريب أن ذلك التأييد لم يكن فى حادث الهجرة وحده، وأنما كان نصر الله اياه وتأييده بالجنود التى لم يرها الناس فى المواقع الحربية التى حصلت بعد ذلك فقوله تعالى (وأيده بجنود لم تروها) يشير إلى غزوة بدر، والمسلمون فى قلة من العدد والعدد، وقد خرجوا للعير لا للقتال، وقد أراد الله أن تكون لهم ذات الشوكة، وأدركوا ضعفهم، وأخذ النبى يستغيث ربه فاستجاب له (إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى، ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم)[٢١]

وفيها يقول (اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) [٢٢] وقد تم لهم بذلك

النصر والتأييد.. وتشير إلى ما حصل فى غزوة الاحزاب،[٢٣] اذ جاءتهم الجنود من فوقهم ومن أسفل منهم، واذ زاغت أبصارهم وبلغت القلوب منهم الحناجر، فأيدهم الله بنصره، وأرسل على أعدائهم ريحا وجنودا لم يروها، وفى هذا نقول سورة الاحزاب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا)[٢٤]

وتشير إلى ما حصل فى غزوة حنين حينما تفرق شمل المؤمنين، فأيدهم الله ونصرهم، وفى ذلك تقول هذه السورة (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين... ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)[٢٥]

ثم أشارت الآية بعد ذلك إلى نتيجة هذا التأييد فى بقاء علو كلمة الله وانحطاط كلمة الكافرين.. (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا)..

إن الله أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم، وفوت عليهم ما أرادوا بالنبى من سوء، وأبطل ما دبروا من كيد، وما بيتوا من عدوان.. وكيف يكون لهم تماسك أمام تلك القوة القادرة القاهرة؟ فكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار، وظلت كلمة الله فى مكانها العالى منتصرة قوية نافذة..

وقد قرأ يعقوب: (وكلمة الله) بالنصب، ولكن القراءة بالرفع أقوى فى المعنى، لأنها تعطى معنى التقرير، فكلمة الله هى العليا طبيعة وأصلا بدون تصيير متعلق بحادثة معينة.. فهى عالية فى نفسها، وأن فاقها غيرها فلا ثبات لتغيره ولا اعتبار، ولذلك وسط ضمير الفصل هنا - دون سابقتها - مشيرا إلى أن كلمة الله هى فى المكان المتمكن الذى تستولى به على كل شيئ، بحيث لاتقف لها قوة، ولا يحول دونها حائل، وأنها منفردة بهذه المنزلة دون غيرها من الكلام البشرى على أى مستوى، فهى وحدها هى العليا المتفردة بهذا المقام، المتمكن من العلو، ولهذا جاء بعدها الوصف المناسب لصاحب هذه الكلمة.. (والله عزيز) ممتنع غالب، يغلب كل شيئ ولا يغلبه شيئ، ولا عزة لأحد مع عزته، ولا يغلب حقه باطل، ولا يذل أولياؤه (حكيم) يضع الأمور مواضعها القائمة على ميزان الحكمة، فقد نصر رسوله بعزته، وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته، وأذل كل من ناوأه وناوأ المتقين من أمته، وقدر النصر فى حينه لمن يستحقه من متبعى رسالته.. أما هؤلاء الذين يستشعرون العزة والقوة من أنفسهم على غيرهم من الضعفاء فإن عزتهم عزة غاشمة جهولة، وقوتهم قوة حمقاء، تضرب بغير حساب ولا تقدير.

وأنا لنرى العزة والحكمة أدل على الله وأنسب للمقام من كل سواهما من الصفات، فهو عزيز بقوته حكيم بتدبيره، ولولا اقتران حكمة الله بعزته ما طاول هؤلاء المشركين ولا أملى لهم، ولا أرخى لهم حبل غرورهم حتى يغتروا به، وهو فى كل ذلك عزيز لا يغلب حكيم لا ينحرف، وقلما اجتمعت العزة والحكمة للناس فى نطاق واحد، لأن العزة هى القهر والغلبة، والحكمة هى وضع الشيئ فى موضعه، وقل أن يكون القوى القاهر واضعا كل شيئ فى موضعه، لاتدفعن العزة ولا يستنفذ، الغضب ولا تصرفه القوة والصولة عن اللين والأناة وايثار الصلح والصفح على البطش والقتال، وأن فيما أفاضه الله على عباده المؤمنين من نعم وخيرات لعبرة بالغة وآية بينة فى حكمة العزيز وعزة الحكيم[٢٦].

بقى فى الآية بعد هذا أمور:

الأول دلالة الآية على فضل أبى بكر.. وقد دلت الأية على سمو مكانته من وجوه:

١- أنه هو الصاحب الوحيد الذى نزل الوحى بعقد صحبته للرسول.

٢- أنه لم يخرج أحد من خطاب التوبيخ السباق سوى أبى بكر، وفى ذلك ما روى عن على -كرم الله وجهه- أخذا من هذا.. (أن الله ذم الناس كلهم ،ومدح أبا بكر) وعن الشعبى أنه قال: والذى لارب غيره لقد عوتب أصحاب محمد فى نصرته الا أبا بكر، فإنه لما قال (الا تنصروه... الخ) أخرج أبا بكر.

٣- أن الله جعله مع النبى أحد اثنين دون تفاوت، وفى الحديث "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

٤- تقرير الله لنبيه فى نهيه صاحبه عن الحزن، وعلى معية الله لهما معا، وحكايته اياه فى كتابه الخالد (إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا).

وقد كان أبوبكر -أول من آمن من الرجال- بعد الرسول ثانى اثنين فى الإيمان، ودعا عقب إيمانه طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من الصحابة، دعاهم إلى الايمان فآمنوا على يديه، وكان بذلك بعد الرسول ثانى اثنين فى الدعوة إلى الله، وكان أبوبكر فى مجالس النبى صلى الله عليه وسلم يقف فى خدمته وفى أقرب مكان منه، وبذلك كان من الرسول ثانى اثنين فى المجلس، ولما مرض الرسول صلى الله عليه وسلم آمر أبا بكر أن يصلى بالناس، فكان مع الرسول ثان اثنين فى إقامة الصلاة، ولما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم تولى أبوبكر إدارة شئون المسلمين، فكان مع الرسول ثان اثنين فى ولاية المسلمين، ولما مات أبو بكر دفن بجانب الرسول، فكان للرسول ثانى اثنين فى القبر.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر "أنت صاحبى فيالغار، وأنت معى على الحوض" رواه الدارقطنى، وعن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لحسان"هل قلت فى أبى بكر شيئا؟" قال: نعم، قال: "قل وأنا أسمع "قال حسان:

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد	طاف العد وبها اذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا	من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: "صدقت يا حسان هو كما قلت"رواه ابن عساكر.

أظن أن أحدا لا يستطيع بعد هذا أن يزعم لغير أبى بكر مكانة أبى بكر، ولكن النزعات السياسية أو العصبية تأبى الا أن تثير الشبهات وتتناول المقامات.

الأمر الثانى: لم يذكى النبى صراحة فى الآية، بل ذكر بضمير الغائب (تنصروه) وفيه اشارة مضيئة إلى النبى تحيطه بهالة من نور ربانى، بحيث تشخص الأبصاركلها إلى مثل هذا النور العلوى الذى يفاض على النبى ويحف به، فليس هناك من تخلى عنه الأنصار والأعوان - فى هذا الموقف بالذات - غير النبى، وليس هناك من أحاطت به العنايد الربانية، وحفت به امدادات العون والنصر الألهى فى هذا الموطن بالذات أيضا، غير النبى، فلهذا كانت الاشارة

إليه مغنية عن كل ذكر، ولم يذكر أيضا اسم الصاحب الذى صحب النبى -عليه السلام - فى هذه الحال، وفى هذا تشريف لمقام أبى بكر وتمجيد لتلك الصحبة المباركة التى جعلت منه صاحب نبى ورفيق رسول، يأخذ بنصيب طيب من رعاية الله لنبيه ويستظل بما استظل به النبى من نصر.

الأمر الثالث: على من يعود الضمير فى (فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) على أبى بكر أو على الرسول؟ قولان، وإليك أدلتهما:

١- ذهب بعض مفسرى اللغة والمعقول إلى عود الضمير على أبى بكر، ووضحوا ما فيها من التعليل من أنه صلى الله عليه وسلم لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن، وقواها بعضهم بأن الضمير، الأصل فيه أن يعود إلى أقرب مذكوى.. وهو الصاحب.. وليس هذا بشيئ وأخرج ابن ابى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس رضيالله عنهما فى قوله: (فأنزل الله سكينته عليه) قال: على أبى بكر، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم تزل السكينة معه. وأخرج الخطيب فى تاريخه عن حيب بن أبى ثابت (فأنزل الله سكينته عليه) أى على أبى بكر، فأما النبى فقد كانت عليه السكينة.

٢- وذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فكما عاد الضمير إليه فى أول الآية (ألا تنصروه) وعدم ذكر أبى بكر فى هذين المقامين - البدء والختام - لا ينقص من قدر أبى بكر ولا يزحزحه عن مقامه الذى رفعه الله إليه فى قوله (اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا) اذ لاشك أن الموقف هو موقف الرسول، وأن الرسالة هة صاحبها والمدعو إليها من ربه، وأنه ليكفى أبا بكر شرفا أن ينفرد بهذا المقام الكريم فيكون للنبى ردءا وعضدا فى وقت كان على النبى عصيب.

وأضاف هؤلاء قائلين: وأن انزال السكينة عليه صلى الله عليه وسلم لا يقتضى أن يكون خائفا. وهذا ضعيف، لعطف انزال السكينة على ما قبلها بالفاء الدال على وقوعه بعده وترتبه عليه، وإن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه (لا تحزن أن الله معنا).

ولكنهم قووه بأن ماعطف عليه من قوله (وأيده بجنود لم تروها) لا يصح الا للنبى صلى الله عليه وسلم.. والمراد بهؤلاء الجنود، الملائكة، لأن الأصل فى المعطوفات التناسق وعدم التفكك.

وأجاب عنه الآخذون بقول ابن عباس ومجاهد:

أولا: بأن التأييد بالجنود معطوف على قوله (فقد نصره الله) لا على (أنزل الله سكينته عليه).

وثانيا: بأن تفكك الضمائر لا يضر إذا كان المراد من كل منها ظاهرا لا اشتباه فيه.

وثالثا: بأنه لا مانع من جعل التأييد لأبى بكر، نقله الألوسى، وقال: كما يدل عليه ما أخرجه ابن مردويه من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر: "أن الله تعالى أنزل سكينته عليك وأيدك" الخ

قال بعض المفسرين: أن المراد بهؤلاء الجنود ما أيده الله تعالى به يوم بدر والاحزاب وحنين. وقال بعضهم: بل المراد أنه أيده بملائكته فى حال الهجرة يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ويصرفونها عنهما، فقد خرج من داره والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظره.. فإذا كانت الملائكة فى هذه المواقع كلها نزلت لتأييد المؤمنين على المشركين وتخذيل هؤلاء - وكان النائب عن جميع المؤمنين، والحال محلهم فى خدمة رسوله يوم الهجرة هو صاحبه الأول الذى اختاره عليهم كلهم فى ذلك اليوم العظيم - فأى بعد فى أن يكون التأييد المرافق لانزال السكينة له، لحلوله محلهم كلهم، ومن المعلوم أنه لم يكن له هذا الا بالتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن جميع ما أيد به تعالى سائر أصحاب رسوله فى جميع المواطن كان تأييدا له، وتحقيقا لما وعده الله تعالى من النصر على جميع اعدائه، واظهار دينه على الدين كله.

الأمر الرابع: (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) فى هذه العبارة احتمالان: أحدهما أن يكون المراد بكلمة الذين كفروا.. كلمة الشرك والكفر، وبكلمة الله.. كلمة التوحيد، وهو مروى عن ابن عباس رضيالله عنهما، وعليه أهل التفسير المأثور.

ووجهه: أن عداوة المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم انما كانت لأجل دعوته إلى التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك وخرافات الوثنية، ولذلك قام أبوسفيان عند ظهور المشركين فى أحد، فقال رافعا صوته ليسمع المسلمين: اعل هبل، اعل هبل - وهبل صنمهم الأكبر - فأراد صلى الله عليه وسلم أن يجاب "الله أعلى وأجل" وفى الصحيحين من حديث أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل غضبا وحمية، ويقاتل رياء، وفى رواية للمغنم وللذكر، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله".

والاحتمال الثانى: أن يكون المراد بكملة الذين كفروا: ما أجمعوه بعد التشاور فى دار الندوة من الفتك به صلى الله عليه وسلم والقضاء على دعوته، وهو فى قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا)[٢٧] ويكون المراد بكلمة الله ما قضت به ارادته ومضت به سنته، من نصر رسله، وبينه فى مثل قوله: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون)[٢٨] وقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى)[٢٩].

فهذه كلمة الله الارادية القدرية التى كان من مقتضاها وعده لرسوله الأعظم بالنصر. وفسر بعضهم كلمته هنا: بما وعده من احباط كيدهم ورد مكرهم فى نحورهم، وهو قوله فى تتمة الآية (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وما قلناه هو الأصل، والقول الفصل، وهذا مبنى عليه.

وقد أدرك هذه العلوية الوليد بن المغيره من كبراء مشركى قريش بذكائه وبلاغته فقال: وأنه ليعلو ولا يعلى عليه، وأنه ليحطم ما تحته.

وأما كلمة الذين كفروا فقد كانت لا مقابل لها ولا معارض قبل الإسلام، من حيث القيام بها

لتوصف بالوصف اللائق بها، وهو السفلية، سواء أريد بها كلمة الشرك أو كلمة الحكم.. فقد كان لأهلها السيادة فى بلاد العرب حتى مكة المكرمة، ودنسوا بيت الله بأوثانهم، فأذل الله أهلها وأزال سيادتهم بظهور الإسلام بعد كفاح معروف، وأن أريد بها تقريرهم لقتل النبى فالأمر ظاهر أيضا، وكل من الأمرين حصل بجعل الله وتدبيره، ثم بكسب المؤمنين وجهادهم. وأما كلمة الكفر فى نفسها، وبصرف النظر عن تلبس بعض الشعوب أو القبائل بها، فلا حقيقة لها.. أعنى أن الشرك لا حقيقة لمضمونه فى الوجود، وأنما هو دعاوى لفظية صادرة عن وساوس شيطانية خيالية، كما قال تعالى (ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)[٣٠].

وقد ضرب الله المثل للكلمتين وأرهما فى الوجود بقوله (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء)[٣١]

تقرير واجب المسلمين حين الدعوة العامة للجهاد:

ذلك مثل على نصرة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ولكلمته، والله قادر على أن يعيده على أيدى قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطئون وهو مثل من الواقع أن كانوا فى حاجة بعد قول الله إلى دليل! وفى ظلال هذا المثل الواقع المؤثر، وبعد أن أنكر عليهم التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد، وبعد أن هددهم بسوء المصير أن لم ينفروا ويسارعوا، وبعد أن طالعهم بسسنه مع نبيه، وأن نصره اياه لا يتوقف عليهم.. فى هذا الجو أخذ يدعوهم إلى النفرة العامة لا يعوقهم معوق، ولا يقعد بهم طارئ، ويحثهم على التطبيق العملى مما تكشف عنه الآيات السابقة من نصر الله لنبيه، وأن من كان من حزب الله فلن يغلبه أحد ولو كان وحده، فليأخذ المسلمون مكانهم فى الجهاد، وليكونوا من حزب الله أن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة..

(انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون)..

روى عن أبى الضحى مسلم بن صبيح [٣٢] أن هذه الآية أول ما نزل من هذه السورة ثم نزل ما قبلها وما بعدها بعد ذلك، ولا يصح بهذا نقل، ولا يقبله فهم ولا عقل، والمتبادر من هذا السياق أن أوله خطاب الله للمؤمنين فى قتال أهل الكتاب وما يسوغه وما ينتهى به من قبول الجزية منهم، ويتلوه انكاره عليهم التثاقل عن النفر، اذ استنفرهم الرسول لغزوة تبوك، وما قبله من أول السورة سياق مستقل.

والخفاف: جمع خفيف، وهو الذى لا يعوقه عن النفر إلى الجهاد معوق مادى أو نفسى والثقال: جمع ثقيل، وهو الذى تعرض له تلك العوارض التى تثقله وتوهن عزمه على الجهاد

وتثقل خطوه فى السعى إليه، كالاشتغال بالحياة وتثمير المال ومعالجة التجارد أوالزراعة ونحوه. أو كالحرص على الحياة والخوف من الموت، أو الاستثقال لأعباء السفر ومشقة الانتقال والتعرض لمتاعب الطريق، وما يتعرض له المسافر من حر أو برد أو جوع أو ظمأ. فالخفة والثقل فى الاشخاص تكون بالنظر إلى الأجسام وصفاتها.. من صحة ومرض، وشباب وكبر، ونشاط وكسل، ويكونان بالنظر إلى الأحوال الخارجية.. من قلة وكثرة وفقر وغنى ووجود الشواغل وعدمها.

والآية تقرر.. أنه يجب على المؤمنين النفير العام حين الدعوة إليه، على أى حال كانوا - خفافا أو ثقالا - ماراموا قادرين على حمل السلاح، وليست هذه العوارض المادية أو المعنوية التى تعرض للمسلم، بالتى تعفيه من أن يكون فى جبهة القتال مع أخوانه المجاهدين فى سبيل الله، فهو آثم خارج على أمر الله وأن هو لم يأخذ مكانه ويؤدى الواجب المدعو إليه.. ولا يباح لأحد أن يتخلف إلا فى حال العجز التام [٣٣] وهو كما تدل على الآية (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا الله ورسوله")

على أن هذا الثالث مقيد بما اذا لم يجد من يحمله، وبذلك كانت الآية محكمة، لانسخ فيها، ولا تعارض بينها وبين قوله تعالى "وما كان المؤمنون لينفروا كافة" فإن هذا أما أن يكون للنفرة فى تعلم العلم وأحكامه، وأما أن يكون فى غير الدعوة العامد للجهاد[٣٤]

وقد أرشدت الأية إلى أن الجهاد لا يكون بالنفس فحسب، بل وبالمال أيضا لمن يملك المال، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لأن املال عند من يحرص على المال أحب إليه من نفسه، ولأنه فى القوة الغالبة التى تثقل الإنسان وتبطئه عن الجهاد، فإذا سخا بالمال وبذله فى سبيل الله خفت نفسه إلى الجهاد، وانطلق من القيد الذيكان يمسك به عن أن يكون فى المجاهدين، فـ من قدر على الجهاد وانطلق من القيد الذى كان يمسك به عن أن يكون فى المجاهدين، فمن قدر على الجهاد بالمال والنفس وجبا عليه، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ماقدر عليه، وفى الحديث: (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا) [٣٥] فلكل مسلم مكانة فى المعركة، اذ ليست المعركة معركة أفراد فحسب، بل هى معركة سلاح وعتاد ومؤونة، بل هى قبل ذلك كه معركة مشاعر وأحاسيس.. فالأمة المسلمة كلها ينبغى أن تكون فى مواجهة المعركة على شعور واحد ينتظم جميع أفرادها.. هو شعور الجهاد لأعلاء كلمة الله واقامة الحق والعدل، ومواجهة العدو الذى يقاتل فى سبيل الطاغوت والتصدى له وطلب الغلب عليه.

ولهذا فقد بين الله فائدته بقوله "ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون".. تعلو كلمتكم، ويعظم سلطانكم، ويحفظ كيانكم، وتنالون به الخير فى الدنيا والآخرة.. أما الدنيا، فلا حياة للأمم فيها ولا ذكر ولا سيادة الا بالقوة الحربية، والقعود عن القتال والتقصير عن إعداد عدته، يغرى الأعداء بالقاعدين والمقصرين وحب الراحة يجلب التعب. وأما الآخرة، فلا سعادة فيها الا لمن ينصر الحق، ويقيم العدل، وينفذ أحكام الله وشرائعه، ولا يمكن هذا كله الا باستقلال الأمة وقدرتها على حفظ سيادتها وسلطانها، بقوتها ورد تسلط الأعداء عليها..

ثم ذيلت الآية بما يدل على أن هذا المبدأ مما يدرك الناس خيريته بعقولهم، وعلمهم بشئون الحياة والاجتماع "أن كنتم تعلمون".

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير فنفروا والعوائق فى طريقهم، والأعذار حاضرة لديهم لو أرادوا التمسك بالاعذار، ففتح الله عليهم القلوب والأرضين، وأعز بهم كلمة الله، وأعزهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة فى تاريخ الفتوح..

قرأ أبو طلحة رضى الله عنه سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا، جهزونى يابنى، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها الا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وروى ابن جرير - باسناده - قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم برا، ثم لم يتخلف عن غزاة المسلمين الا عاما واحدا، قال" وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: (انفروا خفافا وثقالا" فلا أجدنى الا خفيفا أو ثقيلا، وظل أبو أيوب الانصارى يجاهد فى المعارك التى نشبت فى عهد الخلفاء الراشدين، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تحرج فى أول الأمر أن يخرج فى جيش تحت أمرة يزيد، ولكن نفسه التواقة للجهاد نازعته إليه، وقال: ما ضرنى من استعمل على الجيش، فلحق بهم، وأبلى بلاء حسنا، ثم مرض فعاده يزيد، فقال له: ماحاجتك؟ قال: حاجتى اذا أنا مت فاركب بى ما وجدت مسافا فى أرض العدو، فاذا لم تجد فأدفنى ثم ارجع، فلما توفى صلى عليه يزيد والمسلمون، وفعلوا به ما أوصى به، فدفن بجوار أسوار القسطنطينية، شاهدا على لون رائع من ألوان البطولة الإسلامية الفذة.

وروى ابن جرير - باسناده - عن أبى راشد الحبرانى [٣٦] قال: وافيت المقادمين الأسود فارس رسول الله صلىالله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة، وقد فضل عنه من عظمه [٣٧] يريد الغزو[٣٨] فقلت له: لقد اعذر الله إليك، فقال: أتت[٣٩] علينا سورة البعوث[٤٠] "انفروا خفافا وثقالا" (يريد هذه الآية من سورة التوبة).

وروى ابن جرير كذلك -باسناده - عن حيان بن زيد الشرعبى قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو - وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة - فلقيت شيخا كبيرا هما قر سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فى من أغار، فأقبلت إليه، فقلت: يا عم، فقد اعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخى، استنفرنا الله خفافا وثقالا، الا أن من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبقيه، وأنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكره ولم يعبد الا الله عز وجل.

وقال الإمام الزهرى خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: أنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكننى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.

يمثل هذه الروح قامت عزة الإسلام وعزة المسلمين، ويمثل هذا الجد فى أخذ كلمات الله

انطلق الإسلام فى الأرض.. يخرج الناس من عبادة العابد إلى عبادة الله وحده.. وتمت تلك الخارقة فى نشر الإسلام فى الآفاق بهذه السرعة الفائقة.. ويمثل هذ الفهم للقرأن والاهتداء به فتح سلفنا للبلار وسادوا العباد.. فلما تخلى المسلمون عن القرآن، ولم يبق لأحد من شعوب أمتنا منه.. الا تغنى بعضهم بتلاوته من غير فهم ولا تدبر، واشتغال آخرين باعراب جملة ونكت البلاغة فى مفرادته وأساليبه من غير علم ولا فقه فيها، ولا فكر ولا تدبر لما أودع من العظات والعبر فى مطاويها، أقول: لما اقترف المسلمون هذا، ضاع ملكهم، وصار أكثرهم عبيدا لأعدائهم، ولما تراخت فى نفوسهم عزة الإسلام ونخوة الجهاد، تراخت دولتهم وركبهم الذل، وصاروا فى ذيل القافلة تابعين، وقد ارادهم الله الإسلام قادة متبوعين!! فمن شاء العزة فذلك هو الطريق.. فالقرآن الكريم أيها المسلمون، والجهاد الجهاد أيها القادرون.

ما اشتملت عليه الآيات:

١- الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله، وأنه طريق النصر.

٢- متاع الدنيا زائل، ومتاع الآخرة دائم باق.

٣- لطف الله بعباد، المؤمنين فى الشدائد والأزمات.

٤- حسن الصحبة وتخير المرء لمن يخالل، وبيان فضل أبى بكر.

٥- أن على المسلمين أن يبذلوا الطاقة، ويأخذوا بأقصى ما يمكن من الأسباب فى قتال أعدائهم، فإذا عجزت طاقتهم، أو قصرت بهم نفقتهم بعد ذلك، أكمل الله لهم ما نقص وأيدهم بجنود من عنده.

٦ - أن الباطل لا محالة مخذول معزوم، وأن الحق لابد قاهر منتصر، مهما طال المدى ومهما تخلى عنه من كان مفروضا عليهم خصرته.

الهوامش

١) النفر إلى الحرب: السعى إليها فى جد وعزم ومضاء، وأصل المادة من النفور وهو الصد عن الشئ ومنه (وزادهم نفورا) ضمن الفعل (اثاقلتم) معنى الميل والاخلاد فعداه بـ(إلى)، والأرض أما متاع الدنيا، أو أرضهم وبلادهم. و(من) معناها بدل. ولم يذكر متاع الآخرة للدلالة على أن الآخرة لذاتها أبقى من الدنيا مع مافيها من متاع .. تفسير الشيخ شلتوت.

٢) هذه قراءة حفص، وهى أبلغ تصويرا من القراءات التى ورد فيها (تثاقلتم)

٣) سورة التوبة آية ٩١

٤) سورة الانفال ٢٥

٥) رواه مسلم وأبو داود

٦) "الا" مركبة من أن الشرطية، ولا النافية للحال، والاستقبال كأن لم للماضى.

٧) وليس هذا هو الجزاء الاخروى الذى أعده الله لمن يخالف أمره حتى يقال دلت الآية على أن الأمر بالشيئ ليس مقتضاه سوى طلب الفعل، أما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من الأمر ولا يقتضيه، وإنما يدل عليه بالخبر عنه، كما تقول: أن لم تفعل عذبتك، وكما جاء فى هذه الآية، نعم هو كذلك بالنسبة للأوامر فيما يختص بالآخر، أما آيتنا فهى تشير إلى

الجزاء الطبيعى لعدم امتثال الأمر وهو لازم للأمر أخبر به أم لم يخبر.. ويدل على أن المقصود ما ذكرنا قوله تعالى فيما بعد "ويستبدل قوما غيركم" فإنه صريح فى ذهابهم والاتيان بغيرهم بدلا عنهم، وكل ذلك فى الدنيا.

٨) سورة المائدة ٥٤

٩) سورة محمد ٣٨

١٠) سورة الرعد ١١

١١) والتقدير: الا تنصروا الرسول الذى استنفركم فى سبيل الله، فقد ضمن الله له النصر، فسينصره بقدرته وتأييده كما نصره إذ أجمع المشركون على الفتك به. أو: ألا تنصروه فسينصره من نصره حينما لم يكن معه إلا رجل واحد، أى أنه ينصره الآن كما نصره فى ذلك الوقت. أو التقدير: ألا تنصروه فقد أوجب الله له النصر فى كل حال وكل وقت، حتى نصره فى ذلك الوقت الذى لم يكن معه جيش ولا أنصار منكم، بل حال كونه أحد اثنين. وقال الرازى: تقدير الآية: الا تنصروه فقد نصره فى أمرين: الأول نصره فى واقعة الهجرة إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار.. فأنزل الله سكينته عليه، الثانى نصره فى بدر وهى المراد من قوله "وأيده بجنود لم تروها" لأنه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأيد رسوله بهم.

١٢) أى اضطروه إلى الخروج والهجرة، ولولا ذلك لم يخرج، وقد تكرر فى التنزيل ذكر اخراج المشركين للرسول وللمؤمنين المهاجرين من ديارهم بغير حق، وليس المراد منه أنهم تولوا طردهم واخراجهم مجتمعين ولا متفرقين، فإن أكثرهم خرج مستخفيا كما خرج النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه رضى الله عنه.

١٣) سورة الانفال ٣٠

١٤) فإن مثل هذا التعبير لا يعتبر فيه الأولية ولا الأولية، لأن كل واحد منهما ثان للآخر، ومثله ثلاث ثلاثة ورابع أربعة، لا معنى له إلا أنه واحد من ثلاثة أو أربعة به تم هذا العدد على أن الترتيب فيه إنما يكون بالزمان أو المكان. وهو لا يدل على تفضيل الأول على الثانى أو الثالث أو الرابع على من قبله، وسيأتى فى حديث الشيخين "ما ظنك باثنين الله ثالثهما"

١٥) حديث أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكر رضى الله عنه.

١٦) فى المسند عن أبن عباس، حسنه ابن كثير فى البداية والحافظ فى الفتح وفى تحسينه نظر.

١٧) إلى هنا أخرجه البخارى هكذا من حديث سراقة بن جعشم، وبقية القصة الا السطر الأخير آخرجها مسلم من حديث البراء بن عازب، والسطر المذكور عند البخارى من حديث أنس، ورواه أحمد أيضا.

١٨) الحزن: انفعال نفسى اضطرارى، يراد بالنهى عنه مجاهدته وعدم توطين النفس عليه والنهى عن الحزن – وهو تألم النفس مما وقع – يستلزم النهى عن الخوف مما يتوقع. وقد عبر عن الماضى بصيغة الاستقبال (يقول) للدلالة على التكرار المستفاد من بعض الروايات، ولاستحضار صورة ما كان فى ذلك الزمان والمكان ليتمثل المخاطبون ما كان لها من عظمة الشأن.

١٩) السكينة: هى الطمأنينة التى تحل بالقلب، فيجد الإنسان المكروب ريح الأمن وبرد السلامة والعافية، وهى مأخوذة من السكون أو السكن بمعنى القرار، وفى التعبير عن حلول السكينة قلب النبى بانزالها عليه اشارة إلى أنها منزلة من السماء، وإنها من قوى الحق التى أمد الله نبيه بها، وليست من القوى التى يملكها الناس ويستندون إليها.

٢٠) سورة المدثر ٣١

٢١) سورة الانفال ٩، ١٠

٢٢) سورة الانفال ١٢

٢٣) سورة الاحزاب ٩

٢٤) سورة التوبة ٢٥، ٢٦

٢٥) من رسالة "تفسير سورة الفتح" للدكتور أحمد السيد الكومى ص ١٢٢-١٢٦

٢٦) الانفال ٣٠

٢٧) سورة الصافات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣

٢٨) سورة المجادلة ٢١

٢٩) سورة يوسف ٤٠

٣٠) سورة إبراهيم آية ٢٤، ٢٧

٣١) هكذا فى المنار وابن كثير، على أنهما اسمان لشخص واحد وفى الطبرى ج١٤ ص٢٦٩، ٢٧٠ أبى الضحى غير مسلم بن صبيح.

٣٢) وفى الالوسى: وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله: أعلى أن أنفر؟ قال: (نعم حتى نزل "ليس على الأعمى حرج" ج٢ ص٢١٣

٣٣) وسيجئ بيان ذلك بوضوح عند الحديث على هذه الآية فى سياقها فى الفصل الرابع من هذا الباب.

٣٤) رواه البخارى

٣٥) عند ابن كثير "الحرانى"

٣٦) فى رواية "فصل" وفى رواية أخرى "عنها".

٣٧) فى رواية: بحمص يريد الغزو، وكان شيخا كبيرا هما قد سقط حاجباه على عينيه.

٣٨) فى رواية: "أبت

٣٩) قال المعلق على تفسير الطبرى: هكذا جاء هنا فى المخطوطة (البعوث) وأنا فى شك منه شديد. لأن لم أجد من سمى سورة التوبة.. سورة البعوث، بل أجمعوا على تسميتها (سورة البحوث)، والبحوث.. منهم من يقولها بضم الباء جمع بحث، سميت بذلك، لأنها بحثت عن المنافقين وأسرارهم، أى استشارتها وفتشت عنها. وقد قال ابن الأثير: أنه رأى فى "الفائق" للزمخشرى: البحوث بفتح الباء، ومطبوعة "الفائق" لا ضبط فيها، ثم قال ابن الاثير: "فإن صحت فهى فعول من أبنية المبالغة، ويقع على الذكر والأنثى، كامرأة صبور، ويكون من باب اضافة الموصوف إلى الصفة" أما الزمخشرى فقال: " سورة البحوث هى سورة التوبة بما فيها من البحث وكشف أسرارهم" وهذا كله يؤيد ما ذهبت إليه. ج١٤ ص٢٦٨، ص٢٦٨

٤٠) تفسير ابن كثير والبغوى، ج٤ ، ص١٧٥، ج١، ص ٤٣٢

الفصل الثانى

التجرد من صلات الدم والنسب
بعد التجرد من النفس والأموال

بيعة رهيبة ونص رهيب - حركة منظورة لا صورة متأملة - صفة تسليم المبيع - انتصار الأيمان على الألم - هل فى الكتب السابقة دعوة إلى الجهاد ؟ - مجاهدة الأعداء بالحجة - أجور المجاهدين مختلفة - صفات إيمانية أصيلة - السياحة فى وصف المؤمنين - النبوة والأيمان ينافيان الاستغفار للمشركين - سبب نزول أية (ما كان للنبى) - استغفار إبراهيم لأبيه - الفرائض والمحرمات لا تثبت إلا بالنص القطعى - لا عقوبة إلا بنص.

استعراض عام

هذا الفصل يتناول آيات تمثل - هى وما بعدها من الآيات إلى آخر السورة -بقية فى الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره، تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه، وتحديد طبيعة (الإسلام) الذى يبين ذلك، وبيان تكاليف هذا الدين ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة.

إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين: الله سبحانه فيها هو المشترى، والمؤمن فيها هو البائع، فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله الجهاد فى سبيله، لتكون كلمة الله هى العليا، وليكون الدين كله لله، فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة.. وهو ثمن لا تعادله السلعة، ولكنه فضل الله ومنه.. (أن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم). والذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة هم الصفوة المختارة، ذات صفات مميزه، منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذوا تهم لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم.. (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين).

والآيات التالية فى السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه

الصفقة وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - فقد اختلفت الوجهتان واختلف المصيران، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم، ولا لقاء فى دنيا ولا فى آخرة بين أصحاب الجنة و أصحاب الجحيم. فقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم.. (ما كان للنبى والذين أمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم.. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ألا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم.)

وولاء المؤمن يجب أن يتمخض لله الذى عقد معه تلك الصفقة، وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة - وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبه ويعصم من كل ضلالة - وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته، فهم بها فى غنى عن كل ما عداه، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه.. (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون أن الله بكل شئ عليم. أن الله له ملك السموات والأرض يحى ويميت وما لكم من الله من ولى ولا نصير).

وهذا هو العرض الإجمالى للفصل فلنأخذ الآن فى التفصيل، وعلى الله قصد السبيل.

بيعة رهيبة ونص رهيب

(إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم).

هذه الآية فى بيان حال المؤمنين حق الأيمان البالغين فيه ما هو غاية له من الكمال، وضعت بعد بيان حال المنافقين وأصناف المؤمنين المقصرين، ومنه نعرف جميع درجات المسلمين ولا سيما المتخلفين عن الجهاد فى سبيل الله.

وهذا مثال لإثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الأبدى، والرضوان السرمدى، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هو له لأخر، لطفاً منه تعالى وكرماً وتكريماً لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيعان على المنافع المتبادلة، وهو عز وجل المالك لأنفسهم، إذ هو الذى خلقها، والمالك لأموالهم إذ هو الذى رزقها، وهو غنى عن أنفسهم وأموالهم، وإنما المبيع والثمن له، وقد جعلها بكرمه لهم.

أنه نص رهيب ! أنه يكشف عن حقيقة العلاقة التى تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التى أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى ينطبق عليه وصف المؤمن، وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهى دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة - أن الله سبحانه قد أستخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم، فلم يعد لهم منها شئ لم يعد لهم أن

يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيل الله، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. أنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم، لا يلتفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.والثمن: هو الجنة.. والطريق. والنهاية:والقتل والقتال..والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد .

من بايع على هذا، من أمضى عقد الصفقة، من أرتضى الثمن ووفى، فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشتروا من الله فباعوا.. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو ملك الأنفس والأموال، ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً، وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس أرتكاسه إلى عالم البهيمية.. شر البهيمية.. (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون)[1].. كما جعل مناط الحساب والجزاء، هو النقض والوفاء.

وأنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها فى عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه، ومن هنا كان الرعب وكانت الرهبة - التى ينبغى أن يستشعرها كل قارئ لهذه الكلمات.. (إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون).

عونك اللهم !! فإن العقد رهيب.. وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم (مسلمين) فى مشارق الأرض ومغاربها قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله فى الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبيه وخصائصها فى حياة العباد، ولا يقتلون ولا يقتلون، ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال !!

حركة منظورة لا صورة متأملة

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين -على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم- فتتحول من فورها فى القلوب الآمنة إلى واقع من واقع حياتهم، ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجرد فى مشاعرهم، كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها، لتحويلها إلى حركة منظورة لا إلى صورة متأملة..

هكذا أدركها عبد الله بن رواحة رضى الله عنه فى بيعة العقبة الثانية.. قال محمد ابن كعب القرظى وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يعنى ليلة العقبة): اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: (أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: (الجنة) قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل[2]..

هكذا (ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل) لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين

انتهى أمرها، وأمضى عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: (لا نقيل ولا نستقيل) فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار، والجنة: ثمن مقبوض لا موعود!

أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشترى؟ أليس هو الذى وعد الثمن؟ وعدا قديما فى كل كتبه (وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن).. (ومن أوفى بعهده من الله؟) أجل، ومن أوفى بعهده من الله؟.

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ,ولا تصلح الحياة بتركها (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[٣]

(لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)[٤].

صفة تسليم المبيع

وقد بينت الآية صفة تسليم البيع (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) فهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته تعالى ,فيبذلون أنفسهم وأموالهم، فيكونون إما قاتلين لأعدائهم الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل. وقوله تعالى (يقاتلون فى سبيل الله) فيه معنى الأمر كقوله (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وقيل: (يقاتلون) كالتفسير لتلك المبايعة وكالأمر اللازم لها.

والمسكوت عنه الجمهور بتقديم (يقتلون) المبنى للفاعل على (يقتلون) المبنى للمفعول لأن المعنى أنهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنه إلى أن يصيروا مقتولين.

وقرأ حمزة والكسائى بالعكس على معنى أن طائفة كبيرة من المسلمين وأن صاروا مقتولين لم يصر ذلك ردعا للباقين عن المقاتلة بل يبقون بعد ذلك مقاتلين مع الأعداء قاتلين لهم بقدر الإمكان ,وهو قوله تعالى (فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله)[٥] أى ما وهن من بقى منهم، وقيل هو يدل على أن الشهادة عريقة فى نفوسهم لعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله فهو أحب إليهم من السلامة، كما قال كعب بن زهير فى حقهم:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

لا يقطع الطعن إلا فى نحورهم ... ومالهم عن حياض الموت تهليل

فدلت القراءتان على أن الواقع أن يقتل بعضهم ويسلم بعض، وأنه لا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما فى سبيله، لا حبا فى سفك الدماء، ولا رغبة فى اغتنام الأموال ,ولا توصلا إلى ظلم العباد كما يفعل عباد الدنيا من الملوك والأمراء.

انتصار الإيمان على الألم والعقيدة على الحياة

إن الحق لابد أن ينطلق فى طريقه، ولابد أن يقف له الباطل فى الطريق، بل لابد أن يأخذ عليه الطريق.. أن دين الله لابد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى

العبودية لله وحده، ولابد أن يقف له الطاغوت فى الطريق، بل لابد أن يقطع عليه الطريق.. ولابد لدين الله أن ينطلق فى (الأرض) كلها لتحرير (الإنسان) كله ,ولابد للحق أن يمضى فى طريقه ولا ينثنى عنه ليدع للباطل طريقا!!.. ومادام فى (الأرض) كفر ,وما دام فى (الأرض) باطل ,و مادام فى (الأرض) عبودية لغير الله تذل كرامة (الإنسان) ,فالجهاد فى سبيل الله ماض ,والبيعة فى عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء ,وإلا فليس بالإيمان.. و (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق) (٦).

فاستبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضا وثمنا ,كما وعد الله.. وما الذى فات؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة ,والله ما فاته شئ, فالنفس إلى موت ,والمال إلى فوت ,سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل أم فى سبيل سواه! والجنة كسب ,كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر ,ولا بضاعة! فالمقابل زائل فى هذا الطريق أو ذاك!

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله، ينتصر -إذا انتصر- لإعلاء كلمته ,وتقرير دينه, وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه ,ويستشهد - إذا استشهد- فى سبيله ,ليؤدى لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة ,ويستشعر فى كل حركة وفى كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض ,وأنه أرفع من ثقلة الأرض ,والإيمان ينتصر فيه على الألم ,والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب ,كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التى لا تتأكد كما تتأكد من أوهاق الضرورة ,وانتصار الإيمان فيه على الألم ,وانتصار العقيدة على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله.. الجنة.. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ,وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال.. "فاستبشروا" (٧) ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم الذى لا يتعاظمه فوز دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك ,الذى لا يعد فوزا إلا بجملة وسيلة لإقامة الحق والعدل.

تأكيد وتقرير: لقد أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين فى سبيله ,فجعلهم بفضله مالكين معه ,ومبايعين له ومستحقين للثمن الذى بايعهم به ,وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه بأنواع من التأكيدات ,اشتملت الآية على وجود عشرة منها فى التأكيد والتقرير والتحقيق:

وهى "وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم" غير عن القيام بالجهاد والثواب عليه بالبيع والشراء ,وذلك حق مؤكد" ,وعدا" ووعد الله حق "عليه" وكلمة عليه للوجوب - أوجبه على نفسه - "حقا" وهو مصدر مؤكد" ,فى التوراة والإنجيل والقرآن "وهى الكتب الثلاثة الأصلية فى هداية البشرية "ومن أوفى بعهده من الله" وهو من أوثق التأكيدات "فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به" وفيه بيع ومبايعة لإظهار التقوية" ,وذلك هو الفوز" الذى لا فوز غيره "العظيم" وأى شيء أعظم من هذا وأجل.. ذكره الرازى.

هل فى الكتب السابقة دعوة إلى الجهاد؟

وهنا نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى فى هذه الآية "وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن" فوعد الله للمجاهدين فى سبيله فى القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور.. وهو لا يدع مجالا للشك فى أصالة عنصر الجهاد فى سبيل الله فى طبيعة هذا المنهج الربانى,

باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشرى - لا فى زمان بعينه ولا فى مكان بعينه - مادام أن الجاهلية لا تتمثل فى نظرية تقابل النظرية ,ولكنها تتمثل فى تجمع عضوى حركى يحمى نفسه بالقوة المادية ,ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامى على أساسه بالقوة المادية كذلك ,ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد ,وتحرير (الإنسان) فى (الأرض) من العبودية للعباد ,كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوى إلى التجمع الإسلامى المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد.. ومن ثم يتحتم على الإسلام فى انطلاقه فى (الأرض) لتحقيق إعلانه العام بتحرير (الإنسان) أن يصطدم بالقوة المادية التى تحمى التجمعات الجاهلية، والتى تحاول بدورها - فى حتمية لا فكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامى وتخفت إعلانه التحريرى ,لاستبقاء العباد فى رق العبودية للعباد!

فأما وعد الله للمجاهدين فى التوراة والإنجيل: فهو الذى يحتاج إلى شئ من البيان.

إن التوراة والإنجيل اللذين فى أيدى اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان انزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون فى أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها ,وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ,ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة.. وهو قليلا ,أضيف إليه الكثير!

ومع ذلك فما تزال فى كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ,والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين لنصر إليهم وديانته وعبادته! وأن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله سبحانه وتصورهم للجهاد فى سبيله.

فأما فى الأناجيل التى بين أيدى النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد.. ولكننا فى حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية ,فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التى لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم - وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت فى كتابه المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ,والله سبحانه يقول فى كتابه المحفوظ أن وعده بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن.. فهذا إذن هو ا لقول الفصل الذى ليس بعده القائل مقالا.

مجاهدة الأعداء بالحجة:

هل دخل تحت هذه الآية مجاهدة الأعداء بالحجة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو لا؟ منهم من قال: هو يختص بالجهاد بالمقاتلة ,لأنه تعالى فسر تلك المبايعة بالمقاتلة فى قوله "يقاتلون فى سبيل الله" ومنهم من قال: كل أنواع الجهاد داخل فيه ,بدليل:

١- الخير المروى عن عبد الله بن رواحه - وقد سبق -

٢- وأيضا فالجهاد بالحجة والدعوة إلى دلائل التوحيد أكمل آثارا من القتال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه "لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس[٨].

٣- ولأن الجهاد بالمقاتلة لا يحسن أمره إلا بعد تقديم الجهاد بالحجة.

أجور المجاهدين مختلفة أو متساوية؟

الظاهر أن أجور المجاهدين مختلفة قلة وكثرة ,وأن كان هناك قدر مشترك بينهما ففى صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة ,ويبقى لهم الثلث ,وأن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم" وفى رواية أخرى: ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثى أجورهم ,وما من غازية أو سرية تحنق وتصاب إلا أتم أجورهم" وزعم بعضهم أنهم فى الأجر سواء ,ولا ينقص أجرهم بالغنيمة واستدلوا عليه:

١- بما فى الصحيحين من أن المجاهد يرجع بما نال من أجر وغنيمة.

٢- وبأن أهل بدر غنموا وهم هم.

ويرد عليه:

١- أن خبر الصحيحين مطلق ,وخبر مسلم مقيد ,فيجب حمله عليه.

٢- وبأنه لم يجئ نص فى أهل بدر أنهم لو لم يغنموا لكان أجرهم على قدر أجرهم ,وقد غنموا فقط.

٣- وكون أهل بدر هم هم لا يلزم منه أن لا يكون وراء مرتبتهم مرتبة أخرى أفضل منها.

٤- والقول بأن فى السند أبا هانئ وهو مجهول فلا يعول على خبرة: غلط فاحش ,فإنه ثقة مشهور.. روى عنه الليث ابن سعد وحيوة بن وهب ,وخلائق من الأئمة ,ويكفى فى توثيقه احتجاج مسلم به فى صحيحه.

ومثل هذا ما حكاه القاضى عن بعضهم من أن تعجل ثلثى الأجر إنما هو فى غنيمة أخذت على غير وجهها ,إذ لو كانت كذلك لم يكن ثلث الأجر ,وكذا ما قيل من أن الحديث محمول على من خرج بنية الغزو والغنيمة معا ,فإن ذلك ينقص ثوابه لا محالة.

فالصواب: أن أجر من لم يغنم أكثر من أجر من غنم لصريح ما ذكر ,الموافق لصرائح الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة رضى الله عنهم ,ويعلم من ذلك أن أجر من قتل أكثر من أجر من قتل ,لكون الأول من الشهداء دون الثانى ,وظاهر ما أخرجه مسلم من رواية أبى هريرة "من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ,ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد" أن القتل فى سبيل الله والموت فيهما سواء فى الأجر ,وهو الموافق لمعنى قوله تعالى "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" (٩) وتقديم حالة القاتلية فى الآية على حالة المقتولية للإيذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما بذلا للنفس. (١٠)

صفات إيمانية أصيلة:

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله، ولكن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعه إلى القتال، إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال، والمؤمنون الذين

عقد الله معهم البيعة، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هو قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة..

"التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله"

١- التوبة:

"التائبون" الكاملون فى توبتهم مما أسلفوا ,العائدون إلى الله مستغفرين ,الراجعون إليه تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته.

وتختلف باختلاف أحوال أهلها: فتوبة الكفار الذين يدخلون فى الإسلام هى الرجوع عن الكفر الذى كانوا عليه من شرك وغيره ,كما تقدم فى قوله تعالى "«فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين"» وتوبة المنافق من النفاق ,وتقدم ذكرها هنا فى هذه السورة أيضا ,وتوبة العاصى من المعصية ,ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ,وتوبة المقصر فى شئ من عمل البر والخير ,وهى إنما تكون بالتشمير فيه والإستزادة منه ,وتوبة من يغفل عن ربه إنما تكون فى الإكثار من ذكره تعالى وشكره.

وإنما تحصل التوبة بأمور أربعة:

١- احتراق القلب فى الحال على صدور تلك المعصية عنه.

٢- ندمه على ما مضى.

٣- عزمه على الترك فى المستقبل.

٤- أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته ,فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو سائر الأغراض فهو ليس من التائبين.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والإستقبال والتلافى لما وقع فى الماضى.. ثلاثة معان مرتبة فى الحصول لإيجاد توبة..

والندم هو ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ,أو هو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لا ينشعب ,أو هو خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء.

ولا تتم التوبة إلا: بالخلوة والصمت، وأكل الحلال.. والإصرار على الذنب ينافيها.

والسبب فى الإصرار أمران: الغفلة والشهوة.. ودواء الغفلة العلم ,ودواء الشهوة الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. والغفلة رأس الخطايا. فلهذا الدواء أصلان: العلم والصبر.. فلا دواء أذن للتوبة إلا بمعجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر.[11]

وبإيجاز: التوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقى ,وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ,فهى طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

٢- العبادة:

"العابدون" لله ربهم فى السراء والضراء، الآخذون من أبدانهم فى ليلهم ونهارهم,

المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ,إقرارا بالربوبية، المخلصون له فى الدين فى جميع عباداتهم فى عزمة أوقاتهم ,لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة ,ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربى ومثوبة الآخرة..

هذه صفة ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر ,كما يترجمها المتوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل إتباع.. فهى إقرار بالألوهية والربوبية لله فى صورة عملية واقعية.

٣- الحمد:

"الحامدون" الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة ,وتلهج ألسنتهم بحمد الله فى السراء والضراء.. فى السراء للشكر على ظاهر النعمة ,وفى الضراء للشعور بما فى الابتلاء من الرحمة ,وليس الحمد هو الحمد فى السراء وحدها ولكنه الحمد فى الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلى المؤمن إلا لخير يعلمه ,مهما خفى على العباد إدراكه. ومهما يصب المؤمن من مصائب الدنيا فأنه يبقى له من النعم فيها وفى الدين, بل يبقى له من اللطف الإلهى فى نفس المصائب ما يجب أن يحمد الله ويشكره عليه ,وفى هذا وذاك تأس برسول الله صلى الله عليه وسلم ,فإنه قال: أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء[١٢] وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال "الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات" ,وإذا أتاه الأمر بكرهه قال: "الحمد لله على كل حال".

٤- السياحة:

"السائحون" فى الأرض ,يجوبون الأقطار لغرض صحيح من علم أو عمل

أ) الجهاد فى سبيل الله ,إذ استأذن رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السياحة فقال: "سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله"[١٣]

ب) الهجرة لقول عبد الرحمن بن زيد "السائحون هم المهاجرون ليس فى أمة محمد سياحة إلا الهجرة"[١٤]

ت) أو لطلب العلم النافع للسائح فى دينه أو دنياه ,أو النافع لقومه وأمته ,أو للنظر فى خلق الله وأحوال الشعوب والأمم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته, وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة فى الحث على السير فى الأرض.

ث) أو هم الصائمون ,لما جاء عن عائشة سياحة هذه الأمة الصيام [١٥].. وقد قاله ابن مسعود فى تفسير السائحات من سورة التحريم ,وتعلق به المفسرون لاستبعادهم مدح الله تعالى للنساء بالسياحة فى الأرض ,وإنما يحظر فى الإسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها أو أحد محارمها ,وإما إذا كانت تسيح مع الزوج أو المحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع أو عمل صالح أو طلب الصحة أو الرزق فلا إشكال فى مدحها بالسياحة ,بل ينبغى اشتراك الرجال والنساء فى جميع عمل الحياة النافع ,وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق

الحلال من تجارة وغيرها ,وإذا صح أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصحبون نساءهم فى غزواتهم عند الإمكان وهن غير مكلفات بالقتال ,بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح وغير ذلك، فلأن بصحبتهم فى سائر الأسفار أولى، وفى سفر المرأة مع زوجها إحصان له ولها، فهو مانع للمسلم من التطلع فى السفر إلى غيرها.

فإن قلت: ما العلاقة بين الصوم والسياحة حتى يفسر السائح بالصائم؟

قلت: ١) لأن الصوم يعوق عن الشهوات، كما أن السياحة تمنع منها فى الأكثر.

٢) أو لأن الصوم رياضة روحية، ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت، فشبه الإطلاع عليها بالإطلاع على البلدان والأماكن النائية، إذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام، ويدخل فى مدائن المعارف مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر.

٣) وعلل سفيان بن عيينه تفسير السائحين بالصائمين: بأن الصائم يترك اللذات كلها كالسائح للتعبد.

٤) ومثله أو منه قول الأزهرى: يسمى الصائم سائحا لأن الذى يسيح فى الأرض متعبدا لا يحمل زادا، فكان ممسكا عن الأكل، ولهذا التعليل خص بعضهم إطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام، وأخذ بعضهم بظاهر اللفظ فقال: يكفى فى صحة الوصف صيام الفرض، وكل ذلك ضعيف.

والصوفية يخصون السائحين الممدوحين باللذين يهيمون فى الأرض لتربية إرادتهم وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق، والبعد عن مظان السمعة والرياء لجمع القلب على الرب عز وجل بالإخلاص فى عبادته، والتكمل فى منازل معرفته، كالسياحين من الأمم قبلهم، وقد كان إطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعا من قبل الإسلام، حتى قال صاحب القاموس: السياحة الذهاب فى الأرض للعبادة، ومنه سمى المسيح...الخ، واعترضوه فيه فإنما هو عرف ليس من أصل اللغة. وقد حدث للمتصوفة بدع فى السياحة: كقصد مشاهد؟ القبور المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستمداد من أرواح من دفنوا فيها، وكثير منهم يكون له هوى فى التنقل من بلد إلى آخر، فيظل هائما فى الأسفار، وينقطع بذلك عن الأعمال التى تنفع الناس وعن الزواج ويرتكب بعضهم فيها كثيرا من المنكرات، ويكون لهم طمع فى استجداء الناس، والسؤال حرام إلا لضرورة، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه..

قال ابن الجوزى: السياحة فى الأرض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف، منهى عنها، وقد روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لا رهبانية فى الإسلام، ولا تبتل، ولا سياحة فى الإسلام). وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام فى شىء ولا من فعل النبيين والصالحين ,ولأن السفر يشتت القلب، فلا ينبغى للمريد أن يسافر إلا فى طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به، أ. هـ

وقال ابن كثير: وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام

الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن)[١٦]، فالسائحون إذن: هم المهاجرون أو المجاهدون أو المنتقلون فى طلب العلم أو الصائمون أو السائرون فى الأرض للنظر والعبرة، والذى أميل إليه هو اعتبارهم المتفكرين فى خلق الله وسننه، ممن قيل فى أمثالهم فى موضع آخر: (أن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)[١٧] فهذه الصفات أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر فى ملكوت الله على هذا النحو الذى ينتهى بالإنابة إلى الله، وإدراك حكمته فى خلقه، وإدراك الحق الذى يقوم عليه الخلق، لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر فى مجرد التأمل والاعتبار، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك.

٥، ٦) الركوع والسجود: (الراكعون الساجدون) الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم، وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

٧، ٨) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) وحين يقوم المجتمع المسلم الذى تحكمه شريعة الله، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى داخل هذا المجتمع، ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه.. ولكن حين لا يكون فى الأرض مجتمع مسلم، وذلك حين لا يكون فى الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هى الحاكمة فيه، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم، والنهى عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهى عن المنكر الأكبر، وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله.. والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة، فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصى، ولم ينفقوا قط جهدهم قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم فى شئ من هذه التفريعات التى لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابد أن يدرك وفق مقتضى الواقع.. فلا يبدأ بالمعروف الفرعى والمنكر الفرعى قبل الإنتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم.

٩) القيام على حدود الله: (الحافظون لحدود الله) [١٨] أى شرائعه وأحكامه التى حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها، وما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعاتهم، فى النفس والناس.. إذا أخلوا بما يجب عليهم من الحفظ لها ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها، قال تعالى: (تلك حدود الله فلا تقربوها)[١٩] (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله

فأولئك هم الظالمون)[٢٠](تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)[٢١]

ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا يقام عليها إلا فى مجتمع مسلم، وألا الذى يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع، ويرفض حكم الطاغوت المتمثل فى كل شرع لم يأذن به الله.. والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع، ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود الله فيه.. كما وقع كذلك فى أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته، وهذه هى صفاتها ومميزاتها:

توبة ترد العبد إلى الله وتكفه عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح، وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبود وغايته ووجهته، وحمد الله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله، وسياحة فى ملكوت الله مع آيات الله الناطقة فى الكون الدالة على الحكمة والحق فى تصميم الخلق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة، وحفظ لحدود الله يرد عنها العاديين والمضيعين ويصونها من التهجم والانتهاك.

هذه هى الجماعة المؤمنة التى بايعها الله على الجنة، واشترى منها الأنفس والأموال، لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته.. قتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله، واستشهاد فى المعركة التى لا تفتر بين الحق والباطل وبين الإسلام والجاهلية، وبين الشريعة والطاغوت، وبين الهدى والضلال. وليست الحياة لهوا ولعبا، وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا، وليست الحياة سلامة ذليلة وراحة بليدة ورضا بالسلم الرخيصة

إنما الحياة هى هذه: كفاح فى سبيل الحق، وجهاد فى سبيل الخير، وانتصار لإعلاء كلمة الله، أو استشهاد كذلك فى سبيل الله.. ثم الجنة والرضوان.. هذه هى الحياة التى يدعى إليها المؤمنون بالله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[٢٢] وصدق الله، وصدق رسول الله.

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه البضع الصفات، ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة، كأنه قال: وبشرهم عما يجل عن إطاحة الإفهام وتعبير الكلام. أو بشر المصدقين بما وعدهم الله إذا هم وفوا الله بعهده، أنه موف لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة.

وعن الحسن بعد أن تلاها قال: هذا عملهم وسيرهم فى الرخاء، ثم لقوا العدو فصدقوا ما عاهدوا الله عليه. وقال بعضهم: معنى ذلك وبشر من فعل هذه الأفعال - يعنى قوله: التائبون العابدون.. إلى آخر الآية - وإن لم يغزوا

التجرد من وشائج النسب والقربى المعارضة للعقيدة

إن للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، أمة وحدهم العقيدة فى الله بينهم هى وشيجة الارتباط والتجمع الوحيدة، وهذه السورة التى تقرر العلاقات

الأخيرة بين الجماعة المسلمة ومن عداها تحسم فى شأن العلاقات التى لا تقوم على هذه الوشيجة، وبخاصة بعد ذلك التخلخل الذى أنشأه التوسع الافقى الشديد فى المجتمع المسلم عقب فتح مكة، ودخول أفواج كثيرة فى الإسلام لم يتم انطباعها بطابعه، وما تزال علاقات القربى عميقة الجذوى فى حياتها.

والآية التالية تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - بعد ما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة، فإذا كانت السورة قد تحدثت من أولها إلى هنا عن وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، فإنها فى هذه الآية توجب البراءة عن أمواتهم وأن كانوا فى غاية القرب، كما أوجهت البراءة عن إحيائهم بمقاطعتهم وعدم مواصلتهم..

"ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم).

وقد تقدم فى السورة أن الله لا يغفر للمنافقين، لأنهم كفروا بالله ورسوله، فاستغفار الرسول لهم وعدمه سيان، وفى سورة النساء "أن الله لا يغفر أن يشرك به(٢٣) وقد شرع الله للمؤمنين فى أوائل سورة الممتحنة التأسى بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه فى البراءة من قومهم المشركين ومن معبوداتهم، واستثنى من هذه الأسوة استغفار إبراهيم لأبيه (إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ)(٢٤) وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر؟، وقفى عليه بقاعدة التشريع العامة التى يبنى عليها الجزاء.

سبب نزول آية (ما كان للنبى)

ورد فى الصحيحين وغيرهما أن هذا الآية نزلت فى أبى طالب إذ رعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما حضره الموت إلى قول (لا اله إلا الله)، فامتنع، وأبو طالب مات بمكة قبل الهجرة، فه نزلت الآية عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها، أم نزلت مع غيرها من آيات سورة براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له؟ كما روى من عدة طرق أنها نزلت حين زار صلى الله عليه وسلم قبر أمه فاستغفر لها، وإليك ذكر بعض الأحاديث فى هذا وذاك والجمع بينهما:

روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عم، قل لا اله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب - آخر ما كلمهم:

هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا اله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم (إما لاستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله عز وجل (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية)، وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (أنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)[٢٥] وفى رواية مجاهد قال: يا ابن أخى ملة الأشياخ، وفى آخرى عن أبى حازم:[٢٦] لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون ما حمله على ذلك إلا جزع الموت لأقررت بها عينك.

وعن عمرو بن دينار [٢٧] قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: (استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال استغفر لأبى طالب حتى ينهانى عنه ربى) فقال أصحابه: لنستغفرن لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت وقد تعددت الروايات فى استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولى قرباهم من المشركين تأسيا به صلى الله عليه وسلم حين استغفر لعمه حتى نزل النهى فكفوا.

وفى رواية أحمد عن على رضى الله عنه قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فنزلت (ما كان للنبى...)

فدلت هذه الروايات على أن الآية نزلت فى أبى طالب.. لكن يرد عليه: أن هذه السورة من آخر القرآن نزولا، ووفاة أبى طالب كانت بمكة قبل الهجرة، فكيف نزلت الآية فيها؟

ويمكن أن يجاب:

١- بأنه بأس ولا مانع من أن يقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم بقى يستغفر لأبى طالب من ذلك التوقيت إلى وقت نزول هذه الآية، فإن التشديد على الكفار إنما ظهر فى هذه السورة، فلعل المؤمنين كان يجوز لهم أن يستغفروا لآبائهم المشركين، وكان النبى صلى الله عليه وسلم أيضا يفعل ذلك، ثم عند نزول هذه السورة منعهم الله منه، وعلى هذا فلا يراد بقوله فى الحديث المتقدم (فنزلت) أن النزول كان عقب القول، بل يراد أن ذلك سبب النزول، فالفاء فيه للسببية لا للتعقيب، واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء، وهو توجيه وجيه.

بيد أنه يعكر عليه صفوه ما أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن على كرم الله وجهه قال: أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت عمه أبى طالب، فبكى، فقال: (اذهب فغسله وكفنه وواره، غفر الله له ورحمه)[٢٨] ففعل، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر له أياما، ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية (ما كان للنبى) فإنه ظاهر فى أن النزول كان قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مبغيا به، اللهم إلا أن يقال بضعف الحديث، لكن لم نر من تعرض له.

٢- والأولى فى الجواب أن يقال: أن كون هذه السورة من آخر ما نزل إنما هو باعتبار الغالب، فلا ينافى نزول شيئ منها فى مكة، ومن ثم لا مانع أن تكون هذه الآية نزلت فى مكة، ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها، وكاد هذا الرأى يتم له الحسن ويظفر بالسبق على ما قبله ,لولا ما أبداه الدكتور الكومى فى محاضرة له من ملاحظة انفرد بها -أرانى ما سمعتها من غيره- وهى:

أنه لا مانع من أن توجد آيات مدنية في سور مكية، لكن المحظور أن توجد آيات مكية في سور مدنية، وأضاف متسائلا: وألا فأين كان موضع الآيات المكية قبل نزول السور المدنية، هل بقيت مفرقة مبعثرة منفرطة، قائمة وحدها حتى أتتها سورها، أم ماذا كان؟ مع أن المعروف المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآية أو الآيات ساعة نزولها فى موضعها من السورة، ولا يبقيها منفردة وحدها، وعلى هذه القاعدة تبقى الإجابة الأولى راجحة، إلا أن تكون هذه الآية مستثناة من هذه القاعدة.

والآية على كل حال دليل على أن أبا طالب مات كافرا.. وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة.. وروى ابن اسحق فى سيرته: عن ابن عباس رضى الله عنهما من خبر طويل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب فى مرض موته، وقد طمع فيه: (أى عم، فانت فقلها - يعنى لا اله إلا الله - أستحل بها لك الشفاعة يوم القيامة) وحرض عليه الصلاة والسلام بذلك، فقال: (والله يا بن أخى لولا مخافة السبة على وعلى بنى أبيك من بعدى، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت، لقلتها، ولا أقولها إلا لأسرك بها، فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بإذنه، فقال تبا ابن أخى، لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها، فقال له صلى الله عليه وسلم (لم أسمع).

وذهب الشيعة إلى أن أبا طالب مات مؤمنا، واحتجوا على ذلك:

١- بقول العباس السابق (لقد قال الكلمة التى أمرته أن يقولها).

٢- وبأبياته المتضمنة للإقرار بحقيقة ما جاء به صلى الله عليه وسلم.

٣- شدة حنوه عليه ونصرته له صلى الله عليه وسلم.

٤- وقالوا: إنه المروى عن أهل البيت، وأهل البيت أدرى، ونحن نعلم قوة دليل الجماعة فهم يردون على الشيعة:

١- إن الاعتماد على ما روى عن العباس دونه مما تضحك منه الثكلى.

٢- والأبيات على انقطاع أسانيدها ليس فيها النطق بالشهادتين، وهو مدار فلك الإيمان.

٣- وشدة الحنو والنصرة مما لا ينكره أحد، إلا أنها بمعزل عما نحن فيه.

٤- وأخبار الشيعة عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت.

٥- الأحاديث الصحيحة الدالة على موته كافرا لا تدع مجالا لمرتاب..

عن أبى سعيد الخدرى، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - وقد ذكر عنده عمه: (لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة، فيجعل فى ضحضاح من نار) وجاء فى رواية أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل ينفعه ذلك؟ فقال: (نعم، وجدته فى غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح من نار).

رأى آخر فى سبب النزول:

ويرى بعض العلماء أن الآية نزلت عندما زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه واستغفر

لها، واستدلوا بما أخرجه البيهقى فى الدلائل وابن أبى حاتم فى تفسيره وغيرهما عن ابن مسعود قال: خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا، ثم بكى، فبكينا لبكائه، ثم قام فصلى ركعتين، فقام إليه عمر، فدعاه ثم دعانا، فقال: (ما أبكاكم؟) قلنا: بكينا لبكائك، قال: (أن القبر الذى جلست عنده قبر آمنه، وأنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى، وأنزل على (ما كان للنبى..) فأخذنى ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة، فذاك الذى ابكانى، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة).

ولا يخفى أن الصحيح فى سبب النزول هو الأول، لقوة أحاديثه، نعم خبر الاستئذان فى الاستغفار لأمه صلى الله عليه وسلم وعدم الإذن له جاء فى رواية صحيحه، لكن ليس فيها أن ذلك سبب النزول: فقد أخرج مسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه والنسائى عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال صلى الله عليه وسلم: (استأذنت ربى أن استغفر لها فلم يأذن لى، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى، فزوروا القبور، فإنها تذكركم الموت).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما فتح الله تعالى مكة سأل النبى صلى الله عليه وسلم أى أبويه أحدث به عهدا؟ قيل: أمك، فذهب إلى قبرها، ووقف دونه، ثم قعد عند رأسها وبكى، فسأله عمر وقال: نهيتنا عن زيارة القبور والبكاء ثم زرت وبكيت، فقال: (قد أذن لى فيه، فلما علمت ما هى فيه من عذاب الله[٢٩] وأنى لا أغنى عنها من الله شيئا بكيت رحمة لها[٣٠].

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن ابن بريده عن أبيه قال: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه، وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: (أنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى، فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وأنى كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيرا ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث، فكلوها وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية، فاشربوا فى أى وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكرا).

فهذه الأحاديث وغيرها دلت على استئذان الرسول فى الاستغفار لأمه وعد الأذن له فيه، لكنها لا تدل من قريب ولا من بعيد على أن الآية نزلت بسبب ذلك، وهو يعين أنها نزلت فى استغفار الرسول لأبى طالب.

رأى ابن حجر: لكن الحافظ بن حجر يرى رأيا آخر حيث يسلك طريق الجمع بين الأحاديث، فيجعل كلا من الحادثتين سببا لنزول الآية.. فإن يكون ثمة سبب متقدم، وهو أمر أبى طالب، وسبب متأخر وهو أمر آمنة، ومع أن ذلك خلاف الأصل فقد ارتضاه..

قال رحمه الله: (وهذا فيه أشكال، لأن وفاة أبى طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا، وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى قبر أمه لما اعتبر، فاستأذن ربه أن يستغفر لها، فنزلت

هذه الآية، والأصل عدم تكرار النزول، وقد أخرج الحاكم وابن أبى حاتم من طريق أيوب بن هانى، عن مسروق عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا ثم بكى، فبكينا لبكائه فقال: (أن القبر الذى جلست عنده قبر أمى، وأنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل على (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين).

وأخرج أحمد نحوه، وفيه: فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، ولم يذكر نزول الآية، وفى رواية الطبرى: لما قدم مكة أتى رسم قبر، ومن طريق فضيل: لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس، رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت.

فهذه طرق يعضد بعضها بعضا، وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبى طالب، ويؤيده أيضا: أنه صلى الله عليه وسلم قال: يوم أحد - بعد أن شج وجهه: (ربى اغفر لقومى فأنهم لا يعلمون)، لكن يحتمل فى هذا أن يكون الاستغفار خاصة بالإحياء وليس البحث فيه، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وأن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم وهو أمر أبى طالب، ويتأخر وهو أمر آمنة.. ويؤيد تأخير النزول ما تقدم فى تفسير براءة من استغفاره صلى الله عليه وسلم للمنافقين حتى نزل النبى عن ذلك، فإن ذلك يقتضى تأخير النزول وأن تقدم السبب.. ويشير إلى ذلك أيضا قوله فى حديث الباب (وأنزل الله فى أبى طالب "انك لا تهدى من أحببت" لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت فى أبى طالب وفى غيره، والثانية نزلت فيه وحده. ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق ابن اسحق عن أبى الخليل عن على قال: سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ما كان للنبى..)الآية، وروى الطبرى من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: قال المؤمنون: إلا نستغفر لآبائنا كما استغفر إبراهيم لأبيه؟ فنزلت. ومن طريق قتادة قال: ذكرنا له أن رجالا فذكر نحوه. وفى الحديث: أن من لم يعمل خيرا قط إذا ختم عمره بشهادة ألا اله إلا الله حكم بإسلامه، وأجريت عليه أحكام المسلمين، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل إلى حد انقطاع الأمل من الحياة، وعجز عن فهم الخطاب ورد الجواب وهو وقت المعاينة، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أنى تبت الآن) والله أعلم، أ. هـ الحافظ[٣١]

النبوة والإيمان ينافيان الإستغفار للمشركين:

ومعنى الآية: ما كان من شأن النبى[٣٢] ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبى، ولا من شأن المؤمنين، ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين "ولو كانوا أولى قربى"[٣٣] لهم فى الأصل حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضى الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم، فإن هذا الاستغفار لهم بقية من التعلق بقرابات الدم فى غير صلة بالله، لذلك ما كان للنبى والذين آمنوا أن يفعلوه قطعا وليس من شأنهم أصلا، من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها: بأن ماتوا على كفرهم ولو بحسب الظاهر، كاستصحاب حالة الكفر إلى الموت، أو نزل فيهم وحى يسجل

عليهم ذلك، كأخباره تعالى عن أناس من الجاحدين المعاندين أنهم من أصحاب النار خالدين فيها، أو أنهم طبع على قلوبهم وختم عليها، كقوله تعالى لرسوله "«سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون"»[٣٤] ومثل فى المنافقين: "«سواء عليهم استغفرت لهم أم لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم»."[٣٥]

والآية نص فى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة، وكذا وصفه بذلك كقولهم: المغفور له المرحوم فلان، دون التحقق من إيمانه. وقال البيضاوى: وفيه دلالة على جواز الاستغفار لإحيائهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان.[٣٦]

التقاطع والتواصل على أساس العقيدة:

إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تتلقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، فإذا أنبتت وشيجة العقيدة، أنبتت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر، ولا لقاء بعد ذلك فى قوم، ولا لقاء بعد ذلك فى أرض: أما إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقى بها، أو لا إيمان، فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان..

"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، أن إبراهيم لأواه حليم"..

لقد دعانا القرآن فى غير موضع للتأسى بإبراهيم إذ قال"قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم" [٣٧] "قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا" [٣٨] "ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا" [٣٩] لكن ليس هذا التأسى على إطلاقه، فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه. فما كان وما وقع استغفار إبراهيم لأبيه لسبب ولا علة إلا بسبب وعده إياه فى حياته أن يستغفر له الله. لعله يهديه ذلك، إذ قال له:"سلام عليك سأستغفر لك ربى أنه كان بى حفيا، وأعتزلكم وما تدعون من الله وأدعو ربى عسى إلا أكون بدعاء ربى شقيا"[٤٠] وكان يرجو من وراء ذلك إيمانه فقال له: "لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ" [٤١] أى لا أملك لك هداية ولا نجاة، وإنما أملك لك دعاء الله، وقد وفى بوعده وما كان إلا وفيا، كما شهد له تعالى بقوله: "وإبراهيم الذى وفى[٤٢] فكان من دعائه: "واغفر لأبى أنه كان من الضالين، ولا تخزنى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم" [٤٣] أى من الشرك والكفر والشك المقتضى للنفاق[٤٤] فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء فى هداه، وأن التوبة انقطعت عنه، وذلك بإصراره على الكفر، أو بموته على الشرك، أو بوحى من الله "تبرأ منه" ومن قرابته، وقطع صلته به، وترك الاستغفار له، كما هو مقتضى الإيمان "لا تجدن قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم"[٤٥] فكونوا كذلك أيها المؤمنون فى التبرء من آبائكم عند تبين عداوتهم لله، وما كان لكم الاستغفار بعد التبين، واستغفار إبراهيم إنما كان عن موعدة قبل التبين.

"إن إبراهيم لأواه حليم" [٤٦] خاشع متضرع دعاء معلق القلب بالله كثير التأوه والتحسر،

وإنما يتأوه من خشية الله، ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أباه، "حليم" صبور على البلاء، صفوح عن الأذى، لا يستنفذه الغضب، ولا يعبث به الطيش، ولا يستخفه الجهل أو هوى النفس، ومن لوازمه: الصبر والثبات والصفح والتأنى فى الأمور واتقاء العجلة فى كل من الرغب والرهب، ولقد آذاه أبوه فكان حليما، وتبين أنه عدو لله فتبرأ منه وعاد له ضارعا.

وورد أن إبراهيم يعد من الخزى له يوم القيامة أن يكون أبوه فى النار، كما رواه البخارى من حديث. رؤيته فى النار، وأنه يقول: يا رب أنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ "فيمسخ الله أباه زيخا - وهو ذكر الضباع الكثير الشعر - حتى لا يخزى إبراهيم برؤية أبيه فى النار على صورته المعروفة له ولقومه.

المناسبة بين الآيتين: وفى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه

١- كأنه قيل: فرق بين الاستغفار الذى نهيتم عنه واستغفار إبراهيم.. فإن استغفار كان قبل التبين وكان عن موعدة دعاه إليها فرط رأفته وحلمه، وما نهيتم عنه ليس كذلك.

٢- أو أن المقصود منه أن لا يتوهم إنسان أنه تعالى منع محمد صلى الله عليه وسلم من بعض ما أذن لإبراهيم فيه.

٣- أو يقال: السبب هو المبالغة فى إيجاب الانقطاع عن الكفار أحيائهم وأمواتهم، ثم بين تعالى أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم، بل المبالغة فى تقرير الانقطاع كانت مشروعة أيضا فى دين إبراهيم عليه السلام، فتكن المبالغة أقوى.

٤- أو أنه تعالى وصف إبراهيم فى هذه الآية بكونه أواها كثير التوجع والتفجع عند نزول المضار بالناس، وبكونه حليما قليل الغضب، والمقصود أن من كان موصوفا بهذه الصفات كان ميل قلبه إلى الاستغفار لأبيه شديدا، فكأنه قيل: إن إبراهيم مع جلالة قدره، ومع كونه موصوفا بما ذكر منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكافر، فلا أن يكون غيره ممنوعا من هذا أولى.

لا عقوبة بغير نص

الربط وسبب النزول:

ولقد ورد أنه لما نزلت الآيتان خشى الذين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين أن يكونوا قد ضلوا لمخالفتهم عن أمر الله فى هذا، فنزلت الآية التالية تطمئنهم من هذا الجانب وتقرر القاعدة الإسلامية: أنه لا عقوبة بغير نص، ولا جريمة بغير بيان سابق على الفعل: "وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، أن الله بكل شيئ عليم"..

وقيل: إن أقواما من المسلمين الذين استغفروا للمشركين كانوا قد ماتوا قبل نزول هذه الآية فوقع الخوف عليهم فى قلوب المسلمين أنه كيف يكون حالهم؟ فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنهم بهذه الآية، وبين أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن بين لهم أنه يجب عليهم أن يتقوه ويحترزوا عنه.

وقيل: إن المراد أن من أول السورة إلى هذا الموضع فى بيان المنع من مخالطة الكفار

والمنافقين ووجوب مباينتهم والاحتراز عن موالاتهم، فكأنه قيل: إن الإله الرحيم الكريم كيف يليق به هذا التشديد الشديد فى حق هؤلاء الكفار والمنافقين؟ فأجيب عنه تعالى لا يؤاخذ أقواما بالعقوبة بعد إذ دعاهم إلى الرشد حتى يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه، فأما بعد أن فعل ذلك وأزاح العذر وأزال العلة فله أن يؤاخذهم بأشد المؤاخذة والعقوبة.

وعن الحسن: أن الآية نزلت حين مات بعض المسلمين قبل أن تنزل الفرائض، فقال إخوانهم: يا رسول الله، إخواننا الذين ماتوا قبل نزول الفرائض ما منزلتهم وكيف حالهم؟ وهذا يقتضى أن الآية نزلت مبكرة فى أوائل العهد المدنى، والظاهر خلافه.

قال مجاهد: بيان الله للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصة، وفى بيان طاعته ومعصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا، يعنى أن الآية عامة وأن نزلت فى مسألة استغفارهم للمشركين.

وعن ابن عباس: إنها نزلت حين اخذوا الفداء يوم بدر من الأسارى المشركين، قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون، قال: حتى ينهاهم قبل ذلك أ. هـ قال المنار ردا على هذا: الآية متأخرة النزول عن غزوة بدر، ولكنها شاملة لحكمها، فقد تقدم أن أخذ الفداء من الأسرى هو فى معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث أنه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والإيمان لقوله تعالى: "ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض"(٤٧) فهذا نفى للشأن كنفى الاستغفار هنا(٤٨).

والمعنى: أن الله تعالى لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه، وليس من شأن الله تعالى فى حلمه ورحمته، ولا من سننه فى خلقه التى هى مظهر عدله وحكمته، أن يذهب بهدى قوم ويصفهم بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب "بعد إذ هداهم" للإيمان، وشرح صدورهم للإسلام، بمجرد قول أو عمل صدى عنهم بخطأ الاجتهاد. "حتى يبين لهم ما يتقون" ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين من الأقوال والأفعال بيانا جليا واضحا لا شبهة فيه ولا أشكال ذلك أن الإنسان قاصر، والله هو العليم بكل شئ، ومنه البيان والتعليم، "أن الله بكل شئ عليم" فهو يشرع لهم من الأحكام ما تكمن به فطرتهم، ويستقيم به رأيهم وفهمهم، فيبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع، حتى لا يضل فيه اجتهاد بأهواء نفوسهم، ويترك لهم مجالا للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم، فهو لهذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن يتبين له حاله، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الإستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبين لحكم الله فى ذلك، وأن كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الإيمان.

إن الله تعالى جعل هذا الدين يسرا لا عسرا، فبين ما نهى عنه بيانا واضحا، كما بين ما أمر به بيانا واضحا، وسكت عن أشياء لم يبين فيها بيانا - لا عن نسيان، ولكن عن حكمة وتيسير، ونهى عن السؤال عما سكت عنه(٤٩) لئلا ينتهى السؤال إلى التشديد.. ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئا من المسكوت عنه، ولا أن ينهى عمل لم يبينه الله، تحقيقا لرحمة الله بالعباد.

ويؤخذ من هذا قاعدة: وهى أن أحكام الإسلام العامة التى عليها مدار الجزاء فى الآخرة. ويكلف العمل به كل من بلغه، أن كان من الأحكام الشخصية، وتؤخذ بها الأمة كلها، وينفذه أئمتها وأمراؤها فيها هو ما كان قطعى الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله، لا حجة معه لأحد فى تركه، وأن ما عداها منوط بالإجتهاد، فمن ظهر له من نص ظنى الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه إتباعه ومن لا فلا.. وفى الآية دليل على آن الغافل غير مكلف.

نهاية المطاف: وفى نهاية هذه الآيات وفى جو الدعوة إلى التجرد من صلات الدم والنسب بعد التجرد من الأنفس، والأموال، يقرر أن الولى والناصر هو الله وحده، وأنه مالك الموت والحياة، ومالك السموات والأرض، لا شريك له فى خلقهما ولا فى تدبير شئونهما ولا فى التشريع الدينى للمكلفين فيهما..

"أن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير"..

فالأموال والأنفس، والسموات والأرض، والحياة والموت، والولاية والنصرة، كلها بيد الله دون سواه، وفى الصلة بالله وحده كفاية وفناء.

وفى ذكر هذه الآية فى هذا الموضع فوائد:

١- كأن القوم من المسلمين قالوا: لما أمرتنا بالانقطاع عن الكفار فحينئذ لا يمكننا أن نختلط بآبائنا وأولادنا وإخواننا، لأنه ربما كان الكثير منهم كافرين، والمراد: أنكم أن صرتم محرومين من معاونتهم ومناصرتهم، فالإله الذى هو المالك للسموات والأرض المحيى والمميت ناصركم فلا يضركم أن ينقطعوا عنكم.

٢- أنه تعالى لما أمر بهذه التكاليف الشاقة فكأنه قال: وجب عليكم أن تنقادوا لحكمى وتكليفى، لكونى ألهكم وكونكم عبيدا لى.

٣- لما منعهم عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى، وتضمن ذلك وجوب التبرؤ منهم رأسا، بين لهم أن مالك كل شيئ موجود ومتولى أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، فإذا كان هو ناصرا لهم فمن ذا الذى يقدر على أضرارهم وخذلانهم؟ وذلك ليتوجهوا بكليتهم إليه ويتبرأوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه، ولا يحيدوا عن هدايته فيما نماهم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة فيما اعتاده الناس بينهم.

٤- هذه التوكيدات المتوالية، وهذا الحسم القاطع فى علاقات القرابة، تدل على ما كان يعتور بعض النفوس من اضطراب وأرجحه بين الروابط السائدة فى البيئة، ورابطة العقيدة، مما اقتضى هذا الحسم الأخير فى السورة التى تتولى الحسم فى كل علاقات المجتمع المسلم بما حوله.. حتى الاستغفار للموتى على الشرك قد لقى هذا التشديد فى شأنه.. ذلك لتخلص القلوب من كل وشيجة إلا تلك الوشيجة، وشيجة الترابط فى الله عز وجل.

الهوامش

١) سورة الأنفال آية ٥٥، ٥٦

٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩١ وفى هذه الرواية (فنزلت "أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة") وأستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك، فيومذاك لم يكن قد فرض قتال، وهذه آية مدنية قطعا، ولكنها تتفق مع مضمون تلك البيعة العام، وقد بينا فيما سبق أول ما نزل من آيات القتال وأنها ليست هذه الآية.. بمعنى نزولها فى مبايعة الأنصار أن المبايعة تدخل فى عموم الآية دخولا أوليا لا أنها خاصة بها، وقد روى ابن مردويه من حديث أبى هريرة مرفوعا (من سل سيف فى سبيل الله فقد بايع الله) وروى ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: ما على ظهر الأرض مؤمن الا وقدخل فى هذه البيعة، وفى لفظ: اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ولكن العجب ممن يدعون الإيمان وهم ينكثون بيعة الله عز وجل، فهم لا يبذلون أنفسهم ولا شيئا من أموالهم فى سبيل الله، وإنما يطلبون الجنة بغير ثمنها، كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها، ولا طريق لها الا الجهاد بالمال، والنفس، والقرآن حجة عليهم، وهو حجة الله البالغة التى لا يدحضها أحد وهى تدحض كل شيئ.

٣) البقرة ٢٥١

٤) سورة الحج ٤٠

٥) سورة آل عمران ١٤٦

٦) رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى.

٧) الاستبشار: الشعور بفرح البشرى او استشعارها الذى تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين.

٨) من تفسير الرازى ج٢ ص٧٤٥

٩) سورة النساء ١٠٠

١٠) تفسير الالوسى ج٢ ص٢٧٥

١١) إحياء علوم الدين ج٤ ص٥٣، وما بعدها

١٢) أخرجه ابن مردويه وابو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا.

١٣) رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى امامة.

١٤) تفسير المنار ج١١ ص٥٢ .

١٥) رواه ابن جرير وقال المعلق على تفسيره ضعيف الاسناد جدا، وروى عن أبى هريرة "السائحون الصائمون" مرفوعا وموقوفا، والموقوف أجود وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال: "هم الصائمون" مرسل جيد قاله ابن كثير ج٢ ص٣٩٢ وذكره السيوطى فى الدر المنثور ج٣ ص ٢٨١ من طريق عبيد عمير عن على أبى هريرة.

١٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩٢

١٧) آل عمران ١٩٠، ١٩١

١٨) وخصت تلك الخلال السابقة عليها بالذكر لأنها هى التى تمثل فى نفس القارئ أكمل ما يكون به المؤمن محافظا على حدود الله.

١٩) سورة البقرة ١٨٧

٢٠) سورة البقرة ٢٢٩

٢١) سورة الطلاق ١

٢٢) سورة الانفال ٢٤

٢٣) سورة النساء ٤٨

٢٤) سورة الممتحنة ٤

٢٥) هذا لفظ مسلم ج١ ص٢١٤، ورواه البخارى فى تفسير الآية الأخيرة من سورة القصص، وأخرجه فى تفسير آية براءة، وفى الجنائز أيضا.

٢٦) عند مسلم والترمذى والطبرى

٢٧) فى رواية الطبرى من طريق شبل.

٢٨) وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبى طالب قال (وسعتك رحمة يا عم)

٢٩) حديث (أن الله أحيا أمة فآمنت وعادت) وحديث (أن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به) قال الحافظ ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والاجماع لقوله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار).

٣٠) ذكره الرازى ج٤ ص٧٥٢

٣١) فتح البارى ج٨ ص٢٥٩، ٢٦٠

٣٢) ما كان للنبى"هذا نفى بمعنى النهى، فهو ابلغ من النهى لأنه نفى معلل بالسبب المقتضى له

٣٣) "لو" هذه لقيد الغاية لمعطوف عليه يحذف حذفا مضطردا للعلم به، والمراد أنه ليس ما تبيحه النبوة ولا الإيمان ولا مما يصح وقوعه من أهلها: الاستغفار للمشركين فى حال من الأحوال حتى لو كانوا أولى قربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى.

٣٤) البقرة ٦

٣٥) المنافقون ٦

٣٦) تفسير البيضاوى ص ٢٦٩

٣٧) سورة الممتحنة ٤

٣٨) سورة آل عمران ٩٥

٣٩) النحل ١٢٣

٤٠) سورة مريم ٤٧، ٤٨

٤١) الممتحنة ٤

٤٢) النجم ٣٧

٤٣) الشعراء ٨٦، ٨٩

٤٤) هذا على أن الواعد إبراهيم، ويؤيده قراءة الحسن: "وعدها أباه" ولا يجوز أن يكون الواعد أبا إبراهيم، والمعنى: أن أباه وعده أن يؤمن فكان إبراهيم يستغفر له لكى يحصل هذا الهدف، فلما تبين له أنه لا يؤمن تبرأ منه.

٤٥) المجادلة ٢٢

٤٦) هذه الجملة تعليل لأى شئ؟ يرى المنار - بعد تفسيره لـ "أواه حليم" بأنهما وصف لإبراهيم بالمبالغة فى خشية الله والخشوع له، وبالحلم والثبات فى أموره كلها: إن الجملة تعيل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه فى الشرك وعداوة الله تعالى ج١١ ص، ٦٠ وذهب الزمخشرى إلى أن الجملة تعليل لما كان من استغفاره لأبيه، قال - بعد تفسير الأواه بالذى يكثر التأوه -: ومعناه أنه لفرط رحمته ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله لأرجمنك أ. هـ

٤٧) الانفال ٦٧

٤٨) تفسير المنار ج١١ ص٦٢

٤٩) لحديث (أن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من يغر نسيان فلا تبحثوا عنها) فقه السنة ج١ ص١٦

الفصل الثالث

غـزوة تـبـوك

لماذا زحفوا إلى الجنوب؟ - لا شركاء ولا فداء - الكنيسة ترفض - تاريخ النصرانية يؤكد العدوان - ظروف المعركة - أسباب مباشرة وغير مباشرة - كيف استقبلوا الخبر؟ إيضاح الاتجاه - الحض على الإنفاق - البكائون - متخلفون من غير ريبة- ساعة العسرة - ديار ثمود - نصيحة قائد - لا عدو بالميدان - موقف المنافقين - كنا نخوض ونلعب - محاولتهم اغتيال الرسول - اليوم لا تسامح- من أعجب حيلهم - تعقيب على الغزوة - حديث الثلاثة الذين خلفوا - تعليق على القصة - شرح للآية - العبر المستفادة.

قال الله تبارك وتعالى:

"لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ,ثم تاب عليهم ,أنه بهم رؤوف رحيم ,وعلى الثلاثة الذين خلفوا.. حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا إلا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ,أن الله هو التواب الرحيم".

التجمع على آصرة العقيدة

إن التجمع على آصرة العقيدة وحدها هو قاعدة الحركة الإسلامية ,فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور ,كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق: وهذا ما قررته السورة الحاسمة وكررته أيضا. ولما كانت تلك طبيعة البيعة كان التخلف عن الجهاد للقادرين - أيا كانت الأسباب - أمرا مستنكرا عظيما ,وكان ما بدا فى الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لابد من تتبعها والتركيز عليها.. وفى هاتين الآيتين يبين مدى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ,ويتوب عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت.. كذلك يبين عن مصير الثلاثة الذين خلفوا بغير حكم فى أمرهم - وهم المرجون لأمر الله الذين سبق ذكرهم - حتى نزل هذا الحكم بعد فترة من الزمان..

"لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم أنه بهم رؤوف رحيم"

بين تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار وتجاوزه عن هفواتهم فى هذه الغزوة وفى غيرها.

وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم - وهذا أعلاهما - وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم ,وإنما يتوبون من ذنب ,وما كل ذنب معصية لله تعالى.

والمراد من هذه الجملة:

١- قيل: البعث على التوبة، ومعناه: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبى والمهاجرين والأنصار ,لقوله تعالى: "وتوبوا إلى الله جميعا: [1] إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه ,والترقى إليه التوبة توبة عن تلك النقيصة وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده.

٢- وقيل: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ,إلا أنه جئ فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم تشريفا لهم وتعظيما لقدرهم ,كما ذكره فى قوله تعالى "فأن لله خمسه وللرسول" [2]

٣- والاحسن من هذا أن يقال: الذنب بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم من باب خلاف الأولى ,نظرا إلى مقامه الجليل ,وبالنسبة إليهم رضى الله عنهم لا مانع من أن يكون حقيقا ,اذ لا عصمة لغير الانبياء.. فتوبة الله على النبى صلى الله عليه وسلم تفهم بالرجوع إلى ما كان فى احداث الغزوة بجملتها ,والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله تعالى عنه لنبيه "عفا الله عنك ,لم اذنت لهم ,حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين [3] ذلك حين استأذنه جماعة من أولى الطول باعذار منتحلة فأذن لهم ,وقد عفا الله عنه فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم ,مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقين فى اعذارهم من الكاذبين المتمحلين!

وتوبته تعالى على المهاجرين والانصار يشير النص الذى بين أيدينا إلى ملابساتها فى قوله تعالى "الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم"؟؟

وقد كان بعضهم تثاقل فى الخروج ثم لحق بالركب كما سنفصل- ,وهم من خلص المؤمنين- وبعضهم استمع للمنافقين المرجفين بهول لقاء الروم وفيما كانوا يبغونه من فتنة المؤمنين بالقوة والاستدراك والفعل ,ثم ثبت الله قلبه ومضى بعد تردد.

وساعد العسرة: الزمان الذى صعب الأمر عليهم فى السفر لغزوة تبوك ,وقد حصلت عسرة فى الظهر وعسرة فى الزاد وعسرة فى الماء وعسرة فى النفقة مما سنبينه بعد إن شاء الله.

والمعنى: أنهم اتبعوه من بعد ماقرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام بمعصية الرسول حين أمر بالنفير العام اذ تثاقل بعضهم عنه ,والمراد الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق ,وهم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم ,فالمراد: اشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف عن النبى وعدم الخروج معه ,أو إلى أن يميلوا عن الثبات على الإيمان ,وهو محمول على مجرد الهم والوسوسة ,أو ما كان بالفعل.

فإن قلت: قد ذكر التوبة فى أول الآية وفى آخرها ,فما الفائدة فى التكرار؟ قلت:

١- أنه تعالى ابتدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب تطييبا لقلوبهم ,ثم ذكر الذنب ,ثم اردفه

مرة أخرى بذكر التوبة ,والمقصود منه تعظيم شأنهم.. واذا قيل: عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه ,دل هذا على أن ذلك العفو عفو مؤكد بلغ الغاية القصوى فى الكمال والقوة.

٢- أو المراد أنه تعالى تاب عليهم أولا بتوفيقهم للتوبة ,فلما تابوا تاب الله عليه ثانيا بقبولها منهم ,وهو الذى وفقهم لفعلها ,وتفضل عليهم بقبولها ,فالخير كله منه وبه وله وفى يديه يعطيه من يشاء احسانا وفضلا ,ويحرمه من يشاء حكمة وعدلا.

"أنه رءوف رحيم" أن يهلكهم فينزع منهم الإيمان بعد أن قد ابلوا فى الله ما أبلوا مع رسوله, وصبروا عليه من البأساء والضراء ,وجوز كون الأول "رءوف" عبارة عن ازالة الضرر ,والثانى "رحيم" عبارة عن ايصال النفع ,وأن يكون احدهما للسوابق والآخر للواحق.

ويحسن بنا أن نستعرض بعض ظروف الغزوة وملابساتها لنعيش فى جوها الذى يقرر الله سبحانه أنه كان "ساعة العسرة" ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التى صاحبتها.

(ونحن نلخص فى هذا من السيرة لابن هشام ,ومن امتاع الأسماع للمقريزى ,ومن البداية والنهاية لإبن كثير ,ومن التفسير لإبن كثير ايضا ومن زاد المعاد لإبن القيم ,ومن فقه السيرة للغزالى ,ومن حياة محمد لهيكل ,وعلى الله قصد السبيل).

بعض أحداث غزوة تبوك [٤]

بين الإسلام والمسيحية:

عزم النبى صلى الله عليه وسلم أن يرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة ,وهو لايقبل مساومة فيترك دعامته أحرارا يعرضون دينهم على الناس.. فإن راقهم دخلوه ,وأن ساءهم تركوه.. يجب أن تتاح الفرص المعقولة لافهام الجماهير ما تدعى إليه.. أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار الكثيفة فى وجوههم فهذا ما يقاومه الإسلام بالقوة.

ثم أن الرومان فى الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة ,لا تربطهم بأهل البلاد الأولين الاصلات القهر المادى والادبى.. فالذى يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك: لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب؟ وما الطريقة التى يباشرون بها حكم هذه الاقطار المغلوبة على أمرها؟ والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبى صلى الله عليه وسلم شيئا لا غبار عليه: دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها ,وتجذب الشعوب إليها أو تصرفهم عنها ,لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح.. فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التى تضطرب داخل جدرانها ,ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد.

والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالفها فى الفروع التافهة ,فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها؟ لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط ,وينكر عقيدة الفداء التى ترتكز عليها ,لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده ,فليس للإنسان الا ما سعى ,ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثم هو منكر مبدأ الشركة فى الألوهية فليس للعالم الا رب واحد يخضع له عيسى وأمه.

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام فى شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث

جاء ,وتوصد عليه أبواب الحدود ,فلا يستطيع التسرب منها ,وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشرى ,حتى اذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ويدعو للصلاة والفلاح.(٥)

أسباب مباشرة وغير مباشرة:

وترامت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر، وتقول هذه الأنباء التى بلغته صلى الله عليه وسلم: أن الروم قد جمعوا جموعا كثيرة بالشام ,وأن هرقل قد رزق أصحابه قوت سنة ,وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان ,وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء ,وأن جميع هذه الجموع قد أعدت لغزو حدود العرب الشمالية غزوا ينسى الناس انسحاب المسلمين الماهر فى مؤته ,وينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة ,وتاريخ النصرانية - منذ تولت الحكم - يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت.

فلم يرى النبى بدا من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيت ,ولم يتردد هنيهة فى تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه ,والقضاء عليها قضاءا يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرض لهم ,لا سيما وقد نزل قوله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ,ولايدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (٦)

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم. (ويلاحظ أن الاشتباك بالروم كان قد سبق نزول هذه الآيات فى غزوة مؤته ,فهذا الأمر الأخير انما جاء تقريرا للخطة الدائمة المستقرة فى آخر ما نزل من القرآن) واذن فالسبب المباشر للغزوة هو تحشد قوات الروم لغزو حدود العرب الشمالية والقضاء على سلطة الإسلام هناك. أما الأسباب غير المباشرة فمنها:

١- حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية بعد انتشاره داخلها.

٢- تقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم، تلك القبائل التى أخذت تقبل على اعتناق الإسلام على الرغم من مكافحة الروم لهذا الاتجاه.

٣- محو آثار انسحاب المسلمين من مؤته من النفوس.

ظروف المعركة:

والتهيئ لملاقات الروم جاء فى أيام قحط وشدة ,وكان الصيف لم ينته والقيظ فى أوائل الخريف (٧) يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف فى هذه الصحارى ارهاقا وقتلا، فظروف المعركة اذا قاسية، حيث كانت فى زمن عسرة من الناس ,وشدة من الحر ,وجدب من البلاء ,وحين طابت الثمار ,وامتدت الظلال ,والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم, ويكرهون الشخوص على الحال والزمان الذى هم عليه.

ثم أن المسافة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة ,والشقة بعيدة ,تحتاج إلى الجلد والمؤونة والماء,

ثم أن المسافة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة ,والشقة بعيدة ,تحتاج إلى الجلد والمؤونة والماء, والمسير إلى الروم يتطلب جهدا مضنيا ونفقة كبيرة ,اذ من المعلوم أن بين عاصمة الدولة الإسلامية وبين تبوك أربع عشرة مرحلة (تقدر بنحو ٦٩٢ ك.م) تقطع فى صحراء جرداء يقل ماؤها، ويجف ضرعها، ويشتد حرها. والمسلمون فى أعقاب حرب الطائف وحنين. وقتال الروم ليس صداما مع قبيلة محدودة العدد والعدة ,بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ,وتملك موارد ثروة من الرجال والأموال ,وهى بعد فى بلادها تسرع إليها المؤونة والذخيرة.

ايضاح الاتجاه: على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ,والسكوت عليتحدى النصارى لهذا الدين، ورغبتهم الملحة فى القضاء عليه تعتبر انتحارا وبوارا ,فليتحامل المسلمون على أنفسهم ,وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتفديات..

فلا مفر اذن من أن يطلع الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بعزمه على السير إلى الروم وقتالهم حتى يأخذوا لذلك عدتهم ,ولا مفر من أن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم تقاليده كذلك فى سابق غزواته ,حين كان يتوجه فى كثير من الاحيان بجيشه إلى غير الناحية التى إليها يقصد تضليلا للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته.. فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قلما يخرج فيغزوغروة الاكنى عنها ,وأخبر [٨] أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له (أى يقصد إليه) الا ما كان من غزوة تبوك ,فإنه بينها للناس ,لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ,ليتأهب الناس لذلك أهبتهم.. فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم ,وأرسل فى القبائل جميعا يدعوها للتهيؤ ,كيما تعد أكبر جيش يمكن إعداده.

كيف استقبلوا الخبر؟

بم عسى أن يستقبل المجتمع المدنى هذه الدعوة إلى هجر ابنائهم ونسائهم وأموالهم فى شدة القيظ ,ليقطعوا فيا فى وصحارى مجدبة قليلة الماء ,ثم ليلقوا عدوا غلب الفرس ولم يقهره المسلمون؟ أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديد تعلقهم بدين الله إلى الاقبال على دعوته, مدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء ,دافعين امامهم أموالهم وابلهم مدرعين بسلاحهم ,مثيرين أمامهم من النقع ما أن يكاد يبلغ العدو نبؤه حتى يولى الادبار لا يلوى على شئ ,أم تمسكهم مشقة الطريق وشدة الحر ومخافة الجوع والعطش فيتقاعسون ويتراجعون؟

لق كان فى المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك.. كان فيهم أولئك الذين اقبلوا على الدين بقلوب مملئة هدى ونورا ,ونفوس غمرها ضياء الإيمان فلا تعرف غيره ,وكان فيهم من دخل دين الله رغبا ورهبا؟؟

رغبا فى مغانم الحرب بعد أن اصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين فتلقى إليهم السلم ,ورهبا من هذه القوة التى تضرب أمامها كل قوة ,ويخشى سلطانها كل ملك..

فأما الأولون فأقبلوا يلبون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم خفافا مسرعين ساعة قيل لهم: (انفروا خفافا وثقالا) ومنهم الفقير الذى لايجد الدابة يحمل نفسه عليها ,ومنهم الغنى ماله بين يديه يقدمه فى سبيل الله راضية نفسه طامعا فى الاستشهاد والانحياز إلى جوار الله تعالى.

وأما الآخرون فتثاقلوا ,وبدأوا يتلمسون الاعذار، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم ,ويهزءون بدعوة النبى إياهم لهذا الغزو النائى ,فى ذلك الجو المحرق ,وسخروا فى نفوسهم منهً أن يدعوهم لتقال بنى الاصفر ,وأخذوا يثبطون ويعتذرون ويثيرون الفتن والاراجيف ويدبرون الكيد ويضعون العراقيل.

طلاب الدعة والراحة: هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم معظم سورة التوبة، وقد تحدثت آياتها فى صرامة وعنف، ففضحت المنافقين وكشفت عن المترددين ,وأهانت طلاب الدعة والراحة ,الذين آثروا ظل القعود فى بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء وعناء السفر ومتاعب الجلاد.. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: (لا تنفروا فى الحر) - زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق ,وارجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ,فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاءا بما كانوا يكسبون) (٩).

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ,فبعث إليهم النبى طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ,وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ,ففعل طلحة, فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فأنكسرت رجله ,واقتحم أصحابه فأفلتوا ,ثم تاب الضحاك.

واستأذن بعض المنافقين رسول الله فى التخلف مخافة الفتنة ببنات الروم.. روى ابن اسحق عن الزهرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو فى جهازه (أى لغزوة تبوك) للجد بين قيس أخى بنى سلمه: (هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر؟) "يعنى الروم" فقال: يا رسول الله ,أو تأذن لى ولا تفتنى؟ فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ,وانى أخشى أن رأيت نساء بنى الأصفر الا أصبر عنهن ,فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "قد أذنت لك" ففى الجد بن قيس نزلت (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) (١٠) وفى اذنه صلى الله عليه وسلم للجد وغيره نزل عتاب الله لنبيه فى القرآن مصدرا بالعفو عنه فى اجتهاده: (عفى الله عنك ,لم أذنت لهم؟ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)(١١). إلى آخر ما ورد من آيات بشأن المنافقين ,وانباء جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال وآيات كثيرة فى سورة التوبة ,وهى أطول ما نزل من القرآن فى قتال بين المسلمين وخصومهم.. وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام ,وافهام المسلمين مغبة تقصيرهم فى اداء هذه الفريضة ,واشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونصرة نبيه ,وان التراجع أمام الصعوبات الحائلة - دون قتال الروم- يعتبر مزلقة إلى الردة والنفاق (مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل ,الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا).

ولعل من البين فى أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد أنه لم تأخذه هوادة فى التنويه

بمن اشتركوا فيه ,والتنديد بمن تخلفوا عنه ,ولا عجب فى تحديد موقف الإسلام من النصرانية وهو بت فى مستقبل الدين كله إلى الأبد .. فأما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ,واما احرقتهم نارها ,فلم يبق لدينهم أثر ,وكان لهذا الحزم أطيب النتائج.

الحض على الانفاق

ثم أن رسول اله صلى الله عليه وسلم جد في سفره، وأمر الناس بالجهاز والإسراع، وحض أهل الغنى على النفقة وحمل المجاهدين الذين لا يجدون ما يركبون وتجلت فى هذه اللحظات طوايا النفوس ومقدار ما استودعت من إخلاص وسماحة ونشاط ,فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته من الرواحل والسلاح والخيل، وحمل رجال من أهل الغنى إخوانهم الفقراء محتسبين عند الله، وكان فى مقدمة المنفقين المحتسبين عثمان بن عفان رضى الله عنه ,فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق..

قال ابن هشام: فحدثنى من أثق به أن عثمان أنفق فى جهاز العسرة فى غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللهم أرض عن عثمان فانى عنه راض"[١٢].

وقال عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه - بإسناده - عن عبد الرحمن بن حباب السلمى قال: خطب النبى صلى الله عليه وسلم فحث على جيش العسرة ,فقال عثمان بن عفان: على مائة بعير بأحلاسلها وأقتابها ,قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ,حيث حث فقال عثمان: على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بيده هكذا يحركها (وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب): "ما على عثمان ما عمل بعد هذا"[١٣] وفى رواية البيهقى قال: ثلاث مرات، وأنه التزم بثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها وأخرج ابن جرير[١٤] وابن أبى حاتم [١٥] - باسنا دهما بألفاظ مختلفة - قال: حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة (يعنى فى غزوة تبوك) فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف (أى درهم) فقال: يا رسول الله، مالى ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها ,فقال: "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت" وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله ,أصبت صاعين من تمر.. صاع أقرضه لربى وصاع لعيالى ,قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما الذى أعطى ابن عوف إلا رياء ,وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا!؟ وفى روايات أخرى أنهم قالوا عن أبى عقيل (وهو الذى بات يعمل عند يهودى ليحصل على صاعين أجرا له جاء بأحدهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم): أنه أنما أراد أن يذكر بنفسه!

البكـاؤون

ثم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم البكاؤون ,وهم سبعة نفر من الأنصار: سالم بن عمير ,وعلية بن يزيد ,وأبو ليلى المازنى ,وعمرو ابن غنمه ,وسلمة بن صخر ,والعرياض بن سارية - ,وفى بعض الروايات: عبد الله بن مغفل - ومعقل بن يسار. وبعضهم يقول: البكاؤون: بنو مقرن السبعة وهم من مزينة ,وابن اسحق بعد فهيم عمرو بن

الحمام بن الجموح.[١٥] فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى طلبوا منه أن يحملهم على ركائب إلى أرض المعركة) وكانوا أهل حاجة فقال: "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وأرسل أبا موسى أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم ,فوافاه غضبان, فقال: "والله لا أحملكم ,ولا أجد ما أحملكم عليه" ثم أتاه ابل ,فأرسل إليهم ثم قال: "ما أنا حملتكم ولكم الله حملكم ,والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير" [١٦].

قال ابن اسحق: فبلغنى أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضرى لقى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل (من السبعة البكائين) وهما يبيكان ,فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا ,فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ,فأعطاهما ناضحا له (أى جملا يستقى عليه الماء) فارتحلا ,وزودهما شيئا من تمر، فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

زاد يونس بن بكير عن ابن اسحق: وأما علية بين يزيد (أحد البكائين) فخرج من الليل, فصلى من ليلته ما شاء الله ,ثم بكى وقال: اللهم انك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ,ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ,وأنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو جسد أو عرض.. ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ابن المتصدق هذه الليلة؟" نسلم يقم أحد! ثم قال: "أين المتصدق؟ فليقم "فقام إليه فأخبره ,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشر ,فو الذى نفسى بيده لقد كتبت لك فى الزكاة المتقبلة"[١٧].

مسيرة جيش العسرة:

اجتمع الجيش ,وقام أبو بكر رضى الله عنه فيه يؤم الناس للصلاة فى انتظار عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من تدبير شئون المدينة إثناء غيبته، وقد استخلف عليها محمد بن سلمة، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر، ثم عاد إلى جيش يتولى قيادته.

قال ابن اسحق: ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج خلف على بن أبى طالب على أهله ,وأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا وتخففا منه ,فأخذ على رضى الله عنه سلاحه ثم خرج ,حتى أتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف ,فقال: يا نبى الله ,زعم المنافقون أنك أنما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى ,فقال: " كذبوا ,ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ,فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ,أفلا ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى ,إلا أنه لا نبى بعدى ,فرجع على إلى المدينة.

وكان رسول صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره على ثنية الوداع ,وضرب عبد الله بن أبى - رأس النفاق - عسكره على حدة أسفل منه ,قال ابن اسحق: "وكانوا فيما يزعمون ليس بأقل العسكريين".. ولكن الروايات الأخرى تقوم: أن الذين تخلفوا فعلا دون المائة.. فلما سار

رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبى فى من تخلف من المنافقين وأهل الريبة ,الذين يلتمسون للفرار الأعذار ,وتقعد بهم كراهيتهم للإسلام عن إسداء أى عون له، فهيهات أن يعدوا للخروج عدة ,أو يتمنوا للخارجين عودة ,وأمر القائد صلى الله عليه وسلم.. فتحرك الجيش ,وثار النقع ,وصهلت الخيل ,وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن هذا الجحفل الجرار ,يتوجه مخترقا الصحراء صوب الشام ,مستهينا فى سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة, تاركا وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظل والنعمة واللذة ,على إيمانهم وعلى رضى الله عنهم.. وأنه لمشهد يأخذ بالأبصار.. جيش لم تعرف الجزيرة مثله قبل ذلك ,ولم يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العدد فى غزواته السابقة.. ثلاثون ألف جندى مدججون بالسلاح ,يتقدمهم عشرة آلاف فارس ,مما جعل النسوة مأخوذات بجلاله وقوته وهو يودعنه ويلقين عليه النظرات الأخيرة.

متخلفون من غير ريبة:

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية من غير شك ولا ارتياب ,منهم كعب بن مالك, ومرارة بين الربيع ,وهلال بن أمية (وهم الثلاثة الذين سيرد تفصيل قصتهم) ,ومنهم من فترت -أول الأمر- هممهم ,فلما جد الرحيل وانطلق الجيش أحسوا خطر التخلف على إيمانهم, فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم ,منهم أبو خيثمة وعمير بن وهب الجمحى.

وفى أثناء سير الجيش ولم يكن معهم ديوان جامع لأسماء الجنود -جعل يتخلف عنهم الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان ,فيقول: "دعوه ,فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ,وأن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه" حتى قيل: يا رسول الله ,قد تخلف أبو ذر ,وأبطأ به بعيره ,فقال: "دعوه ,فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ,وأن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه". وتلوم أبو ذر على بعيره[١٨] فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ,ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا ,ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض منازله ,فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله ,أن هذا لرجل يمشى على الطريق وحده ,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا ذر فما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله ,هو والله أبو ذر ,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله أبا ذر, يمشى وحده ويموت وحده ,ثم أن أبا خيمة رجع - بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما- إلى أهله فى يوم حار ,فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه [١٩] ,قد رشت كل واحدة منهما عريشها ,وبردت له فيه ماء ,وهيأت له فيه طعاما ,فلما دخل قام على باب العريش ,فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ,فقال: رسول الله فى الضح[٢٠] والريح والحر ,وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيئ وامرأة حسناء فى ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ,فهيئا لى زادا, ففعلتا ,ثم قدم ناصحه فارتحله ,ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك.. وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطلب يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا ,حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة: لعمير ابن وهب: أن

لى ذنبا فلا عليك أن تخلف عنى حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ,حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا ركب على الطريق اقبل, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كن أبا خيثمة) فقالوا: يا رسول الله ,هو والله أبو خيثمة فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ,فقال له رسول الله: (أولى لك يا أبا خيثمة!) "وهى كلمة تقال للوعيد" ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ,فقال رسول الله خيرا ,ودعا له بخير.

ساعة العسرة

وعانى الجيش الذاهب إلى تبوك مصاعب ثقيلة ,ولقى المسلمون فى الغزوة من العسرة فى الظهر والماء والنفقة والزاد الشىء الكثير ,وقد وردت بعض الروايات بشواهد منها:

قال ابن كثير فى التفسير: قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية "لقد تاب الله عن النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ,ثم تاب عليهم أنه بهم رءوف رحيم" فى غزوة تبوك ,وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ,فى سنة مجدبة ,وحر شديد ,وعسر من الزاد والماء.. قال قتادة: خرجوا إلى الشام على تبوك فى لهبان الحر ,على ما يعلم الله من الجهد ,فأصابهم فيها جهد شديد ,حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ,وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ,ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ,فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم (٢١).

وروى الإمام أحمد فى تفسير قول الله على عز وجل "لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة" قال: خرجوا فى غزوة تبوك ,الرجلان والثلاثة على بعير واحد ,وخرجوا فى حر شديد ,وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون أبلهم لينفضوا اكراشها ويشربوا ماءها ,فكان ذلك عسرة فى الماء وعسرة فى النفقة وعسرة فى الظهر.

وروى ابن جرير – إسناده إلى عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة, فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد, فنزلنا منزلا ,فأصابنا فيه عطش ,حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى أر كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ,وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ,ويجعل ما بقى على كبده.. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ,أن الله عودك فى الدعاء خيرا ,فأدعو الله لنا ,فقال: "أو تحب ذلك؟" قال: نعم ,فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء ,فلم يرجعهما حتى قالت السماء – أى آذنت بمطر– ,فأطلت ,ثم سكبت, فملأوا ما معهم ,ثم ذهبنا ننظر ,فلم نجدها جاوزت العسكر(٢٢) قال ابن اسحق: وكان فى الجيش رجل منافق ,فقالوا: ويحك ,هل بعد هذا من شىء؟ فقال: سحابة مارة!!! وقال ابن جرير فى تفسير هذه الآية عند قوله تعالى: "الذين اتبعوه فى ساعة العسرة" – أى من النفقة والظهر والزاد والماء – "من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم" – أى عن الحق ,ويشك فى دين الرسول صلى الله عليه وسلم ,ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم.

"ثم تاب عليهم" يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه وأبصار الحق الذى كان قد كاد يلتبس عليهم "أنه بهم رءوف رحيم" أن ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لهم فى سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم ,رحيم أن يهلكهم فينزع منهم الإيمان بعد أن قد أبلوا فى الله مع رسوله وصبروا عليه من البأساء والضراء.[٢٣]

ديــار ثمــود

وفى الطريق مر المسلمون بالحجر.. بالديار التى كانت ثمود تسكنها.. وهى أطلال هامدة, وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعجلوا عقابه.. وهناك استسقى الناس من بئر ,فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ,وقال: "لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضأوا منها للصلاة ,وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الأبل ,ولاتأكلوا منه شيئا ,ولا يخرجن أحد منكم الا ومعه صاحب له" ففعل الناس ,الا أن رجلين من بنى ساعدة: خرج أحدهما لحاجته, وخرج الآخر فى طلب بعيره.. فأما الذى خرج لحاجته فأنه خنق على مذهبه ,وأما الذى خرج فى طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلى طى ,فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ألم أنهكم أن لا يخرج أحد منكم الا ومعه صاحبه"؟ ثم دعا للذى خنق على مذهبه فشفى ,وأما الآخر فأهدته طى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.[٢٤]

وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم[٢٥] .

والظاهر أن النبى صلى الله عليه وسلم يريد ألا يشغل المسلمون عن مواطن العظة ,وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات ,فأن المرء لو قيض له أن يزور السجون ويشهد مثلا غرفة الإعدام ,فليس يليق أن ينظر إلى حبل المشنقة وهو شارد أن ضاحك ,لا أقل من بعض الأسى لأحوال المجرمين ومصارعهم!!

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسألوا الآيات - خوارق العادات) - فقد سألها قوم صالح ,فبعث الله لهم ناقة ,فكانت ترد من هذا الفج, وتصدر من هذا الفج ,فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ,وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما ,فعقروها ,فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم"[٢٦]

والنهى عن سؤال الناس خوارق العادات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ,إذ لا جدوى فى الخروج عليها ,وخير للسائلين"أن يبذلوا طاقتهم فى أداء ما يكلفون به ,وأن يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله ,فأن من قبلهم شهد العجائب ,ثم أغرته قسوة القلب بازدرائها فحاقت به اللعنة.

نصيحــة قائــد

وعند وصولهم إلى تبوك نسمع نصائح رائعة يلقيها القائد صلى الله عليه وسلم على جنوده قبيل لقاء العدو:

ذكر البيهقى فى الدلائل والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فاسترق رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة لما كان منها على ليلة ,فلم

يستيقظ فيها حتى كانت الشمس على قيد رمح ,قال: (ألم أقل لك يا بلال أكلألنا الفجر؟ فقال: يا رسول الله ,ذهب بى النوم الذى ذهب بك ,فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك المنزل غير بعيد ,ثم صلى. ثم ذهب بقية يومه وليلته ,فأصبح بتبوك فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله ,وأوثق العرى كلمة التقوى ,وخير الملل ملة إبراهيم, وخير السنن سنة محمد ,وأشرف الحديث ذكر الله ,وأحسن القصص هذا القرآن ,وخير الأمور عوازمها ,وشر الأمور محدثاتها ,وأحسن الهدى هدى الأنبياء ,وأشرف الموت قتل الشهداء ,وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ,وخير الأعمال ما نفع ,وخير الهدى ما اتبع ,وشر العمى عمى القلب, واليد العليا خير من اليد السفلى ,وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ,وشر المعذرة حين يحضر الموت ,وشر الندامة يوم القيامة ,ومن الناس من لا يأتى الجمعة الا دبرا ,ومنهم من لايذكر الله الا هجرا ,ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ,وخير الغنى غنى النفس ,وخير الزاد التقوى ,ورأس الحكم مخافة الله عز وجل وخير ماوقر فى القلوب اليقى ,والارتياب من الكفر ,والنياحة من عمل الجاهلية ,والغلول من حرى جهنم ,والسكركى من النار ,والشعر من ابليس ,والخمر جماع الاثم ,وشر المآكل مال اليتيم ,والسعيد من وعظ غيره ,والشقى من شقى فى بطن أمه ,وأنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع والأمر إلى الآخرة ,وملاك العمل خواتمه ,وشر الرؤيا رؤيا الكذب ,وكل ماهو آت قريب ,وسباب المؤمن فسوق ,وقتاله كفر ,وأكل لحمه من معصية الله ,وحرمة ماله كحرمة دمه ,ومن يتألى على الله يكذبه ,ومن يغفر يغفر له ومن يعف يعف الله عنه ومن يكظم الغيظ يأجره الله ,ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ,ومن يتبع السمعة يسمع الله به ,ومن يتصبر يضعف الله له ,ومن يعص الله يعذبه الله ,ثم استغفر ثلاثا".[٢٧]

عين تبوك:

وذكر ابن عائذ فى مغازيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تبوك فى زمان قل فيه ماؤها ,فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم غرفة بيده من ماء ,فمضمض بهما فاه ثم بصقه فيها ,ففارت عينها حتى امتلأت ,فهى كذلك حتى الساعة ,قال ابن القيم قلت: فى صحيح مسلم أنه قال قبل وصلوه إليها: "أنكم ستأتون غدا -إن شاء الله - عين تبوك ,وأنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ,فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى: قال: فجئناها وقد سبق إليها رجلان ,والعين مثل الشرك ,تبض بشئ من مائها ,فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم "هل مسستم من مائها شيئا؟قالا: نعم ,فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول, ثم غرفوا من العين قليلا قليلا ,حتى اجتمع فيه شئ ,ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويديه ,ثم أعاده فيها ,فجرت العين بماء كثير ,فاستقى الناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك يا معاذ أن طالت بك الحياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانا".

لا عدوان بالميدان

إن جيش الإسلام الذى زحف ,تتدافع جنباته فى جوف الصحراء ,مثيرا أمامه وعلى جانبيه من النقع ,ما كاد يصل إلى القوم نبؤه حتى وقع الرعب فى قلوبهم ,والذعر فى

نفوسهم ,والنكوص فى نياتهم ,وبلغ المسلمون تبوك ,فلم يجدوا بها كيدا أو يواجهوا عدوا, ولابد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم والالتجاء إلى حصونهم ,حذروا من ملاقاة هذه القوة الفتية ,وخوفا من سطوة المؤمنين الصادقين.

وصالح النبى صلى الله عليه وسلم متنصرة العرب الضاربين فى هذه الأرجاء وايقنت القبائل التى تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدميين قد فات أوانه وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فهو عندهم. وكتب لصاحب أيلة كتاب هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم ,هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روية وأهل أيلة ,سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم فى ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ,فمن أحدث حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ,وأنه لمن أخذه من الناس ,وأنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ,ولا طريقا يردونه من بحر أو بر.."(٢٨)

ولم يدرك كثير من ضعفاء الإيمان والمترددين مغزى الاتفاق الذى عقده النبى مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ,ولم يقيموا كبير وزن لهذه المعاهدات بل كان الذى نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة، وتحملوا فى قطعها ماتحملوا من الأذى، ثم عادوا لم يغنموا ولم يأسروا بل لم يقاتلوا، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك أياما، فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شدة القيظ فى حين كان ثمار المدينة قد طابت؟

إن ما حققه النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الاتفاقات كان له أعظم النتائج فى تأمين حدود شبه الجزيرة، واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ,فكانت هذه المعاهدات بمثابة حصون حصنت رقعة الإسلام من اغارة المغيرين.. تلك هى الحكمة التى لم يفقه سرها المنافقون أو فقهوا وملأتهم حقدا وضغينة ,فأخذوا ينفثون سموم حقدهم وضغنهم فى ضعاف المسلمين.

ومكث الرسول صلى الله عليه وسلم هنالك بضعة عشر يوما(٢٩) يتحدى بقوة الإيمان من تحدثه نفسه بالنزال أو المقاومة ,ويمد بصره وراء الصحراء ,حيث اختفى الرومان يرقب منهم حركة ,فلما رأى القوم قابعين مستكينين ,قرر أن يقفل عائدا إلى المدينة موفورا منصورا.

القدوم إلى المدينة:

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ,ولاحت له معالمها من بعيد ,فقال: "هذه طابة! وهذا أحد بجل يحبنا ونحبه!" (٣٠)

وسر الناس بمقدمه صلى الله عليه وسلم ,فخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ....من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا... ما دعا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة فى مرجعه هذا بحفاوة بالغة، أنه أكبر جيش خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ,إذ وصل تعداده نحو ثلاثين ألفا. ولم ينس النبى فى ذهابه وإيابه أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغبين ,والعبرات تملأ

عيونهم.. عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك ,فدنا من المدينة فقال: "أن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ,ولا قطعتم واديا ,الا كانوا معكم" فقالوا: يا رسول الله ,وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة حبسهم العذر"[٣١]

بهذه المواساة الرقيقة كرم النبى الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم, فأصلح بالهم وأزاح هما ثقيلا عن افئدتهم.

وغزوة تبوك تشبه غزوة الاحزاب ,فإن بلاء المسلمين أولها كان شديدا ,ثم جاء ختامها طمأنينة وعزة. واستغرف المسير إلى تبوك والمآب منها أياما طوالا.. فقد خرج المسلمون إليها فى شهر رجب ,وعادوا فى رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام. وكانت هذه آخر أهبة, وآخر خروج للغزو فى حياة الرسول ,وهى أن لم يحصل فيها ولاجهاد فقد حصن المسلمون بها حدودهم ,وكشف الله بها عيوب المنافقين ,وأدب بها ضعاف المسلمين ,وقد ظل النبى صلى الله عليه وسلم مشغولا بأمر الروم اعتقادا منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين ,فجهز فى آخر حياته لغزوهم الجيش الذى انفذه - من بعده صلى الله عليه وسلم - خليفته الأول أبو بكر بقيادة أسامة بن زيد ,وبه توالت الفتوحات الإسلامية فى الروم والفرس ,وامتدت كلمة الله على معظم أجزاء المعمورة فى عهد خلفائه الراشدين.

والظاهر من الأحاديث والآيات المساواة فى الأجر بين المنفذ للطاعة والمعذور ,ومنها قوله صلى الله عليه وسلم "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" وقوله: "ن توضأ وخرج إلى المسجد فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها" وقوله: "اذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم" [٢٢] وهو ظاهر قوله تعالى: "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" وبدليل أن النية الصادقة هى أصل الأعمال ,فإذا صحت فى فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بعد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام "نية المرء خير من عمله:

موقف المنافقين

وكان حقيقا بالذين خالجتهم الريبة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يتوسموا فى هذه الآيات البينات ما يقربهم من دينه ويغريهم بالتصديق ,ونبذ الجفوة والعناد ,إلا أن النفوس الخسيسة تزداد شرا وجحودا كلما ازداد خصومها نجاحا وصعودا ,فما تظنه سبب اقبالها قد يكون سبب انتكاسها.

لذلك لا يستغرب أن يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فيجد قلوب المنافقين لا تزال مطوية على دخلها ,تبتسم للفاتح العائد وهى تود لو لم تر شبحه ,يستوى فى ذلك رؤساء العشائر الذين وهى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ,وسواد الأعراب الذين يمرحون فى البادية كالسوائم الغفل لا يكادون يفقهون وثمة أمر آخر فى غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ونبى الإسلام ,ذلك هو عرفانهم بالخصومة التى نشبت بين المسلمين والرومان,

وادراكهم لما تحمله فى اطوائها من خطورة وعنف.. فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل إفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمريكا ,أنها قوة لا تنال ولا تناوش.. ولئن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة أن محمدا - كما عرف القوم من سيرته - لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ,وقد مضى برسالته ,يذيب ما اعترضه من عوائق ,فمحا الوثنية ,وأجلى اليهودية ,وقاوم بطش الروم مقاومة الواثق المعتد.. والمنافقون مسرورون بهذه الخصومة الجديدة يحسبون أن مقبرة الإسلام ستحفر فيها ,لذلك لما أعلن النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة أنه منطلق إلى تبوك تجمع رهط من المنافقين فقال بعضهم لبعض - مشيرين إلى المسلمين : اتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال.. ارجافا وترهيبا للمؤمنين..

أن المنافقين مؤملى الشر ودعاة الهزيمة ,والاعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حطت بهم فهم يتربصون الدوائر بأهله، أن هؤلاء وأولئك كانوا جراثيم قاتلة سممت جو المدينة أو كادت.. وقاسى الإسلام من ويلاتهم متاعب كثيرة قبل غزوة تبوك وفى ثناياها ومن بعدها.. وقد قدمنا طرفا من أخبارهم السيئة منتشرا فى معظم السورة ,وعند المقارنة بين موقفهم وموقف المؤمنين الصادقى الإيمان ,من عدم الاستجابة لله ورسوله ,ومن اعذارهم التى كان من شرها وأقبحها اعتدار الجد بن قيس مخافة الافتتان ببنات الروم ,وقول بعضهم لبعض لا تنفروا فى الحر ,وقولهم عن النبى: هو اذن ,وقولهم قبل ذلك: نخشى أن تصيبنا دائرة - لو نعلم قتالا لاتبعناكم - لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل- لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ,وغير ذلك من أقوالهم وأفعالهم ونواياهم الخبثة ,مما تكفل بايضاحه وبيانه سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانفال والاحزاب والمنافقون ,وآخرها وأعظمها فضيحة المنافقين وكشفا لأسرارهم سورتنا هذه التى نحن فى رحابها (التوبة).

كنا نخوض ونلعب:

ومن أخبارهم أيضا فى هذه الغزوة ما رواه ابن اسحق قال: وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمه يقال له "مخشن بن حمير" (٢٣) يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر (يعنون الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال.. إرجافا وترهيبا للمؤمنين. فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ,وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ,وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما بلغنى - لعمار بن ياسر:"ادرك القوم فإنهم قد احترقوا ,فسلهم عما قالوا ,فأن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا "فأنطلق إليهم عمار ,فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته ,فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (٢٤) يا رسول الله، انما كنا نخوض ونلعب ,قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بى إسمى واسم أبى ,وكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير ,فتسمى عبد الرحمن ,وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

وفى زاد المعاد [٣٥]: ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار حتى اذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ,فقال زيد بن أبى الصلت - وكان منافقا -: أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا درى أين ناقته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن رجلا يقول, وذكر مقالته ,وانى والله لا أعلم الا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها، وهى فى الوادى فى شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها ,فانطلقوا حتى تأتونى بها "فذهبوا فأتوه بها.

محاولتهم اغتيال الرسول:

قال ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك بعد ماأقام بها بضع عشرة ليلة - لم يلق فيها حربا - هم جماعة من المنافقين بالفتك به ,وأن يطرحوه من رأس عقبة فى الطريق ,فأخبر بخبرهم ,فأمر الناس بالمسير من الوادي ,وصعد هو العقبة ,وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا ,وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر وحذيفه ابن اليمان أن يمشيا معه ,عمار آخذ بزمام الناقة ,وحذيفة يسوقها فبينما هم يسيرون أن سمعوا بالقوم قد غشوهم ,فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبصر حذيفة ظنوا أن قد ظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم ,فأسرعوا حتى خالطوا الناس ,وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ,فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ,ووقفوا ينتظرون الناس ,ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة: "هل عرفت هؤلاء القوم"؟ قال: ما عرفت الا رواحهم فى ظلمة الليل حين غشيتهم ,ثم قال: "علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟ "قالا: لا ,فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه ,وسماهم لهما ,واستكتمهما ذلك ,فقالا: يا رسول الله ,افلا تأمر بقتهلم؟ فقال: أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه."

قال ابن كثير فى البداية والنهاية: وقد ذكر ابن اسحق هذه القصة الا أنه ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم انما باسمائهم حذيفة بن اليمان وحده ,وهذا هو الاشبه والله أعلم [٣٦].

وبعد رجوع المسلمين إلى المدينة أخذ الذين فى قلوبهم مرض يشككون الناس فى نتائج الموقعة ,وأنها لم تحقق أهدافها المرجوة أن لم تكن ما حققت هدفا قط ,ومع ذلك كله فعندما جاء المخلفون يعتذرون قبل النبى صلى الله عليه وسلم منهم معاذيرهم ,وأفسح لهم من صدره, واستغفر لهم ,وترك صرائرهم إلى الله تعالى ,ولقد سلك النبى صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء المنافقين طريق الملاينة والاغضاء ,يقبل منهم اعذارهم - وهى مختلفة - ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة ,فإذا تلبس أحدهم بخيانة تهدر دمه رغب فى التجاوز عنه حتى لا يقال: أن محمدا يقتل أصحابه ,وما هم فى صحبته من شئ ,ولكن هكذا سيقول الناس.. ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير لأسرهم هذا الحلم ,وانخلعوا من خداعهم الصغير ,وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين.

اليوم لا تسامح:

بيد أن هذا الاسلوب العالى فى معاملتهم لم يزدهم على الله ورسوله الا جرأة ,فزاد افتياتهم ,وربت شرورهم ,ولم يبق بد من كشف خبثهم ,واشعار جمهور الأمة بما تنطوى عليه

نفوسهم وأعمالهم.. ومن يومئذ بدأ الرسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل.. ذلك:

١- لما سبق أن بيناه.

٢- ولأن عدد المسلمين زاد تجعل عبث المنافقين بهم خطرا عظيما ،يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه ،ولم يقم بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى ريب - بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته - فى أنهم سيزدادون من بعد اضعاف زيادتهم اليوم ،وعند ذلك يصبح المنافقون خطرا على الأمة المسلمة يهدد كيانها.

٣- ولقد كان له صلى الله عليه وسلم من قبل - حين كان الإسلام محصورا بالمدينة وما حولها - أن يشرف بنفسه على شئون المسلمين وأحوالهم ويصدع برأى هو الحق النور فيما يحدثه المرجفون من شكوك وظلمات ،أما ورقعة الاسلام قد اتسعت ،وهى توشك أن تتخطى الجزيرة إلى ما حولها من الآفاق ،فالسكوت على المنافقين عندئذ شر مستطير ،يودى بحياة الأمة ،ويزلزل أركان المجتمع ويهز كيانه..

٤- واذن فلتنزل الآيات - من سورتنا هذه - تندد بما فعل ويفعل أولئك المنافقون ،ولتمزق الاستار التى يتوارون خلفها.. وكانت الاعيبهم قبل تبوك وبعدها هى النهاية الحاسمة للسماحة التى مرحوا فى سعتها طويلا ،ولم يقدروها حق قدرها.. فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ،وكلف الا يقبل منهم نفقة ،والا يصلى عليهم ،بل عرفت أن استغفاره لهم لن يجاب ،ثم كلف المسلمون جميعا أن يقاطعوهم.

من أعجب حيلهم:

ومن أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجدا يلتقون فيه وحدهم ،ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ،وقد ذهبوا للرسول قبل رحيله إلى تبوك يقولون له: بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ونحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه! فاعتذر لهم بأنه جناح سفر وحال شغل ،وقال: "لو قدمنا - إن شاء الله - اتيناكم فصلينا لكم فيه [٢٧] فلما آب النبى صلى الله عليه وسلم بجيشه وتحرج موقف المنافقين ،وانكشفت خباياهم أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد قائلا لهما: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه" وانطلق الصاحبان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة ،وأخذا يأتيان عليه ،وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمرآها اللهب يدمر آخر ما شاد النفاق من حيل. [٢٨]

ويستفاد من موقفه صلى الله عليه وسلم تجاه المنافقين: تركه قتلهم ،وقد بلغه عنهم الكفر الصريح ،فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق اذا أظهر التوبة ،لأنهم حلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم ماقالوا ،وهذا اذا لم يكن انكارا فهو توبة واقلاع. وقد قال اصحابنا وغيرهم: ومن شهد عليه بالردة فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ،لم يكشف عن شيئ بعد ،وقال بعض الفقهار اذا جحد الردة كفاه جحدها ،ومن لم يقتل بتوبة الزنديق قال: هؤلاء لم تقم عليهم بينة ،ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم عليهم بعلمه ،والذى بلغ

رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم قولهم لم يبلغه اياه نصاب البينة بل شهد به عليهم واحد فقط كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبدالله بن ابى واقواله فى النفاق كانت كثيرة جدا كالمتواترة عند النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ,وبعضهم أقر بلسانه ,وقال: إنما كنا نخوض ونلعب ,وقد واجهه بعض الخوارج فى وجهه بقوله: انك لم تعدل ,والنبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له: الا تقتلهم؟ لم يقل: ما قامت عليهم بينة ,بل قال: "لايتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".

فالجواب الصحيح اذن: أنه كان فى ترك قتلهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله وجمع كلمة الناس عليه ,وكان فى قتلهم تنفير, والإسلام بعد فى غربة ,ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص شيئ على تأليف الناس وأترك شيئ لما ينفرهم عن الدخول فى طاعته.

وهذا أمر كان يختص بحال حياته صلى الله عليه وسلم ,وكذلك ترك قتل من طعن عليه فى حكمه بقوله: أن كان ابن عمتك؟ وفى قسمه بقوله: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله, وقول الآخر له: إنك لم تعدل ,فإن هذا محض حقه ,له أن يستوفيه ,وله أن يتركه ,وليس للأمة بعده ترك استيفاء حقه ,بل يتعين عليهم استيفاؤه.

تعقيب على استعراض الغزوة:

ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت "العسرة" كما ينقل لنا لمحة من الجو الذى عاشه المجتمع المسلم فى تلك الفترة ,يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية ,من اليقين الجاد عند طائفة ,إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة ,إلى القعود والتخلف -بغير ريبة - عند طائفة ,إلى النفاق الناعم عند طائفة ,إلى النفاق الفاجر عند طائفة ,إلى النفاق المتآمر عند طائفة.. مما يشى أولا بالحالة العامة للتركيب العضوى للمجتمع فى هذه الفترة.. ويشى ثانيا بمشقة الغزوة - فيمواجهة الروم ومع العسرة - هذه المشقة المحصة المتحنة الكاشفة، والتى لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز. هذه هى العسرة التى تخلف فيها المتخلفون ,وكثرتهم من المنافقين الذين سلف بيان أمرهم ,ومن المؤمنين الذين لم يقعدوا شكا ولانفاقا ,انما قعدوا كسلا واسترواحا للظلال فى المدينة ,وهؤلاء جماعتان: جماعة قضى فى أمرهم من قبل وهم الذين خالطوا عملا صالحا وآخر سيئا ,واعترفوا بذنوبهم ,وجماعة أخرى "مرجون لأمر الله اما يعذبهم وأما يتوب عليهم" وهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا - أى تركوا بلا حكم وارجئوا حتى يحكم الله فيهم - وهنا تفصيل أمرهم بعد الارجاء فى الحكم والارجاء فى السياق.

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وقبل أن نقول شيئا عن هؤلاء فى تفسير النص المصور لحالهم ,وقبل أن نعرض الصورة الفنية المعجزة التى رسمها التعبير لهم ولحالهم ,ندع أحدهم يتحدث عما كان.. هو كعب بن مالك رضى الله عنه: أخرج أحمد والبخارى ومسلم من طريق الزهرى قال: اخبرنى عبد

الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب ابن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمى - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حدثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة تبوك ,قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك ,غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ,ولم يعاتب أحدا تخلف عنها. انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ,حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توفقنا على الإسلام ,وما أحب أن لى بها مشهد بدر ,وأن كانت بدر اذكر فى الناس منها وأشهر ,وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك: أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ,والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ,وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ,فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحر شديد ,واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز, واستقبل عدوا كثيرا ,فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ,فأخبرهم بوجهه الذى يريد, والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان -.

قال كعب رضى الله عنه: فقل رجل يريد أن يتغيب الا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ,وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ,وأنا إليها أصغرهم ,فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه, وطفقت أغدو لكى اتجهز معهم فأرجع ولا أقضى شيئا ,فأقول لنفسى: أنا قادر على ذلك أن اردت ,لم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ,فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم اقض فى جهازى شيئا ,فلم يزل يتهادى بى حتى اسرعوا وتفارط الغزو [٣٩] فهممت ان ارتحل فأدركهم وليت أنى فعلت ,ثم لم يقدر لى ذلك ,فطفقت اذا اخرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى اسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ,أو رجلا ممن عذر الله.

ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حت بلغ تبوك ,فقال - وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت ,والله يا رسول الله ما علمنا عنه الا خيرا ,فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال كعب بنمالك: فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا من تبوك حضرنى بنى ,فطفقت اتذكر الكذب ,وأقول: بماذا اخرج من سخطه غدا؟ واستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ,فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشيئ أبدا ,فأجمعت صدقه ,وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما ,وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ,ثم جلس للناس ,فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ,وكانوا بضعة وثمانين رجلا ,فقبل رسول

الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ,ووكل كل سرائرهم إلى الله, حتى جئت ,فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ,ثم قال لى: "تعال" فجئت امشى حتى جلست بين يديه ,فقال لى: ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟ فقلت: يا رسول الله ,والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ,لقد اعطيت جدلا, ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن يسخطك على ,ولئن حدثتك بحديث صدق تجد على فيه ,أنى لأرجو فيه عقبى من الله [٤٠] ,والله ما كان لى عذر ,والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك! فقال صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فقد صدق ,فقم حتى يقضى الله فيك" فقمت ,وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى ,فقالوا لى: والله ما علمناك كنت اذنبت ذنبا قبل هذا ,لقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أعتذر به المتخلفون ,فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوالله مازالوا يؤنبوننى [٤١] حتى اردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى ,ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا نعم ,لقيه معك رجلان قالا ماقلت ,وقيل لهما مثل ماقيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى ,وهلال بن أمية الواقفى ,فذكروا لى رجلين صالحين ,قد شهدا بدرا [٤٢] ,لى فيهما اسوة ,فمضيت حين ذكروهما لى.

قال: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ,فاجتنبنا الناس - أو قال تغيروا لنا - حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ,فما هى بالأرض التى كنت أعرف ,فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ,فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ,وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ,فكنت أخرج فاشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد ,وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ,وهو فى مجلسه بعد الصلاة ,وأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ,فإذا التفت نحوه اعرض عنى ,حتى اذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى وأحب الناس إلى - فسلمت عليه ,فوالله مارد على السلام ,فقلت له: يا أبا قتاده أنشدك الله تعالى ,هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت ,قال: فعدت فنشدته فسكت ,فعدت فنشدته ,قال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناى, وتوليت حتى تسورت الجدار.

وبيقت أنا أمسى بسوق المدينة اذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلى ,حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان ,وكنت كاتبا ,فقرأته فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ,ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ,فألحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء ,فتيممت بها التنور فسجرتها.. حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين اذ برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ,فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا قربنها. وأرسل إلى صاحبى

مثل ذلك ,فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ,فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ,أن هلالا شيخ ضائع, وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ (لا ولكن لا يقربنك) فقال: أنه والله مابه من حركة إلى شئ ,ووالله مازال يبكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذ. فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك! فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه, فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ,وما أدرى ما يقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهيعن كلامنا.. قال: ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ,فبينما انا جالس على الحال التى ذكر الله منها قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبتو سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر ,فخررت ساجدا ,وعرفت أن قد جاء الفرج فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ,فذهب الناس يبشروننا, وذهب قبل صاحبى مبشرون ,وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلى ,وأوفى على الجبل ,فكان الصوت أسرع من الفرس ,فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما اياه ببشارته ,والله ما أملك غيرهما يومئذ ,فاستعرب ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئوننى بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة الله عليك ,حتى دخلت المسجد ,فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحوله الناس ,فقام إلى طلحة بن عبيد الله ينرول حتى صافحنى وهنأنى ,والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ,قال: فكان كعب رضى الله عنه لا ينساها لطلحة.

قال كعب رضى الله عنه: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال "لا ,بل من عند الله" وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ,وكنا نعرف ذلك منه ,فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله ,أن من توبتى أن انخلع ,من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ,قال: "امسك عليك بعض مالك فهو خير لك" فقلت: أنى أمسك سهمى الذى بخير ,وقلت يا رسول الله ,انما أنجانى الله بالصدق ,وأن من توبتى الا أحدث الا صدقا ما بقيت ,فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما ابلانى الله تعالى ,والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذبا ,وأنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى. وانزل اله "لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - "وكونوا مع الصادقين".

قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فأن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ماقال لأحد ,فقال: "سيحلفون

بالله لكم اذا انقلبتـهم إليـهم لتـعـرضـوا عنهم فـأعـرضـوا عنهم أنهم رجس" -إلى قـوله - "الفاسقين".

قال كعب: وكنا تخلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ,فبايعهم واستغفر لهم ,وأرجأ أمـرنا ,حتى قضى الله فيه ,وبذلك قـال الله: "وعلى الثـلاثة الذين خلفـوا"وليس الذى ذكـر الله مما خلفنا عن الغـزوة وانما هو تخليفه ايانا وارجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

تعقيب على القصـة

هذه هى قصة الثلاثة الذين خلفوا - كما رواها أحدهم كعب بن مالك - وفى كل فقرة منها عبرة ,وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة المجتمع الإسلامى ,ومتانة بنائها, وصـفـاء عناصـرها ,ونصـاعة تصـورها لمعنى الجـماعـة ,ولتكاليف الدعوة ,ولقيمـة الأوامـر, ولضرورة الطاعة.

فهذا كعب بن مـالك - وزميـلاه - يتخلفون عن ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ساعة العسرة يدركهم الضعف البشرى الذى يحبب إليهم الظل والراحة فيؤثرونهما على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب ,ولكن كعب ما يلبث بعد خروج رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يحس مـا فعل ,يشـعـره به كل مـا حوله.. (فطفقت اذا خـرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى اسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفـاق أو رجلا ممن عذر الله) يعنى بمن عـذر الله: الضـعـفـاء والمرضى والذين لايجدون مـا ينفقون.

فـالعسـرة لم تعقد بالمسلمين عن تلبيـة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغـزوة البـعيدة الشـقـة ,لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق، والا العـاجـزون الذين عذرهم الله ,أمـا القـاعدة الصلبـة للجـمـاعـة المسلمـة فكانت أقوى روحـا مـن العسـرة وأصلب عودا من الشدةزز هذه واحدة.

والثانية: هـى التقوى ,التقوى التى تلجأ المخطئ إلى الصـدق والاقـرار ,والأمـر بعـد ذلك لله (فقلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ,لقد أعطيت جدلا ,ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد على فيه ,أنى لأرجو فيه عقبى من الله ,والله مـا كـان لى عذر والله مـا كنت قط أقوى ولا أيسـر منى حـين تخلفت عنك! فـالله حاضر فى ضمير المؤمن المخطئ ,ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم, وهذا الرضـا يومئذ يعز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقا بالانظار أو مهـملا لا ينظر إليه إنسان - مع هذا فإن مراقبة الله أقوى ,وتقوى الله أعمق ,والرجاء فى الله أوثق.

الثالث: (ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كـلامنا أيها الثـلاثة من بين من تخلف عنه ,فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لى فى نفس الأرض ,فمـا هى بالأرض التى كنت أعـرف,

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ,وأما أنا فكنت أشد قومى وأجلدهم ,فنت أخرج فاشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد ,وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه، واسارقه النظر ,فإذا قبلت على صلاتى نظر إلى ,فإذا التفت نحوه أعرض عنى ,حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة..) هكذا كان الضبط ,وهكذا كانت الطاعة فى الجماعة المسلمة - على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ,ومن بلبلة فى ساعة العسرة - (نهى سول الله عن كلامنا أيها الثلاثة) فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ,ولا مخلوق يلقى كعبا بأنس ,ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطى ,حتى أبن عمه وأحب الناس إليه ,وقد تسور عليه داره ,لا يرد عليه السلام ,ولا يجيبه عن سؤال فإذا أجاب بعد الالحاح لم يطمئن لهفته ,ولم يسكن قلقه ,أنما قال: (الله ورسوله أعلم) وكعب فى لهفته - وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التى كان يعرف - يتلمس حركة من بين شفتى الرسول صلى الله عليه وسلم ,ويخالسه النظر ,لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيى على الأمل فيها، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ,ولم يكتب له الذبول والجفاف.

والرابع: وبينما هو طريد شريد ,لا يلقى إليه مخلوق من قومه بكلمة - ولو على سبيل الصدقة - يجيؤه من قبل ملك غسان كتاب بمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه.. ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله ,وما يزيد على أن يلقى بالكتاب إلى النار ويعد هذا بقية من البلاء, ويصبر على الابتلاء.

الخامس: وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه ,لتدعه فريدا طريدا من الأنس كله مخلفا بين الأرض والسماء ,فيخجل أن يراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأته ,لأنه لا يدرى كيف يكون الجواب؟

السادس: هذه صفحة ,والصفحة الأخرى هى صفحة البشرى.. بشرى القبول ,بشرى العودة إلى الصف ,بشرى التوبة من الذنب ,بشرى البعث والعودة إلى الحياة.. (فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت, سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقوم بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر ,فخررت ساجدا ,وعرفت أن قد جاء الفرج.. فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما اياه ببشارته ,والله لا أملك غيرهما يومئذ ,فاستعرب ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئوننى بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة الله عليك ,حتى دخلت المسجد ,فاذا رسول الله جالس فى المسجد وحوله الناس ,فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنئنى ,والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره ,قال فكان كعب لا ينساها لطلحة).. هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوم فى هذه الجماعة وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم.. وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلا لا ينساه الطريد الذى رد إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ,فهو فى يوم كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) قالها صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من

السرور ،كما قال كعب ،فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة من أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته.

تلك هى قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم ،وهذه هى بعض لمحات من دلالتها الواضحة على حياة الجماعة الإسلامية ،وعلى القيم التى كانت تعيش بها.

معنى الأية:

والقصة كما رواها أحد أصحابها تقرب إلى نفوسنا معنى الآية: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وقد فسرها كعب بالصواب فى آخر الحديث المتقدم، وهو أنهم خلفوا من بين من خلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم واعتذر من المتخلفين ،فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم وارجئ أمرهم دونهم ،وليس ذلك تخلفهم عن الغزو ،لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا ،كما قال تعال):[ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله) وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم ،بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم ،فإن الله سبحانه هو الذى خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم..

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه).. أبهم الله أمرهم إلى أن شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم برحبها ،أى بما وسعت، فهم لم يقروا فى الدنيا مع سعتها، خوفا من العاقبة ،وتألما وامتعاضا من اعراض النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم ،وهو مثل لشدة الحيرة ،وذلك كما قيل..

كأن بلاد الله وهو فسيحة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

فما الأرض؟ أن هى الا بأهلها ،أن هى الا بالقيم السائدة فيها ،أن هى الا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها ،فالتعبير صادق فى مدلوله الواقعى، فوق صدقه فى جماله الفنى، الذى يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين وتتقاصر أطرافها وتتكمش رقعتها فهم منها فى حرج وضيق.. وضاقت أنفسهم على أنفسهم ،والمراد ضيق صدورهم بسبب الهم والغم ومجانبة الأولياء والاحباء ،ونظر الناس لهم بعين الاهانة ،فكأنهم لايجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به ،وكأنما هى وعاء لهم تضيق بهم ولاتسعهم ،وتضغطهم فتتكرب أنفاسهم.

وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيئ لهم يلجأن إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ينجيهم من كربهم ،ولا مما يحذرون من سخط الله وعذابه ،الا إلى الله تعالى.. بأن يتوبوا إليه ويستغفروه "وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه" وليس هناك ملجأ من الله لأحد ،وهو آخذ بأقطار الأرض والسموات ،ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا فى هذا الجو المكروب يخلع على المشهد ظلا من الكربة واليأس والضيق ،ولا مخرج منه الا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب. ثم يجيئ الفرج "ثم تاب عليهم ليتوبوا" ..(٤٢)

وفى تفسيرها اتجاهات:

١- ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته والرجوع إلى ما يرضيه عنهم ووفقهم للتوبة المقبولة له عنده ،لينيبوا إليه ويرجعوا إلى طاعته والإنتهاء إلى أمره ونهيه.

٢- أو أنزل قبول توبتهم فى القرآن وأعلمهم بها ,ليعدهم المؤمنون فى جملة التائبين, وليرجعوا إلى حالهم وعادتهم فى الاختلاط بالمؤمنين بالإيناس والايلاف وازالة الوحشة, فتسكن نفوسهم عند ذلك.

٣- أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم، ويستمروا عليها ,ولا يراجعوا ما يبطلها، أو لينتفعوا بالتوبة ويتوفر عليهم ثوابها.

٤- أو تاب عليهم فى الماضى ,ليكون ذلك داعيا لهم إلى التوبة فى المستقبل.

٥- وعندى أن المختار: تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ,ليتوبوا توبة عامة عن كل ماض, ولينيبوا إلى الله انابة كاملة فى كل ما سيأتى ,ومصداق هذا فى قول كعب: قلت يا رسول الله أن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ,قال:"أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك" فقلت: أنى أمسك سهمى الذى بخيبر ,وقلت يا رسول الله, أنما أنجانى الله بالصدق وأن من توبتى ألا أحدث الأصدقاء ما بقيت ,فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليهم وسلم أحسن مما أبلانى الله تعالى ,والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذبا وأنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى.

"أن الله هو التواب" لمن تاب ولو عاد فى اليوم مائة مرة، الوهاب لعباده الانابة إلى طاعته الموفق من أحب توفيق منه "بهم أن يعاقبهم بعد التوبة أو يخذل من أراد منهم التوبة والانابة ولا يتوب عليه.

قال القاضى: انما خص الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة بهذا التشديد لأنهم أذعنوا بالحق واعترفوا بالذنب فالذى يجرى عليهم - وهذه حالهم - يكون فى الزجر أبلغ مما يجرى على من يظهر العذر من المنافقين.

إن فى هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين ,وتخشع لها قلوب المتقين ,وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيئ من القرآن كما تبكيه هذه الآيات ,وحديث كعب فى تفصيل خبرهم فيها.

وأن مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع ,وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف اذا قرأ أو سمع هذا الخبر.. وحسبى ما وفقنى الله إليه فى هذه ا لقصة الموحية وفى التعبير القرآنى الفريد.

الاشارة إلى بعض الدروس المستفادة من غزوة تبوك

أولا: الناحية العسكرية:

١- الحرب الجماعية: - أو الحرب المطلقة - معناها: تحشيد كافة قوى الأمة - لا الجيش وحده - المادية والمعنية والعقلية للأغراض الحربية.

نشر (لودندروف) آراءه عن الحرب الاجماعية فى كتابه (الأمة فى الحرب) واعتبرها العسكريون آراء جديدة وراحوا يفسرونها وينشرون مبادئها ,ويحثون على الأخذ بها ,وهذه

الحرب الاجماعية التى طبقتها ألمانيا وإيطاليا وروسيا فى الحرب العالمية الثانية ,ليست جديدة ,فقد طبقها المسلمون قبل أربعة عشر قرنا خلت، ولكن هناك فرقا واجدا بين جرب الأمم الحديثة ,وحرب المسلمين قديما.. هذا الفرق هو أن حرب المسلمين حرب دفاعية[٤٤], غايتها نشر السلام وتوطيد أركانه ,لاتعتدى على أحد وتحترم العهود والمواثيق ,فهى حرب الفروسية بكل مافى الكلمة من معان ,لذلك فقد كان المسلمون كلهم جنودا ,وكانت أموالهم كلهم لامداد الجنود.

٢- التدريب العنيف: تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريبا عنيفا: كاجتياز موانع وعراقيل صعبة جدا ,وقطع مسافات طويلة فى ظروف جوية مختلفة ,وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت ,وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها فى الحرب..

لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف ,أن لم تكن أصعب منها بكثير.. تركوا المدينة فى موسم نضج ثمارها ,وقطعوا مسافات طويلة شاقى فى صحراء شبه الجزيرة صيفا ,وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة ,وكلام عمر رضى الله عنه السابق ديل على ذلك.

٣- المسير الليلى (السرى): قطع المسلمقن أكثر المراحل بين المدينة وتبوك ليلا ليتخصلوا من الحر الشديد.. أن الحركة ليلا فى موسم الحر ضرورية جدا ,خاصة فى الصحراء ,وهذا ما تطبقه الجيوش الحديثة فى العصر الحاضر.

٤- الضبط: أن اقبال المسلمين على الانخراط بجيش العسرقوتحملهم المشقات بنفس راضية قانعة ,يدل على مبلغ الضبط العالى الذى وصلوا إليه.

أن الضبط أساس الجيش ,ولا ينجح الجيش الذى لا يتحلى بالضبط فى أمة معركة مهما يكن عدده كثيرا وسلاحه مؤثرا ,واذا كان هناك فرق واضح بين العسكريين والمدنيين فهو الضبط الذى يتمسك به العسكريون قبل كل شىء.. أن اطاعة المسلمين لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم - الذى هو قائدهم الأعلى - فى هجر المتخلفين دليل على ضبطهم المتين، وأى ضبط هذا الذى جعل أمر القائد ينفذه أهل المتخلف نفسه حتى زوجه وأولاده بشكل أدى وأعنف مما ينفذه الغرباء عنه. وهو فى محنته القاسية التى تستدر العطف والاشفاق من الناس جميعا ,ولكن هذه الأوامر كانت للمصلحة العامة ,والمسلمون كلهم جنود مخلصون لهذه المصلحة.

٥- المعلومات: لقد كنت استخبارات الروم عن حركات المسلمين ونواياهم قوية جدا وكانوا يستخدمون النبط الذين يتاجرون مع المدينة وبعض أفراد القبائل العربية الموالية لهم فى نقل المعلومات إليهم عن المسلمين.. لقد رأيت كيف عرف ملك غسان الموالى للروم أمر غضب الرسول صلى لله عليه وسلم وغضب المسلمين على كعب بن مالك لتخلفه عنهم يوم تبوك, وكيف أرسل إليه الرسالة يعرض عليه فيها الالتحاق بالغساسنة ,فإذا استطاع الروم وأحلافهم

الاطلاع على مثل هذه القضية الشخصية فمن المؤكد أنهم استطاعوا الاطلاع على القضايا المهمة ,خاصة القضايا التى لها تأثير على الموقف العسكرى حين ذاك..

لقد كانت عيون الروم منتشرة فى المدينة لاحصاء حركات المسلمين وسكناتهم ,وتزويد الروم بكل ذلك ,ولم يكن المسلمون غافلين عن حركات الروم ,فقد استطاعوا معرفة تحشدات قطاعاتهم ومواضع تلك التحشدات ونواياهم مبكرا وبصورة مفصلة ,مما جعلهم يتحركون إلى تبوك للقضاء على قوات الروم قبل أن يستفحل أمرها وتتعرض للحدود الإسلامية.

٦- المعنويات: يمكن اعتبار غزوة تبوك معركة معنويات لا معركة ميدان ,لم يستطع المسلمون الاصطدام بجيوش الروم ,لانسحاب جيوشهم من منطقة تحشدها فى تبوك ,بعد أن وصلتهم معلومات وثيقة عن قوة المسلمين ماديا ومعنويا ,ومع ذلك فقد انتصر المسلمون على الروم انتصارا معنويا لا يقل أهمية عن الإنتصار المادى فى القتال ,وبذلك ارتفعت معنوياتهم تجاه الروم وبذلك ارتفعت معنوياتهم تجاه الروم وبذلك تحققت الأمور الآتية:

أ - لم يكن العرب يحلمون قبل الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم يستطيعون صد اعتداء الروم عليهم فى عقر دارهم ,فأصبحوا يعتقدون بعد تبوك أن فى مقدورهم محاربة الروم فى بلاد الروم نفسها والقضاء على جيوشهم هناك.

ب - قضى انتصار المسلمين المعنوى على الروم قضاء تاما على تردد المتخلفين عن الإسلام من العرب.. فإذا كانت قوات المسلمين تهدد الروم فى عقر دارهم، فكيف تستطيع قوات القبائل العربية الصمود تجاه تلك القوات؟ لذلك أقبلت وفود أكثر تلك القبائل إلى المدينة بعد عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبوك إليها معلنة إسلامها ,وأقبل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ,ولهذا سمي هذا العام بعام الوفود.

ج- استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم تنظيم نقاط ارتكاز على الحدود الشمالية التى تربط شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام الخاضعة للروم ,وذلك بعقد المحالفات مع سكان تلك المنطقة وإقبال بعضهم على الإسلام.. أن نقاط الارتكاز هذه سهلت مهمة الفتح الإسلامى على عهد الخلفاء الراشدين ,فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال ,وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم. (٤٥)

ثانيا: الناحية الفقهية والفوائد الحكمية:

١- تصريح الإمام للرعية واعلامهم بالأمر الذى يضرهم ستره واخفاؤه ,ليتأهبوا له ويعدوا له عدته ,وجواز ستر غيره عنهم والكتابة عنه للمصلحة.

٢- أن الإمام اذا استنفر الجيش لزمهم النفير ,ولم يجز لأحد التخلف الا بأذنه ,ولا يشترط فى وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه ,بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه ,وهذا أحد المواضع الثلاثة التى يصير فيها الجهاد فرض عين ,والثانى اذا حضى العدو البلد -كعالمنا اليوم - والثالث اذا حضر بين الصفين.

٣- وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس ,قال صلى الله عليه وسلم: "من جهز غازيا فقد غزا" (٤٦) اذ لا يتم الجهاد بالبدن الا ببذل المال.

٤- أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه كما وقع من البكائين.

٥- استخلاف الإمام اذا سافر رجلا من الرعية على الضعفاء والمعذورين والنساء ,ويكون نائبه من المجاهدين ,لأنه من أكبر العون له ,وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف ابن أم مكتوم فاستخلفه بضع عشرة مرة ,وأما فى هذه الغزوة فالمعروف عند أهل الأثر أنه استخلف على بن أبى طالب كما فى الصحيحين.. ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله صلى الله عليه وسلم ,واما الاستخلاف فكان لمحمد بن مسلمة الانصارى.

٦- جواز الخرص للرطب على رؤوس النخل وأنه من الشرع ,والعمل بقول الخارص ,وأن الإمام يجوز أن يخرص بنفسه كما خرص رسول الله صلى الله عليه وسلم حديقة المرأة.

٧- أن الماء الذى بآبار ثمود لا يجوز شربه ولا الطبخ منه ولا العجن به ولا الطهارة به.

٨- أن من مر بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يقيم بها بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزهم ,ولا يدخل عليهم الا باكيا معتبرا.

٩- أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الصلاتين فى السفر ,وقد جاء جمع التقديم فى هذه القصة ,ولم يجئ عنه فى سفر الا هذا.

١٠- جواز التيم بالرمل فإن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قطعوا الرمال التى بين المدينة وتبوك ,ولم يحملوا معهم ترابا بلا شك ,وتلك مفاوز معطشة ,وقطعا كانوا يتيممون من الأرض التى هم فيها نازلون.

١١- أنه صلى الله عليه وسلم أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ,ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة اذ أقام أكثر من ذلك ,ولكن اتفق اقامة هذه المدة ,وهذه الاقامة فى حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أم قصرت اذا كان غير مستوطن ولا عازم على الاقامة بذلك الموضع.. قال ابن المنذر فى اشراقه: أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر مالم يجمع اقامة وأن أتى عليه سنون.

١٢- جواز بل استحباب حنث الحالف فى يمينه اذا رأى غيرها خيرا منها ,فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير كما فى حديث أبى موسى.

١٣- انعقاد اليمين فى حال الغضب اذا لم يخرج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول.

١٤- قوله صلى الله عليه وسلم "ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم" قد يتعلق به الجبرى، ولا متعلق له به، وأنما هذا مثل قوله: "وأنما أنا قاسم وأضع حيث أمرت) فإنه عبدالله ورسوله، أنما يتصرف بالأمر، فالله هو المعطى والمانع والحامل، والرسول منفذ لما أمر به.

١٥- تركة قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق اذا أظهر التوبة، لأنه حلفوا للرسول صلى الله عليه وسلم أنهم ما قالوا، وهذا اذا لم يكن انكارا فهو توبة واقلاع، وقد قال أصحابنا وغيرهم: ومن شهد عليه بالردة فشهد أن لا آله إلا الله وأن محمدا رسول الله لم يكشف عن شيئ بعد. وقال بعض الفقهاء اذا جحد الردة كفاه جحدها، ومن لم يقل بتوبة الزنديق قال: هؤلاء لم تقم عليهم بينة، ورسول الله صلى الله عليه

وسلم لايحكم عليهم بعلمه، والذى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم قولهم لم يبلغه اياه نصاب البينة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زين بن الأرقم وحده على عبدالله بن أبى، وكذلك غيره أيضا أنما شهد عليه واحد..

وفى هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبدالله بن أبى وأقواله فى النفاق كانت كثيرة جدا كالمتواترة عند النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وبعضهم أقر بلسانه، وقال: "أنما كنا نخوض ونلعب" وقد واجهه بعض الخوارج فى وجهه بقوله: أنك لم تعدل، والنبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له: أنك لم تعدل، والنبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل: ما قامت عليهم بينة، بل قال: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".

فالجواب الصحيح اذن: أنه كان فى ترك قتلهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مصلحة تضمن تأليف القلوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع كلمة الناس عليه، وكان فى قتلهم تنفير، والإسلام بعد فى غربة، ورسول الله أحرص شيئ على تأليف الناس، واترك شيئ لما ينفرهم عن الدخول فى طاعته، وهذا أمر كان يختص بحال حياته صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم، وكذلك ترك قتل من طعن عليه فى حكمه بقوله: أن كان ابن عمتك؟ وفى قسمه بقوله: أن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقول الآخر له: أنك لم تعدل، فإن هذا محض حقه، له أن يستوفيه وله أن يتركه، وليس للأمة بعه ترك استيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه.

١٦- أن أهل العهد والذمة اذا أحدث منهم حدثا فيه ضرر على الإسلام انتقض عهده فى ماله ونفسه، وأنه اذا لم يقدر عليه الإمام فدمه وماله هدر، وهو لمن أخذه، كما قال فى صلح أهل أيلة: "فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس" وهذا لأنه بالأحداث صار محاربا، حكمه حكم أهل الحرب.

١٧- جواز الدفن بالليل، كما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا النجادين ليلا، وقد سئل أحمد عنه فقال: وما بأس ذلك، وقال: أبو بكر دفن ليلا، وعلى دفن فاطمة ليلا، وقالت عائشة: سمعنا صوت المساحى فى آخر الليل فى دفنه النبى صلى الله عليه وسلم، ودفن عثمان وعائشة وابن مسعود ليلا.

١٨- قوله صلى الله عليه وسلم: أن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرة ولاقطعتم واديا الا كانوا معكم "فهذه المعية هى بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنه طائفة من الجهال أنهم معهم بأبدانهم، فهذا محال، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة حبسهم العذر" وكانوا معهم بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع: وهى القلب واللسان والمال والبدن، وفى الحديث: "جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم".

١٩- الظاهر من الأحاديث والآيات المساواة فى الأجر بين المنفذ للطاعة والمعذور، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" وقوله: "من توضأ وخرج إلى

الصلاة فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها" وقوله: "اذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ماكان يعمله وهو صحيح مقيم "وهو ظاهر قوله تعالى: "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" وبدليل أن النية الصادقة هى أصل الأعمال، متى صحت فى فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بعد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام، "نية المرء خير من عمله" ويشهد لذلك حديث الباب الذى معنا" أن بالمدينة اقواما..

٢٠- جواز انشاد الشعر للقادم فرحا وسرورا به مالم يكن معه لهو من محرم كمزمار وعود ولم يكن غناء يتضمن رقية الفواحش وما حرم الله فهذا لا يحرمه أحد.

وفى قصة الثلاثة الذين خلفوا من الحكم والفوائد الجمة الكثير نشير إلى بعضها:

١- جواز أخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره فى طاع الله ورسوله، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره، وفى ذلك التحزير والنصيحة وبيان طرق الخير والشر وما يترتب عليها ماهو من أهم الأمور.

٢- جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير اذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

٣- تسلية الإنسان نفسه بما فيه من الخير اذا لم يكن على سبل الفخر والترفع.

٤- أن بيعة العقبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة حتى أن كعبا كان لا يراها دون مشهد بدر.

٥- أن الإمام اذا رأى المصلحة فى أن يستر عمن رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو ويورى به عنه استحب له ذلك أو يتعين بحسب المصلحة.

٦- أن الستر والكتمان اذا تضمن مفسدة لم يجز.

٧- أن الجيش فى حياة النبى لم يكن له ديوان، وأن أول من دون الديوان عمر بن الخطاب.

٨- أن الرجل اذا حضرت له فرصة القربى والطاعة فالحزم كل الحزم فى انتهازها والمبادرة إليها، والعجز فى تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما اذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض.

٩- أنه لم يكن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أ‌حد رجال ثلاثة: أما مغموص عليه فى النفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو من خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة.

١٠- أن الإمام المطاع لا ينبغى له أن يهمل من تخلف عنه فى بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويثوب، فإن النبى قال بتبوك(ما فعل كعب؟) ولم يذكر سواه من المتخلفين استصلاحا له ومراعاة، واهمالا للقوم المنافقين.

١١- جواز الطعن فى الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية أو ذبا عن الله ورسوله ومن هذا طعن أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواد، ومن هذا طعن ورثة الانبياء وأهل السنة فى أهل الأهواء والبدع لله لا لحظوظهم وأغراضهم.

١٢- جواز الرد على الطاعن اذا على ظن الراد أنه وهم وغلط، كما قال معاذ للذى طعن فى كعب: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيرا، ولم ينكر رسول الله على واحد منهما.

١٣- أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته فيصلى فيه ركعتين، ثم يجلس للمسلمين عليه، ثم ينصرف إلى أهله.

١٤- أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، وبكل سريرته إلى الله، ويجرى عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره.

١٥- ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحدث حدثا تأديبا له وزجرا لغيره، فإنه صلى الله عليه وسلم لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتهم المغضب.

١٦- أن التبسم قد يكون عن الغضب كما يكون عن التعجب والسرور.

١٧- معاقبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه، فإنه عاقب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه.

١٨- توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا فى العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة.. فمرارات المبادئ حلوات فى العواقب، وحلوات المبادئ مرارات فى العواقب.

١٩- قول النبى صلى الله عليه وسلم لكعب (أما هذا فقد صدق) دليل ظاهر فى التمسك بمفهوماللقب عند قيام قرينة تقتضى تخصيص المذكور بالحكم، كقوله تعالى: (وداودوسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فية غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان).

٢٠-ان الرجل ينبغى له أن يردحر المصيبة بروح التآسى بمن لقى مثل مالقى هو، لقول كعب: هل لقى هذا معى أحد؟.

٢١-وفى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلام هولاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه، دليل على صدقهم وكذب الباقين.. فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لايعمل فى مرض النفاق ولافائدة فيه..وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده فى عقوبات جرائمهم، فيوءدب عبده الموءمن الذى يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة،فلا يزال مستيقظا حذرا، وأما من سقط من عينه وهان عليه فأنه يخلى بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامتة عليه، ولايعلم أنذلك عين الاهانة، وانة يريد به العذاب الشديد والعقوبةالتى لاعاقبة معها ، كما فى الحديث المشهور(اذاأرادالله بعبد خيراعجل له عقوبته فى الدنيا، واذاأراد بعبد شراأمسك عنه عقوبته فى الدنيا، فيرد القيامة بذنوبه)

٢٢-وفيه دليل أيضا على هجران الامام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون

هجرانه دواء له ، بحيثلايضعف عن حصول الشفاء به، ولايزيد فى الكمية والكيفية عليه فيهلكه، اذالمراد تأديبه لااتلافه.

٢٣-قوله (حتى تنكرت لى الآرض فما هى بالتى أعرف) هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم فى الأرض وفى الشجر والنبات حتى يجده فيمن لايعلم حاله من الناس، ويجده فى نفسة أيضا المذنب العاصى بحسب جرمه، حتى بجده فى زوجته وولدة وخادمه ودابته، ويجدة فى نفسه أيضا ، فتنكر له نفسة حتى ماكأنه هوولاكأن أهله وأصحابه ومن يشفق عليه بالذين يعـــرفـــهم، وهذاســـر من الله لايخـــفى على من هو مــــيت القلب.. ومن المعلوم أن هـذا التنكروالوحشة كان لآهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون بد، وهكذا القلب اذا استحكم مرضه وأشتد ألمه بالذنوب والاجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر ولم يحس بها، وهذه علامة الشقاوة.

٢٤- قوله(هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟) فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب، اذ لو وجب الرد لم يكن بد من اسماعه.

٢٥- قوله (تسورت حائط آبى قتادة) فيه دليل على دخول الانسان دار صاحبه وجاره اذا علم رضاه بذلك وان لم يستأذنه .

٢٦- فى قول ابى قتادة له (الله ورسوله أعلم) دليل على أنه ليس بخطاب ولاكلام له، فلو حلف لايكلمه فقال مثل هذا الكلام جوابا له لم يحنق، ولا سيما اذا لم ينوبه مكالمته، وهو الظاهر من حال أبى قتادة.

٢٧- (فتيممت بالصحيفة التنور) فيه المبادرة إلى اتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة فى الدين، وأن الحازم لا ينتظره به ولا يؤخره.

٢٨- ومن فقه هذه القصة: أن زمن العبادات ينبغى فيه تجنب النساء كزمن الاحرام وزمن الاعتكاف وزمن الصيام.. فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون فى هذه المدة فى حق هؤلاء بمنزلة أيام الاحرام والصيام فى نوفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمة بهم وشفقة عليهم.

٢٩- وفى سجود كعب حين سمع صوت المبشر، دليل ظاهرا أن تلك كانت عادة الصحابة، وهى سجود الشكر عند النعم المتجددة والنقم المندفعة.

٣٠- وفى استباق صاحب الفرس والراقى على سلع ليشرا كعبا، دليل على حرص القوم على الخير واستباقهم إليه، وتنافسهم فى مسرة بعضهم بعضاً.

٣١- وفى نزع كعب ثوبه واعطائهما للبشير، دليل على أن اعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم وعادة الأشراف.

٣٢- وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينه والقيام إليه إذا أقبل ومصافحته.

٣٣- وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الاطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله وقبول الله توبته، لقوله صلى الله عليه وسلم (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك).

٣٤- وفى سروره صلى الله عليه وسلم بذلك واستنارة وجهه، دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة والرحمة بهم.

٣٥- قوله.(أن من توبتى أن انخلع من مالى) فيه دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

٣٦- عظم مقدار الصدق وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به.

٣٧- فيه فضل التوبة وقدرها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، ولا يعرف هذا حق معرفته الا من عرف الله وحقوقه وما ينبغى له(٤٧).

الهوامش

١) سورة النور ٣١

٢) سورة الانفال ٤١

٣) التوبة ٤٢

٤) تبوك: مكان معروف فى منتصف الطريق بين المدينة المنورة ودمشق تقريبا، وقالوا: إن بينها وبين المدينة ١٤ مرحلة، وبينها وبين دمشق ١١ مرحلة، وهذا قريب مما ثبت بالقياس العصرى، فالمسافة من الشام إلى تبوك ٦١٠ كم وإلى المدينة المنورة ١٣٠٢ك.م فتكون المسافة من المدينة إلى تبوك ٦٩٢ ك.م. واللفظ ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث على الأشهر.

٥) من كتاب التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للغزالى

٦) التوبة ٣٩

٧) لأن شهر رجب الذى بدأت فيه الغزوة وافق فى تلك السنة برج الميزان (وكان أوله ١٤ تشرين الأول أكتوبر) وأن عبر عنه بعضهم بالصيف، وروى ابن جرير عن مجاهد فى تفسير آية (ما لكم إذا قيل لكن انفروا..) قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين وبعد الطائف بأمرهم بالنفير فى الصيف حين اخترفت النخل-الاختراف اجتناء الثمر- وطابت الثمار واشتهوا الظلال. وشق عليهم المخرج. ج١٤ ص٢٥٣ تفسير الطبرى.

٨) هذا التعبير خطأ، فإنه إنما كان يكنى للتعمية، والأخبار تصريح، وما كان يخبر بغير الحق.

٩) التوبة ٨١، ٨٢

١٠) التوبة ٤٩

١١) التوبة ٤٢

١٢) ضعيف بهذا اللفظ رواه ابن هشام (٢/٢١٦) باسناد معضل، وقد رواه ابن شاهين فى كتابه (شرح مذاهب أهل السنة) "ج١٨ رقم ٢٣ من نسختى" من حديث عائشة لكن فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لهذا فى مناسبة أخرى. وسنده ضعيف جدا، بل موضوع وإنما قال صلى الله عليه وسلم بمناسبة جيش العسرة:
(ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم) رواه ابن شاهين رقم ٣ والحاكم، ووافقه الذهبى! وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير فى تاريخه (٦/٥)، وآخر عند ابن شاهين (رقم ١٦)

١٣) وهكذا رواه الترمذى عن محمد بن يسار عن أبى داود الطيالسى، عن سكن بن المغيرة أبى محمد مولى لآل عثمان به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البيهقى من طريق عمرو بن مرزوق عن سكن ابن المغيرة به، وقال: ثلاث مرات وأنه التزم بثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها.

١٤) من طريق يحيى بن أبى كثير، ومن طريق سعيد بن قتاده

١٥) من طريق الحكم بن ابان عن عكرمة

١٦) يرجع إلى تفصيل خبرهم فى نهاية الربع السادس أى فى قرب نهاية الفصل الرابع من الباب الثالث

١٧) رواه البخارى ومسلم بلفظه ومعناه

١٨) صحيح ذكره ابن اسحق فى المغازى بدون اسناد، وقد ورد مسندا موصولا كما ذكره الحافظ فى الإصابة

١٩) أى انتظر عليه

٢٠) أى فى حديقته

٢١) أى الشمس

٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩٦

٢٣) قال الشيخ محمد ناصر الدين الالبانى فى تعليقه على فقه السيرة: ذكره ابن كثير فى التاريخ (٩/٤) من رواية عبدالله بن وهب بسنده عن ابن عباس، ثم قال: "اسناده جيد) وهو عندي غير جيد لأنه من رواية عتبه بن أبي عتبه. وقد ذكره الحافظ فى "اللسان" (١٢٩/٤) وذكر أن العقيلى أورده فى "الضعفاء" ثم ساق له حديثين ثم قال: "ولا يتابع على الحديثين جميعا" نعم قد أورد الحديث الهيثمى فى "المجمع" (١٩٤/٦ - ١٩٥) ثم قال: "رواه البزار والطبرانى فى الأوسط: "رجال البزار ثقات" فإذا صح هذا. فالحديث حسن إن شاء الله أو صحيح.

"وذكره ابن كثير فى التفسير ج٢ ص. ٣٩٦"

٢٤) تفسير الطبرى ج١٤ ص٥٣٩

٢٥) زاد المعاد ج٣ ص٣

٢٦) صحيح أخرجه أحمد (رقم ٥٢٢٥، ٥٣٤٢، ٥٤٠٤، ٥٤٤١، ٥٦٤٢، ٥٧٠٥، ٥٩٢١، ٤٥٦٢) من حديث ابن عمر وهذا أحد ألفاظه! وأخرجه البخارى (١٠٢/٧) ومسلم (٢٢١/٨) نحوه.

٢) فى المسند (٢٩٦/٣) من طريق عبدالله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر. وقال الحافظ بن كثير فى تاريخه (١١/٥): "اسناده صحيح" وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه (٢٤٠/٢-٢٤١) ووافقه الذهبى. واقتصر الحافظ فى "الفتح" (٢٩٤/٦) على تحسينه، وهذا أقرب. وفى كل ذلك من رواية الليث بن سعد عنه وهذه ليست منها! وقد قال الذهبى: "وفى صحيح مسلم عدة أحاديث لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر ولا هى من طريق الليث منه. ففى القلب منها شيئ" قلت: فكيف يصح أذن ما ليس منها فى صحيح مسلم كهذا!؟

٢٧) زاد المعاد ج٣ ص٧

٢٨) زاد المعاد ج٣ ص٥

٢٩) قال ابن القيم فى زاد المعاد ج٣ ص٣، ١٤: وأقام بها ٢٠ ليلة يقصر الصلاة

٣٠) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما

٣١) صحيح أخرجه البخارى

٣٢) رواه البخارى

٣٣) قال ابن هشام: ويقال مخشى ج٢ ص٣١٩ سيرة ابن هشام

٣٤) وهو الحبل يشد على بطن البعير

٣٥) زاد المعاد ج٣ ص٤

٣٦) لم أجد هذا فيما رواه ابن هشام عن ابن اسحق فى السيرة

٣٧) ضعيف رواه ابن هشام عن ابن اسحق بدون اسناد، ولكن ذكره ابن كثير فى التفسير عن ابن اسحق عن الزهرى وغيره مرسلا.

٣٨) تقدم ذكر خبر مسجد الضرار مفصلا عند شرح الآيات التى نزلت بشأنه فى آخر الربع السابع من السورة أى فى الفصل الثانى الذى عقد بعنوان مسجد الضرار من (باب بين الأبواب)

٣٩) وفى رواية: ولم أقض من جهازى شيئا، وقلت اتجهز بعد يوم أو يومين ثم الحقه فغدوت يوم ما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى انتهوا أو تفارط الغزو.

٤٠) فى رواية: لأرجو فيه عفو الله عنى

٤١) فى رواية: فاتبعونى يؤنبوننى

٤٢) هذا الوضع مما عد من أوهام الزهرى، فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازى والسيرالية ذكر هذين الرجلين فى أهل بدر: لا ابن اسحق، ولا موسى بن عقبة ولا الأموى، ولا الواقدى ولا أحد ممن عد أهل بدر، وكذلك ينبغى ألا يكونا من أهل بدر. فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يهجر حاطبا ولا عابه، وقد جس عليه، وقال لعمر لما هم بقتله: "وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وأين ذنب التخلف من ذنب التجسس، قال أبو الفرج بن الجوزى: ولم أزل حريصا على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهرى، وذكر فضله محفظه واتقانه وإنه لا يكاد يحفظ عليه غلط الا فى هذا الموضوع وأنه قال: إن مرارة بن الربيع وهلال بن أمية شهدا بدرا، وهذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه إنسان. قال ابن كثير فى التفسير: قيل أنه خطأ من الزهرى فإنه لا يعرف شهودوا حد من هؤلاء الثلاثة بدرا، يراجع ابن كثير فى التفسير ج٢ ص. ٣٩٩ وأقول: إن ما نقله ابن كثير لا يترتب عليه تخطئة الزهرى فحسب، بل يترتب عليه أما تخطئة كعب حيث قال: قد شهدا بدرا، وهما لم يشهداها، واما تلفيق الزهرى وزيادته على كعب كلاما لم يقله، وليس فى الحديث ما يدل على أن هذا القول من مدرجات الزهرى.

٤٣) ويقرب معناه من قوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه "أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من غضبك، وأعوذ بك منك"

٤٤) يقصد بكلمة دفاعية المعنى الواسع الذى ذكر من قبل فى تفسير هذه الكلمة من جهة مدرسة المتشددين من الفصل الثانى، الباب الأول.

٤٥) من كتاب الرسول القائد للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٣٩٩-٤١٠

٤٦) رواه البخارى

٤٧) من زاد المعاد ج٣ ص١٣-٢٥ بتصرف

الفصل الرابع

توجيهات جهادية مختلفة

العرض العام - الدعوة إلى التقوى والصدق - لوم وعتاب - جزاء الجهاد - توزيع الجهود بين الجهاد وشئون الحياة - الفقه وليد الحركة لا القعود - أما اليوم فماذا؟ - فقه مفصل لا جاهز - ما يؤخذ من قواعد الحرب - قتال الأقرب فالأقرب - خطة حركة ومداها - من حقائق المتشددين - لفتة موقفة - غلظة ولكن فى حدود، وشدة تكتنفها قيود - صورتان متقابلتان لتلقى آيات الله - صورة مشرقة ذات ظلين - صورة قاتمة ذات شعبتين - زيادة الإيمان - صفات الرسول القائد وتوجيهات له - مدى اهتمام هذه الصورة بشخص رسول الله.

فى هذا الفصل تتمة لما سبق فى السورة وبخاصة الحث على الجهاد وبيان فضله وفضل التقوى والصدق والتفقه فى الدين تعلما وتعليما.

ولما كان الحال فى غزوة تبوك عصيبا وكان الأمر يقتضى جهاد كل مؤمن قادر، فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة فى سبيل الله أمرا عظيما، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياه الصدق والعزم بعد التردد والتخلف، فتاب عليهم رحمة منه وفضلا، ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة فى أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، أولئك القريبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية، ومركز الانطلاق الإسلامى، واستنكار لما وقع منهم من تخلف، مع بيان ثمن الصفقة فى كل خطوة وكل حركة فى تكاليف البيعة.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون)

ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد بيان لحدود التكليف بالنفير العام وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد، وأصبح فى الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه فى الدين، ويبقى البعض للقيام بحاجيات المجتمع كل من توفير للأزواد ومن عمارة الأرض، ثم تتلاقى الجهود فى نهاية المطاف.. (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

وفى الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية - بعدما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه - وأصبح الخط يتجه إلى قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون كله لله، وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وأعلموا أن الله مع المتقين).

وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركى.. يعرض السياق مشهدا! من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموحيات الإيمان القلبية، وبالتكاليف والواجبات العملية، ويندد بالمنافقين الذين لا تهديهم التوجيهات والآيات، ولا تعظهم النذر والابتلآت، وتصور حالهم الشنيعة بأنه قذر جديد يضم إلى قذرهم السابق ,وكفر آخر يزاد إلى كفرهم القديم؟ وقد تسللوا لواذا وانفلتوا تباعا على الرغم من ابتلائهم المتكرر.. (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زاد ته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزارتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، أو لا يرون أنهم يفتتون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون، ولاهم يذكرون وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون).

ويختم الفصل.. وتختم معه السورة بآيتين تبينان الصفات العالية لهذا القائد المظفى، وذلك الداعى إلى الله تعالى، وتصوران طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ورحمته.. تلك الصفات التى مكنته من الانتصار فى جميع الميادين المختلفة على سائر خصوم الإسلام التى تحدثت عنهم السورة.. مع توجيهه صلى الله عليه وسلم إلى الاعتماد على الله وحده والاستغناء عن المعرضين الذين لا يهتدون.. (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لمحتويات هذا الفصل الأخير فى السورة وما قبله من الفصول فى هذا الباب يتجلى مدى التركيز على الجهاد، وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة، وعلى الانطلاق بهذا الدين فى الأرض - وفقا للبيعة على النفس والمال، بالجنة للقتل والقتال - لتقرير حدود الله والمحافظة عليها.. أى لتقرير حاكمية الله للعباد، ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية! وبحسبنا هذه الإشارة فى هذا التقديم المجمل للفصل الأخير، لنواجه نصوصه بالتفصيل والله حسبى ونعم الوكيل.

الدعوة إلى التقوى والصدق

فى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا، وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا، يجئ الهتاف للذين آمنوا جميعا أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة.. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه وإتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة، وتجنب حدوده وترك ما نهى عنه وبين تحريمه مطلقا (وكونوا مع الصادقين) مع جماعة الصادقين أو منهم، دون المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف، وهذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة الذين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، ولذا روى أنها نزلت فى كعب وصاحبيه بما صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينتحبوا لأنفسهم عذرا كاذبا فى التخلف عن النفير، والصادقون:

١- هم الذين خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وغيرها، ولم يكونوا من المنافقين المتخلفين.. أى كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم.

٢- أو هم الأنبياء.. أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة، ولم ير الطبرى غيره إذ قال: (وكونوا فى الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة.. يعنى مع من صدق الله الإيمان به فحقق قوله بفعله ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذب قبلهم فعلهم، وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين فى الآخرة باتقاء الله فى الدنيا، كما قال جل ثناؤه: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين)[١].

٣- أو هم المراد بقوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم إلى قوله - أولئك الذين صدقوا)[٢].

٤- أو هم الموفون بم عاهدوا، لقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[٣]

٥- أو هم المهاجرون، لقول أبى بكر يوم السقيفة أن الله سمانا الصادقين فقال: (للفقراء المهاجرين - الآية - ثم سماكم بالمفلحين فقال: (والذين تبوأوا الدار والإيمان). [٤]

٦- أو هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم واعتصموا بالصدق والإخلاص فى جهادهم إذا جاهدوا، وفى عهودهم إذا عاهدوا، وفى أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا وفى توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا، والمنافقون ضدهم فى ذلك وغيره.. وهو أشمل مما تقدمه وأعم.

فحق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق فى الأقوال، والخلاص فى الأعمال، والصفاء فى الأحوال.. فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضى الغفار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وأن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل بصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجوز، وأن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[٥].

وسئل صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا؟ قال (نعم) أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: (نعم) أيكون المؤمن كذابا؟قال: (لا) وقال مطرف" سمعت مالك بن أنس يقول: قل ما كان رجلا صادقا لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخوف.

والكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره، فإن القبول مرتبة عظيمة، وولاية شريفة، لا تكون إلا لمن

كملت خصاله، ولا خصلة هى أشر من الكذب، فهى تعزل الولايات وتبطل الشهادات. قال صلى الله عليه وسلم: (أن المؤمن قد يطبع على كل خلق إلا الكذب والخيانة) وعن ابن مسعود قال: إن الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه شيئا ثم لا ينجزه وتلا هذه الآية، هل ترون فى الكذب رخصة؟ وقال مالك: لا يقبل خبر الكاذب فى حديث الناس وأن صدق فى حديث رسول الله.. وروى - كما قال الرازى[٦] أن واحدا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: إنى رجل أريد أن أؤمن بك إلا أنى أحب الخمر والزنا والسرقة الكذب، والناس يقولون: أنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لى على تركها بأسرها، فإن قنعت منى بترك واحد منها آمنت بك، فقال عليه السلام: (اترك الكذب) فقبل ذلك ثم أسلم، فلما خرج من عند النبى عرضوا عليه الخمر فقال: أن شربت وسألنى الرسول عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وأن صدقت أقام الحد على، فتركها، ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا فى السرقة، فعاد إلى رسول الله وقال: ما أحسن ما فعلت، لما منعتنى من الكذب انسدت أبواب المعاصى على، وتاب عن الكل.

فالآية دالة:

١- على فضل الصدق وكمال درجته.

٢- وعلى أن الإجماع حجة، لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قولهم.

٣- واستدل بها - كما قال الجلال الاسيوطى - من لم يبح الكذب فى موضع من المواضع لا تصريحا ولا تعريضا، وأيد ذلك بكلام ابن مسعود السابق، والحق أباحته فى مواضع، فقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها) وكذا إباحة المعاريض، لقول رسول الله (أن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب) وفى رواية: (ما يغنى الرجل العاقل عن الكذب)[٧]

لوم وعتاب

إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة، فهم أهلها الأقربون، وهم بها ولها، وهم الذين آووا رسول الله وبايعوه، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت، وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة... فهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه.. وحين يخرج رسول الله فى الحر أو البرد، فى الشدة والرخاء، فى اليسر والعسر، ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعبائها، فأنه لا يحق لأهل المدينة.. أصحاب الدعوة.. ومن حولهم من الأعراب.. وهم قريبون من شخص رسول الله.. ولا عذر لهم فى إلا يكونوا قد علموا - أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله.. من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين الذين لم يتخلفوا، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع.. وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين أتبعوهم

بإحسان.. ثم بعد هذا الهتاف يستنكر مبدأ التخلف عن رسول الله.. (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الإعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أن الجهاد فى سبيل الله أعلى شعبة فى الإيمان، وأقدس عمل يقوم به الفرد، ليرد عادية العد وعن وطنه الإسلامى، وليرسى قواعد الحق والعدل، والجهاد مع الرسول شرف كبير وسمو عظيم، فما كان بالذى يصح أن ينبغى لأهل المدينة سكان عاصمة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا بالذى يستقيم أو يحل حولهم من الأعراب المجاورين لهم.. كزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم [8] (أن يتخلفوا عن رسول الله) [9] إذا خرج غازيا فى سبيل الله، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك، ولا فى غير هذا من أمور الملة ومصالح الأمة، وليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه، ولا يصرفوها عن نفسه الكريمة فيصونوها عما لم يصنها عنه، ويرغبوا بإيثار راحتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية من احتمال الجهد والمشقة فى سبيل الله.. بل عليهم أن يكابدوا ما يكابد هو من الشدائد فهم أعلم الناس بقوله صلى الله عليه وسلم (لا يكمل إيمان المرء حتى أكون أحب إليه من نفسه ومال).

لقد أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض فى شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يجترث لها أصحابها، ولا يقيمون لها وزنا، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وفى التعبير تأنيب خفى، فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو يصاحبه! وهذا نهى بليغا من تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية.

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل، فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة، وهو يزعم أنه صاحب دعوة، وأنه يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم! وتلحق أيضا كل راغب عن سنته وعن الإقتداء به: كالملاحدة الذين يقولون: لا يجب إتباعه بعد موته، والمبتدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبم على سنته.

جزاء الجهاد

إن الحرص على بذل الجهد لإعلاء كلمة الله، وأن الجهاد وعدم النكوص لنشر منهج رسول الله، هو الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله، فضلا عن الأمر الصادر من الله - ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه! (ذلك بأنهم لا يضيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدد ونيلا إلا كتب لهم به عمل صالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون)..

ذلك النهى عن التخلف عنه ووجوب الإتباع له، بسبب أن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى وأن قل، ومن إيذاء للعدو وأن صغر، فهو عمل صالح لهم به أكبر الأجر..

فلا يصيبنهم ظمأ لقلة الماء، أو نصب لبعد الشقة أو قلة الظهر، أو مجاعة لقلة الزاد فى سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، ولا ينزلون منزلا يرهب الكفار ويغضبهم ويضيق صدورهم لأنه من دارهم، ويعدون وطأة اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم، فيغيظيهم أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم - ومثله انتهاك مجالهم الجوى أو سيادتهم البحرية أو أن تجوس عجلات الدبابات خلال ديارهم، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم؟ ولا يصيبون من عدو الله وعدوهم شيئا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ولا يبلغون منهم شيئا مما أرادوا من جرح أو قتل أو أسر أو هزيمة.. إلا كتب الله لهم بذلك كله ثواب عمل صالح قد ارتضاه[١٠]، أن الله لا يدع محسنا من خلقه.. أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهى عنه، إلا أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله.. والجهاد فى سبيل الله إحسان.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فى كل زمان ومكان. فما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تعم الأمور العارضة كالجوع والعطش، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم، ومنها الأعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هى ناشئة عن أفعالهم.

كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أم كبر، قل أم كثر، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين لا يترك شيئا، بل يكتب لهم أجر عملهم ذلك، ليجزيهم الله - بكتابته فى صحف أعمالهم - أحسن ما كانوا يعملون.. وهو الجهاد، فإنه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون أحسن العمل، إذ يتوقف عليه حفظ الإيمان وملك الإسلام وجميع ما يتبعهما من فضائل الأعمال.

وقال بعضهم - منهم الطبرى: إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر أحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التى كانوا يعملونها، وهم مقيمون فى منازلهم.. أى فى غير الجهاد بالمال والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من المبرات، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات[١١] وعن قتادة ما ازداد قوم فى سبيل الله بعدا عن أهليهم إلا ازدادوا قربا من الله.

وقال الأوزاعى وابن المبارك: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصيب جزاء، وعلى الجوع جزاء، وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء، وعلى كل نيل من العد وجزاء، يكتب به للمجاهد عمل صالح ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجرا، وأنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر، وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر، كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة.. آلا والله أن الله لا يجزل لنا العطاء، وأنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء، وأنه لما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشدة واللأواء، فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء، وعليها بعده أمناء!

ودلت هذه الآية:

١- على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وكلامه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله، وكذا القول في المعصية، فما أعظم بركة الطاعة وما أضر شؤم المعصية.

٢- وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب، لأن وطأ ديارهم مما يغيظهم، ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لأبني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب.

٣- كذلك لا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة في اللذائذ وسكونا إلى الشهوات غير مكترثين بما يكابده المجتمع المسلم.

توزيع الجهود بين الجهاد وشئون الحياة

ويبدو أن تنزل القرآن في هذه السورة بفضل الجهاد وثوابه، وبذم القاعدين عنه وكونه من شأن المنافقين دون المؤمنين الصادقين، وبالنكير على المتخلفين، وبالتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب.. قد قوى رغبة المؤمنين في الجهاد حتى كانوا إذا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم إرسال سرية للقاء بعض المشركين وأن قلوا، ينفر لها جميع المؤمنين ويتسابقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول صلى الله عليه وسلم وحده أو مع نفرا قليل، -كما ورد - وأيضا فإن ذلك قد جعل الناس يتزاحمون في المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة، كما روى عن مجاهد أن قوما كانوا بالبادية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون الناس الإسلام، فلما نزل قوله تعالى: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) انصرفوا عن البادية إلى النبي عليه السلام خشية أن يكونوا ممن تخلف وممن عنى بالآية..

كل ذلك اقتضى بيان حدود النفير العام - في الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعي - فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد، وقد بلغ من عددهم - بعد تخلف المتخلفين في تبوك - نحوا من ثلاثين ألفا، الأمر الذي لم يتهيأ من قبل في غزوة من غزوات المسلمين.. وقد آن أن تتوزع الجهود.. في الجهاد، وفي عمارة الأرض، وفي التجارة، وفي غيرها من شئون الحياة.. التي تقوم بها أمة ناشئة وهي تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة وعن حاجات المجتمع القبلي الأولية.. ونزلت الآية التالية بين هذه الحدود في جلاء..

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)..

اتجاهان في معنى الآية:

وقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم، وسنبين اتجاهين في معنى الآية ثم نرجح الذي يستقيم عندنا في تفسيرها:

الاتجاه الأول:

قال قوم: المعنى.. ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم ويستقيم لهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد والغزو، فإن هذه السرايا من فروض الكفاية لا من فروض الأعيان، وإنما يجب النفير العام إذا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم واستنفرهم للخروج

وكذا الحاكم العام إذا وجد سببه بقدر الحاجة، لا فى كل استنفار لمقاومة الكفار. فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كالقبيلة وأهل المدينة (طائفة)[١٢] أى جماعة أقل بقدر الحاجة، ليتأتى لهم - أى للمؤمنين فى جملتهم- التفقه فى الدين، بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات، وما يجرى على لسانه من بيان بالقول وعلى جوارحه من بيان بالعمل، فيعرف الحكم مع حكمته، ويفصل العلم الجمل بالعمل به (ولينذروا قومهم) الذين نفروا للقاء العدو (إذا) هم (رجعوا إليهم) من غزوهم، أى ليجعلوا جل هممهم من الفقاهة بأنفسهم إرشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا من الأحكام الشرعية وما تجدد نزوله، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بالعلم، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه عند ذلك التعلم.

وعلى هذا فالمؤمنون يجب أن يصيروا طائفتين: تبقى طائفة فى خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتنفر طائفة أخرى إلى الغزو، وذلك لأن الإسلام فى ذلك الوقت كان محتاجا إلى الغزو والجهاد وقهر الكفار، وأيضا كانت التكاليف تحدث والشرائع تنزل، وكان بالمسلمين حاجة إلى من يكون قيما بحضرة الرسول عليه السلام، فيتعلم تلك الشرائع ويحفظ تلك التكاليف ويبلغها إلى الغائبين، فكان الواجب فى ذلك الوقت انقسام أصحاب رسول الله إلى قسمين: أحد القسمين ينفرون إلى الغزو والجهاد، والثانى يكونون مقيمين بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم: فالطائفة النافرة إلى الغزو يكونون نائبين عن المقيمين فى الغزو، والطائفة المقيمة يكونون نائبين عن النافرين فى التفقه. وعليه: فالطائفة المقيمة هم الذين يتفقهون فى الدين بسبب أنهم أنما لازموا خدمة الرسول عليه السلام وشاهدوا الوحى والتنزيل، فكلما نزل تكليف وحدث شرع عرفوه وضبطوه، فإذا رجعت الطائفة النافرة من الغزو إليهم فالطائفة المقيمة ينذرونهم ما تعلموه من التكاليف والشرائع، وبهذا الطريق يتم أمر الدين بهاتين الطائفتين.. وهو مروى عن ابن عباس وقتادة ومجاهد واختاره البيضاوى والمنار.

الاتجاه الثانى:

وقال آخرون: المعنى: أن المؤمنين لا ينفرون كافة بكليتهم، ولكن تنفر من كل فرقة منهم - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون لتتفقه هذه الطائفة النافرة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وحتى يصيروا فقهاء بما يشاهدون من ظهور المسلمين على المشركين، وبما يعاينون من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به، وبما يريهم الله من أن العدد القليل منهم يغلب العدد الكثير من الفئات الضالة، فحينئذ يعلمون أن ذلك بسبب أن الله تعلى خصهم بالنصرة والتأييد، وأنه تعالى يريد إعلاء دين

محمد صلى الله عليه وسلم وتقوية شريعته، فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علو أمر الإسلام وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه، فإذا رجعوا من ذلك النفر إلى قومهم أنذروهم بما رأوه وما فقهوه من هذا الدين فى إثناء الجهاد والحركة، وبما شاهدوه من دلائل النصر والفتح والظفر، وحدثوهم عن المضلين والمذنبين، وحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذى نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك (إذا) هم (رجعوا إليهم) من غزوهم، لعل قومه إذا هم حذروهم عانيوا من ذلك، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذرا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروهم خبرهم.

وعلى هذا فالضمير فى (ليتفقهوا فى الدين) للطائفة التى تنفر للغزو لا للتى تبقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة: وهذا الوجه له أصل من تأويل ابن عباس رضى الله عنهما، ومن تفسير الحسن البصرى، واختيار ابن جرير وقول لأبن كثير.

وضعف هذا الرأى المنار، وزعم أنه متكلف إذ قال: وزعم الطبرى أن هذا القول أولى بالصواب، ثم قال: وهذا تأويل متكلف بنبو عنه النظم الكريم، فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقها فى الدين، وأن كان يدخل فى عموم معنى الفقه، فإن التفقه هو التعلم الذى يكون بالتكلف والتدرج، والمتبادر من الدين علمه، ولا يصح هذا المعنى فى ذلك العهد إلا فى الذين يبقون مع النبى عليه السلام، فيزدادون كل يوم علما وفقها بنزول القرآن.(١٣)

الرأى المختار:

والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية - وهو ما اختاره ابن جرير، ونقله عن الحسن البصرى، ودافع عنه، ورفضه المنار، وجعل النظم الكريم ينبو عنه - هو الرأى الثانى القائل: أن الطائفة المتفقهة فى الدين هى الطائفة النافرة، وذلك لجملة أسباب أهمها:

أولا: أن الرأى القائل: إن الطائفة المتفقهة هى القاعدة، يحتاج لكى يستقيم المعنى إلى تقدير وهو: فلولا نفرت طائفة وأقامت طائفة ليتفقهوا فى الدين: والآخر لا يحتاج إلى تقدير، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى بالقبول مما يحتاج إلى تقدير.

ثانيا: أن النفر إذا كان مطلقا بغير صلة بشىء فالأغلب من استعمال العرب إياه فى الجهاد والغزو، فإذا كان ذلك هو الأغلب من المعانى فيه، وكان جل ثناؤه قال: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) علم أن قوله (ليتفقهوا) إنما هو شرط للنفر لا لغيره، إذ كان يليه دون غيره من الكلام.

ثالثا: فأن قال قائل: وما تنكر أن يكون معناه: ليتفقه المتخلفون فى الدين، قلنا: ننكر ذلك لاستحالته، وذلك أن نفر الطائفة النافرة لو كان سببا لتفقه الطائفة المتخلفة ويجب أن يكون مقامها معهم سببا لجهلهم وترك التفقه، وقد علمنا أن مقامهم لو أقاموا ولم ينفروا لم يكن سببا لمنعهم من التفقه.

رابعا: وبعد فإنه قال جل ثناؤه (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) عطفا به على قوله:

(ليتفقهوا فى الدين) ولا شك أن الطائفة النافرة لم ينفروا إلا والإنذار قد تقدم من الله إليها، وللإنذار وخوف الوعيد نفرت، فما وجه إنذار الطائفة المتخلفة الطائفة النافرة، وقد تساوتا فى المعرفة بإنذار الله إياهما؟ ولو كانت أحداهما جائز أن توصف بإنذار الأخرى، لكان أحقهما بأن يوصف به، الطائفة النافرة، لأنها قد عاينت من قدرة الله ونصرة المؤمنين على أهل الكفر به ما لم تعاين المقيمة.

خامسا وأخيرا:

- وهو أقواها وأدقها - أن هذا الدين منهج حركى، لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به.. أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه..

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين! ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين.

الفقه وليد الحركة لا القعود

إن الحركة هى قوام هذا الدين، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره فى واقع الناس، وتغليبه على الجاهلية بالحركة العملية.

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون فى الحركة بهذا الدين لا يفقهونه، مهما تفرغوا لدراسته فى الكتب - دراسة باردة - وأن اللمحات الكاشفة فى هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره فى حياة الناس، ولا تتجلى للمستغرقين فى الكتب العاكفين على الأوراق!

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة.. والذين يعكفون على الكتب والأوراق فى هذا الزمان لكى يستنبطوا منها أحكاما فقهية (يجددون) بها الفقه الإسلامى أو (يطورونه) - كما يقول المستشرقون من الصليبيين! وهم بعيدون عن الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت.. هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين، ومن يم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين.

إن الفقه الإسلامى وليد الحركة الإسلامية.. فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه وليس العكس هو الصحيح.. وجدت الدينونة لله وحده، ووجد المجتمع الذى قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده..

والذى نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، والذى رفض أن تكون شرائع البشر هى التى تحكم أى جانب من جوانب الحياة فيه، ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلا وفق

المبادئ الكلية فى الشريعة إلى جانب الأحكام الفرعية التى وردت فى أصل الشريعة وفى أثناء مزاولته للحياة الفعلية فى ظل الدينونة لله وحده، واستيحاء شريعته وحدها، تحقيقا له الدينونة، جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية فى حياته.. وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية، وبدأ نمو الفقه الإسلامى.. الحركة بهذا الدين هى التى أنشأت ذلك الفقه، والحركة بهذا الدين هى التى حققت نموه، ولم يكن قط فقها مستنبطا من الأوراق الباردة، بعيدا عن حرارة الحياة الواقعية! من أجل ذلك كان الفقهاء متفهقين فى الدين، يجئ فقههم للدين من تحركهم به، ومن تحركهم مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حى، يعيش بهذا الدين، ويجاهد فى سبيله ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة.

أما اليوم (فماذا؟)..

أين هو المجتمع المسلم الذى قرر أن تكون دينونته لله وحده، والذى رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد، والذى قرر أن تكون شريعة الله شريعته والذى رفض بالفعل شرعية أى تشريع لا يجئ من هذا المصدر الشرعى الوحيد؟

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامى أو (تطويره!) فى ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التى بها تعيش، ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده، وتقرير مبدأ لأن لا حاكمية إلا لله، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدا من شريعته وحدها تحقيقا لتلك الدينونة..

إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنمية الفقه الإسلامى أو (تجديده) أو (تطويره) فى مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ولا يقيم عليه حياته، كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد انه يستطيع التفقه فى هذا الدين وهو قاعد، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة! أن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا فى مجرى الحياة الدافق، وألا مع الحركة بهذا الدين فى عالم الواقع.

فقه مفصل لا جاهز:

إن الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم، والمجتمع المسلم أنشأ (الفقه الإسلامى).. ولابد من هذا الترتيب.. لابد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة لله وحده مصمم على تنفيذ شريعته وحدها، ثم بعد ذلك -لا قبله - ينشأ فقه إسلامى مفصل على قد المجتمع الذى ينشأ، وليس (جاهزا) معدا من قبل! ذلك أن كل حكم فقهى هو -بطبيعته- تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة، ذات حجم معين، وشكل معين، وملابسات معينة، وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة، داخل الإطار الإسلامى لا بعيدا عنه، وتحدد حجمها وشكلها وملابساتها، ومن ثم (يفصل) لها حكم مباشر على (قدها).

فأما تلك الأحكام (الجاهزة) فى بطون الكتب فقد (فصلت) من قبل لحالات معينة فى أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة الله فعلا، ولم تكن وقتها (جاهزة) باردة! ،

كانت وقتها حية مليئة بالحيوية..وعلينا اليوم أن (نفصل) مثلها للحالات الجديدة، ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذى يقرر ألا يدين لغير الله فى شرائعه، وألا (يفصل) حكما شرعيا إلا من شريعة الله دون سواها.

وفى هذا يكون الجهد الجاد المثمر اللائق بجدية هذا الدين، وفى هذا يكون الجهاد الذى يفتح البصائر، ويمكن من التفقه فى الدين حقا.. وغير هذا لا يكون إلا هزلا ترفضه طبيعة هذا الدين، وألا هروبا من واجب الجهاد الحقيقى تحت التستر بستار (تجديد الفقه الإسلامى) أو (تطويره)!.. هروبا خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير، وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين.

ما يستنبط من الآية

ويؤخذ من الآية على كلا المعنيين:

١- أن الجهاد ليس على الأعيان، وإنما هو فرض كفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، وتعطلت حركة الإنتاج، فينبغى أن يخرج للجهاد بعض الشعب لا كله، وإنما يجب الجهاد العام ويتعين على كل فرد إذا ما خرج النبى صلى الله عليه وسلم - وكذا الحاكم العام - للغزو فى حالة النفير العام، وهذه تقدر بظروفها.

٢- الآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه وتفقيه الناس فيه على الوجه الذى يصلح حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم، وأن المتخصصين بهذا التفقه بهذه النية لا يقلون فى الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والأمة، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع فرضا عينيا، فتعلم العلم أمر واجب على الأمة جميعا، وجوبا لا يقل أهمية عن وجوب الجهاد والدفاع عن الوطن، فأن الوطن يحتاج إلى من يناضل عنه بالسيف والسنان الذى هو حماية وسياج، وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان الذى عليه مدار الدعوة إلى الإيمان وإقامة دعائم الإسلام.

٣- أخذ بعضهم من تفسير الحسن للآية أنه يشمل السفر لأجل طلب العلم، لما فى الرحلة من أسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعم ولقاء أساطينه، وعلل بعضهم فضيلة السياحة بذلك.

٤- وتشير الآية إلى أن غاية طلب العلم هو التفقه فى الدين وفهم أسراره، فهما تصلح به نفس العالم حتى يكون ربانيا قرآنيا، وأن أثر ذلك فى الخارج هو الدعوة لله، وإنذار قومه إذا رجع إليهم، فيعلمهم ويثقفهم ويهديهم ويربيهم على حب الخير وعلى حب العمل والجد.. وأن الله يحب المؤمن القوى فى نفسه وعقله وخلقه وعلمه وبدنه[١٤].. فيكون جميع المؤمنين علماء بدينهم، قادرين على نشر دعوته وإقامة حجته وتعميم هدايته.. فإذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه فى الدين والغرض منه، لا الرياسة والعلو بالمناصب والترفع على الناس والتكبر عليهم وطلب المنافع الشخصية منهم والتنزه فى البلدان.

٥- وتشير الآية إلى أنه ليس المقصود من التفقه فى الدين جمع شتات المسائل الفرعية

فرضية كانت أو واقعية واستيعاب الخلافات المذهبية، وطريقة المقارنة بينها، والإحاطة بتعريفات الشفقة والوكالة والايلاء والظهار وأركانها وشروطها وتقسيماته.. وإنما المقصور من التفقه فى الدين دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم، وبتبصيرهم بمعرفة دقائق آفات النفوس ومعالجتها وترويضها على الخير، وتعويدها الطاعة، والمداومة على عبادة الله، والنصح لجماعة المسلمين، وإمامهم، والتواصى بالحق والصبر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأن الآية تدلهم على أنه تعالى أمرهم بالتفقه فى الدين لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدين الحق، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية، ويسارعون فى الخيرات رغبا ورهبا، ويبادرون إلى قبول الدين، فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم قد أراد الله به خيرا، ومن عدل عن ذلك وطلب الدنيا بالدين، وألوى زمام النصوص حيث تريد أن تملى عليه شهوته وشهوات سادته، أو قعدوا له القاعدة مسبقا ثم أمروه، فأخذ يجذب النص، ويشده ويقتلعه من مكانه، ليلائم القاعدة المملاة عليه والموافقة للهوى المتبع أقول: من فعل ذلك كان ممن (يلوون ألسنتهم بالكتاب، لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون). وكان من الأخسرين أعمالا (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وأن حوى الفروع كلها وحفظ ملايين الفتاوى.

قال حجة الإسلام الغزالى: كان اسم الفقه فى العصر الأول اسما لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى النعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدل عليه هذه الآية..

فما به الإنذار والتخويف هو الفقه دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والإجارة وسأل فرقد السندى الحسن عن شئ فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمك، هل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقه الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، البصير بدينه[١٥]، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل فى جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى..

٦- أن وضع الآية التى تشير إلى العلم والتعلم فى وسط آيات الجهاد والقتال لمن المعجزات التى كشف عنها هذا العصر، فإن الحروب اليوم تعتمد على العلم والفقه الحربى أكثر مما تعتمد عليه السلاح.[١٦]

٧- قال الرازى: هذه الآية حجة قوية لمن يرى أن خبر الواحد حجة، وذلك لأن كل ثلاثة فرقة، وقد أوجب الله تعالى أن يخرج من كل فرقة طائفة، والخارج من الثلاثة يكون اثنين أو واحدا، فوجب أن يكون الطائفة إما اثنين وإما واحدا، ثم أنه تعالى أوجب العمل بأخبارهم، لأن قوله تعالى.. (ولينذروا قومهم)، عبارة عن أخبارهم، وقوله.. (لعلهم يحذرون) إيجاب على قومهم أن يعملوا بأخبارهم، وذلك يقتضى أن يكون خبر الواحد أو الاثنين حجة فى الشرع [١٧].

من القواعد الحربية

قتال الأقرب فالأقرب

لما أمر تعالى بقتال المشركين كافر، وقتالهم حيث وجدوا، أرشد المؤمنين فى ذلك الباب إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبدءوا من الأقرب فالأقرب، منتقلين إلى الأبعد فالأبعد، إذ من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار وغزو جميع البلاد فى زمان واحد، فكان من قرب أولى ممن بعد، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بقتال الأبعد لا يؤمن معه عن الهجوم على الذرارى والضعفاء.

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة وأعلموا أن الله مع المتقين).. قاتلوا الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية – وهى تزحف لتغمر العالم، ولتنشر حرية التدين، ولتدفع كل واقف فى طريقها، وقد كانت الدعوة موجه إلى الأقرب فالأقرب من الكفار.. ألا ترى أن أمرها وقع على هذا الترتيب، قال تعالى آمرا نبيه أن يخص الأقرب إليه فى النسب (وأنذر عشيرتك الأقربين)[١٨] ثم أهل مكة ومن يليهم (لتنذر أم القرى ومن حولها)[١٩] ثم باقى العالم إلى يوم القيامة (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)[٢٠] –أى وكل من بلغته دعوتى – وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه صلى الله عليه وسلم حارب قومه، ثم انتقل منهم إلى سائر العرب، ثم إلى الشام، والصحابة لما فرغوا من بلاد الشام دخلوا العراق وسائر البلدان، وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم، لأنهم كانوا سكان الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وذلك بعد فراغهم من أمر المشركين بالجزيرة ويهود المدينة ويهود خيبر.. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد فإن الفرد على كل أهل ناحية قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحى بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم لزمهم عونهم ونصرهم لأن المسلمين يد على من سواهم.. وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة:

كالحاجة والإمكان والسهولة، والنفقة.. ولذلك كانت القاعدة فيه عامة فى الدعوة والقتال والنفقات والصدقات، وكذا ما يدار فى المجلس من شراب ونحوه، فكان صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه، وأن لم يكن أفضل الجالسين، ثم الذى يليه، وأمر أن يأكل الإنسان مما يليه.. وإنما تطرد القاعدة فى الحالات العادية، وأما ما يعرض من ضرورة فى كل ذلك فيه حكمه، فأحكام الضرورات مستثناه من الواجبات والمحرمات والآداب.

(وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة وخشونة وشجاعة وجرأة وصبرا على التحمل وعنفا فى القتل والأسر. والمؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا بأخيه المؤمن، غليظا على عدوه الكافر، لقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)[٢١] (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم[٢٢] (جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم)[٢٣] وفى الحديث أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: (أنا الضحوك القتال) أى ضحوك فى وجه وليه قتال لهامة عدوه[٢] وإنما أمروا بالغلظة مع كونها طبيعية، لتقييد ما أمروا به فى الأحوال العامة من الرفق والعدل والبر فى معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام..

وأعلموا عند قتالكم إياهم أن الله معكم وهو ناصركم عليهم، فليكن أقدامكم على الجهاد والقتال بسبب تقوى الله، لا بسبب طلب المال والجاه فإن اتقيتم الله وخفتوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ومراعاة أحكامه وسننه فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه، وأهمها ما يجب اتقاؤه فى الحرب من التقصير فى أسباب النصر والغلب التى بينها فى كتابه والتى تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات والطاعة والنظام وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب..

خطة حركة ومداها:

ومما هو جدير الذكر والتنبيه أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذى نزلت أهم قواعده وأحكامه فى هذه السورة..

فهى السورة الأخيرة فى أحكام القتال المتضمنة للقواعد النهائية فى هذا الباب، وأن هذه الآية أيضا تضح خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك، وهما الخطة والمدى اللذان سار عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده بصفة عامة فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة، فأما خطة الحركة الجهادية التى تشير إليها الآية فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون (دار الإسلام) ويجاورونها، مرحلة فمرحلة، فلما أسلمت الجزيرة العربى - أو كادت ولم يبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم، ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم وفى بلاد فارس، فلم يتركوا ورائهم جيوبا، ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء متماسكة الأطراف.. ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينهما على أساس ملك البيوت، أو على أساس القوميات! وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم، وما يزالون يعملون، وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام (أمة واحدة)فى (دار الإسلام) المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة، وألا أن تتبع خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتدرك أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعزة والتمكين لقد ظل الأمر فى خلال القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة فى غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم يزل الأعداء فى سقال وخصار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك والرؤساء طمع الأعداء فى أطراف البلاد، وتقدموا إليها فلم يمنعوا لشغل الحكام بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، فكلما قام حاكم من حكام الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد

واسترجع من الأعداء بحسبه ويقدر ما فيه من ولاية الله.. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصى أعدائه الكافرين، وأن يعلى كلمته فى سائر الأقاليم..

من حقائق المتشددين فى ردهم على المتساهلين

قالوا: نجد فى هذه الآية أمر بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار، لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم.. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير، الذى يجعل (الانطلاق) بهذا الدين هو الأصل الذى ينبثق فيه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد (الدفاع) كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة فى المدينة.

ثم قالوا: ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد فى القرآن.. أن يتلمسوا لهذا النص النهائى الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة، فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء!

والنص القرآنى بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآنى عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقا فى كل موضع، وألا يحيل فى موضع عل موضع، بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات فى ذات النص أن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام والذين يتصدرون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام يتعاظمهم ويهولهم أمور:

١- دوام الاستمرار فى قتال من ولى من الكفار.. يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هى أحكام الإسلام! وأن يكون الله سبحانه قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار!.. يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهى هكذا، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة، ويجدون هذه القيود فى النصوص المرحلية السابقة!

أننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو.. أنهم ينسون أن الجهاد فى الإسلام جهاد فى (سبيل الله) جهاد لتقرير ألوهية الله فى الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله.. جهاد لتحرير (الإنسان) من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده، والانطلاق من العبودية للعباد (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[٢٤]..

وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشرى على مذهب بشرى مثله، إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد! وليس جهاد لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله فى الأرض.. ومن ثم ينبغى له أن ينطلق فى (الأرض) كلها، لتحرير الإنسان كله، بلا تفرقة بين ما هو داخل فى حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها.. فكلها (أرض) يسكنها (الإنسان)، و كلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد!

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. أنها فى هذا الوضع لا تستساغ! وهى فعلا لا تستساغ.. لولا أن الأمر ليس كذلك، وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من أمكان التعايش! أنها كلها اليوم أنظمة بشرية، فليس لواحد منها أن يقول: إنه هو وحده صاحب الحق فى البقاء! وليس الحال كذلك فى نظام إلهى يواجه أنظمة بشرية، ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها، كى يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد، ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك!

٢) مواجهة الهجوم الصليبى:

ثم أنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية، وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد!

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة.. أولا لأن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.. إن الإسلام يقوم على قاعدة: (لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)[٢٥] ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا؟

ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون)؟[٢٦]

إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقضا تماما للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعباد ،يواجه دائما طواغيت فى الأرض يخضعون العباد للعباد، ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد، تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية فى صورة من الصور، وتحول دون الناس فى داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية، كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل.. وفى هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ويدمر هذه القوى التى تحميها..

ثم ماذا؟.. ثم يترك الناس - بعد ذلك - أحرارا حقا فى أختيار العقيدة التى يريدونها، أن شاءوا دخلوا فى الإسلام، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وكانوا إخوانا فى الدين للسابقين فى الإسلام، وأن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة، ومشاركة منهم فى نفقات الدولة المسلمة التى تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته، كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها - كشعب الأندلس قديما، وشعب ذنجبار وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها - كشعب الأندلس قديما، وشعب ذنجبار حديثا - لتكرههم على التنصر، وأحيانا لا

تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون.. وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصرانى مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلا أثنى عشر ألفا من النصارى ضحايا خصومة بشعة، إذ احرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط، أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما اذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية أو طبيعية لاهوتية ناسوتية، إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية!

٣) الواقع المحزن وتكاليف الانطلاق:

وأخيرا فإن صورة الانطلاق فى الأرض لمواجهة من يلون من المسلمين من الكفار تهول المهزومين رويا فى هذا الزمان وتتعاظمهم، لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر.. وهو يهول فعلا!..

فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين، وهم شعوب مغلوبة على أمرها، أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون فى الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! أنه لأمر لا يتصور عقلا.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا!

ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر، وفى أى ظروف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله، دانت لها الجزيرة العربية ودخلت فى هذا الدين، ونظمت على أساسه، وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التى باعت أنفسها لله بيعة صدق، فنصرها الله يوما بعد يوم، وغزوة بعد غزوة، ومرحلة بعد مرحلة.. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيأته يوم بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليدعو الناس- فى جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فجاهد والقلة التى معه، حتى قامت الدولة المسلمة فى المدينة، وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقبة حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة.. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من هشادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله.. ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذى تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء، والذى تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية، ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التى ترفع راية لا اله إلا الله، ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد فى الأرض، إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين، وهم فى مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون فى حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده فى الأرض، ومكافحة ألوهية الطواغيت..

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة!

إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق.. وحفظ ما فى متون الكتب والتعامل مع النصوص فى غير حركة لا يؤهل لفقه هذا الدين، ولم يكن مؤهلا له فى يوم من الأيام..

لفتة موفقة: وبعد فإن الظروف التى نزل فيها قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم.. وهم أهل كتاب.. ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى، بما فى عقيدتهم من انحراف، وبما فى واقعهم من تحكيم شرائع العبيد.. وهذه لفتة لابد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب، المنحرفين عن كتابهم، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم! وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون -راضين- إلى شرائع من صنع الرجال، وفيهم شريعة الله وكتابه، فى أى زمان وفى أى مكان!

غلظة ولكن فى حدود

وشدة تكتنفها قيود

لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة وعقب على هذا الأمر بقوله: "وأعلموا أن الله مع المتقين" ولهذا التعقيب دلالته.. فالتقوى هنا - التقوى التى يحب الله أهلها - هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار، وتقاتلهم فى غلظة.. أى بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع.. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغى أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - وفى حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!

إنه قتالا يسبقه إعلانا، وتخييرا بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال.. ويسبقه نبذ العهد أن كان هناك عهد - فى حالة الخوف من الخيانة[٢٧].

وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"عن بريدة رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: "اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، انفروا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا، وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم أن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة وألفى شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، وأن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم..[٢٨]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتال النساء والصبيان..[٢٩]

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى أهل اليمن معلما، فكانت وصيته له: "أنك تأتى قوما أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعملهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم"لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم، فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يصلح لكم"(٣٠)

وعن العرباض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا، فأقبل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "يا بن عوف اركب فرسك ثم ناد: أن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا، ثم صلى بهم، ثم قام فقال: أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما فى القرآن! إلا وأنى قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، أنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا باذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذى عليهم".

ورفع إليه صلى الله عليه وسلم بعد احدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزنا شديدا، فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال - ما معناه: "أن هؤلاء خير منكم، أنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين؟ فإياكم وقتل الأولاد، إياكم وقتل الأولاد".

وهذه التعليمات النبوية هى التى سار عليها الخلفاء بعده: روى مالك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما" وقال زيد ابن وهب: أتانا كتاب عمر رضى الله عنه وفيه:"لا تغلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا، واتقوا الله فى الفلاحين" ومن وصاياه:"ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات".

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المهج الإسلامى فى قتاله لأعدائه وفى آدابه الرفيعة، وفى الرعاية لكرامة الإنسان، وفى قصى القتال على القوى المادية التى تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وفى اليسر الذى يعامل به حتى أعداءه.

أما الغلظة فهى الخشونة فى القتال والشدة، وليست هى الوحشية مع الأطفال والنساء

والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلا، وليست تمثيلا بالجثث والاشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين فى هذا الزمان وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، ولاحترام بشرية المحاربين، إنما المقصور هو الخشونة التى لا تميع المعركة، وهذا الأمر ضرورى لقوم أمروا بالرحمة والرأفة فى توكيد وتكرار، فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضى حالة الحرب دون رغبة فى التعذيب والتمثيل والتنكيل..

صورتان متقابلتان لتلقى آيات الله

وقبيل ختام السورة التى تكلمت طويلا عن المنافقين، تجئ آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله، وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين، وتأثير نزول القرآن فيمن قام الدليل على اليأس من إيمانهم، وأخبر الله بموتهم على كفرهم..

وإلى جانبها صورة الذى آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم.. "«وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون، وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون"..»

إذا تحقق إنزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن فمن المنافقين من يتساءل - مع إخوانه ليختبرهم، أو ليثبتهم على النفاق، أو مع من يلقاه من ضعفاء المؤمنين ليشككهم أو ليصرفهم عن الأيمان، أو كان ذلك على سبيل الإنكار والاستهزاء [٣١] قائلا: أيكم زادته هذه السورة يقينا: حقيقة القرآن والإسلام وصدق محمد؟ [٣٢]

والسؤال سؤال مريب، لا يقوله إلا الذى لم يستشعر وقع السورة المنزلة فى قلبه، وألا ليتحدث عن آثارها فى نفسه، بدل التساؤل عن غيره، وهو فى الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك فى أثرها فى القلوب لذلك يجيء" الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول: " فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)

صورة مشرقة ذات ظلين:

١- فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلاله فزادتهم إيمانا، وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيمانا، وقد استشعروا عناية ربهم بهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيمانا، وقد عاصروا تنزلات الوحى وحضروا نزول القرآن عليه صلى الله عليه وسلم وسمعوه منه فزادتهم إيمانا، وقد تلوه وسمعه بعضهم من بعض فزادتهم ثباتا فى قلوبهم وقوة إذعان وصدق وجدان ورغبة فى العمل والقرب من الله.

فإن قال قائل: أو ليس الإيمان فى كلام العرب التصديق والإقرار؟ قلنا: بلى، فان قيل: فكيف زادتهم السورة تصديقا واقرارا؟ قلنا: إيمانا حين نزلت، لأنهم قبل أن تنزل السورة لم يكن لزمهم فرض الإقرار بها والعمل بها بعينيها، إلا فى جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به

نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند الله فهو حق، فلما أنزل الله السورة لزمهم فرض الإقرار بأنها بعينها من عند الله، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة التى زادتهم نزول السورة حين نزلت من الإيمان والتصديق بها. وزيادة الإيمان تشمل الزيادة فى حقيقته وصفته من اليقين والإذعان واطمئنان القلب، وفى متعلقة وهو ما فى السورة من مسائل العلم، وفى أثره من العمل والتقرب إلى الله تعالى:

٢- والحال أنهم يفرحون ويسرون بنزولها، وتستدعى زيادة الإيمان فى قلوبهم البشرى والارتياح بسبب تلك التكاليف الزائدة، من حيث أنهم يرجون من خير هذه الزيادة تزكية أنفسهم وأثر ذلك فى أعمالهم من ظفر الدنيا وثواب الآخرة.. وسنبين زيادة الإيمان ونقصه بعد الانتهاء من هذه الآيات..

صورة قائمة ذات شعبتين:

ثم جمع للمنافقين أمرين مقابلين الآمرين المذكورين فى المؤمنين فقال:" وأما الذين فى قلوبهم مرض" شك وارتياب ورجس وقذر من النفاق" فزادتهم رجسا إلى رجسهم" كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذى هو أقذر الرجس النفسى وشر أنواعه، وذلك بأنهم شكوا فى أن السورة من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدقوا، فكان ذلك زيادة شك حادثة فى تنزيل الله، مع أنه قد لزمهم الإيمان بما نزل فارتابوا بذلك فيه، فكان ذلك زيادة نتن فى أفعالهم إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق..

قال الرازى: والمراد من الرجس: أما العقائد الباطلة، أو الأخلاق المذمومة، فإن كان الأول كان المعنى أنهم كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين لهذه السورة الجديدة، فقد انضمم كفر إلى كفر، وأن كان الثانى كان المراد أنهم كانوا فى الحسد والعداوة واستنباط وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة، وهذا يدل على أن الروح لها مرض، وهو الكفر والأخلاق والذميمة، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة. (٣٣)

هذا هو الأمر الأول، أما الأمر الثانى فهو أنهم يموتون على كفرهم، فتكون هذه الحالة كالأمر المضاد للاستبشار الذى حصل فى المؤمنين، وهذه الحالة أسوأ وأقبح من الحالة الأولى، وذلك لأن الحالة الأولى عبرة عن ازدياد الرجاسة، وهذه الحالة عبرة عن مداومة الكفر واستحواذ ذلك عليهم واستحكامه ورسوخه فيهم، فكان مقتضى سنة الله تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس أن من مات منهم على كفره، وسيموت من بقى منهم وهم متلبسون بالكفر، وهو نبأ من الله صادق، وقضاء منه محقق.

تكرار الدروس مع عدم الاستفادة:

وقبل أن يعرض السياق الصورة الثانية لا ستراتهم يسأل مستنكرا حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظمهم الابتلاء ولا يردهم الامتحان.. "أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون"

والفتنة كانت تكون بكشف سترهم، أو بنصر المسلمين بدونهم، أو بالمرض، أو بالقحط والجوع، أو بالغزو والجهاد فى سبيل الله.. والأولى أن يقال: إن الله تعالى عجب عباده المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبخ المنافقين فى أنفسهم بقلة تذكرهم وسوء تنبههم للمواعظ التى يعظهم بها، فقال: أيجهل هؤلاء ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من تكرار الفتون والاختبار، الذى يظهر به استعداد الأنفس للإيمان أو الكفر، والتمييز بين الحق والباطل ويجوز أن تكون تلك المواعظ أحد هذه الأمور:

١- الشدائد التى ينزلها بهم من الجوع والقحط.

٢- الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل مكان ما أخبر به من نصر الله له ومن اتبعه، وخذلان أعدائه من الكفار والمنافقين وإظهار كلمته على كلمتهم، ووقوع ما انذرهم به.

٣- مواقفهم فى الغزو والجهاد، فهم أن تخلفوا وقعوا فى ألسنة الناس باللعن والخزى والذكر القبيح، وأن ذهبوا إلى الغزو مع كونهم كافرين كانوا قد عرضوا أنفسهم للقتل وأموالهم للنهب من غير فائدة.

٤- أنباء الله ورسوله بما فى قلوبهم، وفضيحتهم بما يسرونه من أعمالهم وما يظهر للمسلمين من نفاقهم وسوء سريرتهم: أما بما كانوا يجتمعون عليه من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالطعن، فكان جبريل ينزل عليه ويخبره بما قالوا، وأما بركونهم إلى ما يسمعون من أكاذيب المشركين وأراجيفهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وعن حذيفة: كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير.

والمراد: أنه يختبرهم فى بعض الأعوام مرة وفى بعضها مرتين، أو يقصد من المرة والمرتين مجرد التكثير لأبيان الوقوع على حب العدد المذكور، وكانت دائمة الوقوع كثيرة التكرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم تمر الأعوام والمنافقون مع البلاء الذى يحل بهم منا لله، والاختبار الذى يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم ولا يتوبون من كفرهم "ولا هم يذكرون" بما يرون من حجج الله ويعاينون من آياته، ولا يتعظون بما حل بهم مما انذرهم الله تعالى به.. ومازال المنافقون يفتنون ولا يتوبون.

شريط متحرك لانصراف مرضى القلوب عن القرآن:

وهل بعد هذا من برهان على انطفاء نور الفطرة والاستعداد للإيمان أقوى من هذا أن كان ورائه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من العلاج الذى من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم، وهو ما توضحه الصورة الأخيرة لهروب أولئك المنافقين وتسللهم عند سماع القرآن.. "وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد ثم انصرفوا، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون".

وهذا بيان لحال المنافقين الذين كانوا يكونون فى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول سورة وما يكون من فعلهم وقولهم عند تلاوته لها، وما قبلها فى بيان حالهم وهم غائبون إذا بلغهم نزول سورة من حيث البحث عن تأثيرها..

وهذه أدل على رسوخهم فى الكفر، وعدم الطمع فى رجوعهم عنه، بإثباتها أنهم يكرهون سماع القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أشد تأثيرا من سماعه من غيره فى البداية، ولذلك كان المشركون يمنعونه صلى الله عليه وسلم من تلاوته على الناس، لئلا يهتدوا بسماعه منه، فإن لم يتمكنوا من إسكاته اعرضوا عنه ولغوا فيه.

تقول الآية: وإذا ما أنزلت سورة مشتملة على عيب هؤلاء المنافقين - الذين وصف جل ثناؤه صفتهم فى هذه السورة - وشرح فضائحهم وسمعوها وهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، تأذوا من سماعها، وجعل ينظر بعضهم إلى بعض نظرا مخصوصا دالا على الطعن فى تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها، والرعب والغيظ لما فيها من مخازيهم وبيان قبائحهم.. ثم قال بعضهم لبعض "هل يراكم من أحد" أن تكلمتم أو تناجيتم بهذا فينقله إلى محمد؟ وذلك جهل منهم بنبوته صلى الله عليه وسلم، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه..

"ثم انصرفوا" عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والأعلام عن مغيبات أمورهم، يقع لهم -لا محالة- تعجب وتوقف ونظر.. فلو أرادوا الاهتداء لكان ذلك الوقت مظنة لإيمانهم، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيها، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التى كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء القويم، ولم يسمعوا قراءة النبى صلى الله عليه وسلم سماع من يتدبره وينظر فى آياته "أن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون" (٣٤) "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (٣٥).. فهم قد انصرفوا عن استماع القرآن إلى الطعن فيه، وأن ثبتوا فى أماكنهم. أو ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستمعوا قراءة السورة التى فيها معايبهم".

والأحسن الأظهر أن لا يكون ذلك مختصا بالسورة المشتملة على فضائح المنافقين، بل كانوا يستخفون بالقرآن مطلقا، فكلما سمعوا سورة استهزأوا بها وطعنوا غيبة وأخذوا فى التغامز والتضاحك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

والمعنى على هذا الوجه: وإذا أنزلت صورة وهم فى المجلس، فعلى حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحنى رؤوسهم وتوجل قلوبهم نرى هؤلاء تسارقوا النظر وتغامزوا بالجفون وترامقوا بالعيون، يتشاورون فى الانسلال من المجلس خفية، لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الإنكار والسخرية بالوحى، قائلا بعضهم لبعض بالإشارة أو العبارة" هل يراكم من أحد" من الرسول والمؤمنين إذا نحن انصرفنا كارهين لسماعها؟.. "ثم انصرفوا" يتسللون لواذا إلى مجامعهم الخاصة بهم..

والتعبير بـ"ثم" لبيان تراخى فعلهم عن وقت قولهم إلى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو أفرادا، فكلما لمح أحد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف.

"صرف الله قلوبهم" عن كل رشد وخير وهدى وتوفيق عن صدق الإيمان، والاهتداء بآيات الله فى القرآن، المرشد إلى آياته فى الأكوان(٣٦)، بسبب "أنهم قوم لا يفقهون" عن الله مواعظه استكبارا ونفاقا، ولا يفقهون عن الله خطابا ولا يتصدرون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شغل

عنه ونفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه، وذلك لأنهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات، لعدم تدبرها والأعراض عن النظر والتأمل فى معانيها.. ذلك بأنهم اتخذوا أنفسهم أعداء وخصوما للرسول، ووطنوا أنفسهم على الأعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه، أمعقول أم غير معقول؟ أحق أم باطل؟ أخير أم شر؟ أهدى أم ضلال؟ أنافع أم ضار؟ فأنى يرجى لهم - وهذه حالهم - أن يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور؟

وبعد أن أمعنا النظر فى الآيات تعالوا ننظر إليها بجملتها وكليتها نظرة عجلى فسنلمح فيها صورة حية ومشهدا متحركا ترسمه الآية الأخيرة فى شريط متحرك دقيق..

وأننا حين نتلو الآية - لنستحضر مشهد هؤلاء المنافقين وقد نزلت سورة فإذا بعضهم ينظر إلى بعض ويغمز غمزة المريب"هل يراكم من أحد"؟ ثم تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع فى حذر "ثم انصرفوا" تلاحقهم من العين التى لا تغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة "صرف الله قلوبهم" صرفها عن الهدى، فإنهم يستحقون أن يظلوا فى ضلالهم يعمهون "بأنهم قوم لا يفقهون" عطلوا قلوبهم عن وظيفتها فهم يستحقون!

إنه مشهد كامل حافلا بالحركة رسمته بضع كلمات، فإذا هو شاخص للعيون كأنها تراه!

من فقه الآيات زيادة الإيمان

لاشك أن الإيمان بمعناه الشامل للأعمال يقبل الزيادة والنقصان، لأنه كلما ازداد جزاؤه العملى بازدياد الطاعات زاد مجموعه حتى يصل إلى الكمال، وكلما نقص من هذه الطاعات عمل نقص ذلك المجموع بمقدار هذا العمل.. لكن للنقصان حد معين، وهو أن يكون انتقاصا من الزيادة لا من الأصل، وألا كان ذهابا للإيمان.

أما الإيمان بمعنى التصديق فقد اختلف فى قبوله الزيادة والنقصان، فقال قوم - منهم الإمام أبو حيان وإمام الحرمين: إن الإيمان بمعنى التصديق لا يزيد ولا ينقص، وحجتهم.. أنه اسما للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان، وهو لا يتصور فيه الزيادة، كما أن نقصه ذهاب له..وأجابوا عن النصوص الواردة فى الزيادة: بأن المراد زيادة الطاعات على تقدير دخولها فى معنى الإيمان، أو زيادة متعلقات الإيمان من حيث الإجمال والتفصيل.. مستأنسين بما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن أول ما أتاهم به النبى صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة ثم الزكاة ثم الحج والجهاد، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم.

وقال الجمهور: إن الإيمان يزيد وينقص، مستدلين بأنه هو المتبادر من كثرة الإثارة الصحيحة فى زيادة الإيمان من الكتاب والسنة، مع عدم المعارض العقلى لها.. ومن هذه الآثار ما يكاد يكون نص فى زيادة التصديق.. كقوله تعالى: (الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا)[٣٧] وكما قال: (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم)[٣٨] وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به)[٣٩]. وحمل هذه الآثار على زيادة الأعمال لا يظهر له وجه.

وأيضا ليس فيها زيادة فى متعلق الإيمان، إذ لا تكاليف فيها، وأن العقل يجزم بأن تصديق النبى لا يعادله تصديق أحد من أفراد أمته، كما يقتضى بأن تصديق الشخص الواحد يتفاضل فى بعض الأحايين، فيقوى تارة ويضعف أخرى، فى مراتب لا تنزل به عن درجة اليقين.. فكيف يقال بعد هذا أن التفاوت فى التصديق إنما هو لاحتمال النقيض؟ وما أبدع قول الإمام النووى فى هذا المعرض: إن كل واحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا منه فى بعضها، بحسب ظهور البراهين وكثرتها.

والحق أن التصديق نفسه تعرض له الزيادة والنقصان من جهات ثلاث:

أولا: من جهة أدلته: فإن الأدلة الكثيرة تفيد التصديق قوة ورسوخا أكثر مما يفيده الدليل الواحد، وأيضا فإن الأدلة نفسها تتفاوت فى الوضوح والجلاء، فدليل التواتر -مثلا- ليس كدليل المشاهدة، وكذلك القضايا التابعة لهما كحدوث العالم، وطلوع الشمس.

ومن هنا كان إيمان الصحابة أقوى من إيماننا، فإنهم شاهدوا ما لم يتيسر لنا أن نشاهد، بل أن دليل المشاهدة نفسه يتفاوت بحسب قوة المشاهدة وكثرتها.

ثانيا: يتفاوت التصديق من جهة متعلقة: وهى القضايا المصدق بها، فإن التصديق بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالا ليس كالتصديق بصدقه فى كل ما جاء به تفصيلا فمن اعتقد صدق الرسول لدليل المعجزة دون أن يطلع على التفاصيل التى جاء بها الرسول عليه السلام كان ذلك كافيا فى إيمانه، وهو إيمان إجمالى لا يكون كإيمان من وقف على جميع التفاصيل التى جاء بها الرسول واعتقد صدقه فى جميعها.. فالعلم الإجمالى علم بمعلوم واحد، والعلم التفصيلى علم بمعلومات كثيرة.

ثالثا: يتفاوت التصديق من طريق العمل: فإن العقيدة النظرية إذا أخذت آثارها العملية إذا رسخت فى النفس وبقيت ماثلة فى الوجدان فإنها تستمد من العمل بها قوة وثباتا، وهكذا كلما ازداد تكرر العمل، ازدادت العقيدة قوة، وكلما قلت نسبة العمل بالعلم ضعف هذا العلم وضعفت قوة هذه العقيدة بمقدار التهاون فى العمل.. فمن كثرة مخالفته لأوامر الله ضعف يقينه ولم يأمن ثباته على الإيمان، ومن اعتاد طاعة الله ازداد إيمانه(٤٠).

صفات الرسول القائد وتوجيهات له:

وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان، وورد أنهما مدنيتان (وقد بينا ذلك فى المقدمة وناقشنا الرأيين مناقشة تفصيلية) ونحن نأخذ بهذا الأخير، ونلمح مناسبتهما فى مواضع متفرقة فى هذا الدرس وفى جو السورة على العموم..آيتين تتحدث أحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم.. ومناسبتها حاضرة فى التكاليف التى كلفتها الأمة المؤمنة فى مناصرة الرسول ودعوته وقتال أعدائه واحتمال العسرة والضيق.

والآية الثانية توجيه لهذا الرسول أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى، فهو وليه وناصره وكافيه..(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزا عليه ما عنتم حريصا عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم. فإن تولوا فقل: حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش

العظيم).. والآية الأولى تتحدث عن صلة الرسول بقومه، على حين تتحدث الآية الثانية عن صلى الرسول بربه.. والصلة بين الرسول وقومه كما أجملت الآية تقوم من جانب الرسول على حرصه على قومه ورحمته بهم، فهو يدعوهم أن يسلكوا طريق الخير ويتبعوا دعوى الحق، ويدعوا ما هم عليه من الشرك والكذب ليفوزوا برضوان الله وينجوا من عذاب النار، وقد تحمل فى سبيل ذلك كل ألوان الأذى والاضطهاد فما زادته الشدائد إلا رحمة بقومه وحرصه عليهم علهم يهتدون ويؤمنون.

والآية الكريمة فى مستهلها تقول: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ولم تقل جاءكم رسول منكم، وذلك التعبير أدل على نوع الوشيجة التى تربط الرسول بقومه فهى أشد حساسية وأعمق صلة؟، ذلك أنه بضعة من أنفسهم تتصل بهم اتصال النفس بالنفس، وهذا لا يجعل الرسول أمام قومه موضع التهمة فى النصيحة لهم والرأفة بهم، ومن ثم كان لذلك التعبير إيحاء أخاذ يسيطر على الإحساس والشعور، ويفضى إلى الألفة والمحبة والارتياح.. كأنه قيل: هو من عشيرتكم، تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة، وتعرفونه فلا تتهمونه على أنفسكم فى النصيحة لكم، تعرفونه فقد نشأ فيكم وتربى بينكم صبيا وغلاما وشابا ورجلا وشيخا، فأنتم تقفون على كل تفاصيل أمره وأحوال حياته الشريفة، وتحيطون خبرا بنسبه وطهارته وبراءته وسموه ونبله، تعرفون طهارة شمائله ومحاسن شئونه العظيمة، فأنتم أحق الناس بإتباعه وأجدرهم بالإقبال على دعوته والرغبة فى نصرة دينه، تعرفون كونه حريصا على دفع الآفات عنكم وإيصال الخيرات إليكم.. وإرسال من هذه حاله وتلك صفته يكون من أعظم نعم الله عليكم.

وهذا ما أبان عنه المغيرة بن شعبة لرسول كسرى وقاله جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة: أن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته.

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى (من أنفسكم) يقتضى مدحا لنسب النبى صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصهم، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأصقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم) وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى تفسير قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح)[٤١].

والذى لا جدال فيه أن الله تبارك وتعالى يصطفى لتبليغ وحيه، أطهر خلقه نسبا، وأكملهم خلقا، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين قد اجتمع له من الفضائل والشمائل ما لم يجتمع لغيره من الخلق فكان عليه السلام المثل الأعلى للإنسان الكامل فى كل شئ، وليس أدل على ذلك من ثناء ربه عليه، حيث قال سبحانه: (لعلى خلق عظيم).

وقد قرأ بعض القراء بفتح الفاء من أنفسكم من النفاسة والمراد الشرف، وأنه صلى الله عليه وسلم من أشرف العرب، وأفضلهم، وهى قراءة شاذة تعرض لها ابن جنى فى كتابه

(المحتسب)[٤٢] محاولا الاحتجاج لها فقال: معناه من خياركم ومنه قولهم: هذا أنفس المتاع، أى أجوده وخياره، واشتق من النفس، وهى أشرف ما فى الإنسان.

وقد رفض هذه القراءة بعض المحدثين[٤٣] لأنها من جهة خبر واحد لا يثبت به القرآن، ومن جهة أخرى أن المعهود فى فصيح الكلام أن النفيس والأنفس مما يوصف به الأشياء لا الأشخاص.

لمن الخطاب؟:

وللمفسرين فى هذا الجزء من الآية رأيان: رأى يرى أن الخطاب فيه للعرب خاصة، وهو رأى الجمهور[٤٤]، وأن معنى أنفسكم على هذا الرأى أى من جنسكم ونسبكم فهو عربى مثلكم تعرفونه وتفقهون عنه. فهو معنى قوله تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم)[٤٥] (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم)[٤٦] فالمنة به صلى الله عليه وسلم على قومه أعظم والحجة عليهم به وبكتابه أنهض، والرأى الثانى: يذهب إلى أن الخطاب للبشر جميعا على الإطلاق ومعنى قوله من أنفسكم، أى من جنس البشر، وذلك لعموم بعثته فهو بمعنى قوله تعالى (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) [٤٧] وقوله: (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) [٤٨].

وقد رجع بعض المحدثين من المفسرين الرأى الأول: [٤٩]

١- لأن الرسول وأن بعث للناس جميعا قد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة، والعجم آمنوا بدعوة العرب، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الإسلام، فالآية فى خطابها إلى العرب إنما تؤكد فضل الله عليهم بأن اختار منهم رسولا كريما رحيما، فعليهم أن يلتفوا حوله ويسمعوا لقوله، ويكونوا لرسالته حماة ودعاة.

٢- ولأن آية أول سورة يونس فى الرد على منكرى كون البشر رسولا من الله، وهو المحكى عن جميع كفار الأمم، وآية آخر براءة فى امتنان الله على من أرسل إليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم، لتأييد الحجة بالمنة والترغيب فى إجابة الدعوة، فإن من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم، كما قال تعالى فى امتنانه عليه بالقرآن المجيد (وإنه لذكر لك ولقومك) [٥٠] أى شرف لك ولهم تذكرون به فى العالم ويدون لكم فى التواريخ.. وإنما قاومه وعانده أكابر قومه أنفة واستكبارا عن إتباعه وهم يرونه دونهم.

وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصف هذا الرسول بقوله: (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم)، فهو يدل على إيجاز معجز على مبلغ ما كان يشعر به الرسول نحو قومه ويحمله لهم فى فؤاده، و يسمى جاهدا لتحقيقه، أنه يدرك تماما مصيرهم المحتوم إذا ظلوا سادرين فى غيهم، ويدرك فى الوقت نفسه أنهم عن هذا المصير غافلون أو به كافرون وهو لا يرضى لهم أن يكونوا وقودا للنار أو أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا أذلة مستضعفين يعنتهم أعداؤها بسيادتهم عليهم وتحكمهم فيهم، ولكنه عليه السلام يرجو أن يكون لقومه شرف الدعوة إلى رسالة الخير والبر والسلام والوئام، وأن يكونوا طليعة خير أمة أخرجت للناس تتمثل فيهم كل

صفات الفضيلة والكرامة والعزة والسيادة، من أجل ذلك صبر وصابر وجاهد وقاتل، وكان وهو فى أشد لحظات الألم مما يفعله قومه يسأل الله لهم الهداية، ولا يستجيب لرغبة من طلب منهم الدعاء عليه، فقد روى أن بعض المسلمين بعد غزوة أحد قال للرسول - وقد شج وكسرت رباعيته - لو دعوت عليهم، فقال: (أنى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة، الله أهدى قومى فأنهم لا يعلمون) فلم يقتصر على رفض الدعاء عليه بل عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ودعا لهم بالهداية لأنهم قومه ولأنهم لا يعلمون.[٥١]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحب العنت ولا يريده لأحد، وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وشريعته كلها سهلة سمحة يسيرة، وفى الحديث (بعثت بالحقيقة السمحة) وفى الصحيح (أن هذا الدين يسر).

وقد تقدم أنفا أن هذا الجزء من الآية يدل فى إيجاز معجز على مدى حرص الرسول على كل ما ينفع قومه فى الدنيا والآخرة، لأنه يلخص فى ألفاظ معدودة كفاح الرسول فى سبيل إخراج قومه من الظلمات إلى النور، والتعبير بكلمتى (عزيز وعنتم) له دلالته القوية فى الإشارة إلى ما كان يلم بالرسول من ألم نفسى حاد حين يرى قومه يعكفون على ما يشقيهم ويرديهم، وذلك أن معنى [٥٢] كلمة عزيز أى صعب، والعنت الإثم أو كل أمر شاق مهلك [٥٣] صعب على الرسول أن يصمت دون دفعه ويقف دون الجهاد لدحضه ويؤكد هذا قوله تعالى: (حريص عليكم) فالحرص لغة فرط الشدة، أو شدة الرغبة فى الحصول على المفقود وشدة العناية بحفظ الموجود، فالرسول كان مهتما كل الاهتمام، وحريصا أبلغ الحرص على أن يحول بين قومه وحياة الضلال والفساد والتخلف والجمود، وأن يدفع بهم إلى الدخول فى دين الله ليعيشوا أحرارا كراما لا يخشون إلا الله ولا يرضون بالدنية فى دينهم ودنياهم.

وقد وردن فى القرآن آيات عديدة - سوى هذه الآية - تتحدث عن حرص الرسول على هداية قومه وتبرز فى جلاء أن هذا الحرص كان شغله الشاغل بعد بعثته، ومن ذلك قوله تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[٥٤]

وهى تشير إلى أن الهداية أولا وأخيرا مردها إلى الله وأن حرص الرسول لن يغير ما سبق فى علم الله كما قال تعالى: (أن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل)[٥٥] و(أنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)[٥٦].

وقال تعالى: (لعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)[٥٧] (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) [٥٨] (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)[٥٩].

وفى الجزء الأخير من هذه الآية التى تتحدث عن صلة الرسول بقومه يخلع الله جل جلاله صفتين من صفاته هما صفتا الرأفة والرحمة اللتان تعتبران من أهم صفات الجمال القدسى[٦٠] ومن أبرز الأسماء الحسنى فيقول: "بالمؤمنين رؤوف رحيم" وقد قال[٦١] بعض السلف أن الله سبحانه لم يجمع لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال عنه: "بالمؤمنين رءوف رحيم" وقال: "أن الله بالناس لرءوف رحيم" [٦٢]

ولعلماء اللغة آراء [٦٣] فبيانه فى تفسير معنى الرأفة والرحمة من حيث العلاقة بينهما، فهناك من يرى أن الكلمتين مترادفتان، على حين يرى آخرون أن الرأفة أشر الرحمة، وقال بعضهم: إن الرحمة أعم من الرأفة لأن هذه لا تكون مع الكراهية، وتلك تقع مع الحب والبغض، فالإنسان قد يرحم عدوه ولكنه لا يحنو عليه، ولا يهمش له.

ومع اختلاف آراء اللغوين فى تحديد مدلول الرأفة والرحمة فإن الذى لا جدال فيه ولا اختلاف عليه أنهما صفتان من صفات الكمال الإنسانى الذى تطمح إليه النفوس المطمئنة والأفئدة المؤمنة فمن اتصف بالرأفة والرحمة فهو الإنسان الكامل الذى يحمل بين جنبيه قلبا لا يعرف الغلظة ولا يجنح إلى القسوة، ولا تستبد به شهوة الانتقام من أعدائه والمسيئين إليه، لأن إحساس الصفح والعفو لديه أقوى وأغلب، ومشاعر الإحسان والحنان أشد وأظهر.

النص فى الآية على أن الرسول بالمؤمنين رءوف رحيم لا يعنى أنه ليس بغيرهم رءوفا رحيما، فقد بعثه الله رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وما كان حرص الرسول على هداية قومه إلا لونا من الرأفة والرحمة بهم، ولعل تخصيص المؤمنين فى هذه الآية جاء فى مقابلة ما أمر به عليه السلام من الغلظة على الكفار والمنافقين بقوله تعالى: "يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير" [٦٤] وإنما أمر بالغلظة عليهم لأن الغالب على طبعه الشريف الرأفة والرحمة والأدب فى المقابلة والمعاشرة، وهذه الرأفة والرحمة مبذولة لجميع الأمم.

وربما لأن الآية حين أشادت بالرسول فى حرصه على هداية قومه وما كان يشعر به من الأسى إذا رأى منهم إصرارا على ما يشقيهم، كان ختام الآية إشارة إلى أن الرسول إذا كان يحمل فى قلبه تلك المشاعر النبيلة، نحو من لم يؤمن به فهو بالنسبة لمن صدقه واتبعه وسلك معه طريق النجاة والفوز صورة فريدة من الحنان والشفقة والعطف والرعاية، ويكفى أن الله تبارك وتعالى وصف نفسه فى آيات كثيرة بما وصف به رسوله فى هذه الآية _بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمور الأمم بالحق والعدل والفضل - فهى رأفة ورحمة مستمدة من رأفة الله ورحمته بعباده وهو فضل عظيم أسبغه المولى سبحانه على نبيه والمؤمنين كما قال تعالى فى آية أخرى: (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ لانفضوا من حولك) [٦٥]، فقد وصفه الله تعالى بأنه يلين لهم وأن هذا اللين صادر عن قسط عظيم منحه الله إياه من رحمته جل جلاله، فكل ما يدعوهم إليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دليل على ثبوت هذه الصفة الرائعة والعواطف السابغة له صلى الله عليه وسلم، وهو أرأف بالمؤمنين وأرحم عليهم من أنفسهم.. وكل شاق من الأعمال كالجهاد فهو منجاد مما هو أشق منه؟، ولا شئ من الشاق منها ببالغ حد العنت، للقطع فى هذا الدين بنفى العسر و الحرج، ولأنه يشق عليه ضررهم وتعظم رغبته فى إيصال خير الدنيا والآخرة إليهم.

فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم فى حقهم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة.. إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق وأن الأب مشفق صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية

مـجـرى الإحـسـان فكذا هاهنا.. لما عـرفـتـهم أنه رسـول حق من عند الله فـأقـبلوا منه هذه التكاليف الشـاقة لتفوزوا بكل خير. فهو صلى الله عليه وسلم لا يلقى بكم فى المهالك ولا يدفع بكم إلى المهاوى، فـإذا هو كلفكم الجـهـاد وركوب الصـعـاب، فـمـا ذلك من هوان بكم عليـه، ولا لقسـوة فـى قلبـه وغلظة، إنما هى الرحـمـة فى صـورة من صـورهـا.. الرحـمـة بكم من الذل والهوان، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة، وحظ رضوان الله، والجنة التى وعد المتقون..

لهـذا أنس المسلمـون إلى رسـول الله من رجـال ونسـاء، كـمـا يأنس الأطفـال إلى الآباء والأمهات، وكان أنسهم منبعثا عن حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورأفته ورحمته[٦٦].

وأما مـقـاصـد رأفة الرسول ورحـمـتـه بالمؤمنين فـهى كثـيرة ومتنوعة وقد أشـرت إلى أن تخصيص المؤمنين برأفة الرسـول ورحمته لا يعنى أنه ليس بغيرهم رءوفا رحيـمـا فـهو عليه السلام الرحمة المهداة إلى الناس جميعا، ولم يكن الرسول رحيما بالإنسـان فقط ولكن رحمته وشفقتـه وبره يشـمل الإنسان والحيـوان مما يؤكد أنـه عليه السـلام لا يدانيه أحـد فى أخلاقه، وأنه قـد اجتمع له من الشـمـائل والفضـائل مـا لم يجـتـمـع لغـيـره، ولا غـرور فـقـد اجتبـاه ربه لرسـالته، وعلمـه فأحسن تعليمه، ومـدحه فى كتابه بالخلق العظيم.. وهو لكل ذلك المثل الأعلى فى الفضائل ما لم يجتـمع لغيـره، ولا غـرور فقد اجتباه ربه لرسـالته، وعلمه فـأحسـن تعليمـه، ومدحه فى كتابه بالخلق العظيم.. وهو لكل ذلك المثل الأعلى فى الفضائل والأسوة الحسنة لمن أراد نعيم الدنيا والآخرة وصدق الله حيث قال: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [٦٧].

ومن مظاهـر رأفة الرسـول بالمؤمنين أنه كـان إذا سـمع بكاء صـبى وهو فى الصـلاة – وكـان النسـاء يصلين فى المسـجـد خلف الصـفـوف – تجـوز فى الصـلاة وتعجل فـيـهـا شـفـقـة ورحـمـة بوالدته، وكان إذا أم الناس فى الصـلاة تخفف رأفة بالضعفاء وذوى الضـرورات، وكان لا يجلس إليه أحد من أصـحابه وهو يصلى إلا خفف صـلاته وسـأله عن حـاجته، بل كان فى مـوعظته للناس – وهى من أهم الأمـور – يقـصـد إلى التـخـفيف شـفـقـة ورحـمـة بهم، قـال عبـد الله بن مسعود: كان رسول الله يتخولنا للموعظة مخافة السآمة علينا.

ومما يروى أن أعرابيا جاء إلى الرسول يطلب عطاء فأعطاه ثم قال له: هـل أحسنت إليك؟ فقال الأعرابى لا ولا أجـمل، فغضب المسلمون من هذا الرد الجـافى وهموا به فـأشار الرسـول إليهم أن كفوا ثم قام فـدخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال: هل أحسنت إليك؟ قال: نعم فجـداك من أهل وعـشـيـرة خيـرا فـقـال لـه النبى صلى الله عليـه وسلم أنك قلت مـا قلت وفى أنفس أصـحابى من ذلك شئ فـإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب مـا فى صـدورهم عليك قـال: نعم، فلمـا كـان الغـد جـاء الأعـرابى فـقـال الرسـول لأصـحـابه أن هذا الأعرابى قال ما قـال فزودنا، فزعم أنه رضى، أكذلك، فقال الأعـرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشـيـرة خيرا، فقـال عليه السـلام: (مثلى ومثل هذا مثل رجل له نـاقة شـردت عليه فـاتبـعـهـا الناس فلم يزيدوها إلا نفـورا فنـاداهم صـاحبـهـا خلوا بينى وبين نـاقـتـى فـأنـى أرفق بهـا منكم

وأعلم، فتوجه بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت وأناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وأنا لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار.)[٦٨]

فهذا موقف رائع من مواقف الرسول يدل على حكمة وكياسة كما يدل على حلم وعفو ورأفة ورحمة، ويرشد المسلمين إلى ما يجب أن يكونوا عليه من معاملة مثل هذا الأعرابى بالتى هى أحسن، حتى يكونوا دائما دعاة تآلف ومحبة، وحتى يظل المجتمع الإسلامى صورة حية واقعية للقيم والمبادئ التى صلح عليها شأن الدنيا والآخرة، ولا مجال هنا للنص على كل مظاهر رأفة الرسول ورحمته فهى كثيرة ومتنوعة، ويمكن لمن أراد أن يقف عليها ويتزود منها أن يرجع إلى بعض أمهات كتب الحديث والسيرة وبعض المؤلفات الحديثة التى تناولت هذا الجانب فى شخصية الرسول[٦٩] .

وأما الآية الثانية وهى التى تتحدث عن صلة الرسول بربه فإنها تخاطب الرسول عليه السلام بأن يلجأ إلى الله أن أعرض عنه قومه، أنها تصل الرسول بالقوة التى تحميه وتكفيه لأن الله وحده هو صاحب الحول والطول وإليه ينتهى الأمر كله..

إن الله سبحانه بين أن رسوله لن يدخر وسعا من أجل هداية قومه وأنهم سيعرضون عنه وسيؤذونه فى نفسه وأهله وأصحابه وأن هذا الإيذاء والإعراض سيكون مصدر ألم للرسول لأنه حريص على هداية قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فجاءت هذه الآية بعد تلك الآية التى امتن الله فيها على قومه بإرسال رسول منهم يعطف عليهم ويرأف بهم، لتكون بمثابة التسليح للرسول والتذكير له بأن يلجأ إلى الله أن اعرض عنه قومه فهو وحده نعم المولى ونعم النصير، ولتعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى، ويعرض عن الاهتداء والانتفاع بما جاءهم به من يعرض، ولتصله بالقوة التى تحميه وتكفيه..

(فإن تولوا فقل حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فإن تولى هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك فأدبروا عنك، وانصرفوا عن الإيمان بك، ولم يقبلوا على ما أتيتهم به من النور والهدى، وما دعوتهم إليه من النصيحة فى الله "فقل حسبى الله" هو محسبى الذى يكفينى أمر توليهم وإعراضهم، وما يعقبه من عدواتهم لى وصدهم عن سبيلى، وقد بلغت وما قصرت.

(لا اله إلا هو) لا معبود غيره ألجأ إليه بالدعاء والاستعانة، كما يلجأون إلى آلهتهم المنتحلة.

(عليه) وحده (توكلت) وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصرى ومعينى على من خالفنى وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس، فلا أكل أمرى فيما أعجز عنه إلى غيره، ولا أرجو ولا أخاف إلا منه، وكيف لا أخصه بالتوكل (وهو رب العرش العظيم) الذى يملك كل ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده، وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده وفى ملكه وسلطانه، لأن العرش العظيم أنما كان يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دون فى سلطانه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه.

قال المنار: (وهو رب العرش العظيم) الذى هو مركز تدبير أمور الخلق كلها، كما قال: (ثم استوى على العرش يدبر الأمر)[٧٠] ..

وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه، وعظمتهما فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى المظهر الوجودى لعظمة هذا الرب التى لا تحد ولا يدرك كنهها أحد، ودليل على أنه الإله الحق الذى لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره، أو يتوكل على سواه من يعلم أنه هو الرب المالك للعالم كله والمدبر لأموره.

ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه فرارا من التشبيه الذى يستلزمه، بزعمهم المبنى على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، وقياس الخالق على المخلوق، وهو قياس باطل بإجماعهم.

وفى الدر المنثور روايات فى وصف العرض ومادته، هى من الإسرائيليات لا يصح فيها شئ مرفوع. [٧١]

إنه ختام سورة القتال والجهاد: الارتكاز إلى الله وحده، والاعتماد على الله وحده، واستمداد القوة من الله وحده، فإليه تنتهى القوة والملك والعظمة والجاه، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه، وهو رب العرش العظيم.

وقد ورد فى فضل هذا الختام لهذه السورة المباركة ما رواه أبو داود عن أبى الدرداء موقوفا، وابن السنى عن أبى الدرداء مرفوعا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال حين يصبح وحين يمسى حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - سبع مرات- كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة). [٧٢]

مدى اهتمام هذه السورة بشخص رسول الله

بقيت كلمة أخيرة عن مدى اهتمام هذه السورة -ولا سيما الآيتين الأخيرتين منهما- بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبراز صفاته الطيبة وخلاله الكريمة.. لقد اصطفى الله للرسالة الخاتمة رجلا عظيما يناسب قدرها، فعظمة تلك الرسالة من عظمة ذلك الرسول، ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها..

واختاره على نمط معين أخلاقا وخلالا وزمانا ومكانا ونسبا (أن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم)[٧٣] (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدتى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شئ)[٧٤] (بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) وعن أبى ذر قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما بقى شئ يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) (إلا وأنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر

عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: أن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مغازة، ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: أرأيتم أن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، قال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لى أن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضا هى أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه، فاتبعونى، فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه).

وقد أظهرت السورة اهتمامات عالية برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرنت اسمه باسم ربه عز وجل فى كثير من آياتها، وأبرزت علو مكانته وعناية الله به، وحقوقه الواجبة على أمته وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها.. وسأجمل ذلك فى ثلاث نقاط:

أولا: فى اقتران اسمه باسم ربه، وحقه صلى الله عليه وسلم بحقه عز وجل وفيه أربعة عشر شاهدا:

١، ٢- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) (وأذان من الله ورسوله) فقرن تعالى اسم نبيه باسمه فى تبليغ أحكامه وتنفيذها.

٣- وفى وصف كملة المؤمنين قوله تعالى (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة).

٤- جعل كمال الإيمان مشروطا بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب فى هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع (أحب إليكم من الله ورسوله).

٥- فى صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) على القول بأن رسوله فى الآية هو الفرد الأكمل خاتم النبيين، وهل العطف فى الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظه منه التبليغ عن الله تعالى نصا ولو فى غير القرآن أو استنباطا؟ اختلف علماؤنا -فى هذه المسألة - فى التشريع الدنيوى دون الدينى المحض.. فذهب بعضهم إلى الأول وجعلوا منه تحريمه صلى الله عليه وسلم للمدينة ومكة أن يصاد صيدها أو يختلى خلاهما، وذهب آخرون إلى الثانى ومنهم الإمام الشافعى.

٦- وفى سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم (أنهم كفروا بالله وبرسوله) ومثله فى عدم انتفاعهم باستغفار النبى صلى الله عليه وسلم (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) وهذا ظاهر، فإن الدين إنما يكون بالجمع بين الإيمان بالله والإيمان برسوله وما جاء به، وأنى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه إليهم؟.

٧- وفى الدين لمزوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة الصدقات، وكانوا يرضون إذا أعطوا ويسخطون إذا منعوا (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون) فقد جمع فيها بين اسم الله واسم رسوله فى

موضعين: أحدهما الرضا بما آتيا وأعطيا بالفعل، والثانى الرجاء فيما يؤتيان من بعد، وأما الرسول فهو القاسم للغنائم والصدقات بإعطائها لمستحقيها بالحق والعدل.

٨- وفى حلف المنافقين لإرضاء الناس ترد عليهم السورة (والله ورسوله أحق أن يرضوه أن كانوا مؤمنين) فمقتضى الإيمان الذى لا يصح بدونه، تحرى المؤمن إرضاء الله ورسوله فى المرتبة الأولى وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم فى المرتبة الثانية التابعة للأولى، ذلك بأن كل ما يرضى الله يرضى رسوله، وكل ما يرضى رسوله يرضيه تعالى فهما متلازمان.

٩- (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم) فإن من يعادى الله، يعادى رسوله، كما أن من يرضى أحدهما يرضى الآخر ومن ثم كان الجزاء واحدا.

١٠- وفى المنافقين الذين كانوا يخوضون فى مسألة غزوة تبوك ويهزأون بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول صلى الله عليه وسلم النصر عليهم، وبما كان وعد به أصحابه من الظفر بملكهم (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟) فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر، وهو حكم الاستهزاء برسوله.

١١- وفى التخلف عن غزوة تبوك وفى الأعذار المنتحلة (وقعدوا الذين كذبوا الله ورسوله) ومعنى كذبهم إياهما: إظهار الإيمان بهما كذبا وخداعا، ومن كذب الرسول فى دعوى الإيمان، فقد كذب الله وأن لم يشعر بذلك، واستحق الجزاء الذى فى الآية.

١٢- وفى أصحاب الأعذار الصادقة فى التخلف عن الجهاد الواجب (إذا نصحوا لله ورسوله) فاشترط لقبول عذرهم فى القعود عن القتال، النصح لله رسوله فى كل قول وعمل يقدرون عليهما فى مقاومة الأعداء ومساعدة المؤمنين.

١٣- وفى المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك (وسيرى الله عملكم ورسوله) والمراد من ذكر رؤية الرسول لها: إعلامهم أنه هو الذى سيعاملهم بمقتضاها فى الدنيا دون أقوالهم فى الاعتذار، وأما رؤية الله لها فهى التى عليها مدار الجزاء فى الآخرة. وفى معناها (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فالرسول يرى أعمالهم ويعاملهم بمقتضاها، وهذا خاص بحال حياته صلى الله عليه وسلم، وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى، ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم.

١٤- وفى الإعراب المؤمنين (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول باسم الله فى موضوع واحد مع الفصل بين ماله تعالى وما لرسوله.. فالذى لله قصد القربى والذى للرسول دعاؤه واستغفاره.

ثانيا: علو مكانته صلى الله عليه وسلم وعناية الله به وتكريمه وتأديبه وتكميله إياه: وفيه إحدى عشرة منقبة:

١- جعل الإيمان به وطاعته وحبه مقرونة فى المرتبة والثناء والثواب بماله عز وجل من ذلك على عباده، وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه وإغضابه وإيذائه مقرونة فى الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الأليم بالكفر بالله وعصيانه.. وتجد فى السورة من

الأمرين مفصلا فى الآيات السابقة.

٢- إنزال الله سكينته عليه وتأييده بجنوده يوم حنين.

٣- نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعيته الخاصة لهما، وإنزال السكينة عليهما، وتأييدهما بجنوده من الملائكة.

٤- إتمام الله نوره به، وقال بعضهم: إنه هو صلى الله عليه وسلم نور الله المراد من الآية ٣٢ .

٥- قوله تعالى بعدها (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وهى مشتملة على عدة مناقب.

٦- قوله تعالى له (عفا الله عنك، لم أذنت لهم؟) وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه أن أعلمه بعفوه عنه قبل إعلامه بخطأ الاجتهاد فى أذنه.

٧- إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان فى جانب حكم الله فيهم، وهو أنه لا يغفر للمصرين على نفاقهم، وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة.

٨- إعلامه تعالى بأنه: ليس من شأن النبى صلى الله عليه وسلم من حيث هو نبى، ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرب، بعد أن فعلوا ذلك.

٩- نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الأكبر الأكفر عبد الله بن أبى ابن سلول، والقيام على قبره عند دفنه، تكريما لنجله المؤمن الصادق، وتأليفا لقومه، وكان أكثر المنافقين منهم.. وهذا النهى يتضمن الإنكار والتأديب والحد الذى يجب الوقوف عنده.

١٠- نهيه عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم، وإعلامه بأن الله يعذبهم فى الدنيا قبل الآخرة على القول بأن الخطاب له صلى الله عليه وسلم.. وهو تأديب من الله تعالى، وتكميل للنبى والمؤمنين، للسمو بأنفسهم عن تعظيم شأن قسوة الأموال وعزة الأولاد.

١١- توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين، وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم فى أثر غزوة تبوك.

ثالثا: فضله صلى الله عليه وسلم على أمته وحقوقه الواجبة عليهم، وحكم اخلالهم بها وتقصيرهم فيها.. وهى ثلاثة أقسام:

أ) فى صفاته الخاصة، وفيه بضع مزايا وفضائل:

١- وصف الله تعالى له بأنه أذن خير، فى الرد الحكيم على قول بعض المنافقين.. هو أذن، يعنون أنه يصدق كل ما يقال له فيسهل عليهم خداعه، وقد فسر وصفه بأنه أذن خير بقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين).

٢- (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى بما كان سببا لهدايتهم واسباغ اله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بإيمانهم وعملهم بما جاءهم به.

٣- وصفه بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات، لأنه كان يبين

للمؤمنين حكمة الزكاة، وأن فيها خير الدنيا والآخرة، وكان يقسمها بين مستحقيها بالعدل، ويحرم - بإذن الله - على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شئ منها.

٤- وصف دعائه للمتصدقين - بعدما ذكر - بأنه سكن له، تطمئن به قلوبهم، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم، ولا عجب فإن كل مؤمن متصدق مخلص يناله حظ من دعاءه صلى الله عليه وسلم للمتصدقين إلى يوم القيامة.. لكن لم يرد فى القرآن ولا فى السنة ولا فى سيرة الصحابة والتابعين أن النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد.

٥- وصفه تعالى إياه بما أمتن به على قومه من قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) فأثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم، وأنه يعز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والإرهاق فى دينهم أو دنياهم.

٦- وصفه بعد ما تقدم بقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية، ورأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين غير إرسال الله تعالى إياه رحمة لهم خاصة، وغير إرساله رحمة للناس كافة.. فإن رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التى ظهر أثرها فى سياسته ومعاشرته لهم وتأديبه إياهم وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم، كما ترى فى هذه السورة وغيرها، وشواهد سيرته صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها.. فتأمل خطبته صلى الله عليه وسلم فى الأنصار فى أثر إنكار بعض شبانهم وعوامهم حرمانه إياهم من غنائم حنين، تجد العجب العجاب، والكمال الذى لم يتم لبشر كما تم له صلى الله عليه وسلم.

وأما إرساله رحمة للعالمين وللمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التى هى أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها.

ب) ما يجب له صلى الله عليه وسلم على أمته، وفيه خمس واجبات:

١- وجوب حبه صلى الله عليه وسلم بالتبع لحب الله تعالى فى ثمرة الإيمان، وتفضيل حبهما على كل ما يحب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا (آية ٢٥).

٢- وجوب تحرى مرضاته بالتبع لمرضاة الله (آية ٦٢).

٣- وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله (ويطيعون الله ورسوله) (آية ٧١).

٤- وجوب النصح له بالتبع لنصح الله (إذا نصحوا لله ورسوله) (آية ٩١).

٥- وجوب نصره كما يؤخذ من آية (ألا تنصروه فقد نصره الله) ويؤيدها ما يفيد من حظر التخلف عنه.

ج) ما يحظر عليهم من إيذاء وتقصير فى حقه صلى الله عليه وسلم، وهو خمس:

١- حظر إيذائه صلى الله عليه وسلم والوعيد عليه (آية ٦١).

٢- حظر معاداته والوعيد عليها (آية ٦٣).

٣- الكفر الصريح بالاستهزاء به (آية ٦٥).

٤- حظر القعود عن الخروج معه فى الجهاد (الآيتان ٨١، ٩٠).

٥- حظر تخلفهم عنه والرغبة بأنفسهم عن نفسه (آية ١٢٠).

فينبغى لكل مؤمن أن يتأسى به صلى الله عليه وسلم فى بذله ماله ونفسه لله والجهاد فى سبيل الله بقدر إمكانه (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا).

الهوامش

١) تفسير الطبرى ج١٤ ص٥٥٨

٢) البقرة ١٧٧

٣) الاحزاب ٢٣

٤) الحشر ٨، ٩

٥) رواه أحمد والبخارى ومسلم

٦) ذكره الرازى ج٤ ص٧٦١

٧) روى ابن عدى الأول عن عمران بن حسين، والثانى عن على.

فإن النفير كان فيهم بخلاف غيرهم فإنهم لم يستنفروا فى قول بعضهم، ويحتمل أن يكون الاستنفار فى كل مسلم، وخص هؤلاء بالعقاب لقربهم وجوارهم. فلا يخفى عليهم خروج الرسول، وأنهم أحق بذلك من غيرهم. والظاهر أن بعض هذه القبائل - لا كلهم - هو الذى تخلف وأن البعض الآخر قد استجاب وغزا لأنه قد تاب من قبل ذلك لقول الدكتور الكومى: كما لا يرد على صدق توبة الكثير منهم قوله (وممن حولكم من الأعراب منافقون) الآية. وقوله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب.. فإن هاتين الآيتين نزلتا فى حق طائفة قليلة من هؤلاء الأعراب لم يكونوا أخلصوا فى إيمانهم. قاله فى رسالته (تفسير سورة الفتح) ص١٠٨ .

٨) وظاهر الآية وجوب الجهاد على كل هؤلاء، الا أن المرضى والضعفاء والعاجزين مخصصون بدليل العقل، وبقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) (ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولاعلى الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) وأما أن الجهاد غير واجب على كل أحد بعينه فقد دل الاجماع عليه، فيكون مخصوصا من هذا العموم، وبقى ماوراء هاتين الصورتين داخلا تحت هذا العموم

٩) (كتب لهم) أى أثبت لهم – أو كتب فى صحف أعمالهم – أو فى اللوح المحفوظ

١٠) قال الرازى ج٤ ص٧٦٣، ٧٦٤: (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فيه وجهان الأول أن الأحسن من صفة فعلهم وفيها الواجب والمندوب والمباح، والله تعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح، والثانى أن الأحسن صفة للجزاء، أى يجزيهم جزاء هو أحسن من أعماله وأجل وأفضل وهو الثواب. وأشار البيضاوى إلى المعنيين فقال: جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم. ص٢٧٠ (تفسير البيضاوى)

فرقة: جماعة كثيرة، طائفة: جماعة قليلة، وحمل الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق و(من) التبعيضية، لأن البعض فى الغالب أقل من الباقى، والا فالجوهرى لم يفرق بينهما، وهذا القدر من المعنى إلى هنا مشترك بين الرأيين فى تفسير الآية وعلى الرأى الأول- الذى نحن بصدده – لابد أن فى الآية من اضمار، والتقدير: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة وأقامت طائفة، ليتفقه المقيمون فى الدين، ولينذروا قومهم، يعنى النافرين إلى الغزو.

١١) تفسير المنار ج١١ ص٧٩،٨٠

١٢) تفسير الواضح ج١١ ص٢٥

تفسر القرآن للتسترى ص٦٥

١٣) تفسير الواضح ج١١ ص٢٥

١٤) تفسير الرازى ج٤ ص٧٦٥، ص٧٦٦

١٥) سورة الشعراء ٢١٤

١٦) سورة الشورى ٧

١٧) الانعام ١٩

١٨) المائدة ٥٤

١٩) الفتح ٢٩

٢٠) التوبة ٧٣، التحريم٩

٢١) ذكره ابن كثير ج ٢ ص٤٠٢

٢٢) الانفال ٣٩

٢٣) البقرة ٢٥٦

٢٤) التوبة ١١١

الأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية، ولا عهد فى غير هذه الحالة الا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالته تشبه الحالة التى هم فيها.

٢٥) اخرجه مسلم وأبوداود والترمذى

٢٦) أخرجه الشيخان

٢٧) أخرجه أبو داود - باسناده- عن رجل من جهينة

٢٨) اخرجه مسلم وأبوداود والترمذى

٢٩) أخرجه الشيخان

٣٠) أخرجه أبو داود - باسناده- عن رجل من جهينة

٣١) تفسير الرازى ج٤ ص٧٦٨

٣٢) الانفال ٢٢

٣٣) القتال ٢٤

٣٤) والجملة خبر أو دعاء والمضمون واحد

٣٥) آل عمران ١٧٣

٣٦) الفتح ٤

٣٧) ورد هذا الحديث عن عمر وجابر

٣٨) من رسالة (تفسير سورة الفتح وبيان الفتوح المتصلة بها) للدكتور أحمد السيد على الكومى من ص ٥٧-٦٠

تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٠٢

٣٩) ج١ ص٢٠٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٤٠) تفسير المنار ج١١ ص٩٠

٤١) أنظر تفسير الطبرى ج١٤ ص٥٨٤ دار المعارف، القرطبى ج٨ ص٢٠١ طبعة دار الكتب

٤٢) سورة الجمعة ٢

٤٣) سورة آل عمران آية ١٦٤

٤٤) سورة يونس آية ٢

٤٥) سورة الأعراف ١٥٨

٤٦) تفسير المنار ج ١١ ص٨٧

٤٧) من أخلاق النبى للدكتور أحمد الحوفى، ص١٧٨ للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٤٨) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى، ج٤ مادتى عز وعنت ط المجلس الأعلى لشئون الإسلامية

٤٩) وقيل العنت المشقة ولقاء المكروه الشديد، وقيده الراغب بما يخاف منه الهلاك، ومن ذلك (ذلك لمن خشى العنت منكم) (ولو شاء الله لأعنتكم) وعز على فلان الأمر ثقل واشتد عليه

٥٠) هذه الآية جاءت فى سورة يوسف - الآية ١٠٣- بعد ذكر قصته عليه السلام، لأن العرب سألت الرسول عن هذه القصة، فلما نزل الوحى، بها ظن الرسول أن قومه سيؤمنون به، غير أنهم لم يستجيبوا له، فحزن لذلك، لأن ما كان يحرص عليه ويجهد فى سبيله لم يتحقق، فنزلت هذه الآية تسلية للرسول - القرطبى ج٩ ص ٢٧١ طبعة المجلس الأعلى.

٥١) الآية ٣٧ سورة النحل

٥٢) القصص ٥٦

٥٣) الكهف آية ٦

٥٤) الشعراء آية ٣

٥٥) فاطر آية ٨

٥٦) مجلة الأزهر السنة الخامسة والثلاثون ص٢٧٠

٥٧) القرطبى ج٨ ص٣٠٢، ومجمع البيان فى تفسير القرآن ج١ ص١٦٩ ط بيروت

٥٨) الحج ٦٥

٥٩) لسان العرب مادتى رأف ورحم

٦٠) التوبة ٧٣ والتحريم ٩

٦١) آل عمران ١٥٩

٦٢) من خلق النبى ص ١٩٤

٦٣) الاحزاب آية ٢١

٦٤) رسالة النبى ص ١٩ طبعة جريدة الأهرام ١٣٧٠هـ

٦٥) مثل: محمد المثل الكامل المرحوم جاد المولى، وبطل الأبطال لعبدالرحمن عزام ومن أخلاق أحمد الحوفى

٦٦) سورة يونس ٣١)

٦٧) تفسير المنار ج١١ ص٩٠،٩١

٦٨) كذلك فى الدر المنثور للسيوطى

اخرجه مسلم عن وائلة بن الاصقع

٦٩) ذكره ابن كثير ج٢ ص٤٠٣ نقلا عن الرامهرمزى

٧٠) أخرجه البخارى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة

٧١) أخرجه الطبرانى

٧٢) رواه أحمد بن مسعور

٧٣) رواه أحمد بن ابن عباس

٧٤) ملخص من تفسير المنار ج١١ ص١٠٤-١١٤

خاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة مع سورة التوبة، تلك السورة العظيمة التى حددت العلاقة بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات، وبعد هذا التجوال غير الطويل مع السياسة الخارجية للدولة الإسلامية بعامة والجناح العسكرى لها بخاصة، وبعد تلك الحرب المعلنة على ثلاث جبهات وفى ثلاثة ميادين وأن اختلفت أساليب الحرب فى بعضها عن البعض الآخر.. جبهة المشركين، وجبهة أهل الكتاب، وجبهة المنافقين.. والإعداد الضخم للقوى المادية والمعنوية، وحشد الطاقات المالية والبشرية.. بعد ما رأينا ذلك كله وعشنا معه، أرى فى نهاية المطاف أن أقدم كلمة فى غاية الإيجاز والاقتضاب عن بعض الجوانب الرئيسية التى تضمنتها السورة - حتى يسهل علينا الإلمام بمحورها وموضوعها - من مثل أحكام القتال والمعاهدات، وذم الكفار والمنافقين، والقواعد والأصول السياسية والحربية، وبعض صفات المؤمنين وأعدائهم.

أحكام القتال والمعاهدات والصلح

١- البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركى مكة قد ناصبوا النبى صلى الله عليه وسلم العداوة منذ دعا إلى التوحيد، وتبعهم سائر العرب فكانوا حربا له ولمن آمن به، يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه إذا لم يكن له من يحميه من المشركين.

ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم فى دار هجرتهم، وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده حتى إذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون إلى عقد صلح معهم فى الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والأمان مدة عشر سنين، ولم تلبث قريش مع أحلافها من بنى بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سببا فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله فى حنين والطائف، فنصره الله عليهم.

وأمره فى السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم فى موسم الحج.

٢- إعلام المشركين بذلك إعلاما عاما فى يوم الحج الأكبر الذى تجتمع فيه وفود الحاج من جميع القبائل في منى، بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب فى أقرب وقت، لأن الإسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة فكان لابد من إعلامهم بذلك بما ينتشر فى

جميع قبائلهم، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين وهذا من عدل الإسلام ورحمته، لأن المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشئونهم ومصالحهم العامة فيكتفى بإبلاغه مثل هذا، كما هو المعهود فى الدول الملكية أو الجمهورية. ولم يكن فى عصرهم صحف منتشرة عامة، ولا آلات للأخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ.

٣- منحهم هدنة أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا آمنين مطمئنين أحرارا فى سيرهم وإقامتهم وسائر أعمالهم الدينية والدنيوية، ليتروووا فى أمرهم، ويتشاوروا فى عاقبتهم، وفى هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفتخر به المسلمون بحق. (١)

٤- وعظهم بأنهم أن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين وقتالهم والغدر بهم، فهو خير لهم لأنهم لن يعجزوا الله فى الأرض ولن يعجزوه هربا منها، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبر أن يكثر أتباعه ويبايعه أنصاره، وأنجز له وعده فى جملة غزواته معهم. (٢)

٥- استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام فى الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده شيئا ولم يظاهروا عليه أحدا من أعدائهم المشركين ولا أهل الكتاب، كما نقض أهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بنى بكر على أحلاف النبى صلى الله عليه وسلم بنى خزاعة، والأمر بإتمام عهدهم إلى نهاية مدته، وتعليله بأنه من التقوى التى يحبها الله بشرط أن يظلوا مستقيمين عليه.

٦- الأمر باستعمال جميع أسباب القتال معهم بعد انسلاخ أشهر الهدنة التى ضربت لهم وحرم فيها الاعتداء عليهم.. وهى القتل والأمر والحصار والقعود لهم فى جميع المواعيد لمراقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب فى البلاد، وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لنظم الإسلام العادلة الرحيمة، فإن استعمل العدو ما هو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

٧- تخلية سبيل من يتوبون من الشرك - بالنطق بالشهادتين - ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لأنهم بهذا يدخلون فى الإسلام، ومن قبل الصلاة والزكاة والتزمهما فلابد أن يلتزم غيرهما.

٨- إيجاب إجارة من يستجير النبى صلى الله عليه و سلم منهم - وفى حكمه الإمام الأعظم ونائبه والقائد العام فى حال الحرب - لأجل أن يسمع كلام الله ويقف على دعوة الإسلام، وإبلاغه بعد ذلك المكان الذى يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين.

٩- تعليل نبذ عهد المشركين السابق وعدم استئنافه معهم للأسباب الآتية:

أ) أنهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك، ليأخذوا أهبتهم.

ب) أن من دأبهم وشأنهم أنهم إذا ظهروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يرقبون فيهم عهدا ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة.

ج) أنهم ينافقون ويكذبون عليهم فى حال الضعف، فيرضونهم بأفواههم ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس فى قلوبهم والسواد الأعظم منهم خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

د) أنهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الإسلام وأهله لأجل منفعة قليلة يتمتعون بها، ويخافون أن تسلب منهم بالتزام شريعته التى تحرم أكل أموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لأجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك.

هـ) أنهم مع كونهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة فى حال القوة ولا فى حال الضعف هم المعتدون على المسلمين بالقتال فلا يمكن أن يظلوا معهم كذلك فى كل حال.

و) أنهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها، فلا ثقة بها فتراعى.

ز) أنهم هموا بإخراج الرسول من وطنه، بل هم الذين اضطروه إلى الخروج هو وسائر من آمن معه، وذلك بعد أن تواطأوا على قتله.

ح) أنهم هم الذين بدأوا المؤمنين بالقتال أول مرة وبقيت الحرب مستمرة فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها. (٣)

١٠- وجوب قتال مشركى العرب كافة إلا أن يسلموا (٤) ووجهه ما علم من جملة الآيات فى قتال مشركى العرب، وهو عدم قبول الجزية منهم، وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين فى بلادهم مع بقائهم على شركهم، لأنهم لا أمان لهم ولا عهود، فيمكن أن يعيش المؤمنون معهم بسلام.

١١- تحريم ولاية الكفار من الآباء والإخوان كغيرهم على المؤمنين وكونها من الظلم العظيم.

١٢- حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ومن فروع هذه المسألة: الفرق فى القتال بين مشركى العرب وسائر الوثنيين ومنها أن ما فى هذه السورة من قتالهم وقتال أهل الكتاب إنما هو فى بيان غايته لا فى بدايته، وأن أول ما نزل من التشريع فى القتال آيات سورة الحج (٣٩-٤١) ثم آيات البقرة التى أولها (١٩٠)، ويليها آيات الأنفال فآل عمران فمحمد فهذه السورة.

١٣- وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هى علة عدوانهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه، ليأمن أهله على أنفسهم وحرية دينهم معهم. (٤)

١٤- إبطال النسئ فى الأشهر الحرم لأجل القتال وكونه تشريعا جاهليا.

١٥- النفير العام وهو ما يكون القتال به واجبا بشركه على الأعيان، وإما النفير الخاص فهو فى غير حال النفير العام.

١٦- الاستئذان فى التخلف عن الجهاد بالمال والنفس من علامات النفاق ومنافيات الإيمان بالله واليوم الآخر.

١٧- وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين فى المعاملات المدنية والأدبية وهم الخاضعون لأحكام الإسلام.

١٨- الأعذار المبهجة للتخلف عن الجهاد هى الضعف والمرض والفقر.

١٩- وجوب بذل الأنفس والأموال فى القتال المشروع لإعلاء كلمة الله، وهى الحق للعدل، باشتراء الله إياهما من المؤمنين بأن لهم الجنة.

٢٠- قتال الأقرب فالأقرب من الكفار الحربيين.

القواعد والأصول السياسية والحربية

المأخوذة من المسائل والأحكام السابقة

١- جواز البراءة من العهود ونبذها للمعاهدين لدفع المفاسد المترتبة على بقائها.

٢- عقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الأمة، لأن لها غنمها وعليها غرمها، وإنما يعقدها الإمام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الأمة.

٣- نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به، كما أمر الله بالأذان به يوم الحج الأكبر. والإذاعة تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأحوال البشر فى حضارتهم وبداوتهم.

٤- وجوب الوفاء بالمعاهدة مادام الطرف الآخر من الأعداء يفى بها ولا ينقص منها شيئا.

٥- المعاهدة الموقوتة تنتهى بانتهاء مدتها.

٦- أن القبائل أو الشعوب التى ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض العهود، وجرب عليها نكثها للإيمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة، ولا تجديد ما انتهت مدته منها،(٢) والدول الحديثة فى الشرق أو الغرب تعمل بهذه القاعدة، فلا تعقد المعاهدات إلا مع الدول المنظمة التى تلتزم بالشرائع والقوانين الدولية.

٧- الهدنة بين المحاربين مشروعة، وللمسلمين أن يبدأوا بها إذا اقتضت ذلك المصلحة، ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين.

٨- تأمين الحربى بالأذن له بدخول دار الإسلام جائز للمصلحة، فإذا استأمن لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الإسلام وجبت إجارته، ثم ابلاغه مأمنه عند الخروج من دار الإسلام.

٩- انتهاء قتال مشركى العرب منوط بالدخول فى الإسلام، ومفتاحه التوبة من الشرك والتزام أحكام الإسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة.

١٠- انتهاء قتال أهل الكتاب ومن فى معناهم يناط بالإسلام أو باعطاء الجزية مع الخضوع لأحكام شرعنا.

١١- النفير العام الذى يكون به الجهاد فرضا على الأعيان عند التقاء الصفين أو استنفار الإمام أو مهاجمة أعداء بلاد المسلمين.

١٢- امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد فى غير حال النفير العام.

١٣- العجز عن القتال أو الخروج إليه عذر فى التخلف عنه.

١٤- سياسة الإسلام فى المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدوا من أعمالهم، وأن للإمام الأعظم أو عليه - ومثله نوابه من أولياء الأمور - أن يعرض فى الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقبيح ما يعلم من سوء أعمالهم، والإنذار بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها أو الحذر من إظهار ما يضمرونه من الشر الذى يترتب عليه العقاب.

وتتضمن هذه السياسة الأصول الثلاثة الآتية فى حرية الدين ومعاملة المنافقين:

أولا: أن حرية الاعتقاد والوجدان مرعية لا سيطرة عليها للرؤساء الحاكمين ولا للمعلمين والمرشدين، وإنما لهؤلاء حق فى التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنسانا بإضمار الكفر، ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بإرادة السوء لقومه وأمته، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدنى ولا مال، ولا بحرمانه من الحقوق التى يتمتع بها غيره من أفراد الأمة.

ثانيا: أنه ليس لمن يضر الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنة للناس بإظهار ذلك لهم ودعوتهم إليه، أو الطعن فى عقائدهم، أو بإظهار ما ينافيها من قول أو عمل، وأن لم يكن دعوة ولا طعنا، فإن فعل ذلك وكان يدعى الإسلام يحكم بارتداده وخروجه من الملة أن كان ما أظهره من الكفر صريحا قطعيا مجمعا عليه لا يحتمل التأويل، ويترتب عليه ما هو مقرر فى الشرع من استتابته وعقابه أن لم يتب، ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين، وفسخ نكاحه بالمسلمات، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه فى مقابر المسلمين، لأن حرية كل أحد فى اعتقاده تقف عند حرية غيره ولا سيما احترام عقائد الملة التى يعيش فى ظل شريعتها وسائر شعائرها وعباداتها، ومما يجدر التنبيه عليه أن كثيرا من الفقهاء قد أسرفوا فى أبواب الردة فى المسائل التى يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة، وبنوا كثيرا منه على اللوازم البعيدة والمحتملة للتأويلات القريبة، وما ورد فى صفات المنافقين فى هذه السورة حجة عليهم، وأن قال بعض العلماء المتقدمين: إن ما كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم نفاقا لا ينافى ظاهر الإسلام هو الآن كفر محض لا تقبل معه دعوى الإيمان، فهذا قول باطل، فكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما الحجة فى الدين، والاهتداء بهما هو الواجب إلى يوم الدين، فيجب قبول قول كل من أظهر الإسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لا يحتمل التأويل.. ومما يحتمل التأويل احتمالا ظاهرا جميع المباحث العلمية المخالفة لظواهر النصوص كما هو مقرر فى الأصول.

ثالثا: أن من ظهر منه شئ من إمارات النفاق العملى فى الدين، أو الخيانة للأمة والملة بما هو غير صريح، مما لا يعاقب عليه فى الشرع بحد ولا تعزير، فلولى الأمر أن يعظه بالتعريض ثم بالتصريح والتكشيف، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزغه عن غيه من التأديب كالحرمان من مظاهر التشريف أو الازورار والتقطيب أو التأنيب والتعنيف، ومنه حرمان النبى صلى الله عليه و سلم للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه إلى غزوة أخرى بقوله تعالى: "فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا" ولكن الملوك والرؤساء المستبدين يقربون إليهم المنافقين فيزيدونهم فسادا، ويجرئون غيرهم، حتى أن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق ويذاد عنها أهل الصدق والاخلاص.

شواهد ذم السورة

للكفار والمنافقين

١-٤) وصف المشركين بأنهم لا يرقبون ولا يراعون فى أحد من المؤمنين الا ولا ذمة حتى قطعوا أرحامهم بينهم خلافا لعاداتهم فى عصبية النسب، وأنهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم فاسقون، وأنهم هم المعتدون.

٥) وفى منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله)

٦) " إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا" وكانت نجاستهم معنوية وهى الشرك وخرافاته، وحسية إذا كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة.

٧-١٠) وصف كفار أهل الكتاب بأنهم باتخاذهم ابنا لله سبحانه - يضاهئون قول الذين كفروا من قبلهم كوثنيى قدماء الهند والمصريين وقوله: "قاتلهم الله أنى يؤفكون" ووصفهم بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللهوبأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، أى بكلامهم الباطل فى الصد عن الإسلام وبأن (كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة فى تاريخهم الماضى، وسيرتهم فى هذا الزمان: ومن دقائق الصدق فى القرآن الحكم فى مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع، كما قال فى المشركين: ("وأكثرهم فاسقون" ولم يعهد مثل هذا التحرى فى كلام البشر).

١١) ذكر فى استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون من شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة، والإفساد بين المؤمنين بالتثبية وغيره، ولم يزد فيها على قوله فيهم "والله عليم بالظالمين" وقوله "وأن جهنم لمحيطة بالكافرين"

١٢-١٣) تعليل عدم قبول نفقاتهم بفسقهم ، وبقوله " وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون:

١٤-١٥) وصفهم بعد إثبات استهزائهم فيما بينهم بالله وآياته ورسوله، واعتذارهم عنه بقولهم: "إنما كنا نخوض ونلعب" بأنهم كفروا بعد إيمانهم وأنهم كانوا مجرمين ، ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة: "نسوا الله فنسيهم أن المنافقين هم الفاسقون" أى الخارجون من محيط هداية الدين وسلامة الفطرة.

١٦) قوله فى لمزهم وعيبهم للمتطوعين من المؤمنين فى الصدقات وسخريتهم منهم "سخر الله منهم ولهم عذاب أليم" (٩) أى عاقبهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فضح به نفاقهم الذى كانوا يخفونه.

١٧) قوله فى تعليل عدم غفران الله لهم: "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين" "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون"

١٨-٢٠) أشد ما وصفهم به أنهم رجس ، وأنه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجسا حتى ماتوا على كفرهم، وأنهم عند نزولها ينصرفون عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم عند غفلة المؤمنين عنهم، ثم قال: "صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون" (٥) أى صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب أنهم لا يفقهون من البينات والهدى بمقتضى سنته فى ارتباط الأسباب بمسبباتها.

صفات المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ثم المؤمنين

قد حددت السورة سمات وعلامات لكل جماعة من هذه الجماعات بها تتميز عن غيرها. نحاول أن تعدد بعضها فيما يلى:

أولا: ابرز صفات المشركين: نقض العهد بالغدر وعدم النبذ على سواء - عدم مراعاة الذمة والعهد والقرابة فى المؤمنين فى حال القوة، والكذب والنفاق وقولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم فى حال الضعف - الصد عن سبيل الله وعداوة الإسلام وأهله لأجل منافع قليلة - الفسق والخروج من قيود المواثيق والصدق والوفاء- الاعتداء على المسلمين بالقتل والإبادة وإلحاق الأذى بهم فى كل ميدان وعلى امتداد الزمان.

ثانيا: أبرز صفات أهل الكتاب: الكفر بالله واليوم الآخر - عدم تحريم ما حرم الله ورسوله - عدم الدينونة بدين الحق - جعلهم لله ابنا مضاهاة للوثنيين قبلهم - اتخاذ العلماء والعباد أربابا من دون الله حيث رفضوا شريعة الله، وشرعوا لهم من عند أنفسهم، فأحلوا لهم الحرم وحرموا عليهم الحلال - محاولة اطفاء نوى الله بتشكيك الناس فى الإسلام والرسول والقرآن، واثارة الأراجيف والأباطيل من حوله، وايراد الشبه والحجج الواهية عليه - أكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناسب بالباطل وصدهم عن سبيل الله .

ثالثا: أظهر صفات المنافقين: الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف - قبض الأيدى - نسيان الله تتبع السهل اليسير الذى لا عناء فيه، وترك الصعب الشاق من الأعمال والتكاليف الشرعية - الاستئذان فى التخلف عن الجهاد لأسباب واهية أو مختلقة مع القدرة فى الجسم والسعة فى المال - تثبيط الهمم وإحداث الفساد والقلق والاضطراب والخوف فى الجيش - السعى بالوقيعة والنميمة وإيقاد نار العداوة، وإثارة الفرقة بين الصفوف - الفرح لما يحل بالمسلمين من نكبات وهزيمة، والحزن عندما يصيب المسلمين رخاء وسعة أو انتصار على عدو أو إحراز أى موجب من موجبات المسرة - الكسل عند القيام للصلاة وكراهية الإنفاق فى سبيل الله - الحرص على إرضاء الناس ولو بسخط الله - كثرة الحلف بالله كذبا يدفعهم إلى ذلك شعور بالحذر، وبأن حالهم سينكشف وأمرهم سيفتضح - الخوف والقلق ومحاولة التخفى والاختباء عند قوة الحق وانتصار أهله - التظاهر بالغضب لله وهو فى الحقيقة غضب لمصالح شخصية ومنافع مادية، أن أعطى رض وأن لم يعط سخط - إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم والنيل من أهله ودينه تعريضا أو تلميحا - الخوض واللعب والاستهزاء بالله وآياته ورسوله ودينه - التوجس والتوقع والحذر من كشف ما يخفون وظهور ما يضمرون من سوء وكيد للإسلام وحقد على المسلمين - غدر العهد وخلف الوعد مع الله ومع

الناس، والكذب على الله وعلى الناس - لمز النبى والمؤمنين ومحاولة النيل منهم والسخرية بهم وبأعمالهم الطيبة وبذلهم المشكور - عدم الاستعداد لبذل أى طاقة بدنية أو مالية لنصرة الإسلام ودعوة الغير إلى ذلك - زيادة النفاق عند تلاوة القرآن - التستر وراء شعارات ظاهرها العمل لخدمة الإسلام وهى تخفى وراءها ايقاع الضرر بالإسلام وأهله والكفر والتفريق بين المؤمنين.

رابعا: أظهر صفات المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله - التوبة والعبادة والحمد لله والشكر له على السراء والضراء، والسياحة وهى الصوم أو الجهاد أو الهجرة أو طلبا لعلم أو التفكير فى خلق السموات والأرض وفى ملكوت الله الرحيبة، والقيام على حدود الله - عدم اتخاذ الآباء والإخوان أولياء أن استحبوا الكفر على الإيمان - إيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الأهل والمال والسكن - الاعتقاد بأن النصر من عند الله، وأن توثيق الصلة به هى عدة النصر - ولا ملجأ من الله إلا إليه - وأن ميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير، وقيم السماء هى القيم الحقيقية - وأن لا خشية إلا من الله - تعمير المساجد بشرطه - التقوى والصدق - الاستبشار وزيادة الإيمان عند سماع القرآن - التفقه فى الدين - نبذ عهود المشركين وعدم تجديدها أو تمديدها لهم - الجهاد فى سبيل الله وقتال الأعداء بلا هوادة، وشراء الجنة بالأنفس والأموال- عدم الاستغفار للمشركين أو الدعاء لهم ولو كانوا أولى قربى عندما يتبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم - عدم التخلف عن رسول الله ولاعن نصرة دينه .

هذه صفات المؤمنين، وتلك صفات المنافقين، فمن وجد فى نفسه صفة أو أكثر من صفات المؤمنين فليحمد الله وليطلب الاستزادة، ومن وجد فى قلبه بعض صفات المنافقين فليستعن بالله وليحاول التخلص منها ومعالجة نفسه وقلبه بفعل ما يناقضها من صفات المؤمنين.

(اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين) (اللهم طهر قلبى من النفاق وحصن فرجى من الفواحش).

وبعد: فإن هذه السورة المحكمة تحتوى بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات من حوله، ومن ثم ينبغى أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة فى تلك العلاقات، وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة، حسبما تدل عليها نصوص السورة.

كما ينبغى ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل - هى التى سميناها أحكاما مرحلية - مستندين فى هذه التسمية:

أولا: وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات، ومستندين أخيرا إلى سير الأحداث فى الحركة الإسلامية، وإدراك طبيعة المنهج الإسلامى فى هذه الحركة.. هذه الطبيعة التى بيناها فى التقديم للسورة وفى ثناياها كذلك.. وهذا هو المنهج الذى لا يدركه الا الذين يتحركون بهذا الدين حركة جهادية لتقرير وجوده فى واقع الحياة، وبرد الناس إلى ربوبية الله وحده، واخراجهم من عبادة العباد.

إن هناك مسافة شاسعة بين فقه الحركة، وفقه الأوراق! إن فقه الأوراق يغفل الحركة ومقتضياتها من حسابه، لأنه لا يزاولها ولا يتذوقها! أما فقه الحركة فيرى هذا الدين وهو يواجه الجاهلية، خطوة خطوة ومرحلة مرحلة، وموقفا موقفا، ويراه وهو يشرع أحكامه فى مواجهة الواقع المتحرك بحيث تجئ مكافئة لهذا الواقع وحاكمة عليه، ومتجددة كذلك!

وأخيرا فإن تلك الأحكام النهائية الواردة فى السورة الأخيرة، إنما جاءت وواقع المجتمع المسلم، وواقع الجاهلية من حوله كذلك، كلاهما يحتم اتخاذ تلك الإجراءات وتنفيذ تلك الأحكام.. فأما حين كان واقع المجتمع المسلم وواقع الجاهلية من حوله يقتضى أحكاما أخرى.. مرحلية.. فقد جاءت فى السور السابقة نصوص وأحكام مرحلية..

وحين يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى ويتحرك، فإنه يكون فى حل من تطبيق الأحكام المرحلية فى حينها ولكن عليه أن يعلم أنها أحكام مرحلية، وأن عليه أن يجاهد ليصل فى النهاية إلى تطبيق الأحكام النهائية التى تحكم العلاقات النهائية بينه وبين سائر المجتمعات.

وبعد فليراجع المسلمون موقفهم لعل الله أن يرزقهم القوة من عنده وأن يجعل لهم الفرقان الذى وعد به عباده المتقين.

والله الموفق، والله المعين..

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١) وهذه الأحكام صريحة فى الآيات الثلاث الأولى من السورة

٢) نهاية الآية الثالثة "فإن تبتم".. إلخ وفيها من الأخبار عن المستقبل ما صدقه الواقع.

٣) وهذه الأسباب الثمانية صريحة فى الآيات من ٧إلى ١٠، ١٣

٤) وهو نص الآية الخامسة المعروفة بآية السيف وقوله فى آية ٣٦ "وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة"

المراجع والمصادر

القرآن وتفاسيره:

١- القرآن الكريم

٢- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار تأليف السيد محمد رشيد رضا الجزءان العاشر والحادى عشر الطبعة الأولى - مطبعة المنار بمصر

٣- مفاتح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى الجزء الرابع.

٤- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى - الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٠١ .

٥- تفسير الطبرى جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - تحقيق محمود محمد شاكر - طبعة دار المعارف.

٦- تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى - الجزء الثانى - طبعة عيسى البابى الحلبى - دار إحياء الكتب العربية.

٧- تفسير البغوى - الإمام البغوى - مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٤٧ .

٨- الجزء الأول من الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للإمام العلامة أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى - الطبعة الأولى.

٩- تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل تأليف الإمام عبدالله ابن أحمد بن محمود النسفى _طبع بالمطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٤٤ هـ.

١٠- تفسير البيضاوى القاضى ناصر الدين البيضاوى - مطبوعات أسعد محمد سعيد الجمال وأولاده بجدة.

١١- تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم الطبعة الأولى سنة ١٣٤٧ هـ سنة ١٩٢٨م المطبعة المصرية إدارة محمد محمد عبد اللطيف.

١٢- تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - طبعة كتاب الشعب.

١٣- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (المشهور بحاشية الجمل) تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل - مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر.

١٤- تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل تأليف الشيخ الإمام الحجة علاء الدين على محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن (تفسير الخازن).

١٥- التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط - تأليف أبى حيان - الطبعة الأولى - مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ.

١٦- تفسير غرائب القرآن وغرائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى على هامش كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى الطبعة الأولى (المطبعة الكبرى الأميرية - ببولاق سنة ١٣٢٧ هـ.

١٧- تفسير الجلالين - جلال الدين بن أحمد المحلى وجلال الدين السيوطى - طبعة المطابع البهية المصرية لصاحبها عبد الرحمن أفندى محمد سنة ١٣٤٢هـ سنة ١٩٢٣م.

١٨- فتح البيان فى مقاصد القرآن للسيد حسن صديق.

١٩- التفسير الحديث لمحمد عزة دروزه طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه سنة ١٣٨٣ هـ - سنة ١٩٦٤م.

٢٠- كتاب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى.

٢١- التفسير الواضح - الطبعة الثالثة - لمحمد محمود حجازى مطبعة الاستقلال الكبرى ٨ شارع نجيب الريحانى.

٢٢- تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت - مطبعة دار القلم بمصر سنة ١٣٧٩ هـ الطبعة الرابعة.

٢٣- التفسير القرآنى الكريم تأليف عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربى.

٢٤- تفسير سورة الفتح والفتوح المتصلة بها للدكتور أحمد السيد على الكومى الأستاذ بكلية أصول الدين.

٢٥- تفسير القرآن العظيم لأبى محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى سنة ٢٨٣ هجرية طبعة دار الكتب العربية الكبرى (عيسى البابى الحلبى) سنة ١٣٢٩ هـ.

٢٦- تفسير المراغى - تأليف الأستاذ أحمد مصطفى المراغى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى.

٢٧- تفسير القرآن الكريم - تأليف محمود محمد حمزه وحسن علوان ومحمد أحمد برانق مطبعة دار المعارف بمصر.

كتب السنة:

٢٨- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخارى.

٢٩- الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج.

٣٠- السنن لأبى داود سليمان الأشعث السجستانى.

٣١- صحيح الترمذى للإمام أبى عيسى محمد الترمذى.

٣٢- سنن النسائى.

٣٣- سنن بن ماجه.

٣٤- الموطأ للإمام مالك.

٣٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل - الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى المطبعة اليمنية بمصر ١٣١٣هـ.

٣٦- مستدرك الحاكم.

٣٧- صحيح ابن حبان

٣٨- سنن البيهقى

٣٩- تيسير الوصول إلى حديث الرسول للعلامة الزبيدى الشافعى.

٤٠- فتح البارى - شرح صحيح البخارى للشيخ الحافظ أبى الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن محمد بن حجر العسقلانى الشافعى - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٩ هـ.

٤١- شرح النووى لصحيح مسلم - المطبعة المصرية ومكتبتها.

٤٢- المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبو داود. تأليف محمود محمد خطاب السبكى الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ مطبعة الاستقامة.

٤٣- الفاصل بين الراوى والواعى للرامهرمزى.

٤٤- منتقى الأخبار.

٤٥- المعلم بشرح المختار من صحيح مسلم - محمد محمد السماحى أستاذ التفسير الحديث بكلية أصول الدين - دار الطباعة المحمدية - درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة.

علوم القرآن:

٤٦- مناهل العرفان فى علوم القرآن - تأليف محمد عبد العظيم الزرقانى - طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه - دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٢ هـ طبعة ثالثة.

٤٧- الإتقان فى علوم القرآن - تأليف جلال الدين السيوطى طبعة ثالثة سنة ١٢٧٠هـ - سنة ١٩٥١ م مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.

٤٨- البوهان للزركشى للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه.

٤٩- البيان فى مباحث علوم القرآن تأليف عبد الوهاب عبد المجيد غزلان الأستاذ فى التفسير والحديث بكلية أصول الدين مطبعة دار التأليف.

٥٠- المصاحف لابن أبى داود.

٥١- علوم القرآن تأليف عبد العظيم أحمد الغباشى الأستاذ فى التفسير والحديث بكلية أصول الدين - مطبعة دار التأليف سنة ١٣٨٢ هـ، ١٩٦٢م.

كتب السيرة والتاريخ:

٥٢- كتاب الروض الأنف فى تفسير ما أشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام - طبع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ، ١٩١٤م.

٥٣- البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير - مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.

٥٤- الطبقات الكبرى - لابن سعد دار بيروت - صدر فى بيروت سنة ١٣٧٦ هجرية.

٥٥- تاريخ الأمم الملوك - الإمام الطبرى - مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٢٥٧ هجرية.

٥٦- إمتاع الأسماع للمقريزى.

٥٧- فتوح البلدان - ابن الحسن البلاذرى - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥٩ هجرية.

٥٨- فتوح الشام للأزدى.

٥٩- تاريخ مكة للأزرقى.

٦٠- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير - ابن سيد الناس - مطبعة القدس ومطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥٦ هجرية.

٦١- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى مدير عام الدعوة بوزارة الأوقاف- مطبعة السعادة - الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٤ هـ - سنة ١٩٦٤م.

٦٢- الرسول القائد - للواء الركن - محمود شيت خطاب - دار القلم طبعة ثالثة.

٦٣- حياة محمد - لمحمد حسين هيكل - الطبعة التاسعة - طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٥م.

٦٤- الوحى المحمدى - محمود سيد رضا.

٦٥- نور اليقين فى سيرة المرسلين للشيخ محمد الخضرى الطبعة السابعة عشرة سنة ١٩٦٢م.

٦٦- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

٦٧- محمد المثل الكامل للمرحوم جاد المولى.

٦٨- السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة تأليف محمد محمد أبوشيبة الأستاذ بكلية أصول الدين - طبع دار الأنوار.

٦٩- تاريخ الأمة العربية - القسم الثانى عصر ظهور الإسلام تأليف عبد الفتاح على شحاتة - أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين - الطبعة الأولى - مطبعة الأمانة ٣٠ شارع جزيرة بدران شبرا.

٧٠- الخلافة الإسلامية - القسم الأول - (عصر الراشدين) الكتاب الأول بقلم عبد الحميد بخيت - الأستاذ بكلية أصول الدين - الطبعة الثانية.

٧١- من أخلاق النبى للدكتور أحمد الحوفى - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

جغرافيا:

٧٢- معجم البلدان - ياقوت الحموى - طبعة دار السعادة بمصر سنة ١٣٢٣ هجرية

الفقـه:

٧٣- كتاب الأم رسالة الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية.

٧٤- الهداية شرح بداية المبتدئ تأليف أبى الحسن على بن بكر بن عبد الجليل الرشدانى المرغينانى - الطبعة الأخيرة - مطبعة البابى الحلبى وأولاده بمصر.

٧٥- المغنى لابن قدامة الحنبلى.

٧٦- طبقات الشافعية للسبكى.

٧٧- الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية - سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى.

٧٨- كتاب الخراج للإمام أبو يوسف - المطبعة السلفية سند ١٣٤٦ هجرية.

٧٩- كتاب الأموال لأبى عبيد.

٨٠- الفروع للحنابلة - لابن مفلح

٨١- نيل الاوطار شرح منتقى الأخبار محمد بن على بن محمد الشوكانى الطبعة الأخيرة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وشركاه.

٨٢- زاد المعاد فى هدى خير العباد - محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين للإمام بن القيم الجوزى - المطبعة المصرية ومكتبتها سنة ١٣٧٩ هجرية.

٨٣- السياسة الشرعية لابن تيمية.

٨٤- إحياء علوم الدين - للإمام أبى حامد الغزالى - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى وشركاه.

٨٥- الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام - المستشار على على منصور يصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٨٤ هـ سنة ١٩٦٥م دار مطابع الشعب.

٨٦- فقه السنة - تأليف الشيخ السيد سابق - الناشر دار الكتاب العربى بمصر طبعة خامسة.

كتب اللغة:

٨٧- لسان العرب.

٨٨- القاموس المحيط.

٨٩- قاموس قرآنى - جمع وتأليف حسن محمد موسى - مطبعة خليل إبراهيم - أسكندرية سنة ١٩٦٦م ١٣٨٦هجرية.

٩٠- المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى - تأليف أحمد بن محمد بن الفيومى - الطبعة السابعة بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سند ١٩٢٨م.

٩١- أساس البلاغة تأليف جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى.

٩٢- المختار الصحاح للشيخ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى - الطبعة السابعة - المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣.

٩٣- المحتسب لابن جنى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٩٤- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى ج٤ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٩٥- دائرة المعارف العربية للبستانى.

٩٦- دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية.

كتب التوحيد:

٩٧- المواقف للقاضى عبد الرحمن الايجى شرح السيد الشريف ومحمد الجرجانى.

٩٨- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده.

كتب القراءات:

٩٩- متن الشاطبية فى القرآت السبع للإمام الشاطبى.

١٠٠- شرح الشاطبية للضباع.

١٠١- مذكرة فى القرآت - على خليل الأستاذ بكلية أصول الدين.

كتب متنوعة:

١٠٢- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام - محمد الغزالى.

١٠٣- تأملات فى الدين والحياة محمد الغزالى.

١٠٤- كفاح دين محمد الغزالى.

١٠٥- الزحف الأحمر محمد الغزالى.

١٠٦- المسلمون وراء الستار الحديدى - للأستاذ عيسى يوسف آل بتكين.

١٠٧- كارثة القرم الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى للأستاذ يوسف ولى شاه.

١٠٨- ميثاق العمل الوطنى - المقدم إلى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية سنة ١٩٦٢م.

١٠٩- المسلمون فى الهند تحت حكم الإرهاب لمؤلفه السيد عبد الله دهلوى.

١١٠- الدستور الهندى سنة ١٩٤٧ مادة ٩، ١٠، ١٩، ٢٠.

١١١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ أبى الحسن الندوى.

١١٢- الجهاد فى سبيل الله للأستاذ أبى العلاء المودودى.

١١٣- مجلة مجلس الدولة الصادرة سند ١٩٦٠ فى مقالة ميثاق الأمم والشعوب فى الإسلام للدكتور عبد الفتاح حسن.

١١٤- ليس من الإسلام - للغزالى.

١١٥- انجيل بر نابا.

١١٦- انجيل يوحنا.

١١٧- انجيل متى.

١١٨- العهد القديم والجديد.

١١٩- كتاب الإسلام فى التاريخ الحديث للمؤلف الصليبى ولفورد كانتول سميث.

١٢٠- كتاب الحيوان للجاحظ.

١٢١- روض الشقيق للأمير شكيب ارسلان.

١٢٢- قاموس الكتاب المقدس - للدكتور جورج بوست.

١٢٣- ذخيرة الألباب للكاثوليك واصله فرنسى الطبعة الرابعة عشرة سند ١٩٢٩م.

١٢٤- تاريخ المطارنة المفصل للمطران الدبسى.

١٢٥- كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية - للدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ.

١٢٦- كتاب الغارة على العالم الإسلامى للأستاذين اليافى ومحب الدين الخطيب.

١٢٧- كتاب الدعوة إلى الإسلام لارنولد ترجمة الدكتور إبراهيم حسن وأخيه.

١٢٨- رسالة للشيخ شبلى النعمانى الهندى نشرت فى المجلد الأول من المنار.

١٢٩- لامية البوصيرى.

١٣٠- مجلة الأزهر السنة الخامسة الثلاثين.

١٣١- مذكرة فى تفسير أول سورة التوبة من إملاء الدكتور أحمد السيد على الكومى أستاذ التفسير بكلية أصول الدين.

المحتويات